ابن خلدون

البحر المتوسط في القرن الرابع عشر

قيام وسقوط إمبراطوريات

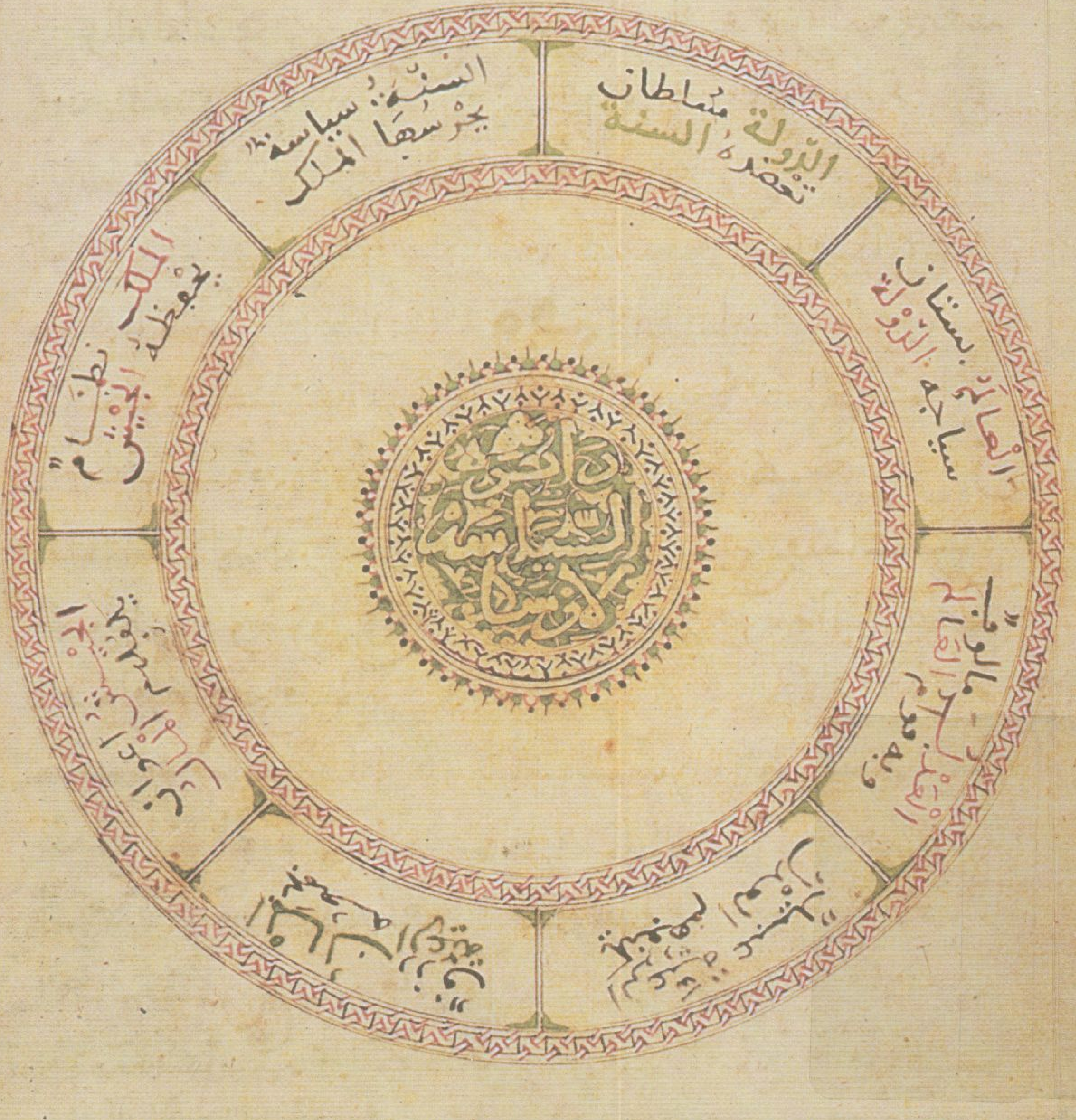

"... الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء"

ابن خلدون

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

ابن خلدون

البحر المتوسط في القرن الرابع عشر

قيام وسقوط إمبراطوريات

ابن خلدون
البحر المتوسط في القرن الرابع عشر
قيام وسقوط إمبراطوريات

معرض بالقصر الملكي في إشبيلية
مايو – سبتمبر 2006

دراسات

التنسيق العلمي
ماريا خيسوس فيجيرا مولينز

تقديم النسخة العربية
إسماعيل سراج الدين
المنجي بوسنينة
مشعل بن جاسم آل ثاني

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية
Fundación
El legado andalusí
المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)
[Ibn Khaldun].Arabic
ابن خلدون : البحر المتوسط في القرن الرابع عشر : قيام و سقوط إمبراطوريات. - الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، [2007]
ص، سم.
تدمك 978-977-6163-80-5

"معرض بالقصر الملكي في أشبيلية مايو - سبتمبر 2006"—ظهر صفحة العنوان.
ترجمة لكتاب: Ibn Khaldun : the Mediterranean in the 14th century : rise and fall of Empires.

1. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، 732-808 هـ-- معارض. 2. إقليم البحر المتوسط -- حضارة -- معارض.
3. إقليم البحر المتوسط -- تاريخ -- معارض. 4. إقليم البحر المتوسط -- وصف و رحلات -- معارض. أ. العنوان.

ديوي – 907.202074 2007335742

ISBN 978-977-6163-80-5

رقم الإيداع 2007/13733

© مكتبة الإسكندرية (2007) -- جميع الحقوق محفوظة

الاستغلال غير التجاري

تم إصدار المعلومات الواردة في هذا الكتاب للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية. وإنما نطلب الآتي فقط:

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها "مصدر" تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يشار إلى أنه تم بدعم منها.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذا الكتاب، كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا الكتاب، يرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. 138 الشاطبي، الإسكندرية، 21526، مصر. البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

طبع في القاهرة - جمهورية مصر العربية
3000 نسخة

هذا المعرض تحت رعاية السمو الملكي

فخامة الملك خوان كارلوس الأول والملكة صوفيا

لجنة الشرف

هذا المعرض تحت رعاية المركز الثقافي لحكومة الأندلس المحلية

رئيس حكومة الأندلس المحلية
مانويل شافيز جونثالث

مجلس الرئاسة
جاسبر ثارياس اريفالو

المجلس الثقافي
روزا توريس ريث

وزارة الشئون الخارجية
ميجيل آنجل موراتينوس

وزارة الثقافة
كارمن كالڤو پوياتو

وزير الدولة للشؤون الخارجية وأمريكا اللاتينية
برنادينو ليون جروس

وزير الدولة للتعاون الدولي
ليري باخين اريولا

A.E.C.I
ريكاردو مارتينث فاثكويث

SEACEX
كارمن كورديرا مورتريرو

مجلس مدينة إشبيلية
ألفريدو سانشيز مونتسرين

القصر الملكي في إشبيلية
خوسيه ماريا كابيثا

التنسيق
مؤسسة التراث الاندلسي

بالتعاون مع
اليونسكو، مؤسسة Nodo، وزارة السياحة والتجارة والرياضة، وزارة التعليم، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مؤسسة الثقافات الثلاث، المؤسسة الأوروعربية، لجنة ابن رشد، ONCE، الأمين العام للشئون الثقافية الخارجية (حكومة الأندلس المحلية)، نائب التوجيه لتشجيع الفنون الجميلة (وزارة الثقافة الاسبانية)

الراعي الرئيسي FOUNDATION EL MONTE الرعاة TELEFÓNICA, MAPFRE

نشر المشاريع **مؤسسة خوسيه مانويل لارا**

كبير الأمناء
خيرونيمو بايث لوبيث

الأمناء العلميين
انيماكولادا كورتيس مارتينيز، اجناثيو هنارس كويلار، رافيل لوبيث جيزمان، ڤيرجيليو مارتينيز اناموراداو، حميد تريكي، أنطونيو توريموشا سيلفا، رافيل ڤالنسيا رودريجيز، ماريا خيسوس ڤيجيرا مولينز

فريق عمل النسخة العربية

تقديم النسخة العربية

إسماعيل سراج الدين

المنجي بوسنينة

مشعل بن جاسم آل ثاني

هيئة تحرير النسخة العربية

خالد عزب

محمد السيد حمدي

المراجعة العلمية للنسخة العربية

أحمد مختار العبادي

المراجعة اللغوية

محمد خضر

أحمد محمد شعبان

جرافيك

هبة الله حجازي

هذا المعرض لم يكن ممكنا تنفيذه بدون الدعم والمساعدة التي تلقيناها من المؤسسات والمتاحف والشخصيات التالية، والتي تضمنها هذا الثبت أدناه، إذ لا يسعنا إلا أن نعرب لهم عن عميق امتناننا.
تتوجه المؤسسة بشكر خاص لجميع هؤلاء:

الجزائر

المتحف الوطني للآثار، الجزائر
لأخضر درياس

بلجيكا

المتحف الملكي للفن والتاريخ، بروكسل
آنا ماريا كاهن ديهايس، دوروثي هوبنس
ألكسندر بورتر

الدانمارك

مجموعة ديفيد، كوبنهاجن
جيلد فون فولساش

إسبانيا

أرشيف التاج الأرغواني
كارلوس لوبيز، ألبيرتو تورا

مجلس مدينة بلنسية
أنكارنا فوريا مارتينز

مكتبة كولومبيني، إشبيلية
نوريا كاسكوتي دي برادو

مكتبة المستشفى الملكي، جامعة غرناطة
ديفيد أجويلار، آنجل اوكون

المكتبة الوطنية، مدريد
روسا ريجاس، سيرجيو مارتينيز اجليسياس، الينا لاجونا ديل كوخو

دار السك الوطنية، مدريد
خوان تيودورو، ايزابيلا انكيناس

كاتدرائية إشبيلية
فرانسيسكو اورتيز، تيريزا لاجونا

كاتدرائية طليطلة
سانتيجو كالفو بالنسيا

مؤسسة لازارو جالديانو، مدريد
امبارو لوبيز، كارمن اسبينوسا

مؤسسة رودريجوز اكوستا، غرناطة
ليون هيرنانديز كانوت

معهد بالنسيا دون خوان، مدريد
رافايل جارثيا اورمايشيا، كريستينا بارتياريو

متحف بروفنسال الآثري، غرناطة
كارلوس بيلشيز بيلشيز

متحف بروفنسال الاثري، اشبيلية
كونشا سان مارتن، فرناندو فرنانديز، ديجو اوليفا، اميليا موراليز

المتحف الوطني للآثار، مدريد
روبي سانز جامو، انجيلا فرانكو

المتحف الأثنولوجي والآثري، قرطبة
ماريا دولوريس باينا القنطرة

متحف البلدية، الجزيرة
أنطونيو تورموشي، بيلار بينتور

متحف الفنون الشعبية والتقليدية، اشبيلية
أنطونيو نيمون دلجادو

متحف الخزف، برشلونة
ماريا أنطونيو كازانوفاس

متحف سبتة
حوسي مانويل هيتا ريز

متحف بيت الأيقونات الكبير (مجموعة أونيفا– أوتزوب)، مدريد
بالوما اونيفا سانز

متحف مالقة
رافايل بورتاس تريكاس، سيرجو مارتنيز ريشي

متحف نافار، بمبلونة
ميجيل آنجل هورتادو الفارو

متحف ترويل
كارمن اسريش خايمي

المتحف الحربي، مدريد
لويس فرناندو تونيز مارتنيز، كارولين بيلتران

متحف الفن الوطني لقطلونية
سوزانا لوبيز جونزاليز و ماريا خوديز

متحف الخزف الوطني، بلنسية
خايمي كول كونيسا

متحف تالير ديل مورو، طليطلة
رافايل جارثيا سيرانو

كنيسة القديس توما و السلفادور
الأب جوميز هيدالجو و خوان مانويل فيررا

متحف الحمراء وجنة العريف، غرناطة
ماريا ديل مار فيلافرانكو، بوريفيكاكين مارتينتو، سيلفيا بيريز

الأكاديمية الملكية للتاريخ، مدريد
فيشر جونزاليز–ابارا

الترسانة الملكية، مدريد
الفارو سوئر ديل كامبو

مكتبة الإسكوريال الملكية، مدريد
خوسيه لويس فيل مرينو

التراث الوطني
خوسيه انطونيو بوردايو هويدوبرو، خوان كارلوس دي لا ماتا جونزاليز، كريستينا جارثيا ميدينيا

وزارة الثقافة
خوليان مارتينز جارثيا، مارينا شينشيا، ايميلي اجليو

الولايات المتحدة

متحف المتروبوليتان للفن، نيو يورك
ستفانو كاربوني، فرانسيس ريدينج والاسي

فرنسا

المكتبة الوطنية، باريس
جان نويل جانيني، ماري جونفيفي جوسدون، ناتلي ليمان.

معهد العالم العربي، باريس
برهام علوي، أريك ديلبونت، رونالد جيل، يانس كويكاس

متحف اللوفر
راشيل بيوجان ديشامب، صوفي ماكاريو

المتحف الوطني للعصور الوسطى، حمامات كلوني، باريس
أليزابيث تابوريت ديلاهاي، الين ديكوش

اليونان

متحف بيانكي، أثينا
مينا موراتيو

إيطاليا

مكتبة أمبروسيان، ميلان
بير فرانسيسكو فوماجالي، جيانفرانكو رافياسي

مكتبة ميدكيا لوريرنزيانا، فلورنسا
فرانكا اردويني، أنا ريتا فانتوني

مكتبة ريكارديانا، فلورنسا
جيوفانا لازري

متحف كورير، البندقية
جياندومينيكو روماني

ليختشتاين

مؤسسة فن فورسيا، فادوز
شيخ رفعت الأرض، محمد بشر، دبرا نويل أدمز

المغرب

المتحف الآثري، الرباط
متحف دار باسا، فاس
متحف أودياس، الرباط
محمد أشعري (وزير الثقافة)
محمد أ. الهجراوي: رشيد أرهابي، أحمد عطاري

البرتغال

مؤسسة كالوستي جولبنكين، لشبونة
خوانو كاستيل برانكو بيريرا، ماريا كويروز ريبرو

المملكة المتحدة

مجموعة الناصر د. خليل للفن الإسلامي (مؤسسة نور)، لندن
نهلة ناصر، خ. مايكل روجرز، أسر اسبي

جامعة كامبردج
فريدريك نيسين، بن اوتويت

متحف فيكتوريا وألبرت، لندن
ربيكا والاسي

تونس

متحف قرطاج
متحف سيدي قاسم والغزالي
متحف سيدي بوخرسان، تونس
متحف رقادة، القيروان
محمد عزيز بن عاشور (وزير الثقافة)
محمد بن مامي، عبدالحكيم جافسي سلامة

سوريا

المتحف الوطني
باسان جاموس، دينا باكور

السويد

متحف تاريخ الدول، المتحف التاريخي، استوكهولم
ميخائيل جاكسون، اليزابيت ريجنر

السفارات في إسبانيا

المغرب، تونس، الجزائر، تركيا، مصر، الأردن، سوريا

وأيضا:
عبدالعزيز دولاتي (اليسكو)، عزيزة بنناني (اليونسكو)، فرنسيسكا بلجويزولوس (البرلمان الأوروبي)، مصطفى طليلي، أميمة عواض، ألبرتو كانتو، حليمة فرهارت، أجناكيو فرنانديز جنرمينديا، روبن جونزاليز.

ارتبطت الإسكندرية والأندلس بجسور تاريخية وثقافية وطيدة؛ فقد كانت الإسكندرية ملجأ وملاذًا للأندلسيين– علماءً وطلابًا.. زوارًا وعابري سبيل– فلا غلو إذ اعتبرنا الإسكندرية هي أكثر مدن البحر المتوسط ارتباطًا بالأندلس، وكيف لا وقد قامت على أرضها جمهورية أندلسية في القرن الثاني الهجري، كما كانت الإسكندرية مأوى للعديد من الأعلام الأندلسيين الذين صبغوا الحياة السكندرية بالطابع الأندلسي؛ كالإمام الشاطبي القادم من مدينة شاطبة والذي يحمل اسمه واحد من أشهر أحياء الإسكندرية وبه تقع المكتبة الحديثة تفتح ذراعيها لعالم البحر المتوسط، وأيضا الإمام المرسي أبو العباس القادم من مدينة مرسية، وأحد أعلام الصوفية الذي عاش بالإسكندرية وله بها مسجد كبير يطل على البحر المتوسط، ويعتبر من أحب الأماكن زيارة لأهل الإسكندرية.

كما كانت الإسكندرية محطة عبور رئيسية للحجاج الأندلسيين في طريقهم إلى مكة المكرمة؛ منهم من اتخذها محطة عبور.. ومنهم من أخذهم هواها فعشقوها وأقاموا فيها؛ من هؤلاء كان ابن خلدون الذي وصل الإسكندرية في طريقه إلى الحج، لكنها كانت مدخله إلى مصر والقاهرة التي عاش فيها ما يزيد عن ربع قرن من الزمان، نال خلالها الحظوة والمناصب في بلاط سلاطين مصر العظام من المماليك، عالمًا وقاضيًا ومحاضرًا في معاهدها ومدارسها.

واليوم تستمر احتفالاتنا بمرور ستة قرون على رحيل هذا المبدع الذي سبقت أفكاره وتحليلاته عصره؛ فقدم لنا الحلول والتحليلات لمنشأ الأحداث ومراحل تبلورها، من خلال صدور النسخة العربية من كتاب "ابن خلدون.. البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات"، في إطار احتفالنا بهذا العالم والمفكر في مكتبة الإسكندرية التي حرصت على مواكبة هذا الحدث، من خلال عقد المؤتمرات والندوات، وتقديم كتاب "مع ابن خلدون في رحلته" الذي قدم للقارئ العربي قصة حياة ابن خلدون منذ ميلاده حتى رحيله بصورة مبسطة، واليوم نقدم هذا الكتاب الذي يعتبر باكورة التعاون مع مؤسسة التراث الأندلسي، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو)، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في قطر. هذا الكتاب يعد واحدًا من أهم الكتب الصادرة في مطلع القرن الحادي والعشرين؛ حيث يكشف جوانب عدة من حياة وفكر ابن خلدون ومحيطه المكاني في حوض البحر المتوسط خلال القرن الرابع عشر.

وقد كانت فكرة صائبة من الدكتور خالد عزب عندما طرح علي ترجمة هذا الكتاب بعد عودته من إسبانيا في صيف 2006، لما يطرحه هذا العمل من موضوعات جديدة ومثيرة، كانت دافعًا لتعاون بين مكتبة الإسكندرية ونخبة من المؤسسات الثقافية الإسبانية والعربية؛ من أجل انجاز مشروعات ثقافية كبرى تحدث نقلات نوعية في الثقافة العربية: وتترك للأجيال القادمة تراث ينبون عليه ويتذكرون ماضي حضارة عظيمة قامت في جنوب أوروبا، كانت مشعلاً للعلم ومصباحًا للمعرفة لمدة ثمانية قرون.. إنها حضارة الأندلس.

إسماعيل سراج الدين
مدير مكتبة الإسكندرية

إنه لمن دواعي السرور والاعتزاز أن أقدم باسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) هذا الكتاب القيم الذي يتناول علمًا من أعلام الحضارة العربية الإسلامية، بل الحضارة الكونية، لا يزال، بعد ستة قرون من وفاته "يملأ الدنيا ويشغل الناس" بما أورده في مقدمته من أفكار صائبة ونظريات رائدة بالنسبة إلى عصره، لكنها ما فتئت إلى اليوم تثير القراءات المختلفة وتدعو في كل حين إلى اكتشاف جديد لترفع النقاب عن عبقرية خارقة وعن حداثة سابقة لأوانها، حتى إننا كعرب ومسلمين، كثيرًا ما أصبحنا نرى ابن خلدون معاصرًا لنا، بل لعله – من بعض النواحي – سابق علينا يدعونا إلى اتباع مساره الإبداعي وسبك مسلكه العلمي.

لذا فإن الحديث، من خلال هذا الكتاب، عن استمرارية الفكر الخلدوني من القرن الرابع عشر إلى عصرنا الحاضر ليس بالأمر الغريب علينا في عالمنا العربي. فقد كان ابن خلدون ملهما لرواد حركات الإصلاح العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بما أفشاه في أفكارهم وفي كتاباتهم من معاني قوة الدولة ووهنها وأسباب ذلك، وبما أوحاه من "عبر" تاريخية ودروس سياسية.

وكما كان ابن خلدون في الماضي نبراسًا للمصلحين في الوطن العربي فإنه يثير فينا اليوم، كما أثار فيهم قبلنا، رؤى وتصورات قد تنير لنا المستقبل وتوضح أمامنا معالم الطريق، وذلك من خلال قراءات إسقاطية لفكر ابن خلدون وتراثه العلمي.

ومما يمكن أن نستوحيه من الفكر الخلدوني هو تلك الكونية التي يندرج فيها علمه، سواء من خلال إقدامه على كتابة تاريخ للإنسانية جمعاء تقريبا من العرب إلى العجم والبربر "ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، أو من خلال ما احتوته مقدمته من مقولات ونظريات يصلح جانب كبير منها لأن يطبق على الواقع الإنساني في عموميته وشموله.

وهكذا كان ابن خلدون، فكرًا وإبداعًا، في ملتقى العديد من الحضارات، كما وجد نفسه، على مستوى تجربته الحياتية، على خطوط التماس بين الحضارة العربية الإسلامية وحضارات أخرى، وهو يقابل بيدرو الأول ملك قشتالة غربًا، والقائد المغولي تيمورلنك شرقًا، فكان رجل الحوار ورسول السلام رغم ظروف الحرب والمواجهة التي أحاطت بالمقابلتين. واليوم يحق لنا، بصفتنا أحفاد ابن خلدون، أن نفخر بهذا الجانب من ميراثه ذي البعد الكوني والمتعلق بالحوار مع الآخر، حتى في أحلك ظروف الصدام والصراع.

واستمرارًا لهذا الحوار، يسعدنا أن نلتقي اليوم مع مؤسسة "التراث الأندلسي" في نشر هذا الكتاب حول ابن خلدون، لنحيي بذلك إرثا مشتركا يجمعنا، عربا وأسبان، ويتجاوز ابن خلدون وعصره إلى حقبة تاريخية أوسع كانت الأندلس خلالها فضاء للقاء بنّاء بين الثقافات والديانات، ثم معبرًا لانتقال الرصيد الحضاري الكوني المتراكم لدى العرب والمسلمين إلى فضاء حضاري آخر، بحكم نوع من الآلية التاريخية التي استشف ابن خلدون بعضًا من مظاهرها وهو يشهد في عصره بداية تحول عجلة القيادة الحضارية إلى الغرب المسيحي، مؤذنة بعصر النهضة الأوروبية.

وفي هذا السياق، يأخذنا هذا السفر النفيس بما يشتمل عليه من مقالات في رحلة تاريخية عبر الزمان والمكان، وبالأخص إلى القرن الرابع عشر الميلادي، مستعرضًا أهم الأحداث والظروف السياسية التي عاصرها ابن خلدون، وما كان يعتري حوض البحر المتوسط من تقلبات سياسية واجتماعية واقتصادية كانت المخاض لولادة عصرنا الحديث، ولعل الفكر الخلدوني كان ومضات النور التي قهرت الظلام وانبثقت عنه كل الحركات الإصلاحية في العالم العربي.

وإنه لمن دواعي ارتياحي أن تتيح ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية الفرصة لتعاون ثلاثي بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) ومكتبة الإسكندرية والمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في دولة قطر: وهو بداية طيبة لتعاون مثمر وبناء بين هذه المؤسسات الثلاث، يضاف إليه الإسهام القيم لمؤسسة "التراث الأندلسي" الإسبانية التي احتفلت مع العالم العربي بابن خلدون وبتراثه وسمحت بترجمة هذا العمل إلى لغة الضاد.

فإلى الجميع أوجه جزيل شكري وامتناني: راجيًا أن يجد القارئ في هذا الكتاب صدى الرسالة التي وجهها إلينا ابن خلدون قبل ستة قرون.

المنجي بوسنينة

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

ما يزال ابن خلدون –على الرغم من مرور ستمائة عام على رحيله– في حاجة إلى إعادة اكتشاف من قبل العلماء، وأن يكرم على أعلى مستوى عربيًا وعالميًّ، وأن يحتفي به العرب احتفاءً يليق بمن في مثل مكانته؛ لما يمثله هذا الجانب من أهمية في إعطاء المثل والقدوة لأبنائنا وشبابنا من خلال شخصية هذا المبدع الذي خرج من رحم الحضارة العربية الإسلامية التي سادت العالم قرونًا وأضاءت ظلمات الشعوب.

كانت حياة ابن خلدون صاخبة لا تعرف الهدوء، سلسلة من النجاحات والإخفاقات، ساعدت على توسيع ملاحظاته وتنمية معلوماته. كان لديه الإحساس والإدراك بقيمة ما تجمع لديه من تجارب؛ لهذا قرر الانزواء عن الناس ليكتب في صفاء وعناية فهم مقدمته العظيمة.

كان العصر الذي عاش وعمل وفكر خلاله ابن خلدون – القرن الرابع عشر– واحد من أكثر القرون في حياة البشرية تحولاً وانتقالاً. تحول وانتقال نحو التفكك والاضمحلال في العالم العربي.. وتحول وازدهار نحو النهوض والانبعاث في العالم الغربي؛ أي تحول وانتقال بين ضفتي البحر المتوسط؛ المكان والمجال الذي تنقل من خلاله ابن خلدون ما بين تونس والمغرب والأندلس ومصر.

لقد عاش ابن خلدون هذه المرحلة الصاخبة، فحكم عليها –لا بوصفها حالة عادية أو طبيعية– بل بوصفه طور انحدار. لقد كان ابن خلدون يتمتع إلى حد كبير بالقدرة على الاتصال والانفصال؛ إذ يتصل بالحياة اتصال المشارك فيها والعامل في وجوه نشاطها، ثم ينفصل عنها، ويستقل بنفسه يتأملها.. ويدرسها ويحللها يتغلغل في بواطنها ويخالطها ويسبر أغوارها، ثم يحلق فوقها ويجعلها موضوع درسه؛ فيبحث فيها بحثًا موضوعيًا يعتمد على التحليل والتعليل، مستنبطًا النظم، ومستخرجًا النواميس والقوانين.

كان لأصل ابن خلدون أثره في تشكيل شخصيته التي ارتكزت على عنصرين رئيسيين: العلم والسياسة، فقد كان ابن خلدون من بيت علم شهد له الجميع بالتفرد في الأندلس؛ خاصة في إشبيلية. كما كان لدور أجداده السياسي أثره في صقل شخصية ابن خلدون؛ مما جعله رجل فكر موسوعًا بسعة المعرفة ودقة النظر؛ وسياسيًا يعتمد على حسن رأيه وسداد بصيرته في معالجة قضاياها.

واليوم ونحن نقدم هذا الكتاب –"ابن خلدون.. البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات" بالتعاون مع مكتبة الإسكندرية نبراس العلم على ساحل البحر المتوسط وشمس المعرفة في العالم العربي، بمشاركة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) فإننا نقدم إلى القارئ العربي خلاصة أبحاث خمسين عالمًا ومفكرًا؛ قلما يجمعهم مؤلف واحد، تناولوا من خلاله عالم ابن خلدون وزمانه؛ مؤسسين بذلك مستقبلاً لمشروعات مشتركة أكبر وأشمل.

وختاما لا يسعنا إلا أن نردد قول المفكر العربي دكتور فليب حتى "كان ابن خلدون أعظم فيلسوف ومؤرخ أطلعه الإسلام، وأحد أعظم الفلاسفة والمؤرخين في كل العصور".

سمو الشيخ مشعل بن جاسم آل ثاني
رئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
قطر

كانت الأندلس وسوف تظل موقعًا مهمًّا في حياة ونماء حوض البحر المتوسط؛ فهي تقع عند البوابة الغربية لهذه الرقعة، وكانت تمثل مفترق طرق أمام العديد من الحضارات والأجناس والفلسفات من قديم الزمان؛ حيث استقر فيها بعض الناس من داخلها، واستقر فيها بعض آخر حول شواطئها. وبفضل عبقرية هذا المكان، فضلاً عن مقدرة البشر الفطرية الخلاقة، قد قدر لنا أن ننهل من مختلف التيارات الفنية والعقلية والسياسية والاجتماعية، كما أننا من هذا الموقع أصبحنا سفراء لبيت الحكمة العتيد في مجالات الفكر، التي كان لها أبلغ الأثر في تشكيل الهوية الإسبانية والأوروبية.

ومن بين العوامل التي عززت هذا العطاء الحضاري للأندلس ظهور عدد من الأفراد البارزين، نذكر منهم -على سبيل المثال لا الحصر- تارتيسوس Tartessos القديم، كما أن مدائن الأندلس قد اضطلعت بدور رائد في هذه الشبكة المتوازنة بفضل القاعدة الراسخة والهيكل التنظيمي لتاريخ الأندلس.

إن هذه العوامل الثلاثة: العلاقة القديمة الوطيدة مع حوض البحر المتوسط، والطابع العمراني لحضارة الأندلس، وظهور العديد من الأعلام والمشاهير فيها، وعلى رأسهم ابن خلدون - كل هذه العناصر هي التي ساهمت في إثراء هذا المعرض المهم الذي حمل عنوان: ابن خلدون .. البحر المتوسط في القرن الرابع عشر: قيام وسقوط إمبراطوريات، وذلك على أرض القصر المدجن Mudejar أو القصر الملكي في إشبيلية، ما بين شهري مايو وسبتمبر 2006.

وها نحن اليوم نجد أنفسنا مع بدايات القرن الخامس عشر، سنة 1406 على وجه التحديد، والتي توافق الذكرى المئوية السادسة لوفاة المفكر التونسي المنحدر من أصول إشبيلية والذي توفي في مدينة القاهرة. ذلكم هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون.

وبعد أن نغوص في أعماق تلك الحقبة التاريخية الحاسمة -وهي محط الأنظار في هذا المعرض- سوف نمضي في رحلة عبر المكان والزمان بهدف تحليل الجوانب الإيجابية والسلبية بين الشرق والغرب. وصولاً إلى خلاصة مؤداها أن الأندلس بما تحمله من عبق الخبرة تمثل السيناريو الأمثل لتعزيز الحوار بين الحضارات.

وتلك الأهداف النبيلة تنطوي على جهد ثقافي عريض؛ سواءٌ في جانب الشكل أو في المضمون. وبفضل مشاركة العديد من المتاحف والمنظمات والهيئات العامة والخاصة، فإن هذا المنتدى يقدم لنا مقتنيات ووثائق ذات قيمة فنية وتاريخية، هذا إلى جانب معرض تعضده حكومة الأندلس، وبيت الخبرة والتراث "التراث الاندلسي El Legado Andalusi"، وذلك بمشاركة فعالة وتعاون من جانب جامعات مرموقة وأساتذتها.

لقد كتب ابن خلدون في "المقدمة" أو "مقدمة لتاريخ العالمي"، والتي اعتبرها المؤرخ أرنولد توينبي أعظم أطروحة فلسفية كتبت في هذا الموضوع على الإطلاق، يقول: "إن سقوط الخلافة في قرطبة وعاصمتها قد جلب معه سقوط العالم الغربي برمته".

وإنا على ثقة بأن النهضة التي يشهدها الأندلس ومدائنه؛ من أمثال قرطبة وإشبيلية وغرناطة - والتي كان لها بالغ الأثر على حياة ابن خلدون- سوف تقودنا إلى أعتاب ميلاد جديد يبشر بالتقدم والاستقرار بالنسبة لكافة البلدان والمجتمعات في هذه الرقعة من غربي حوض البحر المتوسط.

مانويل شافيز جونثالث
رئيس المركز الاجتماعي الحر - الأندلس

إنّ سمات الحداثة والاستحسان التي ميزت حياة ابن خلدون تهل علينا اليوم في الذكرى المئوية السادسة لوفاته. وابن خلدون بذلك ينقلنا إلى الماضي وإلى حقبة تاريخية مضطربة شهدت أحداثًا تاريخية حاسمة وتوترات قاسية، تحمل بين جنباتها جوانب إيجابية وأخرى سلبية. فلقد شهدت تلك الحقبة سقوط الأندلس، وسقوط بيزنطة، وتوسع الترك، والوباء الأسود، وحرب المائة عام؛ وهي جميعًا أحداث غيرت من مسار البشرية، قام برصدها ابن خلدون ذلك الشاهد على العصر بما لديه من حس ثوري ومصداقية علمية، وهو من سلالة أندلسية.

لقد التزم ابن خلدون بسلطان العقل وبالنظرة النقدية وبالتجرد العلمي والموسوعية الثقافية، الأمر الذي وضعه على أعتاب الحداثة، وهو - كما عبر عن ذلك الأستاذ محمد طلبي "قد تبنى المنهج النقدي بعيدًا عن مجرد النقل، وأخذ بالمنهج العقلاني بعيدًا عن المتواتر". ويشمل عطاء ابن خلدون أصعدة متعددة في المعرفة والعلوم، كما أنه كان رائعًا في تحليل الحقائق ومجريات الحياة اليومية.

إن عمل ابن خلدون بعنوان "التاريخ العالمي" أو "كتاب العبَر" ينطوي على منهجية فذة في تحليل الحضارات، والسلطة، والأمم، والمدائن، والعلوم، والفنون. وهو بعد هذا يقدم مختصرًا يلقي الكثير من الأضواء لينير لنا أحوال عالمنا المعاصر أيضًا؛ ذلك أن تحليلاته الاجتماعية -الاقتصادية تتضمن زخمًا من الأفكار والرؤى والقيم التي تبقى أبدًا على درجة راقية من الحجية والصدق، مع بدايات القرن الحادي عشر.

ويأتي معرض ابن خلدون .. البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، مستهلاً رحلته في موقع شهد حضور ابن خلدون نفسه، وهو موقع مشحون بعبق التاريخ والرموز والدلالات.

ويقام هذا المعرض في ساحة القصر الملكي في إشبيلية؛ وسوف يكون ابن خلدون الشخصية المحورية لهذا المعرض، لكي يبصرنا بالأحداث المضطربة وبالتحولات التي شهدها الغرب في نهايات العصور الوسطى.

وهذه الرحلة القديمة تاريخيًا تكشف لنا عن المراحل المبكرة للفكر المنفرد الواعي والروح التي مهدت الطريق في العصر الحديث. وفي هذه الوقفة مع حوض البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، سوف نلمح بصيص العقل وهو يتطلع إلى الأمام أملاً في خلق إنسانية جديدة تنبني على قواعد العلم، ورائدنا في هذه المسيرة هو ابن خلدون نفسه.

ولقد تولت مؤسسة التراث الأندلسي El Legado Andalusi مهمة إقامة هذا المعرض، وهي بذلك تدعونا جميعًا لأن نبحر في أعماق حوض البحر المتوسط لكي نعاود اكتشاف هذا البحر الزاخر بالتلاقح الحضاري والتربة الخصبة لقيام الحضارات والثقافات المتنوعة.

وسيان إن نظرنا إلى هذا البحر، بحرنا من منظور الماضي أو الحاضر أو المستقبل؛ فلسوف يظل هذا البحر موطنًا للحضارات المتعددة التي تشترك جميعها في جذور وسمات مشتركة.

وإذ يقوم هذا المعرض بتجلية الكثير من الحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في حوض البحر المتوسط، الذي جاب ابن خلدون كل بلدانه منذ ما يربو على ستة قرون مضت، فإنه حريّ بهذا المنتدى أن يوقظ في ضمائرنا تراث ابن خلدون، علنا بذلك نمشي على درب خطاه في قوله: "إن الحاضر يعيد إلى الأذهان وقائع التقابل والتضاد في سابق الأيام، لنهتدي إلى الأمور المشابهة وأيضاً إلى التحديات الطارئة التي تعنّ لنا".

ميجل آنجل موراتينوس
وزير الشئون الخارجية والتعاون الإسباني

لقد عرّف العلامة ابن خلدون التاريخ بأنه علم يثير الإعجاب، نبيلٌ في غاياته وعظيم النفع في التأمل في عواقبه. وكان الرجل يعطي قيمة عظمى للتحليل الدقيق للأحداث، وللنقد المتعقل ولمقارنة الماضي بالحاضر، كقواعد جوهرية لهذه المقاربة التي ترشدنا إلى الطريق الحق. إن عمل هذا المفكر والمؤرخ المرموق، الذي يدقق في قضايا الفلسفة الاجتماعية، كان عملاً سابقا لعصره، يشي بالحداثة قبل أوانها. لقد كان ابن خلدون مهتمًا بعض الأحداث، إلا أنه لم يركن إلى التفسيرات الغيبية في تحليله لتلك الأحداث. لقد كان هم الرجل منصرفًا إلى التدقيق في طبائع الإنسان الاجتماعية وفي حاجته إلى مناصرة القواعد الاجتماعية التي تضع حقيقة التنوع في الحسبان.

وكان ابن خلدون شديد الإيمان بأن جذور كل ثقافة في هذا العالم، رغم خصوصيتها، جذور مشتركة بين أبناء البشرية جميعًا، وبأن إحداها ليست بمعزل عن الأخرى. ومن واقع هذا التواصل تكمن الأصول التي ينبغي التأكيد عليها وتطويرها، إن كنا حقًا نرغب في استخدام أفضل لمصادرنا، بُغية التوصل إلى حال من الاستقرار والحوار المنشود والتفاهم بين مختلف الحضارات.

وهذا المعرض، بما يحويه من مفردات تستحق كل الإعجاب والتقدير، يقدم لنا ساحة جغرافية رحبة عن منعطف مهم في التاريخ، هو حقبة القرن الرابع عشر، فهي حقبة ذات دلالات خطيرة بالنسبة للأوروبيين والعرب المغاربة على حد سواء.

لقد عاشت هاتان الثقافتان جنبًا إلى جنب حول حوض البحر المتوسط، الذي كان يمثل القلب في ضخ أواصر التواصل، كما كان مسرحًا للصراعات والتوسعات وللمعاملات التجارية وللأنشطة الثقافية والفنية. وهذه الرؤية العريضة للعلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الحضارتين، من المنظور الذي قدمه العلاّمة ابن خلدون، تؤكد من جديد على حاجتنا إلى تحليل التاريخ في كليته دون تجزئة، لكي نتمكن من استيعاب الدرس الذي قدمه لنا في محاولة لتفهم أحوال عالمنا المعاصر المضطرب.

لقد زاوج ابن خلدون بين الفكر والعمل في سعي فلسفي الأفق، ليكشف عن همومه بالأحداث السياسية التي ألمت بعصره. واليوم ونحن نتمعن في خبرته الواسعة نشعر به وكأنه ينقل إلينا من خلال هذا المعرض رؤاه الحصيفة، والتي هي جديرة بكل الإعجاب والتقدير.

كارمن كالڤو پوياتو

وزير الثقافة الإسباني

مدينة إشبيلية ترتبط بروح السماحة وتفهم الآخر، وهذه المشاعر محفورة في ضميرها، ضاربة في جذورها التاريخية، وهي لا تزال باقية حية كقيمة جوهرية وهي تتطلع إلى المستقبل. إن مدينة إشبيلية قد خُطت صفحاتها بمداد التسامح والفهم المتبادل وحب التلاقي.

ونحن إذ نفتح نافذة للإطلالة على الماضي فإنه يتكشف لنا أن إشبيلية صاحبة تراث ثقافي ومعماري بفضل الحضارة الإسلامية في حقبة تميزت بالتألق التقني والازدهار الثقافي. كما أن إشبيلية في الحقبة المسيحية كانت واحدة من المواقع التي أشعت بنورها على عالم تغشاه الظلمات والتعصب الأعمى والعنف، فأسهمت بذلك في تبديد هذه الغشاوة لتقارب بين الشرق والغرب، بين مجتمعات المسيحيين والمسلمين واليهود على حد سواء.

وفي لحظة من هذا التاريخ وصل إلى إشبيلية رحالة من أرض بعيدة، ألا هو ابن خلدون. إن رحلات هذا العلاّمة، الذي ترجع أصوله إلى أصول أندلسية، قد أسفرت عن ظهور مؤلفات بالغة الأثر في تاريخ الفكر الإنساني العالمي. لقد وصل هذا الرحالة الدؤوب في أسفاره إلى إشبيلية سنة 1363 وتعرف عن قرب أحوال المدينة، زمن حكم بيدرو الأول، الملقب تارة "بالقاسي" وأخرى "بالعادل".

لقد بات جليًا للجميع أن الثقافة والمعرفة هما أهم الدوافع وراء السفر والترحال، على مدار التاريخ البشري. ولقد كان للمدائن دائمًا عبقها الجذاب الذي انبثق من قدراتها الخلاقة والمبدعة. وينسحب نفس الشيء على وقتنا المعاصر؛ فالمزاوجة بين الخلق والإبداع هي التي تعطي المدينة العصرية دفعة حيوية.

إن هذا المعرض تحت شعار: ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، والذي يستمر من شهر مايو إلى شهر سبتمبر، بما يحويه من مقتنيات، وتقنيات، إلى جانب القصر الملكي نفسه، كل هذا كفيل بأن يكون نقطة جذب لا تقاوم، لكل من يحبون مدينة إشبيلية وتاريخها، وأيضا لكل الرحالة والسائحين الذين يجعلون من رحلاتهم مساقًا نحو الوعي والنماء الثقافي، ونزهة للمشتاق إلى معاينة الجمال تمامًا مثلما كان ابن خلدون يفعل.

ألفريدو سانشيز مونتسرين
عمدة إشبيلية

ابن خلدون وعصره

34 ابن خلدون وعصره، قيام وسقوط إمبراطوريات
خيرونيمو بايز لوبيز
ترجمة إسحاق عبيد

القرن الرابع عشر: الزمان والمكان

40 عالم ابن خلدون
عبدالسلام شدادي
ترجمة خالد عزب

46 البحر المتوسط، المركز الحيوي للقرن الرابع عشر
إميليو سولا
ترجمة إسحاق عبيد

56 ابن خلدون يحدد الطريق إلى المحيط الأطلسي
ماريا خيسوس فيجيرا مولينز
ترجمة حاتم الطحاوي

أحوال الدولة

64 أصول الدولة الحديثة
رافايل ج. بينادو سانتايا
ترجمة إسحاق عبيد

74 جماعة الفرسان من أصحاب النطاق، من ألفونسو الحادي عشر حتى آل تراستامارا
آنا إخيشاريا أرسواجا
ترجمة إسحاق عبيد

80 بنو نصر في غرناطة وبنو مرين في المغرب
أنطونيو توروموكا سلفا
ترجمة إسحاق عبيد

88 الزيانيون في تلمسان والحفصيون في تونس
حسناء طرابلسي
ترجمة قاسم عبده قاسم

96 المماليك
أحمد مختار العبادي
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

104 قبرص بين الشرق والغرب، مملكة لوزينيان الفرنسية، ملحق للمملكة اللاتينية في مواجهة المماليك
فاسيلوس كريستيديس
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

112 الإمبراطوريات الآسيوية في القرن الرابع عشر
ميشيل برنارديني
ترجمة قاسم عبده قاسم

124 مملكة مالي في القرن الرابع عشر وفقاً لابن خلدون ومعاصريه
عبدالواحد أكمير
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

الحروب، والدبلوماسية، والتوسع

134 حرب المائة عام
فيليب كونتامين
ترجمة إسحاق عبيد

142 الأسلحة المحمولة والأسلحة النارية في الأندلس في القرن الرابع عشر
ألفارو سولر دل كامپو
ترجمة إسحاق عبيد

148 ابن خلدون والتوسع الفرنجي
جابريل مارتينز جروس
ترجمة حاتم الطحاوي

152 التوسع الأراغوني والقطلوني
روسر سالكرو إيمي لوتش
ترجمة إسحاق عبيد

160 تخوم غرناطة
خوزيه رودريجز مولينا
ترجمة إسحاق عبيد

170 فشل اللقاء بين ابن خلدون وبيدرو الأول ملك قشتالة
جان بيير مولينيا
ترجمة حاتم الطحاوي

176 قدوم الأتراك والمغول
ميجيل آنخل دي بونيس ايبارا
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

184 ابن خلدون وتيمورلنك
رافيل بالنسيا
ترجمة أحمد نبيل

188 سفارة إنريكي الثالث القشتالي إلى تيمورلنك في الفترة الأخيرة من زمن ابن خلدون
فرانسيسكو لوبيز استرادا
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

التجار، والطرق، والبضائع

194 مدينة عظيمة لملك عظيم، مدن شرقية وغربية وطرق تجارية في زمن ابن خلدون
كريستين مازولي - جوينتار
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

206 التجارة في العصور الوسطى المتأخرة
خوان ثوثويا
ترجمة لمياء الأيوبي

210 العلاقات البحرية والملاحية في البحر المتوسط في القرن الرابع عشر
جون كلود هوكت
ترجمة لمياء الأيوبي

216 الخرائط في أواخر العصور الوسطى
ميرثي كوميز
ترجمة حاتم الطحاوي

228 ابن خلدون الرائد
فابيان استابيه
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

234 الدورات الاقتصادية: الازدهار، الكساد، التعافي
أنطونيو جارسيا ليزانا
ترجمة لمياء الأيوبي

240 ابن خلدون والعملة
ألبرتو كانتو جارثيا
ترجمة لمياء الأيوبي

246 الصناعات المتوسطية في القرن الرابع عشر
ريكاردو كوردوبا دي لا لاف
ترجمة إسحاق عبيد

علم السكان، ونهاية العالم، والعلاج

254 الوباء الأسود في عالم القرن الرابع عشر
خوليو ڤالديون باروك
ترجمة إسحاق عبيد

260 وباء الطاعون في بلاد المشرق
حسام مختار العبادي
ترجمة حسام مختار العبادي

264 الهجرات ونزوح السكان
ماريا فيلومينا لوبيز دي باروس
ترجمة محمد عبدالغني

272 الأطروحات الطبية العربية واللاتينية وغيرها في القرن الرابع عشر الميلادي
م. كرنسيسيو فازكويز دي بنيتو
ترجمة حاتم الطحاوي

282 البيمارستانات والمستشفيات
س. ألفاريز دي مورالييز وف. جيرون إيرويست
ترجمة قاسم عبده قاسم

292 ابن خلدون والولادة البشرية
فرانسيسكو سانشيز جاريدو
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

298 الزراعة والطعام في القرن الرابع عشر
كارمن تريلو سان خوسيه
ترجمة إسحاق عبيد

لمحة عن حياة ابن خلدون (1332 - 1406)

310 حياة ابن خلدون ونشاطه السياسي أو العلامة في ترحال على ظهر السفن
طاهر الحمامي
ترجمة إسحاق عبيد

322 بنو خلدون من إشبيلية إلى تونس
حسين اليعقوبي
ترجمة إسحاق عبيد

338 السلطة والمدارس الصوفية في حياة ابن خلدون
محمد القبلي
ترجمة قاسم عبده قاسم

348 المعرفة والقوة والمدارس في زمن ابن خلدون
فيرجيليو مارتينيز اينامورادو
ترجمة محمد عبدالغني

354 التحليل الاجتماعي لابن خلدون
عبدالمجيد شرفي
ترجمة أحمد نبيل

360 مخطوطات ابن خلدون وتحليل لخطه
جمعة شيخة
ترجمة إسحاق عبيد

368 ابن خلدون ومؤرخو القرن الرابع عشر
ماريا شاتز ميللر
ترجمة قاسم عبده قاسم

372 ابن خلدون وعلامات التحديث المعارضة
محمد طلبي
ترجمة أحمد نبيل

382 ابن خلدون في تركيا
برنارد لويس
ترجمة قاسم عبده قاسم

386 مشاهير معاصرون
ماريا لوبيز سانشيز
ترجمة محمود علي الخطيب

إشبيلية في القرن الرابع عشر

396 إشبيلية في أوائل العصور الوسطى
مانويل جونثالث خيمينث
ترجمة حاتم الطحاوي

404 قصر إشبيلية في القرن الرابع عشر
أنطونيو ألماجرو
ترجمة محمد السيد حمدي

410 القصر الملكي في إشبيلية اليوم
خوسية ماريا كابيثا منديث
ترجمة محمد عبد الغني

الخاتمة، والمصادر، والمراجع

420 الخاتمة، تقييم ابن خلدون ومعاودة تقييمه
ماريا خيسوس فيجيرا مولينز
ترجمة إسحاق عبيد

424 المصادر، والمراجع
ماريا خيسوس فيجيرا مولينز
ترجمة محمد السيد حمدي

ابن خلدون وعصره

ابن خلدون وعصره
قيام وسقوط إمبراطوريات

خيرونيمو پايز لوپيز
مؤسسة التراث الأندلسي

ترجمة إسحاق عبيد

"الإمبراطوريات تقوم وتسقط، والأجناس تتدهور إلى اضمحلال، والقوة تنقلب إلى ضعف وخوار، والجمال يذوي إلى تجاعيد وشعر أشيب. ولكن الحياة تمشي في مسيرتها الأزلية. وبذا يتقاطع منحنى الذبول والأفول مع الخط المتصاعد بدفق الشباب. لقد شهدت المعمورة قيام إمبراطوريات عاتية، وأجناسًا أشداء العزم، ومثاليات متعالية، وجمالاً نقيًا طليقًا، وهكذا فإن أنبوب الموت يجري متوازيًا مع تفجر ينابيع الخصب ومسيرة الحياة..."

بنيتو پيريز جالدوس – آيتا تطوان

لا يمكن لأحد أن ينكر أن القرن الرابع عشر كان وقتًا عصيبًا بالنسبة للجنس البشري، فلقد ابتليت البشرية فيه بالكارثة تلو الأخرى، وبات القوم هنا وهناك لا يدرون ما يخبئه الغد لهم. لقد اجتاحت أزمات عنيفة الأراضي المحيطة بحوض البحر المتوسط لتدمر الأخضر واليابس في حوض البحر المتوسط، سواء على الصعيد الداخلي – ضمن أطر الإمبراطوريات القائمة أو الممالك – أو على الساحة الدولية في تناصر القوى الكبرى مع الأخرى. وطبقًا للكاتبة والمؤرخة الأمريكية بربارا تتشمان Barbara Tuchman في كتابها مرآة بعيدة A Distant Mirror ينص سفر الرؤيا على سبع ضربات وليس أربعا وهي: الأوبئة، والحروب، وقطاع الطرق، والحكومات الرديئة التي تجحف في حق رعاياها، والثورات، ثم الحروب الدينية. والواقع أن الطبيعة، والأوبئة، وموجات الجفاف، والتقلبات الجوية قد تضافرت جميعها مع اللاعقلانية البشرية لتجعل من ذلك القرن واحدًا من أشد القرون ضراوة وقسوة في التاريخ. وإلى حد ما، كان ذلك القرن شبيهًا بالقرن الأنكد الذي نعيشه الآن. لقد انزلقت أمم شتى في منزلق خطير، وبذلك شهد هذا القرن سلسلة من الأحداث الخطيرة، والتي قدر لها أن تغير الخريطة السياسية، وأن تعد المسرح لعواقب وتطورات فيما تلي من تاريخ.

ففي الشرق جاء زحف جحافل المغول في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ليجبر أقوامًا على الهرب والهجرة من أوطانها، مثلما فعل الأتراك العثمانيون الذين احتلوا أراضي الأناضول وراحوا يهددون الإمبراطورية البيزنطية.

وفي أوائل القرن الثالث عشر، اجتاح جنود ما يعرف "بالحملة الصليبية الرابعة" القسطنطينية، التي لم تفق بعدها من هذه الهجمة الصليبية الشرسة. وقد عقب أحد الكتاب على هذا الخراب الذي ألم بالقسطنطينية بقوله "إن نهب مدينة القسطنطينية كان خسارة كبرى بالنسبة للحضارة، أشد قسوة من تدمير روما على أيدي الجرمان في القرن الخامس". والواقع أنه لم تتمكن الإمبراطورية البيزنطية بعد تلك الحملة من استرداد عافيتها السابقة أو أملاكها، بل بقيت مبتورة الجناح وممزقة عندما راحت تواجه الزحف العثماني عليها.

ومن عجائب الأمور أن مدينة البندقية، التي ساهمت بقدر وافر في مجال السياسة والثقافة والاقتصاد والتقدم، كانت تحت إمرة حاكم طموح، فاقد البصر في الثمانين من عمره، هو الدوق إنريكو داندولو Enrico Dandolo الذي كان المحرض الأكبر للهجمة الشرسة على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، فزلزل أركانها. ونتيجة لذلك، نجح العثمانيون في توطيد أركان إمبراطوريتهم على سهول الأناضول، وبرزوا على الساحة كقوة عظمى تبني على غايات سياسية موسّعة، وقوة عسكرية متينة، وسلطات تملك الهيمنة على مساحات شاسعة من الأراضي. وفيما بعد، تقدم العثمانيون تجاه البلقان، بعد أن عبروا إلى أوروبا من مضيق الدردنيل، وفتحوا ولايات أوروبية عديدة: مقدونيا وألبانيا وجزءًا كبيرًا من أراضي البلقان. وقد تزامن هذا الزحف العثماني مع فترة من الاضطراب والتشرذم السياسي في المنطقة، مصحوبًا بفُرقة وقطيعة من واقع الكراهية البالغة التي كان الأغارقة الأرثوذكس يضمرونها تجاه أي خطوة تجمع بينهم وبين المذهب اللاتيني الكاثوليكي في نفس المنطقة.

وهكذا باتت القسطنطينية مجرد جزيرة صغيرة في المحيط العثماني. ورغم أنها توسلت مرارًا وتكرارًا إلى الغرب اللاتيني طلبًا لبد العون، فإن صرخاتها ذهبت أدراج الرياح، ولا زالت ذكريات الحملة الصليبية الرابعة رابضة بذكرياتها الأليمة في قلوبهم، وبذلك وجدت بيزنطة نفسها تحت رحمة العثمانيين.

ورغم أن الزحف العثماني التركي قد توقف لحين في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر، نتيجة لظهور الإمبراطورية المغولية بقيادة تيمورلنك، ثم زحفه سنة 1401 وتدميره لمدينة دمشق، حيث قام بزيارته ابن خلدون نفسه وتوسل إليه بعدم تخريب المدينة، رغم هذه الأحداث تابع العثمانيون زحفهم دون مقاومة في السنوات التالية.

بعد موت تيمورلنك، اختفت إمبراطوريته معه بنفس السرعة التي قامت بها، وعليه أصبح المسرح خاليًا أمام العثمانيين الذين استولوا على القسطنطينية نفسها سنة 1453 وفي القرون الثلاثة التي أعقبت

ذلك الفتح، صار الترك أعظم قوة عسكرية في منطقة حوض البحر المتوسط، فلقد قضوا على السلاطين المماليك في مصر، وسيطروا على جل أراضي الشرق الأوسط وعلى أجزاء من شمال إفريقيا.

في أثناء ذلك، عند الطرف الآخر للبحر المتوسط، وقعت أحداث مماثلة سياسيًا وعسكريًا، يمكن اعتبارها الوجه الآخر للعملة. فلقد نجحت الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الأيبيرية في التعزيز من قوتها. وفي منتصف القرن الثالث عشر، نجح فرناندو الثالث القديس El Santo في السيطرة على قرطبة وإشبيلية، تاركًا مملكة بني نصر في غرناطة مملكة إسلامية وحيدة في إسبانيا، على رقعة ضيقة في شرقي الأندلس، عاصمتها غرناطة.

بقيت مملكة بني نصر تحت رحمة المسيحيين الإسبان، وفي نفس الوقت صارت هذه المملكة ملجأ للمسلمين الإسبان، هروبًا من حركة الاسترداد Re-conquest أو عودة الفتح الإسباني. وتلكم كانت نقطة البداية لهجرة المسلمين الإسبان إلى بلاد المغرب. وفي تلك الأثناء، شهدت إمبراطورية الموحدين نكسة قاسية بعد هزيمتهم في معركة العقاب Las Navas de Tolosa سنة 1212، وفي نفس الحقبة أخذت أعداد غفيرة في الهجرة من الأندلس إلى الشمال الإفريقي، خاصة نحو تونس. وقد قام آخر حكام الموحدين لإشبيلية أبو زكريا، بمساندة أسرة الحفصيين، التي قدر لها أن تحكم تونس لعدة قرون تالية. وفي تلك الفترة قررت أسرة ابن خلدون هي أيضًا أن تهاجر إلى تونس، وفيها ولد ابن خلدون سنة 1332.

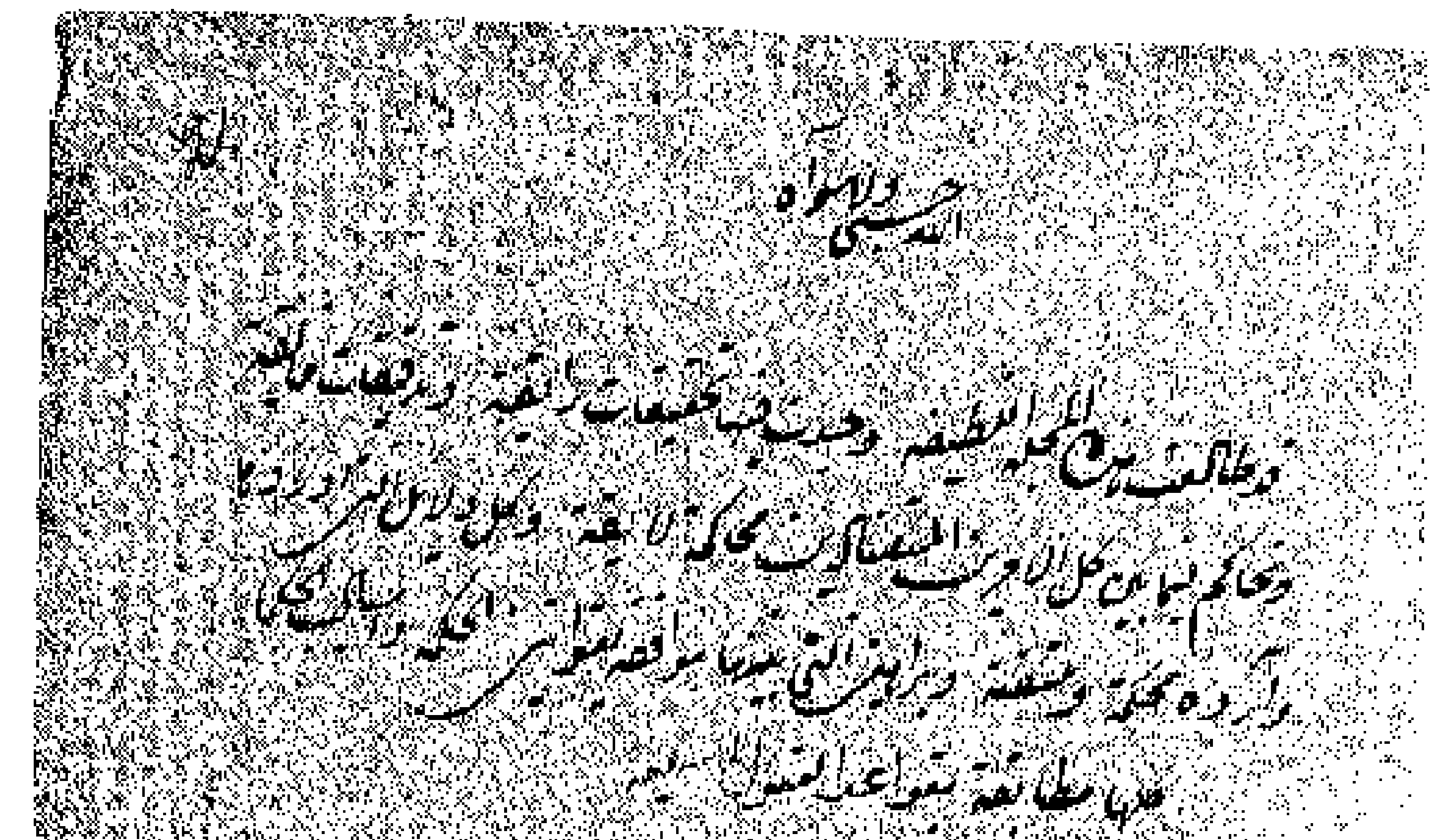

مخطوطة من كتاب التاريخ العالمي لابن خلدون، تعود إلى سنة 1778. المكتبة الوطنية - باريس

تمكنت مملكة بني نصر من الصمود بفضل الصراعات التي نشبت بين الممالك المسيحية، في محاولات لتقوية أواصر الأسر الحاكمة، وكذلك بفضل العون الذي قدمه بنو مرين في مملكة المغرب، في أعقاب سقوط دولة الموحدين. وبخلاف المرابطين والموحدين، أقام بنو مرين عاصمتهم في مدينة فاس. وفي القرن الرابع عشر كانت كل من فاس وغرناطة في حال يرثى له سياسيًا، ومع ذلك نلاحظ في هاتين المدينتين بوجه خاص نهضة ثقافية مرموقة، كما أنهما أبدعتا الشيء الكثير في طرز العمارة، التي ظلت ترمز إلى جوهر وفخامة الفن الإسباني- المغربي، ولقد ظلت هاتان المملكتان ملاذًا سياسيًا وثقافيًا لنفر من أعلام المفكرين المغاربة، من أمثال ابن خلدون، وابن الخطيب، وابن مرزوق. وقد شهد هؤلاء الكتاب تبدل الحكام والأيام. وقد عاش ابن خلدون في مدينة فاس، وانتهى به المقام في مدينة غرناطة بفضل صداقته الوطيدة مع ابن الخطيب، وفي إشبيلية تقابل بصفته مبعوثًا لبلاط ملك بني نصر في غرناطة مع الملك بيدرو الأول ثم عاد أخيرًا إلى غرناطة، ومنها إلى بلاد المغرب. أما ابن الخطيب فقد كان لاجئًا سياسيًا في مدينة فاس، ثم لقي حتفه فيها نتيجة للمؤامرات السياسية.

وشهد المغرب في ذلك العصر، بعد فترة من التألق والوحدة -غير خالية من النزاعات- ساهمت دولة الموحدين في توطيدها، مرحلة انشقاق وانشطار، وكما قال الأستاذ حليمة فرحات: "دخل المغرب في منعطف من الصراع بين المغاربة أنفسهم، وكانت حروبهم أطول وأشد خرابًا من الحروب التي خاضوها ضد الممالك المسيحية".

كان العالم المسيحي أيضًا في حال من الفرقة والنزاع بين مطالبين بكراسي العرش وبين الملوك القائمين، رغم أن مسيرة حقيقية من التضامن بين البلدان المسيحية كانت قد بدأت، وهذا ما لم يشهده العالم العربي الإسلامي. وبهذا التضامن تقدم العالم الغربي في المجالات التقنية والعسكرية والاقتصادية.

كانت مملكة قشتالة تسيطر على مضيق جبل طارق، تلك المنطقة التي ظلت في أيدي المسلمين منذ القرن الثامن. وعليه فإن كلاً من مملكتي قشتالة والبرتغال راحتا تتوسعان قبالة الجنوب. وجاء غزو البرتغال لمدينة سبتة Ceuta سنة 1415، وغزو قشتالة لمملكة غرناطة ليعني أنه بداية من أواخر القرن

الخامس عشر وأوائل السادس عشر، أن مركز النشاط العالمي سيتحول من البحر المتوسط، ليفسح المجال أمام المحيط الأطلسي. أما توسع البرتغال البحري قبالة المناطق الجنوبية في إفريقيا، ثم وصولهم إلى آسيا بعد الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح، إلى جانب اكتشاف أمريكا، كل ذلك كان يعني تغيرًا مهولاً في تاريخ البشرية.

وفي القرون التي تلت تلك الأحداث، أصبح المحيط الأطلسي (وليس البحر المتوسط) محط الأنظار بالنسبة للتاريخ الأوروبي.

وإذا أمعنا النظر في مجريات الأمور لتبين لنا أنه من الخطأ أن نقيم خطى التقدم والتقهقر، والتطور الثقافي والتواصل التجاري والاجتماعي على أنها مجرد مجابهات بين المسيحيين والمسلمين. فلقد تحالف الأتراك في أكثر من مناسبة مع الإغريق الأرثوذكس وولايات البلقان، في حين أن مملكة بني نصر كانت تتذبذب في تحالفاتها مع الممالك المسيحية، كما أن علاقاتها مع بني مرين في فاس كانت مشوبة بالكثير من الغموض. لقد كانت الدنيا وقتها في حال من العولمة، قامت فيها العلاقات بين بلدان يختلف أحدها عن الآخر بشكل ملحوظ، وحتى بين دويلات وممالك متباعدة جغرافيا؛ لقد ساهمت رحلات ماركو پولو -على سبيل المثال- في ربط أوروبا، وبوجه خاص المدن الإيطالية التجارية الكبرى، ببلاد الصين؛ كما أن الرحالة ابن بطوطة من طنجة قد جاب بلدان العالم الإسلامي كله، بما في ذلك بلاد فارس وأراضي القوقاز المنعزلة والبعيدة، في حين أن السلطان المملوكي بيبرس أوفد سفارة إلى بلاط قشتالة؛ كما أن ملك مالي قام برحلة حجه الشهيرة إلى مدينة مكة محملاً بالذهب الذي أفاد منه تجار القاهرة، وأخيرًا وليس بآخر وصل المبعوث القشتالي، ري جونثالث دي كلابيخو، إلى مدينة سمرقند في آسيا الوسطى.

وواقع الأمر أنه، بعيدًا عن الصراعات، نجحت العلاقات التجارية في إقامة شبكة متراصّة تربط بين القارات ومختلف البلدان والممالك. لقد ارتكزت حيوية حوض البحر المتوسط على التجارة، والجامعات، وتعزيز أواصر القوة؛ بعيدًا عن قضايا الدين والهيمنة. فمن ناحية، اضطلعت كل من البندقية وجنوة بمهمة التوسع في النشاط التجاري للجانب الأوروبي من البحر المتوسط، في علاقاتهما الطيبة ببلاد الشرق، وسينضم إليهما تاج أراغون الذي عزز توسّعه في البحر المتوسط بسيطرته على جزيرة صقلية وربطه بعلاقات تجارية لاحقا مع أقطار المغرب. أما مصر المملوكية فقد هيمنت على العلاقات التجارية مع كل من إفريقيا وآسيا.

وفي نفس الوقت، طرأت تغيرات مهمة على الساحة كان لها صداها في الشرق وفي الغرب. فخلافاً للأحداث التي وقعت بعد تلك الحقبة ببضع قرون، تميزت العقود الأولى من القرن الرابع عشر بعدم وجود قوة واحدة تهيمن على المسرح. فلقد كانت هنالك منظومات متداخلة ومتشابكة من العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فالقاهرة باتت تربط الشرق الأوسط بالصين والهند وكذلك ببلاد السودان. أما المدن الإيطالية فبرزت كمراكز تجارية كبيرة ومنتجة، لقد اتسم التجار الغربيون بالحيوية، الأمر الذي سهل أمامهم الكشف عن أراض بعيدة تنتمي إلى حضارات مختلفة؛ في حين أن العالم الإسلامي كان ينظر إلى أوروبا المسيحية على أنها متخلفة ولا تستحق أخذها في الحسبان. ربما يرجع السبب في ذلك إلى أن ردحًا طويلاً من القرن الرابع عشر، تمتع خلاله الشرق الأوسط (العالم الإسلامي) بانتعاش ثقافي واقتصادي مرموق، مقارنة بأوروبا المسيحية متردية الأحوال، مع أن أوروبا كانت تشهد حينها فورانًا سياسيًا واجتماعيًا قدر له أن ينقل أوروبا نقلة حضارية مهمة.

ولابد من التأكيد على أن تلك الحقبة قد شهدت العديد من الأحداث المهولة التي كان لها أبعد الأثر في تطور الأمم والممالك والإمبراطوريات العديدة: من ذلك اجتياح جحافل المغول للمنطقة، والحركة الصليبية، الأمر الذي دمر طرق التجارة الرئيسية. ثم ابتلي العالم بالوباء الأسود الذي لا يعرف حدودًا ولا عقائد في ضرباته المهلكة، التي أهلكت عشر سكان بلدان حوض البحر المتوسط الواقعة حول شاطئيه. وفي نفس الوقت شهدت أوروبا المسيحية تحولات خطيرة في مجالات الاقتصاد والاجتماع والثقافة، إلى جانب إبداعات تكنولوجية وفكرية وعقلية مهمة. كما أن الجامعات أخذت تتماسك وترسخ من مكانتها بعد أن بدأ التمييز بين الدراسات الدينية والعلوم الإنسانية.

وينبغي أن نلاحظ أنه لم يكن هنالك وقتذاك أسباب ملموسة أو "ضرورات تاريخية متأصلة" لتفهم كيفية تطور النظام القائم. والواقع أن التطور الحاصل خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد يكون في الواقع، أخذًا بعين الاعتبار ظروف القرن الرابع عشر، مختلفًا عما سار عليه الحال. لقد كان العالم في تلك الحقبة يموج بالتقلبات المتعاقبة بين التقدم تارة والتراجع تارة أخرى، مع الكثير من التبدلات.

إن الهدف من إقامة هذا المعرض، الذي أعطيناه عنوان "ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات" هو أن نركز على هذا القرن، في خطاه قدمًا وفي رجوعه القهقري، باختصار لكي نظهر حقيقة أحواله. ولقد اخترنا سيرة وأعمال ابن خلدون، المفكر الإسلامي المرموق، الذي ولد في تونس وتوفي في القاهرة سنة 1406 كحلقة وصل لفعاليات هذا المعرض. ومن أهدافنا أيضًا أن نلقي الضوء على الحضارات العظمى التي كانت قائمة حول حوض البحر المتوسط، في جوانبها الإنسانية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وعلاقاتها؛ إذ اعتاد البعض على وصف هذين العالمين كشيء منفصل وكحضارتين متنازعتين وفي مواجهة مستمرة لا تربطهما علاقات متينة. على أننا نشعر أنه رغم هذه المواجهة نشأت بين العالمين علاقات تتجاوز ذلك الصراع، الذي لا يمكن تفسيره منفردًا دون تفهم وجهة النظر من كلا الجانبين؛ لأن هذين العالمين كانا على اتصال في العديد من المجالات خلال مسار التاريخ على درب التطور. ولإبراز هذا الهدف بالتحديد، يتضمن المعرض تاريخ كل من مصر، والجزائر، وتونس، والمغرب، وإسبانيا، والممالك المسيحية، وتاج أراغون، وجزر البحر المتوسط، وفرنسا، والمدن الإيطالية، والإمبراطورية العثمانية، جنبًا إلى جنب مع ماركو بولو، وابن بطوطة، ودانتي، وبترارك، وأرثيبيستي دي هيتا Arcipreste de Hita وأخيرًا وليس بآخر، ابن خلدون، وسيرة حياته، وأعماله، وأسفاره، باختصار العالم الذي كان يعيش فيه، كما صور ذلك الكاتب ألبرت حوراني في كتابه تاريخ الشعوب العربية:

"إن حياة ابن خلدون، كما وصفها هو بنفسه، تطلعنا على أحوال العالم الذي كان يعيش فيه. لقد كان عالمًا مليئًا بالدروس عن ضعف المسعى البشري. ولقد كشفت لنا مسيرته عن فشل التحالفات التي تبرم من أجل المصالح، وهي تلك التحالفات التي ارتكزت عليها الأسرات الحاكمة للحفاظ على عروشها؛ إن لقاء ابن خلدون مع تيمورلنك أمام مدينة دمشق يوضح لنا كيف أن قيام قوة جديدة يؤثر على حياة المدن وأهليها. إن النظام خارج المدينة ظل متردياً ومرهونًا بالظروف، وكان من الأمور العادية أن يذهب سفير في مهمة إلى بلد آخر، وكان واردًا أيضًا أن مبعوثًا يحمل رسالة إلى جهة ما، سرعان ما يطلب اللجوء إلى تلك الجهة إن هو شعر أنه لم يعد يحظى برضا ولي الأمر الذي كلفه بحمل الرسالة. وكان موت الأبوين بسبب الطاعون، وموت الأبناء في حادث غرق سفينة ما، كان كل هذا وذاك مدعاة لاستيعاب الدرس عن عجز الإنسان في أيدي القدر. ومع ذلك، فثمة لمحات من الاستقرار ظلت باقية على المسرح، أو بدت كذلك. ففي ذاك العالم نجد عائلة من جنوبي الجزيرة العربية تتحرك بحرية إلى إسبانيا، وبعد ستة قرون تعود للعيش على مقربة من موطنها الأصلي، وتجد نفسها في بيئة تألفها، تنعم بالرابطة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان. لقد كانت اللغة العربية هي التي تفتح الباب لضمان وظيفة ونفوذ في كل أنحاء العالم، كما أن المعرفة التي تتناقلها الأجيال عبر مئات السنين عن سلسلة من المفكرين؛ كانت كفيلة بأن تصون أخلاق المجتمع، حتى وإن تبدّل الحكام. ثم حدث ولا حرج عن أماكن الحج، في مكة وبيت المقدس، اللتين تطلان كأعمدة راسخة للعالم أجمع، حتى وإن تحول ميزان القوى من مدينة إلى أخرى. وأخيرًا وليس بآخر الإيمان بالله خالق الكون وحافظه ليصبح للإيمان مغزاه أمام ضربات القدر".

إن هذا المعرض يهدف إلى التبصير بأمور الحياة في تلك الحقبة من التاريخ، دون أن ننسى أن الحقيقة في نهاية المطاف هي مزيج من المكونات المأساوية اللاعقلانية من جانب، ومن العقلانية والسخاء والإبداع والتقدم من جانب آخر.

ويبقى الهدف والمراد في حقيقة مؤداها أنه على الرغم من روح التشاؤم التي أحيانًا ما تلم بنا، عندما نكتشف ألغاز التاريخ، فإننا اليوم ربما نجد العزاء في حقيقة أخرى ألا وهي أن الجنس البشري قد تجاوز الكثير من الصراعات والمآسي، من قبيل تلك التي ألمت بالقرن الرابع عشر.

إن غاية هذا المعرض هي محاولة من جانبنا لتوضيح كيف أن القرن الرابع عشر قد بذر بذورًا لحقب تالية إيجابية العطاء. ونحن نأمل أن نقدم عرضًا يوضح عظمة بلاد الأندلس وبلاط إشبيلية، مع التأكيد على دلالات الثورات الخلاقة التي قامت في بلدان البحر المتوسط، متضمنة التطورات في حقول الفلسفة والفكر والسياسة وتقدم النشاط التجاري؛ الأمر الذي مهد الطريق لقيام عصر النهضة وللتوسع الأوروبي والإسباني في المحيط الأطلسي.

القرن الرابع عشر: الزمان والمكان

عالــــم ابن خلـــــدون

عبدالسلام شدادي
جامعة محمد الخامس – الرباط

ترجمة خالد عزب

يتمتع علما التاريخ والاجتماع عند ابن خلدون [1]، حسبما يتضح في كتابي العبر والمقدمة، بخاصيتي الكونية والعالمية؛ والكونية من الناحية الفلسفية موروثة من التقاليد اليونانية– العربية، والعالمية استنادًا إلى تقاليد التاريخ العربي. لكن الأهم من ذلك هو استعراض ابن خلدون في كتاب المقدمة لمفهوم جديد لعلم الاجتماع، يختلف عن المفهوم التقليدي لكل من الفلسفة والتاريخ. في هذا البحث أردنا أن نعطي ملخصًا بسيطًا حول ما يسمى النظرة الشاملة والعالمية لابن خلدون. هذه النظرة تستند إلى فكرة الروابط القومية (الأممية) التي كانت معروفة في عصره، محاولا الإجابة على سؤالين، هما: ما هي الأسس النظرية لعلم الاجتماع في فكر ابن خلدون؟ وما هي العناصر الاجتماعية والتاريخية التي بنى عليها نظريته؟.

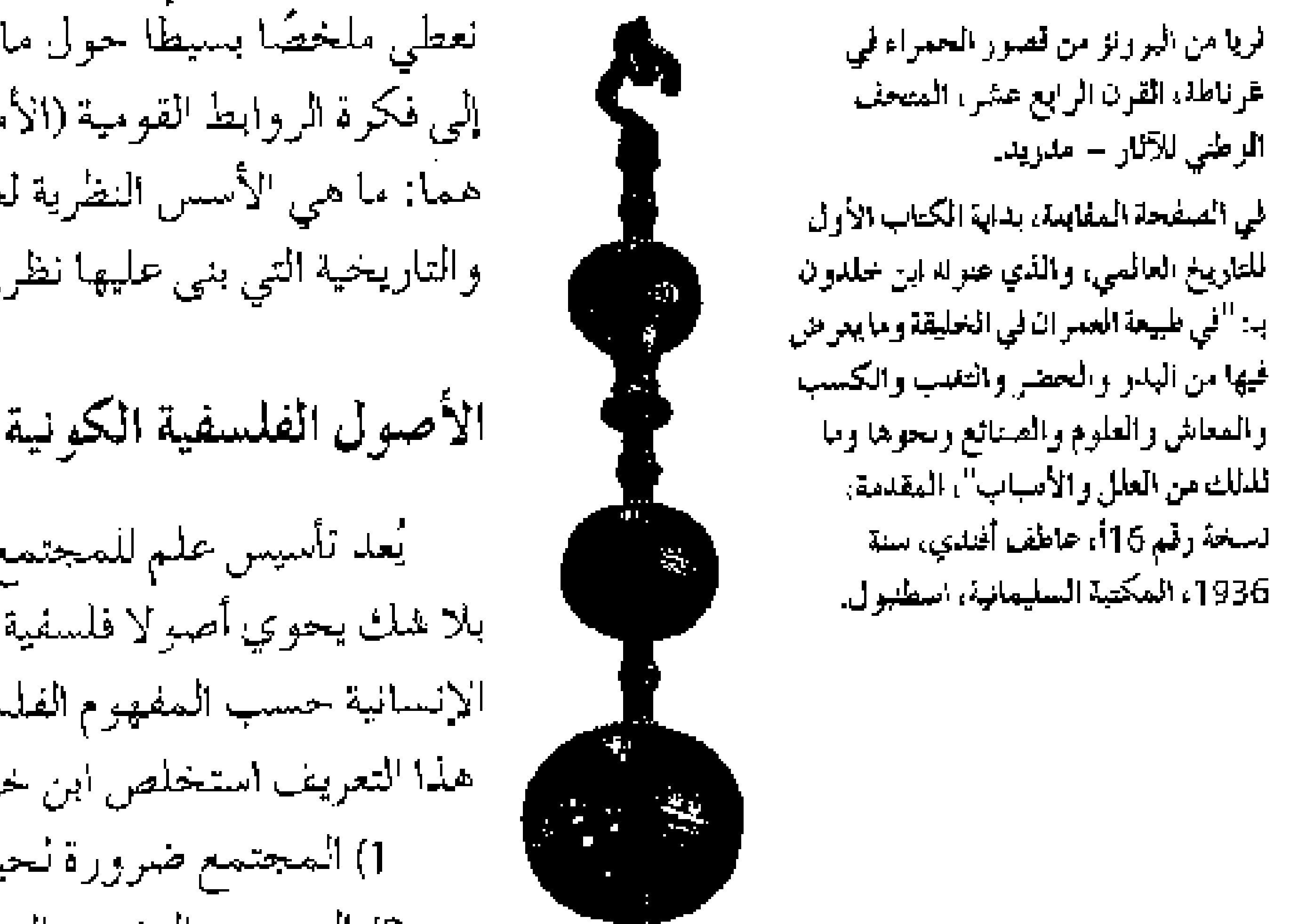

ثريا من البرونز من قصور الحمراء في غرناطة، القرن الرابع عشر، المتحف الوطني للآثار – مدريد.

في الصفحة المقابلة، بداية الكتاب الأول للتاريخ العالمي، والذي عنونه ابن خلدون بـ: "في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والعلوم والصنائع ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب"، المقدمة، نسخة رقم 1154، عاطف أفندي، سنة 1936، المكتبة السليمانية، اسطنبول.

الأصول الفلسفية الكونية

يُعد تأسيس علم للمجتمع والحضارة هو العمل البارز الذي قدمه ابن خلدون، هذا العمل بلا شك يحوي أصولا فلسفية؛ تظهر عند استعراض ابن خلدون الخصائص الأساسية للحضارة الإنسانية حسب المفهوم الفلسفي التقليدي، بداية من تعريفه للإنسان بأنه حيوان سياسي، ومن هذا التعريف استخلص ابن خلدون نقطتين أساسيتين لنشوء المجتمعات والحضارات:

1) المجتمع ضرورة لحياة الإنسان.

2) المجتمع البشري المرتكز على التعاون من أجل توفير مقومات الحياة والدفاع عن الأفراد، لابد من أن يخضع لقوة سياسية.

كل هذه الخصائص الناتجة من روح المجتمع والإنسان، هي خصائص كونية. تبلورت بواسطة الظروف الخارجية للحياة البشرية والاجتماعية المرتبطة بالجغرافية والبيئة. ووفقًا للنظرية البطلمية للمناخ التي رددها الجغرافيون العرب، فإن الموقع الجغرافي للبلاد وفقًا لابن خلدون، يمثل عاملا رئيسيًا في تطور المجتمعات والحضارات، إذ يمكن من خلال الظروف المناخية المناسبة، حيث الجو المعتدل الوصول إلى أعلى نقاط التطور، حيث تكون درجات الحرارة ليست بالحارة أو الباردة، ففي المناطق الشديدة الحرارة أو الشديدة البرودة ووفقًا لشروط محددة، يتقلص الأداء الحيوي للكائنات بما يؤثر على الحياة والأنشطة الاجتماعية، لذلك فإن المجتمعات التي صنفها ابن خلدون تنتمي إلى المناطق المعتدلة والمتوسطة، وهي الوحيدة فقط التي تسمح بظهور الحضارات وازدهارها، حيث يذكر بالتحديد بلاد المغرب وسوريا والعراق والهند الغربية والصين وشبه الجزيرة الأيبرية والمناطق المجاورة، واضعًا كل من العراق وسوريا كمركزي إشعاع حضاري في الإمبراطورية العربية الإسلامية، أما البلاد المتوسطية وشبه الجزيرة العربية والجزء الإيراني من آسيا الوسطى فقد وضعه ابن خلدون في نهاية القائمة، في موضع آخر من مؤلفه.

ووفقًا لرأي ابن خلدون، فإن البيئة تلعب دورًا كبيرًا في تكوين شكل جسد وشخصية ساكنيها، لكن هذا التأثير لا يتوقف عند الشكل أو التنظيم أو المحتوى الاجتماعي والحضاري. فمن جانب آخر يتناول ابن خلدون الجانب الديني والروحي على العكس من الفلسفات اليونانية– العربية الموروثة؛ فلا يعتبر أن الشريعة الدينية في حد ذاتها ضرورة لتكوين النظام

1 سوف نجيب بتفصيل تام عن هذه الأسئلة في كتابي القادم: Ibn Khaldun, la Science de la société et de la Civilisation, Paris, 2006

١٣

ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد حرفناه من مخرجه الى
مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة
وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب
والكسب والمعاش والعلوم والصنائع
ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب

اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني
الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل
التوحش والتانس والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض
وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر باعمالهم
ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك
العمران بطبيعته من الاحوال ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله اسبا
تقتضيه فمنها التشيعات للاراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال
الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من
كذبه واذا خامرها تشيع لراي او نحلة [redacted] قبلت ما يوافقها من
الاخبار لاول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها
عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله ومن الاسباب
المقتضية للكذب في الاخبار ايضا الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع
الى التعديل والتجريح ومنها الذهول عن المقاصد لا يعرف القصد بما
عاين او سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب ومنها توهم
الصدق وهو كثير وانما يجيء في الاكثر من جهة الثقة بالناقلين ومنها الجهل
بتطبيق الاحوال على [redacted] لاجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها
المخبر كما راها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه ومنها تقرب الناس في الاكثر
لاصحاب الجلالة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر
بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس

فكثير من الناقلين

الوقائع

الاجتماعي بالرغم من قيمتها الجوهرية وأهميتها للمجتمع، مدللاً على ذلك بأن العديد من المجتمعات تحيا بدون شرائع إلهية، وتعتمد في أنظمتها الاجتماعية والسياسية على القوة والمنطق.

المجتمعات المتماسكة

بداية، تظهر لنا فكرة ابن خلدون كفكرة كونية، هذه الفكرة ترتكز على: الافتراض الفلسفي حول مضمون أن الإنسان حيوان سياسي، والنظرية الحتمية الجغرافية للمناطق المناخية. متعاملة مع المجتمع البشري (الاجتماع الإنساني) والحضارة (العمران البشري) في مجمليهما، بتوسع من حيث انتشار المجتمعات مكانياً، ومتعمق من حيث استغراقها زمنياً. وجهة النظر هذه تؤكد على أن ابن خلدون لم يشعر مطلقًا بالحاجة إلى توضيح الرؤية الإنجيلية والقرآنية لنظرية الخلق، المعرفة الجغرافية لدى العرب حول الانتشار الإقليمي للحضارات، والإنجازات التقنية، والتنظيمات السياسية والإدارية، أوحركة التأريخ مع التقاليد السياسية، والدينية، والتاريخية، إمبراطورياته وممالكه، شعوبه وقبائله، دياناته وطوائفه.

ويرى ابن خلدون، أن المجتمع في عصره كان مستقراً ومتجانسًا مطورًا وبشكل تام من الإمكانيات البشرية في المجال الديني، والروحي، بالإضافة إلى الخطط التقنية، والعلمية. كما يمكن ملاحظة التغيرات في تلك المجتمعات انطلاقًا أو اعتمادًا على السنن وقوانين النظام الكوني بشقيه المنطق البشري، والإرادة الإلهية.

المجتمعات التي تكون عالم ابن خلدون تعتبر في المقام الأول، كيانات عرقية أو أمما (جمع أمة)، كلمة يمكن ترجمتها إلى "أمم" بالمعنى المعروف في الإنجيل أو المفهوم اليوناني لكلمة Ethnos. تلك الأمم هي: العرب، والبربر، والعبرانيون، والروم، والفرنجة، والترك، والأكراد ... إلخ. وهنا يمكن أن نستنتج، من الجزء التاريخي من كتاب "العبر"، أن الأمم تعرف باسمها ونسبها وكذلك لغتها بالإضافة لبعض الخصائص أو الشعائر التي تميزها عن غيرها.

من زاوية تاريخية، حققت الأمم وجودها (موطنها) بواسطة احتلال أو امتلاك أرض أو أراضي الآخرين، وتكوين سلطة (ملك) ذات نطاق أكثر اتساعًا.

يميز ابن خلدون بين المراحل المختلفة في تاريخ الأمم، تلك المراحل عرفها باستخدام كلمة (أجيال) يمكن مقابلتها بكلمة فترات أو عصور، كذلك يمكن تعريفها بمعنى طبقات أو فئات، بهذا التعريف، وبمعيار اللغة، فإن التاريخ العربي منذ بداية الخليقة يمكن أن يقسم إلى أربعة أجيال:

- العرب العاربة.
- العرب المستعربة.
- العرب التابعة للعرب.
- العرب المستعجمة.

بنفس الطريقة استخدم ابن خلدون كلمة جيل للإشارة إلى قوم ما (أمة) في فترة ما أو للإشارة إلى أمة معينة خلال فترة زمنية محددة، بمرور الوقت.

الثقافة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر، كانت ومازالت تعتبر أن شعوب العالم مرتبطة بنسب واحد يرجع إلى آدم عليه السلام. شكك ابن خلدون في تلك النظرية وتساءل "أنه بفرض أن الإنسانية مرجعها إلى أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث فإن ذلك مجرد نقل للتقسيم الجغرافي للعالم ففي الجنوب حيث يوجد نسل سام وفي الشرق نسل حام وفي الشمال نسل يافث"؛ من وجهة نظره فإن الفائدة من علم الأنساب هي فائدة سياسية واجتماعية.

سيرًا على خطى الجغرافيين والمؤرخين المسلمين اعتبر ابن خلدون أن الاختلافات بين الشعوب والأمم نقطة إيجابية. أولا من وجهة النظر العرقية واللغوية فإن التنوع يتأثر بكيفية حياة البشر، ونواتج الأرض، والمصنعات، والعلوم والتقنيات، والأخلاقيات، وأخيرًا إلى الدين، معتبرًا أن هذا التنوع ضرورة لنمو العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية بين الأمم.

ارتكز ابن خلدون في تحليله على المجتمع العربي عند وضعه لتقسيمات الأمم فقسمها طبقًا لنتيجة محددة جداً طبقًا لمسمى الجد المشترك إلى:

- شعوب.
- قبائل.
- عشائر.

متبعاً في كل واحدة تقسيمًا أقل درجة ابتداءً من أصل القبيلة متدرجًا في تقسيمه لمستوى التجمعات بين كل هذه الكيانات المختلفة، فإن الرابط الاجتماعي الوحيد الذي أخذه ابن خلدون في الاعتبار هي الانتماء إلى نسب ما حقيقي أو وهمي، أو عن طريق التبني أو الولاء وهي روابط ثانوية مستخرجاً أهمية صلة النسب في ظهور العصبية، والتي تلعب دورًا اجتماعيًا وسياسيًا في الوقت ذاته. نلاحظ هنا أن دور البنية الاجتماعية للعصبية في رأي ابن خلدون دور

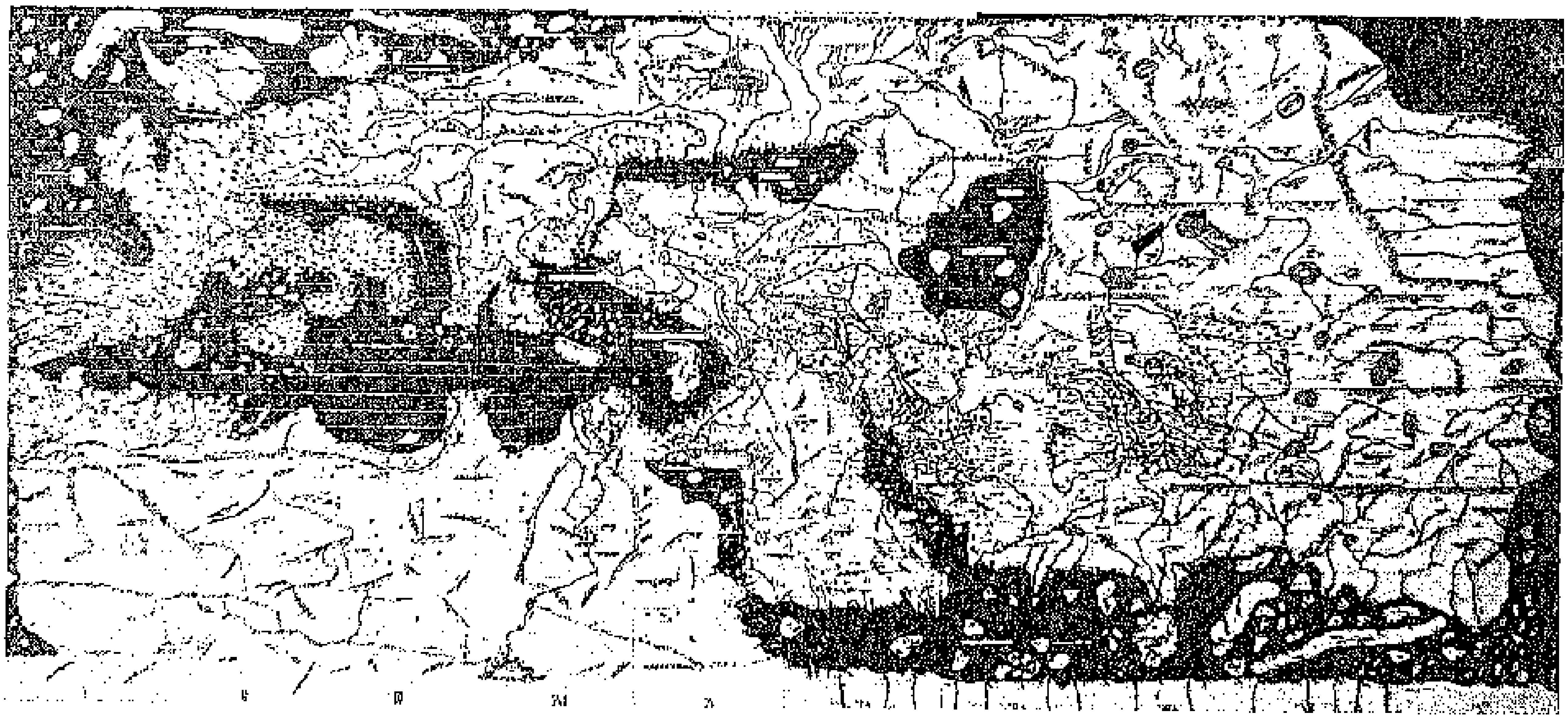

محاكاة لخريطة العالم اعتمادًا على خريطة الإدريسي، من القرن الثاني عشر.

مضاعف. من ناحية أخرى يقدم ابن خلدون فروقًا أساسية ودائمة بين نحن والآخرين: ومن جانب آخر، فإن البنية الاجتماعية للعصبية تكون سببًا في نشأة ائتلافات مؤقتة متضامنة وليدة اللحظة. مستخدمًا كلمة عصبية للإشارة إلى عدة كلمات لنفس المعنى مثل عصبية، وعصبيات، وعصابة، وعصائب.

من الناحية التاريخية يرى ابن خلدون: أن الأمم تمر بحالات من التحضر والبداوة بشكل دوري ومستمر، مكونة في ذات الوقت تجمعات حضرية وريفية. ففي المجتمع الحضري، نجد أن البيئة القبلية يمكن المحافظة عليها بشكل ما، إلا أنه بالضرورة تعاني من التأثيرات السلبية للحياة الحضرية، تلك الحياة تفقد الأمة، أو القبيلة، أو العشيرة خصائصها السياسية، وهو ما يجاريه ضعف واختفاء العصبية، وعدم تمثيل روابط الدم دورًا سياسيًا. تتخذ كتل التجمعات الحضرية شكلاً مفتتًا من تجمعات عائلات أو أفراد منعزلين أو قادمين من تجمعات أخرى أو مناطق ريفية مجاورة، البناء الأوحد والمؤثر في الهيكل الحضري. على الرغم من عدم استقراره وعدم إمكانية تحديده بدقة، هو التباين بين العامة والخاصة. لا يتوقف ابن خلدون في مفهوم التنظيم الاجتماعي على التجمعات الحضرية بل ربطها بالتدريج الاجتماعي المتعلق بالجاه بأصله السياسي.

من الناحية الجغرافية، فالعالم السياسي لابن خلدون مبني على أساس التقسيم بين الشرق والغرب، حيث إن هذين العالمين، سياسيًا وثقافيًا، هما الأكثر معرفة من ناحية ابن خلدون. فالغرب يضم الأندلس (إسبانيا) المغربين (الأوسط والأقصى) وإفريقية حتى الحدود المصرية والصحراء التي تحد هذه المناطق من الجنوب حتى بداية إفريقيا السوداء، ويبدأ الشرق من مصر

وحتى حدود الهند والصين؛ فيما عدا هذه الحدود والتي يعرفها ابن خلدون شخصياً أو من خلال قراءاته نجد بلاد الفرنجة في الناحية الشمالية للبحر المتوسط، والهند والصين، وبلاد الصقالبة في الشمال، وبلاد السودان في الجنوب حيث لم يذكر ابن خلدون في نموذجه تمايز الفضاء الثنائي بين العالم الإسلامي وغيره (دار الإسلام ودار الكفر).

وتأكيداً لتحليلاته في سياق نظريته السياسية والاجتماعية، يذكر ابن خلدون نماذج للدول التي عرفها متخذاً من العرب والبربر النماذج الأكثر أهمية للتدليل على آرائه، استفاد ابن خلدون من المعلومات التي حصل عليها من تاريخ الإمبراطوريات والممالك السابقة منذ بداية البشرية وحتى عصره، مثل العبرانيين والمصريين، والسريان، والفرس، واليونان، والرومان، والبيزنطيين، والفرنجة، والأتراك.

قدم ابن خلدون نظرية تكوين السلطة في نموذج جيوسياسي محدد في الشرق أو الغرب منذ بداية التاريخ وتطوره، وقد ربطه بين قطبي الحضارة والبداوة، في نظرية ابن خلدون تحمل السلطة أو الملك معنيين:

- مفهوماً محدداً يعني ممارسة السلطة بواسطة الهيمنة والسيطرة.
- شكلاً سلطوياً في إطار اجتماعي وسياسي محدد.

لم يذكر ابن خلدون على الإطلاق تصنيف الأنظمة السياسية التي قدمها أرسطوطاليس والمألوفة عند الفلاسفة المسلمين حتى ابن رشد.

العالم السياسي غير متجانس، فداخل الكيانات الضخمة كالإمبراطوريات أو داخل الممالك الإقليمية نجد أن العلاقات التي تعتمد على قسم الولاء إلى حد ما ضعيفة، وخاصة عندما يبتعد الشخص عن مركز السلطة. في إطار جغرافي محدد كالمغرب نجد أن المنافسة وحتى الحروب تتحكم في العلاقات بين السلالات على حدودها، نجد أن العلاقات بين الملك والمجتمع القبلي، والتي تبقى مستقلة، تعكس عدم الثقة المتبادلة بينهما، وتقتضي يقظة دائمة من الطرفين.

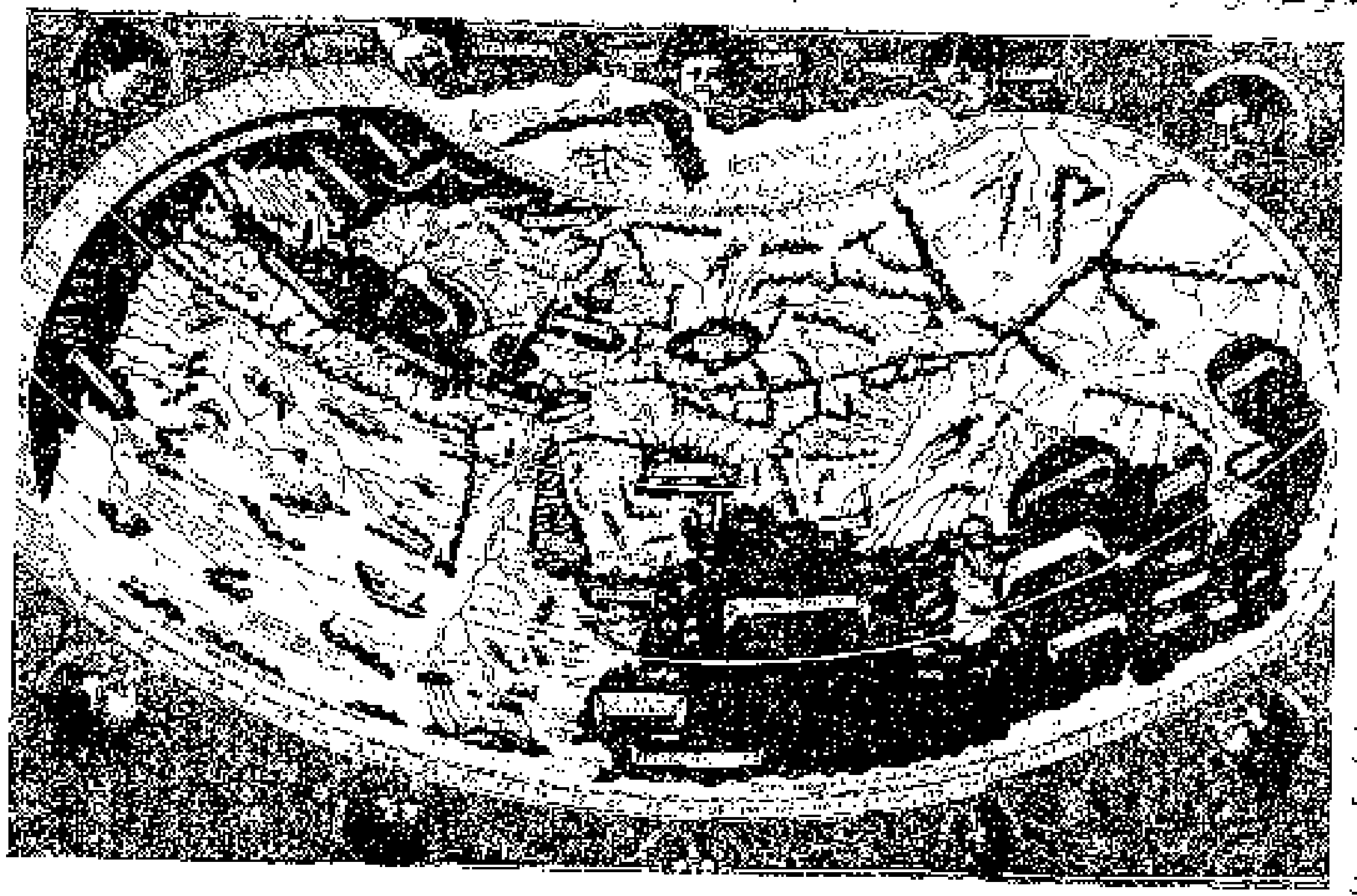

وحدة من النسخ المتعددة لما يعرف بخريطة العالم لبطليموس من مخطوطة بيزنطية مؤرخة بالقرن الرابع عشر التي ستصبح أساس الخرائط الأوروبية اللاحقة.

التاريخ

علم الاجتماع عند ابن خلدون بالإضافة لأصوله الفلسفية بني على معلومات حول المجتمعات المحلية على المجموعات والممالك المتداولة بين العرب في العصور الوسطى، بما يسمح بتصنيف هذا العلم بطريقة ما بأنه قومي وعالمي في ذات الوقت.

نفس الشيء يصح على تاريخ ابن خلدون، فعلى الرغم من تركيزه على العرب والبربر، فإنه وضع تاريخه في إطار عالمي. لم يعتقد ابن خلدون بإمكانية كتابة تاريخ العرب والبربر دون ربطه بتاريخ الشعوب الأخرى في ذلك الوقت، إذ يعطي ابن خلدون في تاريخه اهتماماً أكبر إلى الشعوب المسيحية في الشرق الأوسط والشعوب الإفريقية لأنهم الأكثر ارتباطاً بالشعوب العربية والبربرية، كذلك منح أهمية كبرى لتاريخ البيزنطيين والفرنجة حيث اعتبرهم الأكثر ارتباطاً بتاريخ العرب والبربر من الصين والهند.

في نهاية هذا العرض نستنتج عن مفهوم العالم والمستنتج من خلال علم الاجتماع وتاريخ ابن خلدون، نؤكد على الرؤية في الدول المتقدمة المحددة من خريطة العالم: المجتمع والحضارة البشرية (الاجتماع الإنساني والعمران البشري).

طالما يتجاوز ابن خلدون الاعتبارات الفلسفية العامة في دراسته عن الأمم نظهر كمركز لدراسته سواء في انطلاقته البحثية أو رواياته التاريخية، فالأمة طبقاً لتعريف ابن خلدون هي كيان عرقي وسياسي وثقافي في نفس الوقت، وهي نموذج يمثل الكيان البشري بالمفهوم الواسع دون اعتبار للحدود الإقليمية والدينية أو سكانيته تلك فهو، ومن دون شك، أشمل من نموذج الولايات والإمبراطوريات. وعلى هذا الأساس استعرض ابن خلدون العديد من الأمم كنماذج لنموذجه مثل العبرانيين، والأقباط، واليونان، والرومان، والبيزنطيين، والفرس، والفرنجة، والصقالبة، والصينيين، والترك، والعرب، والبربر، والسودان.

مفهوم ابن خلدون حول الأمة يتميز بأنه تاريخي حي، على تاريخه الكوني، يبدأ بتمييز الأمم حسب أنسابها وصولاً إلى أصل كل أمة أو قبيلة، وبالرغم من عدم قبوله بكل هذه الأنساب، فإنه يستخدمها كإطار عام لتصنيف كل أمة (على أساس العرق) وربط المجموعات البشرية التي تنتمي أحياناً إلى أصول مختلفة، فاللغة، الثقافة، والسلطة (الملك) المتولدة من الظروف العادية الثقافية الخاصة التي تميز منطقة محددة، هي المكونات الحقيقية المعرفة للأمم، وهو ما حاول الإشارة إليه في جزأين من كتاب العبر حول تاريخ مكوناته.

وهكذا، فإن ابن خلدون وضع للأمم كهدف الروايات التاريخية مبتعداً عن النماذج التاريخية السابقة، سواء المستخدمة من قبل المسيحيين البيزنطيين أو الفرس في العصور الوسطى، أو المستخدمة في بداية الثقافة الإسلامية.

درس ابن خلدون الأمة العربية منذ بدايتها من حيث تعاقب عصورها (أجيالها) الأربعة في الوقت الذي استعرض، وبشكل مترابط، مع كل عصر من عصورها من حيث الفروع والقبائل التي سيطرت خلالها. من جهة أخرى فقد استعرض ابن خلدون تاريخ البربر مقسماً إياهم إلى فرعين رئيسيين (البرانس والبتر) ثم قسم هذين الفرعين إلى عدة طبقات بارزة في كل فرع، مستهدفاً استعراض كيفية تكون وتطور السلطة وكيفية ممارستها في كل فرع، أما فيما يخص الأمم الأخرى فقد حاول ابن خلدون بصعوبة تطبيق نفس النموذج عليها مستخدماً ما لديه من معلومات حول تلك الأمم.

البحر المتوسط المركز الحيوي للقرن الرابع عشر

إميليو سولا
جامعة قلعة عبدالسلام – مدريد

ترجمة إسحاق عبيد

حقّق عالم البحر المتوسط في القرن الرابع عشر تميزًا مرموقًا، أفلت به من محنة العصور الوسطى المبكرة: وأرسى القواعد التي ميزت القرن السادس عشر، بما في ذلك المواجهة بين آل هابسبورج والعثمانيين.

وقد خطى كل من آل هابسبورج والعثمانيين خطى هامة نحو التصاعد والتفوق كقوى كبرى مع فجر القرن الرابع عشر. فقد نجح رودلف آل هابسبورج في أن ينتخب إمبراطورًا سنة 1273، بدلاً من منافسه الملك أوتوكار الثاني من بوهيميا Bohemia، وطوال القرن الرابع عشر ارتكز آل هابسبورج في سلطتهم على السيطرة على الدوقيات النمساوية، بعد أن أدرجوا موطنهم الأصلي في أعالي نهر الراين في المرتبة الثانية، خاصة في أعقاب استقلال الولايات –الكانتونات– المتحدة على أرض الواقع، في أعقاب سنة 1315 وهي الحقبة التي ظهرت فيها أسطورة وليم تل.

ميناء طنجة من باب الراحة.

أما مؤسس الأسرة العثمانية، عثمان الأول (1300–1324)، فقد بدأ توسعاته على حساب الإمبراطورية البيزنطية المتهالكة، مما أدى إلى استقرار الأتراك في مساحات واسعة من الأرض في البلقان؛ خاصة بعد معركة كوسوفو سنة 1389، التي كشفت عن الخطر الجديد الذي كان يمثله آل عثمان على أهل المجر والبولنديين والنمساويين. ثم جاء غزو الأناضول على يد تيمورلنك سنة 1402، الذي تضمن أسر وقتل السلطان بايزيد داخل قفص حديدي في أنقرة، كنكسة طارئة في صعود القوة العثمانية الجديدة، التي راحت بعد فترة وجيزة تتوسع في مختلف بلدان البحر المتوسط، وقدّر لها أن تحقق تميزًا مذهلاً، على نفس المنوال الذي سلكه آل هابسبورج بعد ذلك بما يزيد على مائة عام في القرن السادس عشر.

أما الهيمنة الحقيقية على حوض البحر المتوسط في القرن الرابع عشر فقد كانت في أيدي الجمهوريتين الإيطاليتين التجاريتين: جنوة والبندقية، وفي أيدي ملوك أراغون، الذين سادوا على جزيرة صقلية منذ سنة 1282 –بعد حادث صلوات المساء الصقلية الشهير– وكانت كل من جنوة والبندقية في صراع مستمر، إحداهما ضد الأخرى في التنازع على تجارة الشرق مع بلدان البحر الأسود، والشام، ومصر، منذ القرن السابق، وهو صراع جلب على الجمهوريتين عواقب وخيمة خلال القرن الرابع عشر. بدأ هذا القرن بداية مأساوية بالنسبة للبندقية، في أعقاب هزيمة ساحقة لحقت بها في قنال كوركولا Korcula سنة 1298 على أيدي القائد الجنوي لامبا دوريا، كانت الكارثة مهولة بحق، فقد وقع الآلاف من البنادقة في الأسر، وتحطم أسطولهم باستثناء ما يقرب من عشر سفن فقط، كما انتحر الأدميرال البحري البندقي داندولو، وفي نفس الوقت مني الجنويون بخسارة فادحة أيضًا، فلقد قتل الكثير من رجالهم إلى حد أنهم اضطروا إلى إحراق السفن التي استولوا عليها من البندقية لنقص في الرجال الذين يمكنهم الإبحار بها. في العام التالي، ومن خلال وساطة نائب كونت ميلان، توصل الجنويين والبنادقة إلى صلح، نجحت بموجبه البندقية في الإبقاء على سيطرتها على بحر الإدرياتيك وعلى تجارتها مع بلدان البحر الأسود، مما ضمن لها استعادة قوتها ونشاطها. وبعد بضعة شهور في سنة 1300، وقعت البندقية معاهدة تجارية مع سلطان مصر: مما أدى إلى غضب البابوية بسبب هذه العلاقات مع غير المسيحيين، ولكن هذا التوجه البندقي كان دلالة واضحة على إعطاء الأولوية لمصالح الاقتصادية والتجارية فوق كل اعتبار آخر، وهكذا تميز القرن الجديد بإطلالة على عصر مختلف عما مضى.

لقد اكتسب البحر المتوسط في القرن الرابع عشر دفعة حيوية من خلال التجارة مع بلدان الشرق، من خلال طرق القوافل التجارية التي تصب في البحر المتوسط نفسه من آسيا الوسطى، الذي كان المغول قد عطلوه في زحفهم المدمر، ثم أعيد ترميمه، وفي نهاية الأمر سهل المسار لقوافل البصرة التي اتخذت الطريق التجاري للخليج الفارسي، الذي يوصل بدوره إلى البحر المتوسط على الشواطئ السورية – اللبنانية، في كل من حلب ودمشق، حيث قوافل التجارة الدمشقية العتيدة. كذلك نشط الطريق التجاري للبحر الأحمر، الذي يوصل إلى الشواطئ المصرية عبر مدينة الإسكندرية. وفي منتصف القرن السابق تقريبًا، قامت على أرض مصر سلطنة مملوكية، نجحت في تحويل القاهرة والإسكندرية إلى مركزين مرموقين في النشاط الاقتصادي والثقافي في بلاد الشرق، وقد قام الرحالة ابن بطوطة برحلة إلى

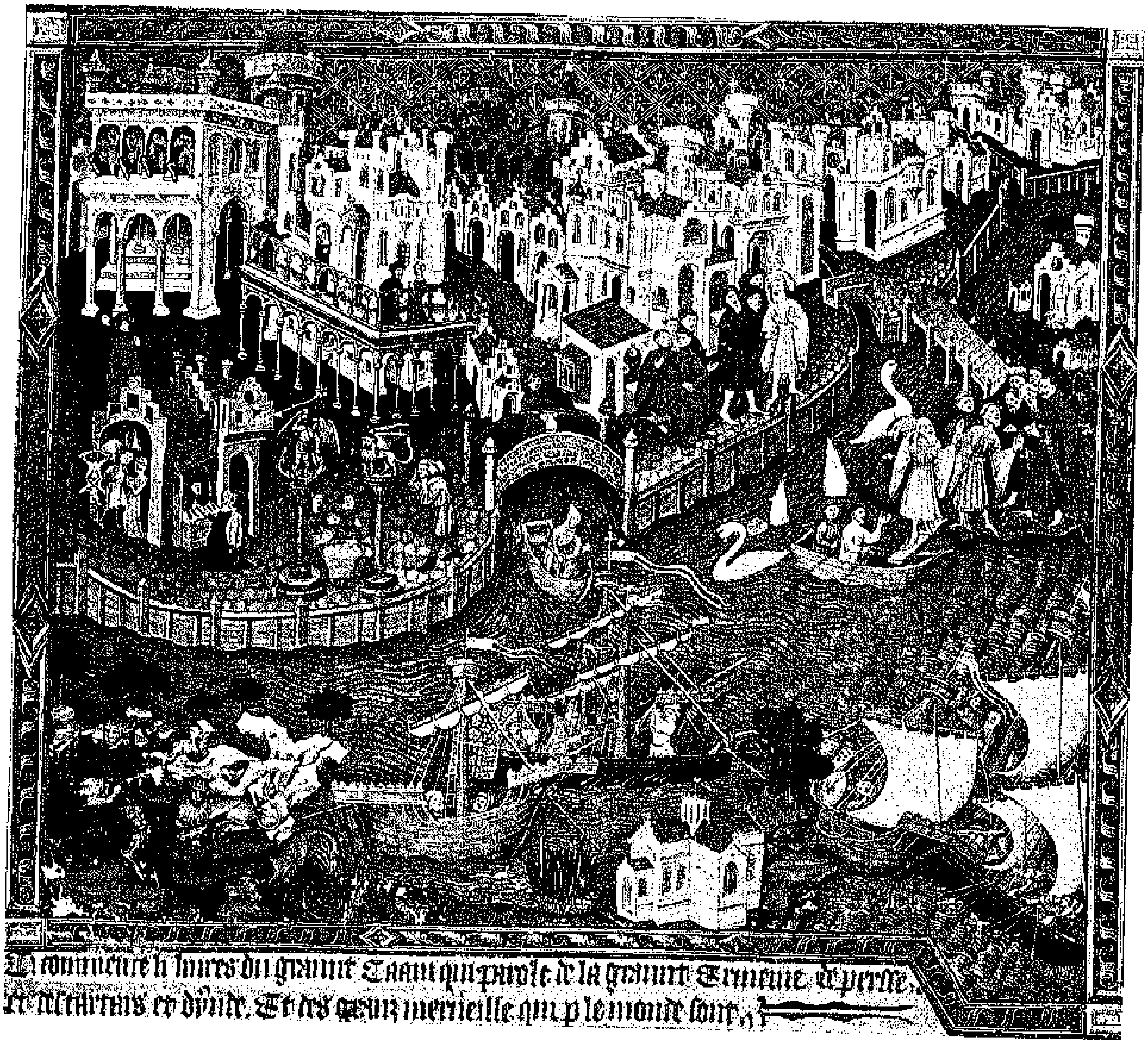

مدينة البندقية وميناؤها: من مخطوطة إل ميلوني Il Milone لماركو بولو سنة 1400. مكتبة بودليان- اكسفورد.

مصر في منتصف القرن الرابع عشر؛ كما كانت مصر المحطة الأخيرة في رحلة حياة ابن خلدون. ونجد صورة باهرة عن التميز المشرقي في مغامرات الفارس بيبرس وتابعه عثمان -فيما يشبه مغامرات دون كيخوته الإسباني-، وهي من أمتع الكنوز المحفوظة في مكتبة حلب، والتي تعكس ديناميكية البحر المتوسط قبيل عصر النهضة، وتمثل في نفس الوقت الكلاسيكية المشرقية للعصور الوسطى.

من جانب آخر كان ماركو بولو (1254 - 1324) قد بدأ عودته من بلاد الصين المنغولية تحت حكم أسرة يوان سنة 1295، بعد إقامة بلغت سبعة عشر عامًا في بلاط المغول. وقد تصادفت عودته إلى البحر المتوسط مع الحرب التي كانت دائرة بين الجنويين والبنادقة. ونتيجة لهذه الحرب وقع ماركو بولو في الأسر، وكان عليه أن يمضي ثلاث سنوات في أحد سجون جنوة، حيث خط مسودته الأولى لكتابه إل ميلوني Il Milone، هو ورفيق معه في الزنزانة الروائي رومستيشيللو من مدينة بيزا، وكتابات ماركو بولو تمثل معلمًا أدبيًا يكشف بجلاء عن تميز البحر المتوسط. في سنة 1402 وصلت إلى البندقية هدية من برسترجون من أرض أثيوبيا، كانت الهدية مؤلفة من أربعة فهود مهداة لدوق البنادقة شخصيًا، ميشيل ستينو، كشاهد على قرب نهاية هذا القرن الاستثنائي في التاريخ.

بعد وفاة ماركو بولو في البندقية ببضعة شهور، ظهر شاب في العشرين من عمره يدعى ابن بطوطة في مدينة طنجة، قرر أن يجوب بلدان المشرق. وصل بالفعل إلى مدينة بيجين Beijing المغولية التي كانت تحت حكم أسرة يوان سنة 1345، بعد أن زار بلدان الشرق الأدنى، والساحل الشرقي لإفريقيا، والجزيرة العربية، كما أمضى سبع سنوات قاضيًا في مدينة دلهي، وأبحر حول جزيرة سيلان، وبلاد البنغال. وفي

طريق عودته إلى المغرب عن طريق إيران، والعراق، وسوريا، ومصر، وجد من الوقت ما يمكنه من السفر إلى إسبانيا، وأن يكتب في فترة امتدت لربع القرن أعظم أطروحة كلاسيكية عن القرن الرابع عشر، متضمنة أخبار رحلاته، في شكل يوميات في بعض المواطن. ونتيجة لهذا الجهد استحق ابن بطوطة عن جدارة لقب "رحالة العالم الإسلامي الأعظم".

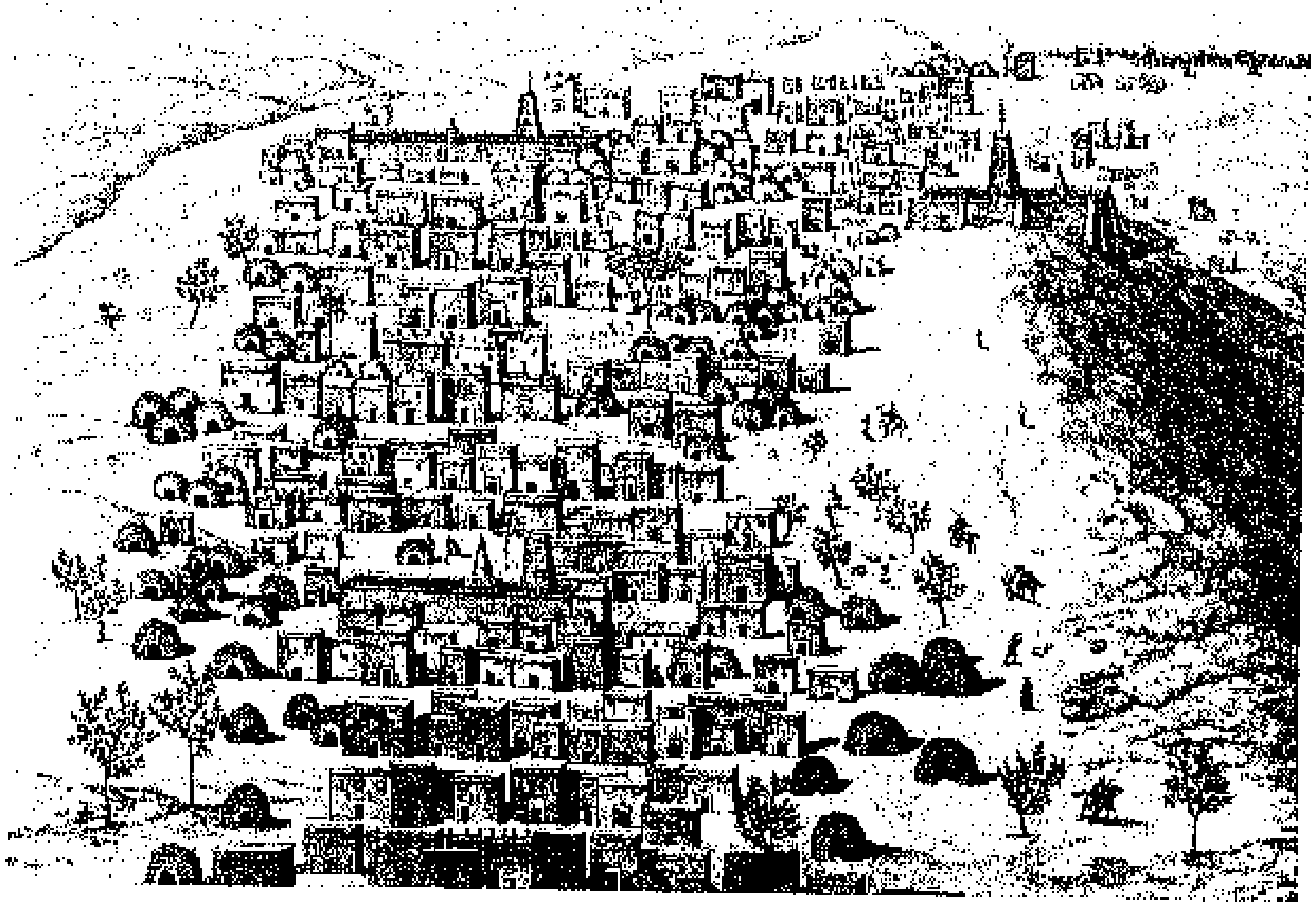

مدينة تمبكتو في مملكة مالي، حفر من القرن السابع عشر.

في الوقت نفسه في سنة 1324، عند وفاة ماركو بولو في البندقية، وبداية رحلة ابن بطوطة إلى آسيا، وصل ملك مالي إلى القاهرة، في طريق رحلته للحج في مكة. وكان هذا الملك ذا سمعة عالمية بأنه أغنى حكام العالم، كسب هذه السمعة من واقع الأبهة التي ميزت رجالات بلاطه، ومن الآلاف الذين وفدوا معه في قافلته، وما كان يحمل معه من أطنان الذهب. كان سيد مالي هذا يسيطر على مناطق جِنِّي Djenné وتمبكتو إلى جانب بعض المدائن الواقعة على طريق القوافل الصحراوي، التي كانت تمثل محطات للقوافل، كما كان ملك مالي يهيمن على أسواق الذهب في مناطق النيجر العليا، التي كانت تمثل علامة حيوية أخرى نحوض البحر المتوسط. وكان الذهب الوافد من المناطق العليا للنيجر–جِنِّي، وفوته– جانون، والمنطقة التي تشغلها السنغال اليوم، ومن أقصى شمالي نهر تمبكتو، يصل إلى البحر المتوسط من خلال قوافل ضخمة مؤلفة من عشرات ومئات الإبل عبر الواحات الصحراوية. هذا الذهب كان المصدر الأساسي للسوق الاقتصادية لقارة أوروبا، من خلال الدينار الذهبي، الذي ارتبط بالرخاء الأسطوري لبلاد الأندلس. أما المدن الساحلية لبلاد المغرب – بدءًا من سلا إلى تونس؛ عبر مدائن طنجة، وهنين، ووهران أو بجاية – فقد أصبحت المنافذ البحرية لأسواق الذهب بالنسبة للمدن الواقعة بالداخل– فاس أو سجلماسة، وتلمسان، وورقلة Ouargla، وقسنطينة، التي كانت تغص بمستعمرات عالمية الطابع للتجار من مختلف الجنسيات، متضمنة يهودًا، وجنويين أو إيطاليين بصفة عامة، وقطالونيين، وبرتغال، وقشتاليين. وكان سوق القيسارية في مدينة تلمسان، الحي الخاص بالتجار الأوروبيين بوجه خاص منذ عهد الموحدين، لجأ إليه اليهود الأوروبيون الذين طردوا أثناء الموجة المناهضة للسامية في إسبانيا سنة 1391، واستقروا في الحي اليهودي بتلك المدينة.

جاء الذهب الإفريقي وكذا البهارات الشرقية ليمثلا معًا معلمًا آخر من معالم القرن الرابع عشر. كان النشاط التجاري للبحر المتوسط ذا صبغة دولية، وضع الأساس لتقنيات تجارية ومالية للرأسمالية التجارية التي ظهرت فيما بعد، مواكبة للكشوف الجغرافية التي تمت في القرن التالي، فقد ظهرت الدوكات الذهبية البندقية في هذا السياق، الذي اتخذه الباحثون المحدثون محورًا لدراساتهم حول القضايا الاقتصادية لتلك الفترة، من قبيل العمل الرائع الذي كتبه الأستاذ بيرن Pirenne عن مدن العصور الوسطى، أو أفكار ورنر سونبارت Sonbart عن الرفاهية والرأسمالية. ويأتي هذا تفنيدًا لأسطورة العصر الذهبي السابق على ظهور الذهب والحروب جنبًا إلى جنب. وينبغي في الوقت نفسه أن ننظر إلى انتصار المراكب الشراعية على قوافل الإبل -كما يقول بيير شانو– وإلى التواصل البحري مع أسواق الذهب الإفريقية في فترة مبكرة، التي سوف تؤدي إلى اكتشاف البرتغاليين لطريق حول إفريقيا يوصل إلى الهند بدلاً من الطرق التقليدية للقوافل المشرقية الإسلامية من المغرب عبر البحر الأحمر، كل هذا ينبغي أن ينظر إليه كخطوات من النماء والتطور لديناميكية البحر المتوسط في القرن الرابع عشر. كل هذه الأحداث والتطورات جعلت ابن خلدون يتأمل التاريخ العالمي من خلال كتابه المقدمة، بينما كان يتجول في صحاري الجزائر ما بين أعوام 1375 – 1379.

شهدت تلك الحقبة أيضًا نشاطًا زائدًا للتاج الأراغوني، كنتيجة مباشرة لسيطرة على جزيرتي صقلية وسردينيا تباعًا (1323 – 1324). ولقد تصدى لهذه الأطماع الأراغونية كل من البابوية،

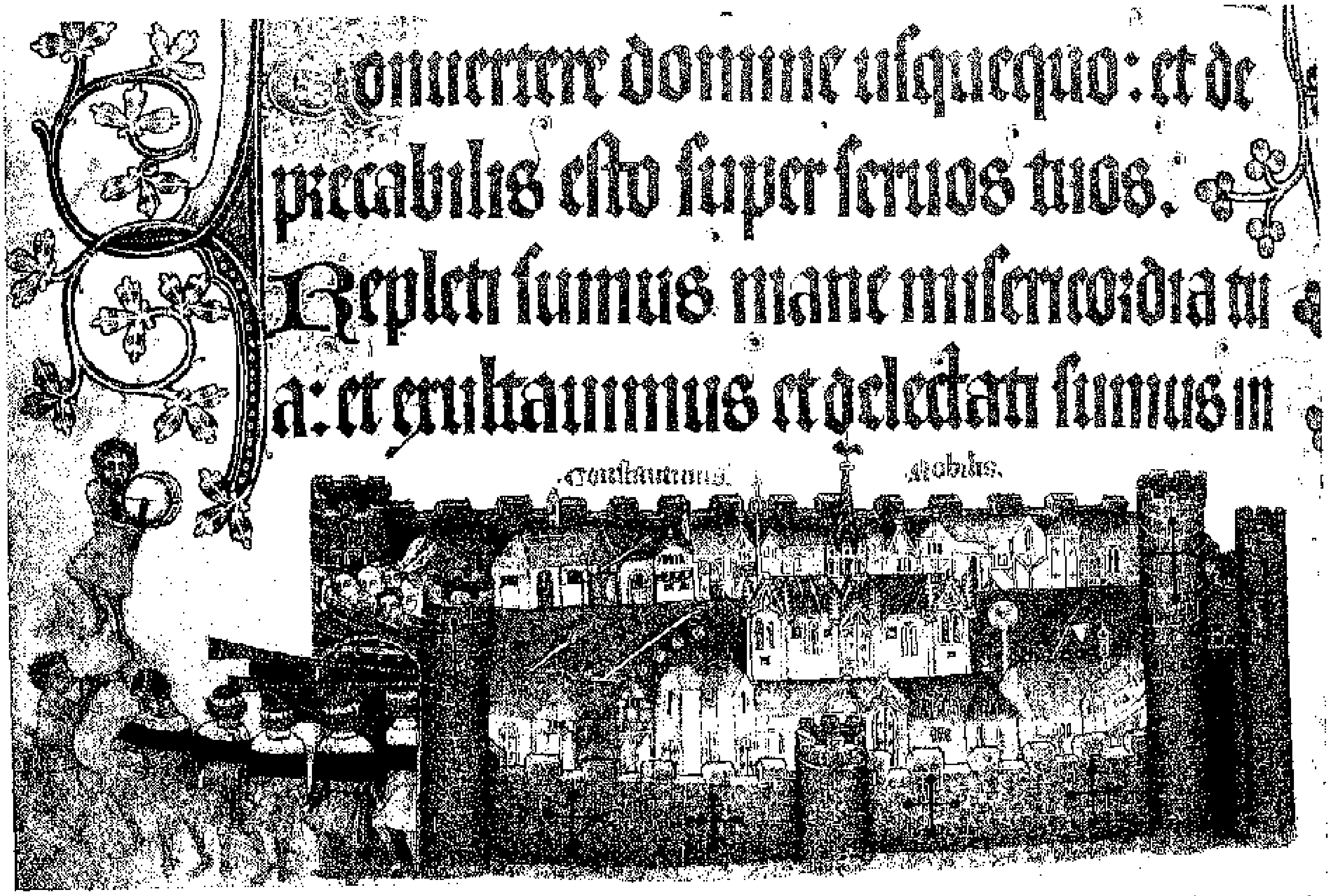

مدينة القسطنطينية في منمنمة ترجع إلى سنة 1340 تقريبًا، الأرشيف البريطاني – لندن.

والفرنسيين، والجنويين، ثم سرعان ما نشب صراع بين برشلونة وجنوة شغل النصف الثاني من القرن الرابع عشر. فقد تم إرساء الحدود بين قشتالة وأراغون في عام 1304، وذلك يماثل الحدود التي تفصل اليوم بين لقنت Alicante ومرسية في الجنوب، ومنذ راح أهل أراغون يعززون ويتوسعون في نفوذهم في البحر المتوسط، وصولاً إلى بلاد المشرق. وطبقًا لمعاهدة الصلح المعروفة باسم كالتابيوتا Caltabellota سنة 1302، اعترفت البابوية بالملك فردريك الثاني حاكمًا لصقلية طيلة حياته، وبعدها تؤول الجزيرة لآل انجو Anjou. على أن هذا الاتفاق لم يراع من جانب أراغون، وعليه تم دمج صقلية ضمن أملاك أهل أراغون. كما قامت أراغون بفرض إتاوة مالية على تونس في العقد السابق، وكانت تونس في ذلك الوقت نقطة انطلاق لجماعة من المرتزقة عرفوا باسم المغاورون almogavares قبالة بلاد اليونان، تحت قيادة روجر دي فلور أو مني برنديزي، الذي لعب دورًا هامًا في انتصار أراغون على الفرنسيين من أدواق انجو في كلابريا Calabria. وكان الهدف من هذه الحملة إلى اليونان مساعدة الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس الثاني پاليولوجس ضد الأتراك.

وتمثل شخصية روجر دي فلور النموذج المرتبط بمحارب الحدود، الذي ميز القرن الرابع عشر؛ فلقد كان في طموحاته يتجاوز الحدود القومية، إن جاز لنا هذا التعبير. كان روجر هذا ابنا لأم إيطالية وأب ألماني من الفرسان، قتل في الحرب الفرنجية – الألمانية – بين عائلتي جويلف وجبللين – في الجيل السابق. ثم أصبح روجر فارسًا في جماعة الداوية تحت إمرة أحد الفرسان الفرنسيين، ووصل إلى رتبة رقيب، وراح يشارك في أعمال القرصنة في بلاد الشرق. وعندما استولى السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون سنة 1291 على بلدة عكا، شارك روجر في إخلاء المدينة من سكانها الفرنجة، وقد اتهمه رفاقه من الداوية بالإقدام على معاملات مشبوهة أثناء تلك المعركة. وعليه فقد قرر روجر هجران موقعه مع الفرسان الرهبان، ولجأ إلى مدينة جنوة، ثم انتقل بعد ذلك للخدمة في صف ملك صقلية الأراغوني، وحظي برتبة نائب الأدميرال البحري. ولقد شهدت تلك الأعوام نهاية جماعة الداوية، ففي سنة 1307 بدأ الملك الفرنسي فيليب الرابع الوسيم إجراءات أدت إلى تصفية وإعدام رئيس هذه الجماعة جاك دي موليه في نهاية المطاف سنة 1310. وفي سنة 1305 انتهت حياة روجر دي

أسفل، عملة ذهبية من عصر الملك محمد الخامس، تم سكها في مدينة غرناطة، النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

فلور بطريقة مأساوية في مدينة القسطنطينية، وهو في السابعة والثلاثين من عمره. فقد اغتيل روجر بيد رئيس فرقة الآلان Alani في نفس المأدبة التي أقيمت على شرفه بواسطة وريث العرش البيزنطي ميخائيل باليولوجس، عندما كان روجر يتهيأ لمغادرة البلاط البيزنطي ليشرف على أرض الإقطاع الذي وهبه الإمبراطور لفرقة القطلان في آسيا الصغرى، مقابل خدماتهم للإمبراطورية البيزنطية.

ويحدد سقوط عكا والموانئ الشامية، مثل صور وصيداء في أيدي السلاطين المماليك نهاية الوجود اللاتيني في بلاد الشام. كما يحدد موت روجر دي فلور الوقت الذي سيطر فيه الأتراك تمامًا على كل الأناضول، الأمر الذي ضاعف من تدهور النفوذ الإمبراطوري البيزنطي. بعد الكارثة التي ألمت بفرسان الداوية، علا شأن فرسان الإسبتارية من جماعة رهبان القديس يوحنا في القدس، الذين وطدوا إقامتهم في جزيرة رودس وظلوا بها حتى سنة 1522. وبعد عدة سنوات من العنف، نجح مرتزقة المغاورون في توطيد نفوذهم في دوقتي آثينا ونيوپاتراس Neopatras، بتأييد من البيت الملكي الأراغوني. وقد ترك هؤلاء ذكريات مريرة في نفوس أهل اليونان حتى يومنا هذا، فلقد بات تعبير القطلان الرابضين على الشاطئ مرادفًا عندهم لتعبير المغاربة الرابضين عند الشاطئ في إسبانيا، وفي إشارة إلى نشاط هؤلاء في أعمال القرصنة والنهب. ولدينا تفاصيل عن هذه الأعمال، سجلها كاتب مرموق من منطقة أمپوردان Ampurdàn يدعى رامون مونتانر (1265– 1333)، الذي سجل في حوليته كل الأحداث التي وقعت حتى سنة 1328. وهناك مصدر هام آخر وضعه جيرونيمو ثيوريتا في القرن السادس عشر، ومصدر ثالث أكثر أهمية وضعه فرنسيسكو دي مونكادا: كونت أوسونا، بعنوان حملة القطلان والأراغونيين ضد الترك والإغريق في القرن السابع عشر. وجميع الأحداث الواردة في هذه المصادر تعكس أحوال البحر المتوسط في العصور الوسطى، وفي نفس الوقت تنطوي على بعض الملامح التي تعد إرهاصات للعصر الحديث ويعبر عن هذه الروح الكاتب الميورقي رامون لول (1316 1235 –). الذي قام سنة 1307 برحلة إلى بلدة بجاية – في الجزائر– وهي منفذ البحر لقبائل البربر، لكي يدخل في حوار مع حكماء المسلمين في المنطقة. كما أنه كان في تلك الفترة قد انكب على وضع أطروحة بعنوان الفن الأعظم Ars Magna (1306 – 1308)، وهي تعكس أحلامه في الوصول إلى معرفة كونية تتسم بالموضوعية. ويمثل كل من رامون لول، وماركو پولو وجهين لعملة واحدة، تفيض بالحيوية الفكرية. كما أن رسامي الخرائط المعاصرين في ميورقة قد حققوا نتائج مذهلة في نقش رسومهم عن حيز المكان: مثلما نشاهد في الخرائط المرسومة على الرق بأيدي أعضاء عائلة كرسك Cresque اليهودية. كذلك ازداد عدد القنصليات البحرية، التي أقيم أولها في برشلونة في منتصف المسافة، حول منطقة پروهوم دي لا ريبرا Prohoms de la Ribera منذ منتصف القرن السابق، لتغطي الساحل الإسباني الشرقي في كل من بلنسية، وميورقة، وطرطوشة، وخيرونا Gerona، وپرپنيان Perpignan.

صفحة مزخرفة من حولية رامون مونتانر، التي تحوي أحداث عصره في سنة 1328، مكتبة كاتدرائية سان لورنزو دي الأسكوريال.

أسفل: جنوة كما تبدو من أعلى، بطاقة ترجع إلى أوائل القرن العشرين.

من المناطق الأخرى التي اشتعلت فيها الأحداث المدن الفلمنكية، التي كانت منذ بداية القرن في موقف الدفاع عن كيانها ضد تحرشات الملك الفرنسي فيليپ الرابع الوسيم؛ في مواجهاته ضد الملك الإنجليزي إدوارد، مما سوف يؤدي إلى نشوب حرب المائة عام. وبقي التواصل مع مراكز التجارة في حوض البحر المتوسط على قدم وساق، من خلال تجارة الشمبانيا وأسواقها التي كانت تحت إشراف تجار من فلورنسا ولمبارديا، متمركزين في مدينة بروج Bruges لإنجاز المعاملات التجارية، رغم أن الحجم الأكبر لهذه المعاملات كان مع إنجلترا، وقشتالة، وفرنسا، وبلدان الشمال الأوروبي المنتعشة اقتصاديًا على طريق بحر البلطيق، وصولاً إلى بولندا وروسيا. في سنة 1302 نجح الفلمنكيون في التصدي للملك الفرنسي، وأحرزوا انتصارًا تاريخيًا على القوات الفرنسية المؤلفة من الفرسان في موقعة كورتراي Courtrai. ومع ذلك، اضطر الفلمنكيون فيما بعد إلى قبول الشروط الفرنسية، لتبدأ بذلك حقبة من الاضطرابات، في الريف والحضر على حد سواء، وسرعان ما امتدت هذه الاضطرابات لتعم القارة الأوروبية، مع هجمة الوباء الأسود على أوروبا كلها. ثم جاء موت آخر ملوك آل كاپيه في فرنسا شارل الخامس، ليتصارع كل

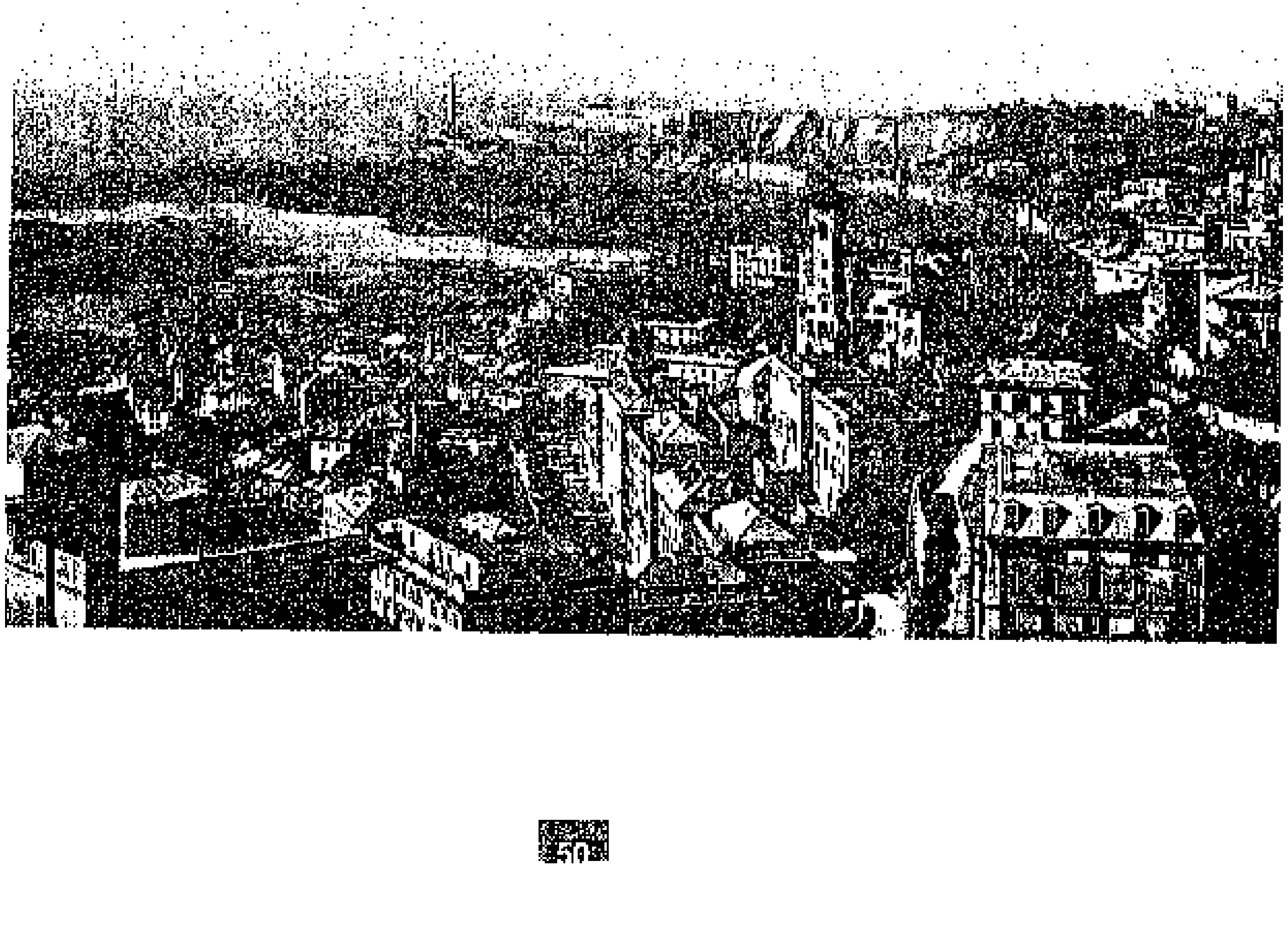

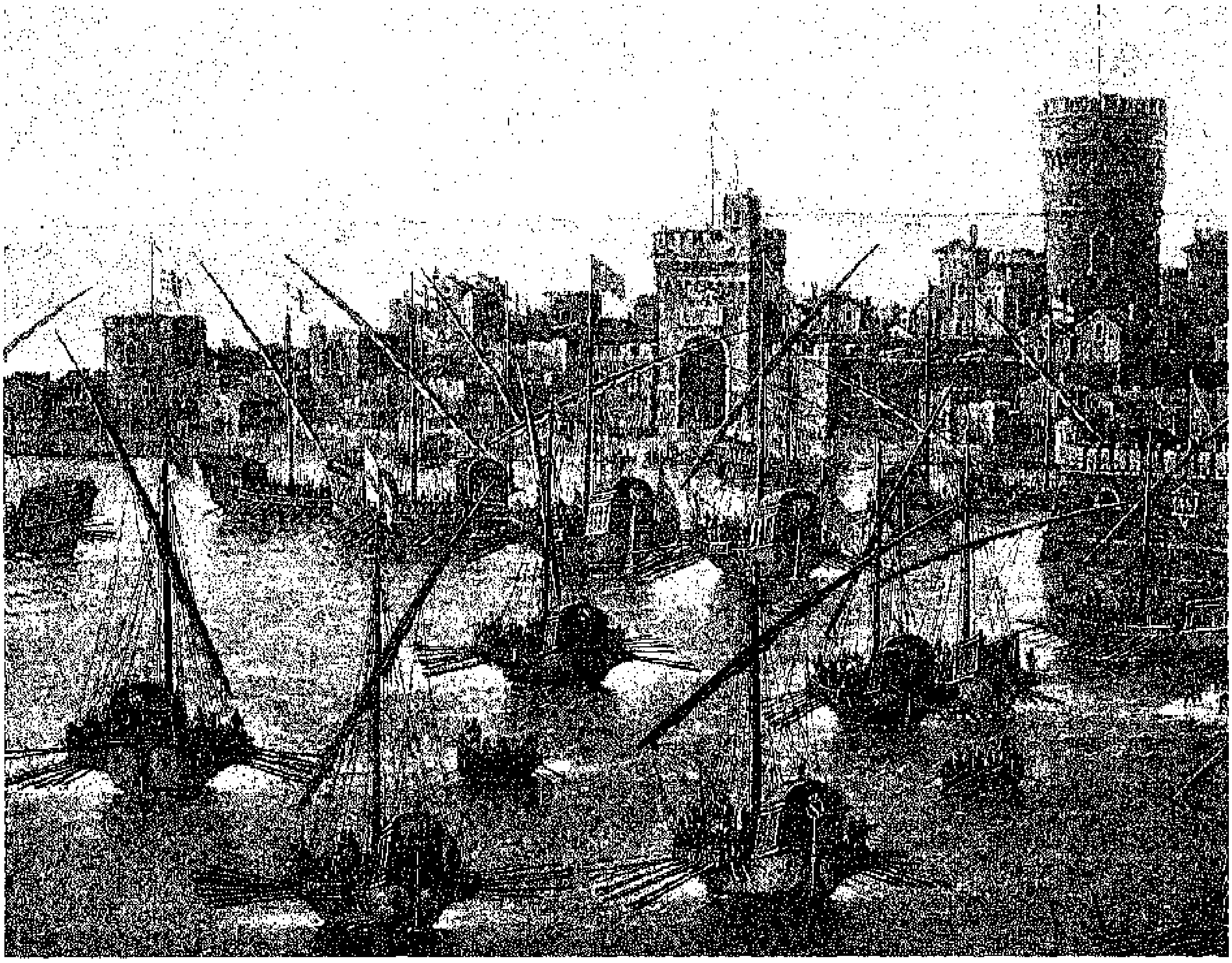

الصدام بين البنادقة والجنوية حول حصار مدينة شيوجيا Chioggia سنة 1379، من رسم يرجع إلى القرن السادس عشر، متحف كورير، البندقية.

من إدوارد الثالث الإنجليزي، وفيليب الرابع آل ڤالوا على العرش الفرنسي، واشتبك الاثنان في معارك ظلت مستعرة حتى منتصف القرن التالي. والواقع أن الأوبئة والحروب. قد اجتاحت القارة الأوروبية، وهي بحق العلامات المميزة لما يعرف باسم العصور الوسطى المتأخرة.

إن هذه الصورة المتأزمة هي التي سادت في الأذهان عن القرن الرابع عشر، خاصة النصف الثاني منه. وقد أشرنا من قبل إلى زيادة ملحوظة في السكان وإلى تغيرات مناخية، الأمر الذي أدى إلى ظهور المجاعات في منطقة فلاندرز الغنية سنة 1315، مما أدى إلى تناقص في أعداد السكان في منطقة فلاندرز وأيضًا في المدن الفرنسية. وعندما بدأت الحرب العلنية بين فرنسا وإنجلترا بعد سنة 1337، وأخذت تجارة الشمبانيا في التدهور، ثم جاء الوباء الأسود بثقله سنة 1347، كل هذا زاد من وطأة الأزمة التي نكبت بها أوروبا. من ناحية أخرى، وقعت أزمة حادة في الكنيسة الرومانية في أعقاب وفاة البابا بونيفاس الثامن سنة 1303، وانتقال المقر البابوي إلى مدينة آڤنيون Avignon بعد سنة 1309. وقد كان لهذا الحدث آثاره البعيدة على المستوى الديني، فلقد أعقب هذا ظهور حركات مناهضة للكنيسة الرومانية، في كل من إنجلترا - جون ديكلف - وبراغ - جون هس -، الأمر الذي مهد الطريق لإصلاح مارتن لوثر في القرن السادس عشر، وهو إصلاح يعبر عن الانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

في سنة 1316، أرسل فردريكو الأرغواني ملك صقلية هدية إلى دوق البندقية جيوڤاني سورانزو (1311 - 1329)، عبارة عن أسد ولبؤة أنجبا فيما بعد ثلاثة أشبال، وقد فسر أهل البندقية هذا الحدث على أنه علامة فأل للمدينة. وبعد أن نجح نبلاء البندقية في توطيد أقدامهم في الحكم، وبعد قيام مجلس العشرة -لمواجهة المؤامرات ثم بعد ذلك الاضطلاع بدور المجلس الأعلى للقضاء- اتسعت رقعة المعاملات والمعاهدات التجارية مع كل من مدينة بروج ومنطقة فلاندرز في سنة 1313، وفي نفس الوقت راح النفوذ التركي يطال منطقة بحر إيجة، بعد أن سيطر الأتراك على مدينة أزمير، في أعقاب

وفاة روجر دي فلور والمعروف أن الشاعر دانتي كان قد قام بزيارة إلى البندقية قبل شهر واحد من وفاته في رافنا سنة 1321. وكانت البندقية قد قطعت شوطًا بعيدًا في مناحي التجارة النشطة، فانتعشت أحوالها، ثم قامت السلطات فيها بفرض ضرائب إجبارية على الأهالي لإحكام القبضة على أراضيها، ولمواجهة العواصف التي اجتاحتها سنة 1340، مع نقص في المياه بعد ذلك بعامين، الأمر الذي فسره المعاصرون بأنه عقاب إلهي للبنادقة بسبب حياتهم الخليعة، وكان ذلك قبيل هجمة الوباء الأسود والزلزال الذي ضرب المدينة سنة 1348، الأمر الذي أهلك عددًا كبيرًا من السكان. هذا وقد انتهز الدوق أندريا داندولو، الذي كان صديقاً للشاعر بترارك، فرصة قيام حملة صليبية ضد الأتراك، لكي يثبت أقدامه في مدينة أزمير، وليقمع ثورة دموية نشبت في مدينة زارا Zara؛ لكن البندقية منيت بهزيمة قاسية في حربها ضد جنوة في جزيرة سردينيا بسبب تأييد مملكة أراغون لها، ثم منيت بهزيمة أخرى في منطقة البسفور، وكان عليها أن تدفع مبلغ 200.000 دوقية كتعويض، وبعد ذلك أجبرت على تسليم دوقيتي كرواتيا ودلماشيا Dalmatia للمجر. والحق أن تلك كانت أوقاتًا عصيبة بالنسبة للبنادقة، وكان الشاعر بترارك موجودًا في المدينة في قصر مولين Molin (1362 - 1368) ليشهد تلك الأحداث. ثم توجب على البندقية أن تدفع مبلغ كبيرًا من المال إلى دوق النمسا، لكي يقرها على ضم منطقة تريستا إلى أراضيها وفي أثناء تتويج بطرس دي لوزنيان ملكا على جزيرة قبرص، نشب صراع آخر بين جنوة والبندقية، ولم تتمكن جنوة من التغلب على البندقية، لأن الأخيرة عززت من قبضتها على الأمور بإشراك ثلاثين من العائلات الشعبية في الحكم، ضمانًا لتماسك جبهتها الداخلية أثناء هذا الصراع. وبعد وساطة من قبل دوق سافوي سنة 1381، وقعت البندقية معاهدة سلام مع جنوة في بلدة تورينو، تعهدت فيه البندقية بالتخلي عن إقليم دلماشيا، والتجارة مع دول البحر الأسود، كما سلمت بعض المدن لدوق النمسا، ومنحت تريستا حق الحكم الذاتي، ولكنها احتفظت بمنطقة كانديا Candia وشبكتها التجارية مع بلدان الشرق. أما آخر دوق للبندقية في هذا القرن، فكان أنطونيو فنير (1380 - 1400)، من أبناء الطبقات الشعبية البارزة والمحبوبة من قبل البنادقة، وقد نجح في استعادة جزيرة كورفو، كما ضم سكرتاري، ودورازو، ونابلي، بعد استخلاصها من رومانيا، ثم أجبر الأتراك على الانسحاب من ألبانيا وبلاد المورة. وبهذه الإنجازات بدا للجميع أن البندقية قد تغلبت على الأزمة التي واجهتها. وفي تلك الأوقات المبكرة، هناك في الوثائق ما يشير إلى رحلات بحرية اضطلع بها البنادقة في المحيط الأطلسي، وصلوا فيها إلى الجزر الباردة النائية في الشمال، وهي جزر فاروس Faroes، وأيسلندا.

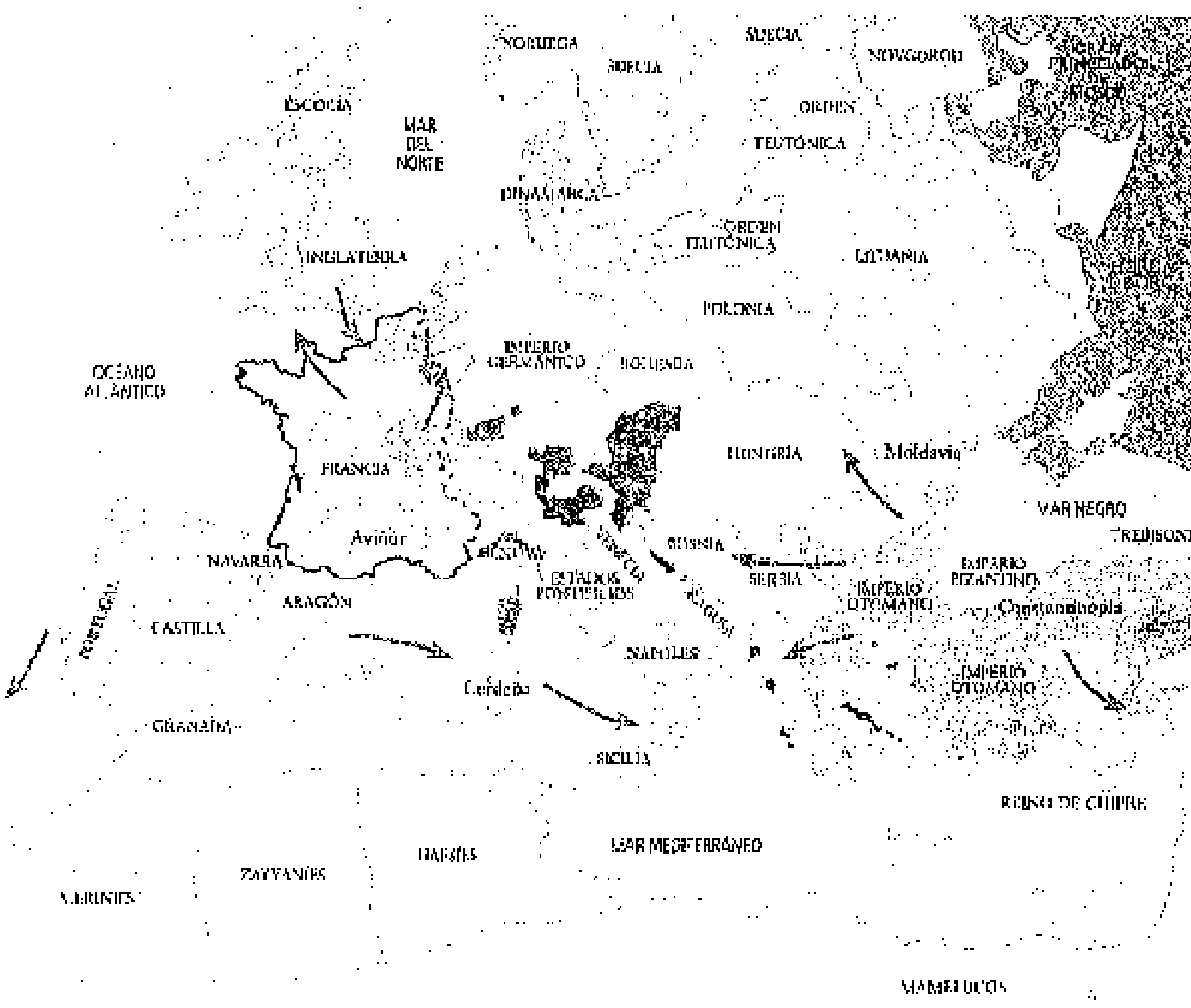

مواقع الدول الساحلية حول البحر المتوسط في رسم تقريبي. القرن الرابع عشر.

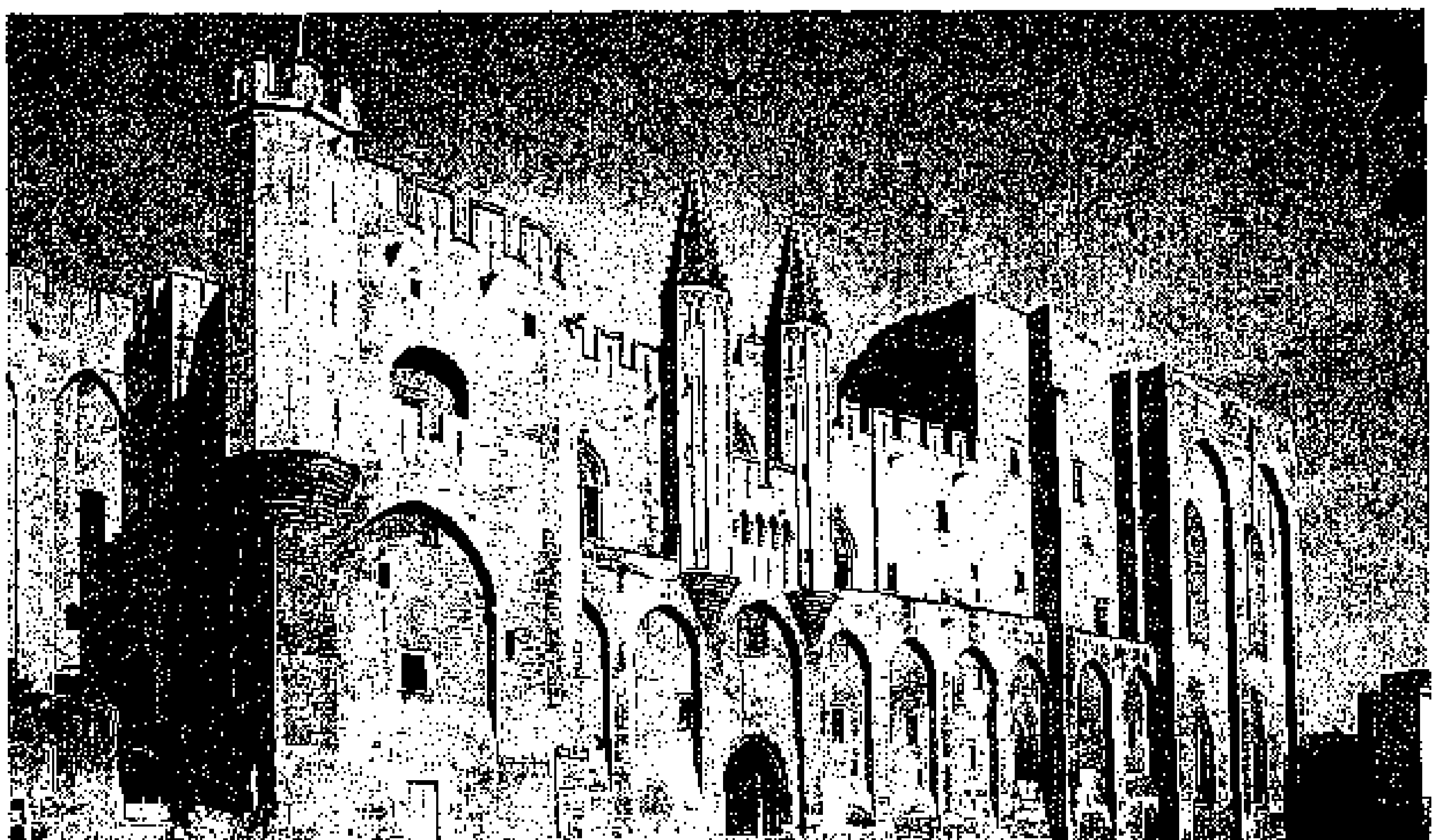

قلعة وقصر في مدينة أفنيون، المقر البابوي في فرنسا.

ومع نهاية سنة 1347، انتشر الوباء الأسود من القسطنطينية وصقلية ومرسيليا إلى كل ربوع أوروبا. وكان هذا الوباء من أشد البلايا التي أصابت أوروبا. وفي نفس الوقت ازدادت الأمور خطورة من جانب الدولة العثمانية؛ فقد نجح

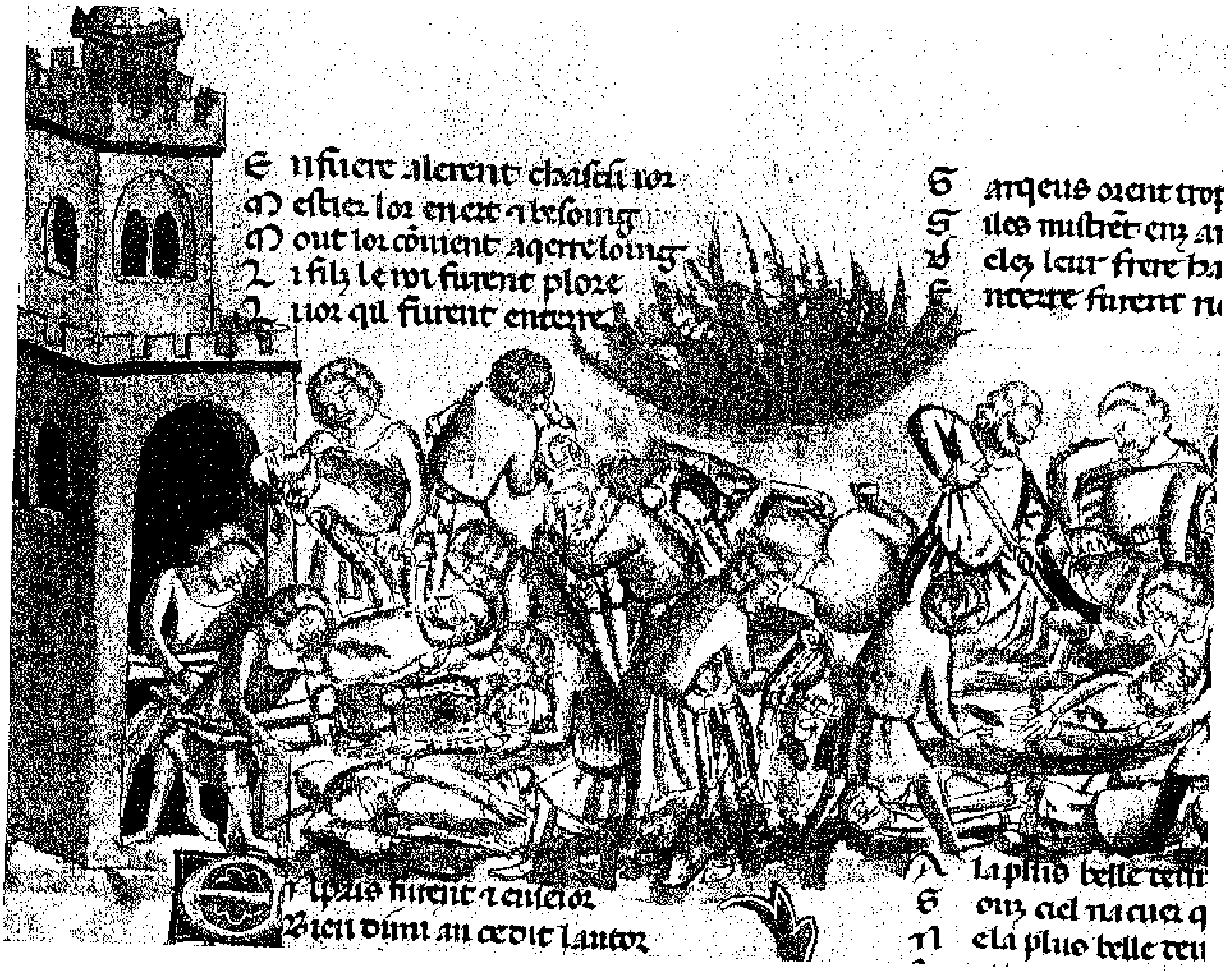

دفن وحراق ضحايا الوباء الأسود، مخطوطة من القرن الرابع عشر

السلطان أورخان ابن ووريث عثمان (1324 – 1360) في تثبيت أقدامه على بروصة، وفرض نفوذه على المدن الرئيسية الأخرى على الأراضي البيزنطية. ولقد مر الرحالة ابن بطوطة بتلك المناطق في شتاء سنة 1332، وامتدح أورخان واصفًا إياه بأنه من أقوى سلاطين التركمان. وبداية من سنة 1346 راح أورخان يتدخل في الشئون الداخلية للإمبراطورية البيزنطية، ويساند فريق يوحنا كانتاكيوزينوي ضد حزب يوحنا باليولوجوس، ثم أخذ يتوغل في إقليم تراقيا Thrace، حتى نجح سنة 1346 في إقامة قاعدة دائمة في مدينة جاليبولي Gallipoli على الأراضي الأوروبية.

بعد ذلك نجح السلطان مراد الأول (1360 – 1389) في السيطرة على أدريانوبل عاصمة إقليم تراقيا: واتخذها عاصمة له بدلاً من مدينة بورصة، وبهذا تمكن أورخان من السيطرة على إمدادات القمح في مدينة القسطنطينية التي أصبحت منذ ذلك التاريخ مجرد مدينة تابعة للسلطنة العثمانية. بعد ذلك كثف العثمانيون من ضغطهم على شبه جزيرة البلقان وبلغاريا، وبذلك وضعوا حداً للإمبراطورية الصربية التي كان ستيفان دوسان (1331 – 1355) قد أرسى قواعدها، كبديل للإمبراطورية البيزنطية المنهارة. وأعقب ذلك قيام حلف بقيادة الأمير الصربي لازار، مجددًا بذلك روح الحملات الصليبية المبكرة، ولكن هذا الأمير لقي هزيمة ساحقة على أيدي العثمانيين في واقعة كوسوفو سنة 1389: رغم بعض الانتصارات القليلة مع بدايات الحرب. ولقد قتل السلطان مراد في هذه المعركة، ليخلفه ابنه بايزيد (1389 – 1402)، الذي رسخ بجهوده قواعد الإمبراطورية العثمانية. ولكن كان على بايزيد أن يتخلى عن مشروعاته في أوروبا، لكي يواجه تمرد أمير قونية Konya في بلاد الأناضول، وبعدها عاد إلى المسرح الأوروبي واحتل بلغاريا. كما أنه سيطر على إقليم سالونيك، وضرب حصارًا حول مدينة القسطنطينية على أن هذا التوسع العثماني في القارة الأوروبية حتى نهر الدانوب أدى إلى قيام حملة صليبية بقيادة الملك المجري سجسمند، أجبرت بايزيد على فك حصاره لمدينة القسطنطينية. وقد نجح الأتراك في هزيمة هذه الحملة الصليبية في موقعة نيكوبولس، الأمر الذي زاد من هيبة السلطان

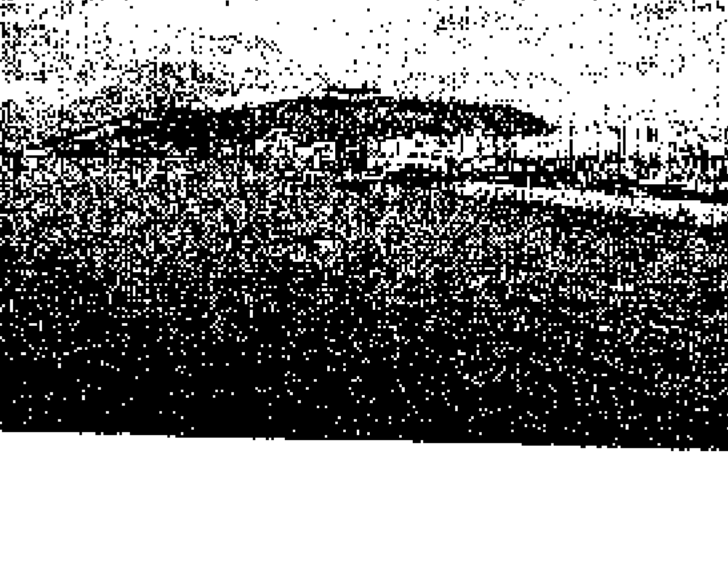

أسفل، ميناء سبتة

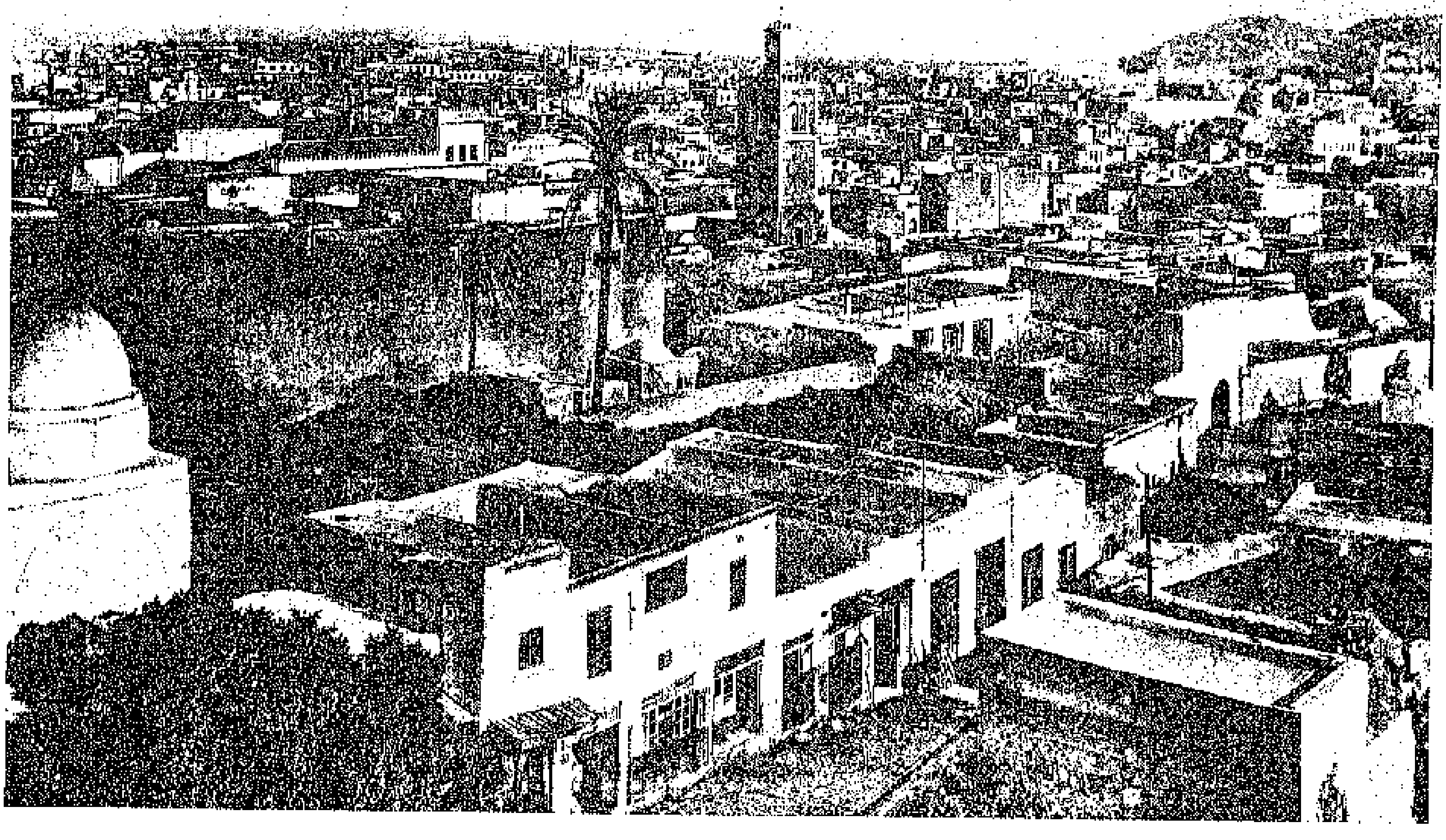

منظر بانورامي لتونس، بطاقة ترجع إلى أوائل القرن العشرين.

بايزيد في نظر العالم الإسلامي كله، وجيشه والمجاهدين والإنكشارية المؤلفة غالبيتها ممن اعتنقوا الإسلام منذ وقت قصير لخدمة السلطان. وبهذه الجبهة الأوروبية الصامدة الجديدة في أوروبا، أمكن لبايزيد أن يعود إلى آسيا الصغرى ليحسم مشكلة قونية. وواصل بايزيد زحفه حتى وصل إلى نهر الفرات، الأمر الذي أدخله في صدام مع سلاطين المماليك في مصر، الذين كانوا يسيطرون على تلك المناطق. وهنا بدأ الاشتباك مع طلائع جيوش تيمورلنك المغولي.

جاءت هجمة تيمورلنك (1336 – 1405) على منطقة الشرق الأدنى لتفت في عضد العثمانيين، فلقد مات بايزيد نفسه في الأسر بعد هزيمته في موقعة انقرة سنة 1402 ضد المغول.

اعتبر تيمورلنك – الرجل الحديدي أو تيمور الأعرج – نفسه وريثًا لجنكيزخان، وقد عزز من هذا الإدعاء بعد زواجه من واحدة من نسل جنكيزخان سنة 1397. وقد اعتمد تيمورلنك في توسعاته على الغارات الخاطفة أكثر من اعتماده على وضع تنظيمات إدارية يحكم بها قبضته على الأراضي التي يحتلها. ولهذا فبمجرد أن انتهت حياته، تمزقت إمبراطوريته إلى أشلاء مبعثرة. وتيمورلنك أصلاً من آسيا الوسطى، وهي منطقة لا نعرف عنها الكثير إلا بعض الشذرات من مذكرات ماركو پولو أو ابن بطوطة، وقد كان تيمور مسلمًا مثل العثمانيين وسلاطين المماليك في مصر. ولهذا السبب قصده ابن خلدون ضمن سفارة مملوكية إلى مدينة حلب* لمقابلة هذا السيد الجديد على منطقة الشرق الأدنى. وقد كان لهذه المقابلة بين ابن خلدون وتيمورلنك صداها الواضح في كتابات ابن خلدون وفلسفته عن قيام وسقوط الإمبراطوريات، وذلك بفترة وجيزة قبل وفاته في القاهرة ودفن رفاته في مقابر الصوفية. ومن هذا التحليل المتأني يتبين لنا قراءة ابن خلدون الواضحة للصدع الذي أصاب خريطة العالم، وهذا معلم هام آخر من معالم نهايات القرن الرابع عشر وبدايات القرن الخامس عشر.

ويبرز العلامة ابن خلدون عدة معالم أخرى عن الأندلس والمغرب، مسقط رأسه (1332 – 1406)، وعن المسالك البحرية لقوافل الذهب – قافلة تمبكتو –، إلى جانب أحوال مملكة بني نصر في غرناطة. لقد ساهمت الفتوحات القطلونية والأراغونية في القرن الثالث عشر، في تفكيك دولة الموحدين وتمزيقها، كما حاول بنو مرين تقديم يد العون إلى غرناطة. على أن المحاولة الأخيرة للموحدين في هذا السياق قدر لها أن تمنى بالفشل على يد ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، في معارك: طريف، والجزيرة الخضراء، وذلك بوقت قصير قبل ظهور الوباء الأسود. بعد ذلك حاول أبو الحسن سلطان بني مرين (1330 – 1350) أن يوحد المغرب، فاستولى على تلمسان، عاصمة بني عبد الواد، ثم على تونس سنة 1347، وذلك عندما ظهر الوباء الأسود. على أن هذا النجاح قصير إذ تمكن الحفصيون

* قابل ابن خلدون تيمورلنك خلال حصاره لمدينة دمشق وليس في مدينة حلب (المحرر)

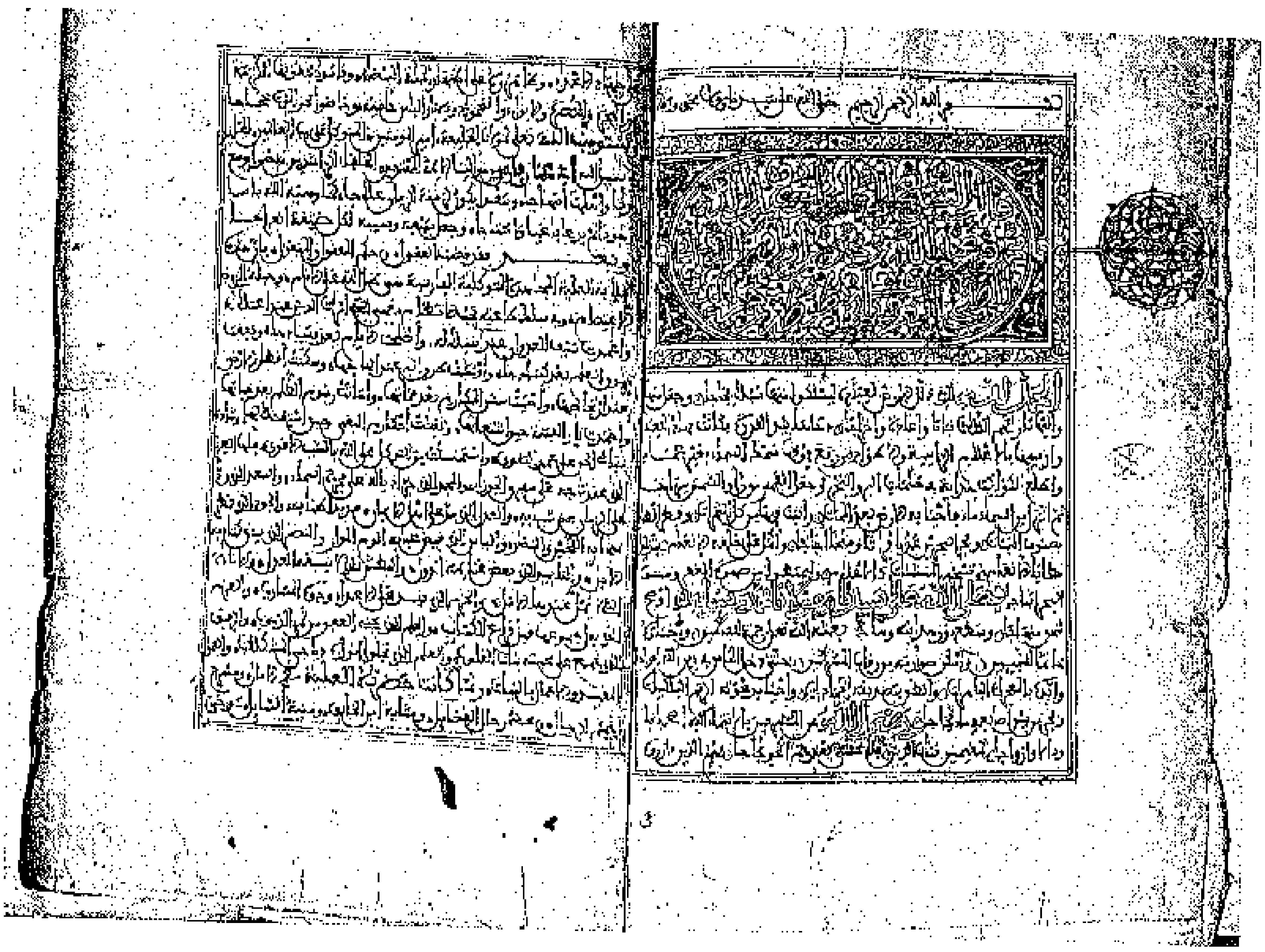

مخطوط عربي حول أسفار ابن بطوطة من طنجة، الأكاديمية الملكية للتاريخ – مدريد.

من استعادة أملاكهم بمساعدة القبائل التي كانت تخضع لهم. كل هذه الأحداث كانت تجري بمبدأ العصبية الذي تولى ابن خلدون شرحه وتفسيره.

وكان الحفصيون قد نجحوا في السيطرة على تونس منذ سنة 1229، بعد أن انسلخوا عن الموحدين، قبيل وصول بني مرين واستيلائهم على مراكش. في هذا الإطار المتشابك الأطراف، استقرت عائلة ابن خلدون في تونس، بعد أن غادرت إشبيلية في منتصف القرن الثالث عشر، وهي نفس الفترة التي حاول فيها لويس الحادي عشر ملك فرنسا شن حملة صليبية على تونس سنة 1270، بحجة امتناع تونس عن دفع الجباية التي كانت مفروضة عليها، وكان لقرب جزيرة صقلية، بعد أن وقعت في قبضة أراغون، دور أساسي في ازدياد التوتر بين الدول الأوروبية والشمال الإفريقي، بسبب أعمال القرصنة والإتاوات المتأخرة. وعلى هذا عندما استرد الملك الحفصي أبو بكر المتوكل (1331 – 1351) مدينة جربة من أيدي أراغون، قبيل غزوة بني مرين، قام أسطول بندقي – جنوي بمهاجمة مدينة المهدية، رداً على نشاط القراصنة في البحر: انطلاقاً من قواعدهم في تونس.

ولقد سار بنو مرين في مراكش، وبنو عبد الواد في تلمسان، والحفصيون في تونس على قواعد المذهب المالكي، المخالف لمذهب الموحدين، في مسائل الملكية والميراث وقواعد المعاملات التجارية والضرائب. وقد شهدت تلك الحقبة توسع الدعوة الإسلامية إلى مناطق جنوبي الصحراء الإفريقية، وصولاً إلى حدود الصين والشرق الأقصى، في مجهود لنشر الحضارة بين أبناء تلك الشعوب. وبهذا اتسعت رقعة العالم الإسلامي، وأصبح البحر المتوسط، بمقدور تاجر مثل ماركو بولو أو رحالة منقف في الآداب والقوانين مثل ابن بطوطة، دون النظر إلى عقيدة أي منهما أن يطوف حول العالم المعروف، وأن يقدم وصفاً لأسفاره لبني جلدته القاطنين على السواحل. وهذه المعلومات الوافدة من أقاصي المعمورة سوف تصبح القوة الدافعة وراء اقتصاد عالمي يشمل المعمورة كلها بمحيطها الواسع. وفي سنة 1414، تمكن البرتغاليون من توطيد أقدامهم في بلدة سبتة: وهذا التاريخ في تقدير المؤرخ الأمريكي جون باري يعد نقطة البداية لاستيطان الأوروبيين الدائم خارج بلدانهم في عالم المستعمرات. وكان الجواسيس البرتغاليون قد درسوا طرق القوافل، ووصلوا إلى مدينة مكة، كما أن أحد الرهبان الفرنسيسكان كان قد تحدث قبل ذلك بوقت عن قبائل الساقية الحمراء في عمق الصحراء.

وعلى الرغم من الأوبئة والحروب التي شهدها القرن الرابع عشر، فإن هذا القرن بالذات قد أرسى قواعد حيوية محفزة للحركة، إلى جانب معلومات مغايرة عن العالم الخارجي – من ذلك دوران البرتغاليين حول قارة إفريقيا، ثم مغامرة كولومبوس واكتشاف العالم الجديد أو أمريكا.

ابن خلدون يحدد الطريق إلى المحيط الأطلسي

ماريا خيسوس فيجيرا مولينز
جامعة كومبلوتنسي - مدريد

ترجمة حاتم الطحاوي

يستهل ابن خلدون "المقدمة" الشهيرة بعدة مقدمات ليتناول فيها الأولى الحضارات الإنسانية على المستوى العالمي، ويواصل مباشرة رسمه الإطار الجغرافي الذي تم عبره تطور الحضارات، وذلك عن طريق الوصف المادي الشامل الذي شرع في وضعه كما يلي:

"قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها. وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح وإنما التحت الطبيعي قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض".

ابن خلدون وجزر الكناري

وبعد وصفه للبحار والمحيطات بوقت قصير، نجد أن ابن خلدون عند النظر في شكل الجزء الأول من الأجزاء السبعة لوسط العالم، وقد بدأ من الغرب بجزر الكناري أو الجزر الخالدات وكتب يقول:

"وفيه من جهة غربية الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الإقليم وإنما هي في البحر المحيط في جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة. وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون وأن الحديد مفقود بأرضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم الماعز وقتالهم بالحجارة يرمونها إلى خلف وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة. ولا يوقف على مكان هذه الجزائر إلا بالعثور لا بالقصد إليها لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب، وإذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفافي البحر الرومي وفي عدوتيه مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم. وهذا كله مفقود في البحر المحيط، فلذلك لا تلج فيه السفن لأنها إن غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدي إلى الرجوع إليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأبخرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء إليها وصعب الوقوف على خبرها".

عندما وصف ابن خلدون الأقاليم السبعة فقد كان يقول "نحن نوضح ما ... في صور الجغرافيا كما رسمها مؤلف كتاب روجر [الإدريسي]" ... 1956 ...

خريطة جغرافية لمحيط الأطلسي، المكتبة الوطنية - باريس

تتضمن الدراسة الرائعة "النصوص العربية عن رحلات إلى المحيط الأطلسي"[1] لنجوى فريد على ترجمة هذه القطعة لابن خلدون، وقد وضعها في تسلسل للمصادر العربية التي رغم ثرائها من حيث الطول والجودة أو معلومات مكررة، تتناول بالتحديد رحلات العصور الوسطى المختلفة إلى المحيط الأطلسي ما بين القرنين التاسع والرابع عشر. ومن بين كل تلك المصادر، قد علق فريد - بحق - على ثروة المصادر التي قدمها ابن خلدون. وكخبير في تاريخ الملاحة، أوضح فريد إلى أن هذا المؤرخ الرائع لابد وأنه كان يشير إلى خريطة ملاحية من أواخر القرن الثالث عشر، إذ إن البورطولانو - أو الخريطة الملاحية - كانت معروفة بالمغرب منذ أوائل سنة 1330 على الأقل؛ كما أوردوا فيها شواطئ المحيط الأطلسي من أيرلندا وإنجلترا حتى مدينة الجديدة Mazager جنوب المغرب.

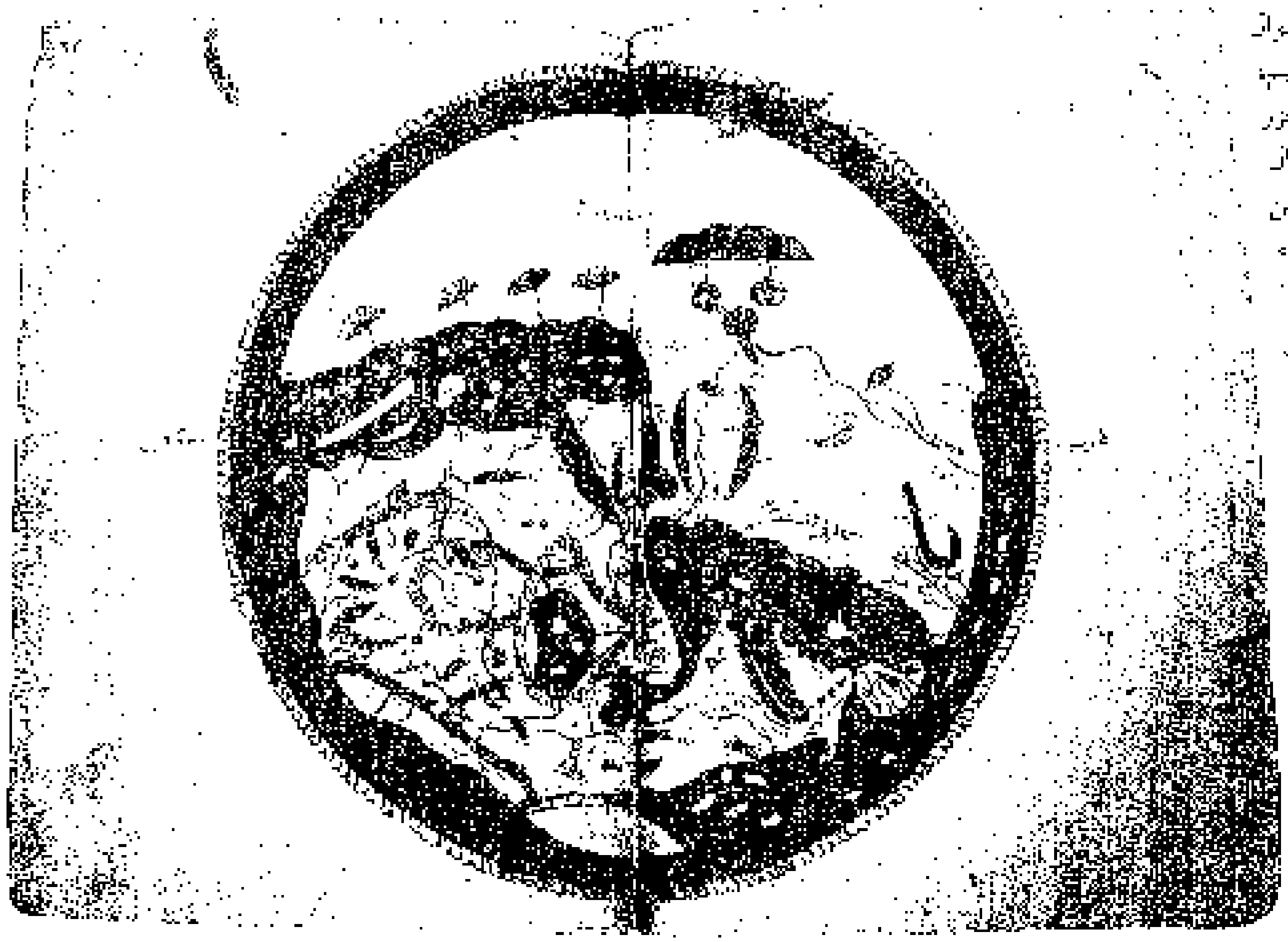

أعتقد أن ابن خلدون - في نصه المذكور - يعكس بوضوح تفهمه للتغيرات التي حدثت في القرن الرابع عشر بخصوص نجاح الملاحة في المحيط الأطلسي، ويبدو أنه كان على دراية بالوضع المعتاد من محدودية المعلومات الملاحية عند الإبحار في المحيط الأطلسي، ونجاح تجربته عملية، بعضها عن كثب تلك معلومات أواخر العصور الوسطى ذات الاعتبارات الهامة والمتعلقة بالواقعة على نحو مباشر بين سكان واحدة من جزر الكناري من خلال اتصال مباشر مع أناس أتى عليهم بشكل عام الفرنجة والأوروبيون بشكل عام؛ فقد كانت حيوية تمت معرفة بدون الإحقاق نقلاً عن بعض سكان الجزر، كما يذكر عن أوصافهم الجالية والإقامة بعد أن أصبحوا أسرى وبعد أن أسهم بعضهم تعلموا اللغة العربية بعد وصولهم المغرب.

1 Anuario de Estudios Atlánticos، ... De Abd al-Rahman El Fasi، 1989، ص 107 - 223

لذلك، فإن هذه التجربة الواقعية والمباشرة تحل محل القصص الخيالية المعتادة التي تحيط بالجزر. [2]

المقريزي ينقل عن ابن خلدون

يعد تنويه ابن خلدون القياسي عن التوقعات المتزايدة للملاحة في البحر المتوسط من جهة والصعوبات المحيطة بالمحيط الأطلسي من الجهة الأخرى مجرد أطروحة وليس تأييدًا وتنبؤًا بإعمال نفس الخطوات الملاحية المطبقة في البحر على المحيط. ومع ذلك، وقبل استكمال الملاحظات الأخرى، فإنني سوف أعرض نصًّا للمقريزي يعبر فيه عن انطباع لا ينسى، وهو أن الحوار الذي وقع بين الجنوية والكناريين Canaries لابد وأنه حدث في البلاط المغربي، كما رواه الأطراف بأنفسهم.

كان المؤرخ المصري المقريزي (القاهرة، 1364 – 1442)، من أكثر تلامذة ابن خلدون المباشرين في الشرق؛ إذ نجده قد استقى العديد من أعماله من عمق عبقرية معلمه حتى أنه نقل المعلومات والأخبار المتنوعة مباشرة عنه. وهذا بالتحديد في حدث واقعة الكناريين الشهيرة والتي أضفى عليها المقريزي طابعه الخاص فضلا عن التأكيد عليها من خلال تضمينها في المقدمة التي أهداها المؤلف المصري لابن خلدون في مؤلفه عن تاريخ حياته: درر العقود Durar al- uqud، الأمر الذي يعكس الأهمية التي أعطاها كل منهما لهذه الواقعة: [3]

"أخبرنا أبو زيد (ابن خلدون) أنه في حوالي سنة 740 من الهجرة (الموافق يوليه 1339 أو يونية 1340)، أن أبا الحسن سلطان المرينين قد وصل إلى سبتة، وقد دنا منه مجموعة من الجنويين على متن سفينتين وأخبروه كيف أبحروا من جنوة مع مؤن تكفي لعامين، متجهين للبحر (المحيط الأطلسي)، بهدف استكشاف ما وجدوه هناك، وللإبحار حول الأرض المأهولة. وفي طريقهم، وصلوا إلى جزر الكناري (الجزر الخالدة)، ووجدوا السكان عراة، ولا يعرفون الملابس؛ وكانوا وبالكاد يغطون عوراتهم. وعندما نزلوا على تلك الجزيرة (هكذا قالها)، قام السكان بسد الطريق أمامهم لمهاجمتهم، ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة السهام وولوا مدبرين. وسيطر الجنويون على الجزيرة ونقبوا فيها بحثًا عن الثروات، ولكنهم لم يجدوا من الحيوانات سوى الماعز. وقام السكان الأصليون بحرث الأرض بقرون الماعز لبذر الشعير حيث لم يكن لديهم غذاء من الحبوب سواه. وهم لا يملكون أسلحة؛ ويستخدمون الحجارة فقط؛ إذ يلتفون حول الخصم ويرشقونه بالحجارة بسرعة. وهم يسجدون عند شروق الشمس فوق الأفق الشرقي".
وعندما لم يجد الجنويون أيًّا من الثروات أو اللباس، تزودوا بالماء وأخذوا بعض الأسرى معهم ورحلوا، وواصلوا في البحر إلى أن كادت تنفذ مياههم، وأصبحوا غير قادرين على التزود باحتياجاتهم ويخشون الموت، لذا فقد عادوا إلى أقرب مكان توجد فيه مياه من الأماكن التي تركوها خلفهم، وقاموا بالتزود مرة أخرى بمخزون واستمروا في رحلتهم، ولكنهم لم يهيموا بعيدا عن اليابسة في حال رغبتهم في العودة.
وأضاف ابن خلدون، أن السلطان أبا سالم قد طلب منهم بعضًا من أسرى الجزر، وقد سلموه اثنين من الرجال اللذين أصبحا في خدمته وتعلمًا اللغة العربية، وهكذا أطلعوه على موقفهم وأخبروه أن شعوب تلك الجزر لم تسمع عن الإسلام قط".

تعتبر هذه القطعة للمقريزي شائقة جدًا، وقد أولاها عبد الهادي التازي أهمية كبيرة في كتابه "التاريخ الدبلوماسي للمغرب من العصر القديم حتى العصر الحديث" [4] وذلك ليبرز

سكان جزر الكناري، في أوائل القرن السابع عشر، رسم تخيلي، من الطبعة الهولندية.

2 M. Delgado Pérez, Lo real y lo maravilloso en la ecúmeno del siglo XIII. Las Islas en el Athar al-bilad de al- Qazwini, Seville, 2003.

3 M. J. Viguera Molins, "Eco árabe de un viaje genovés a las Islas Canarias antes de 1340", Medievalismo, 2 (1992), 257 - 258.

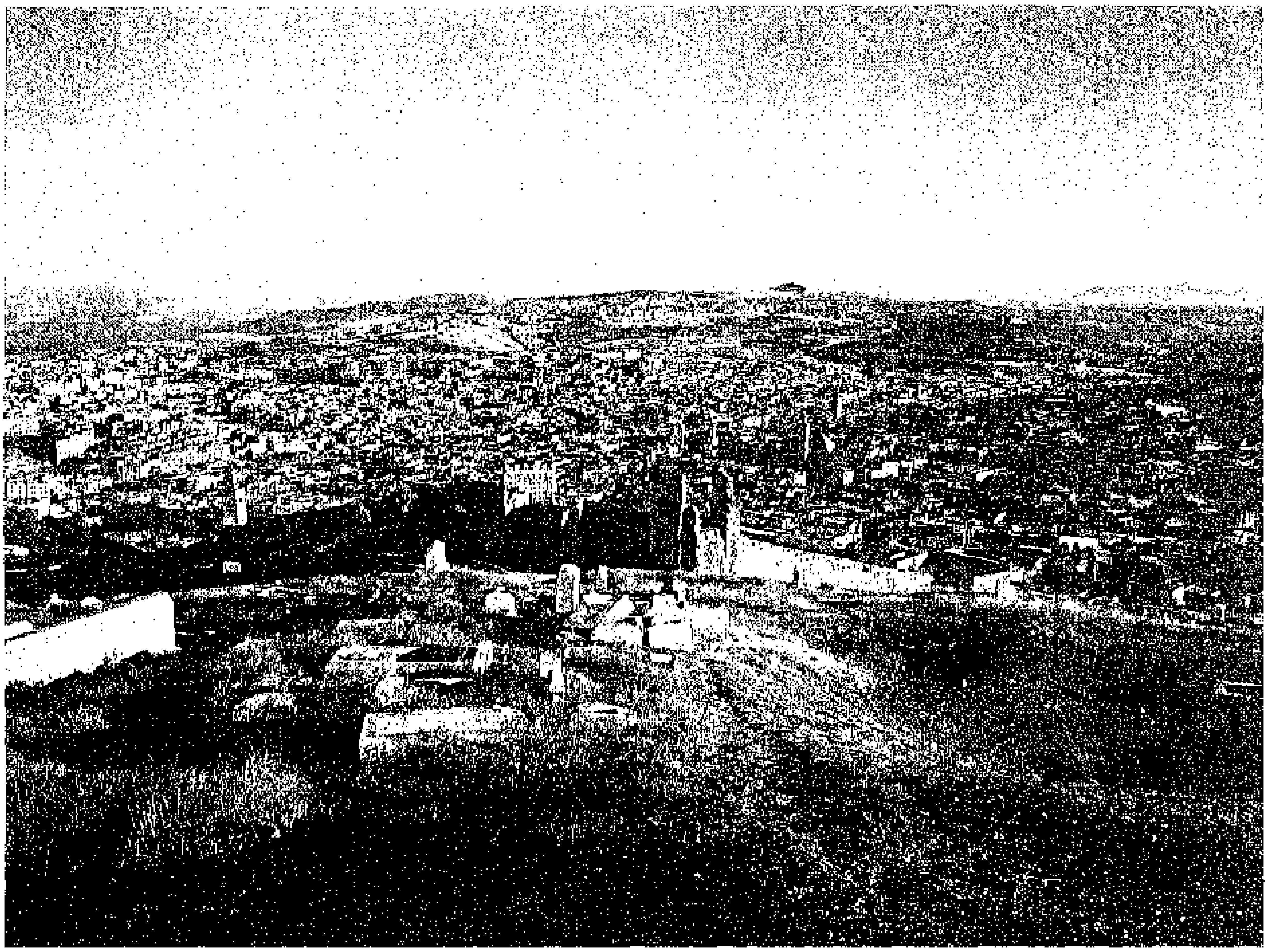

مدينة فاس.

ظروفًا مادية معينة قد أغفلها ابن خلدون في "المقدمة"، حيث قصد لتعميم مثال الحدث على نحو أشمل. ومع ذلك فقد روى مثل تلك التفاصيل لتلاميذه، تاركًا لنا وضع المعلومات بصورة أوضح من خلال الدلالات السابقة، ثم تفهم وقعها على ابن خلدون الذي أشار إليها شفهيًا وفي مؤلفاته.

ويعود الفضل للمقريزي الذي وفر لنا التسلسل الزمني للتفاصيل، موردًا السنة ومشيرًا إلى السلطان أبي الحسن الذي حكم في الفترة ما بين سنتي 1331 و1348، كما حدد المقريزي حملة الجنوية التي من المحتمل أن تكون ذات صلة بالشخص التي قام بها وهو لانسيلوتو Lancellotto أو لانزاروتو مالوسيللو Lanzarotto Malocello ربما في سنة 1336، والذي أطلق اسمه على إحدى الجزر، كما يظهر على خريطة دلسيرت في سنة 1339 "جزيرة لانزاروتوس ماروسيللوس Lanzarotus Marocelus" ومميزة بعلم جنوة [5].

ملاحظات أخرى

كتب ابن خلدون في الرحلة الأولى المذكورة أن "الفرنجة وصلوا إلى تلك الجزر في منتصف هذا القرن"، أي ما يوافق القرن الثامن الهجري والذي يتزامن مع منتصف القرن الرابع عشر تبعا لتقويمنا. ولذا قام الجنوية برحلتهم حوالي سنة 1340، حيث لم يبلغ ابن خلدون وقتها العاشرة، ولكن ابن خلدون فيما بعد أصبح على اتصال بالسلطان أبي الحسن والمغاربة المرينيين وذلك عندما اضطلعوا بالحملة التونسية في ربيع سنة 1347 وديسمبر سنة 1349. وبات جليًا أنه قد سمع برواية الجنوية الذين رسوا على إحدى جزر الكناري. وإن لم تكن هذه هي حقيقة الوضع، فإنه من المحتمل أن يكون ابن خلدون قد عرف أخبار ذلك الحدث

4 التاريخ الدبلوماسي للمغرب، الرباط 1986- 1989. المجلد 11، 116: 117

5 P. F. Simbula, "Apertura de las rutas comerciales de las flotas Italianas hacia el Atlántico", in A. Malpica (ed.), Navegació Maritima del Mediterráneo al Atlántico, Granada, 2001, 209 – 258.

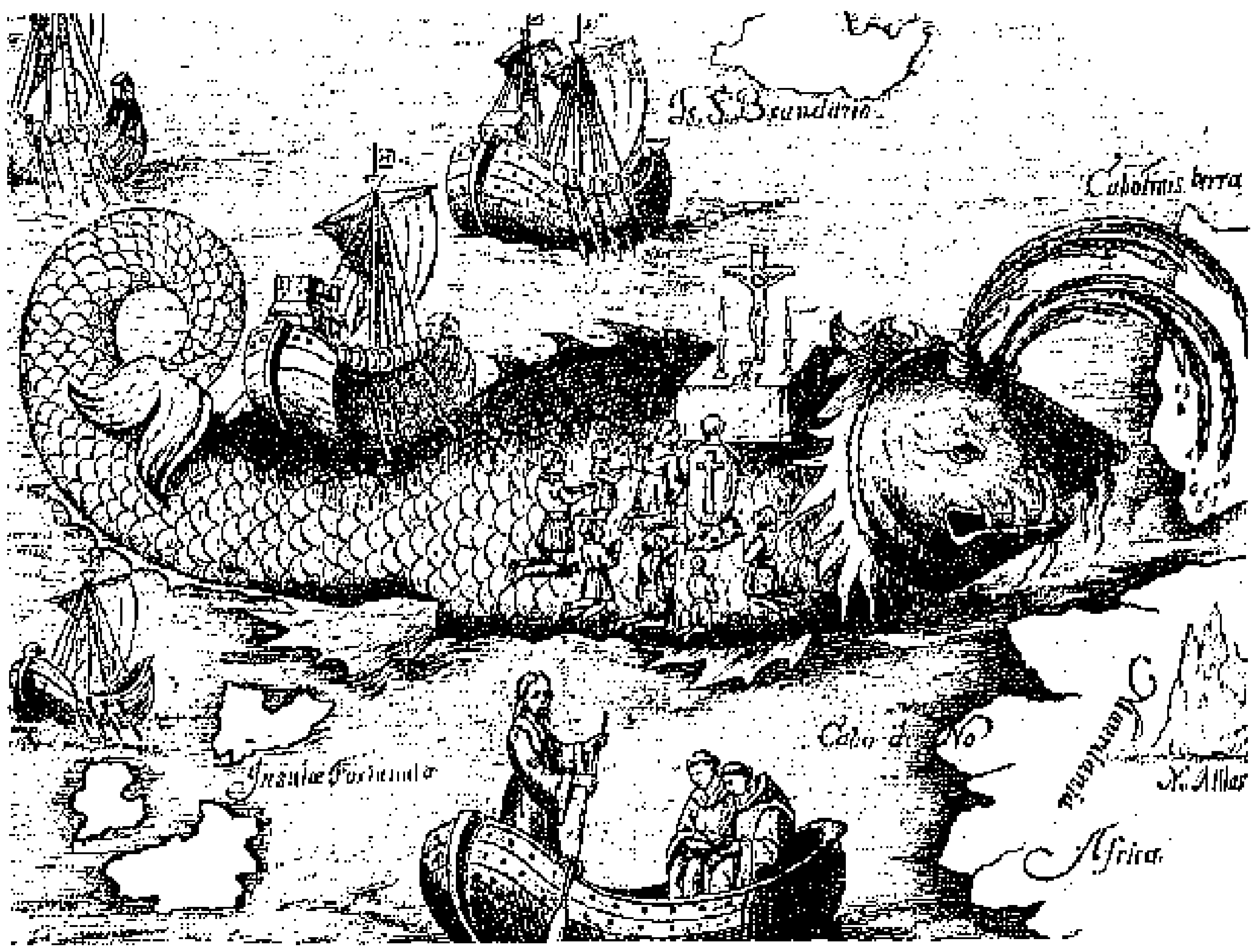

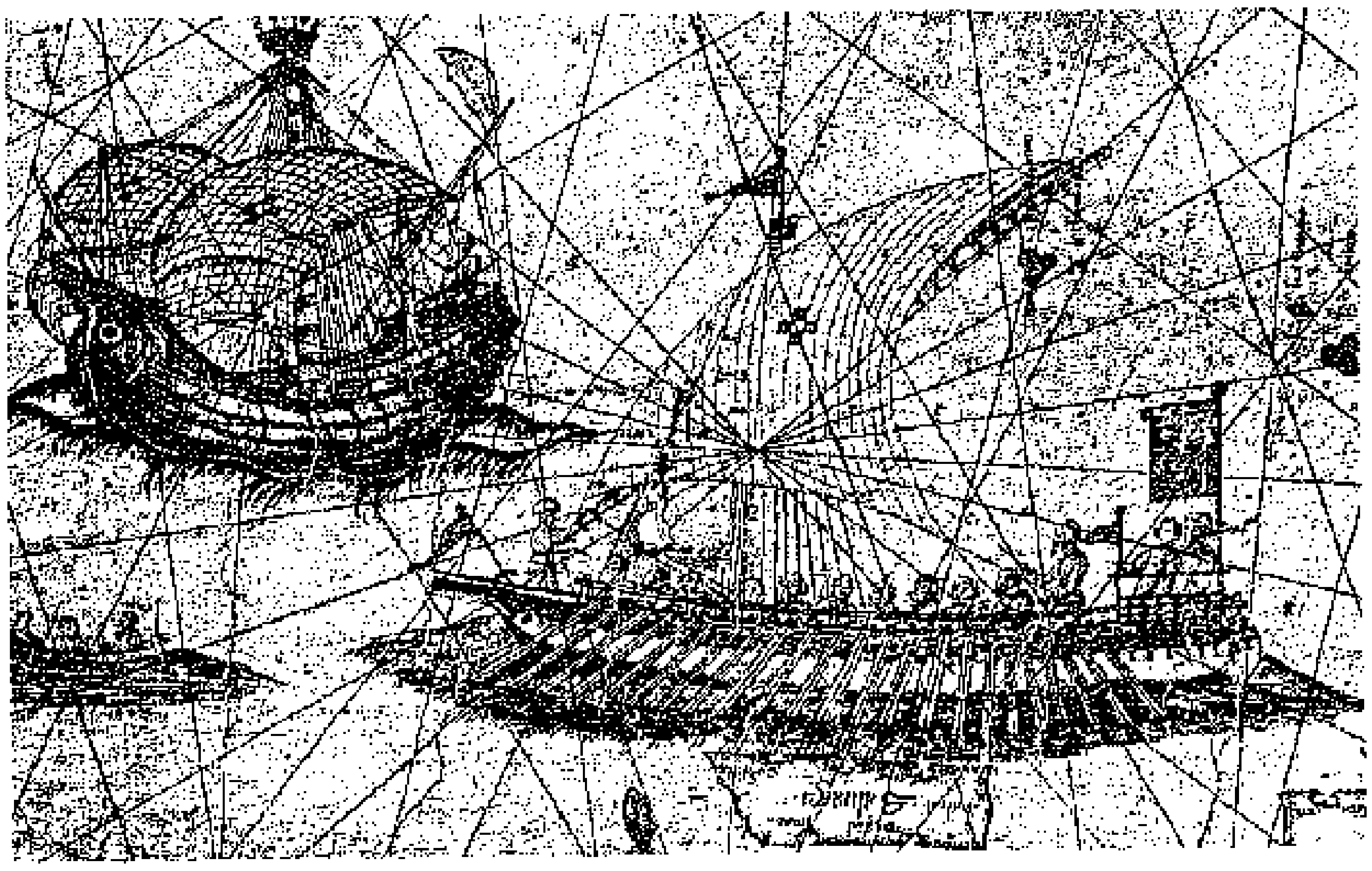

أعلى، المحيط الأطلسي وجزر الكناري، من خارج ساحل موريتانيا: وإلى الشمال جزيرة سان برنادون، تفاصيل من حفر يعود إلى القرن السادس عشر.

أسفل، قارب وسفينة في المحيط الأطلسي في خريطة ملاحية من القرن السادس عشر.

عندما نزل بفاس العاصمة المرينية بعد سنة 1354، أو عن طريق السلطان أبي سالم حيث كان ابن خلدون صديقًا له وحارسًا في خدمته بالمغرب خلال فترة حكمه ما بين سنتي 1359 و1361. هذا هو أبو سالم الذي ذكر في رواية المقريزي للحدث، وفي ذلك الوقت حوالي سنة 1340 كان أميرًا شابًا، وكان يصحب والده السلطان أبا الحسن لدى مقابلة الجنوية، كما كان هو من طلب "إعطاءه بعض أسرى الجزر"، هؤلاء الذين سيخبرونه فيما بعد عن موطنهم وعاداتهم.

في الحقيقة لقد انشغل الغرب في النصف الأول من القرن الرابع عشر، حول كيفية حصول ابن خلدون على أخبار الجنوية في الكناري، وكيف علم سلطان المغرب بالأمر، لقد حافظ المؤرخ الرائع على إبقاء تلك الذكرى خالدة ووصفها في مقدمته، وقد شرع في كتابة التاريخ العالمي سنة 1375 وانتهى منها بعد ثلاثين عامًا. وعلاوة على ذلك: فإنه كان متأثرًا بذكرى هذا الحدث حتى إنه تحدث عنه عندما استقر به الحال في مصر سنة 1382.

وعلاوة على هذا، وتأكيدًا على الحقيقة التي عرفها ابن خلدون –كما رأينا في القطعة المقتبسة من المقدمة؛ وهي "أن الأرض دائرية الشكل ومحاطة بعنصر الماء". فقد كان على وعي تام بأهمية اكتشاف المحيط الأطلسي، وكان مقدرًا جيدًا لعواقب غزو الجنوية في تلك المياه، لأنهم كما أرادوا– نقلا عنهم– "اكتشاف ما وجدوه هناك، والإبحار في المياه حول الجزر المأهولة". (هذه الكلمات أخذها المقريزي نقلًا عن حديث ابن خلدون).

وهكذا، يعد هذا المؤرخ الرائع من الشخصيات العظيمة في عهده لأنه استطاع إدراك أهمية تلك المحاولات الأولى لعبور المحيط الأطلسي، والتي تكررت كثيرًا في القرن الرابع عشر عن مثيلاتها العرضية في السابق. وقد أخذ على عاتقه مسئولية اكتشاف الحقائق ومناقشتها ليس فقط مع البحارة والمسافرين بل ومع مؤلفي الخرائط مثل دلسيرت –أول من عرض خريطتين لجزر الكناري– ولكن مع الموهوبين أمثال بيترارك وبوكاشيو، اللذين شعرا بالرغبة في الإفصاح عن أن الوصول إلى جزر الكناري سيكون عن طريق جديد سيتم افتتاحه ليبدءوا الطواف حول العالم.

ويعتبر وصف ابن خلدون لمثل تلك المجابهات الأولية بين الجزر المعزولة وحضارات العصور الوسطى المتأخرة مظهرًا أكده البحث الحديث حول جزر الكناري، وهو ما لفت الانتباه إليها ديفيد أبو لافية في مقالته مؤخرًا تحت عنوان "التقاء العصر الحجري بالعصور الوسطى: أولى اللقاءات في جزر الكناري" ومأخوذة من كتاب شارك في وضعه مع ن. بيرنا

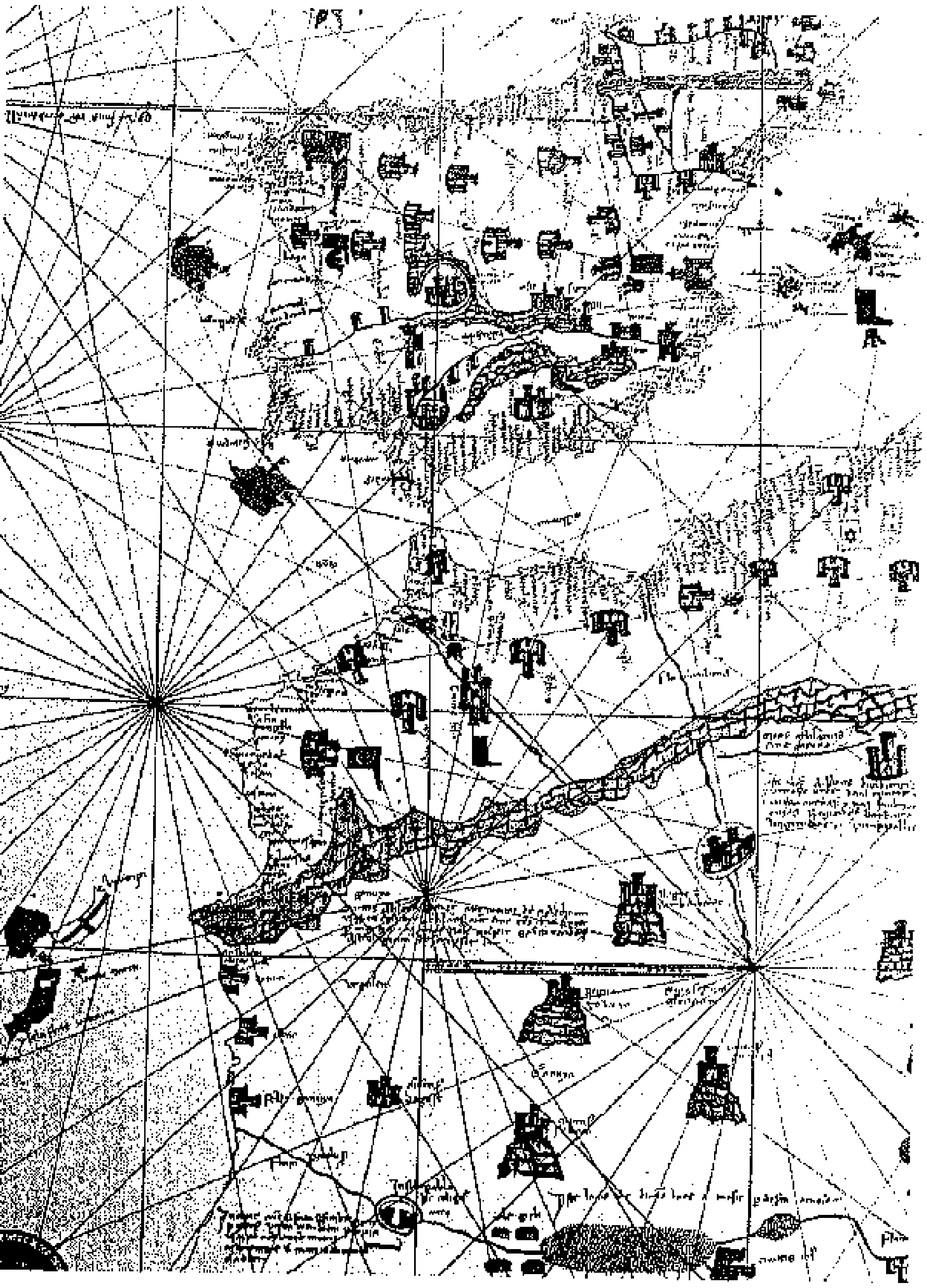

تفاصيل من خريطة Pizigani Brothers يظهر من خلالها شبه الجزيرة الأيبيرية، وغرب المغرب، وجزر الكناري، سنة 1367.

بعنوان "حدود العصور الوسطى: المفاهيم والممارسات" في سنة 2002.

وقد أوضح سيرا رافولس في مقاله "وجود العرب قبل الإسبان في الكناري" Los árabe y la Canarias pre-hispanicas [6] أن الحدود الرئيسية للجزر التي عكف عليها ابن خلدون (على الرغم من أن هذا الخبير العظيم لم يطلع على نص المقريزي المتمم) يرجع "لإيجازها لقيمة اسمى من أي شيء ورد في الآداب اللاتينية – اليونانية والشرقية مجتمعة"، وأن "صدق الأخبار واضح تمامًا، وأنه لم يعد من الضروري أن نصر على الحقيقة القائلة بأن الخمس الخصال الرئيسية لجزر الكناري كانت مأخوذة عن أسرى السلطان وأنها صورة طبق الأصل منها لدرجة أن عالمًا بارعًا وأحد رواد علم الأجناس البشرية كابن خلدون لقادر على سرد الكثير بعبارات موجزة".

علاوة على ذلك، فإن أخبار ابن خلدون مفيدة لتأكيد أهمية القرن الرابع عشر الذي أطلق عليه "قرن إعادة الاكتشاف" بالنسبة لجزر الكناري من ناحية، ومن الناحية الأخرى عن تاريخ جزر الأرخبيل الذي كان موضع اهتمام متجدد لبعض سنين، كما أكد ماركو مارتينيز في كتابه "جزر الكناري منذ العصر القديم إلى عصر النهضة" [7] ومن الممكن أن نقرأ أيضا مقال أونروبيا بينتادو J. Onrubia – Pintado "الكناري" في موسوعة البربر Encyclopedie berbere وما شابه، أو تلك المذكورة في مخطوطات "البربر في الكناري Marruecos y Canarias أو "الحملات الصليبية" Miradas Cruzadas [8]. ويعد مرجع ابن خلدون وثيق الصلة بتاريخ المحيط الأطلنطي، بالإضافة إلى إسهامات أخرى مثل كريستوف بيكرد "المحيط الأطلسي الإسلامي، وغزوات العرب في عهد الموحدين" [9] ويعد أيضا مرجعًا مفيدًا لتاريخ الملاحة في المحيط الأطلسي، مع النصوص العربية الرئيسية التي استحضرها ديفيد لطف الله القاري مساهمة منه في ندوة "الأندلس: قرون من التغييرات والإنجازات"[10]، وبعض الأوراق من مخطوطات "المغرب الأقصى والأطلنطي"[11] وعند النظر في المراجع، كان لابد لي أن أقف عند تقصي عدد قليل من الإسهامات الحديثة من كل المواد المنشورة المتاحة.

وإيجازًا، فإن وصف ابن خلدون المكتوب أو الشفهي للحدث في عبارات متوازية ومتممة لبعضها البعض يضم سلسلة من القرائن الهامة المتعلقة بمغزى طريق المحيط الأطلسي في الإرهاصات النصية؛ طريق محاط بعناية منظمة في القرن الرابع عشر وأصبح من السمات الفاصلة في ذاك الوقت، وكان هذا المؤرخ العبقري؛ الذي لن ننسى خصائصه الجوهرية، هو من أشار إلى هذا الطريق.

6 Revista de Historia, 86 – 87 (1949), 161 – 177.

7 Tenerifa, 1996

8 أغادير، 2000

9 باريس، 1997

10 الرياض، 1996 المجلد الثاني: 475-507

11 الرباط، 1992

أحوال الدولة

أصول الدولة الحديثة

رافايل ج. بينادو سانتايا
جامعة غرناطة
ترجمة إسحاق عبيد

إن النظرة الخاطفة على المسرح السياسي في القرن الرابع عشر تؤدي إلى الخروج بانطباعات سلبية. ولقد لخص الكاتب روبرت فوسيه هذا المعنى في عنوان لأحد أعماله هو "كبح السلطة"، وأيضًا في فقرة بليغة في قوله: "يا لها من صورة كئيبة تلك التي كانت تمثلها الدولة آنذاك! هنا بابوات يتمسكون بأهداف الكرامة المشكوك فيها، ثم يتبدد هذا البريق، وينتهي أمرهم إلى حال من الحقارة؛ وهناك أباطرة أصحاب آمال كبار ولكن أسماءهم مضت إلى طي النسيان؛ أما ملكيات الغرب الأوروبي فإنها في حال من الفوضى الضاربة؛ فالبعض منهم طاعن في العمر، أو أطفال قصر، أو أفراد مختلو العقل، أو أشخاص على وشك الخلل؛ ثم هنالك أيضاً مشاكل من عمد المدن، وأمراء وقادة عسكريون، الذين انصبت همومهم على تفوق عابر وعلى الهيمنة الآيلة إلى السقوط. ورغم كل ذلك، ففي وسط هذا الزخم المشوش المتهوس، أرسيت بعض معالم الدولة العصرية".

وقد خرج الأستاذ جي بوا Bois، وهو حجة في تاريخ العصور الوسطى المتأخرة، بنتيجة تقول: "إن الدولة الحديثة والأمم الأوروبية لم تظهر من العدم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ... ولكن ظهورها قد بدأ بإرهاصات لا يمكن فهم دلالتها المنطقية إلا من خلال فهمنا للنظام الإقطاعي"! وإذا كان مفهوم الدولة الحديثة – وهو مفهوم لا يقبله المؤرخون– يعني ازدهار العلمانية، وحق السيادة، وتوسع الحكومات بمؤسساتها وضرائبها، وما يترتب على ذلك من حوار بين الأمير والرعية، فإن هذه الملامح جميعها ليست بالغريبة على منظومة الملكيات الإقطاعية، دائمًا كانت نتاجًا لهذا التحول التدريجي". وباختصار لقد كان هذا التحول واضحًا في وصية الملك فيليب أغسطس سنة 1190: "إن مهمة الملك تتمثل في تسخير كل الإمكانيات لخدمة احتياجات رعاياه، بحيث يضع الصالح العام فوق المصالح الشخصية". وبالمثل اتسم حكم ألفونسو العاشر ملك قشتالة والملقب بالحكيم أو العالم (1252 – 1284) بسمات ثورية تدعم من خلق سلطان ملكية حديثة، ليس فقط بسبب التغييرات الهامة في الحكومة ونظام الضرائب، وإنما أيضًا بسبب التعديلات التي أدخلها على القانون، من أجل تعزيز سلطته الملكية (الميثاق الملكي: التأمل والتفكير، الأبواب السبعة).

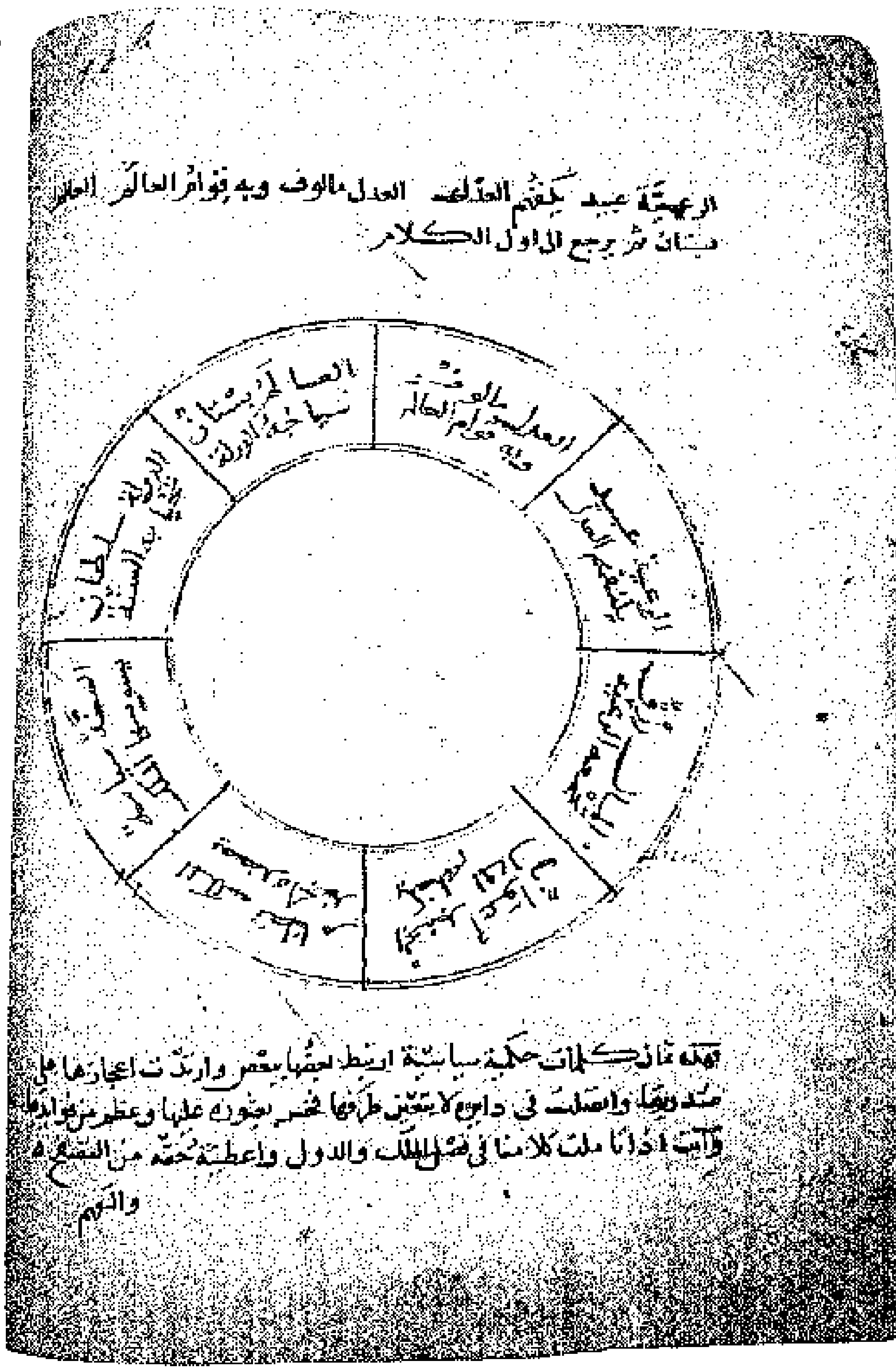

يعدد ابن خلدون في كتابه المقدمة: 1، 18 ب، مخطوط عاطف أفندي، 1936، المكتبة السليمانية، إسطنبول، الأطروحات السياسية ومبادئها المنسوبة إلى أرسطو في التالي داخل دوائر:
العالم بستان سياجة الدولة
الدولة سلطان تحيا به السنّة
السنّة سياسة يسوسها الملك
الملك نظام يعضده الجند
الجند أعوان يكفلهم المال
المال رزق يجمعه الرعية
الرعية عبيد يكنفهم العدل
العدل مألوف وبه قوام العالم

من الإقطاع إلى السلطة المطلقة

انصبت النظرية السياسية في القرن الرابع عشر على تأكيد حق السيادة للملوك، وفي نفس الوقت سخرت من السلطان البابوي، مُعلية من قدر الإمبراطورية. والواقع أن المفكرين الذين دافعوا عن الإمبراطورية تبنوا مبدأ سمو السلطة الزمنية. وحوالي سنة 1312 كتب الشاعر دانتي في كتابه عن الملكية De Monarchia أن "السلطة تحل على الملك مباشرة من المنبع الكوني للسلطان، دون

وساطة". وبعد ذلك ببضع سنين نادى راهب فرنسيسكاني إنجليزي هو وليم آل أوكهام في كتابه حوار قصير عن الحكومة الزمنية حول القضايا الإلهية والإنسانية، وبصفة خاصة حول الإمبراطورية ورعاياها، والتي اغتصبها بعض كبار رجال الدين أو البابوات، نادى الشعوب وكل أمم الأرض لكي تهب للدفاع عن حقوقها وأن تتحرر من ظلم وجبروت الجالس على عرش القديس بطرس -البابا- ويؤكد نفس الكاتب بأنه يتوجب على خبراء القانون المدني، وليس أهل اللاهوت، أن يفحصوا طبيعة السلطة البابوية، كما عبر عن قناعته أنه من الصواب بل ومن المناسب أن نحكم على أعمال البابوات وتصرفاتهم، لئلا تكون على ضلال.

وفي سنة 1324، أي في وقت فاصل بين هذين العملين، أخرج مارسيللوس آل پادو مؤلفه بعنوان المدافع عن السلام Defensor Pacis، وفيه وصف خطابًا أو قرارًا أصدره البابا بونيفاس الثامن على أنه من بدايته إلى نهايته زيف واضح، وتعدٍ صارخ ضد العلمانيين.

فرسان، وكهنة، وجند مشاة في تصوير من قشتالة، يرجع إلى القرن الخامس عشر تحت عنوان شجرة المعارك بقلم هنرلوري بوليه أو بونيه. يرجع أصله إلى القرن الرابع عشر، المكتبة الوطنية – مدريد.

ويشير مارسيللوس هنا إلى القرار البابوي بعنوان كنيسة واحدة مقدسة Unam Sanctam الذي أصدره البابا بونيفاس الثامن في 18 نوفمبر سنة 1302، ردًا على هجوم الملك الفرنسي فيليب الرابع الوسيم على السلطة البابوية. وفي هذا القرار يستشهد بالسلطة التي كانت في يدي القديس بطرس الرسول، والتي آلت إليه، قائلاً: "إن صاحب السلطة الروحية هو الذي يقضي بحكمه في كل الأمور، ولكنه هو نفسه لا يدان من قبل أحد من بني البشر"، ثم يختتم بعبارة شديدة اللهجة: "وعليه فإننا نعلن، ونقر ونؤكد ونهتف بأنه من الضروري لكل مخلوق فرد لكي ينال الخلاص أن يخضع نفسه لسلطان الكاهن الأكبر في روما". ومع ذلك، ورغم قوة وحدة هذا البيان البابوي الفريد في نوعه، إلا أنه في نفس الوقت كان يمثل الأغنية الجنائزية للبابوية، فلقد قربت النهاية! إن المستقبل لم يكن لصالح الخندق البابوي ولا لمصلحة الإمبراطور الخصم العنيد للبابوية، وإنما كان من نصيب الملوك، أو الأمراء – أولئك الذين كانوا يحتلون الصف الأول في الهايرياركية الكهنوتية السياسية، لأنه في القرن الرابع عشر كان هذا الصف يضم أيضًا وجهاء الدولة الذين تقاسموا السلطة فيما بينهم في الدوائر السياسية المبعثرة في كل من إيطاليا وألمانيا. لقد جاء تدهور السلطان البابوي وكذا السلطة الإمبراطورية، ليعلي من شأن الممالك الأوروبية الغربية، وهذا هو الوجه الآخر للقضية، والتي وصفها المؤرخون بالقصور الذاتي للسلطة العالمية.

ويعني الحق المطلق أولاً وقبل كل شيء أن صاحب هذا الحق ليس مسئولاً أمام أحد إلا الله وحده، ومن ثم يصبح الجميع مسئولين أمامه. لقد تنحى المفهوم الإقطاعي الوسيط "سيد الأسياد" ليحل محله مفهوم الحكم صاحب السلطة والنفوذ على الجميع، هذا المفهوم قد تطور أول الأمر في أطر القانون الروماني والقانون الكنسي لصالح السلطة الدنيوية أو الزمنية. وعبرت فكرة "الملك هو الإمبراطور في مملكته" عن هذا التحول، الذي بدأ ينتشر في أواخر القرن الثالث عشر فصاعدًا، واستخدم أول الأمر ضد الإمبراطورية الألمانية، ثم بعد ذلك ضد البابوية، وقت الصدام بين فيليب الرابع الفرنسي والبابا بونيفاس الثامن، كما بينا من قبل. وفي جميع الأحوال، فإن النقلة من العصر الوسيط إلى العصر الحديث بالنسبة للدولة قد تمت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وكانت تعني الانتقال من عصر الإقطاع إلى نظام السلطة المطلقة. ولقد أشارت نصوص قشتالية كثيرة إلى هذا المعنى في نهاية القرن الرابع عشر، في نصها على "السلطة الملكية المطلقة". كما أن نفس العبارة قد وردت بشكل أكثر جرأة في قرار القلعة Alcala الصادر سنة 1348 والذي يقول: "للملك كل الحق والسلطة في إصدار المواثيق والقوانين،

وأيضًا في تفسير وإعلان وتعديل هذه القوانين حسبما وعندما يرى ذلك". وهذا الإعلان شبيه بصيغة اقترحها كبير أساقفة طليطلة، رودريجو خمينيث دي رادا، وصارت مثلاً يردده الجميع، ونصه: "إرادة الملك يتم نفاذها من خلال القانون" وهو مثل قشتالي شائع بين الناس. وبمعنى آخر باتت سلطة الأمير لا تستند إلى العلاقات الشخصية الإقطاعية من سادة وأفصال تابعين، وإنما على مؤسسات ليست ذات صفة شخصية، الأمر الذي أدى إلى تطور النظم البيروقراطية، والحكومة المركزية، وصولاً إلى الروح القومية. ومع ذلك، فلابد من القول بأن التعميمات لها أيضًا بعض الاستثناءات: ففي شبه جزيرة أيبيرية على سبيل المثال كان تاج أراغون ذات صبغة فيدرالية، كما أن سلطة الملك كانت ضعيفة بسبب ارتباط التاج بعدة عقود مع دوائر أخرى قوية داخل المملكة، وإن كان فرانسيسك إكزمينيس في سنة 1409 من بلدة جنوة قد امتدح هذا النمط من السلطة الملكية بقوله: "إن المجتمع لم يخول سلطة مطلقة لأي أحد يتسلط عليهم، ولكن الأمر هنا محكوم ببعض الاتفاقيات والقوانين". وكان الملك ألفونسو الرابع الطيب قد أفصح عن هذا المعنى، في وقت مبكر سنة 1332 في حوار مع زوجته الأميرة القشتالية إليانور، قائلاً: "يا صاحبة الجلالة، إن شعبنا ينعم بالحرية، وليس شعبًا خانعًا كشعب قشتالة؛ لأنهم ينعمون بشخص كسيد لهم، مثلما أنعم أنا أيضًا بهم كأتباع ورفاق".

جاء مولد الدولة الحديثة متواكبًا مع مولد العلمانية وأفول شأن المسيحية الغربية. ولابد من فهم مضمون كل من هذين العنصرين: فالأول كان ببساطة اضمحلال احتكار الثقافة في أيدي الكنيسة، أما الثاني فقد ظهرت بوادره في تأسيس كنائس قومية -بعيدًا عن الهيمنة الرومانية-. ومع ذلك، فإن الحكومات الملكية لم تتوان في حث رعاياها على احترام الناموس الإلهي، كما أن الملوك ظلوا يتمسكون بمسحة روحانية، تعززت من خلال طقوس تنصيبهم وتكريسهم على أيدي السلطة الدينية، ليصبح الملك بذلك العلماني الوحيد المكرس. ومع أن هذا التكريس لم يكن يطبق في كل بلدان أوروبا -كان تكريس ألفونسو الحادي عشر في قشتالة قد تم في دير لاس هيلجاس في برغش سنة 1332 يمثل حدثًا فريدًا، إلا أن هذا التقليد قد وصل أوجه في أوائل القرن الرابع عشر في عدة تكريسات -فرنسا سنة 1300، الإمبراطورية الألمانية سنة 1307، إنجلترا سنة 1308-.

ختم الملك سانشو الرابع
ملك قشتالة وليون، الوجه، مؤسسة لازارو جالديانو – مدريد.

ومع أن هذه التكريسات كانت متوافقة مع التقاليد، ومكتملة ومحددة، إلا أنها كانت أقرب إلى مهرجانات الأبهة منها إلى الطقوس الدينية. ومع بدايات النصف الثاني للقرن الرابع عشر، كان ظهور الملك بين أفراد الشعب قد أسبغ عليه شعبية أكثر، من خلال موكب الحاشية الطويل عند زيارة الملك لإحدى المدن. وهذا ما حدث على سبيل المثال سنة 1389، عندما قام الملك الفرنسي شارل السادس بامتطاء جواده ملتحفًا بملابس العبادة، التي تشبه قطعة القماش التي تحتوي "خبز التناول" في المواكب الكنسية. وكانت هذه السمة الدينية واحدة من سبل الدعاية لشخص الملك وجذب الجماهير وضمان ولائهم، سواء في حال تدشين القصور والكاتدرائيات أو لتكليف أشخاص بعينهم بمهام سياسية. وهذا ما فعله كل من فيليب الرابع الوسيم، وفيليب السادس آل فالوا، عندما شنا الحرب ضد فلاندرز وإنجلترا. وهذا البعد الديني الذي حرص عليه الملوك هو الذي دعا واحدًا مثل خوان جيرسون (1363-1429) أن يقول: "إن الملك شبيه بالكاهن".

تطوير المؤسسات

يرى خوان جيرسون أيضًا أن الأمير هو الضمان "للحكم الصالح"، كما أنه بمثابة الدعامة لجمهور الرعية. وهذه الفكرة قد وردت في حفل تنصيب شارل السادس، في محاولة منه لصيانة أحوال الملكية في فرنسا: "إن واجب الملوك يحتم عليهم أن يسوسوا أمور البلاد ومصالح الرعية بحكمة واقتدار". لقد أصبح تعبير صالح الرعية Res publica منذ القرن الثاني عشر فصاعدًا هو المحك في الفكر السياسي الوسيط، وصولاً إلى مفهوم الدولة.

لقد كان مفهوم الدولة Status قبل سنة 1500 يعني فقط أسلوب الحياة، مع أن كاتبًا مثل برنارد جيني Guenée قد لاحظ أن "الدولة تقوم إذا اجتمعت لجماعة قطعة أرض تخضع لحاكم"، كما كانت الحال في الغرب الأوروبي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وأهداف هذه الحكومة، أو سياستها، وهي تعبير جديد صكه نيكولاس آل أوريزم (1320 - 1382) من جذور لاتينية تعني ضمان العدالة للجميع وإيجاد الموارد الضرورية لسد حاجات الجماعية وتحقيق أهدافها.

ولعل أهم ملمح للحكومة المركزية في الدولة هو الفصل بين بلاط الملك وبين الموظفين المدنيين في خدمة الدولة، باستثناء ألمانيا التي اشتهرت ببلاطات لكل أمير من أمرائها. ويمكن تبين ذلك في تركيبة وستمنستر Westminster وباريس. فلقد كان يشرف على أداة الحكم شخصان: المستشار، رئيس الوزراء، ثم المجلس العمومي، ومن هذا وذاك خرجت هيئات رسمية أخرى كانت تمثل البذور للجهاز الإداري والحكم المدني، وكان ظهور الموظفين المدنيين متسقًا مع ازدياد الحاجة إلى المهارات الكتابية، إما لتسجيل الممتلكات الخاصة بالدولة والأمير، أو لضبط نظام الضرائب، أو لإصدار القرارات؛ التي ازداد عدد إصداراتها بشكل ملحوظ –وصل عدد هذه القرارات إلى المائة يوميًا سنة 1332 في باريس. ولكن، كما لاحظ ذلك برنارد جيني؛ لم يكن لتلك الإصدارات الهائلة الكم من قيمة إجرائية، بدون التواصل مع كل بقاع المملكة –شبه الحال في عدم التواصل بالعنكبوت الذي لا يملك ما يزحف به من سيقان– لقد كان التواصل بين البلاط الملكي والرعايا في حاجة إلى المزيد من توثيق الأواصر، لضمان وحدة الدولة، وتطلب هذا خلق طريق لتواصل المستمر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت فرنسا قد أنجزت شبكة من الاتصالات على شكل النجمة ومركزها باريس، إلى جانب عدد مهول من حملة الرسائل. لقد أتى ازدياد عدد حملة الرسائل، والتوسع في نظام المراسلة عن طريق الخيل من محطة لأخرى، أتى أكله في إحداث تقدم ملحوظ بالنسبة لإنجلترا، حيث وصل عدد هؤلاء إلى ثلاثة أضعاف ما بين منتصف القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر، بحيث وصل العدد إلى 60، (21 من الفرسان على ظهور الخيل، 40 من المشاة السائرين على أقدامهم).

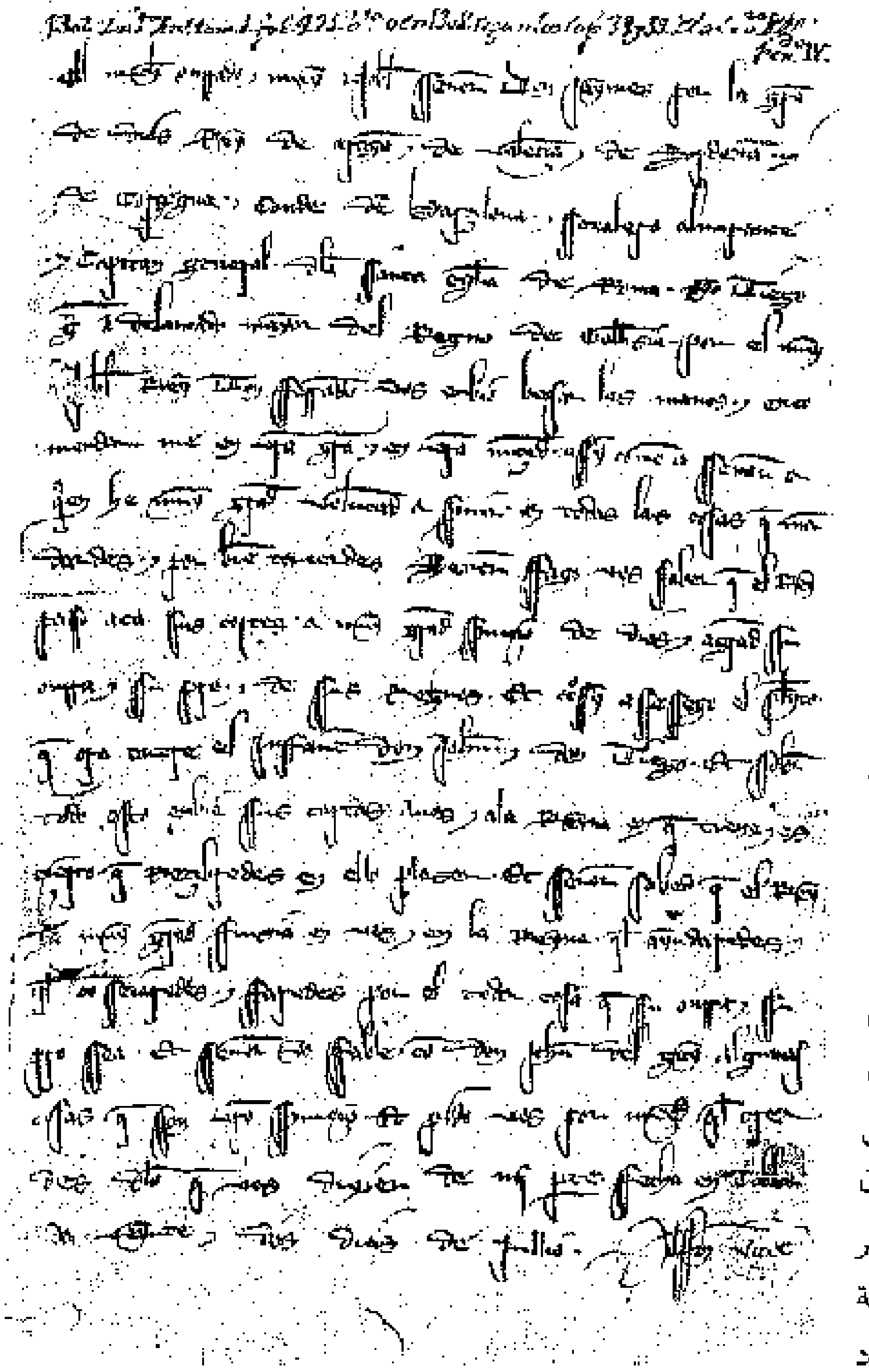

رسالة من دييجو جارسيا دي توليدو، إلى خايمي الثاني من أراغون، ليبلغه عن الاتفاق الذي تم بين فردناند الرابع من قشتالة ودون دييجو لوبيز دي هارو، حول ضيعة بسكاي، حوالي سنة 1307، المكتبة الوطنية – مدريد.

وكان الوضع السياسي داخل هذه الدول يتطلب شيئًا شبيهًا بالحبل السُّري، لكي يتم التواصل مع المناطق النائية وإحكام إدارتها. ولم يكن هذا بالعمل الهين بسبب العديد من العقبات، فشل مفهوم الدولة عند الكثيرين؛ ووجود العديد من السلطات المحلية التي لم ترغب في التنازل عن صلاحياتها ومواقعها فيما يشبه الحكم الذاتي؛ صعوبة الاتصالات في عمق البلاد وعرضها؛ إلى جانب عقبات أخرى كثيرة من حيث اللغة، والقانون، والعرف والتقاليد. وباختصار يمكن القول بأن التغلب على هذه المصاعب الجمة والتشرذم السياسي والولاءات الشخصية: لإحلال ملك على رأس منظومة شرعية وإدارية، كان مهمة بالغة التعقيد والصعوبة، وذلك في وجود صفات خاصة لكل بلد على حدة. ولما كانت إنجلترا من حيث المساحة صغيرة نسبيًا، كما أن مؤسساتها المحلية لم تكن ضاربة الجذور كغيرها من البلدان الأوروبية الأخرى مثل فرنسا مثلًا التي كانت أشبه ما تكون برقعة الفسيفساء، كما عبر عن ذلك جوزيف ستراير Strayer، وغيرها من الدول الأخرى في القارة الأوروبية.

تمثل إنجلترا حالة فريدة في تطورها من العصر الإقطاعي إلى الدولة الحديثة؛ فلقد شهدت خلال القرن الرابع عشر تحجيمًا لسلطة الشريف Sheriff، أي ما يشبه عمدة البلدة، نتيجة لحصول العديد من الرعايا على بعض الإعفاءات، إلى جانب منح الملك امتيازات محددة لبعض المدن، وأيضًا كنتيجة لظهور الموظفين الملكيين الجدد، وعلى رأسهم قضاة سلام الملك، الذين تطوروا ليكونوا هيئة حكومية دائمة تملك القرار التنفيذي في أواخر القرن الرابع عشر. ورغم أن هؤلاء الموظفين كانوا يتلقون رواتبهم من الملك، ورغم أنهم كانوا من ملاك الأرض، إلا أن الحوار بين

الأمير الحاكم والرعية لم ينقطع. وكان الأمر في بلدان القارة الأوروبية مختلفًا تمامًا –اللهم إلا في بعض الاستثناءات– فلقد كان لكل رقعة من الأرض –ولاية أو إقليم– حاكمها المحلي بألقاب متنوعة من قبيل: Bailli, Prevot, Amtman, Vogt, Merino, Adelantado, Vaguer, Battle، والذي كان يتلقى مرتبًا. ومع أن هذا النموذج من الحكم المحلي لم يخل من المرونة، إلا أنه في نفس الوقت كان مثير سلطة تنفيذية محلية، حالت دون التواصل بين الحاكم الملك وبين رعاياه –برنارد جيني–، وإن كان الثمن باهظًا في كل الأحوال.

هل نحن أمام ممالك تجاهد لتدبير الموارد المالية؟

كان نمو الحكومات يعني زيادة في الإنفاق العام، وفي هذا الخصوص من الصواب أن نقول، كما قال جي بوا Bois، شيئًا عن موقف الفئات التي تتمتع بالامتيازات في مواجهة الأعباء الجديدة؛ ذلك أنه مع بداية السباق للحصول على الرواتب، والمناصب، والمعاشات جعل كل من يحتل موقعًا في الحكم ينظر إلى الدولة كملاذ يملك الكثير يتوجب عليها أن تدفع له. وفي ظل الأحوال، عندما اشتعلت الحروب في القارة الأوروبية، زاد عبء الإنفاق الحكومي. ولقد شهد القرن الرابع عشر العديد من الحروب؛ التي كانت أشبه ما تكون بالوباء العام. ومع اقتراب نهاية القرن، قال كاهن من جنوب فرنسا للمندوب البابوي أنه "قد شاهد حروبًا في ناحيته، وفي أبروشية كاهور طيلة حياته؛ وأنه لم ير السلم أبدًا على هذه الرقعة من الأرض". وجاءت حرب المائة عام لتحول فرنسا إلى ساحة مستعرة من القتال المستمر، كما أن ممالك أخرى دخلت الحلبة في هذا الصراع الإنجليزي – الفرنسي. فلقد انضمت اسكتلندا إلى جانب فرنسا، وتدخل الفرنسيون والإنجليز في الحرب الأهلية في قشتالة والنزاع بين هنري تراستامارا وبيدرو القاسي، وسرعان ما دب القتال بين ملوك أراغون وقشتالة في حرب خاصة بالطرفين، وفي كل من ألمانيا وإيطاليا اشتعلت الحروب أيضًا. ولقد كانت إيطاليا في القرن الثالث عشر في حال من الفوضى الضاربة –على حد تعبير مارسيل باكو Pacaut–، وهو ما انعكس في الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي في بيت شعر ورد في المطهر Purgatorio: "أي إيطاليا! إنها الأرض الخانعة، موطن الأسى، كالسفينة الضالة بلا مقارن وقد ابتليت بعاصفة هوجاء.... لست سيدة للولايات والأقاليم، وإنما قد صرت سيدة لبيت دعارة". هذا في حين أن مارسيليوس آل بادو وصف المملكة الإيطالية بأنها "نموذج للشقاء المعادي للسلام".

قرار تنصيب الملك ألفونسو الحادي عشر الصادر في القلعة Alcala. المكتبة الوطنية – مدريد.

هذا وفي أواخر القرن الرابع عشر أصيب النظام الإقطاعي بالانهيار، خاصة في خدمة الأتباع (الأفصال) العسكرية مع سادتهم ومع ملوك البلاد. ولذا كان لابد من البحث عن بدائل أخرى، على سؤال الجيوش التي ظهرت في المدن الإيطالية في القرن الثالث عشر. وقد تألفت

هذه الجيوش من مواطنين ملزمين بالمشاركة في الحرب، كل حسب وضعه الاقتصادي، مثلما كانت الحال في قشتالة مثلاً على عهد الملك ألفونسو الحادي عشر، الذي جند فرقتين تحت مسميات: پرميا أو كوانتيا Premia – Cuantia كذلك نجح الملك فيليب الرابع الوسيم في فرنسا من تجنيد فرق للقتال على نطاق واسع – وبالمثل صدر في إنجلترا قانون ونشستر Winchester سنة 1285 بإجبار كل الرجال سليمي البدن ما بين الخامسة عشرة والستين من العمر، على المشاركة في الحرب بأسلحة تناسب كل مقاتل على حدة وفي موقعه. غير أن فقر هؤلاء المجندين للخبرة العسكرية، إلى جانب عزوف فقراء القوم عن الأسلحة، سرعان ما كشف للمسئولين عدم جدوى الجيوش النظامية، التي كان يخطط لها ملوك قشتالة في قرارات برفيسكا Briviessca سنة 1387 ووادي الحجارة سنة 1390 إلى الجند المرتزقة –وهم الوصلة بين الجيوش الإقطاعية والجيوش النظامية في الدولة الحديثة– التي بدأت في شكل فرق المعاهدين Condottieri، أي جنود في الخدمة وفق عقود محددة. من ذلك الفرقة الكبرى في فْرا مونريال Fra Monreale سنة 1354، التي وصل عددها إلى 5.000 من الفرسان و3.500 من المشاة، ومن حولهم كل من الخدم، والنساء والتجار. ولقد ارتفعت تكاليف الحرب مع ظهور فرق المدفعية، التي ظهرت لأول مرة مع أوائل القرن الرابع عشر، وقد صاحبها تطور في استخراج المعادن لتصنيع الأسلحة من البرونز والحديد. وقد ظهر أول المدافع سنة 1320، وازداد استخدامها في أواخر القرن الرابع عشر، عندما أثبتت جدواها في حصار القلاع والمدن –كانت المدافع في جوهرها نوعان من حرب الاستنزاف، والدفاع الذي لا يعرف مداه.

منمنمة تتويج الملك إدوارد الثالث في إنجلترا: المكتبة الوطنية – باريس.

تطلبت الجيوش المرتزقة والأسلحة الجديدة المزيد من الإنفاق، بحيث لم يعد الأمير أو الحاكم قادرًا على هذا الإنفاق المتزايد من ثروته الخاصة؛ من أملاك، وخليط من الضرائب على الأرض، والطواحين، والغابات، والبحيرات، والإقطاعيات، والغرامات، والعملة، والمناجم، والتي كان يجريها الأمير دون اعتبار لمصدرها. وهذه الجبايات غير واردة في القوانين لصعوبة تحديد منابعها وأشكالها. وكان أشد ما يتهدد هذه الجبايات إسراف الملوك وتبذيرهم، إلى جانب الإدارة السيئة، رغم أنها العماد الأهم بالنسبة للملوك في مختلف مشاريعهم. وأمام هذا الموقف لجأت الدول الغربية إلى البحث عن مصادر جديدة للدخل. وفي هذا يقول روبرت فوسييه Fossier "من الملامح الهامة في تاريخ القرن الرابع عشر المفهوم الجديد الذي طرأ على قضية جباية الضرائب، وانعكاسات ذلك على الشعوب بطريقة مؤسفة في الغرب الأوروبي، مضيفًا أنه على الرغم من أن الكنائس كانت أول المتضررين –تدهور أحوال ضريبة العشور ومصادرات الأملاك– إلا أن العبء الحقيقي في هذا التوجه الجديد لم يقع على عواتق أصحاب المال والسلطة؛ وإنما على الفلاحين وسكان المدن.

وبدأ التوجه الضرائبي الجديد من بداية سبعينيات القرن الثالث عشر في مدينة جنوة وأيضًا في إنجلترا، من خلال ضرائب الجمارك، واحتكار الحكام لتجارة الملح، والضرائب المفروضة على السلع التجارية، من قبيل ضريبة القبالة alcabala في مملكة قشتالة، والتي جرى إقرارها سنة 1342 وافق كورتيز دي برغش cortes de Burgos؛ وهو مرسوم أصدره الملك ألفونسو الحادي عشر وينص على جباية كم محدد من المال –5%– في سائر أنحاء المملكة على كل ما يمكن شراؤه. وهذا النوع من الضريبة المباشرة، رغم أنه مصدر يعتمد عليه وواسع النطاق، إلا أنه قد خلق مشاكل كثيرة. وكان بعض هذه المشاكل سياسيًا، فبعد أن كان في عصر الإقطاع في شكل حقوق للسيادة على أقصالهم، أصبح الآن واجبًا على الأقصال وسائر أفراد الرعية. من المشاكل الأخرى ما

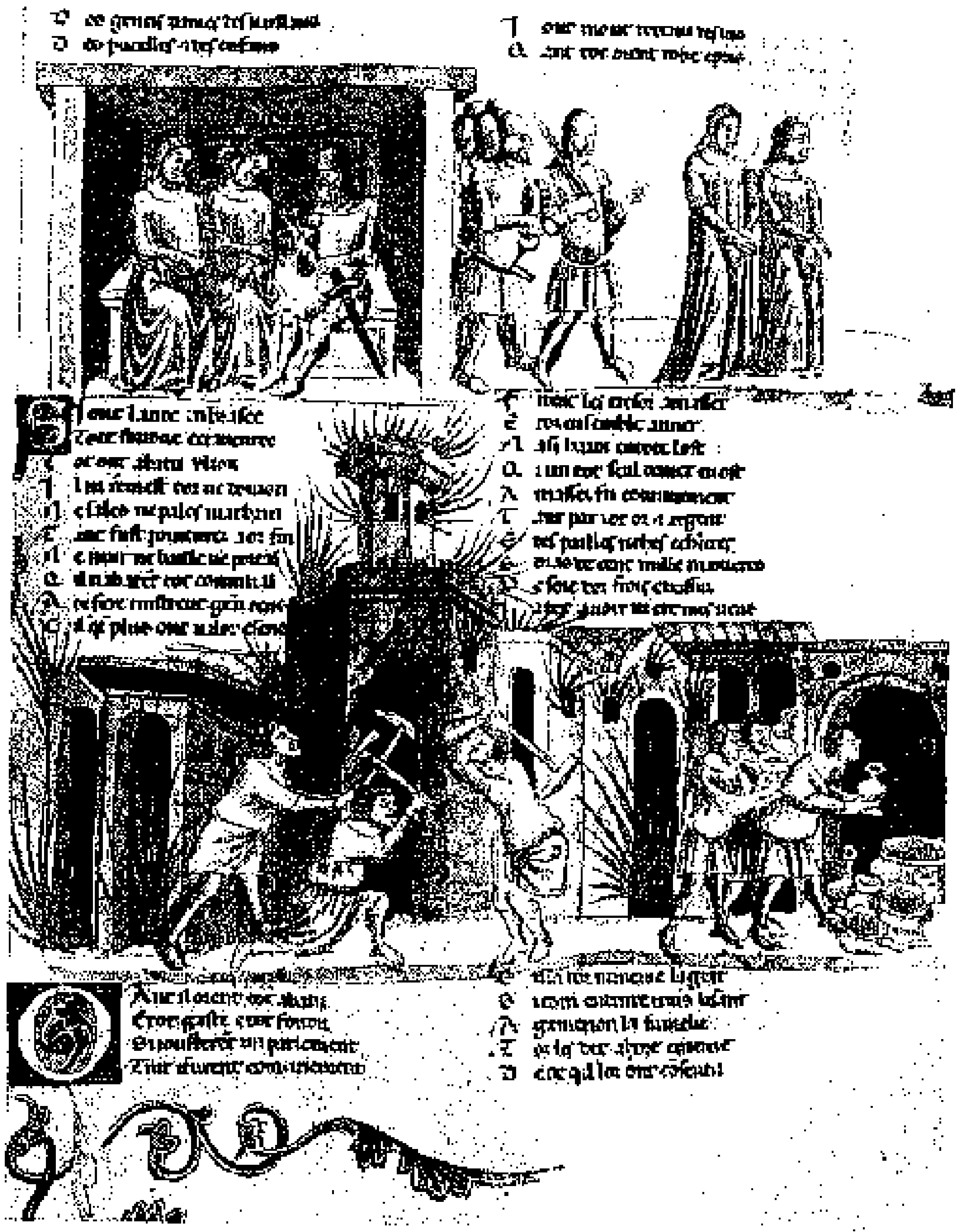

نهب إحدى المدن في مخطوط مزخرف ترجع إلى القرن الرابع عشر: مكتبة مرزيانا، البندقية.

كان ذا طبيعة تقنية – من قبيل كيفية تحديد القواعد الضريبية وكذا الحصول على إحصاء يعتمد عليه في فرض الضريبة. وكلما كانت المساحة والسكان كبيرة، كلما ازدادت المسألة تعقيدًا، ولهذا ليس غريبًا أن الضريبة المباشرة قد بدأ تطبيقها في المدن الإيطالية صغيرة الحجم والسكان، بدءًا من أواخر القرن الثاني عشر فصاعدًا. ويقول برنارد جيني أيضًا إن تاريخ الضريبة المباشرة يمثل قصة "مولد ثم طفولة ثم تكيُّف وفق الظروف الجديدة عن طريق المراوغة"؛ إما باللجوء إلى التزييف أو التحايل للحصول على إعفاء من تأدية الضريبة؛ الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى تقليص دخول خزانة الدولة.

وفي أحيان كثيرة كانت الضريبة المباشرة عُرضة للغش والتحايل. ولما كان سك العملة يعود بالفائدة على من يقوم بالسك، فإن الملوك من خلال تطور الدولة وازدهار النشاط التجاري، سيطروا على دور سك العملة، وصار هذا رمزًا للسلطة ووسيلة للتفاعل، وما إن سيطر الملوك على ذمام دور سك العملة حتى أصيبوا بخيبة أمل تمثلت في ضعف عام أصاب العملات الأوروبية بعد سنة 1300، الأمر الذي أدى إلى تخفيض قيمتها – بيتر سبفورد– ومع أن هذا كان يرجع إلى تقلبات في أسعار المعادن النفيسة، إلا أن بعض المؤرخين يرجعون ذلك إلى إسراف الملوك المتزايد في الإنفاق. فعلى سبيل المثال، كان 60% من موارد الملك فيليب الرابع الفرنسي في سنة 1298 / 1299 تتأتى من دور السك الخاصة به، وكان مستشاروه ينصحونه بأن تخفيض سعر العملة هو السبيل الأوحد لإصلاح المسار الاقتصادي، وأن هذا التخفيض من حق الملك وحده. وفي مملكة أراغون، في العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر، كان سك العملة يحقق ربع حصيلة الخزانة الملكية. ومن أجل هذا نجد الأسقف النورماندي نيكولاس آل أوريزم في أطروحته عن المال التي كتبت ما بين سنتي 1355 و1360، يقرر أن "من أول وأهم الأسباب التي تدفع الأمير إلى الغش في سك العملة، طمعه وجشعه المتزايد ... وأن هذا المسلك لا يليق بملك وإنما بالطغاة"؛ ويمضي نفس الكاتب ليقول "إن مثل هذه الخطوة لا تكتسب مشروعية إلا في وقت الطوارئ القصوى، كهجوم معاد مباغت للدولة وذلك بعد موافقة الرعية". وفي واقع الأمر كانت موافقة الرعية تعني ببساطة الاختيار الأصوب بدلاً من قيام الحكام بالغش في العملات. وبمعنى آخر كان سك العملة الجيدة مرهونًا بحجم المساعدات التي يتلقاها الأمير من رعاياه، والتي كان الجميع يتذمرون منها بطبيعة الحال، لأنها لا تقل سوءًا عن أذى سك عملة رديئة.

على أن أهم مصدر لجأ إليه الملوك لزيادة حجم خزائنهم الملكية قد تمثل في الديون العامة، والتي رحب بها الموسرون في الدولة بدلاً من عبء الضرائب المباشرة. ومن هنا أبدى هؤلاء الموسرون استعدادهم لإقراض الحكام المبالغ التي يريدونها وقت الشدة. وبصفة عامة كان الأمراء يقترضون قروضًا قصيرة الأجل بربح تراوح بين 20 – 25%، ففي ألمانيا على سبيل المثال كان كبار ملاك الأرض واليهود على رأس قائمة المقرضين، وفي كل من فرنسا وإنجلترا قام التجار بهذا الدور مع بعض البنوك الإيطالية التي أصيبت بنكسة مهولة سنة 1346، عندما أجهز الملك إدوارد الثالث على كل أرصدة مصرف باردي Bardi تقريبًا. أما في المدن الإيطالية، فقد اتخذت الديون العامة مسارًا مخالفًا محفوفًا بالخطر؛ فقد كان يتم الإقراض قبل تسديد اقتراضات سابقة، وكان ذلك عند ظهور البنوك الكبرى. ولقد لجأت مصارف البندقية في القرن الثالث عشر، ومصارف جنوة في سنة 1324، ومصارف فلورنسا فيما بين سنتي 1343 و1344 إلى رفع أسعار الفائدة على القروض التي يقترضها كبار القوم من هذه المصارف وفي نهاية المطاف كان هؤلاء المقترضون هم المستفيدين، نظرًا لاضطرار هذه المصارف إلى تخفيض أسعار فوائد هذه القروض.

ليس من السهل أن فرض الدخل الإجمالي لكل دولة أوروبية على حدة. ومنذ بضع سنوات تصدى الأستاذ برنارد جيني لهذه المشكلة المعقدة من جانبيها المختلفين، وخرج بتقديرات

كالآتي لموردٍ كل من المدن الإيطالية -الجمهوريات- ومملكة إنجلترا التي كان نصف دخلها من تجارة صوف الأغنام، ولدول نهر الراين حيث حققت عائدات الضرائب من رسوم هذا النهر ما يقارب نسبة 60% من الدخل، ولفرنسا حيث ساد نظام الضريبة العامة. أما كل من بوهيميا، والمجر، وسكسونيا فقد كانت مواردها تعتمد على مناجمها الغنية بالمعادن. وفيما يلي جدول يبين دخول بعض الدول الأوروبية بعملة الفلورين florins:

الدولة	الزمن	الدخل السنوي بعملة الفلورين
فرنسا	شارل السادس (1368 – 1422)	2.678.000
إنجلترا	1377 - 1389	770.000
برجنديا	نهاية القرن الرابع عشر	365.000
صقلية	القرن الرابع عشر	230.000
البابوية	نهاية القرن الرابع عشر	180.000
بيزا	1335	140.000

ويلاحظ أن هنالك فروقًا واضحة بين دخول كل من إنجلترا وفرنسا؛ فلقد وصل دخل إنجلترا إلى أربعة أضعاف فيما بين أوائل القرن الرابع عشر -30.000 إسترليني- وبين سنوات 1377/ 1389 (120.000 إسترليني)؛ في حين أن فرنسا حققت عشرة أضعاف ما بين سنة 1250 (250.000 جنيه توري Tours) وبين سنوات 1368 - 1422 إلى (2.500.000جنيه توري). ولكي نتفهم تلك القفزة الهائلة في تقدم فرنسا من ناحية الموارد، علينا أن نتذكر أنه على الرغم من الضعف الذي اعترى الجنيه التوري، كان عدد السكان في فرنسا قد نقص بنسبة 50%. ويفسر الاستاذ جي بوا هذه الأرقام على ضوء المعطيات السياسية وتقلباتها في فرنسا؛ إذ حدث تحول جوهري من نظام ملكية تلتزم بمواثيق القوانين إلى ملكية كان كل همها منصرفًا إلى تدبير المال، من خلال الضرائب غير المباشرة التي راحت الدولة الفرنسية تماطلها وبشكل أكثر تعسفًا عن ذي قبل. وعليه فإن هذا الباحث يقرر أنه ما بين سنة 1280 وسنة 1360، ظهرت على الساحة الفرنسية دولة جشعة، نهمة لا تشبع، ولذا فهو لا يتورع عن وصفها بالدولة المخادعة بدلاً من الدولة الحديثة.

دفع الإتاوات إلى الملك، منمنمة من مخطوطة قرارات ووثائق، الصادرة عن درن سانشو الرابع، المكتبة الوطنية – مدريد.

ديمقراطية الموسرين

أمام أعباء الضرائب على كهولهم، شعر الفلاحون المقهورون أنهم في ظل دولة طفيلية بحق. ولقد قدر الأستاذ روبرت فوسييه أنه في إنجلترا وشمالي فرنسا، كان أكثر من نصف دخول الفلاحين تنهب منهم: فعلى كل عشرة مكاييل من الحصاد، كان يتوجب عليه أن يدفع منها مكيال لعشور الكنيسة، ومكيال ونصف ضريبة للدولة، ومكيالين ثمنًا للبذور، وقرابة مكيال آخر كضريبة لإحصاء السكان. إن هذه الأعباء الضريبية، سواء للملك، أو للسادة المحليين، أو للكنيسة عندما ثار فلاحو إنجلترا -لولارد- Lollards سنة 1400؛ أصدروا بيانًا ثوريًا ساخرًا يقول: "إن ضريبة العشور الكنسية يجب أن تتوقف عن الوصول إلى جيوب الكهنة، ومن يفعل غير ذلك يقع تحت طائلة الإثم والعار!". وعليه هبت الثورات في الريف والحضر أثناء القرن الرابع عشر بسبب عبء الضرائب من ناحية، ولأسباب أخرى عديدة، وفي كل الأرجاء كانت الضريبة الكريهة سببًا رئيسيًا في هذا الاحتقان الشعبي. فلقد ثار الفلاحون في فلاندرز سنة 1323، ورفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم، كما أن فلاحي فرنسا -جاكري Jacquerie- دمروا مناطق بوفيه Beauvais (شمالي باريس) سنة 1358، بسبب وطأة الضرائب على كواهلهم؛ في أعقاب هزيمة الملك الفرنسي أمام الإنجليز في موقعة بواتييه. وفي نفس الوقت هب تجار الأقمشة في باريس بالثورة بقيادة إتيين مارسيل Etienne Marcel؛ ثورة مالوتان Mailotins في باريس سنة 1382 بسبب ثقل الضرائب أيضًا. وأخيرًا هبت ثورة الفلاحين الكبرى في إنجلترا سنة 1381 بسبب ضريبة جديدة أقرها البرلمان الإنجليزي لمواجهة نفقات الحرب ضد فرنسا.

وعلينا أن نتأمل في دلالة قيام ثورة بسبب قرار برلماني، إذ نحن حاولنا تفهم الهيئات البرلمانية التي قامت في الأقطار الأوروبية في القرن الرابع عشر. وأصول هذا البرلمان يرجع إلى العهود

الإقطاعية ومجالس السادة الإقطاعيين مع أفصالهم، وهي تسير وفق الواجبات الإقطاعية على الأتباع أو الأفصال حسبما أوردها فلوبير دي شارتر مع بدايات القرن الحادي عشر، فيما أسماه المجلس الإقطاعي Consilium. كما أن جذور هذه الهيئات البرلمانية ترجع أيضًا إلى محاكاة للمجامع الكنسية ومجالسها، وأيضًا ما ورد من نصوص في القانون الروماني. وهذه الجذور الرومانية تتصل بالقانون العام المحدد السابق لعصر الإمبراطور جستنيان –القرن السادس– الذي ظهر من جديد على يد مشرعي القرن السادس اللاحقين في الإمبراطورية البيزنطية. وتنص هذه المواد القانونية على الآتي: "إن كل ما يهم الجماعة، ينبغي أن تقره كل الجماعة"، وكان هذا القانون يطبق داخل الكنائس بدءًا من القرن الثاني عشر فصاعدًا، بما في ذلك الضرائب على أملاك الكهنة، الأمر الذي جعل القسيسين يصرخون بسبب فرض الضرائب على أملاكهم. وكان الإمبراطور فردريك الثاني الألماني أول من فرض هذه الضريبة على الكهنة في مجلس ڤيرونا سنة 1244، وبالمثل فعل إدوارد الأول في انجلترا في أول اجتماع للبرلمان الإنجليزي سنة 1295. ومن التطورات الهامة ظهور شخصية المدعي العام، إلى جانب الكنسية، وطبقة النبلاء، لتكتمل بذلك صورة الهيكلة البرلمانية للدولة الحديثة.

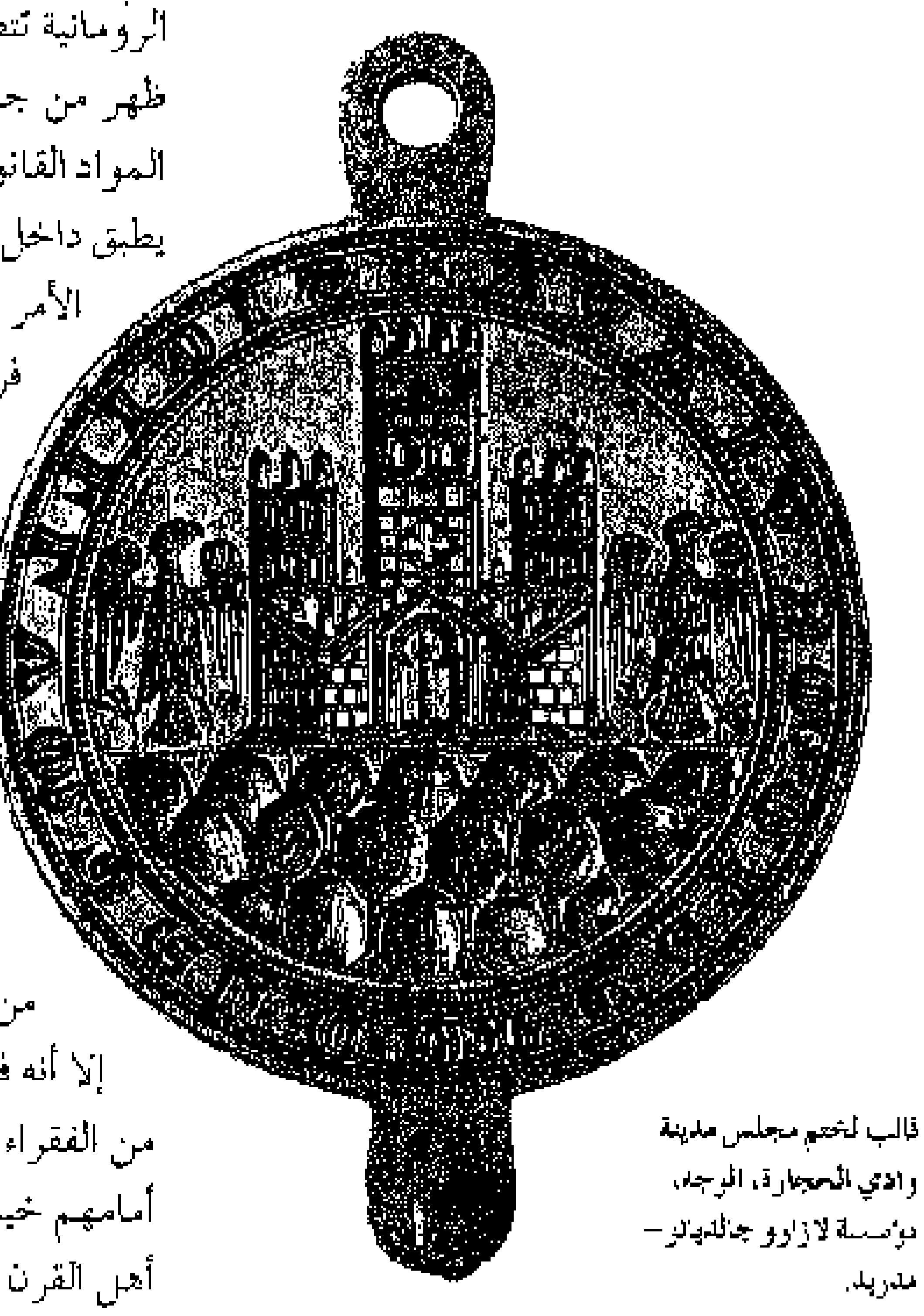

قالب لختم مجلس مدينة وادي الحجارة، الرجاء، مؤسسة لازارو جالديانو – مدريد.

ولكن ينبغي التنويه إلى أن الأمراء أو الملوك قد حرصوا على حصر هذه الاجتماعات والمداولات في شخوصهم والصفوة الموسرة في المجتمع، للإعلاء والدعاية لصاحب التاج، وأيضا كهيئات استشارية في القضايا العسكرية والمشاكل المالية، والضرائب وغيرها. وواقع الأمر أن اللوردات الذين كانوا من الناحية النظرية يمثلون في هذه الهيئات أتباعهم، والأساقفة الذين يفترض أنهم يمثلون جماعة المؤمنين من الشعب، والأعضاء المختارين من المدن على أنهم يمثلون إخوانهم من أهل الحضر، إلا أنه في الحقيقة لا هؤلاء ولا أولاء وضعوا أي اعتبار يذكر للغالبية العظمى من أبناء الشعب، من الفقراء والكادحين، بمعنى أن هذه الملايين قد استبعدوا تمامًا من الحياة السياسية: ولم يترك أمامهم خيار إلا أن يفوروا ويثوروا ويدمروا كل شيء من حولهم. على أن المفكرين الليبراليين من أهل القرن التاسع عشر قد أعطوا هذه المجالس سالفة الذكر أكثر مما تستحق، بل إنهم يتحدثون عنها كخطوات على درب الدستورية والديمقراطية. وهذه في واقع الأمر واحدة من المفارقات التاريخية التي تؤخذ على هؤلاء المؤرخين والكتاب، كما قال الأستاذ برنارد جيني، والذي نختم مقالنا هذا بعبارة شهيرة له تقول:

"يتسم القرن الرابع عشر والخامس عشر بظهور الطبقة البيروقراطية، وبتدهور أحوال الملكية، وباحتكار الديمقراطية لقلة من الموسرين".

المصادر والمراجع

منذ سنة 1984 تعهد مركز البحوث العلمية الوطني، والمؤسسة الأوروبية للعلوم بتحليلات شتى عن الدولة الحديثة ونشأتها في أوروبا فيما بين القرن الرابع عشر والقرن التاسع عشر. وجميع هذه المنشورات، بالفرنسية والإنجليزية، وكذا الندوات والبرامج الأخرى توجد على موقع الإنترنت الآتي Laboratoire de Médévistique Occidentale de Paris (http://Lamop.univ-paris1.fr/W3/lamp 10.html)

أخذ فريق العمل الإسباني جزءًا من المشروع حيث قام بنشر كتابين حول ممالك شبه الجزيرة الأيبيرية، عن طريق Adeline Rucquoi: Génesis medieval del Estado Moderno: Castilla y Navarra (1250-1370), Valladolid, 1987 and Ralidad e imagines del poder. España a fines de la Eclad Media, Valladolid. 1988

للمنطقة الصغرى في قشتالة، هذه الأعمال لـJosé Manuel Nieto Soria الذي نال اهتمامًا كبيرًا: Fundamentos ideológicos del poder real en Castilla (Siglos XIII-XVI), Madrid, 1988. Ceremonias de la realeza. Propaganda y legitinación en la Castilla. Trastámara. Madrid. 1993, Iglesia y genesis del Estado Moderno en Castilla (1369 - 1480), Madrid, 1993.

الملك ألفونسو الرابع الطيب يرأس المجلس في أراغون، القرن الرابع عشر، مخطوط في أرشيف المكتبة البلدية، لاردة.

كما التأليف الأخير والرائع من قبل José Mª Monsalvo Anton, La Baja Edad Media. Política y eultura Madrid, 2000

أما المراجع الهامة حول نشأة الدولة الحديثة فاهمها، Bernard Guenée Occidente durante los siglos XIV y XV. Los Estados, Barcelona, 1973; Denis Hay, Europa en los siglos XIV y XV, Madrid, 1980; Joseph Strayer, Sobre los origenes medievales del Estado moderno, Barcelona, 1981

أكثر الأعمال الأخيرة من عمل Robert Fossier, La Edad Media. 3. El tiempo de la crisis: 1250 – 1520, Barcelona, 1988; Jean Faviér. XIVᵉ et XVᵉ Siécles. Crises et geneses, Paris, 1996

لكن أكثر الصفحات إثارة ورد في كتاب Guy Bois, La gras despresión medieval: siglos XIV y XV. El precedente de una crisis sistematica, Madrid and Valencia, 2001; Carlos Astarita, Del feudalismo al Capitalismo. Cambio social y politio en Castilla y Europa Occidental, 1250 – 1520, Valencia and Grandda, 2003. Miguel Angel Ladero Quesada, "Algunas reflexiones generales sobre les origenes del Estado Moderno, in Homenaje académico a D. Emilio García Gómez, Madrid, 1993, pp. 431 – 448

لبعض السمات، اتجه إلى Macel Pacout, Les structures politiques de l'occident medieval, Paris, 1969; Peter Spfford, Dinero y moneda en la Europa medieval, Barcelona, 1991.

أما عن الاقتباسات من الشاعر دانتي، وأوكهام، ومارسليوس آل پادو، ونيكولاس آل أوريزم، مقتبسة من الترجمات إلى الإسبانية حسب الترتيب التالي: Dante Alighieri, Monarquía, introduction, translation and notes by Laureano Robles Carcedo and luis Frayle Delgado, Madrid, 1992 and Orbas Completas في النسخة الإسبانية من Nicolas González Ruiz and José L. Gutiérrez García, Madrid, 1973; William of قبل ockham, Sobre el gobierno tiránico del Papa, introduction, translation and notes by Pedro Rodríguez Sontidrián, Madrid, 1992; Marsilius of Padua: El defensor de la paz, by Luis Martinez Gomez, Madrid, 1989; and Traité de monnaies]de[Nicolas Oresme et autres écrits monétaires du XIVᵉ siècle (Jean Buridan. Bartole de Sassoferato)

تم تجميع النصوص وترجمتها من قبل Claude Dupuy كما ترجمه Frederic Chartrain, Paris, 1989، أعيدت أطروحة نيكولاس آل أوريزم إلى اللغة الإسبانية بواسطة Joseph Hernado Delgado, in Acta historica et archaeological medievalia, 2 (1981), pp. 9 – 69

جماعة الفرسان من أصحاب النطاق: من ألفونسو الحادي عشر حتى آل تراستامارا

آنا إشيشاريا أرسواجا
الجامعة الوطنية للتعليم عن بعد - مدريد

ترجمة إسحاق عبيد

علينا أن ندرك أن الحاكم الذكي ينبغي عليه أن يتحلى بالعطف واللين؛ فتلكم خصلة من خصال الحكام الصالحين. ذلك أن أية هفوة من جانب الحاكم، من قبيل أن يفرض على رعاياه ما لا طاقة لهم به، ظنًا منه أنه عارف بعواقب قراراته العليا، إنما يجر الخراب على أمته [1].

يتفق هذا التحليل لابن خلدون عن طبيعة الحكم والسلطان على أحوال مملكة قشتالة في القرن الرابع عشر، لقد عاصر هذا العلامة (1332 - 1406) خمسة ملوك، وردت أسماؤهم مع كنية لكل منهم؛ من أمثال: القاسي أو الجبار، وذلك عند الإشارة لإجراءات ملكية من قبيل ما حذر منه عالمنا الفذ ابن خلدون.

ولقد اضطلع كاتب الحوليات بيدرو لوبيز دي آيالا، وهو شاهد على عصره وعاش عمرًا طويلاً مثل ابن خلدون، بتوثيق المعلومات والأحداث الخاصة بآل تراستامارا، بدءًا بنسل ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة (1312 - 1350) [2]. لقد عمل الملك ألفونسو الحادي عشر طيلة حياته لإرساء مؤسسات صلبة لتقوية شأن الجالس على العرش في القرن الرابع عشر بعيدًا عن نظام الإقطاع السابق، ومسترشدًا بقرار القلعة، الصادر سنة 1348، الذي أدى في نهاية الأمر إلى ظهور ومشاركة الشرائح الشعبية (الأحزاب). وبهذا وضع ألفونسو الحادي عشر حدًا لسيطرة طبقة النبلاء، الذين نغصوا عليه حياته أثناء فترة الوصاية عليه لصغر سنه. أقدم ألفونسو على إعطاء المجالس المحلية مزيدًا من السلطة الحقيقية، مقابل وقوف رجالاتها إلى صفه. كما أنه وضع هيكلة جديدة للأراضي، بفرض ضريبة على المبيعات بمختلف أشكالها، كما حدد ضريبة على مناجم استخراج الملح، وعلى الخدمات التي تعود من استخدام دواب الحمل والماشية. ولقد كان لهذا الإصلاح الاقتصادي مردوده على التاج، كما أن موقفه الحيادي من الصراع الإنجليزي - الفرنسي قد مكنه من التصدي للتهديدات الوافدة من مملكة بني نصر في غرناطة ومن بني مرين على الجبهة الجنوبية لمملكته. وما بين أعوام 1340 و1350 (تاريخ وفاته)؛ قام ألفونسو الحادي عشر بعدة حروب ضد الممالك الإسلامية، وبعدها توقفت الحروب لما يقارب المائة عام، بسبب الحروب الأهلية التي اندلعت بين الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الأيبيرية. على أن المعارك التي وقعت في طريف Rio Salado، ثم غزو الجزيرة الخضراء Algeciras، ثم حصار جبل طارق Gibraltar، كل هذا قد أدى إلى سيطرة مملكة قشتالة على مضيق جبل طارق.

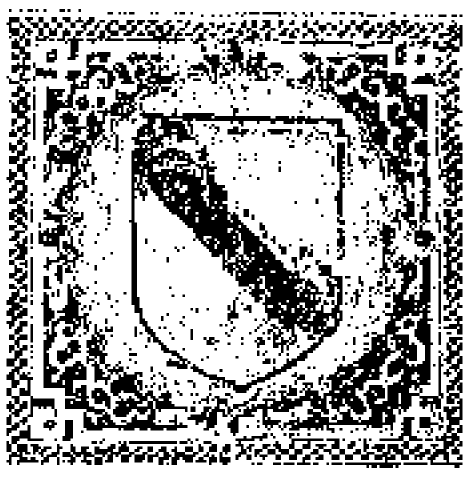

معطف الحرب لجماعة من الفرسان أصحاب النطاق، إفريز قصر الملك بيدرو الأول، القصر الملكي - إشبيلية.

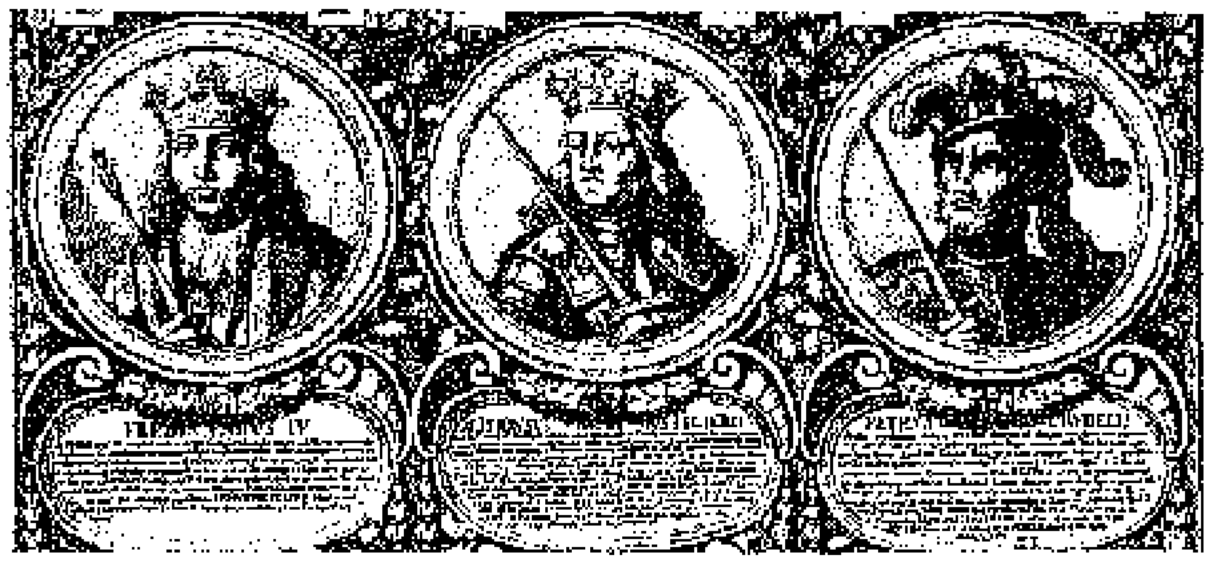

صور كل من: فرناندو الرابع، وألفونسو الحادي عشر، وبيدرو الأول، بريشة أ. فان وسترهاوت، المكتبة الوطنية - مدريد.

مخطوط عن "حولية الملك بيدرو"، بقلم بيدرو لوبيز دي آيالا، الأكاديمية الملكية للتاريخ - مدريد.

ولكي يوطد ألفونسو الحادي عشر من دعائم عرشه، فإنه ابتدع نظام جماعة الفرسان من أصحاب النطاق Sash: Banda كحرس ملكي خاص، يتوارثه الأبناء عن آبائهم. وهذا الرمز (النطاق أو الحزام) قد تطور إلى نظام من الفروسية، تميز أصحابه بارتداء معطف يزدان بعلامة رباط أسود على زي أبيض اللون. وفي أثناء حصار بلدة طريف، أنعم الملك ألفونسو على أحد الفرسان البارزين بنطاق ذهبي يوضع فوق زي أحمر اللون، وهذه الألوان هي التي سوف تميز رموز الفرسان خلال القرن الخامس عشر. ولقد حقق هؤلاء الفرسان نجاحًا مرموقًا، وبقي رمزهم (النطاق) محفوظًا على أضرحة المقابر، وأيضًا في رسوم ذلك العصر [3].

هذا وقد خصص ألفونسو الحادي عشر بلاطًا ملكيًا لعشيقته ليونور دي قزمان، والتي ديرت الملكة البرتغالية ماريا والدة وريث العرش بيدرو اغتيالها بمجرد أن توفي ألفونسو. على

1 Ibn Khaidun, *Introducción a la historia universal (al-Muqaddima)*, trans.by E. Trabulse, Mexico, 1997, p. 377.

2 أهم مجموعة لحوليات بيدرو لوبيز حررت في Cronicas de los reyes de Castilla (ed. C. Rosell), Madrid, 1995, 23 vols.: *Crónica del rey don Enrique II de Castilla, Crónica del rey D. Juan I, Crónica del Rey don Enrique tercero de Castilla e de Leon.* Also: *Crónica del rey Don Pedro y del Rey don Enrique su hermano, hijos del rey don Alfonso Onceno*, ed. G. Orduna, Buenos Aires, 1997; *Crónica de Enrique III*, CL. & H.M. Wilkins (eds.), Madison, 1992; *Rimado de Palacio* (ed.), Salvador Martinez, New York, 2000.

3 *Gran Crónica de Alfonso XI*, ed. D. Catelan, Madrid, 1976, 1, p. 501; I Garcia Dias, "La Pollutica Caballeresca de Alfonso XI" in *Miscelanea medieval muriciana*, XI (1984), pp. 117 - 134; and "La Orden de la Banda, in *Archivum Historicum Societatis, Iesu*, XL (1991), p. 48.

أحوال
الدولة

abuscar algunas compañias delos in
gleses que eran entrados en alaua
acerca de biuandas e andauan derra
mados por la tierra.

lxvi

Don enrrique sopo como muchos de
los dela compaña del Rey don pedro
e del principe sse tendian por tierra de
alaua a buscar biuandas e dixeron le
que ssi enbiasse alla algunas de sus
gentes que les podrian enpescer e
ca los fallarian derramados. ¶ E
el Rey don enrrique fiso lo assi e en
bio alla a don alfonso conde de denia
fijo del infante don pedro e nieto del
Rey don jaymes de aragon que era
marques de villena, e don tello su her-
mano del Rey que era conde de bis-
caya e señor de aguilar e de castañe
da, e pero gonçales de mendoça e don pe
dro moniz maestre de calatrava, e don
iohan remires de arellano e los co
mendadores mayores de santiago,
e don ferrando osores e muchos otros
caualleros e escuderos de castilla ¶
Otrossi enbio al mariscal de adnan
de que era mariscal de francia e el be
gue de villanes que eran franceses
¶ E todos estos fueron para alaua
e fallaron y piecas de gentes ingleses
e gascones que andauan acerca de bi-
uandas e posauan por las aldeas e to
maron los ¶ Otrossi fallaron dos si
entos omes de armas e otros tantos
frecheros e quando los vieron las
gentes delos contrarios pusieron
sse en vn otero assas pequeño a pie
cerca de vna aldea que desian arinis
¶ E en tal guisa sse hordenauan

M. ccclxvii

los ingleses, que los de cauallo non
los podian desbaratar en ninguna
manera nin entrar en ellos ¶ E quando
esto vio el begue de villanes e el ma
riscal de adnahan e don iohan remires
de arellano apearonsse para yr a ellos
e pero gonçales de mendoça e otros ca
ualleros que estauan a cauallo aco
metieron los enel (?) que los desbara
taron ¶ E morio y el dicho mossen
guillen de feleton e otros caualleros que
y eran con el e los otros fueron presos
¶ Otrossi tomaron esse dia muchos
omes de armas e frecheros dela con
paña del principe que andauan acerca de
biuandas. Capitulo viii. como el Rey
don pedro e el principe fisieron aquel dia
e como fue cauallero el Rey don pedro.

lxvii

Don pedro e el principe de gales estauan
allende la villa de bitoria quando sopi
eron que aquellas gentes del Rey don
enrrique eran enla tierra de alaua e fa
sian daño en los que fallauan que anda
uan acerca de biuandas pensaron que el
Rey don enrrique era que venia ala vi
lla ¶ E pusieronsse todos en vn
otero que es allende dela villa de
bitoria que disen santa Romana e alli
reglaron su batalla ¶ E alli sse ar
mo el Rey don pedro cauallero aquel
dia de mano del principe e sse armaron
otros muchos caualleros ¶ E los
del Rey don enrrique que alli eran ydos
non cataron de faser mas e tor
naronsse para el Real que tenia el
Rey don enrrique e non ouo aquel dia mas
Capitulo ix. como el Rey don pedro e
el principe de gales partieron de alaua

Villanes, Dandrehan, Feleton, a que

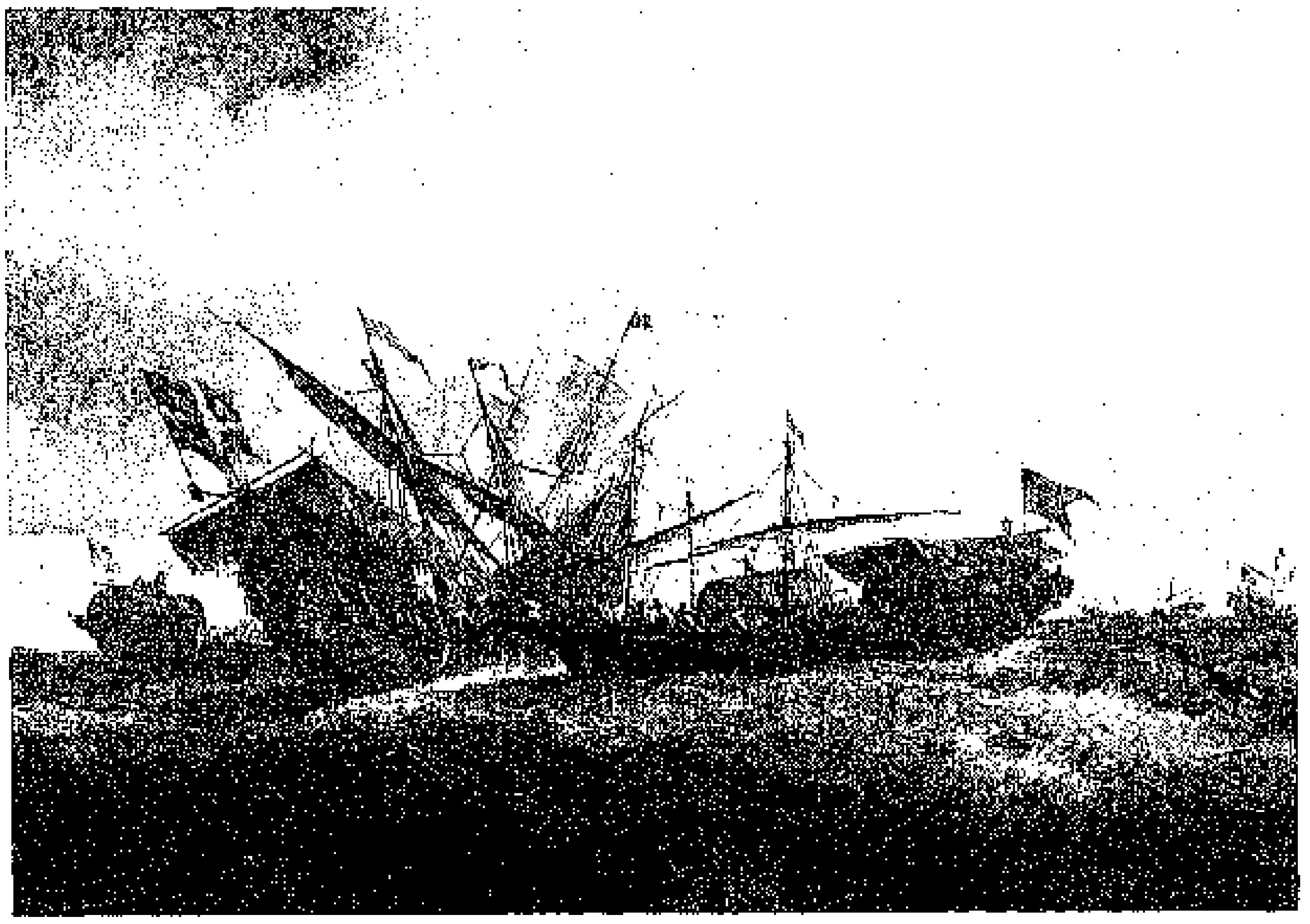

معركة بحرية بين الأسطول القشتالي وأسطول بني مرين في المغرب، في مضيق جبل طارق سنة 1340، أثناء حكم ألفونسو الحادي عشر، رسم بريشة أ. دي بروجادا، 1852، المتحف البحري- مدريد.

أن أبناء ليونور غير الشرعيين: إنريك، وفدريك، وفرناندو، وتللو، وخوان، وسانشو، وبيدرو، وجوانا، قد نعموا بألقاب شرفية متميزة داخل هذا البلاط، كما كانت لهم أملاك شاسعة. ولقد وقع صراع بين هؤلاء الأبناء الأمراء والأميرات، الأمر الذي أدى إلى تمزق العائلة الملكية في قشتالة؛ واستمر هذا الشقاق العائلي حتى القرن التالي، فلطخ سمعة العائلة القشتالية. استهل الملك بيدرو الأول حكمه وسط قلاقل سياسية متتابعة؛ كما أنه شخصياً كان متقلب العواطف؛ فلقد هجر بيدرو الملكة الفرنسية بلانكاري بوربون، التي اغتيلت في وقت لاحق. وتدور حكايات وأساطير كثيرة حول هذا الاغتيال، فمن قائل بأن الخلاف قد نشب حول نصيب الملكة من الإرث (البائنة)، ومن قائل بأن هذه الملكة الغادرة كانت طرفًا في مؤامرة ضد بيدرو، كل هذه الروايات قد توارت لتبقى على السطح قصة الغرام الجديد الذي وقع فيه الملك بيدرو. ومع ذلك فإن عشيقة بيدرو الجديدة، ماريا باديلا، لم تحظ باهتمام بيدرو كما كانت تتوقع منه. ويرجع السبب في ذلك الفتور من جانب بيدرو إلى انشغاله بالقضايا السياسية المعقدة التي كان لها الأولوية في حياته. فلقد أقدم بيدرو على التخلي عن حلفه مع الفرنسيين، ليعقد حلفًا مع الإنجليز. كذلك عمل بيدرو على تقوية نفوذ أسرة باديلا داخل البلاط الملكي، لكي يواجه بها سطوة العائلات النبيلة القديمة، ومعها مضايقات إخوته وأخواته غير الأشقاء كما أن مشروع زواجه الثاني من واحدة من الأسر النبيلة، وتدعى جوانا دي كاسترو في سنة 1354 قد جرّ عليه غضب فريق من نبلاء المملكة، والبابا انوسنت السادس أيضًا وتتضح جهود بيدرو الأول في صراعه ضد طبقة النبلاء بقيادة أخيه إنريك آل تراستامارا، الذي تمَّ نفيه إلى أراغون، من تعزيزه لجماعة فرسان النطاق بتشريعات خاصة، مثلما كان يفعل أسلافه. هذا وقد تم تصوير معاطف هذه الطبقة من الفرسان ورموزهم على العديد من الأبنية القشتالية: مثل قلعة قرمونة Carmona، وقصر ألتاميرا Altamira، والقصر الملكي في إشبيلية، وأيضًا على جدران غرفة جوقة المرتلين في دير سانتا كلارا دي موجير Santa Clara de Moguer [4]. ومع ذلك، فليس من المستبعد أن يكون الملك بيدرو الأول قد استعان بالملك محمد الخامس ملك غرناطة، لكي يواجه التحدي من جانب الملك بيدرو الخامس ملك أراغون، وأيضاً للتصدي لأخيه إنريك.

لقد سعت الدبلوماسية القشتالية إلى تحويل مملكة غرناطة إلى مملكة تابعة، من خلال الروابط المتوارثة عن عصر الإقطاع، وقد تمَّ ذلك لأول مرة على عهد الملك فرناندو الثالث القشتالي، الذي نجح في إخضاع ممالك مرسية، ولبلة Niebla، وغرناطة، كما أن الملك خايمي الأول من أراغون قد حقق انتصارات كثيرة، واقتطع بعض الأراضي من مملكة بلنسية، وفي البراديين Albarracín، وشقورة Segura. وينبغي أن ينظر إلى هذه العلاقة من تبعية ملوك غرناطة كأفصال لملوك قشتالة من المنظور الذي تبناه الحكام المسلمون، بأنها مجرد علاقات مودة على المستوى الشخصي، كما أنها تقتصر على مدة حكم هذا العاهل أو ذاك، أي أنها ليست ملزمة إلى أمد غير محدود، وتشير الصفة الأولية لهذه العلاقة إلى تأدية الطرف التابع إتاوة مالية محددة، إلى جانب تقديم المشورة والدعم العسكري، وذلك وفقاً للتقاليد الإقطاعية –النصح والعون: Consilium & auxilium-، وذلك في مقابل إدخال مملكة غرناطة كطرف في أية معاهدة سلمية توقعها مملكة قشتالة، خاصة مع مملكة أراغون [5]. ويلاحظ أن هذه الشروط لم يلتزم بها من ملوك غرناطة سوى أولئك الملوك الذين كانوا يواجهون صعوبات اقتصادية، أو في حاجة إلى عون خارجي لضمان الاحتفاظ بعروشهم، ومن هؤلاء الأخيرين كان الملك محمد الخامس في علاقاته مع الملك بيدرو الأول. فلقد قامت الكتائب القشتالية بمساعدة السلطان محمد الخامس في استعادة عرشه في غرناطة، الذي كان إسماعيل الثاني (1359- 1360) قد اغتصبه، وقد أزيح عن العرش بعد ذلك على يد محمد السادس (1360 - 1362).

4 للأستاذ باڤون نظرية تقول بأن ملك قشتالة قد ضمَّ ملك غرناطة من بين السائل ضمن هذه الجماعة المميزة من فرسان البلاط الملكي، مستشهداً على ذلك بالرسومات التي تزين قنطرة "صالة الملوك" في قصر الحمراء، والتي تزدان برمز النطاق "المميز لهذه الجماعة من الفرسان الأتباع. ولكن ليس هناك ما يدعم هذه النظرية من الناحية التاريخية، كما أن القول بأن الملك بيدرو قد التقى بملك غرناطة سنة 1363 (محمد الخامس) على جبهة ترويل Teruel لا يستند إلى مصداقية تاريخية راجع: B.Pavón Maldonado, "Notas sobre el escudo de la Orden de la Banda en los palacios de don Pedro y Muhammad V." In al – Andalus xxxvii (1972), pp. 229 – 232 ; "Escudosy reyes en el Curato de los Leones de la Alambra, in al-Andalus xxxv (1970), pp. 179 – 197; C. Rallo, *Aportaciones a la tecnicay estilistica de la pintura nural en Castilla a find de la edad Media Tradicione infhencia islamica*, Madrid, 2002, p. 115.

5 A. Garcia Sanjuan, "Consideraciones sobre el pacto Je Jaén de 1246", in *Sevilla*, 1248, Coord. M. Gonzales Jimenez, Madrid, 200, pp. 715 – 722; F. Vida, "Historia politica", in *El reino nazari de Granada. Historia de Espona Menendez pedal* Coord. Mª. J. Viguera Molins, vol. viii – 3, pp. 77 – 251, p. 87; F. Garcia Fitz, *Relaciones politicas y Guerra. La experiencia castellano – leonesa frente al Islam, Siglos XI – XIII*, Sedille, 2002.

6 J. C. Ruiz Souza, "El Palacio de los Leones de la Alhmbra: *madrasa, zawiya* y tumba de Muhammad v? Estudio para un debate", *al- Qantara* XXI (2001), pp. 77 – 120

7 T. B. Irving, "Peter the Cruel and Ibn Khaldun", in *Islamic Literature*, 11 (1959, pp. 5 – 17; and J.P. Molénat", Encore sur la rencontré, de Ibn Khaldun et de Pierre le Cruel á Seville (1363– 64)", in Op.Cit.

تصوير في منتصف سقف الصالة الملكية، في قصر الأسود في الحمراء، غرناطة. ويتضح من هذا التصوير شخوص مرموقون من أسرة بني نصر، مع رسم لمعاطف الفرسان من أصحاب النطاق.

مقتل بيدرو الأول على يد إنريك ترا ستامارا في معركة مونتيل سنة 1369. منمنمة من كتاب سلالات ملوك إسبانيا، بقلم ألفونسو دي كارتاجينا، المكتبة الوطنية – مدريد.

ومنذ ذلك التاريخ فصاعدًا، راح سلاطين غرناطة يؤازرون التاج القشتالي، فلقد أعلن السلطان محمد الخامس "الجهاد" أو الحرب المقدسة إلى جانب الملك بيدرو الأول سنة 1365، ولكن يجب أن ينظر إلى هؤلاء الفرسان من غرناطة والشمال الإفريقي الذين ارتدوا رمز النطاق القشتالي على معاطفهم، كمجرد جند مرتزقة. هذا وتعكس رموز النطاق المصورة في قاعة الملوك في الحمراء، موقف الأسرة الحاكمة في غرناطة المؤيد لملوك قشتالة، وذلك رغم معارضة الرأي العام في غرناطة لهذا التوجه الموالي لقشتالة [6]. وما من شك في أن هذه التصاوير والنقوش قد ظهرت كتأثير وافد من النقوش التي ازدانت بها قصور ملوك قشتالة أنفسهم، تلك الرسوم التي شاهدها ابن خلدون بنفسه، عند مقابلته للملك بيدرو الأول في إشبيلية [7]، أثناء إقامته في شبه الجزيرة الأيبيرية ما بين عامي 1363 – 1365.

نشبت الحرب الأهلية في مملكة قشتالة، وقت اشتعال حرب المائة عام في أوروبا بين إنجلترا وفرنسا. وقد وقفت كل من إنجلترا وغرناطة في هذا الصراع إلى جانب الملك بيدرو الأول، في حين وقفت كل من فرنسا ونافار ضد قشتالة، أملاً في الحصول على أراضٍ من منطقة الحدود القشتالية. ولقد كان وقوف الأمير الأسود إدوارد الإنجليزي إلى جانب بيدرو الأول سببًا في انتصار هذا الأخير على خصومه في معركة ناخيرا Nájera. ويتضح أهمية جماعة الفرسان أصحاب النطاق في هذه المعركة: في تلك المحاولة الذكية من جانب آنريك دي ترا ستامارا (أخي بيدرو وعدوه)، في محاولته سرقة العلم الخاص بهؤلاء الفرسان. غير أن هجران بعض الفرسان للملك بيدرو وانضمامهم إلى المعسكر الخصم، إلى جانب استخدام أتباع إنريك لعلاقة النطاق، ثم انضمام الجند المرتزقة العاملين في خدمة فرنسا إلى معسكر إنريك الثاني، كل هذه العوامل أدت إلى خروج إنريك منتصرًا. وبعد هذا النصر أعلن إنريك نفسه ملكا على البلاد، ثم قام باغتيال أخيه غير الشقيق بيدرو، وذلك في معارك مونتيل Montiel سنة 1369.

نتيجة لهذه الأحداث تبدل اسم الأسرة الحاكمة في قشتالة ما بين أعوام 1369 – 1514، وأيضًا في مملكة أراغون بداية من سنة 1412؛ ليحل لقب النبالة الخاص بإنريك الثاني قبل أن يجلس على العرش. وقد أدى استئصال شأفة خلفاء ألفونسو الحادي عشر الشرعيين على علو شأن طبقة من نبلاء قشتالة، الذين كانوا يمثلون شريحة هامة مع نظرائهم النبلاء في المملكة ولكن هذه الأسرة الحاكمة الجديدة كانت في حاجة إلى مبرر سياسي يضفي عليها شيئًا من الشرعية، ومن ثم انطلقت دعايات مخطط لها في عهدي كل من إنريك الثاني، وخوان الأول، لتشويه سيرة الملك بيدرو الأول. وراح هؤلاء يكيلون التهم ضد شخص بيدرو، فاتهموه بالتسلط والغدر وبحب المسلمين والانحياز إلى صفوفهم، كل هذا لكي يطمسوا حقيقة شخصية هذا الحاكم، ولتصويره كواحد من طغاة القرن الرابع عشر. وهذه الحملة الشرسة قد شوهت سيرة بيدرو الأول، في وقت كانت فيه مملكة قشتالة مسرحًا للمنازعات الأهلية والانشقاق. وهذا التوجه يوحي في نفس الوقت بمولد أيديولوجية للحكم المطلق

صورة إنريك الثاني آل تراستامارا، بريشة أ. فان رسترهاوت، المكتبة الوطنية – مدريد.

خوان الأول من قشتالة، بريشة أ. فان وسترهاوت، المكتبة الوطنية – مدريد.

خوان الثاني من قشتالة، بريشة أ. فان وسترهاوت، المكتبة الوطنية – مدريد.

الملكي الاستبدادي، وإن كانت قد تزامنت مع انتعاش في العلوم الإنسانية، إلى حد يجعلنا نميل إلى اعتبار هؤلاء الملوك المستبدين في قشتالة رموزًا لعصر النهضة في المملكة [8]. وقبل نهاية سنة 1375، كان إنريك الثاني قد أعاد تنظيم طبقة الفرسان من أصحاب النطاق؛ ولكنه أصدر عددًا من التشريعات التي حولت هذا النظام إلى مجرد لقب شرفي، ينعم به الملك على زوار بلاطه المرموقين [9].

ويتوافق حكم أول عاهلين من آل تراستامارا مع اعتزال ابن خلدون لصخب الحياة، في قلعة ابن سلامة، لكي يسجل كتابه الفذ في التاريخ، وبعدها رحل إلى مصر ليمضي بقية حياته فيها. ومن الصعب أن نتبين ما إذا كان ابن خلدون ظل مهتمًا بمجريات الأحداث في شبه الجزيرة الأيبيرية، عندما انتقل إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط أم لا. وجدير بالملاحظة أن عهد الملك إنريك الثاني لم يعن إسدال الستار على كل ميراث والده، وأخيه غير الشقيق من بعده. فلقد وجد نفسه مضطرًا إلى تقديم بعض التنازلات لطبقة النبلاء، وللأقليات الدينية في المملكة. ولكن الهدوء لم يسد في البلاد إلا بعد أن انتهى صراعه البحري مع إنجلترا، ولذا فإنه لم يمتد بعدها من الوقت الكافي لتعزيز العرش. وما أن خلفه على العرش خوان الأول (1379 – 1390)، حتى راح هذا الملك القشتالي الجديد يقوي من سلطاته، بأن حدد عدد مرات اجتماع البرلمان، وقد ظل هذا البرلمان يمارس صلاحياته التشريعية دون تدخل من جانب التاج، كما أنشأ المحكمة العليا، ونظم قواعد ملكية الأراضي بشكل قاطع، لكي يعزز من أواصر أعراق النبالة ودخولها من الأراضي المملوكة، كما أنه أضفى على المجالس المحلية مزيدًا من الصلاحيات.

كانت لدى الملوك الأوائل لآل تراستامارا طموحات تلح عليهم في ضرورة السطو على عرش البرتغال. ويمكن شرح ذلك الاستحواذ القشتالي من خلال تفهمنا للأحوال الداخلية في البرتغال، ومن انحياز البرتغال إلى جانب الإنجليز في حرب المائة عام، في تحد صارخ لقشتالة التي كانت تقف إلى جانب فرنسا في هذا الصراع. وكان الحلم يراود الملوك القشتاليين في تحويل شبه الجزيرة الأيبيرية لكي تحوي أربع ممالك فقط بدلًا من خمس وذلك عن طريق المصاهرات، وذلك رغم مقاومة البرتغاليين العنيفة لهذا التوجه القشتالي. ولقد دار الصراع عنيفًا خلال أربع مراحل: من 1369 إلى 1371، ومن 1372 إلى 1375، ومن 1380 إلى 1382، ومن 1383 إلى 1387؛ مصحوبًا بمقابلات دبلوماسية؛ وزواج الملك خوان الأول من بياتريس البرتغالية. ولكن هذه المحاولات جميعًا باءت بالفشل، وخرجت البرتغال منتصرة في النهاية في معركة ألجوباروتا Aljubarrota في سنة 1385، وتربعت أسرة آفس Avis على عرش البرتغال. وبعد معركة خاطفة شنها الملك القشتالي إنريك الثالث، تدخلت كاتالينا آل لانكستير Lancaster الوصية على عرش البرتغال، وهي شقيقة ملكة البرتغال، ونجحت في جمع الطرفين وتوقيع معاهدة سلام بين المملكتين، وقد تعزز هذا السلام المبرم بمصاهرات لاحقة بين الطرفين، ولم يعد طرف منهما بعد ذلك يفكر في مهاجمة الطرف الآخر.

من القضايا الأخرى الهامة لتلك الفترة ما وقع من قطيعة دينية في الغرب المسيحي، الأمر الذي قسم المسيحية في الغرب الأوروبي، وأدى إلى انقسامات مهولة بين الممالك الأوروبية المختلفة. فلقد وقفت قشتالة منذ البداية إلى جانب البابوات الذين هجروا مدينة روما وأقاموا في بلدة أفنيون Avignon في فرنسا، حتى تم الوفاق البابوي في مجمع قسطنس Constance سنة 1415، لإنهاء هذا الشقاق الديني الكبير، ولقد أدت هذه المحنة الكنسية بين روما وأفنيون إلى ظهور حركة دينية شعبية في قشتالة عرفت باسم التكريس الجديد Devotio moderna، والتي كانت بمثابة العباءة التي خرج من تحتها جماعة الفرنسيسكان المصلحين: وجماعة القديس جيروم، اللتان ارتبطتا بالأسرة الحاكمة في قشتالة، وبأماكن العبادة المحببة إلى قلوبهم مثل دير باولار، الذي شيده إنريك الثاني تكفيرًا عن ذنوبه الكثيرة، أو الدير الملكي لسان لورنزو دي الإسكوريال، الذي شيده الملك فيليب الثاني ليصبح ضريحًا لآل هابسبورج عند وفاة أحد منهم.

من جانب آخر يلاحظ أن نظام النبالة القائم على أواصر القرابة، الذي أرسى قواعده الملك إنريك الثاني، قد انتهى عند اعتلاء إنريك الثالث للعرش وهو طفل قاصر (1390 – 1406)؛ وذلك نظرًا لقلة عدد الأقارب من الأصول الملكية. ومع ذلك مع ظهور جيل جديد من نبلاء البلاط، سوف يتمكن أبناء فرناندو دي أنتقيرة، الذي سوف يصبح فرناندو الأول ملك أراغون، من تأسيس فرع ملكي على شاكلة فرع آل تراستامارا، وذلك لأن فرناندو هذا كان يملك ضياعًا كثيرة، بعضها لشخصه والبعض الآخر لزوجته، ليونور دي ألبوركيرك Alburquerque، وهي ابنة عم الملك

معركة ألخباروتا، في منمنمة من حولية إنجلترا، بقلم جان دي والرن، أواخر القرن الخامس عشر، المكتبة البريطانية – لندن.

إنريك الثاني، وأمام هذا الوضع المعقد تعرض العرش القشتالي للكثير من المشاكل. وهنا برز على مسرح الأحداث شخص ألفارو دي لونا، في عهد الملك خوان الثاني، الذي تصدى في شجاعة نادرة لتقليم أظافر النبالة الجديدة المتمثلة في نبلاء أنتقيرة.

والواقع أن الملك إنريك الثالث قد نجح في تحسين أوضاع مملكة قشتالة، ودورها على المسرح السياسي الدولي، فقد وضع حداً للقلاقل التي أثارها أقاربه في ضياعهم ومواقع نفوذهم، كما أنه حد من سلطات المجلس الملكي، ووضع قانوناً جديداً ينظم دورات انعقاد البرلمان، وأدخل تعديلات مالية هامة، وفوض بعض كبار القضاة في المملكة ببعض الصلاحيات الملكية. من جانب آخر راح يفاوض البرتغال، وإنجلترا، وفرنسا لتجنب وقوع صدام بينه وبين هذه الأطراف جميعًا. كذلك شارك إنريك الثالث في حملة صليبية ضد مملكة غرناطة، لكي يخضعها لإرادته، ولكي يجني منها الضرائب. على أن الوفاة المبكرة لهذا الملك قد أجهضت كل مشروعاته وأحلامه، وكان على ابنه وخلفه خوان الثاني أن يتحمل المسئولية من بعده.

وفي العقد الأخير من القرن الرابع عشر، نجح المغول في السيطرة على جزء كبير من قارة آسيا، الأمر الذي انعكس بالسلب على كل من العثمانيين والمماليك، وأيضًا على القارة الأوروبية ولقد أدى الزحف المغولي على الأراضي المملوكية إلى إيفاد ابن خلدون في سفارة لمقابلة تيمورلنك سنة 1401 على مقربة من دمشق، وكان هدف ابن خلدون أن يقنع تيمورلنك بفك الحصار عن مدينة دمشق، مقابل فدية مالية، ولكن المهمة فشلت. ومع هذا فقد عامل تيمورلنك مؤرخنا المرموق ابن خلدون معاملة طيبة وأحسن استقباله. وبعد معركة أنقرة في سنة 1402 وهزيمة السلطان العثماني بايزيد على يد تيمورلنك أوفد الملك إنريك الثالث ملك قشتالة سفارة لمقابلة تيمورلنك. ولقد لقي سفراء إنريك مقابلة ودية من الخان المغولي، الأمر الذي شجع إنريك على معاودة إيفاد سفارة أخرى مؤلفة من ري جونثالث دي كلابيخو، والراهب ألونسو پياز دي سانتا ماريا، في صحبة السفير المغولي محمد القاجي. وقد حمَّل إنريك هذه السفارة بالهدايا القيمة لتقديمها إلى سيد آسيا الجديد. ولقد أبحرت هذه السفارة من ميناء قادس في 21 مايو 1403، في طريقها إلى طرابيزون Trabzon، ومنها إلى شمالي فارس، وصولاً إلى مدينة سمرقند في سبتمبر 1404. وسوف تكون هذه الرحلة مصدر الإلهام لرواية بعنوان "البعثة إلى تيمورلنك"، والتي سوف تصبح من أقيم كتب الرحلات في الأدب القشتالي[10]. وعندما عاد هؤلاء السفراء من مهمتهم إلى قلعة عبدالسلام سنة 1406، كان ابن خلدون قد فارق الحياة في مدينة القاهرة.

8 L.V. Diez Martin, *Los oficiales de Pedro I de Castilla*, Valladalid, 1987; C. Estow, *Pedro the Cruel of castile, 1350 – 1369*, Leiden, 1995; J. Valdeón Baruque, *Pedro I el Cruel y Enrique de Trastamara: La primera Guerra civil Espanola?* Madrid, 2002; and L.V. Diaz, Martin, *Colleccion documental de Pedro I de Castilla* (1350 – 1369), Valladolid, 1997.

9 *Cronica de Pedro I* (chp. 8); Alfonso XI, *Ordenamiento de la Banda*, ed. Ceballios – Escalera y Gila, Madrid, 1993; D'A. J.D. Boulton, *The Knights of the Crown – The Monarchical Order of Knighthood in Later Medieval Europe, 1325 – 1520*. New York: Woodbridge, 2000.

10 R. González de Clavijo, *Embajada a Tamorlán*, ed. R. Alba, Madrid, 1984.

بنو نصر في غرناطة وبنو مرين في المغرب

أنطونيو تورموكا سلڤا
المتحف البلدي – الجزيرة

ترجمة إسحاق عبيد

لقد قدر الله لذلك الجزء من الأندلس، الذى تركه الأعداء بعد أن أعملوا الخراب والدمار فيه، أن يكون، وأن يتماسك أهله، وهم خيرة أبناء المسلمين، الذين كانوا يعيشون في المنطقة الوسطى من قرطبة، والذين انصرفت همومهم إلى الحرب المقدسة والجهاد، وإلى تعمير الأرض التي يقيمون عليها، وذلك في همة وبأس أكسبتهم العزة والفخار في كل الأنحاء... ويعرف أهل هذه المنطقة ببني نصر، الذين نجحوا في ترميم أرضهم، ووحدوها في كيان متماسك، وراحوا ليل نهار يسيرون على مصيرهم، ما بين الاضطرابات حينا والسلم حينا آخر وما بين المقاومة يومًا وتقديم التنازلات يوما آخر... إنها حال الجهاد ثم الاتفاق [1]. بهذه الكلمات صور ابن الخطيب، كاتب ووزير يوسف الأول ومحمد الخامس تباعًا، صور مولد وجهاد المملكة الإسلامية الصاعدة في الأندلس. ومن موقفه السياسي المتميز، وبحسه التاريخي النفاذ، تمكن ابن الخطيب من أن يتبين الجرح الذي كان يكتنف مملكة بني نصر، والتي قام هو شخصياً بدور بارز فيها، لقد كانت هذه الدولة على حد السكين كما يقول المثل، فأخذت تكابد من أجل البقاء لمدة قرنين ونصف من الزمان، ونجحت في صمودها وكفاحها، بسبب عدة عوامل وظروف تاريخية، كان من أهمها فطنة قادتها الذين نجحوا في عقد العديد من التحالفات في تحرك دبلوماسي مقتدر محافظا على توازن القوى، وصالح المملكة، وإن كان هؤلاء الحلفاء سرعان ما ينقلبون إلى أعداء.

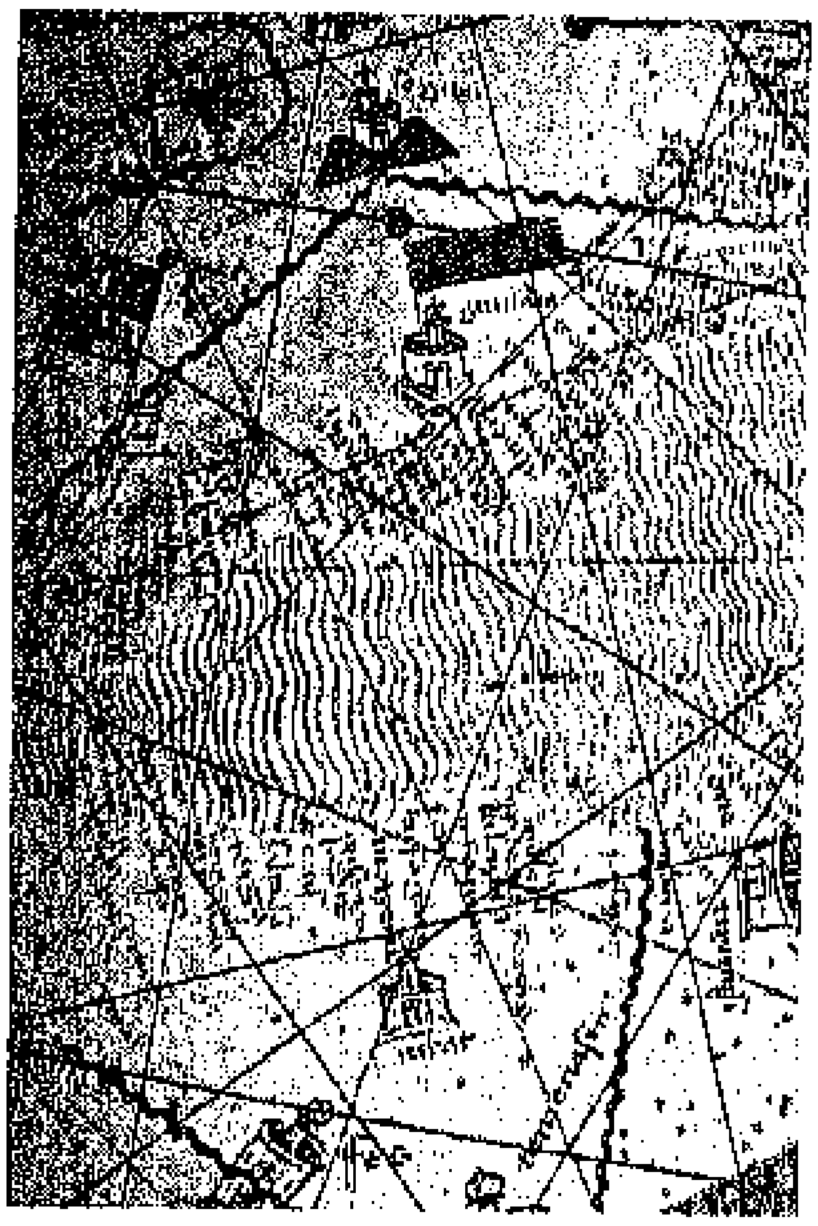

مخطوط "هداية العمل إلى المراقبين الذين يتعاملون مع الأشياء الغريبة للعواصم وأعاجيب السفر" لابن بطوطة (بدون تاريخ)، المكتبة الوطنية – مدريد.

لقد جاءت هزيمة العقاب في سنه 1212، كعلامة على اضمحلال إمبراطورية الموحدين في بلاد الأندلس، وعلى بداية حقبة من التدهور، في بلاد المغرب نفسها. فلقد وقعت هذه الأسرة الحاكمة في خلافات من داخلها، كما اغتيل بعض الخلفاء، وشبت ثورات مناهضة في المحليات، كل هذا أدى إلى سقوط إمبراطورية الموحدين، وضياع فكرة المهدوية التي نادى بها ابن تومرت حوالي سنة 1223. وبعد ذلك ببضع سنوات، سنه 1228 عندما قام الخليفة المأمون بعبور مضيق جبل طارق في طريقه إلى مراكش، تركت بلاد الأندلس دون دفاع أو تعزيز يساندها ضد الضغوط القشتالية والأراغونية. وأمام هذا الوضع المتأزم، لجأت القوى المحلية في المملكة إلى توحيد جهودها، وإلى النهوض من هذه الكبوة لمواجهة هذه التحديات. ولقد حاول كل من ابن هود في مرسية، وبني مردانيس في بلنسية، وابن محفوظ في لبلة Niebla، ومحمد بن نصر في منطقة جيان بداية ثم في الأراضي المجاورة فيما بعد، حاول هؤلاء جميعا إقامة ممالك الطوائف، ولكن النعرات الفردية غلبت عليهم، فباء المشروع بالفشل. ومن بين هؤلاء جميعا نجح محمد بن نصر في الحفاظ على أرض مملكته، وأقام مملكة بني نصر، التي ضمت ولايات مالقة، وغرناطة، وألمرية، والجزء الشرقي من قادس.

وترجع أسباب هذا النجاح والصمود لمدة قرنين ونصف من الزمان لهذه المملكة الإسلامية الأخيرة في شبه الجزيرة الأيبيرية إلى عدة عوامل، كان من أهمها وعورة الأرض في غرناطة، إلى جانب إقامة العديد من القلاع والحصون على مناطق التخوم لصد غارات العدوان من جانب الممالك المسيحية.

كما أن عوامل أخرى قد ساهمت في هذا الصمود، ومنها هجرة العديد من البشر إلى هذه المنطقة وأعمارها، مما أدى إلى زيادة ملحوظة في أعداد الفلاحين والحرفيين، وكان هذا مدعاة دخل خزانة المملكة من عوائد الضرائب، إلى جانب زيادة ملحوظة في أعداد الموظفين الحكوميين، وفي الجند، يضاف إلى ذلك اضطلاع غرناطة بدور الوسيط التجاري مع الشمال الإفريقي، وبخاصة تجارة الذهب الوارد من جنوب الصحراء الإفريقية. يضاف إلى هذا وذاك تمتع بني نصر بملكة دبلوماسية فذة؛ تمثلت في عقد الأحلاف المؤقتة مع بعض القوى المناوئة، إلى

1 Ibn al - Khatib. *Al – Lamha al – badriyya (Historia de los reyes de la Alhambra)* introd. E Molina & Trans. by J.M..Casciaro. 1998. p.25.

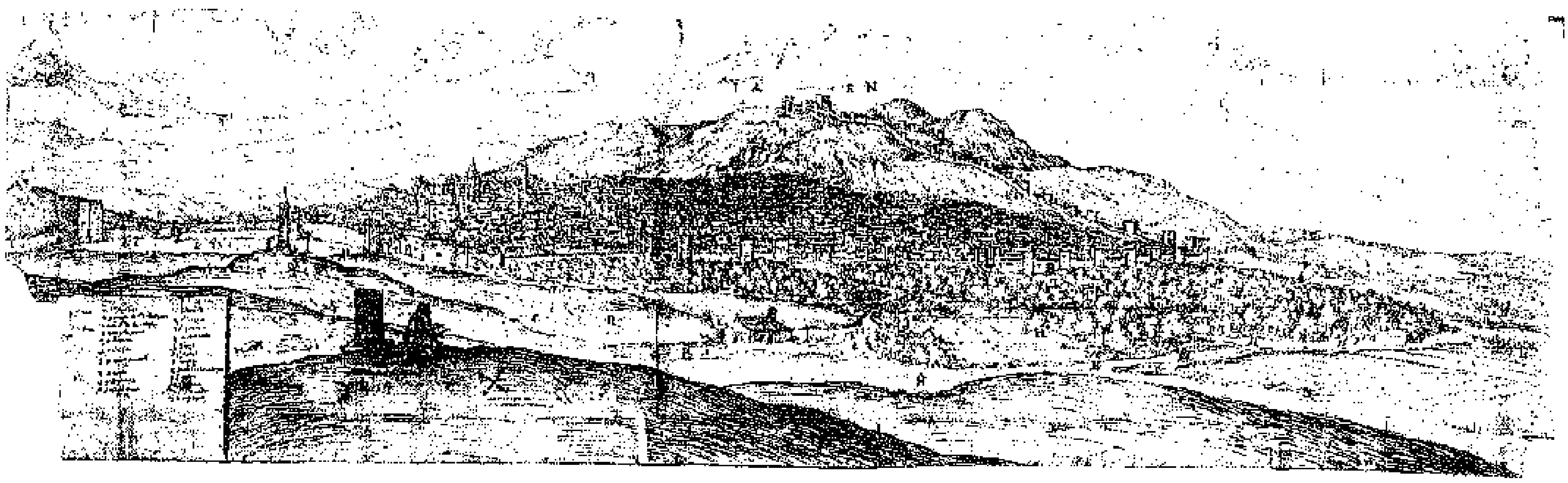

مدينة جيان، منظر بريشة أ. فان دن ونجايرد A. van den Wyngaerda، سنة 1567.

جانب ما كانت تجبيه الحكومة من أموال من رعاياها، الأمر الذى مكنها من الحفاظ على جيش قوي، ومن تنفيذ العديد من مشروعات تعمير الأراضي وملئها بالسكان.

وهناك عامل خارجي هام ساعد في تعزيز قوة بني نصر، ويتصل هذا العامل بما حل في مملكة قشتالة من فوضى في العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر وطيلة القرن الرابع عشر؛ فلقد وقع خلاف عائلي في الأسرة الحاكمة في السنوات الأخيرة من حكم الفونسو العاشر، وفي وقت الوصاية على الأمير الصغير فرناندو الرابع، وألفونسو الحادي عشر، إلى جانب الصراع الذي نشب بين جماعة النبلاء من جانب والملك من جانب آخر.

أسفل، سواحل مضيق جبل طارق، بريشة أ. فان دن ونجايرد A. van den Wyngaerda، سنة 1567.

كانت مجالس المدن والأقاليم تقف إلى جانب التاج في هذا الصراع، وعلى هذا فإن وفاة الفونسو الحادي عشر، ونشوب الصراع بين أفراد عائلته قد خفف من ضغوط مملكة قشتالة ونبلائها المتحفزين للتوسع وتملك الأراضي الإقطاعية. وما من شك في أنه كلما ازدادت قوة مملكة قشتالة عسكريًا وسياسيًا، فإن هذا كان سوف ينعكس بالضرورة على مملكة محمد بن نصر الفتية. ولا يبدو أن يد العون التي قدمها سلاطين بني مرين لبني نصر كانت هى السبب في صمود مملكة غرناطة، ذلك لأنه بينما كانت دولة بني مرين في دور احتضار: كانت مملكة غرناطة شامخة، في ظل ملكها محمد الخامس لحقبتين متتاليتين.

يلاحظ في هذا الصدد أن الملك محمد الأول كان دبلوماسيًا حصيفًا، قدم بعض التنازلات لخصمه القشتالي لكي ينصرف إلى توطيد حكمه في غرناطة؛ فقد أقر بضياع منطقة جيان إلى أيدي فرناندو الثالث سنة 1246، ووقع معه اتفاقية، وافق فيها على التبعية له ودفع إتاوة مالية أيضا. وفي سنة 1248 نجح ملك قشتالة في الاستيلاء على إشبيلية بمساعدة من كتائب غرناطة، وفي السنوات التالية، استولى الفونسو العاشر على منطقة الأطلسي الجنوبية، التي تشمل الأرك Arcos، وشريش Jerez، ومدينة شذونة Medina Sidona، ولبلة، وقادس. وكان إذعان غرناطة مؤقتًا لسطوة قشتالة هو السبيل الوحيد لصمودها، ورغم فداحة الثمن. ولكن مجريات الأمور أخذت تتبدل بعد سنة 1246؛ ففي ذلك العام قامت ثورة في منطقة المدجنين، جنوب غربي الأندلس، وفي منطقة مرسية، بموازرة من مملكة غرناطة. وعندما عزم الملك ألفونسو على الانتقام من غرناطة، بعد أن قمع ثورة المدجنين، دخل في مفاوضات مع بني أشقيلولة Asqilula في مالقة ووادي آش Guadix، الأمر الذي حذا بالسلطان الغرناطي محمد الأول إلى أن يستجير بإمبراطورية بني مرين القوية في بلاد المغرب.

كانت الفترة من سنة 1273، وقت جلوس محمد الثاني على عرش غرناطة؛ حتى سنة 1344 وقت استسلام منطقة الجزيرة الخضراء هي فترة تدخل بني مرين في الساحل الشمالي لمضيق جبل طارق، ثم سيطرتهم على جزء من مملكة غرناطة في رنده وجبل طارق والجزيرة الخضراء. وهي نفس الحقبة التي شهدت تقلبات في الأحلاف بين قشتالة، وغرناطة، وفاس، وأيضا تركيز

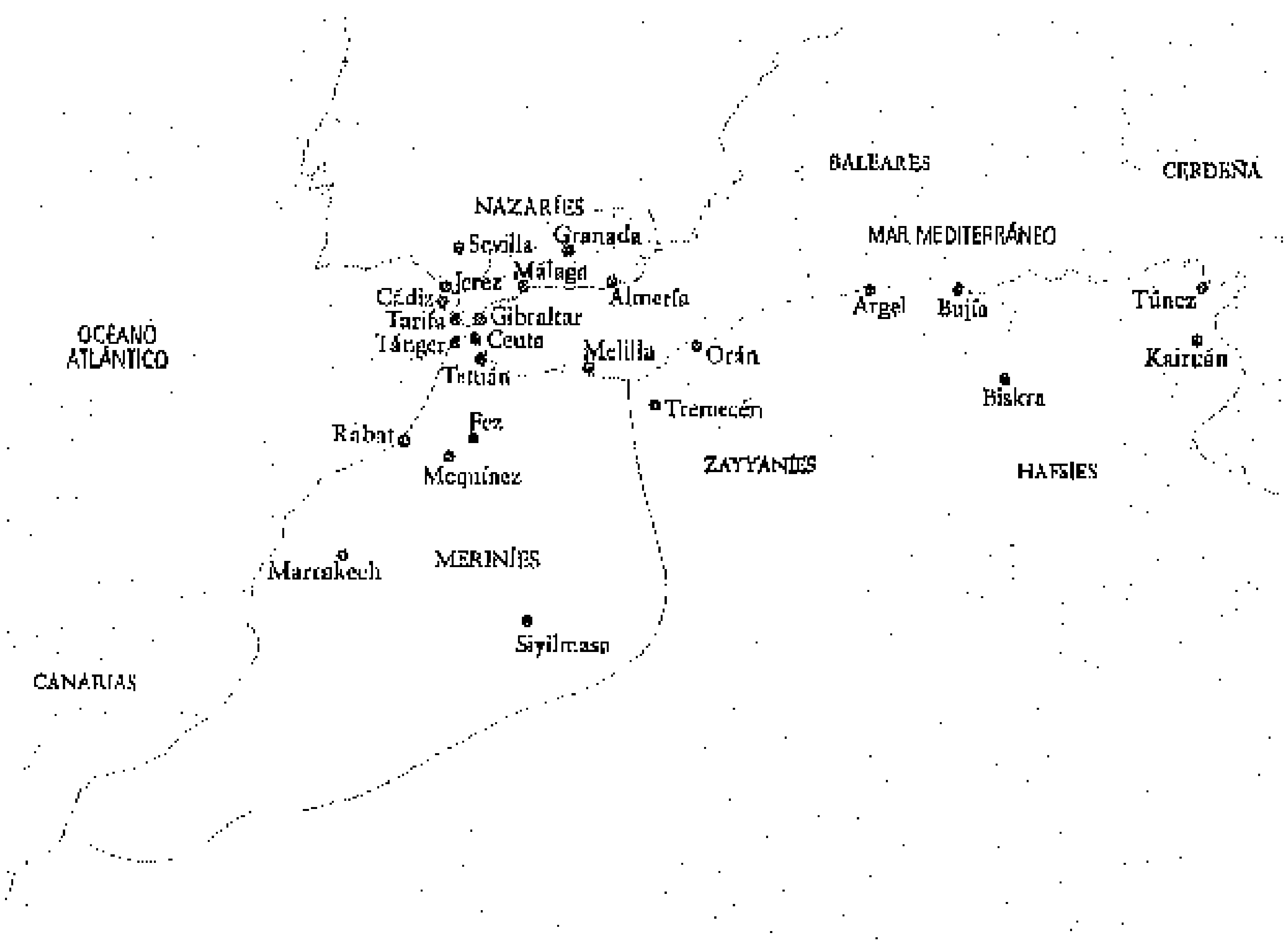

مملكة بني نصر في غرناطة، وسلطنة بني مرين.

كل من جنوة وأراغون، وقشتالة، والبرتغال للسيطرة على ما تواتر في سجلات التاريخ تحت مصطلح "معركة المضيق"[2]. وهذه الحقبة من المصادمات قد أدت إلى انسحاب بني مرين من الحلبة، بعد أن أصيبوا بتدهور سياسي واقتصادي. وفي نفس الأونة نجحت قشتالة في السيطرة على المضيق، وفتح هذا المجال البحر للتجارة العالمية، مما أدى إلى بداية العصر الذهبي لمملكة غرناطة؛ بدئًا بعهد يوسف الأول حتى وفاة الملك محمد الخامس (1333 - 1391). والأمر الغريب في هذه المجريات أن مملكة غرناطة كانت هي المستفيد الأكبر من هذا الصراع حول مضيق جبل طارق، ففي حين أن فاس كانت تتدنى إلى المحنة تلو الأخرى، تخلت أراغون بدورها عن منطقة المضيق وركزت اهتمامها على مناطق حوض البحر المتوسط، في حين أن قشتالة كانت في حال مخاض، بعد أن مزقتها الحرب الأهلية التي استعرت بين بيدرو الأول وأعوانه من جانب وبين أخيه غير الشقيق كونت أنريك دي ترانستامارا من جانب آخر. كل هذه الظروف سمحت لمملكة غرناطة أن تتمتع بغياب المنغصات الخارجية، وبذلك حققت لشعبها درجة رائعة من الرخاء الاقتصادي والسلام الاجتماعي، والتقدم العسكري والفني. فلقد تمكنت غرناطة حينها من السيطرة على كتائب المغرب جنود الغزاة، وأقامت جيشا أندلسيًا جديدًا؛ وزاد إنتاجها ودخلها بشكل ملحوظ، ولذا أقيمت فيها القصور الفاخرة وبيوت العلم (المدارس) المتعددة. وكان الملك محمد الخامس بوجه خاص سياسيًا بارعًا، ومدركًا لخبايا الأمور في الممالك المجاورة لمملكته، وبذا تمكن من التدخل في الشئون المغربية، وأن يقيم علاقات مودة مع ممالك أراغون، وتونس، وتلمسان، وأن ينشط من العلاقات التجارية مع هذه البلدان، وأيضا أن يعقد حلفًا مع بيدرو الأول ملك قشتالة أثناء صراع الأخير مع أخيه غير الشرعي إنريك، مما أدى في نهاية الأمر إلى نجاحه في مغالبة خصمه العلماني ومن استعادة مدينة الجزيرة سنة 1369 [3]. ولقد عبرت الأستاذة ماريا خيسوس فيجيرا عن هذه التطورات المتألقة في حياة مملكة غرناطة بعبارة تقول فيها: "انتعش الأدب في ظل عصره الفضي، كما أن أشعار ابن الخطيب وخلفائه، الوزير الشاعر ابن زمرك قد زينت جدران قصره بقصائد شعرية رائعة تفصح عن الرفاهية والجمال".

غير أن تقلبات الأيام قدرت لمملكة غرناطة أن تتدهور أحوالها، بسبب عوامل داخلية وأخرى خارجية، وذلك مع بدايات القرن الخامس عشر فقلد انتقلت العدوى الخبيثة من المجتمع الإقطاعي القشتالي لتصيب الصفوة في غرناطة، الذين راحوا يعانون من نفس الوباء الذي كان متفشيا بين نبلاء قشتالة، من نزاعات عائلية، وصراعات أسرية، وتدخلات خارجية. ولو أضفنا إلى هذه المشاكل تلكم العزلة التدريجية التي حلت بغرناطة عن بقية أجزاء العالم الإسلامي، إلى جانب التنافس المحموم بين البندقية وجنوة في التجارة، الذي أصاب النشاط التجاري داخل غرناطة بالركود والتأزم؛ كل هذا يوضح طبيعة الأزمات التي عصفت بمملكة غرناطة في تلك الحقبة الحرجة من التاريخ. وعندما قررت قشتالة مهاجمة الأراضي التابعة لغرناطة، ربما لكي تخفف من التوتر الذي كان يسيطر على نبلاء قشتالة، فإن ذلك كان يشير إلى قرب وقوع الكارثة. يضاف إلى ذلك أن غرناطة قد شهدت في تلك السنوات العصيبة صراعًا على السلطة، واغتيالات للسلاطين، وتدخلا من جانب مملكة قشتالة لصالح أفراد يريدون اغتصاب العرش، كل هذه العوامل مجتمعة قد ساهمت في تفسخ الأراضي الغرناطية، في مواجهة جارة متحضرة وهي مملكة قشتالة.

2 في زماننا هذا يمكن أن نشاهد توافقا في مظاهر الشبه (بين المسلمين)، فيما يتصل بالجلالقة (المسيحيين من أهل ليون وقشتالة)، لأن الجميع يتزينون بنفس الأزياء والحلي، كما أنهم يتشابهون في بعض العادات إلى حد زخرفة جدران منازلهم وقصورهم بصور ورسومات. ابن خلدون: المقدمة، المكسيك، 1997، ص308.

3 بالنسبة لاحتكار التجار الأجانب، وغيرهم انظر J. Hers. "Le Royaume de Grenade et la politiqué marchande de Genes en Occident (XV Siècle)". Le Moyen Age.XIII. 1957 (87 – 121); J. Hinajosa Montalvo "Las relaciones entre los reinos de Valencia y Granada durante La primera mitad del siglo XV". Estudios de Historia de Valencia. Valencia. 1978 (91 – 169); Ma D. Rodriguez Gómez. Las riberas nazaries y del Magreb (Siglos XIII – XV). Intercambios economicos y Culturales. Granada.

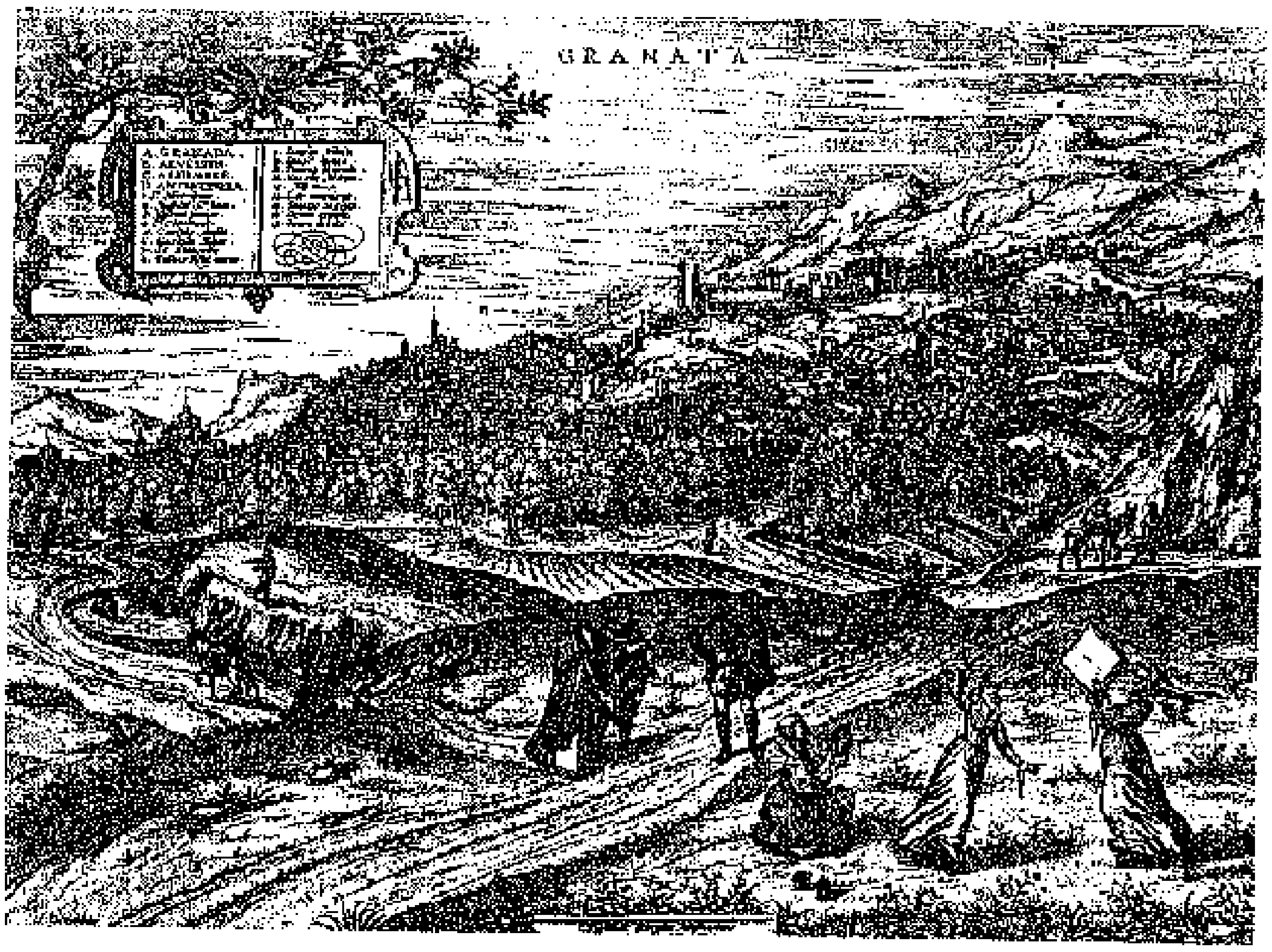

منظر لمدينة غرناطة، حي البيازين، والحمراء، في نقش من عمل ج. هويفنجل G. Hoefnagle, 1565.

جبل طارق، صورة ترجع إلى القرن التاسع عشر.

ولقد جاء استيلاء الملك فرناندو، الوصي على عرش قشتالة، على أنتقيرة سنة 1410 كعلامة نحس لغرناطة. وتتابعت الكوارث بعد سقوط كل من خمينا Jimena، وكاستلار Castellar تباعًا في سنتي 1431 و1434، وما لبث جبل طارق، وأرشذونة Archidona أن ضاعا أيضا على غرناطة سنة 1462. وراحت غرناطة تستنجد بالقوى الإسلامية المتعددة؛ دون جدوى؛ وهكذا تركت غرناطة وحدها لتواجه مصيرها المحتوم ونهايتها المأساوية فبعد برهة من الإقامة؛ أثناء حكم أبي الحسن (1464 - 1485)، عادت الأمور إلى سابق حالها من السوء. ومع توحيد مملكتي قشتالة وأراغون تحت سلطة إيزبيلا الأولى وفرناندو الخامس، في سنة 1482، راح القشتاليون يشنون الحملات ضد غرناطة. ولما فرضت السلطات في غرناطة ضرائب جديدة لمواجهة نفقات الحرب، حدث تذمر بين الشعب. وهنا انفجرت ثورات شعبية؛ وتم عزل أبي الحسن وابنه أبو عبد الله، الذي كان والده قد أعلن تنصيبه خلفا له في صيف سنة 1482. وقد وقع هذا الملك الشاب في الأسر على أيدي القشتاليين، واضطر إلى الموافقة على تبعيته لملك قشتالة مقابل الإفراج عنه. وفي أثناء ذلك كان والده أبو الحسن قد اعتلى كرسي الحكم من جديد. وفي ظل هذه الأحوال المتردية، لم يكن من الصعب على الملوك الكاثوليك أن يمضوا في تحقيق أهدافهم ضد مملكة غرناطة، بجهد عسكري متواضع. وراحت أراضي غرناطة تسلب منها واحدة بعد

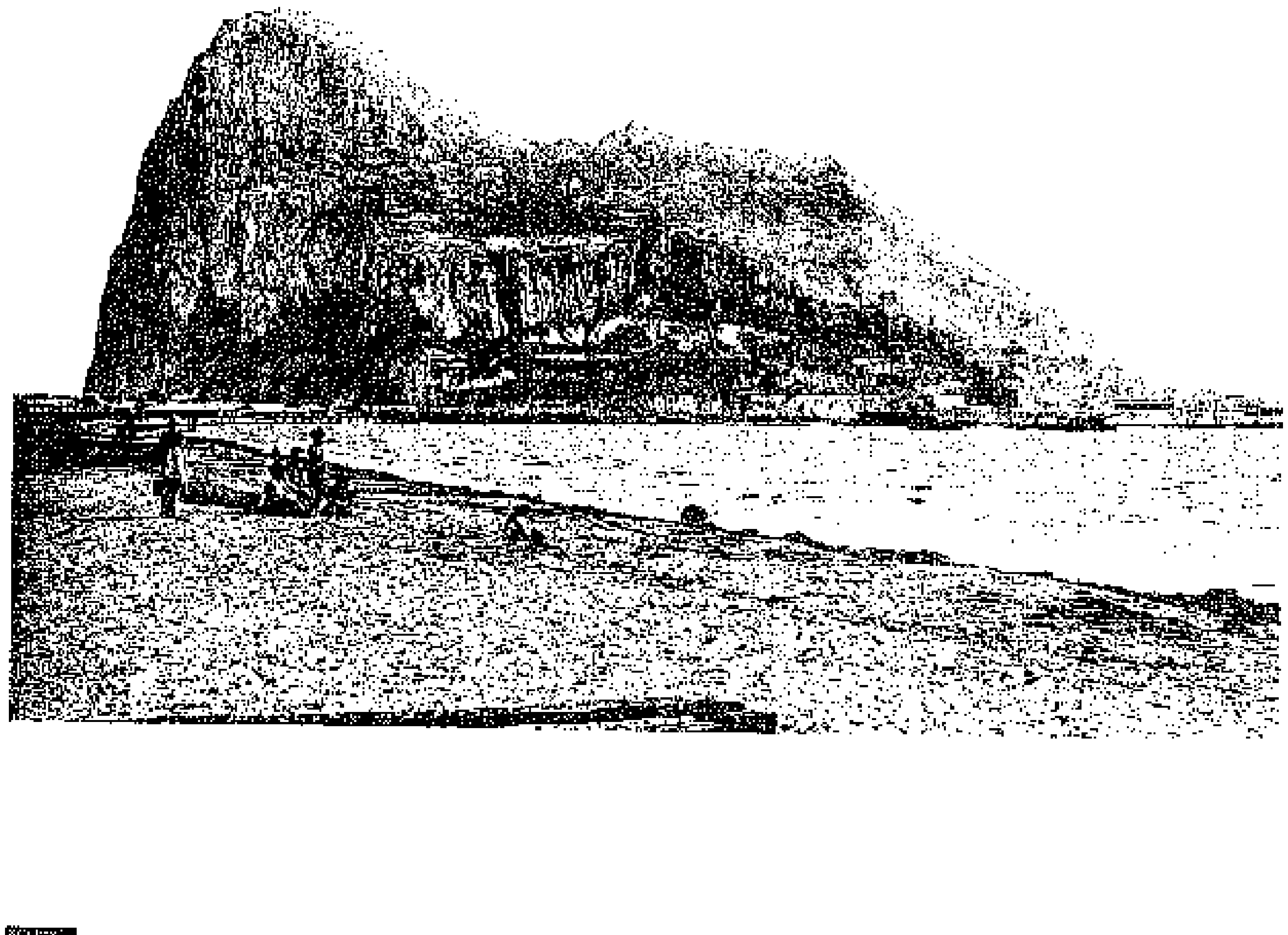

4 Mª Viguera Molins (Coord.), El Reino Nazarí de Granada (1232 – 1492). VIII – 3., Política, instituciones, Espacio Y Economía, In *Historia de España Menendez, Pidal*, Madrid, Vol. VIII-3, págs. 21-45.

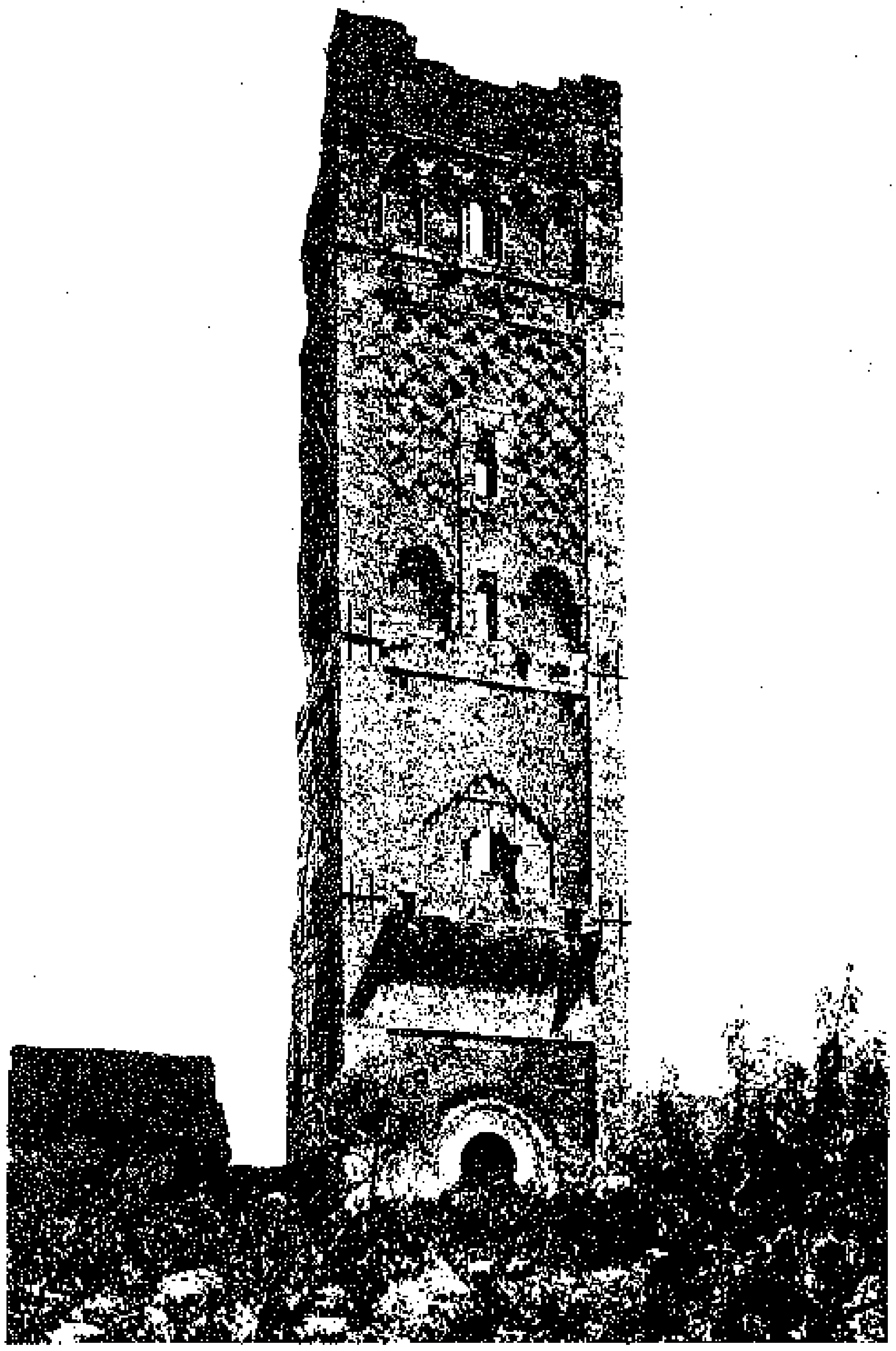

برج المنصورة على مقربة من تلمسان، عصر بني مرين.

الأخرى، في حين ركن قادتها العسكريون إلى حال من العجز أمام العدو القشتالي. أما على الجانب الآخر من البحر، لم تملك سلطنة بني مرين المتهاوية أكثر من فتح أبوابها أمام الهجرات المتدفقة من أهل غرناطة هروبًا من الزحف القشتالي، وكان ذلك في عهد بني وطاس الذين اعتلوا عرش المغرب منذ سنة 1472. وفي نهاية المطاف استسلمت كل من رندة، ومالقة، وباسة، والمرية، ووادي آش لقشتاليين، ما بين أعوام 1485 و1489. وتكتمل المأساة في الثاني من يناير 1492 عندما سقطت العاصمة نفسها في أيدي قشتالة [4].

بنو مرين: إمبراطورية فتية في المغرب الأقصى

في نفس الوقت الذي تعرض فيه الموحدون لهزيمة ساحقة في معركة العقاب، كان بنو مرين يعدون العدة للتوسع في أراضي المغرب الأقصى على حساب الأجزاء الشرقية للإمبراطورية التي كان قد أسسها عبد المؤمن. وبنو مرين جماعة من البربر البدو، الذين ينتمون إلى قبيلة زناته ويخبرنا ابن خلدون أنه قبل بدء بني مرين في حركة التوسع، كانوا مستقرين على حافة الصحراء، شرقي مراكش الحديثة؛ أي على الرقعة الممتدة من فيجيج Figuig، إلى سجلماسة وملوية، وصولا إلى نهر الزاب [5] وقد توسع بنو مرين من هذه المناطق الصحراوية على حساب الموحدين وأنصارهم، حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدينة فاس سنة 1249، وعلى العاصمة مراكش نفسها سنه 1269.

وبعد ما يربو على نصف القرن، تمكن بنو مرين من إقامة دولة ذات حكومة مركزية، واقتصاد مزدهر، كما سيطروا على القبائل القاطنة داخل أراضيهم، وفرضوا نفوذهم على المدن الكبرى التي كانت تحت حكم الموحدين. وفي هذه الدورة الزمنية القصيرة، نجح بنو مرين في تغيير أسلوب حياتهم من خشونة البداوة إلى مجتمع حضري، مع خلق نظام من التبعية والولاء لحكمهم، تمركز في تنظيمات عسكرية قوية ترتكز على العصبية القبلية (المخزن) أي الحكومة أو الدولة، وعلى الجند المرتزقة، هذا ما مكنهم من تحقيق طموحاتهم في كل من الأندلس، وتلمسان، وأفريقية، إلى جانب تشييد العديد من المشاريع العمرانية والمدن الجديدة في المغرب، مثل مدينة فاس الجديدة، والمنصورة، وأفراج، والبنية al-Binya، والجزيرة الخضراء في الأندلس.

وبعد أن سيطر بنو مرين على المغرب الأقصى، عبروا مضيق جبل طارق وتدخلوا في أحداث شبه جزيرة أيبيرية إلى جانب ملك غرناطة محمد الثاني، وفي هذه الحالة قاد السلطان نفسه الجيوش لمؤازرة ملك غرناطة [6]. على أن توسع بني مرين على الساحل الشمالي للمضيق

5 Ibn Khaldun. *Histoire des Berberes et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, trans. By Baron de Slane, new ed. P. Casanova, Baris, 1989, IV 25 – 26.

6 Manzano Rodriguez, M. A. (1992) *La intervención de los Benimerines en la Península Ibérica*, Madrid.

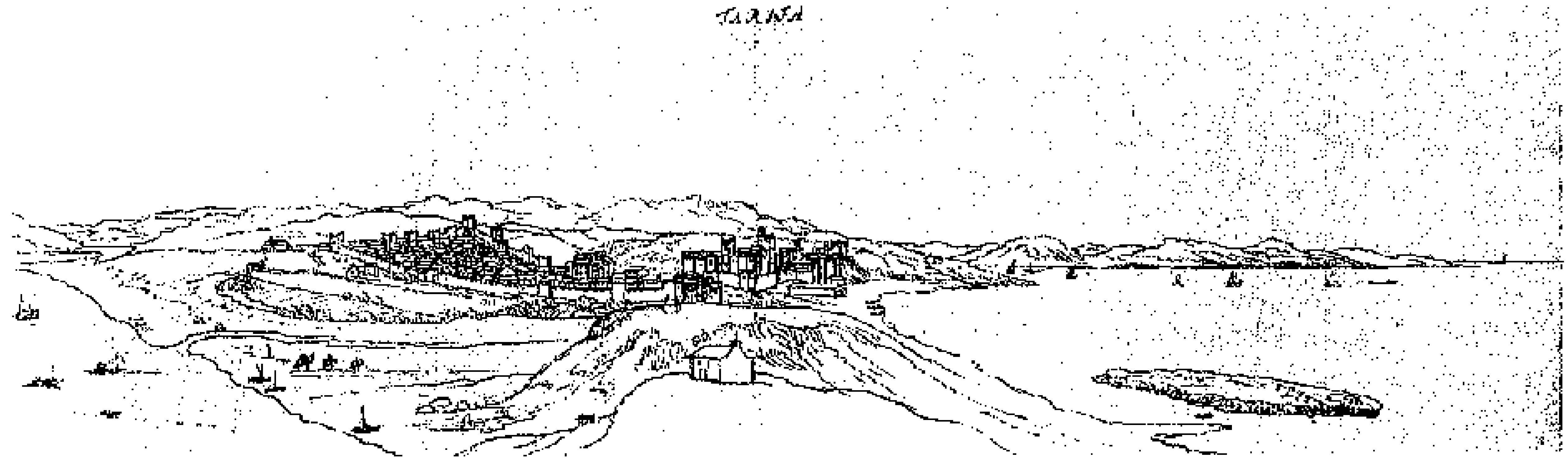

مدينة وقلعة طريفة، رسم يعود إلى النصف الثاني للقرن السادس عشر.

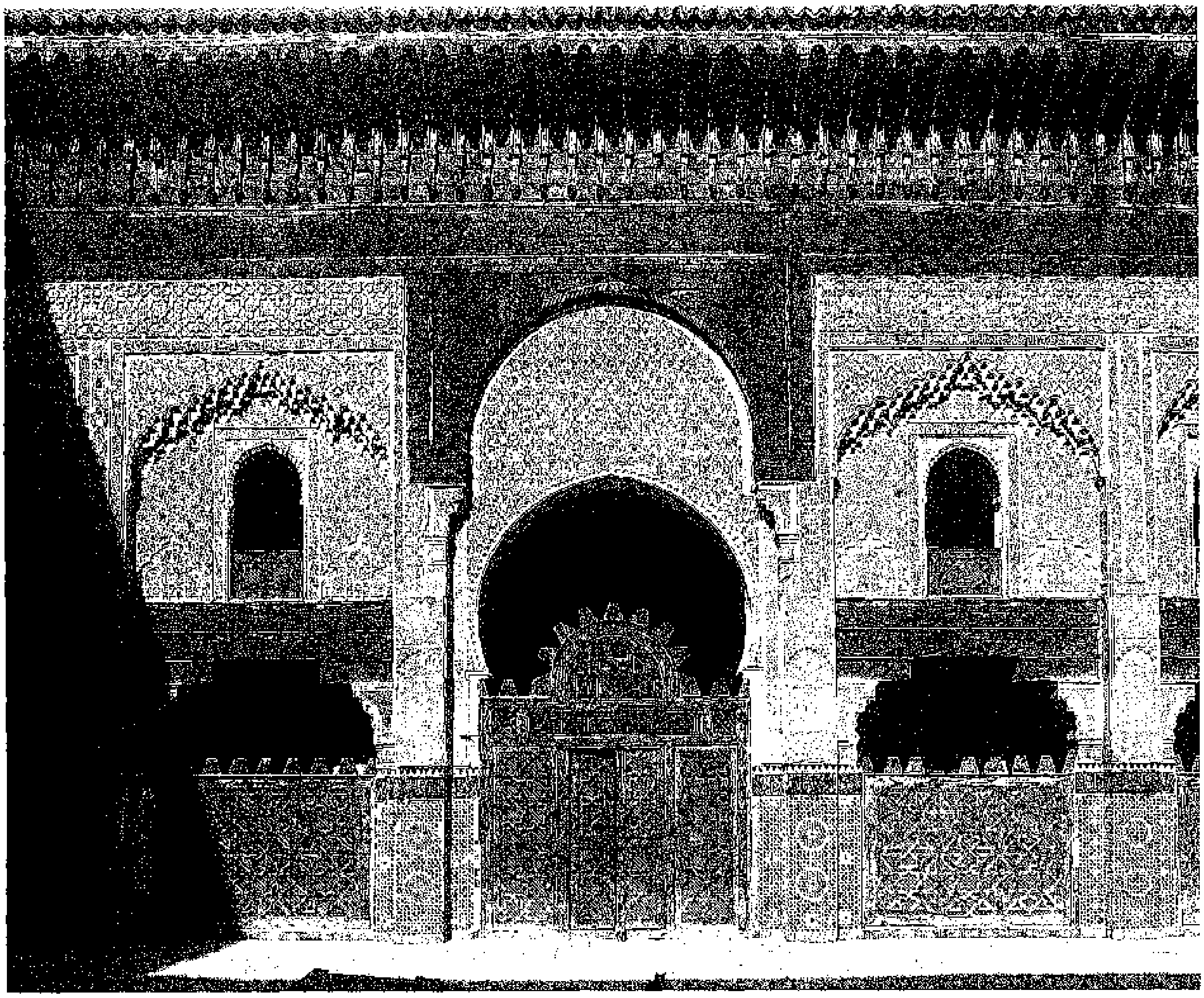

مدرسة الصهريج (1322 - 1323)، مدينة فاس.

لم يقدر له النجاح، لأنهم لم يقيموا سياجًا عسكريًا حول بدة الجزيرة الخضراء التي كانت تمثل قاعدتهم البحرية في الأندلس، في الأراضي الواقعة بين رندة، ومربلة Marbella، وجبل طارق، وطريف، وكانت النتيجة أن أوقع بهم القشتاليون والبرتغال هزيمة في موقعة طريف سنة 1340. ونتيجة لتلك الهزيمة، اتجه بنو مرين في توسعاتهم نحو المغرب الأوسط بهدف الاستيلاء على أراضي عبد الواد سيد تلمسان، ثم على أراضي الحفصيين في إفريقية، كما كانت تعرف آنذاك. وسيرا على خطى أسلافه، قام السلطان أبو الحسن بمهاجمة تلمسان واستولى عليها بعد حصار دام عامين سنة 737هـ/ إبريل 1337. أما بالنسبة لإفريقية، فقد أبقى أبو الحسن على العلاقات الطيبة تجاه سيدها، الذي كان صهره في نفس الوقت، وهو أبو يحيى أبو بكر، حتى توفي هذا الأخير سنة 1346. وما إن توارى السلطان أبو يحيى، حتى جهز أبو الحسن جيشا لمهاجمة تونس واستولى عليها في سبتمبر 1347. ولقد وصلت إمبراطورية بني مرين أقصى مداها في التوسع إبان السنوات الأخيرة لحكم أبي الحسن. وبعدها هجمت القبائل العربية على أواسط المغرب، واضطر المرينيون إلى التخلي عن إفريقية. وفي نفس الوقت قامت ثورات داخلية في السلطنة، إلى جانب شقاقات بين أفراد الأسرة الحاكمة: بدءًا بسنة 1348. ففي ذلك العام تم خلع السلطان عن عرشه بواسطة ابنه: أبي عنان، وبعدها بثلاثة أعوام قام الابن بتعذيب أبيه ونفاه إلى جبال هنتاتا، حيث مات [7].

وبخلاف القوتين السابقتين عليها من مرابطين وموحدين، لم تقم دولة بني مرين على أسس دينية إصلاحية في مسألة الدين بقيادة "مهدي". فلقد انصرف المرينيون إلى اتجاه آخر غير سابقيهم الذين ارتكزوا على قواعد الإيمان السليم [8]. ولكن هذا لا يعني أنهم أهملوا الشئون

7 Ibn Marzuq. *El Musnad: Hechos Memorables de Abu – Hassan, Sultan de los Benimerines*. Study, translation and notes by Mª J. Viguera Molins. Madrid. 1977.

8 M. Shatzmiller. "Islam de Campagne et Islam de Ville, le facteur religieuyx de l'evenement des Merinides". *Studia Islamica* (1980). p. 123.

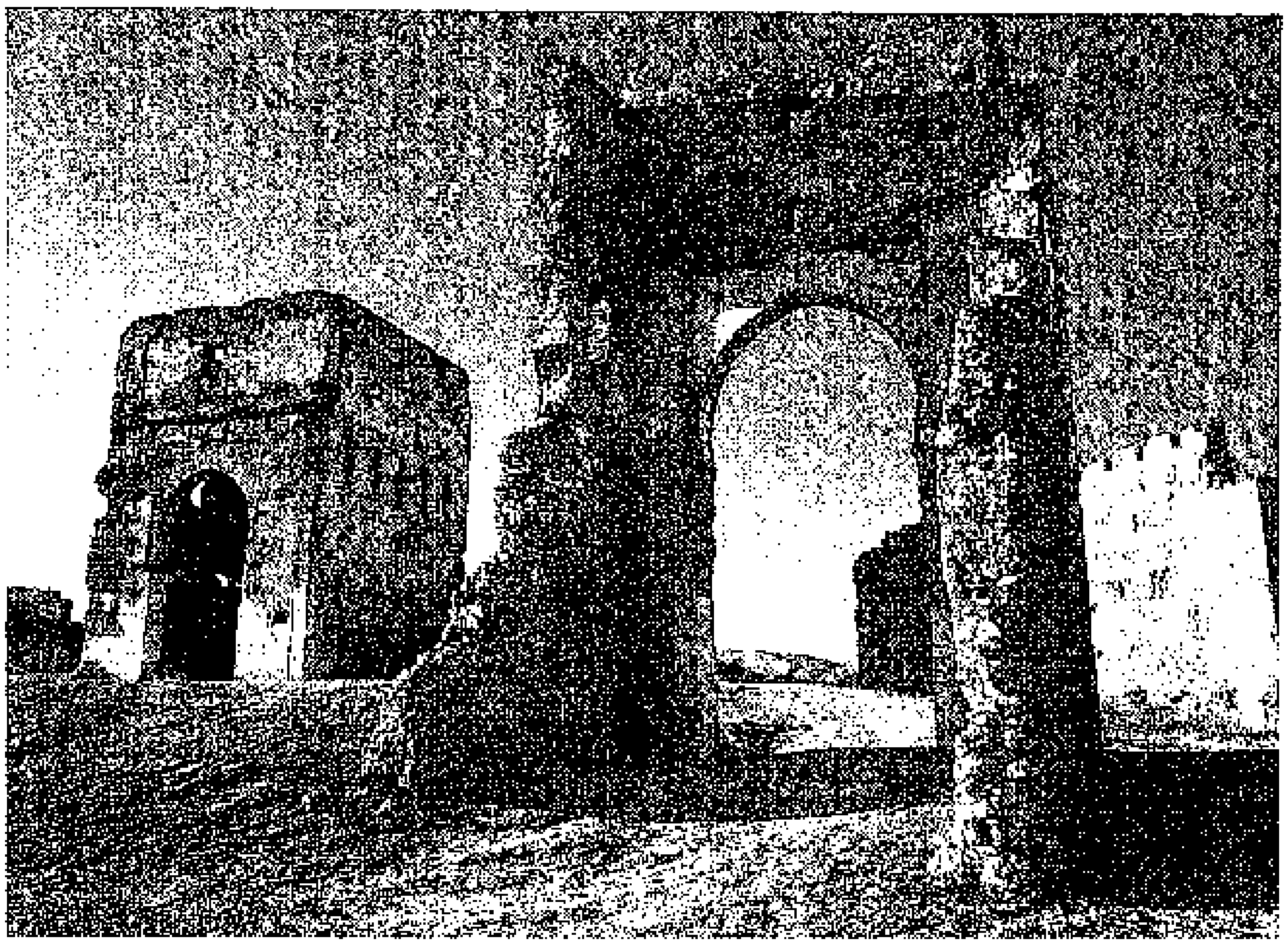

خرائب مقابر سلاطين بني مرين، مدينة فاس.

الدينية، لأنهم كانوا في حاجة إلى الحماس الديني لتحقيق طموحاتهم وتوسعاتهم. ولذا فإنهم قد سعوا إلى تقوية أواصر الإيمان لدى الرعية لإشعال حماسهم في الجهاد: كما أنهم طبقوا مذهب الإمام مالك، الأمر الذي ضمن لهم ولاء العلماء وسائر المؤمنين في البلاد. كما أن هذا التوجه كان بقصد إضفاء الشرعية على حكمهم، تلك الشرعية التي كان ينعم بها الحفصيون، في حين كانوا هم يفتقدونها. كما أن استنفار الرعية للجهاد في بلاد الأندلس، إلى جانب العلوم الإسلامية التي كانت تدرس في المدارس التي تم إنشاؤها في المدن الكبرى، كل هذا ساعد المرينيين في إحلال ركائز دينية تحل محل تعاليم ابن تومرت السابقة. وفي هذا يقول الأستاذ فرجيليو مارتينيز إينا مورا: "إن التسلح بالأيديولوجية من خلال مراكز العلم والاستنارة قد تطور في بلدان المغرب والغرب من خلال أطر مغايرة اجتماعيًا عن السياق المشرقي الذي شهد مولد هذه الأيديولوجية فإلى جانب القيمة الهامة للأصول المشرقية للأيديولوجية التي تتسم بهالة من الوقار، فإن بني مرين قد استعانوا بهذه الأصول المشرقية أيضا كركائز للإصلاح الاجتماعي والسياسي"[9].

9 V. Martínez Enamorado. Epigrafía y poder. Inscripciones arabes en la Madrassa al-Yadida de Ceuta. Ceuta. 1998. 17 – 18.

وعلى الرغم من الانتعاش الاقتصادي الذي شهدته إمبراطورية بني مرين حتى النصف الأول من القرن الرابع عشر، نتيجة السلام الداخلي عن طريق المشاركة في السلطة والقضاء على الشقاقات، واعتمادًا على العصبية القبلية، والسيطرة على النشاط التجاري خاصة تجارة الذهب في طريقها من جنوبي الصحراء إلى حوض البحر المتوسط، إلى جانب تجارة جلود الحيوانات وبعض المعادن وغيرها، بالرغم من كل ذلك فإن الأزمات السياسية الطارئة، والنكسات العسكرية، ثم تحول طرق التجارة وسيطرة البرتغاليين والجنوبيين عليها، كل هذا وذاك قد أدى إلى ضعف تدريجي في سلطنة بني مرين، وفي نفس الآونة، ظهرت على الساحة قوى جديدة (قشتالة والبرتغال)، سيطرت على مناطق غربي البحر المتوسط والساحل

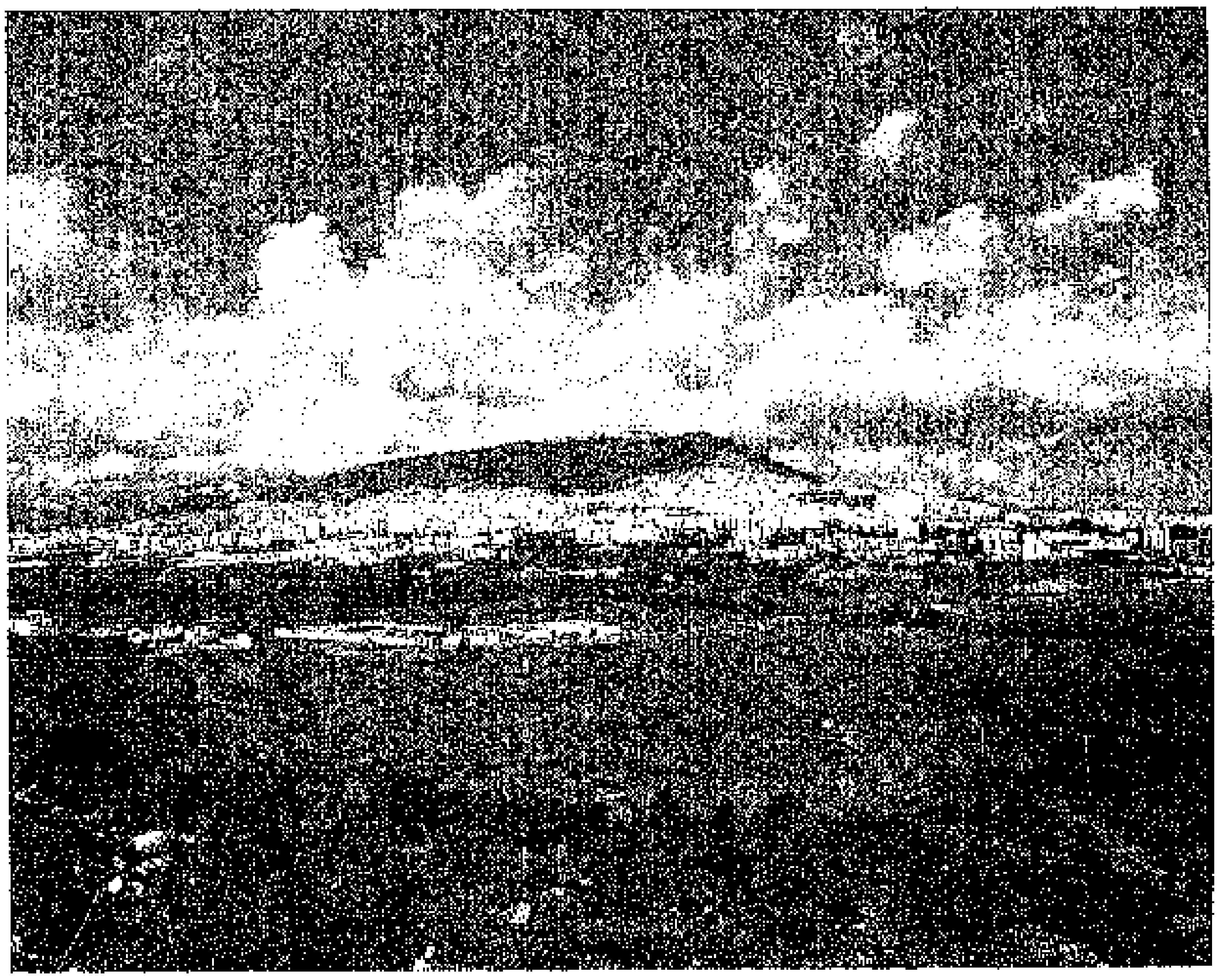

مدينة تطوان.

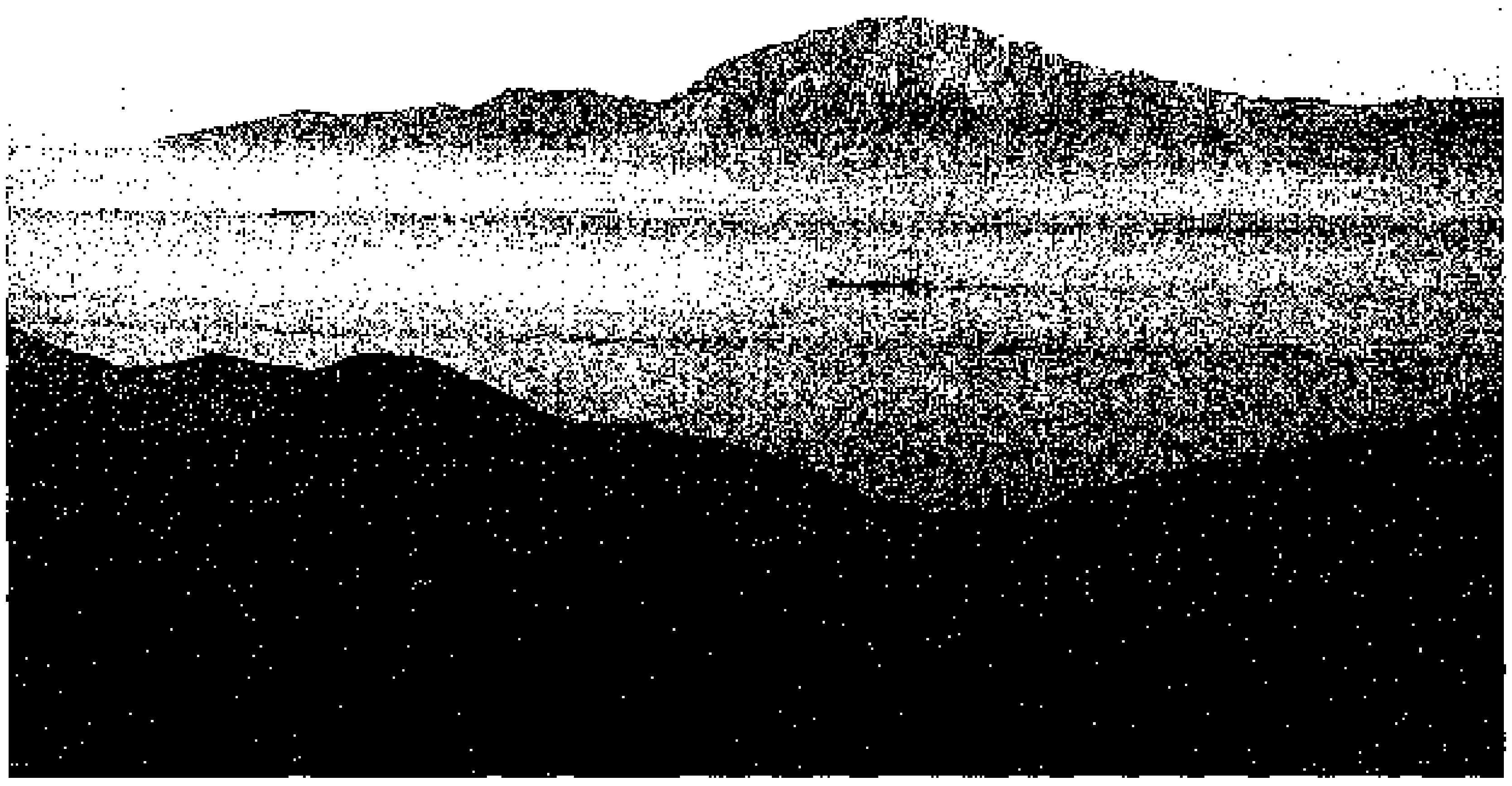

ساحل مضيق جبل طارق،
في مواجهة مدينة سبتة.

الإفريقي- الأطلسي. ولقد وضح هذا التدهور في دولة بني مرين في العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر. فلقد رسى القشتاليون في بلدة ريو مارتل Río Martil ودمروا مدينة تطوان سنة 1399، دون أن يلقوا مقاومة تذكر. وفي سنة 1415 استولى البرتغاليون على مدينة سبتة. ومنذ تلك الآونة، باتت السواحل المراكشية تحت رحمة القوى البحرية المسيحية الجديدة. وهذا الوضع الحرج قد أنهك سلطنة بني مرين، وفجر العديد من ردود الفعل ذات الطبقة الدينية، وانتهى الأمر بالإطاحة بالأسرة الحاكمة التي حكمت المغرب الأقصى لمدة قرنين من الزمان. ثم أخذت الحكم أسرة جديدة هي أسرة بني وطاس، وهي من فروع بني مرين، التي حكمت المغرب من سنة 1472 حتى منتصف القرن السادس عشر.

ولابد من القول بأن تراث بني مرين كان تراثًا غنيًّا، وبقيت أصداؤه في البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المغرب حتى القرن العشرين.

لقد ظلت مؤسسة المخزن باقية كعنصر للتوازن بين صلاحيات السلطان وبين رعاياه، تحفظ للحاكم استقلالية قراراته في مقابل قوى القبائل وسطوتها. كما أن بني مرين قد أقاموا العديد من المباني الفخمة والمدن ومخازن القمح: والكباري، والزوايا، وغيرها، وظلت كل هذه الإنجازات ماثلة في ذاكرة المغاربة كدلالة على الحكومة الصالحة.

وخلاصة القول، في مقدورنا أن نقول أن العصور الوسطى المتأخرة تدور، في المناطق الغربية لحوض البحر المتوسط، حول قيام وسقوط مملكتين إسلاميتين، بنو نصر وبنو مرين، ثم حلول قوى جديدة محلهما، هي القوى البحرية لقشتالة والبرتغال. ولم تستطع الدولتان النصرية والمرينية أن تصمدا أمام التيار الكاسح الجديد من توسع وسيطرة على البحار وتحكم في طرق التجارة. وبسبب غرناطة كما رأينا.

ومن جانب آخر، كانت سلطنة فاس المغربية عاجزة عن السيادة البحرية، كما أنها وقعت فريسة للصراعات الأسرية. ولهذا لم تجد البرتغال من يتصدى لها عندما حولت طريق التجارة الصحراوي إلى المحيط الأطلسي. وفي حالة كهذه، ومع اختفاء آخر مملكة إسلامية من شبه الجزيرة الأيبيرية، ومع تدهور سلطنة بني مرين، بدا في الأفق أن الساحة باتت لصالح القوى البحرية الأوروبية. ومن ثم انتقل المحور إلى بلاد المشرق الإسلامي، وأما غربي حوض البحر المتوسط فقد صار إلى أيدي القوى الجديدة المتحفزة. ولم يبق أمام الدول الإسلامية الضعيفة في الجانب الغربي لحوض البحر المتوسط إلا أن تتعاون مع العثمانيين، كما لجأت أيضاً إلى أعمال القرصنة في البحار. ومنذ العقد الأخير من القرن الرابع عشر، تبدل دور مضيق جبل طارق من حلقة وصل بين حضارتي الشرق والغرب إلى حد فاصل بين عالمين متنافرين، العالم الإسلامي والعالم المسيحي[10].

10 Torremocha Silva, A. (2002) «El fenómeno urbano-portuario en el Estrecho de Gibraltar», Actas del II Congreso Internacional La Ciudad en al-Andalus y el Magreb (Algeciras, 1999). Granada, p. 319-325.

الزيانيون في تلمسان والحفصيون في تونس

حسناء طرابلسي
جامعة تونس – تونس

ترجمة قاسم عبده قاسم

في المغرب، كان القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فترة صراع ناتجة عن الثورات التي لا تتوقف وعن الحروب بين الأخوة. فبعد الهيمنة قصيرة المدى للموحدين، كانت هناك ثلاث سلالات حاكمة تتقاسم البلاد: المرينيون في الغرب، وأبناء عبد الواد أو الزيانيون في الوسط، والحفصيون في الشرق.

وقد كانت هذه الأسر الحاكمة الثلاث في حروب مستمرة كل منها مع الأخرى طوال تاريخها؛ وكانت ممتلكاتهم تمتد وتضيق فيما بين النصر والهزيمة.

وقد كانت أسرة الزيانيين في تلمسان هي الأسوأ حالاً. فالواقع أنها كانت محصورة بين بلاد المغرب الأقصى وإفريقية، وكانت لدى مملكة تلمسان أراض خصبة قليلة، ومدن قليلة مزدهرة، وعدد قليل من السكان. ولهذا السبب كانت تلمسان، غالبًا ما تعجز عن مواجهة هجمات جيرانها، وسواء كان موقفها في العلاقة مع الحفصيين مريحًا أو غير مريح، فقد كان عليها أن تعاني من حصار دام ثماني سنوات في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي (701-709هـ/ 1298 - 1306)*. وقد تم فرض هذا الحصار من جانب بني مرين ردًا على مناسبتين تحرر فيها الزيانيون من نير احتلالهم من سنة 737هـ/ 1337 إلى 749هـ/ 1348 ومن سنة 753هـ/ 1352 إلى سنة 760 هـ/ 1359.

كان الحفصيون يمتلكون أراض واسعة وموارد مالية وبشرية أكثر أهمية، ومن ثم كان بوسعهم أن يحكموا بقدر أقل من المصاعب. وعلى أية حال فإن الحفصيين كان لهم ساحل طويل ولكنهم كانوا يفتقرون إلى أسطول قوي، ومن ثم كان عليهم التوصل إلى حل وسط مع جيرانهم شمال البحر المتوسط (صقلية، والجمهوريات الإيطالية، وأقاليم فرنسا الجنوبية؛ والجزء المسيحي من إسبانيا).

في هذه المقالة، يتركز اهتمامنا على اثنين من السلالات الثلاث الحاكمة: الزيانيين في تلمسان والحفصيين في تونس، ولاسيما في أثناء القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وعن هذا الطريق سنحاول التركيز على الحقائق الأساسية.

الزيانيون في تلمسان في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي

الزيانيون أم بنو عبد الواد؟ لكي نُزيل أي لبس قد يسببه هذان المصطلحان للقارئ، فمن الضروري أن نحدد في البداية أنهما يدلان على الأسرة الحاكمة نفسها التي كان ملوكها ينحدرون من نسل جد بعيد يُسمى "عبد الواد"؛ وهم أيضا من نسل زيَّان، الذي كان جدًا أقرب زمنيًا.

وقد وصل الزيانيون إلى سدة الحكم، مثل الحفصيين ولكن بطريقة مختلفة، بعد أن تفككت إمبراطورية الموحدين. ولما كانت تلمسان عاصمة لدولتهم، فقد امتدت سلطتهم على وسط المغرب من مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حتى منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

ونحن نهتم بشكل خاص بتاريخ هذه الأسرة الحاكمة خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وعلى أية حال، فإننا نتحدث عن تاريخ أسرة حاكمة كاملة ولذلك فإن الأحداث السابقة واللاحقة على هذا القرن ستكون ضرورية أحيانًا.

أصل الأسرة الزيانية وتأسيسها

حسب رواية ابن خلدون[1] كان بنو زيَّان، شأنهم شأن بني مرين، وبني تجين وبني رشيد وبني مزاب، جزءًا من زناتة من بني وسين. وكان بنو زيان قومًا من البدو مثل آبائهم وجيرانهم. وفي

* هذا التاريخ ورد بشكل خاطئ في الأصل كما يلي (608-709 / 1298-1306)؛ وقد صححته في الترجمة، ولكن هناك تناقضًا مع التواريخ التالية لأن المفروض أن الحصار يأتي بعد هذه التواريخ لا قبلها (المترجم)

1 Ibn Khaldun, Histcire des Berbéres, translation oy slane pp. 302 and 32

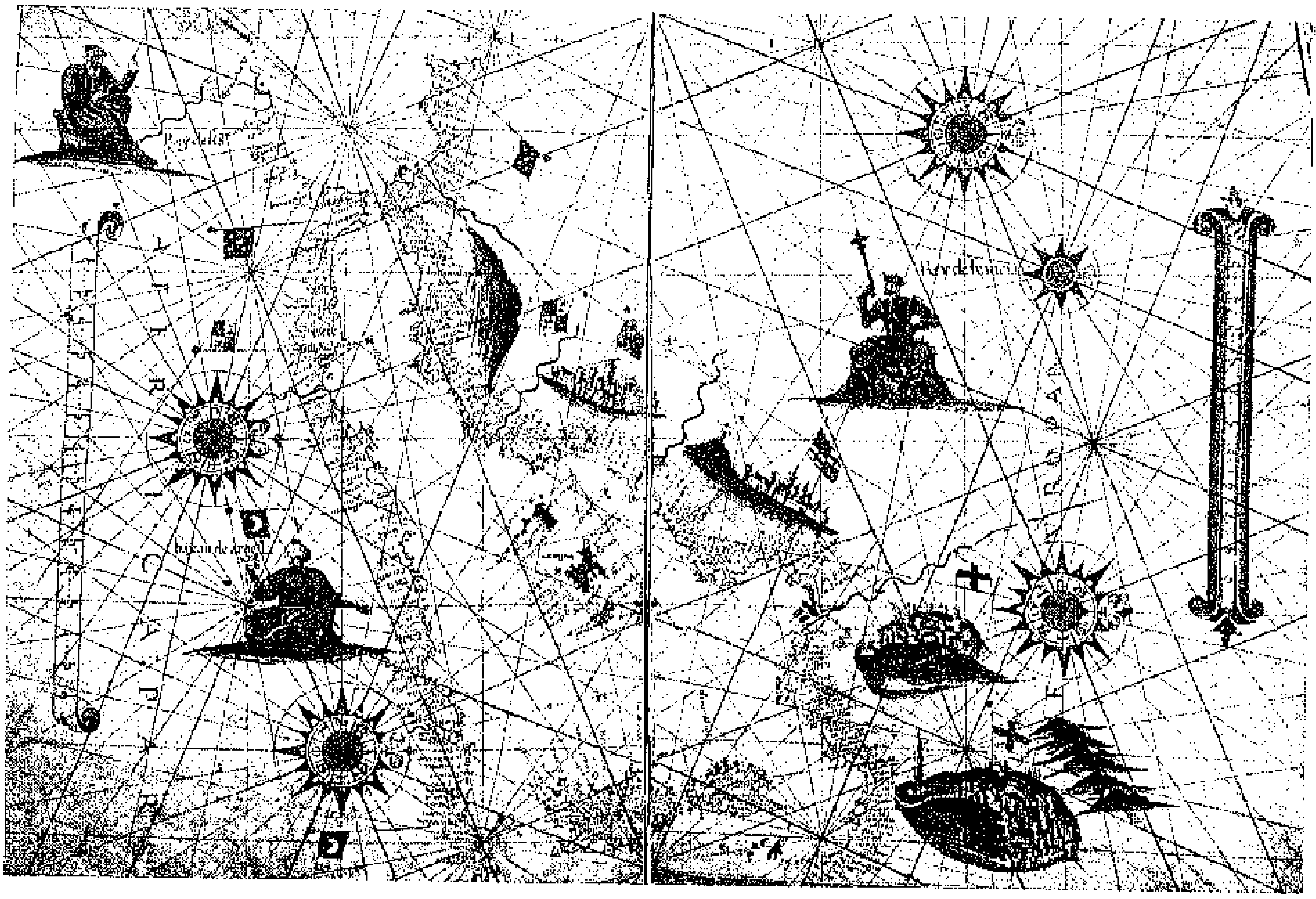

سواحل غرب المتوسط كما توضحها خريطة من القرن السادس عشر، المركز الجغرافي للجيش- مدريد

البداية احتلوا اقليمًا كبيرًا وصل إلى جبال الأوراس. وفي عقب الغزوة الهلالية في القرن الخامس الهجري، كان عليهم أن يهاجروا إلى السهول العليا في أوران. وحدث بعد غزو الموحدين للبلاد بدأ حظ بني زيان في الصعود. والواقع أن تعاونهم مع الموحدين آتي ثماره بالنسبة لهم. واستفادت تلمسان المنيعة من تخريب المناطق المجاورة وعمليات خروج السكان من هذه المناطق.

في سنة 633 هـ/ 1232 ورث أبو يحيى بن زيان قيادة جميع فروع الأسرة عن أخيه. وقد وافقت القبائل الأخرى على هذا التعيين وتأكد بمرسوم تقليد من قبل الخليفة الموحدي الرشيد [2] (630- 640هـ/ 1232-1242). وصار أبو يحيى زعيم بني زيان بلا منازع. وقد تحكم في مصائر هذه المجموعة على مدى ثمان وأربعين سنة من سنة 633 هـ/ 1235 إلى سنة 681 هـ/ 1283. ويتفق كل المؤرخين في تقديرهم لخصال هذا الحاكم، الذي كان محاربًا وراعيًا للفنون. ويقول ابن خلدون إنه كان الأشجع والأكثر مهابة وشرفًا من أسرة عبد الواد. ولم يكن أحد يرعى مصالح قومه ويحافظ على نفوذ المملكة ويدير دولاب الدولة بشكل أفضل منه [3].

وإذا كان الصراع بين القبائل المرينية وقبائل بني عبد الواد تقليديًا، فإنه قد وصل إلى ذروته مع تأسيس مملكتي الزيانيين وبني مرين اللتين كانتا متجاورتين ومتنافستين. وقد اتسم تاريخ مملكة تلمسان بالهجمات المتكررة من جانب المرينيين، وكانت مملكة بني مرين العقبة الأولى في طريق محاولاتهم للهيمنة على المغرب بأسره. وقبل موت أبي يحيى كان قد أرسى سياسات كان على ابنه ووريثه عثمان أن يتبعها: فقد اتخذ موقفًا دفاعيًا صارمًا تجاه مملكة بني مرين والتوسع على حساب مملكة الحفصيين إذا ما سنحت الفرصة.

تاريخ الزيانيين في أثناء القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي

بعد معاناة هجمات المرينيين أثناء عهد أبي يحيى، تعين على تلمسان أن تعاني من حصار واحتلالين في أثناء القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وقد صدّ أبو سعيد عثمان (681-703 هـ/ 1282-1305) أربع هجمات شنها أبو يعقوب يوسف المريني (698-706 هـ/

2 EI2, Abd-al-Wadides, G. Marçais, p. 95

3 Hisoire des Berbéres , translation, cit., p. 340

1299-1307). وفي الحملة الخامسة استولى المرينيون على كل ولايات المملكة ومعاقلها وفرضوا حصارًا على العاصمة 698 هـ/ 1298. وكان هذا حصارا طويلًا قاسيًا "لم يكن له مثيل من قبل" [4].

وبنى السلطان المريني مدينة أخرى بمسجدها الجامع، وقصورها، وحماماتها، وفنادقها واستحكاماتها بالقرب من العاصمة المحاصرة. وقد أطلق على هذه المدينة الجديدة اسم "تلمسان الجديد" حسبما يقول بعض المؤرخين [5]. أو "المنصورة" حسبما يقول غيرهم [6]. وفي سنة 1307 رُفع هذا الحصار، الذي استمر ثماني سنوات وثلاثة أشهر وخمسة أيام، بعد اغتيال السلطان المريني بيد واحد من خصيانه وهو نائم (706 هـ/ 1307). وكادت نهاية هذا الحصار أن تتوافق مع موت ثالث ملوك الزيانيين أبو زيان الأول (703-707 هـ/ 1303- 1308).

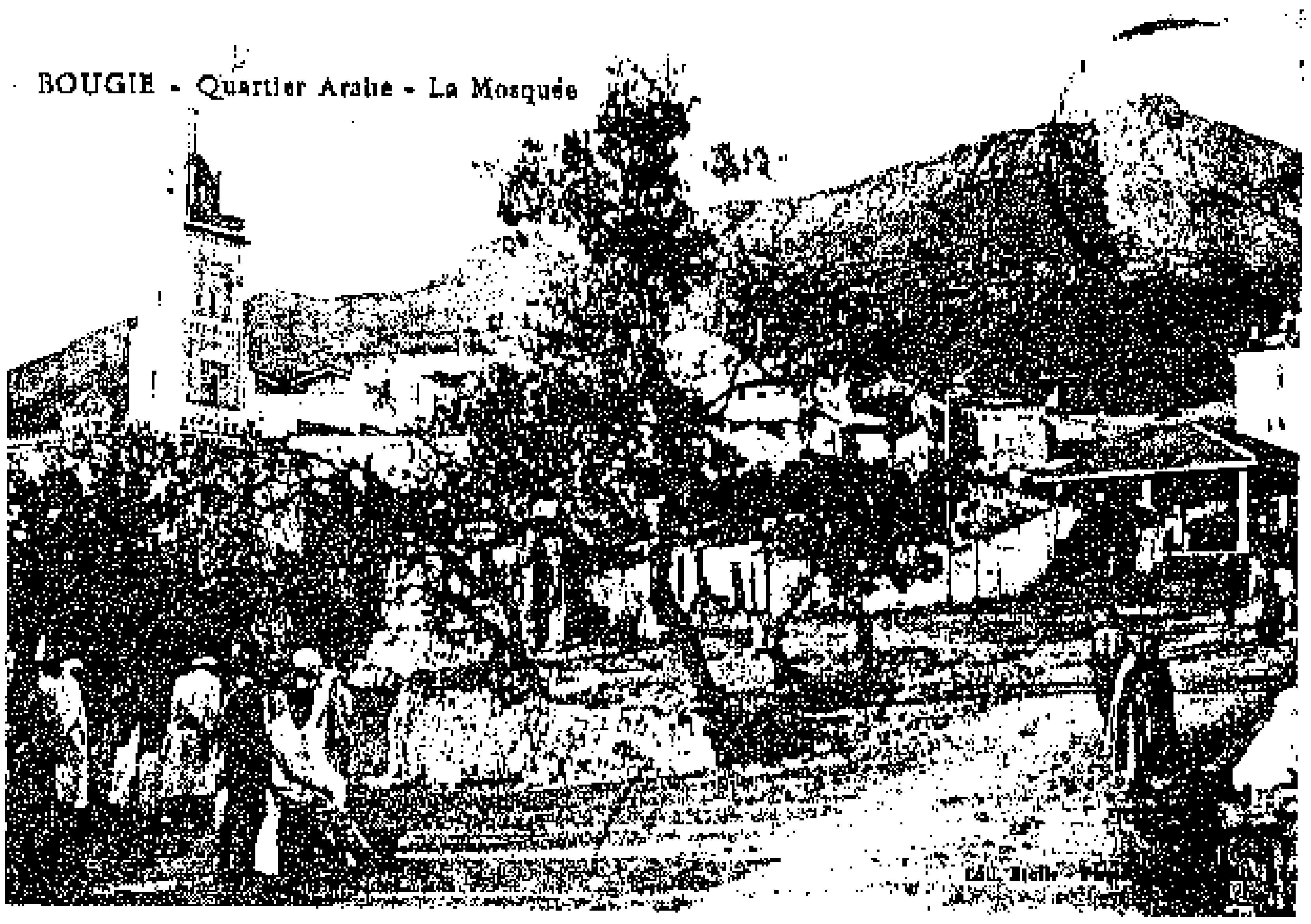

الحي القديم في مدينة بجاية على بطاقة بريدية ترجع إلى بدايات القرن التاسع عشر

وقد أصبح خليفته أبو حمو الأول (707-718هـ/ 1308-1318) الدمار والخراب الذي حلّ بالمملكة ونشر السلم بين المدن والقبائل المتمردة. وتم اغتياله بعد مؤامرة دبرها ابنه أبو تاشفين (718-737 هـ/ 1318-1337)، الذي كان خليفته. وتميز حكم أبي تاشفين بالصراعات مع المتمردين وحصار بجاية. وخلال هذا الحصار، تم بناء مدينة لجيشه الذي كان يرابط قبالة بجاية. ثم أرسل جيشًا ضد تونس استطاع أن يُلحق هزيمة قاسية بالملك الحفصي أبي يحيى أبي بكر، الذي جُرح وهرب إلى قسنطينة. واحتل الجيش الزياني تونس.

وطلب الملك الحفصي مساعدة أبي الحسن المريني، الذي حاول حل الصراع بالوسائل الدبلوماسية. وإذ وجه بالرفض الزياني قرر أبو الحسن، الذي كان زوج ابنة أبي يحيى الحفصي، أن يزحف على تلمسان على رأس جيش قوي وحاصر المدينة. ومات ابن تاشفين وابنه ووزيره بعد معارك كثيرة وتم غزو المدينة واحتلالها في سنة 737 هـ/ 1337. وقد وضع هذا الموقف نهاية لأسرة بني زيان.

وعلى أية حال، كانت الهزيمة سريعة مثلما كان النصر. فقد ثارت القبائل العربية ضد أبي الحسن. أما زعماء بني عبد الواد، الذين عاملهم بطريقة كريمة أثناء هزيمتهم والذين كانوا مساعدين في جيشه، فقد خانوه. وقد ضموا قواتهم إلى القبائل وألحقوا هزيمة مريرة به في سهل القيروان. وبالإضافة إلى ذلك، تمرد ضده ابنه وسيطر على فاس. وعاد الزيانيون إلى عاصمتهم واستطاعوا إعادة بناء مملكتهم. وتم إعلان أبي سعيد عثمان الثاني ملكًا (749-753 هـ/ 1348-1352) [7].

والواقع أنهما كانا أخوين، أبي سعيد وأبو ثابت، كان ولدي عبد الرحمن وحفيدي أبي يحيى، اللذين سيطرا على الموقف. وقد اقتسما السلطة والحكم في انسجام تام. وعلى أية حال، كان حكمهما قصيرًا. إذ إن السلطان المريني أبا عنان فارس، الذي أراد أن يكرر بطولات أبيه، زحف ضد الزيانيين وهزمهم بفضل تعاون البعض وتخلي البعض الآخر عنهم. وللمرة الثانية وقعت تلمسان تحت الحكم المريني في سنة 753هـ/ 1352.

وبعد ذلك بسبع سنوات، عند وفاة أبي عنان، استعاد أبو حمو موسى الثاني، (760-791هـ/ 1359-1389)، ابن أخي الملكين السابقين، المملكة مرة أخرى وكان ذلك علامة على بداية الفترة الثانية التي خلا فيها العرش المريني (670 هـ/ 1359) وكان حكم أبي حمو موسى الثاني،

4 Al- Tanasi, Histoire des Banu Zayyan, rois de Tlemcen, translation by J.J. Bargès, pag. 32.

5 Al- Tanasi, translation cit., p. 30

6 Yahya Ibn Khaldun, Histoir des banu Abd al-Wad, translation by A. Bel, p. 164.

7 وفقا لهذا الكتاب الذى كتبه شقيق ابن خلدون (ص 195) تم الاحتفال بهذا الإعلان تحت أسوار تونس

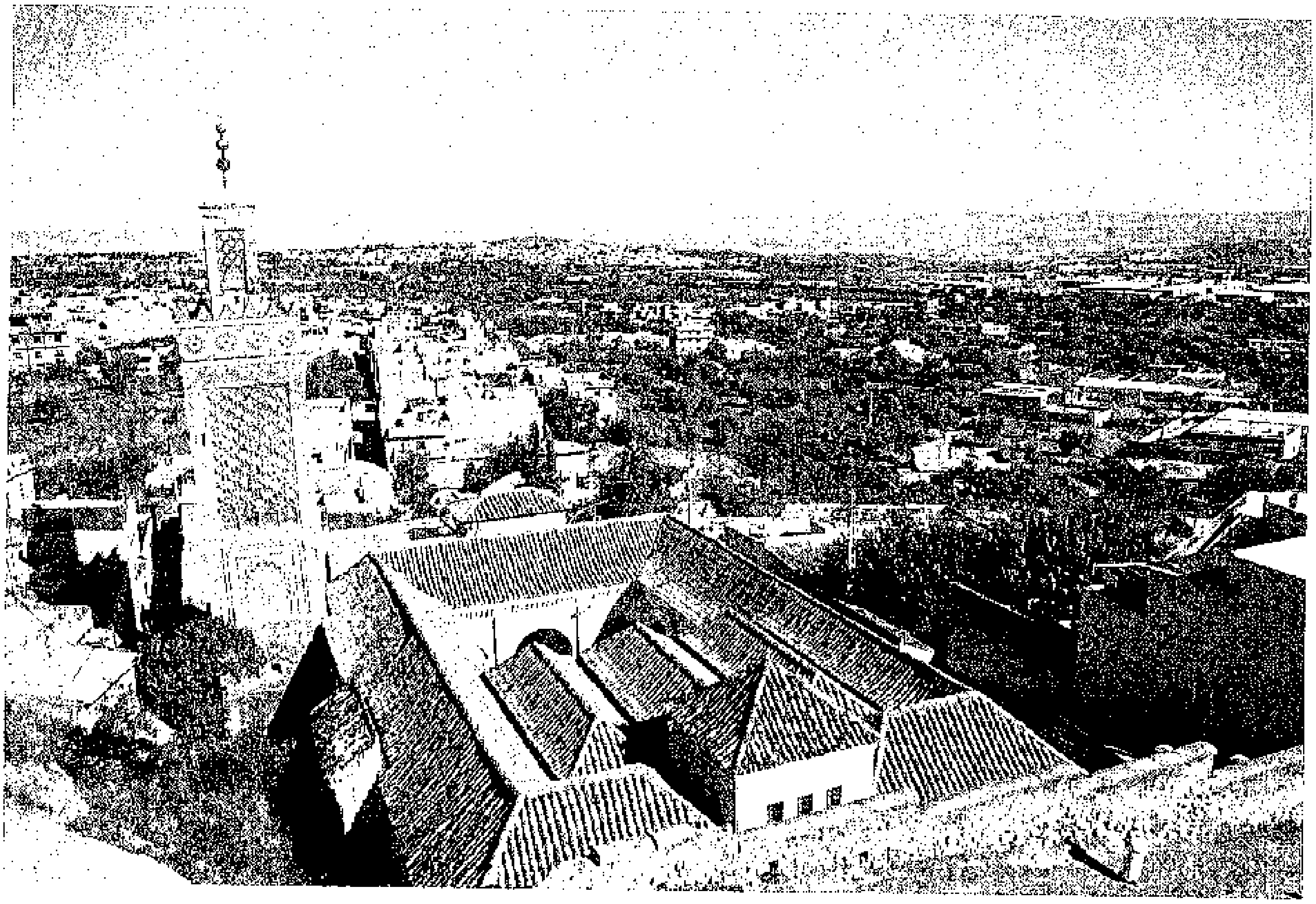

على الرغم من طول مدته -30 سنة- عبارة عن حروب متتالية، بعضها ضد المرينيين، الذين هاجموا تلمسان في عدة مناسبات وأرغموه على إخلاء العاصمة، لكي يعود إليها بعد فترة من الوقت، وفي بعض الأحيان كانت الحروب ضد أعداء آخرين أو متمردين.

وغامر أبو موسى نفسه بالهجوم على مملكة بني مرين. وكان عليه أن يواجه غيرة ابنه الأكبر ابن تاشفين وعدوانيته، فقد خانه وسجنه في نهاية الأمر، مما عجل بموته سنة 791 هـ/ 1389.

ومنذ موت أبي حمو موسى الثاني، شهد العرش الزياني تتابع الملوك الذين كانت عهودهم قصيرة وسريعة الزوال، حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وطوال هذه الفترة، لم تسترد الأسرة الحاكمة السيطرة على مصيرها، فبعد سقوط المرينيين في فاس، انتقلت تلمسان إلى سيادة الحفصيين في تونس، مع فترات أخرى خضعت فيها للإسبان أحيانًا وللأتراك أحيانًا أخرى، حتى الاحتلال التركي نهائيًا لها سنة 957 هـ/ 1550.

وهكذا، فإن هذه المملكة التي كانت مواردها قليلة، كانت هدفًا لهجمات مستمرة من جيرانها في الغرب وفي الشرق، وقد تم إجبارها على السعي لطلب التعاون مع القبائل العربية بحيث أنها لم تتمتع بوضع مريح، وعلى الرغم من هذا، استطاعت المملكة أن تستمر في الوجود على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون. ومؤسس المملكة أبو يحيى بن زيان، كان قد وفر لها أساسًا قويًا. والواقع أن موظفي الإدارة كانوا أكثر كفاءة وكانت قدراتهم أكثر تحديدًا من جيرانهم في الغرب [8]. وبالإضافة إلى هذا، فإن الملك الرابع المستعد دائما والحازم القوى أبو حمو الأول كان أول ملك يدخل الاحتفالات وتقاليد الملكية [9] وقدم إلى زناتة مبادئ الحكومة الملكية[10].

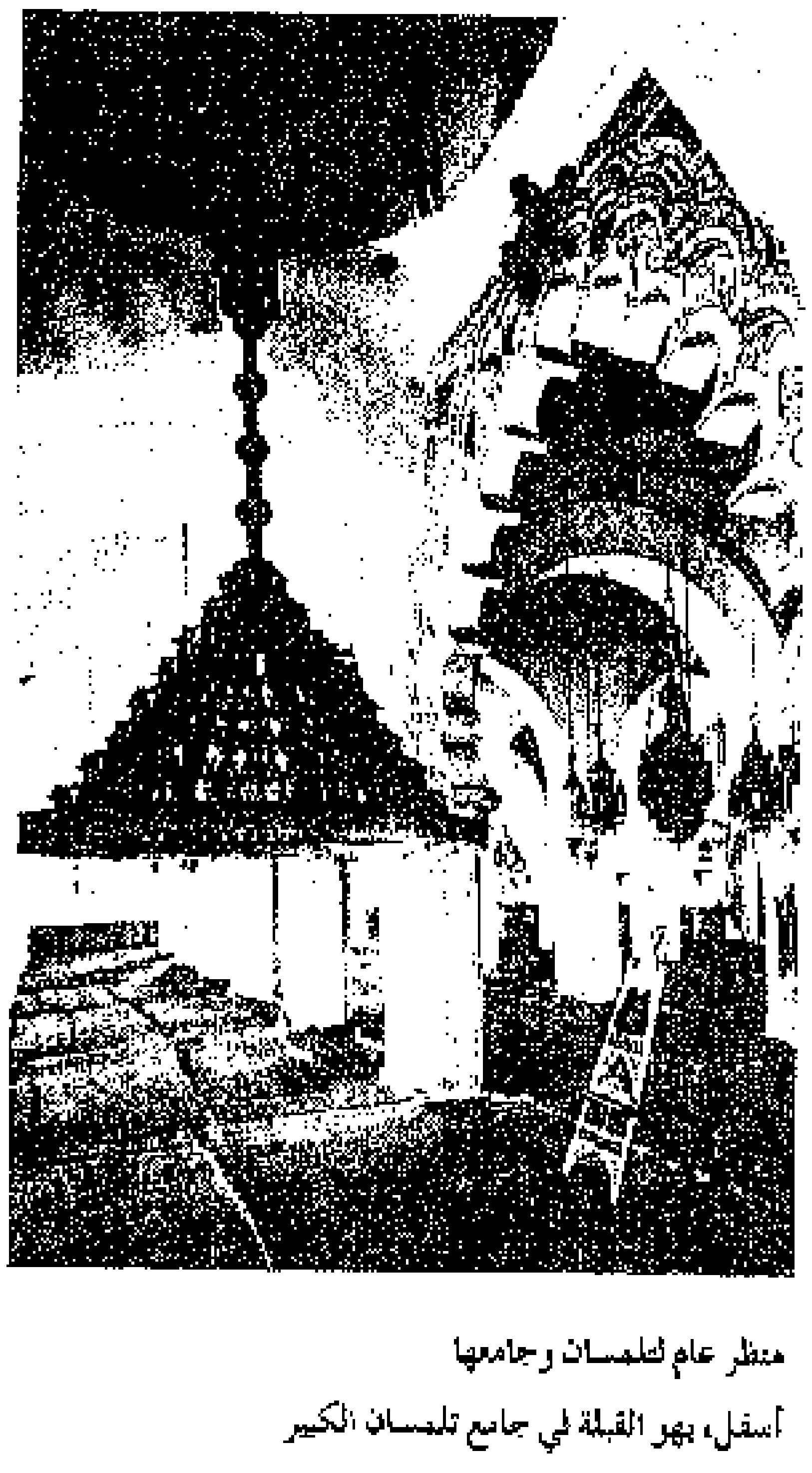

منظر عام لتلمسان وجامعها

أسفل، بهو القبلة في جامع تلمسان الكبير

الحفصيون في تونس في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي

في هذه المقالة المختصرة لا نقصد أن نتناول التاريخ الكامل للأسرة الحفصية، وسوف نحدد أنفسنا في حدود استعراض الأحداث الرئيسية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وهذه الأحداث تؤكد على عظمة وضعف الأسرة التي حكمت إفريقية على مدى

8 EI2, Abd-al-Wadides, G. Marçais, p. 96

9 Histoire des Berbères, t. 3, p.384

10 Ibidem, p.384

ثلاثة قرون ونصف القرن من خلال أعمال أعظم خلفائها[11]. ونحن نسعى للتأكيد على إنجازاتهم في المجالات السياسية والعسكرية، وصداها على الحياة الثقافية والفكرية وعلى المباني المعمارية.

يأتي اسم هذه الأسرة من أبا حفص الهنتاتي (توفي ما بين 571-576 هـ/ 1175-1176) الذي كان أحد مهندسي عظمة الموحدين ورفيق المهدي بن تومرت (471-474 هـ/ 1078- 1081 حتى 524 هـ/ 1130).

وطوال حكمها الممتد (625-976هـ/ 1228-1569)، كان لهذه الأسرة قائمة طويلة من الملوك (عددهم جميعا 25 ملكًا)، ولكن، في رأينا، فإن سبعة فقط من بينهم كانوا هم الأكثر جدارة بالاهتمام. والحقيقة أنهم حكموا على مدى فترات طويلة؛ فقد تركوا بصماتهم على تاريخ الأسرة وأنجزوا أعمالاً مفيدة في مختلف المجالات. وكان أول ملك منهم هو الأمير أبو زكريا يحيى (625-647هـ/ 1228-1249) حفيد أبي حفص. وكان هو مؤسس الأسرة عندما أعلن استقلاله عن السلطة الموحدية في إفريقية، واستولى على قسنطينة وبجاية سنة 628 هـ/ 1230) وطهّر المناطق الجنوبية من قسنطينة وطرابلس من المتمردين سنة 631 هـ/ 1234. وفي السنة التالية ضم الجزائر، ثم أخضع وادي الشليف[12]. كما استطاع السيطرة على القبائل العربية والبربرية وفرض سيادته على تلمسان. وعند نهاية حكمه سيطر على شمال المغرب وتقبل المرينيون والناصريون سيادته.

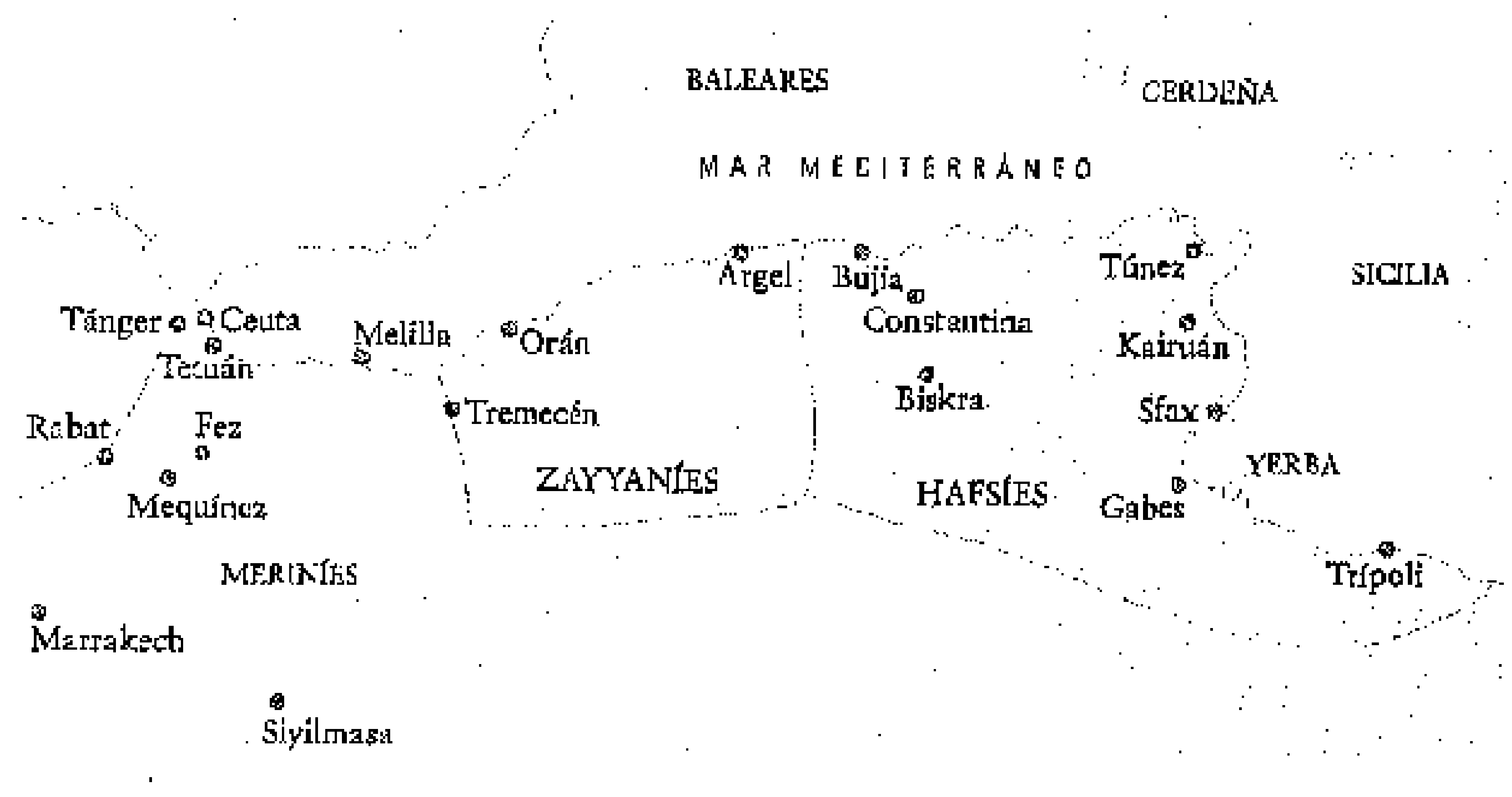

أملاك الزيانيين والحفصيين

أسفل: القيروان، مسجد بوابة تونس

EI2, Hafsides, H.R. Idriss, pp. 68-69 12

وعندما أتم عمله في توحيد دولته وفرض السلام؛ استطاع أن يتفرغ للشئون الداخلية، وقد حظيت تونس بتطورات مهمة. فقد أعيد بناء القصبة بتصميم جديد، وتم تشييد العديد من المساجد والمدارس. ونعمت البلاد بنمو اقتصادي مزدهر وتجارة كثيفة مع البروفانس ولانجدوك (جنوب فرنسا) والجمهوريات الإيطالية وصقلية. وقامت أواصر الصداقة مع ملوك أراغون. وثمة جماعة أندلسية مهمة تألفت من الفنانين، ورجال الأدب والمعرفة والعلم استقروا في تونس. وكان البلاط مركزًا لجذب الشعراء والأدباء والعلماء الذين استقدمهم أبو زكريا. وكان هو نفسه غاية في الاهتمام بالأدب والعلوم ولم يبخل بالجوائز الأخلاقية والمالية لرعايتها وكان رئيس «المجالس» وأسهم في المناظرات الأدبية.

أما أبو عبدالله محمد المستنصر (647-675 هـ/ 1249-1277) فقد حكم على مدى فترة سلمية ومستقرة. وكان هو أول ملك يعلن نفسه خليفة واتخذ لقب "الخليفة المستنصر" بعد أن أخذ البيعة من الحجاز ومصر والأندلس والمغرب. وكان مثل أبيه راعيًا عظيمًا للفنون وبنى كثيرًا من المدارس والمساجد والمؤسسات العامة .كما شجع التعليم الحر.

وكان أبو يحيى بن بكر (718-747 هـ/ 1318-1347) هو الخليفة السادس. وقد كرّس الجزء الأول من حكمه (718 – 732 هـ/ 1318 - 1332) لحل المشكلات وحالات العصيان التي بدأت بوادرها في العهود السابقة ولكي يصد هجمات الزيانيين. وبصورة مطردة أخذ أبو يحيى أبوبكر يعهد بإدارة الولايات إلى أبنائه، يساعدهم الحجاب، لكي يحافظوا على تماسك دولته. ومن ناحية شهد الشطر الثاني من خلافته (733-747 هـ/ 1333- 1346) تسكين الاضطراب الذي أثاره البدو في نقاط بعينها، والانشقاقات، وتحرير جربة من النير الصقلي.

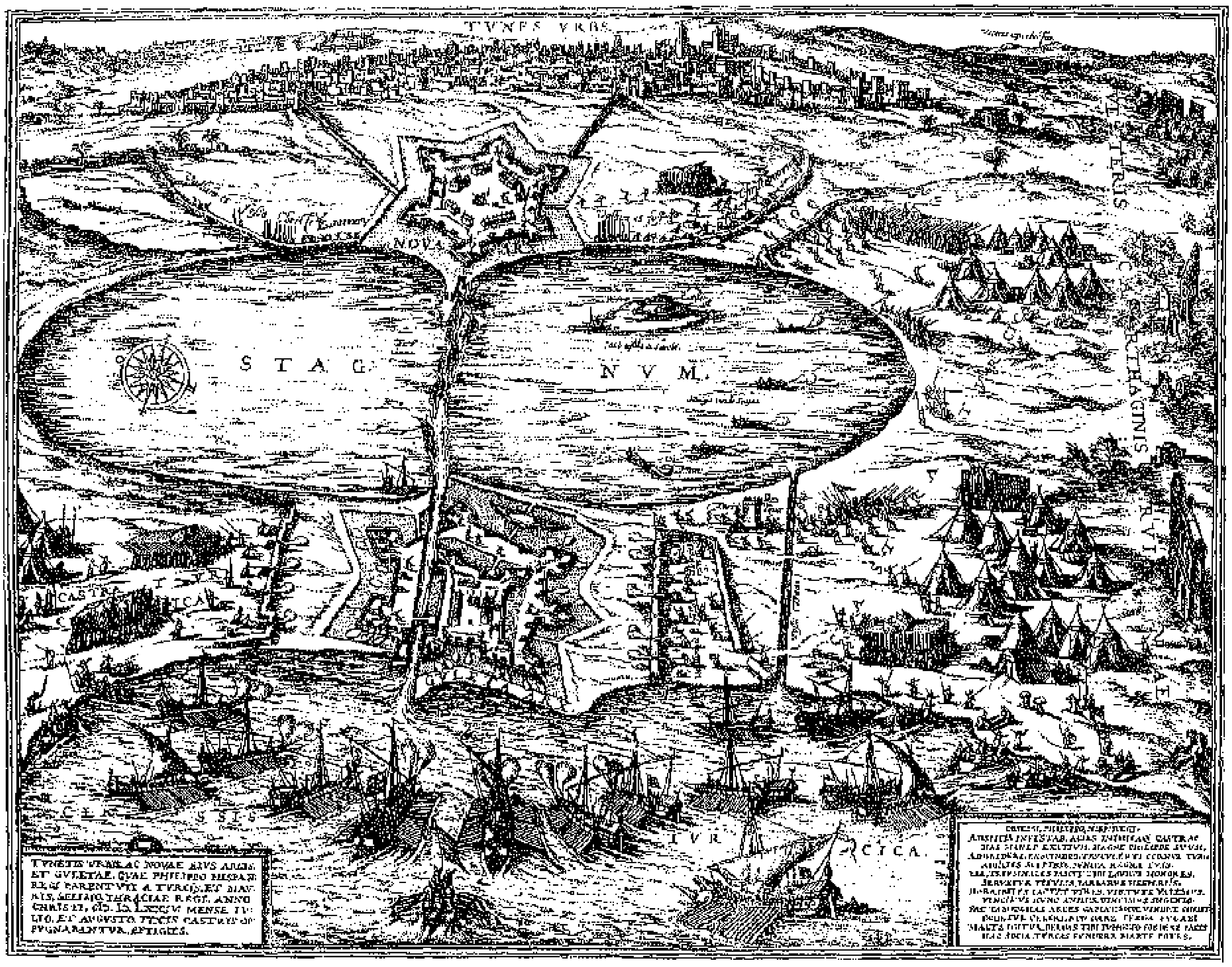

مدينة تونس، ولاجوليتا La Golete في مواجهة سفينة تركية، نقش يرجع تاريخه إلى أواخر القرن الخامس عشر من Civitates Orbls Terrarum، المكتبة الوطنية- مدريد.

ومن ناحية أخرى، فإن شيخ الموحدين ابن تفرشين، أحكم نفوذه على السلطان وفرض تبعية مستمرة على زوج ابنته أبي الحسن المريني الذي لم يلبث أن ضم إفريقية سنة 748هـ/ 1347 بعد وفاة السلطان الحفصي. ولم يستمر هذا الضم سوى عامين؛ إذ لحقت بأبي الحسن هزيمة مروعة عند القيروان سنة 749هـ/ 1348. وإذْ كان أبو يحيى أبو بكر شاعرًا وأديبًا، فإنه واصل سياسة أسلافه في رعاية الفنون ومساندة الحياة الفكرية والأدبية.

كان أبو إسحق (750-770 هـ/ 1350-1369) هو السلطان الرابع عشر في القائمة؛ وعندما تولى مقاليد الحكم كان صغيرًا جدًا؛ وتحكم فيه ابن تفرشين الذي كان حاجبًا ذا سلطة قوية، على مدى فترة طويلة. ولم يتمكن من السيطرة على الأمر إلا بعد أن مات الحاجب سنة 766هـ/ 1364م، ولكنه لم يكن حاكمًا متميزًا. وقد شهدت سلطنته الاحتلال المريني الثاني (757-758هـ/ 1356-1357) الذي دام فترة قصيرة.

أما الخليفة السادس عشر، أبو العباس (772-796 هـ/ 1370-1394) فكان من أهم ملوك هذه السلالة. ولأنه كان أمير قسنطينة ثم واليًا على بجاية، التي كان قد انتزعها من ابن عمه، فقد نجح أيضا في السيطرة على البدو وتقليل نفوذهم على السكان المستقرين.

وبعد فشل الحملة الفرنسية- الجنوية ضد المهدية، بات المسيحيون في وضع حرج. وبعد ذلك، لم يمنعه هذا الموقف من إقامة علاقات مع الجمهوريات الإيطالية.

وقد أعاد أبو العباس بناء هيبة الأسرة. وكان شاعرًا وراعيًا عظيمًا للفنون عقلاً وقلبًا. وقد عاش ابن خلدون في بلاطه تحت حمايته حتى رحيله إلى المشرق. وقد وضع ابن خلدون مؤلفه الرئيسي "كتاب العبر" لهذا الخليفة وأعطاه النسخة الأولى منه. وعلاوة على ذلك، تغنى ابن خلدون بمدائح أبي العباس في كتابه "التعريف"[13].

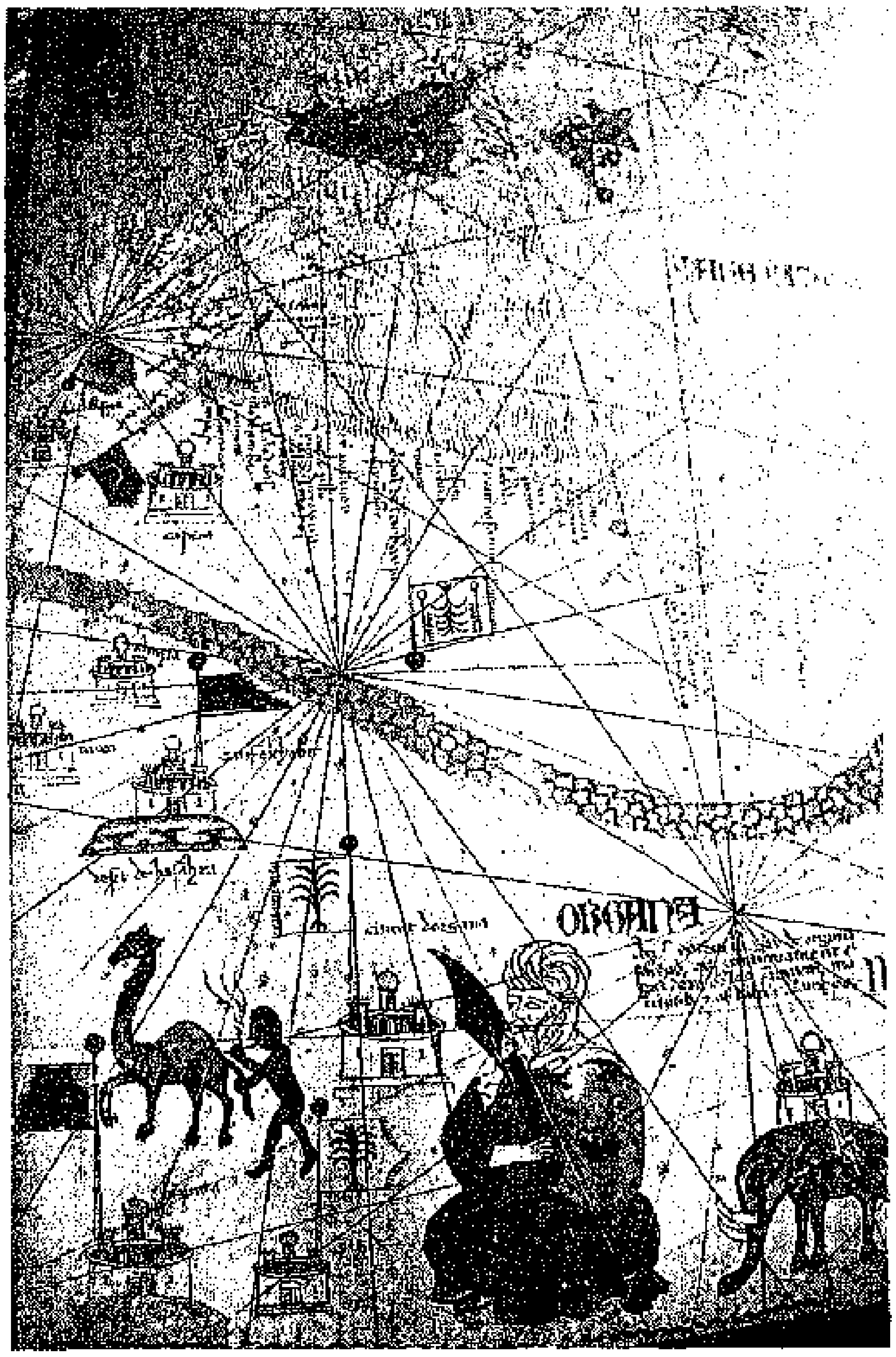

قطاع صقلية وتونس وطرابلس والصحراء في الأطلس القطلوني Atlas Catalian، أعده كريسك أبراهام، القرن الرابع عشر

وهناك خليفتان آخران كان عهدهما طويلاً مزدهرًا خلال القرنين التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي واستطاعا مواصلة أعمال معظم أسلافهما العظام. وهما الخليفة أبو فارس السابع عشر من هذه السلالة (796-837 هـ/ 1394-1434): ابن أبي العباس، والخليفة التاسع عشر عثمان (839-893 هـ/ 1435-1488) حفيد أبي فارس، الذي حافظ على أعمال جده النابغة. وفيما بينهما اقتسما القرن كله تقريبًا.

وقد بدأت الأسرة الحفصية رحلة النهاية، وهي أطول سلالة عربية إسلامية حكمت في إفريقية، بعد حكم أبي فارس. فقد كانت هذه الأسرة علامة على تاريخ هذه البلاد ثلاثة قرون ونصف قرن من الزمان، وقد تم توسيع عاصمتها تونس بشكل كبير. وتم بناء العديد من المساجد والمدارس. كما تم توسيع جامع الزيتونة وتجديده على أُسس منظمة. وبدأ المستنصر إعادة بناء خزان زغوان لإمداد العاصمة بالمياه. وتم بناء البيمارستان في عهد أبي فارس. وشُيدت قصور كثيرة في راس طابية، وأريانا أو باردو بأيدي عدد من السلاطين. وباختصار بدأت تونس تظهر بمظهر العاصمة الحقيقية، فقد زاد عدد سكانها وتنوعت أنشطتها، ووفقًا لرأي الرحالة والجغرافيين، كانت للعاصمة بالفعل المظهر والامتداد الذي كان يناسب فترة ليست بعيدة عن زماننا كثيرًا.

ابن خلدون والقرن الذي عاش فيه

كان على ابن خلدون –وأحداث القرن تتوالى وتتطور بسرعة ولأنه كان مطلوبًا في كل مكان– أن يأخذ علمه وتجربته ومعرفته العميقة بالقبائل والمكان الممتاز الذي كان يشغله بينها لكي يخدم ملوكًا وأمراء بعينهم في المغرب، وبالنظر إلى التسرع والتقلب في عقد المعاهدات وإلغائها والحروب التي كانت تندلع باستمرار والتي لم تكن نيرانها تخمد إلا لكي تندلع من جديد، كان الملوك والأمراء بحاجة إلى مساندة إحدى القبائل لمساعدتهم في جمع الضرائب أو تجهيز الفرق العسكرية المطلوبة لحروبهم.

وقد انصب النقد على ابن خلدون بسبب طموحه ونزوعه إلى المراوغة والخيانة. وعلى أية حال، فإن ابن خلدون جال ببصيرته ما بين المناصب المشرفة التي قدمها له الملوك والفراغ والأوهام والمخاطر، وحاول أن يحرر نفسه من هذه المواقف بتكريس نفسه للعلم والتعليم.

وهكذا، عندما قدم الزياني أبو حمو الثاني منصب الحاجب إلى ابن خلدون سنة 769 هـ/ 1368، رفض وأرسل إليه مساعده بدلاً منه. ولكي يبرر هذا السلوك كتب في كتابه "التعريف" يقول إنه رفض أن يعرض نفسه مرة أخرى لمخاطر السلطة، بعد أن رفض أوهامها الفارغة ومعاناتها فأهمل الخدمة طوال هذا الوقت. وبعد أن قرر عدم التدخل إطلاقًا في أمور الملوك، قرر أن يكرس جهوده للتعلم والتعليم[14].

أمضى ابن خلدون حياته من مكان إلى مكان في المغرب الإسلامي: من إفريقية إلى الأندلس، وانتهى به المطاف في المشرق حيث لم يكن أحسن حالاً. وكان السبب في هذا راجعًا إلى أنه لم يجد أبدا مكانه في أي جزء من المغرب حيث الملوك والأمراء لم يتوقفوا عن التآمر وحيث كانوا يشنون الحرب بصورة دائمة ضد بعضهم البعض.

علاوةً على ذلك، لم يكن الموقف في إسبانيا أفضل. إذ إن سلالة بني نصر الحاكمة في الأندلس كانت قد نعمت بفترة راحة تحت حكم يوسف الأول (733-755 هـ/1333-1354)

13 Ibn Khaldun, Tarif, translation by A. Cheddadi.

14 تم اغتيال يحيى أثناء قيامه بواجباته، Tarif, op. cit., p. 103

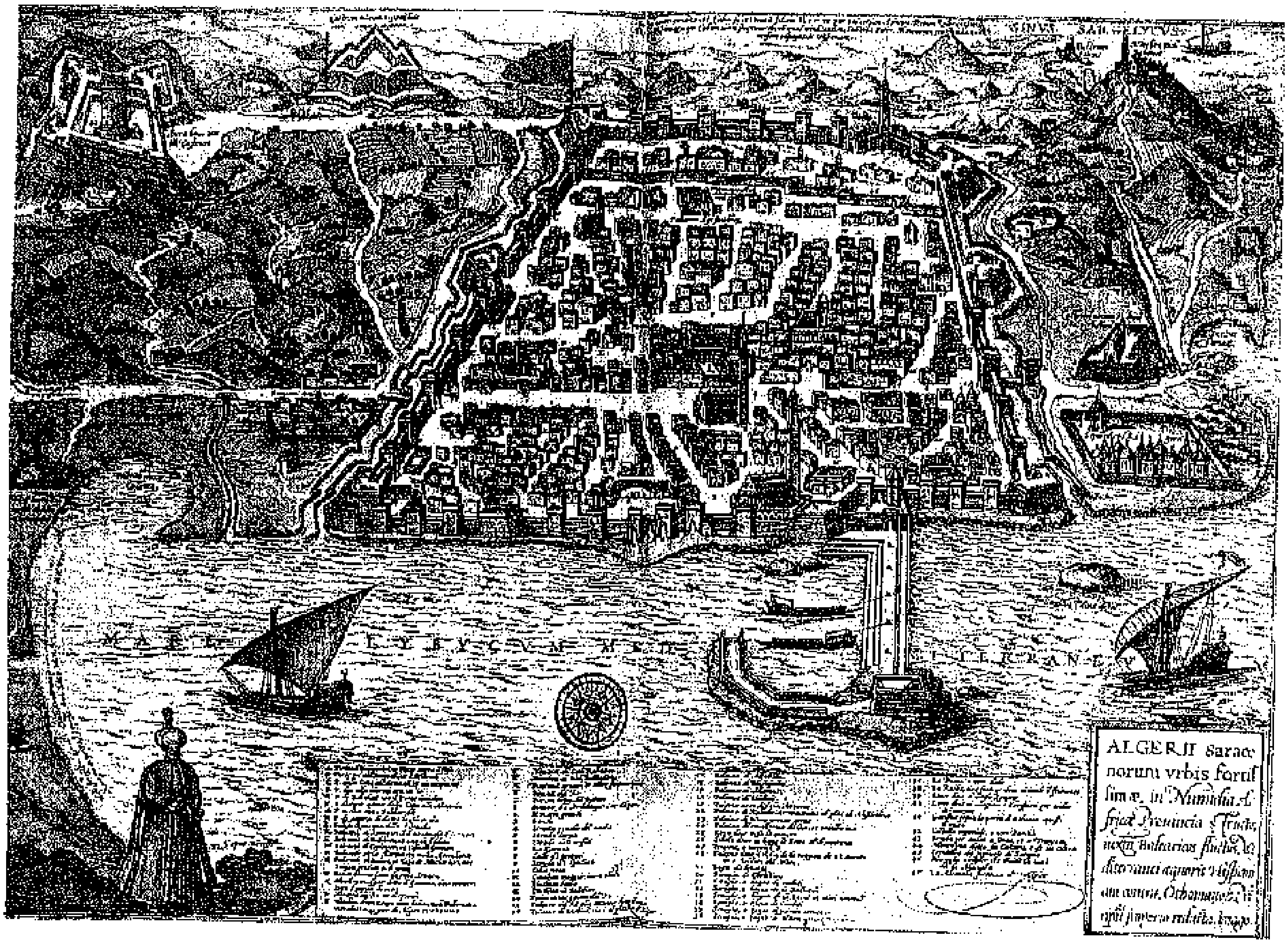

مدينة الجزائر في رسم توضيحي يرجع إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر

وابنه محمد الخامس (755-793هـ/ 1354-1391) مع فترة انقطاع قصيرة (760-762هـ/1359-1361). ولم يكن الجزء المسيحي من إسبانيا في موقف أفضل بسبب أن الصراع في أراغون وكذلك في قشتالة كان في ذروته من أجل السلطة بين المطالبين بالعرش من ناحية والملوك والسادة الذين كانوا يغارون من امتيازاتهم من ناحية أخرى.

ومع هذا، فإذا ما وضعنا في أذهاننا تناقضات تلك الفترة، فإنه على الرغم من الكوارث كان هناك ملوك بعينهم قادرون على تقوية دولتهم وإقامة مؤسسات إدارية متينة بها. هذه الحقائق تفسر أسباب طول بقاء هذه السلالات الحاكمة. فقد نجحوا في تنمية الحياة الأدبية والفكرية كما زينوا عاصمتهم بالمنشآت المعمارية الباهرة[15].

تمثال ابن خلدون في مدينة تونس

أما ابن خلدون، من جانبه، فقد خلب ألباب الجميع في هذه الفترة. حتى الملوك والزعماء الأجانب أو الأعداء الذين أتيحت له الفرصة للاقتراب منهم، مثل بيدرو الأول ملك قشتالة الذي ذهب إليه سفيرًا من قبل الملك الغرناطي، أو تيمورلنك الذي اجتمع به في ضواحي دمشق، كانوا جميعًا متأثرين بمعرفته الواسعة، وذكائه، ومعرفته العميقة بزمانه ومعاصريه وتسارعوا في تقديم المناصب العليا في حكوماتهم إليه.

15 تم توضيح هذا بالنسبة لبني نصر في كتابنا حياة الشعر في نهاية الأندلس

المماليك

أحمد مختار العبادي
جامعة الإسكندرية
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

المملوك، هو العبد من "ملك" أي حاز. وكان العبيد من أنواع مختلفة؛ بعضهم سودٌ، وبعضهم بيض. ومن القسم الآخر المماليك الذين دعاهم متز Metz "الطبقة الأرستقراطية للعبيد" [1]. وهذا هو السبب في أن اسم مملوك قد استخدم حصريًا في معظم البلاد الإسلامية للإشارة إلى العبيد البيض الذين كانوا يشترون بواسطة الحكام لتدريبهم كقوات عسكرية خاصة في وقت السلم ودمجهم في الجيش العام في زمن الحرب.

كان المماليك الأتراك هم العبيد البيض الأكثر شهرة في الشرق الإسلامي. ففي بداية القرن الثامن الميلادي بدأ المسلمون – بقيادة القائد العربي قتيبة بن مسلم – فتح تركستان وأراضي ما وراء نهري جيحون وسيحون. ومنذ ذلك الوقت، حاز العبيد الأتراك وضعًا متميزًا في المجتمعات الإسلامية بسبب ولائهم وشجاعتهم وقوة بنيتهم وحسن خصالهم. واعتبرت أقاليم ما وراء نهر سيحون –والمعنى بذلك خوارزم وطشقند وفرغانة وسمرقند وبخاري– مراكز هامة حيث كان العبيد الأتراك ينالون تدريبًا عسكريًا إسلاميًا ثم يُصدرون لاحقًا إلى أجزاء أخرى من العالم الإسلامي [2].

القارة الإفريقية كما رسمت في طبعة الجغرافية لبطليموس، بداية القرن السادس عشر الميلادي

في الصفحة المقابلة، فرسان مماليك في منمنمة عربية من القرن الخامس عشر، المكتبة الوطنية– باريس.

وتُظهر المراجع التاريخية أن المماليك الأتراك الذين جاءوا إلى المجتمع الإسلامي إما من خلال التجارة أو بسبب الحرب، لم يكونوا يعاملون بنفس الطريقة مثل العبيد الآخرين، فلم يكن يجري إجبارهم على القيام بأعمال حقيرة كالكنس والعناية بالخيل. على العكس تمامًا، فقد شغلوا مراكز القيادة في الدولة. وفيما يتعلق بهذا يقول المؤرخ ابن حسول (توفي سنة 1058) "عندما يعتق تركي لن يقبل بأي شيء غير القيادة العسكرية أو مركز وصيف حاكم. وسيكون غير قانع إلا إذا كانت هناك مساواة بينه وبين سيده في شروط الطعام والملابس والركوبة" [3]. ويبدو أنه قد بديء في استخدام المماليك الأتراك للمهام العسكرية والإدارية مع نهاية الأسرة الأموية. وفيما يتعلق بهذا ينص الطبري على أن نصر بن سيار، حاكم خراسان خلال عهد مروان بن محمد آخر خليفة أموي، اشترى ألف عبد تركي، وزودهم بالأسلحة، ودربهم كفرسان [4].

وفي بداية الأسرة العباسية، يروي الكندي أن الخليفة أبا جعفر المنصور امتلك مملوكا تركيا يدعى يحيى الخرسي الذي وصف الخليفة ولاءه بالكلمات التالية "إنه يخشاني ولا يخشى الله". ولقد أصبح المملوك المذكور آنفًا حاكمًا لمصر من سنة 778 إلى سنة 780 [5] خلال عهد الخليفة المهدي ابن المنصور. ويضيف الطبري أنه خلال عهد هارون الرشيد نمت مدينة طرسوس بواسطة الخادم التركي أبو سليم فرج [6].

واستخدم أيضا الخليفة المأمون (813 -833) – ابن الرشيد – عددًا من العبيد الأتراك في حرس الخلافة، ومن بينهم كان القائد طولون والد أحمد ابن طولون مؤسس الأسرة الطولونية في مصر. وخلف المأمون أخاه المعتصم بالله (833-842) الذي كانت أمه مراجل تركية. وزاد الخليفة الجديد عدد المماليك الأتراك في الجيش لعشرات الألوف وأنشأ عاصمة جديدة لأجلهم تسمى سامراء في شمال بغداد.

وعندما بدأت الخلافة العباسية تضعف خلال المرحلة العباسية الثانية التي عرفت أيضا بمرحلة التأثير التركي (847-945) كان من الطبيعي للأتراك أن يزيدوا من قوتهم. فكل البلاد الإسلامية الشرقية التي كافحت لتحصل على الاستقلال، اعتمدت على المماليك الأتراك وتبنت نظامًا إسلاميًا حربيًا صارمًا لتربيتهم وتدريبهم. وكان الأهم من بين تلك البلاد الدولة السامانية (874-999) التي قامت في أراضي ما وراء نهر جيحون وكانت عاصمتها بخاري. على الرغم

1 آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة 1940-1941م، ج1، ص 266.

2 القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 4، ص 458.

3 ابن حسول، فضائل الأتراك، نشره أ. العزاوي في Turkiye Bulletin، ج4، 14 / 15، 1940م.

4 الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشره م. أبو الفضل، بيروت، ج7، ص 224.

5 الكندي، كتاب الولاة، نشره R.Guest، بيروت، 1908م، ص 122-123.

6 الطبري، ج1، ص 50.

وعارض وهو بيده اللبشري ويغمز على وسط خط الميدان حتى يصلوا الى وسط الموكب
ثم يتناول العنان مع الدرقة بشماله ويضرب بقايم السيف فيد الدرقة ويثني عليها
بالذبابه ويرد فرسك يمينًا ويدرق بالدرقة بيسار عن كفل الفرس ويرجع على خط الدايرة

الكبير ويجي الى خلفه يفعل كفعل الاول ويرد فرسه شمالًا على خط الدايرة الكبير
ويجي الثالث يفعل كفعل صاحبيه ويرد فرسه يمينًا ويجي الاول فيفعل كما فعل الاول ويرد

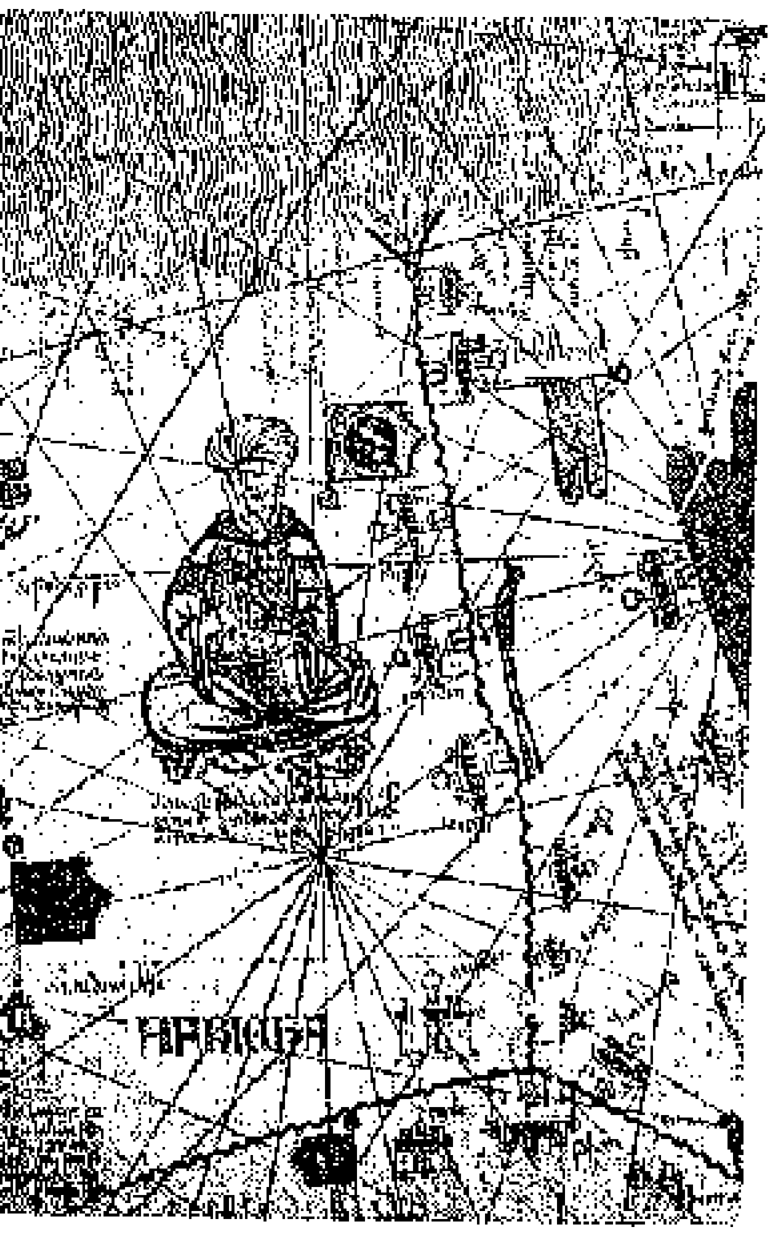

تفصيل لمصر ودلتا النيل مع صورة للسلطان المملوكي في الأطلس القطلوني، سنة 1375، المكتبة الوطنية- باريس. أسفل، مدخل قلعة حلب.

من أن ملوك تلك الدولة كانوا من أصل فارسي، فقد حاربوا في آسيا الوسطى وواصلوا تدريب وإدماج المماليك الأتراك في جيشهم حتى شكلوا الأغلبية. ويوجد نموذج للكيفية التي كانوا يعاملون بها في خطاب من الملك الساماني نصر الثاني إلى حكامه، "أدمجوا المماليك وربوهم جيدا، لأنهم سوف يدافعون عن أرواح آبائهم، إن اضطهاد المماليك علامة للضعف، يجب معاملتهم بلطف، والإنفاق عليهم بسخاء، وإطعامهم نفس طعامكم" [7].

كذلك أعطانا الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي (توفي سنة 1091)، وصفا مفصلا بالفارسية لنظام التدريب الذي اتبعه السامانيون مع مماليكهم، يقول "كان المماليك السامانيون يرقون تدريجيًا اعتمادًا على خدماتهم وشجاعتهم، وليس على المحاباة أو المركز الاجتماعي؛ وعندما يُشترى مملوك كان يخدم لمدة عام، مرتديا رداء قطنيا، ويسير بجوار معلمه الفارس، وخلال السنة الأولى كان المملوك يمنع بصرامة من ركوب حصان، وإذا فعل كان يعاقب بقسوة، وفيما بعد كان يسمح له بركوب حصان بدون سرج أو لجام، وفي العام الخامس من الخدمة كان يعطى سرجًا ولجامًا وزوجًا من السراويل [8] مصنوعًا من نسيج من القطن والحرير، وبعض الأسلحة، وفي العام السادس كان يزود بملابس أفضل، وفي العام السابع كان يُعطى خيمة وثلاثة عبيد لخدمته، ويغطي رأسه بقنسوة من الجوخ الأسود المزين بالفضة، ويرتدي رداء خارجيًا حريريًا، ويمنح لقب عريف الدار، ويستمر المملوك في الترقي وعدد مرافقيه في الازدياد حتى يصل لمرتبة صاحب الخيل، ثم فيما بعد حاجب الحجاب، ولا يُمنح المملوك لقب أمير، ولا يشغل مركزًا قياديًا في الإدارة أو الجيش حتى يصل لسن النضج، وهو خمسة وثلاثون عاما" [9].

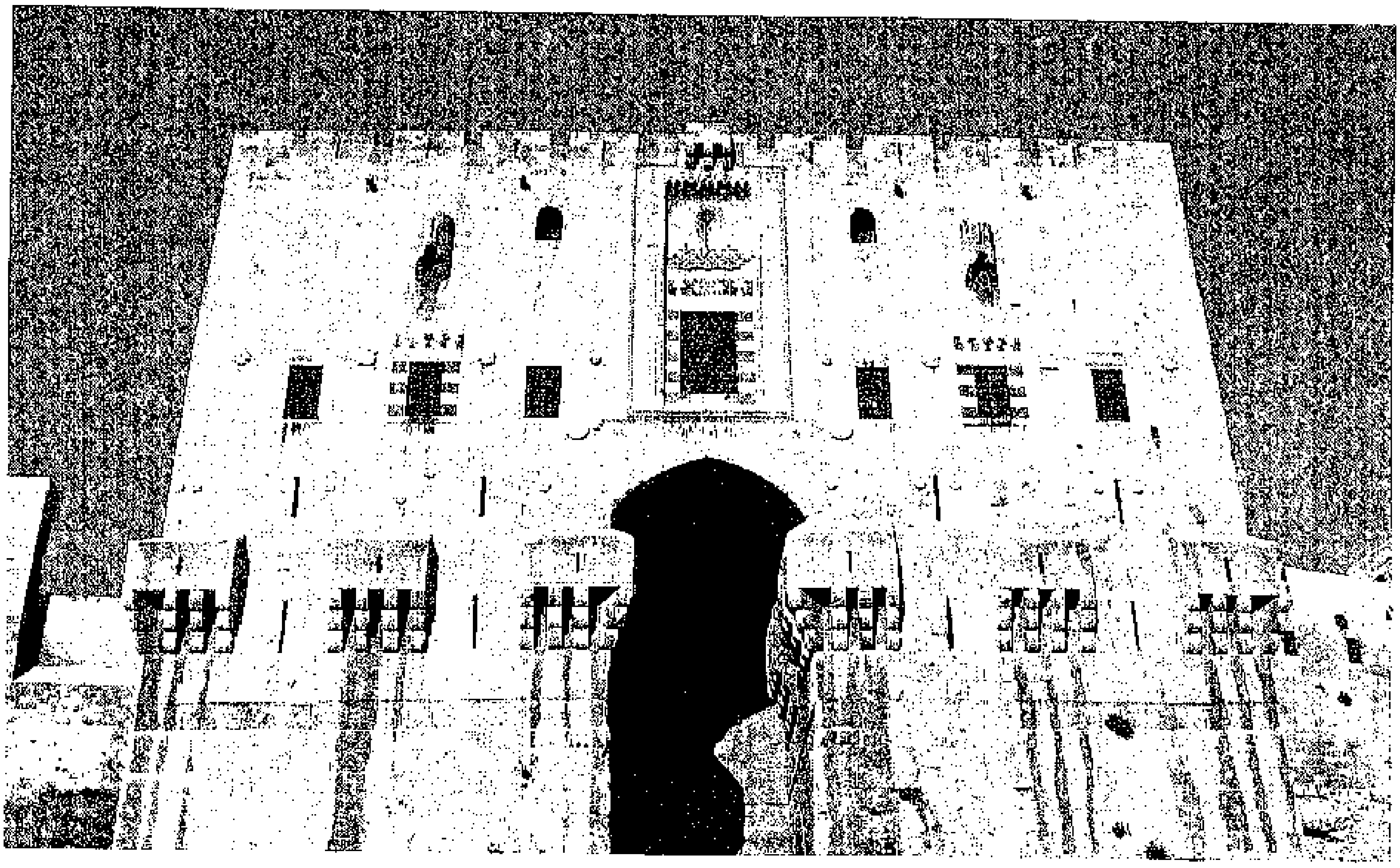

ويضيف نظام الملك في كتابه المذكور آنفا، أن ذلك النظام التدريبي الساماني كان لا يزال متبعا في زمنه (القرن الخامس الهجري/ القرن الحادي عشر الميلادي) في دولة الأتراك السلاجقة. ولقد جلب السلاجقة العبيد الأتراك بكثافة من البوشناق أو القفجاق في شمال البحر الأسود، وأعطوا أهمية ضخمة لتربيتهم ودعوا الراشدين أتابك، والذي يعني "الأمير الأب"، كما عينوا كمربين لأطفالهم القصر، وخصصوا إقطاعات واسعة في مقابل إشرافهم على تربية

7 الحسن بن عبد الله، آثار الأول، القاهرة، 1305هـ، ص 115.

8 Ch. Schefer, Siasset Nameh, traité de Gouvernement, par Nizam oul Moulk, Vizir du Sultan Seldjoukide Melikchah, Paris, 1893, p.138

9 المرجع السابق

الأطفال وخدمتهم العسكرية خلال أوقات الحرب. ومن ناحية ثانية، وسريعا ما أصبح هؤلاء الأتابكة السادة الواقعيين لتلك الإقطاعات، وانتهزوا فرصة تدهور الأسرة السلجوقية لجعل أقاليمهم مستقلة، وتقاسم معظمهم المملكة السلجوقية.

وكانت دول الأتابكيات كثيرة، ولا ينتمي حكامها لأسرة حاكمة واحدة. وبالأحرى كان أصلهم المملوكي وارتباطهم بالأسرة السلجوقية والنظام الإقطاعي الإسلامي الشيء الوحيد المشترك بينهم. ومن بين المماليك السلاجقة الذين صاروا أتابكة الأمير عماد الدين زنكي ابن الأمير أقسنقر أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه، سيد الموصل وحلب. ومن خلال أسرة زنكي وابنه نور الدين بزغ صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية الذي كان متأثرًا بالنظام السلجوقي. وكان صلاح الدين الشخص الذي أدخل هذا النظام الجديد، والإدارة والمصطلحات المرافقة لها إلى مصر؛ حيث بقيت لقرون خلال حكم الأسرة الأيوبية وفيما بعد، المماليك الأتراك في مصر والشام. وهناك تبلور وزاد جوهر النظم التربوية والحربية وخبرات المماليك السابقة في أفغانستان والهند وخراسان والعراق بفضل التعديلات العملية المدخلة من السلاطين أنفسهم في تربية وتدريب مماليكهم. أحد هؤلاء المبتكرين، كان السلطان المنصور قلاوون الذي يقول فيما يتعلق بهذا "كل الملوك فعلوا شيئًا يُتذكرون لأجله. [البعض سوف يُتذكرون لأجل] المال وآخرون لأجل المباني. وبالنسبة لي فقد بنيت الأسوار والقلاع لحماية نفسي، وعقبي وكل المسمين. وهؤلاء هم المماليك"[10].

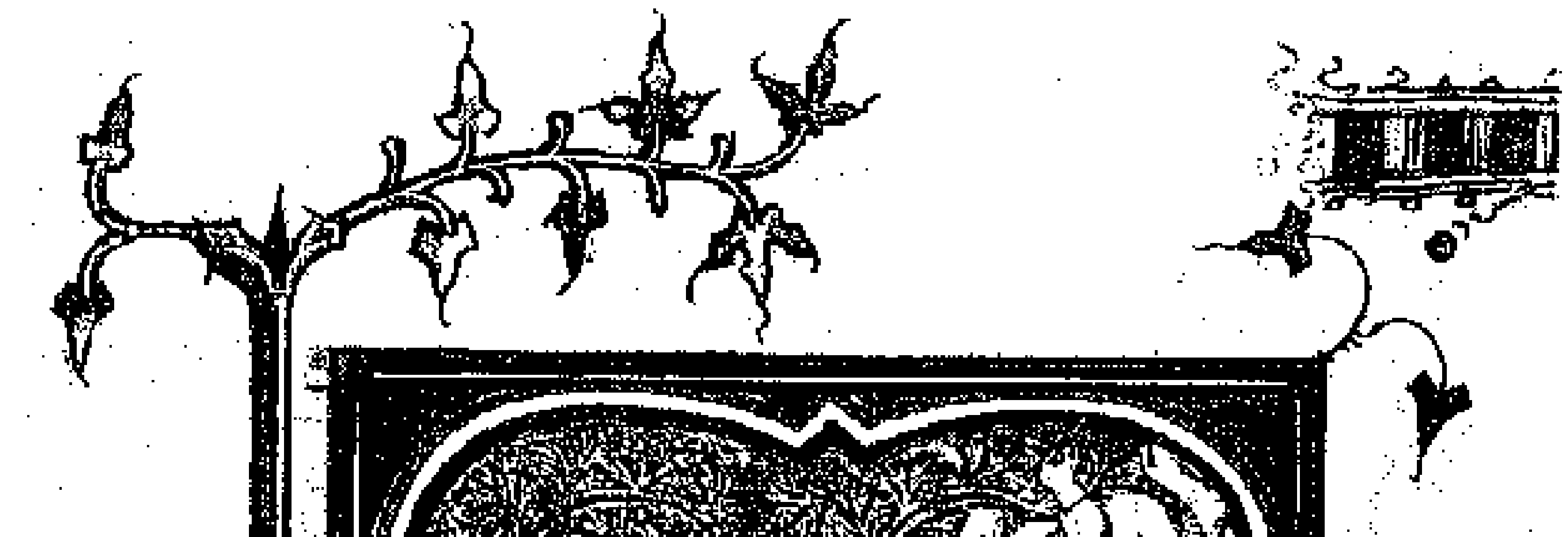

حصار دمياط في سنة 1249 خلال الحملة الصليبية الخامسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، في مخطوط مزخرف من القرن الرابع عشر لمؤرخين عظام من فرنسا، المكتبة الوطنية- باريس.

ولاحظ بعض المؤرخين المعاصرين هذه النزعة. ويقول القلقشندي (توفي سنة 1418) على سبيل المثال: "نزعت سلطنة المماليك في مصر إلى استعارة الأفضل في كل مملكة سابقة، ومحاكاتها وتطويرها وصقلها حتى تفوقت على كل السلطنات الأخرى"[11]. وفيما يتعلق بهذا أيضا يقول السيوطي (توفي سنة 1505): "أراد السلطان بيبرس أن يتبع نموذج جنكيزخان في تنظيم مملكته في مصر، ولذلك أدخل أشياء كثيرة لم تكن موجودة قبله في مصر".

ومن الواضح أن المغول أيضا كانوا جزءًا من الأتراك، تمامًا مثل جيرانهم في آسيا الوسطى. ويفسر كل ذلك التطور والانتصارات التي أنجزها المماليك في الحروب التي شنوها في وقت واحد في مختلف الجبهات: ضد المغول في الشرق والصليبيين في الغرب، والأرمن في الشمال، والنوبيين في الجنوب. ويجب إضافة ذلك كله إلى الإصلاحات الإدارية، والإنجازات الاقتصادية والمنشآت المدنية، والعمارة، التي جعلت من دولة المماليك واحدة من أقوى وأهم دول العصور الوسطى.

وينقسم حكم المماليك في مصر والشام إلى حقبتين زمنيتين أو أسرتين حاكمتين:

1 - عرفت الأسرة المملوكية الأولى بالمماليك البحرية (1250-1382).

2 - وعرفت الأسرة المملوكية الثانية بالمماليك البرجية أو الجراكسة (1382 - 1517).

10 المقريزي، الخطط، ج2، ص 213-214.

11 القلقشندي، صبح الأعشى ج4، ص6.

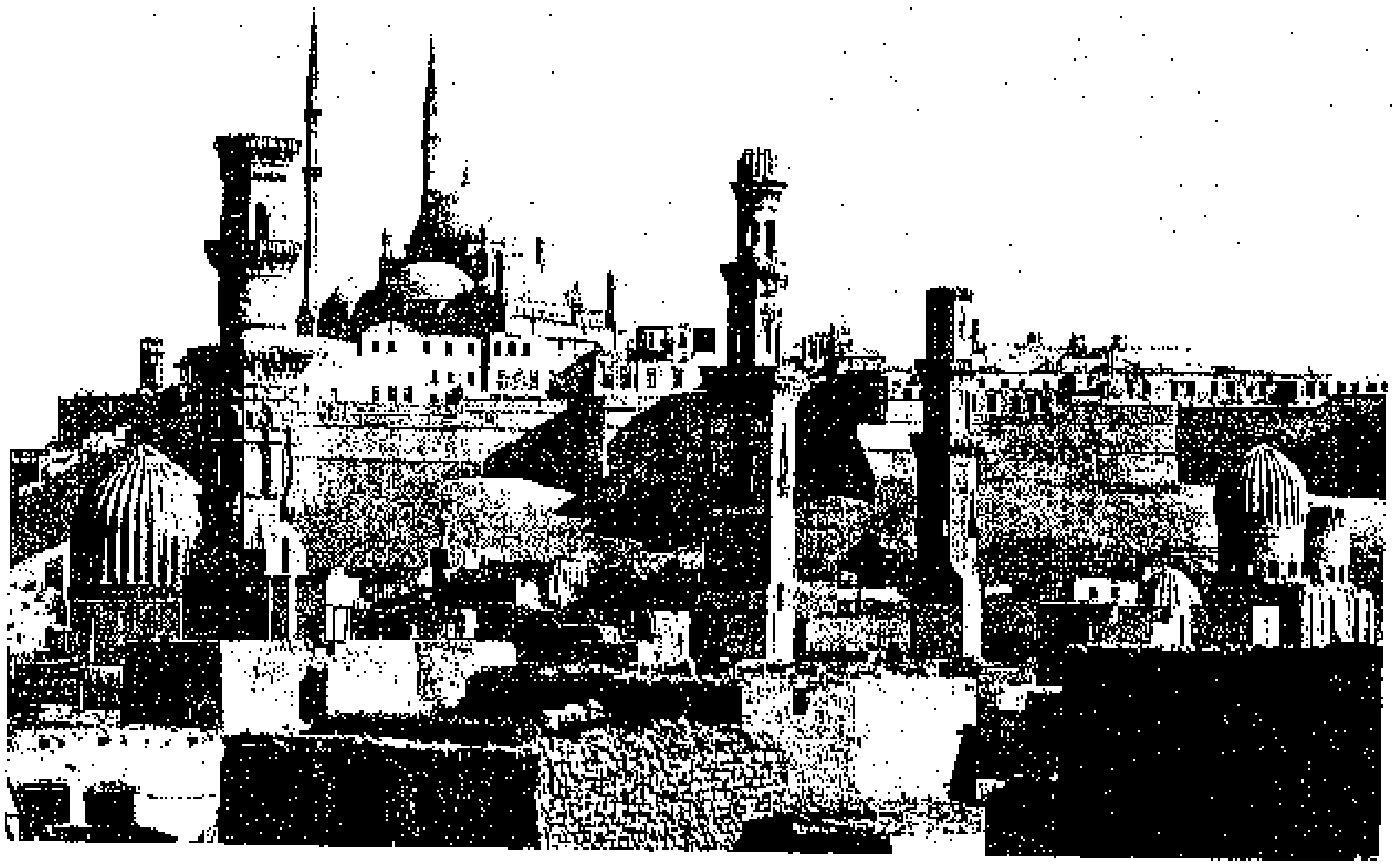

وكانت المملكة الثانية استمرارًا للمملكة الأولى في سياساتها وتقاليدها وتنظيمها العام. والسبب في اعتبارها مملكة أو أسرة مستقلة ربما يكون لأن مؤسسها الظاهر برقوق رتب لوضع نهاية لنظام قلاوون الوراثي التعاقبي، وأن يثبت نفسه كسلطان وبالتالي تأسيس مملكة أخرى. أيًا كان يجب أن يكون الأمر، يظهر التاريخ الطويل لكل من مملكتي المماليك (1250-1517) أهمية الدور السياسي والحضاري الذي لعبه المماليك في مصر والشام.

ولقد تزامن قيام مملكتهم مع تدهور العالم الإسلامي في الشرق والغرب؛ في الشرق غزا المغول بغداد وسقطت الخلافة العباسية في بغداد في سنة 1258، وفي الغرب (شمال إفريقيا والأندلس) لم يكن موقف المسلمين أفضل. وقاد ذلك مسلمي الشرق والغرب لإدراك مملكة المماليك في مصر كمركز جديد للخلافة العباسية في سنة 1261، وكقوة ضاربة نجحت في حماية مصر والشام من الغزاة المغول القادمين من الشرق والصليبيين القادمين من الغرب.

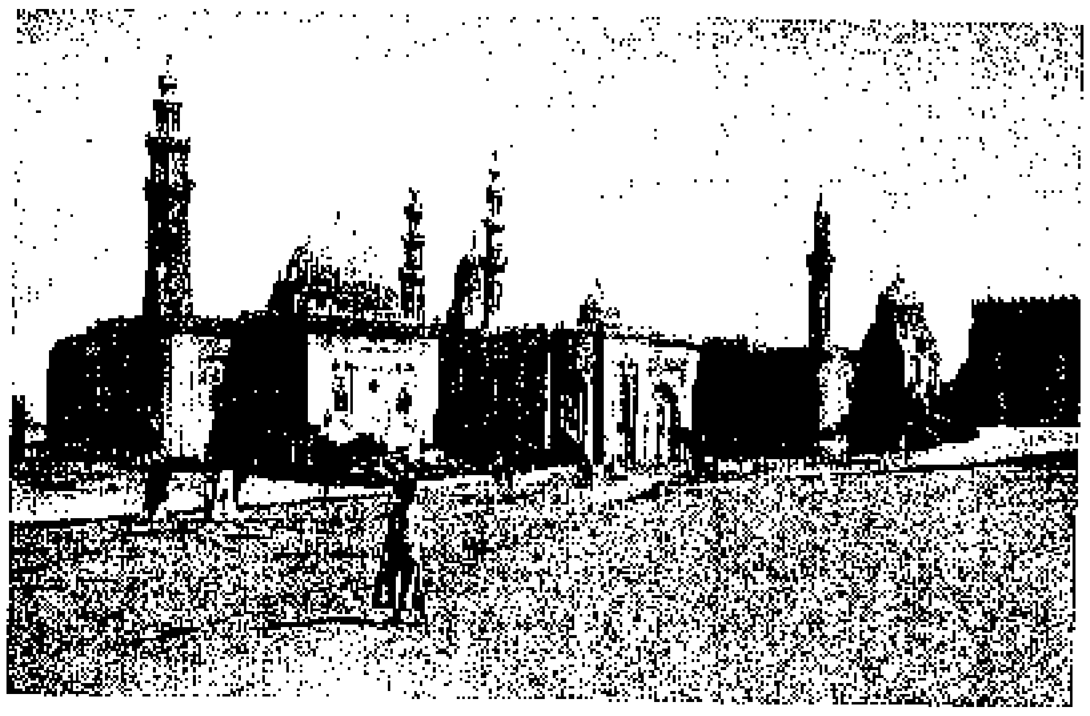

أعلى، مقابر السلاطين المماليك وقلعة القاهرة.

أسفل، مجموعة السلطان حسن، القاهرة.

وأحد الإنجازات الحربية الجديرة بالذكر هي الهزيمة الأولى التي عانى منها المغول في تاريخهم على أيدي المماليك بقيادة السلطان قطز في عين جالوت (فلسطين) في سنة 1260. وتلي هذا انتصارات السلطان بيبرس على المغول في العراق في سنة 1273، وفيما بعد انتصار السلطان قلاوون على منكوتمر ابن هولاكو خان قرب حمص (الشام) في سنة 1281[12]، وانتصار الناصر محمد على غازان في مرج صفر إلى الجنوب من دمشق في سنة 1303[13].

وفيما يتصل بانتصارات المماليك على الصليبيين، فقد بدأت في سنة 1250، عندما هزم أقطاي- قائد المماليك البحرية - الملك الفرنسي لويس التاسع، وأخذه سجينًا في معركة المنصورة. وفيما بعد هزمهم بيبرس مرات كثيرة في الشام وأعاد فتح يافا في أقصى الجنوب، وأنطاكية في أقصى الشمال في سنة 1270. ومن بعده أتى قلاوون وفتح طرابلس في شمال سوريا في سنة 1298. ولقد خلفه ولداه الأشرف خليل والناصر محمد. ونجح الأول في إخضاع ميناء اللاذقية وثم استولى على عكا (آخر قلعة للصليبيين في الشام) في سنة 1291، بينما فتح الآخر جزيرة أرواد (آخر ميناء صليبي) في سنة 1302. ويجب إضافة كل هذا لانتصارات المماليك في البحر الأحمر والبحر المتوسط، في سنة 1462 خلال عهد برسباي غزوا قبرص التي شكلت تهديدًا كبيرًا للسواحل المصرية والشامية منذ الهجوم الوحشي الذي قاده الملك القبرصي بطرس لوزينيان في سنة 1365 ضد الإسكندرية. وكان انتصار برسباي نوعًا من الانتقام للمدينة[14].

وترك المماليك كذلك مباني كثيرة لا تزال تشغل مركزًا بارزًا بين الآثار الإسلامية للعصور الوسطى في مصر. ومن بين ما يستحق الذكر المنشآت الحربية التي أعدت للدفاع عن وحماية الأماكن الاستراتيجية كالأبراج والقلاع والأسوار والسلاسل الحديدية الضخمة التي عرفت بالمآصر masir والتي استخدمت لتطويق مداخل الميناء من أجل إبقاء سفن الأعداء بعيدًا[15]. ولا يزال اسم تلك السلاسل يعطي اسمه للمدخل الشرقي لميناء الإسكندرية وبالقرب منه تقف قلعة قايتباي، وكذلك تفعل قلعة المقطم في القاهرة.

وهناك مبان دينية وتربوية أيضًا، مثل المساجد والمدارس، والقباب، والأسبلة، إلخ. ومن بين ما يستحق الذكر مسجد الظاهر بيبرس (توفي سنة 1277)، والمدرسة الظاهرية التي أنشئت

12 المقريزي، السلوك، ج1، ص 690.

13 أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص 49.

14 أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، بيروت، 1972، ص 312-325.

15 م.عواد، المآصر في بلاد الروم والإسلام، بغداد، 1948.

16 Creswell, The Works of Sultan Balbars Al-Bunduqdari in Egypt, in. BIFAO, vol. xxvi, 1926, pp.129-93

17 أ.عيسى، البيمارستانات في الإسلام، ص 93.

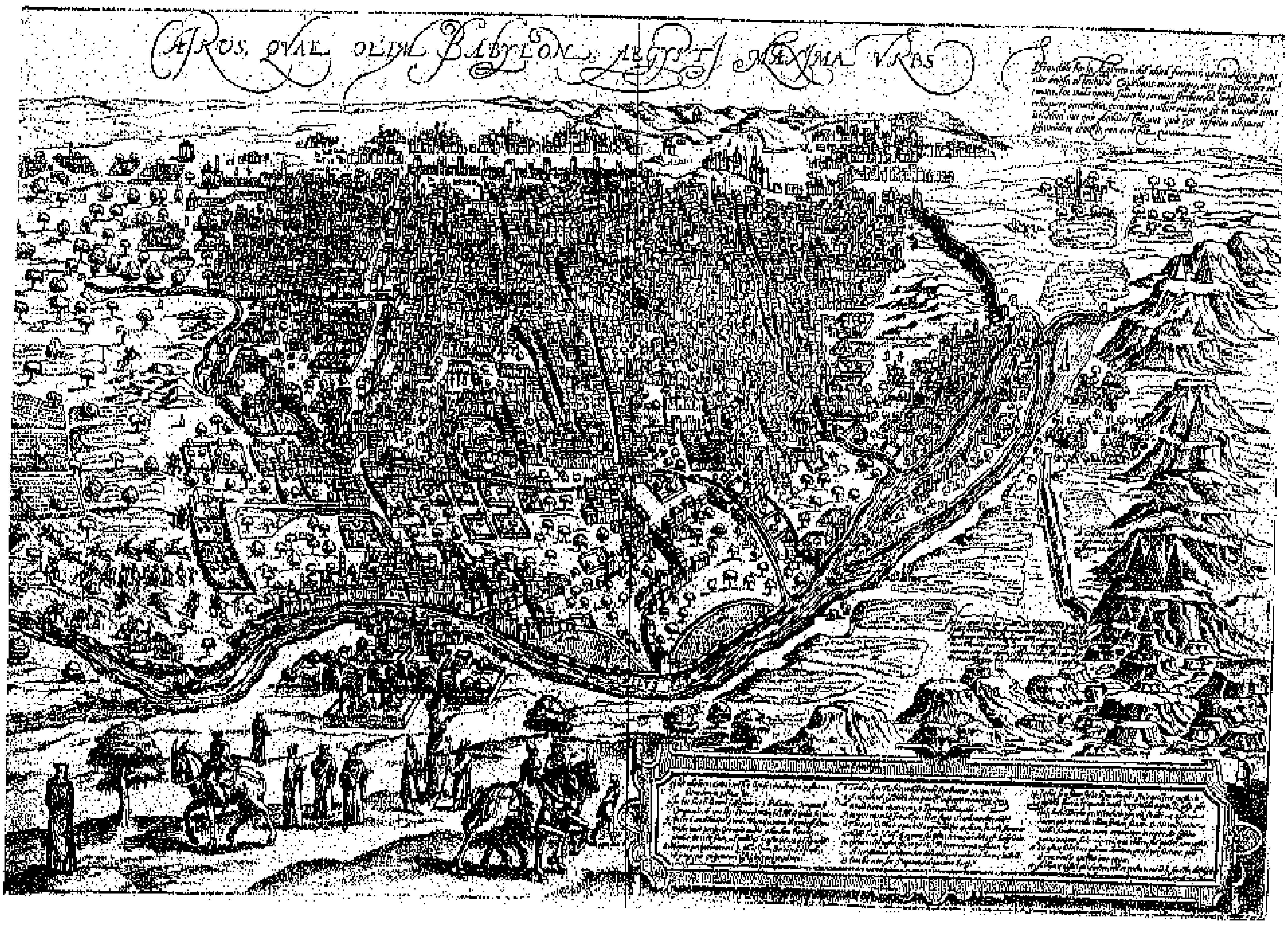

مدينة القاهرة في رسم في Civitates Orbis Terrarum، النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي.

سنة 1263، والتي لم يبق منها سوى أطلالها[16] في شارع المعز، والذي يسمى الشارع الأعظم أيضا. وهناك أيضا مما يستحق الذكر ضريح المنصور قلاوون (توفي سنة 1290)، ومدرسته والبيمارستان المنصوري في شارع المعز لدين الله بالقاهرة[17].

وبالإضافة لذلك، توجد المنشآت التي تركها السلطان الناصر محمد (توفي سنة 1340)– ابن قلاوون – مثل مدرسته التي تقع في شارع النحاسين، ومسجده في قلعة المقطم. وهناك أيضا المسجد الجميل والرحب، الذي بناه السلطان الناصر حسن –ابن الناصر محمد– الذي لا يزال قائمًا سيمًا مثل قلعة مضيئة في شارع محمد علي بالقرب من مسجد الرفاعي والذي يتضمن أربعة مدارس خصص كل منها لواحدة من مدارس المذاهب السنية (الشافعي، المالكي، الحنفي، الحنبلي).

ومن بين الآثار التي خلفتها المملكة المملوكية الثانية (الجراكسة) نجد مجموعة السلطان الظاهر برقوق (توفي سنة 1398)، وتشمل الضريح الذي دفن فيه، والمدرسة الظاهرية الجديدة (تستخدم كلمة جديدة لتمييزها عن الظاهرية القديمة التي بناها الظاهر بيبرس) المقامة في شارع المعز، ومسجد ومدرسة السلطان المؤيد شيخ (1412-1421) بالقرب من باب زويلة. وبالإضافة لذلك، يمكننا أن نجد مجموعة الآثار الأشرفية التي تأخذ اسمها من السلطان الأشرف برسباي (1422-1438) المقامة في سوق الوراقين في شارع المعز، وتشمل مسجدًا ومدرسة وسبيلا. ويقال إن السلطان الأشرف بنى تلك المجموعة وفاء لنذر قطعه بعد غزو قبرص وأخذ ملكها أسيرًا[18].

وهناك أيضا مجموعة السلطان الأشرف قايتباي (1468 - 1495) التي تتكون من مسجد ومدرسة وخانقاه (منازل للصوفية) وضريحه في الصحراء الشرقية (الأرض الممتدة من قلعة المقطم حتى العباسية). وأحد أمراء قايتباي كان يشبث الداويدار(توفي سنة 1498) وضريحه (المقام في العباسية) لا يزال يعرف اليوم بقبة الفداوية لأنه يوجد قريبا من منازل

18 حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص 121؛ علي المليجي، مجمل تاريخ التراث المعماري الإسلامي في مصر، الإسكندرية، 2003، ص 287.

19 علي المليجي، المرجع السابق، ص 288-298؛ إبراهيم طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص 313 وما يليها.

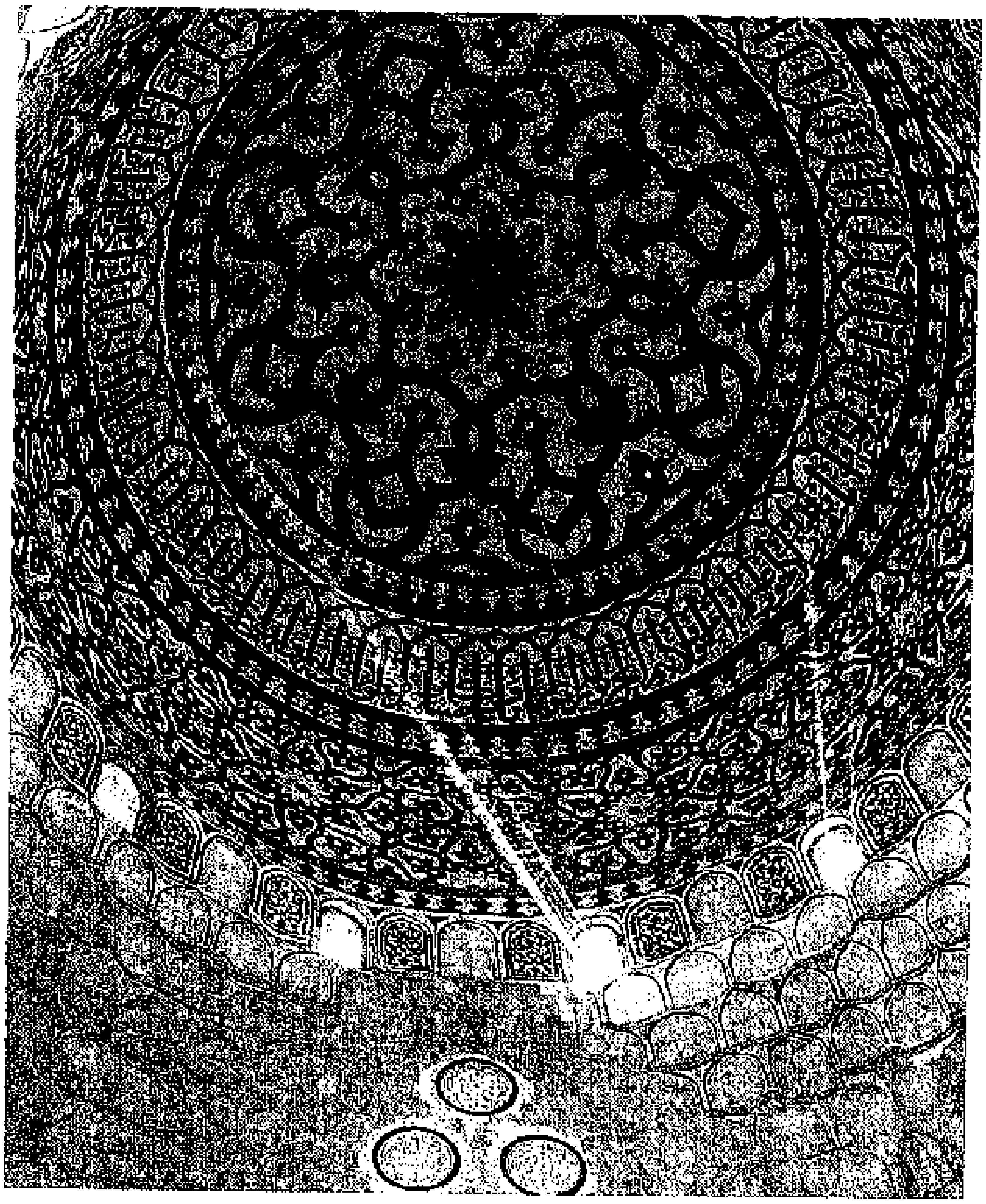

الفدائيين (يعرفون أيضا بالحشيشية)، الذين كانوا مجموعة من الشيعة الإسماعيلية الذين ضحوا بأنفسهم للدفاع عن مبادئهم الروحية، واستخدمهم المماليك للتخلص من الأشخاص المعارضين[19].

وبنى الأمير أزبك (توفي سنة 1499) – الذي كان معاصرًا للأمير يشبك – قصرًا في سنة 1475 في حي القاهرة الذي حمل اسمه، الأزبكية. من ناحية أخرى ترك السلطان قنصوه الغوري، الذي بدأ يحكم مصر والشام في سنة 1501 وقتل في سنة 1516 في معركة مرج دابق إلى الشمال من حلب خلال حربه ضد السلطان العثماني سليم الأول، عددًا من المباني في المدرسة التي سميت باسمه: والتي تتوج بمئذنة ذات خمس رؤوس، وواحدة من مآذن الأزهر. والأخيرة بجوار مئذنة قايتباي. وهي مئذنة مزدوجة القمة ولها درج مزدوج ولذلك لا يستطيع القوم الصاعدون رؤية هؤلاء الذين يهبطون. وفي الواقع فقد كانت المساجد والمآذن كثيرة جداً في القاهرة خلال العصر المملوكي لذلك كانت تسمى "مدينة الألف مئذنة".

وفيما يتصل بالتسهيلات الاقتصادية، فتوجد بطبيعة الحال في الأسواق التي تكون انعكاسًا للنشاط الزراعي والتجاري والصناعي وحتى الاجتماعي. وتشبه الأسواق الإسلامية بعضها في مظهرها العام، حيث كان لمعظمها سقف لحمايتها من الجو العاصف، كما كان بعضها مفتوحًا. وكانت متماثلة إلى حد ما في أنه كان لكل تجارة سوقها الخاص: سوق الكتبية، وسوق البزازين للملابس والقماش والمتاجر ذات الصلة مثل النسيج والصباغة، وسوق الحلويين للحلوى والمعجنات، وسوق الكفتيين للصناعات المعدنية والمتاجر ذات الصلة مثل البرونز المطلي والنحاس مع الفضة والذهب[20].

وكانت إحدى تسهيلات السوق الإسلامي ما يسمى قيسارية، أو فندق، أو خان، أو وكالة، والتي عنت جميعا نفس الشيء تقريبا، منشأة وتسهيلاً يقدم مساحة للتجارة وسكنًا للباعة غير المقيمين، ومستودعًا للمخزون، ومصرفًا للمال وملحقاته. وإحدى القيساريات التي تؤرخ بقبل العصر المملوكي هي قيسارية جهركس التي بناها الأمير فخر الدين جهركس أحد أهم مماليك صلاح الدين. وكان هذا السوق – الذي أعجب به تجار ذلك الوقت[21] – مبنى ضخمًا مليئًا بالمحال ويعلوه مسجد كبير.

والنموذج الجيد للخان هو خان الخليلي الذي بناه جهركس الخليلي أمير أخور –الشخص المسئول عن خيل السلطان برقوق– وكان قد هدم في زمن السلطان الغوري وتحول إلى سوق لا يزال معروفًا باسمه الأصلي، خان الخليلي[22]. وفيما يتعلق بالفنادق، فقد كانت تسهيلات تجارية عرفت بشكل خاص في المدن الساحلية المصرية والشامية، مثل الإسكندرية، التي امتلكت فنادق كثيرة للتجار الأجانب القادمين من البندقية، وبيزا، وجنوة، وباليرمو، ومارسيليا، وقطلونية، إلخ، الذين سُمح لهم ببناء كنائس وكان لهم قناصل ليعتنوا بمصالحهم التجارية.

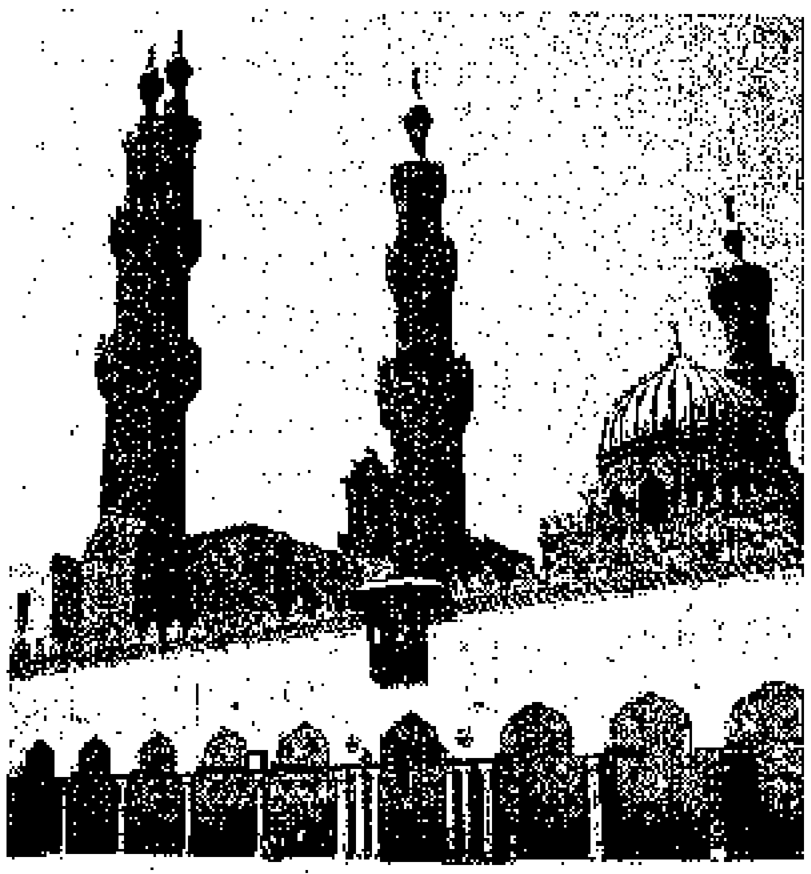

أعلى، قبة ضريح السلطان برقوق، من الداخل
أسفل، المآذن المملوكية لجامع الأزهر، القاهرة

20 المقريزي، الخطط، ج2، ص 105.
21 نفسه، ص 80.
22 ابراهيم طرخان، مصر، ص 276، المليجي: ص 332.

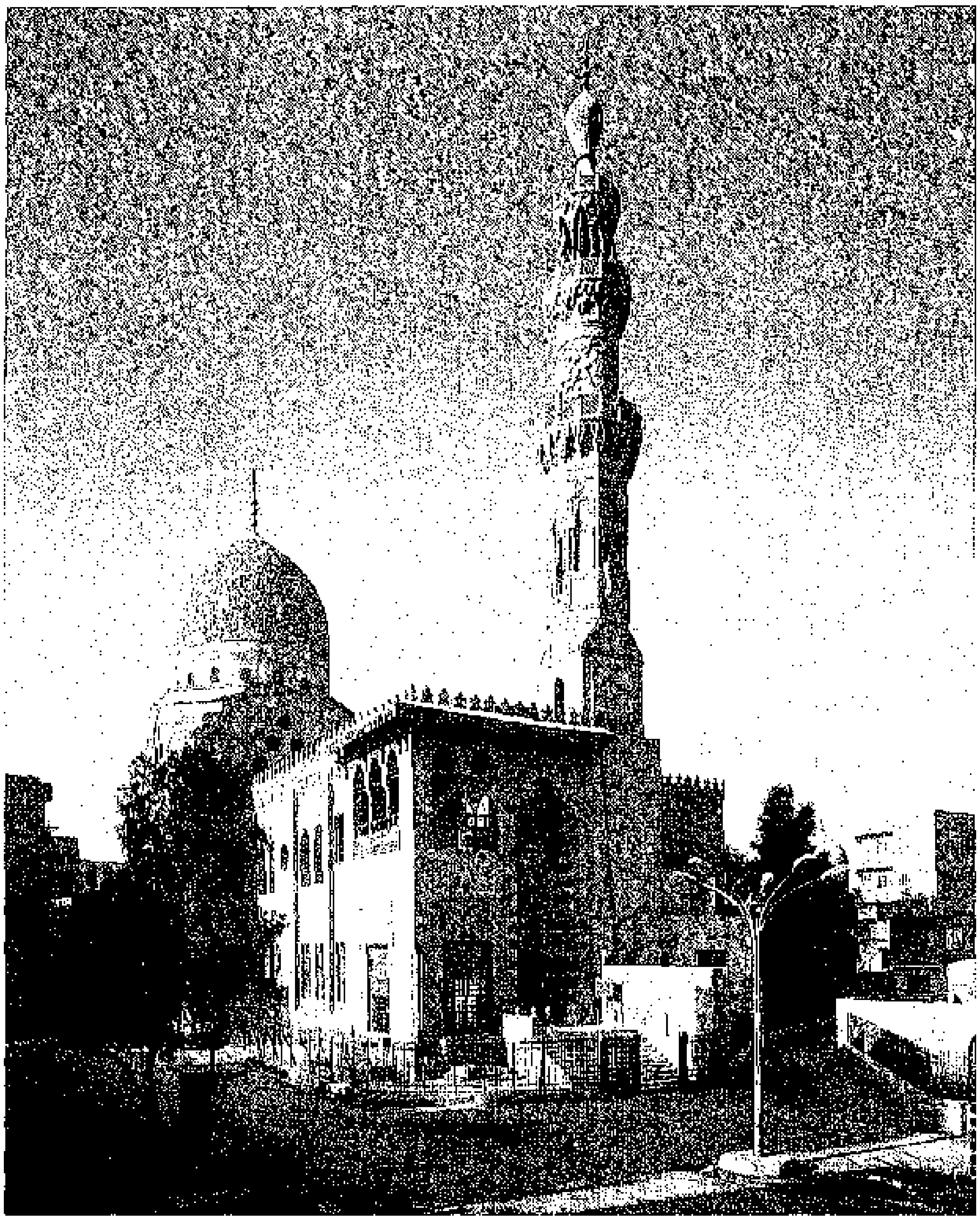

وأخيرا فأحد أشهر الوكالات هي وكالة الغوري، التي لا تزال قائمة في شارع محمد عبده بالقرب من جامع الأزهر، كشاهد لإتقان وجمال تلك المنشآت التجارية.

وكافح السلاطين المماليك أيضا لتوسعة مجال التجارة لمملكتهم العريضة، التي شملت مصر والشام والكثير من الأقاليم الأخرى في آسيا الصغرى، والجزيرة العربية وقورينة Cyrenaic والنوبة. وفي الواقع، لقد استثمروا الموقع الاستراتيجي لمملكتهم ليحتكروا التجارة الدولية بين الشرق والغرب. ونتيجة لذلك ربحت سلطنة المماليك ثروات من الضرائب التي فرضت على البضائع، وبخاصة التوابل والحرير، التي تجتاز أرضهم أو موانيهم، والتي اعتاد أن تكون ما بين خُمس وعُشر قيمتها. ذلك كان السبب لتوقيع دول كثيرة معاهدات مع المماليك. وفيما يتعلق بها، نذكر المرسوم الرسمي الذي أذاعه السلطان قلاوون بين التجار الأجانب، والذي يتضمن حمايتهم والأمن لأنفسهم وممتلكاتهم أثناء إقامتهم في المملكة[23]. وكان هذا المرسوم مصاغًا بشكل جميل للدرجة التي يذكرنا فيها بالإعلانات السياحية الحديثة.

ومع ذلك فإن الثراء السياسي والتجاري والحضاري في سلطنة المماليك سرعان ما بدأ يُقوض بواسطة القوى العدائية الصاعدة، أعني العثمانيين والبرتغاليين. فبينما هدد الأول المماليك من شمال البحر المتوسط، شكل الآخرون تهديدًا خطيرًا إلى الجنوب (المحيط الهندي والبحر الأحمر)، وبخاصة بعد أن اكتشف فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة 1498. وهكذا أصبحت مملكة المماليك محاصرة عسكريًا واقتصاديًا من هاتين القوتين. وبالإضافة لهذا كان المماليك فرسانًا بالطبيعة، فبينما استخدم العثمانيون والبرتغاليون الأسلحة النارية والمدافع، اعتبر المماليك هذه الأسلحة الجديدة جبانة وغير إنسانية. وبناء على ذلك، ولإنقاذ مملكتهم، لجأ المماليك للعبيد الشمال إفريقيين وسودًا لتكوين وحدات جيش (عرفت بالنفطية والبارودية) تستطيع أن تستخدم الأسلحة الجديدة.

وبهدوء، وصلت دولة المماليك بالفعل لسقوطها، فقد تحجرت إدارتها ونظمها، ونتيجة لذلك، سرعان ما انهار جيشها أمام جيش السلطان العثماني سليم الأول في معركة مرج دابق (شمال حلب) التي وقعت في سنة 1516، وفيها قتل السلطان قنصوة الغوري.

وحاول خليفته السلطان طومان باي أن يتعلم من أخطائه، وفي سنة 1517، جمع عددًا ضخمًا من المدافع في الريدانية، في صحراء العباسية، شمال القاهرة. ومع ذلك، يبدو أن المدافع وضعت في خندق طويل، مما جعلها غير متحركة ومكن العثمانيين من مهاجمتها من الخلف قبل أن تستطيع إطلاق طلقة واحدة. وعند هذا الحد أتت المعركة لنهايتها، وهزم طومان باي، وأخذ أسيرًا وأعدم لاحقًا على باب زويلة بالقاهرة، وعند هذا الحد وصلت سلطنة المماليك لنهايتها أيضا[24].

أعلى، مجمع السلطان الأشرف قايتباي ويضم مسجدًا، ومدرسة، وخانقاه، وضريحًا، القاهرة
أسفل، مسجد السلطان الناصر بن قلاوون

23 القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص 340-342.

24 D.Ayalo, Gunpowder and Fire arms in the Mamluk Kingdom, London,1956. وأيضا تعليقي على الكتاب في Hesperis،1959، (3-4)، ص 264.

قبرص بين الشرق والغرب مملكة لوزينيان الفرنسية، ملحق للمملكة اللاتينية في مواجهة المماليك

فاسيليوس كريستيديس
جامعة أثينا

ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

يسجل القرن الرابع عشر الميلادي أول مواجهة مباشرة بين مملكة قبرص اللاتينية ومماليك مصر. ولقد نشأت مملكة قبرص اللاتينية كقاعدة أمامية للصليبيين على حساب الإمبراطورية البيزنطية. وأثار المركز السياسي الطبيعي للجزيرة أول غارة بحرية عربية في سنة 649، وأجبر البيزنطيون على معاهدة الحياد مع العرب التي استمرت من سنة 688 حتى سنة 965. وخلال تلك الفترة كانت الجزيرة مجردة كلية من الصفة العسكرية؛ ولم يكن مسموحًا لجيش أي دولة بالإقامة عليها، ولم تكن إقامة القلاع ممنوعة فيها فقط، بل إن إصلاحها أيضا كان ممنوعًا. وفي الواقع كانت مياهها الإقليمية مفتوحة أمام الملاحة فقط [1].

وجلب إعادة اتحاد الجزيرة مع الإمبراطورية البيزنطية في سنة 965 سلامًا طويل الأمد في قبرص بين الأعداء التقليديين لهذا الزمن؛ البيزنطيين والعرب. وأصبحت قبرص جزءًا من شبكة تجارة شرق البحر المتوسط الكثيفة للعالم العربي – البيزنطي كما تكشف وثائق الجينزة Geniza. لكن بغرابة، وفي آخر الأمر، ظهر أعداء جدد من القوى المسيحية الغربية، بينما كانت الجزيرة تعج بالمشاكل الداخلية.

دير بيلابايس Bellapais: بني في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

في الصفحة المقابلة، صليبيون متوجهون لمعركة لابوكيه La Bocqueé بقيادة هوجو آل لوزينيان Hugo of Lusignan؛ وجيوفري مارتل Geoffrey Martel، تفصيل لفريسكو من القرن الثاني عشر الميلادي من كنيسة الناوية في كريساك Cressac.

وتضاعف نقل الحجاج –الذي تطلب وقفة متوسطة في قبرص– باستمرار وبخاصة بعد تأسيس الإمارات الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي. وقبل البيزنطيون تأسيسها بشك، وفي هذه الأيام استبدل العداء البيزنطي تجاه المسلمين بروح ودية أملاها عداؤهم المشترك للصليبيين. وأصبح الأعداء الجدد للقبارصة حينها مسيحيي القوى الغربية وليس العرب. وجدير بالملاحظة أنه عندما غزا بلدوين بيروت في الثالث عشر من مايو سنة 1110، هرب أمير المدينة إلى قبرص حيث رُحب به؛ وبرفقته عدد من المواطنين أتباعه. وعلى الرغم من الجو العدائي أصبحت قبرص وقفة لا سبيل إلى تجنبها للقوة البحرية للصليبيين، وفي الواقع لم تكن الدولة الصليبية لتبقى دون قاعدة ثابتة يمكن الوصول إليها في قبرص.

كان غزو الجزيرة من الصليبيين لايمكن اجتنابه، وكانت هناك حاجة فقط لعذر أو فرصة. وكان موقف البيزنطيين –بوجه عام– والقبارصة العداء المتزايد للصليبيين، وكانت هناك حتى خطة – لم تتجسد أبدًا– لتحالف البيزنطيين والمنتصر العربي صلاح الدين (2 أكتوبر سنة 1187) . وفي ضوء هذا الموقف؛ كان غزو قبرص بواسطة ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد خلال الحملة الصليبية الثالثة (1189-1192)؛ بحجة سوء معاملته من الحاكم المعروف بملك قبرص اسحق كومنينوس، مبرر ملائم لاستيلاء الصليبيين على قبرص والتي بدونها كان أفضل خط امداد لهم سيتم قطعه [2]. وخلف الفرنسي الإنجليزي وأسس مملكة لوزينيان (1191-1470). وفي الواقع، أصبحت قبرص مملكة لاتينية ملحقة بتلك الدول الصليبية التي تأسست في الشرق الأدنى. وفي آخر الأمر، اكتسب ملوك قبرص لقب "ملوك بيت المقدس وقبرص" في سنة 1269– اللقب الذي يظهر أيضا على عملاتهم– وتدفق عدد ضخم من اللاجئين، تحاشيا للضغط المملوكي المتواصل نحو سوريا وفلسطين، وخلقوا روحًا صليبية للاسترداد. وبرغم ذلك لم تقد تلك الروح مملكة لوزينيان إلى أي دور رئيسي في المحاولات الغربية المسيحية لإعادة فتح الأراضي المقدسة حتى عهد بطرس الأول (1359 - 1369).

1 V.Christides, The Image of Cyprus in the Arabic sources, Nicosia, 2006, Passim.

2 W. H. R. Collenberg, "L'empereur Isaac de Chypre et sa fille (1155-1207)", Byzantion 381 (1968), 123-179; M. Jean Richard, "La conquête de Chypre par Richard Coeur de lion et la formation du royaume des Lusignans", In J. Charles-Gaffiot (ed.), La France aux portes de l'Orient. Chypre XIIème-XVème siècle, Paris, 1991, 23-32.

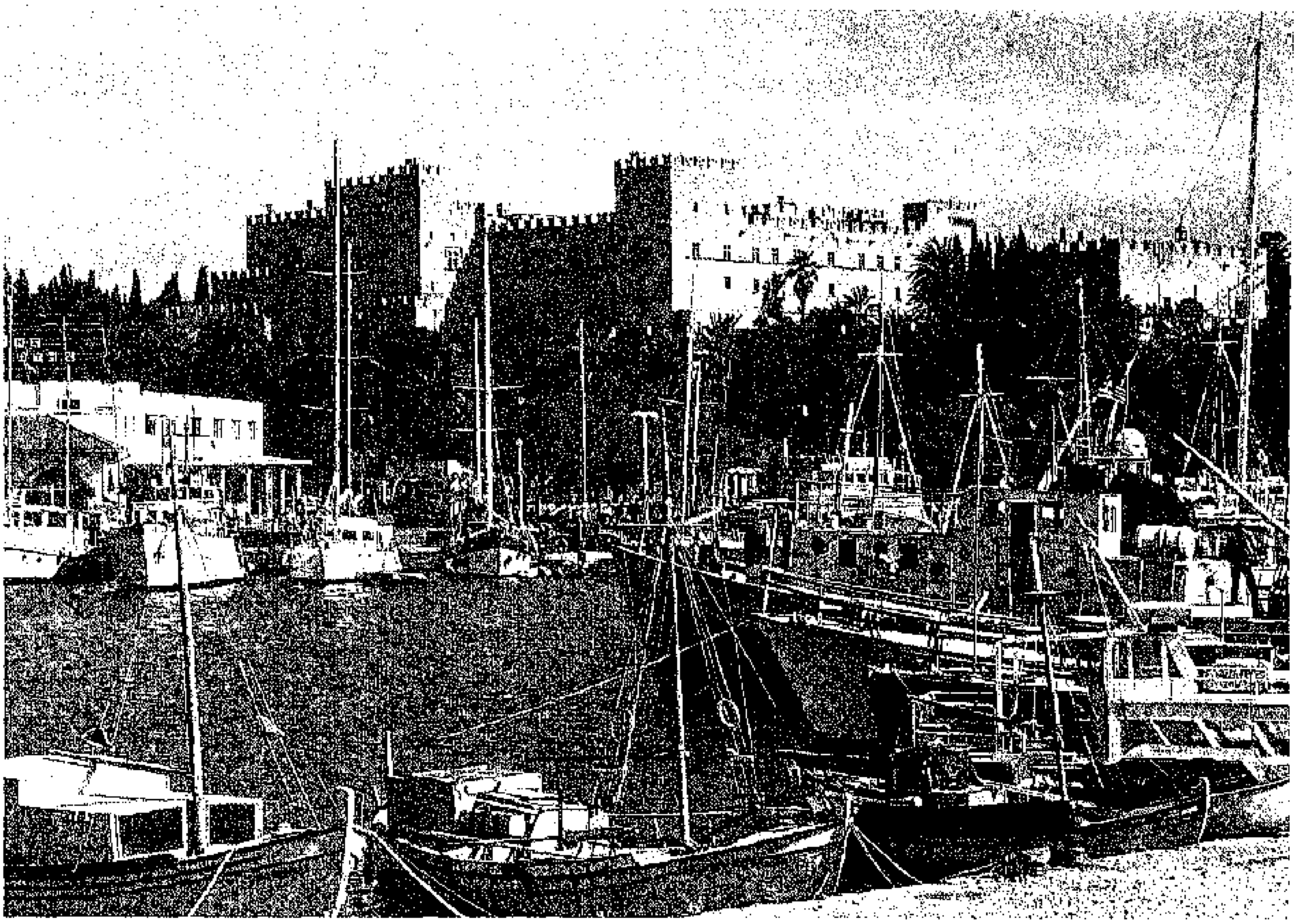

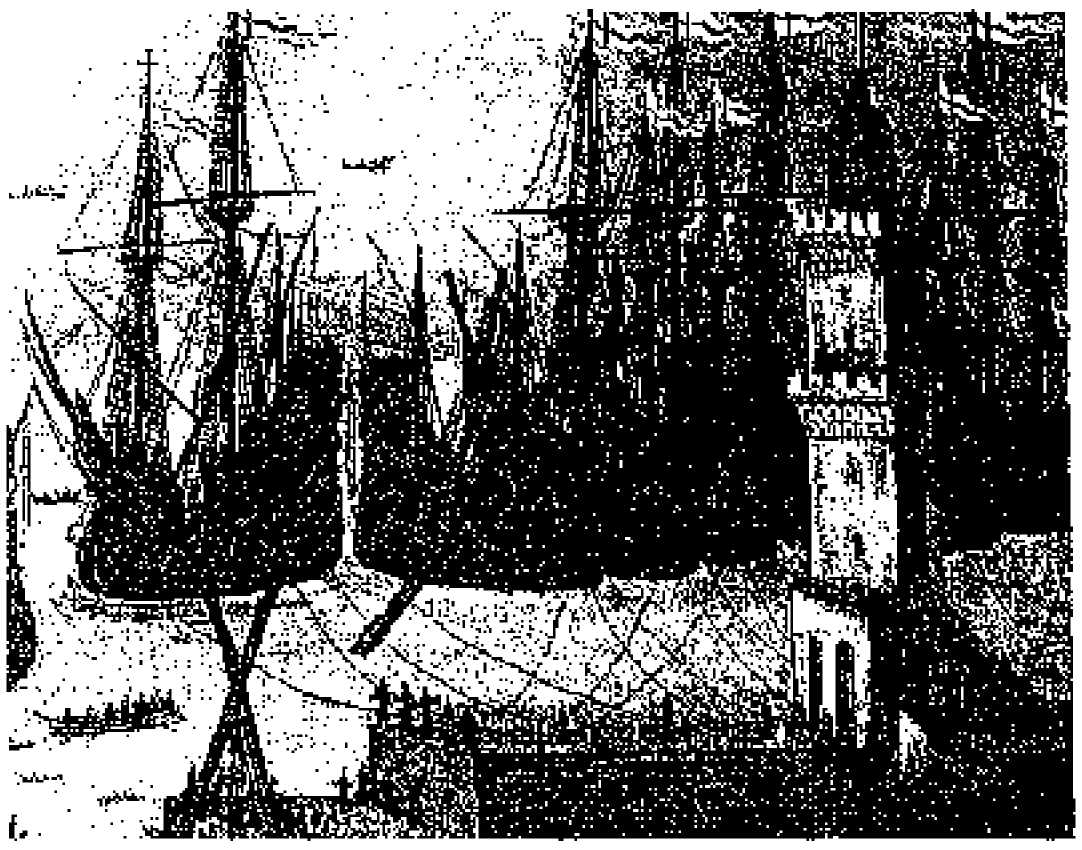

أعلى، قلعة وقصر المقدم الأكبر في رودس.
أسفل، سفن جنوية، تفصيل من رسم من القرن الخامس عشر الميلادي.

وبالطبع لم تتوقف أبدا مشاركات قبرص الثانوية، وبخاصة في النشاطات البحرية للقوى المسيحية على طول خط الساحل السوري الفلسطيني. ومع ذلك، لم تكن مصر مهددة حقا بالقوة البحرية القبرصية المتفوقة، على الرغم من أنها عانت من عدد من الهجمات بواسطة القراصنة القطلان الناشئة من جزر دوديكانيس Dodecanese. وفي الواقع، ازدهرت قبرص كمركز تجارة وسيط، وكانت متاجر مصر وسوريا تُفرغ في موانئها وتنقل من سفينة لأخرى إلى الغرب.

ومن ناحية أخرى، ولمدة قرنين لم يشرع المماليك بأي مجابهة مباشرة مع قبرص وتجنبوا أي هجمات ضد موانئها. وكان الاستثناء الوحيد محاولة مملوكية غير ناجحة حدثت في زمن السلطان بيبرس في سنة 1267 (سبعة عشر عامًا على وجه الضبط بعد تأسيس سلطنة المماليك في سنة 1250)، الذي أرسل حملة بحرية ضد ميناء ليماسول، ولكن كان من المحتوم فشلها لأنها كانت سيئة التنظيم. ولم يكن لدى بيبرس أي نية للشروع في أي غزو طويل الأمد لقبرص، ولكن معركته كانت هجومًا مخادعًا لصرف انتباه الملك هيو الثاني الذي هاجم عكا. ومع ذلك أظهرت تلك المحاولة المملوكية لغزو قبرص عدم كفاءة الأسطول المملوكي في ذلك الوقت، والذي -كما سوف يرى- كان قد تحول تماما فيما بعد. وأعطى الأمير ابن حسون - في محاولته لدخول ميناء ليماسول دون اكتشافه - الأمر للسفن بأن تلطخ بالزفت الأسود، وبرفع الصلبان في أماكن واضحة من الصواري، محاولا إظهار سفنه بالخداع كسفن فرنجية. ولم تكن تلك الحيلة غير معتادة في الحرب البحرية، وكانت تصبح فعالة بشدة عندما تستخدم بالضبط. وحكم على غزوة ابن حسون بالإخفاق بسبب افتقاده للبراعة. فدخول ميناء مجهول ليلا مهمة صعبة حتى

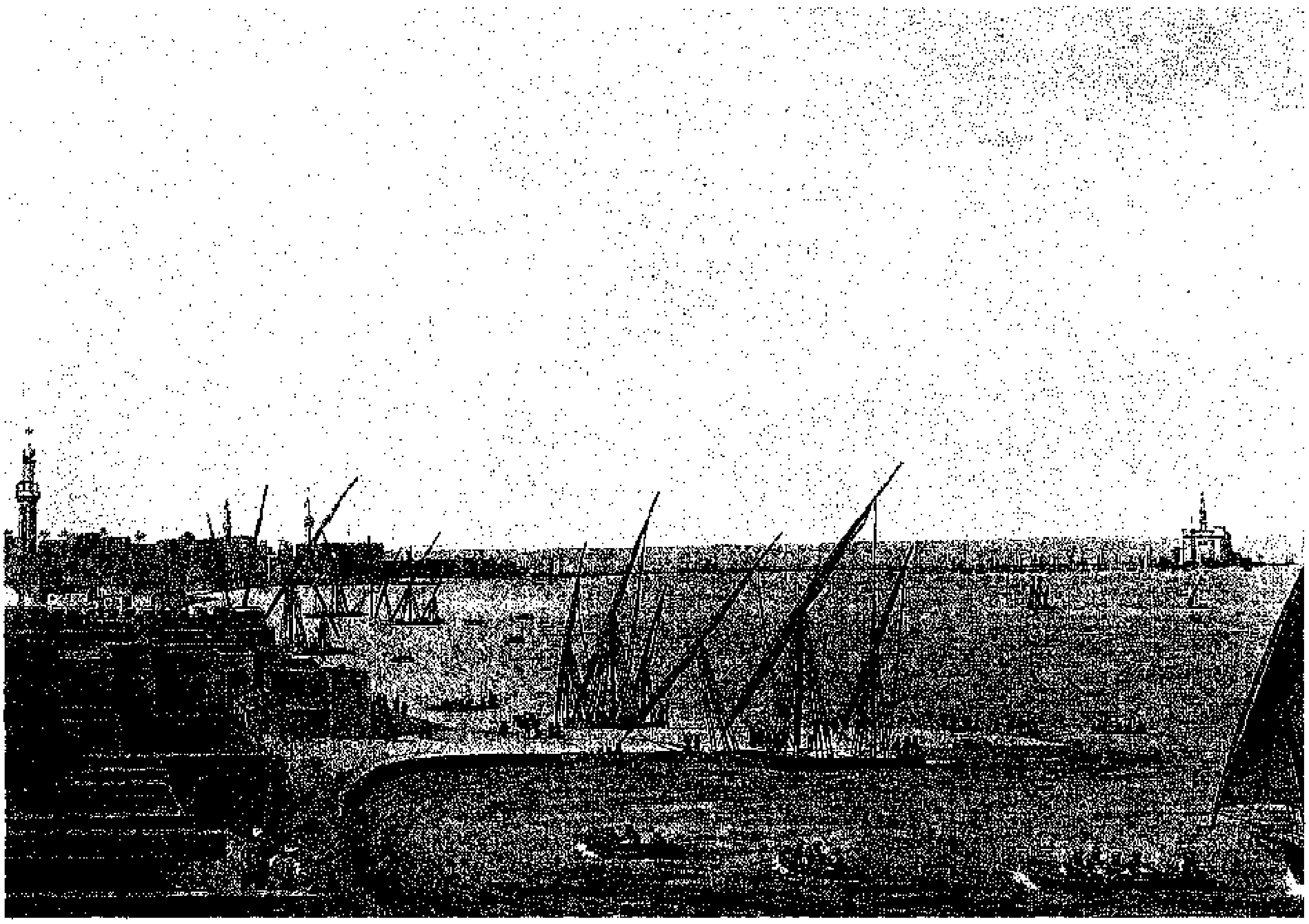

ميناء الإسكندرية، لفنان ل. ل. موين L. Moyen L.، من بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، مكتبة الفنون الزخرفية- باريس.

لملاحي السفن المتمرسين؛ كما كانت مستحيلة لبحارة ابن حسون قليلي الخبرة. ولعدم قدرته على الإبحار في الميناء في الظلام، غرقت كل سفنه، وأخذ معظم ملاحي السفن أسرى بواسطة فرنجة قبرص [3].

وكان السبب الرئيسي في تجنب المماليك طيلة قرون لأي محاولات أخرى لغزو قبرص، افتقارهم لأي استعداد بحري مميز. وعملت القوة البحرية لأسرة لوزينيان كدرع دفاعي رئيسي ضد أي مجابهة مباشرة مع المماليك، ولكنها لم تكن كافية لأي عمل عدائي ضد ميناء الإسكندرية وما وراءه. واستخدم الملك هيو الرابع (1324- 1359) القوات البحرية لقبرص بنجاح ضد القوة الناشئة للمسلمين الأتراك وطاردهم خارج ميناء سميرنا Smyrna. ولم يجرؤ- على الرغم من ذلك – على مهاجمة الإسكندرية. وكان بطرس الأول (1359- 1369) فقط هو الذي تخيل الخطة الطموحة لغزو الإسكندرية ومن ثم كل مصر.

وعالجت أعمال كثيرة تلك الخطة لبطرس الأول غير الواقعية والمتسمة بالمبالغة الحمقاء. واتهمه الكثير بالاستخفاف بالمماليك والمعاناة من رغبة مشتعلة لإعادة تأسيس الدول الصليبية. ويقدم بيتر إدبيوري نظرية في محاولة لتفسير أسباب محاولة بطرس الأول لفتح الإسكندرية بأنها كانت مدفوعة برغبته في إيقاف النمو المستمر للإسكندرية كميناء دولي مضاد لمصالح قبرص التجارية [4]. صحيح، أنه حتى ذلك الوقت، بدأت الموانئ القبرصية، التي كانت مراكز تجارية وسيطة بين الغرب والشرق، تفقد أرضها بسبب ازدياد عدد التجار البنادقة والجنوية المعينين في الإسكندرية. ومع ذلك فأي اختبار مباشر لشخصية ونشاطات بطرس الأول تستطيع بسهولة دحض هذا الإدعاء. فكل المصادر: وفي الدرجة الأولى الأعمال الفرنسية لفيليب دو مزيير، وجيوم دو ماشو، والحولية القبرصية لليونتيوس ماخيراس، وعدد من المصادر العربية تبرزه في صورة الصليبي المتحمس كانت رغبته المتقدة إعادة تأسيس دولة صليبية في مصر.

3 العيني، عقد الجمان، نشره محمد محمد أمين، القاهرة، 1988م، ج2، ص72. وتوجد ترجمة لتلك الفقرات الوثيقة الصلة بالموضوع في: F.Gabrieli ,Arab Historians of the Crusades, New york,1957, pp.320-322.

4 P.W.Edbury, The Kingdom of Cyprus and the Crusades,1991-374, Cambridge,1991, 151 f

وتصف المصادر الغربية والعربية رحلته المرهقة إلى الغرب الأوروبي حيث أمضى سنوات عديدة لكي يؤمن حملته الصليبية السكندرية. ولقد دبر لكي تتضمن حملته قوات بحرية من البندقية وجنوة، القوتان العظميان البحريتان للعصر، واللتان شاركتا –مع ذلك– كارهتين. وفي الواقع، فقد عبرت الأخيرة عن اعتذارات متكررة لسلطان المماليك للمشاركة في تلك الحملة [5].

وكان محكومًا بالفشل على خطة بطرس الأول المتسمة بالمبالغة الحمقاء لفتح مصر. إن الفكرة بأن بطرس الأول كان يهدف لفتح ميناء الإسكندرية كبية وليس كل مصر حيث يستطيع أن يمدد الدور القبرصي، مناقض لما ورد في المصادر، كما سيرى.

كيف يستطيع بطرس الأول أن يحتفظ بميناء محاطًا بملايين من المصريين يحاربون من أجل أرضهم؟

إن الصيحة الثابتة المتشائمة التي نقابلها في قصيدة "الاستيلاء على الإسكندرية" لجيوم ماشو الذي شارك في تلك الحملة تعبر عن الإحباط لكونه قُهر [6]:

"قريبا جدا سوف يكتشفون –الصليبيون– أنهم أقل عددًا من أعدائهم، واحد لألف؛ في حشود ضخمة مائة ألف، أكثر مما يستطيع المرء أن يعد، قدموا ...؛ أقل عددا (الصليبيين) يائسين.....".

وكانت الميزة الوحيدة للقوات الصليبية تتمثل في أسطولهم الذي شمل –وفقًا لمعظم المصادر الثقات– حوالي سبعين سفينة منها أربع وعشرين بندقية، واثنتان جنويتان، وعشر رودسية، وخمس فرنسية، والتسع والعشرين الأخرى قبرصية. ولقد شملت شواني ضخمة وأنواعا كثيرة من المراكب الأخرى. وكان الوصف الأكثر تشويقًا لأنواع السفن في أسطول الصليبيين لمراكب الإنزال المسماة طرادة في المصادر العربية، وTafaresse في المصادر الفرنسية، وsatia في حولية ليونتيوس ماخيراس [7]. وكانت سفن طورت لتحمل ستة عشر إلى عشرين حصانًا. وعند الإنزال كان الجند يمتطون خيولهم داخل السفينة، ويرتدون خوذاتهم، ويمسكون حرابهم، ويهبطون من خلال باب خاص في المؤخرة. وتصف المصادر العربية الرعب الذي أحدثه ظهورها المفاجئ [8]. وبصورة متساوية مرعبة، كانت أيضا الأنواع الجديدة من الشواني الغربية والعربية والتي أصبحت في القرن الرابع عشر الميلادي متعددة الصواري مع سطحين أو ثلاثة أسطح، وكانت مجهزة ببوصلة مغناطيسية. وبينما كان للسفن الحربية المبكرة قلعة بين السفن، أصبحت موضوعة في هذه الأيام على قمة الصاري. وكان استخدام السفن المجهزة بالمدافع والبارود مجرد خطوة واحدة إضافية نحو القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. وعلى الرغم من أن المصادر المهتمة بالصراع المملوكي القبرصي لم تذكر البارود، فقد كان مستخدمًا في ذلك الحين في أوقات مبكرة في أرض الحروب [9].

لم يقابل الصليبيون أي أساطيل عربية في رحلتهم الطويلة من رودس، حيث تجمعت كل السفن، إلى ليمسول ومن هناك إلى الإسكندرية. ولقد وصلوا للإسكندرية يوم الأربعاء الثامن من أكتوبر سنة 1365. وهبط جيش الصليبيين لليابسة بنجاح في موضعين بميناء الإسكندرية،

سفينة من الغرب المسيحي، نقش من القرن الخامس عشر الميلادي.

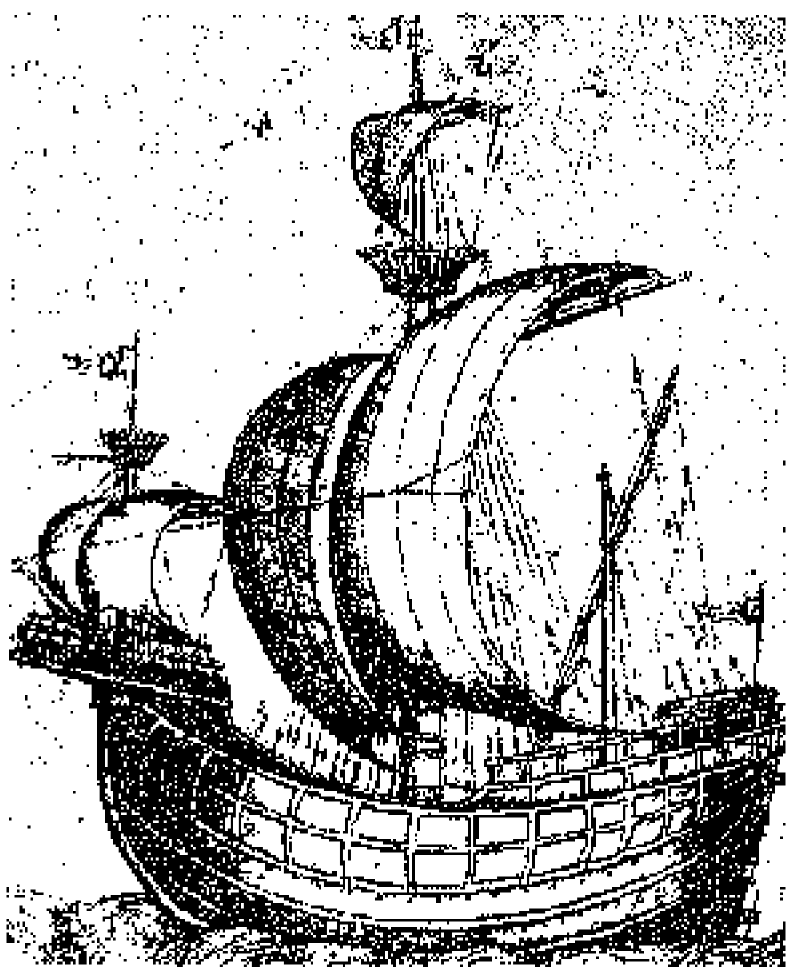

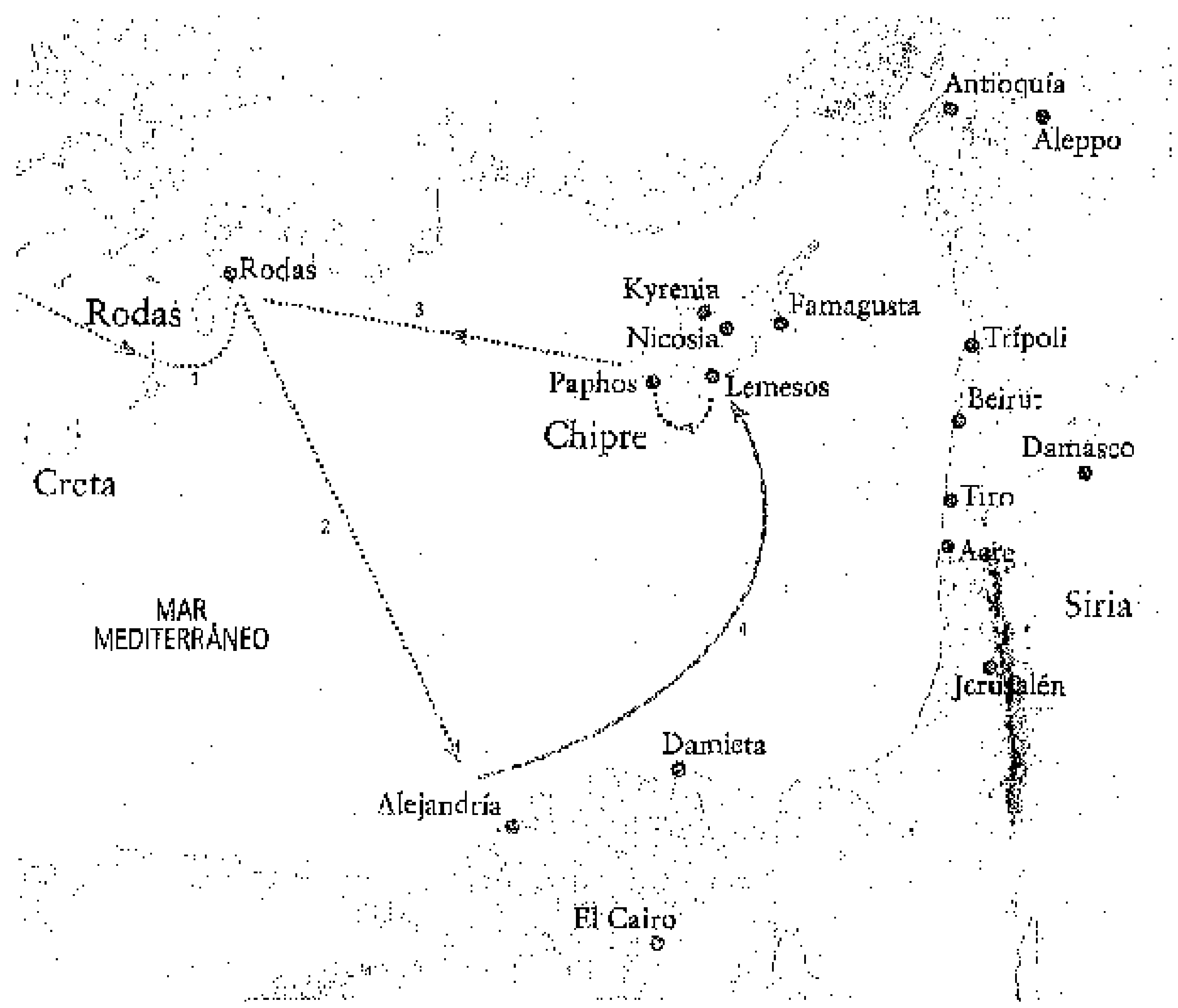

حملة الصليبيين ضد الإسكندرية وهجوم مملوكي خلال غزو قبرص. تظهر الخريطة المسارات لوصول صليبي البندقية (1)، أسطول ملك قبرص (3)، والجيش الصليبي المتحد، والاتجاه المتبع من الأسطول المملوكي ضد قبرص (4).

قلعة مملوكية في ميناء الإسكندرية.

مع انهماك إحدى سفنهم في نزاع ثانوي واحد فقط. وبعد هزيمة الجيش المملوكي الذي تجمع في منطقة مفتوحة بين الميناء والأسوار، تقدموا للأمام ووصلوا لأسوار المدينة. وتصف المصادر الغربية والمصادر العربية المقاومة الشجاعة للجيش المملوكي الذي كان أكبر عددًا بكثير، ولكنه كان دون قائد لأن حاكم الإسكندرية كان غائبا في حج إلى مكة[10].

كانت مدينة الإسكندرية محاطة بأسوار قوية، حسنة التحصين بأبراج محكمة، وأنزل رماة السهام المماليك ضربة ثقيلة بالصليبيين. وربما لم يستطع الصليبيون النجاح في الاختراق إلى المدينة إذا حمى المماليك بوابة الجمرك التي لم تكن محروسة لأن الأبواب كانت مغلقة كالعادة خشية نهب البضائع المحفوظة بالداخل. ولقد سحق الصليبيون تلك البوابة أرضًا، ودخلوا المدينة من خلالها[11]. من ناحية أخرى يروي فيليب دو مزيير أن الصليبيين اكتشفوا خط أنابيب مياه دخلوا من خلاله المدينة[12]. وتبع سقوط المدينة مذبحة واسعة للسكان ونهب دون رحمة.

وقد حاول بطرس الأول متجاهلا الصعوبات التي أحاطت بالجيش الصليبي إقناع القادة الآخرين باستمرار غزوهم تجاه المنطقة الداخلية لمصر. وذكرت معظم المصادر بوضوح أن بطرس الأول رفض قبول نصيبه في الغنائم لأنه كان يخطط للتقدم واحتلال كل مصر. ومع ذلك كان الجنوية الحلفاء هم الأقل اقتناعًا بشأن خططه. وبقيت السفن الجنوية في الميناء في وقت الهجوم بعيدة عن العمليات، وحتى أنها حاولت بخيانة التعاون مع القوات الإسلامية. علاوة على ذلك، وبعد رحيل الصليبيين، أعاد الجنوية نصيبهم في الغنائم إلى المماليك وعبروا عن عميق اعتذاراتهم للمشاركة في الحملة الصليبية[13]. ولم تُقبل مناشدة الملك بطرس الأول بالبقاء في الإسكندرية من أي شخص كما يصف جيوم دو ماشو[14]:

"وأخذ ... الملك بطرس جواده الذي أمسكه مارشاله لأجله، ممتطيًا جواده ومنطلقًا نحو المدينة، يقصد بالطبع، أنه يجب عليهم أن يفعلوا الشيء نفسه.... ولكن أي شخص لم يمتط جواده ويتبعه".

5 المقريزي، السلوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1970-1971، ص 122.

6 Guillaume de Machaut, The Capture of Alexandria, trans. J. Shirly, Aldershot. 2001, 31, 86.

7 Christides, The Image of Cyprus, Appendix B, 123 ff.

8 النويري، كتاب الإلمام، تحقيق عزيز سوريال عطية، حيدر آباد، 1968-1976، ص 421 (767هـ / 1365).

9 R. Irwin, "Gunpowder and Firearms in Mamluk Sultanate Reconsidered", in M .Winter and A. Levanoni (eds.), The Mamluks in Egyptian and Syrian Politics and Society, Leiden - Boston, 2004, 118 ff.

10 النويري : كتاب الإلمام، ص 424 وما يليها

11 النويري، كتاب الإلمام: نفس الصفحات

12 Philippe de Mézières, Le songe du vieil pelerine, ed .G.W.Woopland, Cambridge, 1969, I, 89, V .2916.

13 Mézières, Op.cit,156 ff أنظر أيضا حاشية رقم (5) أعلاه

14 Machaut, The Capture, 85

ووضحت جيدًا الخطة الخيالية المستحيلة للملك بطرس الأول لغزو مصر مع وصول القوات الرئيسية للجيش المملوكي إلى الإسكندرية بقيادة يلبغا الخاصكي. ويصف دو ماشو بحيوية أكثر من أي مصدر آخر الرعب الذي انتشر بين جيش الصليبيين. وعبر القادة الآخرون وهم مرعوبون عن تقييمهم الخاص للموقف: "السلطان قريب جدًا ... وعندما يتحرك السلطان، سوف نكون كلنا كجرذان في فخ، وبالضغط على كل المقاومة المحلية الخفية، سوف يمسك الناس بالخارج محصولهم ... ماذا يكون المزيد، نحن في أرضهم..."[15]. وهكذا انتهت الحملة الصليبية السكندرية المفعمة بالغرور بتعاسة. وفيما بعد تنافست البندقية وجنوة بشدة على تملق المماليك واكتساب الامتيازات التجارية في الإسكندرية. وحتى التجار القبارصة كانوا ضد أي تجديد إضافي للعداء ضد المماليك.

منطقة الهجوم المملوكي ضد قبرص سنة 1426.

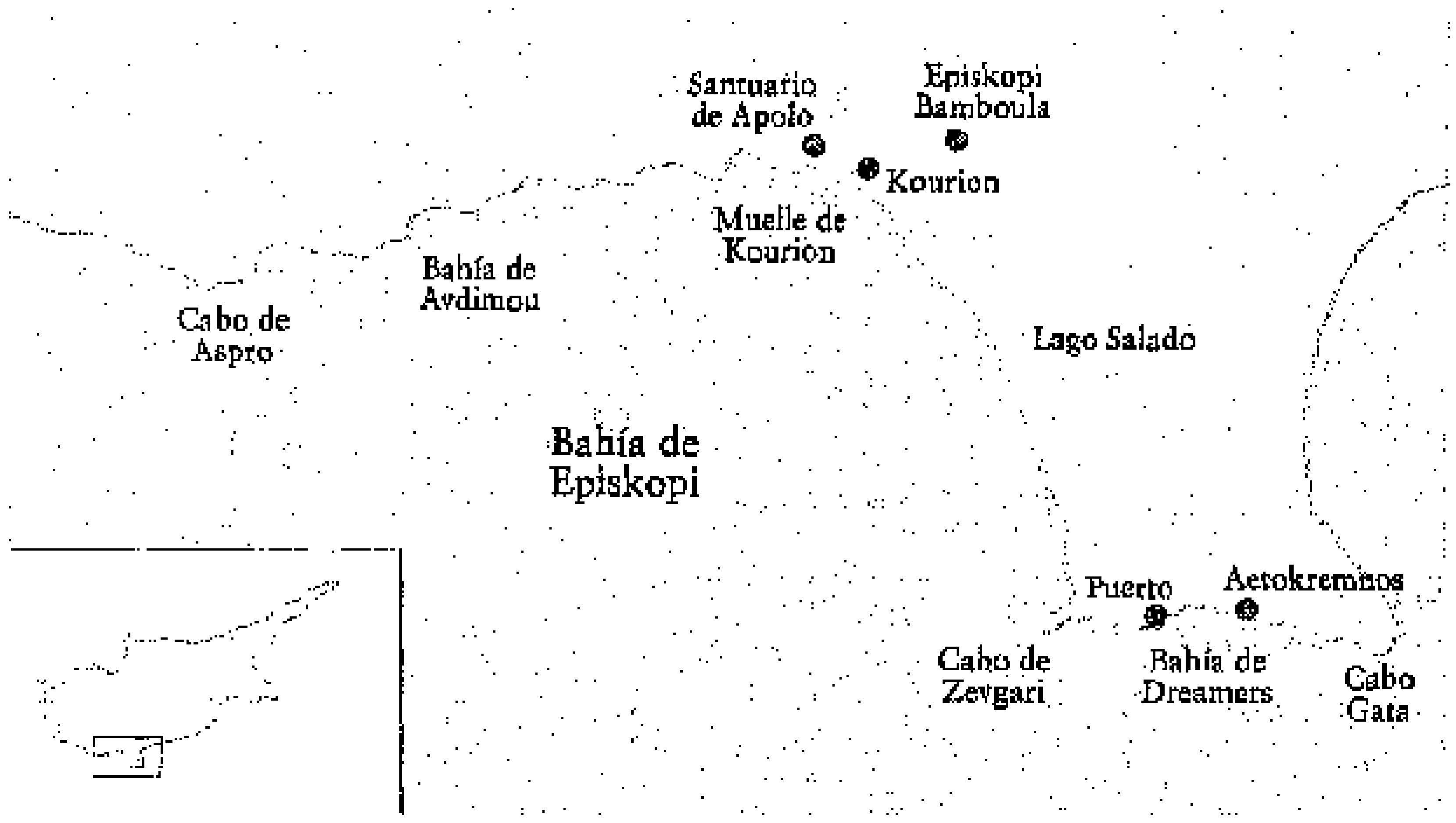

في غضون ذلك أدرك المماليك أنه بدون إنشاء أسطول فعال، لن يستطيعوا البقاء. وباستخدام أخشاب الشام بشكل رئيسي شرعوا في إنشاء قوة بحرية مؤثرة. ويجب ملاحظة هذين الإنجازين المتباينين مع تقييم "أيالون" البسيط لفطنة المماليك الحربية وفقًا للمكتشفات الحديثة. فلم يكن تطور القوة المملوكية البحرية هائلا فقط، ولكن فضلا على ذلك، اكتسب المماليك القدرة عن استخدام مدافعهم مع البارود بحذر عند الحاجة[16].

وكما تروي المصادر العربية، وفي الحال وبعد نهب الإسكندرية باشروا بناء عدد ضخم من السفن الحربية في دار صناعة الأسطول المصرية بجمع المال من مسيحيي المملكة، واحضار صناع كثيرين من أماكن مختلفة[17]. وفي وقت واحد شرع في تجنيد مكثف للبحارة للخدمة في السفن الحربية المبنية حديثا. وفي الواقع لم يكن بحارة السفن المصريون في القرن الرابع عشر الميلادي مؤلفين بعد من بحارة مرتفعي التأهيل كما أشار "أيالون" وغيره، ولكن ذلك كان سمة عامة لكل بحارة السفن في القرن الرابع عشر. ومثلا يروي ليونيتوس ماخيراس أنه في حملة سنة 1365 الصليبية السكندرية. "تشاجر بحارة سكارى مع بعضهم البعض وقتل قبارصة رودسيون"[18]. وفي الواقع، في زمن ليونيتوس ماخيراس، كان مصطلح بحارة السفن "Katergon" كلمة استخدمت لأجل معسكرات الأعمال الشاقة.

أسفل، منمنمة لسفينة عثمانية وشانية بالمدفعية، القرن السادس عشر الميلادي.

وعلى الرغم من استعداداتهم المكثفة والعداء المستمر لأسرة لوزينيان لم يستطع المماليك، لمواجهتهم عددًا من المشكلات الداخلية، القيام بسهولة بأي غزو لقبرص. ويصف ليونتيوس ماخيراس بحيوية الصبر الاضطراري للسلطان فرج (1339-1412)، عندما أتت الأخبار بشأن المضايقات المستمرة بواسطة القراصنة المسيحيين بالتعاون مع فرنجة قبرص: "واحتفظ السلطان بفمه مغلقًا لأن الأمراء لم يكونوا على علاقات طيبة معه"[19].

وعلى الرغم من الوعود السلمية للملك القبرصي جانوس (1398-1432)، تفاقم الموقف باستمرار في زمن السلطان برسباي (1422- 1437). كما أغار القراصنة القطلون، المتحركون من كاستيلوريزو Castelorizo، ونهبوا دون توقف الموانئ السورية الفلسطينية بالتعاون مع فرنجة قبرص. وأخيرا قرر برسباي –باشمئزاز– غزو قبرص لكي يضرب العدو في أرضه. ولقد باشر ثلاث حملات في عامي 1425، 1426، وكانت الأخيرة الضربة النهائية لقبرص.

حاول جانوس ملك قبرص، الذي لم يقدر المماليك حق قدرهم، التحريض لحملة صليبية أخرى لاسترداد سوريا وفلسطين، ولكن حماسة الصليبيين كانت قد فترت كلية في ذلك الوقت، ووقعت مناشدته على آذان صماء. ومن بين القوتين البحريتين العظمتين، كانت جنوة – التي

15 .Machaut, The Capture, 82

16 انظر حاشية رقم (9) أعلاه.

17 ابن قاضي شهبة، تاريخ، نشره أ.درويش، دمشق، 1994، ص 271؛ صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، حققه F.Hours و ك. س. صليبي، بيروت، 1969، ص 29 وما يليها.

18 Leontios Machairas , Sweet Land, 148,149; V.Mallia-Milanes, "Corsairs Parading Crosses; the Hospitallers and Venice,1530-1798", In Malcolm Barber(ed.), Fighting for the Faith and Caring for the Sick, Aldershot, Hampshire, 1994: "[Venetian sailors] miserable, dejected, dispossessed....".

19 Leontios Machairas, Sweet Land, 622, 623

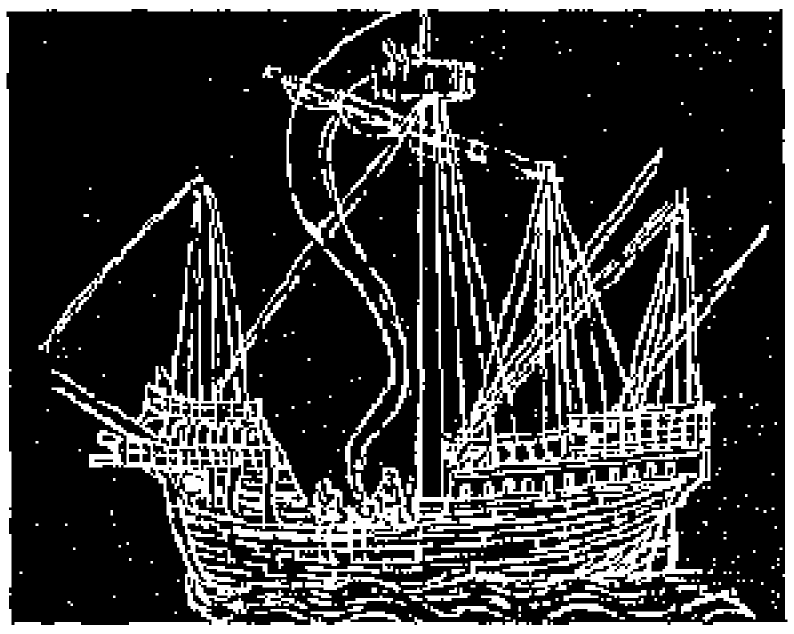

يمينًا، قلعة كولوسي Kolossi، القريبة من ليماسول.

يسارًا، مخطط لسفينة عربية من نوع قرقورة من القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

استولت على فاماجوستا Famagusta من سنة 1373– غير مكترثة، ورفضت البندقية أن تقدم قرضًا لجانوس ليستأجر مرتزقة. وعبرت المصادر العربية عن خوفها الكبير من التورط المحتمل لقوى الغربية في الحرب المملوكية القبرصية، ولكنها روت فقط أن ابن أخ (أخت) ملك القطلون – الذي أخذ أسيرا لاحقا – قد ساعد جانوس[20].

أصبح التفوق البحري للمماليك الآن واضحا؛ ففي كل معركة بحرية لسفينة منفردة أو أساطيل، كان فرنجة قبرص يُهزمون[21]. ووصل كل الأسطول المملوكي دون مقاومة إلى ميناء ليماسول، والأكثر احتمالا أنه رسا في حماية مرسي صغير، يسمى الآن خليج أفديمو Avdimou–جزء من خليج إبيسكوبي Episcopi– كما أظهرت الحفائر الأثرية التصنيفية الحديثة للمختصين بجامعة كينكيناتي Cincinatti. وهناك، اكتشف مقام صغير[22]. ويقدم المؤلفان العربيان ابن تغري بردي وابن شاهين الظاهري بعض التفاصيل المتعارضة[23]. وكانت قوة الحملة مقسمة إلى جزأين، الأسطول تحت قيادة الأمير إينال اليكرتي والمشاة تحت قيادة تغري بردي المحمودي. وتقدمت كنتا القوتان في تعاون حميم. وبعد عدد من المعارك هزموا الفرنجة وأخذوا الملك جانوس أسيرًا. والمكان الدقيق حيث أسر لا يمكن تعيينه. وخلال تلك المعارك دمر قصر أسرة لوزينيان، الواقع على مسافة كيمو متر واحد إلى الشمال الغربي من بوتاميا Potamia في هاجيوس سوزومينوس Hagios sozomenos [42].

ودبرت القوى الغربية، التي قدمت مساعدة عسكرية ومالية ضئيلة إلى قبرص خلال الحرب، حينها لجمع ثلاثمائة ألف من الدوكات لدفع الجزية من أجل تحرير الملك جانوس. وانتهت مملكة لوزينيان القبرصية المجيدة، التي تمتعت برخاء مالي غير مسبوق بوصفها أهم مركز تجاري بين الشرق والغرب في القرن الرابع عشر، كدولة تابعة لسلطنة المماليك. وهكذا يميز نهاية القرن الرابع عشر الميلادي والتحول للقرن الخامس عشر سقوط قبرص كملحق لدول الصليبية وموت روح الحروب الصليبية.

20 مصطفى الرومي، العالم الزاخر، نشره وترجمه لويس شيخو؛ أعيدت طباعته في: M .T . Mansouri, Chypre dans les sources arabes médiévales, Nicosia, 2001, text 164, trans .128

21 ابن تغري بردي، المنهل الصافي، حققه محمد محمد أمين، القاهرة، 1985، ج3، ص262 وما يليها "هزم أسطول إسلامي أسطولا للفرنجة مكون من سبع سفن حربية من نوع الغراب وسبع مزودة بأشرعة مربعة".

22 J. Leidwanger, "Episcopi Bay Survey, Cyprus 2004", INA Quarterly, 321 (2005), 9-14.

23 انظر ابن تغري بردي، حاشية رقم (21) أعلاه ؛ ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، نشره P. Ravaisse باريس، 1983، ص 139 وما يليها.

24 N. Lécyer and D. Michaelidis, "Archeological Survey at Potamia-Agios Sozomenos", in Maria Iacovou (ed.), Archaeological Field Survey in Cyprus, Athens, 2004,144, fig. 10.7.

الإمبراطوريات الآسيوية في القرن الرابع عشر

ميشيل برنارديني
جامعة نابولي، أورينتال، نابولي

ترجمة قاسم عبده قاسم

كانت الفترة الممتدة ما بين العام 1300 إلى سنة 1400 نقطة انعطاف رئيسية بالنسبة لآسيا. فأولاً تأمل الاضطراب الضخم الذي سببه انهيار إمبراطورية المغول التي كان جنكيزخان قد أسسها قبل قرن من الزمان. هذا الانهيار كان علامة على عملية تجزئة — باستثناء الطرفين في الصين بآسيا وإقليم مصر والشام — اتسمت بظهور عدد وافر من الإمارات المحلية الكبيرة والصغيرة على السواء. وقد أدى التقاتل فيما بينها إلى صعود نجم تيمورلنك (1336-1405) وهو زعيم أدت محاولاته لإعادة بناء الإمبراطورية المغولية إلى خلق دولة أعادت توحيد جزء كبير من القارة على الرغم من أنها كانت دولة قصيرة العمر.

إرث جنكيزخان

هذا المنعطف يقوم على عدة عوامل مهمة تلعب دورًا رئيسيًا في تحليل هذه الفترة، إذ إن الدول الأربع التي أقامها جنكيزخان لكي يقسم آسيا بين ورثته قوضت بالفعل المفهوم الجغرافي الذي كان قد حدد تاريخ القارة حتى ذلك الوقت. وكان الخط الفاصل بين منطقة إسلامية كبرى تتكون من الخلافة العباسية، والشرق الأقصى الذي كان قد وصل إلى أقصى مداه بين القرن السابع والقرن العاشر تحت حكم تانج، خطًا واهنًا بشكل خاص .ومع هذا، وحتى بعد الكثير من إعادة الترتيب التاريخي، بقيت هذه منطقة متماسكة حيث كان النفوذ الثقافي والسياسي قوة مسيطرة. وعلى الرغم من الغزوات المغولية فإن الحكم الإسلامي كان قد وطد نفسه في شمال الهند أثناء القرن الثالث عشر بسبب تتابع السلالات الحاكمة التي كانت من أصل تركي أساسًا، مع استمرار بقاء سلالات حاكمة من أصول هندية في الجنوب.

وفي بواكير القرن الرابع عشر، كان أحفاد أبناء جنكيزخان الأربعة: غوشي، وشغطاي، وأوغطاي، وتولوي؛ مستمرين في إحكام سيطرتهم على آسيا ضد تيار من الصراع المستوطن والهياج الخطير. وكان الإيلخانيون واليوان، وهما الخطان الرئيسيان المنحدران من سلالة تولوي: الابن الأصغر لجنكيزخان، ما يزالون مسيطرين على معظم الأراضي التي

خان التتار الكبير على خريطة مطبوعة أوائل القرن السادس عشر من كتاب ماركو بولو، ومن الخرائط البرتغالية.

هجوم جنكيز خان على الصين، منمنمة من شاهنامة جهان من عمل فنان تيموري من شيراز، 1397، المكتبة البريطانية – لندن.

كان جنكيزخان وخلفاؤه المباشرون قد فتحوها، وهي الأناضول، وإيران، والعراق (الإيلخانيون)، والصين ومنغوليا (اليوان). وحتى مع هذا، فإن الممتلكات الإمبراطورية لسلالة غوشي (ما تسمى القبيلة الذهبية)، التي قامت على أجزاء من آسيا الوسطى ومناطق الاستبس الروسية، كانت ما تزال شاسعة، أما أحفاد أوغطاي وشغطاي، فكان مصيرهم أسوأ وكانت ممتلكاتهم محددة بحدود ما وراء النهر وبعض المناطق القليلة المجاورة، على الرغم من أن عهد قايدو (1236-1301) قد شجع على استعادة هذا الإقليم الصغير التي دعمت حكم سلالة شغطاي في كشغاريا وهي سينكيانج اليوم.

تفكك إمبراطورية المغول في الشطر الأول من القرن الرابع عشر

في هذا السياق، هناك تغيرات أساسية عديدة ميزت الانتفاضات التي أدت إلى انفصال جزء أساسي من الإمبراطورية المغولية في غضون خمسين سنة. وكانت سلالة القبيلة الذهبية قد اعتنقت الإسلام في عهد بركة خان (ت. 1266). وقد استغرق تحول الإيلخانيين إلى الإسلام في عهد محمود غازان خان سنة 1295، وليس هناك شك في أن هذه كانت نقطة تحول بالنسبة للمنطقة كلها، لأنها أنهت حكمًا معاديًا للإسلام استمر على امتداد ما يزيد على نصف قرن من الزمان في أهم أقاليم الخلافة. وعلى الرغم من أن هذا التغير لم يؤد إلى تبدل العلاقات العدائية مع الغرب الإسلامي الذي كان يجسده المماليك آنذاك، القوة الوحيدة التي نجحت في التصدى للتوسع المغولي في القرن السابق، فإنه أدى، على أية حال، إلى حدوث تغير مهم في بناء السلطة الإيلخانية التي استسلمت بشكل مطرد لنفوذ العناصر المسلمة الجديدة على وجه الخصوص. وقد تصادفت هذه الظاهرة زمنيًا أثناء القرن الرابع عشر مع تخليهم عن خططهم لإخضاع الأناضول، وسرعان ما ظهرت هناك عدة إمارات محلية، وكان مقيضًا لإحداها، وهي إمارة العثمانيين، أن تكتسب أهمية تاريخية قوية فيما بعد. وعندما اختفت الإمبراطورية الإيلخانية من الوجود سنة 1335؛ بموت أبي سعيد آخر حكامها، تفككت الدولة المغولية بسرعة في إيران، وأفرخت عددًا من الأمم الكبيرة والصغيرة في جميع أرجاء الهضبة الإيرانية. وكانت هذه متشابهة في بنائها مع تلك الإمارات التي كانت قد ظهرت في الأناضول المجاورة قبل عدة عقود من السنين

وفي الصين كانت القمة التي وصلت إليها أسرة يوان في عهد قوبلاي خان (1260-1294) الذي مدّ الممتلكات المغولية إلى جنوب شرق آسيا. وعند هذا الشخص القيادي بدأ التفكك

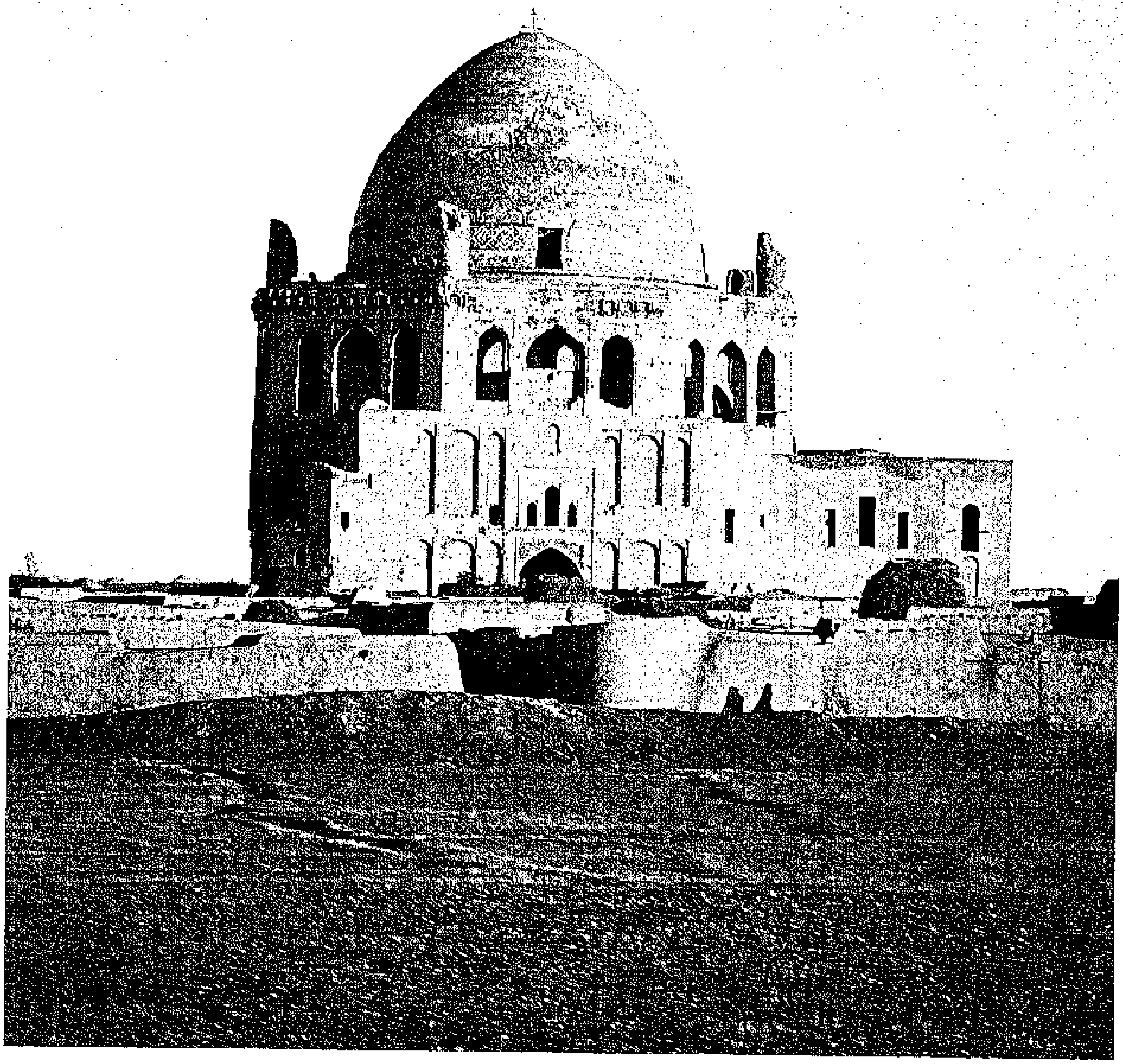

ضريح أولجايتو الإيلخاني في السلطانية، إيران 1315-1325.

التدريجي يفسح المجال لظهور الصراع الداخلي وإعادة ظهور الاضطرابات المتكررة بعد سنة 1325 والتي تطورت قبل مضي وقت طويل إلى حركات تمرد معادية للأجانب صراحة. وكان الحكم الطويل الاستثنائي لآخر ملوك أسرة يوان طغتيمور (1333-1368) قد أفسح الطريق لصعود أسرة مينج (1368-1644) التي اتسمت بروح وطنية متوقدة معادية للغرباء، ولاسيما أولئك التجار المسلمون الذين كانوا قد ازدهروا إبان الحكم المغولي. وفي الدولة الإيلخانية أيضا أشعل انتقال الحكم من المغول الاضطرابات ضد العناصر الأجنبية (في هذه الحالة كان المستهدفون من الغربيين) وقد شهدت سنة 1340 انهيار السوق الأوروبي الكبير، الذي كان قد شهد هو والبعثات التبشيرية المسيحية ازدهار الإمبراطوريات التجارية لجنوة والبندقية في جميع أنحاء آسيا. وقد ازدادت وطأة هذا بفعل المأساة الرهيبة التي سببها الوباء الأسود الذي اجتاح آسيا وأوروبا في النصف الأول من القرن الرابع عشر ونهاية هذا العالم المتحد، الذي كان قد أتاح لرحالة مثل ابن بطوطة المغربي (1304-1377) أن يسافر دونما عوائق فعلاً عبر قارة آسيا بأسرها، أدت حتما إلى بداية العودة إلى الماضي، وغالبا ما اتسم بعودة ظهور الاتجاهات الدينية

والأيديولوجية الهرطقية، كما أوجد بُعدا منكمشًا لوحدة أراضي الدولة بسبب تأسيس عدد لا يُحصى من الدول المحلية، في شرق المتوسط على الأقل، أي المشرق الإسلامي. وقد أشاحت مملكة المماليك، التي كانت في قمتها آنذاك، والتي كانت متأثرة ثقافيًا بالمغول إلى حد كبير، أشاحت بوجهها عن العالم الشرقي، كما أنها لعبت دور البطل في القرن الرابع عشر في القتال ضد الغرب المسيحي. وفي أثناء السنوات الأخيرة من الشطر الأول من القرن كانت دولة سلاطين المماليك البحرية قد بدأت تضعف. وقد تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وربما كان هو أبرز حاكم في هذا القرن، الحكم سنة 1294. وفي سنة 1303 أجهض المماليك آخر محاولة مغولية لاختراق الغرب في معركة مرج صفر، وكان توغلهم في جنوب شرق الأناضول لحظة مهمة في تاريخ المنطقة، على الرغم من الضرر الذي سببته لأرمينيا الصغرى. وعلى أية حال، فإن عملية التوسع المملوكي تعرضت للعرقلة بسبب الكثير من أبناء الناصر محمد ومماليكه الذين تدافعوا لشغل دست السلطنة بعد وفاته. وقد استمر هذا الموقف حتى بعد أن ارتقى السلطان برقوق أول المماليك البرجية تخت السلطنة سنة 1382؛ فقد قضى عهده كله يضيق الخناق على معارضيه. وكان لابد لبرقوق أن يحرز النجاح مع تيمورلنك لو لم يكن موته سنة 1398 قد حال دون مواجهة الند للند مع هذا العدو المرعب.

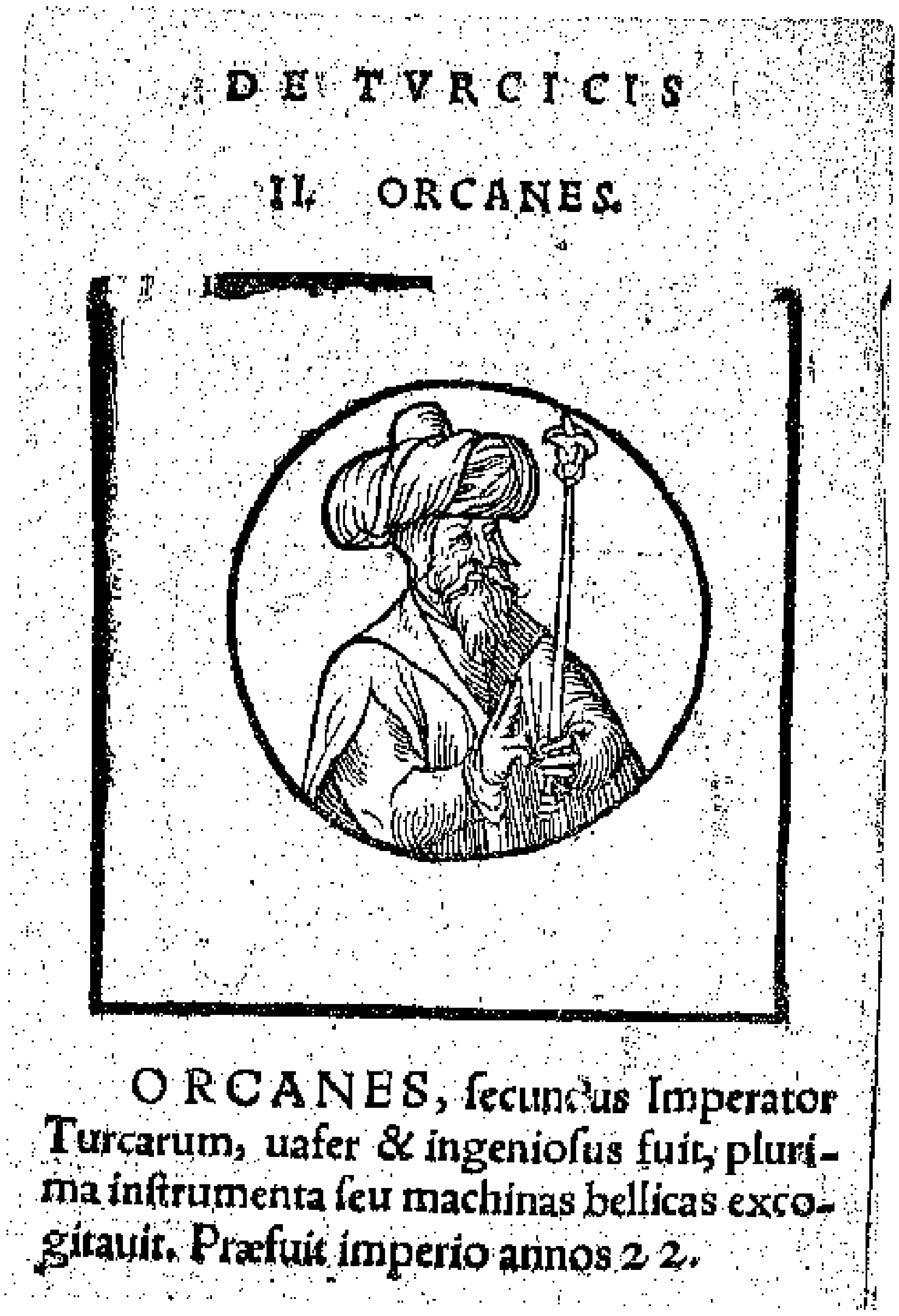

السلطان العثماني أورخان كما تم تصويره في De Origine Imperii Turcorum of Bartholomaeus Gjorgevio, 1562. المكتبة الوطنية – مدريد.

وتاريخ النصف الأول من القرن في أراضي القبيلة الذهبية عبارة عن موقف معقد. حيث فتحت حكم تختاتو خان (1291-1312) وأوزبك خان (1312-1341) وجاني بك خان (1342-1357) بقيت القوة العسكرية للإمبراطورية على حالها. وعلى أية حال، واجه خلفاؤهم عددًا من المشكلات، ليس أقلها العلاقات الصعبة مع رعاياهم الروس، وهي التي نتج عنها أن الأمير الموسوكوفي ديمتري دونسكوي رفض دفع الجزية سنة 1380. ولم يحدث أن استعادت القبيلة الذهبية حظوظها سوى بصعود طقتمش خان ما يسمى "القبيلة البيضاء" والذي كان من نسل جوشي، لفترة قصيرة من الزمان، إذ إنه وحدهم تحت حكم مملكة واحدة شاسعة في سنة 1376. واشتبك طقتمش مع تيمورلنك في عدة معارك؛ فالواقع أنه صار المناهض البارز لتيمورلنك ولكن تم القضاء عليه تمامًا سنة 1395 ومات سنة 1406، بعد أن تم تجريده من السلطة التي كان قد بناها. واستمرت المملكة المتعثرة للقبيلة الذهبية تذوي وتضمحل حتى سنة 1480 عندما قام إيفان الثالث باجتياح "النير المغولي" بشكل شامل وقضى عليه في مناطق الإستبس الروسية. وكان لابد لعاصمتها سراى أن تختفي في بواكير القرن الرابع عشر عندما دمرها تتار القرم. وقد تمتعت مملكة شغطاي بفترة ازدهار تحت حكم طغلق تيمور خان (1359-1363)، ولكن مع ظهور تيمورلنك، تم ابتلاع هذه المملكة داخل مملكة شغطاي الجديدة التي أقامها سنة 1367، وصارت بؤرة أكبر إمبراطورية في القرن الرابع عشر.

وفي شمال الهند حيث كان الغزنويون والغوريون قد نشروا الإسلام تدريجيًا فيما بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر، فإن سلالة الخلجي (1290-1320) وأسرة طغلق على وجه الخصوص (1320-1413) مدّا منطقة السيادة الإسلامية إلى جنوب الهند؛ وسرعان ما فتحوا الدكن وجولكوندا Golconda وبيجابور Bijapur في خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر. ومع هذا، وعلى الرغم من أهمية دور الحكام من أمثال فيروز شاه طغلق (1351-1388)، فإن سلطنات دهلي أيضا استسلمت لقوة تيمورلنك.

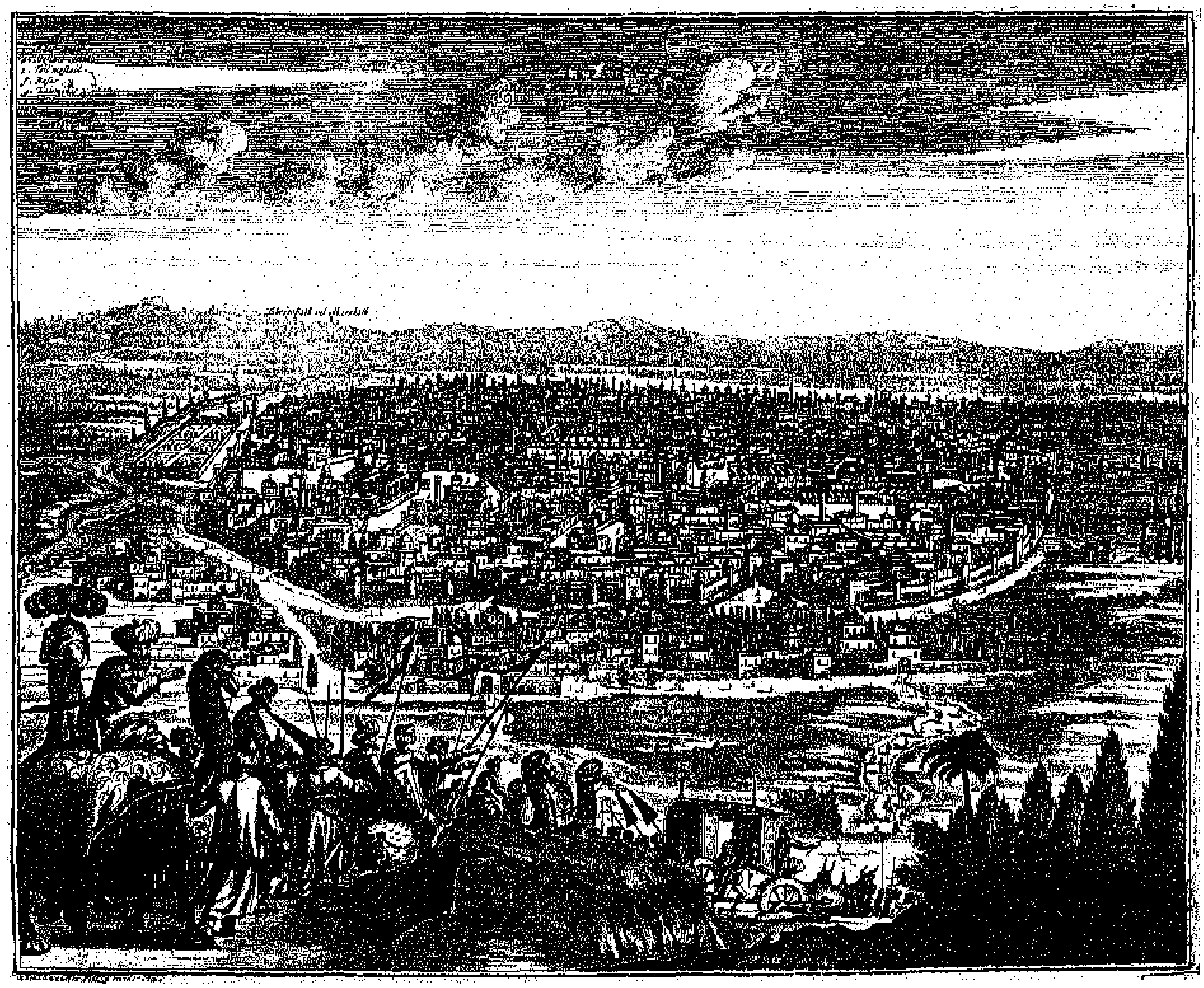

مدينة أصفهان الفارسية، حفر من La Galerie agreable du monde by p. van der Aa. 1700-1730، المكتبة الوطنية، مدريد.

ظهور الممالك الجديدة في آسيا في القرن الرابع عشر

بحلول منتصف القرن كانت آسيا الإسلامية قد تمزقت إلى عدد كبير من الممالك الصغيرة وكان مقدرًا لبعضها أن يلعب دورًا كبيرًا على مسرح العالم، على شاكلة العثمانيين، الذين سوف نتحدث عنهم فيما بعد، على حين كان مقيضًا للبعض الآخر أن يتلاشى قبل نهاية القرن نتيجة الصراعات الحتمية من أجل السيطرة على الأراضي، وأخيرًا بسبب تقدم تيمورلنك.

كانت الأناضول وإيران والعراق هي التي عانت من أسوأ تأثيرات هذا التمزق، الذي كان قد بدأ في بعض المناطق حتى قبل انهيار الإمبراطورية المغولية. ففي الأناضول (تركية الحالية) كان تدهور دولة سلاجقة الروم–الأراضي الرومانية البيزنطية سابقًا– والتي كانت تابعة للمغول منذ هزيمة قوسي دا Köse Da سنة 1243، قد أدى إلى إنهيار الدولة سنة 1307 متزامنًا مع موت آخر سلطان لها وهو غياث الدين مسعود الثالث. ولكن في أثناء الربع الأخير من القرن الثالث عشر كان هناك ممالك مستقلة مهمة قد بدأت تتشكل: مملكة القرمانيين (1256-1483) الذين كانوا من أوائل من أسسوا حكمهم في شمال شرق سلسلة جبال طوروس، والذين صاروا مستقلين بدرجة كبيرة في غضون القرن الرابع عشر. وعلى مدى ما يزيد على قرنين من الزمان كان العثمانيون منافسين لهم، وهم سلالة حاكمة ترجع أصولها إلى بيثينيا Bithynia، حيث أسسوا عاصمتهم بورصة سنة 1326 في عهد السلطان أورخان.

مع خلفاء أورخان اتخذت الأسرة العثمانية اتجاهًا إمبراطوريًا وتوسعت بسرعة في الأناضول، على حساب السلالات الحاكمة الصغيرة مثل الجيرمانيين Germiyanids

والصاروخانيين Saruhanids والآيدنيين Aydinids والمنتشيين Menteseids. وقد حدث هذا التوسع في نفس الوقت الذي حدثت فيه توسعاتهم في الأراضي الأوروبية؛ ففي أثناء حكم مراد الأول (1360-1389) ضموا الدولة الصربية القوية في بلغاريا ومناطق كبيرة من بلاد اليونان. وقد مدّ بايزيد الأول خليفة مراد (1389-1403) أملاك العرش التركي، وأخيرا أحكم الخناق حول القسطنطينية عند بداية القرن الخامس عشر. وكان بفضل وصول تيمورلنك إلى الإقليم أن تمكنت الامبراطورية البيزنطية أن تؤجل الغزو العثماني أكثر من خمسين سنة.

غزو الهند بقوات تيمورلنك، منمنمة تركية من القرن السادس عشر.

كانت هناك دول أخرى داخلة في المشهد السياسي في الأناضول، وكان يحتل الوسط قوة من أصول مغولية هم الأرطيون، الذين كانت لهم جذور قوة في إقليم سيواس (سباسطيا القديمة) أوائل القرن الرابع عشر. كانت مملكة الأرطيين قد وصلت أوجها عندما اعتلى برهان الدين العرش، على الرغم من أن الصراعات مع الأسرة التركمانية آق قويونلو (أي تركمان الشاة البيضاء) قد أنهت حكمها في سنة 1398. وكان الآق قويونلو اتحادًا قبليًا من إقليم البونتس Pontus وخلق تحالفات مصاهرة قوية مع إمبراطورية آل كومنين المجاورة في طرابيزون. وعلى الرغم من أن المعروف عن بدايتها خلال النصف الأول من القرن فإن ظهور قره يولوك سنة 1378 أعطى الأسرة منحى إمبراطوريًا، ووسعت أملاكها رويدًا رويدًا في شرق الأناضول، وإقليم ديار بكر (آمد القديمة) ثم داخل جزء من أذربيجان. وكان الآق قويونلو يواجهون منافسة من الاتحاد القبلي للقره قويونلو (أي تركمان الشاة السوداء) الذي كان قد تأسس بقوة في أذربيجان وكانت جذوره ترجع أيضا إلى بلاد ما بين النهرين. وكان التحالف بين هذا الاتحاد القبي والعثمانيين أحد أسباب غزو تيمورلنك للأناضول، مما تسبب في تراجع خان قره يوسف، الذي كان عليه أن يعود إلى العاصمة تبريز سنة 1406. وقد استمرت الأسرة حتى انهيارها النهائي على أيدي الآق قويونلو سنة 1468.

أما في إيران فقد تسبب انهيار دولة المغول في تأسيس عدد من الدول. ويمكن القول إن الجلائريين (سلالة من أصل مغولي كانت نشيطة بالفعل خلال حكم أبي سعيد آخر الإيلخانيين) كانت تابعين متأخرين للسياسات المغولية في غرب إيران. وبرزوا خلال عهد حسني بوزورج (1336-1356) ووجدوا أنفسهم مجبرين على أن يكافحوا ضد تقدم تيمورلنك، وفي الجنوب الشرقي سيطر المظفريون، وهم أسرة حاكمة عربية من جنوب خراسان، على مساحة كبيرة من جنوب إيران، وبصفة أساسية إقليم يزد وإصفهان وفارس. وشأن الدول الصغيرة الأخرى، عانى المظفريون من غزو تيمورلنك العنيف داخل إيران، وانتهت سلالتهم في سنة 1393 بتدمير العديد من المدن بما فيها إصفهان التي كانت مسرحًا لأكبر مذبحة في التاريخ. وفي شمال شرق فارس في القرن الرابع عشر ظهرت دولة أخرى، هي ما تسمى جمهورية سربدار Sarbedar؛ وقد برزت بسبب أنها تبنت الاتجاهات الشيعية منذ وقت مبكر، وهو ما نتج عنه قيام الصفويين سنة 1501، عندما أعلنت هذه الأسرة أن المذهب الشيعي مذهب الدولة، وبذلك نشأت الدولة التي هي جمهورية إيران اليوم تقريبا.

قوة تيمورلنك ودولته عند نهاية القرن الرابع عشر

ورد ذكر تيمورلنك في عدة مناسبات بسبب دوره في انهيار الدول التي ظهرت في آسيا إبان القرن الرابع عشر. فقد كان ينحدر من قبيلة تركيك بارلاس في كيش (وهي اليوم شهر سبز) فيما وراء النهر. وقد تمكن من السيطرة على بقايا مملكة شغطاي خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر وتم إعلانه أميرًا في بلخ سنة 1370، مفتتحا بذلك الفصل الإمبراطوري الباهر في عهده. وبوصفه أحد الشخصيات البارزة في القرن الرابع عشر، استطاع تيمورلنك بمهارة أن ينسب لنفسه كافة الخصال لأولئك الذين كانوا يشتاقون إلى مولد إمبراطورية تستعيد عظمة إمبراطورية المغول الكبرى. وباتجاه هذه الغاية قاد التحالفات القبلية – عن طريق المصاهرة – مع أحفاد جنكيزخان ولم يلبث أن صار حاكم مملكة شغطاي دون منازع.

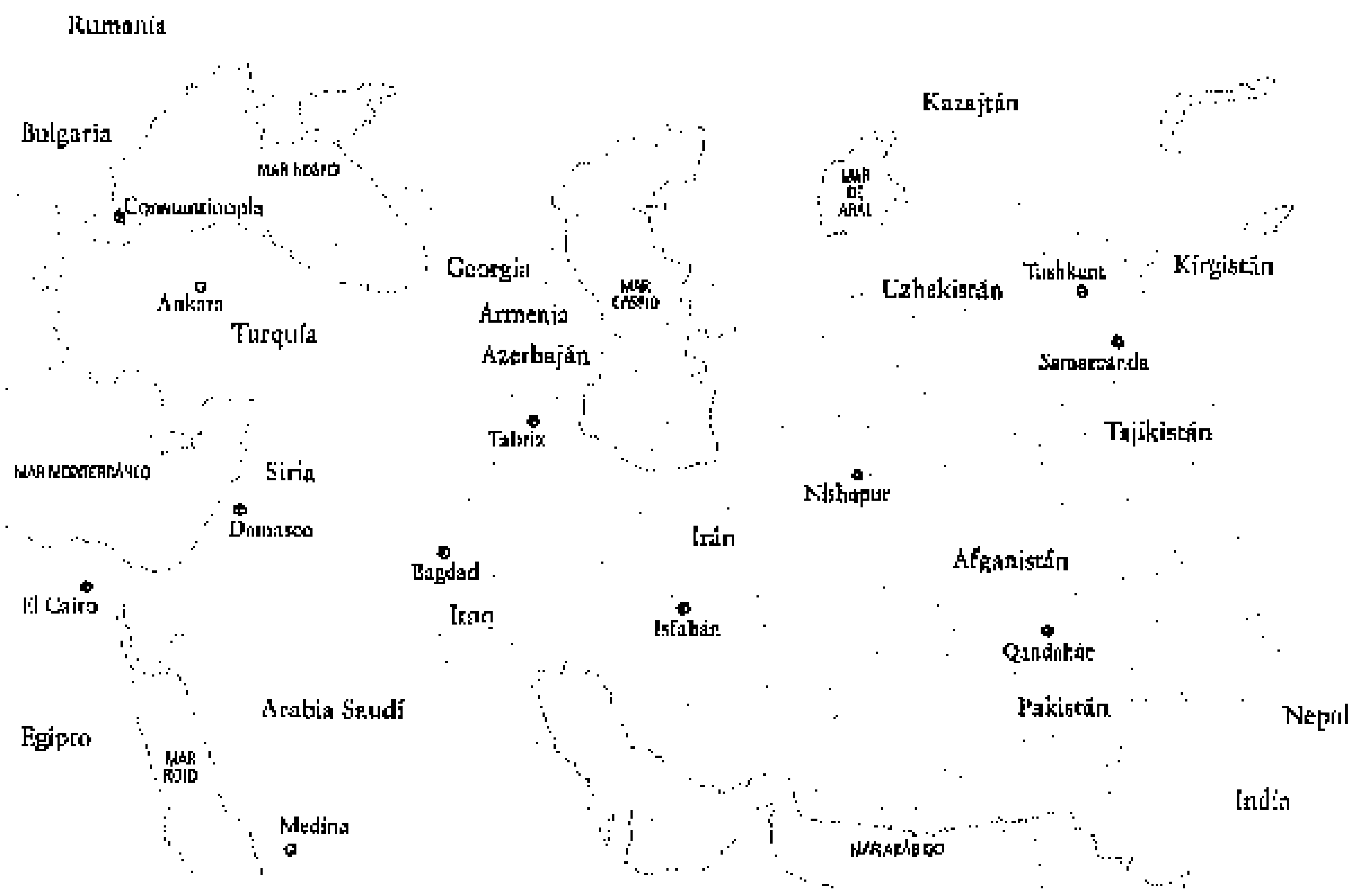

خريطة إمبراطورية تيمورلنك.

وما إن تغلب على العقبات التي كانت تعرقل صعوده إلى العرش فيما وراء النهر، حتى استأصل شأفة الدول المجاورة، وخاصة تلك التي اعتبرت دولاً للصوفية وتم تأسيسها في خوارزم في سنة 1372 ومملكة قمر الدين المغولية في الشرق. ثم تحول تيمورلنك بانتباهه إلى التوسع. ففي حملاته خارج آسيا الوسطى، كانت إيران أول أهدافه. وربما كانت الأسباب وراء ذلك اقتصادية، لاسيما أنه كان يريد السيطرة على الطريق الممتد ما بين شمال فارس والأناضول، ليربط بين المدن الكبرى في آسيا الوسطى، وكذلك طريق الحرير الذي ينتهي عند تبريز والقسطنطينية في الغرب. وثمة سبب آخر، وهو سبب إيدلوجي، كان هو رغبته في الاستيلاء على ممتلكات الإمبراطورية الايلخانية، وكانت مقاصده متشابهة، أن يستولي على بغداد لكي يكون على مسافة يمكن منها ضرب الأراضي المملوكية. وكانت أولى ضحايا التوسع أسرة الكرتيين Kartid، التي كانت قد بقيت في هراة في العصر المغولي، وقد سحقها بسرعة، وبذلك فتح الطريق إلى المرتفعات. ومضى التوسع قدماً وفي غضون سنوات قليلة كان تيمور قد وصل إلى الدولة الجلائرية في أذربيجان، والتي كان حكام مملكة شغطاي قد أخضعوها، وابتلع سربدار في خراسان وغيرها من القوى الصغيرة في طريقه. وبحلول سنة 1386 كانت الأرض ممهدة للهجوم النهائي على المرتفعات الإيرانية.

وعلى أية حال، انقطع الاندفاع بظهور طقتمش، الذي كان آنذاك سيد القبيلة الذهبية، والذي هاجم تبريز في سنة 1386 وبرهن على كونه أقوى خصوم تيمورلنك. وقد استغرق الأمر ثلاث سنوات من تيمورلنك لكي يدفع هذا التهديد، على الرغم من أنه لم ينجح في هزيمة عدوه، الذي برز على السطح مرة أخرى في مناسبتين أخريين. كان غزو جنوب إيران دمويًا بشكل لافت للنظر، حسبما ذكرنا من قبل، وانتهى بالهزيمة الساحقة للأسرة المظفرية في ثمانينيات القرن الرابع عشر. وعند بداية العقد التالي، كان على تيمورلنك أن يوقف طقتمش مرة أخرى. وتقدم صوب طوبولسك Tobolk في سيبيريا واشتبك في معركة غير حاسمة مع جيش العدو في الأورال، وفي سنة 1395 قاد طقتمش الهجوم الأخير وأجبر تيمورلنك على أن يلجأ إلى موقع على مسافة مائة كيلو متر من قازان حيث اشتبك في معركة أخرى غير حاسمة، وقرر المنافس المنتمي للقبيلة الذهبية أن "يفك خيامه" مرة أخرى. وما إن تم الاستيلاء على سراي، عاصمة القبيلة الذهبية وهُدمها، لم يعُد طقتمش يمثل تهديدًا حتى على الرغم من أنه نجا من تيمورلنك، ومات سنة 1406.

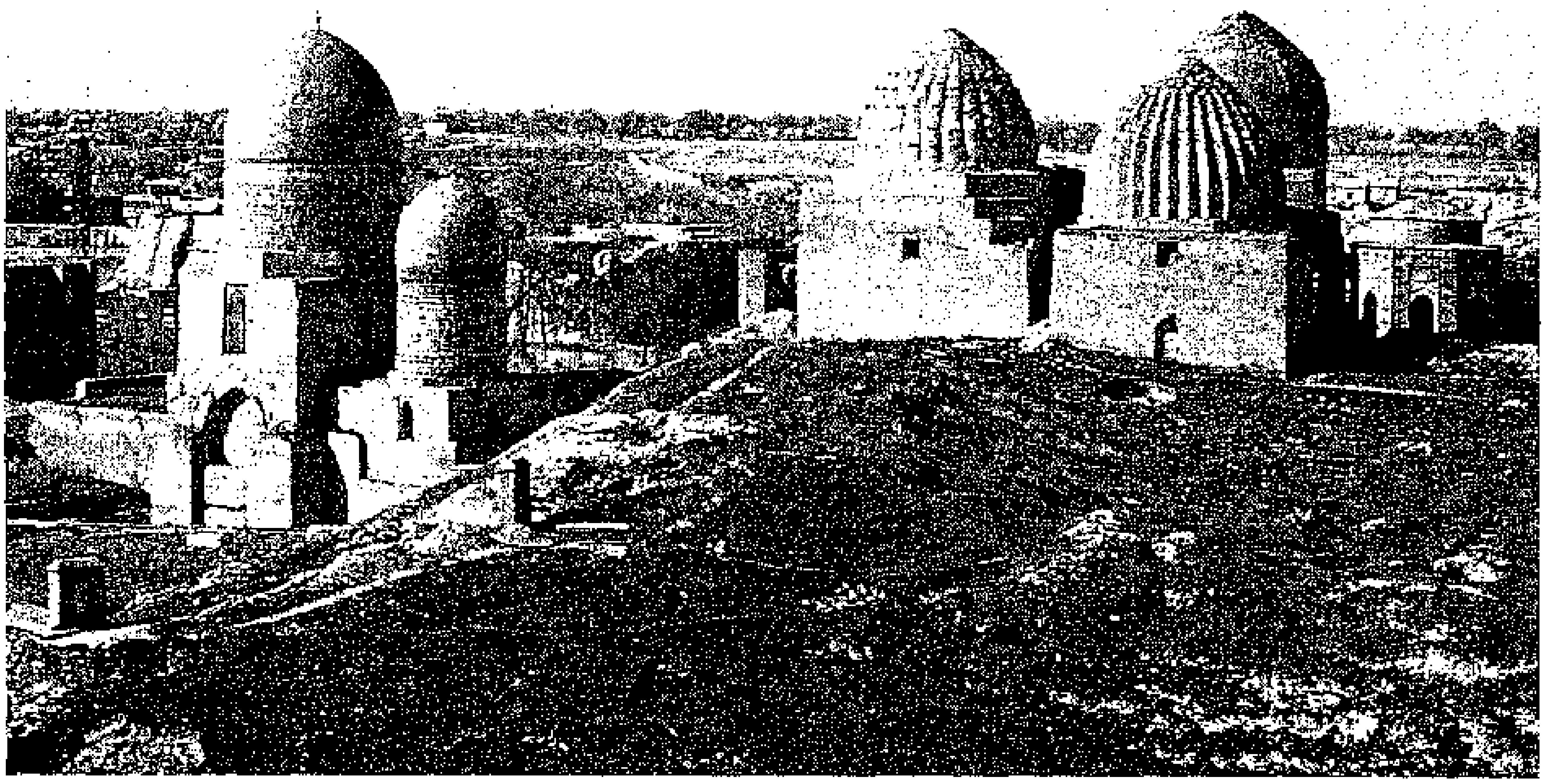

منظر سمرقند.

وفي الحال تحولت مشروعات تيمورلنك إلى مقاصد جديدة. ولكي يُضفي تيمورلنك الشرعية على وضعه كحاكم عالمي أقام آلة دعاية أيديولوجية ضخمة الأبعاد، وكان دافعها الأساسي خطته لبناء إمبراطورية عالمية، وهو هدف جعل من "الغزوة" أي غزو دار الكفار، أمرًا ضروريًا. وفي القرن الرابع عشر ألهمت هذه الروح أيضًا إمبراطوريات أخرى (مثل مصر في عصر المماليك والإمبراطورية التي كونها العثمانيون) كان حكامها قد رأوا في أنفسهم غزاة مجاهدين. وعلى أية حال، كان تيمورلنك يطرح نفسه باعتباره بطل الإسلام، خاصة مع قراره بشن حملة لغزو الهند، وبذلك سار على نهج غزاة قدامى، مثل محمود الغزنوي، قائد جيوش الغزنويين التي احتلت جزءًا كبيرًا من شمال الهند في القرن الحادي عشر.

كان النصر المدوي الذي أحرزه السلطان العثماني بايزيد الأول في نيقوبوليس سنة 1396 على التحالف الأوروبي بقيادة سيجيسموند ملك المجر قد حفز تيمورلنك على أن يواصل الضغط في مغامرته الهندية. وفي سنة 1398 عبر نهر الهندوس إلى الملتان ثم إلى دلهي، ووضع السيف في مدن بأسرها. وبعد أن هيمن على جيش طُغلق القوى شق طريقه إلى مصب نهر الجانج وعاد إلى سمرقند في إبريل 1399.

ومن هناك عاد تيمورلنك باتجاه الغرب مرة أخرى، وبعد ذلك هزم المماليك في الشام ومصر وفلسطين، وأخيرًا تصدى لقتال أخطر الخصوم في ذلك الحين؛ أي السلطان العثماني بايزيد الأول. وكانت المعركة الحاسمة في أنقرة سنة 1402 وأسر بايزيد الأول قد وضعت حدًا لطموح العثمانيين إلى حين، وتسببت في حرب أهلية شرسة استمرت على مدى عشر سنين. وإذ كان تيمورلنك على قمة قوته آنذاك، فقد قرر أن الوقت قد حان لمهاجمة دولة كافرة أخرى كبرى في آسيا، وهي دولة مينج في الصين. وعلى أية حال، فإنه مات أثناء حملته بمرض مفاجئ في فاراب في 18 فبراير 1405، وفي الحال بدأت إمبراطوريته طريق التدهور، واختفت تماما سنة 1507 عندما فتح الأوزبك الشيبانيون هراة، آخر عاصمة باقية من الدولة التي بناها تيمورلنك.

تأملات حول القرن الرابع عشر

يقدم شخص ابن خلدون عناصر مثيرة لتقويم آسيا القرن الرابع عشر بشكل عام. إذ إن لقاءه الشهير مع تيمورلنك في دمشق سنة 1401، كان موضوع دراسة رائعة قام بها والتر فيشيل Walter J. Fischel تتيح لنا أن نسبر غور مختلف جوانب الحدث التاريخي، لأنها تعول على السيرة الذاتية للكاتب المغربي الذي وصف "سلطان المغول والتتر"، أي تيمورلنك. لقد كان ابن خلدون مكرها حقًا في المقابلة مع تيمورلنك. وفي البداية أمطره الخان بالأسئلة ثم أمره أن يكتب وصفًا للمغرب ثم انبهر بعد ذلك بابن خلدون، الذي قدم خطابًا معقدًا عن الأنساب مؤكدًا بشكل جوهري على الأصول النبيلة للشعوب التركية، الذين ورثوا دماءهم النبيلة في زعمه من خلال روابطهم بفارس. وبواسطة استطراد– أو لاحقة منطقية مثيرة– على مفهوم الملكية، قصد ابن خلدون أيضًا أن يقدم برهانًا على الأصول النبيلة لتيمورلنك ليصل بها بعيدا حتى نبوخذ نصر.

تفصيل من بلاط المغولي الكبير،
منمنمة من أوائل القرن الثامن عشر،
المكتبة الوطنية – مدريد.

بهرام جور يصيد الحمير الوحشية،
منمنمة من شاهنامة المغول الكبرى
التي كتبها الفردوسي، حوالى 1335-
.1336

وفي الوقت نفسه لاحظ بلترامو دي ميجناناللي، وهو إيطالي من سينا، الدمار الذي أحدثه تيمورلنك بالإمبراطورية المملوكية وكتب كتابه عن تيمورلنك الذي يحمل عنوان De Tamburlano، عن حاكم آسيا الوسطى، الذي كان ملهمًا لطائفة كبيرة من كُتب الأدب الإنساني، وكان كتاب الأمير لمكيافيللي واحدًا من هذه الكتب، ويبدو أن ابن خلدون قد تأثر بنفس القدر الذي تأثر به الكاتب الإيطالي بشخصية تيمورلنك الجبارة، على الرغم من أنه أيضا وجد آسيا مثيرة من جوانب أخرى، حسبما اتضح من أفكاره عن الأتراك والفرس، ومن المحتمل تمامًا أنه كان يردد أصداء آراء كانت ذائعة على نطاق واسع لدى معاصريه. وبينما يعترف بنهاية الهيمنة العسكرية والسياسية الفارسية، التي تجاوزتها السلالات الحاكمة التركية، ثم تيمورلنك، فقد أوضح ابن خلدون أهمية الإسهام الثقافي الفارسي. ويمكن أن نجد الدليل على هذا في كتاب العبر الذي يؤكد فيه الكاتب التونسي إسهامات فارس العظيمة في المعرفة، مثل إسهامها في العلوم من خلال الطوسي، والرازي، أو في الكتابة التاريخية بالكتاب العظيم "جامع التواريخ" الذي كتبه رشيد الدين فضل الله، وهو كتاب عمدة في تاريخ أوائل القرن الرابع عشر.

هذا الاعتراف بتفوق الثقافة الفارسية في آسيا يتوافق مع ما حدده بيرت فرانجر Bert G. Franger بشكل صحيح على أنه التوهج الأخير لازدهار حضارة كانت على الرغم من خضوعها السياسي ذات سلطة ثقافية على المجتمعات التي تمثل معظم المشرق الإسلامي ذلك الوقت. والواقع أنه إذا كانت آسيا الإسلامية في القرن الرابع عشر محكومة بالأتراك من الوجهة السياسية والعسكرية (أي الأناضول وجزء كبير من إيران وجزء من الهند)، فالصحيح أيضًا أنهم استخدموا اللغة الفارسية لغة رسمية وكان الأدب الفارسي هو الذي ازدهر في بلاطهم. وحتى عندما بُذلت محاولات على استحياء لاستخدام اللغة التركية في البروتوكول – كانت الحالة الوحيدة الأسرة القرمانية في القرن الرابع عشر– لم تكن سوى رد فعل إزاء سيادة استخدام اللغة الفارسية.

وفي إيران القرن الرابع عشر عاش الشاعر الكبير حافظ، الذي نظم قصائد شهيرة في الغزل بالبلاط المظفري، وقدم بذلك نوعًا أدبيًا كان لابد له أن يؤثر في الشعر الفارسي على مدى قرون قادمة. وكانت له أيضا مقابلة شهيرة مع تيمورلنك وعلى الرغم من أنها امتزجت بالأسطورة– مثل سيرته كلها– فإنها تقدم لنا إحساسًا حيًا بالتناقض الثقافي الواضح بين السادة الأتراك– المغول وبين الفرس المحكومين. لقد عاش حافظ في شيراز، وهي بيئة اتسمت بالازدهار الاقتصادي للمراكز الحضرية –وهو أحد ملامح الأناضول وإيران– حيث استعادت المدينة أهميتها التي

كانت قد فقدتها بعد الغزو المغولي. وكان لأشعار أحد معاصريه أن ترسم صورة مثيرة للعواطف بفخامة عن ذلك العالم وحيويته الثقافية الدافقة.

أما في أي مكان آخر، في الهند مثلاً، فقد حظي الأدب الفارسي بعصر ذهبي. وهناك مثال مهم على هذا الازدهار يمكن أن نجده متمثلاً في شخص أمير خسرو من دلهي (1253-1325) وهو شخص متعدد المعارف له إنتاج غزير ارتقى بالطراز الملحمي والغنائي إلى ذروة الكمال. وهناك كتاب آخرون أقل شهرة، على الرغم من أنهم ليسوا أقل أهمية في هذا، كانوا ينظمون الشعر في جميع أنحاء آسيا الإسلامية، مثلما فعل كمال خوجندي (الذي توفي حوالي سنة 1400 في تبريز) وعزيز الأسترابادي وهو مؤرخ في بلاط الأرطيني برهان الدين بسيواس (في الأناضول) في النصف الثاني من القرن الرابع عشر. ويصف لنا النشاط المكثف لمؤرخي القرن، بادئًا بالمؤرخ الذي ذكرناه سابقا رشيد الدين الهمذاني في القرن الرابع عشر الذي ألف كتابه الموسوم "جامع التواريخ"، وهو أول وصف منهجي للعالم- بما في ذلك العالم الواقع وراء حدود دار الاسلام، وعلى الرغم من أن مؤلفات تاريخية أخرى واصلت التراث المسرف في الزخرفة والذي بدأ في القرن الثالث عشر على يد الجويني؛ كاتب الملحمة الشهيرة عن جنكيزخان فإن كتّابًا مثل عزيز الاسترابادي، وأبي بكر الطهراني، وكتابًا عرب مثل ابن عربشاه، غرسوا أنواعًا أدبية مختلفة، وأبرزها السيرة الذاتية.

وفي مجال الدين، يمكن وصف القرن الرابع عشر بأنه منجم تستخرج منه الدول المختلفة للبناء السياسي لنظم فقهية سنية جديدة، اتخذت اتجاهات مختلفة. وقد حاول العثمانيون، الذين اتخذوا المذهب الحنفي مذهبًا رئيسيًّا، أن ينظموا قاعدة فقهية لكي يوسعوا من نطاق أهداف برجماتية معينة. وفي الأماكن الأخرى كانت هناك محاولة للتوفيق بين القانون العرفي المغولي (الياسة) وما تمليه الشريعة الإسلامية. وفي حالة تيمورلنك غالبًا ما اصطدم هذا بالاستخدام الانتهازي للدين في الاستراتيجيات التوسعية للغزاة الشغطائيين، وبالنسبة للمذهب الشيعي ربما يمكن القول إن القرن الرابع عشر كان يشكل فترة مهمة للنمو تنبثق من الحركة تجاه تفسير سياسي ودعائي للطريقة الصفوية التي ترجع جذورها إلى أذربيجان. وكان لهذا أن يفضي إلى الصدام المباشر مع العثمانيين في القرن الخامس عشر.

مشهد لحلقة صوفية، مخطوط مذهب لشعر حافظ، المتحف الوطني، دمشق.

وبالإضافة إلى التعقيد الديني لجهاز الدولة، لم يكن هناك أي قصور في القلق الصوفي، والذي كان ينبثق غالبًا من اعتناق المغول الإسلام. ومن ناحية كانت هناك في الشرق حركة زهد صوفية شكلت عددًا من الحركات الدينية، بأصول روحية كما هو الحال مع المذهب الحروفي. وقد أسسه فضل الله الاستراباذي الذي أنشأ قبل موته سنة 1401 على يدي أحد أبناء تيمورلنك، وهو ميرانشاه، مذهب "الحروف" الذي استلهمه من نماذج نسكية سابقة، ولاسيما ابن عربي (ت. 1240)، وهناك اتجاهات أخرى، مثل ميلاد تقاليد للأدب التركي وظهور أشكال أصيلة من الفكر الديني بصورة مطردة في هذا المجال.

وأخيرا، يجب أن نرى القرن الرابع عشر باعتباره فترة استثنائية بالنسبة للفنون وأكثر المخطوطات الفارسية الموشاة بالمرسوم رقيًا بين ما نعرفه عن أوائل هذه المخطوطات هي تلك التي تم تأليفها في ورش الدولة الإيلخانية، في الموصل وتبريز. إذ إن شاهنامة المغول الكبرى (1317-1335) كتبت في تبريز، وعلى الرغم من أنه من المحزن أنها قد تمزقت، فإنها تبقى أحد أهم أعمال الفن الفارسي الذي سوف يظهر بعد قرن من الزمان بفضل إسهام أحفاد التيموريين. ما يستحق الملاحظة بشكل خاص هو فن سياه قلم؛ وهو فنان انتقائي قدم رسوما حية للملابس المغولية والفارسية عند نهاية القرن، وربما كان يصور بلاط تيمورلنك.

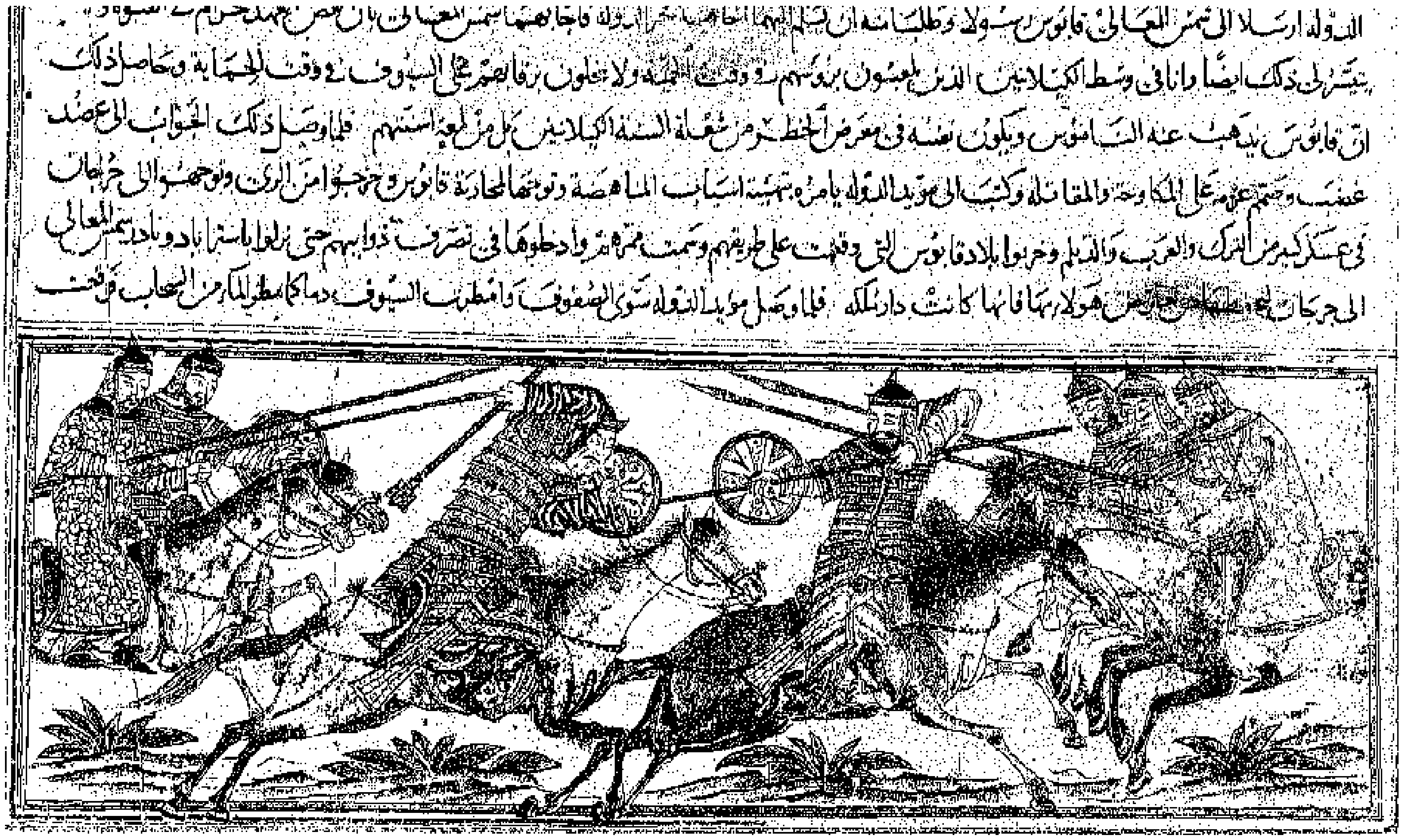

تفصيل من مخطوطة «جامع التواريخ» للمؤرخ رشيد الدين، أوائل القرن الرابع عشر، مكتبة الجامعة- إدينبرج.

وفي أثناء القرن الرابع عشر كان البناء المفخم من خصائص العديد من الأعمال عبر آسيا، ففي السنوات الباكرة كانت إيلخانية أولجايتو مسئولة عن بناء ملجأ تمت مقارنته بعمارة Brunelleshi بسبب بنائه الفذ. وفي الوقت نفسه بالهند ظهرت أعمال أخرى مثل المباني التي شيدها الملك الطغلقي فيروز شاه (1351-1388)، وكانت هذه بدورها إلهامًا لإعادة بناء سمرقند على يدي تيمورلنك عند نهاية القرن. والجامع الرئيسي في سمرقند الذي أخذ اسمه عن بيبي خانوم، إحدى زوجات تيمورلنك، ومقبرة شغطاي الحاكم (جور أمير) يقفان شاهدين على المعادلة الناجحة التي ستسود فيما بعد في جميع أرجاء آسيا الإسلامية.

مملكة مالي في القرن الرابع عشر وفقًا لابن خلدون ومعاصريه

عبد الواحد أقمير
جامعة محمد الخامس- الرباط

ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

بدأت المعلومات المتعلقة ببلاد السودان في الظهور في المصادر العربية للعصور الوسطى، منذ الزمن الذي تحولت فيه تلك البلاد إلى الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي. وكان الجغرافي الأندلسي البكري أول من قدم لنا معلومات هامة. ومع ذلك، فإن المصداقية الضرورية لم تتم حتى القرن الرابع عشر الميلادي عندما كتب ثلاثة من المؤرخيين العرب لهذا القرن عن مملكة مالي، وكانت في ذلك الوقت في ذروة عصرها الذهبي. وهم ابن خلدون والعمري وابن بطوطة.

وتحتوي أعمال الأول (المقدمة والعبر، الجزأين السادس والسابع) معلومات عالية القيمة. وكما أخبرنا بنفسه، فقد استمد مصادره من روايات شفوية أو سمعية، وكان رواته اثنين بشكل أساسي: قاضٍ مغربي من مدينة سجلماسة قضى سنوات كثيرة في مالي، وعليه اعتمد مؤرخنا، وفي كلماته "بكم عظيم من كتاباتي عن تلك الممالك": وشيخ من مالي قابله ابن خلدون في مصر في سنة 799 هـ (حوالي سنة 1397)، وكان شخصًا عظيم المعرفة، والتقوى، والسمعة.

وروى كلاهما أحداثاً كشهود عيان لها مما سمح لابن خلدون بالكتابة عن أحداث حدثت في زمنه (أو ما يعرف اليوم بالنسبة له بالتاريخ الحديث). ويغطي تأريخ ابن خلدون عن مالي أحداث حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي (بالضبط بضع سنوات قبل موته). وأكمل المؤرخ المغربي العظيم تلك المعلومات ببيانات مأخوذة من كتب أساسية عن الموضوع، وبخاصة بسط الأرض بين الطول والعرض لابن سعيد، والمسالك والممالك لابن خرداذبة.

ومؤرخنا الثاني هو الجغرافي الدمشقي ابن فضل الله العمري، الذي كرس فصلين من مؤلفه مسالك الأبصار لمملكة مالي ولقد أخذ هو أيضاً قاعدته من تاريخ شفهي. وكان من بين مصادره تجار مصريون ترددوا على مالي، وكانوا أعضاء في الحاشية التي صاحبت منسا موسى (إمبراطور مالي) إلى مصر، وأمراء مماليك سمعوا الملك نفسه يقص أحداثًا تتصل ببلده. ومؤلف العمري يؤرخ من سنة 1336، كما يمكن أن يدرك من المعلومات التي يحتويها.

والمؤرخ الثالث الرحالة الطنجي الشهير: ابن بطوطة الذي سافر إلى مالي حوالي سنة 1352. واستمرت إقامته هناك مدة عامين، وهي تعتبر رحلته الأخيرة.

وفور عودته إلى المغرب قدم روايته للغرناطي عبدالله بن جزي، الشاعر الشهير وكاتب البلاط المريني ولأنها كانت رحلته الأخيرة، كان ابن بطوطة قادرًا على أن يجعل روايته أكثر تفصيلاً من رحلاته السابقة، لأن الأحداث كانت لا تزال حديثة في ذاكرته. والجزء الأعظم من الفصل السادس عشر في مؤلفه تحفة النظار يتعلق بتلك الرحلة.

وعمل مؤرخينا الثلاثة يمنحنا تبصرًا واضحًا نحو مملكة مالي في القرن الرابع عشر الميلادي لاسيما وأنه روي من خلال أعين العالم العربي المعاصر.

ولقد اخترنا جانبين لإحداث مقارنة بين المصادر الثلاثة: مظاهر الحياة السياسية في مملكة مالي: والعلاقات بين تلك المملكة وبعض الأمم العربية.

مظاهر الحياة السياسية

ابن خلدون هو مؤرخ العصور الوسطى الوحيد الذي يزودنا بسرد للملوك الماليين، منذ تأسيس السلالة الحاكمة في ثلاثينيات القرن الرابع عشر حتى بداية تدهورها في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي. وهو يذكر ثمانية عشر ملكا ويعطي تقريبًا مدة حكمهم كلهم. وبالتالي يمكن أن يدرك

أن أطول عهود حكم كانت عهود ماري ياتا الأول Mary Yata I (1230 - 1255)، ومنسا موسى Mansa Musa (1312 - 1337)، ومنسا سليمان Mansa Sylayman (1341-1360)؛ والأقصر كانت عهود سنيدي جاي Sendey Gay، الذي شغل العرش لبضعة أشهر فقط حوالي سنة 0931.

ومن بين الثمانية عشر ملكًا الذين أوردهم ابن خلدون ربما يكون محمد بن كو Muhammed Ben Koo (1305 - 1310) الأكثر حبًا للاستطلاع في كل السلالة المالية الحاكمة، وفي الواقع، فإن العمري يزودنا بمعلومات عالية القيمة عنه رواها ابنه وخليفته منسا موسى Mansa Musa الذي كشف أن ولع أبيه بالملاحة قاده لاستكشاف حدود المحيط. واستلزمت محاولته الأولى حملة من أربعمائة سفينة، عادت من بينها واحدة فقط. ولأن هذا لم يرض حبه للاستطلاع، قرر المنسا الفضولي أن يكون بنفسه على رأس حملة جديدة، وضمت في تلك المناسبة أربعة آلاف سفينة، لم يسمع منها ثانية أية أخبار للأبد.

جانب آخر كتب عنه ابن خلدون هو اتساع مملكة مالي. ووفقًا له، فقد استطاع الماليون هزيمة كل الممالك المجاورة بما فيها غانا، وهكذا تشكلت إمبراطورية واسعة تمتد من الأطلسي غربًا، وتكرور Takrur شرقًا، وحتى موريتانيا في وقتنا الحاضر شمالًا، والغابة الاستوائية جنوبًا.

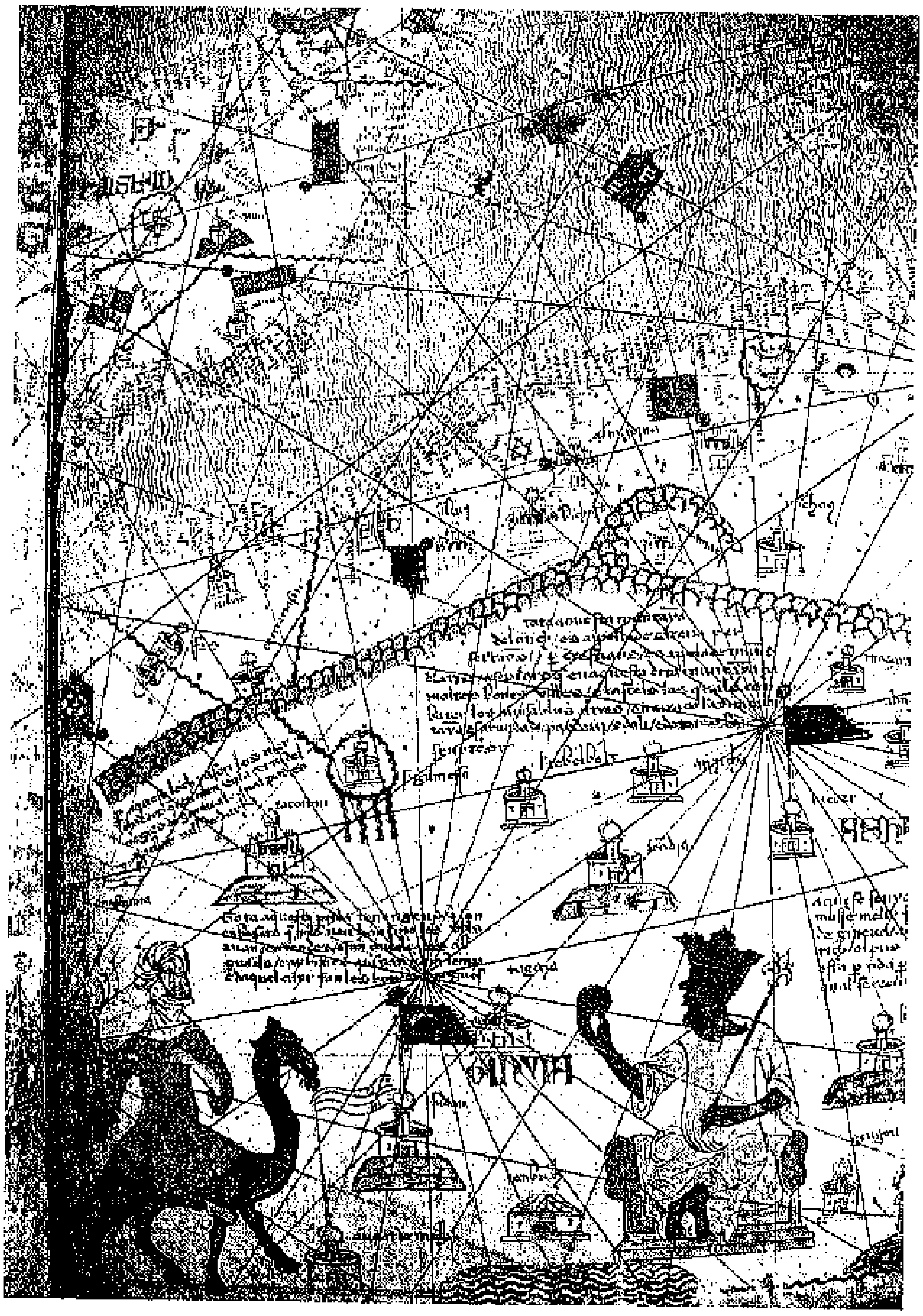

تفصيل لأطلس قطلوني من عمل أبراهام كريسك Abraham Gresques: يصور ملك مالي بجوار تمبكتو Timbutu. نحو الشمال، المغرب، البحر المتوسط وشرق شبه الجزيرة الأيبيرية، المكتبة الوطنية- باريس.

ووفقاً للعمري، صرح منسا موسى فيما يتعلق بإتساع مملكته - بأنه يتطلب سنة على الأقل للسفر من الشمال إلى الجنوب، وسنة أخرى للسفر من الشرق إلى الغرب. ويذكر العمري أيضًا مصدرًا آخر: شهادة مغربي شكل عضو في حاشية المنسا المذكور آنفًا. هذا المصدر -الذي يمنحه العمري مصداقية كبيرة- أكد له أن الزمن المطلوب لعبور مالي من الشمال إلى الجنوب كان أربعة أشهر.

وفيما يتعلق بتوزيعها الإداري - ومرة أخرى وفقاً للعمري - فقد كانت مالي مقسمة إلى أربعة عشر إقليماً ضخماً، وأربع وعشرين مدينة وقرى كثيرة وباستثناء إقليم غانا، الذي تمتع بوضع خاص، كانت البقية تحكم بواسطة نائب للملك معين من قبل المنسا.

وكانت القوات المالية التي فتحت الممالك المجاورة ضخمة، ويذكر العمري جيوشًا تزيد عن المائة ألف جندي كان عشرة آلاف منهم من الفرسان. وكانت الاعتمادات المالية المقدرة لتسليح الفرسان ضخمة. ويخبرنا ابن بطوطة أن مائة مثقال mitqals ذهبي كانت تدفع لكل حصان يستورد من المغرب.

سمح كل ذلك لمملكة مالي الوصول لأوجها في القرن الرابع عشر الميلادي. على الأقل ذلك هو ما نحن مقادين لتصديقه من قبل مصادرنا الثلاثة. اعتبر ابن خلدون منسا موسى بكونه

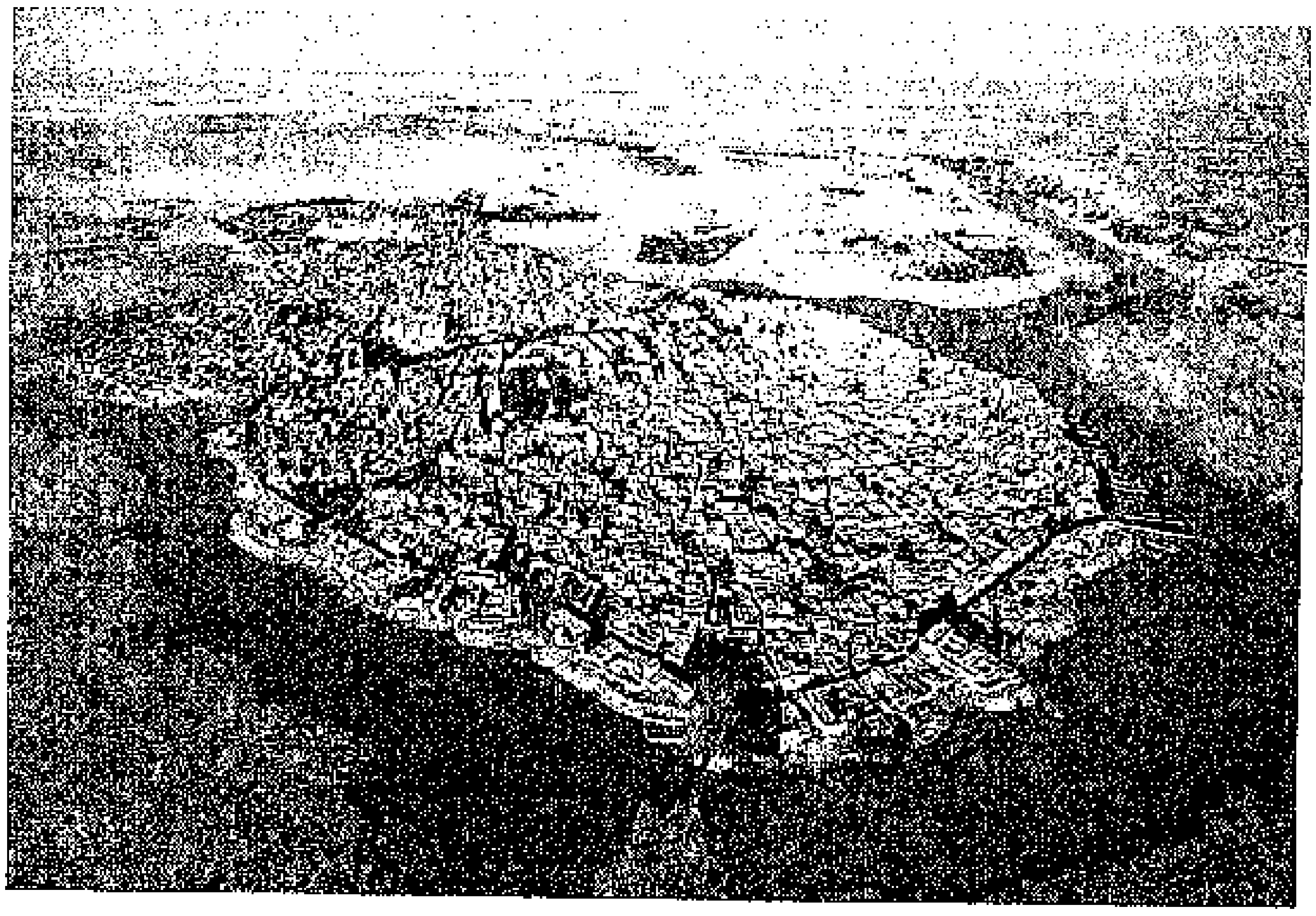

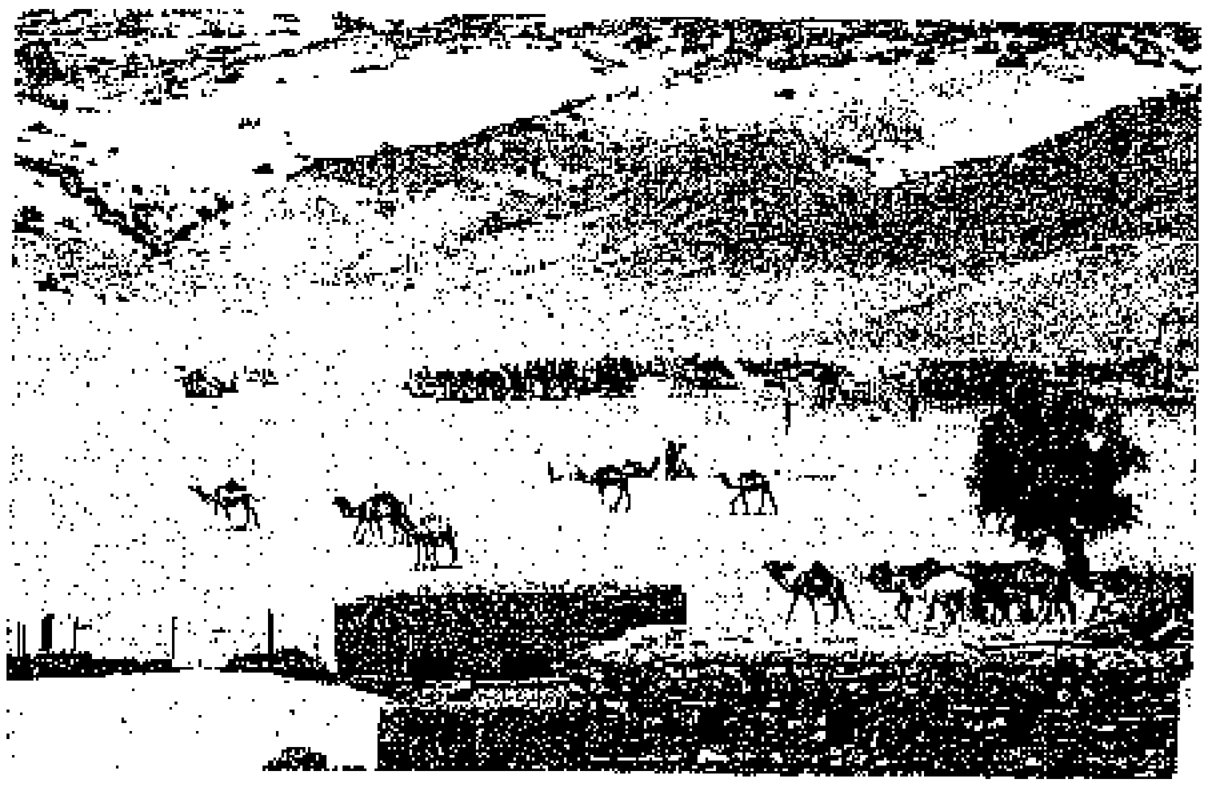

أعلى: صورة جوية لقبلي Djenne، مالي، بجانب واحدًا من أحد نهر النيجر.

أسفل: ولاتة: في صحراء موريتانيا.

الأكثر مجدًا في السلالة المالية الحاكمة ويصفه كـ"ملك عظيم" الذي دعمت انتصاراته سطة الشعب المالي، وجعلت منهم قوة تخشاها كل أمم السودان. ويختلف رأيه قليلاً عن العمري على الرغم من أن الأخير يعتبر سليمان – خليفة موسى – بـ"الأعظم، رئيس المملكة الأضخم، والجيش الأكثر عددًا، الأشجع، مالك الثروة الأضخم بين كل الملوك المسلمين للسودان".

ومع ذلك، فالإعجاب بسليمان الذي يعبر عنه العمري، لا يشاطره فيه ابن بطوطة الذي عرف الملك شخصيًا. ويرى أن الشعب كرهه لجشعه، وأن هناك مؤامرات ضد مملكته. مثال ذلك مؤامرة دبرت بواسطة الملكة (زوجته الأولى)، وعائلته، وبعض القادة العسكريين.

ونحن لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة أن رأي ابن بطوطة غير المتملق ربما يكون لأسباب شخصية. ولقد اعترف بنفسه بأن رجاءه قد خاب للكرم الضئيل الذي أظهره له منسا. فعندما علم أن منسا أرسل هدايا إلى منزلة ظن أنها سوف تكون "كميات ضخمة من المال"، ولكنه دهش عندما اكتشاف أن الهدية لم تكن أكثر من مجرد وجبة طعام متواضعة. وفي مناسبة أخرى وأمام إلحاح ابن بطوطة أبهجه الملك بمائة مثقال، مبلغ سخيف بالمقارنة بتلك التي قدمها منسا موسى بسخاء لرجال التعليم. فوفقًا لابن بطوطة نفسه، كانت المبالغ تتجاوز أحيانًا ثلاثة آلاف مثقال ذهبي.

على الرغم من ذلك التقييم السلبي، فإن ابن بطوطة يسلم بأن لسليمان فضائله، ومن بينها كان إدراكه للعدالة الأكثر جدارة بالملاحظة. ولقد حاول في كثير من السلوك المشابه كأسلافه أن يجعل العدالة تسود في أمته. كان الأمن على طول طرق التجارة شاغلاً آخر بين مشكلاته وخلال رحلته من والات إلى مدينة مالي (التي أخذت أربعًا وعشرين يوما)، لم ير ابن بطوطة ضرورة لانتظار قافلة التجارة التي سوف تزوده بالحماية وبدأ رحلته مع ثلاثة مرافقين فقط.

علاقات مالي مع العالم العربي

تحتوي المصادر الثلاثة لعملنا معلومات قيمة تتعلق بالعلاقات الثقافية والروحية والاجتماعية والتجارية والدبلوماسية التي احتفظت بها مملكة مالي مع المغرب ومصر في القرن الرابع عشر الميلادي.

العلاقات الدبلوماسية، يسهب ابن خلدون في مسألة تبادل السفراء والهدايا بين الملوك الماليين Malinke والمرينيين Marinids. وهو يذكر سفارة أرسلها منسا موسى إلى فاس لتهنئة أبو الحسن بانتصاراته التي أحرزها في المغرب الأوسط ضد الزيانيين. واستقبلت السفارة بتكريم عظيم من السلطان المريني، الذي أرسل تبعاً لذلك سفارة أخرى إلى مالي.

وكما هو الحال دائمًا وفقًا لمؤرخنا، تبقى العلاقات بين الدولتين وطيدة خلال العقود التالية. وهو يذكر سفارة أخرى، أرسلت في هذه المناسبة بواسطة ماري ياتا الثاني Mary Yata II إلى بلاط أبو سالم المريني. وكانت الهدايا المرسلة من الملك المالي لنظيره المغربي ذات

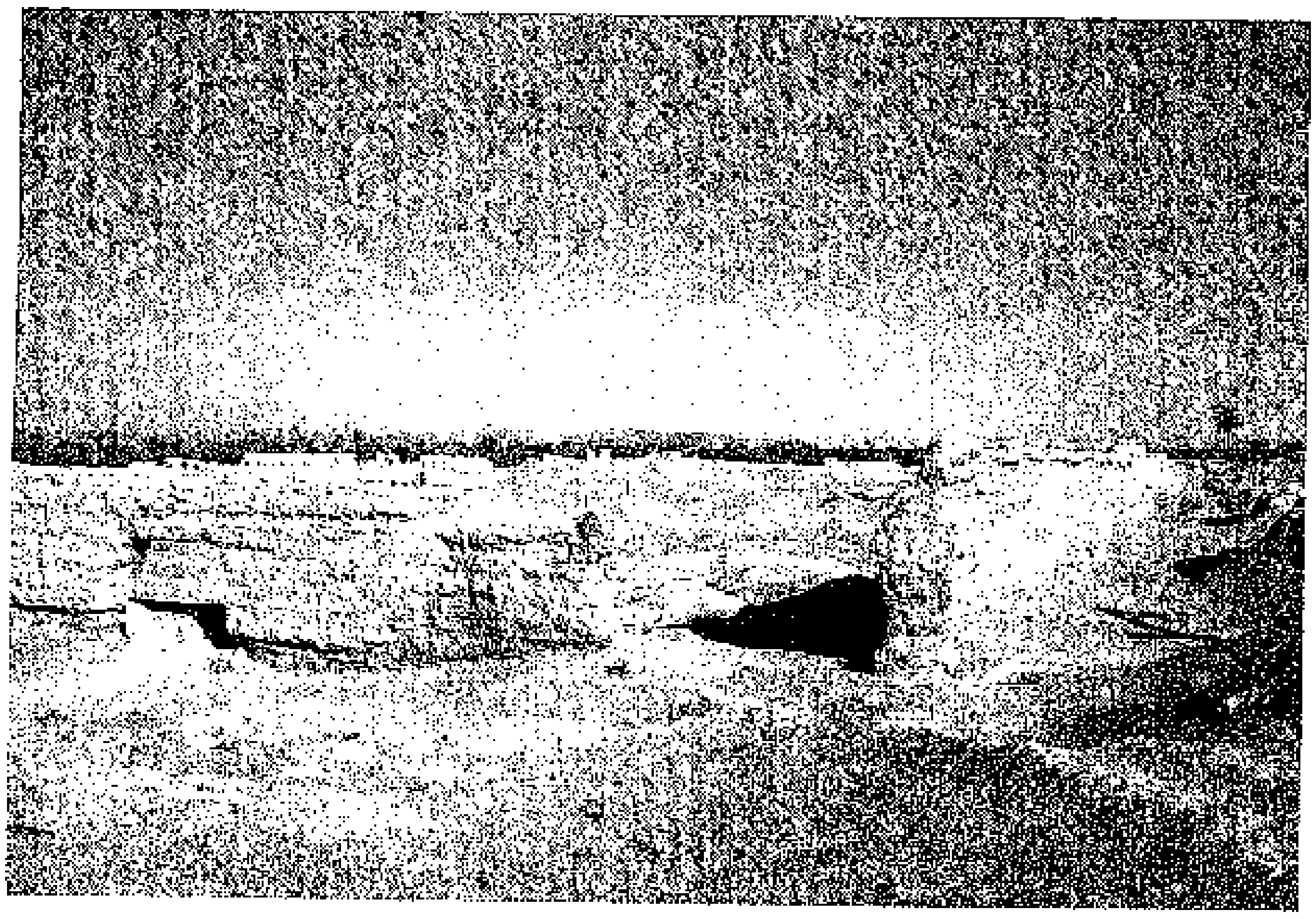

قيمة عظيمة وأثارت فضول الكثير، وبخاصة زرافة أثرت بشدة في المغاربة الذين اتخذوا طريقهم إلى فاس في أعداد ضخمة ليروا للمرة الأولى هذا "الحيوان ذو الجسد الضخم غير المألوف في بلاد المغرب".

وبدوره يعالج ابن بطوطة مسألة تلك العلاقات الدبلوماسية. فبصرف النظر عن تلك السفارات، يتحدث عن الذعر الذي سببته وفاة أبي الحسن عندما وصلت أنباؤها إلى مالي. وفي إجلال لذكراه أمر سليمان بإقامة مراسم دينية في القصر الملكي حضرها بين الآخرين، منسا والأمراء وأصحاب المقامات الرفيعة. وكان ابن بطوطة أيضًا شاهدًا لهذا الحدث الجليل.

ومختلفًا عن المصدرين المغربيين السابقي الذكر – اللذين عالجًا فقط العلاقات بين مملكة مالي والمغرب – يذكر أيضًا الجغرافي الشرقي العمري تلك العلاقات التي توطدت بين مالي ومصر. كما يكتب عن الاتصالات التي قام بها منسا موسى مع الأمراء وأصحاب المقامات الرفيعة المصريين، وكذلك الاستقبال الذي حظي به من قبل السلطان قلاوون. ويرى الباحث المغربي أحمد شكري أن ذلك الاستقبال سبب تدهور العلاقات الدبلوماسية بين مالي ومصر، لأن الملك المالي – في انسجام مع البروتوكول المُثبت– عاني من ضربة لكبريائه باضطراره للركوع أمام نظيره المصري. ووفقًا لشكري، فمنذ تلك اللحظة بمالي –التي طمحت للحفاظ على علاقات ذات امتيازات مع واحدة على الأقل من القوى ثقيلة الوزن في العالم العربي– جدت في تقوية روابطها مع المغرب المريني.

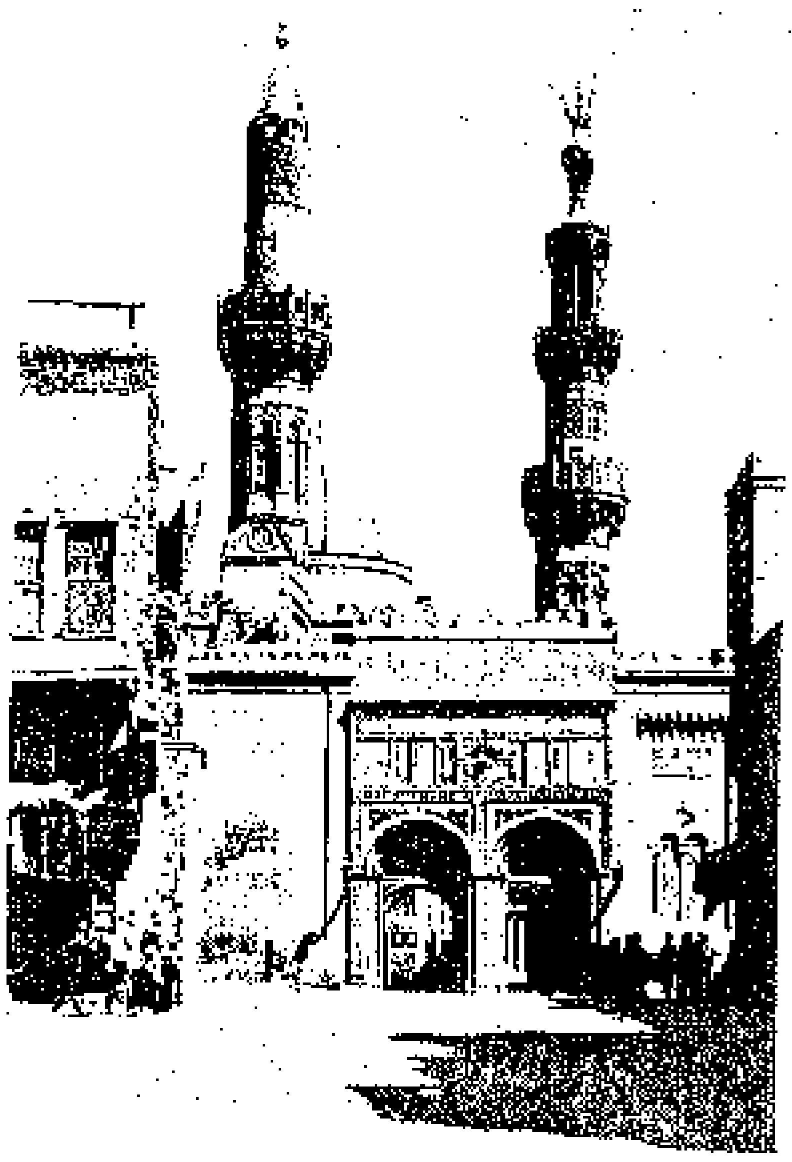

أعلى، أطلال مدينة القوافل بسجلماسة.
أسفل، مدخل الجامع الأزهر بالقاهرة، صورة من أوائل القرن العشرين الميلادي.

وعلى أساس رواية العمري، لا نعتقد أن اللقاء بين موسى والسلطان قلاوون سبب أي نوع من الأزمة الدبلوماسية. ودليل ذلك هو أن الأول فور عودته إلى بلاده، أهدى الأخير مبلغًا كبيرًا مقداره خمسة آلاف مثقال ذهبي. كذلك استمرت العلاقات وطيدة خلال عهد منسا سليمان الذي – وفقًا للعمري – تلقى سفارة من السلطان المصري، وحافظ كذلك على مراسلات دبلوماسية مع البلاط المملوكي.

العلاقات التجارية، يخبرنا ابن خلدون أن غالبية التجار "البيض" في مملكة مالي كانوا مغاربة، وتوانسة ومصريين واستوردوا البضائع من "كل البلدان". ولعب التجار الماليون دورهم في تلك الحلقة التجارية، فسافروا إلى مصر بهدف استيراد المواد المطلوبة في بلدهم. في تلك النقطة، يجب أن يقال أن العلاقات التجارية بين شمال أفريقيا وبلاد السودان تعود إلى ما قبل الحقبة الإسلامية. ولقد قواها مجيء الإسلام لذلك الإقليم منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وفي القرن الذي نعالجه وصلت تلك العلاقات لذروتها. ولقد أظهر كل من المرينيين من المغرب والماليين من مالي اهتمامًا عظيمًا بحماية طرق التجارة المربحة عبر الصحراء المربحة بشدة.

وسبب ذلك الرخاء ازدهار المدن على طول طرق القوافل التجارية. ومن بينها تستحق الملاحظة سجلماسة التي أصبحت – منذ تأسيسها في القرن الثامن الميلادي – نقطة التقاء القوافل من الشمال والجنوب. ويؤكد الجنوي دو كاريجنان de Carignan – الذي صاغ خريطته لقارة الأفريقية في سنة 1340 – أن التجار حازوا البضائع في سجلماسة ومن ثم أخذوها إلى والاتا وغينيا Guinea. ويعزز ابن الخطيب تلك المعلومات، والذي سمى المدينة "أرض التبر الذهبي" و"أم البلاد المجاورة للسودان". ووفقاً لابن بطوطة لعبت والاتا أيضاً دورًا رئيسيا في التجارة العابرة للصحراء. وتحملت المدن الأخرى في مالي التي ازدهرت من ذلك النشاط في

القرن الرابع عشر الميلادي، زيادة ضخمة في السكان. وبالإشارة لذلك القرن، يصرح السوداني السعدي مؤرخ القرن الرابع عشر الميلادي بأنه كان هناك مدن كثيرة في مالي يزيد سكانها على الخمسة عشر ألف ساكن. وبالإضافة إلى التجارة، كان الحج إلى مكة العامل الذي ساهم أكثر في ازدهار تلك المدن. وتمتعت المراكز المرينية التي مرت خلالها قوافل الحجاج بنمو كبير. وكانت غدامس Ghadamis إحدي تلك المدن، وكانت تقع في نقطة متوسطة على طريق التجارة الشرقية بين مصر ومالي. وبدأ رخاؤها- الذي جذب انتباه ابن خلدون – بصفة خاصة بعد سنة 1324، عندما قام منسا موسى برحلته الشهيرة إلى مكة عبر مصر.

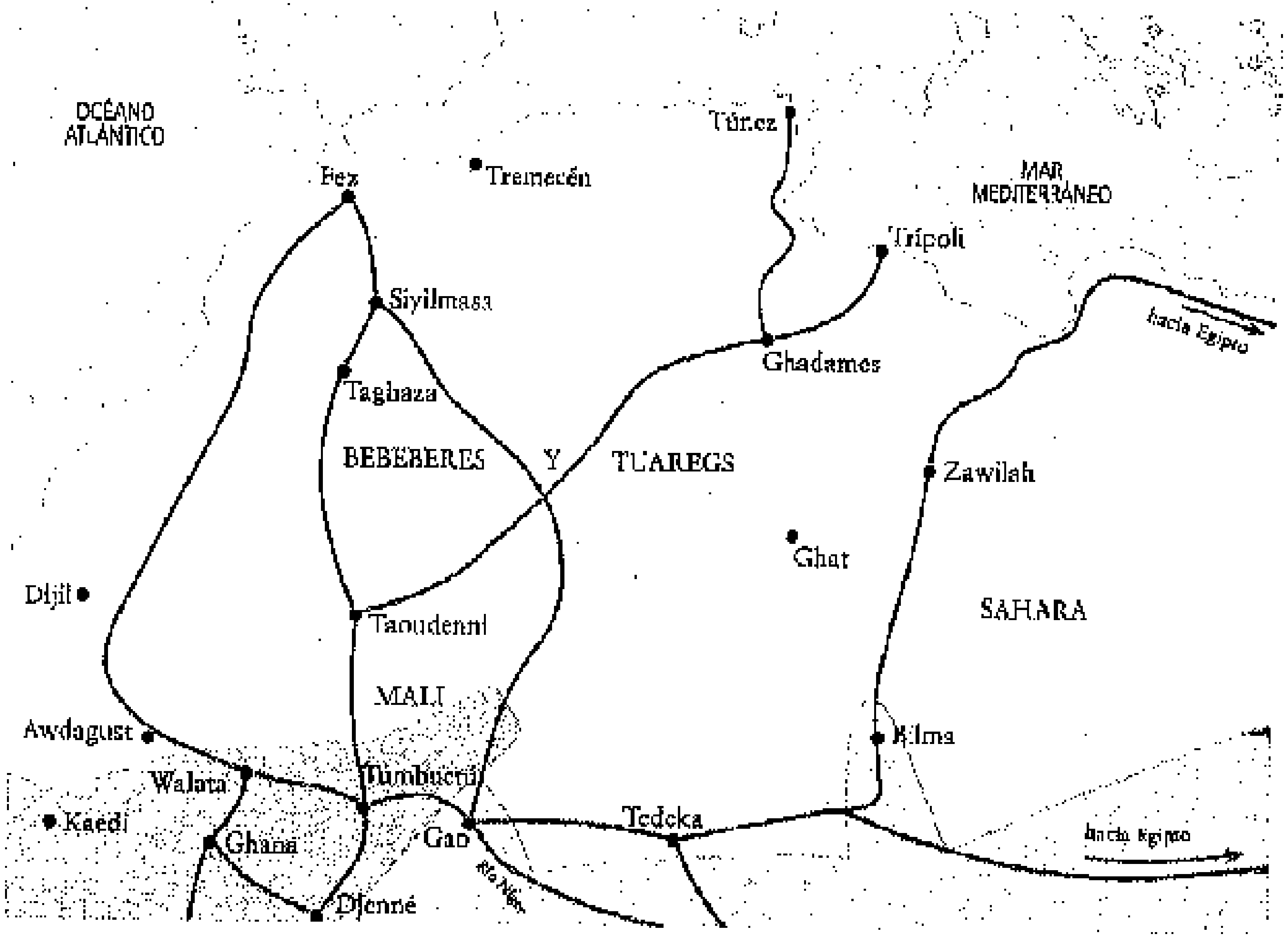

مملكة مالي والطرق الرئيسية للقوافل في القرن الرابع عشر الميلادي.

وشملت بعض البضائع التي حملتها القوافل التي اجتازت الطريق الغربي (سجلماسة- والاتا- مالي) الكتب، والحبوب، والفواكه الجافة، والخيول، والملابس القطنية والصوفية، والخزف، والمجوهرات، وقبل كل شيء، الملح الذي كان يُشترى من مناجم ملح تاغازا Taghaza الواقعة بنقطة في منتصف طريقها. وعادت نفس القوافل محمية ببضائع أخرى تشمل العبيد والذهب.

وكان الانخفاض الذي لقيته تجارة الرقيق بين شاطئ مضيقي جبل طارق Gibraltar والانخفاض في عدد العبيد الأيبيريين في أسواق المغرب السبب الرئيسي في الطلب الكبير للعبيد "المستوردين" من مالي. واحتوت القافلة التي سافر فيها ابن بطوطة من تاغازا Taghaza إلى توات Tuat على ما لا يقل عن ستمائة من الإماء. ويذكر نفس الكاتب جارية دمشقية قابلها في مالي، مما يقودنا للاعتقاد بأن الرقيق الأبيض وُجد في ذلك البلد، برغم أنه لم يكن بعدد كبير.

كان الذهب السلعة الثمينة الأخرى التي صُدرت من مالي، المعدن المقدر قبل كل شيء من التجار المغاربة والمصريين والأوروبيين. وأمام هذا الإقبال الضخم على مملكة مالي جعلها بمثابة أرض الميعاد في القرن الرابع عشر الميلادي. ولقد احتوت مستودعاتها على أضخم احتياطي للذهب في العالم بعد الانخفاض الذي عانته المناجم في المجر Hungary وترانسيلفانيا Transylvania وبوهيميا Bohemia.

ووجد جزء ضخم من ذلك الذهب طريقه إلى موانئ جنوب البحر المتوسط قبل تصديره إلى الشاطئ الآخر بواسطة التجار الأوروبيين المؤسسين هناك.

وتتفق المصادر الثلاثة لذلك العمل في الإشارة للكميات الضخمة من الذهب الموجودة في مالي. وينص ابن خلدون على أنه عندما قام منسا موسى برحلته الشهيرة إلى مكة أخذ معه ما لا يقل عن مائة جمل، حمل كل منها بثلاثة قناطير من الذهب. ووزع الذهب كله بطريقة سخية شديدة إلى حد أنه تُرك دون شيء لتمويل رحلة عودته واضطر لجمع القروض ليفعل ذلك. وكان أمير مكة أحد المنتفعين الرئيسيين، الذي تلقى – وفقاً للعمري – مائتين وخمسين كيلو من المعدن الثمين. ومرة أخرى وفقاً للعمري، وفي مصر كان عدد المتلقين المحظوظين ضخمًا لأن منسا "لم يترك أميرًا أو موظف بلاط" دون منحة من الذهب. ولقد أحدثت الكميات العظيمة الموزعة تخفيض لقيمة العملة إلى حد استمر لأكثر من عام. حتى أنه عندما كتب العمري مؤلفه بعد اثنتي عشرة سنة، كانت تأثيرات هذا التخفيض للعملة لا تزال ممتدة بعمق في الاقتصاد المصري. ويضيف الجغرافي الدمشقي أن كل الذهب في مالي يخص الملك، كما صرح الملك

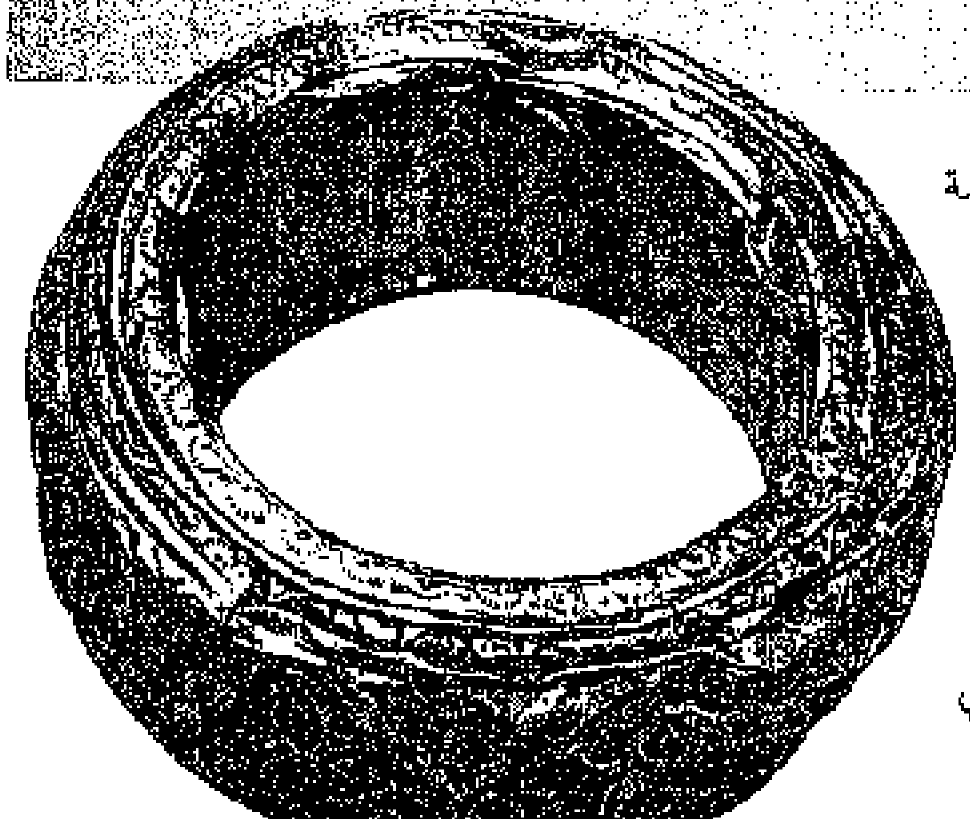

أعلى، قافلة محملة بالملح في الصحاري، قرب Fachi (النيجر)

أسفل، سوار ذهبي مؤرخ من عصر بني نصر، اكتشف في Bentarique (ألمرية Almaria) المتحف الوطني للآثار - مدريد.

بنفسه. وربما يساعدنا هذا التأكيد لفهم بعض المعلومات التي تصور في الخريطة المرسومة بواسطة أبراهام كريسك Abraham Cresque المؤرخة بسنة 1375: مثل الصورة التي يظهر فيها منسا موسى يقدم كتلة ضخمة من الذهب لزائر عربي.

منذ العصور الوسطى المبكرة كان ذهب بلاد السودان جوهريًا للاستقرار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للممالك التي نشأت على جانبي الصحاري. ولقد قوّى المرابطون نفوذهم في جنوبي الصحاري والمغرب والأندلس بفضل هذا المعدن الثمين. ويرى عبد الواحد المراكشي أن بلاد السودان كانت المصدر الرئيسي للذهب في الأندلس.

وكما أشرنا، فقد استمر ذهب السودان يتدفق على المغرب خلال الفترة التي نعالجها. وسك المرينيون - تقريبًا وبنفس أسلوب المرابطين - عملات ذهبية بأحجام وأوزان وقيم مختلفة، وبالتالي احتكروا تصدير ذلك المعدن. ومع ذلك، فما بدا في البداية كونه اقتصاداً صلباً، وقبل كل شيء استقرارًا سياسيًا، تضمن أحياناً تأثيراته غير الملائمة. واستثمرت فوائد الذهب السوداني في مشروعات غير إنتاجية مثل دفع الرواتب للجيش، وبخاصة لنوع المرتزق الذي كان مخلصًا فقط لآمره الأعلى (الظاهرة المعتادة في المغرب في العصور الوسطى). ولهذا التأثير، نعتقد أن نظرية ابن خلدون المتعلقة بتأسيس ونمو وسقوط الدول المغربية تتصل بشدة بالتجارة العابرة للصحراء، وبخاصة بذهب بلاد السودان. بكلمات أخرى، استتبع ذهب مالي للمغرب في العصور الوسطى بشكل مماثل كثيراً ما استتبعه، ذهب أمريكا لإسبانيا في القرون من السادس عشر إلى الثامن عشر الميلاديين (العصر التجاري المركنتي mercantile): وقفة للأقاليم الأخرى حيث كان يوظف للاستخدام الأفضل. ومن كل البضائع المصدرة، كانت هناك واحدة منافسة بدرجة مساوية للذهب في الأسواق المالية: الملح وكان الملح يبادل بالمعدن الثمين وفقاً لشهادات العمري وابن بطوطة. وكان الأخير شاهداً لمثل هذا التبادل في طريقه عبر مناجم ملح تاتمازا. وهو يذكر أن قيمة الملح تزداد عند النقل من المناجم. فحمل الجمل الذي لا يتجاوز عشرة مثاقيل ذهبية في والاتا بلغ ثلاثين في مدينة مالي. وبصرف النظر عن المسافة،

يضيف ابن خلدون عاملين آخرين أثرًا في زيادة قيمة بضائع مالي في المغرب وبالعكس: العوز للأمن ونقص الماء على طول الطرق عبر الصحاري. ونتيجة لذلك، يكتب نفس المصدر أن "هؤلاء الذين تاجروا مع بلاد السودان كانوا الأكثر غنى بين أهاليهم".

العلاقات الاجتماعية، كان المغاربة في مالي من أصل مختلف. يذكر ابن بطوطة أناسًا من مكناس، وسلا، ووجدة، وتازا، وتافيلات Tafilalt، ومراكش ودكالة Dukleala، وتادلة Tadla، وسجلماسة. وفي مدينة مالي امتلك المغاربة – سويًا مع المصريين – حيهم الخاص حيث – بصرف النظر عن منازلهم – بنوا ما يدعوه رحالتنا "مسجد البيض". ونحن نعرف من نفس المصدر أن المغاربة في مالي شكلوا جزءًا من النخبة. ولم تكن أهمية المصريين بأقل، وبخاصة في النشاطات التجارية؛ المثال لذلك في كلمات ابن خلدون، وهو امتلاك قطعة ثمينة من الذهب تزن عشرين قنطارًا على الأقل التي اعتبرت "واحدة من أقيم وأغرب الكنوز" في مملكة مالي. وينتقد مؤرخنا الملك الذي سمح ببيعها، ويؤسس علاقة مؤكدة بين العمل وبداية انحدار المملكة.

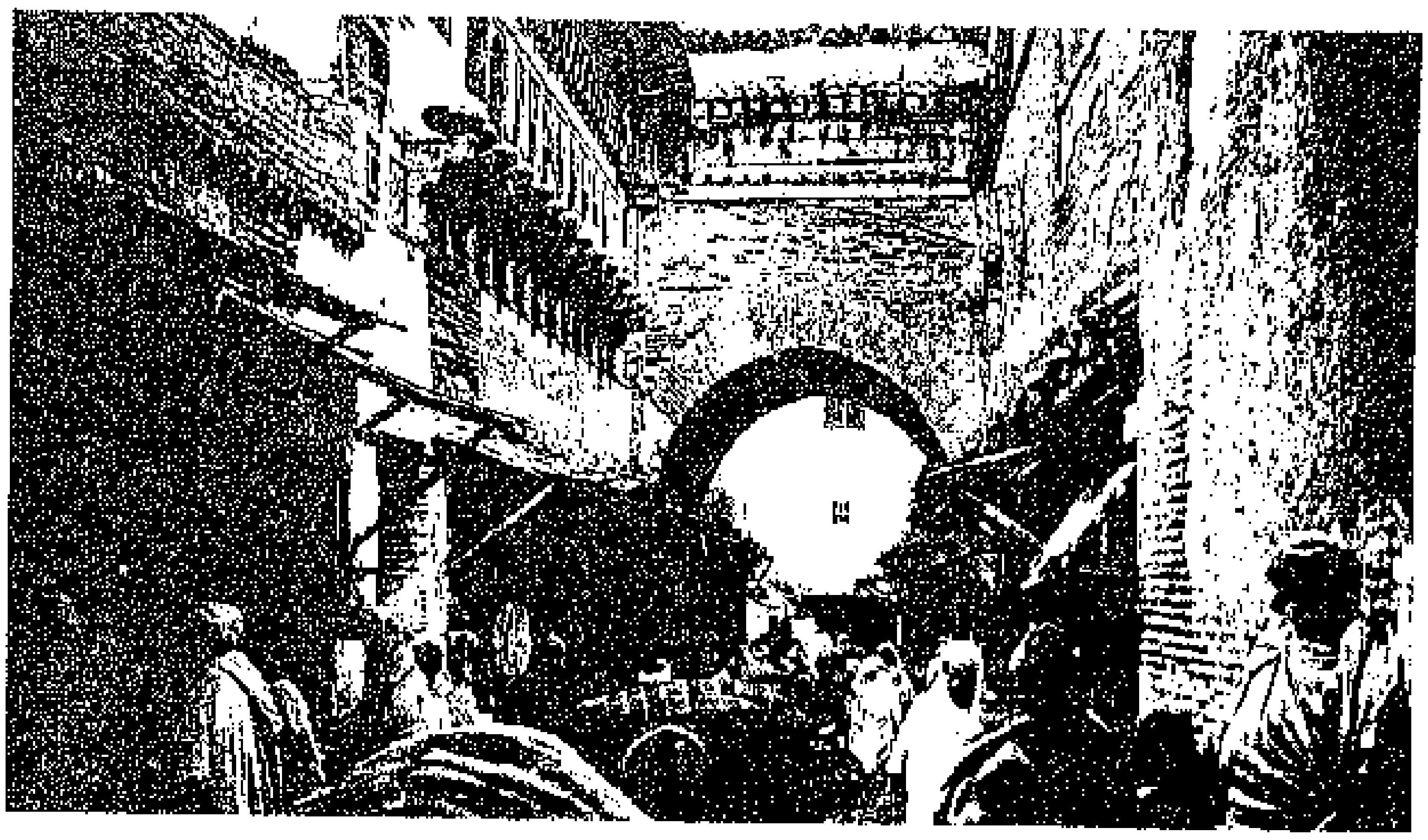

شارع في مدينة فاس؛ بطاقة بريدية

ولا يعني التصاق التجار العرب في نفس الحي نقصًا للإندماج. فقد حدث الزواج المختلط بين البيض (Bidan) والسود (Sudan) منذ ذلك الحين لوصول المسلمين الأول تلك البلاد. ويذكر ابن بطوطة مغربي تزوج من أميرة مالية ويعلمنا ابن الخطيب أن أبو إسحق الساحلي – الشاعر والمعماري الغرناطي الشهير– أصبح واحدًا من أغنى الرجال في مالي بفضل هبات منسا موسى السخية. ولقد امتلك حريمًا من "النساء السود" اللائي أنجبن له "أطفالا شبهوا الصراصير".

والتأثير الاجتماعي للمغرب في مالي القرن الرابع عشر الميلادي لافت للنظر بوجه خاص في فن الطعام، والملابس، واللغة ... وبشكل مماثل، ترك أيضاً الماليون الذين وصلوا للمغرب في نفس العصر – كرجال أحرار أو عبيد – علامتهم على المجتمع الشمالي. وفي دراسة من التأثير المشترك بين المغرب ومالي خلال العصر المريني؛ يشير عبد العزيز علاوي أن الشعب المالي قدم عادات إلى المغرب مثل موسيقى جناوا Gnawa، والسحر، وطب الشعوذة.

العلاقات الثقافية والروحية، هناك صلة حميمة بين انتشار الثقافة العربية الإسلامية في مالي والتجارة العابرة للصحاري. وحاز بعض التجار العرب الذين انهمكوا في هذا النشاط مستوى ثقافيًا عاليًا وكانوا بصفة خاصة متضلعين تمامًا في اللاهوت الإسلامي. وفي أغلب الأحوال، فقد تم انتشار الإسلام والثقافة العربية في تلك البلاد بواسطتهم. ولم تكن البضائع التي استوردوها من مصر والمغرب تفتقر للكتب في التشريع، والحديث الشريف، وعلم النحو والصرف، وعلم البلاغة، وهكذا دواليك. ووجد ابن بطوطة كلاسيكيات الأدب العربي في مجموعات خاصة، وفي وقت لاحق ليس بالكثير، لاحظ ليو الأفريقي Leo Africanus طلبًا كبيرًا على الكتب المستوردة من المغرب خلال إقامته في تمبكتو. وفاقت بكثير الأرباح المكتسبة منها تلك المكتسبة من أي بضائع أخرى. وسبب الاهتمام بالكتب العربية تعميم المدارس القرآنية ومراكز التعليم الأخرى.

وكانت الحماسة الناتجة عن اعتناق الإسلام مصحوبة بالتطبيق الصارم لبعض قواعده، ومن بينها يذكر ابن بطوطة العقوبة المفروضة على الأطفال إذا لم يحفظوا القرآن عن ظهر قلب والحضور المنتظم لصلوات ظهر يوم الجمعة. وهو يذكر أنه كان صعبًا جداً أن تجد موقعًا في المساجد في ذلك اليوم إلا إذا حضر الناس في الصباح الباكر.

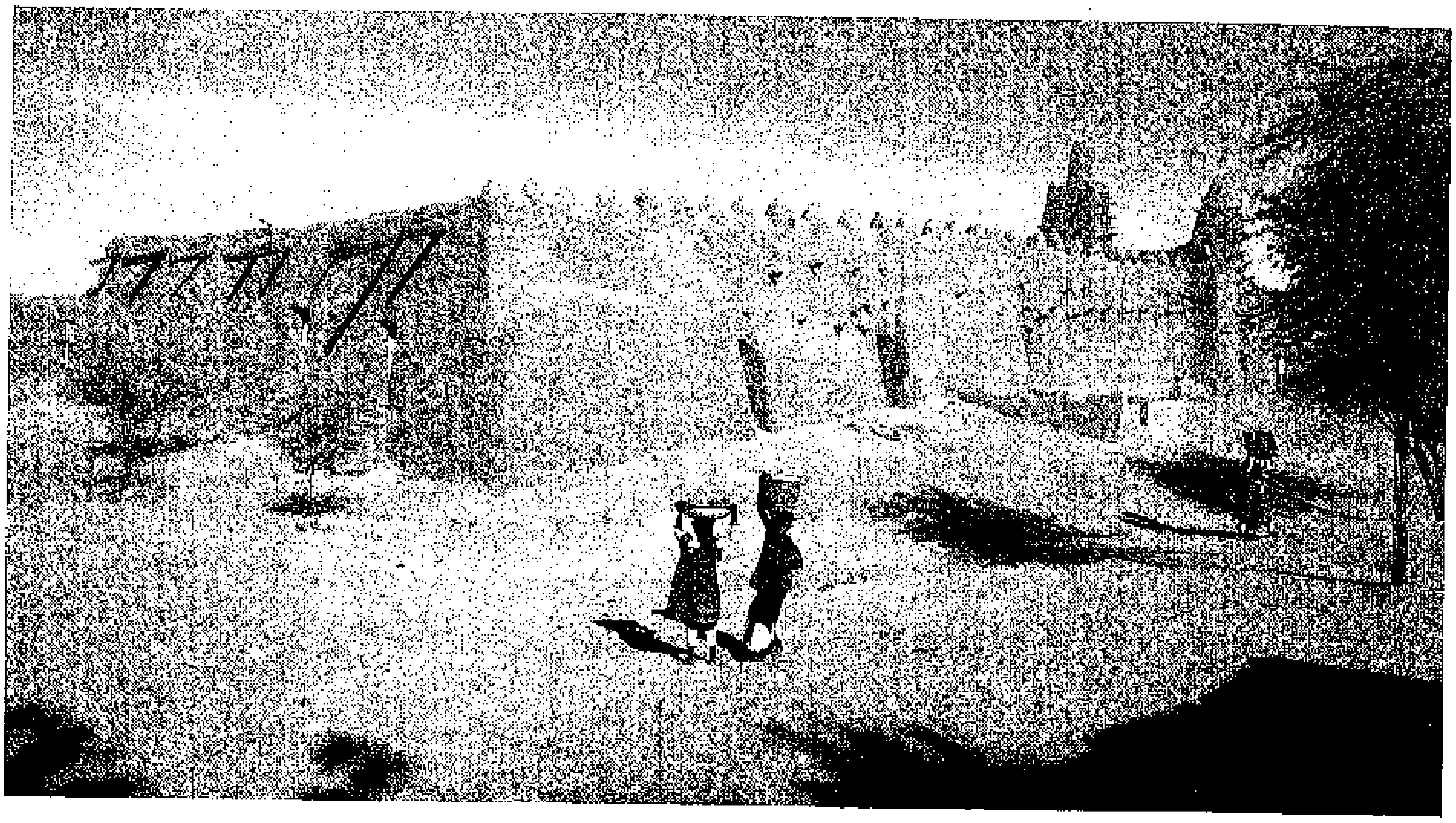

مسجد Djinguerber العظيم، القرن الرابع عشر الميلادي.

ودائمًا ما تضمنت الرحلات المباشرة من الماليين إلى مكة هدفًا ثانيًا: الحج والدراسة. وأقام بعض الحجاج في القاهرة قبل مواصلة رحلتهم إلى مكة. وكان الغرض الفرصة لحضور دروس معطاة بواسطة علماء عظام في جامعة الأزهر الأسطورية. ودعت الأهمية العددية للرعايا الماليين المهتمين بالدراسة في مصر منسا موسى لتأسيس مدرسة خاصة لهم في القاهرة، والتي كانت ناجحة جدًا.

وكانت مدينة فاس مركزًا آخر للانجذاب الثقافي للرعايا الماليين. وكان الكثيرون ممن تخرجوا من مدارسها، وبخاصة مدرسة القرويين وفي العصر الذي تعالجه، كان خطيب موسى أحد المشاهير. ولقد أرسله إلى هناك منسا موسى، فقضى سنوات عديدة كطالب قبل العودة إلى مالي، حيث كان يشغل مركزي القاضي وإمام المسجد الكبير في تمبكتو.

وتمثل حقيقة أن المستشارين القانونيين العرب شغلوا مراكز المسئولية الإدارية العليا مثلا آخر للوجود الثقافي العربي في مالي في القرن الرابع عشر الميلادي. ويذكر ابن بطوطة مغاربة كثيرين ممن عملوا كقضاة وأئمة (مركزين من أعلى المقامات في الإدارة الدينية للمملكة)، أو تولوا مسئوليات أخرى في البلاط الملكي. ويخبرنا ابن خلدون – من ناحيته – أن أحد مصادره الشفهية كان مغربيًا شغل منصب قاضٍ في مدينة جاو Gao. ويؤكد العمري أن أحد رواته– وهو أيضًا مغربيًا – يشكل عضوًا في حاشية منسا موسى. ووفقًا لابن بطوطة، استبعد– هذا الشخص واسمه أبو سعيد الدوكالي من الحاشية لسوء السلوك.

وأخيرًا، يجدر الذكر أن الاهتمام بالثقافة العربية الإسلامية في مملكة مالي لم يكن محدودًا بالمظاهر المتصلة باللاهوت، واللغة أو الأدب ولكنه تعداه إلى ميادين معرفية أخرى كالعمارة. وكان جراندانى السهيلي Granadine al – Sahili واحدًا ممن ترك علامته على مالي في هذا الميدان. وعند عودته لبلده دبر منسا موسى – الذي قابله في مكة – لإقناعه لكي يرافقه. ولقد كان مستمتعًا بالتكريم العظيم وبالهدايا.

ويذكر ابن بطوطة أن واحدة فقط من تلك الهدايا التي تلقاها من الملك المالي ساوت أربعة آلاف مثقال ذهبي. وأثناء إقامته في مالي، ابتدع ذلك المعماري العبقري أسلوبه الخاص وفيه نجح في مزج فنون العمارة المغربية والأندلسية والسودانية. ومن بين الآثار العاكسة لذلك طراز المسجد الجامع Dijnguerber Sub – Saharan في تمبكتو، المركز العظيم للثقافة الإسلامية في أفريقيا، والذي لعب في ذلك الزمن دورًا مشابهًا لدور الأزهر في مصر والقرويين في المغرب.

الحروب، والدبلوماسية، والتوسع

حـرب المائـة عـام

فيليب كونتامين
كوليج دي فرنسا وجامعة باريس الرابعة - باريس

ترجمة إسحاق عبيد

لقد تم صك تعبير "حرب المائة عام" في فرنسا، وبعدها صار هذا المصطلح مقبولا في صفحات كتب التاريخ على مستوى العالم. ومنذ سنة 1825، وهو تاريخ ظهور هذا المصطلح للمرة الأولى، أصبح هذا التعبير العلمي بالدرجة الأولى، يعبر عن الصراع بين ملوك فرنسا من أسرة فالوا Valois وبين ملوك إنجلترا من أسرة پلانتاجنيت Plantagener وأسرة لانكستر Lancaster، فيما بين عامي 1337 و1453.

وكثيراً ما أصابنا هذا الصراع بأحاسيس مختلفة من حيث وحدة هذا الصراع: فهل كان الصراع على نفس الحجم على زمن الطيب الذكر برتراند دو جسكلان Bertrand Duguesclin، وفي زمن عذراء أورليون Orleans -جان دارك- وزمن جون شاندو John Chandos، ثم في زمن جون تالبوت John Talbot؟ ثم لنا أن نتساءل، هل كانت أهداف أطراف الصراع في النصف الثاني من القرن الرابع عشر هي نفس الأهداف في النصف الأول من القرن الخامس عشر، لقد كان الشعب الفرنسي في خمسينيات القرن الخامس عشر يشعرون بأنهم قد استيقظوا من كابوس رهيب طويل، ولكنهم في الوقت نفسه ظنوا أن أحوالهم قد تتبدل إلى الأفضل، وكانوا أيضًا على وعي بالوحدة العسكرية والدبلوماسية لفرنسا أثناء هذا الصراع، رغم تقلب الأحداث من قرن لآخر، مع التسليم بأن فرنسا قد كانت في حالة غفوة في مناسبات عديدة خلال هذا القرن من الحروب والاقتتال.

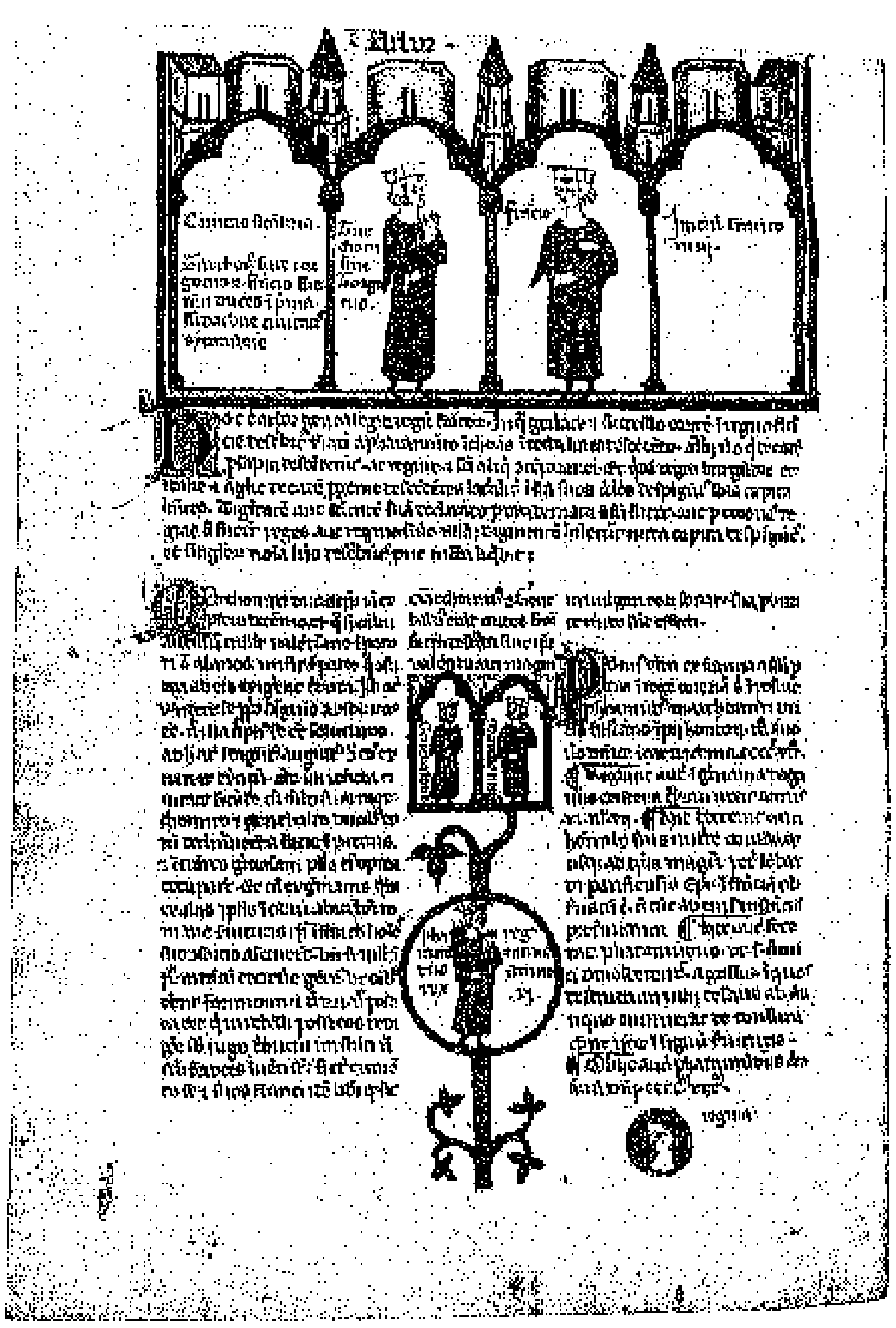

الصفحة الأولى لمخطوط عن الملكية الفرنسية بعنوان De origine prima Francorum .Bernardus J Guidonis، يعود إلى سنة 1331، المكتبة الوطنية - مدريد.

في الصفحة المقابلة، معركة كرسي Crécy، سنة 1346، تصوير من حوليات Jean de Froissart، مكتبة الترسانة -باريس.

ولدى الكتاب العديد من التفسيرات حول أسباب نشوب هذه الحرب الطويلة المريرة، التي لم يتبين أحد نهاية لها، والسبب الأول يكمن في وجود مملكتين عريقتين، تدرك كل منهما حدود حقوقها، إلى جانب تمسكها بمسألة الشرف أو الكرامة، وذلك في وقت كانت فيه كل منهما تملك الموارد المالية والعسكرية التي تتكافأ مع طموحاتهما. ثانيًا، يمكن تفسير طول مدة الصراع من الجانب الإنجليزي على ضوء الإنتصارات التي حققها الإنجليز في بداية الحرب، إلى جانب ضغط الرأي العام الموالي لمواقف الملوك الإنجليز. والواقع أن هذه الحرب من منظور أكثر رحابة كانت تمثل مسألة كرامة، مع أمل في تحقيق مكاسب بالنسبة لجانبي الصراع على جانبي القنال الإنجليزي، خاصة بالنسبة لطبقة النبلاء هنا وهناك رغم مخاطر التعرض للموت أو الأسر. وكان كل طرف يزعم أنه على حق في هذا الصراع المشروع، ومن ثم جاء تصعيد القتال ومشروعيته، رغم أن البعض كانوا نادمين على هذه الحماقات.

ولكي نكون أكثر دقة في هذه القضية التي نحن بصدد دراستها، علينا أن نأخذ في الاعتبار ما طرأ من تطور في مفهوم السيادة، في مقابل المفهوم الإقطاعي التقليدي للتبعية. وحقيقة الأمر أن ملوك إنجلترا، وكذا أدواق أكتانيا Aquitaine (أو غسقونيا Guyenne)، ونبلاء فرنسا، كانوا- من وجهة النظر الإقطاعية - أتباعًا يخضعون لسلطة ملوك فرنسا كسادة يملكون مساحات شاسعة من الأراضي الإقطاعية في بوردو، التي اشتهرت بتصدير النبيذ. ولقد شعر نبلاء تلك الإقطاعيات أن ملوك فرنسا كانوا يخططون لتحجيم هذه الإقطاعيات واستقلالها الذاتي. ولقد ظل شعب دوقية أكتانيا، الغسقونيون مخلصين في ولائهم لدوق الملك الانجليزي حتى النهاية. ويقال أيضًا إن ملوك إنجلترا كانوا في موقف دفاعي لمصالحهم في فرنسا، وذلك رغم استعداداتهم العسكرية والإستراتيجية. وفوق كل هذا وذاك، لا يمكن إغفال حقيقة أن هذا الصراع ينطوي على نزاع عائلي له نظائره العديدة في تاريخ العصور الوسطى، والذي طال أمده في حرب المائة عام؛ لأن أحدًا لم يكن راغبًا في الوصول إلى اتفاق أو تسوية ترضي الطرفين المتنازعين.

nault qui furent tousiours
delez le roy phle de france
Cy parle de la bataille de
crecy entre le roy dangleter
re et le roy de france

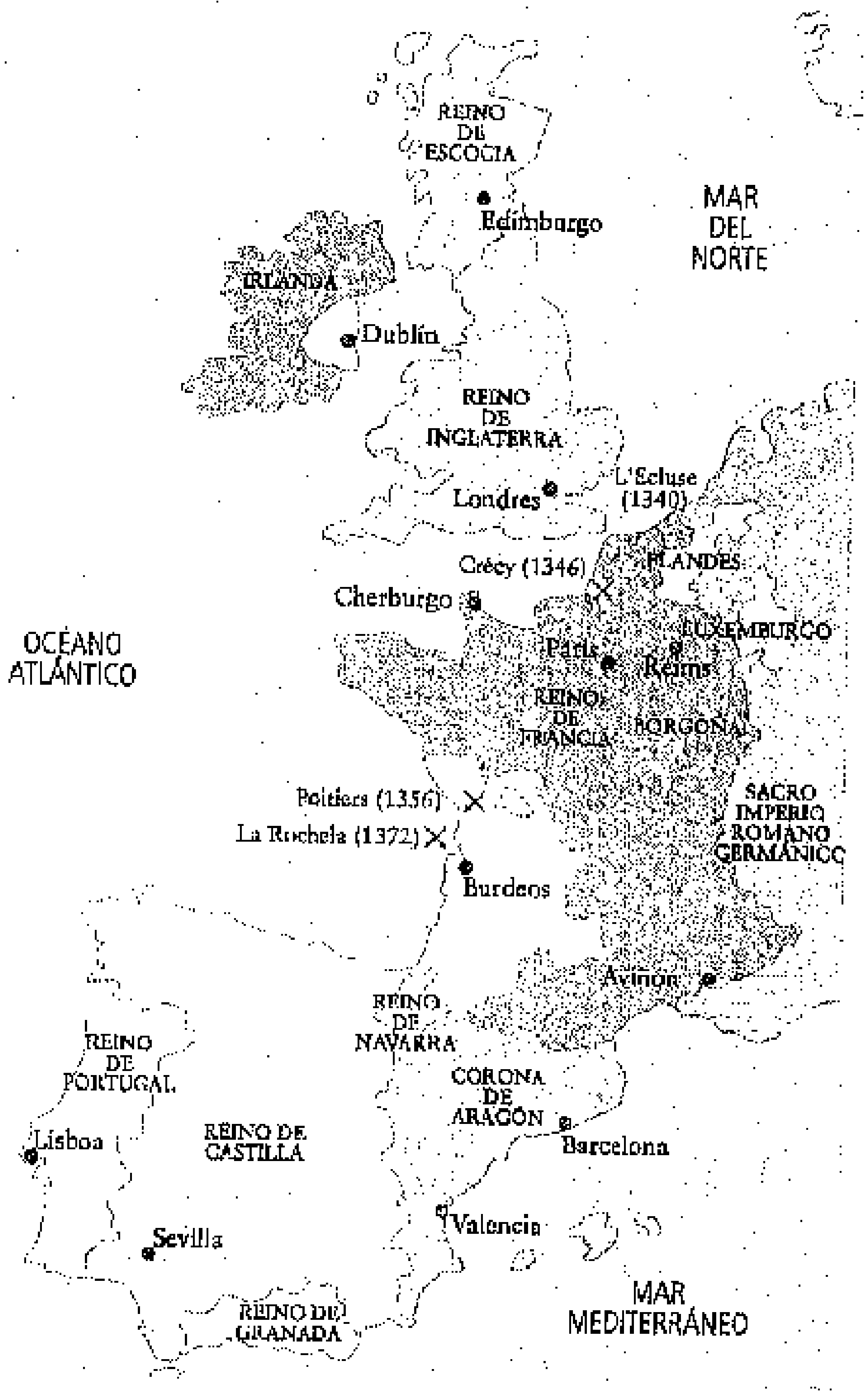

خريطة تبين مملكة فرنسا وحلفاءها (باللون الأخضر)، والأراضي التي كانت تخضع للإنجليز في فرنسا (باللون الرمادي).

والواقع أن الملك الإنجليزي إدوارد الثالث (1327 – 1377)، وهو حفيد للملك الفرنسي فيليب الرابع الوسيم (1285 – 1314)، من خلال والدته إيزابل التي تزوجت من الملك إدوارد الثاني (1307 – 1327)؛ راح يطالب بعرش فرنسا. وفي نفس الوقت كان غريمه فيليب السادس آل فالوا (1328 – 1359)؛ يسانده في موقفه أغلب نبلاء فرنسا من دوائر الأمراء، يحاج بأنه الوريث الشرعي لتاج فرنسا، بوصفه حفيد الملك الفرنسي فيليب الثالث الجسور (1270 – 1285)، لأن والده، شارل آل فالوا، ابن لفيليب الثالث. وكانت المشكلة تدور حول استبعاد النساء من حق وراثة التاج الفرنسي، وهي مشكلة تمت تسويتها سنة 1316؛ لصالح فيليب الخامس الطويل (1316 – 1322)؛ وهو شقيق لويس العاشر العنيد (1314 – 1316)، وهما ابنان لفيليب الوسيم، واستحالة أن تقوم ابنة لملك فرنسي بنقل حقها في التاج إلى أبنائها. على أن تتابع الأحداث يشير إلى أن مسألة وراثة التاج الفرنسي لم تحسم بشكل قاطع لا في سنة 1316، ولا في سنة 1328، ولقد جاءت مطالبة الملك الإنجليزي إدوارد الثالث بالعرش الفرنسي، بعد اثني عشر عامًا من جلوس فيليب السادس آل فالوا على العرش الفرنسي. وبعدها، أخذ المشرعون في بلاط فيليب السادس يعمدون على إسقاط إحدى المواد الواردة في القانون السالي Salic الذي يرجع إلى القرن الرابع، لاستبعاد النساء كلية من وراثة العرش الفرنسي، وأن يظل التاج وقفًا على الذكور، وفق نظام اختيار الأكبر منهم سنًا. ولم يظهر هذا القانون السالي على مسرح السياسة الفرنسية إلا في العقود الأولى من القرن الخامس عشر. ورغم ذلك، تبقى حقيقة هامة مؤداها أن الملك الإنجليزي إدوارد الثالث كان بمقدوره أن يتهم فيليب السادس بأنه مغتصب للعرش، وكان يظن أن في إمكانه كسب تعاطف جزء من الرأي العام الفرنسي، وذلك من واقع انتصاراته العسكرية، وبرنامجه السياسي الذي استلهمه من سلفه القديس لويس. وقد جاء من بعده حفيده ريتشارد الثاني (1377 – 1388) ليكرر نفس الزعم، وكذا هنري الرابع آل لانكستر (1399– 1413)، ومن بعده ابنه هنري الخامس (1413– 1422)، ثم حفيده هنري السادس (1422– 1471).

وهنالك العديد من الشكوك حول نوايا الملك الإنجليزي إدوارد الثالث الحقيقية من وراء مطالبته بالتاج الفرنسي. وتشير الحقائق إلى أنه كان يسعى من وراء ذلك إلى الحصول على بعض التنازلات من آل فالوا، من خلال التهديد والوعيد، بمعنى أنه لم يكن من حق الملوك الإنجليز تقليص نفوذ الملوك الفرنسيين آنذاك من حقوقهم الشرعية؛ من سيادة، وسيادة على إقطاعياتهم ووساياهم. وبمعنى آخر كان ملوك إنجلترا على استعداد لقبول بعض الأراضي في فرنسا تحت إمرتهم، على أن تخضع هذه الأراضي لأعراف السيادة الإقطاعية للتاج الفرنسي، كما كانت الحال في العصور الوسطى. ولكن المفاوضات حول هذه الحلول قد وصلت إلى طريق مسدود، الأمر الذي أدى إلى اشتعال هذه الحرب الضروس.

وكان الرأي العام الإنجليزي يساند ملوك انجلترا في مطالبهم تلك، لأن الحرب لم تكن تدور على أراض إنجليزية، إلا في القليل النادر. ومن الغريب أن الرأي العام الفرنسي لم يضغط على ملوك آل فالوا لكي يقبلوا بالمطالب الإنجليزية، لوضع حد لهذه الحرب. ويجب الاعتراف بأن الشعار المهادن أو الانهزامي، القائل "أفضل أن أكون إنجليزيًا بدلاً من تعرضي للقتل" قد ظهر على السطح في بعض الأوقات العصيبة في فرنسا، ولكن ليس بصفة علنية، لأن الظروف لم تكن تحتمل التصريح بهذه المشاعر على أية حال.

ويكمن التناقض في قضية حرب المائة عام في أن ملك إنجلترا كان يهيمن على رعية أقل عددًا من الشعب الفرنسي، كما أن موارده المالية والعسكرية كانت أقل بكثير من موارد الملك الفرنسي، رغم أن أراضي الملك الإنجليزي في فرنسا المتوارثة كانت غنية بالموارد. ومن الواضح إذن أن موارد الملك الفرنسي كانت ضعف أو ثلاثة أضعاف موارد الملك الإنجليزي، وكانت كل الدلائل تشير إلى رجحان كفة الملك الفرنسي.

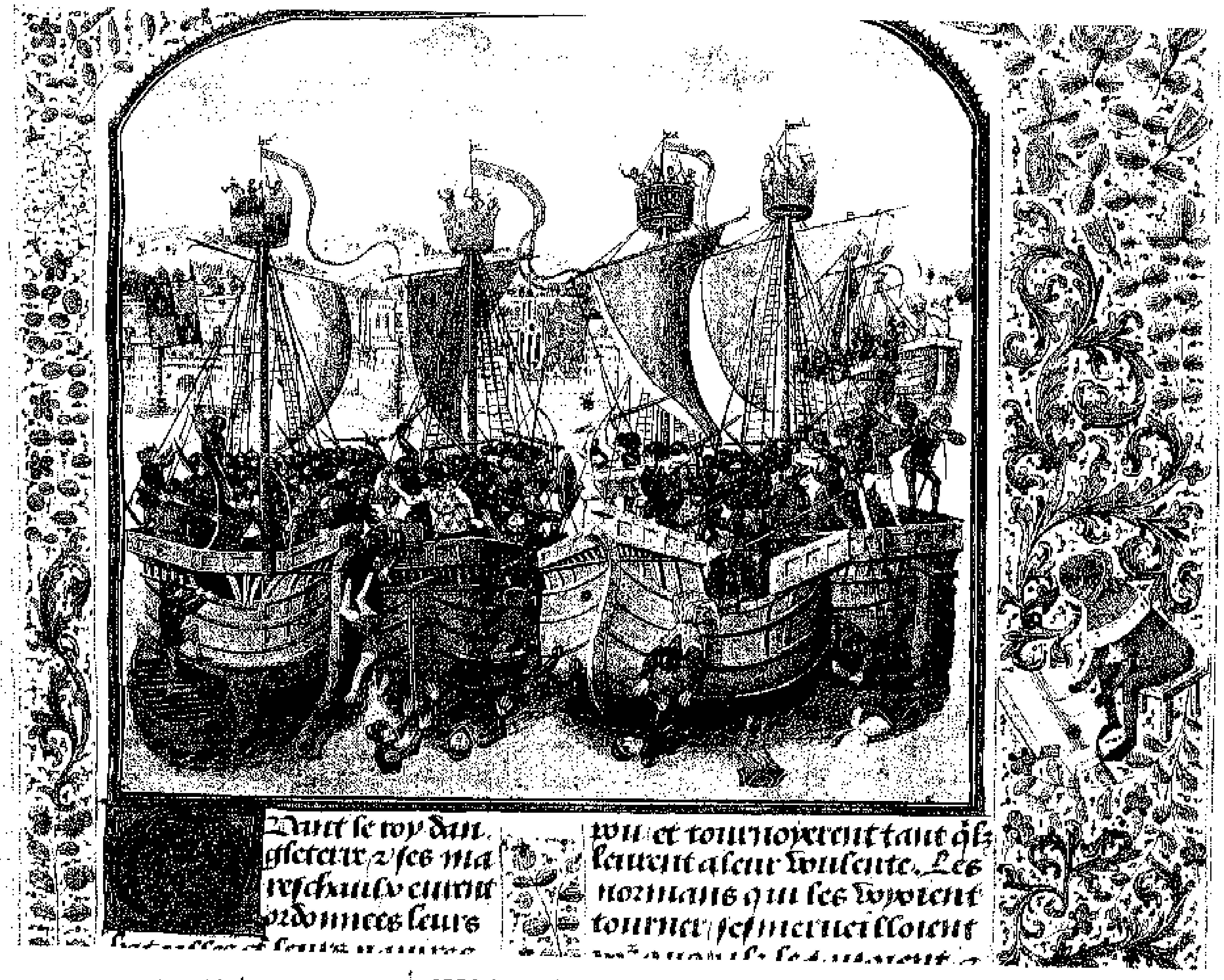

الانتصار البحري للأسطول الإنجليزي في معركة إكليز L'Ecluse أو سلويس Sluys، على سواحل فلاندرز سنة 1340، تصوير من حوليات Jean de Froissart، المكتبة الوطنية – باريس.

ورغم أن الجيش الإنجليزي في معارك كرسي Crécy سنة 1346، وبواتييه سنة 1356، أو أجنكور Agincourt سنة 1415، كان أقل عددًا من الجيش الفرنسي، فإن الإنجليز في هذه المعارك قد أبدوا قدرًا واضحًا من الكفاءة القتالية، والنظام، والصمود، والتضامن، وفوق كل هذا أحسنت فرق الرماة عملياتها في مقابل فرق الرماة الفرنسيين. كما أن انتصارات الإنجليز البرية والبحرية– معركة إكليز L'Ecluse سنة 1340– قد زعزعت تماسك الجبهة الفرنسية. وهذا التماسك، على ضوء وجود إقطاعيات كثيرة وتنوع عرقي، ما بين فلمنكيين، وبريتون، ونورمان، وبواتڤيين أو برجنديين، كان من المتوقع أن يتعزز وقت الحرب بدرجة أكثر من تماسك مملكة إنجلترا الصغيرة.

هذا وقد تمثلت العقبة الكبرى أمام طموحات الملوك الإنجليز فيما وقع من جانب الجنود الإنجليز – سواء عن قصد أو بغير قصد – من تدمير ونهب بعد عبورهم المتتابع للقنال الذي يفصل بين الطرفين. لقد جاءت هذه الأعمال الاستفزازية من جانب الإنجليز لتوغر صدور الفرنسيين جميعًا ضد العدوان الإنجيزي على أراضيهم. وعليه بات الجميع في فرنسا يتمتمون "ها هم أعداؤنا القدامى قد جاءوا من جديد": ضد ملك البلاد، وضد المملكة الفرنسية، وضد الفرنسيين. وظل هذا الشعور المرير في قلوب الفرنسيين حتى بعد أن تم التوقيع على صلح تروي Troyes سنة 1420.

ولم يكن للاضطرابات الديموغرافية التي أعقبت هجمة الوباء الأسود (1348 – 1350)، ولا لكساد الاقتصادي والتدهور المالي أي أثر في إيقاف هذا الصراع بين المعسكرين. هذا رغم أنه مع بداية النصف الثاني للقرن الرابع عشر أخذت همة التطوع للحرب في الفتور، نظرًا لضآلة قيمة أجور المحاربين، كما أن هؤلاء المحاربين راحوا يبتزون الأهالي بفرض إتاوات مالية عليهم مقابل حمايتهم وعدم الفتك بهم.

لم تكن حرب المائة عام قاصرة على القتال بين فرنسا وإنجلترا، لأن كلا من الطرفين راح يبحث عن حلفاء بالطرق الدبلوماسية أو العسكرية. فقد اعتمدت فرنسا في أكثر من مرحلة على دعم مملكة قشتالة، خاصة من خلال أسطولها البحري، وأيضًا على مملكة اسكتلنده. والمعروف

أنه فيما بين أعوام 1419 و1424 تطوع آلاف الاسكتلنديين إلى جانب آل ڤالوا الفرنسيين، وحققوا بعض النجاح.

وحتى بعد هزيمة ڤرنيل سير آرڤ Verneuil - sur - Arve، كان عدد الاسكتلنديين في خدمة الملك الفرنسي يعادل عدد الجنود الفرنسيين أنفسهم (1422- 1461).

جاءت معركة پواتييه ضربة قاسية لفرنسا، وحولت مجريات الأحداث؛ فلقد نجح إدوارد أمير ويلز المعروف بالأمير الأسود الأسطوري، والابن الأكبر للملك إدوارد الثالث، في إيقاع الملك الفرنسي جون الثاني الطيب -جون يوحنا- (1350 - 1364) في الأسر. وعليه حلت الفوضى في أرجاء فرنسا، واشتعلت الثورات في كل مكان. وقد عرفت هذه الأزمة بانتفاضة الفلاحين Jacquerie ضد نبلاء وسادة القلاع من الإقطاعيين، خاصة في المناطق الواقعة شمال باريس. وهنا ظهر على المسرح زعيم شعبي يدعى إتيني مارسيل Étienne Marcel، نقيب تجار باريس، الذي دعا إلى وضع التاج الفرنسي تحت الإشراف الكامل للجمعية الفرنسية العمومية. وعندها اضطر الملك الفرنسي الأسير إلى دفع فدية مالية ضخمة للأمير الأسود، وإلى توقيع معاهدة كاليه سنة 1360، وإلى التنازل عن دوقية أكتانيا، التي عرفت بعدها بالإمارة، لصالح الأمير الأسود أيضًا. وكان المقابل حصول الملك الفرنسي على حريته والالتزام بمعاهدة السلام.

مقبرة الأمير الأسود الإنجليزي إدوارد المتوفى سنة 1376، في كاتدرائية كانتربري.

الملك شارل الخامس الفرنسي يستقبل برتراند دو جسلان، من مخطوط يرجع إلى القرن الرابع عشر كتبت بالنثر عن حياة دو جسلان.

وهكذا حل السلام من الناحية النظرية، واحتفظ آل ڤالوا بتاج فرنسا مقابل تقطيع أوصال المملكة لصالح إنجلترا.

على أن ابن يوحنا -جون- الثاني الطيب وخليفته في العرش من بعده، شارل الخامس الحكيم (1364 - 1380)، والذي تمتع بحصافة العقل والجرأة، محاطًا بكوكبة من المستشارين السياسيين والعسكريين، لم يقبل بهذه الخسارة والمهانة. فبدأ أولاً بتسوية الأوضاع في ولاية بريتاني، واعترف بدوقها الجديد، جون الرابع، رغم أنه كان يحظى بتأييد إنجلترا. وكان الملك جون الثاني الطيب قد وقف بجانب الأمير إنريك دي تراستامارا - من خلال مندوبه دو جسلان - ضد الملك پيدرو، وذلك في وقت الصراع على العرش في مملكة قشتالة بإسبانيا، ورغم وقوف الإنجليز في صف پيدرو، إلا أن النصر في النهاية كان من نصيب إنريك الثاني. كذلك نجح الملك الفرنسي في تزويج ابنه الأصغر، فيليب الجسور دوق برجنديا، من وريثة ولاية فلاندرز. وبالإضافة إلى ذلك، أسس جون نظامًا ماليًا مناسبًا، وجند العديدين للخدمة في الجيش وأمرهم بألا يتفاوضوا مع الإنجليز، وإنما عليهم استعادة المدن الفرنسية والقلاع والأراضي التي أعطيت للإنجليز تحت وطأة معاهدة كاليه.

وبهذه الهمة الجديدة، انقلب الموقف رأسًا على عقب، إذ إن السنوات الأخيرة من حكم الملك إدوارد الثالث في إنجلترا كانت غاية في البؤس، كما أن الرعية الإنجليزية كانت في حال غضب شديد.

توفي الملك الفرنسي الجديد شارل الخامس في سن مبكرة سنة 1380، قبل أن ينجز إصلاحاته التي أخذها على عاتقه؛ ولكنه كان قد نجح في استعادة الكثير من الأراضي من أيدي الإنجليز، وترك لخلفه نموذجًا طيبًا لإدارة الحكم، رغم الضغوط المالية. وفي أثناء ذلك، ظل الإنجليز يلحون على مطالبهم في الأراضي الفرنسية دون هوادة.

كان الوريث الجديد للحكم شارل السادس (1380 - 1422) طفلاً قاصرًا، تحت وصاية عمه دوق بيري وبرجنديا. وبعد أن بلغ الطفل الملك سن الرشد، ابتلي بمرض الجنون ونوباته المتقطعة سنة 1392. ورغم المحاولات العديدة من جانبه لإبرام معاهدة سلام مع إنجلترا، إلا أن الإنجليز لم يستجيبوا لذلك. وكل ما توصل إليه الجانبان تمثل في عقد الهدنة تلو الأخرى. وينبغي هنا ملاحظة أن الملك الإنجليزي الجديد ريتشارد الثاني كان مكروهًا من شعبه، بسبب ميوله الاستبدادية، وميله إلى توقيع معاهدة مع شارل السادس، لكي يتزوج واحدة من بنات الملك الفرنسي.

مذبحة الفلاحين الفرنسيين على يد كتائب ولي العهد الفرنسي سنة 1358، أثناء ثورة الجاكيري، منمنمة من حوليات Jean de Froissart، القرن الخامس عشر، المكتبة الوطنية – باريس.

وباختصار يمكن القول إنه مع نهاية القرن الرابع عشر، وصل الصراع بين المعسكرين إلى طريق مسدود، وهنا يمكن القول بأن حرب المائة عام كان من الممكن أن تصبح حرب الخمسين عامًا فقط!.

وسرعان ما اشتعلت نيران الحرب من جديد، في ظروف كان الملك الفرنسي شارل السادس يعاني فيها من نوبات جنونه، وكانت زوجته البافارية إيزابلا ضعيفة الشخصية؛ وكان أبناؤهما من الشباب المتهورين، كما أن آل فالوا أخذوا ينقسمون على أنفسهم. وفوق هذا كله تم اغتيال ابن عم الملك الفرنسي المدعو لويس دوق أورليون، على يد جون -يوحنا- المتهور دوق برجنديا سنة 1407. وهكذا وقع الصدام بين البرجنديين من ناحية وبين عائلة أرماناك من الناحية الأخرى -اشتق اسم العائلة من برنارد كونت أرماناك وهو والد زوجة شارل آل أورليون ابن لويس- كذلك جلس على عرش إنجلترا ملك جديد هو هنري الخامس، الذي كان شابا طموحًا وجسورًا وبعيد النظر في الأمور السياسية. جاء هنري الخامس ليطالب من جديد بالعرش الفرنسي تارة، أو بالعديد من الأراضي في فرنسا، متمثلة في نورماندي، وآنجو Anjou، وأكتانيا تارة أخرى، وفقًا لصلح كاليه سابق الذكر.

على أن عائلة أرماناك، أصحاب الكلمة العليا في بلاط الملك شارل السادس الفرنسي، رفضوا كل مطالب الملك الإنجليزي بشدة. ونتيجة لذلك أبحر هنري الخامس بأسطوله في سنة 1415، وحط في نورماندي واستولى عليها، بعد أن أوقع الهزيمة بالفرنسيين في موقعة أجينكور.

وبعدها بعامين، أي في سنة 1417، عاد هنري مرة أخرى إلى نورماندیا ليزحف منها على باريس نفسها. في أثناء ذلك كان آل أرماناك يدعون للصلح مع البرجنديين. غير أن الأمور تعقدت عندما قام أكبر أبناء شارل السادس -شارل السابع فيما بعد- بعقد اجتماع مع البرجنديين في بلدة مونترو سنة 1419 للمصالحة، ولكن أحد الفرنسيين قام باغتيال جون المتهور سيد برجنديا أثناء المفاوضات على مرأى من الأمير شارل نفسه. ونتيجة لذلك أقدم وريث جون المتهور وولده فيليب

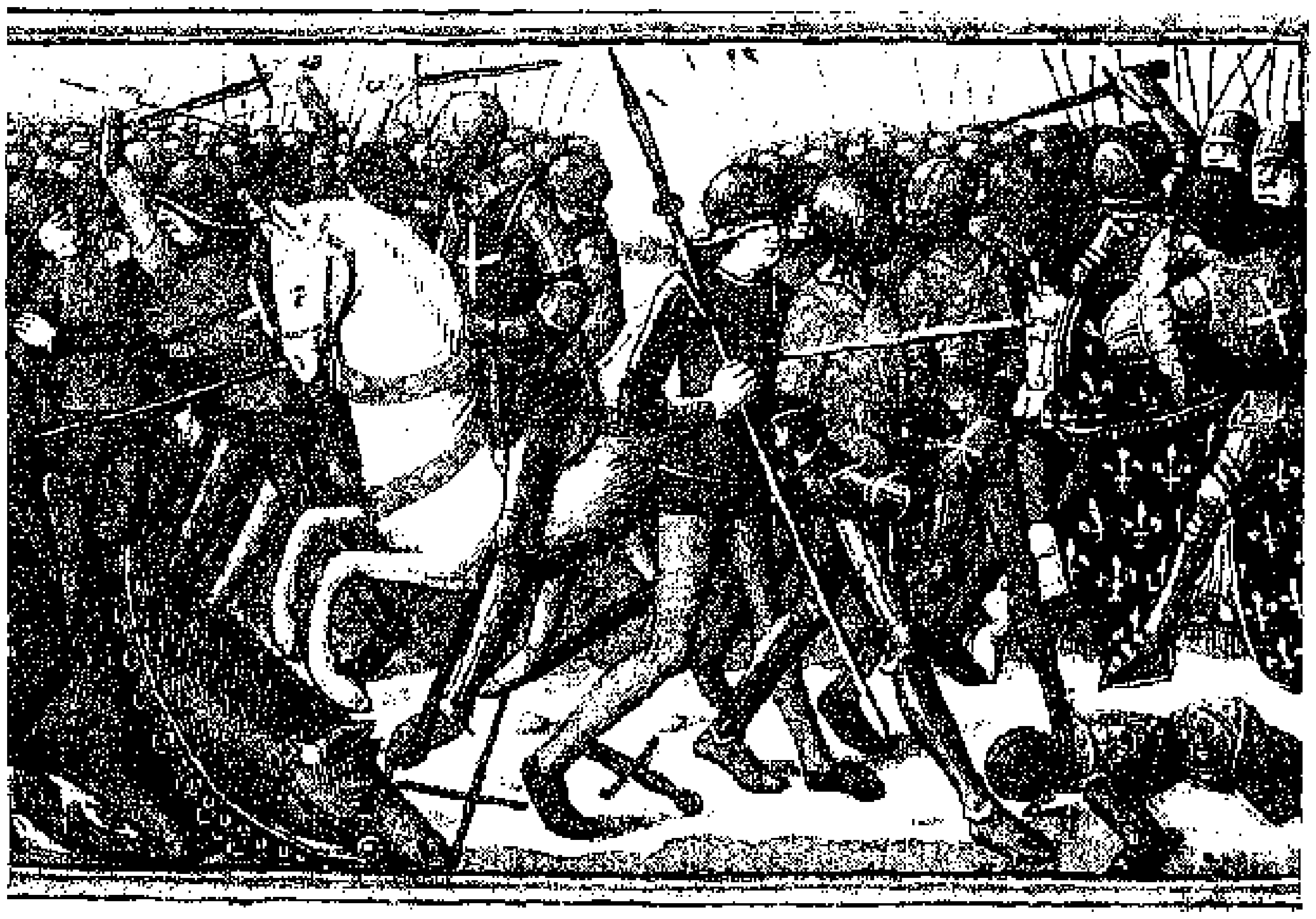

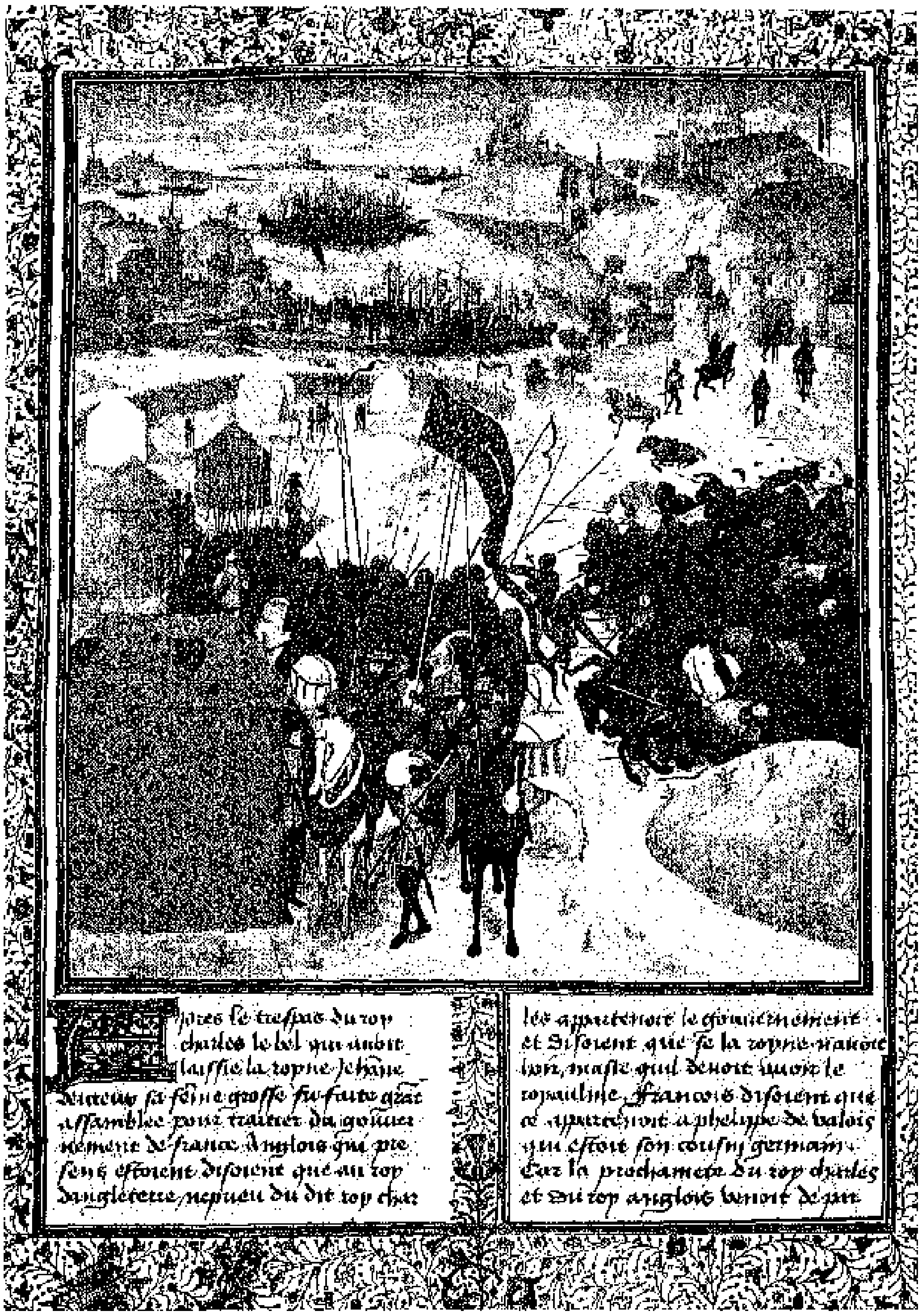

الطيب (1419– 1467) على الاقتراب سياسيًّا من الإنجليز، وتوصل الجميع إلى عقد معاهدة سلام نهائي في مدينة تروي Troyes سنة 1420، والتي بمقتضاها وافق الملك الفرنسي على أن يتخذ هنري الخامس ابنًا له بالتبني، لكي يخلفه فيما بعد على عرش فرنسا. وفي هذه الحال يصبح هنري الخامس ملكا على كل من إنجلترا وفرنسا، بحيث تبقى كل من المملكتين في حال من الحكم الثنائي. ويعني هذا وجود نظام ملكي ثنائي العرش والتاج.

غير أن ولي العهد الفرنسي - شارل السابع فيما بعد- رفض هذا الاتفاق، واعتبره إذلالا للكرامة الفرنسية، ومناقضًا للقانون السالي المتوارث؛ ووقف الفرنسيون، خلفه في رفضه هذا. وعلى هذا اشتعلت الحرب من جديد بين معسكر الإنجليز والبرجنديين من جانب وبين آل أرماناك من جانب آخر. وفي سنة 1422 توفي كل من هنري الخامس الإنجليزي، وشارل السادس الفرنسي تباعًا. وبذلك كان هنالك ملكان لفرنسا من الناحية الرسمية، هنري السادس الإنجليزي وكان عمره عامًا واحدًا، وشارل السابع الفرنسي.

وفي بداية المعارك كانت يد الإنجليز وحلفائهم البرجنديين هي الأقوى؛ ولكن في سنة 1429 ظهرت على المسرح عذراء أورليون جان دارك، التي غيرت مجرى الأحداث والمعارك بشكل جذري؛ فلقد نجحت هي وجنودها من كل أنحاء فرنسا في رفع حصار الإنجليز عن مدينة أورليون، ثم اصطحبت وريث العرش شارل ليتوج ملكا في مدينة ريمز Reims، وبعدها اصطلح شارل السابع مع فيليب الطيب سيد برجنديا، وفق معاهدة آراس Arras سنة 1435. وبعد هذا الصلح، تمكن شارل السابع من استعادة باريس في العام التالي. وسرت في فرنسا موجة من الحماس الزائد لتحرير كل شبر في أرض فرنسا من الإنجليز.

لقد جاهد شارل السابع كثيرًا ليضع حدًّا لتحرشات الإنجليز ومطامعهم، وأيضًا ضد بعض النبلاء الأقوياء في فرنسا نفسها. على أنه مع حلول سنة 1445 كان شارل السابع قد أعاد تنظيم جيشه، واستطاع عندها أن يستولي على نورماندي (1449– 1450)، وعلى بوردو (1451 – 1453). وقد حققت جيوشه انتصارات هائلة، مسحت عار معارك فورميني Formigny سنة 1450، وكاستيو Castillon سنة 1453.

ولكن هذه الانتصارات لم تنه الحرب بين إنجلترا وفرنسا، إذ أصر كل من شارل السابع وهنري الخامس كل على موقفه.

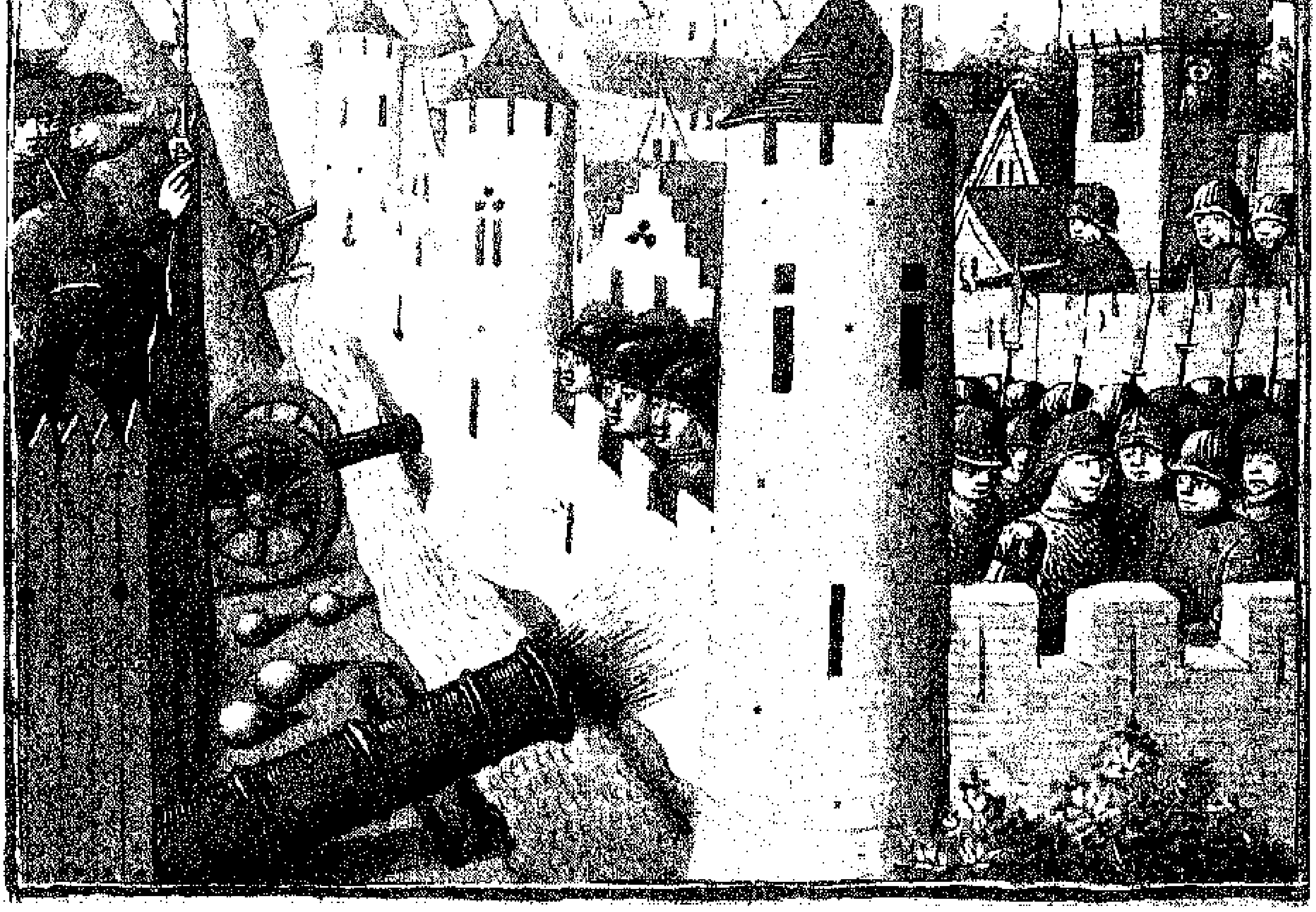

جان دارك ترفع الحصار عن مدينة أورليون، مخطوط عن شارل السابع، لـMartial d'Auvergne ، المكتبة الوطنية – باريس.

في الصفحة المقابلة إلى أعلى: معركة أجينكور، تصوير من القرن الخامس عشر، المكتبة الوطنية – باريس.

في الصفحة المقابلة إلى أسفل، تصوير لمعسكر فرنسي أثناء حرب المائة عام، مكتبة ألبرت الأول الملكية – بروكسل.

وعند هذا المنعطف قامت في إنجلترا، حرب الوردتين بين آل لانكستر، الذين حلت بهم هزائم متكررة في حرب المائة عام، وبين آل يورك، الأمر الذي أصاب سياسة إنجلترا تجاه القارة الأوربية بالشلل التام. ورغم ذلك ظل الفرنسيون في رعب دائم مخافة تجدد الحرب، من خلال حلف إنجليزي – برجندي جديد، في عهد شارل الجسور البرجندي (1467 – 1477)، وإدوارد الرابع (1471– 1483). غير أن هذا التوتر قد زال بعد سنة 1475، التي تم فيها إبرام معاهدة بكيني Picquigny، والتي سمح بموجبها الملك الفرنسي لويس الحادي عشر بعودة الرعايا الإنجليز إلى مدينة كاليه، وبعدهما بعامين في سنة 1477 توفي الدوق البرجندي شارل في معركة نونسي Nancy.

لقد عززت حرب المائة عام من ثقة الإنجليز في أنفسهم، سواء في معارك البر أو البحر ضد فرنسا، كما أن هذه الحرب قد أمدتهم بمادة تاريخية دسمة وذكريات هامة، كما نجده في مسرحيات وليم شكسبير مثلاً، في حين أن الهزائم الأخيرة التي حلت بالإنجليز باتت تُعزى إلى ضعف شخصية هنري السادس، ورغبة الشعب الإنجليزي في الانسحاب من المستنقع الفرنسي.

أما بالنسبة لفرنسا، فقد كانت هذه الحرب كارثة كبرى، في المال والرجال على حد سواء. ولكنها في نفس الوقت ألهبت من المشاعر الوطنية، ووطدت من دعائم التاج الفرنسي، الذي بدأت تنتعش أحواله المالية ما بين سنوات 1440 و1450، من خلال نظام ضريبي ثابت، مكن ملوك فرنسا من إعداد جيش قوي يعتمد عليه.

وفي الختام يمكننا القول بأن حرب المائة عام قد سبقت بحرب مائة عام من قبل؛ بين آل كابيه في فرنسا. وآل بلانتاجنيت في إنجلترا، استمرت من منتصف القرن الثاني عشر حتى أواسط القرن الثالث عشر، وقد تلا هذا حرب مائة عام ثالثة في صراع الإنجليز والفرنسيين حول المستعمرات، من نهاية القرن السابع عشر حتى سنة 1815. ولكن هذا التعميم في هذه الصراعات المتعاقبة لا يمنع القول بأن حرب المائة عام الحقة هي التي وقعت أحداثها ما بين عامي 1337 و 1453، لأنها كانت فريدة في كثافة معاركها، وفي الدمار الذي أحدثته في أراضي فرنسا، وأيضًا لما ترتب عليها من نتائج.

الأسلحة المحمولة والأسلحة النارية في الأندلس في القرن الرابع عشر

ألفارو سولر دل كامبو
المتحف الملكي الحربي – مدريد

ترجمة إسحاق عبيد

يمثل القرن الرابع عشر منعطفا هامًا كمرحلة انتقالية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث؛ هذه المرحلة التي اكتملت معالمها في القرن الخامس عشر. وعلى هذا فإن هذا القرن يعكس الكثير من التطورات التي طرأت على بلاد الأندلس والممالك المسيحية، لأن أسلحة جديدة قد وصلت إلى هذه البقاع، الأمر الذي جعل أسلحة العصر الوسيط لا تصلح لمجاراة العصر.

كان هناك نوعان من السلاح جنبًا إلى جنب في القرن الثالث عشر، سلاح على النمط التقليدي الشائع في الغرب المسيحي، وسلاح آخر خاص ببلاد الأندلس من أصول مشرقية وشمال أفريقية [1]. أما السلاح الأول فقد كان عمليًا من الناحية القتالية في الصراع بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي. ومن بين الأسلحة الهجومية لهذا القسم الحربة العالقة بالإبط، والتي يؤازرها أدوات دفاعية للفارس وجواده، وكان هذا السلاح يمثل ثنائية هامة في معمعة القتال. كما أن الخيالة في تلك الفترة كانوا يستخدمون سيوفًا ذات حدين، مع ضم لوسط السيف مع جزء معين الشكل في الثلث السفلي للسيف. وبهذه الطريقة كان السيف يصلح لتوجيه الضربة ثم نفاذها شقًا ضد الأدوات الدفاعية للخصم المقاتل. أما السلاح الثالث من هذه المجموعة فهو القوس، وبخاصة قوس النشاب، الذي تم تطويره في القرنين السابقين، وصارت له قدرة هجومية هائلة. وقد تمثل هذا التطور في إدخال ملفاف لشحنات النشاب. وقد اتسع استخدام هذا النوع من النشاب في الشرق والغرب، وتشكلت بعد ذلك فرق متخصصة لهذا السلاح بالذات. ولقد وصلت بعض هذا النشاب المتطور إلى غرناطة في عهد بني نصر، كما نستدل على ذلك من قوس النشاب الوحيد الأندلسي، المحفوظ في متحف الآثار في مدينة غرناطة [2]. وهو سلاح وإن كان يبدو أنه سلاح ملكي، ولكنه في نفس الوقت يمثل الطراز الذي كان يستخدم في القتال.

أما الأسلحة الدفاعية فكان أبرزها الدرع المزرد في شكل معطف بحلقات، وذلك لوقاية المقاتل وجواده. وكانت هذه المعاطف المزردة تغطي جسد الفارس كاملًا، بما في ذلك الرأس التي تحميها الخوذة، في حين أن ذراعي الفارس تحميها الأكمام والقفازات، ثم يأتي الطماق لحماية الساقين.

ويتضح من ذلك أن العقود الأخيرة من القرن، قد شهدت إدخال رقائق معدنية، كخطوة أولى لإحلال الدرع المزرد كواق لجسم المحارب.

ولم يكن استخدام هذا النوع من السلاح في بلاد الأندلس يعني التخلي عن الأسلحة المعروفة في العالم الإسلامي والشمال الأفريقي، خاصة بعد أن طور الأفارقة الشماليون هذا السلاح. وكان التأثير الإسلامي واضحًا في استخدام تكتيك الكر والفر tornafuye، أي الهجوم السريع المتتابع والمباغت ثم الفر. وهذا النوع من القتال يتطلب فروسية خفيفة الحركة؛ شبيهة بفروسية عصر الخلفاء الراشدين وأسلحتهم. وعلى ما يبدو لم يكن هنالك تغيير واضح في فرق المشاة غير المتخصصة، وعليه فإن سلاح هذه الفرق بقي كما هو، مؤلفًا من الحراب والخناجر والدروع.

ثم جاءت مؤثرات جديدة إلى بلاد الأندلس من شمال أفريقيا وبلاد المشرق. ومن أبرز هذه المستجدات ما يعرف باسم الدرع الجلدي – الدرقة –adarga، الذي نجد ذكرا له في مدونة الملك ألفونسو العاشر الحكيم بعنوان Códice Rico de las Cantigas de Santa Maria وهذا الدرع الجديد مصنوع من قطع جلدية مخيطة ومطوية، وكانت تعد وقتها من أهم

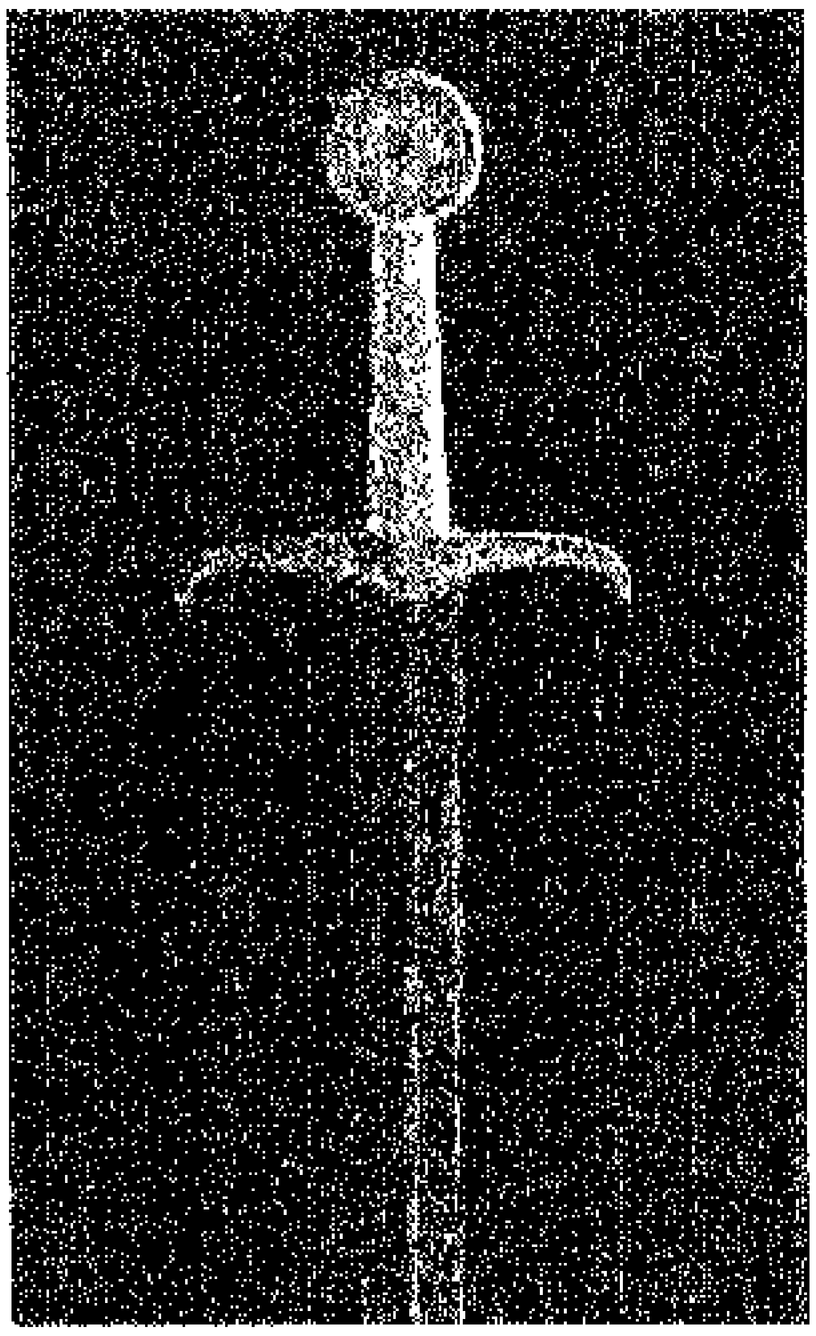

سيف فرنسي ذات مقبض مزخرف، يرجع إلى أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الرابع عشر، مؤسسة لازارو جالديانو – مدريد.

1 Soler del Campo, A. (1993) «Notas sobre la evolución de los modelos de armamento utilizados en Al-Andalus: Siglos X-XV», Actas del IV Congreso de Arqueología Medieval Española, vol. I, págs. 97- 115; id., (1993) La evolución del armamento medieval en el reino castellano-leonés y Al-Andalus: siglos XII-XIV. Madrid; Id., (1995) «Arreos y jaeces para caballería en Al-Andalus», Al-Andalus y el caballo [Cat. expo]. Barcelona-Madrid, págs. 81-97.

2 Mendoza Eguaras, A.; Sáez Pérez, L.; De Santiago Simón, E. (1982) «La ballesta nazarí del Museo Arqueológico Provincial de Granada», Cuadernos de la Alhambra, núm. 18, págs. 179- 182.

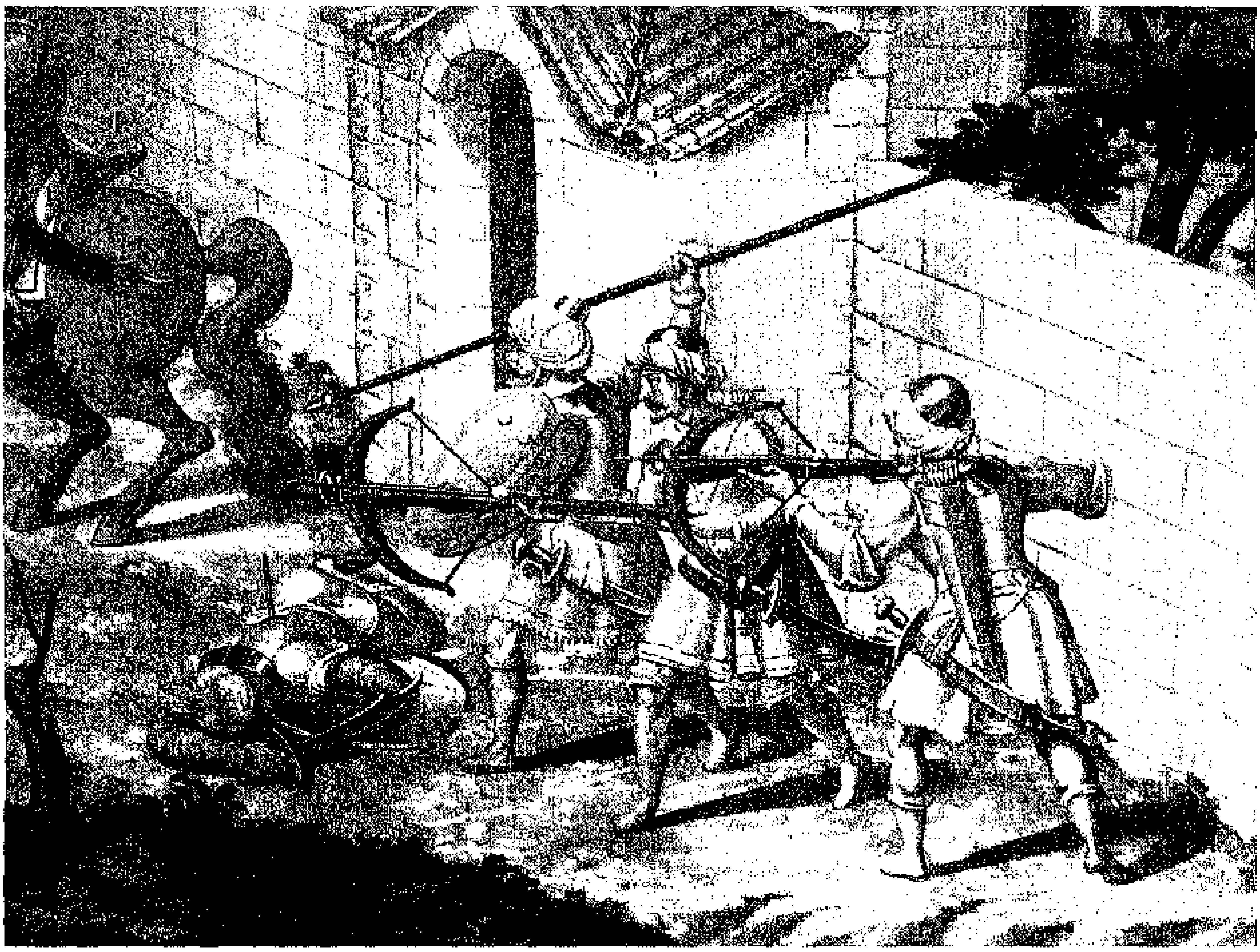

أقواس النشاب المستخدمة في مملكة غرناطة في عهد بني نصر، تصوير لمعركة La Higueruela بين خوان الثاني ملك قشتالة ومملكة بني نصر سنة 1431. رسم جرالللو، كاستللو، تافاروني، وأورازيو كامبيازد، بعود إلى سنة 1587 – 1589، دير سان لورنزو دي الإسكوريال.

التطورات في فن القتال. ولا يعرف على وجه التحديد مصدر هذه الدروع، وإن كان الأرجح أنها قد وفدت من الشمال الأفريقي [3].

هذا ويبدو أن عدة الحرب للفرسان قد تأثرت هي الأخرى بمؤثرات إفريقية شمالية، من ذلك لجام الخيل المصنوع من شكيمة طويلة، بدون حديدة الفك المعروفة في الغرب المسيحي. كذلك ازدانت خيول الفرسان بزخرفات على شكل دلايات تتدلى من رقبة الجواد مؤلفة من خرز كروي الشكل، وقد عرفت باسم اللحى التركية barbas turcas. وإلى جانب ذلك، تتضح تأثيرات الحضارة الإسلامية في استخدام البطاطين لتغطية أرداف الجواد، وهي مزدانة بخاتم سليمان، ومربعات لوحة الشطرنج، وخطوط متعرجة. وفي أوائل القرن الرابع عشر، ظل التأثير الغربي الأوروبي مستمراً في عدة الفرسان؛ على أن تحولاً هاماً حدث في الثلث الأول من القرن نفسه، إذ إنتهى إتباع هذا الطراز الأوروبي؛ ليحل محله الطراز الإسلامي حتى نهاية مملكة غرناطة. ذلك أن غرناطة في تلك الحقبة قد اهتمت بمعطيات بيئتها الحضارية، وراحت تتجاهل التطورات التي حلت في الممالك المسيحية والتي اتجهت نحو العدة الثقيلة للفروسية مع نهاية القرن. والواقع أن معلوماتنا في هذا الصدد عن القرنين الرابع عشر والخامس عشر معلومات ضئيلة، سواء بالصورة أو بالكلمة، ولكنها في نفس الوقت ذات دلالات هامة، وهذا ما نتبينه من خلال بعض الأسلحة التي حفظت. وتكشف هذه الأسلحة القليلة المحفوظة في كسوات كتانية عن مظاهر الأبهة والوجاهة في بلاط غرناطة. وعليه فإن هذه النماذج ما هي إلا رموز وليست أسلحة للقتال، وإن كانت تعطينا فكرة عن طبيعة تلك الأسلحة، التي لابد أنها كانت أقل فخامة وزخرفة.

ولعل من أهم ملامح تلك الفترة ظهور طراز من السيوف عرفت باسم الزناتية Jinetas والتي صورت على جدران قصر البرطل في مدينة الحمراء. وتتميز هذه السيوف بمقبض من

3 Buttin, F. (1960) «Les adargues de Fes», Hespéris-Tamuda, vol. I, págs. 409-455.

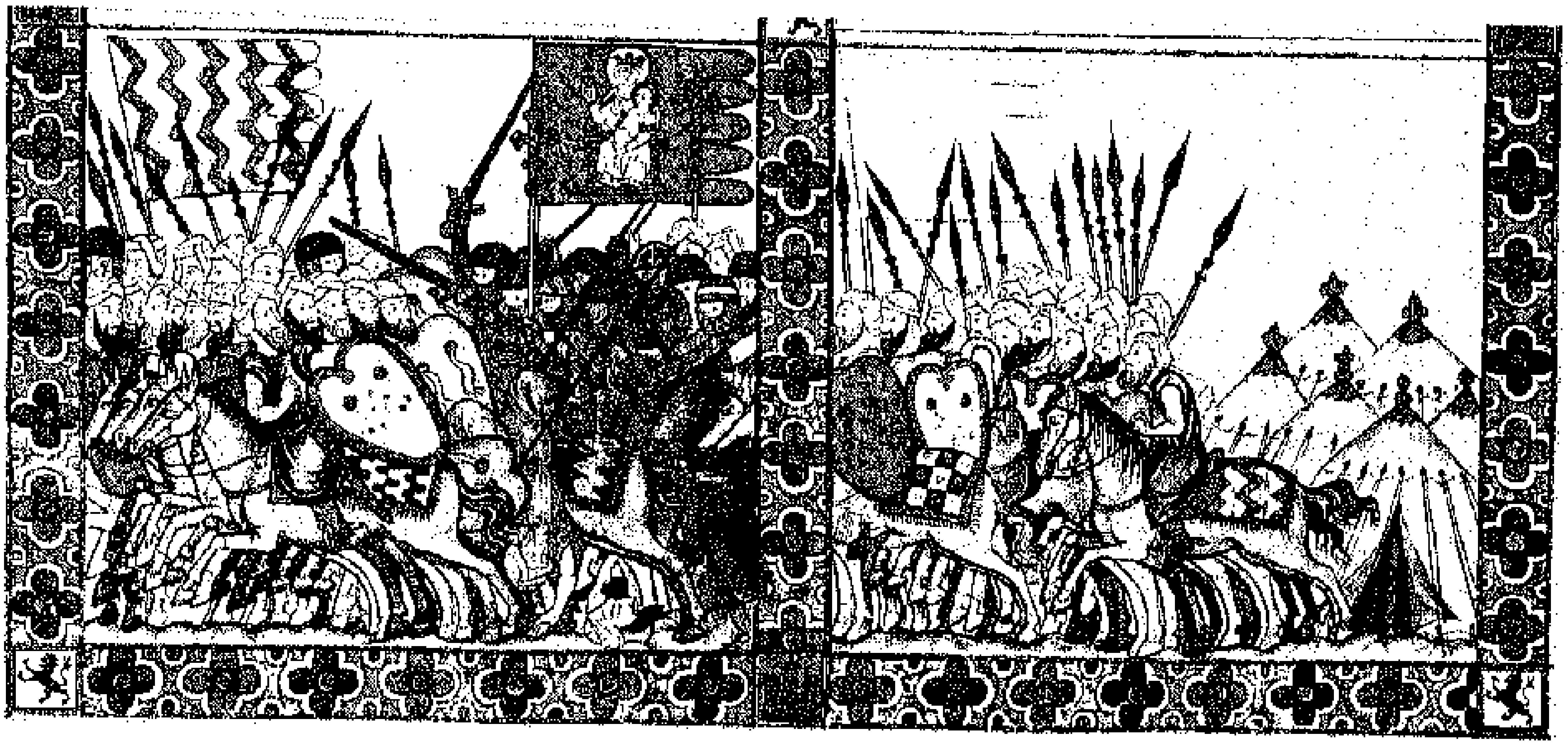

ثلاث قطع، ورمانات ذات ثنيات صغيرة مستديرة، لا تعرف دلالتها حتى وقتنا هذا. ويشتم من هذا الطراز من السيوف الجمع بين مؤثرات غربية وأخرى مشرقية. وهذه المؤثرات بعضها من الغرب الأوروبي، وهي تتمثل في الرمانات المستديرة بسطح مصقول أو كروي، مع تمثيل لرؤوس بعض الحيوانات على نهايات الثنيات الصغيرة، أو بزخرفة بالمينا من أصول مشرقية. وقد كشفت بعض الدراسات الحديثة عن أن وجود صور لرؤوس التنين يحمل إشارة إلى سيف الرسول -ﷺ- ذو الفقار، وهذا كله قد أعطى قيمة زخرفية لهذه السيوف بصفة عامة[4].

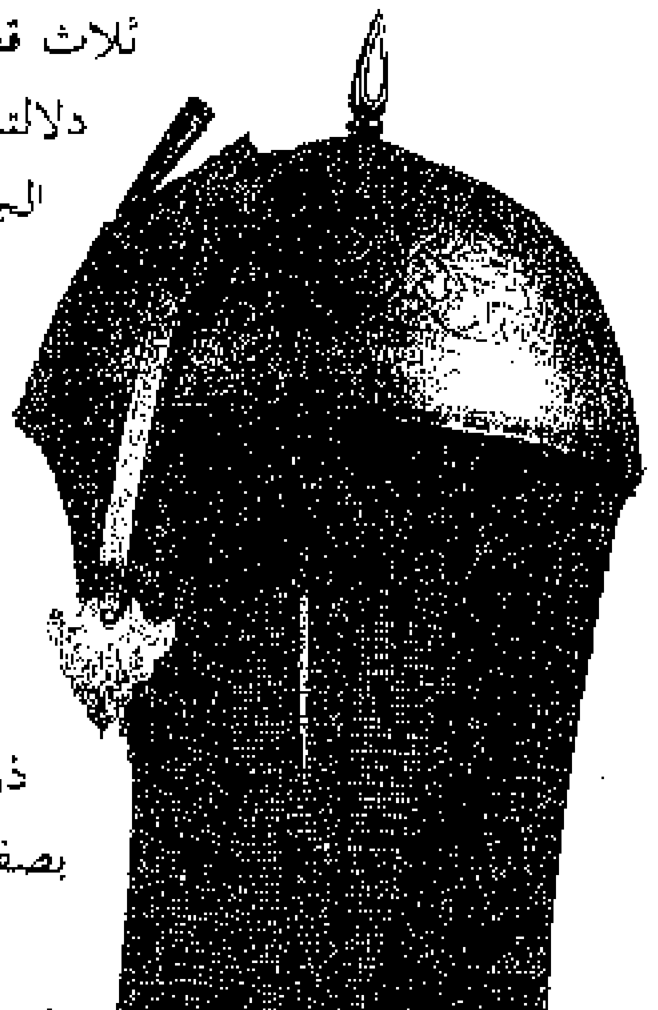

وإلى جانب هذه السيوف الزناتية المغربية، كان هناك نوع غرناطي خاص من الخناجر ذات المقابض، والتي ظهرت للمرة الأولى في تلك الحقبة. وقد اتخذت هذه الخناجر اسمها من شكل قطعتين من الحجر - الرمان - مخروطية السطح، مع تجويف مقعر في وسط المقبض. ويعزي الباحثون ظهور هذا النوع من المقابض إلى مملكة بني نصر في غرناطة؛ وهو أقدم الأمثلة المحفوظة حتى يومنا هذا، ويرجع تاريخه إلى حكم الملك أبو عبد الله محمد الثاني عشر[5].

ويحتفظ متحف مدريد الحربي بسيف فريد من نوعه، يتميز بقطعتين من العظم المحفور تحيطان بالمقبض وبالرمانة، وتغطيان الرقائق العليا، بطريقة تحاكي خناجر فرسان الملك. وهذا السيف وذاك الخنجر المشار إليهما ليس لهما نظير في شبه الجزيرة الأيبيرية أو في أوروبا المسيحية وإلى جانب هذه الأسلحة الملكية، فإن المصادر المدونة وكذا التصاوير والرسومات، ومن بينها شهادة ابن هذيل، ورسومات قصر البرطل، كلها تشير إلى استخدام فرق الفرسان الخفيفة الحركة للأقواس المركبة، على الطراز الأندلسي التقليدي. وتكشف الرسومات في قصر البرطل للمهاميز عن تماثل بينها وبين المهاميز التركية الأصل، والتي تتميز بالشكل المستطيل، مع تقاطع دائري على أحد الجوانب يمتد على طول المهماز.

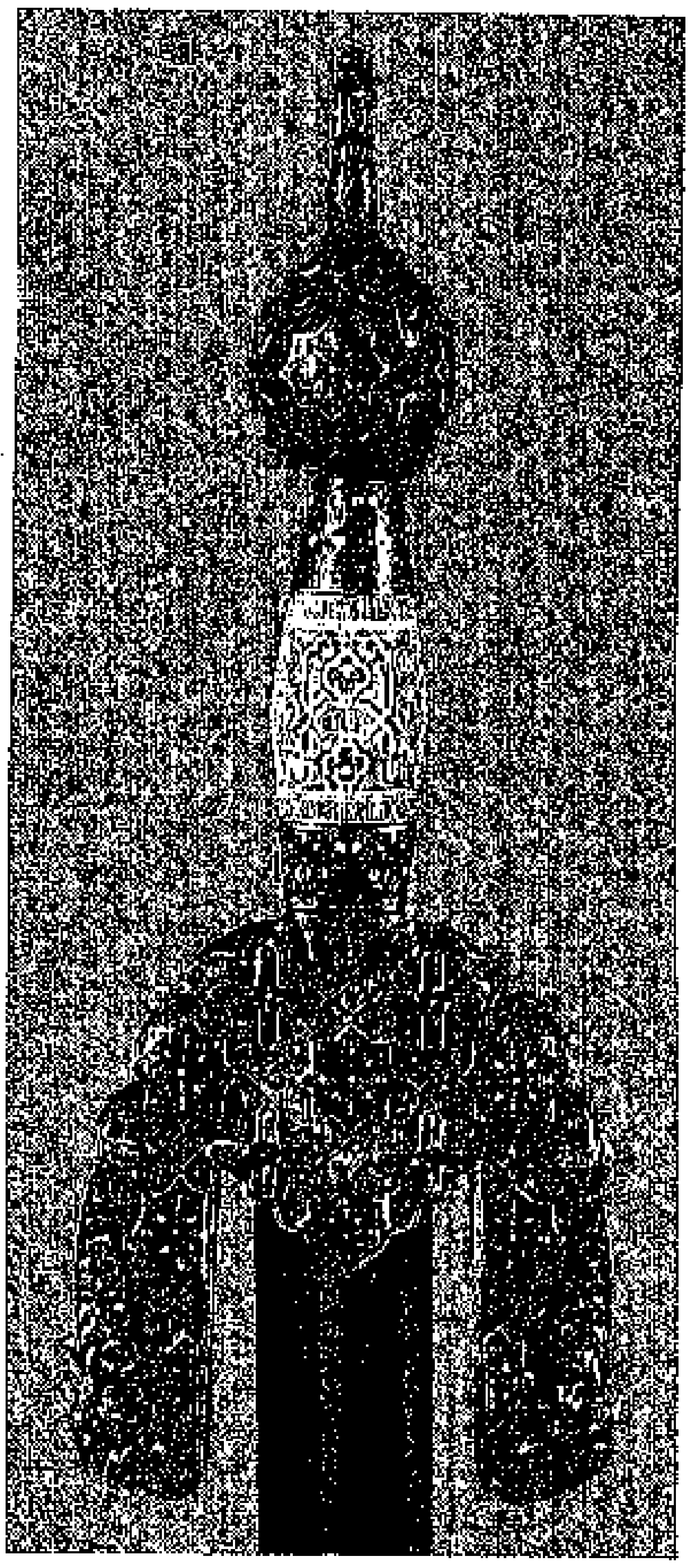

فرسان مسلمون وخيالة، تصوير من أناشيد خاصة بالملك ألفونسو العاشر؛ يرجع إلى القرن الثالث عشر، مكتبة دير سان لورنزو دي الإسكوريال.

على يمين الصفحة من أسفل، سيف الملك النصري أبو عبدالله، آخر ملوك غرناطة، القرن الخامس عشر، المتحف الحربي- مدريد.

خوذة هندية - فارسية يعلوها شكل هرمي، وغطاء للأنف، وغطاء للرأس، وسلسلة مزردة، تشكل جديد يرجع إلى القرن التاسع عشر، المتحف البحري - مدريد.

تصوير جداري في قصر البرطل في مدينة الحمراء (غرناطة)، يرجع إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر، لنسخة تعود إلى عامي 1921 - 1922.

أما عن الأسلحة الدفاعية، فإن رسومات قصر البرطل تصور لنا بعض الخوذات المنتهية من أعلى بشكل مخروطي، مع واقٍ للأنف في البعض، ودون هذا الواقي في البعض الآخر. ولا تعكس نقوش شبه الجزيرة الأيبيرية في الممالك المسيحية مثل هذه النماذج، التي كانت سائدة في بلاد المشرق. ومن ناحية أخرى تعرض رسومات قصر البرطل صورًا لمعاطف مدرعة، في حين يطالعنا ابن هذيل بالعديد من أشكال هذه المعاطف المدرعة، الفضفاض منها، والضيق الملائم، والطويل، والقصير، وذلك وفقًا لعدد الحلقات التي تؤلف هذا المعطف أو ذاك. ويذكر ابن هذيل أيضًا نوعًا خاصًا من هذه المعاطف عرف باسم الجوشن، وهو معطف مدرع ومقوى برقائق معدنية [6].

كل هذا يشير إلى أن غرناطة في القرن الرابع عشر كانت منفصلة عن مسارات الأسلحة في الممالك المسيحية لشبه جزيرة أيبيرية. فلقد آثرت مملكة غرناطة الاعتماد على فرق الفرسان الخفيفة بدلاً من نظام الفروسية الثقيلة في الغرب المسيحي. وهكذا حافظت غرناطة على تقاليدها وخصوصيتها في هذا الشأن، وهذا شيء فريد لم يحدث مثله من قبل في بلاد الأندلس منذ العصر الأموي.

على أن أهم ملمح في تطور الأسلحة في القرن الرابع عشر كان ظهور المدفعية والأسلحة النارية المحمولة. ولا تزال المعلومات حول كيفية وصول هذه الأسلحة الجديدة إلى العالم الأوروبي قليلة وغامضة. ويميل الباحثون إلى الأخذ بالرأي القائل بأنه بعد اختراع الصين للبارود في منتصف القرن الثالث عشر، انتقل هذا الاختراع إلى العالم الإسلامي في النصف الثاني لنفس القرن. ونحن لا نملك في نفس الوقت معلومات موثوقًا بها، اللهم إلا الإشارة القائلة بأن استخدام الأسلحة النارية في أوروبا قد بدأ سنة 1326 [7]. وجاءت أول إشارة في طلب مدينة فلورنسا للأسلحة النارية والمدافع المعدنية للدفاع عن المدينة. أما الإشارة الثانية فقد وردت في المخطوطة التي رفعها والتر دي مليمت Milemete للملك الإنجليزي إدوارد الثالث بعنوان: "عن نبل، وحصافة، وحكمة الملوك" De Nobilitatibus, Sapientiis et prudentiis Regum وتوضح واحدة من الرسوم في هذه المخطوطة شكلاً لمدفع على هيئة الآنية، مع مؤخرة منتفخة، وتجويف أسطواني. ويقف بجوار هذا المدفع فارس بدرعه المزرد، يتأهب لإشعال الفتيل؛ لإطلاق قذيفة من فوهة المدفع. ويتسق هذا الوصف مع اكتشاف تم لمدفع برونزي في بلدة لو شولت Loshult في السويد، وهو محفوظ الآن في المتحف التاريخي الوطني في استوكهلم. وهذا المدفع شبيه بالمدفع الذي صوره ميمت الذي سبقت الإشارة إليه، الذي يتضح فيه انتفاخ المؤخرة؛ وثقب لإشعال الفتيل، وتجويف إسطواني، وفوهة مخففة.

4 Alexander, D. (1999) «*Dhu'l-faqar and the Legacy of the Prophet, Mirath Rasul Allah*», *Gladius*, vol. XIX, págs. 157-187.

5 Soler del Campo, A. (1992) «Armas y armaduras», Al-Andalus. *Las artes islámicas en España*. [Cat. expo.]. Madrid- Nueva York, .págs. 282- 299

6 Ibn Hudayl, (1977) *Gala de Caballeros, Blasón de Paladines*, trad. Mª. J. Viguera Molins, .Madrid, pág. 212

7 Blackmore, H. (1965) *Guns and Rifles of the World*. Nueva York. North, A.; Hogg, I. V. (1977) *The book of Guns& Gunsmiths*. Londres. Hoff, A. (1978) *Dutch Firearms*. *Londres*. Oakeshott, E. (1980) *European weapons and armour. From the Reniasance to the Military Revolution*. Woodbridge. Blair, E. (ed.) (1983) Pollard's *History of* .*Firearms*, Feltham

وتوحي المصادر بدءًا من سنة 1326، إلى أن تطوير هذه الأسحة النارية يمكن إرجاعه إلى أواخر القرن الثالث عشر أو بدايات القرن الرابع عشر.

ومع الربع الثاني للقرن الرابع عشر، نجد إشارات إلى انتشار هذه الأسلحة النارية في القارة الأوروبية. ومن بين هذه الإشارات أخبار تفيد بوصول كم من هذه الأسلحة إلى ملك فرنسا بتاريخ 13 يوليو 1338، ببلدة روين Rouen. وهناك إشارة أخرى من هولندا عن مدافع قاذفة يرجع تاريخها إلى العقدين الثاني والثالث من القرن الرابع عشر وفي أربعينيات نفس القرن ازدادت الوثائق عن المدفعية، مما يشير إلى شيوع استخدامها في منتصف القرن [8].

وكانت قطع المدفعية في ذلك الوقت تصنع من الحديد أو البرونز، وكانت مؤخرة المدفع وماسورته ترفعان على عربة خشبية. ولابد لنا أن نفترض أن هذه المدافع كان يوازرها السلاح المحمول، الذي لقي بدوره تطويرًا هامًا. وهناك قرائن على استخدام هذه الأسلحة النارية على نطاق واسع في غربي أوروبا في الربع الثالث من القرن الرابع عشر وكانت الأسلحة النارية المحمولة تشمل بنادق ذات ماسورة قصيرة مصنوعة من الحديد أو البرونز، ولها مقابض بدعائم من الخشب، شبيهة بدعائم قوس النشاب. وكان يتم إطلاق هذه البنادق بنفس طريقة إطلاق قذائف المدافع، أي من خلال الفتيل على مؤخرتها. وخلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر، يمكن تقسيم أنواع هذه الأسلحة النارية إلى أربع مجموعات، طبقًا لشكلها ونظام تثبيتها: أسلحة ذات ذيل لإدخال المقذوفات، وأسلحة ذات رأس مذبب عند المرمى لترتكز على قاعدة خشبية، وأسلحة تثبت بمقابض؛ ثم أسلحة ذات نتوءات من الماسورة في شكل قطعة واحدة. ويحتوي متحف الأسلحة الملكي في مدريد -كتالوج K.I- على أقدم أسلحة نارية عرفت في إسبانيا، كان قد عثر عليها في منطقة بالما دي ميورقة، وترجع إلى أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر. غير أننا لا نعلم أين تم صنعها، وإن كان لها نظائر مشابهة في العديد من البلدان الأوروبية. وتتألف هذه الأسلحة من قطعة واحدة من الحديد في شكلين مختلفين: الجزء الأمامي له قطر كبير أكبر من المؤخرة؛ التي تحوي ثقبًا لإشعال الفتيل. أما الماسورة فهي مثبتة بواسطة المقبض المرتكز على قطعة خشبية، مثلما هي الحال في القوس النشاب.

وفي هذا كله تتشابه الأسلحة النارية في شبه جزيرة أيبيرية مع سائر البلدان الأوروبية [9]، مثلما هي الحال مع أسلحة أخرى منذ القرن الحادي عشر. وعليه فإننا نفترض – مجرد افتراض نظرًا لقلة المعلومات أو الرسومات – أن الأسلحة النارية في أيبيرية لم تختلف بدرجة كبيرة عن تلك التي سبق ذكرها. ويعزى أول ذكر لاستخدام الأسلحة النارية إلى ابن الخطيب في كتابه اللمحة

8 .Véase nota 7

9 Bruhn de Hoffmeyer, A. (1982) *Arms and Armour in Spain. A Short Survey. Vol.II. From the End of the 12th Century to the Beginnings of the 15th Century.* Madrid, págs. 214- 221.

10 al-Abbadi, M. (1963-1966) «Al-Gani Bi-llah, Rey de Granada», *Revista del Instituto de Estudios Islámicos,* vols. XI-XII, XIII, pág. 221.

11 Lavin, J. D. «Some Early Documents regarding the use of Gunpowder in Spain», *Journal of the Arms and Armour Society* IV, 9, págs.163- 169. North, A.; Hogg, I. V. op.cit., págs. 12 -14.

12 Véase: *La artillería de los Reyes Católicos.* (Cat. exp. Medina del Campo, agosto-octubre de 2004).Valladolid, 2004. VV.AA. (2004) *Artillería y Fortificaciones en la Corona de Castilla durante el reinado de Isabel la Católica.* 1474-1504. Madrid.

البدرية [10]، حيث يذكر أن العاهل إسماعيل الأول قد استخدمها في حصار بلدة أشكر Huescar سنة 1325.

ومعنى هذا أن هذا الحدث يسبق التوثيق الأوروبي بعام، وإن كان من الصعب التأكيد على هذه التواريخ بدقة، بسبب الطبيعة غير المحددة لبعض الوثائق وتواريخها. وفي هذا السياق نجد الإشارة أيضًا إلى قصف الرعد truenos من جانب الملك ألفونسو الحادي عشر عند حصاره لمدينة الجزيرة الخضراء سنة 1344، التي تعد من أقدم الإشارات إلى استخدام المدافع في ميدان القتال. وهاتان الإشارتان تعدان أقدم الإشارات على استخدام المدافع في المعارك الحربية ضد العالم الإسلامي، من منظور أوروبي [11]. ويستدل من حولية ألفونسو الحادي عشر، ومن قصيدة ألفونسو أونشينو أن هذه المدافع قد استخدمت بكثافة؛ ولكن تأثيرها كان محدودًا بطبيعة الحال ولهذا السبب فقد تم استخدام هذه الأسلحة في حالتي الهجوم والدفاع بالنسبة للمدن، وإن كان من المستحيل استخدامها في ميادين القتال لأنها لم تكن قد تطورت بعد.

وفي جميع الأحوال، فإن المعركة المعروفة باسم معركة مضيق جبل طارق، أول معركة استخدمت فيها المدافع بطريقة مكثفة. ولقد تم تطوير هذه الأسلحة في القرن الخامس عشر، حتى صارت تلعب الدور الأكبر في المعارك التي شنها الملوك الكاثوليك على بوابات مملكة غرناطة؛ وهذا يمثل سابقة ذات دلالات مادية ومعنوية بالنسبة لحروب العصور الحديثة وأسلحتها [12].

الصفحة المقابلة، تصوير يرجع إلى القرن الرابع عشر، يشير إلى الإمبراطور الألماني وأمامه مدفع بدائي الصنع، المكتبة الوطنية – باريس.

تفصيل من تصوير جداري في قصر البرطل بالحمراء: يبين فرسان غرناطة في معمعة المعركة: النصف الأول من القرن الرابع عشر، نسخة تعود إلى عامي 1921 – 1922.

تصوير لمدفع ضخم يحشي بالقذائف من المؤخرة، يرجع إلى القرن الرابع عشر، المتحف البحري – مدريد.

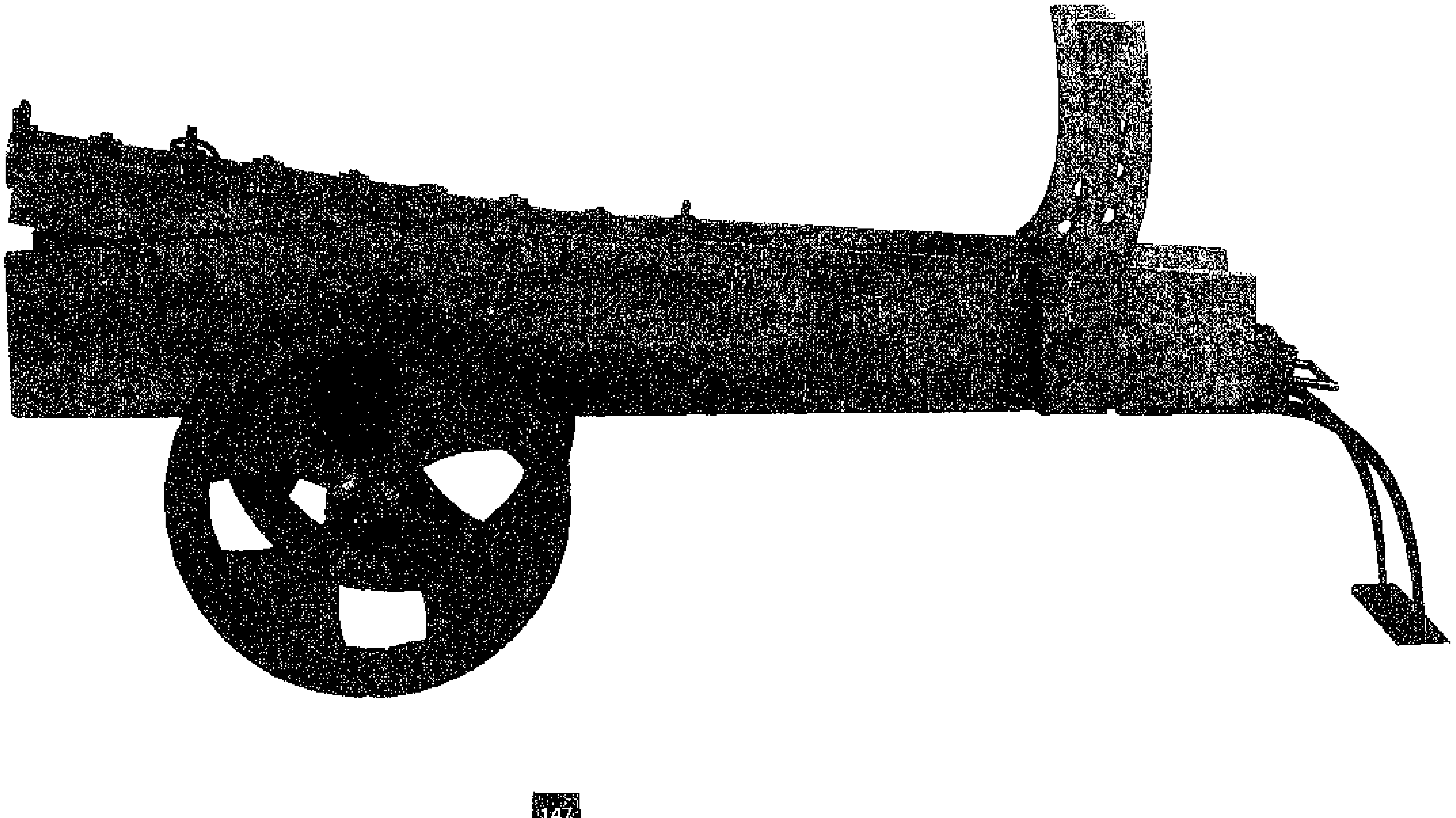

ابن خلدون والتوسع الفرنجي

جابريل مارتينز جروس
جامعة باريس الثامنة – باريس
ترجمة حاتم الطحاوي

شكلت حركة الاسترداد نقطة التمحور في تاريخ إسبانيا، في حين مثلت هذه القضية على الجانب الآخر من البحر المتوسط، من منظور معظم مؤرخي العرب المرموقين آنذاك، حلقة من أكثر الحلقات مأساوية في تاريخ توسع الفرنجة الذي امتد من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر [1]. إن ظروف فقدان الأندلس تماثل تلك الظروف التي فقدت فيها صقلية التي تم غزوها على يد النورمان فيما بين سنتي 1060 و1091، وتماثل أيضا تاريخ الحملات الصليبية الذي بدأ بانتزاع القدس في سنة 1099 واستمر كذلك لمدة قرنين متتابعين حتى سنة 1291 حيث انتهى بسقوط مدينة عكا على أيدي السلطان المملوكي الأشرف خليل. إضافة إلى أن أحد المصادر الموثوق فيها من قبل ابن خلدون – التاريخ الكامل – لابن الأثير الموصلي (1160-1234)، يشير إلى أن التهديدين المزدوجين اللذين وجههما كل من الفرنجة في الحملة الصليبية الخامسة بقيادة الكاردينال بلاجيوس والمغول في نفس هذا العام، حيث قام جنكيز خان (1219- 1220) بالقضاء على دول الإسلام في آسيا الوسطى وأخضع سكانها لعملية إبادة منظمة ومهد الطريق لأبنائه وورثته من بعده ليشنوا الغزوات المدمرة على نصف العالم الإسلامي.

ولقد شعر المؤرخون المسلمون بعمق بهذا التطابق الذي اعتبروه علامة على أن العالم قد أوشك على الانتهاء، ومع ذلك فإن إدراكهم وتحليلهم قد خلف لنا معلومات دقيقة أمدنا بها مراقب مسلم من القرن الثالث عشر، نتيجة للدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية في العالم آنذاك.

ومع ذلك اتجه مؤرخون محدثون إلى فصل ظاهرة التوسع الفرنجي، وألحقوا بها إعادة حركة الاسترداد الإسبانية في سياق تاريخ العصور الوسطى الإسلامية، وعمومًا فقد أدركوا أن أهمية الخط الفاصل لمنتصف القرن الحادي عشر تكمن في انسحاب المسلمين من البحر المتوسط، في كل من صقلية أو في شبه جزيرة أيبيرية ومن المواقع البحرية بشكل عام. ولكنهم أكدوا على نجاح فتوحات الإسلام على جبهات أخرى ولكن بالترتيب الخاطئ: من أفريقيا حتى جنوب الصحراء الكبرى، وقد قضى المرابطون المسلمون على إمبراطورية غانا الوثنية في نهاية القرن الحادي عشر، تلك الفترة التي شن فيها الأتراك هجومًا على الأناضول البيزنطية التي أطلقوا عليها بعد عدة قرون اسم تركيا. وبعد حلول سنة 1000، اكتسحت الحملات التركية الدموية والمدمرة شمال شرق الهند بقيادة محمود الغزنوي، ذي الأصل التركي.

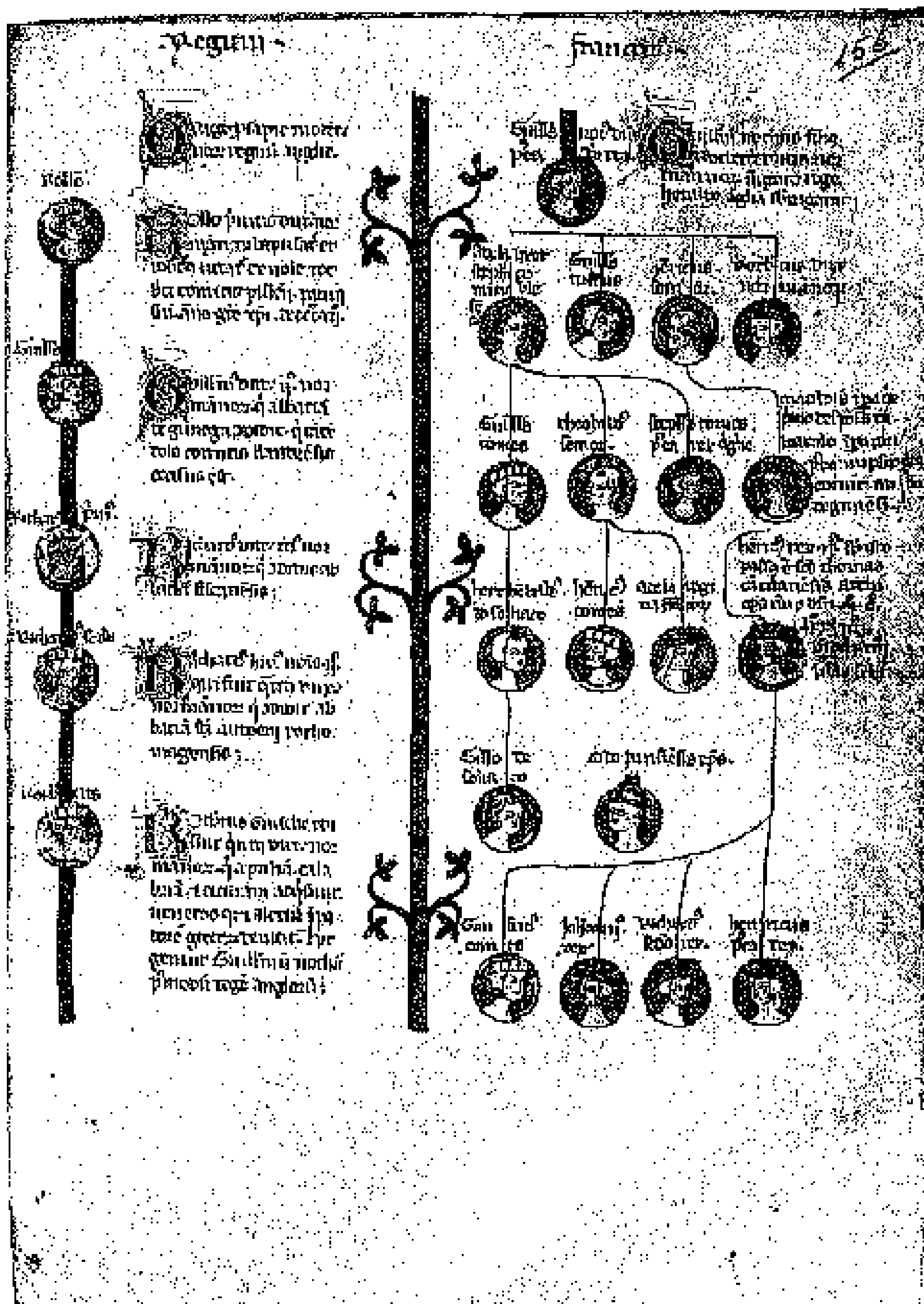

شجرتين لعائلتين، صفحة من مخطوط مذهب بعنوان De origine prime Bemardus J ،francorum Guldonis، تعود إلى سنة 1331، المكتبة الوطنية – مدريد.

قامت الأمم الجديدة (حديثة العهد بالإسلام) من البربر والأتراك بتجديد فتوحاتهم التي توقفت منذ منتصف القرن الثالث عشر وقاموا بنشر وتمكين الإسلام في الربوع. وفي هذا الإطار، يتضح أن تراجع الإسلام في دول البحر المتوسط يعد مجرد استثناء.

وهذا هو تماما ما يرفضه ابن خلدون؛ إذ ترتكز نظريته عن التاريخ على تفاعل وتصارع قوتين متعارضتين ومكملتين أطلق عليهما اسم البداوة والحضر. يتميز المجتمع الحضري بتطبيق النظام الملكي الذي يفرض سيطرته على عدد كبير من السكان العزل، ويقوم بجمع الضرائب، مما يؤدي إلى المزيد والمزيد من التقسيم المركب للعمل، ويشجع على ظهور الفنون، والتعليم،

[1] مثل غالبية المؤرخين الشرقيين، أطلق ابن خلدون مصطلح الفرنجة على جميع سكان أوروبا. وبشكل عام، لم يفرق ابن خلدون بين الجليقيين أي أهل جيليقية وبين أهل قشتالة وليون أي القشتاليين والليونيين، وكذلك البشكنس أي الباسك والنافار وبين باقي سكان القارة، كما فعل المؤرخون الأندلسيون عادة.

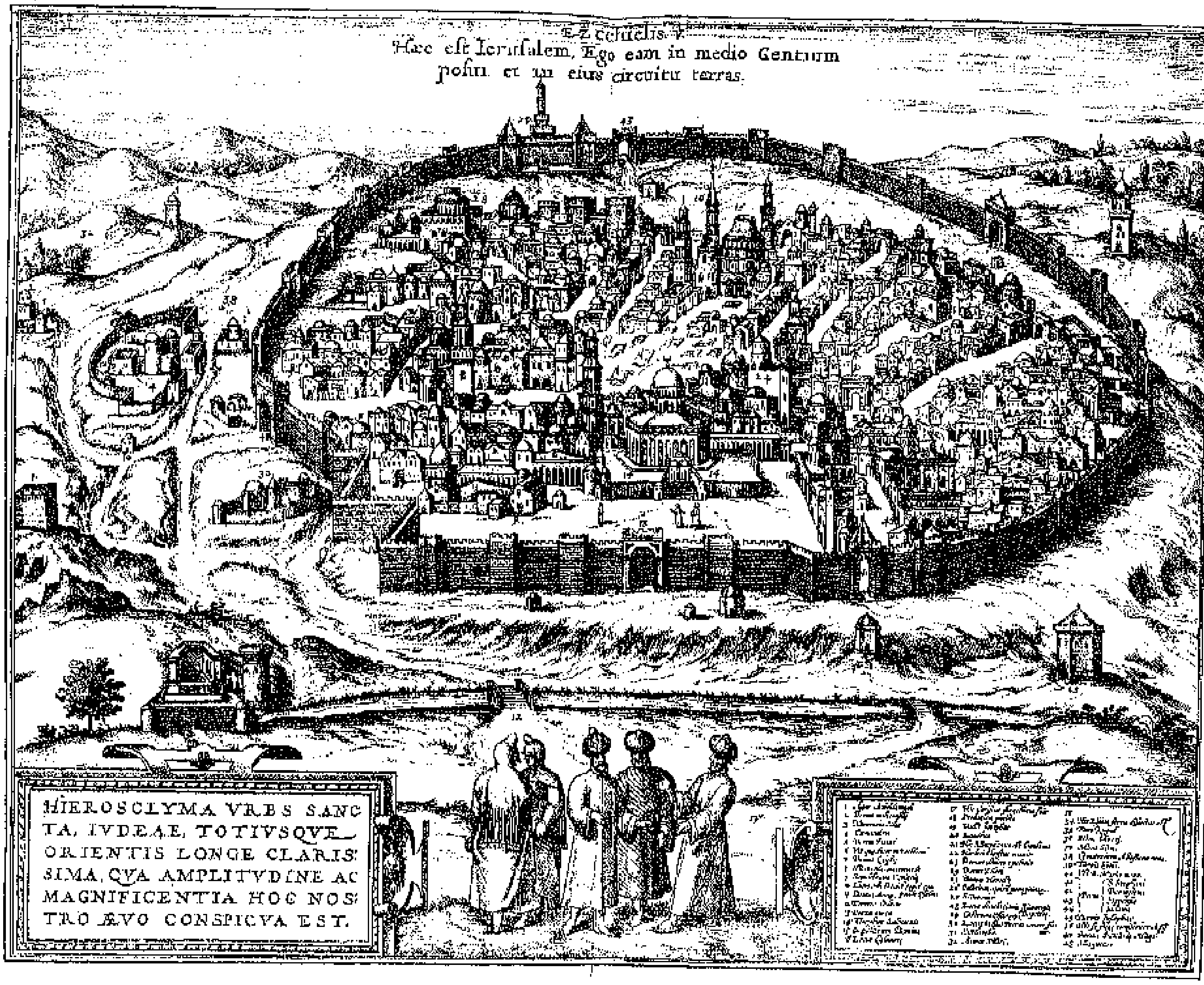

مدينة القدس، حفر من Civitates Orbis Terrorum، أواخر القرن السادس عشر، المكتبة الوطنية – مدريد.

وإعمال الفكر وغيره. ومن المجالات التي يعمل المجتمع الحضري على تطويرها هناك المهام المعهودة إلى الفرق العسكرية المرتزقة مقابل المال مثل تجار المجوهرات أو النجارين.

وعلى العكس من ذلك، فإن المجتمع البدوي يختلف عن المجتمع الحضري في أنه لا يسعى إلى تكديس السكان وجمع الأموال اللذين ينشئان عن تنمية هذا الأخير. وبدلا من وفرة السكان بالمجتمع الحضري، فإن المجتمع البدوي يقتصر على عدد قليل من المجموعات المتفرقة. ويفتقد المجتمع البدوي أيضا إلى آلية التراكم بمعنى أن الدولة الجامعة للضرائب، والمؤسسة للمدينة العاصمة والنخبة الاجتماعية من الحرفيين والدارسين الذين يعملون على خدمتها. وعلى الرغم من نقائص هذا المجتمع، فإنه يتمتع بميزتين: إحداهما أن صعوبة العيش تبعث إحساسًا غامرا بالاندماج في كيان الجماعة التي تعيش في مجتمعات طبيعية، سواء كانت عائلات أم قبائل، والمزية الأخرى تتمثل في أن غياب الدولة لا يعني التقليل من الحاجة إلى تسليح ولو عدد قليل من الجنود أو تخويل الحق إليهم في ذلك. وعلى هذا، فإن المجتمعات البدوية – دون إقامة دولة – تكون مولعة بالقتال أكثر من نظيرتها من المجتمعات الحضرية التي تمتلك مفهوم الدولة. علاوة على ذلك، فإنه لمن دواعي الاستغراب أن قوة المجتمع الحضري دائمًا ما تبنى على قبائل هذا المجتمع البدوي إما من خلال فتوحاتهم للأراضي الحضرية التي تخول الحكم لأسرة بدوية ونسلها وإما من خلال القوات المرتزقة التي تستأجرها الدولة الحضرية من داخل المجتمع البدوي.

وطبقًا لنظرية ابن خلدون، فإن المنعطف التاريخي للإسلام يشمل كامل المشوار الذي جعل من دولة ذات جذور بدوية دولة مستنزفة أنهكتها الحروب بوازع فكرة الاطمئنان في أحضان الحضارة المتقدمة وبناء الدولة! وفي غضون بضعة عقود من القرنين السابع والثامن، شكلت القبائل العربية البدوية – كما يرى ابن خلدون – أكبر إمبراطورية شهدها التاريخ البشري.

وبعد مرور أربعمائة سنة؛ وفي منتصف القرن الحادي عشر، رضخت الإمبراطورية الأصلية رضوخًا تاما لجيرانها البدو: البربر والأتراك والفرنجة.

ونهذا السبب، وطبقًا لابن خلدون، فان هذا الأمر لا صلة له بتوسع الفرنجة ولكن بانهيار إمبراطورية إبان نهايتها: أو– بألفاظ قريبة لذهن القارئ الأوروبي– يمكن القول بأن البرابرة ليسوا هم الذين دمروا الإمبراطورية الرومانية بل إن علة هذه الإمبراطورية هي التي أدت إلى تقطيع أوصالها بواسطة أولئك الغزاة. وعلى نفس المنوال، فإن الإمبراطورية الإسلامية، كما قال ابن خلدون، وصلت إلى نهايتها في منتصف القرن الحادي عشر بعد مرور أربعمائة سنة وهلكت على يد قبائل بربرية جديدة أضافت لمستها الأخيرة، وقامت بتمزيق الإمبراطورية إلى فرنجة، وأتراك، وبربر.

حصار مدينة من قبل المشاة والرماة، تصوير من منمنمة بعنوان La gran conquista de Ultramar que mandó escribir el rey don alfonso؛ تعود إلى سنة 1293، المكتبة الوطنية – مدريد.

ومن بين تلك الأمم الثلاث أمتان إسلاميتان وثالثة مسيحية. وكما ذكرنا آنفًا فإن هذا هو وجه الاختلاف بينها وبين الرواية الأخرى التي تم قبولها بشكل عام حول تطور التاريخ منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر، إحراز الإسلام للفتوحات في كل من أفريقيا، والأناضول، والهند. وتراجعه على مستوى منطقة حوض البحر المتوسط. إن هذه الرؤية التي تحاكي العالم من خلال وجهات نظر دينية والتي ننسبها بدون شك إلى العصور الوسطى ككل تغاير رؤية ابن خلدون. وفي هذه الحالة، فإن الحدود الدينية تعوق فهم الظاهرة التي يحاول ابن خلدون أن يفسرها لنا بألفاظ واضحة، تدمير أو تجديد الإمبراطوريات الحضرية على يد قوات بدوية جديدة. وينبغي القول بأن عدم التحيز الديني لهذه الظاهرة يؤثر على الإمبراطوريات التي توشك على الانهيار وعلى جلاديها من البدو، حالف الإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية مصير مشئوم، حيث انهزمت في الأناضول على يد الأتراك ثم وجهت إليها الضربة القاضية في القسطنطينية على يد الفرنجة في الحملة الصليبية الرابعة سنة 1204.

لقد ساعدت قضية بيزنطة، التي أُطلق عليها العرب اسم الروم أي الرومان كما كان البيزنطيون يحبون أن يطلقوا على أنفسهم، في فهم آليات التوسع الفرنجي. وفي واقع الأمر، وكما تضمنت نظرية ابن خلدون، عمل الفرنجة في البداية كجنود مرتزقة في الجيش البيزنطي في كل من آسيا الصغرى وجنوب إيطاليا. وقد أخلت عائلة الهوتفيل Hautevilles النورمانية، التي جندت من قبل الإمبراطورية، وقامت بخرق اتفاقيهما واستولت على ممتلكات بيزنطة في جنوب إيطاليا في منتصف القرن الحادي عشر؛ إذ حدث في سنة 1060 أن لزم أحد ملوك الطوائف بطلب المدد من مسلمي صقلية للتصدي لأعدائه، وأسرها الكونت روجر في نفسه، وبعد ثلاثين عامًا قام بغزو الجزيرة سنة 1091. وفي حالة كل من إيطاليا وصقلية، فقد شيد النورمان نصرهم من الداخل على حساب ضحاياهم في المستقبل. إنهم ليسوا غزاة ولكنهم مؤيدون رئيسيون للدولة الشائخة التي أوشكت بالفعل على الانهيار. وقد استعملوا هذه القوة على أنها ميراثهم، الذي جاء إليهم كالفاكهة التي تلتقط من على الأرض بمجرد سقوطها من على الشجرة. وبعد عدة سنوات ظهر هؤلاء النورمان من بين زعماء الحملة الصليبية الأولى التي شنت في نهاية القرن الحادي عشر، وقاموا بغزو الإمبراطورية البيزنطية– حليفة الأمس – على يد الحملة الصليبية الرابعة سنة 1204.

وعلى نحو مماثل، فقد خرجت الأسرة البربرية الأولى، الزيرية (973 – 1160) للنور في جيش الخلفاء الفاطميين العرب في نهاية القرن العاشر. وفي نفس تلك الحقبة، ظهرت الأسرة التركية الأولى المستوطنة في غزنة بسبب اشتراكها في جيش السامانيين الفرس، التابعين لخليفة بغداد.

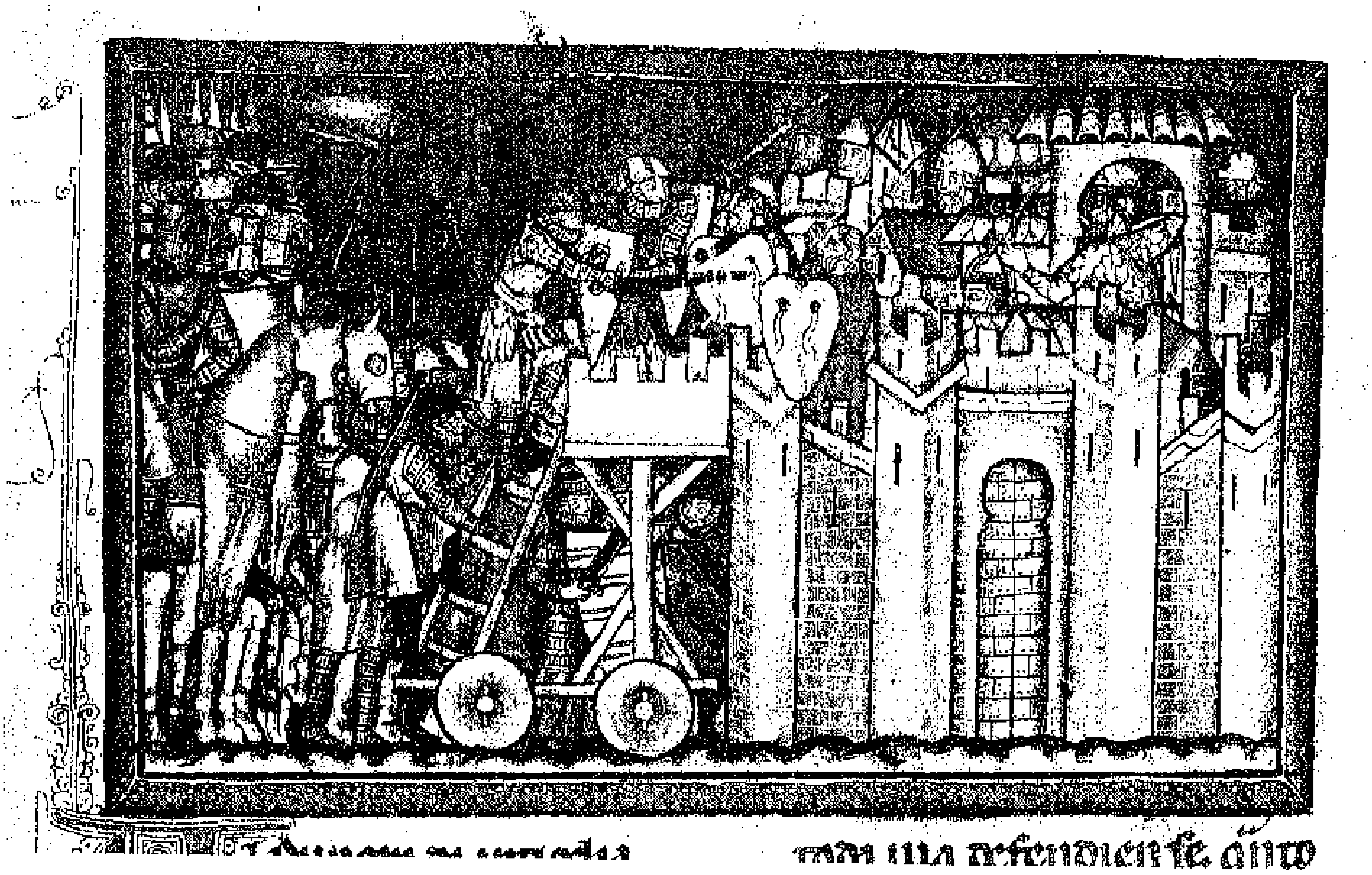

حصار مدينة إسلامية، من قبل القوات الصليبية المزودة بآلات الحرب تصوير من منمنمة بعنوان La gran conquista de Ultramar que mandó escribir el rey don alfonso، تعود إلى سنة 1293: المكتبة الوطنية – مدريد.

ووجد الوافدون الخائفون أنفسهم في صراع مع حكامهم القدامى، بينما نشبت المواجهة الحقيقية بينهم وبين بعضهم من جهة وبينهم وبين الفرنجة والبربر، والفرنجة والأتراك من جهة أخرى. وقد بدأ تاريخ ابن خلدون، الذي عالج الحروب الصليبية التي استمرت طوال القرن الثاني عشر ومشاريع النورمان الذين انطلقوا من صقلية باتجاه السواحل المغربية. وتلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يوصف من خلالها التوسع الفرنجي بصورة كاملة؛ حيث يتمثل المصدر الرئيسي الذي يمكن من خلاله الإلمام بكل تلك المناطق في الخلافة الفاطمية التي امتدت من الجزائر حتى القدس ودمشق. واستولى توسع الفرنجة على ثروات الخلافة المنهكة، ومع ذلك فلم يتجاوز حدوده إذ إنه كان يمثل انتاج الذي أزاح بالقوى. غير أن فشل الفرنجة الأخير لم يكن بسبب مقاومة الفاطميين الذين اضطروهم لتوزيع أنفسهم في صقلية، كما يرى ابن خلدون، وفي الشام، وفلسطين، للتحقق من تقدم الأتراك، ولكن السبب الحقيقي كان في الأمم الجديدة، البربر في المغرب والأتراك في الشرق الذين تقاسموا الخلافة الفاطمية مع الفرنجة.

ويختلف الأمر بالنسبة إلى الأندلس التي لم تخضع قط لسيطرة الخلفاء الفاطميين. ولهذا السبب لم يذكر ابن خلدون إعادة الغزو الإسباني في الفصل الذي أولاه للحملات الصليبية. ولم يناقش فكرة وحدة ظاهرة التوسع الفرنجي. غير أننا من الممكن أن نلاحظ انبثاق الفرنجة في شبه الجزيرة الأيبيرية من نسل عهد الخلافة الأموية في قرطبة في حين أن أبناء عمومتهم، كما رأينا، في صقلية أو القدس قد انبثقوا من نسل الفاطميين.

واتبع البدو، وهم الفرنجة المنتصرون في القرن الحادي عشر والثاني عشر نهج المجتمع الحضري في الأجيال اللاحقة. وتعتبر زيادة نفوذ الملكية، وتكاثر الناس والثروات، وإنشاء المدن، وثبات معدل الوفيات من مظاهر التحضر في مجتمع الفرنجة، وتقليص قوامه العسكري. وأبدت الحملات الصليبية التي قادها ملك فرنسا القديس لويس في القرن الثالث عشر تنظيما أعلى مع مزيد من المعلومات والخبرة والاعتزاز ولكنها أقل فعالية من سابقتها. وفي القرن الرابع عشر، فإن إمبراطورية الفرنجة التي حكمت عادة بواسطة ملك فرنسي، وكما روى ابن خلدون، قد جرى تقسيمها إلى طوائف Taifas، الأمر الذي يؤدي بأية إمبراطورية إلى الفناء. ومن أشهر الطوائف الفرنجية كانت المدن الساحلية مثل جنوة، والبندقية، وبرشلونة، اللاتي حصلن على استقلالهن جراء وهن ملوك فرنسا. وهنا ينتهي عهد الفرنجة، كما خلص ابن خلدون.

التوسع الأراغوني والقطلوني

روسر سالكر وإيمي لوتش
مؤسسة ميلافونتانال ومجلس البحوث الوطني، برشلونة

ترجمة إسحاق عبيد

يقول الكاتب برنارد دسكلوت في مؤلفه بعنوان كتاب عن بطرس ملك أراغون وأسلافه الغابرين –أواخر القرن الثالث عشر– أنه لم يكن في مقدور أية سفينة أن تبحر في البحر المتوسط في تلك الأيام دون أن تحصل على الحماية من الملك، بل إن الأسماك نفسها لم يكن لتسبح على سطح الماء دون أن يكون شكل معطف الملك الحربي مطبوعًا على ذيولها. [1]

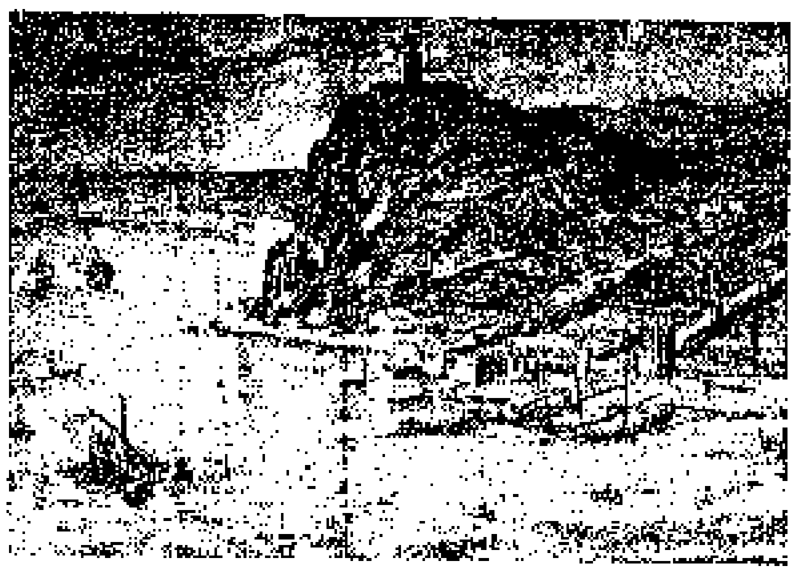

تصوير لمستودع أسلحة –ترسانة– مدينة برشلونة، من القرن السادس عشر.

إن هذه الكلمات التي تعزى إلى الأدميرال روجر صاحب لوريا Lauria، والتي وجهها إلى الفرنسيين المتعجرفين (كان الفرنسيون قد قاموا بغزو قطلونية، ولكن فرنسا هزمت في معركة بحرية على مقربة من جزر فورميج Formigues سنة 1285)، وهي من أشهر مقولات الكاتب دسكلوت، تعيننا على تفهم كيف كان الجالس على عرش أراغون معروفا بحب التظاهر والعظمة على مدار القرن الثالث عشر.

لقد حظي موضوع التوسع الأراغوني، سواء على صعيد شبه الجزيرة الأيبيرية أو على مستوى البحر المتوسط، براً وبحرًا من خلال النشاط التجاري، باهتمام الباحثين في إطار سجلات التاريخ، وذلك نظرًا لتطور أحوال التاج وسطوته في مملكة أراغون في القرن الثالث عشر، بما يتسق مع توسعات هذه المملكة آنذاك. وقد بدأت حركة التوسع تلك في النصف الأول من القرن الثالث عشر، حتى قويت شوكة المملكة مع نهايات القرن نفسه، ثم حققت المملكة أحلامها خلال القرن الرابع عشر، لتنتهي في القرن الخامس عشر، على يد ألفونسو الخامس العظيم والملقب أيضا بالفاتح.

ولقد جاء توسع أراغون عبر بلدان البحر المتوسط، وارتكز على المستوطنات البرية، ومن ثم اتسم هذا التوسع بملامح تجارية وعسكرية وسياسية وأسرية.

ولم يقتصر التوسع الأراغوني في بلدان البحر المتوسط على مجرد طموحات الجالسين على عرش المملكة، كما أن الجالس على عرش أراغون لم يكن يعتمد فقط على عوائد النشاط التجاري، ولكننا رغم ذلك لابد وأن نعترف أن المكاسب الاقتصادية كانت محضرًا

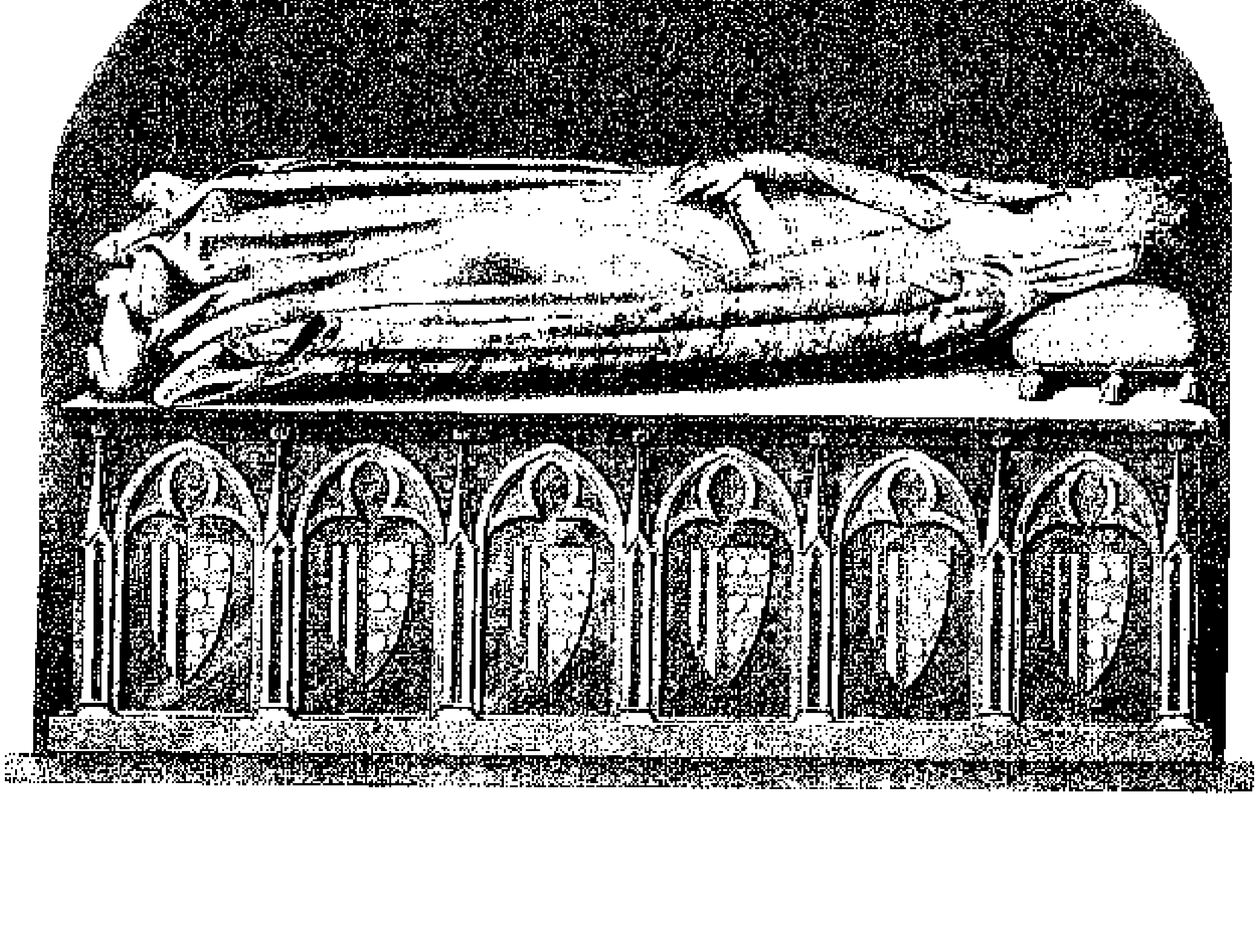

إلى أسفل، الملكة إليسندا دي مونتكادا Elisenda de Montcada، زوجة الملك خيمي الثاني الأراغوني، في مقبرتها في دير بيدرالبس Pedralbes، طباعة حجرية من عمل ف. كاديريرا V. Carderera، تعود إلى سنتي 1855- 1864؛ المكتبة الوطنية – مدريد.

1 Crónica de Bernat Desclot, cap. CLXVI, pág. 577, en Soldevila, F. (ed.) (1971) Les Quatre Grans Cròniques. Jaume I, Bernat Desclot, Ramon Muntaner, Pere III. Barcelona: Selecta: «no em pens que galera ne altra vaixell gos anar sobre mar menys de guiatge del rei d'Aragó; ne encara no solament galera ni lleny, mas no creu que nengun peix se gos alçar sobre mar si no porta un escut ab senyal del rei d'Aragó en la coa per mostrar guiatge d'aquell senyor rei d'Aragó».

رئيسيًا وحاسمًا في هذا التوسع، وبأن التوسع لأغراض سياسة كان معوقًا للنشاط التجاري في بعض البقاع على حساب بعض المواقع الأخرى.

ولا ينكر أحد أن المصالح السياسية والعسكرية والتجارية مصالح متشابكة، ولا يمكن لنا أن نتفهم موضوع التوسع الأراغوني إلا من خلال الوعي بهذا التشابك.

ولقد ظهرت تفسيرات عديدة لهذا التشابك، الأمر الذي فجر الكثير من الجدل عند المؤرخين في محاولة التوصل إلى الأسباب الحقيقية لهذا التوسع، ومغزاه الحقيقي[2]، ونمو مكانه التجار، وعوائد التوسع على التاج الأراغوني التي تجاوزت طموحات الأسرات الجالسة على العرش، أو حتى توجهاتها الدينية وقناعاتها الأخرى. وكل هذه الأمور تمثل قضايا جوهرية، ومن ثم فإنه يتوجب علينا أن نأخذ كل هذا الأبعاد في الاعتبار لسبر غور قصة التوسع القطلوني - الأراغوني.

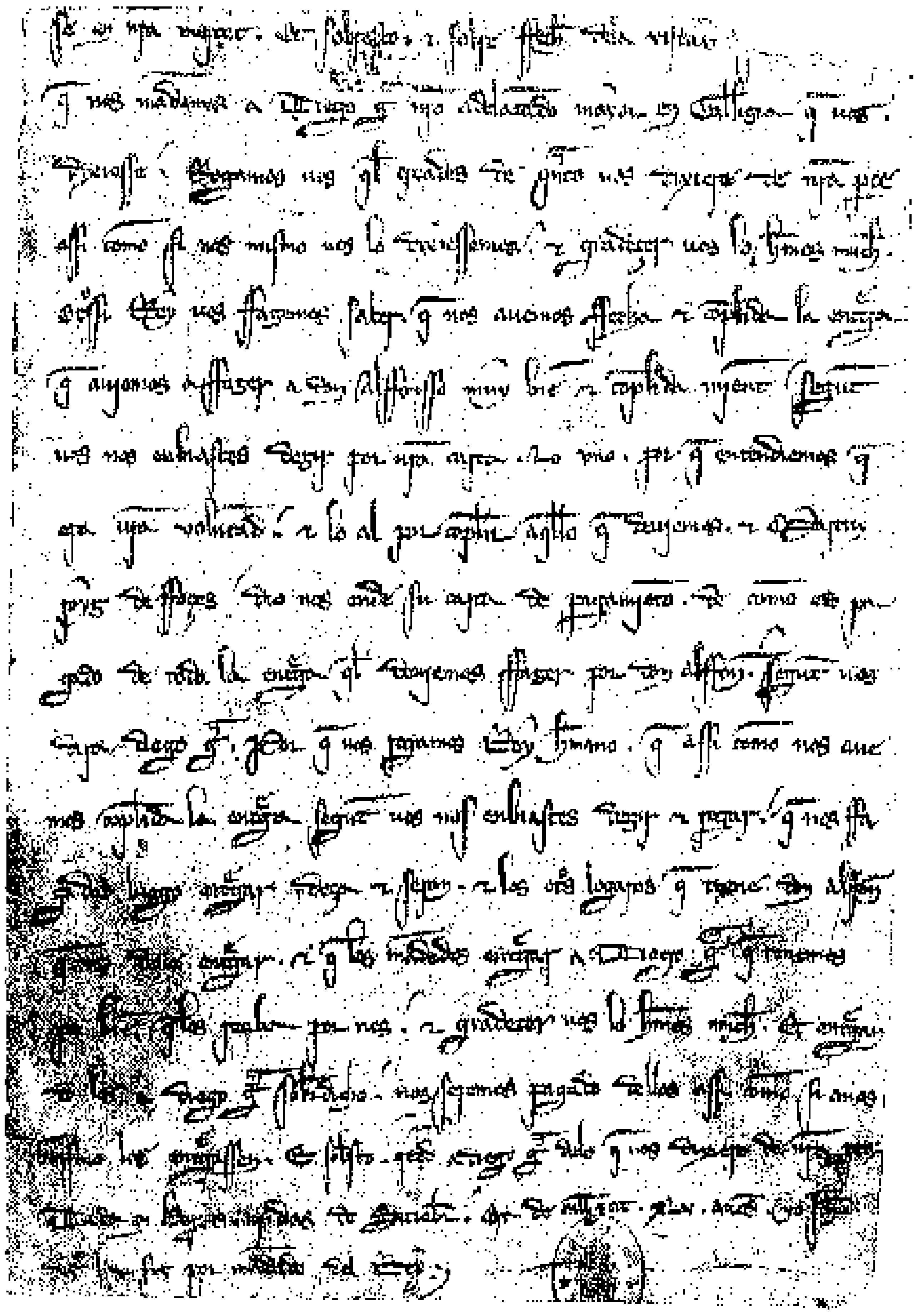

رسالة من الملك فردناند الرابع القشتالي إلى خايمي الثاني الأراغوني، مؤرخة برغش، 3 سبتمبر سنة 1307: المكتبة الوطنية- مدريد.

اكتمال التوسع في شبه جزيرة أيبيرية ضد مسلمي الأندلس

ظهر تاج أراغون على مسرح السياسة سنة 1137، بعد زواج پترونيلا الأراغونية من رامون برنجر الرابع كونت برشلونة ما بين عامي 1131 – 1162. وقد دخل رامون في حروب ضد مسلمي الأندلس، واستولى على بعض المدن الهامة مثل طرطوشة Tortosa سنة 1148، ولاردة Lerida، وأفراغة Fraga سنة 1149 من أيدي المرابطين.

وكان رامون يدير شئون هذه الأراضي من أكتانيا وپروڤانس. ولقد عمل الملكان اللذان جاءا بعد رامون، وهما ألفونسو الثاني العفيف (1162 - 1196)، وپيدرو الثاني الكاثوليكي (1196- 1213) على التوسع فيما وراء جبال البرانس، ضد المملكة الفرنسية وكونتات تولوز، بهدف تقوية سلطة برشلونة على ولاية پروڤانس، هذا إلى جانب ترتيب أحوال الأراضي التي تم الاستيلاء عليها من مسلمي الأندلس. غير أن هذه الطموحات في بناء كيان قوي فيما وراء جبال البرتات قد انهارت تمامًا، عندما توفي الملك پيدرو الثاني فجأة. وكان پيدرو الثاني يؤيد الملك ألفونسو الثامن القشتالي في معركة العقاب Las Navas de Tolosa في العام السابق لوفاته. وقد جاءت وفاة پيدرو الثاني في معركة موريه Muret، وهو يحارب ضد الفرنسيين في حملة صليبية شنتها البابوية ضد جماعة من المتمردين ضد الكنيسة الرومانية في جنوب فرنسا، عرفوا باسم الألبجنزيين الأطهار Cathars.

وبعدها اضطلع خايمي الأول الفاتح (1213 - 1276)، ابن پيدرو الثاني، بإرساء قواعد التاج الأراغوني وتوسعاته في حوض البحر المتوسط برًا وبحرًا، فلقد استولى على جزيرة ميورقة أولا (1229 – 1230)، ثم على مملكة بلنسية بعد ذلك (1233 - 1245).

وبعد الاستيلاء على مملكة بلنسية، اكتملت بنية مملكة أراغون البرية، بعد أن استولت على بعض الأراضي من مسلمي الأندلس. ولما جاء خايمي الثاني العادل (1290 - 1327) إلى الحكم في أراغون، راح يتدخل في شئون مملكة مرسية، مما أدى إلى بعض التعديلات في أوضاع المملكة الأراغونية. فوفقا لمعاهدات توديلن Tudillén سنة 1151، وكازورلا Cazorla سنة 1179، وألمثرا Almizra سنة 1244، توصل التاجان الأراغوني والقشتالي إلى

2 يطرح الكاتب جايوم ڤيكنس نظرية يدافع فيها عن الرابطة بين الأبعاد الجيوبوليكتية والسياسية العسكرية في التوسعات القطلونية – الأراغونية للجزر الكبرى في البحر المتوسط، وكذا قبالة بلدان الشرق الأدنى.

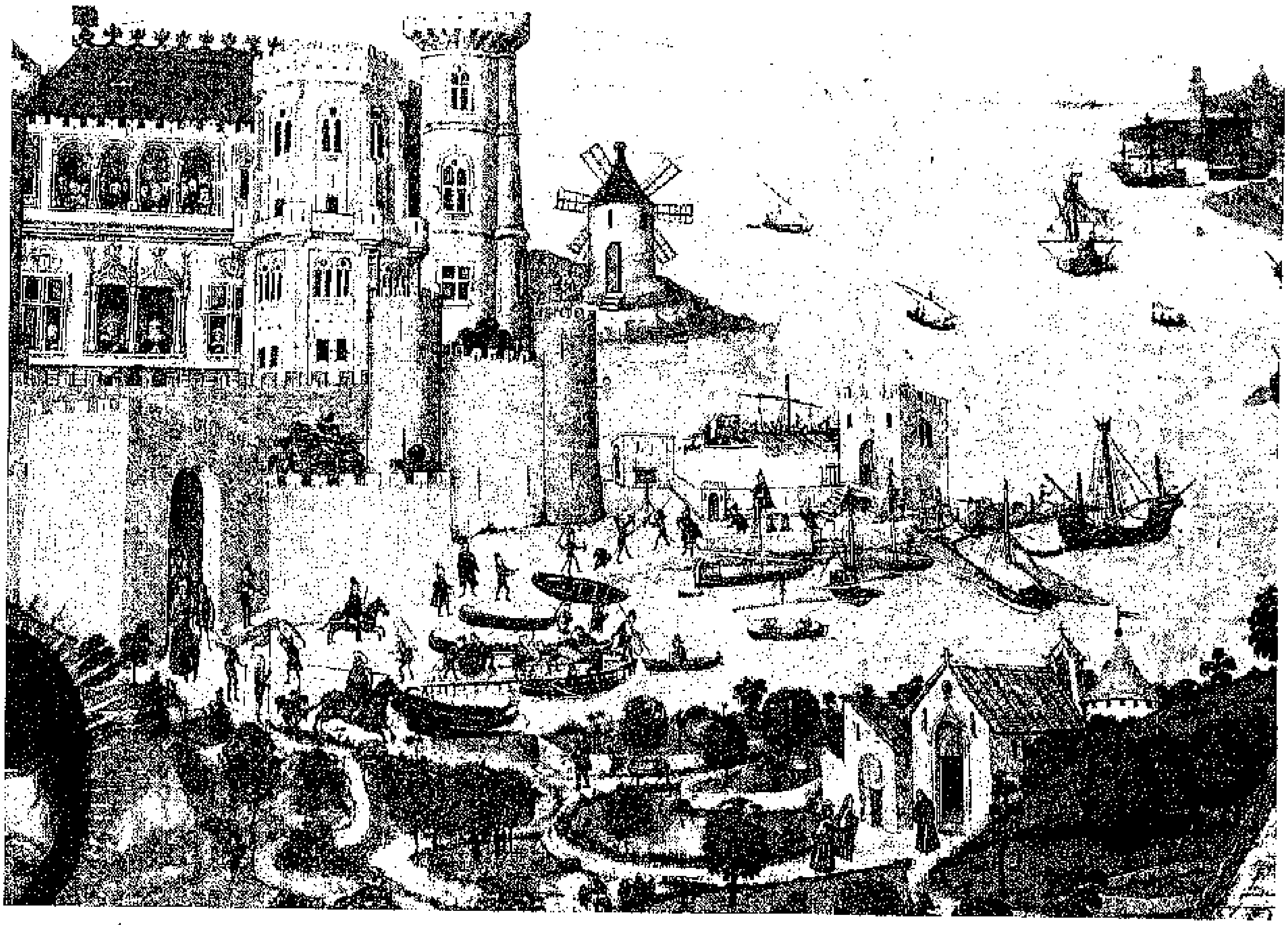

مدينة وميناء بالما، تصوير على مذبح كنيسة القديس جورج، عمل الأب نيسارد Nisard، القرن الخامس عشر – كاتدرائية بالما.

ترسيم مناطق نفوذهما على المناطق الغربية في بلاد الأندلس؛ وفق ما كان قد اتفق عليه في أعقاب غزو بلنسية، ثم حدث أن الملك ألفونسو العاشر الحكيم طلب من حامية خايمي الفاتح المعونة لاستعادة السيطرة على مملكة مرسية. وقد نجح خايمي هذا في السيطرة على مرسية، بمساعدة القطلونيين، ثم قام بتهجير بعض السكان لإعمارها، وبعدها سلمها إلى مملكة قشتالة. على أن خلافًا دب بين هذه الأطراف، كما أن قطلونية راحت تطالب بحقها في بعض الأراضي، الأمر الذي دفع الملك خايمي الثاني إلى غزو هذه الأراضي، وقرر مساندة أمراء قشتالة في مطالبتهم بعرش هذه المملكة.

واستمر هذا النزاع حول الأراضي حتى سنة 1304-1305، أي حتى صدور قرار توريياس Torrellas الذي نص على ضم مناطق لقنت Alacant، والكس Elx، وأوريولة Oriola إلى تاج أراغون، في حين وضعت بقية أراضي مرسية في أيدي القشتاليين.

الاستيلاء على جزيرة ميورقة

يتضح عزم القطالونيين على التوسع في حوض البحر المتوسط من خلال جهود آخر كونتات برشلونة، رامون برنجر الثالث (1097 – 1131) أي قبل قيام تاج أراغون– في استيلائه على أرخبيل جزر البليار – ولو بصفة مؤقتة – بواسطة أسطول بحري كان يضم سفن بعض المدن الإيطالية التجارية. كما أن رامون هذا قد وقع عدة معاهدات مع هذه المدن الإيطالية، مما يدل على وجود نفوذ تجاري لقطلونية في حوض البحر المتوسط.

وكما أشار الأستاذ فران سولدفيلا، فإن حولية خايمي الأول تؤكد على ضرورة إرساء قواعد مملكة بحرية قوية [3]، تستفيد من النشاط التجاري المتزايد في المنطقة، وذلك من خلال توسيع دائرة النشاط التجاري لقطلونية، مع بناء أسطول بحري قوي.

3 Cf. Crònica del rei en Jaume or Libre del Feits, in F. Soldevila (ed.), Les Quatre Grans Cròniques...., chap. 47, pp. 27 – 28; chap. 49, p. 29 and chap. 50, p. 29.

رغم أن جزيرة ميورقة كانت فقيرة في مواردها الطبيعية، فإن موقعها المتميز على الجانب الغربي للبحر المتوسط قد مكنها من القيام بدور همزة الوصل للطرق البحرية الموصلة إلى مراكز التجارة الكبرى. يضاف إلى ذلك كان موقعها في منتصف الطريق بين الشواطىء الأوروبية المسيحية والشواطىء الإسلامية كشمال أفريقيا، بمثابة القنطرة التي تصل بين الجانبين، وذلك بفضل تداخلها مع تاج مملكة أراغون المرتبطة بمصالح تجارية مع العالم المسيحي.

وعند وفاة الملك خايمي الفاتح، قام بتقسيم أملاكه بين أبنائه، وقد كان مخطئًا في هذا القرار الذي ينم عن قصر النظر، لأن هؤلاء الأبناء قد دخلوا في صراعات واحدهم ضد الآخر، وقد حصل بيدرو الثالث الكبير (1276 – 1285) على أراغون، وقطلونية بدون كونتيات روسيون Rousillon وسرداني Cerdagne، أي بما يوازي شمالي قطلونية حاليًا، إلى جانب مملكة بلنسية أما خايمي الثاني العادل فقد حصل على جزيرة ميورقة وكونتيات روسيون وسرداني، والسيادة على مونپلييه، وبعض الأراضي في منطقة پروڤانس التي كانت ملكًا لماريا صاحبة مونپلييه، والدة خايمي. على أن مملكة ميورقة سرعان ما ضاعت على خايمي الثاني سنة 1349، وانتقلت ملكيتها إلى تاج أراغون أثناء حكم پيدرو الرابع المحتفل el Ceremoniso.

صقلية ودوقيات آثينا، ونيوپاتريا Neopatria، وسردينيا

تمكن الملك خايمي الأول من الحصول على أراضي جزيرة صقلية من خلال زواج ابنه ووريثه الأمير پيدرو، من الأميرة كونستانس هو هنشتا وفني، ابنة الملك الألماني مانفرد الصقلي، سنة 1262.

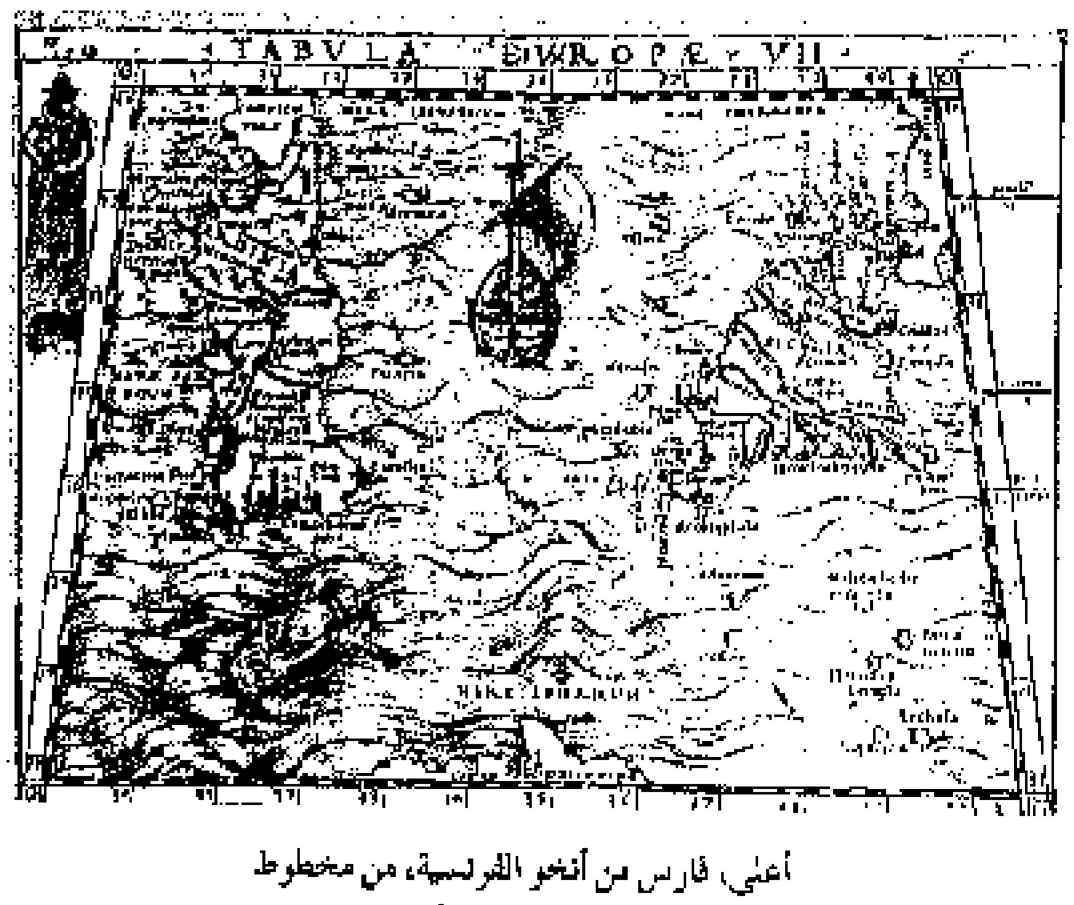

أعلى، فارس من آنخو الفرنسية، من مخطوط يرجع للقرن الرابع عشر، المكتبة الوطنية– فلورنسا.

أسفل، خريطة لسردينيا وصقلية، من جاكوبو جاستالدي Jacopo Gastaldi، اعتمادًا على جغرافية بطليموس منتصف القرن السادس عشر.

وبعد وفاة مانفرد، واغتيال ابنه كونراد، ساهمت البابوية الرومانية في تمكين آل آنخو الفرنسيين من السيطرة على الجزيرة. غير أن أهل صقلية كانوا مناهضين لآل آنخو، ولذلك قاموا بالثورة ضدهم سنة 1282، فيما عرف باسم انتفاضة صلوات العشاء في صقلية. وكانت هذه الثورة في مصلحة الملك پيدرو الثالث الكبير، وقد قتل عدد كبير من الفرنسيين في هذه الثورة، ثم طردوا من الجزيرة بعد ذلك. ومع ذلك، فإن جزيرة صقلية لم تضم إلى التاج الأراغوني، بشكل مباشر، لأن الجزيرة قد آلت إلى الأمير خايمي –خايمي الثاني العادل فيما بعد– ابن پيدرو من زوجته كونستانس، الذي صار ملكًا متوجا على صقلية. غير أن البابوية أصدرت قرارًا بالحرمان الكنسي ضد پيدرو هذا وسمحت بتجريده من أملاكه، الأمر الذي أدى إلى حرب مكشوفة ضد فرنسا، فيما عرف باسم الحملة الصليبية ضد هراطقة فرنسا. وبعد أن تمت هزيمة الجيش الفرنسي، خرجت مملكة أراغون منتصرة وقوية.

وعند هذا المنعطف من ازدياد نفوذ أراغون، نطق الكاتب روجر صاحب لوريا بعبارته المدوية في مديح سطوة ملك أراغون، والتي ذكرناها سلفا، على لسان دسكلوت.

وبعد وفاة پيدرو الكبير سنة 1285، ثم وريثه ألفونسو الثالث المتحرر تباعًا (1285– 1291)، آل عرش أراغون وقطلونية إلى خايمي الصقلي –خايمي الثاني– العادل (1291– 1327)، في حين أن شقيقه الأصغر فدريكو صار ملكا على صقلية. غير أن خايمي لم يكن مرتاحا إلى هذه الخطوة، وقد سعى في سنة 1295 إلى إعادة جزيرة صقلية إلى التاج الأراغوني. ومع مرور الوقت، وبفضل وقوف أهل صقلية إلى صف فدريكو، تمكن هذا

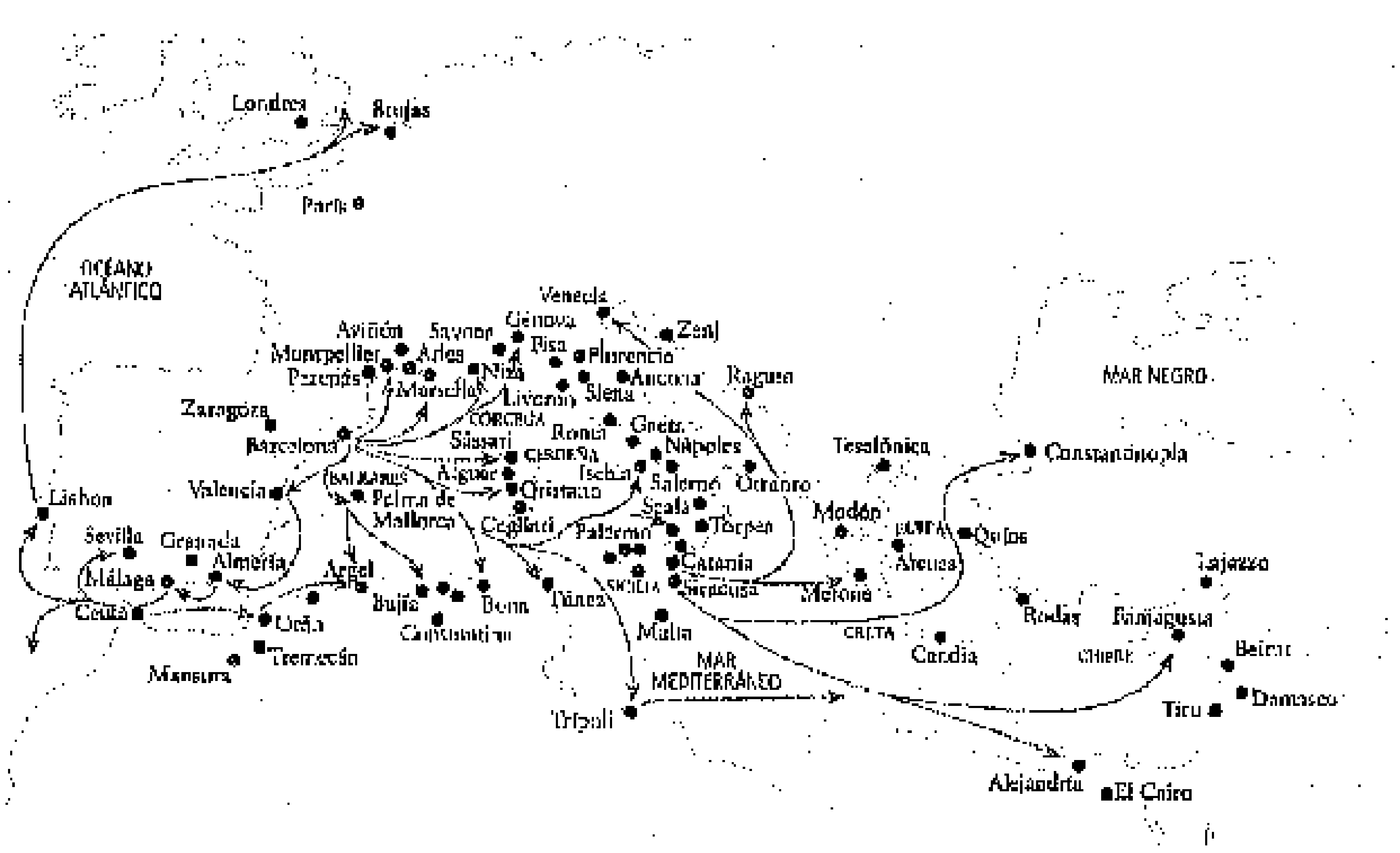

ممتلكات وحدود توسعات تاج أراغون، وقنصليات قطلونية وجزيرة ميورقة التجارية.

الأخير من الحصول على اعتراف بأحقية في عرش صقلية، وفق معاهدة سلام أبرمت بين الطرفين في كتابيوتا Caltabellota سنة 1302.

وبعد إبرام هذه المعاهدة، راح الإمبراطور البيزنطي يستنجد بقوى الغرب الأوروبي ضد الأتراك، وعليه زحفت بعض الفرق من فرسان ومتطوعي قطلونية وأراغون، التي كانت تقاتل في صقلية، لنجدة القسطنطينية ضد الأتراك.

وكان روجر دي فلور قائدًا للفرقة القطلونية التي اتجهت إلى بلاد المشرق، وقد حققت هذه الفرقة بعض الانتصارات ضد الأتراك، ولكنها في النهاية أصيبت بخيبة أمل، عندما قام البيزنطيون باغتيال روجر عن طريق الغدر. وعليه، تمرد جند قطلونية ضد السلطات البيزنطية، وراحوا يخربون وينهبون الأراضي، ثم قاموا بالاستيلاء على دوقيتي آثينا، ونيوپاتريا سنة 1311. وفي البداية ضمت هاتان الدوقيتان إلى مملكة صقلية، ثم انتقلتا، بعد ذلك إلى تاج أراغون، حتى ضياعهما عن الجانبين ما بين أعوام 1388 و1391، إلى صالح الأتراك.

وفضلاً عن دوقيتي آثينا ونيوپاتريا، كان هنالك قواعد قطلونية – أراغونية على الساحل الغربي للبحر المتوسط، من خلال النشاط التجاري، وإن كان لا يقارن بنشاط كل من جنوة والبندقية الإيطاليين.

وطبقا لمعاهدة أجناني Agnani، تنازل خايمي الثاني عن مملكة صقلية، ولكنه نجح في الحصول على السيادة الإسمية الإقطاعية من أيدي البابوية، على بعض الجزر الهامة في وسط البحر المتوسط، في كل من كورسيكا وسردينيا.

والواقع أن تاج أراغون لم يتمكن من السيطرة الفعلية على كورسيكا، ولكن خايمي الثاني بنفسه قام بغزو جزيرة سردينيا سنة 1323 – 1324. ولم تهدأ الأمور إلا في أوائل القرن الخامس عشر، وذلك بسبب الصراع بين أراغون ومدينة جنوة، التي كانت تناهض نفوذ أراغون المتنامي في حوض البحر المتوسط. كما أن الثورات التي قام بها أهالي سردينيا، كانت تكلف تاج أراغون نفقات لا طائل لها على خزانة التاج والرعية جميعا.

أسفل، تمثال نصفي من الألبستر لأليانور الأراغونية، من نحت فرنسيسكو لاورانا Francesco Laurana، القرن الخامس عشر، الصالة الوطنية للعرض – باليرمو.

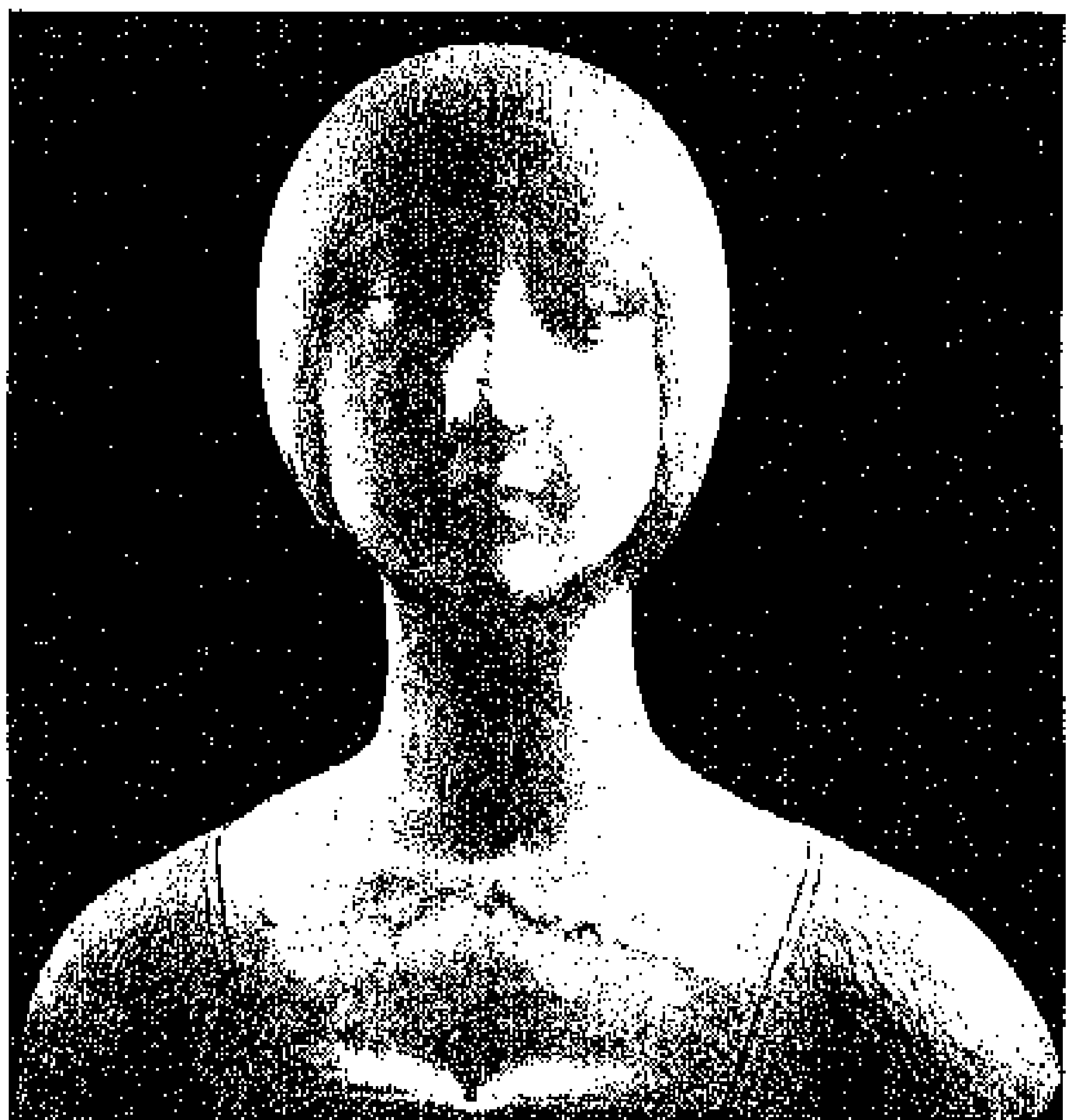

وكان على الملك ألفونسو الرابع الطيب (1327 – 1336) أن يتحمل أعباء هذا الصراع ضد جنوة، وأيضًا ضد ثورات أهل جزيرة سردينيا.

وهنا سيبرز اسم پيدرو المحتفل الملك القطلوني – الأراغوني (1336 – 1387)، الذي عمل على توسيع أراضي التاج وتعزيز قبضته على هذه الأراضي، بعيدًا عن المغامرات البحرية، وذلك خلافًا لسياسة أسلافه. وكانت أولى خطوات پيدرو في هذا السبيل استرداده مملكة جزيرة ميورقة بالقوة من أيدي خايمي الثالث (1324 – 1349). وفي نفس الوقت تصدى پيدرو لثورة دبرها ضده ماريانو صاحب أربوريا Arbrea سنة 1347، بتحريض من جنوة، واستمر هذا العصيان في عهد پيدرو وعلى أيدي أبناء ماريانو هذا –هيو الرابع، وليونور صاحب أربوريا– واستمر هذا التمرد حتى عهد خوان الأول (1387 – 1396)، الذي خلف پيدرو على العرش، أما بالنسبة لصقلية، فقد كان پيدرو حريصا على مصالح الأسرة القطلونية، فقام بالزواج للمرة الثالثة

من الأميرة ليونور الصقلية سنة 1349. وبعد وفاة زوج ابنته فدريكو الصقلي سنة 1377، صارت أمور صقلية إلى الوريثة الشرعية للأميرة ماريا. وكانت ماريا قد أمضت سنواتها المبكرة في جزيرة سردينيا، وفي قطلونية، وفي سنة 1392 تزوجت من واحد من أحفاد الملك بيدرو، وهو مارتن الشاب el joven، الذي أصبح فيما بعد ملكًا على صقلية. وفي سنة 1392-1393، أثناء حكم خوان الأول، قام والد مارتن هذا –مارتن الإنساني– بقيادة أسطول لإرجاع ماريا إلى مملكة صقلية. وقد كانت هذه المهمة صعبة للغاية، بسبب ثورات أهل صقلية المتعاقبة، والتي لم تهدأ إلا بنهاية العقد الأخير من القرن الرابع عشر، عندما آل عرش قطلونية وأراغون إلى مارتن الإنساني نفسه.

وهكذا آلت صقلية إلى مارتن الإنساني (1396 – 1410)، لأنه كان موجودًا على الجزيرة وقت وفاة أخيه خوان الأول، وظل هنالك بضعة شهور، قبل أن يعود إلى شبه جزيرة أيبيرية ليتربع على عرش أراغون. غير أن جزيرة سردينيا بدورها قد قامت بالتمرد، وعند هذا المنعطف ينتهي الفرع القطلوني – الأراغوني، لأن الوريث الوحيد لمارتن – مارتن الشاب el joven– قد مات دون وريث شرعي يخلفه.

منمنمة من حولية خوان فرنانديز صاحب هريديا Heredia، مقدم فرسان القديس يوحنا الإسبتارية في بيت المقدس، حوالي سنة 1377، المكتبة الوطنية- مدريد.

بيت تراستا مارا وغزو نابلي Naples

بعد عامين من وفاة مارتن الإنساني، بعد ما عرف باسم فترة الحكم الانتقالي، انتخب فرناندو صاحب انتقيرة (1412 – 1416) Antequera ملكًا لقطلونية وأراغون وذلك بمقتضى اتفاق كاسبي Caspe الودي سنة 1412. ولكن فترة حكم فرناندو كانت قصيرة الأجل، وإن كان قد نجح خلالها في انتهاج سياسة فعالة في حوض البحر المتوسط، فلقد وضع حدًا لأتباع مارتن الشاب el joven المطالبين بعرش الجزيرة، كما أنه عمل على تهدئة الأوضاع في سردينيا، وبعدها سعى إلى تزويج ابنه الثاني جون من جوانا الثانية أميرة نابلي، ولكن هذا المسعى قد أصيب بالفشل.

وبعد وفاة فرناندو، أصبح ألفونسو العظيم (1416 – 1458) ملكًا على صقلية. وكان ألفونسو قد سعى ما بين سنوات 1420 – 1423 إلى الحصول على تاج صقلية، من خلال الملكة جوانا في أول الأمر دون نجاح، ولذا فإنه وجه حملة للاستيلاء على الجزيرة ما بين أعوام 1436 و1442. وبعدها نقل كرسي حكمه إلى صقلية، ولم يفكر في العودة إلى شبه الجزيرة الأيبيرية في الغرب. وقد ركز ألفونسو كل اهتمامه على القضايا الإيطالية، كما حاول التصدي للزحف التركي نحو المزيد من الأراضي قبالة المغرب.

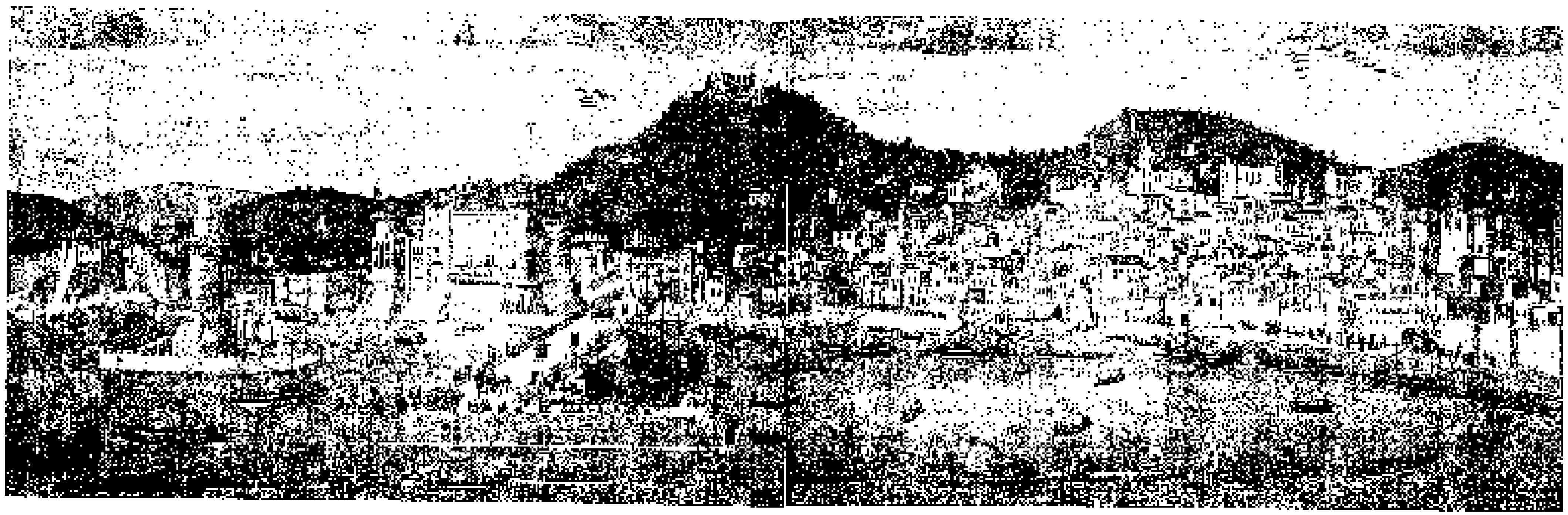

ميناء مدينة نابولي في القرن الخامس عشر، ويظهر أسطول أراغون بالداخل. الرسام: Francesco Pagano، متحف Capodimonte، نابولي.

غير أن خليفة ألفونسو، خوان الثاني (1458 – 1479) الذي صار ملكًا على نافار بعد زواجه من بلانكا أرملة مارتن الشاب el Joven فقد صرف كل اهتمامه نحو القضايا الأيبيرية، وعلى رأسها الحرب الأهلية في مملكتي نافار (1415 – 1455) وقطالونية (1462 – 1472) بسبب خلافاته مع ابنه الأكبر كارلوس صاحب فيانا Viana، ومع بعض أفراد الأسرة الآخرين.

وفي عهد فرناندو الثاني الكاثوليكي (1479 – 1516) ابن خوان الثاني الأراغوني، تولى منصب أراغون من تاج قشتالة من خلال زواج فرناندو الثاني من خوانا وريثة الأسرة القشتالية، وبتولية الملكين الكاثوليكيين الحكم بدأت أبواب عصر حديث، وتسيطر آل هابسبورغ على دفة الأمور في الغرب الأوروبي. وفي هذه الحقبة تم الاستيلاء على غرناطة وبعض المدن الأخرى في شمال أفريقيا، كما شهدت هذه الحقبة توسع قشتالة والولوج إلى المحيط الأطلسي، الذي كان ينطوي على بداية تهميش قيمة البحر المتوسط الذي كان مسرحًا لكثير من التوسعات القطلونية – الأراغونية من قبل.

ملوك أراغون وعلاقاتهم بمسلمي الأندلس

كان ملوك أراغون وقشتالة قد حاولوا مد تزعمهم في الشمال الأفريقي، منذ فجار في شبه جزيرة أسرة نفسها، وذلك بعد إبرام اتفاقية مونتي آجودو Monteagudo سنة 1291، التي حددت نهر ملوية Muluya كخط فاصل بين الجانبين. ومع ذلك، فبعد الاستيلاء على مورقة وبلنسية، ورغم حرص أراغون على الإبقاء على مصالحها السياسية والإدارية والتجارية في حوض البحر المتوسط الإسلامي، وما تخلل ذلك من صراع بين قشتالة في الشمال الأفريقي، باستثناء الحملات ضد جربة، وجزر قرقنة Kerkennah (1284 – 1355)[1] وبعض المستوطنات الصغيرة والمحدودة.

غير أن الحديث عن سياسة استعمارية من جانب قطلونية وقشتالة في الشمال الأفريقي قد ينطوي على شيء من المبالغة، نظرًا لأن الدوافع الحقيقية كانت تجارية في المقام الأول، وقد تجرى هذا من خلال العديد من المعاهدات والاتفاقات التجارية مع عدد من السلاطين المسلمين في الشمال الأفريقي. ومع ذلك، فلا يمكن إغفال حقيقة قيام سلاطين من بني زيان والحفصيين بتأدية الإتاوات لتاج أراغون في القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى جانب النفوذ المتزايد لبعض الكتائب القطلونية الأراغونية في هذه السلطنات، مع جيشة أيضًا على الحدود المغربية. ثم التصعيد في أواخر القرن الرابع عشر الذي وصل إلى حد شن حملة صليبية ضد بلاد البربر سنة 1398 ثم 1399 تأتي عندما تم نهب مناطق توريبلانكا Torreblanca التي كان البربر قد نقلوا إليها بعض الذخائر المقدسة، وذلك في سنة 1397.

ديناميكيات وأدوات التوسع التجاري

كان للتوسع القطلوني – الأراغوني آثاره البعيدة على حوض البحر المتوسط، فلقد صارت جزيرة ميورقة مركزًا تجاريًا هامًا، وتمركز فيها الكثيرون من البحارة والتجار، وكان على بلنسية أن تنتظر حتى أواخر القرن الرابع عشر لتحقق ما تحقق في ميورقة؛ عندما تطورت الأمور في النصف الأول من القرن الخامس عشر، وبذلك تحددت لكل من مدينتي برشلونة وجزيرة ميورقة وبلنسية أدوار للاضطلاع بها في هذا البرنامج من التوسع القطلوني – الأراغوني، وكانت كل من ميورقة وبلنسية غاية في الأهمية؛ لأنه من خلالهما اتخذت الطرق الدولية للتجارة في الأندلس والمشرق، أما برشلونة فقد صارت بدورها مركزًا رئيسيًا وذلك من خلال نصيبها من العقد التجاري لتاج أراغون[5].

ولقد وضحت معالم النمو والازدهار التجاري في العالمين المسيحي والإسلامي، كما تدل على ذلك القنصليات التي أقيمت فيما وراء البحر، لمتابعة مصالح التجار، وأيضًا من خلال الأعراف والقوانين البحرية التي اتفق عليها بين الطرفين؛ مع قيام قنصليات بحرية أيضًا. كان الهدف حل المشكلات التي تنشب في هذا الزخم من النشاط التجاري.

ورغم كل هذا، على الأقل حتى نهاية القرن الرابع عشر، لم تخفِ السلطات الحاكمة في قطلونية وأراغون عن تدخلها بين أملاك التاج ونمو النشاط التجاري، وهذا ما كان قد صرح به ملك بدرو الرابع المحتفل إلى ابنه خوان؛ عندما رفض الأخير الزواج من ماريا الصقلية، واختار زوجها من أجنبي يصيب المصالح الأراغونية بالضرر، وراح بدرو يؤكد على أن وجود أجنبي في صقلية سوف يمثل تهديدًا لمصالح أراغون في جزيرة سردينيا أيضًا، وبعدها على ميورقة، مع تأخر في النشاط التجاري، وهجرة السكان، وأن برشلونة بدورها سوف تكون عرضة لتناقص عدد السكان لنفس الأسباب، مع تدهور في النشاط التجاري[6].

1 ورد وصف الاستيلاء على جربة في تاريخ ابن الأثير (الكامل في التاريخ، 6: 398 – 397)، بعد وصفه للاستيلاء على جزر البليار، وحتى جزيرة ميورقة، وقد وصفت جربة بأنها تحت السيطرة، ولم يتم الاستيلاء عليها إلا سنة 1284/1286، في حرب ألفونسو الثالث «الغرناطي» بعون إيرالدي، وسماها صقلية أبو الفداء في المختصر (2: 117).

5 A. Molat, "L'area Catalano – aragonese nel sistema economico del mediterraneo Occidentale, in la Corona di Aragona e il Mediterraneo: aspetti e problemi comuni da Alfonso il Magnanimo a Ferdinando il Cattolico (1416-1516)", IX Congresso di Storia della Corona d'Aragona, Napoli, 1973, Naples, 1978, I, 191 – 209, re – edited in idem, "Mercanti e mari nell' Europe medievale e rinascimentale", Florence, 1990, 215 – 231.

6 A. Rubio Lluch, "La Grecia Catalana desde la mort de Roger de Luna fins a la de Frederic III de Sicilia (1370 – 1377)", Anuari de l'Institut d'Estudis Catalans, V (1913 – 1914), p. 409 and note 2; Crown of Aragon Archives, Chancery, register 1295, f. 265 v. 1398, January, 31.

تخوم غرناطة

خوزيه رودريجز مولينا
جامعة غرناطة
ترجمة إسحاق عبيد

أما وقد أخذت تخوم البلدان الأوروبية في السقوط أمام الجهود الصادقة لتعزيز الوحدة الأوروبية والانفتاح الثقافي، والتسامح العرقي والمذهبي والديني، فإنه من المفيد أن نلقي الضوء على تخوم غرناطة، آخر المعاقل الإسلامية في شبه جزيرة أيبيرية. ودليلنا في هذا السياق هو العلامة الفيلسوف والمؤرخ الكبير ابن خلدون، الذي ينحدر من أصول أندلسية، وكان يتسم بسعة الأفق والأخذ والعطاء مع الآخر، مما أكسبه صداقة الملك محمد الخامس من بني نصر في غرناطة، والذي عهد إليه برئاسة إحدى السفارات إلى بيدرو الأول ملك قشتالة.

لقد كان للأحداث المفجعة التي شهدتها أواخر القرن الخامس عشر، وطوال القرن السادس عشر، آثارها البعيدة على الذاكرة الشاملة للشعوب، حتى إن هذه الذكريات الأليمة قد ظلت تراود عقول الناس وتعاودهم حتى عصرنا الحديث. أما فترات السلام والهدنة والتبادلات الثقافية بين المسلمين، والمسيحيين، واليهود فقد ذهبت إلى طي النسيان.

غير أن الوثائق التي تم الكشف عنها مؤخرًا، رغم ما يشوبها من نقص في الدقة الحولية والمصداقية، قد كشفت عن العديد من العلاقات الطيبة بين الأطراف المعنية. والحق أن المعلومات الجديدة التي توصل إليها كل من خوان دي ماتا كاريازو Juan de Mata Carriazo، وخوان توريس فونتس Juan Torres Fontes، ساعدت في تبديد الكثير من الشكوك حول حقيقة تعايش الموريسكيين –مسلمي الأندلس– مع خصومهم المسيحيين الزاحفين عليهم، كما أنها أوضحت الكثير من الحقائق لكي نستبصر صورة واقعية لما كان يجري في بلاد الأندلس من علاقات.

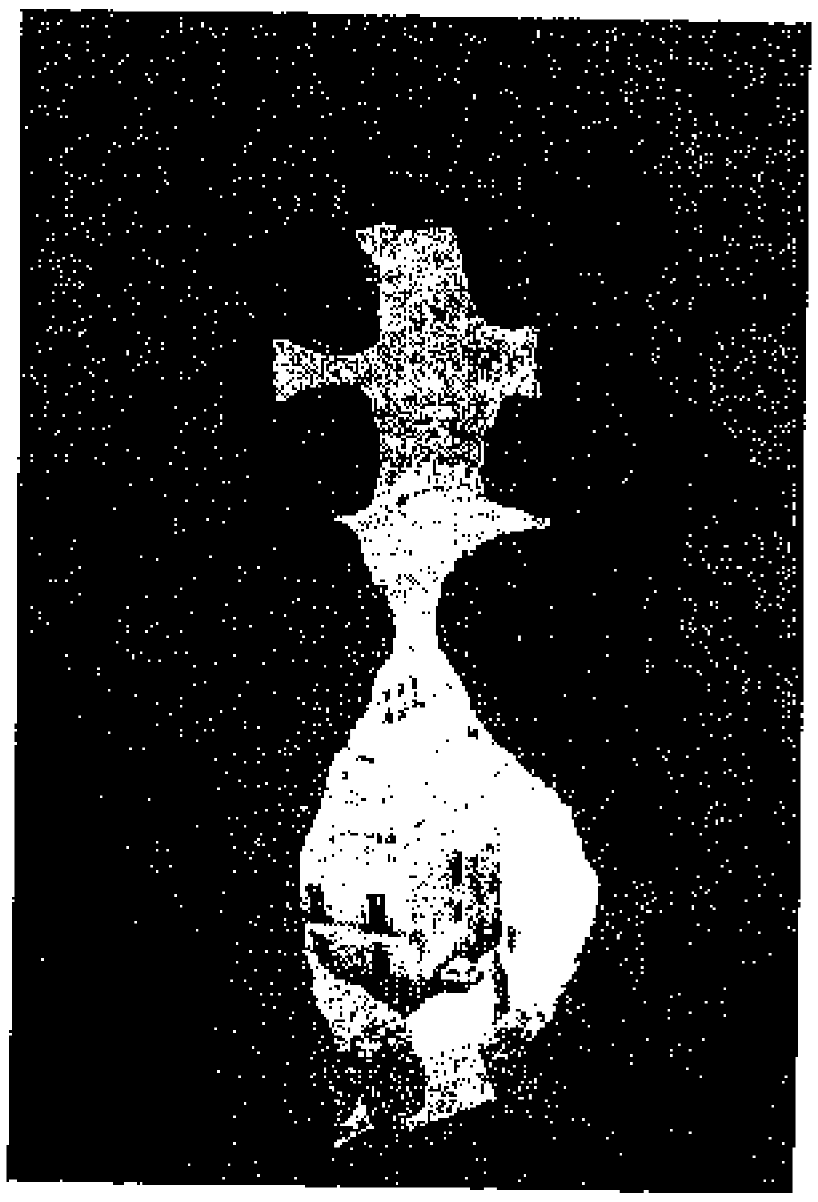

كرة لإطلاق النار في قلعة أوليرا Olvera في قادس، على تخوم مملكة بني نصر.

المناخ الذي أتاحته معاهدات السلام والهدنات

مع توقيع معاهدة جيان Jaen للسلام بين محمد بن نصر ملك غرناطة، الذي كان يقيم في قصر الحمراء، وبين بيدرو الأول ملك قشتالة، التي اعترف فيها الملك بتبعيته لملك قشتالة، وبدفع إتاوة محددة من المال كل عام؛ شهد المسرح فترة زمنية طويلة من السلام وحسن الجوار، امتدت من سنة 1246 حتى سنة 1492، شريطة ألا يقوم طرف من الأطراف بخرق بنود هذه المعاهدة. غير أنه عندما كان يتم خرق هذه المعاهدة من جانب طرف من الطرفين، تختلط الأمور والتوازنات، وتطفو على السطح بعض الصراعات – وإن كانت محدودة النطاق – حتى يتم الاتفاق من جديد وفق معاهدات أو هدنات جديدة لإعادة الأمور إلى مجراها السلمي بين الطرفين.

ونجد مثالاً لهذا في معاهدة السلام التي أبرمت بين يوسف الرابع، وخوان الثاني في أردالبس Ardalis سنة 1431، التي تم إقرارها سنة 1432. وينص هذا الاتفاق على مراعاة ملك غرناطة للولاء لملك قشتالة، وعلى إعادة أسرى الحرب، ودفع الإتاوة المتفق عليها، وحضور جلسات مجلس الملك القشتالي، وتقديم العون العسكري برًا وبحرًا للملك القشتالي. وفي مقابل ذلك يعد الملك القشتالي بتأمين الحماية والدفاع للسلطان، وبفتح الموانئ لتنشيط الحركة التجارية في المملكتين وتنقل الأفراد هنا وهناك بما في ذلك التجار، واتفق الطرفان على أن يخدم كل منهما ديانة الآخر، وأن ينزلا العقاب الرادع لكل من تسول له نفسه النهب أو السلب. ونحن نعلم أن الملك النصري نسبة إلى بني نصر قد أعدم بعض الأفراد الفاسدين من رعاياه، الذين تجاهلوا هذا الاتفاق وحاولوا الاعتداء على حياة أو أملاك المستوطنين المسيحيين.

وكان ملك غرناطة حريصا على مداومة حضور جلسات المجلس الملكي في قشتالة؛ كما أنه كان يوقع الرسائل الصادرة من الديوان القشتالي باسمه على رأس قائمة طويلة من أسماء النبلاء والأساقفة، كما تشهد على ذلك الوثائق المحفوظة في أرشيفات بياسة Baeza، وجيان Jaen، وأبدة Ubeda، والمؤرخة بسنوات 1245، 1284، 1305، 1460، وذلك في صيغة مشابهة لصيغة اتفاق سنة 1254، التي تقول: "دون أبو عبد الله بن نصر، ملك غرناطة، وتابع الملك. تصديق".

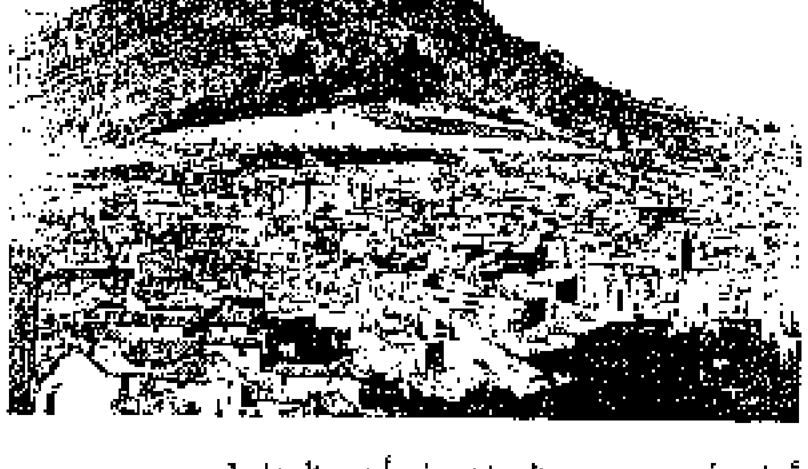

أعلى، أسرى وبعض المواشي في أيدي المغاربة، تصوير ضمن أناشيد ألفونسو العاشر، مكتبة دير سان لورنزو دي الأسكوريال.

أسفل، مدينة جيان في منتصف القرن التاسع عشر.

حقب الحرب والسلام على جبهة غرناطة

كان هنالك إذن خطان من الحياة على جبهة غرناطة، زمن الحروب، الذي لم يكن ليدوم طويلاً كما يتوهم البعض، والذي يمثل نسبة 15%، ثم أوقات التعايش السلمي التي بلغت نسبتها 85% من إجمالي الوقت. وهذا التأرجح بين السلم والحرب أشبه ما يكون بالعلاقات الجدلية بين غرناطة وقشتالة، والذي عبر عنه أحد نبلاء القلعة Alcalá المعاصرين: وهو يعدد أهل القربى والصحاب، في قوله بأنه يتمتع بصداقات عميقة مع فرسان غرناطة وغيرهم من الشجعان، من أمثال دون بيدرو آل نايال el Nayal، والد دون ألونسو بنجاس Venegas –بني غاز– وإخوته الذين لا يزالون على قيد الحياة. ورغم تبادل الضربات وقت الحرب، فإنهم سرعان ما يتبادلون الهدايا والتحيات وقت الهدنة وحلول السلام.

والواقع أن تلك الحقبة قد شهدت نوبات من القتال والتعديل في خطط الحرب ومستلزماتها– من قلاع وتحصينات وفرسان– ولكن هذا لم يكن بحال ليؤثر على فترات السلم، والتبادل التجاري

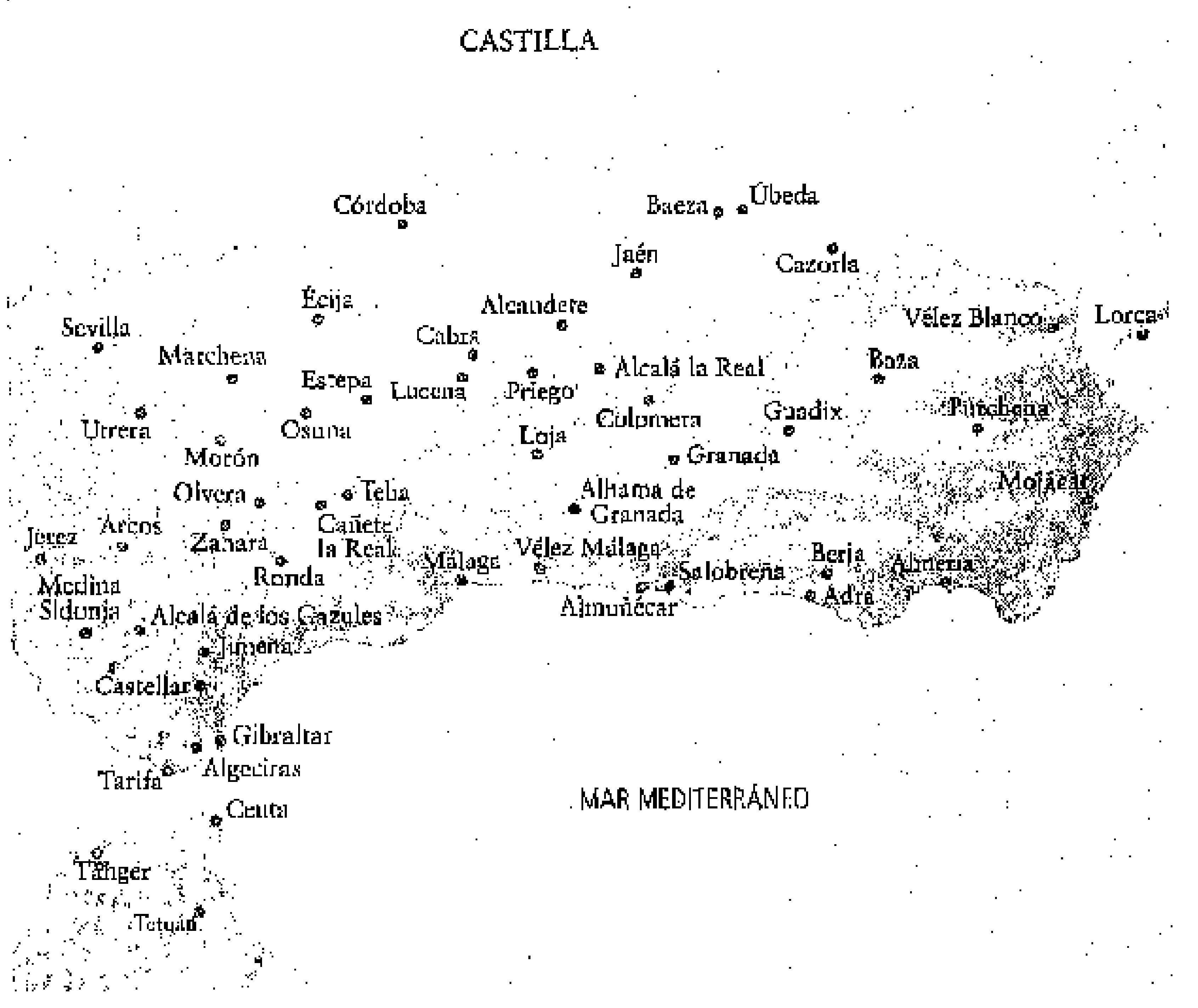

والتلاقح الثقافي والمحاكاة في أساليب المعيشة اليومية.

وعندما كانت الحروب تشتعل، كان النبلاء يتعرضون لنزيف الدماء، كما أن الطبقات الكادحة من الرعاة وقاطعي الأخشاب، كانت تعاني الأمرين كأسرى حرب، لأنهم كانوا يقيدون بالأغلال في زنزانات حالكة الظلام فيما عرف فيما بعد باسم حقل الشهداء في الحمراء، أو بالنسبة للطرف الآخر في الزنزانات المظلمة الرطبة الخاصة بالقرى المسيحية المعادية. كما أن هؤلاء الأسرى التعساء كانوا يكرهون على الأعمال الشاقة في ظروف بالغة القسوة سواء الطعام السيء أو المعاملة الآدمية.

ومع ذلك ينبغي أن نؤكد على أن الحروب سرعان ما كانت تهدأ ليحل محلها حال من الوئام والتواصل، وفي ظل هذا الوئام أرسيت قواعد مؤسسات هامة، من مراكز للجمارك، ومن قضاة لفض المنازعات بين الطرفين، ومن كشافة لتعقب المجرمين، ومن مرشدين للمسالك، ومن وسطاء للتبادل التجاري، ومن أجل فك أسرى الحرب من سجونهم. كل هذه السبل ساعدت في تيسير أحوال فترات السلم الطويلة، من قبيل ما تم التوصل إليه بين الطرفين سنة 1477 من اتفاق، وتجديده سنة 1481، ما بين مدينتي لورقة Lorca وطريف Tarifa: "ليكن معلوما أنه طيلة زمن السلام، سوف تفتح الأبواب للتجار من المسيحيين، والمغاربة، واليهود، وأيضا للتجار الجوالين من كلا الطرفين، برًا وبحرًا، لكي يتمكنوا من الترحال والعودة ببضاعتهم ودوابهم من مملكة قشتالة إلى مملكتهم غرناطة، ومن مملكة غرناطة إلى ممالك قشتالة، وذلك وفقًا لما جرت عليه العادة من قديم وقت السلم، مع تأدية التعريفة الجمركية المقررة. وليكن واضحًا لدى الجميع أن الأذى لن يحل بأحد من التجار أو بسلعهم، أي من القادمين من مملكتهم غرناطة، كما أنه يحق لهم الشراء والبيع، كما جرت العادة، وأن يشعروا بالأمان والاطمئنان".

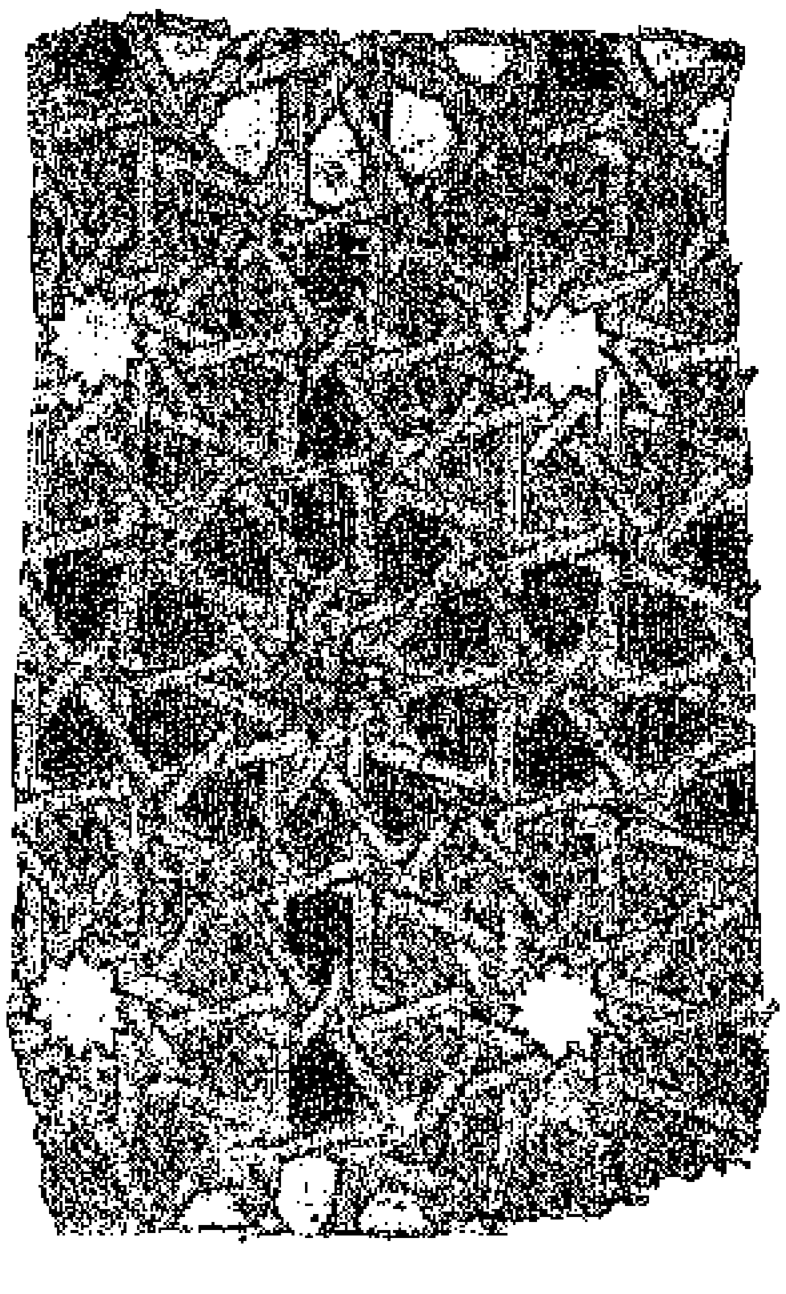

أعلى، حدود مملكة غرناطة زمن بني نصر، نهاية القرن الثالث عشر.

أسفل: قطعة من الحرير من غرناطة من عهد بني نصر، مؤسسة لازارو جالديانو – مدريد.

سبل التواصل بطريقة قابلة للتنفيذ

إن التحليل الدقيق لوثائق معاهدات السلام والهدنات، التي تم توقيعها من قبل الطرفين، إلى جانب بعض الوثائق الأخرى البعيدة عن تعقيدات المؤرخين، يفصح عن وجود مساحة رحبة للتواصل الإنساني والعلاقات الآدمية، بشكل أكثر وضوحًا ومساحة عن أوقات الحروب والصراع الديني.

كما أن العلاقات الحميمة التي قامت بين النبلاء من الجانبين تتجاوز كل تصور، فعلى التخوم، بعيدًا عن صدام الحرب، كانت إرادة الإنسان الفرد وعقيدته محل الاحترام المتبادل. وهذا المناخ الصحي هو الذي حفز على التبادل الاقتصادي، وعلى إزالة الحواجز ليتحرك القوم في حرية تامة وفي أمان، من طرف إلى آخر.

أما النبلاء، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، فقد كانوا يحتكرون الأراضي الواقعة حول التخوم، باستثناء بعض المدن الحرة مثل قلعة بني سعيد Alcalá la Real، أو أنتقيرة Antequera؛ ومن ثم فإنهم تخلوا عن التناحر بالحراب وأقاموا علاقات ود وصداقة فيما بينهم، مع تبادل للهدايا. ونطالع الشيء الكثير عن هذه العلاقات الحميمة بين الطرفين، وإن كان بشيء من المبالغة، في حوليات كل من ألونسو فاخاردو سيد مرسية، وكوندي دي قبرة Cabra من قرطبة. كما

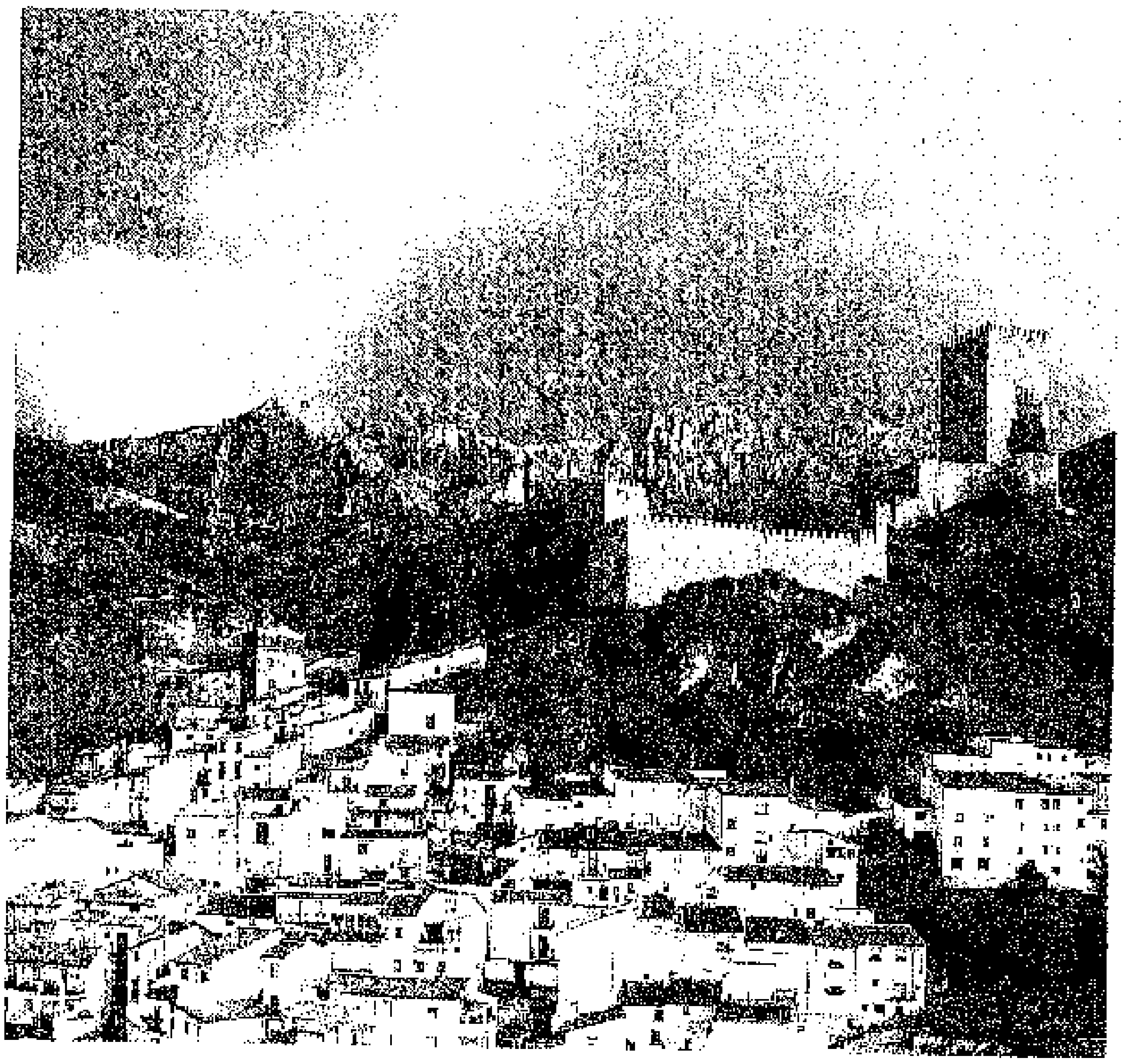

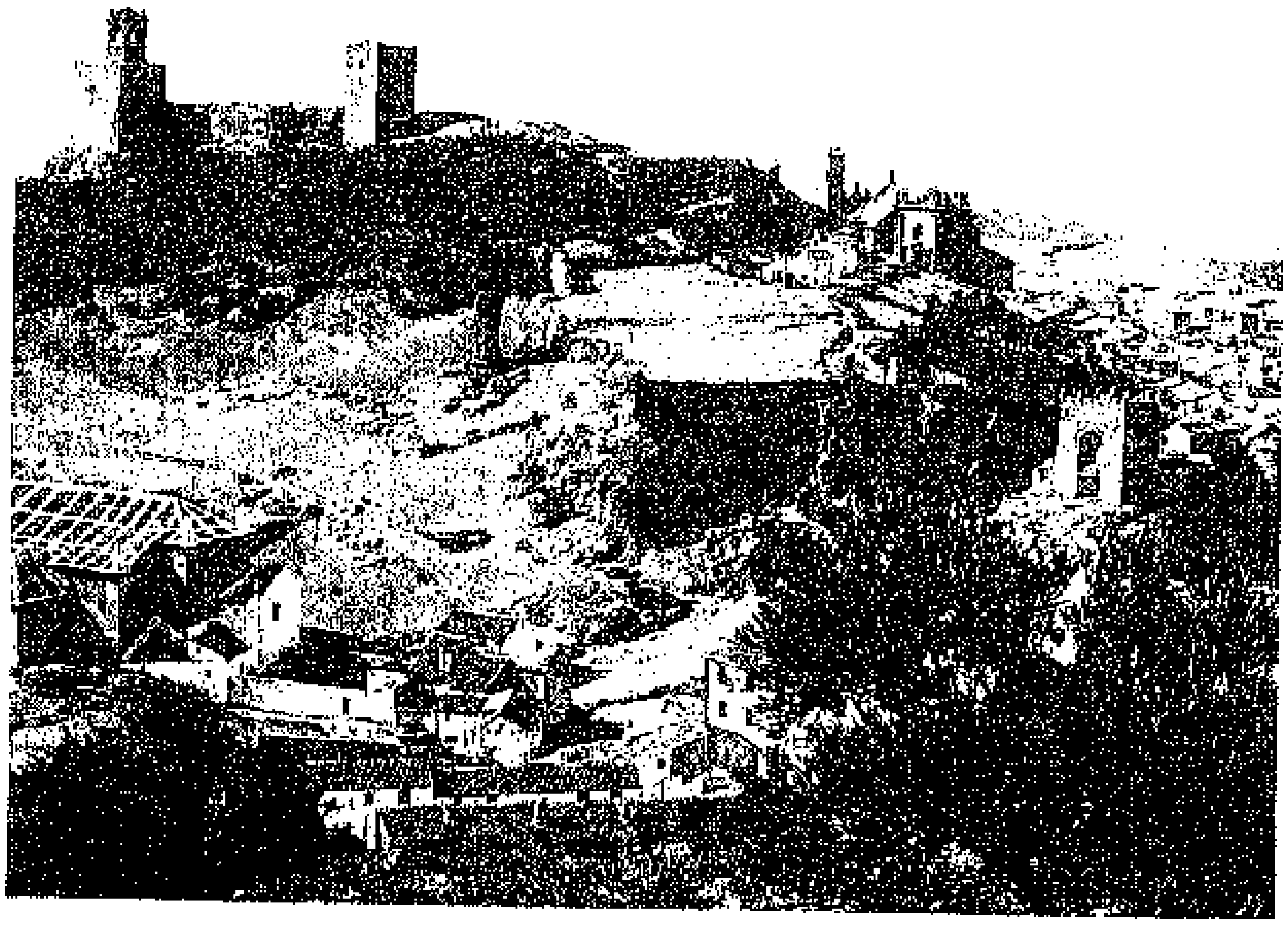

أعلى مدينة كازورلا Cazarola عند مفتح جبل كاستللو دي لايدرا Yedra.
أسفل مدينة أنقيرة في أوائل القرن العشرين، صورة فوتوغرافية.

أن المصادر تتحدث عن العلاقات الطيبة بين المسلمين وبين قائد الفرسان في مدينة شقورة Segura، دون رودريجو مانريك، ومع حكام كازورلا Cazorla، ومع أسرة بونكي دي ليون، وأيضا مع أهل مدينة شذونة Medina Sidonia. وفي ظل هذا المناخ من التعاون المتبادل أمكن لواحد من النبلاء من الدرجة الثانية يدعى ديا سانشيز دي كربخال أن يحتفظ بموقعه في شوذر Jódar دون مناوشة من جانب السلطات المغربية في وادي آش Guadix. وهذا الجو من الود والصداقة هو الذي جعل الكثيرين من الناس يعجبون من موقف إيرانزو الفارس كونستبل وسينور دي أجويلار Aguilar معه، ضد ملك غرناطة، في وقت كان فيه نبلاء الإسبان على علاقة طيبة بهذا الملك.

وهذه المشاعر المختلطة هنا وهناك ترجع إلى التحالفات التي تمت بين جماعات من غرناطة وأخرى من قشتالة تعارض التقارب بين المملكتين، فالكونستبل إيرانزو، على سبيل المثال، وحليفة سينور دي أجويلار كانا على علاقة وطيدة مع بني سراج في غرناطة المناهضة للحكم فيها، في حين أن إيرانزو في نفس الوقت كان على صلة طيبة مع نبيل يدعى كوندي كونت قبرة، الذي كان معاديا لواحد من أقارب إيرانزو.

ونفس التناقضات في معاهدة تمت بين بعض نبلاء قشتالة وبين سلطان غرناطة في بني نصر، التي يتعهد فيها السلطان بحماية هؤلاء النبلاء ضد خصومهم من المسيحيين بني جلدتهم. وهناك مثال آخر نجده في اتفاق تم بين قشتالة وغرناطة، وقع عليه كوندي كونت قبرة، مدفوعا بصداقته مع السلطان أكثر من ولائه للملك القشتالي.

والواقع أن هذه الخلافات الشخصية تعود إلى بعض الضغائن بين الجماعات المتناحرة عند الطرفين الغرناطي والقشتالي. وهنا كان مكمن الخطر الذي انعكست آثاره على مناطق سانتياجو وهجيرا دي مارتوس في الجانب الغرناطي، وعلى مناطق أنتقيرة التابعة لدون ألونسو أجويلار. وفي هذا الصراع كان جند القبذاق Alcaudete وقلعة بني سعيد يعتمدون على تأييد كوندي كونت قبرة، يعاونه المغاربة الذين كانوا على صلح معه وعلى صداقة متينة أيضا. ولقد قام المغاربة بالدفاع عن مؤخرة الغرناطيين، عندما حاول بيجيل لوكاس تعقبهم ومقاتلتهم. من المهم أيضا أن نذكر أن العداوة بين دون رودريجو مانريك، قائد فرسان منطقة شقورة وكبير قضاة أبدة؛ وبين دون ألونسو كاريللو كبير أساقفة طليطلة. وسيد مدينة كازورلا الحرة، كانت نتيجة لتدمير بلدة فيللا كاريللو Villacarrillo وأسر سكانها من المغاربة من أهل غرناطة؛ الذين كانوا في حلف مع كوندي دي باريدس Paredes، الذي سوف يصبح فيما بعد نصيرًا للملكة إيزابيلا الكاثوليكية في أرض الأندلس. من ذلك أيضا وقوف كوندي أركش Arcos

مع الغرناطيين ضد دوق مدينة شذونة؛ والذي تحول فيما بعد إلى حليف لملك غرناطة من بني نصر ضد بيير أفان دي ريبيرا Ribera، أو ماركيز بلدة قادس، دون رود ريجو بونس دي ليون، والواقع أن أهل غرناطة صاروا أداة العون في القتال في العديد من المشاحنات بين النبلاء الإسبان، وأصبحوا بذلك يمثلون الستار الذي تتوارى من خلفه جماعات قشتالة متحفزة للقتال والانتقام من بني جلدتهم المسيحيين مثلهم.

وبشكل عام يمكن القول بأن الطرفين القشتالي والغرناطي كانا يحترفان اتفاقات السلام بينهما. ومن الغريب أن روحًا من التسامح الديني سرت في عروق الجانبين بشكل ملموس، بعيدا عن مجرد اللغو الرومانسي. وجدير بالملاحظة أنه خلال القرن الثالث عشر وصولاً إلى القرن الخامس عشر كان يسمح للسلطات ولأقارب الهاربين من مواطنهم من الجانبين بمقابلتهم ومحاولة إقناعهم للعودة إلى جذورهم الدينية، في مناخ من التسامح والمودة، وبعيدا عن التشنج أو العنف، وهذا ما حدث في مناطق التخوم الغرناطية – القشتالية، في كل من فيونتي دي لا هجويرا Fuente de la Higuera بين لورقة وبيرة Vera، وفي مناطق جيان، وقلعة بني سعيد، وقلمرة Colomera. وبعد هذه اللقاءات كان الجميع يلتزمون بقرار هؤلاء اللاجئين ويحترمون إرادتهم.

ومن الأمثلة على هذه الروح من التسامح ما نطالعه في رسالة موجهة من شعب قلمرة المسلم إلى السلطات في بلدة جيان سنة 1479، للتعبير عن أسفهم لأنهم لم يفلحوا في إقناع شاب، كان قد اعتنق الإسلام بعد أن كان الخارجة قد اختطفوه؛ إذ فضل هذا الشاب البقاء في قلمرة على دينه الجديد. بل أن أهل قلمرة عرضوا على عائلة هذا الشاب المجيء إليهم ومحاولة إقناع ابنهم هذا للعودة إلى دينه وإلى موطنه في رسالة كتبوها من قلمرة إلى كبير القضاة، وعمدة المدينة، وقائد الفرسان، والكونستبل الأكبر، ومجلس المدينة، يقولون فيها:

"من قلمرة نتوجه إليكم بالتحية. حضرات السادة! لقد استقبلنا اثنين من أبنائنا المغاربة اللذين تكرمتم بإرسالهما إلينا، وبالمثل أرسلنا إليكم ثلاثة من ذويكم المسيحيين. ونود بهذه المناسبة أن نعلمكم، أيها السادة المبجلون، أن شابًا من عندكم قد قدم إلينا وأصبح مغربيا مسلمًا، وأنه عندما طلبنا منه أن يعود مع رفاقه إليكم رفض بشدة وآثر البقاء معنا. وعليه نطلب من حضرتكم أن تخاطبوا والدته وأسرته للمجيء إلى قلمرة لمحاولة إقناعه بالعدول عن موقفه هذا وبالعودة مع عائلته، وأننا سوف نساعدهم في مهمتهم هذه. ونحن على أتم الاستعداد، أيها السادة الكرام، أن نقوم بأي مطلب ترونه مناسبًا لعلاج هذا الموقف".

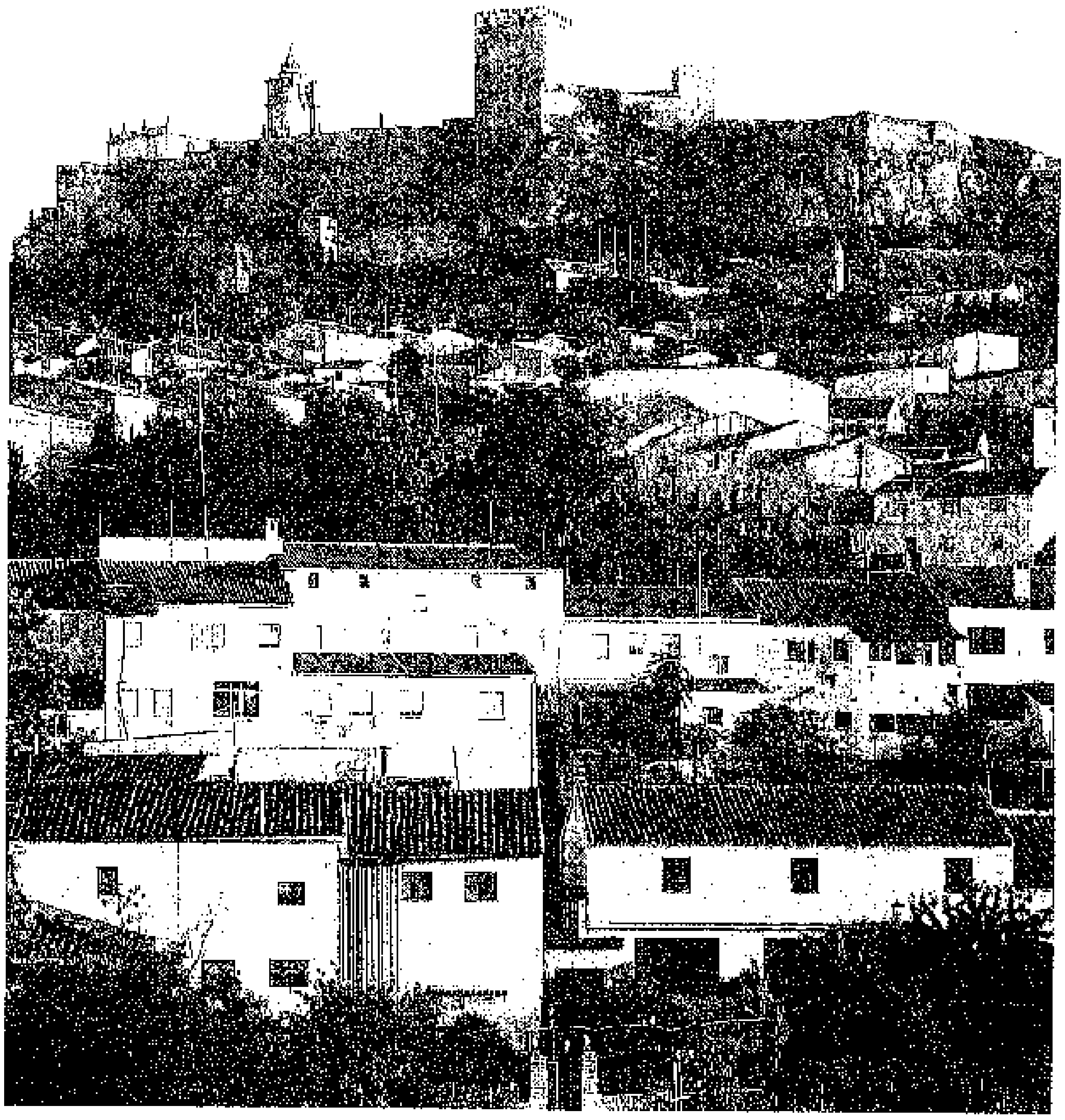

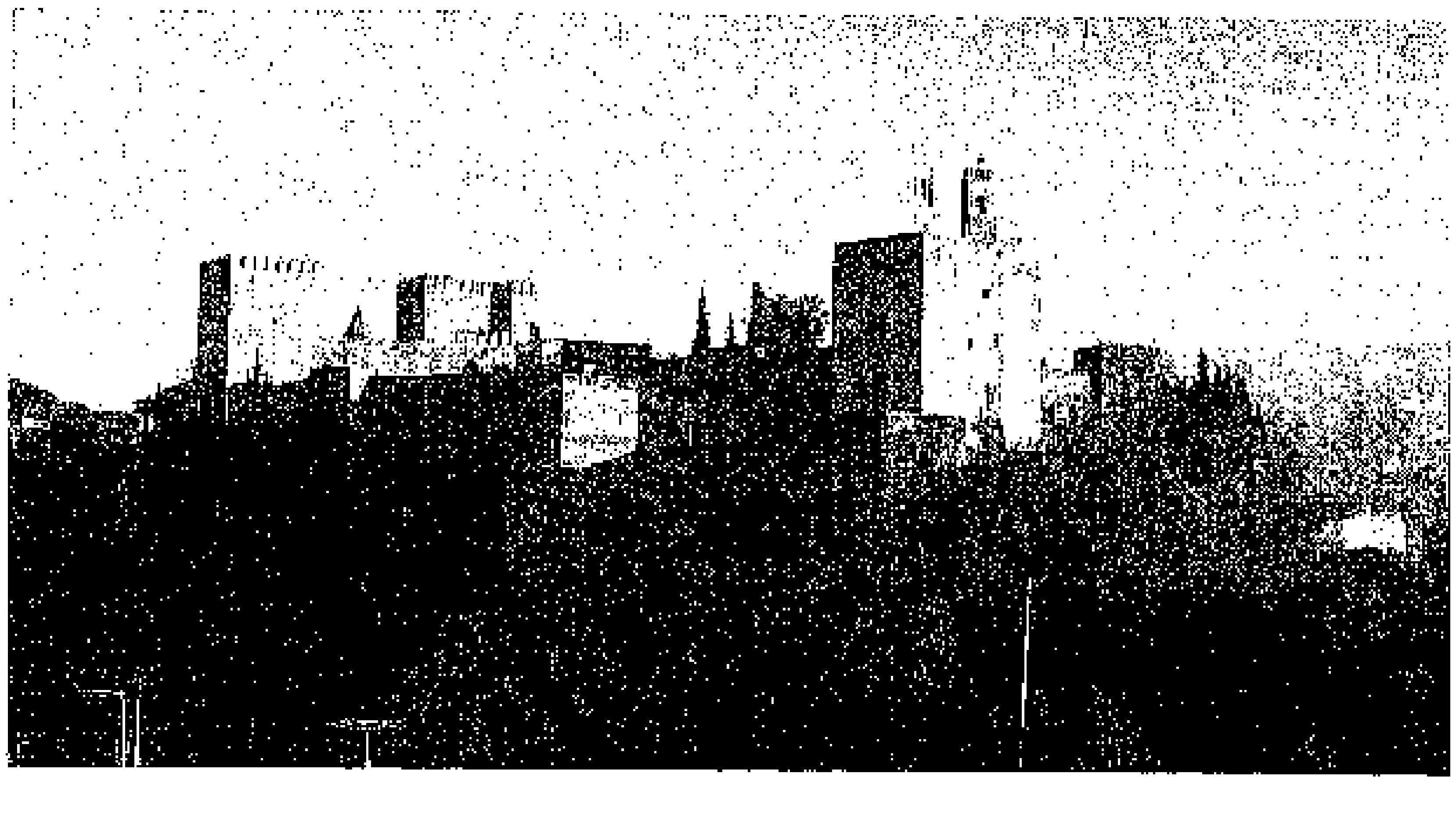

أعلى: مدينة قلعة بني سعيد عند سفح قلعة موتا.
أسفل: قلعة القصبة في الحمراء.

إن هذا المناخ قد وفر ظروفًا رائعة من تبادل الرسائل السلمية بين الطرفين، بل بين بعض المدائن المتناصرة. وفي هذا المناخ ولدت روايات رومانسية رائعة في مناطق التخوم تلك عرفت باسم "رومانسيات مغربية" كما نجده في "تاريخ بني سراج والجميلة شريفة" الذي طبع سنة 1565.

المبادلات الاقتصادية

تقدم لنا مضابط جلسات مجالس المدن صورة واقعية عن المبادلات التجارية والتعاون الاقتصادي بين المسيحيين والمسلمين في مناطق التخوم، من حيث التعريفة الجمركية، وتأجير المراعي والأرض المنزرعة، هذا إلى جانب العديد من الرسائل بين الأهالي من الطرفين في استخدام مجالس المدن للتشريعات المتبعة عند الآخر وتطبيقها في كثير من الحالات وقت اللزوم. والمعلومات بحق وفيرة ومركبة في هذا الخصوص، مما يسمح لنا بالتأمل في آلاف من الطرائق التي وجدت للتواصل والتعايش السلمي بين المدائن المتجاورة صاحبة الثقافات المتباينة.

وتبرز هنا فئتان بوجه خاص: فئة التجار، وفئة المهربين. والمعروف أن غرناطة كانت تعاني من نقص في الحبوب، وزيت الزيتون، والماشية، والأغنام، ولذا فإنها كانت تستورد هذه السلع من المدن الواقعة في منطقة الوادي الكبير. وفي المقابل كانت غرناطة تمد هذه المناطق بالأسماك، والفاكهة المجففة، والسكر، والحرير. وحتى في أوقات الحروب، كان المهربون من الجانبين يقومون بنفس هذه المهمة، مضافًا إليها تهريب الأسلحة والخيول.

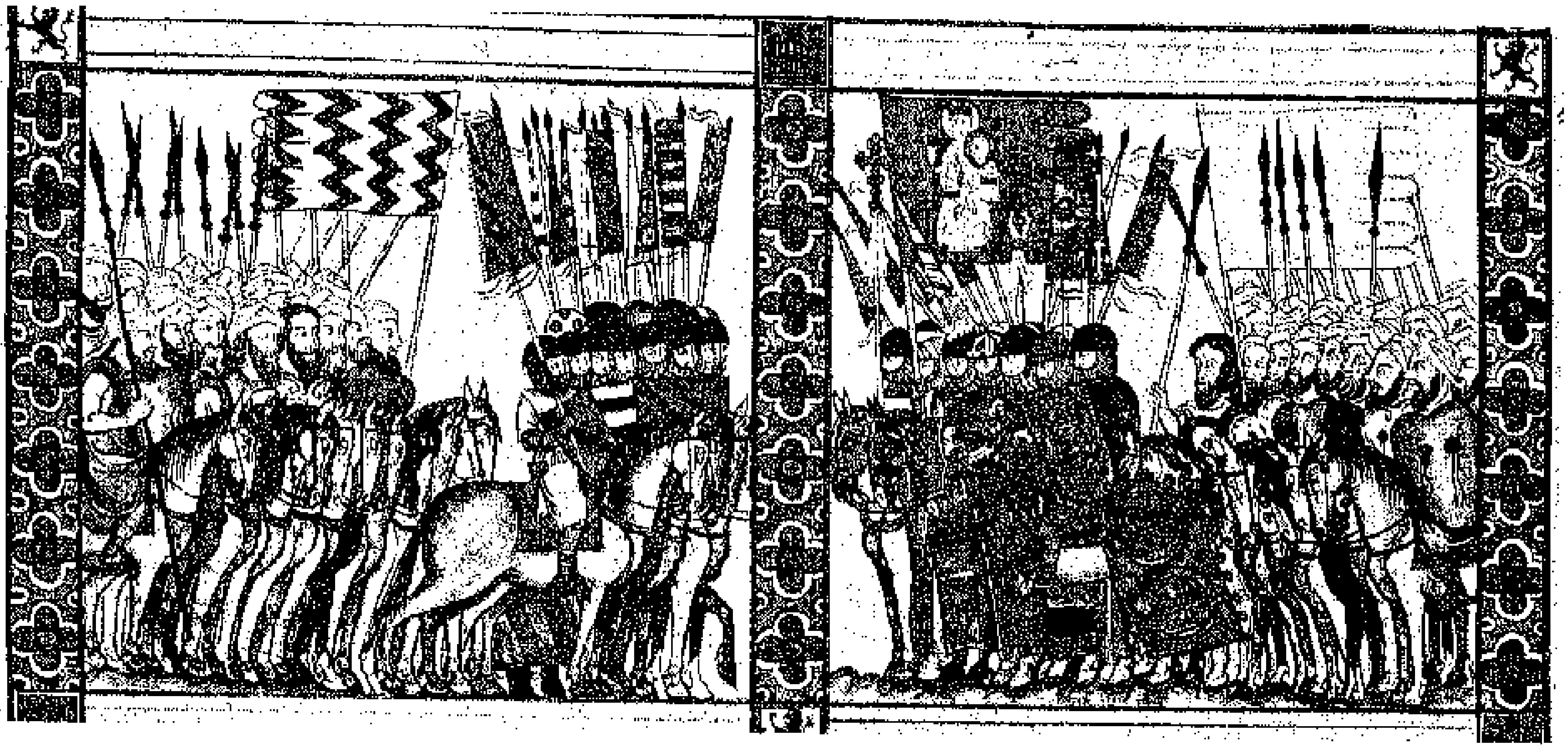

محاربون مسلمون ومسيحيون، تصوير من أناشيد ألفونسو العاشر، أواخر القرن الثالث عشر، مكتبة دير سان لورنزو دي الأسكوريال.

وكانت هنالك فئات كثيرة من التجار الجوالين، من مسيحيين ومغاربة ويهود، وكانوا يتنقلون على بغالهم. كذلك زاد عدد الوسطاء للإفراج عن أسرى الحرب، إلى جانب مرشدي القوافل، والسماسرة. وكان الجنوية من أهل جنوة والقطلونيون يؤلفون كمًا هائلًا في هذا الزخم الاقتصادي، كما نطالع عند كل من، كاريازو، وهيرز، وروزر ساليكرو وآخرين.

كما أن السلطات على الجانبين كانت تزود هؤلاء جميعا برسائل تضمن لهم سلامة الترحال والتنقل، من قبيل ما كانت تقدمه بلدة جيان، وقت الهدنة سنة 1480:

"وحيث إن البغالة المتنقلين على البغال يرغبون في المجيء إلى الأسواق، فإن هذه الوثيقة تؤمن لكل البغالة المغاربة والتجار وسلعهم حرية التنقل، لنقل متاعهم وبضاعتهم إلى هذه المدينة للبيع والمقايضة، ولهم الحرية في الترحال والعودة وفقًا لما يرغبون. ونحن من جانبنا نؤكد لهم أن أحدًا من أهل هذه المدينة أو جيرانها لن يتعرض لهم بالأذى، وذلك وفقًا لما اتفق عليه في معاهدة السلام من تأمين للمسيرة والدخول آمنين".

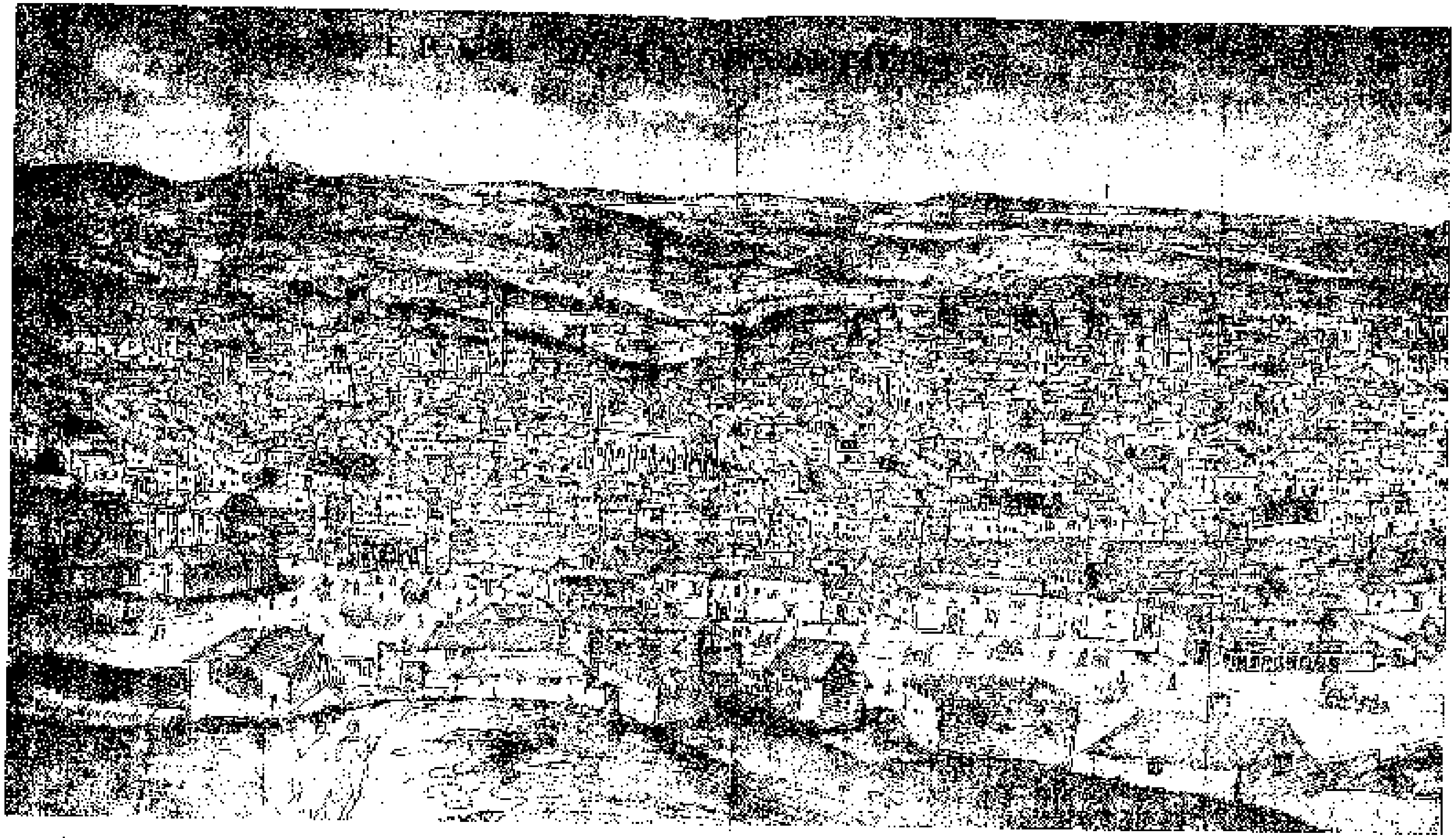

مدينة غرناطة، رسم يرجع إلى سنة 1567 من إنجاز الرسام Anton van der Wyngaerde.

والواقع أن الجانبين قد حافظا حتى زمن متأخر، كما نطلع في شهادة أحد القضاة الذي كان يتعارض ذلك أن بعض المحتجزين في مدينة جيان سنة 1480؛ فهو يقول: "لقد شاهدت واستمعت بنفسي مغاربة من أهل غرناطة يروحون ويجيئون من وإلى المدينة وهم يحملون بضاعتهم في أمان... ورأيت أيضا مسيحيين يتنقلون جيئة وذهابا كل يوم في سلام ووئام". ولقد أبدت هذه العلاقات التجارية نجاحا شديدا من جانب مملكة قشتالة؛ لأنها عادت على خزانة المملكة بمدخل كبير، وعليه أسست فرضا لنظام مالي مؤسسي تم توصيفه وإدراج بنوده في منظومة مالية كاسية Ordenamiento de Sacas التي اعتمدت سنة 1390. ومن خلال تحويل عشور المغاربة وأصناف هذه العشور، يمكن لنا أن نحسب حجم هذه المبادلات التجارية وعوائدها. ففي سنة 1420، كشف جامع الضرائب في منطقة بوابة مدينة قلعة بني سعيد Puerto de Alcalá de la Rea عن حجم التعريفة الجمركية، والتي بلغت 10 000 دينارا -عملة مغربية- من الذهب؛ والتي زاد يطالب بها ممن كانوا يراوغون في الدفع منه منطقة الجمارك بين الجانبين.

وهذا المبلغ يقارب حجم الإتاوة التي كان يتوجب على ملك غرناطة تأديتها لملك قشتالة في تلك الحقبة، وهو ما يوازي 12.000 دينار ذهبي، وفق الاتفاق الذي كان قد أبرم بين الطرفين.

من هنا لا نغفل الأسباب الهائلة المخصصة للرسوم للسلع والبشر في عبورهم، فقد جعلت معاملات القبائل مستقرة؛ لأنهم كانوا يسيطرون على مجالات الجمارك هنا وهناك.

ونحن نعلم أن حصيلة هذه الجمارك التي كان المغاربة يدفعونها قد اتسمت بالرتابة من تكرارها إلى غاية عهد دولة الأحمر، وتقدم لنا مخطوطة مجلس مدينة جيان في سنة 1475، معلومات عامة حول التعريفة الجمركية في بوابة مدينة قلعة بني سعيد، والتي كان يتوجب على المغاربة أداؤها عند المرور بها، وكذلك المحصول المناسب لها: "في هذا اليوم ظهر أمام دون لويس ... المسيحيين والمغاربة ... كلفة المدينة لسجلات وجمارك المغاربة ... تسجيلها طبقا لسجلات المغاربة ... نسبة ... وهي كالآتي:

- لكل قطيع ماشية بحجم صغير أكثر من عشرة رؤوس: أربعة مرابطي.
- عن كل قطيع الماشية مؤلف من أكثر من عشرة رؤوس: ثمانية مرابطي.
- عن كل قطعة قماش: أربعة مرابطي.
- عن كل أداة للطواحين: ثلاثة مرابطي.
- عن كل معطف: 2 مرابطي.
- عن كل عباءة أو رداء: مرابطي واحد.
- عن كل حمل من السردين وغيره من الأسماك: 4 مرابطي.
- عن كل رطل من الحرير: مرابطي واحد.
- عن كل أربعة (12.5 كيلو جرام) من الكتان: مرابطي واحد.

• عن كل أروبة زبيب، خمسة دنانير.
• عن كل رداء البرنس، خمسة مرابطي.
• عن كل ياردة من القماش المجلوب من غرناطة، 2 مرابطي.
• عن كل ياردة من الحرير، 2 مرابطي.
• عن كل بغال مغربي يبرح المدينة ببضاعته، ثمانية مرابطي.
• أما بالنسبة للزيت والعسل فلا تعريفة جمركية عليهما.

وكان يشغل منصب عمدة عشور وأنصاف عشور المغاربة سنة 1479 الدون هوتادو دي مندوزا، وهو من أعضاء مجلس الملك. وكانت الأموال التي تجبى من المغاربة منحة يمنحها الملك للشخصيات المرموقة في مجلسه. وكانت حصيلة الضرائب التي تجبى من صادرات المغاربة وبعض السلع المحددة تذهب إلى أيدي نبلاء القصر الملكي.

من ناحية أخرى كان التهريب موجودًا جنبا إلى جنب مع النشاط التجاري المشروع، وإن كان الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيلا قد أدانا هذا التحايل والتلاعب، ومن ثم فقد أصدرا قرارات ضد كل من تسول له نفسه أن يتحايل سرًّا في نشاطه مع موظفي الجمارك أو أشخاص آخرين على مناطق الحدود. والواقع أن العديد من المعاملات الخفية كانت تتم في جل الأماكن: في لورقة، ومورو Morón، وقيساده Quesada، أو قلعة بني سعيد، حيث عمل عدد كبير من الأصليين في أعمال التهريب 15% من عائلات ميورقة، غير أن السلطات كثيرًا ما كانت تغض الطرف عن هذه الأنشطة السرية.

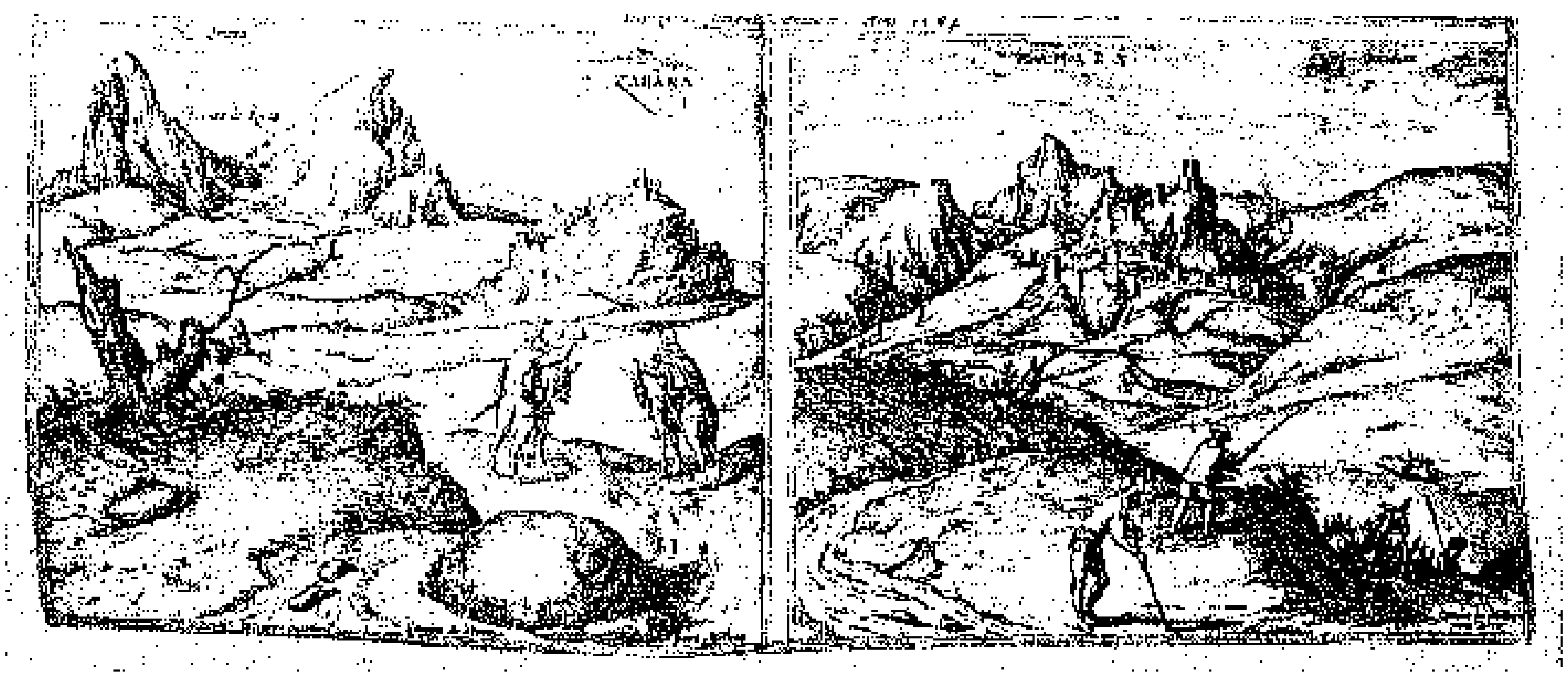

مدينة من مدن المراجهة، مدينة زهراء في رسم من كتاب مدن العالم Civitates Orbis Terrarum

وقد عرف نفس العصر استخدام مربي المواشي من المسيحيين للمراعي داخل أراضي المسلمين، وكان هذا تقليدًا قديمًا عند أهل مدينة جيان، الذين حصلوا من التاج على تصريح سنة 1305، لخلق مراع جديدة لمواشيهم، لأنهم لا يتمكنون من استخدام مراعي المغاربة بسبب الحرب بين الطرفين على أن تأجير المراعي للمواطنين المسلمين كان شيئا مألوفا، وإن كانت الوثائق لا تفصح عن ذلك صراحة، ويرجع ذلك إلى ما كان شائعًا بين أهالي جبل طارق، وماريّنا فيلّا لوبوس Marina Villalobos من اعتقاد بأن المغاربة في القرن الخامس عشر عادة لا يسجلون نشاطهم كتابة، وإنما هم يكتفون بكلمة الشرف عن تأجير مراعيهم. وهذا العرف قد سهل على أصحاب المواشي المسيحيين الوصول إلى مراعي كاسارس Casares، ومتابيخو Matabegid، وهويلما Huelma. وفي سنة 1486، عند نظر قضية تتعلق بملكية الأرض حول بلدة متابيجد، قيل الآتي: "هنالك أدلة بأنه في أوقات السلم، كان موظفو مناطق كامبيل Cambil، والهابار Alhabar يؤجرون منطقة باكسيسي Bexis، ومن خلال هذا الإيجار، اعتاد المسيحيون على استخدام هذه المنطقة والأراضي التابعة لبلدات كامبيل، والهابار، في مقابل مبلغ معين من المال للموظفين". كما أن فقيه بلدة كورتيز Cortes، وكان ابنا لأحد كبار موظفي المدينة، قد علق في بداية سنة 1491 بشهادة يقول فيها: "إن هذه الحقول قد تم تأجيرها، وكأنها ملك لهم، أي لهؤلاء المسيحيين المذكورة أسماؤهم، عندما أتوا بمواشيهم. ولذا فإنه يتوجب علي أن أحافظ على هذا التقليد، بأن أوافق على تأجير هذه الأراضي لمن يأتي بمحض إرادته لهذا القصد... وإنني أشهد بأنني قد خبرت هذا التعامل نفسه بنفسي منذ 15 عاما، كما أنني قد سمعت نفس الشيء من بعض شيوخنا الكبار، كما كان العرف ساريا دون تراجع أو نقص.

هذا وقد انطبق نفس العرف على الجهة الأخرى، أي بالنسبة لمسلمي غرناطة؛ فنحن نعلم أن أحد رعاة المواشي وكان مسلما، قد وفد بماشيته إلى منطقة سيراموريا من أجل المرعى، وجدت لهذا الراعي من بلدة قلمرة أنه علم بقصة ظهور العذراء في بلدة كابيز' بمنطقة أندوجار Andújar

وإلى جانب هذا الخبر، هنالك معلومات موثقة لسنتي 1478 - 1479، عن مرور المواشي من مملكة بني نصر في غرناطة عبر منطقة كانيتي دي لاس توريس Canete de las Torres، تجاه أرض المراعي الرطبة، معتدلة المناخ في سيراموريتا.

يضاف إلى كل هذا أن اتفاقات قد أبرمت بين المدن المتجاورة لاستخدام الأراضي بالمشاركة بين المسلمين والمسيحيين. والحق أن بني نصر كانوا شديدي الحرص على عدم وقوع احتكاكات أو توترات بين الطرفين. وفي سنة 1417، راح أهل بلدة هويلما Huelma يذكرون الحاكم عبيدة بضرورة الالتزام بالسلام من أجل المحبة لجار ومن أجل توثيق عرى الصداقة. وفي سنة 1462، بناءً على ما كان معهودا في بلدة قلمرة، أكد الموظف المسئول في غرناطة، واسمه مونافاراكس، لأهل بلدة القلعة Alcalá أنه على الرغم من بعض التجاوزات في مناطق الحدود، فإنه شديد الحرص على السلام وحسن الجوار والمحبة المتبادلة بين الطرفين. كذلك نجد الموظف المغربي في بلدة كامبيل يذكر رفاقه من المسيحيين في بلدة هويلما أنه لا يصح القبض على عابر سبيل ضل طريقه، بل ينبغي العمل على هدايته إلى الطريق السليم، لأن هذه هي أحكام حسن الجوار، ولقد أدى هذا المناخ من المعايشة السلمية وحسن الجوار إلى توقيع العديد من المعاهدات، من قبيل تلك المعاهدة التي وقعت بين مدينة شريش Jerez المسيحية وبين بعض المزارعين المغاربة في منطقة سيرانيا دي رندة Ronda. وهذه المعلومات نستشفها من اتهام كان رعاة بلدة شريش قد وجهوه ضد مغاربة جبل شلير Sierra، الذين كانوا قد استولوا على اثني عشر ثورًا بالقوة. ولقد أعترف المتهمون بفعلتهم تلك، ولكنهم أوضحوا أنهم قد فعلوا هذا تعويضا لهم عن مبلغ عشرة ريالات متفق عليها كإيجار لمرعى هذه الثيران، ولكن هذا الرد لم يكن مقنعا للسلطات لأن هذه الأراضي جميعها كانت من حق جميع أهل الجيرة، ويستفاد من هذه العبارة الأخيرة أن روحًا من الأخوة والمعايشة كانت قائمة بين الطرفين، والدليل على ذلك حق الجميع من أهل الجيرة في استخدام تلك الأراضي للرعي.

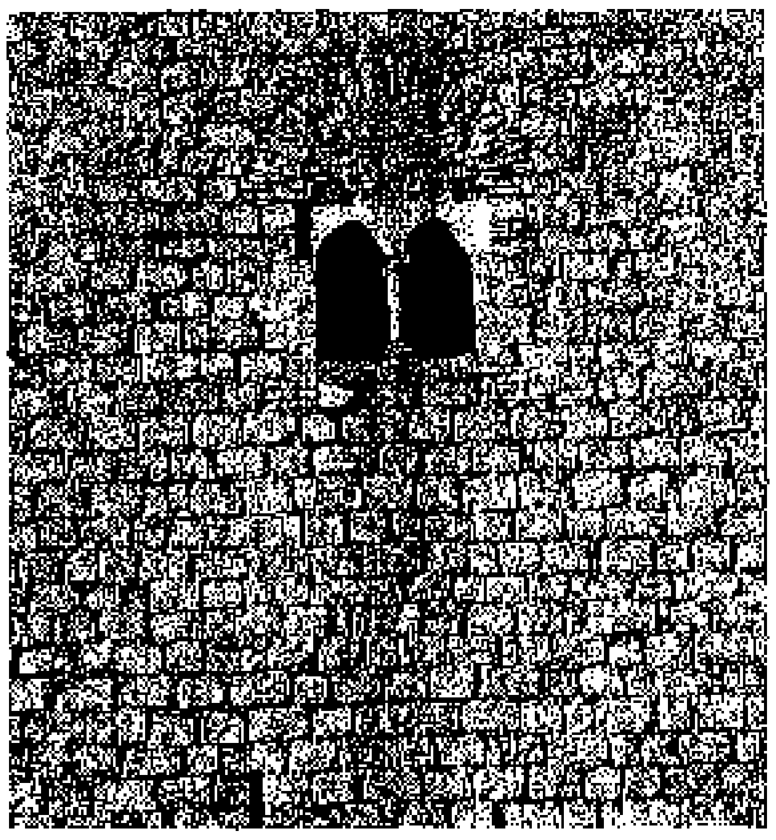

القصر في كاستيو دي لا يادرا في بلدة كازورلا Cazorla.

كذلك هنالك ثوابت بأن المسلمين كان يستأجرون أراضي تقع داخل الأراضي المسيحية نفسها. ولقد أوضح أهالي منطقة هويلما هذا الموقف لمحاجتهم في قضية ماتا بكسيس Mata Bexix بأن المغاربة يقومون بفلاحة الأرض على هذه الضيعة، لا لأن هذه الأرض تخطى مناطق كامبيل، والهابار، وإنما كملاك أو مستأجرين لقطع صغيرة من الأراضي من المسيحيين، فهي إذن من حقهم.

حرية التنقل في مناطق المواجهة

كانت هنالك ألوان عديدة من التواصل بين المسيحيين والمسلمين، ويؤكد الاستاذ أ.دي بالنسيا أنه في أوقات السلام بين الطرفين، كانت مناطق المجابهة مفتوحة أمام الجميع لحرية الحركة. وهذه الظروف هي التي مكنت السادة المسيحيين من القيام بهواية الصيد في منطقة كارسايس، عندما اكتشفوا جماعة من المسلمين في أحد الكمائن يتربصون ببعض إخوانهم في العقيدة، أثناء الليل، لقد كان للصدفة دورها بأنه في تلك الأيام كانت الهدنة تسمح للفرسان المسيحيين بالسفر آمنين في مناطق الريف، وحدث أن موظفًا مرموقا من منطقة جبل طارق، واسمه بيدرو دي بارجاس Vergas- بني غاز- كان يعبر المنطقة في رحلة صيد... وهكذا تم الكشف عن هذا الكمين سالف الذكر، وتم تحذير الأشخاص المعنيين من مغبة هذا الكمين.

هنالك أيضا شهادة أخرى تؤكد على هذه الروح من الأخوة وحسن الجوار، والمرور في أراضي المجابهة على الطرفين، وهذا ما نعلمه من واحدة من القضايا بعد ضياع مدينة زهرا Zahara سنة 1482، فلقد وقعت هدنة بين المسيحيين والمغاربة، ... وصار مسموحًا لأهل مدينة زهرا بالتحرك في حرية كاملة إلى أية جهة يقصدونها.

الخلاصة، لم تكن العلاقات بين الشعوب القشتالية والغرناطية مشوبة بالصراع أو التعصب الأعمى. وهذا ما تكشف عنه الوثائق والعقود العديدة. وكل هذا وذاك يؤكد دون شك دفء الحوار بين الطرفين: وهذا هو الأمل الذي تتطلع إليه الشعوب جميعا في عالمنا، وهو أمل يصاب بالإحباط حينا، ولكنه قد تحقق أكثر من مرة في الأيام الخوالي.

فشل اللقاء بين ابن خلدون وبيدرو الأول ملك قشتالة*

جان بيير مولينيا
المركز القومي للبحث العلمي – باريس

ترجمة حاتم الطحاوي

وصف المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون لقائه مع بيدرو الأول، باعتباره اجتماعًا بين شخصيتين فريدتين، وذلك في سيرته الذاتية، وهي آخر جزء من تاريخه العالمي. وقد تمت دراسة هذا الاجتماع في العديد من المناسبات [1]. إذ إنه لمن المعروف أن ملك قشتالة كان قد عرض على ابن خلدون، الذي حضر مبعوثًا لملك غرناطة، أن يرد عليه ممتلكات أجداده في أشبيلية، والتي أصبحت تخص أحد نبلاء قشتالة المجهولين، وبذلك يتمكن من الإقامة في أملاكه. وبالرغم من ذلك، فإن ابن خلدون قد رفض هذا العرض دون إبداء أية أسباب.

يجب علينا أن نتوجه أولًا إلى المشكلة الخاصة بالتاريخ المحدد للقاء. ويبدو أن ابن خلدون قد وضعها في سنة 765 هـ؛ والتي تتوافق مع الفترة الواقعة بين العاشر من أكتوبر سنة 1363 والسابع والعشرين من سبتمبر لعام 1364هـ، عقب وصوله إلى غرناطة في صباح الثامن من ربيع الأول سنة 764 هـ، وكتب عن المنصب الذي تولاه في مجلس الملك محمد الخامس: "وفي السنة التالية، أرسلني في سفارة إلى الملك القشتالي، بيدرو الأول، ابن ألفونسو .... وقد تم استقبالي بأشبيلية" [2] وبالفعل فإن الوثائق المتعلقة ببيدرو الأول، والتي وصلت إلينا، توضح أن الملك كان بأشبيلية في الفترة ما بين الثامن والعشرين من سبتمبر والثالث من نوفمبر سنة 1363، وما بين الثاني والسابع والعشرين من يوليو سنة 1364 [3].

مسألة ميل بيدرو الأول إلى المسلمين

أنكر العديد من المؤرخين ما زعم عن بيدرو الأول بشغفه بالمسلمين، وكذا شغفه باليهود، واعتبروا ذلك من باب الدعاية الخالصة لصالح إنريكي دي تراستمارا Enrique de Trastamara، قاتل وخليفة شقيقه. ولهذا أوردت إحدى المكاتبات واقعة سفارة ابن خلدون مع ملك قشتالة، والتي – كما قالت – ساءت إلى سمعته [4]. وبالرغم من ذلك، فإن الوقائع الأخرى سوف تبرهن على تعاطف الملك المماثل تجاه مسلمي مملكة غرناطة كما هو الحال مع المسلمين في مملكته.

وقع بيدرو الأول معاهدة مع الغرناطيين والمرينيين، في أول عهده سنة 1350، في السابع عشر من يوليو بأشبيلية وتم تمديدها حتى يناير سنة 1357، تضمنت إحدى فقراتها دفع القشتاليين لجزية سنوية للملك الغرناطي؛ مع دعم الفرسان الغرناطيون لجيشه. ويمكن ملاحظة رغبة الملك في وجود جنود يدينون له بالولاء، وذلك نظرًا لانقسام طبقة النبلاء [5].

وفي سنة 1366 وخلال أول غزو للمملكة القشتالية على يد إنريكي دي تراستمارا، عندما اضطر بيدرو الأول أن يلوذ بالفرار من أشبيلية والتي هب شعبها ضده، وقام قبل ذلك بتحرير أسرى المسلمين العاملين في الترسانات البحرية للمدينة. لم تظهر تلك الحقيقة في مدونة بيرو لوبيز دي أيا Pero Lopez de Ayala، وهو الذي نسب ثورة المدينة، في رواية واحدة، وكذلك اتهام بعض الناس للملك، للرغبة في استيلاء مسلمي غرناطة على المدينة [6]. ومع ذلك فإن الذي أمدنا بتلك المعلومة مؤلف غرناطي، يدعى ابن الخطيب في كتابه الإحاطة [7]. إذًا فإن المعلومة التي تخص تحرير أسرى المسلمين في أشبيلية، لم تكن لتسهم في أية دعاية لصالح إنريكي دي تراستمارا، وذلك لأن مصدرها كاتب ذائع الصيت من غرناطة وليس لوبيز دي أيا، وهو متهم بتلويث سمعة بيدرو، ليعزز شرعية خلفائه الذين كتب من أجلهم. وتتضح أدلة رواها ابن خلدون، عن تعاون بين جيش بيدرو الأول والقوات الغرناطية بمنطقة الوادي الكبير أثناء الحرب الأهلية القشتالية. وكان ابن الخطيب يكتب أخبار نصر الجيش الغرناطي، ولم يشر إلى أي تعاون لقوات قشتالية تدين بالولاء لبيدرو الأول؛ وهو

(*) نسخة مختصرة من محاضرة بعنوان "المزيد عن لقاء ابن خلدون بالطاغية بيدرو في أشبيلية (1363– 64)"، تم تقديمها في مؤتمر الرحلة، الشرق والغرب يلتقيان ما بين الاتصال والانقطاع؛ الرباط: نوفمبر 2001، النقاط التي لم يتم نشرها بعد.

1 Pons Boigues, F. (1898) *Los historiadores y geógrafos arábigo-españoles*, Madrid, págs. 350-362. Irving, T. B. (1959) "Peter the Cruel and Ibn Khaldūn", *Islamic Literature*, núm. 11, págs. 4-17. Cheddadi, A. (1982-1983) "À propos d'une ambassade d'Ibn Khaldūn auprès de Pierre le Cruel", *Hespéris-Tamuda*, núms. 20-21, págs. 5-23.

2 Traducción de Cheddadi, A. (1980) *Le voyage d'Occident et d'Orient. Autobiographie*, Paris, págs. 90-91.

3 Díaz Martín, L. V. (1999) (ed.) *Colección documental de Pedro I de Castilla* (1350-1369), Salamanca, t. 4, docs. 1232 a 1236, 1262 a 1267.

4 Estow, C. (1995) *Pedro the Cruel of Castile* (1350-1369), Leiden.

5 Díaz Martín, L. V. (1995) Pedro I (1350-1369), Palencia, pág. 58.

6 Ed. Rosell, C. *Crónica del Rey don Pedro*, año 17 (1366), cap. 9, pág. 542b, núm. 4. El pasaje falta en la edición de Orduña, G. (1997) *Crónica del Rey Don Pedro y del Rey Don Enrique su hermano, hijos del rey don Alfonso Onceno*, t. 2, Buenos Aires, pág. 134.

7 al-'Abbadi, M. A. (1963-1964) "Muhammad V, al Gani bi-Llah, rey de Granada", Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos en Madrid, núms. 11-12, pág. 271. Gaspar Remiro, M. "Correspondencia diplomática entre Granada y Fez (s. XIV), extractos de la Rayhanna alcuttab de Lisaneddin Abenaljatib el Andalosi", Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino (1911-1916), pág. 278.

8 Ibn al-Jatib, "Correspondencia diplomática...". López de Ayala, P. (1368) Crónica del Rey don Pedro (ed. Rosell, año 19), cap. 6, pág. 582b. al-'Abbadi, A. M. "Muhammad V", pág. 285

ذكره لوبيز دي أيلا لينجح في إسقاط شرعية الملك الذي أرْدي صريعًا [8].

تعد قصة ابن خلدون هي الدليل الوحيد الذي لدينا، والخاصة باللقاء الذي تم بين الملك القشتالي والمؤرخ، والتي أعطتنا سببًا لكل من عرض الملك، أو رفض ابن خلدون. لذا يجب علينا أن نلجأ لتأويل دوافع كلٍّ منهما، ولكن مع الاحتفاظ بما هو منطقي ومعقول إلى أبعد حدود.

أسباب الملك

تعتبر الأسباب التي دفعت الملك لتقديم هذا العرض واضحة بعض الشيء، حيث يظهر جليًّا شعور الملك بالتهديد وذلك بسبب الضغوط التي تمارسها الطبقة الأرستقراطية عليه، بالرغم من أن الحرب الأهلية لم تكن قد بدأت بعد عندما قابل المؤرخ، وحاول الملك تشجيع معاونة الأقليات، ويعتبر ولاء هؤلاء مضمونًا لأن بقاءهم يعتمد على رغبة الملك. وقد أملى اليهود والمسلمون الخاضعون لهم (المدجنون) هذا الضمان، وحتى وإن كانت علاقاتهم لم تحدث بها أية مشاكل [9]. ولدينا دليل لمثل هذا النوع من المشاكل في مملكة قشتالة، وفي الحقيقة أن عندما أنعم الملك بالعفو على سكان طليطلة في الثاني عشر من أكتوبر سنة 1355؛ بعد التمرد الذي قام في المدينة لحماية حقوق الملكة بيانكا من أسرة البوربون Bourbon، إنه لم يعف عن مسلمي طليطلة لاشتراكهم في نشاط ضد اليهود [10]. وبالرغم من ذلك، فإن الطبيب المعالج لملوك غرناطة والمرينيين ثم الملك القشتالي كان يهوديًّا، وأثنى على ابن خلدون لدى ملك قشتالة.

صفحة من مخطوط Crónica del rey don Pedro، للوبيز دي آيالا، الأكاديمية الملكية للتاريخ – مدريد.

سوف نفترض أن العرض الذي عرض على ابن خلدون من قبل بيدرو الأول، ما كان سوى رغبة منه لتدعيم الأقلية المدجنة بمملكته. ومع ذلك فإن ابن خلدون لا يعد مسلمًا عاديًّا؛ مثلما الحال وقتها بالنسبة للبناء العادي أو الخزاف العادي، حتى لو كنا نقدر تلك الأعمال الفنية الآن، ونعتبرهم فنانين، وذلك لم يكن هو الحال في عصر ابن خلدون. لقد كان علامة مثلما كان مؤرخًا أو فيلسوفًا، وكما نميل إلى إجلاله اليوم فقد كان فقيهًا أيضًا، وكان قد كتب بحثًا عن شرعية نماذج معينة من الصوفية [11]، وخاصة لكونه قاضي قضاة مذهب المالكية مرتين خلال إقامته بمصر.

إن الرأي الذي تم التعبير عنه بخصوص عرض ملك قشتالة قد أثبت أن المتعلمين قد انتشروا فيما بين حدود الولايات الإسلامية وإن ذلك أمرًا غير معتادًا. وذاعت هذه السمة الاستثنائية. هذا هو الظرف الوحيد فيما يتعلق بفقيه أو كاتب مسلم بخلاف ابن خلدون الطبيب ابن زرزر الذي كان يهوديًّا. كان من الواضح أن انتشار اليهود أقل إشكالاً عن انتشار المسلمين فيما بين العالم الإندلسي والمغربي الإسلامي والعالم الأسباني المسيحي. وتعتبر هذه الحالة مختلفة عن وجود شهادة تطوعية، بشأن الأسرى الذين أطلق سراحهم، لعلماء طليطلة المسلمين أبان القرن

9 Sobre los conflictos entre musulmanes y judíos en los dominios cristianos de la Península Ibérica: sobre Aragón, véase Nirenberg, D. (2001) Comunidades de violencia. La persecución de las minorías en la Edad Media. Barcelona. (Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages. Princeton, 1996.).

10 Baer, F. (1929-1936) *Die Jueden im christlichen Spanien*. Erster Teil, *Urkunden und Regesten*. Berlín, 2 vols., II, *Kastilien/Inquisitionsakten* (reed. Inglaterra, 1970), núm. 190, pág. 185. León Tello, P. (1979) *Judíos de Toledo*. Madrid, 2 vols., I, núm. 29, pág. 409. Díaz Martín, L. V. *Colección documental de Pedro I*, vol. IV, doc. 955, págs. 274-275.

11 Traducción de Pérez, R. (1991) *La Voie et la Loi, ou le Maître et le Juriste*. París.

الثالث عشر الذين علموا إخوانهم في الدين[12]، ولكنهم- كما قيل - لم يألفوا البلاط الملكي. تتطلب السمة الفريدة لهذا الأمر توضيحًا محددًا وذلك ما سوف نعرض له.

كان هناك بقشتالة - على الأقل باعتبار ما سوف يكون - منصب مماثل لقاضي القضاة، أو قاضي الجماعة في الولايات الإسلامية وعرف، بشكل خاص من قبل الفونسو الحادي عشر في ملخصه التشريعي، الذي عرف باسم الأحزاب السبعة. وكان المنصب يطلق عليه العمدة الكبير ويقوم في المحكمة كقاضي استئناف في قضايا السكان المدجنين في المملكة الذين قد حكم عليهم سابقًا على المستوى المحلي[13]. ولم تكتسب التحولات منزلة قانونية كاملة في قشتالة، حتى انعقاد مجلس قلعة عبدالسلام Alcalá de Henares في سنة 1348، حيث ظلوا تحت السيطرة حتى السنة السابقة لخلافة بيدرو الأول لوالده. توفي ألفونسو العاشر بالطاعون أثناء الحصار لجبل طارق في مارس سنة 1349. بالإضافة إلى أن أول من تولى المنصب الذي نال شهرة من الآن فصاعدًا، وأطلق عليه اسم قاضي قضاة المسلمين، ولم يذكر بالاسم حتى سنة 1370، وفي عهد إنريكي دي تراستمارا، كان اسم أول قاضي قضاة للمسلمين، محمد الرندي، والذي يجعلنا نعتقد بأنه لابد وأنه جاء من مدينة رندة، التي تسيطر عليها غرناطة، بعد أن كانت نقطة دعم للمرينيين في شبه الجزيرة الأيبيرية، ومركزًا لمحمد الخامس، ملك غرناطة الذي قام بغزو مملكته[14].

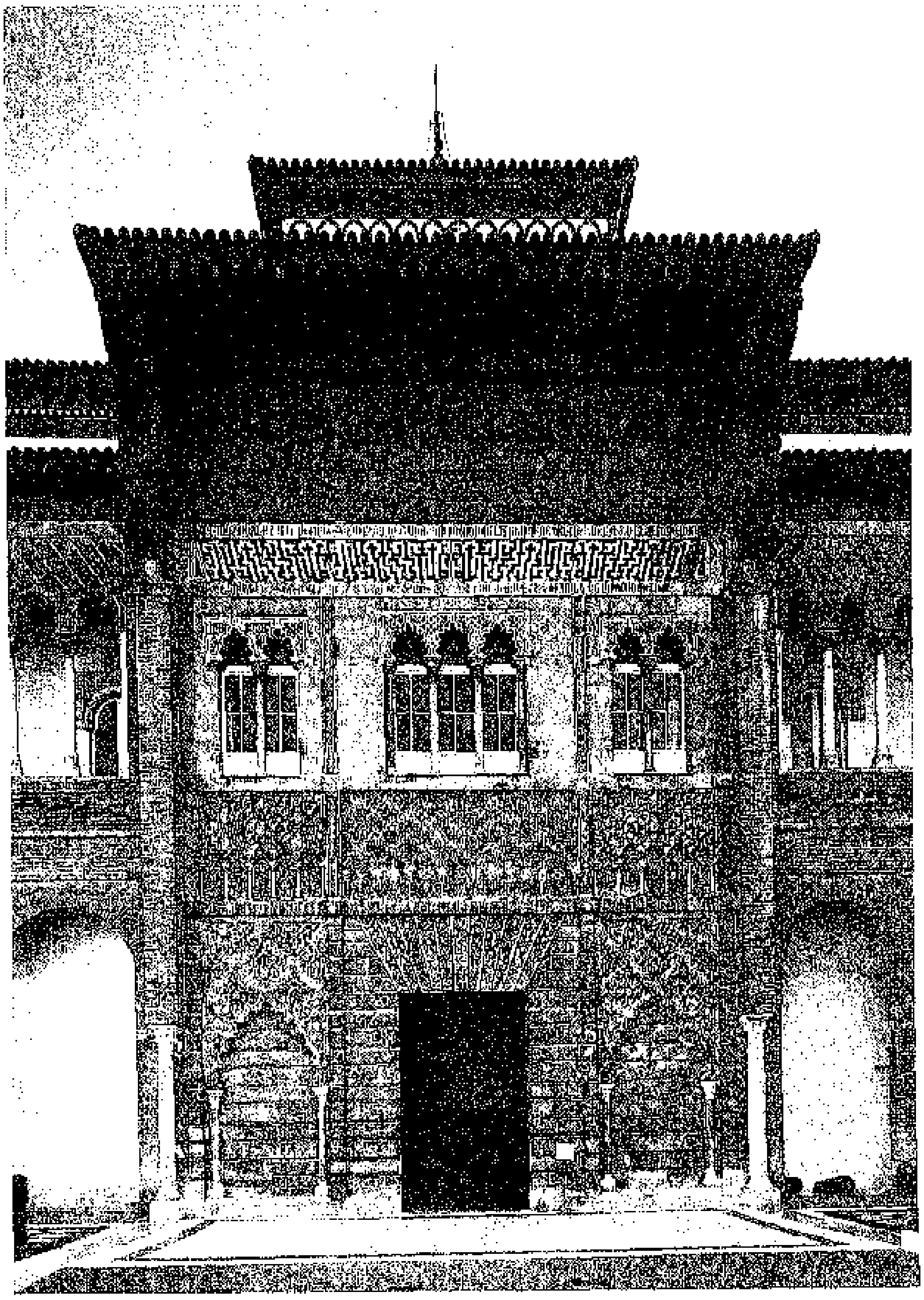

الواجهة المدجنة لقصر بيدرو الأول، القصر الملكي بإشبيلية.

ومن المحتمل أن يكون إنريكي دي تراستمارا، أول ملك قشتالي يعين قاضي قضاة للمسلمين، ويحضره من دنده. وأقر بنفسه المورو فوبيا -الهوس بالعرب على عكس المورو فوبيا المزعومة عن أخيه غير الشقيق؛ ولم يكن هذا هو كل ما فعله، حيث إنه أعطى بعض العطايا الكبيرة لمسلمين من حاشيته، مثل التعويض عن أربعة وثمانين متجرًا بسوق العطارين في طليطلة[15]. وكان يمكن أن يكون لتعيين قاضي قضاة للمسلمين أثر حسن تمامًا كنفس قدر تمركز السلطة وإحكام السيطرة وهو منح ميزة لاقت استحسان المجتمعات الإسلامية بالمملكة. وبالرغم من ذلك فإننا لا نملك كبح جماح عقلنا عن التفكير في أنه من الأكثر معقولية أن يكون بيدرو الأول هو صاحب فكرة هذا المنصب. وكذلك من المحتمل أن هذه الفكرة كانت في بال بيدرو الأول عندما طلب من ابن خلدون البقاء في مملكته. حيث كان علم الشريعة الإسلامية موجودًا بالفعل في الولايات التابعة له، ومن الممكن أن يكون قد تراءى لابن خلدون أن ذلك غير كاف لقبوله هذا المنصب.

أسباب ابن خلدون

حتى نتمكن من تعليل رفض المؤرخ يجب علينا أن نستبعد - من بين ما يمكن استبعاده من الدوافع- الافتراض الذي بموجبه يمكن القول بأن الطبيعة العنيفة للملك، والتي كانت من ملامح

12 Molénat, J. P. (2001) "La question de l'élite mudéjare dans la Péninsule Ibérique médiévale" en Themudo Barata, F. (ed.) Elites e Redes Clientelares na Idade Média. Problemas Metodológicos. Lisboa-Évora, págs. 45-53.

13 Espéculo, lib. 4, tit. 12, ley 55; Siete Partidas 3, tit. 20, ley 8. Torres Fontes, J. (1962) "El alcalde mayor de las aljamas de los moros en Castilla", Anuario de Historia del Derecho Español, núm. 32, págs. 131-182.

14 Molénat, J. P. (2003) "L'élite mudéjare de Tolède aux XIVe et XVe siècle: alfaquis, alcaldes et alcaldes mayores de moros" en Barthélémy, D. y J. M. Martín (coords.) Liber Largitorius. Etudes d'histoire médiévale offertes à Pierre Toubert par ses élèves. Ginebra, págs. 563-577.

15 Estenaga, N. (1924) "Condición social de los mudéjares de Toledo durante la Edad Media", Boletín de la Real Academia de Bellas Artes y Ciencias Históricas de Toledo, págs. 5-27.

شخصيته على مدار السنين: هي التي كانت وراء هذا الرفض. ولو أن داوم ابن خلدون بوصف الملك القشتالي بالطاغية، فإن هذا الحكم لم يصدر بناء عن طبيعة أو خصلة من خصال الملك؛ فقد سبق أن أطلق ابن خلدون هذا الوصف ونعت به جميع الملوك غير المسلمين. وكانوا طغاة لأنهم لم يحكموا بالشريعة، كما أن المؤلف الذي ألقى على ابن خلدون بهذا التفسير لذلك الموقف هو نفسه من ذكر أن المؤرخ – أي ابن خلدون – قد وصف لويس الحادي عشر بذات المصطلح: عندما نزل بتونس[16]، وذلك رغم أن لويس الحادي عشر كان قديسًا في أعين الفرنسيين ولا يمكن اعتباره بحال من الأحوال طاغية من منظور العصور الوسطى في أوروبا.

بيدرو الأول ملك قشتالة، تصوير، يعود إلى سنة 1779، المكتبة الوطنية – مدريد.

على العكس، يمكن أن نفترض أن سبب رفض ابن خلدون يكمن في مخاوفه الشرعية والدينية، مثل رفضه للإقامة في دولة غير مؤمنة، إذ أن التعهد بالرحيل وتحريم الدخول لهي أمور هامة في عقيدة المسلمين السنة. وفيما يبدو أنه يتوجب علينا حصر اختلافات هامة لرفضه المفاجئ لهذا المنصب. لقد تم توضيح الالتزام الفوري وغير المشروط مفهوم الهجرة لدى مسلمي الغرب على نحو تدريجي، وقد تم التعبير عنه في أواخر القرن الرابع عشر على يد الونشريسي في كتابه الشهير المعيار. وكل هذه المواقف الأخيرة تميزت بالعديد من الفروق[17]. وبالفعل لم تكن المسألة عند ابن خلدون مجرد مسألة إقامة كما كان الحال بالنسبة لأجداده الذين تمنوا لو أنهم بقوا في إشبيلية قبيل غزوها بيوم على يد القوات المسيحية، ولكنها كانت مسألة الدخول نفسه، وهذا هو بيت القصيد. وحدث في بداية القرن السادس عشر أبان عهد المماليك في مصر أن أفتى في مصر قاضيان من قضاة المذاهب الأربعة – بمن فيهم قاضي قضاة المالكية – وتحملا المسئولية الفقهية لبقاء المسلمين في ولايات واقعة تحت أيدي النصارى المسيحيين من أجل مساعدة إخوانهم في الدين[18]. وبناء على ذلك يمكن القول بأن رفض ابن خلدون لم يكن بالضرورة من منطلق هويته الدينية والتشريعية، وذلك دون الخوض في أسباب خفية في عقل هذا المؤرخ والفيسوف.

في الواقع، ربما نجد هنا تفسيراً منطقيًا لصمت ابن خلدون عن أسباب رفضه، التي – وبلا شك– ليست مجرد رفض العمل عند ملك طاغية؛ أو من وازع تطبيق صارم لمبادئ التشريع الديني، بل على العكس، وكما بينا من قبل، فقد تعتمد هذه الأسباب أول ما تعتمد على قناعته الشخصية ورغبته في احتفاظه بحريته التي لا تقتصر على حرية الفكر والتعبير فقط ولكن تمتد لتشمل حرية الترحال طلبًا للعلم وبحثًا عنه بكل معنى الكلمة.

بالإضافة إلى الوصايا النبوية التي يتضمنها الحديث: "اطلبوا العلم ولو في الصين"، وكذلك حياة الترحال التي جبل عليها ابن خلدون وتعبيره عن رأيه في عبارة موجزة ذكرها في المقدمة قائلاً: "تعتبر الرحلة ضرورية لتحصيل العلم وتقوية علاقاتنا بمعلمين عظام وشخصيات ذات شأن عالٍ"[19].

16 Irving, *art. cit.*, págs. 8-9.

17 Molénat, J. P. (2001) "Le problème de la permanence des musulmans dans les territoires conquis par les chrétiens, du point de vue de la Loi islamique", *Arabica* 48/3, págs. 392- 400.

18 Van Koningsveld, P. S.; Wiegers, G. A. (1996) "Islam in Spain during the early sixteenth century. The views of the four chief judges in Cairo" (introducción, traducción y texto árabe) en Zwartjes, O. *et al.* (ed.) Poetry, *politics and polemics. Cultural transfer between the Iberian Peninsula and North Africa*. Amsterdam, págs. 133-152.

19 Traducción de Cheddadi, A. (2002) *Le Livre des Exemples*. Paris, pág. 1080.

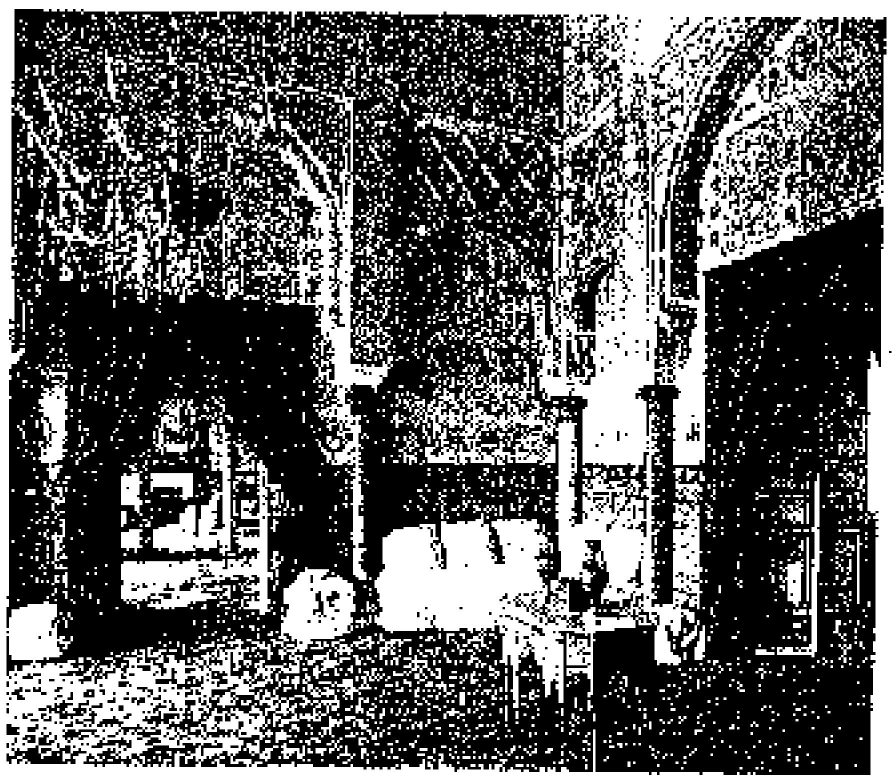

ولا يتواءم ذلك المفهوم للحرية مع خدمة الملك القشتالي، وخاصة عندما يقتضي الأمر قبول منصب قضائي رفيع في مملكته. وبالرغم من ذلك، فإن ما لا نراه في رفضه البقاء أو الاستقرار في بقاع مسيحية إسبانية هو رفض يتعلق بهم وبتاريخهم.

رأي ابن خلدون في الولايات المسيحية الإسبانية

في الحقيقة، ليس محتملاً أن نجد في كتاب العبر جزءًا أو فصلا مكرسًا بالتحديد لتاريخ المنطقة المسيحية من شبه الجزر الأيبيرية أو أوروبا عامة. لذا ليس من الحقيقي أن نطلق الكلام على مجمله دون تروٍّ بخصوص كل ذلك الذي لا يخص العالم الإسلامي في أعمال ذلك المؤرخ العظيم. هناك مقاطع لافتة للنظر، مثل التي تحكي عن الثورات المتلاحقة في طليطلة ضد الروم والقوط – والتي لم تبدو حقيقتها مؤكدة – وإن كان هذا خارج موضوعنا الآن، وذلك قبل الحديث عن الثورات ضد الأمويين وخضوع المدينة إلى الخليفة القرطبي عبد الرحمن الثالث الناصر[20]. يعد وصف شبه الجزيرة الأيبيرية وتقسيمها بين الممالك المسيحية –تلك التي كانت موجودة في عصر ابن خلدون[21]؛ بالغ الأهمية لأنه يبرهن على وجهة نظر شخصية للمؤلف، وليست عملية جمع لنصوص سابقة كما كان عليه الحال مع المؤرخين والجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى. ويمكننا تدبر مثال حي من وصف المملكة القشتالية وهو التمييز بين جيليقية؛ وهو مفهوم يشمل كل شبه الجزيرة من الناحية الشمالية الغربية في أعمال المؤلفين المسلمين؛ وجليقية شمولا محددًا، وكذلك فكرة المناطق الحدودية، وهي منطقة مترامية الأطراف تضم –حسبما يرى المؤلف– جنوب نهر التاجة Tagus أو كل المساحة الواقعة بين الحدود الجنوبية لمملكة قشتالة وحتى طليطلة[22].

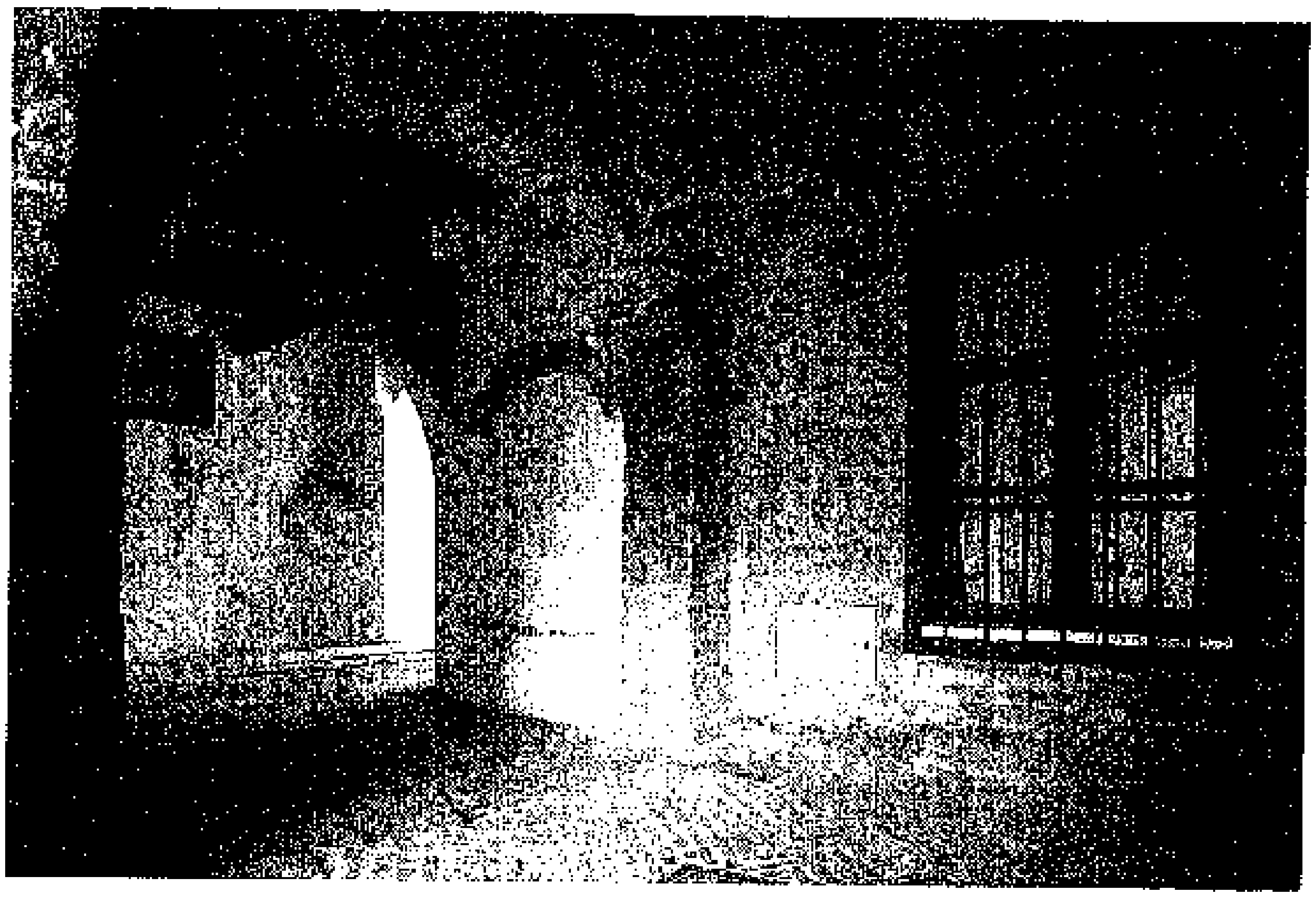

أعلى، قاعة الاستقبال في البهو الملكي في قصر بيدرو الأول: القصر الملكي بإشبيلية، صورة من أواخر القرن التاسع عشر.

أسفل، زقاق في حي اليهود القديم في إشبيلية.

العالم الإسلامي من وجهة نظر المؤرخين الإسبان المسيحيين

تعد ترجمة واستعمال كتابات المؤرخين العرب من الأندلسيين مسألة هامة في عملية التأريخ القشتالي والبرتغالي في القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر، بدءًا من تاريخ العرب لرودريجو جيمنز دي رادا[23]، وحتى الحوليات التاريخية سنة 1344[24] المأخوذة عن تاريخ إسبانيا الكبرى[25] الذي صنف بإيحاء من الملك القشتالي الفونسو الحكيم. ولم تكن هذه الترجمة سوى تشويه فج لحوليات أحمد الرازي[26]، ويمكن القول بأنه لم يتم توضيح التاريخ الحقيقي إلا بعد كتابات ألفونسو الحادي عشر المنتصر في معركة طريف Rio Salado سنة 1340، ووالد وسلف بيدرو الأول[27]. وعلى العكس من ذلك، فإن المعلومات والاهتمامات التي احتلت الصدارة حتى سنة 1370 كانت هي عين الجهل وأن ازدراء الماضي أو المظاهر الإسلامية لشبه الجزيرة الأيبيرية وكذلك المغرب، كان يبدو جليًا في أعمال القشتاليين والبرتغاليين العظام اللاحقين مثل بيرو لوبيز دي أيلا – المعاصر لابن خلدون – أو فيرناو لوبيز في النصف الأول من القرن الخامس عشر.

إن تلخيص معركة طريف من تاريخ القشتالي الفونسو الحادي عشر على وجه الخصوص واقتباسها في تاريخ ملوك البرتغال الأوائل تحت عنوان تاريخ البرتغال لسنة 1419[28]– وهو ما

20 .Ed. Beirut, 1958, vol. IV, págs. 304-305

21 .Ed. cit., vol. IV, págs. 385 y siguientes

22 Ed. cit., pág. 385, con ligera corrección nuestra.

23 Ed. Lozano Sánchez, J. (1974). *Sevilla. Reeditado en Sevilla* (1993).

24 Lindley Cintra. L. F. (1951-1961) (ed.) Crónica Geral de Espanha de 1344. Lisboa, 4 vols. Reimpresión en Lisboa (1983-1984).

25 Ed. Menéndez Pidal, R. y Catalán, D. 2 vols. 3».Reimpresión en Madrid (1977).

26 Catalán. D.; De Andrés, M. S. (1975) (eds.) .Crónica del moro Rasis. Madrid

27 Catalán, D. (1977) (ed.) Gran Crónica de Alfonso XI. Madrid, 2 vols. Para la historia de los merin'es y de los reyes de Tremecén, Diego Catalán subraya su independencia respecto a las fuentes hispano-cristianas anteriores, y su exactitud, y concluye que la excelente y detallada información del compilador de la Gran Crónica referente al Magreb podría llevar a pensar que dispuso de una historia árabe desconocida (págs. 212-224).

28 .Ed. De Almeida Calado, A. (1998). Aveiro

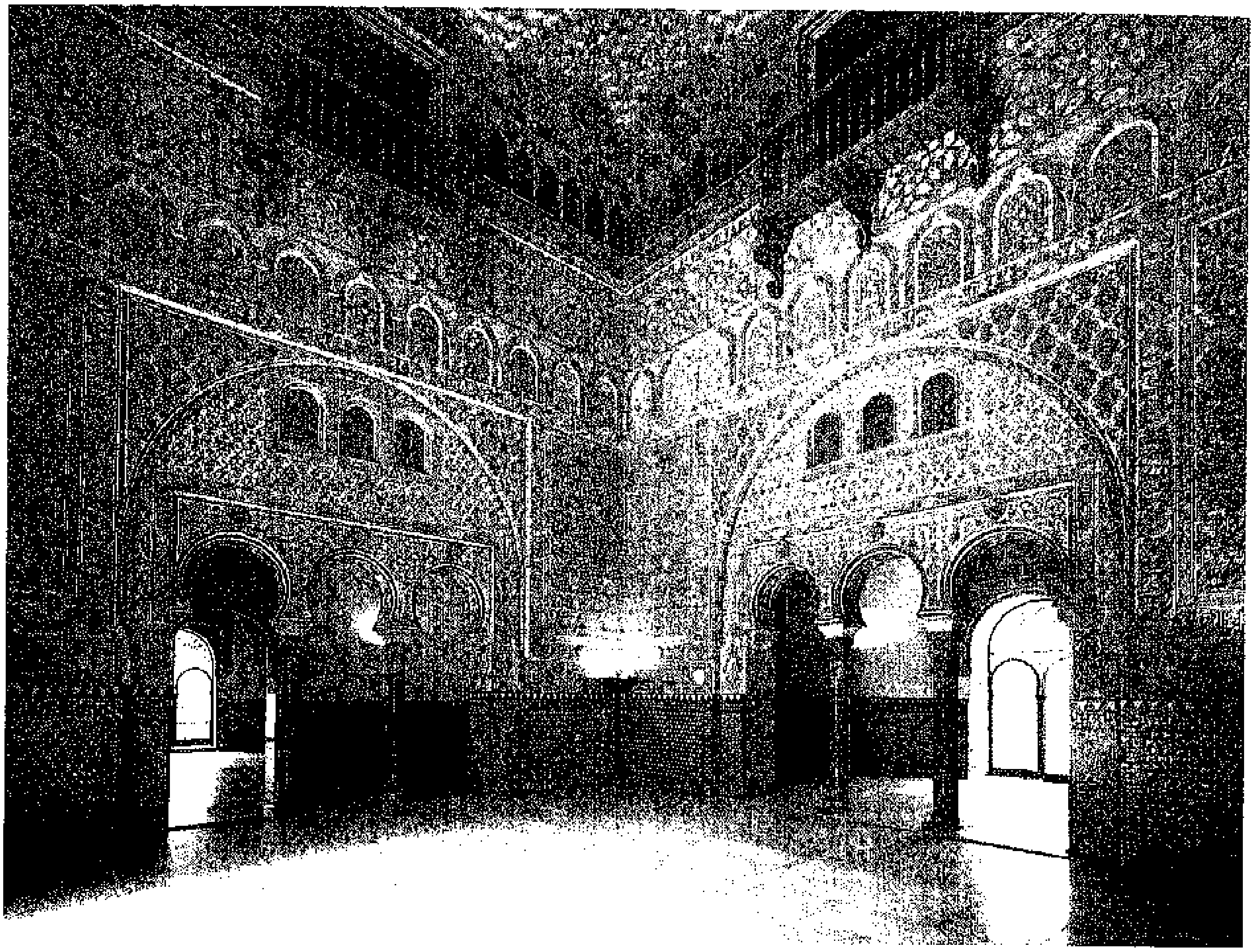

قاعة السفراء، في قصر بيدرو الأول، القصر الملكي في إشبيلية.

يرى فيه البعض بصمة فيرناو لوبيز – لا يعتبر بأي حال فضل من طرف على الطرف الآخر! غير أن إسناد هذا النص للمؤرخ البرتغالي العظيم لم يلق اعترافًا عامًا، بل إن الأهم من ذلك أن هو أن النص يعود إلى النصف الأول من القرن الخامس عشر.

وللإنصاف، ففي أعمال جوميز ايناس دي ثورارا وريث فيرنانو لوبيز في مديح سجايا أسرة أفيس Avis يمكننا أن نلحظ في روايته عن سقوط سبتة Ceuta في سنة 1415 لمحة الزهو بثروة المدينة مقارنة بالفقر الذي كانوا يعيشون فيه في بلادهم[29]. إن هذا لا علاقة له بالطبع بإظهار الاهتمام بالآخر، ولكنه يتطابق ذلك مع أول مرحلة للمغامرة الاستعمارية للأسبان عبر البحار، والتي بدأت على شاطئ مضيق جبل طارق.

الخاتمة

من الواضح أن وجهة نظر الأسبان المسيحيين عن العالم الإسلامي قد تغيرت في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، أو تبدلت استناداً لما أطلق عليه ثورة تراستمارا، وذلك طبقًا لوجهة نظر القشتاليين التي تمثل على كل الأصعدة، وخاصة على صعيد البنى الاجتماعية، مرحلة عودة العلاقات الودية للبلاد مع باقي دول العالم الغربي المسيحي. ويمكننا الاعتقاد بأن الثورة البرتغالية في ما بين سنتي 1383 – 1385، التي ساندت أسرة أفيس Avis رغم معاداتها لمحاولات القشتاليين للهيمنة على البلاد ومن خلال نسيج اجتماعي مخالف، قد اتبعت في نهاية المطاف نفس الطريق نحو إقامة أوروبا العظمى.

والخلاصة أن اللقاء بين ابن خلدون وملك قشتالة بيدرو الأول تمثل فرصة للقاء بين الغرب والشرق؛ فرصة لطالما ضيعت دونما أدنى مسئولية من كليهما.

29 De Zurara, G. E. (1992) *Crónica da tomada de Ceuta* (ed. Reis, Brasil). Lisboa, cap. 88, pág. 256.

قدوم الأتراك والمغول

ميجيل آنخل دي بونيس إيبارا
معهد التاريخ (CSIC)، مدريد

ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

PERATORVM

I. OTTHOMANNVS.

OTthomannus, primus Turcarum Imperator, qui gentis Turcicę auus quasi fuit, Et à quo reliqui Principes Turcici denominantur, fuit fortunatus, uictoriosus & ualde crudelis Tyrannus. Regnauit annos 28. Mortuus est anno Christi 1328.

A 5 ORCA-

كان اثنان من الرحالة الغربيين شاهدي عيان على آخر امتداد ضخم للأجناس الشرقية في حدود العالم القديم. فبين نهاية القرن الرابع عشر الميلادي وبداية القرن الخامس عشر، قابل كُلّ من ابن خلدون وري جونثالث دي كلابيخو Ruy González de Clavijo تيمورلنك شخصيًا، ذلك الجندي الأسطوري الذي يعبر إلى الوعي واللاوعي المتراكم كمثال للفاتح الذي يحاول أن يحاكي أعمال الإسكندر العظيم. إن الظروف التي قابلا فيها الشخصية البارزة، وأيضا الأهداف التي رغبا في أن ينجزاها مختلفة كلية، ولكن بفضلهما لدينا صورة حقيقية لشخصية هذا الفاتح، باختصار سوف تدخل فيما بعد عالمًا غريبًا من الخيال. كان العالم الشرقي قد ابتلي لقرون بوصول القبائل المغولية والجماعات التركية التي غيرت أبعاد الخريطة السياسية في المنطقة. وعندما نزل ابن خلدون من سفينته في مدينة الإسكندرية في طريقه إلى مكة شهد واحدة من تلك التغيرات التي كانت تميز مستقبل البحر المتوسط لقرون. حدثت تلك العملية من خلال تسلطن اثنين من المسلمين الأتراك، واحد على رأس العثمانيين والثاني يقود المغول والتركمان، بايزيد الأول وتيمورلنك، اللذين سوف يجابه أحدهما الآخر عندما تتقارب مناطق توسعهما.

نشأت الأسرة العثمانية عندما تحطم العالم الأناضولي تحت الغزوات السريعة لجنكيزخان في آسيا الصغرى. وانتهت دولة سلاجقة الروم إلى إمارات صغيرة تابعة للمنحدرين من القبيلة الذهبية التي بدأت عملية تاريخية مستقلة إزاء الحاجة للسلطة الحقيقة المفترضة في السادة الكبار. ومنذ الغارات الأولى في الغرب، امتلك عالم المغول قدرة عسكرية هائلة مدمرة، وإن كانت لم تنتج – مع ذلك – بنى سياسية وإقليمية ثابتة وطويلة البقاء. فلقد هزم الغزاة من الإمتبس الأسوار، وأخضعوا الحكام، وأبادوا الأسر الحاكمة، ولكنهم لم يكونوا إمبراطوريات تستطيع أن تحيا بعد نجاحات قائد موهوب بعبقرية حربية واستراتيجية عظيمة. وكان لدى الأسرة الحاكمة التي قامت في وقت مبكر من القرن الرابع عشر بواسطة عثمان غازي الحظ لحكم إقليم مؤسس على الإمبراطورية البيزنطية المتدهورة. ولقد دبر لجذب عدد كبير من المتطوعين للأراضي الخاضعة لسلطانه عندما قدم نفسه كقائد للجهاد ضد البيزنطيين الكفرة، بينما

أعلى، عثمان مؤسس الأسرة العثمانية في لوحة في De origine imperii Turcorum لبارثولومايوس جورجفيو Bartholomaeus Gjorgevio، تعود إلى سنة 1562، المكتبة الوطنية – مدريد.

في أعلى الصفحة المقابلة، القسطنطينية تصوير في Liber insularum archipelagi بواسطة س. بوندلمونت C. Buondelmonte، سنة 1422: المكتبة الوطنية – مدريد.

أسفل يسارًا، مراد الأول تصوير في De origine imperii Turcorum لبارثولوميوس جورجفيو، يعود إلى سنة 1562، المكتبة الوطنية – مدريد.

يمين، بايزيد الأول في نقش على الخشب في De origine Imperii Turcorum لبارثولومايوس جورجفيو، يعود إلى سنة 1562، المكتبة الوطنية – مدريد.

أظهر تسامحًا تجاه المسيحيين الخاضعين. وسوف يستولي السلاطين الأوائل على الأقاليم الآسيوية والأوروبية من أسرتي كومنينوس وباليولوجس (فتح بورصة Bursa سنة 1326، وغاليبولي Gallipoli سنة 1354)، بينما في نفس الوقت ارتبطوا بصلات معهم، بإقحام أنفسهم في صراعاتهم الداخلية والزواج من أميرات بيزنطيات. وحاز السلطان الثالث من آل عثمان سيطرة كبيرة على البلقان عندما فتح صربيا سنة 1375، وعزز مركزه في السهول الأناضولية بإخضاع أراضي جديدة تدين بالأرثوذكسية، وامتصاص الإمارات الإسلامية الصغيرة المجاورة. وبصرف النظر عن نجاحاته الحربية ومناوراته الدبلوماسية المعقدة التي انهمك فيها مع القوى المسيحية والإمارات الإسلامية الأخرى، وضع هذا الرجل والصدر الأعظم شانداري خير الدين كرا خليل Chandarli-Khayruddin Khara-Khalil أسس دولة تحكم بممارسة الحرب المقدسة. ولقد ضمنوا ولاء أتباعهم بتسليمهم إقطاعيات من الأرض مكافأة لخدماتهم. وأعادوا بناء المدن، وزودوا الأراضي الخاضعة لهم بشبكة طرق لتحسين الاتصالات وشكلوا جيشًا دائمًا يضم أبناء الكفرة الذين ربوا على الإسلام. وكان تجنيد هؤلاء الشباب ينفذ من خلال دفع ضريبة دم –دفشرمة devsirme– انتزعت من رب كل أسرة أرثوذكسية، وجب بمقتضاها تسليم الابن الأكبر للسلطان. وبعد عملية الاختيار والتدريب، شكل فرقة النخبة، كانت النتيجة لها تأسيس فرقة الإنكشارية –ياني شري Yeni seri– أي الفرقة الجديدة وإدارة محترفة مخلصة–كابي كولاري kapi kullari– وفي الواقع فإن ما نريد أن نوضحه أنه كان يضع الأسس لإمبراطورية ذات طموحات عالمية سوف تصمد لاختبار الزمن، وتصبح الوريثة للعالم اليوناني الروماني، بينما كان يحاول في نفس الوقت أن يحقق ريادة العالم الإسلامي بالحصول على لقب الخليفة.

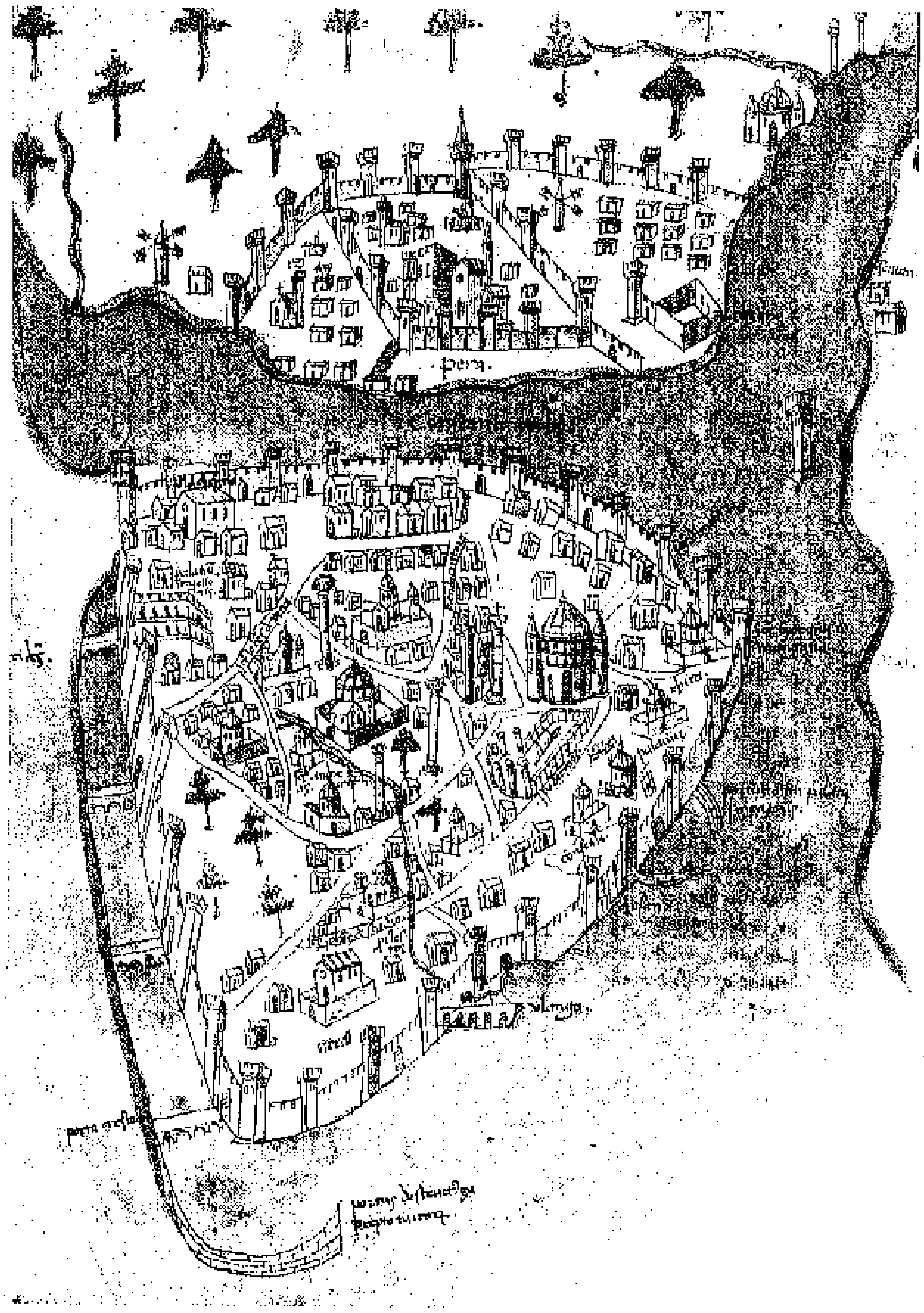

IMPERATORIBVS.

III. AMVRATHES.

AMVRATHES, filius Orcanis, tertius Turcarum Imperator, iuuenis, fraudulentus, prouidus uigilansq; fuit. Anno Christi 1363. Adrianopolin occupauit. Regnauit annos 23.

DE TVRCICIS

IIII. BAIACETVS.

BAIAZETVS hoc nomine primus, Quartus Turcarum Imperator, uictoriosus, sed insignis & crudelis Tyrannus fuit. Totam ferè Graeciam suo imperio subiecit, Tandem uero à potentissimo Tamberlane uictus est.

تيمورلنك وثلاثة من قادة جيشه يقاتلون في معركة سنة 1397 بعد عبور جبال كار Kar، وفقا لمخطوط مصور من أوائل القرن السابع عشر، المكتبة البريطانية – لندن.

في 1389 أصبح بايزيد الأول– الذي عرف بين المؤرخين العثمانيين بيلدرم أي الصاعقة– زعيم الدولة. وكانت حملته الأولى تهدف لفتح الأناضول مواجهًا الدولة القرمانية أهم إمارة تركية في الإقليم، والتي سوف تقهر نهائيا في سنة 1397. إن الطموح الروحي والسياسي لهذا الحاكم يمكن إدراكه تمامًا عندما طالب في سنة 1394 من الخليفة العباسي في القاهرة بأن يلقبه بلقب سلطان الروم الاسم الذي استخدمه ابن خلدون في كتاباته عندما أشار إليه. وفي تلك السنوات ذاتها نجح في أن يجبر الإمبراطور الباسليوسي (نسبة إلى آل باسيليوس) الجديد في القسطنطينية، مانويل الثاني باليولوجس بأن يدفع له ضريبة، وأن يشارك في حملات عسكرية في آسيا الصغرى، وأن يسمح للتجار ورجال الدين الأتراك بأن يقيموا في المدينة. وفي أوروبا، كما عمل على السيطرة على بلغاريا، وألبانيا، وبلاد المورة Morea، موقعا الهزيمة في نيكوبوليس بحملة صليبية نظمتها فرنسا والمجر ومانويل الثاني والفرسان الاسبتارية للقديس يوحنا ببيت المقدس. ومنذ سنة 1397 حاصر القسطنطينية، محاولا إسقاطها بواسطة المجاعة لأن العثمانيين لم يمتلكوا الوسائل التقنية الضرورية لفتح الأسوار الشاهقة التي حمت المدينة. غير أن المعاونة التي قدمها الغرب– خاصة فرنسا – زادت من قدرتها على المقاومة، على الرغم من أنها أحدثت مشكلات ضخمة بسبب الخلاف بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية. وحوالي سنة 1402 بدا من المستحيل الاستمرار في الدفاع عن العاصمة البيزنطية، ولكن استيلاء تيمورلنك على نصف الأناضول، سمح للمسيحيين بالاحتفاظ بالمدينة لنصف قرن آخر.

ولد تيمورلنك –تيمور الأعرج– في آسيا الوسطى سنة 1330، في مكان ما بالقرب من مدينة سمرقند. وكان ابن نبيل من قبيلة بارلاس التركية المسلمة، وهي واحدة من العشائر

هجوم تيمورلنك على مدينة، منمنمة تركية من القرن السادس عشر.

الأربعة التي حكمت إقليم ترانسوكسانيا Transoxania. وبسبب أنه لم يكن ينتمي لعائلة من المنحدرين من جنكيزخان، ولا لكونه مغوليا، لم يسمح له باستخدام لقب خان الذي منحه فقط للمنحدرين مباشرة من سلالة الفاتح. ولهذا السبب فقد استخدم دائما اللقب الذي ورثه من أبيه تارجاي Taragai– الذي أضاف له لاحقًا صفة بوزورج buzurg أي–عظيم– ولأنه لم يكن يستطيع تولي سلطنة دولة المغول، فقد عين طوال حياته العديد من أفراد أسرة جنكيز كرؤساء لممكياته ليحكموا باسمه، صرفهم من الخدمة عندما أزعجوه. وفي آخر

أيامه استخدم مصطلح جورجين güregen أي الصهر الملكي، عندما تزوج أميرة من أصل ملكي.

وتقريبًا وبنفس الطريقة مثل مؤسس الأسرة المغولية، كرس تيمورلنك السنوات المبكرة من حياته لإخضاع الأجناس المجاورة، تحت سادة مختلفين لكي يحقق السيطرة على الإقليم. في سنة 1363 جرح بواسطة عدة سهام في فخذه ومرفقه الأيمن مما تركه أعرج لبقية حياته؛ لذلك كانت الإشارة لعجزه مضافة بشكل دائم لاسمه. بالإضافة إلى السيطرة على الإقليم الذي كانت سمرقند عاصمته، جابه تيمورلنك، القبيلة الزرقاء، والقبيلة البيضاء الذين تمتد أقاليمهم إلى الشمال من نهر سيحون. ولقد انتهز فرصة صداقته مع طقتمش Tokhtamysh ليواصل صعوده داخل العالم المغولي، فمد فتوحاته حتى قندهار في أفغانستان، وبحر قزوين عند حدود إيران في الوقت الحالي حيث أخذ تبريز، وسلطانية، وجورجيا، وأذربيجان. وفيما بين عامي 1385 و1395 قاتل ضد حليفه وحاميه السابق طقتمش -- الذي كان حاكمًا للقبيلة الذهبية ويحمل لقب خان القبجاق Kiptchack– الذي هزمه للمرة الأولى إلى الشمال من سامراء. ولقد أتم السيطرة على غرب إيران وأعدم كل الحكام الذين أسروا على طول الطريق، مدمرا المدن تدميرًا تامًّا، بانيا أهرامًا برؤوس خصومه المهزومين. في سنة 1393 دخل بغداد دون أي مقاومة؛ حيث هرب حاكم المدينة إلى القاهرة. ولقد طلب الخضوع ودفع جبايات من الأسر التركمانية الحاكمة في قرا قويونلو Kara Koyunlu وآق قويونلو Ak Koyunlu، التي حاول لاحقًا فتحهما بقوة السلاح، وأن يحكم أقاليمهما التي امتدت حتى شمال دجلة والفرات. وأخذته ثورة جديدة لتخطميش إلى روسيا متخفيًا عن حدود بلاد الرافدين. وفي مطاردة لخصمه أبحر في أعالي نهر الفولجا والدون Don، فوصل بالقرب من موسكو؛ ثم انحدر نحو بحر أزوف وعاد لموطنه عبر جورجيا وأستراخان Astrakhan، ليصل منتصرًا إلى سمرقند بعد أن أباد تقريبًا القبيلة الذهبية. ومع ذلك هرب خصمه للحظة ملتمسًا ملجأ في ليتوانيا. ولقد شارك أولاده وأحفاده في تلك الحملات كقادة لمختلف الجيوش، لأن الجيش المغولي كان يواصل القتال في نفس الوقت على جبهات مختلفة تضم إقليمًا واسعًا ومعقدًا. وأقام الفاتح في عاصمته في عامي 1396 و1397، منتهزًا الفرصة لبدء سلسلة من الأعمال العامة لتزيين سمرقند وتحويلها إلى أهم مدينة في العالم الإسلامي. وبينما كانت المساجد تبنى والحدائق والقصور تصمم، بدأ الاستعدادات لفتحه للهند عند تلقيه أخبار تفسُّخ خانات دلهي. وعبر ابنه الأصغر بير محمد حاكم أفغانستان جبال الإندوس بمساعدة أخيه الأكبر الذي هاجم الأراضي التي تقع على الجانب الآخر لجبال الهندوكوش. وفي ديسمبر سنة 1398 ذبح جنود تيمورلنك سكان دلهي في واحدة من أشد أعمال السلب وحشية في الحملات التي قادها هذا القائد؛ حيث كان تيمورلنك يميل دائما للسماح بتجاوزات وإبادة المدن المفتوحة والخصوم. وبعد سلسلة من المعارك حول نهر الجنج Ganges، عاد إلى عاصمته.

وفي سنة 1399 وجد نفسه مرة أخرى على رأس جيشه يبدأ أطول مشاريعه الحربية؛ حملة السنوات السبع. وفي البداية كان هدفه الوحيد استعادة السيطرة على جورجيا وبغداد اللتين أعلنتا الثورة بسبب عودة حكامهما من المنفى في مصر. ونتيجة لسجن السفراء الذين أرسلهم إلى القاهرة ليسألوا عدم التدخل في الشئون الداخلية للمغول بواسطة السلطان فرج (1399-1412)، أعلن تيمورلنك الحرب على المماليك. وقد هدد أيضا السلطان العثماني بايزيد الذي أعطى حق اللجوء في أراضيه لبعض خصومه. وناشدته سلسلة متوالية من المبعوثين من الغرب (جنوة، شارل السادس ملك فرنسا، مانويل الثاني باليولوجس) ومن الشرق (أمراء أيدين Aydin وصرخانداريا Surkhandarya وجيرميان Germiyan الأتراك المطرودين) بأن يشهر أسلحته ضد هذا الأمير الذي كان يشكل إمبراطورية عظيمة. ولذلك أصبح عدوًا خطيرا في آسيا الصغرى بتأييده ثورات قرا قويونلو. وفي أغسطس سنة 1400

استولى على مدينة سيواس العثمانية؛ حيث دفن بها أربعة آلاف أرميني أحياء، وأمر الفرسان بإبادة النساء والأطفال، وبعدئذ سوى بالأرض ملطية، أول مدينة في الأناضول تسقط في أيدي المماليك. وفي الشهور التالية احتل حلب التي استسلمت دون قتال، وحاصر مدينة دمشق. وخلال شهور الحصار عقد مقابلات عديدة مع ابن خلدون، وفي مارس سنة 1401 استولى على المدينة وحرق أحياءها والمسجد الأموي. وبعد السيطرة على كل سوريا، تحول إلى بغداد التي أعاد الاستيلاء عليها وسواها بالأرض في شهر يوليو، وذبح الجزء الأعظم من سكانها.

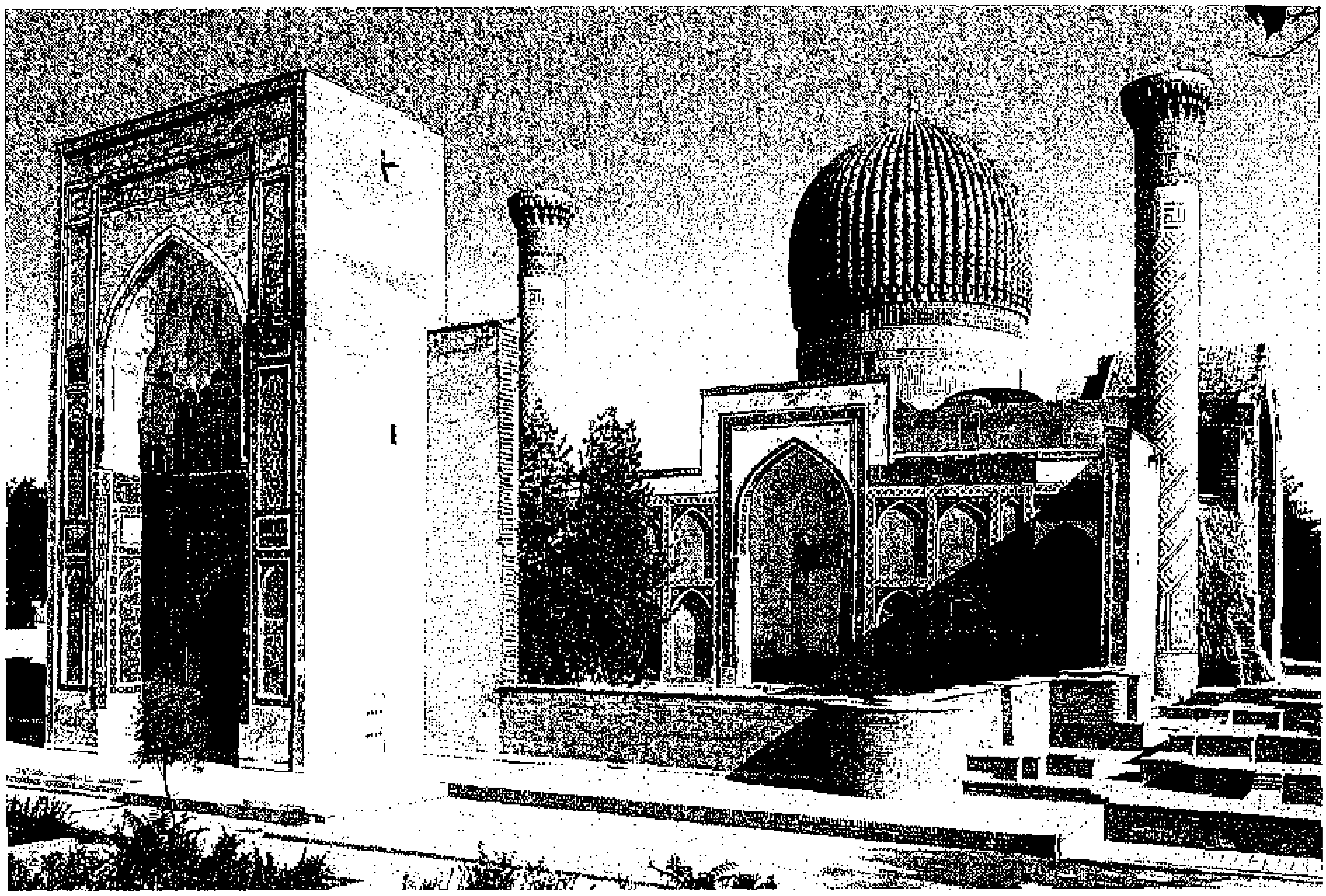

مجمع ضريح جور – أمير في سمرقند، حيث دفن تيمورلنك، أوزبكستان.

ولأن تيمورلنك كان مسلمًا حسنًا فقد كان مهتمًا بالفتح في سوريا والأماكن المقدسة أكثر من مواجهة الأمراء المحيطين. ولقد اعتبر ممارسة بايزيد للحرب المقدسة جديرة بالاحترام، مع أنه لم يقبل الاستيلاء على ولايات تنتمي إلى حامية الأناضول، ولا التحالف مع السلطان المملوكي ضده، وفوق ذلك كله، ونتيجة لمساعدته قرا يوسف زعيم قرا قويونلو. وأصبحت الحرب بين الأميرين مرجأة بعد سقوط سوريا. ولم يرغب أي منهما في نزاع مفتوح. ولم يرد تيمورلنك أن يمد أقاليمه في ذلك الاتجاه، ولذلك ركز جهوده على بلاد ما بين النهرين وسوريا. ومن جانبه كان العثماني يخشى الجيش القوي القادم من الإستبس، ويفضل أن يجهز على البيزنطيين لكي يعيد توحيد ولاياته إقليميًا. وكان كلٌّ من الأميرين يبحثان عن الهيبة كجنود وكمسلمين مفضلين ذلك على وضع نهاية لخصومتهما. وأخيرًا، كان قرا يوسف السبب في المواجهة بين القوتين الإسلاميتين الناشئتين حديثًا، فخلال شتاء سنة 1402/1401، هاجم بانتظام طرق إمدادات الجيش المغولي، وفي إحدى هذه الأفعال نهب ودمر قافلة مكة. واعتبر تيمورلنك هذا الهجوم كأنه استفزاز لشخصه فضلا عن ذلك وكمسلم، لم يكن ليسمح بقتل الحجاج وهم في طريقهم للأماكن المقدسة. ولقد طالب بايزيد بأن يعاقب المعتدي، وكذلك أن يقاتل معه ضده. ورفض اقتراحه، ولذلك أمر ابنه محمد سلطان بأن يقود جيوشه

إلى الأناضول العثماني. ورفع بايزيد حصار القسطنطينية وأمر بحشد كل جيشه، والأسطول الأناضولي (مؤلف من فرق من أيدين Aydin وصرخانداريا Sarkhandarya وكاريس Karesi وحميد Hamid وتكا Teke وكرمان وجيرميان Germiyan وسيواس)، والقوات من رومني Rumleia الذين كانوا يحاصرون العاصمة البيزنطية واستدعى الجنود غير النظاميين Timariots والأمراء المسيحيين الأفصال– البلغار والصرب.

وتقابل أهم حاكمين مسلمين في معركة أنقرة في 28 يوليو 1402. وأحرز المغول نصرًا ساحقًا عندما فرت عدة فرق من الجيش العثماني، تاركة فقط الإنكشارية والجنود الصرب في وسط التشكيل يدافعون عن أنفسهم ضد هجوم فرسان تيمورلنك. وأسر بايزيد حيا وتوفي– على الرغم من حسن معاملته من آسره – من سكتة بعد بضعة أشهر. وفي الشهور التالية عاد العالم الأناضولي لوضعه قبل الفتوحات العثمانية، مع إعادة تشكيل غالبية الإمارات التركية التي نشأت نتيجة انهيار سلطنة السلاجقة. وهجر تيمورلنك هذا الجزء من آسيا الصغرى في ربيع سنة 1404 دون أن يجري تدابير لأي نوع من الإدارة الخاصة في الأقليم، مما كان مساويًا لترك الباب مفتوحًا لغزوه مستقبلا بواسطة المنحدرين من سلالة بايزيد عندما أعادوا تنظيم الدولة.

IMPERATORIBVS.

V. CYRISKELEBES.

CYRISKELEBES, Baiazeti filius, Quintus Turcarum Imperator, ualde iuuenis ad imperium peruenit. Cum Sigiſmundo Imperatore Romani Imperij, qui

VI. MOISES.

MOISES, ſextus Turcarum Imperator, Hic poſtq̃ fratris ſui filium Orcanem interfeciſſet, Imperio Turcico quidem potitus eſt, uerum non diu ipſi præfuit. Nam a Mahomete fratre Orcanis ante interfecti, ipſe quoq; necatus eſt, qui interfecto Moiſe imperium Turcicum ſibi ſubiecit.

شمالا: موسى، أحد خلفاء بايزيد خلال فترة الانقطاع العثماني، تصوير في De origine Imperii Turcorum، لبارتولومايوس جورجيفيز، سنة 1562، المكتبة الوطنية – مدريد.

يمينًا سليمان جلبي ابن بايزيد، تصوير في De origine imperii Turcorum، لبارتولومايوس جورجيفيز، يعود إلى سنة 1562، المكتبة الوطنية– مدريد.

في الصفحة المقابلة، السلطان العثماني بايزيد مقتادًا كأسير أمام تيمورلنك بعد معركة أنقرة في سنة 1402، المكتبة البريطانية– لندن.

وعاد تيمورلنك مرة أخرى إلى سمرقند لكي يقسم إمبراطوريته بين أبنائه؛ تمامًا كما فعل جنكيزخان قبل قرن، ولكي يجهز لفتح الصين آخر مشاريعه الضخمة. وفي فبراير سنة 1405 توفي في فاراب Otrar، حيث خطط لقضاء الشتاء في طريقه لمشروعه البارز. وأخذ جثمانه إلى سمرقند ليرقد في ضريح جور – أمير Gur-e Amir.

وفي حين كان العثمانيون قادرين على تكوين إمبراطورية استمرت حتى أوائل القرن العشرين، اختفى التيموريون خلفاء تيمورلنك تدريجيًا في العالم المعقد الذي كان من المفترض عليهم أن يسودوه. فقد وضع بايزيد أسسًا لإمبراطورية سوف يجسدها خلفاؤه فيما بعد، ولاسيما محمد الثاني، وسليم الأول، وسليمان العظيم في حين كان تيمورلنك محددًا بكونه رئيس قبيلة آسيوية جديدة قوضت أسس التنظيم السياسي في آسيا. إن علامته البارزة الوحيدة التي بقيت حية كانت في شمال الهند بفضل المنزلة الرفيعة لبعض المنحدرين من نسله –بابر – Babar.

ونحن مدينون لابن خلدون لتحليله النفسي للشخصية، حيث كشف قدرًا ضخمًا يتعلق بشخصيته التي كانت مشوهة بواسطة مؤرخين متأخرين. ووصفه بأنه كان مسلمًا جيدًا موهوبًا يتمتع بذكاء استثنائي، وبأنه كان قادرًا على تكوين جماعة من الأتباع شديدي التباين في الخواص تحت سلطته. وعلى الرغم من أنه أظهر نفسه بكونه قاسيًا وغير رحيم مع المقهورين، فقد حسن الاتصالات والتجارة بين ولاياته، وسمح بإعادة بناء وإعادة تأهيل المدن التي دمرها عندما قاومته. لقد كان رجلاً لا يعرف كيف يقرأ أو يكتب لكنه أظهر اهتمامًا بالعمارة والطب والفلك وتاريخ العرب والفرس والأتراك. ولقد كان عبقريًا حربيًا موهوبًا بذكاء طبيعي، ولم يتردد في استدعاء مؤرخ لحضرته ليناقش ويحاجج، مما أظهر اهتماماته العقلية، وسجية إنسانية بإدراك أهمية الرجال المتعلمين. لقد شهد ابن خلدون حصريًا آخر توسع ضخم للعالم الإسلامي، ممثلا في تلك المناسبة باثنين من الرجال من أصل تركي، والتي كان لها أن تغير قدر ذلك الجزء من العالم القديم.

ابن خلدون وتيمورلنك

رافيل بالنسيا
جامعة سابيا

ترجمة أحمد نبيل

كان اللقاء الأول بين عبد الرحمن بن خلدون وتيمورلنك سلطان المغول على أطراف دمشق في 10 يناير سنة 1401، وحدثت هذه المقابلة قبل موتهما مباشرة [1]، وتشير عدة مصادر من هذه الفترة، بالإضافة إلى السيرة الذاتية لابن خلدون [2]، إلى أن المقابلة الأولى والمقابلات التالية لها اختتمت في 26 فبراير.

استقر المؤرخ ابن خلدون (1332-1406) في القاهرة [3]، وعاش سنواته الخمس الأخيرة في الشرق، وقام بأداء الحج في سنة 1387، وعاد للعاصمة المصرية في العام التالي، وفي القاهرة قضى أكثر من عقد، عمل خلالها بالتدريس فقط حتى 22 مايو سنة 1399، حيث تم تعيينه قاضيا في هذا التاريخ، ثم طرد من هذا المنصب في سبتمبر سنة 1400، وبعد شهرين استدعاه السلطان المملوكي الناصر فرج (1399-1405 و1405-1412) لينضم لحملته المتوجهة إلى سوريا، ولقد قادته الظروف المختلفة لبصاحب نفس السلطان صاحب المقام الرفيع في رحلة ثمانية أشهر قبل ذلك إلى دمشق، والقدس، وبيت لحم، والخليل، وكان الهدف في هذه المرة تحديدًا مساعدة العاصمة السورية ضد هجمات تيمورلنك الذي احتل حلب، قبل ذلك.

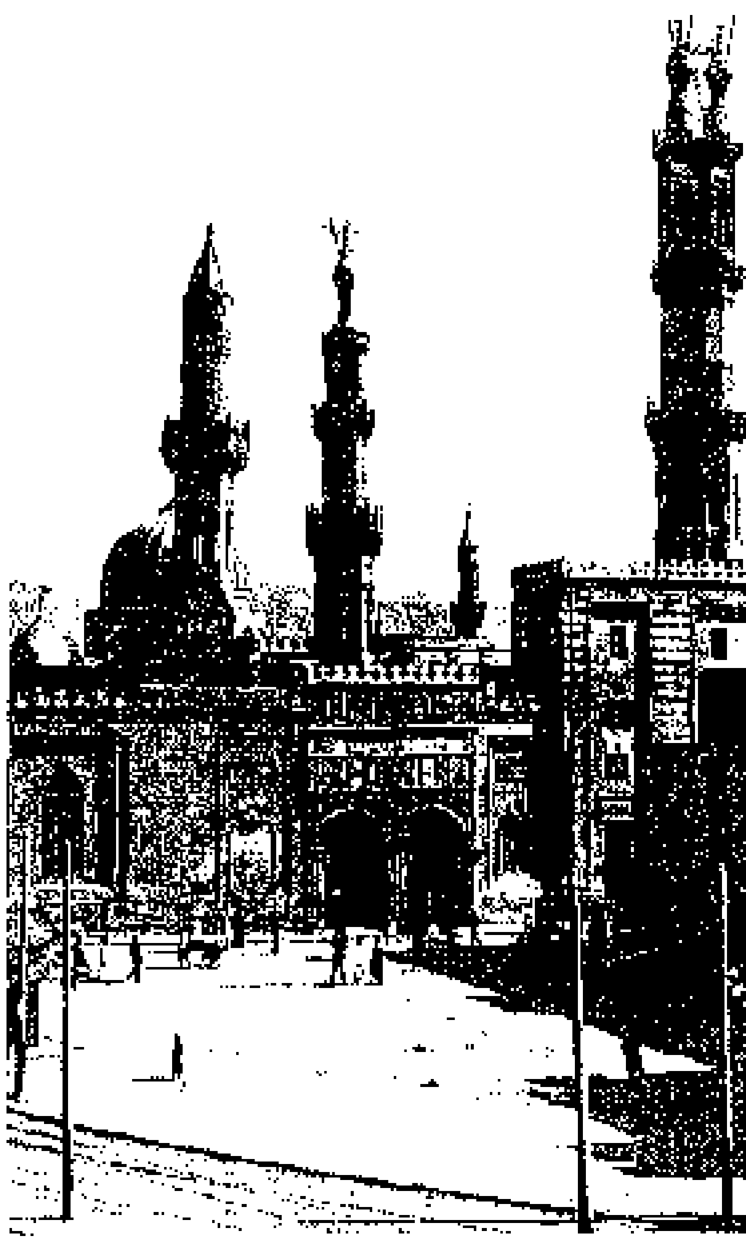

الجامع الأزهر في القاهرة، صورة من أواخر القرن التاسع عشر.

وكانت قد اكتملت أغلب كتابات ابن خلدون في هذه الفترة، وحقق ابن خلدون فهما عميقًا في الطبيعة الإنسانية بالإضافة للسياسة في عصره، وانعكست هذه الحقيقة في الأوضاع التي افترضها والآراء التي عبر عنها في المقابلة محل البحث.

أما عن القائد المغولي تيمورلنك (1339-1405) فهو ينتمي للشعب الشاغطاي، وهو فرع من الشعوب التي عاشت في السهول الصينية، وتم تسميته على اسم أحد أبناء جنكيزخان (1167-1227)، وأقام تيمورلنك – سلالة التيموريين– في المشرق العربي السلالة التي قضت على حكم الأيلخانيين، الأسرة التي أسسها هولاكو خان، الذي غزا بغداد العباسية في سنة 1258، وكان تحول المغول الشاغاتاي للإسلام بعد العقد الثالث من القرن الرابع عشر، ولكنه سرعان ما توغل في نزاع داخلي انتهى بسيادة تيمورلنك، وبسط سيطرته على مساحة واسعة ممتدة من الصين إلى سوريا ومن أذربيجان للهند، وقد تناقضت الأسطورة الشائعة عنه كحاكم بلا رحمة مع إنشائه العديد من المساجد والمباني الأخرى في سمرقند وأصفهان.

وفي 28 نوفمبر سنة 1400، بدأ ابن خلدون الإقامة في المدرسة العادلية عند وصوله إلى دمشق، وقد كانت المدينة تحت تهديد حصار قوات المغول، وفي بداية يناير بعد عدة معارك غير ناجحة مع تيمورلنك، وتصديق شائعات عن بروز مؤامرات في غياب السلطان المملوكي، عاد الأخير إلى القاهرة، وانسحبت معظم القوات المملوكية، وزار برهان الدين والقاضي الحنبلي في دمشق معكسر تيمورلنك في 7 يناير ليتفاوضوا على استسلام يحفظ ماء الوجه في مواجهة هزيمة حتمية، وحدث كل ذلك في ظل اندهاش أهل دمشق، وعاد برهان الدين في اليوم التالي مصحوبًا هذه المرة بنبلاء من دمشق لمعسكر التتار، وانضم ابن خلدون لهذه المجموعة في 10 يناير.

وكانت قد جرت المحادثات بين الشخصين– ابن خلدون و تيمورلنك– على مدار أيام متتالية، وبدأت المحادثات يخرج من حساباتها موقف المدينة كمدينة تحت الحصار بعد 14 يناير، يحاول قادتها التفاوض على الاستسلام، وكان تاريخ الاستسلام الرسمي 4 فبراير،

على الرغم من أن قوات تيمورلنك لم تدخل قلعة دمشق حتى الخامس والعشرين، وشهد اليوم التالي المقابلات الأخيرة بين تيمورلنك وابن خلدون، وكان المؤرخ ابن خلدون قد غادر منطقة دمشق في 27 فبراير، مما مكنه من أن يشهد طرد قوات المغول من دمشق، وعلى الرغم من الثمن الباهظ- مليون دينار طبقًا لبعض المصادر- الذي سلمته السلطات المحلية لتأمين احتلال مسالم دون عنف، إلا أنه عندما وصل ابن خلدون إلى القاهرة في 17 مارس كانت العاصمة السورية مشتعلة حتى سقف المسجد الأموي.

تيمورلنك على عرشه، منمنمة من القرن الثامن عشر، المكتبة الوطنية – باريس.

على الرغم من أن المقابلات بين ابن خلدون وتيمور لنك تكشف معلومات عن مميزاتهما، افترض القائد المغولي بوضوح أنه في موقع المسيطر على الشخص البارز المشهور بنزعته كدبلوماسي ابن خلدون الذي تم تعيينه ليستخلص شروط استسلام إيجابية لدمشق. وأجريت المقابلة الأولى في مبادرة سواء كانت من ابن خلدون أو شاه ملك القائد الشاغاتاي المسئول عن احتلال المدينة، وكان هدف تيمورلنك الاستمرار في غزواته في شمال أفريقيا ويبدو ذلك جليًا من النقاش الذي دار بينه و بين ابن خلدون، كما أكد الأخير ذلك في سيرته الذاتية:

"فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده إلي فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت. ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا، وسألني من أين جئت من المغرب، ولما جئت؟، فقلت: جئت من بلادي لقضاء الفرض، ركبت إليها البحر، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين من المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارها لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددها. فقال لي: وما فعل معك؟، قلت كل خير، بر مقدمي، وأرغد قراي، وزودني للحج، ولما رجعت وفر جرايتي، وأقمت في ظله ونعمته، رحمه الله وجزاه. فقال: وكيف كانت توليته إياك القضاء؟ فقلت: مات قاضي المالكية قبل موته بشهر [4]، وكان يظن بي المقام المحمود في القيام بالوظيفة، وتحري العدل والحق؛ والإعراض عن الجاه، فولاني مكانه، ومات لشهر بعدها، فلم يرض أهل الدولة بمكاني، فأدالوني منها بغيري جزاهم الله. فقال لي: وأين ولدك؟ فقلت بالمغرب الجواني كاتب للملك الأعظم هنالك. فقال وما معنى الجواني في وصف المغرب؟ فقلت هو في عرف خطابهم معناه الداخلي، أي الأبعد، لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة، وأفريقية، والمغرب الأوسط -تلمسان وبلاد زناتة- والأقصى -فاس ومراكش-، وهو معنى الجواني. فقال لي: وأين مكان طنجة من

1 بعضهم ترجم للإسبانية بواسطة إلياس طرابلس:
Ibn Jaldún, Introducción a la historia universal (al-Muqaddimah), Mexico, 1997, 2 nd ed., 82-88.
كذلك استشهد بهم:
J. Fischel, Ibn Khaldun and Tamerlane, University of California, Berkeley and Los Angeles, 1952.

2 التعريف بابن خلدون ورحلاته غربا وشرقا، بيروت 1979، ص 406. Trans, A. Cheddadi, le voyage d Occident et d Orient, Paris, 1980, 228 ff.

3 توجد التواريخ الهامة في سيرته في:
M. Talbi: "Ibn Khaldun", Encyplopedie de l Islam, 2 nd ed., III, 849-855.

4 كان هنا ثاني تعيين له كقاض رسمي بواسطة السلطان الظاهر برقوق (89-1382 و 99-1390)، أول سلطان مملوكي جركسي في 22 مايو 1399، وتوفي السلطان برقوق في 20 يونيه، وطرد ابن خلدون في 3 سبتمبر 1399.

ذلك المغرب؟ فقلت: في الزاوية التي بين البحر والمحيط، والخليج المسمى بالزقاق، وهو خليج البحر الشامي، فقال: وسبتة؟ فقلت: على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقرب مسافته، لأنها هناك نحو عشرين ميلا. فقال وفاس؟ فقلت: ليست على البحر، وهي في وسط التلول، وكرسي ملوك المغرب من بني مرين. فقال: وسجلماسة؟ قلت: في الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب. فقال: لا يقنعني هذا، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها، قاصيها ودانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، حتى كأني أشاهده. فقلت: يحصل ذلك بسعادتك"[5].

وتشير العديد من الكتابات لهذه الأحداث التي حدثت في المفاوضات وتركها لنا ابن خلدون، نظرًا لمعرفته بالمغول أو التتر– كما فضل أن يسميهم في كتاباته. فعلى سبيل المثال ساعد ابن خلدون وخبراء آخرون تيمورلنك باستمرار ليدحض الاعتراف بسليل خليفة بغداد[6] ذلك الاعتراف الذي حصل عليه الأخير من المملوك بيبرس، وفي فقرة أخرى من سيرته الذاتية في رسالة خاطب فيها سلطان المرينيين[7]، كتب ملخصًا حول معرفته عن تيمورلنك والمغول بينما كان يعرض وصفًا مختصرًا لتجاربه في إقامته المؤقتة في دمشق أثناء الشهر الذي قضاه مع تيمورلنك قبل أن يسمح له بالعودة لمصر، ويشهد العديد من الكتاب على معرفة ابن خلدون الموسوعية الكبيرة للمغول، وكانت الإشارات للمغول والتتار متكررة أكثر في سيرته الذاتية من المقدمة، حيث أعطى ابن خلدون للتتار أهمية أقل في الأخيرة: فتكلم عنهم من حيث دورهم في إسقاط القوة العباسية وقوة السلاجقة في بغداد، كذلك عن أن هناك جيلًا واحدًا فقط يفصل بين هجرتهم من السهول الصينية وظهورهم في بلاد ما بين النهرين، أو أنشاؤهم لقاعدة راسخة للحكم وضعت نهاية للنزاعات بين الحنابلة والشيعة في العراق، وهذه الإشارة الأخيرة هي موضوع واحدة من أكثر الإشارات تميزًا في السيرة الذاتية:

مدخل قلعة حلب.

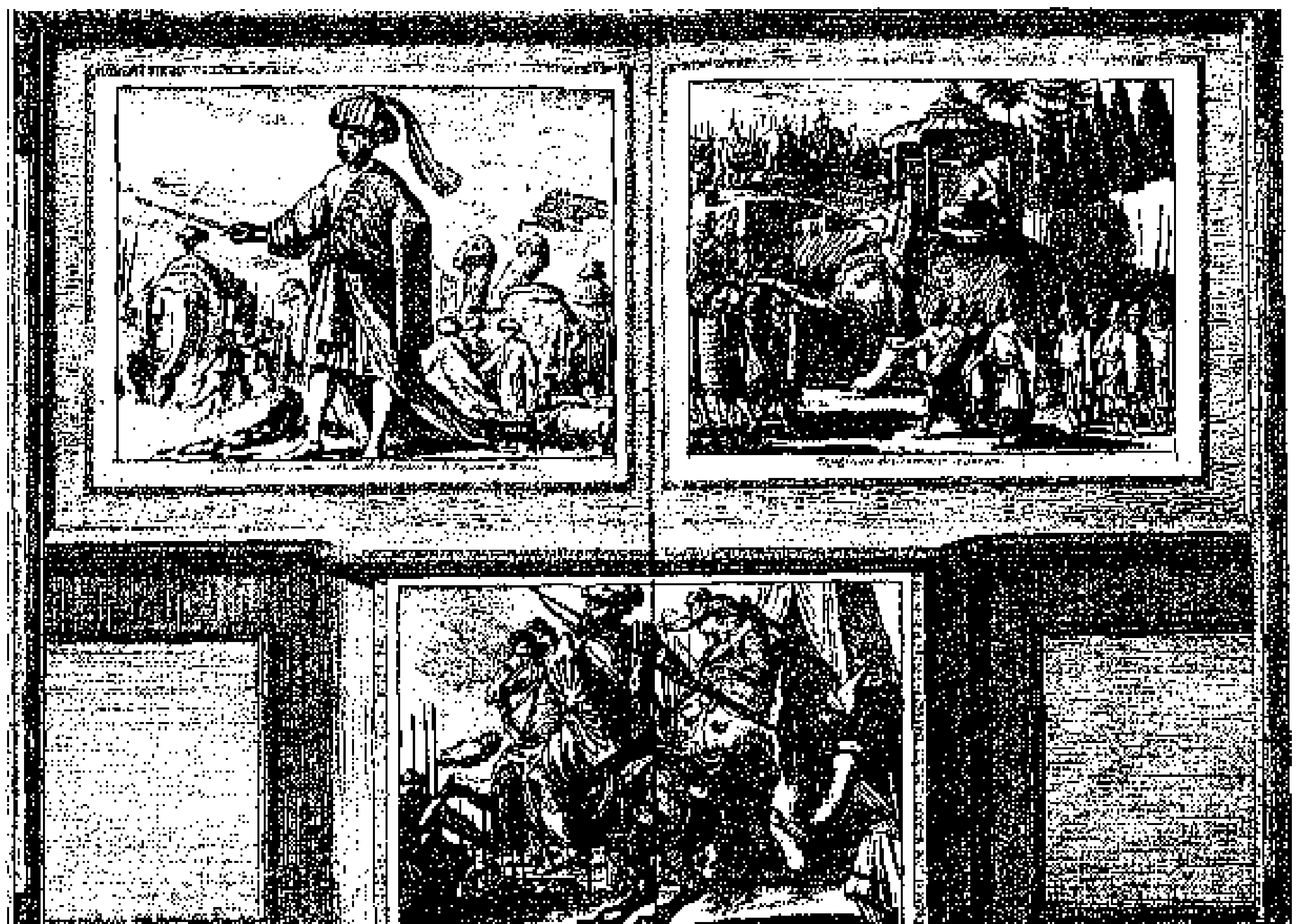

أسفل، فرسان الخان المغولي الأعظم وكتائب المقاتلين، رسم محفور من Lagalerie agreable du monde، عمل بي. فان دير آي، يعود إلى سنة 1700–1730، المكتبة الوطنية – مدريد.

"فوقع في نفسي لأجل الوجل الذي كنت فيه أن أفاوضه في شيء من ذلك يستريح إليه، ويأنس به مني، ففاتحته وقلت: أيدك الله! لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك. فقال لي الترجمان عبد الجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران، الأول أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول في الأمور بالجزاف، فإني

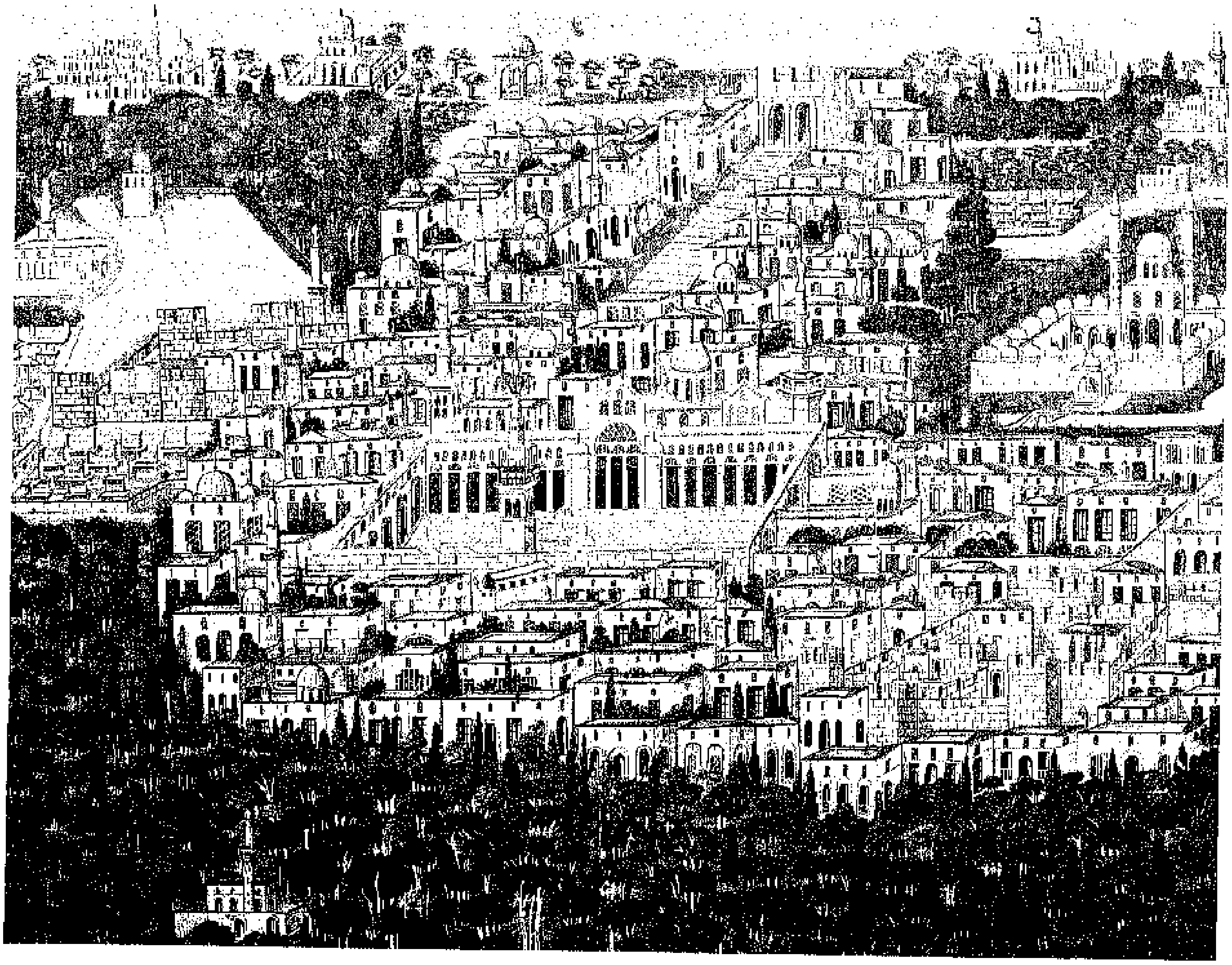

دمشق والجامع الأموي، تصوير من القرن السابع عشر.

من أهل العلم، وأبين ذلك فأقول: إن الملك إنما يكون بالعصبية، وكثرتها يكون قدر الملك، واتفق أهل العلم من قبل ومن بعد أن أكثر أمم البشر فرقتان: العرب والترك، وأنتم تعلمون ملك العرب كيف كان لما اجتمعوا في دينهم على نبيهم، وأما الترك ففي مزاحمتهم لملوك الفرس وانتزاع ملكهم أفراسياب خراسان من أيديهم شاهد بنصابهم من الملك. ولا يساويهم في عصبيتهم أحد من ملوك الأرض من كسرى، أو قيصر، أو الإسكندر، أو بختنصر، أما كسرى فكبير الفرس ومليكهم، وأين الفرس من الترك؟ وأما قيصر والإسكندر فملوك الروم، وأين الروم من الترك؟، وأما بختنصر فكبير أهل بابل، والنبط، وأين هؤلاء من الترك، وهذا برهان ظاهر على ما ادعيته في هذا الملك" [8].

بدا في هذه المرحلة من حياة ابن خلدون عندما قابل تيمورلنك تحديدا رؤية هذا المؤرخ التونسي الأندلسي الأصل عن المغول وقائدهم كرموز لقوة وسلطة الدولة القادرة على دعم القوة السياسية للمجتمع، لقد لاحظ ابن خلدون على مدار حياته هشاشة الهياكل السياسية في العالم العربي لهذه الفترة، من الأندلس وشمال أفريقيا إلى الشرق، حيث كانت هذه الهياكل هشة مقارنة بالفترات السابقة، وترجع هذه الهشاشة إلى انقسام القوى السياسية، وعبر عن ذلك ابن خلدون في عدم القدرة على تجديد العصبية أو شعور الجماعة بضرورة خلق دولة فعالة، فقد تم إقامة دولة الإسلام بعد العرب بواسطة جماعة اجتماعية غير عربية، ويمكن القول أن الأتراك العثمانيين أيضًا سيأخذون هذا الطريق بعد ذلك كما هو مفهوم من سياق التحليل التاريخي لابن خلدون.

5 *Ta'rif*, págs 409-411 (ed.) y pàgs 230-232 (trad.)

6 *Ib.*, pàgs 417-420 (ed.) y pàgs 237-239 (trad.)

7 *Ib.*, pàgs 422-427 (ed.) y pàgs 244-247 (trad.)

8 *Ib.*, pàgs 413-414 (ed.) y pàgs 233-234 (trad.)

سفارة إنريكي الثالث القشتالي إلى تيمورلنك في الفترة الأخيرة من زمن ابن خلدون

فرانسيسكو لوبيز استرادا
جامعة كومبلتنتي – مدريد
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

كان الانتقال من القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر موسومًا بعلاقة استثنائية بين الغرب الأوروبي وذلك الجزء من الشرق الذي يصل بقدر ما حتى سمرقند في آسيا الوسطى. وبمعنى دقيق، فإن ذلك يتجاوز الإقليم المغربي الذي تشير إليه دراسات أخرى في هذا الكتاب. بالإضافة لذلك، يوجد اسم يمثل تلك العلاقة على الرغم من أنها لم تنتج نتيجة عملية في الحيز السياسي، وبناء على ذلك الحيز التاريخي الذي هو أفضل ما يمثل تلك العلاقة. الاسم الذي هو أفضل ما يجسد تلك الظروف هو تيمورلنك أو تيمور أي صورة أخرى للإسم في تنوعاتها.

وعلى وجه التحديد ما بين عامي 1403 و1406 –البداية الفعلية للقرن الخامس عشر الميلادي– تصل تلك العلاقة بين مملكة قشتالة الصغيرة والإمبراطورية الضخمة التي شكلها تيمورلنك بفتوحاته، لمقياس دبلوماسي أرفع، بالمعنى الدقيق للكلمة. وتتزامن تلك الأعوام مع أواخر حياة ابن خلدون الذي يُكرس له هذا الكتاب. وتمتد حياة هذا العالم من سنة 1332 –ولد ابن خلدون في تونس في هذا العام– حتى سنة 1406 –عندما مات في القاهرة– وربما كان لدى ابن خلدون أخبار تلك العلاقة الدبلوماسية بين قشتالة وتيمورلنك الجبار، لأنه في سنة 1403 كان في الحادية والسبعين من عمره، وكان لا يزال في أوج علمه ومعرفته السياسية، وقد عاش حتى سنة 1406، عندما عاد السفراء القشتاليون من رحلتهم المذهلة إلى سمرقند.

أنريكي الثالث القشتالي، رسم ذ.أ. فان وسترهوت A .van.Westerhout المكتبة الوطنية، مدريد.

وتحديدًا في تلك الأعوام الأخيرة صنع ابن خلدون مساهمة هامة أصلية في دراساته عن تاريخ اعتبره آنذاك علمًا جديدًا. ولأجل تلك الغاية استخدم كل خبرته كرجل بلاط مطلع على خصوصيات الحاشية الملكية، ودبلوماسي، ومفاوض، وسفير. وبينما كان في مصر من سنة 1382 حتى وفاته، تمتع بعلاقة استثنائية مع تيمورلنك، الفاتح العظيم الذي كون إمبراطورية ضخمة في الشرق الأوسط. وخلال السنوات المبكرة للقرن الخامس عشر، وقد كان ابن خلدون شيخًا حين حدثت تلك العلاقة. فقد عهد إليه السلطان فرج، الذي كان قد تربع على العرش للتو، بالمباحثات مع تيمورلنك، الذي وضع تهديدًا لكل عرب الغرب. ولقد حقق وأتم مقابلة مع تيمورلنك فيما بين العشرين من ديسمبر سنة 1400، والرابع من مارس سنة 1401 في منطقة دمشق. وأثمرت المحادثات بين السيد الجبار وابن خلدون ثمارها، بالإضافة لإنتاج إعجاب متبادل من شخصية لأخرى مختلفة عنها ولكنهما وثيقتا الصلة بالموضوع. واكتشف تيمورلنك أن ابن خلدون كان يعد سيرته وسلسلة نسبه وكيف جمع مثل هذه القوة الكبيرة إلى حد أمن إحكامه لوظيفته السياسية فوق رقعة عريضة من آسيا الوسطى. وخلال محادثاتهما، أخبره ابن خلدون أنه كان يكتب تاريخ بين الشرق والغرب عالج فيه إسبانيا العربية، وفيه ذكر أكثر الرجال أهمية. ومن بينهم كان تيمورلنك، وود لو أنه انتهز فرصة المناسبة لتصحيح أي أخطاء وأن يعطي روايته دقة أكثر. وسأله تيمورلنك كيف حصل على المعلومات لسلسلة نسبه، وأجابه ابن خلدون على ذلك بأنه فعل هذا بسؤال التجار الذين يعتبرهم الأكثر جدارة بالثقة، والذين سافروا إلى أرضه. وكانت تلك هي الأمور الرئيسية التي عالجاها من بين أمور أخرى.

أعلى، ري جونثالث دي كلابيخو وفقًا لرسم ر. كاسادو R.Casado، طباعة حجرية مؤرخة بحوالي سنة 1860. المكتبة الوطنية- مدريد.

كان هذا واحدًا من أغرب الأحداث، وواحدًا من الأحداث ذات القيمة الإنسانية العظيمة في الجزء الأخير من حياة ابن خلدون، التي أضافت لمعرفته المتعلقة بتيمورلنك، رجل السياسات الشرقية الجديدة التي وضعها في العلم التاريخي الجديد الذي كان يتأمله مليا.

من ناحية أخرى ، كانت السنوات بين عامي 1403 و1406 جوهرية في تغيير اللهجة السياسية كما مثلها أنريكي الثالث القشتالي الذي كانت مملكته تقع تقريبا في أقصى طرف لأوروبا مع العالم العربي. وعاش العاهل القشتالي بين عامي 1397 و1406، وحكم من سنة 1390 حتى وفاته، بإجمالي ست عشرة سنة. وخلال تلك الفترة التي مثلت تغييرًا في سياسات تراستامارا، ربما الحدث الأكثر أهمية لأبعاده الجغرافية والشخصية، كان ربما الرحلة التي قام بها مبعوثو الملك من قشتالة إلى مدينة سمرقند نفسها في آسيا الوسطى، وعودتهم عندما قدموا رواية بعثتهم إلى العاهل نفسه.

وكانت البعثة التي أرسلها الملك في هذه المناسبة، ردا على سفارة أخرى كان تيمورلنك قد أرسلها إلى إنريكي الثالث والسادة الآخرين في أوروبا ليخبرهم بشأن الانتصار الذي أحرزه على بايزيد، ملك الأتراك. وفي مناسبة معركة أنقرة التي هزم فيها تيمورلنك التركي، حدث أن فارسين من بلاط الملك القشتالي -بايو جوميز دو سوتو مايور، وهرنان سانشيز دو بالازولوس- قاما ببعض المشاركة واستقبلا بشكل طيب من تيمور لنك. وبالتالي أخذ الفرصة لإرسال أحد سفرائه - محمد الكاجي- إلى أنريكي الثالث مصحوبًا بموكب من السيدات المسيحيات الشرقيات اللائي قدمن كهدية للعاهل. ولذلك كانت سفارة أنريكي الثالث إيماءة دبلوماسية ردًا على السفارة التي أرسلها تيمورلنك إلى قشتالة.

تشكلت سفارة إنريكي الثالث في المقام الأول من ثلاثة أعضاء من البلاط الملكي: ري جونثالث دي كلابيخو من مدريد، الكاتب الرئيسي في القصر الملكي وحاجب الملك. وبرهن اختيار إنريكي الثالث على كونه نجاحًا مؤهلاً لأن كلابيخو امتلك الشخصية والمهارات الاجتماعية وطبيعة مهذبة لتلك المهمة. وكان الثاني رجل دين، هو ألونسو بايز دو

أسفل، سانلوكار دو باراميدا Sanlúcar de Barrameda، ميناء وصول البعثة التي يقودها كلابيخو، رسمها أنطون فان دين وينجايرد Anton Van den Wyngaerde سنة 1567.

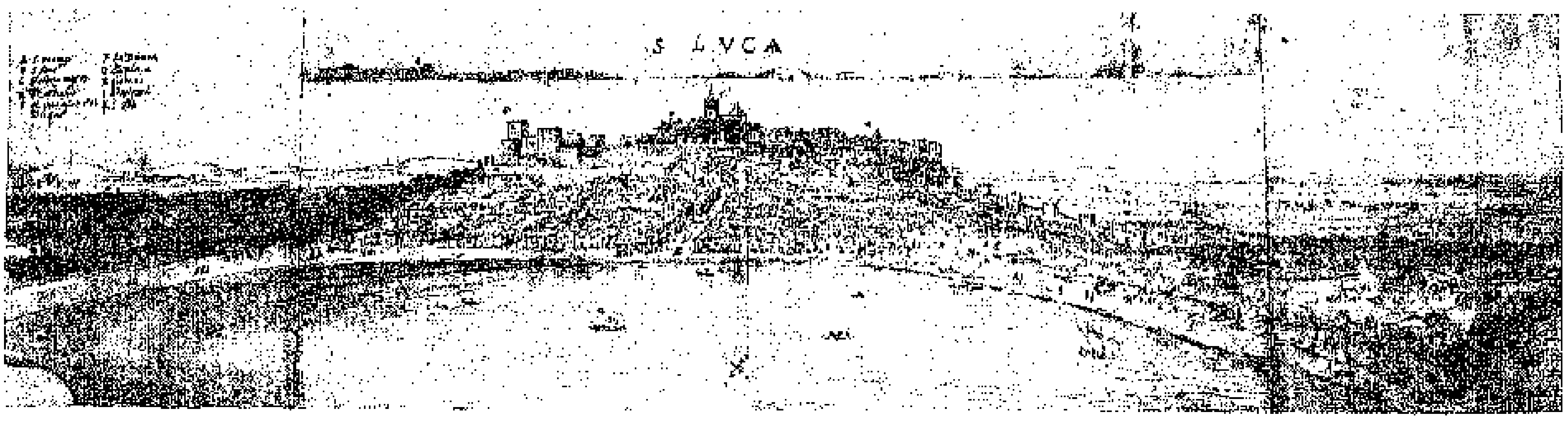

سانتا ماريا، عضو في جماعة الوعاظ، وأستاذ في اللاهوت، والذي يستطيع أن يصل لتفاهم مع الرجال المقدسين وعلماء اللاهوت في الشريعة الإسلامية. وكان الآخر جوميز دو سالازار حارس الملك، الذي لم يكن باستطاعته التغلب على شدائد الرحلة ومات في نيسابور. وتكونت المجموعة من أفراد آخرين بمهام مختلفة، وكان واحد منهم ينقل الهدايا التي كان الملك القشتالي قد أرسلها إلى تيمورلنك. واختلفت تلك الهدايا كثيرًا عن تلك التي أرسلها تيمورلنك لأنها تألفت من ملابس قيمة، وزخارف فضية وصقور الشُقُر. وتألفت بقية السفارة من نساخ وكتبة البلاط الذين دونوا الأخبار الضرورية في يومياتهم ورحلاتهم، الملهمة أو المملاة من كلابيخو أو فراي ألونسو بايز، فيما يتعلق بكل شيء شاهدوه في رحلتهم، وبخاصة المدن الضخمة والمعلومات التي تلقوها عن الأماكن التي كانوا يسافرون خلالها وجذبت انتباههم. وبالإجمال كانت مجموعة المسافرين تشكل نحو أربعة عشر فردًا.

وأبحرت السفارة من ميناء سانتا ماريا في الحادي والعشرين من مايو سنة 1403، ووصلت سمرقند في الثامن من سبتمبر سنة 1404 بعد رحلة خطرة. وفي هذا الموضع نذكر بعضًا من الأحداث الكثيرة التي ميزت رحلة السفير. ففي الرابع والعشرين من أكتوبر وصلوا إلى بيرا Pera بالقرب من القسطنطينية حيث بقوا بها حتى الخامس والعشرين من مارس من العام التالي عندما بدأوا الرحلة إلى طرابيزون. وهناك تركوا رحلتهم بطريق البحر وبدأوا رحلاتهم التي أخذتهم عبر أزيرون Azeron، وتبريز، وسلطانية، وطهران، وأخيرًا سمرقند في الثامن من سبتمبر. وبعد مقابلتهم مع تيمورلنك شرعوا في رحلة عودتهم في الحادي والعشرين من نوفمبر لأن تيمورلنك، الذي كان مريضًا بالفعل في ذلك الوقت، قد توفي وأثبتت الرحلة للوطن قشتالة أنها شاقة وخطرة للسفراء.

ومن حيث المبدأ، أنجز السفير كلابيخو ورفقته مهمتهم الدبلوماسية لتيمورلنك. ففي الأيام القليلة التي قضوها في سمرقند كانت لديهم الفرصة ليحضروا حفل الاستقبال الذي أقامه على شرفهم، وكذلك بعض الاحتفالات التي نظمت لعودته المظفرة. ومع ذلك كان تيمورلنك آنذاك في سن متقدمة وصحة هزيلة، ولذلك لم يكن لدى السفراء أي فرصة باستثناء أن يقدموا موعد رحلة عودتهم إلى الحادي والعشرين من نوفمبر من نفس العام.

وكانت عودة صعبة للسفراء لأنهم لم يحصلوا على الخطاب الاعتمادي لإنجاز مهمتهم، وبينما كانوا لا يزالون يسافرون عبر أراضيه، توفي تيمورلنك. ولقد وصلوا طرابيزون بصعوبة شديدة في العاشر من سبتمبر سنة 1405. ومن هناك أخذوا سفينة، وأحرزوا تقدمًا عبر البحر الأسود والبحر المتوسط. وبعد تنفيذ أمور دبلوماسية إضافية -كما نعتقد- وصلوا إلى سانلوكار Sanlúcar في الأول من مارس سنة 1406، وفي الرابع والعشرين قدموا أمام

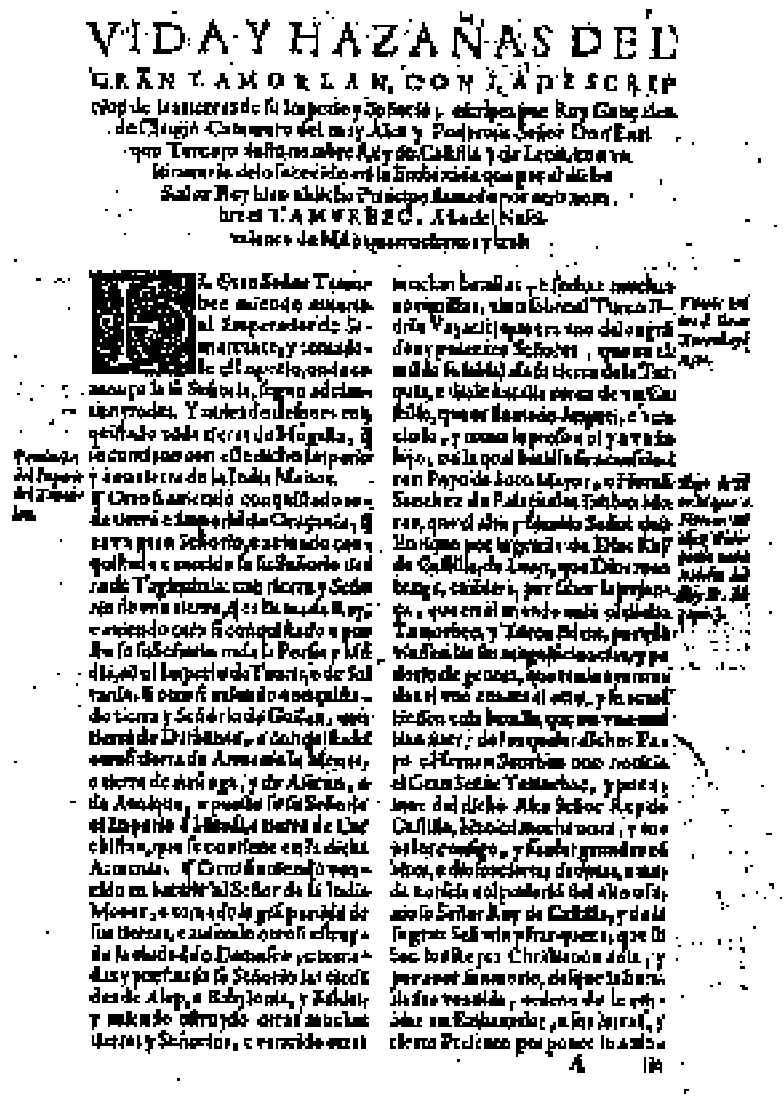
VIDA Y HAZAÑAS DEL
GRAN TAMORLAN, CON LA DESCRIP

وصف رحلة روي جونثالث دي كلابيخو في نسخة مطبوعة في سنة 1582. مكتبة المستشفى الملكي Hospital Real library، جامعة غرناطة.

أسفل، مخطط للطريق الذي سلكته سفارة كلابيخو من سانلوكار دو باراميدا إلى سمرقند، وتغييرات رحلة عودتهم (بخط متقطع) حتى وصلوا إلى ميناء سانتا ماريا.

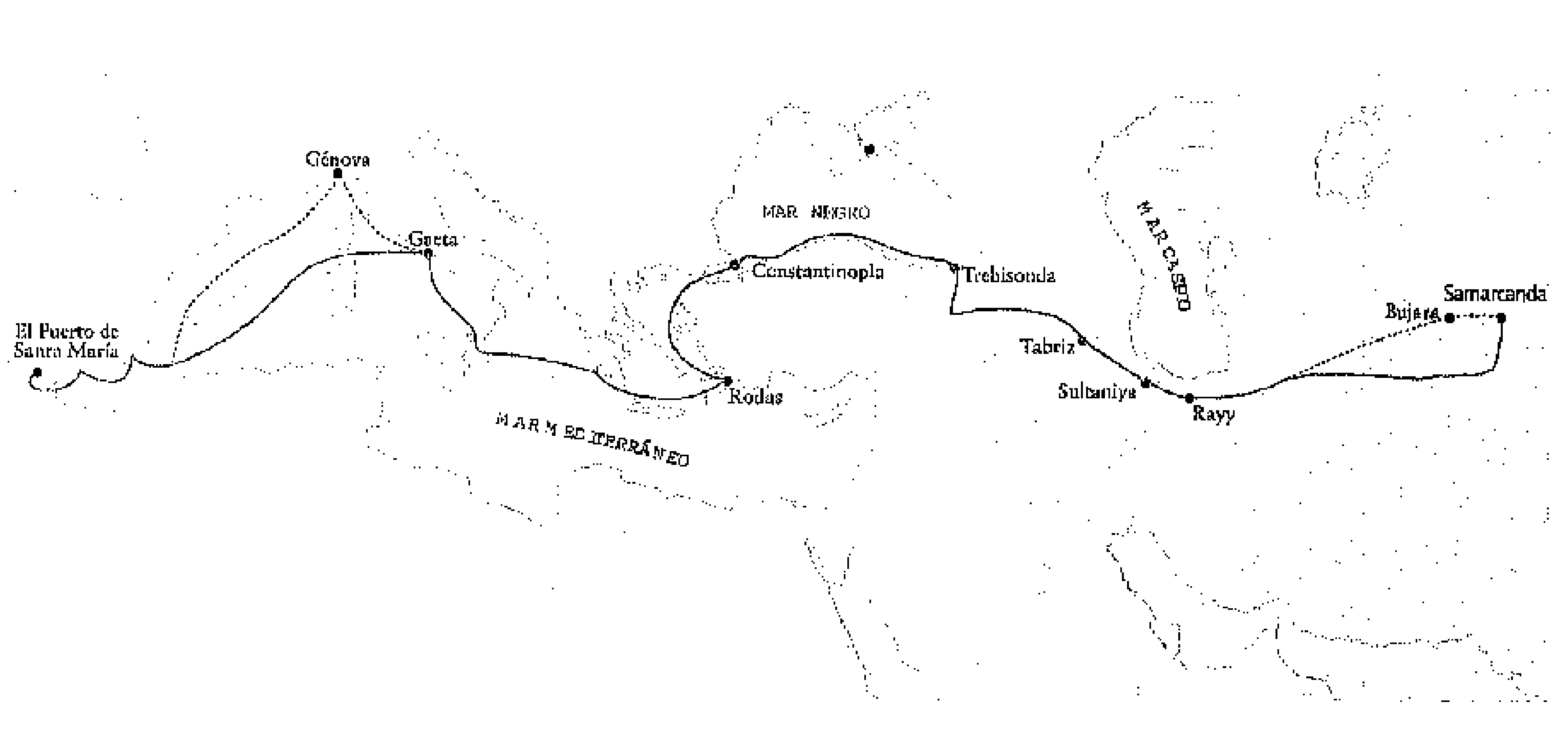

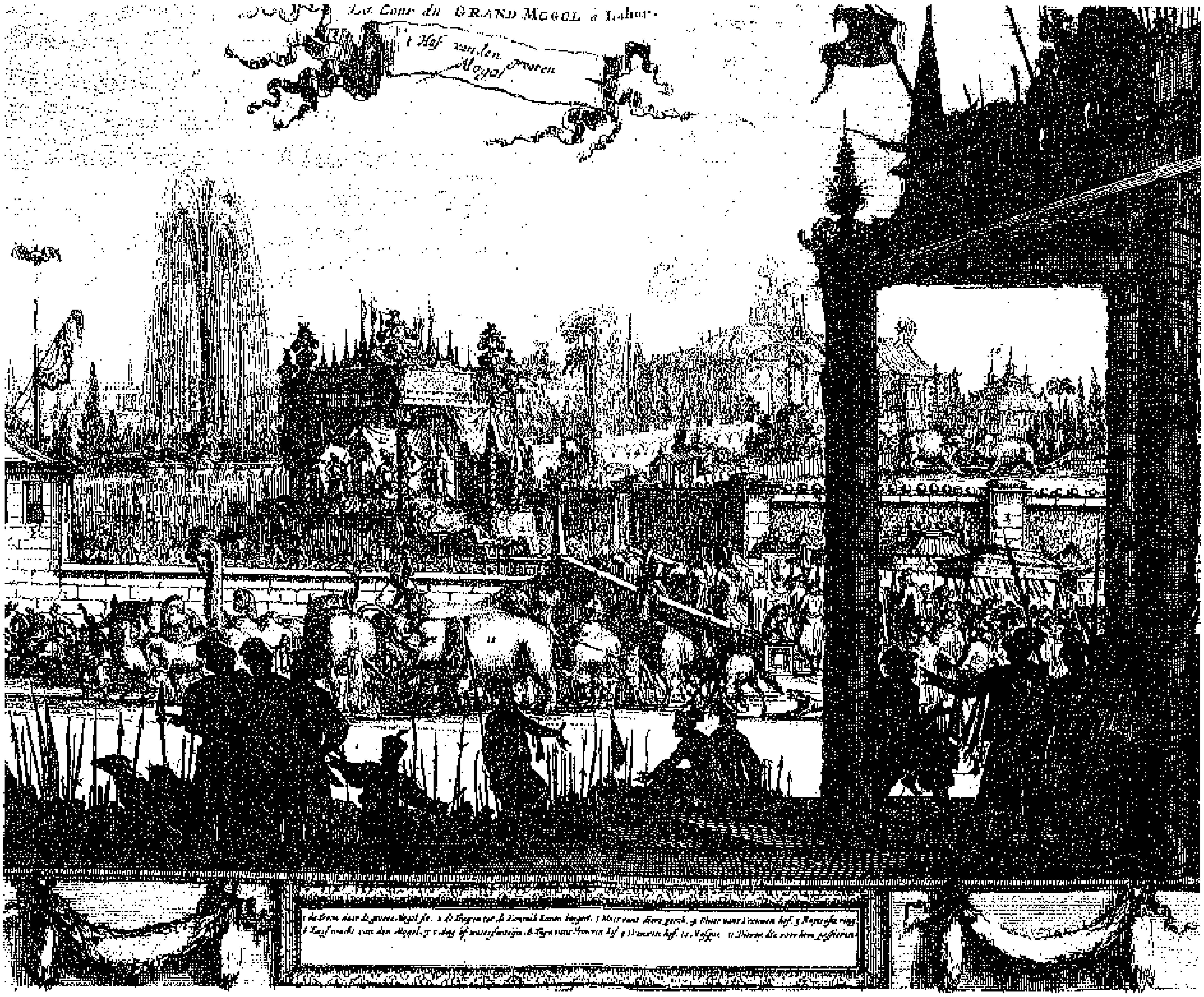

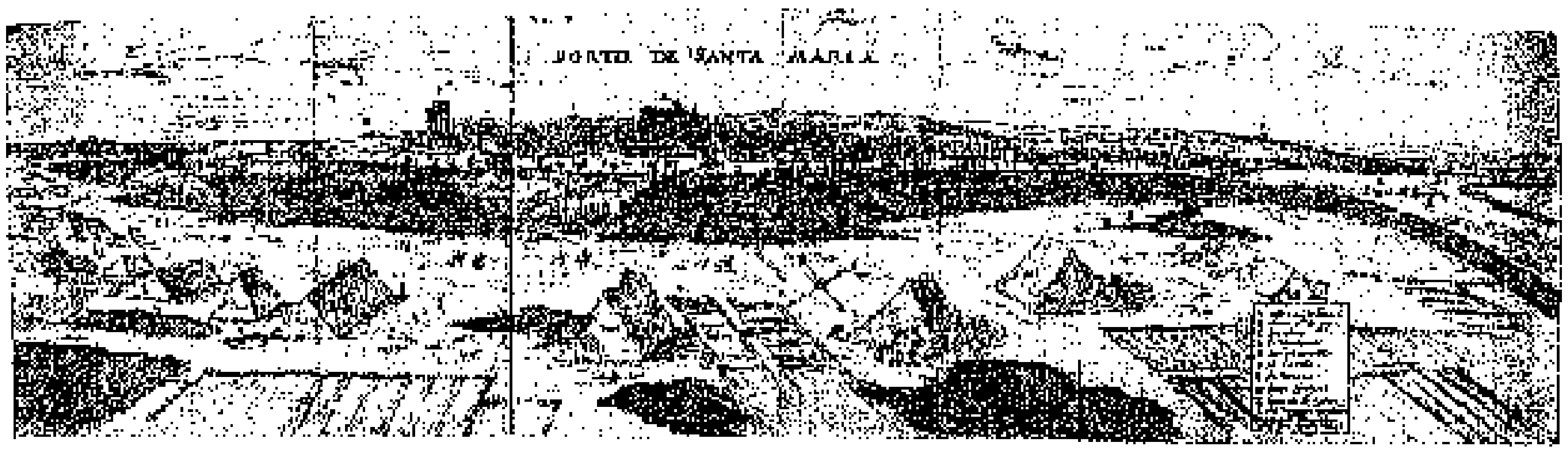

أعلى، بلاط المغولي العظيم في لاهور، حفر من La Galerie agreable du Monde، ل: ب.فان دير آ P. van der Aa 1700-1730. المكتبة الأهلية، مدريد.

أسفل، ميناء سانتا ماريا في خليج قادس، حيث رحلت منه بعثة كلافيخو. رسم ل: أ.فان دين وينجايرد في سنة 1567.

الملك في قلعة عبدالسلام Alcalá de Henares ليخبروه عن بعثتهم المنجزة ولكن غير المعتمدة.

وعلى الرغم من أن العلاقة الدبلوماسية لم تنتج أي نوع من الاتفاق بسبب موت تيمورلنك، فإنها لحسن الحظ تركت لنا شهادة عن الرحلة لا تقدر بثمن. ودائما ما نسب الوصف إلى ري جونثالث دي كلافيخو. ومن المرجح أنه وأثناء الرحلة دون كتبة البلاط في الحاشية كل شيء أخبرهم به كلافيخو، وأنه استخدم تلك التعليقات لكتابته. ومن المحتمل أنه أعين في المهمة من الكاجي الذي سوف يحوز من الآن إدراكًا كافيا للإسبانية بعد مرافقته له في الرحلة إلى سمرقند.

فضلا عن ذلك عُرف عن كلافيخو كونه شاعرًا، ومن المرجح أنه كانت لديه مهارات سردية في النثر كذلك. وكانت النتيجة رواية عالية الوضوح للسفارة مع وفرة في أسماء المواقع الجغرافية في اللغات الأجنبية، ومكتوبة بشكل أدبي جميل ضمن نوع أدب الرحلات.

وعلى وجه الضبط، ففي هذه الفترة التي بدأت بموت ابن خلدون في مارس سنة 1406، كتبت رواية رحلة السفارة إلى ومن سمرقند. ويمكن إضافة تلك الحادثة إلى سيرة ابن خلدون داخل نطاق السنوات الأخيرة للمفكر العظيم.

التجار، والطرق، والبضائع

مدينة عظيمة لملك عظيم مدن شرقية وغربية وطرق تجارية في زمن ابن خلدون

كريستين مازولي – جوينتار
جامعة نانت

ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

"مدينة عظيمة لملك عظيم"، يكتب ابن خلدون عندما يبدأ فكرته عن عالم المدينة في الفصل المكرس للمدن في المقدمة. وفي رأيه إن ازدهار المدن ناشئ عن الأسرة الحاكمة التي تمنحها الحياة، والأهمية الديموغرافية للمركز المتحضر، ونمو النشاطات الاقتصادية [1]. تلك الاختلافات الموضوعية هي ما عالجه المؤرخ في كلامه. فهو يتساءل عن تأسيس ونمو وسقوط المدن؛ تلك الفكرة – المغذاة في الدرجة الأولى بالمدن الشرقية والغربية للعالم الإسلامي – تغاير الخصوصية للمدن المغربية مع المدينية القوية للدول الغنية:

"في دول أجنبية أخرى، توجد حضارات في القرى والمدن كما في إسبانيا، والشام، ومصر [...] في دول شرقية مثل مصر، والشام، والمنطقة الفارسية للعراق، والهند، والصين، وشمال البحر المتوسط؛ وهي أقاليم مسكونة بكثرة وأصبح الناس أغنى، وزادت أسرها الحاكمة، وتطورت مدنها وكذلك تجارتها والأوضاع المعيشية لسكانها. انظر إلى تجار الأمم المسيحية الأوروبية الذين يأتون إلى دول المغرب الإسلامية تلك الأيام، إن رخاءهم وثروتهم لا يوصفان. وهذا هو نفس الشيء بالنسبة للتجار الشرقيين؛ وبخاصة الذين هم من الشرق الأقصى" [2].

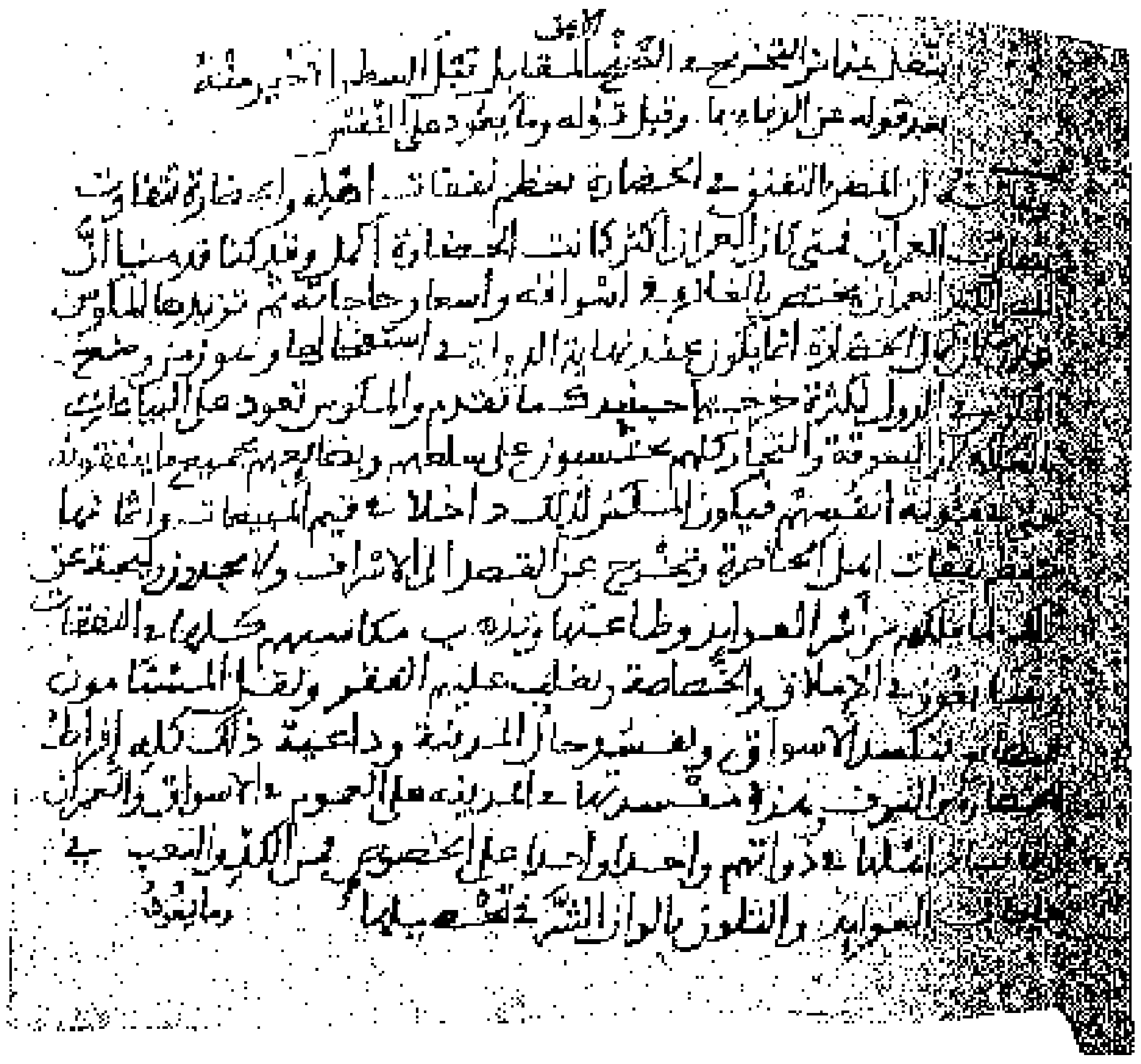

صفحة من مخطوط عبارة عن تكملة جزء من نص مفقود في المخطوط الأصلي. وهنا، يظهر كيف وضع ابن خلدون "الفكرة التالية" لما كانت المدينة تشكل ثقافتها – يزداد نفع السكان– وكذلك ثقافتها".

المقدمة: صفحة مضافة للورقة رقم 18 مكرر، مخطوط عاطف أفندي، 1936، المكتبة السليمانية، اسطنبول.

هذا التفكير الرائع يظهر وعي الكاتب، بأن التقسيمات الاقتصادية بين الدول الغنية والفقيرة أكثر أهمية من الانقسام بين العالمين الإسلامي والمسيحي، ولو أنه كان حاضرًا جداً في أعمال معاصريه؛ وتؤسس المدن والطرق التجارية التي تربطها مناطق اقتصادية كبرى، والتي يمكن – وفقا لابن خلدون – أن تتسع لثلاث مجموعات ضخمة: منطقة شرقية تتألف من مصر وسوريا والعراق، وتمتد حتى القسطنطينية؛ ومنطقة شمال البحر المتوسط - منطقة غامضة جداً في أعمال مؤلف المقدمة – والتي يمكن أن تتجرأ على أن نمدها حتى بحر الشمال؛ ومنطقة غربية تمتد من المغرب حتى قورنية Cyrenaica. وهناك اختلافات كثيرة بين تلك المناطق الاقتصادية الثلاث، مثل بروج Bruges في بداية القرن الرابع عشر الميلادي: إذ يلخص نص استثنائي منشأ البضائع التي تصل إلى هناك، أعني إنجلترا، وإسكتلندا، وأيرلندا، والنرويج، والدنمارك، والسويد، وروسيا، والمجر، وبوهيميا Bohemia، وألمانيا، وبولندا، ولييج Lièg، وبلغاريا، ونافار، وأراغون، وقشتالة، وليون، والأندلس، وإشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، وجميقية، والبرتغال، وفاس، وسجلماسة، وبجاية Bejaia، وتونس، وميورقة، وسردينيا، والقسطنطينية، وبيت المقدس، ومصر، وأرمينية، وبلاد التتار، وفرنسا، وبواتييه، وغسقونية Gascogne [3].

وأخيرا، دعنا نشير إلى أن زمن ابن خلدون مسجل بشكل أساسي في العقود الأولى للقرن الرابع عشر الميلادي، والتي أتت قبل الاضطرابات العميقة في تلك الفترة، وامتلك ابن خلدون وعيًا شديدًا بالنزاعات وشدائد زمنه لأنها أصابته بعمق، فقد مات والداه خلال الموت الأسود الذي خرب تونس سنة 1348. ويكتب ابن خلدون "هاجم الطاعون الرهيب كلا من الحضارتين الشرقية والغربية ودمر الأمم [...] وأصبحت المنازل فارغة والطرق بائدة [...] وتغير وجه العالم المسكون". من ناحية أخرى، يتجنب حديثه الوقت المعاصر واضعًا نفسه في الماضي؛ على

1 Ibn Khaldun. *Discours sur l'Histoire universelle*, trans. V . M . Monteil, Beirut, 1967-1968, reed Arles , 2000, pp . 543-601

2 *Ibid* , pp . 568 and 579

3 Ch . M . De la Roncière, Ph. Contamine and R, Delort, *L'Europe au Moyen Âge*,vol,III: *Fin XIIIe- fin XVe siècle*, Paris, 1971, pp.205-206

4 Favier (dir.), *XVIe et XVe Siècles,Crises et genèses*, Paris, 1996

الرغم من أن ابن خلدون كان لديه هاجس بأنه – باستعارة كلمات م . بلوك M.Bloch– "اعتمادًا على ما إذا كنا نقترب أو نبتعد من اللحظة الحاضرة، فحتى تقنية الاستعلام [يجب] أن تعبر مختلفة بشكل جوهري": وبالتالي فنحن نتقيد بالمدن وطرق التجارة في الفترة السابقة للاضطرابات العظيمة للقرن الرابع عشر الميلادي" [4].

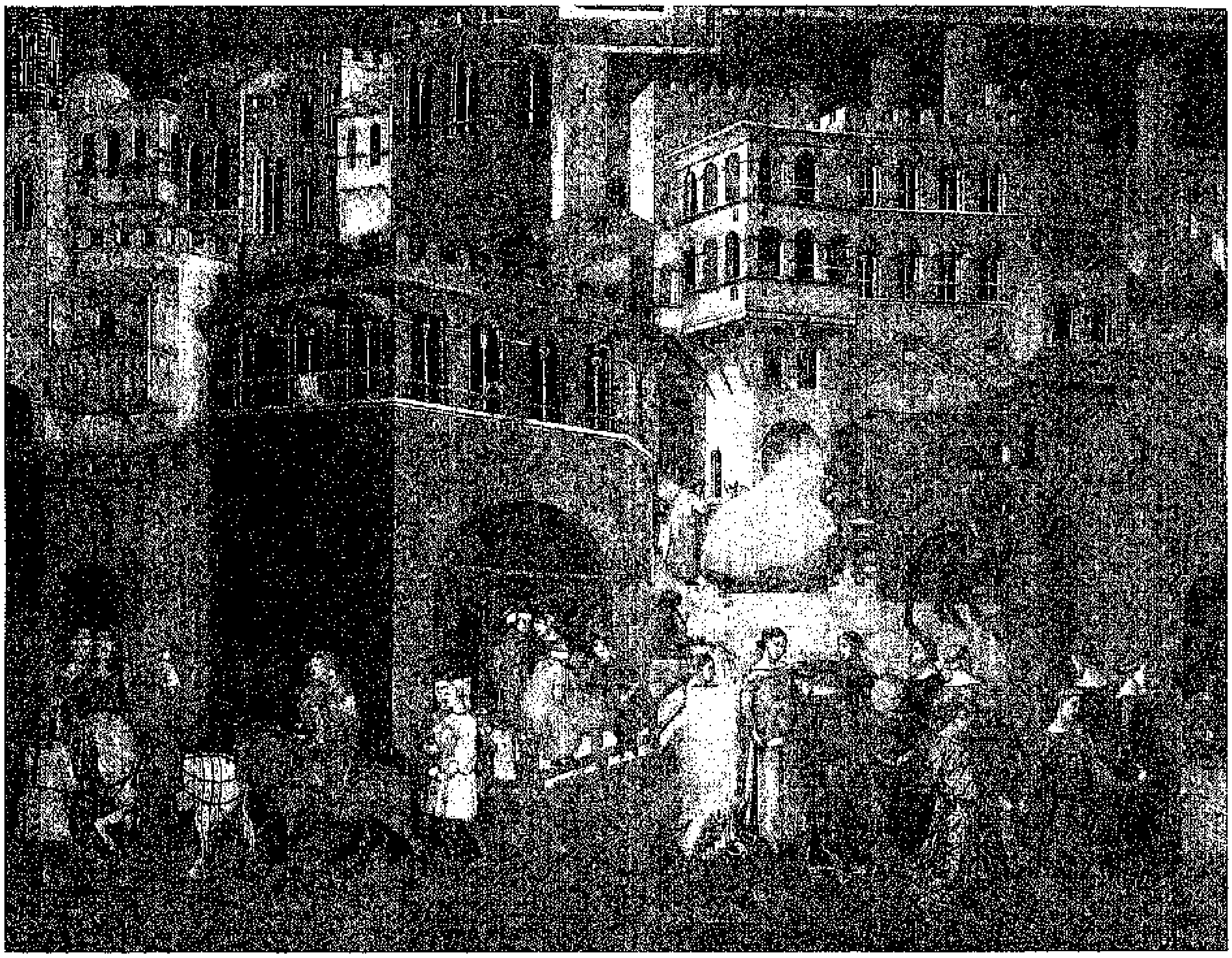

منظر لمدينة إيطالية في إفريز (1338-1340) بقلم أمبروجيو لورينزيتي Amborogio Lorenzetti عن تأثيرات الحكومة الجيدة. Palazzo Pubblico، سيينا Siena.

أسفل أرض الحرير، مع جبل شاير Sera – وهي Xian في الوقت الحاضر– واحدة من المحطات الرئيسية لطريق الحرير، في خريطة لآسيا الوسطى معتمدة على جغرافية بطليموس.

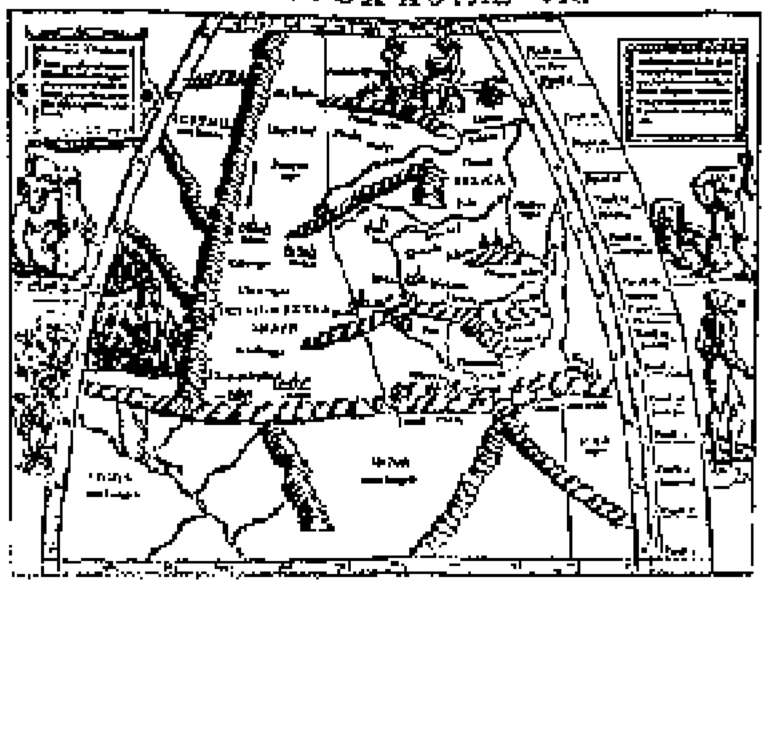

المنطقة الشرقية

كانت المنطقة الشرقية في بداية القرن الرابع عشر الميلادي تحكم بواسطة المغول والأتراك. وكانت إمبراطورية المغول الواسعة – التي امتدت من بحر الصين حتى البحر الأسود في ذروة توهجها خلال القرن الثالث عشر الميلادي– الأصل لعنصرين جوهريين بالنسبة للمدن والطرق في المنطقة الشرقية: هما تدمير المدن ونمو طريق التجارة. وفي الواقع فإن الفتوحات المغولية استلزمت مذابح مروعة ونهب الكثير من المراكز الحضرية، مثل سمرقند، التي دمرت كلية في سنة 1219. ولم تعد لازدهارها إلا في سنة 1369 عندما أصبحت عاصمة إمبراطورية تيمورلنك، بعد أن أعيد بناؤها على مسافة بعيدة إلى حد ما من المدينة المدمرة. وجُددت بخاري– التي نهبت وحرقت في سنة 1220– بسرعة كافية قبل أن تدمر في سنة 1273 من قبل جيش الايلخان، ومرة أخرى في سنة 1326. وفي سنة 1258، نهب المغول بغداد؛ ولقرون عديدة، أصبحت مجردة من سمعتها كأكبر مدينة في العالم القديم، ولكنها كانت لا تزال ترمز كمقر للخلافة العباسية. إلا أن بغداد تعافت من نهب سنة 1258 ببطء قبل أن تدمر مرة أخرى في سنة 1401 بواسطة تيمورلنك. وتجنبت شيراز Shiraz تدميرها بدفع جزية خلال الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، وظهرت كمدينة في صعوبات في بداية القرن الرابع عشر الميلادي، وإذا وثقنا بالحوليين فقد

فقدت مائة ألف نسمة بين سنتي 1284 و1287، ثم عشرات الألوف من الأهالي خلال وباء سنة 1299 [5].

ويتغاير التدمير المتصل بفتوحات المغول مع حماية المواصلات على طول الطريق القاري الذي يربط بكين بعالم البحر المتوسط عبر آسيا الوسطى، واستمر ذلك حتى حوالي سنة 1340، لحظة تقسيم الإمبراطورية المغولية ونهاية السلام المغولي Pax Mongolica الذي حمى تلك التجارة، وأجبر التجار الغربيون على العودة لطرق مصر وسوريا[6]. ونمت مدينة تبريز تحت هذا الطريق القاري؛ حيث اكتسبت منزلة العاصمة في سنة 1265 خلال حكم الإيلخانات، ووصلت أوجها خلال حكم غازان (1295- 1304)، الذي بنى حائطًا حول الحدائق والضواحي، وضريحًا متوجًا بقبة، وجامعًا، وتكية، ومكتبة، ومرصدًا فلكيًّا، وصهريج مياه، ومدرستين، وعدة حمامات [7].

وفي بداية القرن الرابع عشر الميلادي، كان ازدهار الشكل العمراني العام للمنطقة الشرقية نتيجة لظهور المماليك الذين استولوا على السلطة في مصر سنة 1250، وطردوا المغول من سوريا في سنة 1260، ووضعوا نهاية لآخر بقايا دول الشرق اللاتيني بغزو عكا في سنة 1291. ووفقًا لابن خلدون، فقد أصبحت القاهرة تحت سيطرتهم "مدينة ضخمة، ومسكونة أكثر من غيرها [...]؛ ونحن نسمع القصص الأكثر روعة عن ترف وغنى سكانها" [8]. ومع وجود حوالي مائتي ألف من السكان في بداية القرن الرابع عشر الميلادي: شهدت القاهرة خلال حكم المماليك فترة من التوسع بنمو المدينة تجاه الشمال، والجنوب، والغرب، وبناء الكثير من المباني، والأضرحة والمدارس بوجه خاص، وبالقصور والمنشآت التجارية أيضا [9]. وخلال حكم المماليك واصلت مدينة الإسكندرية الساحلية الاستفادة من موقعها كمفترق طرق بين البحر المتوسط والبحر الأحمر؛ وامتلك التجار الأجانب فنادق حيث أتى التجار المسلمون- الكارمية- لتخزين التوابل.

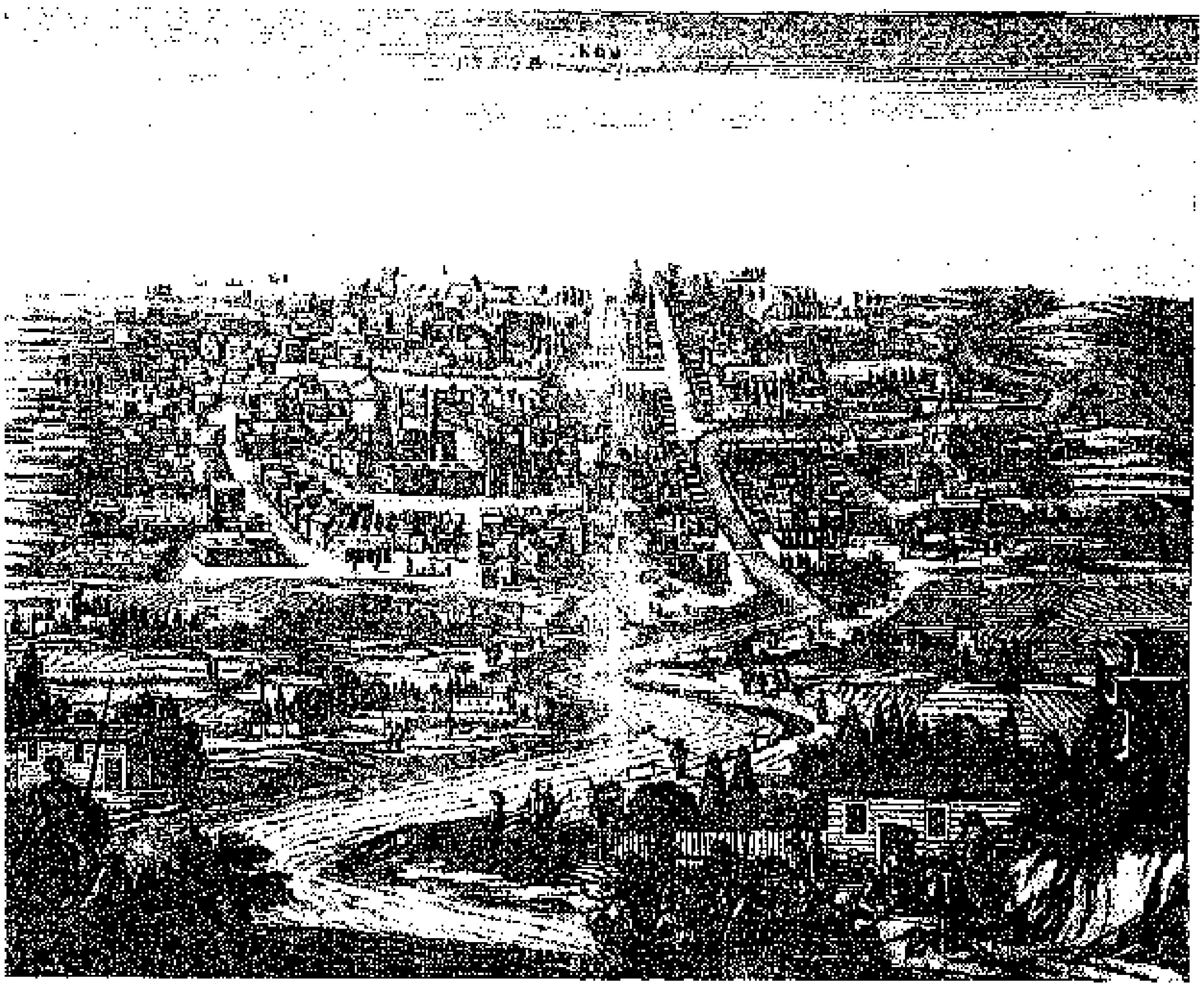

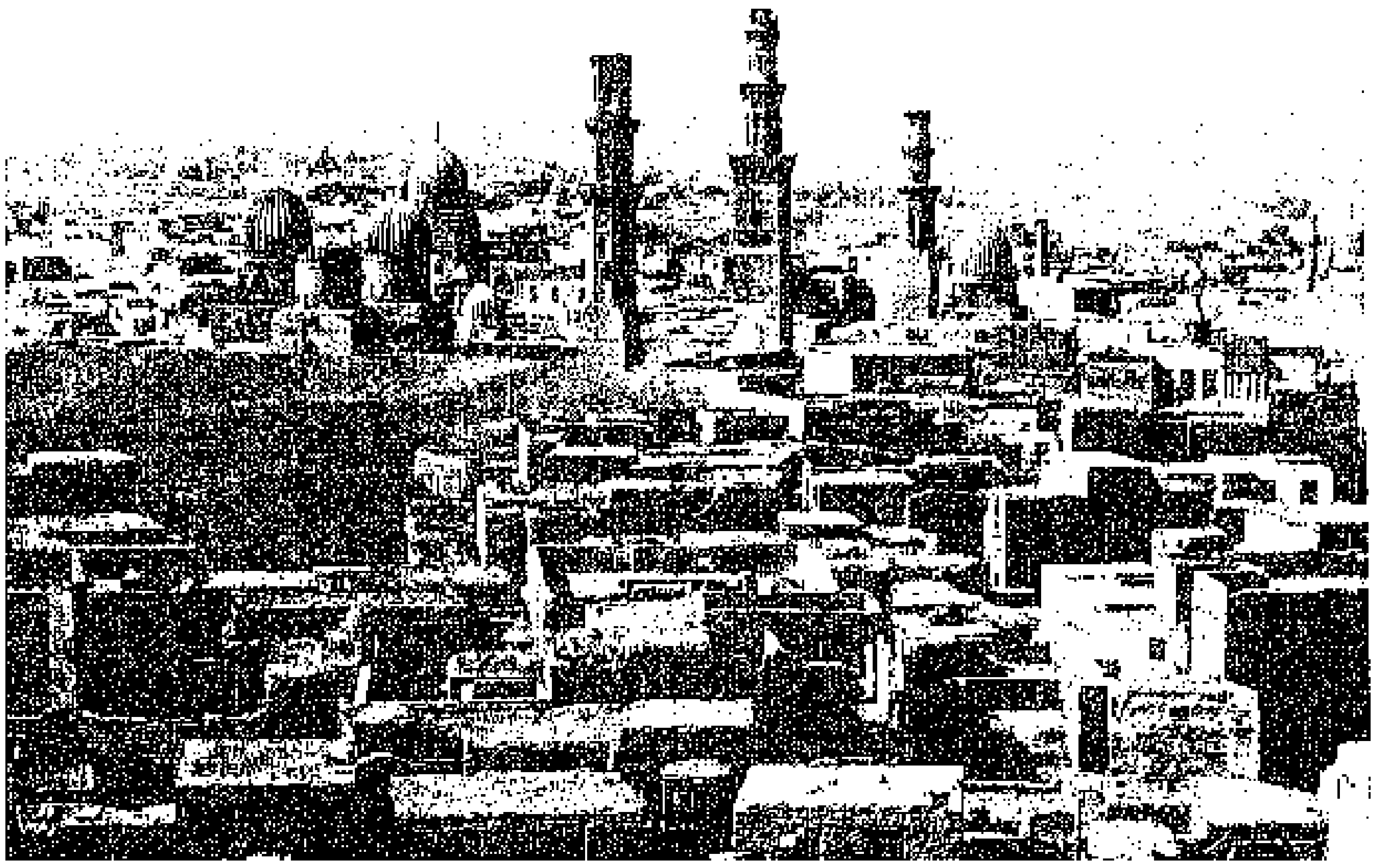

أعلى مشهد لمدينة قم، نقش من La Galerie agreable du monde، ل.ب. فان دير 1700-1730.. المكتبة الوطنية- مدريد.
أسفل، القاهرة، قبور السلاطين المماليك.

ونافست القاهرة المدن الأخرى في سلطنة المماليك بضخامتها؛ كحلب التي ضمت مابين خمسين ألفًا، وخمسة وثمانين ألفًا من السكان قبل نهب المغول لها في سنة 1260، قبل أن تستعيد أهميتها في القرن الخامس عشر الميلادي عندما انحرف طريق إيران من تبريز ليمر عبر أنطاكية. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، حمت دمشق الإيرانيين والعراقيين الذين هربوا من هجوم المغول وضمت ما بين سبعين ألفًا، وتسعين ألف مواطن[10].

ثم سارت دمشق على نفس خطوات حلب؛ فقد دمرت في سنة 1260، واستعادت النشاط التجاري الكثيف في القرن الخامس عشر الميلادي فقط. وإلى حد أبعد شرقا، بلغت قونية Konya

5 A.K. Lambton, "Shiraz", *EI*, IX, 491-497
6 C. Lemercier-Quelquejay, *La Paix mongole*, Paris, 1970.
7 V. Minorsky [C.E. Bosworth], "Tabriz", EI, X, 50-42.
8 Ibn Khaldun, *Discours*..., p. 574
9 A. Raymond, *Le Caire*, Paris, 1933

القسطنطينية في نقش على الخشب من Liber Chronicarum لـ هارتمان شلبديل Hartman Schledel، سنة 1493

أوجها في القرن الثالث عشر الميلادي، وتضاعفت مبانيها الدينية والتجارية؛ وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي بدأ ازدهار المدينة في الأفول مع ترسيخ الوصاية المغولية، عندما أصبح الإيلخانيون الحكام الرئيسيين للأناضول من سنة 1307[11].

وفي شرق البحر المتوسط، كانت القسطنطينية المدينة الوحيدة القادرة على المنافسة مع القاهرة. ووفقاً لـ "أ. ديموند" ربما نُسب للقسطنطينية سكان كثيرون كالقاهرة في العقود الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي. وبالتأكيد، وبعد الحرق والسب الذي ارتكبه الغربيون في سنة 1204 في زمن الحملة الصليبية الرابعة، وعلى الرغم من جهود الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس Michael VIII Paleologus لجذب سكان جدد منذ سنة 1261، فإن المليون نسمة التي أُفترض أن القسطنطينية كانت تضمهم في القرن الرابع عشر الميلادي، لم يصبحوا أكثر من ذكرى بعيدة. وفي القرن الرابع عشر الميلادي وعندما تزامن التهديد العثماني مع الحروب الأهلية أصبح حرمان البلاد من سكانها أكثر وضوحاً.

10 A. - M. Eddé, "Alep", *Grands villes mediterranéennes du monde musulman médiéval*, J.-Cl. Garcin (dir.), Rome, 2000, pp. 157-175; T. Bianquis, "Damas", ibid., pp. 37-55.

11 C. Cahen, "Konya", *EI*, V, 251-252

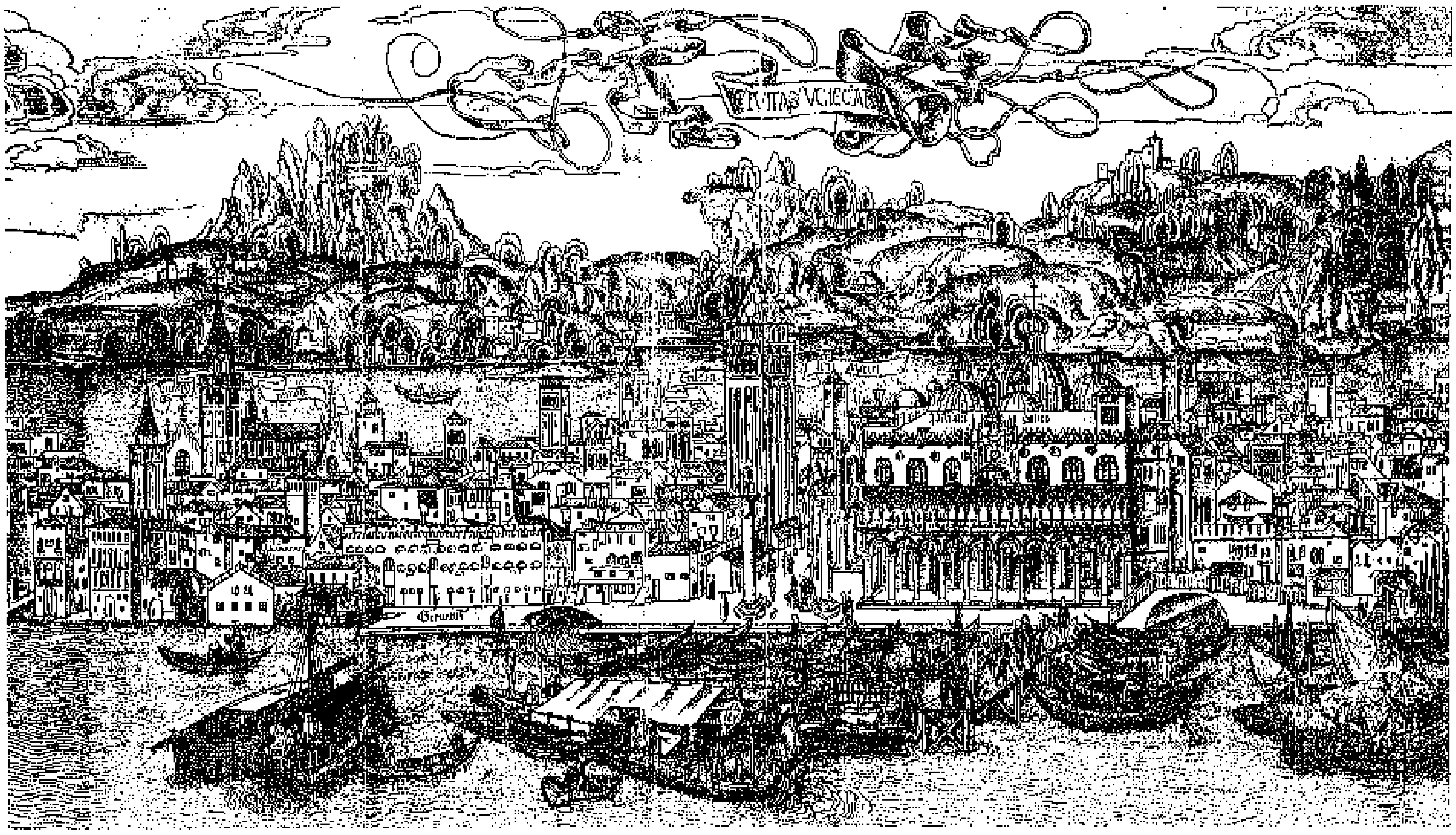

منظر للبندقية، سنة 1486 نقش على الخشب لإرهارد رويخ Erhard Reuwich ، المكتبة الوطنية، باريس.

وضمت القسطنطينية ستًا وثلاثين ألف نسمة فقط في سنة 1453. ومع ذلك لعبت دورًا جوهريًا في توزيع سلع المناطق التجارية في شرق البحر المتوسط؛ فحوالي سنة 1300، هيمنت جنوة – بالتحالف مع الإمبراطور– على آسيا الصغرى والبحر الأسود، أعني أسواق طرق آسيا الوسطى مع مراكزها التجارية في كافا Kaffa، وطرابيزون، وطانا Tana؛ وذهب سوق الطرق الهندية ومصر إلى البندقية، منافس جنوة[12]. وهذا لأن طريق التجارة كان مهيمنًا عليه من دول الجانب الشمالي للبحر المتوسط في بداية القرن الرابع عشر الميلادي.

منطقة شمال البحر المتوسط

أدرك ابن خلدون أن المنطقة الغنية في زمنه كانت وراء مضيق جبل طارق، حيث أتى التجار المسيحيون في طريقهم للمغرب. ولقد اندفعوا أفواجًا إلى المراكز المدنية الكثيرة الموجودة في منطقة شمال البحر المتوسط، ففي بداية القرن الرابع عشر الميلادي، وضعت أوروبا اللمسات الأخيرة لمشروع تمدن هائل هو أعظم ما عرفته أوروبا قبل القرن التاسع عشر الميلادي، وبرغم أن غالبية المدن بقيت متوسطة في عدد سكانها فقد تجاوزت بعض المدن مثل باريس، وميلانو، وفلورنسا، والبندقية وجنوة المائة ألف نسمة[13]. وكانت تلك المدن متناثرة بشكل غير متساو فوق القارة الأوروبية، وكانت هناك منطقتان متمايزتان بشكل خاص: شمال إيطاليا، والفلاندرز، وتميزت كل منهما بدينامية تجارية[14].

برشلونة وميناؤها، تفصيل لرسم من الثلث الثاني للقرن السادس عشر الميلادي.

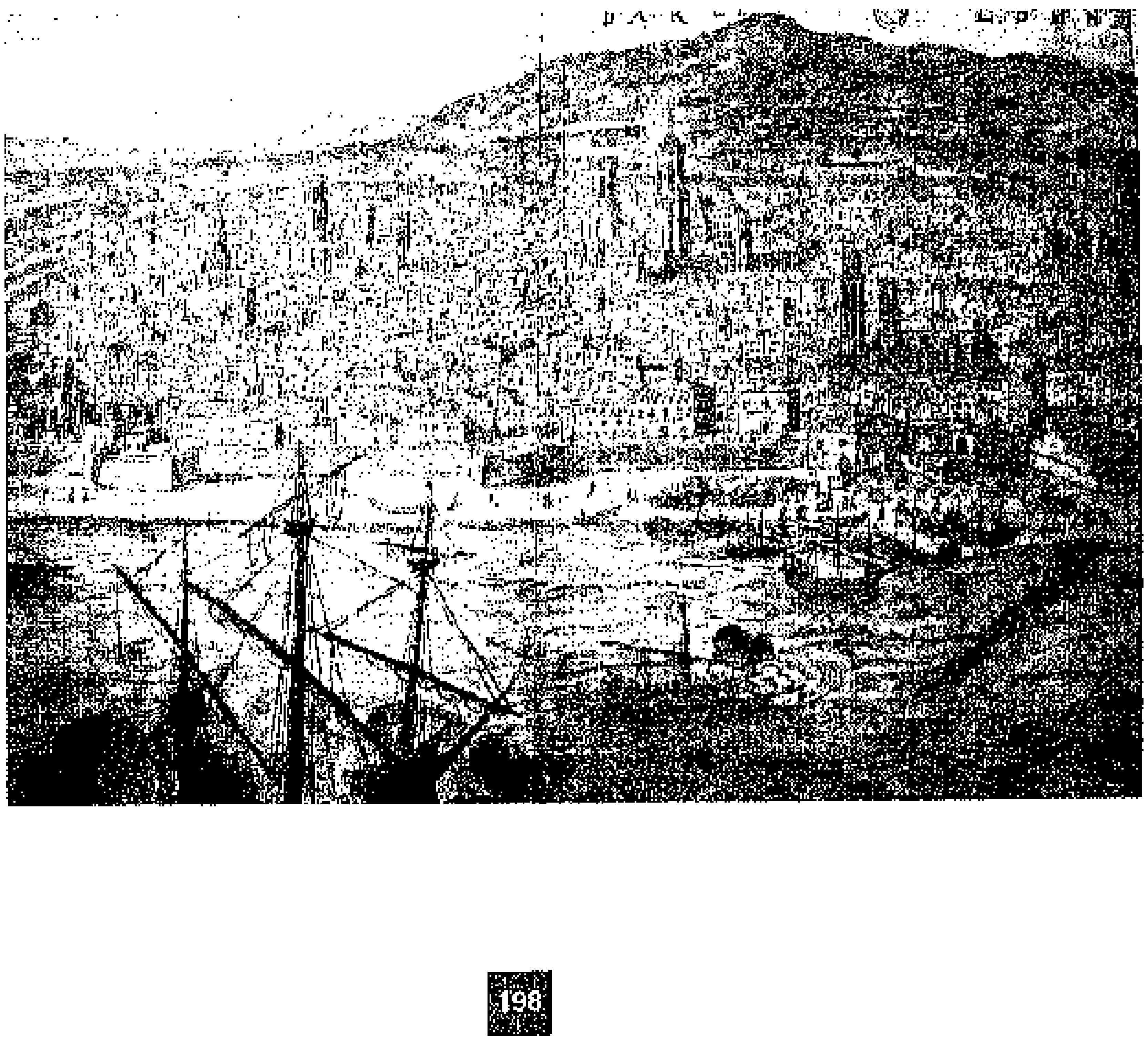

وحازت شمال إيطاليا أربع مدن رئيسية (البندقية، وجنوة، وميلان، وفلورنسا)

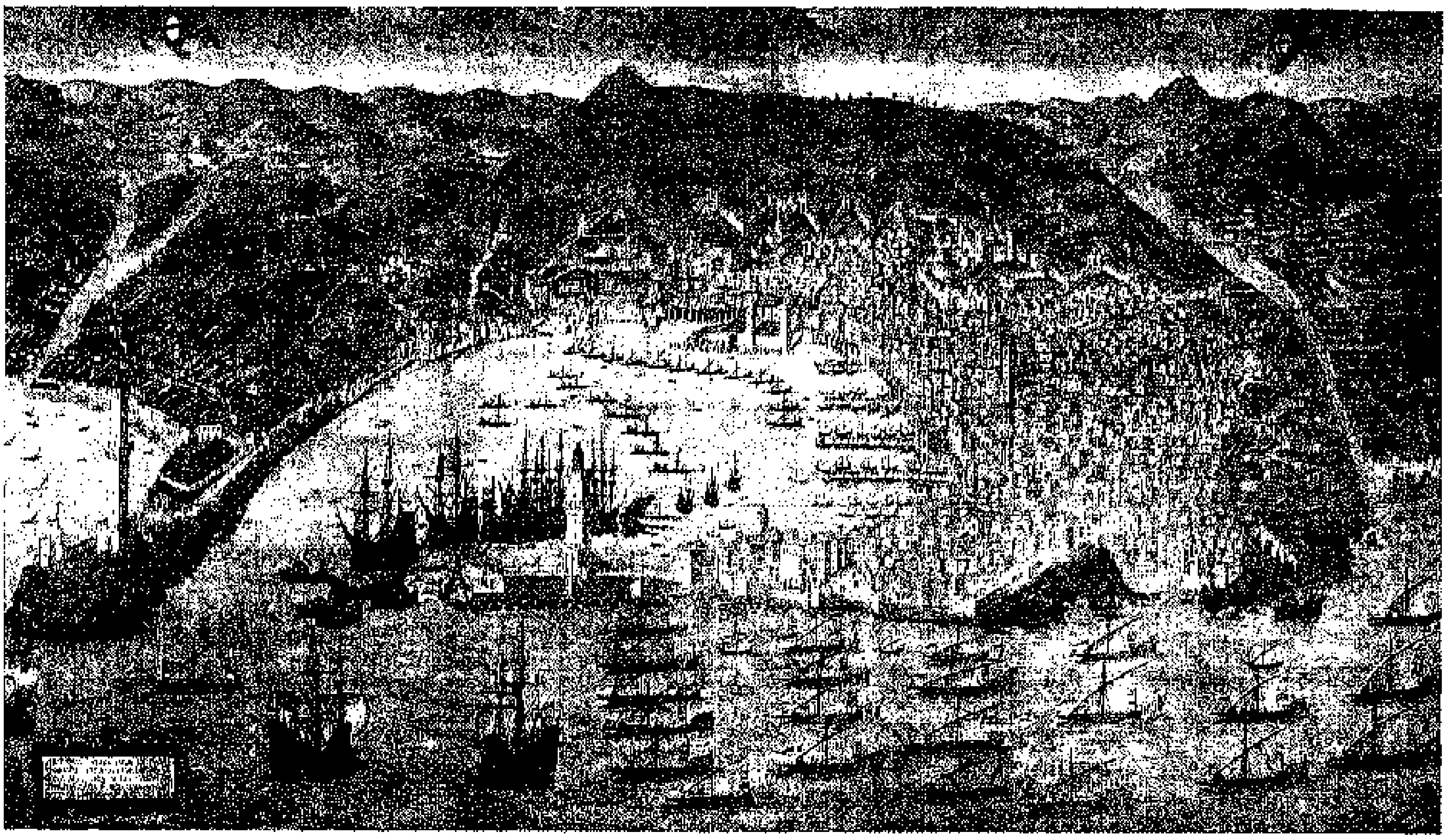

مشهد لجنوة لكريستوفورو جراسي Cristoforo Grassi، سنة 1481، المتحف البحري، جنوة.

واشتملت على أكثر من نصف المائة وخمسين مدينة على أكثر من عشرة آلاف نسمة: بيزا، وميينا، وكريميا Crimea، وفيرونا، وبريشا Brescia، وبولونيا، وروما، ونابولي، وباليرمو (من أربعين ألفا إلى خمسين ألف نسمة)؛ مانتوا Mantua، وبياشنزا Piacenza، ولوكا Lucca، وأنكونا Ancona، وبيروجا Perugia، وميسينا، وأريزو Arezzo، وبافيا Pavia، وبارما، وبادوا Padua (من عشرين ألفا إلى أربعين ألفًا)[15]. وإذا كان نجاح ميلانو ناشئا عن وظيفتها كعاصمة إقليمية تحكم بواسطة أسرة فيسكونتي Visconti، وكان النمو الكبير للمدن الإيطالية الثلاث الكبرى الأخرى مرتبطا بموقعها في مركز التجارة مع منطقة شرق البحر المتوسط. فقد تاجر الايطاليون في توابل شرق البحر المتوسط Levant، والحرير والقطن المحولة بواسطة الصناعات الإيطالية، كالدمشقي، والموصلي، والشيفون، والغزى ... وتميز القرن الرابع عشر بذروة شبكة وكالة التجارة الجنوية، التي توطدت من كافا Kafa حتى بروج Bruges ومرت عبر فاماجوستا Famagusta، وخيوس Chios، وإشبيلية أو لشبونة[16].

وكان المركز الفلمنكي، بمدن النسيج الصوفي المفتوحة على البحار الشمالية– مهيمنا عليه من جنت Ghent (خمسون ألف نسمة، وستمائة وأربعة وأربعون هكتار في بداية القرن الرابع عشر الميلادي)، وبروج وإيبرا Ypres (من ثلاثين إلى أربعين ألف نسمة) وأراس Arras (عشرة آلاف نسمة). وتقدم تجار جنت وأراس وبروج طرق التجارة بالنسبة للأنسجة الصوفية، وتوجهت جنت إلى بلدان الإمبراطورية، وأراس إلى الجنوب، وبروج إلى إنجلترا حيث كانت أهم مصدر للصوف. وفي بداية القرن الرابع عشر الميلادي، أصبحت بروج المركز الرئيسي للتجارة الدولية الغربية والمحور التجاري لشمال أوروبا ولكل التجارة الآتية من إيطاليا والشرق، وكان للتجار – الذين أتوا من أربع عشرة أمة– قنصلية، بينما أصبح التجار البورجوازيون مقيمين بشكل دائم، وأصبحت الغالبية العظمى منهم وسطاء[17].

وتضمنت المملكة الفرنسية التي حُكمت من العاصمة الباريسية وسكانها المائة ألف، بالإضافة لذلك ثماني عشرة مدينة يزيد عدد سكان كل منها على العشرة آلاف: مثل بوردو، وروون Rouen ، وتولوز (من ثلاثين ألفا إلى أربعين ألف نسمة) ومتز Metz، وتور Tours، وأورليون Orleans، وأنجيه Angers، وريم Reims، وكان Caen، ومونبلييه، وليموج Limogee، وناربون Narbonne، ولاروشيل La Rochelle، وآفينيون Avignon، وبايون Bayonne، ومارسيليا، وبواتييه Poitiers.

12 D. Coulon, "L'expansion occidentale vers le Levant à la fin du Moyan Age: la mise en place de structures de domination commercial", *L'expansion occidentale* (XIe-Xve siècles): forms et conséquences, XXIII congrès de la S.H.M.E.S.P, Paris, 2003, pp.159-175 and "Comercio y navegación occidentals hacia el Levante mediterraneo (siglos XIII-XV) *"Mediterraneum, El esplendor del Mediterráneo médièval, ss. XIII-XV*, J.Alemany et al. (eds), Barcelona, 2004, pp. 289 -307.

13 P. Bairoch, J. Batou and. Chèvre, *la population des villes européennes de 800 á 1850*, Genoa, 1998, J-L. Pinol (dir.), Histoire de l'Europe urbaine, vol.I: De l'Antiquité au XVIle Siècle, Paris, 2003.

14 J. Heers, *L'Occident aux XIVe et XVe siècles, Aspects économiques et sociaux*, Paris, 1990.

15 M. Ginatempo and L. Sandri, L'*italia delle città, il popolamento urbano tra Medioevo e Rinascimento (secoli XIII-XVI)*, Florence,1990.

16 M. Balard, *La Romanie génoise (XIIe-début du XVe siècle)*, Genoa-Rome, 1978.

17 G. Fourquin, *Histoire economique de l'Occident médiéval*, Paris, 1979.

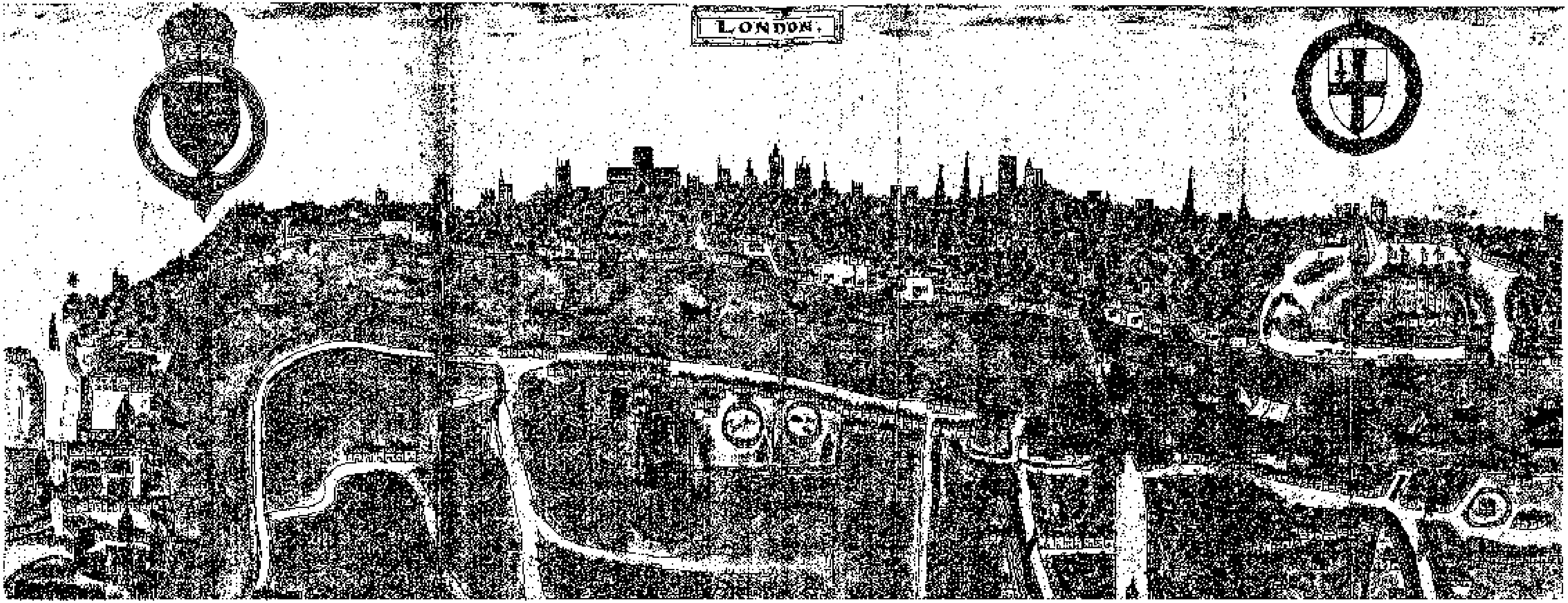

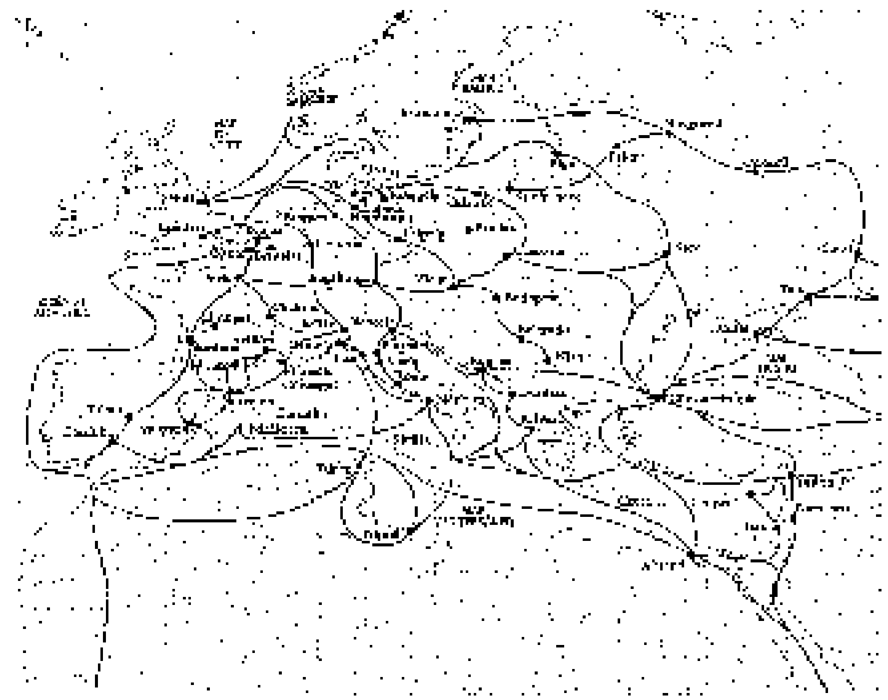

وفي الامبراطورية الألمانية، وفي سنة 1287، نشأت الوحدة الهانسية تكونها لوبك Lubec وهامبورج، وازدهرت المدن الهانسية في القرن الرابع عشر الميلادي. ولقد شملت بحر الشمال والبحر البلطي، وقادت تجارة هامة من نوفجورد Novgord حتى لندن[18]، وكانت لوبيك Lubeck التي تأسست على البحر البلطي في سنة 1143 السلطة العليا في العصبة الهانسية من سنة 1293، وواحدة من أهم الأقطاب الاقتصادية في ألمانيا، وكان سكانها حوالي خمسة عشر ألف يعيشون على مائة وثلاثة عشر هيكتاراً، وتطورت، خلال العصور الوسطى، مدينة كولونيا الرومانية إلى مدينة ذات أربعمائة هكتار تضمن نشاطات المهنة، وكان عدد سكانها الذين أرخوا ما بين ثلاثين ألفاً إلى أربعين ألفاً بسبب تجارتها. وأخيراً أصبحت هامبورج بسكانها خمسة آلاف نظيراً أكثر تواضعاً من المدن السابقة في بداية القرن الرابع عشر الميلادي.

وفي وسط أوروبا، تصنفت البنية الحضرية فقط مراكز اقليمية متواضعة مثل براغ، وبراندنبورج Brandenburg، وريجا Riga، وكراكو Krakow، بينما كان الجانب الشرقي لأوروبا محتكراً من مدينتين: نوفجورد Novgord التي كانت محاطة بسور يضم مائتي هيكتارة، وموسكو المدينة الصغيرة ذات الخمسة هيكتارات في القرن الثاني عشر الميلادي، التي دمرها التتار في سنة 1238، والتي بدأ نموها الرئيسي في القرن الرابع عشر الميلادي. ومن ناحية أخرى لم تستعد كييف التي بعثت ثروتها في القرن الحادي عشر الميلادي، واشتملت على مائة ألف نسمة، ومائتين وثلاثين هكتاراً، وحدة دخلها بعد تدميرها سنة 1240[19].

وكانت إنجلترا أقل تحضراً من فلاندر، وربما عدت لندن أكبر مدينة، أربعين ألف نسمة على خلاف بريستول Bristol، ونورويش Norich، ويورك York التي تجاوزت مجموعة عشرة آلاف نسمة. وكان موقف مدنها في إيرلندا، حيث كانت كورك Cork، وجالواي Galway، وليمريك Limerick مدناً أقل أهمية بالمقارنة مع دبلن بسكانها العشرة الآلاف.

وكانت شبه الجزيرة الإيبيرية حسنة ولكن متفاوتة التمدين اعتماداً على الأقاليم، فقد أحصت غرناطة بسكانها الخمسين ألفاً ومساحتها المائة وثمانين هيكتاراً كطابع مدينة كبرى، وتبعها برشلونة (أربعون ألف نسمة وستة هيكتار) التي أثبتت نفسها كمدينة متوسطية[20]، وحلوب إشبيلية خمسة وعشرين ألف نسمة، وحارات المرية ومالقة وقرطبة، وبلنسية،

رسم سيباستيان مونستر والألوان المدنية: سنة 1588: المكتبة البريطانية، لندن.

في الواجهة الصفحة الرئيسية: الطرق التجارية خلال القرن الرابع عشر الميلادي

18 Ph. Dollinger, La Hanse (XIIe-XVIIe siècles), Paris, 1964.

19 J. F. Aldignac, "Kiev", "Moscou", "Novgorod", Dictionnaire du Moyen Âge, C. Gauvard, A. de Libera and M. Zink (dir.) Paris, 2002.

20 R. Arié, L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492), Paris, 1973 (reed. 1990); A. Duran, Barcelona 1973.

منظر لمدينة جنت، في خلفية ومقدمة الصورة مشهد يصور المواجهة بين ميليشيا جنت بقيادة فيليب فان أرتفيلد Philip van Artevelde وجيش بروج التي حدثت في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي.

في الصفحة المقابلة، أعلى، تلمسان، صورة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. أسفل، مدينة فاس.

ومرسية حوالي خمسة عشر ألفا، وضمت طليطلة، وبلد الوليد Valladolid أقل من خمسة وعشرين ألف نسمة؛ واشتملت سرقسطة، وبرغش؛ وبامبلونة Pamplona، وتطيلة Tudela على حوالي عشرة آلاف نسمة. وكانت مملكة بني نصر واحدة من أكثر المناطق تحضرًا في شبه الجزيرة الإيبيرية، وذات تراث بعيد عن الأندلس المبكرة، وأكثر وأكثف تمدينًا بالمقارنة مع الممالك الشمالية، والتراث الأكثر حداثة لاستبدال الحدود لجنوب شبه الجزيرة الإيبيرية حيث كان المسلمون قد تراجعوا نحو الساحل[21] وفقا لابن خلدون. وبالإضافة للمدن الثلاثة الكبرى للمملكة– غرناطة وألمرية ومالقة – كانت هناك مدن أقل أهمية مثل رندة، وأنتقيرة، ولوشة، ووادي آش، وباسة، والمنكب، وجبل طارق التي ناضلت بضرواة من قبل النصريين والقشتاليين والمرينيين في بداية القرن الرابع عشر الميلادي[22]. وكانت الجزيرة الخضراء تحت حكم المرينيين الذين وصلوا إلى مضاعفة حجم المدينة بتأسيس مدينة جديدة بجوارها تسمى– البنية al-Binya– عاصمة لأقاليمهم في شبه الجزيرة؛ وشهدت تلك المدينة زمنًا من المجد لا نظير له، كما يظهر من الآثار التي عثر عليها في السنوات القليلة الأخيرة[23]. ومن الربع الأخير للقرن الثالث عشر الميلادي بدأ التاج الأرغواني في صنع إمبراطورية في البحر المتوسط منهية الاحتكار التجاري الإيطالي في غرب البحر المتوسط، وأفاد النمو بصفة خاصة برشلونة – حيث امتلك التجار منشآت استقبال خاصة، فنادق أو قنصليات، وألمرية، وسبتة، وتلمسان، وتونس، وبجاية، والإسكندرية، ودمشق، إلخ؛ وسبب نمو صناعة نسيج الصوف نمو للتجارة وأصبحت الأنسجة الصوفية القطلونية البضائع الرئيسية للسفن التي غادرت برشلونة نحو مناطق شرق البحر المتوسط[24]. ودانت لشبونة بتوسعها لنمو التجارة، وفي الواقع، فقد كانت مرفأ تتوقف فيه السفن لفترة قصيرة لا يمكن تجنبه على الطريق البحري الذي ربط شمال أوروبا بإيطاليا. ونمت المدن الأخرى لوظائفها الإدارية، فقد استحوذت بلد الوليد على المحكمة الملكية والمستشارية، والبرلمان، والعاهل وهيئاته التشريعية، ولعبت دور العاصمة السياسية[25].

21 .Ibn Khaldun, *Discours…*,op.cit,p.577

22 C. Segura, *Bases socioeconómicas de la población de Almería(siglo XV)*, Madrid, 1979; A.Malpica Cuello, "la vida cotidana", *El reino nazarí de Granda* (1232-1492), *Sociedad, vida y cultura*, M . J. Viguera Molins(dir.), Madrid, 2000, pp.73-156.

23 A. Torremocha, I. Navarro Luengo and J.B. Salado Escaño, *Al-Binya, la ciudad palatina de merinì de Algeciras*, 1999.

24 D.Coulon, "El comericio de Barcelona con Oriente en la baja Edad Media(siglos XIV y XV), *Els Catalans a la Mediterrània orientala l'edat mitjana*, Barcelona, 2003, pp.243-255.

25 A.Rucquoi, *Valladolid au Moyan Âge*, Paris, 1993.

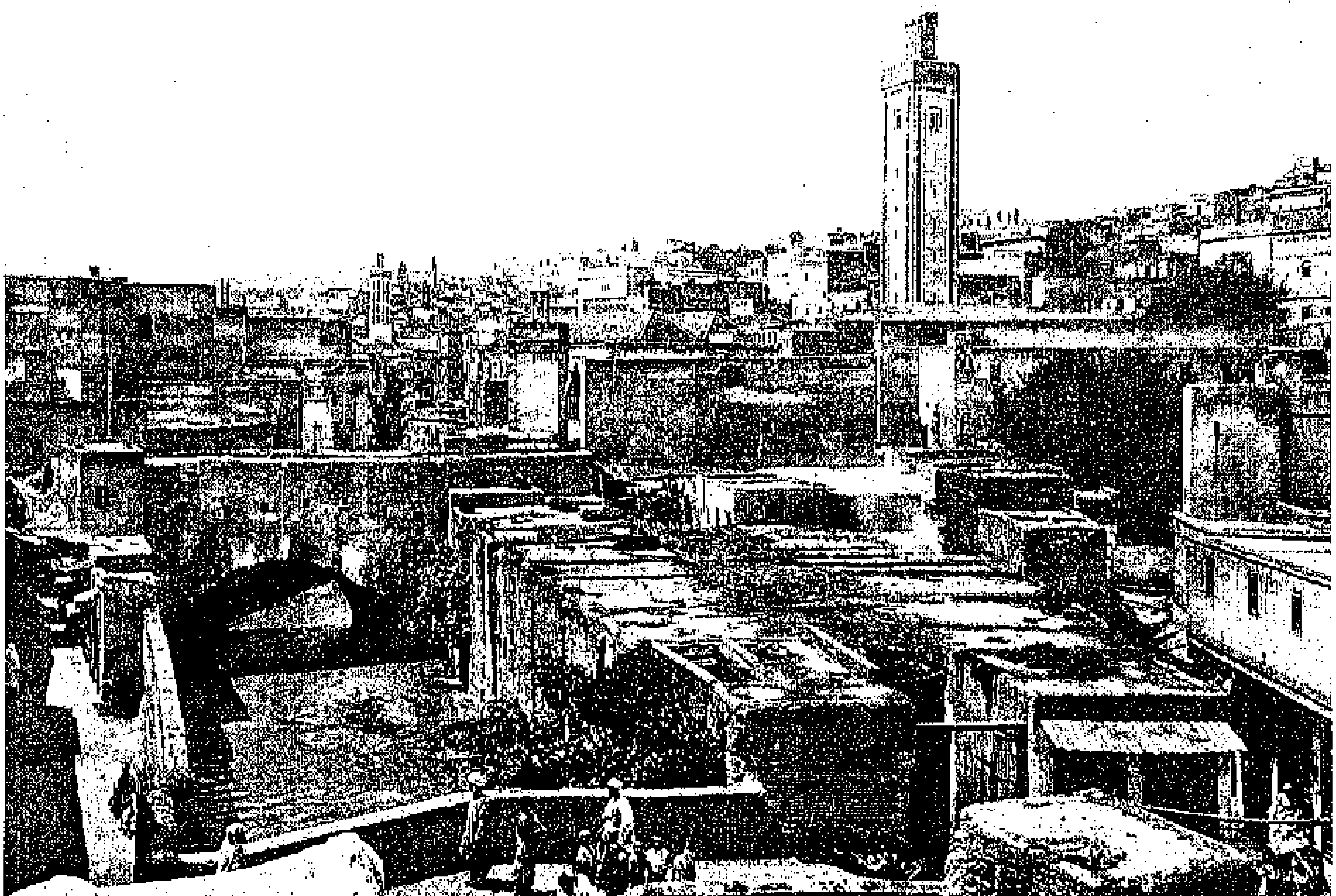

المنطقة الغربية

أسوار مراكش.

الصفحة المقابلة، مخطط بوصلة للبحر المتوسط مرسوم في ميورقة بواسطة ماتيو دو برون Mateo de Prunes في سنة 1563، المتحف البحري، مدريد

حتى ولو أن صفحات تاريخ تمدن الغرب لم تكن مكتوبة – مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي– فإن الأعمال الموجودة تجعلنا نلمح تمدنا متغايرا بقوة مع الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط، فبصرف النظر عن العواصم وبعض المدن الساحلية، كانت المدن نادرة، ووفقا لابن خلدون يمكن تفسير ذلك بوجود البربر الذين كانت لهم حضارة بدوية ولم يكن لديهم اهتمام بالبناء وبدرجة أقل بالمدن، ويضيف أن البربر الذين ارتبطوا بالاتحاد وروابط الدم، لم يحتاجوا المدن التي تكون "نتيجة لتذوق الأمن والهدوء"[26].

ولكن ندرة المدن في المغرب كانت بسبب فترة صعبة شهدها ذلك الإقليم في القرن الرابع عشر الميلادي، والتي كان ابن خلدون مدركًا لها بقوة[27]، فالقلق المتصل بعمق بتحول طرق ذهب السودان، لم يحمل أي علاقة لنزاعات النفوذ التي أدت إلى حصار وانحدار الكثير من المراكز الحضرية التي كانت مزدهرة في الماضي. وكانت تلمسان المشيدة كحصن حربي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، عاصمة عبد الواد الذين ساهموا في تزيينها في القرن الثالث عشر الميلادي. ولقد عانت – فيما بين عامي 1299 و1307 من حصار طويل من المرينيين الذين أنشأوا حصن المنصورة المجاور[28].

وكانت مراكش المؤسسة حوالي سنة 1060، عاصمة المرابطين ثم الموحدين مدينة ضخمة مساحتها ستمائة وخمسين هكتارا في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وسقطت في أيدي المرينيين مرة أخرى بعد عام 1269؛ وبرغم أن بعض السلاطين أقاموا هناك أحيانًا ولم يتجاهلوها كلية، فقد فقدت المدينة رخاءها العظيم ودورها السياسي وأصبحت قليلة السكان[25]. ولاشك أن مجاعة سنة 1005 ثم الهجرة الهلالية في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي التي دمرت ما تبقى من عظمة القيروان التي ضمت مائة ألف نسمة وبلغت مساحتها مائتين وست وخمسين هكتار، وحتى سنة 972، كانت تلك المدينة العاصمة الزاهرة لفاطميين، ولكنها أصبحت مدينة سهب فقيرة وفقا لـ–م. طلبي M.Talbi–، وتعافت جزئيًا فقط من خرابها تحت حكم الموحدين والحفصيين[30]. وبدأ ازدهار سبتة في الانحدار مع نهاية الوحدة الموحدية، وجلب صراع القوة معه ثورات وحصارات، وعندما اعترفت سبتة – بسبب التنافس بين بني نصر وبني مرين– بسلطة الملك الغرناطي في بداية القرن الرابع عشر الميلادي، نهبت المدينة ونفيت طبقاتها المختارة. وعلى الرغم من أن المدينة بقيت مدينة تجارية هامة، فقد سيطرت جنوة وبرشلونة على الأنشطة التجارية فيها[31].

وحوالي سنة 1300 كان للمغرب مدينتان كبيرتان فقط، فاس، وتونس. وأسس الأدارسة فاس، وازدهرت تحت حكم الموحدين، واجتازت نموًّا عظيمًا تحت حكم المرينيين الذين أسسوا بها عاصمتهم وزودوها في سنة 1276 بمدينة ملكية تضمنت قصورًا ومؤسسات إدارية (فاس الجديدة)، بينما بقيت المدينة القديمة مركزًا تجاريًا، ففي القرن الثالث عشر الميلادي كان المسجد الكبير قادرًا على استقبال عشرين ألف مؤمن، وربما ضمت المدينة مائة ألف نسمة أو ما يقرب من ذلك[32].

ونمت تونس، التي أصبحت عاصمة سياسية في سنة 1229، في الفترة الأولى من العظمة الحفصية؛ ففي القرن الثالث عشر الميلادي أحاط حائط ضخم بالمدينة وضواحيها منذ سنة 1317، بمساحة أكبر من مائتي وخمسين هكتارا. واستمر النمو الحضري البطيء للقرن الرابع عشر الميلادي في القرن التالي، فخلال القرن الخامس عشر الميلادي بنيت الكثير من المعالم، وضمت أكثر من مائة ألف نسمة[33]. وحوالي سنة 1300 حازت المغرب بعض الموانئ بصرف النظر عن هاتين العاصمتين؛ كمرافئ بسيطة للتوقف مثل هنين أو أسفي، وموانئ مدن حقيقية مثل الجزائر، وطنجة، والرباط، وسلا أو بجاية[34]. وكانت بقية الشبكة العمرانية محدودة بصفة خاصة باسم واحد، مكناس التي عزاها المرينيون لفترة مجدهم الأولى، والتى زودوها بقلعة وجامع، ونظام تزويد بالماء ومدارس[35]. ورثاء ابن خلدون لقلة سكان مدن المغرب التي أحبها فقط يدوي عاليا: "المغرب مشهودة بحسن مجدها القديم [...] وهي مهجورة تقريبا في كل مكان، باستثناء الساحل والتلال المجاورة"[36].

26 Ibn Khaldun, *Discourse...*, op.cit, pp. 567- 568

27 Y . Lacoste, *Ibn Khaldoun, Naissance de l'histoire, passé du tiers monde*, Paris, 1998, p.85. البداية لتفكيره هي الأزمة التي اجتازها المغرب في القرن الرابع عشر الميلادي.

28 A. Bel-[M. Yalaoui], "Tilimsan", *EI*, X, p. 534 -535: كان هذا المعسكر مقر البلاط المريني من سنة 1335 حتى سنة 1348.

29 H.Triki, "Marrakech, retrato histórico de una metrópolis medieval. Siglos XI-XII, *la arquitectura del islam occidental*, Granada, 1995, pp. 93-106; P.de Cenival, "Marrakush", EI,IV.573-582.

30 M. Sakly, "Kairouan", *Grandes villes méditerranéenes*, pp. 57-85; M. Talbi, "al kayrwan", *EI*, IV, 857-854.

31 H . Ferhat, *sabta des origins au XIVe siècles*, Rabat, 1993 ; M. Chérif , *Ceuta aux époques almohade et mérinide*, Paris, 1996.

32 المؤرخون حذرون جدا في إعطاء أرقام عن تونس . انظر: "حساب التقديرات الكمية" الذي قام به ب . جيشار P.Guichard في المدن الكبرى المتوسطية Grandes villes méditerranéenes صفحات 235– 262 .

33 M.Chapoutot-Remadi, "Tunis", *Grandes villes méditerranéennes...*, pp. 235-262.

34 C.Picar and M.Kervan, "Atlas des ports et des itinéraires maritimes de l'islam médiéval. Présentation du programme de recherche en cours", *XXXVe congrés de la S.H.M.E.S.P.* la Rochelle, 4-6 juin 2004), s.p; D. Valérian, "Le facture économique dans la politique catalane à Bougie (XIIe – XVe s.)" *L'expansion catalana a la Méditerrania a la baixa edat mitjana*, M.T. Ferrer i Mallol and D. Coulon (dirs.), Barcelona, 1999, pp. 145-160.

35 C.Funck-Brentano, "Miknas", EI,VII,35-40.

36 Ibn Khaldun, *Discourse...*, op.cit, p. 581.

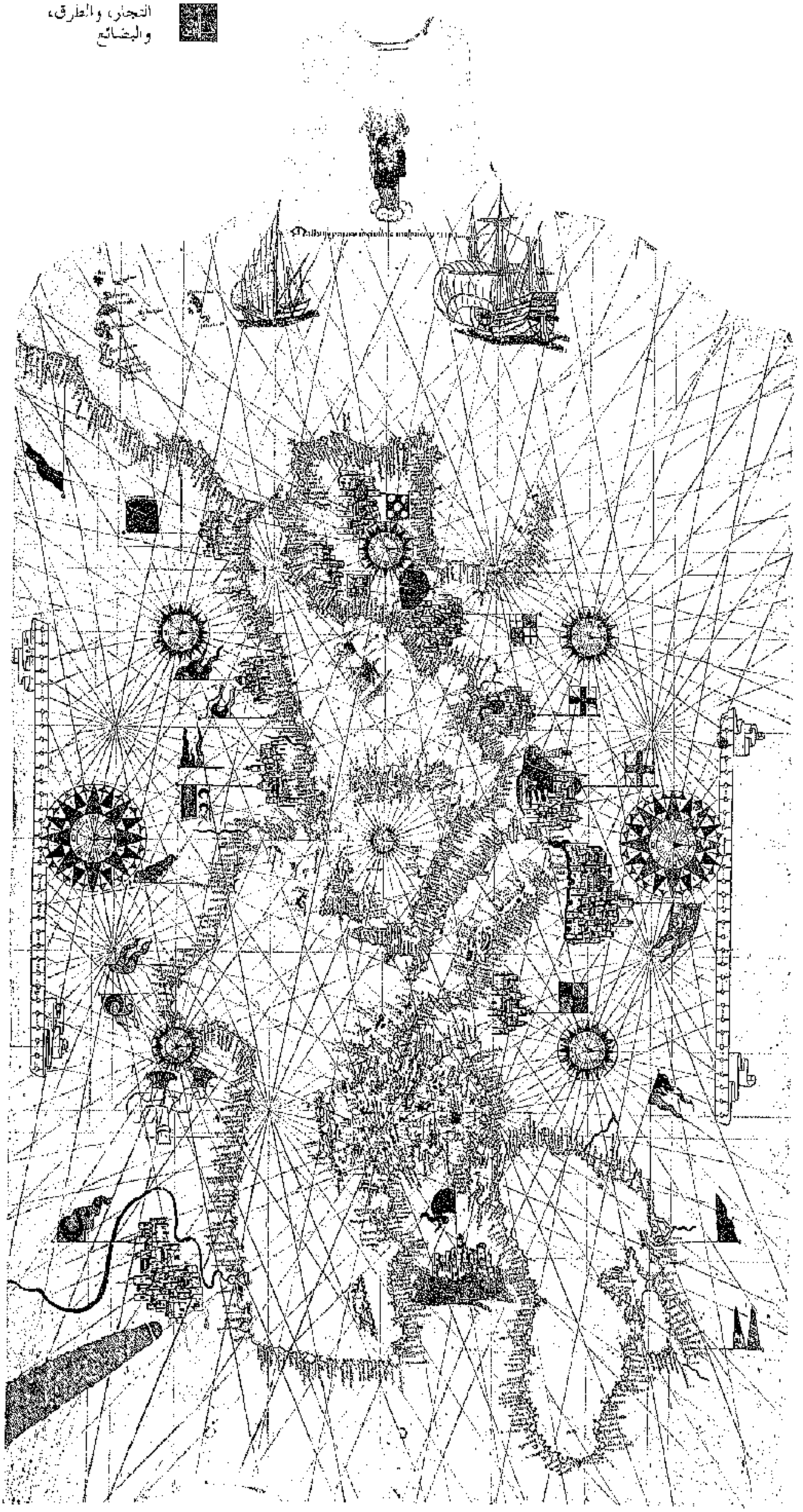

التجارة في العصور الوسطى المتأخرة

خوان ثوثريا
جمعية آثار العصر الوسيط- مدريد
ترجمة لمياء الأيوبي

تمثل العصور الوسطى المتأخرة نقطة اضطراب لأوروبا، ودول البحر المتوسط على حد سواء. قال أحد اللبنانيين ذات مرة، محاولاً تفسير كيف نجحت بلاده في إنتاج وتصدير المنتجات الغذائية في غمار الحرب الأهلية: "سواء أكانوا طرفًا في الحرب الأهلية أو لم يكونوا، يجب على الناس مواصلة حياتهم". وهو ما يمكن أن ينطبق أيضا على حال التجارة خلال هذه الفترة بدءًا من نهاية القرن الثاني عشر بصورة عامة وانتهاء بأواخر العصور الوسطى. لقد اقترنت بداية الحقبة الجديدة بصورة واضحة بأربعة نُذُر: استيلاء الأتراك على القسطنطينية، وغروب شمس الإمبراطورية الرومانية الغربية، وكشف البرتغاليين للمحيط الهندي (وما تلاه من استطلاع شامل دقيق للسواحل الأفريقية) بفضل رحلات كابرال؛ وفتح غرناطة بعدها بأربعين عاما لتُعلن بذلك نهاية النفوذ الإسلامي في أوروبا الغربية؛ واكتشاف مملكة قشتالة لأمريكا. وهكذا كان من الطبيعي أن تشهد أوروبا، والشرق الأدنى والأوسط مجموعة ضخمة من التحولات البنيوية، والاقتصادية، والاجتماعية، ناهيك عن التغيرات السياسية للقوى والانقسامات المتولدة عن الدين والتي غالبًا ما تزال مستمرة حتى يومنا الحالي.

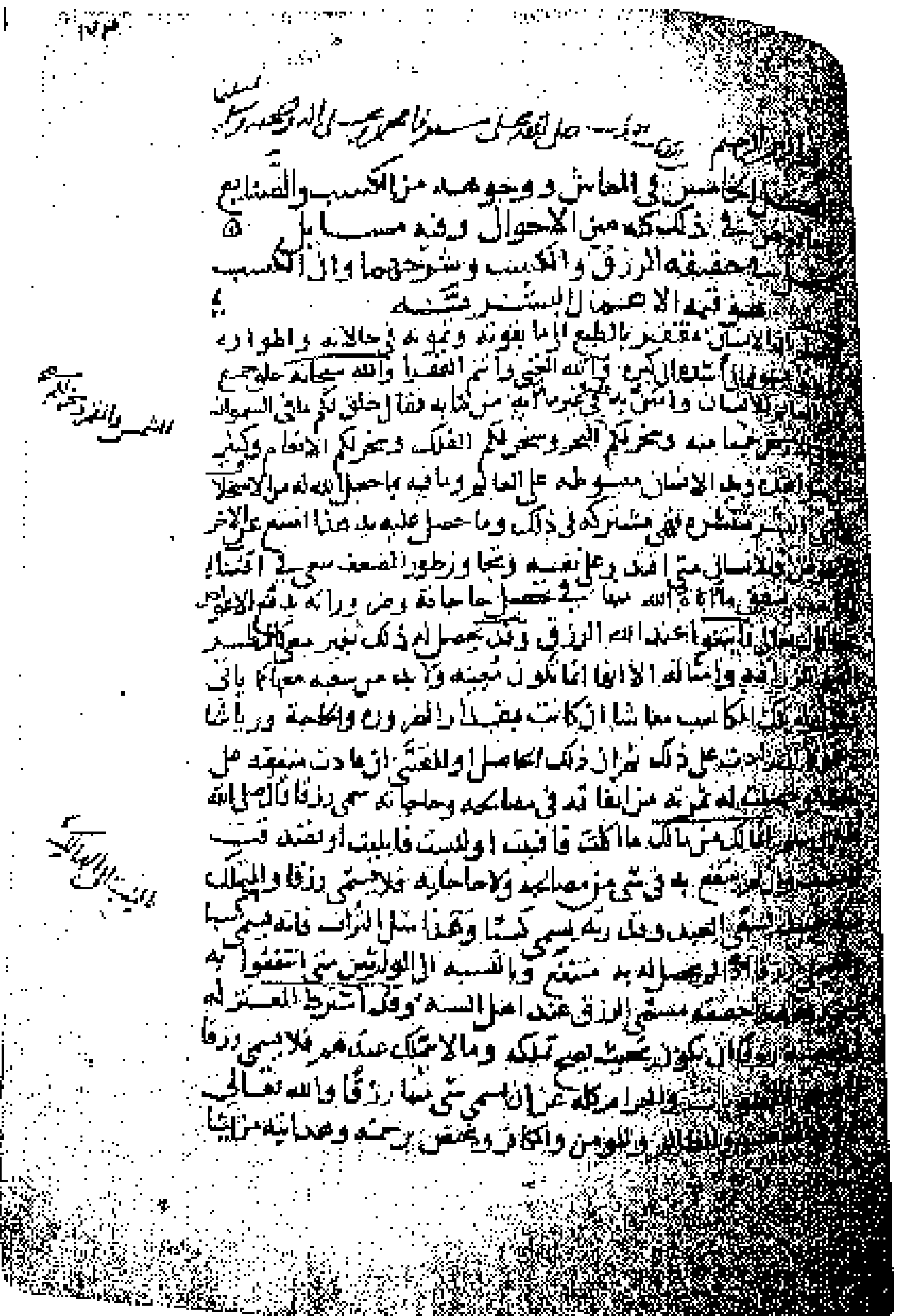

الفصل الخامس من المقدمة، والذي يتناول الطرق المختلفة للمعيشة والصناعات المتعددة خلال أجزائه الاثنين والثلاثين؛ يتناول ابن خلدون القضايا العديدة المتعلقة بالعمل، والتجارة، والحرف، والمهن المختلفة. المقدمة، عاطف أفندي 1936، مكتبة السليمانية، اسطنبول.

لقد كانت حقبة من الصراع القاسي. حيث ورثت العصور الوسطى المتأخرة الجراح التي سببتها الخلافات والصدامات بين المسلمين والمسيحيين في الحملات الصليبية وسقوط الممالك المسيحية في الأراضي المقدسة؛ والانهيار والفوضى الناتجين عن نفوذ السلالة المغربية الحاكمة في الأندلس والتي أدت بدورها إلى خسارة المسلمين لهذه المنطقة؛ والغزو المغولي لبغداد؛ واتساع مملكة البربر؛ والاستعمار التركي لكوسوفو؛ وغزو المغول لفارس والهند؛ وهزيمة الدولة البيزنطية وسقوط القسطنطينية؛ واتساع المملكة النورماندية في صقلية؛ والحروب العديدة بين الممالك والدوقيات في إيطاليا؛ ومحاولات مملكة أراغون لمد مستعمراتها عبر دول غرب البحر المتوسط؛ والتوسع التركي العثماني في منطقة شرق البحر المتوسط باقتراب العصور الوسطى. وقد تزامنت هذه الأحداث مع نمو الإقطاعية داخل ألمانيا وهو ما أدى بدوره إلى ظهور الإمبراطورية الألمانية وامتدادها إلى بروسيا، وصقلية، وبوميرانيا، وبزوغ مركز هنسا التجاري الضخم في أوروبا الشرقية وظهور النظام التيوتوني. وبحلول نهاية القرن الخامس عشر، واصلت بوهيميا الحروب على أتباع جون هاس؛ واستولى ماتثيز كورفينو Matthias Corvino على العرش المجري؛ وظهرت مملكة الفرنجة لتتوغل إلى الجنوب؛ وتأسس النظام الفرنسيسكاني؛ وبدأت الحروب الصليبية ضد الغانوسطيين. وهو ما شكل في مجمله قائمة طويلة من الحروب، وحركات الهجرة، والغزوات، وسقوط وتأسيس الحكومات، العوائق التي قد يواجهها الناس في سعيهم لممارسة حياة طبيعية هادئة.

لقد كان عالم ابن خلدون جزءًا من هذه الفوضى التي أدت بلا شك إلى ظهور هذه التغيرات في التجارة ومجالات النفوذ الهامة اللازمة لشراء التقنيات الجديدة المستخدمة للحصول على المواد الخام، تلك المواد التي كان يتم الاتجار فيها فيما بعد واستبدالها بتلك المنتجات التي ظهرت في أوروبا لأول مرة. ومن ثم فقد كانت رحلة ماركو بولو الاستكشافية للشرق شديدة الأهمية، خاصة فيما يتعلق بدوره في تعريف أوروبا بمجموعة كبيرة ومتنوعة من التوابل، ناهيك عن تطويره لممارسات الطهي الإيطالية اليومية، لتشمل وصفات المكرونة المصنوعة من الدقيق الأبيض -الإسباجيتي spaghetti-، أو wan tun، أو العجائن المطهوة المحشوة باللحم- رافيولي ravioli- وهو ما اعتُبر ثورة في مجال الطهي بالنسبة لإيطاليا في عصره حيث أسهم في تغيير نظام التغذية وإمكانية حصول قطاعات أكبر من السكان على غذاء أفضل. أما المرحلة الثانية

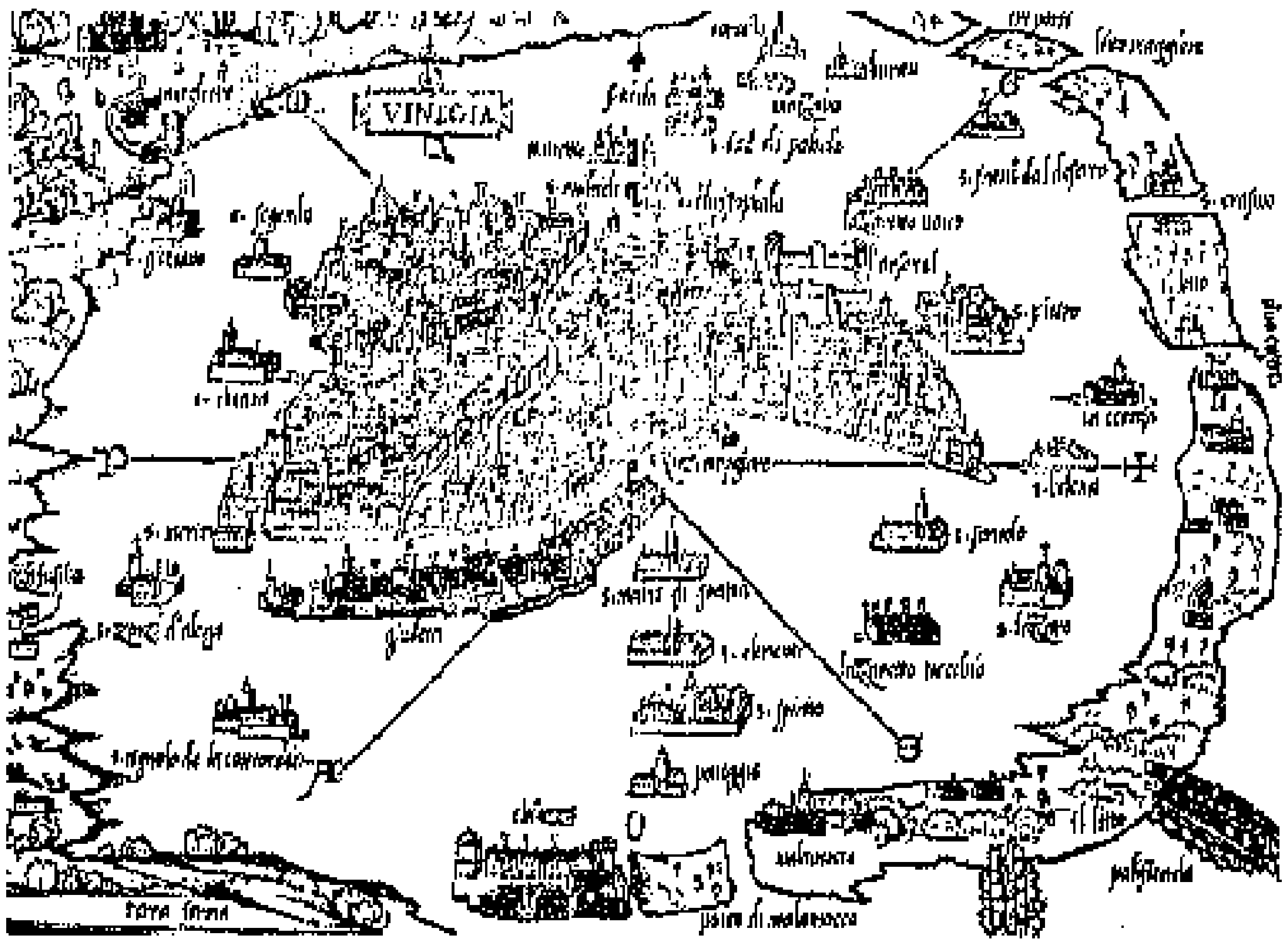

البندقية في Isolario لبينيديتو بوردون Benedetto Bordone، أوائل القرن السادس عشر.

أسفل، سفينة برتغالية في طبق فخاري ذي بريق معدني مستخرج من مالقة يرجع إلى القرن الخامس عشر.

فقد حولت البندقية إلى مركز تجاري ضخم، سوق تجاري كبير لعمليات التبادل الاقتصادي بين الشرق والغرب. ويعتبر احتكار التوابل سببًا لهذه العلاقة كما يفسر النفوذ المالي لهذه الجمهورية الهادئة، ونموها الاقتصادي والثقافي الواضح، ودورها كجامع وموزع لموارد دول البحر المتوسط في ذلك الوقت، وتشابهها وعشقها للشرق وهو ما أدى إلى ظهور بعض من أكثر الأعمال الفنية تميزًا في تاريخ أوروبا.

إن ازدهار هذا الاحتكار التجاري كان في نهاية الأمر سببًا لانهياره، فالرحلات البرتغالية الاستكشافية إلى أفريقيا والهند كانت تسعى إلى القضاء على احتكار البندقية للتوابل. وهو ما يؤدي بنا إلى بعض النواحي والمجالات الأخرى، والتي يجدر التعرف على البعض منها هنا. ودعنا نركز أولا على التطورات التي أسهمت في تغيير نظم الملاحة. حيث شهدا القرنان الثاني عشر والثالث عشر تقريبا ثورة في التقنية المتبعة ونظم تصميم بناء وتشييد السفن. وإذا كانت السفينة الشائع استخدامها في منطقة البحر المتوسط كانت القادس – مركب شراعي ذو مجاديف– والتي كان يتم تشييدها بالأسلوب المتبع لبناء المراكب الشراعية الصغيرة، فإن السفينة المفضل استخدامها في شمال أوروبا كانت السفينة الشراعية المصنوعة من المعدن، والتي كان جسمها المقوس مصممًا لاجتياز الأمواج العاتية. إلا أن كلا النوعين بصورة عامة استخدما شراعًا واحدًا مربع الشكل. وبداية من القرن الثاني عشر امتد وانتشر تأثير الرحلات الأولى التي قام بها البحارة من جنوة إلى أوروبا الشرقية وبدأت السفن في التحسن؛ المقدمة والمؤخرة؛ واستخدام عدة صوار وأشرعة؛ وظهور الشراع المنشور على عود القلع؛ والشراع مثلث الشكل؛ والصاري المزيني لمواجهة العواصف وإحلال أسلوب بناء السفن باستخدام المعدن محل التقنية التقليدية لبناء المراكب الشراعية الصغيرة.... فأصبحت السفن أكثر من مجرد مجموعة من العناصر البسيطة. كما تقدمت نظم الملاحة بالتوازي مع هذا التطور. وكان استخدام البوصلة المغناطيسية، أحد الاختراعات الصينية التي تم تعديلها في إيطاليا، وهو ما يؤكده شيوع استخدام اسم إبرة جنوة Genovese needles لفترة طويلة لوصف هذه البوصلة، نافعا إلى حد كبير. حيث تزامنت مع ظهور الربعية وأداة قياس ارتفاع الأجرام كأدوات داعمة للملاحة الفلكية، والقائم الخلفي، والذي مثل بدوره أحد الاختراعات المتأخرة.

إن العملية التي تم من خلالها تغيير صناعة السفن في أوروبا الشمالية والجنوبية على حد سواء كانت مهمة لأنها كانت تعني تشييد سفن أكبر ذات ثلاثة أشرعة وصوار أفضل. حيث أدت إلى ظهور القائم الخلفي، والتخلي عن الدفة الخلفية غير الثابتة، بالإضافة إلى النظام الجديد الذي يُستخدم فيه الخشب لصناعة جسم السفينة وحافتها العليا، إلى جانب نظام الصابورة أو ثقل الموازنة المسئول عن نقل المياه بين مقدمة ومؤخرة السفينة بما يسمح للسفينة بالملاحة تقريبا عكس اتجاه الرياح دون الحاجة لوجود لوحة مركزية، أحد الاختراعات التي ظهرت فيما بعد. وبالتالي فإن الفترة الزمنية اللازمة لتوجيه السفينة أصبحت أقصر، كما انخفضت تكلفة الرحلة واتسع مجال النشاط. عُرفت هذه الطريقة للبناء باسم تقنية بناء المراكب الشراعية الصغيرة carvel technique، واعتُبر المزج الناجح بين الابتكارات المتعددة والجمع بينها إنجازًا يُحسب للبرتغاليين الذين نجحوا، بالرغم من مساحة أرضهم المحدودة على الحدود الأطلسية لشبه الجزيرة الأيبيرية، في النظر إلى أفق المحيط الواسع. وما لبثت أن أصبحت هذه التغيرات في العمارة البحرية أكثر تسارعا وشهرة، باستثناء السفينة البرتغالية –سفينة شراعية ضخمة– وقد ظلت اختراعات البرتغاليين سرًا حربيًا لفترة طويلة. وقفزت التجارة قفزة مذهلة إلى الأمام. فبداية من القرنين الثاني

زهرية من عصر بني نصر من الفخار ذي البريق المعدني، عُثر عليها في La Cartuja بشريش الفنتيرة، القرن الرابع عشر، المتحف القومي للآثار ، مدريد

عشر والثالث عشر، بدأ نقل أكياس النقود المحكمة، كما تؤكد الوثائق اليهودية التي وجدت بالقاهرة والمعروفة باسم الجنيزة حول البحر المتوسط، إلى باليرمو والتي كانت تقوم بصناعة الحرير لتصديره، وأيضا إلى ألمرية التي كانت تقوم بنسج الحرير حسب طابع باليرمو، ثم تصديرها منافسة إياها في السعر وإن لم يكن في الجودة. كما شرعت البندقية في صناعة وتصدير المنتجات المصنوعة من الكريستال والتي صناعتها من المواد الخام التي تم استيرادها من مصر. وانطلاقًا من نهاية القرن الثالث عشر وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قامت الأندلس بتصدير أدوات المائدة ذات البريق المعدني المصنوعة من الخزف المذهب والتي تم صناعتها في مالقة. وتشير المصادر إلى أن هذه الآنية الفخارية كانت تُنقل عبر البحار بواسطة التجار القطلونيين إلى قطلونية، عن طريق السفن التي تم بناؤها أيضا في قطلونية. ليتم بعد ذلك إرسال الشحنات إلى إيطاليا ودول شرق البحر المتوسط من خلال جنوه وأحيانا البندقية وأيضا إلى بعض الأماكن الأخرى البعيدة مثل الفسطاط، والقاهرة وبغداد، وفقًا للبيانات الموجودة. وانطلق التجار البرتغاليون حتى شمال الأطلسي في اتجاه إنجلترا، وكان النمساويون وسكان ألمانيا الشرقية يقومون بنقل تلك الشحنة من هناك إلى البحر البلطي، كما تشير بعض الاكتشافات في السويد، حيث وصلت مثل هذه الأواني إلى أماكن بعيدة مثل موسكو. ويذكر بهذه المناسبة صورة طيفور السفينة المشهور وهو طبق من السيراميك يحمل بوضوح السفينة الشراعية البرتغالية ذات الخمس دوائر المميزة على شراعها. وقد وُصفت السفينة بتفصيل شديد، حيث رُسم الرسم المقطعي للدعامات على أجزاء مختلفة من جسم السفينة؛ لتأمينها ضد عمليات المراقبة والجاسوسية. ففي مالقة لم يجد الحمالون سهولة في الوصول إلى مؤخرة السفينة لدرجة أنهم كانوا قادرين على رؤية أو فهم نظام ثقل الموازنة، بما يسمح لها بالمرور بمحاذاة الرياح بشكل جيد جداً.

من المؤكد أن تجارة السيراميك كانت مربحة جداً حتى أن حاكم مملكة أراغون كان يرى أن إحدى الطرق التي يمكن اتباعها لتحجيم هذا التفوق الاقتصادي لمالقة هو تقليده. وقد جاء هذا إثر المبادرة التي قام بها ماركيز بويل سفير أراغون السابق عند مملكة بني نصر. حيث أبدى هذا النبيل البلنسي تقديره للأهمية التي منحتها مالقة لهذه الآنية والتي كان يتم صنعها تحت رعاية الجيش. كما لاحظ أيضا أنها كانت تلاقي رواجًا تجاريًا، ومن ثم فقد قرر أن يقوم بسرقة بعض من عاملي الخزف بمالقة وصناعة بعض المنتجات المصنوعة من السيراميك في تلك الأراضي الخاصة به في باترنا Paterna ومانيسيز Manises. ومن أجل ضمان حصوله على الدعم الملكي، فقد طلب الحصول على حقوق كاملة لصناعتها في مقابل منح مملكة أراغون حق نقل البضائع عن طريق ميناء برشلونة، لتتوجه الـleznas أو الرسوم الجمركية بنجاح إلى الخزائن الملكية. وكانت الجودة التي تتسم بها هذه الآنية، خاصة في المراحل الأولى، مماثلة لتلك الجودة المميزة لبضائع مالقة؛ بل وكانت يصعب

نسيج مصنوع من الحرير والذهب صُنع في غرناطة، في القرن الرابع عشر، مؤسسة لازارو جالديانو، مدريد

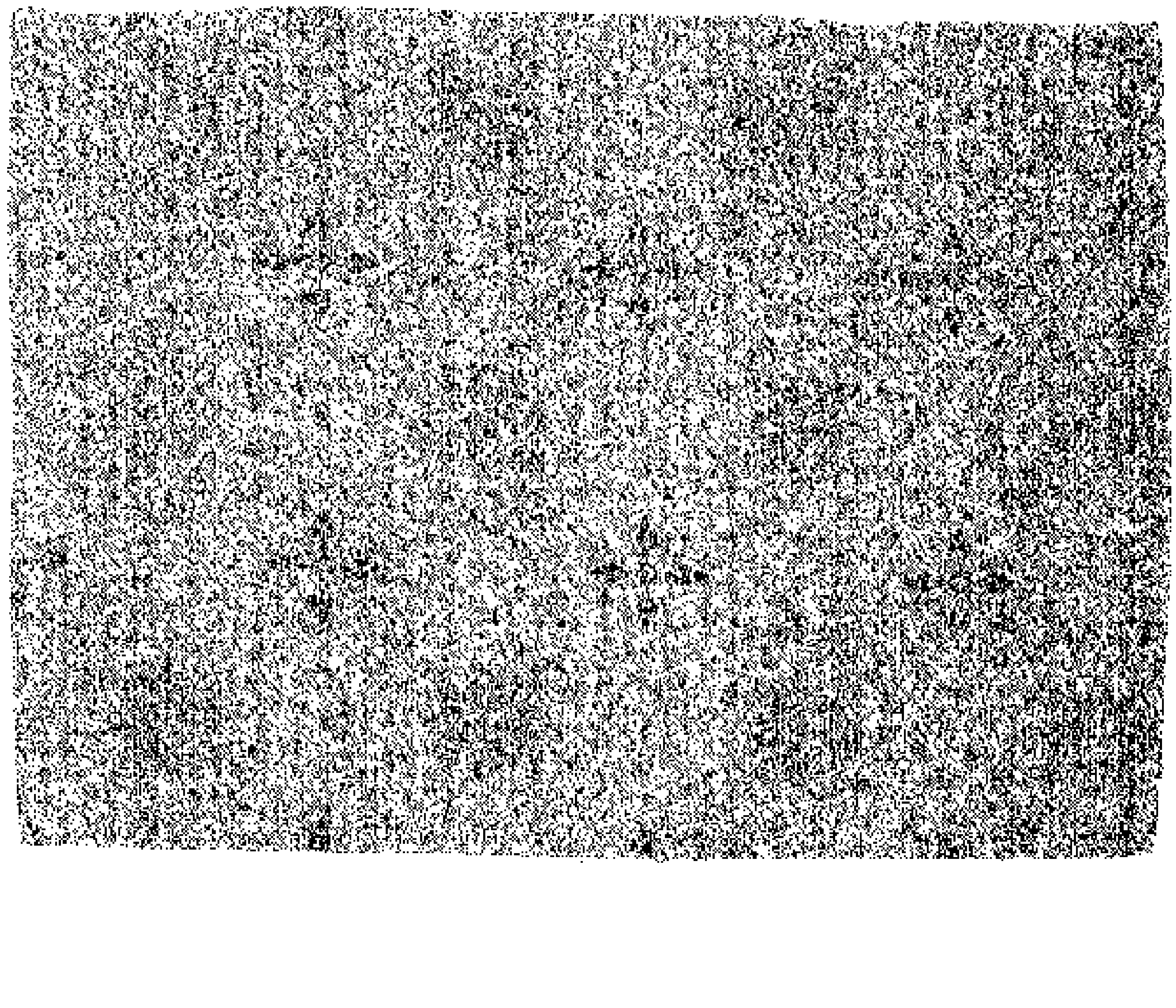

التفرقة بينهما إلى حد كبير حتى ظهور تقنيات التحليل الجيولوجي واستخدام أشعة إكس منذ سنوات قليلة مضت، مما جعل منها المنتج المثالي للإيقاع بالصناعة المالقية، والتي انهارت بدورها في منطقة البحر المتوسط. ووصلت الآنية إلى جميع جزر البحر المتوسط واليونان. وتم صناعة مجموعات خاصة، مثل مجموعة "Pula" لإيطاليا، ووصلت كميات ضخمة منها إلى الموصل، وبغداد، وإسطنبول، والبحر الأسود. وقد شكلت هذه الأدوات الخاصة بالمائدة جزءًا من طابع منطقة البحر المتوسط المتبع لصناعة الآنية والتي استخدمها المسيحيون والمسلمون على حد سواء. لتصبح قواعد الزهريات والأباريق، والرسومات المحددة لأدوات المائدة في منطقة البحر المتوسط بأسرها شائعة خلال القرن الثالث عشر، والرابع عشر والخامس عشر.

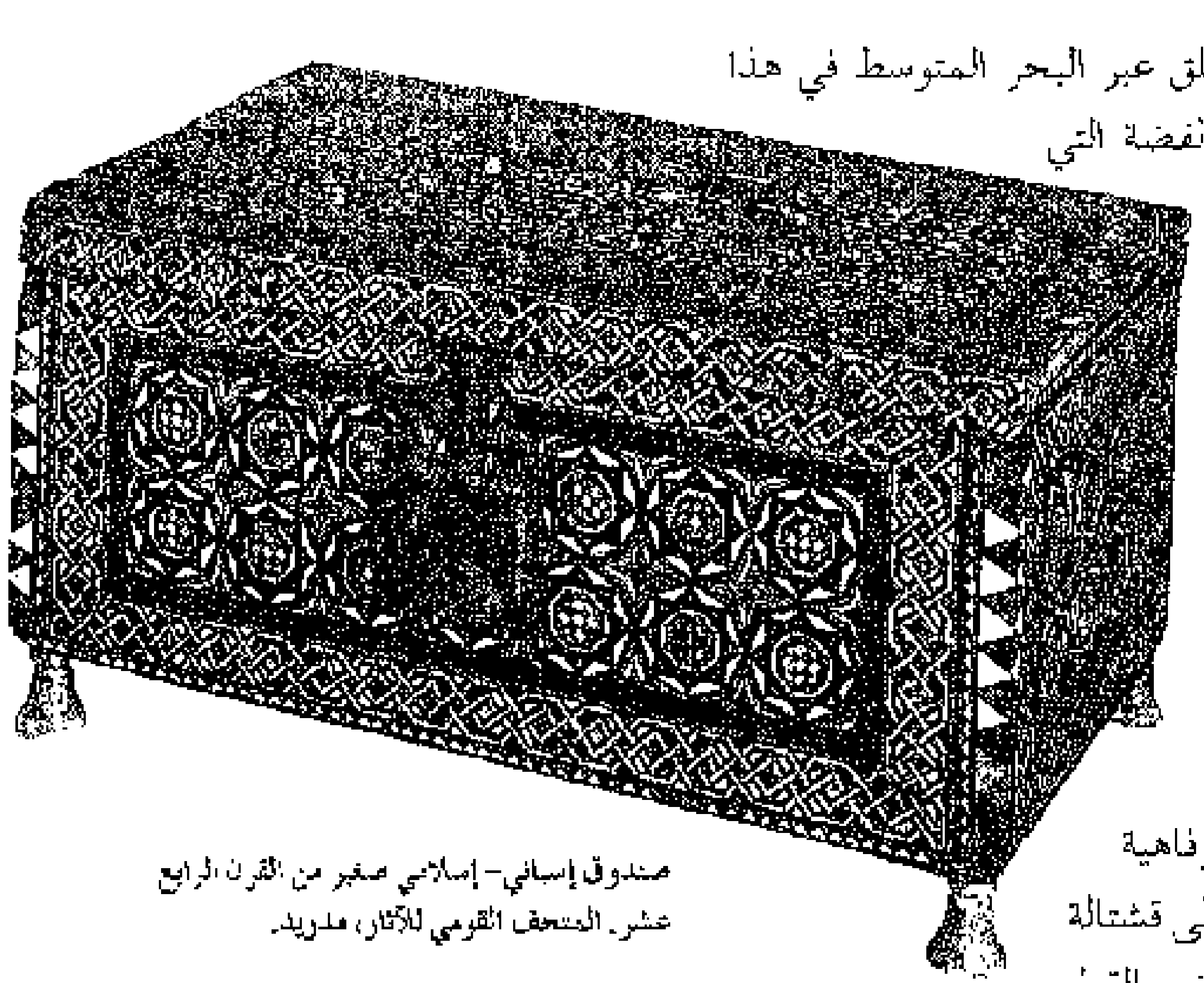

صندوق إسباني - إسلامي صغير من القرن الرابع عشر. المتحف القومي للآثار، مدريد.

ولكن بضائع الرفاهية لم تكن هي الوحيدة التي كانت تنطلق عبر البحر المتوسط في هذا الوقت. حيث تخلت الأندلس عن الزئبق في مقابل الذهب والفضة التي كانت تستخرج من مناجم أخرى غير محلية. وقد ظلت هذه هي الوسيلة الوحيدة للحصول على الذهب؛ والذي تمثل خلال هذه في الذهب الأفريقي الوارد من جمهورية بنين، التي تمثل اليوم بعض أجزاء من غانا ونيجيريا، نظرًا لأن مناجم الذهب بساكسونيا لم تكن قد اكتُشفت بعد. وكان يتم تصدير الحرير، والجلود القرطبية إلى جميع المناطق في حين لعبت الأندلس دور الوسيط التجاري للفراء الذي كان يتم تصديره من شمال أوروبا. أما القمح فقد كان أحد البضائع التي كانت تتنقل باستمرار عبر البحر المتوسط في كلا الاتجاهين حسب تغير المواسم؛ في حين تدفق كبريتور الحديد في جميع الاتجاهات وسلكت بضائع الرفاهية سبلا تبدو لنا غير مستحيلة في هذه الحقبة لتنطلق من بلاد الفرس إلى قشتالة أو من صقلية إلى ألمانيا الشمالية. واستورد الاسكنديناڤيون البرونز والقطع الإسلامية الأخرى من الأراضي السلافية والأنهار الروسية، ووصلت الآنية الواردة من الأندلس وفقًا للبيانات المتاحة، كما أشرنا سابقًا، إلى العراق وربما أبعد من ذلك. وفي ذات الوقت ظلت التوابل تتوافد إلى أوروبا. ولم تكن المواد الخام وبضائع الرفاهية هي الوحيدة المتداولة. بل كان يجري تداول الأفكار والإبداعات كذلك: فتنقلت الكتب، التي لم تكن تقتصر على التداول بين الأقران من أبناء الثقافة الواحدة فحسب بل كانت في كثير من الأحيان تتم بتكليف من الملوك الذين سمعوا أخبارا عن المفكرين والأعمال الإبداعية والبحثية. ولعل أهم هؤلاء المفكرين كان الإدريسي، والذي ألف عمله الجغرافي الشهير بتكليف من أحد ملوك صقلية النورمنديين بصورة رائعة ووضع واحدة من أقدم الخرائط المعروفة للبحر المتوسط.

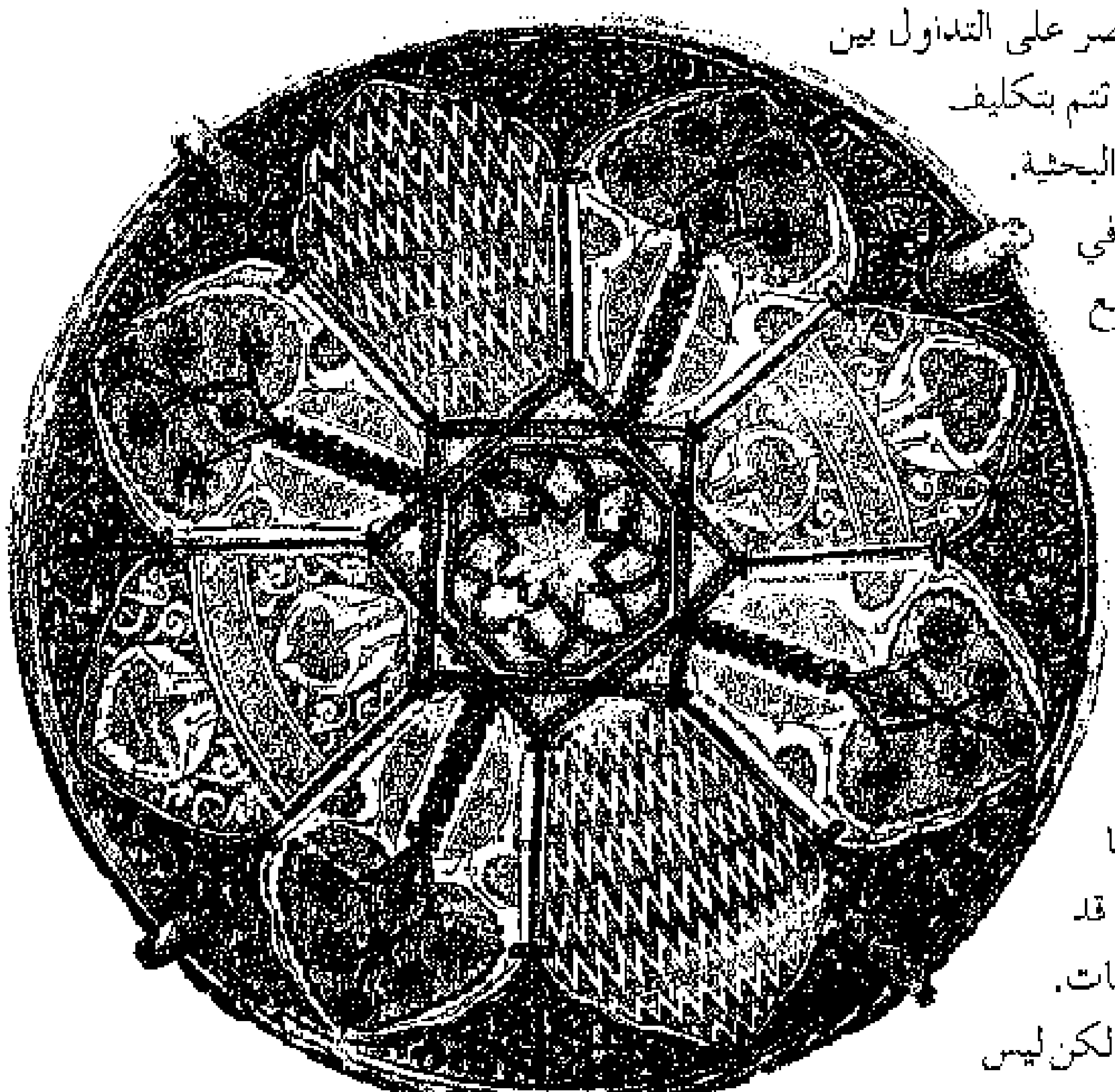

طبق من السيراميك من مانيزيس Manises، يرجع إلى القرن الرابع عشر، الجمعية الإسبانية، نيويورك.

وبعد عدة سنوات انطلق ري جونثالث دي كلاڤيخو بناء على طلب من الملك هنري الثالث ملك قشتالة إلى سمرقند لمقابلة المغول وتأسيس علاقات باسم المملكة القشتالية. وهناك قام بمقابلة المسيحيين، والذين كان بعضهم معتنقًا للعقيدة اليونانية. وهو ما يؤدي بنا إلى موضوع مثير آخر والذي لعب بدوره أيضا دورًا هامًا في التجارة، رحلات الحج. فلكل من الأديان الكبرى - اليهودية والمسيحية والإسلام - الأماكن المقدسة الخاصة به: القدس، روما وسانتييجو، مكة والمدينة والقدس. ولم يظهر يومًا أن رحلات الحج قد توقفت لتصبح أهم وسيط لتبادل البضائع، والأموال، والأفكار، والتقنيات.

لقد استجلب الحجاج المسلمون الأفكار الشرقية إلى الأندلس، ولكن ليس هناك من شك أن هؤلاء الحجاج الوافدين إلى مكة أحضروا معهم أيضا التقنية الشرقية التي جعلت من الممكن إنشاء ملاذ آمن في أوروبا الغربية الإسلامية لأدوات المائدة المذهب ذات البريق المعدني المشار إليها سابقًا.

وختامًا، فإن هؤلاء البسطاء الذين كدحوا لتأمين معيشتهم، والذين سعوا للحفاظ على عقيدتهم وإيمانهم ومقتوا الحروب، قاموا في نهاية الأمر بتبادل الأفكار والمشاعر وحاولوا التصرف بالطريقة التي تعبر عنها هذه القصيدة الخاصة بإيستاس دو شامب Eustache Deschamps الفرنسي الذي أرهقته الحروب، وأضناه النبلاء، وسئم الحياة المرفهة:

(من هنا فصاعدا أتوق لأن أعيش
كرجل عادي، هذه هي أمنيتي،
أن أترك ورائي الحروب وأن أحيا لأعمل،
فالذهاب إلى الحرب ليس سوى لعنة).

العلاقات البحرية والملاحية في البحر المتوسط في القرن الرابع عشر

جون كلود هوكت
المركز الوطني للبحث العلمي - باريس
ترجمة لمياء الايوبي

من الممكن القول انه، بالرغم من التفاوت الواضح في الموارد المتاحة للمؤرخ الذي اعتاد على الوثائق اللاتينية الموالية للعلاقات والشئون الغربية، بمعنى آخر المسيحيين، إلا أن مسلمي سواحل البحر المتوسط لم يكن لديهم القوة البحرية الكافية لإثارة القوى البحرية التي سيطرت على البحر في القرن الرابع عشر سواء أن كان ذلك على المستوى العسكري أو التجاري.

لقد ولّى ذلك الوقت الذي كان فيه العرب المسلمون يقومون بشن الحملات المنتصرة على الجزر؛ حيث مثل القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة توازن سياسي وديني في كل مكان بما في ذلك الشرق. ومن الأحداث المميزة لهذه الفترة فشل الحملات الصليبية؛ والتقدم الحديث للحملة الثانية في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ والاعتراف بالقوى الجديدة في إيطاليا حيث اكتسبت المدن الكبرى المزيد من القوة، وفي مصر قام العبيد من الأتراك والمماليك، بتأسيس وحشد قوى عسكرية قبل أن تقوم الوفود الجديدة إلى شواطئ البحر الأسود، من الأتراك السلاجقة، بالإعلان عن نفوذهم في البحر، أيضا.

السياسة البحرية الإسلامية

تؤكد الهجمات المستمرة للقراصنة المسيحيين والحروب المتتابعة ضد السفن الحربية التابعة للمسلمين أن الحركة البحرية الإسلامية لم تتأثر. فالوثائق المصورة النادرة تشير -حتى القرن الرابع عشر- إلى أوجه التشابه العديدة بين السفن الكبيرة الدائرية الخاصة بالمسلمين ذات الجسرين والتي تحمل ساريتين أو ثلاثًا وتلك التابعة للمسيحيين والتي ظهرت بدورها في الرسوم الإيضاحية الأوروبية. إلا أن البحارة الأوروبيين سيطروا على الطرق البحرية، ويعود الفضل في ذلك إلى تلك الأراضي المستعمرة التي تم غزوها إثر سقوط الإمبراطورية البيزنطية منذ قرن مضى وهو ما جعل الانتشار على طول هذه الطرق أمرا غير آمن بالنسبة للسفن المسلمة، حتى في الشرق حيث كان للمماليك نشاط بحري بسبب وجود منفذين بحريين في مصر. وفي الغرب كان يتم نقل السلع البسيطة مثل الملح في سفن تابعة لقطلونية وبيزا بين ميناءي بيزا والجزائر في الثلاثينيات من القرن الرابع عشر.

صورة مطبوعة على الحجر في القرن التاسع عشر لأحواض سفن بني نصر في مالقة.

شعر المسلمون بالحاجة إلى بناء أحواض بناء بحرية جديدة لبناء وترميم السفن -اللفظ مشتق من الكلمة العربية دار الصناعة- في موانئ تونس، والمهدية، والمرية، ووهران، وهنين. وكان ميناء مالقة، الذي تم بناؤه في القرن الرابع عشر، يمثل قلعة تحميها أربعة جدران، أما السفن فكانت توضع في الداخل في سبع قاعات متوازية مغطاة. وكان يتم الاحتفاظ بالخشب، وأدوات العمل، والأسلحة والمواد الأخرى في المخزن، الموجود في الخلف، بعيدا عن الجو.

احتفظ المسلمون بأسطول بحري، لأغراض دفاعية وكذلك لأغراض ملاحية مما أدي إلى ربط موانئ المغرب بغيرها

ربعية من غرناطة. تشير اللوحة إلى أن أحمد الدهماني قام بصناعتها في عام 854 هـ/ 1450. المتحف القومي للآثار– مدريد.

في الأندلس، أو جزر البنيار، إلا أن تجارتهم النشطة وقعت في أيادي الغرب في القرن الرابع عشر لتخضع للقيود التي فرضتها الاتفاقيات التجارية، مثل تلك التي وقعتها المملكة الحفصية مع حكومة البندقية، وقد جذبت المغرب تجار بيزا، وجنوة، والبندقية؛ وغيرهم من برشلونة، وبلنسية، وبالما، أو تجار الموانئ الصغيرة، ممن يديرون أعمالهم واستثماراتهم في هذا السوق. وقد قام العديد من أصحاب الأعمال بدراسة هذا السوق بينما كانوا يقومون برحلتهم لبيع صادراتهم الأوروبية إلى عملائهم من سكان المدن والتي قدموها مع الصوف، والجلود وحجر الشّب اللازم للصناعة الغربية ومع الحبوب في الفترة التي هددت المجاعة فيها المدن والقرى بإيطاليا. كما فتحت المغرب أيضا موانئها الواقعة على تلك الطرق البحرية التي سلكها التجار للوصول إلى غايتهم في الشرق، في الوقت الذي كانت فيه الملاحة الساحلية تعتبر الأفضل مقارنة بالإبحار في البحار المفتوحة، والذي لم يكن مألوفًا بعد. وفي كل من هذه الموانئ الموجودة على الساحل الممتد من سبتة إلى الإسكندرية، كان التجار والبحارة يعملون في التوابل التي كان يتم بيعها في الشرق بصورة خاصة. وما لبث أن برزت المغرب كسوق بديل، عندما بدأت الصعوبات تظهر في الشرق. وعندئذ منحتها الاتفاقيات التي تم توقيعها مع القوى المحلية حرية الإبحار في حوض البحر المتوسط وقنوات صقلية وهو ما كان لازما للتجارة مع بلاد الشام.

سفن البحر المتوسط في القرن الرابع عشر

كان هناك نوعان مألوفان من السفن خلال هذا القرن، المراكب التجارية والسفينة المعروفة بالـ nef والتي يرجع استمرارها إلى جميع الابتكارات التي شاعت في حوض البحر المتوسط بظهور السفينة المعروفة باسم الـcocca. أما جميع أشكال السفن البحرية الأخرى فقد كانت أقصر أجلا: فخلال الفترة من 1320 - 1330 أصبحت السفينة التي أطلق عليها الطرادة taride ضربًا من الماضي، وانتهت الحقبة التي انتعش فيها الـcocca بعد نشاط دام ثلاثة أرباع قرن، حتى قبل العشرينيات من القرن الخامس عشر. ولم يزد النجاح الذي حققته الـpanfile عن الأربعين عامًا. وأفسح lingo أو linh مجالا لـnavilio في انتظار أن ترداد الأشكال أو الأنواع الجديدة الأطول عمرًا بدءًا من أواخر القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر، وكأن عملية بناء السفن، والملاحة، ومهارات الإبحار قد استقرت أخيرًا بعد المحاولات التي امتدت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر.

إن الوظيفة الرئيسية للطرادة tarida كانت النقل. فكانت تحمل التجار – كان لا يزال زمن التجارة المتجولة – ومعهم كاتبان. وكان الكاتبان يقومان بمراقبة شحنات البضائع ووزنها على موازين السفينة (statera)، قبل قياس ارتفاع الجزء الطافي من السفينة. وكان بدن الطرادة يصل إلى ثلاثة أقدام فوق سطح المياه. وكان لهذا النوع من السفن جسر واحد تحميه القلاع، وحبال

1 Véase en la bibliografía final del volumen Santamaría Arandez.

2 Zachariadou.

3 Hocquet (2006) «Ibiza et la compétition commerciale en Méditerranée», cap. IX, págs. 295-340.

4 Picard, (1997), Pryor y Bellabarba

5 Hocquet [2002], López Pérez, Constable

6 Sacerdoti

7 Lamrani; Bensaci

8 Mas Latrie

9 Hocquet (1978-1979), cap. II, págs. 104-108

10 Hocquet (1995)

الأشرعة والصواري والأشرعة المثلثة. لتصبح السفينة الشراعية القديمة الخاصة بالقرن الثالث عشر. وفي سنة 1300 تقريبًا، خضعت هذه السفينة لبعض التغيرات الهامة والعاجلة، خاصة تزويدها بكوبري إضافي. وهكذا فقد أصبحت الطرادة tarida سفينة طويلة.

حلّت الـcocca محل الطرادة tarida. وبالنظر إلى جسمها المصنوع من المعدن والذي كان يحمل شراعًا مربعًا على عارضة مشدودة إلى صارٍ ضخم ومزود بدفة محورية والتي كانت مثبتة بدورها إلى القائم الخلفي للسفينة، كانت الـcocca وسيلة النقل والشحن القوية المميزة للعالم البحري الشمالي في القرن الثاني عشر. وقد ساعدها شكلها الانسيابي على اجتياز المياه المفتوحة اعتمادًا على مؤخرتها المستقيمة، بينما أعطت سفن البحر المتوسط الانطباع بوجود حاجة إلى دعامة مُركّبة على الجانبين للحفاظ على صلابتها. يرجع الفضل في ظهور Florentine Villani إلى أهل أقليم الباسك. وقد فكرت أحواض بناء سفن البحر المتوسط في بناء هذا النوع من السفن ولكنها تخلت عن الألواح المعدنية واستخدمت جسورًا إضافية وهو ما أدى إلى زيادة ارتفاع السفينة، كما أسهم في زيادة حمولتها بصورة واضحة. كما ضاعفت مواصفات المركب من إنتاجية الطاقم بما يوازي ثلاث مرات. وقد شجع تفشي وباء الطاعون في سنة 1348 الذي قضى على السكان على استخدام هذا المركب ذي الجوانب المرتفعة. وأصبحت الـcocca بالنظر إلى الازدهار قصير الأجل الذي حققته السفينة التقليدية للقرن الرابع عشر. كما نقلت بعض الخصائص المميزة التي جعلتها تتفوق على السفن الأخرى التي تماشت بصورة أكبر مع العادات السائدة في منطقة البحر المتوسط، خاصة الـnef.

سفينة تابعة لـHanseatic League الذي كان مسيطرًا آنذاك على البحر البلطي تم استخراجها وإعادة بنائها وترجع إلى 1380. المتحف الألماني للسفن- بريمرهافن.

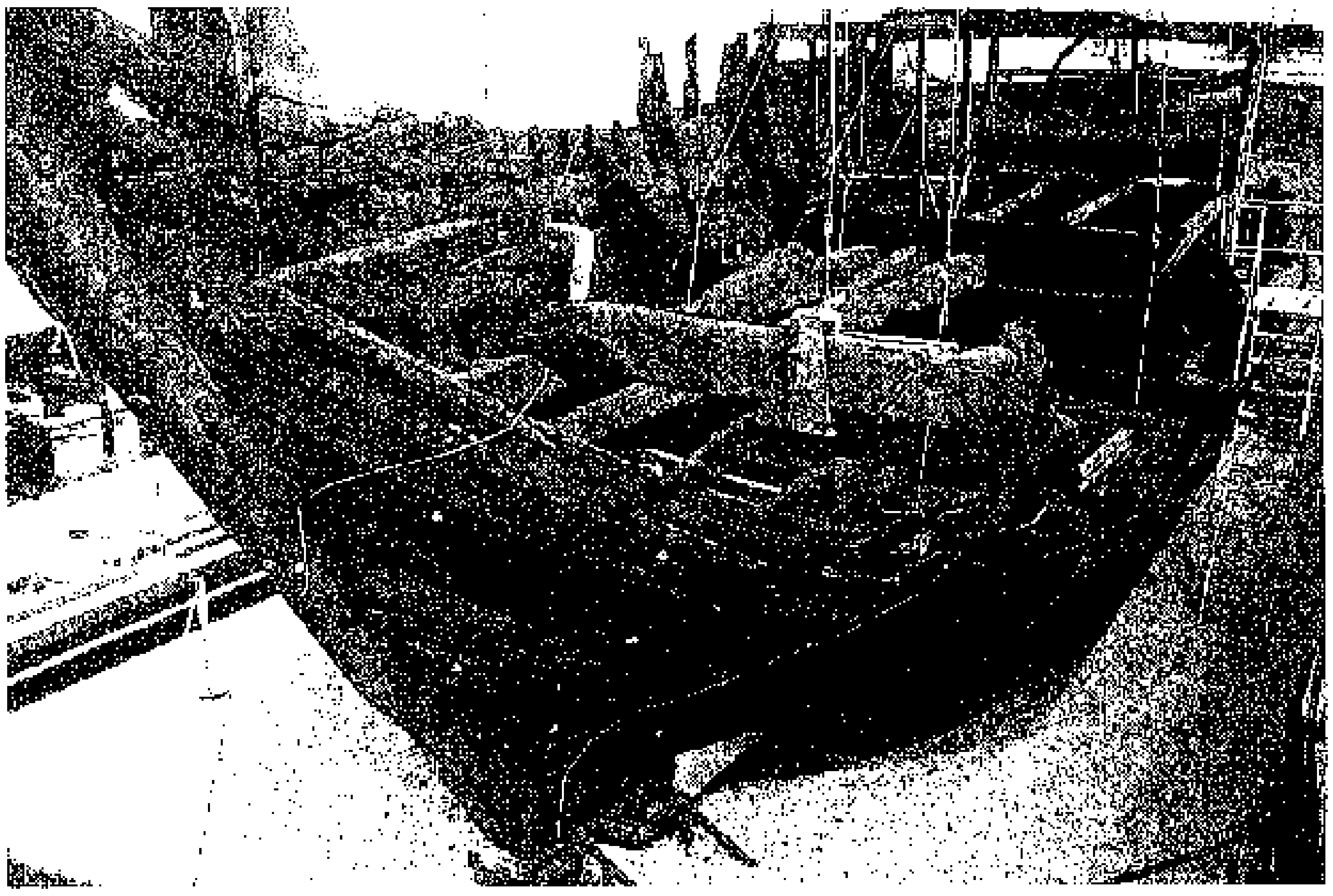

قامت المدن التجارية، بالإضافة إلى السفن الحربية، بابتكار نوع آخر من السفن ذات المجاديف: القادس التجاري – سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف– والتي يتسع جسمها لتخزين البضائع وثلاثة رجال على مقعد للتجديف، إلى جانب حمل صفين يضم كل منهما ثلاثين مقعدًا يفصلها ممرات ضيقة (corsias) للسماح بمرور المشرفين ذهابًا وإيابًا. وقد حمل البيريم –مركب بصفي مجاديف من كل جانب– في القرن الثالث عشر 120 من المسؤولين عن التجديف بينما حملت تلك السفينة التجارية ذات الصفوف الثلاثة من المجاديف أو القادس التجاري مثلها مرة ونصف– 180 من القائمين بالتجديف– في بداية القرن الرابع عشر. وكان من الضروري في البندقية، بالنظر إلى ما تملك مما يقرب من ثلاثين قادسًا تزخر بهم الطرق كل عام،

نموذج بالحجم الطبيعي لإحدى سفن البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، تمت عملية إعادة البناء وفقا لإحدى الاكتشافات التي عثر عليها في مقبرة سانت بيتر مارتير St. Peter Martyr بسانت أويستورجيو St.Eustorgio بميلان، المتحف البحري – مدريد

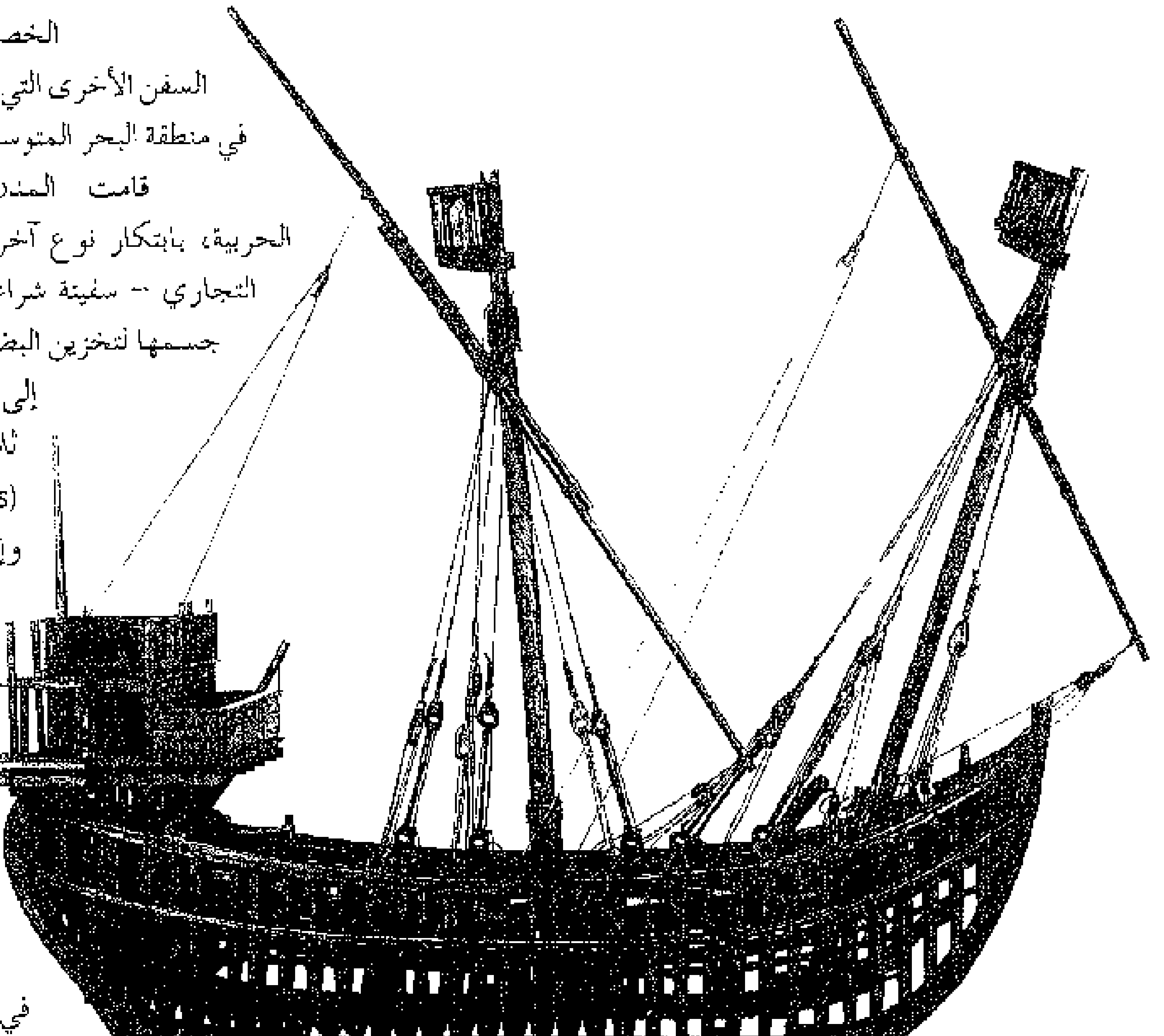

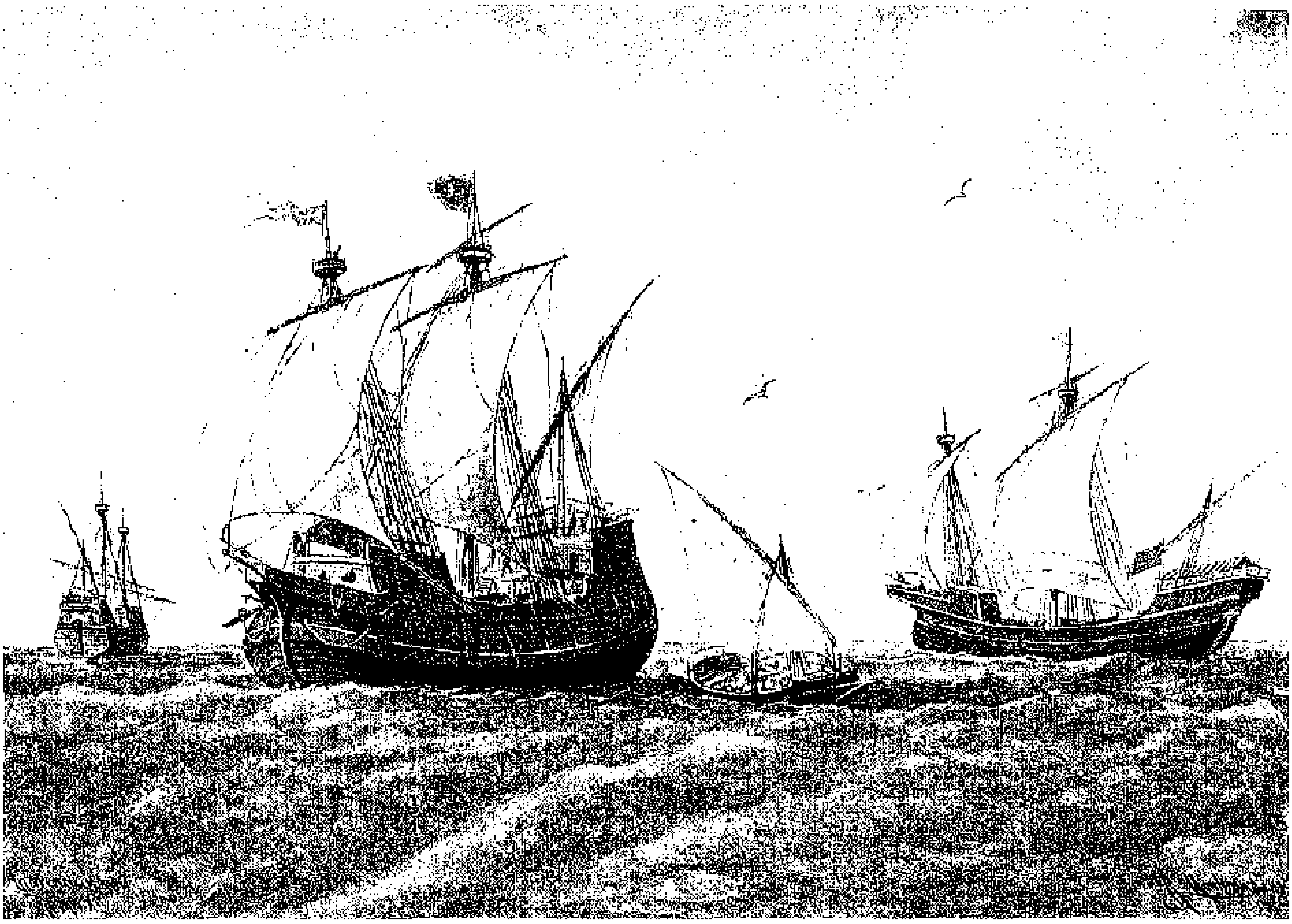

سفن من القرن الرابع عشر. الألوان المائية الخاصة بـ ر. مونليون R.Monleon. المتحف الحربي، مدريد.

تشغيل أكثر من 5000 بحار. ليخضع حوالي 210 رجال من طاقم القادس لأوامر القبطان. وكان الحرفيون (maestranze)، والنجارون، والقائمون بسد حزوز السفينة وما إلى ذلك، مسئولين عن صيانة وإصلاح المركب. وبينما قامت اللجنة بتوجيه البحارة كان الكتبة (scrivani) يحتفظون بالسجلات. في حين قام ثمانية من عرافي الملاحين (nocchieri) بتوجيه البحارة محدودي المهارات "alla timonera, alla manovra delle vele e ancore, alla stivatura delle mercanzie". أما القبطان فكان مسئولا عن الرحلة، وأخيرا كان الرماة موكلين بحماية السفينة.

لقد كانت الـlegni والمراكب الصغيرة، تلك السفن التي لم تغادر السواحل، أكثرها انتشارًا. وتفاوتت سعة هذه السفن. فاتسع الـnau، في المتوسط، لما يزيد عن 11 مرة مما يمكن للمراكب الصغيرة حمله، بينما وصلت سعة الـcocca إلى خمس مرات فقط.

بداية الملاحة العلمية

في نهاية العصور الوسطى، بدأت الملاحة في تبني تقنيات جديدة نتيجة لتراكم الخبرة والتي ثبت أهميتها في التقدم اللاحق والتي نتج عنها الرحلات العابرة للمحيطات. وقد لعب العرب دورا هامًا في اكتشاف وتحسين ونشر هذه التقنيات. ففي سنة 1340، تم رسم نسخة لخريطة العالم على يد علماء الخليفة المأمون في القرن التاسع. كما جعل العالم البيروني علم الخرائط قائما على المشاهدات الفلكية، وقياس المسافات، وتطبيق قواعد حساب المثلثات المجسم. وفي حوالي سنة 1300، قام بنشر جغرافية الإدريسي (سبتة، 1100-1165)، والذي درس بدوره في قرطبة وسافر بطول وعرض البحر المتوسط قبل أن يستقر في بلاط الملك النورماني، روجر الثاني، في باليرمو، حيث قام بوضع عمله الجغرافي الرئيسي المعروفة بـ "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق".

11 *Statuti marittimi veneziani*
12 Carbonell Relat.12 Carbonell Relat
13 Del Treppo.13 Del Treppo
14 Hocquet (1995), pág. 549
15 Lane.15 Lane
16 Sacerdoti.16 Sacerdoti
17 King, D. A. *Mediterraneum*, págs. 401-423
18 Sezgin, F. *Ibidem*, págs. 373-387

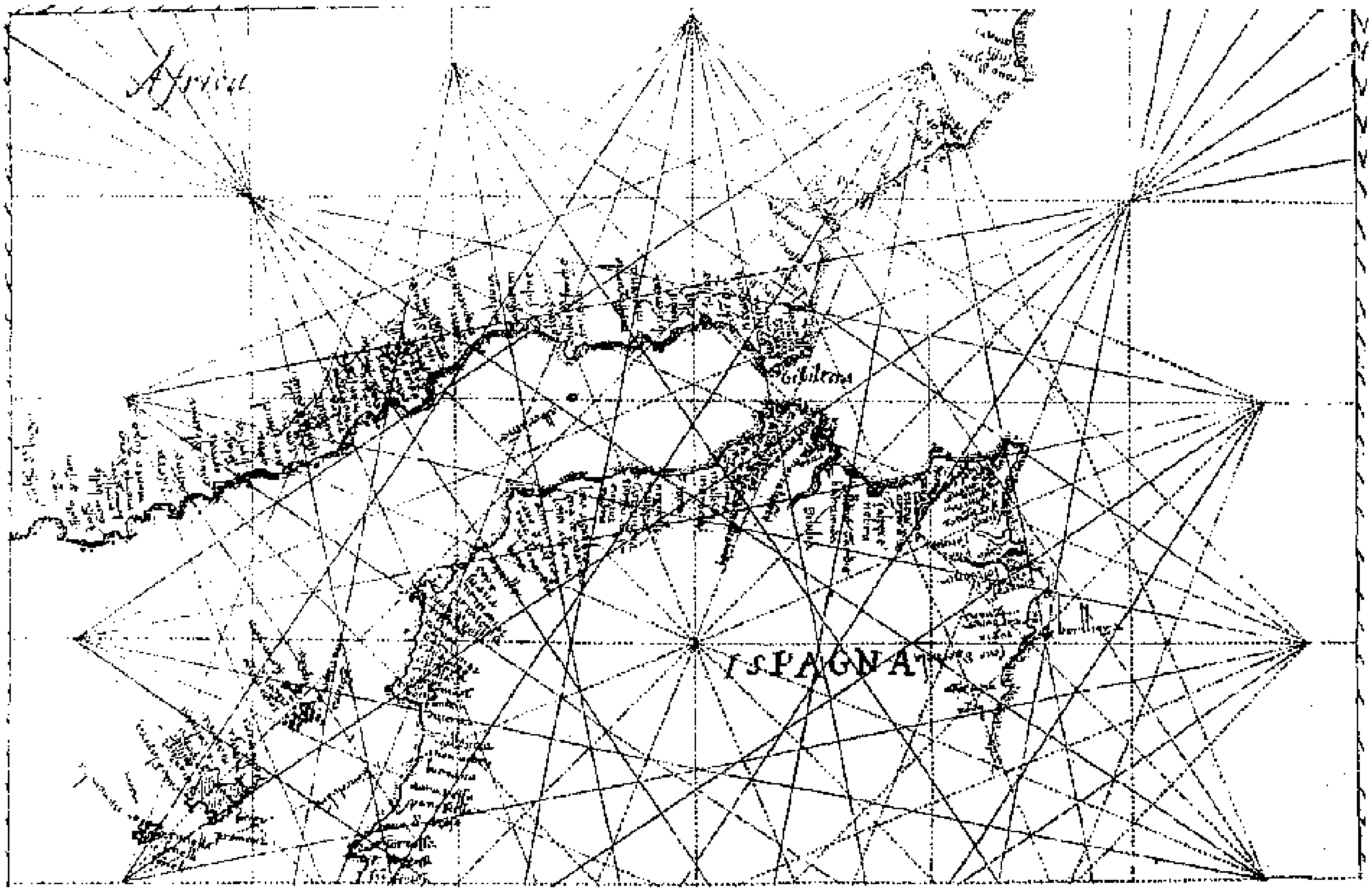

شرح تفصيلي لخريطة خاصة بشبه الجزيرة الأيبيرية والمغرب العربي، والذي قام به بيترس فيسكونتي Petrus Vesconte من جنوة، 1318

لقد لعبت الإرشادات البحرية دورا هاما في منطقة البحر المتوسط والتي غالبًا ما تمت كتابتها وفقًا لتعليقات البحارة (ut dicunt nautae)، وخرائط الملاحة التي تصف الطرق والتقاطعات، والخرائط البحرية والتي كانت أساسا للمخطوطات الأولية لتلك الخرائط الخاصة بالحدود الساحلية، والتي تم إكمالها بإضافة مؤشرات للوجهات والاتجاهات، والموانئ والألسن، ومصبات الأنهار، وتصميم بوصلة الخرائط، وما إلى غير ذلك. وكان لا يزال هناك حاجة لاكتشاف أداة لتحديد الاتجاهات. من المرجح أن وجود فرق بين الشمال المغناطيسي والشمال الحقيقي قد اكتُشِف في عصر إمبراطورية هان (202- 220 ق.م)، إلا أن اختراع البوصلة المغناطيسية كان لا يزال في حاجة إلى إجراء العديد من التجارب، والتي نتج عنها ظهور أداتين: الإبرة المعدنية المغناطيسية الصغيرة التي تطفو على سطح الإناء الممتلئ بالماء أو المرتكزة على محور في علبة خشبية تشير إلى الشمال والجنوب. وفي الغرب، شهد الكتابان اللذان كتبهما المؤلف الإنجليزي ألكسندر نيكام Alexander Neckam: De Utensilibus (1187) وDe Natura Rerum (1204) أول إشارة إلى البوصلة المغناطيسية. ويشير هذا الكتاب إلى أن بحارة القناة الإنجليزية استخدموا بوصلة من المعدن الممغنط لمعرفة الشمال، إلا أن الآلة لم تكن دقيقة، ومن ثم فقد اعتمدوا عليها فقط عندما كانت الرؤية غير واضحة ليلا أو عند ظهور الضباب، وبالتالي كان استخدام معدات القياس البصري الأخرى غير ذي جدوى. لقد انتشرت الآلة الجديدة غربًا حيث خضعت لتعديلات معينة والتي جعلتها أساسية في عمليات الملاحة والإبحار عند استخدامها مع البوصلة المقسمة إلى ثمانية خطوط متساوية الميل. إننا لسنا على علم بالدور الذي لعبه العرب في ظهور الاختراع الصيني في الغرب؛ فأقدم إشارة إلى البوصلة المغناطيسية في الكتابات العربية في مجال الفلك ظهرت في أحد الأبحاث التي تمت كتابتها في اليمن في أواخر القرن الثالث عشر. حيث كان بحارة منطقة شرق البحر المتوسط، في هذه الفترة، يستخدمون البوصلة المغناطيسية، وإن كان بصورة محدودة.

اعتمدت طرق تحديد المواقع في الملاحة التقليدية الشائعة على الأجهزة المعقدة. ففي سنة 1404، تلقت مجموعة من سفن القادس المبحرة من شاطئ وهران أمرًا بضرورة العودة

إلى إسبانيا: "بعد مراقبة القمر واتجاه الرياح، يرى الربان ضرورة التوجه إلى إسبانيا دون تأخر، لأنه يخشى هبوب إحدى العواصف الهائلة. ومن ثم فقد قام البحارة باتخاذ احتياطهم: حيث أعدوا البوصلة المغناطيسية، واطلعوا على الخرائط الملاحية، وبدأوا في تحديد النقاط وأخذ القياسات باستخدام البوصلة نظرًا لطول الرحلة ولأن الرياح كانت معاكسة. كما قاموا بمراقبة الساعة الزجاجية وأوكلوا المهمة إلى أحد البحارة. وسلموا أمرهم إلى ربهم. ورأوا ساحل إسبانيا بعد إبحار دام طوال النهار والليل". وكان عليهم الاعتماد على الوسائل والطرق الفلكية المستخدمة برًا للتعرف على وضع السفينة عند قيامهم بالإبحار لأيام عديدة دون رؤية اليابسة ودون مراقبة أو ملاحظة العلامات المميزة اللازمة للتعرف على الخطوط متساوية الميل.

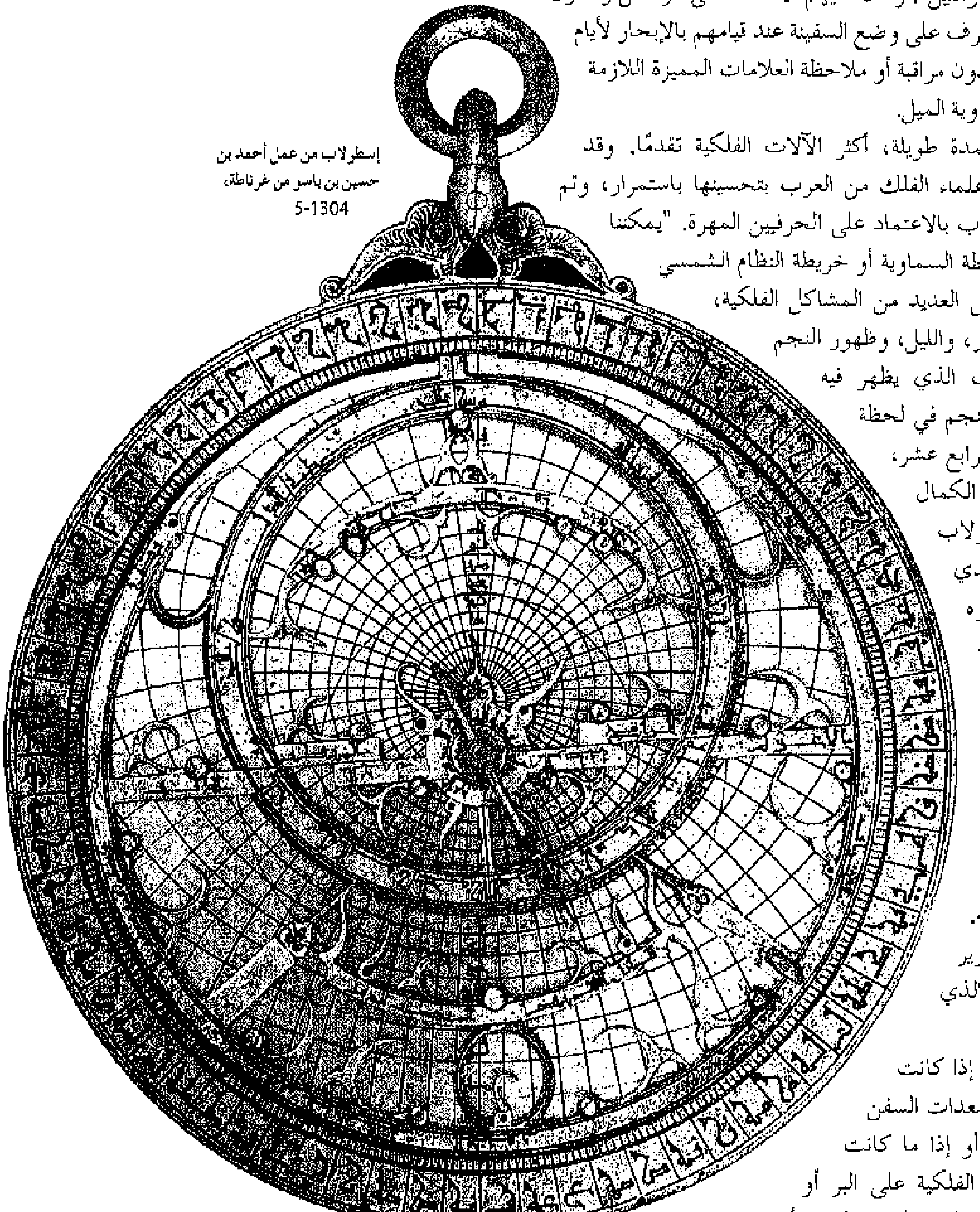

إسطرلاب من عمل أحمد بن حسين بن باسو من غرناطة، 5-1304

اِعتُبِر الأسطُرلاب، لمدة طويلة، أكثر الآلات الفلكية تقدمًا. وقد اخترعها اليونانيون وقام علماء الفلك من العرب بتحسينها باستمرار، وتم بناؤها في الأندلس والمغرب بالاعتماد على الحرفيين المهرة. "يمكننا مقارنة الأسطرلاب بالخريطة السماوية أو خريطة النظام الشمسي [...] (التي تسهم في) حل العديد من المشاكل الفلكية، مثل تحديد الساعة، والنهار، والليل، وظهور النجم فوق خط الأفق، التوقيت الذي يظهر فيه النجم ويختفي، ووجهة النجم في لحظة معينة..." وبحلول القرن الرابع عشر، وصل الأسطرلاب إلى الكمال باكتشاف مفهوم الأسطرلاب العالمي في الأندلس. والذي ما لبث أن تم تعديله وتطويره في سوريا حيث قام أحمد ابن السراج ببناء أسطرلاب يمكن استخدامه في جميع أنحاء العالم؛ يتناول أحد الأبحاث المعاصرة لعالم الفلك المصري، الوفائي، بالشرح آلية عمل الجهاز واستخداماته. قام ابن السراج أيضا بتطوير الأسطرلاب الرُبعي والذي اتخذ شكل ربع الدائرة.

من الصعب معرفة ما إذا كانت الأجهزة العلمية جزءًا من معدات السفن الأكبر وقباطنة الأساطيل أو إذا ما كانت تقتصر على الملاحظات الفلكية على البر أو في الجامعات. إلا أن منطقة البحر المتوسط، في أواخر القرن الرابع عشر، بدأت في تقديم وحدة بحرية تقوم على مزيج من السفن المختلفة، والبحارة الأشداء، والضباط المحنكين، والموانئ العديدة التي مثلت ملاجئ آمنة، ونظام ثابت من الطرق والأساليب والأدوات والمعدات الملاحية التي تم تطويرها عبر فترة زمنية طويلة بدءًا من موروث العلم القديم والذي تم نقله فيما بعد بواسطة العرب أو بفضل انتشار الاختراعات والابتكارات الأخرى من الأماكن المتفرقة. وقد أسهم كل هذا في دفع العلاقات الملاحية قدمًا.

الخرائط في أواخر العصور الوسطى

ميرثي كوميز
جامعة برشلونة

ترجمة حاتم الطحاوي

كان لرسم الخرائط، بوصفه فنًا وعلمًا وأسلوبًا لتمثيل الكرة الأرضية، تأثير هائل في تاريخ البشرية. فمنذ وقت بعيد عمل أبناء العصور القديمة على وصف بيئتهم وبيئة جيرانهم المحيطين بهم إما لأسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية. وقد اكتشفت أوائل الرسوم الجغرافية والخرائط الأصلية في اليونان قبل ميلاد المسيح بقرابة أربعة قرون بالرغم من أنه لم يتم وضع الجغرافية المركزية التي اعتمد عليها علماء الجغرافية في دراستهم فيما بعد بجدية إلا في القرن الثاني على يد بطليموس.

وكان العرب هم أول من تبنوا الفكرة بداية من علماء الفلك في بيت الحكمة في بلاط الخليفة المأمون (813 - 833) ببغداد، وبعد مضي قرنين قام البيروني بعمل دراسة مهمة حول شكل الأرض ومساحتها كما أرسى أيضا مبادئ علم المثلثات الكروية لاستخدامها في الجغرافية الرياضية. ومنذ القرن الحادي عشر فصاعدا عندما تولى العرب الغربيون زمام هذا الأمر شرعوا في هذه المهمة وتقدمت المعرفة الجغرافية بفضل الإدريسي في صقلية وعلماء الرياضيات الفلكية في الأندلس حيث أسهم العالم مسلمة Maslama بشكل كبير في تصحيح خطأ بطليموس في عشرين درجه في اتساع البحر المتوسط – قام علماء الفلك ببيت الحكمة بتصحيحه بالفعل إلى 10 درجات– والذي قل عن نصف الدرجة وفقا للحسابات الحديثة.

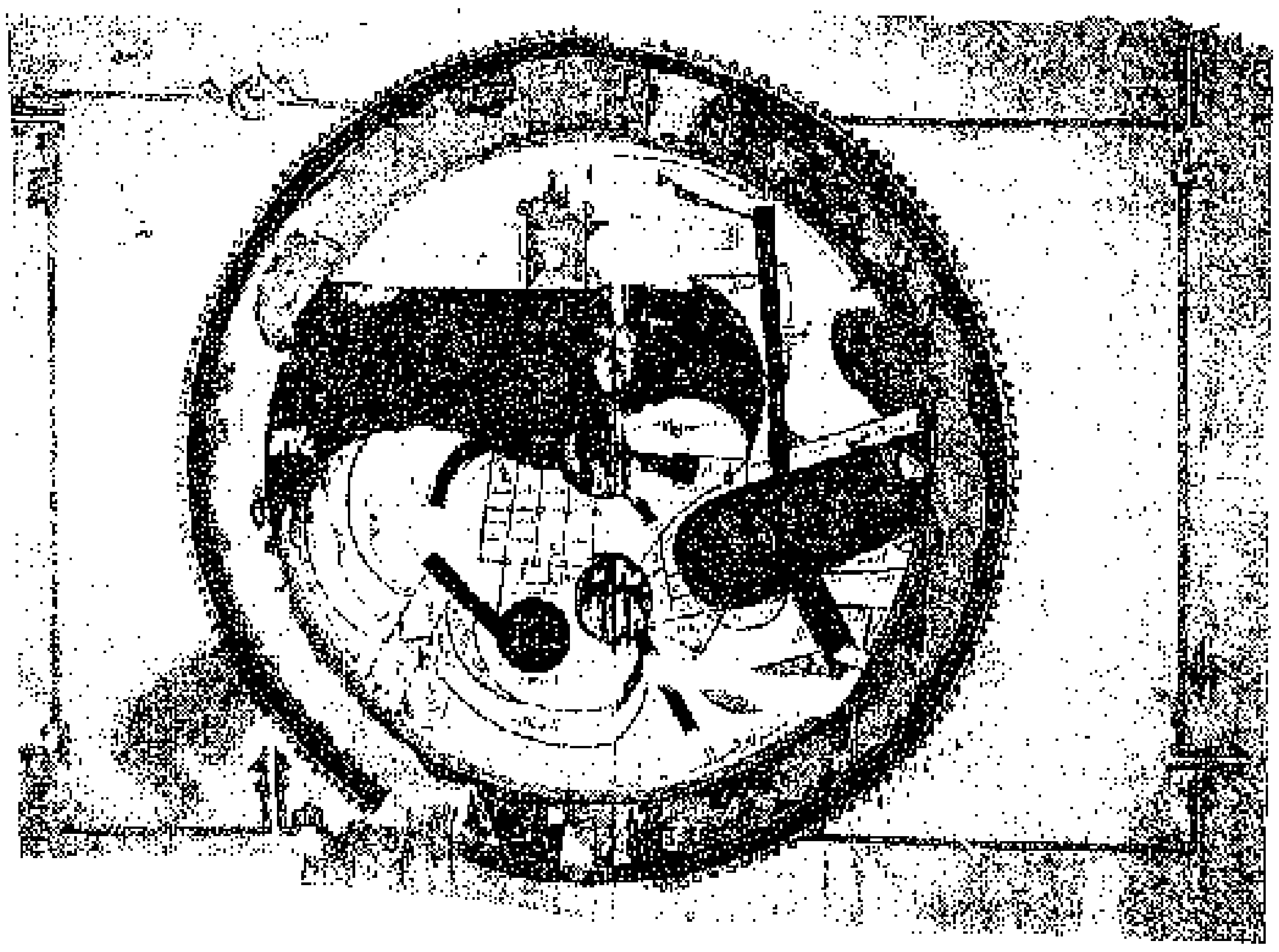

خريطة للأصطخري، تصوير من القرن العاشر.

الصفحة المقابلة، خريطة T&O، في كتاب Livre desproprietes des choses، عمل Barthélemy l'anglais, 1371، نسخة مزخرفة تعود لعام 1372، المكتبة الوطنية – باريس

واستكمال هذه المعرفة النظرية بالخبرة العملية. فقد عرف أن المسلمين أبحروا في المحيط الأطلسي بحلول القرن العاشر وربما قبل ذلك واستخدموا خرائط البورتولان Portolan charts في المحيط الهندي منذ القرن التاسع. كما نعلم أيضا أنهم استخدموا البوصلة في الرحلات البحرية على الأقل منذ القرن الحادي عشر والدليل على ذلك أنهم قاموا باستكشاف السواحل الأفريقية للمحيطين الهندي والأطلسي. علاوة على ذلك، أنه منذ القرن الثامن وحتى نهاية القرن الحادي عشر عندما انتقلت السيادة الاقتصادية والعسكرية للبحر المتوسط من أيدي المسيحيين، أبحر المسلمون وحدهم بطول هذه البحار وعرضها. ومن ثم أتاحت السيطرة الإسلامية للمناطق الواسعة في كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا المعلومات الضرورية لتشكيل خريطة جديدة أكثر دقه للعالم المعاصر معتمدة على النموذج البطليموسي (اليوناني).

وأعربت المصادر عن وجود الخرائط الواقعية أو غيرها من كل العصور ومن مختلف بلاد العالم. وقد شهدت العصور الوسطى تطويرًا لنوعين مختلفين تماما من الخرائط بعضها على مستوى تخطيطي عال وبعيد جدا عن الواقع بينما استندت الأخرى إلى الأسس العلمية وكانت تمثل نقطة مرجعية بالنسبة للخرائط البحرية في القرن الرابع عشر والتي ورثت تقاليد متنوعة (على وجه الخصوص نظام التعليم العربي) دون النظر إلى ما لم تتمكن من تطويره.

ولقد كان هناك نموذج تقليدي للخرائط الإسلامية كالخرائط المسيحية (التي سنلقى نظرة عابرة عليها) يتداخل مع النموذج العلمي. وبالتواصل مع التقليد الشائع الناشئ، تقريبا في بلاد فارس، فقد صورت الأرض على شكل طائر تقع مكة في القلب منه. ويمثل النموذج العلمي نوعان من الخرائط؛ أولهما خريطة تخطيطية إلى حد ما تمثل أجزاء العالم المعروف وتعرض أسماء المواقع الجغرافية الغنية بالإضافة إلى معلومات أخرى. وبدأ هذا التقليد في القرن العاشر مع كل من البلخي والاصطخري وابن حوقل. وقد سلك النوع الثاني من الخرائط المسلك الذي رسمه بطليموس والذي قيل إن جغرافيته تحوي العديد من الخرائط بالرغم من أن الخرائط التي وصلت إلينا كملاحق للمخطوطات الباقية لم تجر إضافتها في الحقيقة إلا بعد القرن الثالث عشر. ومن المعروف أن العرب قاموا بترجمة هذا العمل في بداية القرن التاسع. ومرة أخرى، فإن هذا النوع من الخرائط يشتمل على نوعين آخرين وممثل

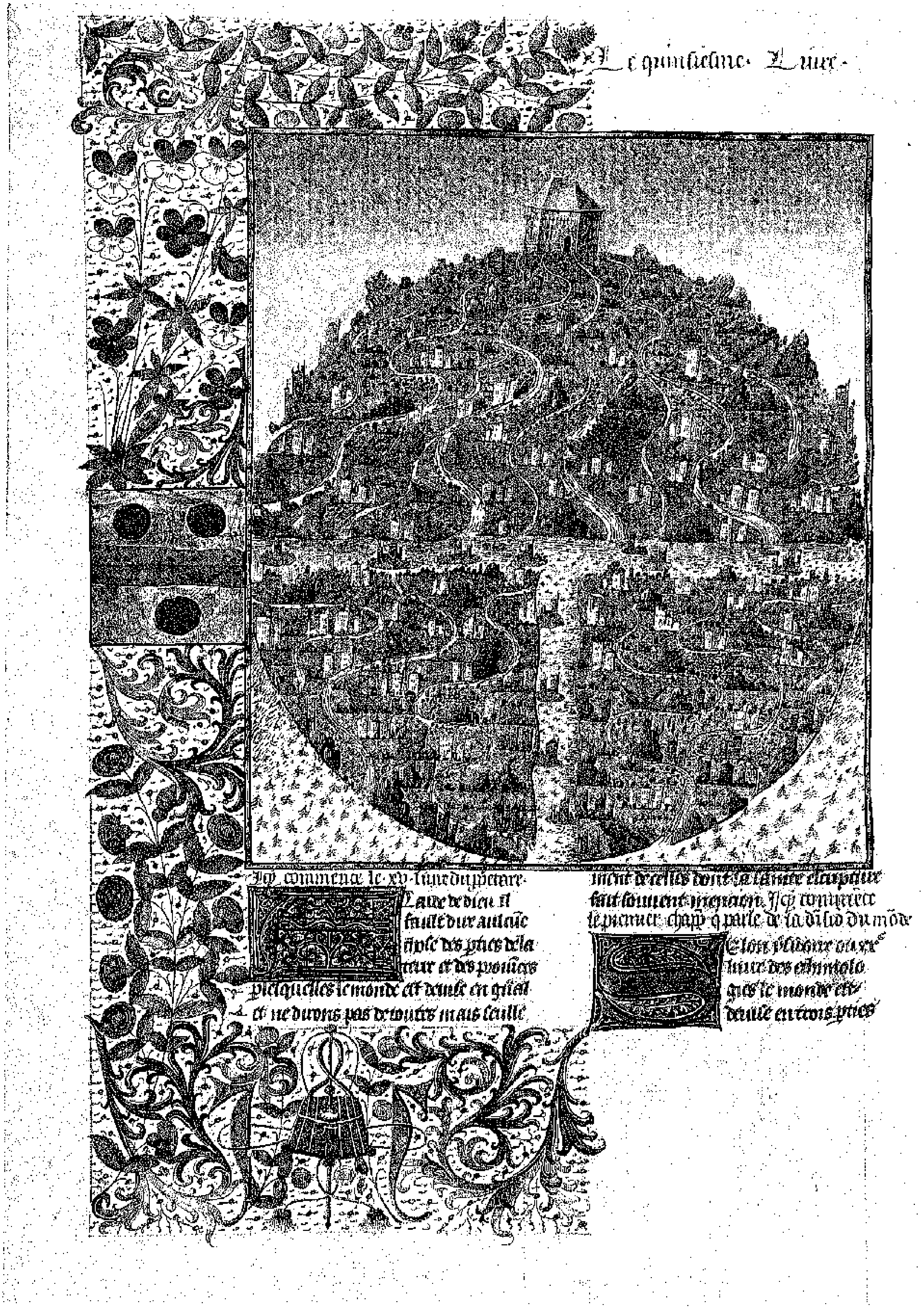
Le quinziesme Livre
Cy commence le xv livre du premier

Occidens
BIBLIOTHECA REGIA

النوع الأول هو المأمون وسهراب Shuhrab وفي فترة تالية الإدريسي (1101-1165) الذي كلف من قبل الملك النورماندي روجر الثاني ملك صقلية بتأليف كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" سنة 1154 ويشتمل هذا البحث الجغرافي على سبعين خريطة مقطعية وخريطة مستديرة للعالم والتي اعتمدت عليها خريطة العالم لابن خلدون والكثير من خرائط العالم mappaemundi الإيطالية المستديرة. وتعرض خرائط الإدريسي بعض السمات الموجودة التي تم اكتشافها بعد عدة قرون في الخرائط البحرية للبحر المتوسط وبالرغم من أن خطوط سواحله لم ترسم بالدقة التي وصلت إليها في الخرائط الحديثة، فلم ترسم إلا هذه الخرائط فقط في الآونة التي سبقت القرن الرابع عشر والتي هي بعيدة الشبه كل البعد بعضها عن بعض. وأما النوع الآخر والذي يختص بالخرائط الرياضية فكان يعتمد على طرق تخطيط معقدة وكان هدفها الرئيسي هو تحديد اتجاه القبلة ولكن لسوء الحظ فإن الخرائط التي ذكر شمس الدين الدمشقي (1256-1327) أنه أرفقها بكتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر قد فقدت. ومن الواضح أنهم اعتمدوا على الجغرافية الرياضية واستخدموا رموزًا مختلفة.

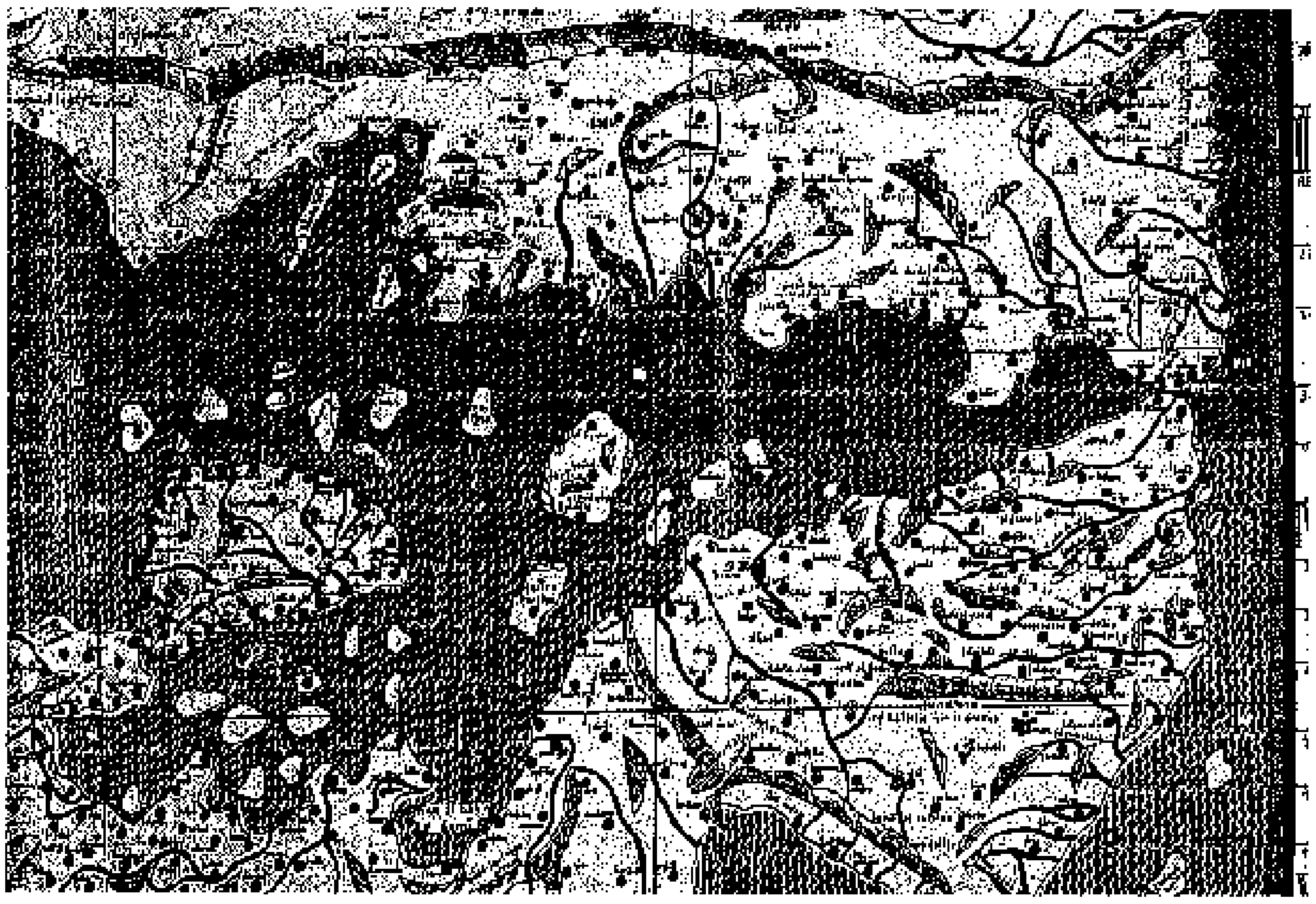

ومع بدء القرن السادس أصبح للمسيحيين أيضا نموذج تقليدي يغلب عليه الطابع الديني. وقد ترجم المفهوم الأيزيدوري Isidorean للأرض في خرائط (تي. أو) بطريقة T.O ثم تبعتها خرائط بيتوس Beatus وخرائط العالم الكبيرة المستديرة والمستطيلة مثل خريطة هيرفورد Hereford.

وعلى النقيض من ذلك، فقد قام المسلمون بنقل الخرائط البحرية المنتمية إلى فئة الخرائط العلمية والمعتمدة على المعلومات الحقيقية والمتسمة بالطابع البطليموسي العالمي.

وأتاحت هذه الخرائط والتمثيل المستوي لخطوط السواحل لأحد البحار أو لبعضها إمكانية وجود خط ملاحة متواز مع خطوط الطول، وكانت نتيجة واضحة لتطوير المستمر في المعرفة الجغرافية والتقنيات الهندسية والتقنيات المتعلقة بقياسات الأرض مع أنه كان تمهيدا لظهور البوصلة التي ساعدت على تطبيق النظرية في الخرائط البحرية الفعالة. ومن الأمثلة التي تدل على مدى أهميتها في القرن الرابع عشر هو إصدار الملك بيتر الثاني Peter II في سنة 1354 مرسوما إلزاميًا يفرض على كل سفينة شراعية بحرية حمل خريطتين على الأقل على ظهرها لتأمين الملاحة. ومن المثير للدهشة أنه ليس هناك دليل على وجود خرائط ملاحة مميزة لبحر الشمال أو البلطيق قبل مجيء القرن السادس عشر بالرغم من أن هذه المناطق كانت تعج بالنشاطات البحرية. ربما يرجع ذلك إلى أنه بالرغم من وجود الخبرة العملية إلا أنهم قد افتقدوا المعرفة النظرية المنقولة للبحر المتوسط عبر الثقافة الإسلامية.

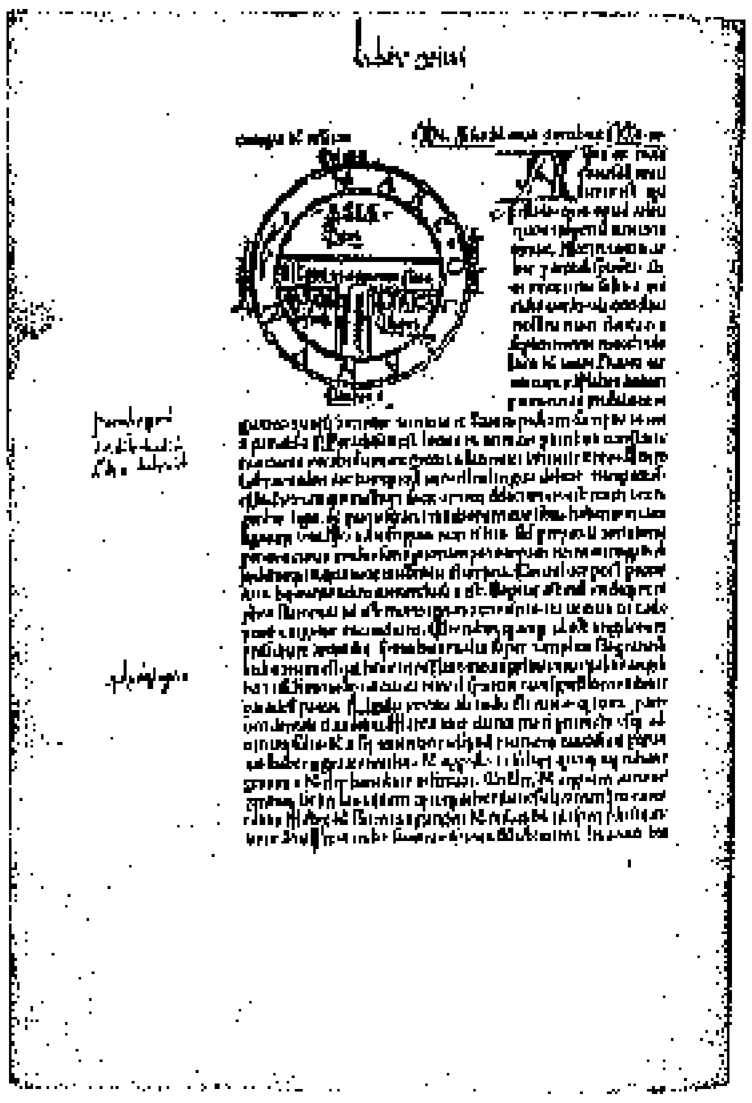

وتحتوي الخرائط البحرية على جميع الخصائص الجغرافية التي يعنى بها ربان السفينة، من سواحل سواء كانت خلجانا كبيرة، أو أراضي داخلية في البحر، أو خلجانًا صغيرة، وجزرًا صغيرة، وشعبًا مرجانية ومياهًا ضحلة، وتلالاً يمكن رؤيتها من عرض البحر، وموانئ، ومصبات الأنهار وغيرها. ومهمتها هي المساعدة في تحديد موقع السفينة الملاحي بتعيين الاتجاهات وضبط المسافات. تمثل الخطوط المستقيمة اتجاهات الرياح وتكون شبكة متساوية الزوايا وبمعنى آخر توضح الخريطة المستوية الزوايا المكونة بفعل الرياح على مدار الكرة الأرضية. كما تمدنا أيضا الخرائط البحرية بمعلومات مجمعة من أحاديث المسافرين بالإضافة إلى تقارير التجار والسفراء والحجاج المسيحيين وما شابه ذلك. كما تبدو أيضا هذه الخرائط مرتبطة بالملاحة البعيدة عن الشواطئ، فإن قيادة السفن لا تتطلب وجود خط متواز مع خطوط الطول، وكما لا تسمح الخرائط البحرية باستخدام خط الطول أو خط العرض فلا يمكن استخدامها في ملاحة المحيطات.

ولخلق شبكة متساوية الزوايا تربط كل من المراكز الفرعية العديدة لهذه الخرائط بواحد أو اثنين من المراكز السطحية ويتفرع منها الخطوط المتوازية مع خطوط الطول (اتجاه الريح) التي تشير إلى الاتجاهات.

أعلى، خريطة غرب البحر المتوسط عمل الإدريسي، القرن الثاني عشر.

أسفل، أسطوريان T.O طبع لأول مرة في سنة 1472.

في الصفحة المقابلة، خريطة العالم متعدد الجهات Polychronicon، عمل Ranulf Hleden، نسخة من القرن الرابع عشر، المكتبة الوطنية- باريس.

ويمكن مرشد السفن باستخدام هذه الشبكة من تحديد الاتجاه وذلك بوضع خط بين موانئ المغادرة ونقاط الوصول ثم يقوم بفحص الخريطة إيجاد الاتجاه الموازي للخط المستقيم المرسوم فيعين موضعه على البوصلة المغناطيسية. ولما كانت عملية النقل من الكرة الجغرافية إلى السطح معقدة، اتضحت الضرورة في تقريب تطبيق نظام الخط المتوازي مع خطوط الطول. وقد صحح الخطأ (في عدم تحري الدقة) فيما بعد بواسطة مركاتور Mercator في القرن السادس عشر. وبالرغم من ذلك فعند وصف خطوط العرض الصغيرة كما هو الحال في البحر المتوسط فإن خرائط الخطوط المتوازية مع خطوط الطول لا تبدو أكثر اختلافًا مما هو عليه الحال في التخطيط المركاتوري.

واتضحت أهمية البوصلة في كيفية رسم الخريطة البحرية. وقد استخدم بحارو المحيط الهندي هذه الآلة وهي اختراع صيني قبل أن يقدمها العرب إلى ملاحة البحر المتوسط وقد تم بشكل موثق استخدام هذه البوصلة في البحر المتوسط في العقد الأول من القرن الثالث عشر. ولم يسمع عن انحرافها المغناطيسي المعروف حتى نهاية القرن الخامس عشر وتعرض خرائط العصور الوسطى

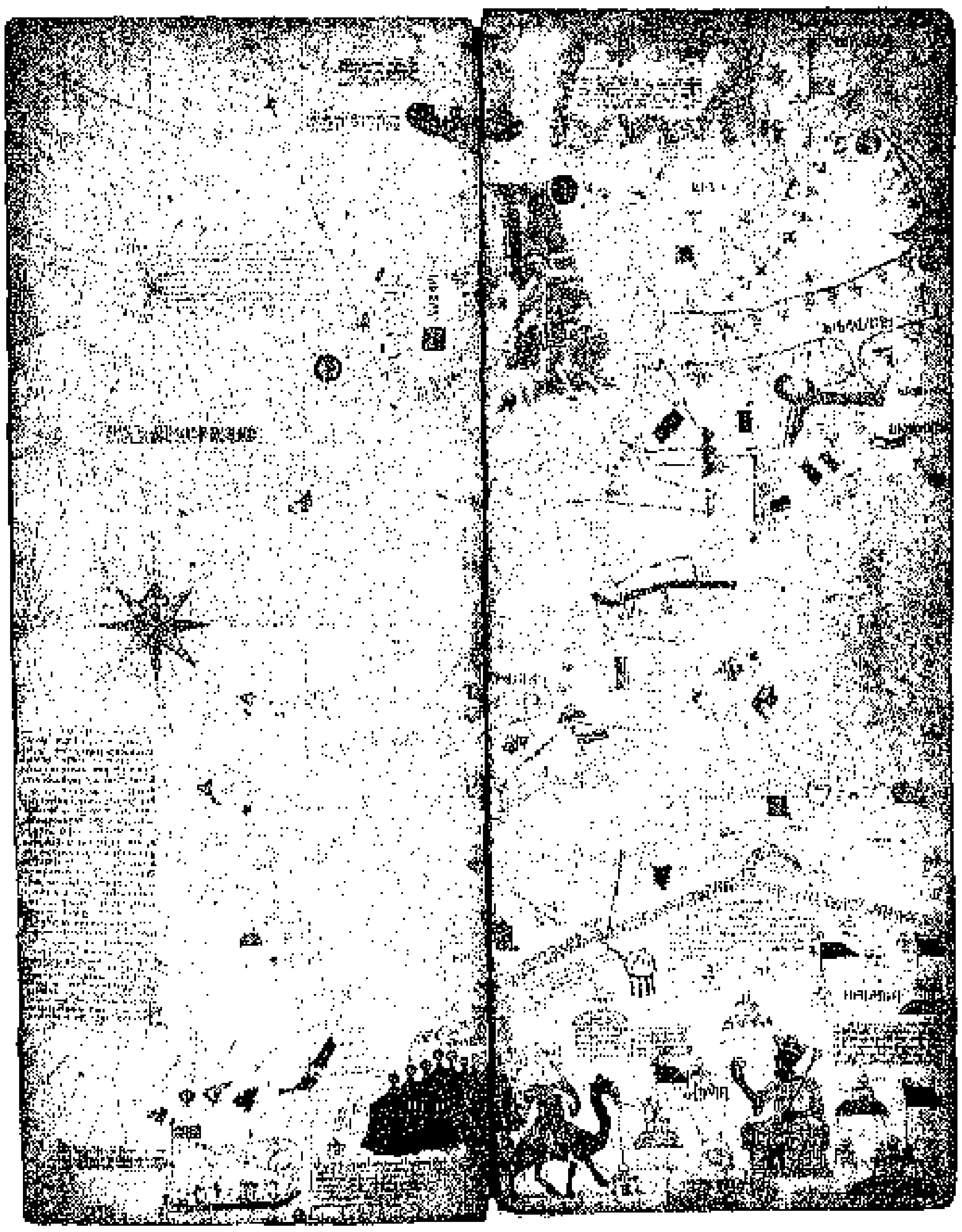

صورة الانحراف الشمالي للسواحل الشرقية للبحر المتوسط. غير أن هذا لم يبطل عملها وذلك لأن انحراف الخريطة يتناسب مع انحراف البوصلة المستخدمة لتعيين الاتجاه.

وبالرغم من أن تاريخ أقدم الخرائط البحرية المعروفة يرجع إلى القرن الرابع عشر، فإن بعض المصادر أشارت إلى وجود كتب وخرائط متعلقة بالملاحة في بداية القرن الثالث عشر. ولم تظهر الحاجة إلى الخرائط المعتمدة على نظام الخط المتوازي مع خطوط الطول إلا في القرن الثالث عشر عندما حاول المسيحيون السعي وراء السيادة الاقتصادية للبحر المتوسط. ومن ثم اضطرت المركبات لزيادة سرعتها وبالتالي فقدان الملاحة الساحلية. وبالمثل فقد تزامنت الملاحة البعيدة عن الشواطئ يدًا بيد مع التحسينات البنائية للمركبات نفسها. ومن أكثر الأشياء الجديرة بالملاحظة في ذلك الوقت الإعدادات الجديدة للمركب الشراعي واستبدال مجداف الدفة بالقائم الخلفي. وقد تطورت هذه التحسينات تدريجيًا منذ القرن الثاني عشر فصاعدًا. وما كانت تعرف الملاحة البعيدة عن الشواطئ

لنعرف لولا أن المسلمين فيها وحيث بلغت مدن جنوا والبندقية وبيزا عبر صقلية كما وصلت إلى ميورقة وبرشلونة عبر الأندلس.

كما وصفت خرائط القرون الوسطى حوض البحر المتوسط بتفصيل كبير وكان البحر المتوسط هو محور الاهتمام في هذا العصر ولكن الأمر لم يقتصر عليه فقد وصف أيضا كل من البحر الأحمر والبحر الأسود وبحر البلطيق. بالإضافة إلى سواحل المحيط الأطلسي التي تم تحديدها في ذلك الوقت خصوصا شبه الجزيرة الأيبيرية، وغرب أفريقيا والجزر البريطانية وشمال أوروبا. كما اشتملت بعض الخرائط على الأرخبيلات المعروفة مثل أرخبيل جزر الكناري أو التخيلي منها الناشئ عن التراث المسيحي نسبة للقديس بريندان أو استجابة للإشاعات التي تردد أن هناك أراضي غير معروفة على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي مثل أنتليا وفريسلاند والبرازيل.

وكان الدين هو السبب الرئيسي في ظهور(mappaemundi) خرائط العالم المسيحية السامية في العصور الوسطى التي أشارت إلى الجزء الأعلى من الخريطة بالاتجاه الشرقي بينما أشارت إليه

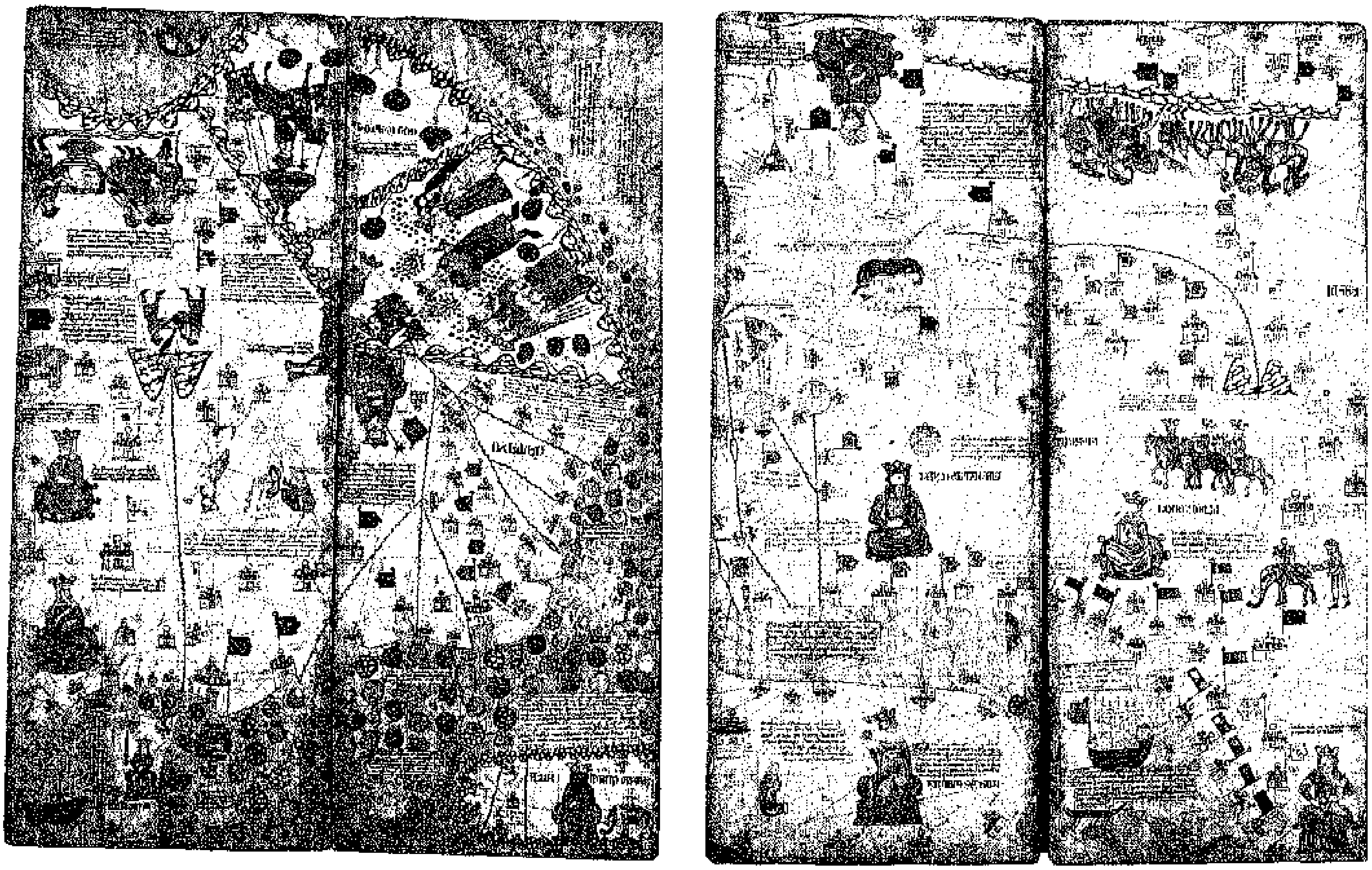

أربعة مقاطع متتالية من الأطلس القطلوني، عمل أبراهام كريسك، يرى من خلاله شبه جزيرة أيبيرية وغرب المغرب إلى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والشرق الأدنى، تعود إلى سنة 1375، المكتبة الوطنية – باريس.

خرائط العرب بالاتجاه الجنوبي. وجاء استخدام البوصلة ليفصل نهائيا في تحديد الاتجاه الشمالي. كما أظهرت أيضا الخرائط الإيطالية والميورقية الأولى الاتجاه الجنوبي المفضل لدى العرب. وقد انعكس تأثير الخرائط العربية على تصحيح شكل سواحل البحر المتوسط في الخرائط الميورقية على الرغم من عدم تصحيحه في الخرائط الإيطالية القديمة. وإذا تغاضينا عن الاعوجاج البسيط الناتج من جهلهم بالانحراف المغناطيسي نستطيع أن نقارن بين الخرائط البحرية الميورقية والخرائط الحديثة دون ملاحظة أي اختلاف عملي.

وتكمن شهرة هذه الخرائط في أسماء أماكنها الكثيرة جدا المدونة على شكل خط عمودي على خط السواحل. وتنتمي هذه الخاصية أيضا للعديد من الخرائط العربية التي ترجع للقرن العاشر مثل تلك الخرائط المنسوبة للاصطخري في كتاب صورة بحر الروم. وقد لوحظت جيدا عملية التحديث المستمرة لأسماء الأماكن خلال القرن الرابع عشر، والتي لم تفقد الدافع إلا مع بداية القرن الخامس

عشر فصاعدا، وحملت علامات للتحديث المتواصل في المعلومات عن التدفق الثابت للبحر المتوسط غير أن هذا لم يكن مقصورًا على البحر المتوسط فقط. وقد اشتملت خريطة العالم للراهب البندقي فرا ماورو Fra Mauro المكلف بها من قبل ألفونسو الخامس ملك البرتغال، التي من المحتمل أن تكون أخذت من مصادر جغرافية عربية، على أسماء العديد من موانئ شرق أفريقيا مثل موانئ المدن الاقتصادية العربية المعروفة زنزبار وكلوة ومومباسي وسوفالا Sofala، وذلك قبل قدوم البرتغاليين إلى هناك بثلاثين عامًا.

وفي بداية القرن الرابع عشر كانت ميورقة مركزًا مزدهرًا مشهورًا بصنع الخرائط، وقد قدمت كل ثقافة من الثقافات الدينية الثلاث جزءا من هذا التطور، فقد أضاف المسلمون المعرفة العلمية والبحرية والجغرافية، وساهم المسيحيون في تمويل هذا المشروع بشكل كبير، بينما كان اليهود هم المبدعون الحقيقيون لهذه الكنوز الخرائطية التي كانت على قدر كبير من الجمال والدقة.

وأقدم الخرائط الميورقية الموجودة موقعة باسم أنخلينو دلسيرت Angelino Dulcert في سنة 1339. وهي تنتمي إلى مجموعة تشتمل على ثلاث خرائط، مع خريطة مجهولة الاسم (تقريبا سنة 1327) وخريطة أنخلينو دلسيرت Angelino Dulcert سنة 1330 (طبقا لبعض التحريفات في اسم

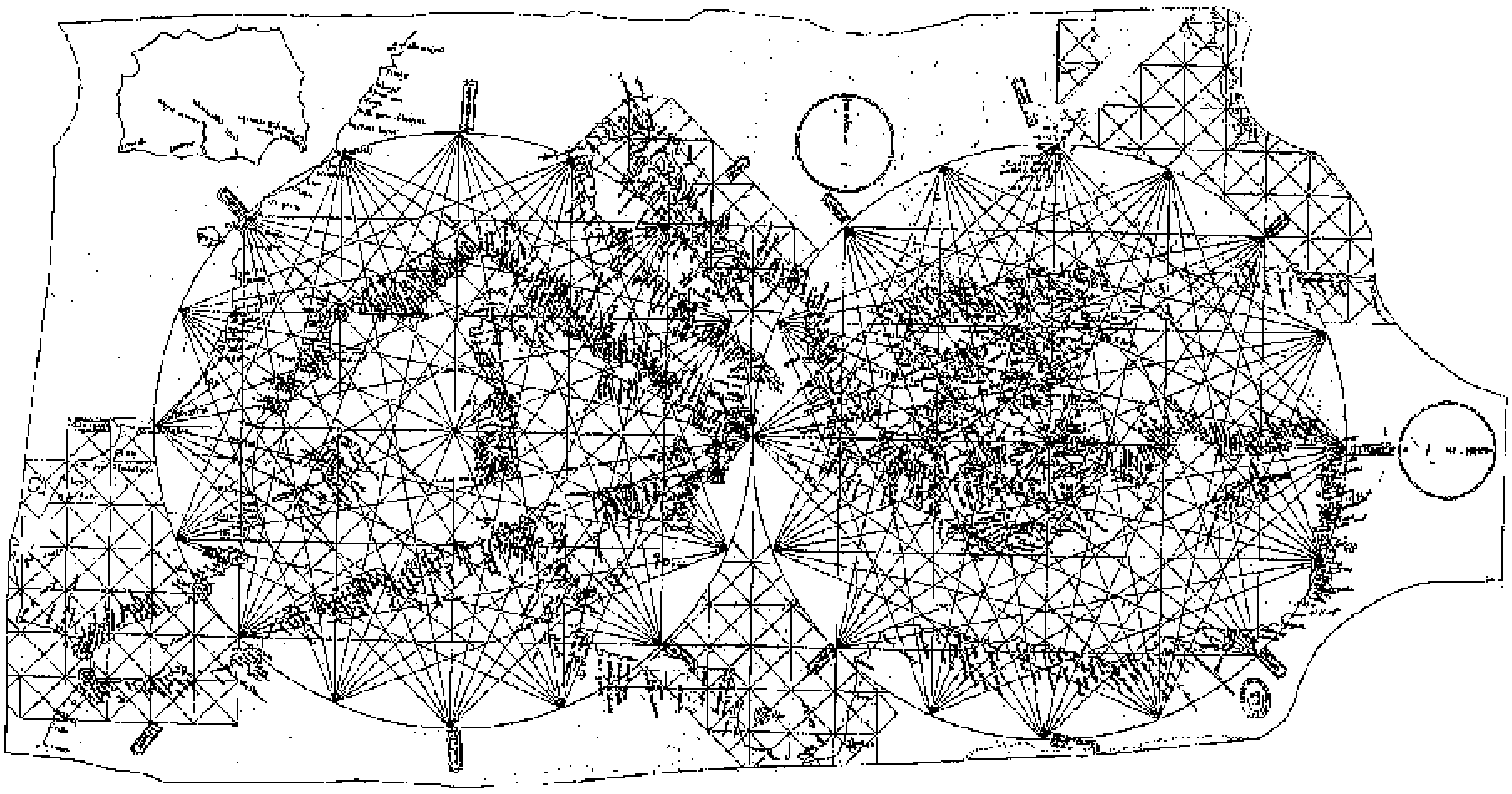

تصميم يطلق عليه خريطة Pisan، أواخر القرن الثالث عشر.

دلسيرت) وتنتمي تقريبًا لنفس ورشة العمل، فقد تشاركت في الخصائص الأساسية للمدرسة الميورقية والتي استمرت بالفعل دون تغيير طوال القرنين اللاحقين.

وبلا شك فإن النصير البارز لهذا التراث الميورقي هو أبراهام كريسك Abraham Cresques (1325-1387) وابنه جافودا كريسك Jafuda Cresques (1410) وعاش أبراهام لأشهر قليلة في برشلونة عام 1391حيث استقر جافودا سنة 1394 تحت اسم خامو رايبس Jaume Ribes بعد ارتداده عام 1391عام المذبحة اليهودية في مدينة بالما. وقد حظيا كمعدين لخرائط ملك أراغون بتقدير ملكي وارتبط الأطلس القطلوني Atlas Catalan ارتباطًا وثيقًا بعمل أبراهام كريسك والذي لم يوقع عليه ولم يؤرخ لكن تشير ثروة المعلومات المتوفرة بوضوح إلى أنه كان مؤلف هذه المجموعة من الخرائط والوثائق الفلكية والكوزموغرافية (علم تركيب الكون). وقد اكتشف أن العديد من مفاتيح الخرائط التي ظهرت في الأطلس القطلاني كانت بالفعل موجودة في خرائط ديولثيرت ودالورتو وشملت التأثيرات الأخرى المباشرة وغير المباشرة شاملة لكتاب الاشتقاقات لايزودور الإشبيلي والتاريخ الطبيعي لبليني والإدريسي ومصادر عربية أخرى على رأسها كتب العجائب والمسافرين الأوروبيين مثل ماركو بولو ومبشري الفرنسيسكان الذين قدموا إلى شمال الصين في القرن الثالث عشر.

وقد أحرز الأطلس تطورات متميزة في تصوير جزر الكناري ربما كنتيجة للمعلومات المستمدة من الحملات القطلانية والميورقية الأولى للأرخبيل والتي شنت فيما بين عامي 1432 و1386. كما كان الميورقيون أيضا هم أول من اكتشفوا حدود الساحل الأطلسي لأفريقيا في القرن الرابع عشر وذلك قبل إعلان معاهدة كورديسياس Tordesillas في 7 يونيه 1494 والتي مكنت البرتغاليين من فتح أراض جديدة على بعد حوالي 370 فرسخًا غرب جزر الرأس الأخضر تاركين المناطق الباقية تحت الإدارة القشتالية. وقد كان الوضع الاقتصادي جيدا في ذلك الوقت خاصة بالنظر إلى الصحراء الأفريقية والسنغال والنيجر ويحتمل أن يكون هذا بفضل العلاقات التجارية بين ملك أراغون وشمال أفريقيا أو ربما بفضل المعلومات المباشرة الناتجة من الأصل الشمال أفريقي المحتمل لعائلة كريسك Cresques.

لقد أدركنا بوجه عام من خلال الأطلس القطلوني والخرائط الميورقية تفاصيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعوب، والطرق التجارية، والسلع المتنوعة المكتسبة في أماكن محددة وإمكانيات التجارة معهم. كما حملت إلينا أخبارًا عن التاريخ، والملوك، سيطرتهم ومنازعتهم، بالإضافة إلى بعض الروايات الرائعة، مع أنها قليلة نسبيًا بالمقارنة لأدب ذلك العصر، مثل روايات حوريات الماء miga fembra I miga pexi I miga fembra I miga aucell (نصف امرأة ونصف سمكة ونصف امرأة ونصف طائر) والتي ذكر كريسك أنها في أراض بعيدة مجهولة ورأينا أن مفاتيح هذه الخريطة غالبًا لا تمدنا بمعلومات بحرية فقط بل اجتماعية، وتاريخية، ودينية وسياسية أيضا. وبجانب الإشارة إلى القدس الشريف ومكة المكرمة كداري حج فقد أمدتنا أيضا بمعلومات عن أحدث الاكتشافات بالأسماء والتواريخ وقد أشار فالسيكا Vallseca في خريطته التي رسمها سنة 1439 إلى جزر الأزور Azores, aquestes illes foren trobades per Diego Sunis peiot del rey de Porogall en l'any MCCCCXXII (تم اكتشاف هذه الجزر سنة 1422 بواسطة دييجو سونيس Diego Sunis ملاح ملك البرتغال).

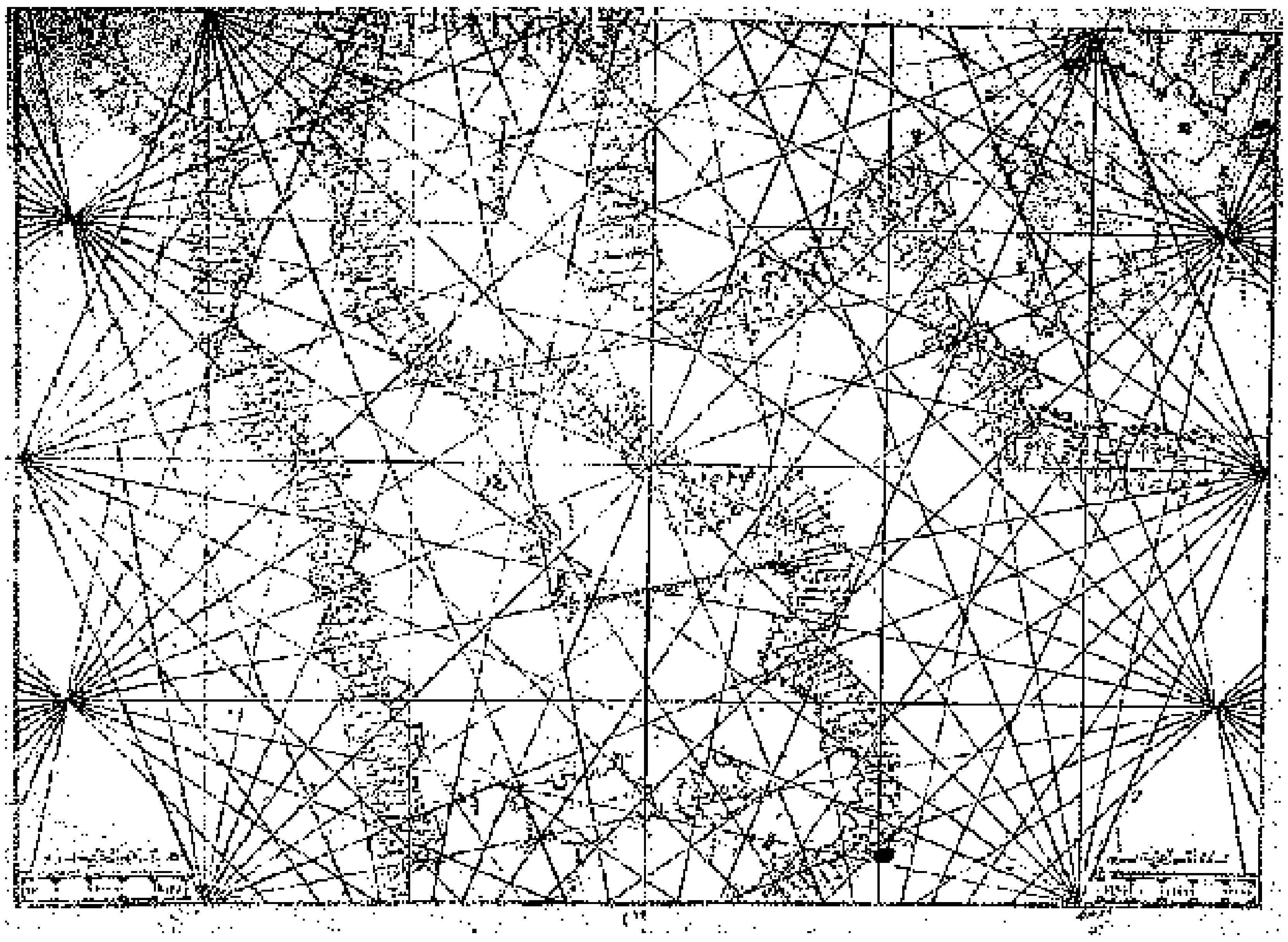

الخريطة المغربية، أوائل القرن الرابع عشر، مكتبة أمبروسيانا Ambrosiana– ميلان.

وكانت برشلونة تعد في القرن الرابع عشر مركزًا تجاريًا هامًا أو كان يتم من خلالها تصدير معظم الخرائط. كما عمل رسامو الخرائط من جميع الأنواع على مزاولة أعمالهم التجارية هناك. وأمر التاجر الفلورنسي باداسار دیجلي أبرياتشي Baddassare degli Ubriachi برسم 4 خرائط للعالم كهدايا لملوك أراغون ونافار وانجلترا فيما بين عامي 1399 و1400. وتدلي الوثائق الموجودة بالأسعار المختلفة للخرائط التي تحدد طبقًا لعدد الأشكال، والحيوانات، والأعلام، والشخصيات إلى آخره فكل منها لها تعريفتها (سعرها) المحددة. ولقد علمنا أيضا أنه فيما ما بين عامي 1390 و1392 قام التاجر البرشلوني دومينيك بيجول Domenech Pujol بتصدير خرائط إلى جنوه وصقلية وبيزا ونابولي والإسكندرية وبلاد الفلاندرز.

وبشكل جزئي فقد أمدتنا الرمزية في هذه الخرائط بمعلومات مستمدة من كتاب الإدريسي نزهة المشتاق وعلى وجه التحديد من الـ70 خريطة المقطعية وخريطة العالم منها على سبيل المثال أنه قد أشار إلى سلسلة جبال الأطلس بأشجار النخيل بينما رمز إلى جبال الألب بقدم طائر والنيل بحرف واي "Y" مقلوب. وأحيانا ما نجد مثل هذه الأفكار في الخرائط العربية القديمة مثل تلك الموجودة في قصر المأمون وتوضح أيضا بعض خرائط التراث الميورقي سواء رسمت بواسطة الميورقيين أو الإيطاليين (مثل خريطة فالديستس Valdestes chart وخريطة مودينا Modena chart المجهولة أو تلك الخرائط الخاصة بالإخوة البيازنة Pizigani brothers) التأثير الإدريسي فيها كما تجمع بين نهري النيجر والسنغال في نهر واحد عظيم يرجع إلى نهر النيل. كما أن لخرائط العصور الأوروبية الوسطى مثل خرائط متى الباريسي Mattew Paris في كتابه التاريخ الإنجليزي Historia Anglorum والحولية

الكبرى Chronica Majora والتي تعبر السفن في البحار والجبال والقلاع والكنائس والشخصيات البارزة والأساطير ؛ الملاحظ أن ... كانوا أسلافهم في رسم الخرائط كما تم ذلك في خريطة بيتوس أو خريطة هيرفورد حيث لون البحر الأحمر بالقرمزي ... حسب أساطير الكتاب المقدس واعتبرها بعض المؤلفين ... من سمات الخرائط الميورقية وبرهنة تأثير اليهودي.

وبحلول القرن الخامس عشر بدأت عملية شتات اليهودي Diaspora (والمسلمين في الغالب أيضًا) فخرج أعيان كثيرًا ... آثار المدرسة الميورقية، ويعد جبرييل دي فالسيكا Gabriel de Vallseca من أهم رسامي الخرائط في ذلك الوقت وهو يهودي نزح من برشلونة واستقر في ميورقة وتدرب في مدرسة جافودا كريسك حيث عمل ... فيما بين عامي 1439، 1457 وتتسم خريطته التي رسمها عام 1439 بمكانة خاصة وذلك لشراء أمريجو فيسبوتشي Amerigo Vespucci لها كما استخدمت كـ"بادرون" Padron (الخريطة الرئيسة / النموذجية للعالم الجديد) في مكتب المستعمرين الإسبانيين Casa de Contratacion في إشبيلية. ومع هجرة ... رسم الخرائط الميورقية إلى أقاصي إيطاليا منذ القرن السادس عشر والسابع عشر انحدارًا عليها في رسم الخرائط الميورقية في حين بقيت بعض الأسر ترسم الخرائط على الجزيرة لأجيال لاحقة مثل أسرة برونس Prunes غير أن هذا لم يدم طويلًا.

ونشأت المدرسة الإيطالية في نفس الوقت الذي نشأت فيه المدرسة الميورقية وقد انقسمت إلى قسمين: الجنويين والبيزيين Pisans والبنادقة Venetians الذين أنشأوا مدرسة خاصة بهم والتي غالبًا ما تخلو خرائطهم تقريبًا من العناصر الزخرفية، والقسم الثاني هم المهاجرون ... الذين تمسكوا بتراث أسلافهم مع بعض التحسينات الإيطالية.

ومن أهم العناصر الأساسية في المجموعة الأولى ... الرسام المجهول (الذي من المحتمل أن يكون جنويًا أو بيزيًا) خريطة ... la Carta Pisana التي تعتبر أقدم هذه الخرائط ويرجع تاريخها تقريبًا إلى نهاية القرن الثالث عشر؛ ويرجع أيضًا تاريخ خريطة كورتونا Cortona chart ومن أعمال ... بيترو فيسكونت Pietro Vesconte الجنوي إلى ما بين عامي 1311 و1320 وهي تعد من أوائل الخرائط التي تحمل تاريخ وتوقيعات.

وتعتبر نسبة كبيرة من هذه الخرائط هي خرائط ... باستخدام ... على ظهر ... في حين كانت خرائط الميورقيين مزخرفة إلى حد كبير وذلك لاستخدامهم الصور ... ؛ اعتمد الرسامون الإيطاليون ... في خرائطهم ... بشكل كبير على خرائط الإدريسي أكثر من الميورقيين وقد ... خرائط كاريجنانو Carignano وخرائط ... التي يرجع تاريخها جميعًا إلى بداية القرن الرابع عشر.

وقد عرف ... في إيطاليا باسم أوليفس Olives أو أسرة أوليفا Oliva family الذين ... وكانوا من الأتباع الإيطاليين لمدرسة الميورقية. الإخوة ... في أواخر القرن الرابع عشر ...

وكان للعرب أيضًا خرائطهم الملاحية ... تعد خريطة ... المغربية أقدم هذه الخرائط وجودًا حيث ربما يرجع تاريخها إلى بداية القرن الرابع عشر ... أنها ... فإذا صح تاريخها لأصبحت سبقت الخرائط الأوروبية ... الأوروبية ... ويرجع هذا إلى حقيقة أن العرب كانوا ... في صناعة ... Verner فقد ...

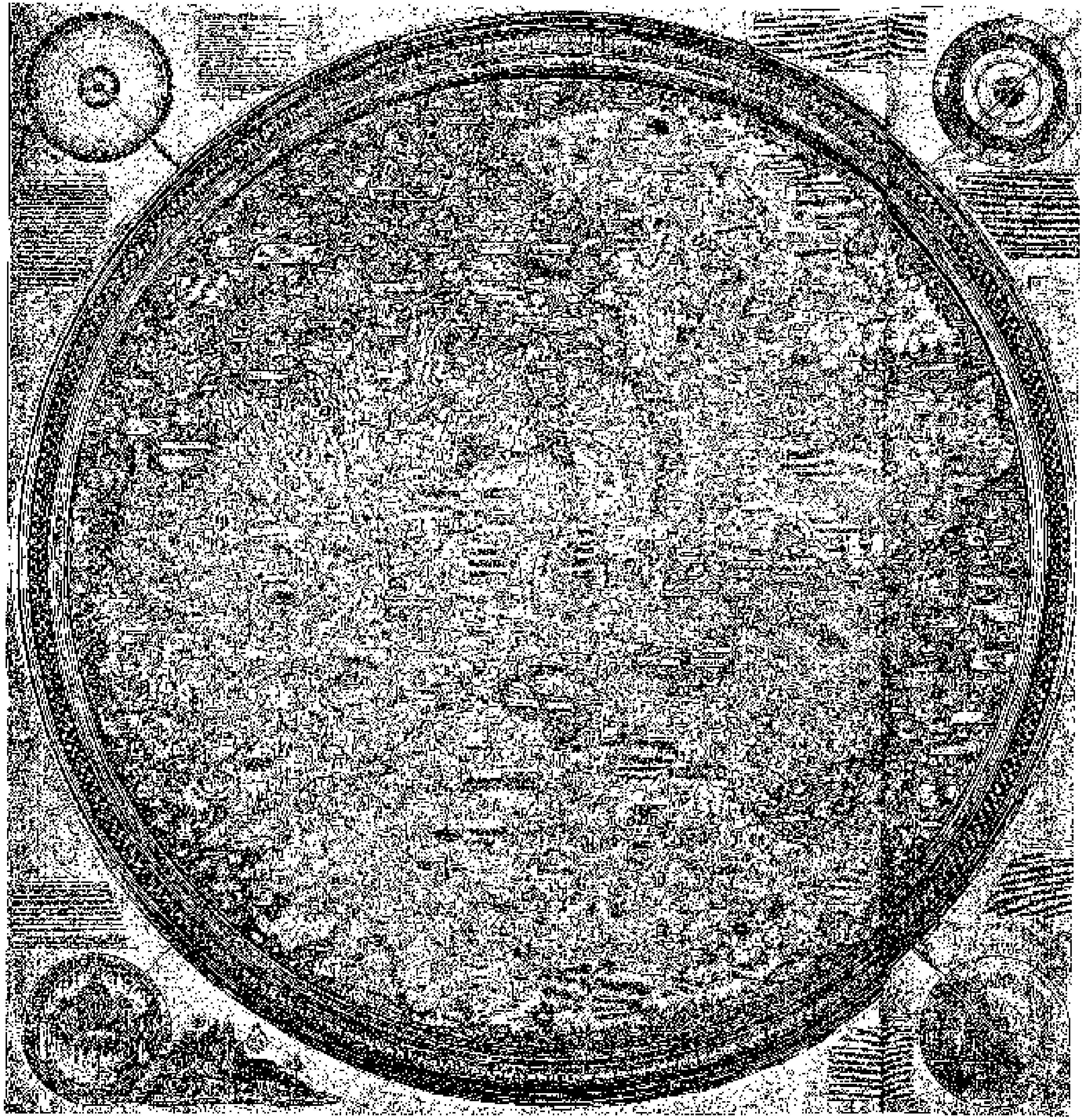

خريطة العالم ... بين عامي 1457 - 1459، المكتبة الوطنية Marciana ...

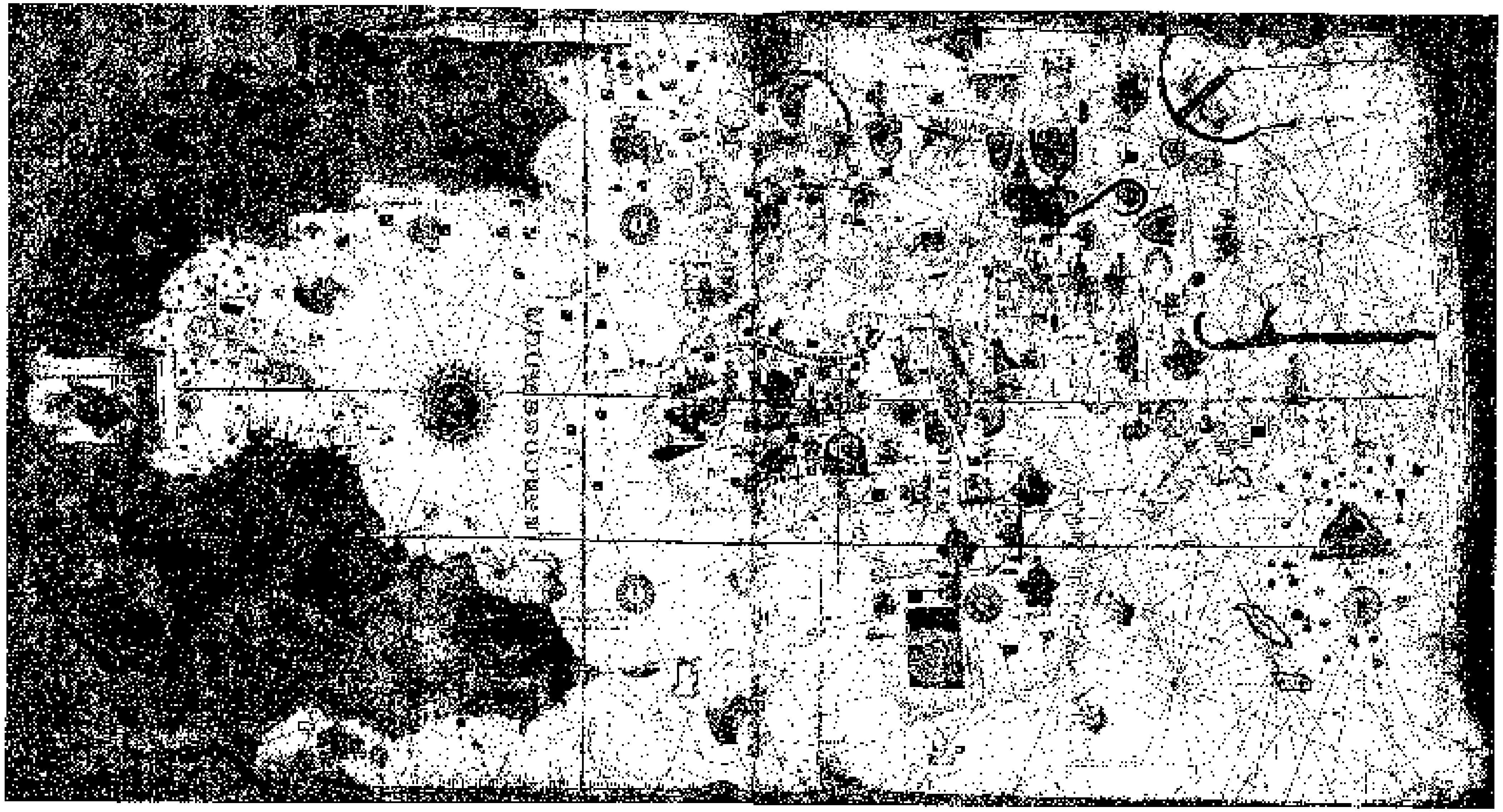

خريطة البحر المتوسط والمحيط الأطلسي: جول خوان دي لاكوسا، ترجع إلى سنة 1500، المتحف البحري – مدريد.

الغرب [illegible] في غرناطة أو المغرب، وتعتبر رسم خطوط السواحل على النمط الميورقي تأثيرا كما أن شكل الخطوط البحرية لمعظم الشواطئ مطابقة لمثيلاتها في خريطة دولورتو التي رسمت عام 1325.

وقد رسمت ثاني أقدم خريطة في عام 1413 على يد التونسي إبراهيم بن أحمد الكاتب، وقد خلت تماما من الزخرفة كما اعتمدت على تقويم قديم وهي نفس المنهجية الموجودة في خريطة إبراهيم المرسي في طرابلس سنة 1461 والتي تتسم بالتحكم بالمدرسة الميورقية، وتتوافق هذه خريطة المرسي أو الحسن مع نمط [illegible] من القانوني في القرن السادس عشر.

وتجدر الإشارة هنا إلى الأطالس المتعددة لأسرة الشرفي Sharafi التونسية بمدينة صفاقس، التي لا تزال توجد هناك بعض من هذه النسخ من الطالس الأطلسية التي يرجع تاريخها إلى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر وتعد هذه الخريطة ذات أهمية بالغة بوضع التأثير المجري للأدريسي على الجزء الشرقي بينما يحمل الجزء الغربي خصائص خرائط الميورقية وقد ظهرت هذه العلاقة في خريطة العالم لسنة 1579 التي رسمها علي بن أحمد بن محمد الشرفي في القيروان التي أخبرنا أنه نسخها من خريطة رسمها جده محمد والذي قام هو بدوره بنسخ سواحل البحر المتوسط وأجزاء من خريطة بحرية ميورقية. وقد شارك رسامو الخرائط الأتراك بأعمال متفرقة في (أوائل القرن السادس عشر) في رسم خرائط القرن الرابع عشر، وقد ألف بيري ريس Piri Reis "كتاب البحرية" والذي اشتمل على مئات الخرائط التي تتضمن أجزاء من خريطة العالم التي كان قد رسمها في عام 1512، بالرغم من أن الجزء الشرقي فقط هو أكثر الأجزاء المتبقية من هذه الخريطة، وتظهر ملامح [illegible] الخريطة Tugu المعجب [illegible] لنسخة الخرائط الميورقية وتصف أيضا خرائط السواحل الأمريكية بالرغم من مضي وقت قصير على اكتشافها.

بالرغم من ذلك فقد تغير هذا التصور بشكل جذري بانتهاء نهاية القرن الخامس عشر (1492 – 1498) فقد بدأ عصر الاكتشافات منذ انطلاق الرحلات البحرية التي أخذت كولومبس إلى الأمريكتين وفاسكو دا جاما إلى الهند، والتي أخبرت بالغة عن العالم الحقيقي ووضعت الصورة لمعظم ولرسم الخرائط التي كانت تتسم حتى ذلك الوقت بالطابع الميورقي والإيطالي، إلى مدارس ساجرس Sagres البرتغالية والإسبانية، وعندئذ أطلق الاكتشافات من تحول اهتمام شبه الجزيرة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي.

ليس هناك من مزج الخريطة من مدرسة ساجرس (البرتغالية) التي رسمت قبل القرن الخامس عشر، ومع ذلك فإننا نعلم جيدا أن هنري الملاح قد استعان بأحد الميورقيين في قصره للإشراف على مشاريع رسم الخرائط في مدرسته بساجرس، ذكر اسمه جاكوم (Jacome) فقط على الأقل الميورقي.

وقد ظهرت المدرسة الإسبانية في بداية القرن السادس عشر في إقليم موجودة في ضاحية في المدينة الرسمية لخوان دي لا كوسا Jaun de la Cosa (مؤلف الخريطة الأولى سنة 1500) لتصف المقاطعات التي اكتشفها كولومبس، ونحن نعلم أن الخريطة الأساسية لمكتب المستعمرين الإسبان في إشبيلية كانت في الأصل خريطة بحرية ميورقية، ونرى أن تكون خريطة فالسكا ألماتو (؟) [illegible] لها تصريحها الأرضي لمكتشفة سبعا بعد أن سبقت قائلة السفن لها.

وفي النهاية قام كل من الميورقيين والإيطاليين والعرب بجهد عالي وضع خطوط سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي المكتشفة في العصور الوسطى بينما أثبت إلى الخمسية والبرتغال معه وصف الاكتشافات الحديثة وما تم بعد ذلك وصف البحر المتوسط موطنه الإيطاليين والأتراك العثمانيين التي تطورت في القرن السابع عشر نتيجة تفوق الخرائط المطبوعة بعد زوال الأهمية من هولندا.

ابن خلدون الرائـــد

فابيان استابيه
الأكاديمية الملكية للآداب - برشلونة

ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

اتفق جمهور المفكرين في العديد من الدول الإسلامية والثقافة الغربية لما يزيد عن نصف القرن على اعتبار ابن خلدون واحدًا من ألمع العباقرة الذين أنجبتهم الإنسانية، على الرغم من التقلبات غير العادية التي اجتازها عمله العظيم "المقدمة" في منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، وكما هو معروف لكل شخص حسن الاطلاع على حياته الحافلة بالأحداث فمقدمته هي مقدمة للتاريخ العالمي الذي أتقنه ذلك الرائد العظيم للعلوم الاجتماعية بعقله الممتاز فيما يزيد عن أربع سنوات من العزلة تحملها في قلعة جزائرية.

خضع تقييم عمل ابن خلدون لتغيرات أعاقت التقييم الدقيق المتحرر من وجهات النظر المتطرفة، والأمر يستحق - مع التقدير لتقييم المؤرخين العظام- تذكر كلمات أرنولد توينبي "عبر ابن خلدون وصاغ فلسفة للتاريخ، هي دون شك أعظم عمل كتب في أي مكان وزمان بواسطة عقل مبدع"، وأستطيع أن أؤكد لكم إن عمل أرنولد توينبي المبدع لا يزخر مطلقًا بمثل هذه الملاحظات الإطرائية. وقريبا من بيت القصيد نجد رأي أورتيجا وجاسيه اللذين يوجهاننا إلى نفس الاتجاه، ففي مؤلفهما "المشاهد El Espectador" يصرحان بأن ذهنًا صافيًا ومرتبًا جيدًا ومتبعًا للتقليد اليوناني العظيم سوف يجعلنا نتهمك في هذا العالم التاريخي حيث تفقد أرواحنا سيرها: إنه ابن خلدون فيلسوف التاريخ الأفريقي، إن مقدمة ابن خلدون كتاب كلاسيكي كان لقرابة نصف قرن تقريبا ضمن تراثنا المشترك، ولم يكن ابن خلدون راضيًا برواية أحداث الماضي فحسب: وإنما كان يرغب في فهمها.

منذ منتصف القرن العشرين، وبخاصة منذ التطور المنهجي للمقدمة في سنة 1932، أصبحت حكمة ابن خلدون، والبحث المتنامي غير المسبوق، والمؤتمرات المعقودة في الرباط والقاهرة وتونس، حقلاً متناميًا للمعرفة. وكما كان متوقعًا ركز البحث في الشرق والغرب على أحداث حياته الصاخبة؛ بشكل خاص على نشاطاته في غرناطة كمبعوث لملكها إلى بيدرو القاسي، هناك إجماع فيما يتعلق بحقيقة أن عبقرية هذا المبدع، الذي أراد أن يفهم مثلما يروي: استطاعت زيادة عدد الباحثين في مثل هذا الوقت الحاضر في غرناطة وإشبيلية ومالقة الذي قاموا بذلك بمناسبة الذكرى المئوية السادسة لوفاته. ولحسن الحظ إذا كانت أهمية عظمى قد وضعت على عزلة ابن خلدون في قلعة جزائرية، فإنه يوجد الآن كم من المعلومات المتزايدة أكثر من أي وقت مضى تتعلق برحلته إلى الشرق ومهمته كقاض في القاهرة.

ولا تزال حياة ابن خلدون تحوي أسرارًا نبوح بها، فدائما ما كنت متاثرًا بأسلوب اللامبالاة الذي أظهره: "أنا الذي ينتمي إلى واحدة من العائلات الخمس الرئيسية في إشبيلية".

دعنا نأمل في أن يمدنا ما ذكر عاليه، وكذلك الأبحاث العلمية لهذا العام، وتلك الخاصة بالعام القادم في تونس، بإطار متطابق لحياته، لأنه في حالات العبقريات مثل ابن خلدون (الذي

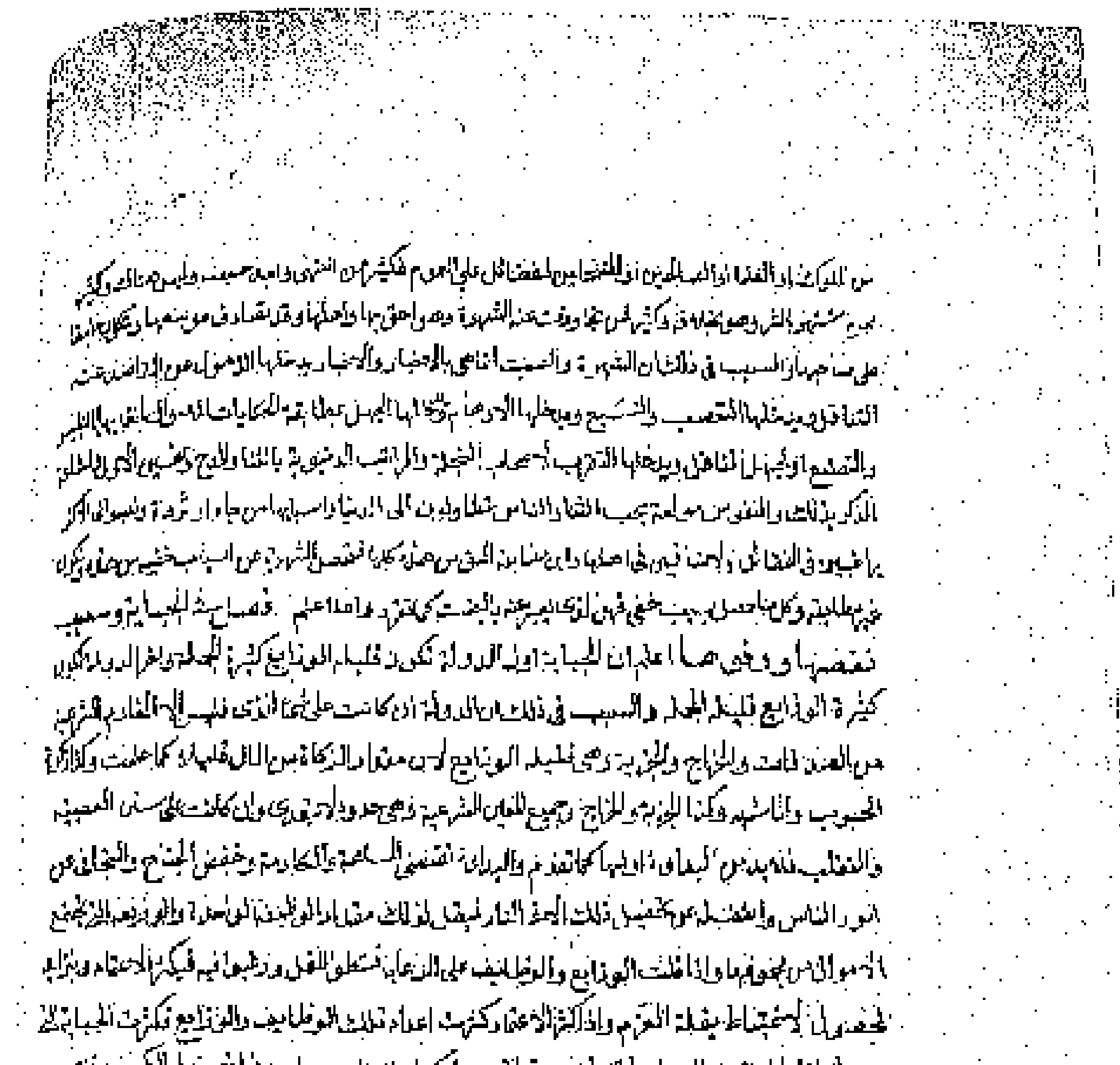

صفحة من المقدمة حول "الضرائب وأسباب انخفاض وارتفاع الإيرادات الضريبية"، نسخة من مكتبة عاطف أفندي، اسطنبول، 1936. عرض ابن خلدون جزء من نظريته عن الضرائب على نطاق "يجب أن يكون معلوما أنه في بداية الدولة ضريبة الدخل للمحاصيل الكبيرة المقررة تحصل من الصغار. في نهاية الدولة ضرائب المحاصيل الصغيرة تمثل دخلا كبيرًا من التقييمات. "فأحدث بيان ما يحدث هنا"

توقع في بعض الأوجه ما عرف باتحاد الحضارات)، الشيء الوحيد الذي يفعل هو الاستمرار في العمل عليها.

وبطبيعة الحال يضع العدد الضخم من الدراسات في كل من الغرب والشرق، ابن خلدون ومقدمته في منظور أقل عظمة من ذلك الذي أظهره أرنولد توينبي؛ واليوم يجب أن تقبل تلك الدراسات كصيحة بوق لمؤرخ عظيم يعلن مساهمته للثقافة العالمية.

من ناحية ثانية، من المنطقي إدراك "عدم قدسية" ابن خلدون. وعلى أية حالة، وكما كانت لدي الفرصة للقول في سرقسطة سنة 1991، يجب أن نصر على حقيقة أن نقد سيرة ابن خلدون تظهر في سيرته الذاتية (أكثر مدونة شمولية في الأدب الإسلامي)، روايته التي تشير لانتمائه إلى واحدة من العائلات الخمس النبيلة في إشبيلية، وهي عائلة أجبرت على التراجع إلى غرناطة في مواجهة اقتراب تهديد الجيوش المسيحية. وكلا الأمرين حدثا في سنواته الأخيرة في مملكة غرناطة، وفي سفاراته إلى بيدرو القاسي الذي قدم له كل أنواع الحوافز في محاولة غير ناجحة لإقناعه بالبقاء في ذلك الظرف.

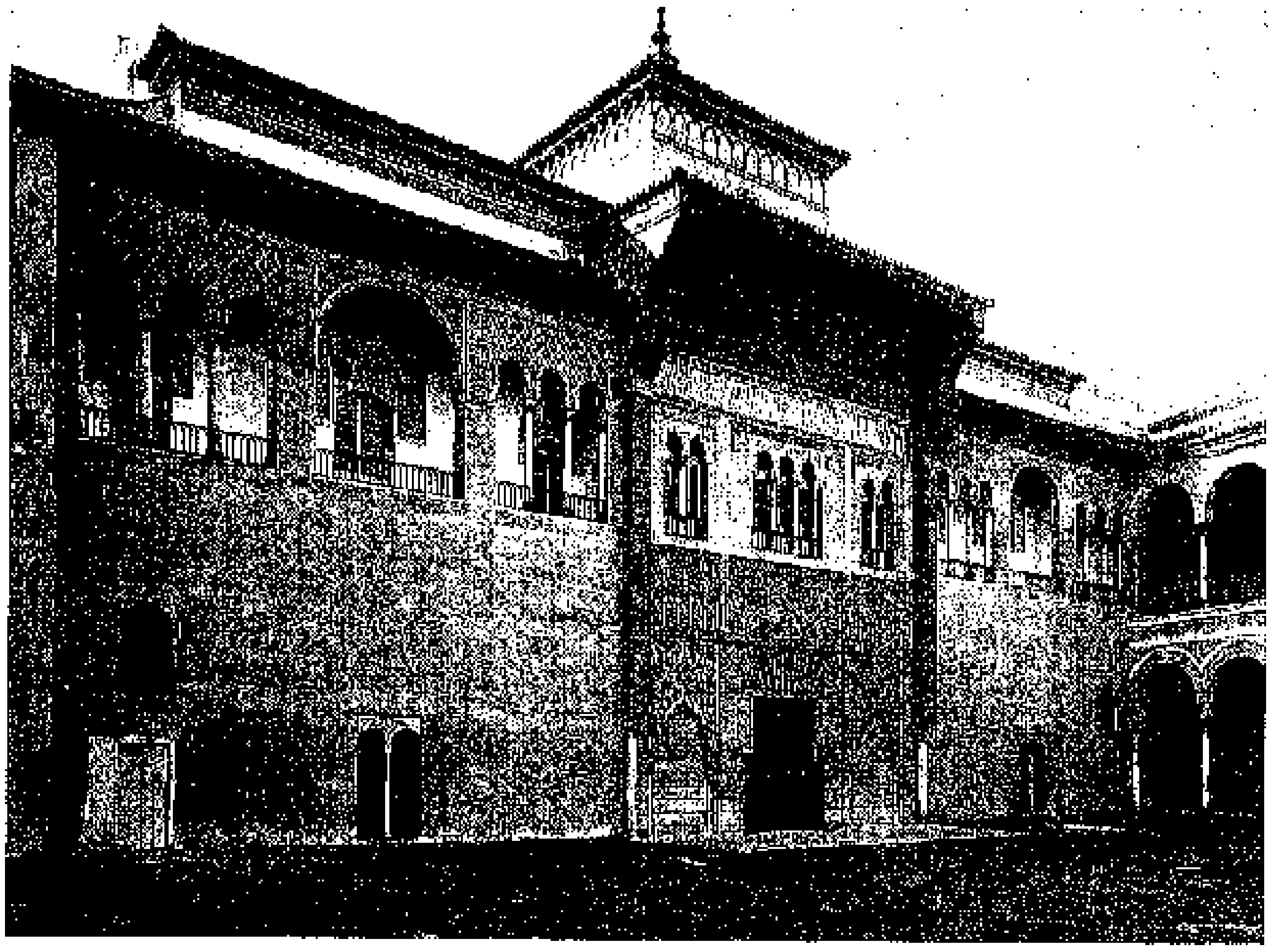

واجهة لقصر الملك بيدرو الاول في القصر الملكي في إشبيلية.

ويجب أن أعلق مرة ثانية على الرواية المفصلة لفرانز روزنتال -كاتب أفضل ترجمة إنجليزية للمقدمة ويقودنا هذا لتسجيل الحياة الزاخرة بالأحداث لابن خلدون الذي-حتى عندما أصبح موظفًا ساميًا في البلاطات المغربية- جرب الحظ وسوء الحظ الذي نتج عن عزلته لمدة أربع سنوات في القلعة المغربية الشهيرة.

وبإسقاط رحلاته الجديرة بالملاحظة؛ نستطيع أن ندرك من تعليقات فرانز روزنتال الصائبة عن تفاصيل سيرة الرحالة ابن خلدون أن بطلنا كان مبعوثًا خاصًا رسولاً بين ملوك غرناطة والملك المنصب حديثا في إشبيلية بيدرو القاسي- الذي قدم له كل الحوافز مثل الخيول الأصيلة وإمكانيات عظيمة في محاولة لإغرائه. ويخبرنا روزنتال أنه في تلك المناسبة بقي ابن خلدون مخلصًا لملك غرناطة، وكوفئت عودته المتوقعة لغرناطة بسيادة على إقطاعية في ألبيرة، الواقعة في فج غرناطة، الحق الذي مارسه لسنوات كثيرة.

في المغرب تعرض ابن خلدون تقريبا لسلسلة لا نهاية لها من التقلبات السياسية التي قادته أحيانا ليشكل الجانب الفائز، وفي مرات أخرى كان بين الخاسرين، ومن المعروف أنه في واحدة من الحالات يحاكي أحيانا النسخة المطابقة من أمير مكيافيلي، ويحصل على الثمار المرة للهزيمة السياسية التي تقوده لأن يصبح أهم اللاجئين في العلم العالمي، ودعنا لا ننسى أن اللاجئ في القلعة الجزائرية لما لا يقل عن أربع سنوات وجد الهدوء الذي حدث أيضا في إسبانيا في زمن فرناندو السابع، والحافز لينشر خبرته، الناتجة عن الكثير من الرحلات والآراء، ويسلم تاريخ العلم باحترام أن ابن خلدون كتب المقدمة هناك.

كانت مساهمتي الثانية في فكر ابن خلدون في لشبونة سنة 1992 الذي نشر في Actas del Encuntro Iberico sobre Historia del pensamiento Economico في صفحات 461- 465. وفي هذه المناسبة وفي التعهد الخاص بإغلاق هذا المؤتمر حصلت على فرصة حضور لويس بايك الأستاذ بجامعة لوفيان للقول بأن مساهمته العظيمة تسمح يسمح لنا بإزالة قدسية ابن خلدون على أساس الحجم الضخم من البحث الذي نفذ، وأن فترة شهر العسل

الخاصة بالافتتان باكتشاف ذلك الكاتب قد انتهت، وأن فترة أخرى أكثر موضوعية وأكثر وسطية تبدأ فيما يتعلق بأهمية ذلك الذي يجب أن نعتبره دون شك أول مفكر بمنظور واسع للعلوم الاجتماعية في العالم الإسلامي، ولقد كان توينبي الأداة الرئيسية في عملية تقديس ابن خلدون عندما قال حرفيًا إن ابن خلدون التونسي كان عبقريًا عربيًا نجح خلال أربع وخمسين عاما من عمره في كتابة قطعة حيوية من الأدب تقارن بأعمال ثوثيدوس وميكيافيلي لمنظورها وعمقها ورؤيتها وفكرها. وأضاف "ابن خلدون نجم يلمع بسطوع؛ لأنه يفعل هذا في عالم الظلام الذي يضع عليه الضوء"، فبينما مثل ثوثيدوس وميكيافيلي وكلاريندون، معالم ومواضع لامعة. فإن ابن خلدون كان الضوء اللامع الوحيد في ركن السماء.

وتشير إحدى الإفادات المعتمدة على إعادة تقييم واقعي على نحو متزايد غير مسبوق لانعدام أتباع ابن خلدون، والحقيقة أن ما وجد كان كثير من القراء للمقدمة الذين تجمعوا في لقاءات تعليمية، للاستماع لقراءة النص الأهم في الحضارة الإسلامية.

وفي المرحلة الأخيرة من حياته: عين ابن خلدون قاضيًا في ساحات العدالة في القاهرة الزاخرة بالأحداث؛ كذلك كان في مرحلته الأخيرة لتصحيح المقدمة، ويبدو أنه من الملائم تفهم التوزيع الضئيل للمقدمة بسبب تأخر الدول الإسلامية لمائتي وخمسين عامًا في تطبيق اختراع جوتنبرج، كما لاحظ دانييل بيبس Daniel Pipes في الواقع.

وتستمر بعض خيوط التقصي في تقديم خيارات مناسبة مثل الذي كشفته في مالقة منذ بضعة سنوات مع الإشارة إلى عبد الله محمد بن الأزرق، الذي ولد في تلك المدينة، ولم يكن الأثر الباقي للمقدمة معروفًا بدقة، وتوجد كتابات شخص غير مؤهل كتابع، ولكنه يتصرف كناشر لعلم ابن خلدون الذي لم يكن قد أعيد نشره فيما بعد في جامعة مالقة.

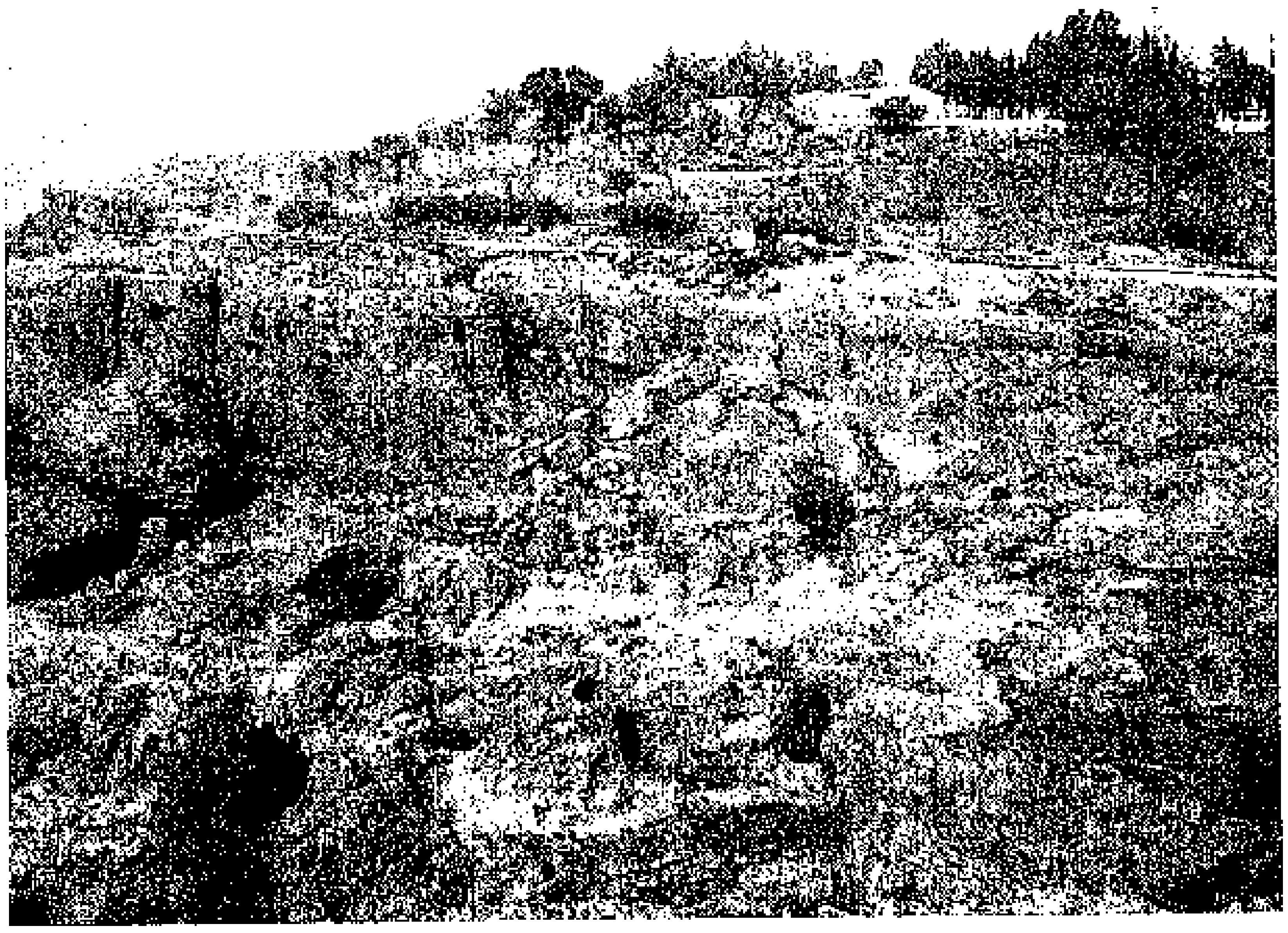

بقايا قلعة ابن سلامة في الجزائر والملجأ الصخري الذي يعرف بكهوف ابن خلدون.

وقد تزامن نشر عمل لويس بايك[1] في المجلد الذي يحتوي البحوث المقدمة خلال المؤتمر السنوي المنعقد في كلية بوسطن فيما بين 10 – 13 يونية 1994، تزامن مع الاحتفال بالذكرى السنوية الأربعين لنشر مؤلف جوزيف أ. شومبيتر بعنوان "تحليل التاريخ الاقتصادي"، ويقودنا السبب الذي عرضه لورانس س. موس إلى المنظور الحقيقي لسلسلة أعمال من بينها لويس بايك الذي – وفقًا لأجندة HEA – يوفر دراسات عديدة شاملة تهدف للبحث في أجزاء التاريخ التي كانت تعتبر فجوات في كتاب أستاذي. ولا تزال تلك الأحداث غير واضحة بسبب المأساة التي حدثت في الثامن من فبراير سنة 1950، التي –بعد أربعين عامًا- تحدث عنها الاقتصاديون المجتمعون في HEA.

وفي المجلد سالف الذكر نجد أعمال لورانس س. موس، ومقالات مارك بيرلمان هي تجميع لكتاب شومبيتر "تحليل التاريخ الاقتصادي" المعاد طبعه، يساوي وزنه ذهبًا، وكتاب روجر باكهويس "الرؤية والتقدم في الفكر الاقتصادي"، وقد جاء شومبيتر بعد كوهن، ومعالجة شومبيتر التي لم تكن ضمن الاتجاه العام للاقتصاد الأمريكي الذي وضعه ويليم باربر، وكتاب Popularizer، بيتي بولكينجورن كمساهمين للاقتصاد: The Unappreciated Tribe and The Historiography of Economics: الاقتراب المنهجي لآنني كوت وجدوما لالامنت.

1 ملاحظة أخيرة تقودنا لدراسة لويس بايك الاستثنائية. Joseph A. Schumpeter, Historian of Economics "Ibn Khaldun s political and Economic Realism" in منظورات على تاريخ الفكر الاقتصادي. أوراق منتقاه من مؤتمر تاريخ المجتمع الاقتصادي 1994, edited by L.S.Moss, 1996. pp. 83-89

تغطي الأعمال المذكورة سابقًا الحقل الأوسع للانعكاسات المنهجية التي ظهرت من البحث على النص الصادر في 1950، والشكر ليس فقط للجهود التي لم يتغنّ بها أحد لإليزابيث بودي شومبيتر، لكن أيضًا للفائز بجائزة نوبل واسيلي ولونتيف.

والسؤال الذي بقي للإجابة اليوم يتجاوز مجال علم المنهج، ومع ذلك فهو دقيق. فبالنسبة للحالة قيد الإعداد يتعين على تسجيل وجود الفجوات المكتشفة في التاريخ، إذ توجد أهوار ضخمة في تصنيف الفكر الاقتصادي، ويجب أن نضيف إن كل "الفجوات" لم تكتشف، ولكن ما تجب الإشارة إليه وفقًا لمنظور البعض هو الظروف المفاجئة المتعلقة بـ"الفجوة" في الفكر الفارسي، كما قدمت في عمل حميد حسيني بعنوان "عدم دقة أطروحة الفجوة الكبرى الشومبيترية: الفكر الاقتصادي في العصور الوسطى في إيران".

ويجب القول أن قائمة "الفجوات" لا تشمل فقط المقال المستشهد به كثيرًا للويس بايك، ولكن أيضا مؤلف نيلسون ب. لاند عن "الملكية: تكاملها وتوزيعها"، وكتاب المقريزي "إغاثة الأمة بكشف الغمة" 1403 - 1406، ترجمة وتعليق مارك توماس.

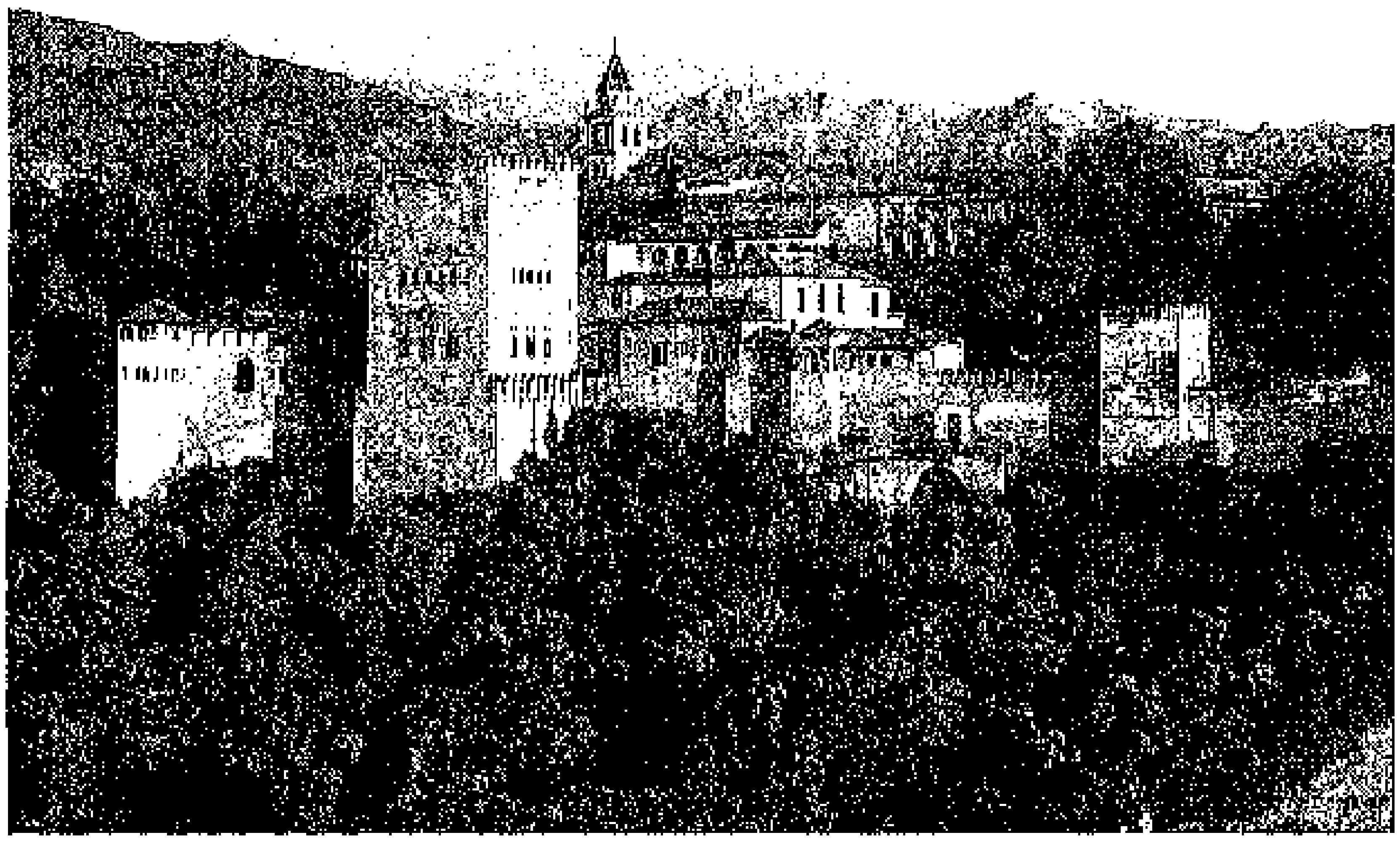

قصور بني نصر في الحمراء، غرناطة

أيا كان الأمر، فإن الشعور بأن ابن خلدون كان الضحية لفجوة النظام الأعلى توجد في المقدمة (التي كتبتها بنفسي) لمؤلف شومبيتر "تحليل التاريخ الاقتصادي"[2]، وما يجب أن يولد في الذهن أنه في صفحة الثامنة عشر في المقدمة التي تقول في ضوء الافتراض الأساسي للمقدمة وفقا للطبعة الإسبانية الثالثة لكتاب تحليل تاريخ الاقتصاد، كان أكثر من كونه مستحسنًا إضافة بعض الفقرات المختصرة التي كان شومبيتر بكل تأكيد سوف يضمنها في عمله الممتد والمكثف. نحن نشير إلى الإشارات الهامشية التي تذكر ابن خلدون، رائد الجزء الأعظم من العلوم الاجتماعية، ويلمح شومبيتر إلى ترجمة البارون دي سلان التي تضيف أن "القليل جدًا كان معروفًا عنه"، ومنذ سنة 1954 أصبح ابن خلدون بالتأكيد هدف الباحثين في كل أنحاء العالم، وقد انجذب بعضهم لبديهياته في الجغرافيا البشرية، والاقتصاد، والمجتمع، وآليات القوة، وهجرات السكان، والنظم السياسية والعادات بصفة عامة.

شكل ابن خلدون (تونس 1332– القاهرة 1406)، واحدًا من أهم الرموز المرتبطة بالعالم الإسلامي، وبخاصة العالم الأندلسي المسلم، وعمله العظيم –المقدمة– الذي ترجم بشكل سيئ من قبل مؤسسة الثقافة المكسيكية، يجب أن يرجع إليه في الترجمات الرائعة لفرانز روزنتال وفنسنت مونتي.

ومن بين المراجع البيليوغرافية ذات الطراز الأول، نستطيع أن نضمن مراجع جوزيف سبينجلر Spengler (1963)، وسوفان أنديك بعنوان "علم اجتماع القرن الرابع عشر للمالية العامة" (1965)، وجان دافيد س. بولاكيا بعنوان "ابن خلدون اقتصادي القرن الرابع عشر" (1971)، وقبل كل ذلك مؤلف ل. حداد بعنوان "نظرية النمو الاقتصادي والتنمية في القرن الرابع عشر" (1977).

يضاف إلى تلك الملاحظات المختصرة أنه "لا يوجد شك أننا نفكر في واحد من الأشكال التي استحقت عناية جوزيف أ. شومبيتر الدقيقة". ولأجل ترجمة أكثر كمالًا، تتضمن سيرة والتر دبليو فيشيل والتكملة حتى سنة 1193، انظر فابيان استابيه (برشلونة 1993).

2 Barcelona,1994

مع ذلك، فالحالة التي ظهرت بين الذين درسوا الجانب الأكبر من حياة ابن خلدون والمقدمة بكثير أو قليل من الحظ، هي في كثير من المناسبات العرضية للجانب الذي يعالج تكرار القدسية. على سبيل المثال كانت لدي الفرصة لأختبر في عملي عن ابن خلدون الذي نشر من خلال Actas del Encuntro Iberico sobre Historia del pensamiento to Economico في لشبونة 1992. مساهمات لويس بايك والمناقشات الحارة إلى حدّ ما مع الأستاذ مارك بلوف التي أفادت في تذكيرنا أن موضوعاتنا لا تزال بها حياة ومفتوحة للمناقشة.

وتمهد أعمال لويس بايك المذكور أعلاه الطريق لمنهج بحث جديد يعنى كما يلزم بتقرير في أي من حقول العلوم الاجتماعية بدون الوصول إلى أقصى درجات التقديس، ويمكن أن يقال أن ابن خلدون والمقدمة يدعيان بحق دور "الرائد". وفي تلك الأمور لم أنس الملاحظات الاحتياطية التي سنها أحد أساتذتي؛ الأستاذ خوسيه ماريا ناهارو مورا فيما يتعلق بالميل للانتشار الواسع في أوقات الندرة الاستقصائية، لتوضيح التقدم العلمي للاهوتيين والطبقة المستنيرة[3] وهكذا، والسقوط في شرك ادعاء اكتشاف "رواد الرواد" وهي بالتأكيد ليست حالتنا هنا.

أسوار وقلعة مدينة قرمونة من كتاب مذهب من الثلث الأخير للقرن السادس عشر.
في الصفحة المقابلة تمثال ابن خلدون في تونس.

ودون شك أن المراجع المهتمة بالتحرك الأخير مع الأسرة والانتقال من تونس إلى الحياة في مصر هامة للغاية. ومن المعلومات الشائعة أنه شغل في مصر منصب قاضي، وعزل منه في مناسبات عديدة، مع الحظ العثر الذي ميز حياته.

وتعكس المساهمات الجديدة التي تستحق الذكر في الوقت الحاضر، العدد المتنامي من الأعمال التي تقترب من الموضوع بصفة عامة من منظورين: تلك التي تستخدم بمهارة المصادر المتعلقة بحياة ابن خلدون مع التأكيد الروائي على إقامته النهائية في القاهرة، وأحيانًا تتضمن روايات مفاجئة عن نشاطاته هناك كقاض، ويظهر جزء كبير من تلك الأعمال ابن خلدون وهو مكرّس كلية للعقيدة الإسلامية. ثم لُدينا الذين ربما يضعون الكثير من التأكيد على مغامرات ابن خلدون المبالغ فيها كمبعوث خاص إلى تيمورلنك الجبار. هنا لا نستطيع أن نتغاضى عن الفرصة لإظهار أن ذلك الجزء من جهوده -الذي تبع محادثاته مع تيمورلنك- ربما يكون شيئا مختلفًا مختلف من خيال هؤلاء الذين رافقوا مبدع المقدمة.

وبعد ما يزيد عن نصف قرن من البحث والتدريس (مع فترات فاصلة قصيرة) وصلت لاستنتاج أنه يوجد قليل من الأعمال الخالدة التي يمكنك الرجوع إليها في البحث عن حوافز جديدة وتقضي الذكريات المتفردة، بأنك ستنتهي مستعدًا بأن تطبق على نفسك وعلى الآخرين العلاج الذي أوصاني به صديقي وزميلي مارتي دو بيكيه في مناسبات عديدة: قراءة وإعادة قراءة فصول دون كيشوت التي كرسها ثيربانتيس الخالد لإقامته في برشلونة، والجدير بالذكر أنها المدينة الوحيدة التي وصفها النبيل الألمعي في عمله.

وفي حالتي وحالة آخرين من المكرسين أنفسنا لدراسة عمل ابن خلدون البارع، فإنه ليست مجرد قضية البحث في فصول محددة، لأن جميعها تستحق، وعن رحلاته إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وإقامته في إشبيلية وغرناطة وقرمونة، يجب التنقيب بعمق في العمل كله "المقدمة"، بما في ذلك الصفحات اللاذعة عن سيرته الذاتية، وفيما مضى قبل غالبية الخبراء، من مختلف البلدان – العدد في ازدياد– قبلوا الإبداع المتبلور في مقدمته بالتسليم به، كالبادئ الفذ اللطيف

3 K.Armstrong, Una Historia de dios.4000 anos de busqueda en el judaismo. El Cristianismo y el Islam, Barcelona,1955.

الواسع الذي سوف تغطيه العلوم الاجتماعية للمستقبل، وسوف يكون من السهل البداية مع ما ذكر سابقًا عن إعادة القراءة والوضع دائما نصب العين أهمية التاريخ في فهم المقدمة.

تلك النصيحة بإعادة قراءة المقدمة لم تأت من النوايا الطيبة مارتي دو بيكيه، ولكن من سنوات كثيرة سابقة في جامعة بوكون في ميلان، عندما نشر الاقتصادي المعروف فردناندو دي فينيزيو النسخ المنشورة حديثًا من دروسه عن علم الاقتصاد السياسي. ويتذكر أن المناسبة كانت في التجهيز لأول سمنار دولي "للمُدخل والمردود" الذي عقد في رافنا Ravenna بحضور جمع من الفائزين بجائزة نوبل، فلم يكن هناك أي تقصير في الأصوات ذات الخبرة، ومن بينها سيرو لومبارديني -الذي وقبل إعلان حكمهم النقدي- ذكّر الكاتب بإعادة قراءة كتاب آدم سميث "ثروة الأمم" (1776).

وتذهب الحكاية بعيدا إلى ما وراء كونها محادثة رائعة بين زملاء مستعدين للجدال، فبالنسبة لي فالاستنتاج الذي لم أستطع وضعه وراء ذاكرتي يرتكز على إعادة قراءة المقدمة بعمق وتفصيل.

ووحدها فقط، توجد الأعمال العظيمة على الأرفف جاهزة لشحذ أفكارنا. وفي الحالة التي في المتناول عندما تجهز الكثير من أدوات تراث الأندلس لإغلاق الفجوة سالفة الذكر غير المبررة المتعلقة بابن خلدون، تكمن الوسيلة المؤكدة لاكتساب معرفة متينة فيما يختص "بقدسيته" وعدم "قدسيته" في إخضاع النفس لنظام مختار بمثابة ذلك ما فعلته بنفسي، واليوم أنا أحصد فوائد قراءة إحدى أعظم الأعمال التي ورثتها لنا البشرية.

ولا نستطيع أن نتجاهل الامتداد الذي لا حد له عمليًا للعالم الإسلامي، وكل الإحصائيات التي تعكس بدقة كبيرة أو صغيرة الإحصاءات السكانية لما سمي "أديان الكتاب"، تظهر توسعًا إسلاميًا ضخمًا، وأن جزءًا عريضًا من المستعمرات الأفريقية السابقة تنظر في اتجاه مكة، ومعدل المواليد في معظم الدول الإسلامية في أفريقيا وآسيا يتحدث عن نفسه. ولقد أغلقت بعض الهجمات التي ارتكبت في العالم الأول من الحادي عشر من سبتمبر الوجود المشترك بين العوالم الثلاثة المصممة من كارين أرمسترونج، ومع مقوم الإرهاب الذي يخدم فقط في تعقيد تلك التي كانت – من قرون مضت- الأسفار السياسية لابن خلدون.

عندما لا تصبح معايير النظام العام ذات الأهمية أولى؛ ومستقبل يمكن تسميته تحالف الحضارات بالإمكان تمييزه، فإن سوف يقودنا التاريخ الكامل للإسلام (الموجود في المقدمة) إلى فهم ربما يتكشف في البداية الرائعة لتاريخ روما الذي يكشف فيه ممسن Mommsen الغموض بالقول أنه التاريخ ذو العمل الواسع من الاندماج.

وكل شيء حدث منذ بعث محمد ﷺ ومجموعة العادات والعبادات التي يذكرها القرآن وتفسرها السنة في التقييم متعدد الأطياف المعروض من جانب ابن خلدون والمقدمة.

وفي الختام، أحب أن أقدم تقريرًا واجبًا للأحكام المميزة التي شرحها لويس بايك مختتمًا دراسته باكتشاف معلومات، في مقدمتها جدارة ابن خلدون التي وضعته في تلك الفئة الغامضة لمن يسمون خبراء سياسيين.

-حسنًا، نحن نقبل فرضية بايك؛ ولكننا نعلن هنا والآن إنني- وبخاصة في استباق للعام التونسي القادم- أحب أن أحلل إطار المقدمة في ورش عمل مختلفة لكي أضع السبل المفسرة في مؤلف آدم سميث "تحقيق في طبيعة وأسباب ثروة الأمم"، ومقالة توماس روبرت مالثوس "مبدأ السكان" بمنظور دقيق جداً.

وفي النهاية أود أن أوضح أنه ليس لدي أدنى شك أن تقديس ابن خلدون من عدمه لن يؤثر على بقائه حيًا وعلى إدراكنا له.

الدورات الاقتصادية: الازدهار، الكساد، التعافي

أنطوليو جارسيا ليزانا
جامعة مالقة

ترجمة لمياء الأيوبي

في خريف عام 1980، وبالتزامن مع انتخابات الرئاسة الأمريكية، سنحت لي فرصة مشاهدة الحوار المتعلق بالعروض المقدمة لمواجهة الصعوبات الاقتصادية القائمة منذ أزمة البترول في عام 1973. وخلال هذا الحوار، أشير إلى ابن خلدون كمرجع للمداخل الجديدة لعلم الاقتصاد.

استندت النماذج الاقتصادية القائمة إلى أبحاث كينز Keynes على وجه الأخص التي ترجع إلى خمسين عاما مضت وكانت تسعى إلى مواجهة التراجع الحاد في سنة 1929 والذي لا يقل بدوره صعوبة. وبالرغم من أن الموقفين لهما طبيعة مختلفة؛ فإنهما اشتركا في بعض السمات –خلال الثلاثينيات والسبعينيات؛ حيث سبقتهما فترات من الازدهار –انتعاشًا خلال العشرينيات وازدهارًا خلال الستينيات، كما اقترنا إلى حد كبير بالتراجع الاقتصادي، وارتفاع معدلات البطالة وغير ذلك.

درهم أندلسي ضرب في إشبيلية في الربع الثاني من القرن الثالث عشر.

يبدأ ابن خلدون في الصفحة التالية في شرح "كيف تسقط المدن تماما"، ثم يتطرق في الجزء الذي يليه إلى ازدهارها. المقدمة، عاطف أفندي، 1936، مكتبة السليمانية، اسطنبول

أخذ كينز على عاتقه مسؤولية التعرف على العوامل المؤثرة على معدلات التوظيف بصورة خاصة. وبعد أن أعلن عن أن حجم التوظيف كان يتم تحديدًا بالاعتماد على نقطة التقاء وظيفتي جانبي العرض الكلي والطلب الكلي، ونظرًا لأن الجانب الأول كان مألوفا لدى الاقتصاديين المعاصرين إلى حد كبير (كينز 89 ،1983 [1936])، قرر كينز التعامل مع الجانب الثاني بصفته الجانب الأهم أو المحرك. وهنا نتعرف على أحد ابتكاراته العظيمة؛ الدور الحيوي الذي يلعبه جانب الطلب، حيث يتسبب في إحداث تحول جذري مقارنة بمعاصريه، والتي يتمثل أهمها في جانب العرض. ووصل النجاح الذي حققه كينز إلى درجة أن الاقتصاديين تبنوا النموذج الجديد، ليتخلوا بذلك عن التفسير التقليدي وينسوه تمامًا حتى أنهم كانوا عاجزين عن فهم ما يحدث عندما كانوا يقومون بحل المشكلات المتعلقة بجانب العرض في السبعينيات. وهو بالضبط ما حدث في الثلاثينيات وأدى أيضا إلى التشكيك في علم الاقتصاد (كينز: XXI ،1983 [1936] بال 56،1980). ولم تظهر الحاجة إلى رؤية جديدة لجانب العرض مستوحى من التيار الجاري إلا عندما اتضح الوضع القائم. ويبدو كأن علماء الاقتصاد كانوا عاجزين عن تصور المشكلة الاقتصادية بصورة متكاملة، ومن ثم فقد تذبذبوا بين جانب الطلب حاليا وجانب العرض فيما بعد.

إلا أن حال ابن خلدون كان مختلفًا، فقد نجح في قراءة الجانبين بالتوازي، حيث لاحظ أن الفرص والصعوبات، حسب الظروف، كانت موجودة في أحد هذين الجانبين أو الآخر أو حتى في كليهما في ذات الوقت. لدرجة أنه كثيرا ما كان يُنظر إليه كسلف لكينز وعلماء الاقتصاد المؤيدين لجانب العرض. ويمكن حل التداخل بين الجانبين من خلال دعم وتحفيز بعض الأنماط التطورية في المجتمع والذي يلعب فيه الشق الاقتصادي دورًا هامًا. ومن ثم، اعتُبر ابن خلدون رائدًا فيما يتعلق بدراسة الدورات الاقتصادية. وهكذا فإن تعاليمه قد تساعدنا في حل المشكلات التي نواجهها اليوم، خاصة إذا ما أخذنا فكرته في الاعتبار؛ فإذا ما اعتدنا على القوانين التي تحكم مجتمعنا، سوف نتمكن من تحديد أبحاثنا التاريخية وأيضا من التعرف على الاتجاهات المستقبلية للتطور الإنساني والتعامل معها كجزء من سياسة الحكومة (اطلع على سبيل المثال على ابن خلدون [1377 ،1977 ،100 ،134]). كما كان أيضا سابقا أيضا لكينز في هذا المجال.

الإطار المرجعي للتحليل الاقتصادي الخاص به

قبل أن نقوم بتحليل إسهاماته الاقتصادية بصورة مفصلة، من الأفضل أن نوضح أن ابن خلدون استند إلى منظور أوسع من ذلك الذي اعتمد عليه أي من علماء الاقتصاد التقليديين المعاصرين.

1 كالفائز بجائزة نوبل للاقتصاد، م. ريدمان: منذ ستمائة سنة ماضية، أتي ابن خلدون ليقول "إذا كانت الوقائع لا تتفق مع النظرية يجب أن تشك في الحقيقة". ومن الغريب أن مؤلفين من أمثال بريكيط، 1994، 115) يجب أن يكون تفسيرًا مختلفًا عندما يصر على أهمية الأسباب العامة لفهم الوقائع (الصفحات، 97: 142، 145، إلخ).

2 ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن أسلوبه مماثل لتلك الثورات العلمية، التي أحدثها كوهن. على سبيل المثال: اكتشف التشابه بين ابن خلدون في افتتاحية مقدمته للتاريخ العالمي وجون م. كينز في النظرية العامة. وهكذا يتميز ابن خلدون أنه كان له أثره الفكري من خلال نعاسه وكسله، إلى تقديم نفسه من خلال كتابة عمله، أن يعلن كينز من خلال كتابة عمله: الكفاح من أجل التحرر من الأفكار التي قد كان تعلمها (انظر جارسيا ليزانا وجمير 2002).

باقي ابادهم ورسخت الصنايع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم اكثر عددا وابقا
على الايام اثرا واستبصر في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها

فصل في ان المباني التي تختطها العرب يسرع اليها الخراب

الا في الاقل ٥ والسبب في ذلك شان البداوة والبعد عن الصنايع كما قدمناه
فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله اعلم وجه اخر وهو امس به
وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه من المكان وطيب
الهوا والمياه والمزارع والمراعي فان بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر
ورداته من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وانما يراعون مراعي
ابلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب ام خبث ولا قل ام كثر ولا يسالون عن زكي المزارع
والمنابت والاهوية لانتقالهم في الارض ونقلهم للحبوب من البلد البعيد
واما الرياح فالقفر مختلف المهاب كلها والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح
انما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا الكوفة
والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعي ابلهم وما يقرب
من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها
مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمناه انه يحتاج اليه في حفظ العمران فقد كانت
مواطنها غير طبيعية للقرار ~~فيعمر ملتمس~~ ولم تكن في وسط الامم فلاول
فيعمرها الناس صح
وهلة من انحلال امرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجا لها اتى عليها الخراب
والانحلال كان لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه ٥

فصل في مبادي الخراب في الامصار

[illegible]

اعلم ان الامصار اذا اختطت اولا تكون قليلة المساكن وقليلة الات البنا من الحجر والكلس صح
[illegible]
والطين وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التانق كالزليج والرخام
والفسيفسا والزليج والصدف والزجاج فيكون بناوها يوميذ بدويا
والاتها فاسدة فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الالات لكثرة
الاعمال حينيذ وكثرة الصناع الى ان تبلغ غايتها من ذلك كما سبق شانها
فاذا تراجع عمرانها وقل ساكنها قلت الصنايع لاجل ذلك ففقدت الاجادة

فهو لم يكن معنيًا بالحدث الاقتصادي منفردًا وإنما بالحركة والديناميكية الاجتماعية. ما الذي يدفع بالمجتمعات إلى التغير؟ لماذا تظهر الإمبراطوريات، وتتوسع وتضمحل؟ ولماذا تحافظ الفنون على مستويات مرموقة في فترات التدهور؟ وخلال بحثه، اكتشف ابن خلدون الاقتصاد الذي يتفاعل ويتداخل مع باقي العناصر الأخرى.

كان ابن خلدون، كمؤرخ، معنيًا بصدق المعلومات التي كان يتم الحصول عليها. وفي سعيه للتمييز بين الحق والباطل (ص. 142)، أكد وأسس أهمية الأسلوب. وكجزء من هذه العملية، استند ابن خلدون إلى مدخل عقلاني، للتأكيد على أن صحة المعلومات تتحدد حسب توافقها مع طبيعة المجتمع البشري والقوانين التي تفسرها [1]. وهكذا ظهرت الحاجة إلى هذه الدراسة الخاصة به، والتي تقدم علما جديدا لم يتطرق إليه أحد من قبل [2]، والذي يمكن بدوره أن يقدم إجابات لتلك الأسئلة التي طرحناها. ولهذا السبب، وقبل التطرق إلى هذا السؤال، تم إهداء أول كتبه "التاريخ العالمي" Universal History إلى العلم الجديد، والذي يدور موضوعه حول مجتمع يضم الاقتصاد ضمن جوانبه [3].

مخيم بدوي في المغرب، وتقع على الناحية المواجهة قرية ريفية جنوب جبال الأطلس المغربي

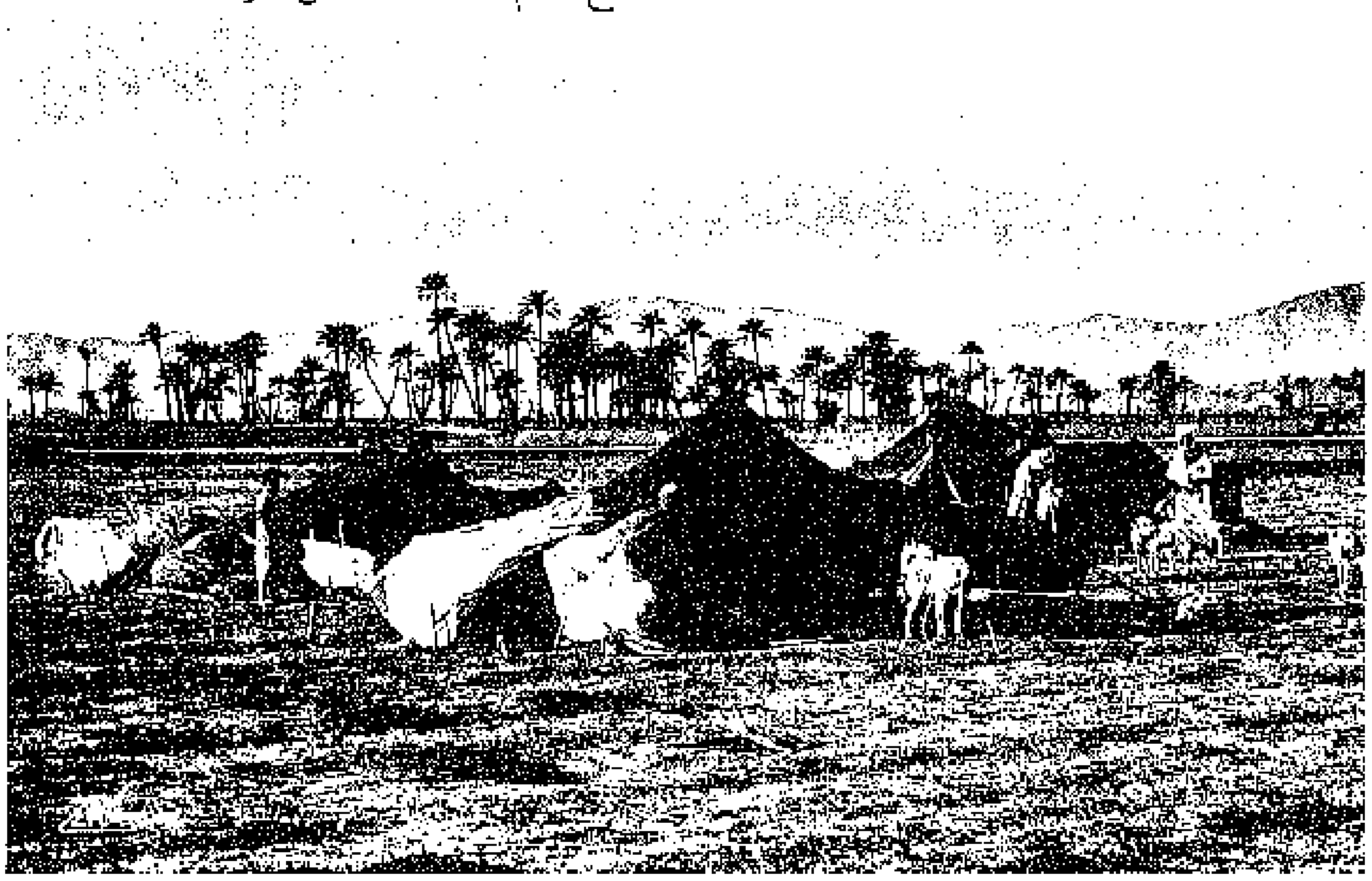

الخصائص الرئيسية لنموذجه الثوري من المنظور الاقتصادي

خلال كتابه، والذي سوف نشير إليه من الآن فصاعدًا بالمجتمع الإنساني "Human Society" [4]، قام ابن خلدون بشرح نموذجه للتطور الاجتماعي، والذي يمكن إرجاع أصوله إلى تعليمات ومنهج بعض الكتاب مثل أفلاطون وابن رشد (انظر جارسيا ليزانا 2000). إن ابن خلدون لا يقوم بعرض نموذج ميكانيكي وإنما عملية تسعى إليها المجهودات الإنسانية، لتعترف بالاتجاهات البديلة، والمشتقات والاستثناءات بالرغم من أن بعض الكتاب بعينهم، مثل كروز هيرنانديز Cruz Hernandez أو جريس هتشينسون Grice-Hutchinson ربما أعطوا انطباعًا مختلفًا.

وتتمثل نقطة البداية للنموذج في الموافقة على مبدأ عام، أن جميع الأشياء توجد وتتعامل حسب طبيعتها، حسب القوانين الإلهية التي تحكم الكون. وتماشيًا مع ذلك، يقوم ابن خلدون بشرح الشخصية الاجتماعية للإنسان حسب طبيعته الخاصة. وانتهاجًا للنماذج اليونانية، والتي تم تعديلها وفقًا لبيئتنا الثقافية، يتوصل إلى العنصر الأساسي في ظل ظروف اقتصادية مؤكدة العجز. فالله يخلق البشر باحتياجات عديدة، وفي نفس الوقت، يضع قيودًا لتحجيمها. ولا يمكن الاستعاضة عنها إلا من خلال التعاون. وهكذا فإن الاجتماعية الإنسانية (الإنسان مخلوق اجتماعي) تؤدي إلى التعاون المتبادل، والتبادل وتقاسم العمل بصورة مشتركة من خلال توليد الموارد وإشباع الاحتياجات.

ومن ناحية أخرى، ما يلبث أن يتم إشباع إحدى الاحتياجات، حتى تظهر حاجة غيرها أكثر تقدما تتطلب بدورها بذل مجهودات أكبر؛ إلا أنها تتضمن أيضا إجراء بعض التعديلات في الطرق التي يتم بها الحفاظ على الاستمرارية. ومن ثم فإننا ننتقل من رعاية الدواب والمواشي إلى الزراعة، وممارسة الحرف والتجارة؛ ومن البداوة إلى الاستقرار؛ ومن البيئة الريفية إلى المدن.

ومع هذا فإن البشر يمثلون شخصية مترددة. فهم عرضة إلى الخير والشر ولهم ميول داخلية لإشباع غرائزهم الحيوانية (مثل العنف والرغبات)، والتي يمكنها أن تتسبب في ضغط دائم. وهكذا فإن المجتمع عرضة للتهديد، داخليًا من قبل عناصره، وخارجيًا من قبل المجموعات

3 وتجدر الإشارة إلى أن حداثة ابن خلدون قد يكون إنتاجًا لضمير إنتاج علم المجتمع هذا والأسلوب المنهجي لدراسته. فالمدرسي أيضا "حاولت إقامة بعينة المدى لعلوم الاجتماعية (النظرية العالمية التي تفسر الظواهر الاجتماعية من وجهات نظر مختلفة، بما في ذلك عن العمل أيضا)، ضمن هذه الشروط، فإن الاقتصاد ليس الجانب التي تكرس له أهمية خاصة ولا موضوعا مستقلا عن الآخرون" (د. ن ليزوكا، ص 45، نقلا عن شومبيتر، 1954، 118).

4 العنوان في الحقيقة ذات طابع وصفي: "المجتمع البشري والظواهر فيها، مثل حياة البدو، والحياة المستقرة، والسيطرة، واكتساب سبل كسب العيش والحرف والعلوم والفنون. بيان الأسباب التي تؤدي إلى هذه النتائج" وللأسف، فقد تم اختفاؤها تحت اسم "مدخل" أو "مقدمة" لتاريخه العالمي، مما يرسخ بكل صدق عدم تطابق النص الذي يسبق الكتاب نفسه، وهو ليس أكثر من مجرد مقدمة تاريخية.

الأخرى. وبالتالي فإن السلطة تصبح ضرورية لضمان النظام الداخلي وتوفير الحماية في مواجهة الأطراف الخارجية.

إن التعاون وممارسة السلطة كليهما يستمدان دعمًا قويًا من العواطف والمشاعر المتولدة من العيش سويًا أو في جماعة والتي تؤيد بدورها التفكير الجماعي المتماثل والشعور بالانتماء لمجموعة وتماسك أفرادها مما يضمن الترابط بينهم والتعاون المتبادل. ومن ثم فإن ابن خلدون قد رأى في هذه الروابط المشتركة المتبادلة للانتماء الاجتماعي (العصبية) أساسًا للتقدم الاجتماعي والسلوك الدوري.

الطريق إلى الازدهار

وفقًا لابن خلدون، من المحتمل أن تتغير الصفات والطباع الموروثة حسبما تفرضه الظروف المختلفة مثل مكان السكن وأسلوب كسب العيش، والموارد المتاحة والجمارك وما إلى ذلك. إن التعاون يدعم عملية التبادل وتقسيم العمل بما يسمح بتوليد المزيد من الموارد اللازمة لإشباع الاحتياجات. وما يلبث هذا النجاح أن يجتذب المزيد من الأعضاء إلى هذه المجموعة؛ والمزيد من الأيادي العاملة المنتجة والاحتياجات اللازم إشباعها، كما يؤدي أيضا إلى تشجيع التجارة وتداول الموارد؛ باختصار يؤدي خلق فرص جديدة على جانبي العرض والطلب. فالزيادة السكانية تتطلب وجود المزيد من الأراضي الجديدة وبالتالي تنعكس في زيادة العناصر والعوامل الإنتاجية والحاجة إلى الاستثمار.

ومن ناحية أخرى، يسهم تكرار النشاط في خلق مجموعة من العادات التي تلعب بدورها دورًا في تحسين جودة وإنتاجية الجهد المبذول. وهكذا يقوم ابن خلدون بتعريف مفهوم رأس

المال البشري في هذا السياق. إلا أن هذه العادات أيضا يمكن اكتسابها من خلال مجالات وأطر أخرى مثل التنظيم أو الإبداع، تلك التساؤلات التي يمكننا أن نتناولها اليوم ضمن تلك الأصول غير الملموسة والتي تلعب هي الأخرى دورًا رئيسيًا في تفسير التقدم من منظور العرض.

أما السلطة، على الصعيد الآخر، فتلعب دورًا أساسيًا، ليس فقط لضمان النظام والأمن الداخلي، كما طالب علماء الاقتصاد في القرن التاسع عشر، وإنما أيضا لأن السلطة يمكنها من خلال الإنفاق العام، بالنظر إلى حجمه الضخم كما أشار كينز، أن تصبح المحرك الاقتصادي الرئيسي بالنظر إلى الدور الذي يمكنها لعبه لتحسين مستوى المعيشة العام والحد من الفقر. وفي مقابل ذلك، فإن السلطات يمكنها تحصيل عائد أكبر دون الحاجة إلى رفع الضرائب.

وهكذا، يمكن القول إن العملية ذات طبيعة متراكمة تؤدي في نهايتها إلى الطريق إلى الازدهار بأسلوب تلقائي. إلا أن هذا ليس هو الحال، فحلها يكمن في الطبيعة الإنسانية ذاتها.

الكساد

إن الغنى والثراء، بالطبع، يستدرجان الألباب إلى الرفاهية، والميل إلى الاستمتاع بملذات الحياة ومباهجها وما إلى ذلك بعيدًا عن المصاعب والتضحيات التي يجب تكبدها مثل العمل الشاق. وهو ما يؤدي بدوره إلى زيادة حجم الإنفاق بما يفوق قدرات الفرد مما يدفعه إلى التهاون الأخلاقي والتخلي عن القيم الدينية، الصعب التمسك بها في مواجهة العصر الحديث، وانهيار العادات والأعراف (اللواط على الأخص)، وانخفاض معدلات الولادة، وما يصاحبه من انخفاض في الكثافة السكانية وما إلى ذلك. وفي ظل غياب القيم، تؤدي الحاجة لزيادة الإنفاق إلى انتشار الفساد كوسيلة للحصول على الموارد بينما يؤدي ذلك إلى التأثير سلبًا على الإنتاج وانهيار العصبية. وهكذا فإن الجميع يتخلون في هذه الظروف عن تسليح أنفسهم وإعداد العدة ويتعهدون بالحماية للمرتزقة.

إن زيادة حجم الإنفاق الموجه للدفاع وحقيقة أن السلطات تستجيب لنفس القيم التي يهتم بها الجميع، مثل الرفاهية، والملذات، والمباهج، والإنفاق الاستهلاكي وما إلى ذلك، يؤديان إلى زيادة الضرائب، ومصادرة الممتلكات وقيام القطاع العام بتولي مسؤولية الأنشطة الإنتاجية لتوفير الموارد. وهو ما ينتج عنه تثبيط همة القطاع الخاص وما يصاحبه من خسارة في الإنتاج، والدخل، وبالتالي دخل الدولة المتولد عن الضرائب. كما يؤدي ذلك أيضا في نفس الوقت إلى ارتفاع في الأسعار مصحوبًا بانخفاض في حجم الطلب. وهكذا تتولد المزيد من الدوافع المؤدية للفساد كما تتأثر مصداقية وشرعية السلطة سلبا. إن الإغواء المسيطر التدخلي لدعم القوة والنفوذ شديد ويجد لنفسه مبررا في انهيار الأعراف والتفكك الاجتماعي. إلا أنه لا ينجح إلا في تفكيك الترابط والتماسك أكثر فأكثر. ومن ثم فإن مثل هذه المجموعة من الظروف تؤدي إلى زيادة معدلات البطالة والهجرة والفقر.

التعافي

إن الحديث عن الدورات يستوجب الإقرار بأن الكساد يتبعه تعاف وهو ما يجعل العملية بأسرها متكررة. ولكن المجتمع البشري The human society يعطي الانطباع بأن تلك العملية صعبة، وليست حتمية الحدوث. ويعتبر أقل الحلول ضررًا هو تجديد الطبقة الحاكمة، بما يعيد الثقة، ويسهم في خلق عصبية جديدة ويسمح بإعادة تسليح المجتمع أخلاقيًا، وبالتالي العودة مرة أخرى إلى طريق التعافي. وفي الحالات الأخرى الأشد خطورة، تترك العصبية المتهاوية المجال لظهور مجموعات ذات عصبيات جزئية، وهو ما يؤدي بدوره إما إلى تفكك المجموعة أو إلى إبدال السلطات المحلية بقوى خارجية، بل ويمكن حتى أن تؤدي تلك العصبية المتهاوية إلى العودة مرة أخرى إلى مراحل متقدمة سابقة. كما يمكنها أن تظل في وضع غير مستقر إلى ما لا نهاية في حين تكون الظروف اللازمة للتغيير، كتلك التي تم ذكرها، غير مكتملة. وبطريقة ما، يعد ما سبق التحليل الخاص به لغرناطة تحت حكم بني نصر.

منظر من الجو لمدينة مراكش.

وبالمثل، من الممكن أن نفهم أن الدورات المختلفة والتي تمتد لفترات متفاوتة قد تتداخل زمنيا، تماما كما فسرها علم الاقتصاد الحديث. فخلال تاريخها الممتد قد تشهد الدولة دورة طويلة أو أكثر تتضمن بدورها المراحل السابق ذكرها. إلا أن السلالات الحاكمة المختلفة التي تتناوب حكم الدولة بالتتابع وحتى كل ملك يمر بعملية مماثلة تؤثر منطقيا على الحياة المدنية.

يتضح لنا أيا كانت الحالة: آخذين في الاعتبار الأفكار التي تناولها كاتبنا، أن هؤلاء المسئولين عن الحكومة يمكنهم التعلم من الدرس المستفاد عن طريق اتخاذ الإجراءات اللازمة على الأصعدة المختلفة التي ذكرناها، بما في ذلك الشق المالي. إلا أن هذه المهمة لا تبدو سهلة بالنظر إلى خواص الطبيعة البشرية. ومن هذا المنظور، فإن الإيمان الديني يعد أفضل ضمان لتجنب انهيار المجتمع إلى حد كبير حيث يجعل العقل أكثر ميلاً إلى التماسك والتضامن وممارسة العدل. ومع هذا، فإن هذا قد يدفع بنا إلى الظن بأن الحلول الاقتصادية متوافرة خارج الاقتصاد نفسه. أو ربما كان هذا اقتصادا مختلفا؟ فالوقائع تشير إلى أن المقريزي (1364-1442)، مُحتسب القاهرة، والذي قام في الأغلب بالإطلاع على عمل ابن خلدون، وربما عمل الكاتب نفسه، كما قام بكتابة "دراسة النظام النقدي" Study of the Monetary System: قد تعامل مع هذه الأفكار بطريقة أكثر وضوحا. ويرى المقريزي أن كارثة النظام ترتبط مباشرة بالفساد المتفشي في نظام الإدارة العامة، والذي لا يعتبر بالتالي مواتيا لاتخاذ القرارات المناسبة الضرورية لخدمة المجتمع ككل ولا ينتج عنه سوى فترات من العجز والمجاعات. ولا يمكن إعادة تنظيم النظام النقدي إلا إذا تم ضبط النظام السياسي والاجتماعي الاقتصادي من خلال تطبيق القوانين الإلهية. حيث كتب في غمرة حماسه الديني (انظر بويك Boeke 1994.106): "اللهم اهد سلطاننا حتى يتمكن من إعادة تأسيس الأمة، حتى يصبح الدرهم معيارًا ومرجعًا لجميع العملات الأخرى كما يُعتبر الله المرجع الوحيد للحكام والمحكومين".

ابن خلدون والعملة

ألبرتو كانتو جارثيا
جامعة أوتونوما- مدريد
ترجمة لمياء الأيوبي

كان ابن خلدون شاهدًا متميزًا على بعض اللحظات المحورية المتعلقة بتاريخ النقود في دول البحر المتوسط؛ حيث شهد الانهيار المالي لبعض الإمارات الإسلامية الحاكمة، كما شهد كذلك اتحاد غيرها وأيضا الانتشار الكاسح للعملات المتداولة في الدول المسيحية في القرون الوسطى، التي ترتب عن سيطرتها البحرية على البحر المتوسط وإصداراتها الجديدة من الفضة، للعملات المتداولة مرتفعة الفئة (الـcroat، والـgrosso، والـreal)، بفضل المصادر الجديدة، والتغيير في الرسوم والاستخدامات النقدية.

دوبلة (ما يسمى مرابطي ذهبي)، يعود الي عهد بيدرو الأول، متحف الاثار الوطني – مدريد.
سك العملة أول القرن الخامس عشر، منمنمة من العمل الاصلي لنيكولاس أوريزم بعنوان monetarum of Nicolas oresmes

من الصحيح أن القوى الإسلامية كانت لا تزال تسيطر على الطرق الرئيسية المؤدية إلى الذهب الأفريقي وسبله إلى أوروبا، إلا أن التوسع الأوروبي قد بدأ رحلة – كان من الممكن أن تؤدي- في نهاية الأمر وفي أماكن غير معروفة، إلى الإخلال بهذا التوازن.

فقد شهد القرن الثالث عشر انطلاق شكلين متميزين من التقدم ارتبطا بالعملة الأوروبية المتداولة في الغرب، واللذين ازدادت أهميتهما في القرن الرابع عشر: ظهور العملات الفضية الأكبر حجما والعودة التدريجية إلى سك الذهب. حيث تطورت هذه العملية بمرور الزمن، ليترتب عنها ظهور العملات متعددة الفئات وتنوع أنماط وأشكال عمليات التبادل.

كان العالم الإسلامي قد عانى من ارتفاع تكلفة الفضة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، في الوقت الذي ظهرت فيه بعض بوادار التعافي في عدة أماكن، وذلك على الرغم من أن العملية كانت أبطأ إلى حد ما في المغرب. وفي المقابل، ترتب على إصدار العملات والدنانير الذهبية وفئاتها الأخرى من العملات الإسلامية المتداولة أن أصبحت هذه العملات أكثر المراجع الاقتصادية أهمية.

وإننا ندين إلى ابن خلدون ببعض من أكثر التفسيرات تفصيلا عن العملات المتداولة في العالم الإسلامي؛ مصادرها، واختبار نمط النقش الموجود عليها، وتطورها، ورسوم التحويل وأسعار الصرف بين الوحدات والقيم المختلفة. ويعتبر وصفه المختصر –وإن كان دقيقًا– عن نظام العملات في العالم العربي الإسلامي بالإضافة إلى تناوله وتطرقه إلى بعض القضايا الأخرى المتعلقة بالعملات مثارًا للاهتمام نظرًا لتعليقاته الهامة.

"السكة، هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس .... "1

يشير دار السك، وهو المصطلح الذي تغير في اللغة الإسبانية حرفيًا إلى casa de la ceca، casa de la moneda، أو ببساطة إلى ceca، إلى المكان، أو الورشة، أو المقر الذي يتم فيه صناعة العملات أو سكها. إن تفسير هذا المصطلح ليس مشكلة، ولكن ابن خلدون قام بالإشارة إلى المعنى المحدد للختم أو الدمغ stamping، والنقش engraving، باختصار سك العملات الذهبية والفضة، وهي المعاني التي تستحق بعضًا من التعليق. فمفهوم "الختم أو النقش" ينطوي على فكرة وضع الشكل أو العلامة على قطعة المعدن المصقولة، والمقصود بها في هذه الحالة نقوش بارزة تسعى إلى إضفاء الشرعية على القطعة المعدنية: في نظر الدولة التي قامت بإصدارها والمتعاملين بها، كما يعطيها المصداقية كمخزون للقيمة، ووحدة للثروة، ووسيلة للدفع.

1 Ion Khaldun, Muqaddima, book 3, chapter 36

176

إن القيمة الاقتصادية للعملات وأهميتها تتمثل في هذه الوظائف إلا أنه – بالإضافة إلى ذلك– يعد نقش أو حفر الشعارات والصور وسيلة للتعبير عن بعض الرسائل ذات الطبيعة السياسية أو الدينية أو الدعائية والتي اكتسبت – في حالة العملات الإسلامية– المزيد من الأهمية نظرا لحجم الكتابة – نسبيًا – الممكن أن يظهر عليها. إن ثراء وتنوع الفقرات المكتوبة؛ وتسلسل السلالات الحاكمة المرتبطة، والمصطلحات الجغرافية وتعدد التعبيرات أو الشعارات الدينية التي استخدمتها السلالات الحاكمة المختلفة جعلت من هذه العملات سجلات تاريخية شديدة الأهمية.

فيما يتعلق بالنقطة الثانية، كما كان الحال معروفًا خلال الفترات الأخرى من الإسلام، كان نشاط دار السك يبدو مقتصرًا على سك المعدنين الأساسين المميزين للنظام النقدي الإسلامي: الذهب والفضة في شكل الدنانير والدراهم. أما المعدن الأقل قيمة؛ النحاس، الذي شاع استخدامه لصناعة الفلوس، فلم يتم ذكره. وهو ما يبدو وكأنه إشارة شديدة الوضوح إلى الأولويات، وأن المعادن والعملات كانت تخضع لقواعد صارمة فيما يتعلق بالخامات المستخدمة والجودة بالإضافة إلى عمليات التبادل. لقد كان حق السك مقصورًا على الحاكم، وهو ما انطبق أيضًا على واجبه في التأكد من أن هذه الأداة سوف تتماشى مع القواعد والقوانين بما يؤهلها لتأدية وظيفتها على النحو الصحيح.

دينار أموي للخليفة عبد الملك، مؤرخ بسنة 709 هـ.

"فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجاريين في معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه، واتخذ فيه كلمات لا صورًا، لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها........"[2]

في هذه الفقرة قام ابن خلدون بالتعليق على واحدة من أكثر الحقائق إثارة في تاريخ العملات: العملية التي تخلى من خلالها الأمويون في دمشق – خاصة الخليفة عبد الملك– عن البحث عن العملات الإسلامية المنقوشة أو الحفاظ عليها– والتي تعد بدورها مزيجًا من الإيحاءات البيزنطية والفارسية، والتي يعتبر أفضل تعبير عنها هو مجموعة الدنانير الشهيرة التي يظهر فيها الخليفة واقفًا– وذلك لصالح النموذج الجديد الذي اعتمد تمامًا على النقوش. من إحدى الجوانب – الجانب النظري: قام ابن خلدون بتفسير هذه الحقيقة استنادًا إلى تميز وقوة الرسائل المكتوبة في الحضارة الإسلامية العربية، وهو أمر صحيح بلاشك، في حين لم يكن من الممكن أن يتم التغاضي عن بعض العناصر الأيديولوجية الموجودة على العملات البيزنطية، فالرسالة الموجودة عليها لم تكن مقبولة بالنسبة للإسلام، مثل صورة المسيح المنقوشة على عملات قسطنطين الثاني، الشائعة آنذاك؛ ومن الجانب الآخر، الأكثر عملية، استند التفسير إلى المساعي الرامية إلى تجنب وجود نسخ مزيفة أو مقلدة. ويعتبر هذا المنظور أكثر إثارة للجدل لأن إثباته أصعب؛ من المؤكد أن الأمويين قد قاموا بتوفير مجموعة جديدة من الخيارات والشعارات للعملات التي انخفضت فرصة تقليدها نتيجة لاتباع النموذج المعتمد على النقوش.

كان من الضروري أن يتماشى النظام الأخلاقي في العالم الإسلامي مع الحاجة إلى التغيير في المجتمع الدنيوي والمتطلبات النقدية للدولة الجديدة، بالإضافة إلى النظام المالي الفعال، والحياة التجارية، وما إلى غير ذلك.

في أية حالة، من الواضح أن اختيار النموذج الخاص بالعملة والنقوش قد شهد نجاحًا متصلاً وأن هذا الاختيار قد ظل – لألف عام تقريبا– صورة رمزية للقوى السياسية الإسلامية المختلفة، ومرجعًا للتجارة في بعض الحالات، كما تمت محاكاته في بعض الحالات الأخرى بواسطة الدول الأوروبية المسيحية المجاورة، كما ظل هذا النموذج أيضا مقترنًا بالعملات الإسلامية المتداولة حتى القرن العشرين.

"ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ السكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملأ من أحد الجانبين تهليلاً وتحميدًا من الجانب الآخر كتبًا في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده"[3].

خلال الفترة التي سبقت وجود ابن خلدون، كان من المتوقع أن يكون للسياسة النقدية التي اتبعها المهديون آثار وتبعات بالغة والتي كانت لتمتد حتى ظهور الكاتب. إلا أنه قد اتضح أن

Ibidem 2
Ibidem 3

الإصلاحات التي قاموا بها فيما يتعلق بالعملات، وظهور أو تنميط النماذج الخاصة بالذهب والفضة، المعدنين الأساسين المستخدمين لصناعة النقود، كان لها أثر بالغ امتد إلى الفترات التالية كما تم تقليد هذه النماذج آنذاك أيضا.

إن الأسباب المفسرة لمثل هذا التغير الرسمي المفاجئ كان جزءًا من أيديولوجيا الدولة الموحدية، الرغبة في التميز عن أسلافهم، وهو ما انعكس أيضا بصورة أكثر وضوحًا في استخدام بعض الشعارات والإشارات الضمنية الخاصة بالمهدي، كوسيلة لتأكيد واستعراض الدولة الجديدة.

من المؤكد أن الشق الرسمي للعملات اختلف تمامًا فالعملات الذهبية السابقة – الدينار ومشتقاته – قد احتفظت بشكلها الدائري وإن تم نقش شكل مربع عليها. وتطرقت النقاشات الممتدة إلى ما إذا كانت وحدة النظام المستخدمة هي الدينار المكون من 2,32 جرام، أو ضعفه المكون من 4,48 جرام – وهي إحدى النقاشات التي تفاقمت مع استخدام المصطلح المتداول في قشتالة، والتي أطلقت على هذه العملات دُبلة dobla ونصف دُبلة half dobla، واستخدمت فئتها الأولى بسبب وحداتها الذهبية المستخدمة فيما بعد.

إلا أنه يبدو، في هذا السياق، أن ابن خلدون في قوله "ومن الجانب الآخر كتبا في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ....." – كان يرى أن الدينار هو العملة الأثقل وزنًا وأكبر حجما لأن محاولة وصف الشعارات والأنساب الحقيقية لم يكن من الممكن تطبيقه على ما كان يطلق عليه "الدُبلة"، والتي يبدو أنها كانت، بالتالي، وحدة النظام.

درهم موحدي من القرن الثاني عشر.
أسفل، وجه لنصف درهم للمتوكل بن هود، ضرب في قرطبة في النصف الأول من القرن الثالث عشر.

على الرغم من ذلك، فقد شهدت العملة الفضية، الدرهم، أكثر التغيرات المحورية، بشكلها المربع المميز والتي تم إصدارها بكميات ضخمة وفي مجموعة كبيرة من ديار السك، بعيدًا عن الإصدارات الأخرى العديدة مجهولة الهوية.

إن الأسباب المفسرة لظهور الشكل المربع للعملات الفضية (والمقترح استخدامه للذهب أيضا من خلال المربع المنقوش المشار إليه سابقا) ليست واضحة تمامًا كما تم طرح العديد من الافتراضات المختلفة، والتي تراوحت ما بين التفسيرات الصناعية الفنية وصب القطع غير المشغولة من العملات المربعة، وتشابهها مع بعض من المقاييس المستخدمة لأنواع الأوزان، وسهولة فهمها كصحفات الكتاب، إلى العملية البسيطة المتعلقة بمحاولة التميز عما سبقها من أشكال كإحدى أساليب الدعاية أو الترويج.

وبعيدًا عن هذا الجدل، ليس هناك شك في أن الدرهم الموحدي، نظرًا لحجم إصداره وانتشاره في العديد من الأماكن المختلفة، كان يستعيد نشاطه الاقتصادي كما تمت محاكاته، في الحقيقة، تدريجيًا بواسطة الدول المسيحية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط في شكل العملة المعروفة باسم **Millares**.

تم اقتباس بعض النماذج التي قدمها الموحدون والحفاظ عليها، مع إضفاء بعض التغييرات الطفيفة بواسطة أسلافهم في شمال أفريقيا، والسلالة الحاكمة الحفصية في تونس والمرينيين في المغرب.

"... بلاده المتوعرة الزارعة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم. واختص قطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى إلى هذا المعمور بالإسلام مع سواحلها لأجل ذلك"[4].

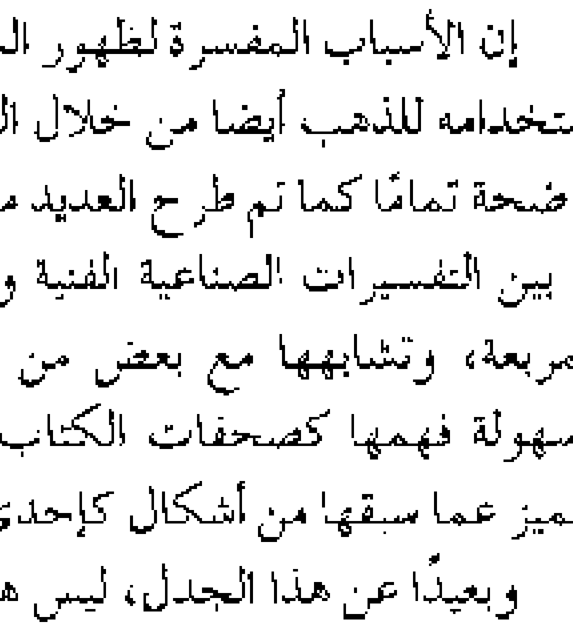

على الرغم من أن ابن خلدون لم يتطرق في هذه الفقرة إلى موضوع العملات، إلا أنه قدم ملحوظة دقيقة فيما يتعلق بالتبعات المترتبة بالنسبة للأسعار وارتفاع التكاليف المتعلقة بظروف العمل الخاصة بالوسائل الأساسية المتبعة للبقاء والإنتاج في العصور الوسطى، والزراعة في الأندلس. إن التحليل الذي قام به للجغرافية الإنتاجية وظروف الإنتاج

4 Ibn Khaldun, Muqaddima, book 3, chapter12

كنز دفين وجد في masdenverge يتضمن مسكوكات ضرب في قرطبة، وسبتة، ومصر.

في مجال الزراعة دقيق جداً كما أنه يثير بعض الأسئلة الممكنة التي تستند إلى إيجاد علاقة، بشكل شديد الوضوح، بين ارتفاع التكاليف المترتبة على الظروف الخاصة بالمنتجات الأساسية النفيسة، والعوامل التي تؤثر على التكلفة النهائية للمنتجات، والارتفاع في الأسعار، وأخيرا تكلفة المعيشة.

"إن البحث عن الكنوز والنقود المدفونة ليست وسيلة طبيعية لتأمين المعيشة وتحقيق الثراء"[5].

وأخيرا، بمقدورنا أن نشير إلى هذه الفقرة المختصرة التي كتبها ابن خلدون وقام فيها بانتقاد الطلاب المغاربة والنقابات، الذين كانوا، في المغرب ومصر، يسعون إلى البقاء والاستمرار عن طريق البحث عن الكنوز الرومانية والبيزنطية ونهب قبور الفراعنة؛ حيث تبدأ الفقرة باعترافه بوجود هذه الكنوز، ولكنه أشار إلى عمليات السرقة والنهب المتتابعة التي تعرضت لها هذه الثروات خلال فترة حكم الفرس والإغريق، مما ترتب عنه انخفاض الموجود منها.

إن الإشارة إلى الاكتشافات، بالإضافة إلى النقابات التي قامت بالبحث عن المعادن النفيسة التي تنتمي إلى أحد العصور السابقة لإمداد دار السك بتلك المعادن كانت تخضع لسيطرة، وفي بعض الأحيان، حماية القائمين على الحكم لأنها كانت من الطرق السهلة نسبياً التي يمكن من خلالها الحصول على المعادن النفيسة لضمان احتكار الدولة لعملية السك. وقد أسهم ارتفاع تكاليف بعض من هذه المعادن في بعض الأوقات وفي أماكن معينة بتعظيم المنفعة المترتبة عن القيام بهذه الممارسات.

ومن الأمور المختلفة تماما – التي يبدو أن ابن خلدون كان يسعى إلى الإشارة إليها– عملية الاستخدام والاستغلال على الصعيد الشخصي من منظور الخديعة والاحتيال، فيما يتعلق بالممارسات المشابهة؛ حيث إنه لم يكن يراها من الطرق الطبيعية الممكن انتهاجها لتأمين المعيشة.

لقد أكدت إحدى ملاحظاته الدقيقة حقيقة أن اختفاء المعادن النفيسة في منطقة معينة: في المناطق الإسلامية على سبيل المثال، لم تستوجب اختفاءها التام وإنما تحولها أو انتقالها إلى

5 Ibn Khaldun, Muqaddima, book2, chapter4

التجار والصيارفة في مخطوط من كتاب التقارير من القرن الرابع، من دير Venetian.

أسفل، وجه دينار ذهبي من عهد الملك محمد الخامس، ضرب في غرناطة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

أماكن أخرى حيث تظهر – كما هو مفترض– كثروة متنقلة (عملات) أو ثروة غير متنقلة (التي يتم تخزينها، مثل الأشياء المنذورة والمعروضة للبيع، وما إلى غير ذلك..).

إلا أن إحدى آرائه تثير قدرًا أكبر من الجدل، ذلك الرأي الذي يشير فيه إلى أنه من غير المنطقي أن يقوم شخص عاقل بتخبئة ثروته، التي ستؤول إلى ورثته أو أقاربه، مما يجعلها عرضة لأن يقوم الغرباء باكتشافها. وهو ما يعد حكمًا صريحًا جدا على وجود عملات مخبأة. من الصحيح أن احتمال اكتشاف ثروات من العملات المخبأة ، في أسوء حال، نسبيٌّ جداً، إلا أنها أقل ندرة مما نظن بالنظر إلى أن ما تم اكتشافه من العملات كان، ولا يزال، مصدرًا رئيسيًّا لمعرفة تاريخ العملات التي احتاجتها المؤسسات والعالم الخاص بشكل مستمر، في ضوء ما سمح به القانون. وهو ما امتد من الثروات المحدودة المخبأة: والمدخرات الشخصية والأسرية، وأكياس وحقائب الجنود، والمبالغ الكبيرة الخاصة بالبنوك والتجار، إلى الودائع المخصصة للدفع إلى النقود أو الثروات الملكية.

بالتالي، تتمثل الحقيقة التاريخية المرتبطة بالعملات النقدية المتداولة – والتي أدركها ابن خلدون بالتأكيد نظرًا لكثرة الاكتشافات خلال الفترة التي عاشها – في أن المحاولات الساعية لتخبئة هذه العملات – كما يقال– كانت تتم بأشكال شديدة التنوع والتعدد كما كانت تحدث نتيجة لمجموعة عريضة من الأسباب والدوافع التي امتدت إلى ما وراء التفسير البسيط المتعلق بالحروب أو الاضطرابات الاجتماعية والتي مثلت بلاشك في كثير من الأحيان سببا لهذه المحاولات.

إن الاكتشافات العديدة لعملات المخبأة تشير إلى أن هذه المحاولات ربما كانت غير عقلانية كما رأى ابن خلدون، أو أن حقيقة السلوك الإنساني كانت، ولا تزال، تتماشى مع نماذج السلوك الأخرى.

الصناعات المتوسطية في القرن الرابع عشر

ريكاردو كوردوبا دي لا لاف
جامعة قرطبة

ترجمة إسحاق عبيد

شهدت الأنشطة الصناعية في حوض البحر المتوسط تطورًا ملحوظًا في القرن الرابع عشر. وعلى الرغم من الصعوبات الديموغرافية والاقتصادية لتلك الفترة، فإن افتتاح الأسواق الجديدة وطرق التجارة المتعددة، والزيادة المطردة في الاتصالات والتجارة الخارجية، كل هذه العوامل قد ساهمت في توسيع نطاق تقنيات جديدة، وظهور صناعات متطورة.

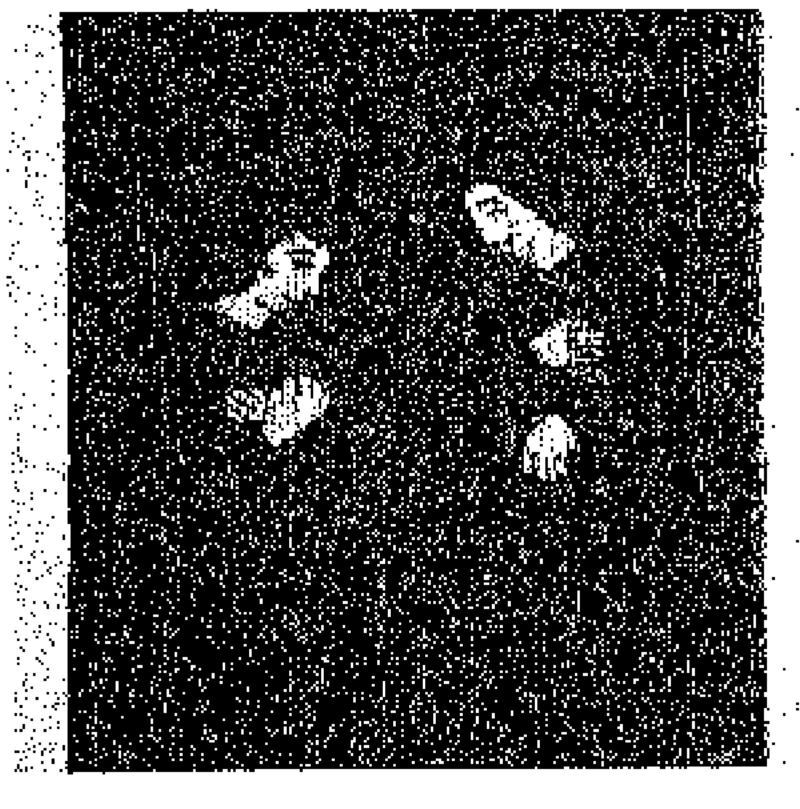

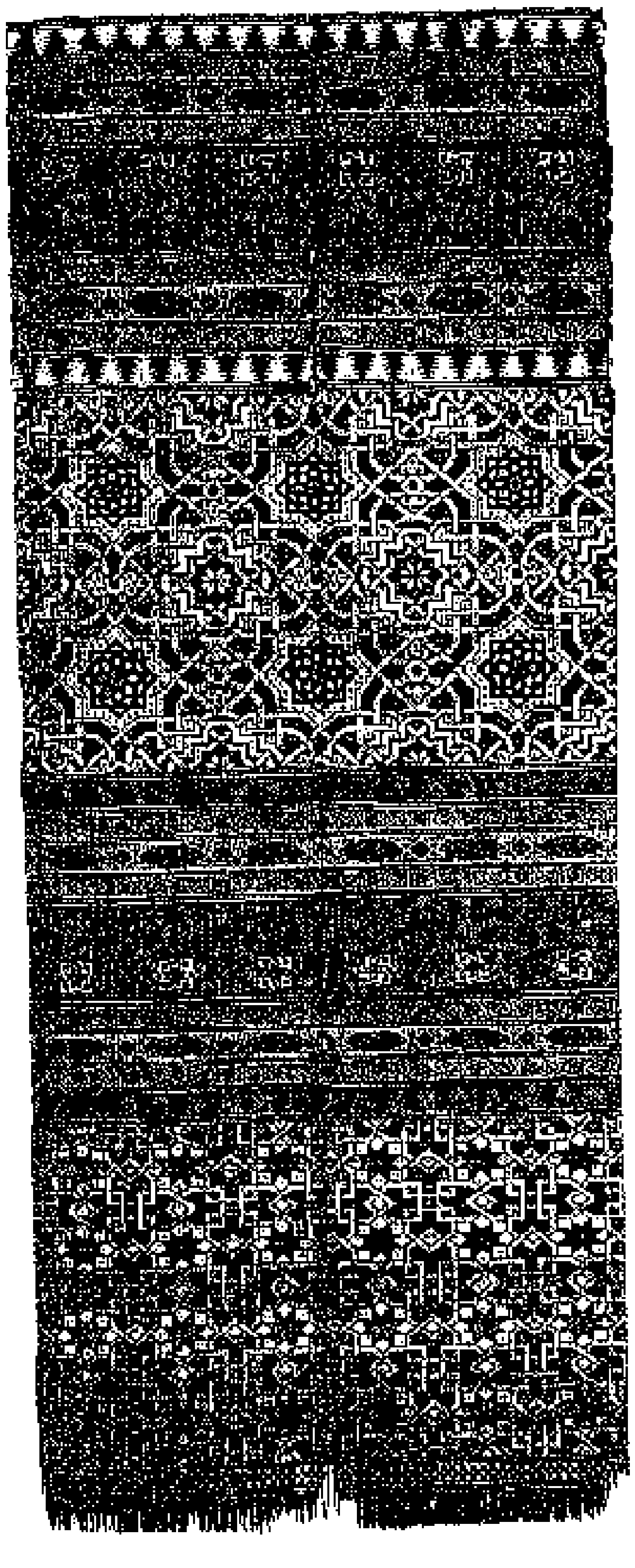

وبدون شك احتلت صناعة النسيج موقع الصدارة في القرن الرابع عشر، وهي صناعة ضمت عددًا وافرًا من العمال، وبذلك تضاعف إنتاج المنسوجات. واحتلت صناعة الأقمشة الصوفية المقام الأول، وكان لها نصيب الأسد، بسبب زيادة الطلب عليها. وكانت صناعة هذه الأقمشة منتشرة على طول الجانب الغربي للبحر المتوسط في الشمال الأفريقي، وشبه جزيرة أيبيرية، وإيطاليا، وعمادها صوف المارينو الناعم من الأغنام الواردة إلى إسبانيا منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر، الذي اكتسب شهرة عالمية لقرون متتالية. وهذا النشاط هو الذي حفز على إقامة شركات كبرى لهذه الصناعة في عدة مدن مثل إشبيلية، وقرطبة، وكونقة Cuenca، وسيجوڤيا Segovia، ومرسية، وبلنسية، وبالما دي ميورقة في شبه جزيرة أيبيرية؛ ثم في فلورنسا، وبيزا، والبندقية في إيطاليا، وفي عدة مدن أخرى في جنوب فرنسا. وقد حققت صناعة الصوف نجاحًا مرموقًا، ظهرت أصداؤه في عدة مخطوطات تقنية محفوظة في أرشيف الدولة في فلورنسا [1].

وقد احتل إنتاج الحرير نفس الدرجة من الاهتمام في سائر بلدان غربي البحر المتوسط، بدءًا بالمدن الإيطالية، كما هو واضح في الكتابات عن فن صناعة الحرير في مخطوطة محفوظة في مكتبة لورنزو في فلورنسا، تحقيق جارجيوللي، ووصولاً إلى المناطق العمرانية في أراغون، في كل من بلنسية بوجه خاص والتي قام بدراستها جرمان نافارو، وقشتالة حيث احتلت مدن العواصم مثل قرطبة وطليطلة موقع الصدارة. أما مملكة بني نصر في غرناطة، فإنها كانت أيضًا شهيرة بصناعات الحرير، ويحدثنا الإدريسي أنه في القرن الحادي عشر كانت توجد قرابة ستمائة قرية في منطقة البُشرات Alpujarras تعمل بإنتاج دود القز، وبأن منطقة مالقة، وبخاصة الجزء الجبلي في بلش-مالقة Vélez-Malaga، وقمارش Comares، ورنده، وقصرش Casares، وجوكين Gaucín، كانت نشطة في زراعة أشجار التوت وتربية دود القز. ولقد اشتهرت مالقة بإنتاج تشكيلات متعددة من أقمشة الحرير، من قبيل المموج والمذهب خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ويروي المقري أن المرية كانت تنتج أقمشة حريرية ملونة ذات بريق ذهبي في العديد من الورش التي بلغ عددها أكثر من المائة، إلى جانب ثمانمائة ورشة أخرى لإنتاج قماش الحرير المقصب، ومن جانبه يقول ابن الخطيب إن "غرناطة قد تفردت في شهرتها في صناعة الحرير، الذي لا منافس له حتى في مدائن العراق، لأن حرائر غرناطة أكثر نعومة ورقة، كما أنها من خامة أفضل" [2].

وكانت صناعة الجلود من الصناعات الهامة في كل أنحاء الأندلس. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، اشتهرت غرناطة نفسها بصناعة الجلود المدبوغة، كما تشهد على ذلك المدابغ التي تمَّ الكشف عنها في الحمراء، والتي قام بدراستها الأستاذ توريس بالباس منذ بضع سنوات، وعلى مقربة من باب الفحم Puerta del Carbón، ونهر حدرو Darro River، وقد قام

1 La Lana come materla prima, Florence, produzlone, commercio e consume dei pannl di lana, Florence, 1976; D. Cardon, La draperle au moyen âge: essor dsune grande industrie européenne, Parls, 1999; P. Iradlei, evolucion de la Industria textlle castellana en los siglos XIII – XVI, Salamanca, 1977; R. Córdoba, La industria medièual de Córdoba, Cordova, 1990; M. Martinez, La industrla del vestido en Murcla (siglos XIII – XV), Murcla, 1988; M. Bernat; Roca, Els III Mester de la Llana, Paralres, teixidors de Llana; tintores a clutat de Mallorca (S. XIV– XVII), Palma, 1995.

الأستاذ أنتونيو مالبكا بتوثيق هذه المناطق. ولقد ورثت المدن المسيحية في الأندلس مثل قرطبة، وإشبيلية، وجيان، وقلعة بني سعيد صناعة الجلود عن الأندلس العربية، التي – كما يوضح خوزيه رودريجز – ظلت تتمتع بشهرة عالية في هذا المجال طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ويرجع هذا إلى الانتعاش الذي شهدته هذه الصناعة في جنوبي إسبانيا، التي كانت تنتج مستلزمات الحياة اليومية، من الأحذية، والأحزمة، وأدوات الزينة، ومصنوعات أخرى أكثر إتقانًا من قبيل المصنوعات الجلدية المزخرفة بالذهب، والفضة وألوان أخرى [3].

(الجانب الأيمن) من الصفحة: قطعة قماش من الحرير المقصب وبعض النقوش، مؤسسة لازارو جالديانو، مدريد.

قطعة قماش مصور عليها منظر البشارة للسيدة العذراء مريم، مصنوعة من الحرير والكتان، صنعت في مدينة لوكا، إيطاليا، وترجع إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مؤسسة لازارو جالديانو، مدريد.

تسوية خام الحديد، وحفر الخشب، من البوابة المدمجة الخاصة بالمسجد القديم – كاتدرائية إشبيلية، النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

أما بالنسبة للمعادن، فمن الواضح أن الحديد كان المعدن الأكثر استخدامًا في مجتمعات العصور الوسطى، وذلك في صنع الأسلحة، وحدوة الخيل، وعدد كبير من الأدوات المنزلية. وقد كشف عن منجم ومجمع للصناعات المعدنية في منطقة روكاسان سلفسترو في إيطاليا، وقام بدراستها باستفاضة الأستاذ ريكاردو فرانكوفتش. ونحن نعلم أن القرن الرابع عشر قد شهد عمليات لاستخراج المعادن من المناجم في العديد من مناطق الأندلس، مثل الكويف Alquife، على مقربة من وادي آش، وبأن هذه المعادن قد استخدمت لطرق السيوف الغرناطية المشهورة، وذلك بناءً على شهادة ابن الخطيب [4]. على أن هذه الفترة كانت أيضًا وقت تدهور متزايد في تعدين الحديد في الدول الإسبانية المسيحية، في حين انتعش هذا التعدين في إقليم الباسك، الذي اشتهر برخص أسعار الحديد وبجودته أيضًا، ولذا فقد كان يتم تسويقه في كل أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية بواسطة تجار الباسك.

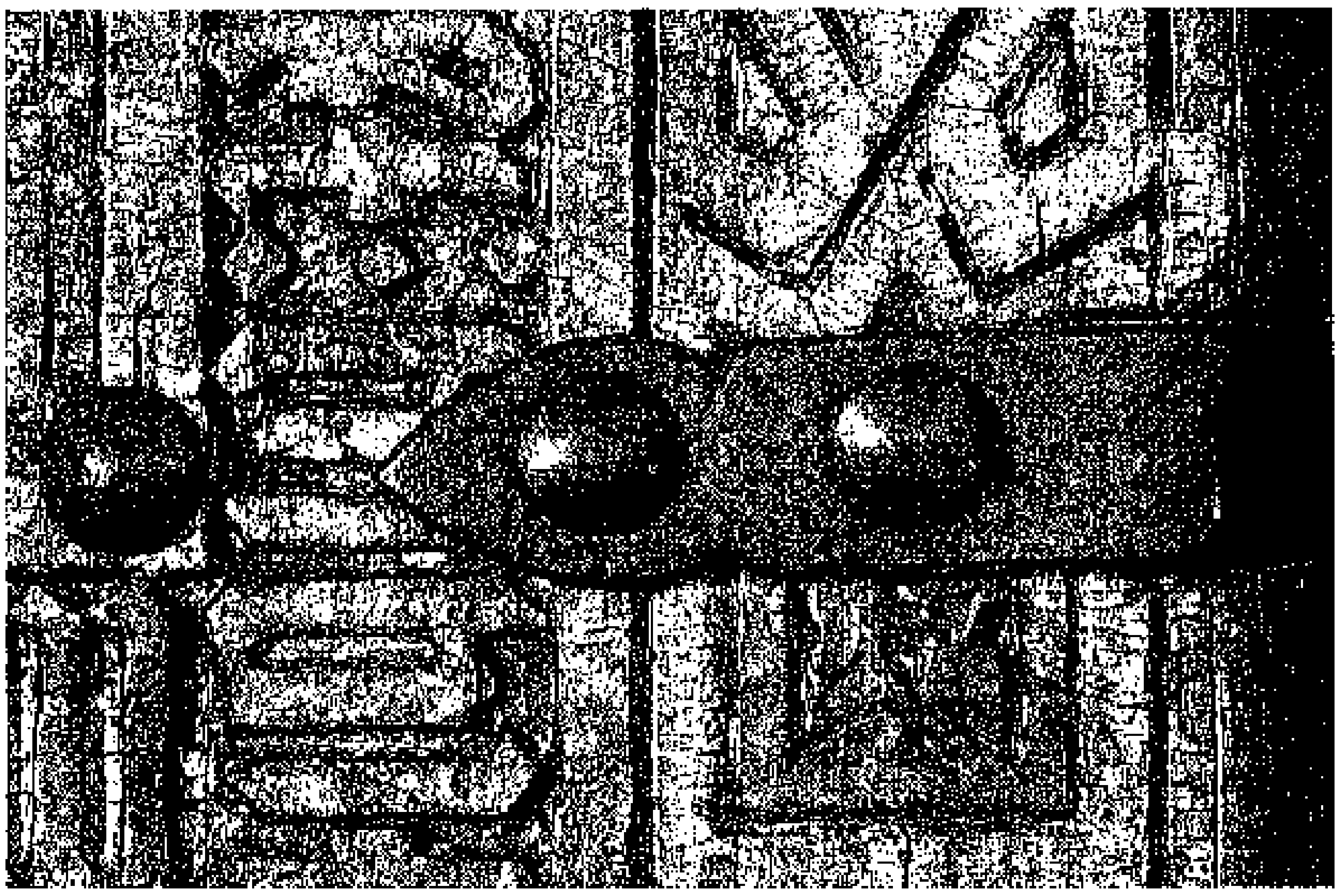

وبالمثل كان حوض البحر المتوسط بيئة مواتية لاستخدام المعادن الثمينة، مع تطور ملموس في المجوهرات. وفي القرن الرابع عشر كانت الفضة تستخدم في مجالات متعددة وأيضًا لسك العملة، في كل من غرناطة والممالك المسيحية في شبه الجزيرة الأيبيرية وكل مناطق غربي البحر المتوسط. كما قامت الأستاذة ماري كرستين بيلي متر Maitre بدراسات حول مناجم كبريت الرصاص في جنوب فرنسا التي كانت نشطة في تلك الحقبة في براند وأويسان Brandes, Oisans في إنتاج المشغولات في سيردينيا فقد كانت ذات شهرة واسعة، كما كانت هنالك دار لسك العملة تحت إشراف ملوك أراغون، الذين حفظت كشوف حساباتهم الخاصة بالنصف الأول من القرن الرابع عشر، والتي تمدنا بمعلومات هامة حول إدارة وورش سك العملة وتقنياتها. وتوضح مخطوطة قشتالية صغيرة ترجع إلى السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر بعنوان رسالة في تعليم كيفية سك العملة Tratado que enseña ensayar cualquier, moneda لا زالت محفوظة في كلية سان إزيدورو في مدينة ليون، الخطوات التفصيلية للاختبارات التي كانت تجري لفصل الفضة عن النحاس من السبائك الخاصة بالعملة لتحديد نسبة نقاوتها، بطرق حسابية دقيقة. وتكشف صفحات هذه المخطوطة عن خطوات إخضاع سبائك العملة لعمليات تصفية في أحد الأفران داخل وعاء صغير يحوي رماد عظام، إلى أن تطفح على السطح نقطة من الفضة الصافية، وذلك بعد امتصاص مادة الرصاص –المعروف أن الرصاص يذوب عند درجة حرارة منخفضة نسبيًا–. ويقرر الأستاذ لورنزو كارا أنه كان يوجد في قشتالة، في غرناطة في عهد بني نصر، منجم للفضة تابع للتاج الملكي، لتزويد دار سك العملة بالمعادن لتصنيع العملة الرسمية للإمارة، وهي الدرهم [5].

وإلى جانب الفضة، كان الذهب يستخدم على نطاق واسع في الشمال الأفريقي، وغرناطة في عهد بني نصر، كما يمكن الاستنتاج من محال بيع الذهب مثل القيسارية alcaieria التي لا تزال باقية حتى اليوم. ولقد امتدح ابن الخطيب نقاء وجودة الدينار الغرناطي. أما وسيلة فصل الذهب عن الكوارتز (المرو) فقد ورد وصفها في المخطوطة H490، المحفوظة في كلية الطب بجامعة مونبلييه، والتي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وقد نقلت هذه الخطوات عن

2 G. Garciolli, L'arte della seta in Firenze, Florence, 1868; G. Navarro, Los origenes je la sederia valenciana, Valencia, 1999; M. A. Ladero, "La production de seda en la Espaina medieval. Siglos XIII – Xvi; La seta iun Europa, sec. XIII – XX, Florence, 1992, pp. 125 – 139; J.F. López de Coca, "La seda en el reino de granada (siglos XV y XVI", España y Portugal en las rutas de la seda, Barcelona, 1996, pp. 33 – 57.

3 A. Malpica, "El rio y la ciudad medieval de Granada: las tenerlas, dei Puente del Carbón", al- Qantara, 16, 1995, pp. 83-106; L. Torres Balbás, "Teneria en el secano de la Alhambra", al-Andaius, 3, 1935, pp. 434 – 437; R. Córdoba (ed.), Mil años de trabajo del cuero. Actas del II Simposium de las Técnicas, Cordova, 2003.

4 R. Francovich (ed.), Archeologia della Attivita Estrattive e Metallurgiche, Florence, 1993; M. Bertrand, J.M. Sánchez Viciana, "Mines et Métallurgies médièvales de la Sierra Nevade (region de Guadix, prouince de Grenade). Premières données", both in Actas de las, Jornadas sobre Minerla y tecnologia el la Edad Media Peninsular, Madrid, 1996, p. 190.

5 M. Ch. Bailly – Maître, L,argent du mineral au pouvoir dans la France medievale, Paris, 2002; M. Tongheroni, La Città del L,argento, Iglesias delle oprigini alla fine del Medioevo, Napies, 1985; B. Caunedo, R. Córdoba, El Arte del Alguarismo. Un manual Castellano de aritmética commercial y ensayo de moneda del siglo XIV, Valladolid, 2000; L. Cara, J. M. Rodriguez, "Notas para el studio de la mineria almeriense anterior al siglo XIX", Boletin del Instituto de Estudios Almerienses, 1986, pp. 11-24.

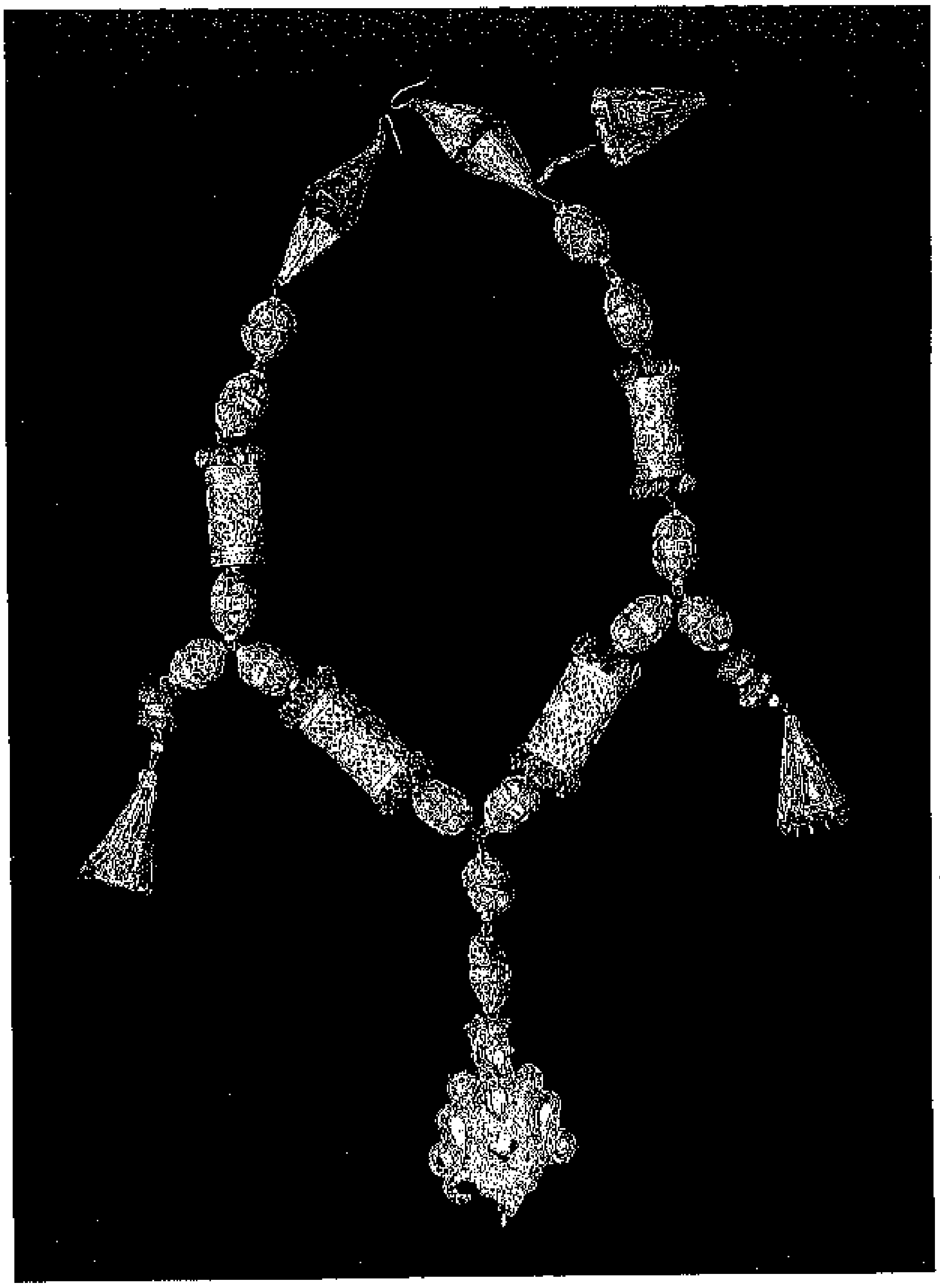

عقد يرجع إلى عصر مملكة بني نصر، كشف عنه في بلدة Mudejar، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر على وجه التقريب، المتحف الوطني للآثار، مدريد.

إناء يرجع إلى عصر مملكة بني نصر، أزرق اللون مذهب. عثر عليه في بلدة طورنوس (جيان)، ويرجع إلى القرن الرابع عشر، المتحف الوطني للآثار، مدريد.

نصوص إسلامية تعالج نفس الخامة. وطبقًا لهذه الخطوات، كان معدن الذهب يسحق ويخلط بمواد معدنية مذيبة متعددة، للمساعدة في عزل المعدن مثل المسحوق الأبيض، والرصاص، والزجاج المطحون. بعد ذلك يوضع المعدن مخلوطا بهذه المواد المذيبة في أحد الأفران –يعرف باسم قنيل أو ألبوطي– canil, albote، ويُعرَّض للصهر باستخدام نار الفحم. وكان يكثف من عملية الاحتراق بواسطة منفاخ، وتستمر العملية لبضع ساعات، حتى ينفصل المعدن عن المخلفات والأتربة. وتوصي العملية رقم 15 من هذا النص بسحق المعدن مخلوطًا بالزيت، ثم وضعه في الفرن المصنوع من الطوب اللبن، ثم تعريضه للنار لمدة نصف يوم، بعد إضافة كمية محددة من المسحوق الأبيض. وتوصي وصفة أخرى بسحق المعدن، ووضعه داخل أحد الأفران، مع إضافة المسحوق الأبيض، وبعض الزجاج المطحون، وبعض الرصاص، والصابون الجاف، على نار متصاعدة الوهج بواسطة المنفاخ الهوائي لنصف يوم. وتتفق الخطوات الواردة في هذه المخطوطة القشتالية مع النص الوارد عند كاتب من شمال أفريقيا، كان يعمل مديرًا لدار سك العملة الخاصة بسلاطين بني مرين في فاس، في القرن الرابع عشر. وتشرح هذه المخطوطة الخطوات المتبعة لاستخلاص الذهب الخالص الصالح لسك العملة، يوضع الذهب المسحوق والكوارتز داخل إناء خاص بعمليات الصهر مصنوع من الجبس والعظم، ثم يوضع الإناء داخل أحد الأفران المحماة بالفحم النباتي المتوهج عالي الحرارة. وعند الوصول إلى درجة الانصهار، يضاف كم من المسحوق الأبيض، والرصاص والصابون بنسبة 10 أجزاء من معدن الذهب مقابل جزء واحد من المسحوق الأبيض والمواد الأخرى، وتستمر العملية لمدة نصف اليوم [6].

من بين الصناعات الأخرى التي كان لها شهرة خاصة في حوض البحر المتوسط في القرن الرابع عشر صناعة الفخار. وفي هذا المجال أدخل ابتكار جديد أثناء القرن الثالث عشر عن طريق استخدام ثاني أكسيد القصدير مع أول أكسيد الرصاص وهو السبيل التقليدي لعمليات الصقل، للمادة الخام للفخار للحصول على قطع فخارية مزججة وغير شفافة. وعرفت هذه المنتجات الفخارية باسم مايولكا maiolcas في إيطاليا التي كانت تستورد الفخار من إسبانيا بكميات ضخمة منذ القرن الثالث عشر فصاعدًا، وكان يتم عرض هذه المنتجات في مدينة بيزا وبعض المواقع الأخرى في تسكانيا في القرن الرابع عشر، كما وجدت هذه البضاعة طريقها أيضًا إلى جنوب فرنسا. ولقد قام كل من ماركيزي، وثيريو، وفالاوري بدراسات حول فخار مدينة مرسيليا. وفي شبه الجزيرة الأيبيرية، تم تطوير هذا النمط من الأواني الفخارية، منذ النصف الثاني للقرن الثالث عشر في كل من أراغون، في مدن ترويل، وموبل Muel، وباترنا Paterna، ومانيسس Manises، وفي قشتالة، في كل من طلبيرة Talavera، وإشبيلية، وكان المنتج يصدر إلى إيطاليا، والجزر البريطانية، وبعض المناطق الأوروبية الأخرى [7].

6 R. Cordoba, "Un manuscrito técnico castellano del siglo XV: el manuyscrito H490 je la Facultad de <edicina de Montpellier", En la Espania Medieval, 28, 2005, pp. 7-48. The Libro de la ceca writien by the anonymous Marinid author was published, in Arabic, in Revista del Instituto de Estulos Islamicos, 6, 1958, pp. 63 – 204; (J. Vallvé, "La Industria en al-Andalus", al-Qantara, 1, 1980, p. 210; idem, "La mineria en al-Andalus", Actos de las Jornadas sobre Mineria y Tecnologia en la Edad Media peninsular, Madrid, 1996, p. 57).

وقد عرف هذا النوع من الفخار باسم الذهبي أو ذي البريق المعدني، وفي بلنسية عرف أيضًا باسم الأزرق والمذهب. ويتميز هذا الفخار باستخدام تقنية خاصة تكسبه بريقًا ذهبيًا أو فضيًا على السطح، وذلك بتعريضه مرة ثالثة لوهج ناري. ومع ذلك كان هذا الفخار يحتاج مرة أخرى إلى مزيد من الحرارة في أفران صغيرة لا تزيد حرارتها على 500 درجة مئوية، وذلك لكي تساعد على نعومة سطح قصدير المينا، وأيضًا لتمكين مواد كبريتيد النحاس والفضة أو الذهب المستخدمة في الجولة الثالثة من الحرارة من ترك البصمة الذهبية الأخيرة على الإناء. وكان تخفيض درجة الحرارة ضروريًا، من خلال دخان نباتات معينة تخرج دخانًا كثيفًا عطر الرائحة، ضمانًا للحصول على البريق المطلوب. ويبدو أن هذه الطرق التقنية كانت موجودة في منطقة الشرق الأدنى منذ القرن التاسع، ثم نقلت من بلاد فارس إلى الأندلس، مع أن هذا النمط من الفخار المصقول ظل يستورد إلى بلاد الأندلس حتى القرن الثالث عشر. وتتألف العناصر الأساسية لتصنيع هذا الصنف من الفخار ذهبي البريق من النحاس، في شكل رقائق كبريتيدية، ومن الفضة بدرجة أقل، ومن أكسيد الحديد، أو المغرة الحمراء، وهي وسيلة لإحكام التغرية بخلق سطح سميك يعلو السطح الناعم لطلاء المينا.

ولقد اشتهر نوع بعينه بين هذا الفخار المصنع في شبه جزيرة أيبيرية، وهو فخار غرناطة، وبخاصة ذلك المعروف في الوثائق القشتالية باسم أوان من مالقه. ويحدثنا كل من ابن الخطيب، وابن بطوطة، وابن سعيد عن الفخار المذهب بأنه كان من أهم الصناعات في مالقة العصور الوسطى. كما أن الأستاذ لاديرو كويسادا قد اختص فخار مالقه بأنه واحد من أهم منتجات مملكة غرناطة، من حيث النشاط التجاري الخارجي. ويقرر الأستاذ جويرمو روسللو أن شهرة فخار غرناطة سرعان ما جعلت مدائن أخرى تأخذ في محاكاة طرائق حرفي غرناطة في هذا المضمار، وكانت بلنسية في مقدمة المقلدين؛ حيث استخدمت الأساليب المتبعة في مالقة. ولما كانت مالقة هي الميناء الرئيسي لمملكة غرناطة، التي كان الفخار يصدر من خلالها، فإنها أعطت اسمها لهذه المنتجات. وهذا ما نطالعه في العديد من قوائم الجرد، وكشوف الحسابات في الأندلس، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر[8].

من بين الصناعات الأخرى التي كانت تشكل بالنار، والتي شهدت تطورًا هائلًا في مناطق حوض البحر المتوسط السفلي، كانت صناعة الزجاج. وقد تولى الأستاذ دافيل نوى دراسة هذه الحرفة في جنوبي فرنسا، في مناطق لاسوب، وكادريس، كما اضطلع بدراستها في إيطاليا كل من منديرا، وستيافني، في مناطق مونت ليكو؛ وجرما جانا. أما في الأندلس، فقد انشغل بهذا الفن كل من باتريس كرسير، التي أخرجت دراسة جامعة بعنوان -الزجاج في الأندلس-، وخمنيث، وثيربود، اللذين قاما بتوثيق المعلومات الخاصة بشارع بوكسمارينا، وميدان بللوجا في مرسية، وخرجا بنتيجة مؤداها أنه كان يوجد في الأندلس فرنان يرجعان إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، يحملان نفس الملامح التي اتسمت

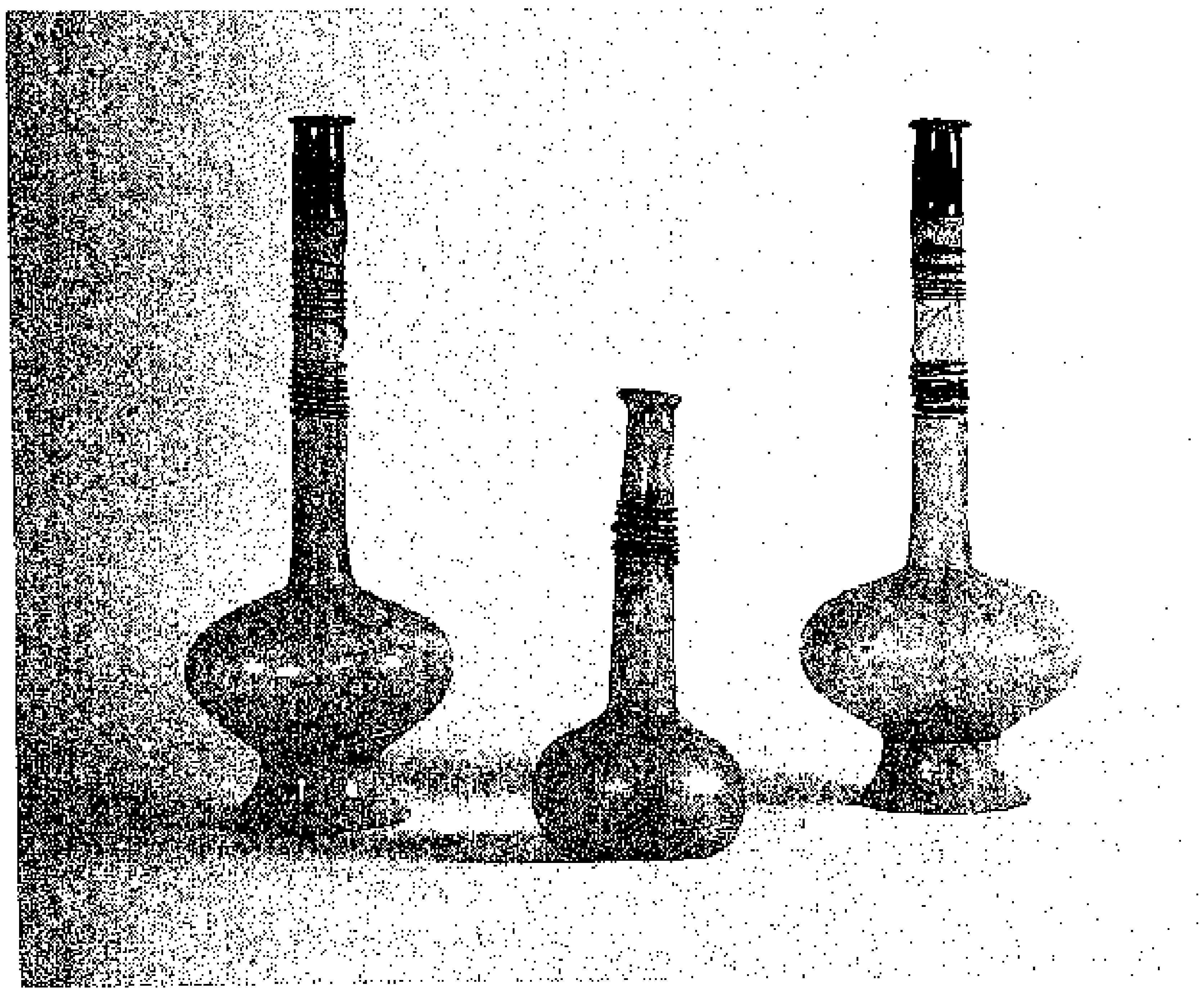

آوان زجاجية ترجع إلى العصر الإسلامي في الأندلس، من القرن الرابع عشر: المتحف الوطني للآثار: مدريد.

بها مصنوعات الزجاج في بقع أخرى مجاورة للبحر المتوسط [9]. والزجاج مادة مركبة، يتألف 60% من خامته من السيلكا المستخلصة من رمال الكوارتز. ولتسهيل تطويعه تضاف إلى خامته مواد ملينة، حتى يمكن تشكيله. ومن أجل هذا الغرض كان صناع الزجاج في أوروبا منذ القرن الثاني عشر حتى الخامس عشر يستخدمون رماد بعض النباتات مثل السنديان، والزان، والأناناس كمذيبات، لأنها تحتوي على كربونات البوتاسيوم -البوتاس- ولكن في بلاد البحر المتوسط كان الصناع يطبقون رماد نبات بعينه من نباتات الأحراش Salsola Kali والذي يحتوى علي كربونات الصوديوم. ولذا فإن هذه النباتات، فى دلتا نهر إبرو، وفي البحيرة Albufere والوادي الكبير، قد لقي حصادها رواجا تجاريا واسعًا.

وأخيرًا، كان من بين الصناعات الأخرى الهامة فى تلك الحقبة صناعة المنتجات الغذائية، وكان الدقيق أكثر هذه المنتجات أهمية. ولذا فإن الطواحين المائية قد انتشرت بالمئات علي طول البحر المتوسط وعرضه. ومع نهاية العصور الوسطى كان هناك نوعان رئيسيان من طواحين القمح، الأول، وعرف باسم أكينا Acena وكانت طواحينه تقع على الأنهار الجارية، ويتم تشغيلها بواسطة السواقي العمودية المجدفة، والثاني وكانت طواحينه تقام على مسارب أقل حجمًا من الأنهار -ترع، وعيون مائية، وقنوات ري-، وكانت الطاقة المائية المطلوبة لتشغيل الطواحين تتم بواسطة سواق أفقية المجاديف، والتي لا تحتاج إلى كم كبير من الماء أو الطاقة.

ورغم وجود الطواحين المائية طوال العصور الوسطى، والتي ربما كانت معروفة في العالم القديم، فإنه قد حدث تطوير تقني هام لتحسين أدائها وللاستفادة بقدر أكبر من مصادر المياه الشحيحة في كثير من المناطق المعروفة بجفافها في بيئة البحر المتوسط. وتفتقت هذه الفكرة عن طريق إقامة بنية عمودية أسطوانية الشكل وطويلة، وعرفت باسم الطبلة، ليصطدم بها كم الماء الجاري، فينهمر من فوقها الشلال في سرعة متزايدة وضغط ملموس. وهذه التقنية قد استعيرت أصلا من بلاد المشرق، في أعقاب الفتح الإسلامي للأندلس، ثم انتشرت في كل ربوع الممالك الإسبانية المسيحية فيما بعد. ومع أن مصدر هذا الابتكار لا يزال موضع جدل بين المتخصصين، إلا أن الأستاذ توماس جليلة يعتقد أن الفكرة قد جلبت من بلاد فارس والجزيرة العربية، وحملها المسلمون معهم عند فتحهم لبلاد الأندلس والواقع أن الطبلة العمودية هذه كانت معروفة عند الفرس قبل ظهور الدعوة الإسلامية، كما يدل على ذلك ما كشف عنه الأثريون من طواحين ساسانية في منطقة ده لاران Deh Laran أي إيران، والتي تتطابق تماما مع طواحين الأندلس. والغريب أن هذا النمط من الطواحين لم يكن معروفا في الشام أو مصر أو المغرب. وعليه فإن هذه الطواحين قد جلبت على الأرجح من بلاد المشرق في العصر الأموي، ثم انتشرت فيما بعد في أنحاء بلاد غربي البحر المتوسط، بعد القرنين التاسع والعاشر، وإن كان التتبع الزمني لهذا الانتشار لا يزال موضع جدل بين الدارسين[10].

من جانب آخر تم توثيق المعلومات الخاصة بصناعة أخرى هي صناعة الزيت ومعاصرة أو طواحينه في العديد من بلدان البحر المتوسط، متضمنة شبه الجزيرة الأيبيرية، وسوريا، ومراكش، وذلك في أواخر العصور الوسطى. وقد ظلت خطط هذه المعاصر دون تغيير حتى القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولقد انتشرت زراعة الزيتون بوفرة في كل أنحاء عالم البحر المتوسط، ونظرًا للاستهلاك الضخم لزيت الزيتون سواءً في عمليات الطهي أو الإضاءة منذ العصور الكلاسيكية،

7 M. Picon, J. Thiriot, L. Vallauri, Le Vert et le Brun, de Kairouan à Avignon. Céramiques de xe au xve siécle, Marseilles, 1995; H. Marchesi, J. Thiriot, L. Vallauri, Marseilles, les ateliers de potiers du xiie s. et le quartier Sainte Barbe, Paris, 1997; F.Amigues, "La ceramica valenciana: sus técnicas de fobricacion", Spanish Medieval Ceramics in Spain and the British Isles, Oxford, 1995, pp. 129 – 139; M. Mesquida", La Ceramica azul y jorada de Paterna: formas y de coraciones", Las Jornadas de Ceramica Medieval e Pos-Medieval, Oporto, 1995, pp. 97 – 108.

8 I. Flores, M. Munoz, "Ceramica. Nazarí (Almeria, Granada y Málaga), Siglos XIII – XV", Spanish Medieval Ceramics in Spain and the Britis Isles, Oxford 1995, pp. 245-277; F. Guillén, Málaga musulmana, Málaga, 1984, p. 546; M. A. ádero Quesada, Granada Historia de un país Islamico, Madrid, 1979; G. Rossello Bordoy, "La ceramica en al-Andalus. Les artes islamicas en Espana, Madrid, 1992, p. 102; M. Borrero", El ajuar de la casa campesina sevillana a fines de la Ed d Media", La sociedad medieval andaluz: grupos no privilegiados, Jaen, 1984, p. 219.

9 D. Foy, Le verre medieval et son artisanat en France méditerranéenne, Aix-en- Provence, 1988; D. Stiaffini Il vetro nel Medioevo: tecniche, strutture, manufatti, Florence, 1999, M. Mendera (ed.), Archeologia e storia della produzione del vetro preindustriale, Florence, 1991; P. Cressier (ed.), El Vidrio en al – Andalus, Madrid, 2000; P. Jiménez, F. Muñoz, J. Thiriot, "Les ateliers urbains de verriers du Murcie au xiie siècle", Arts du feu et productions artisanales, Antibes, 2000, pp. 433 – 452.

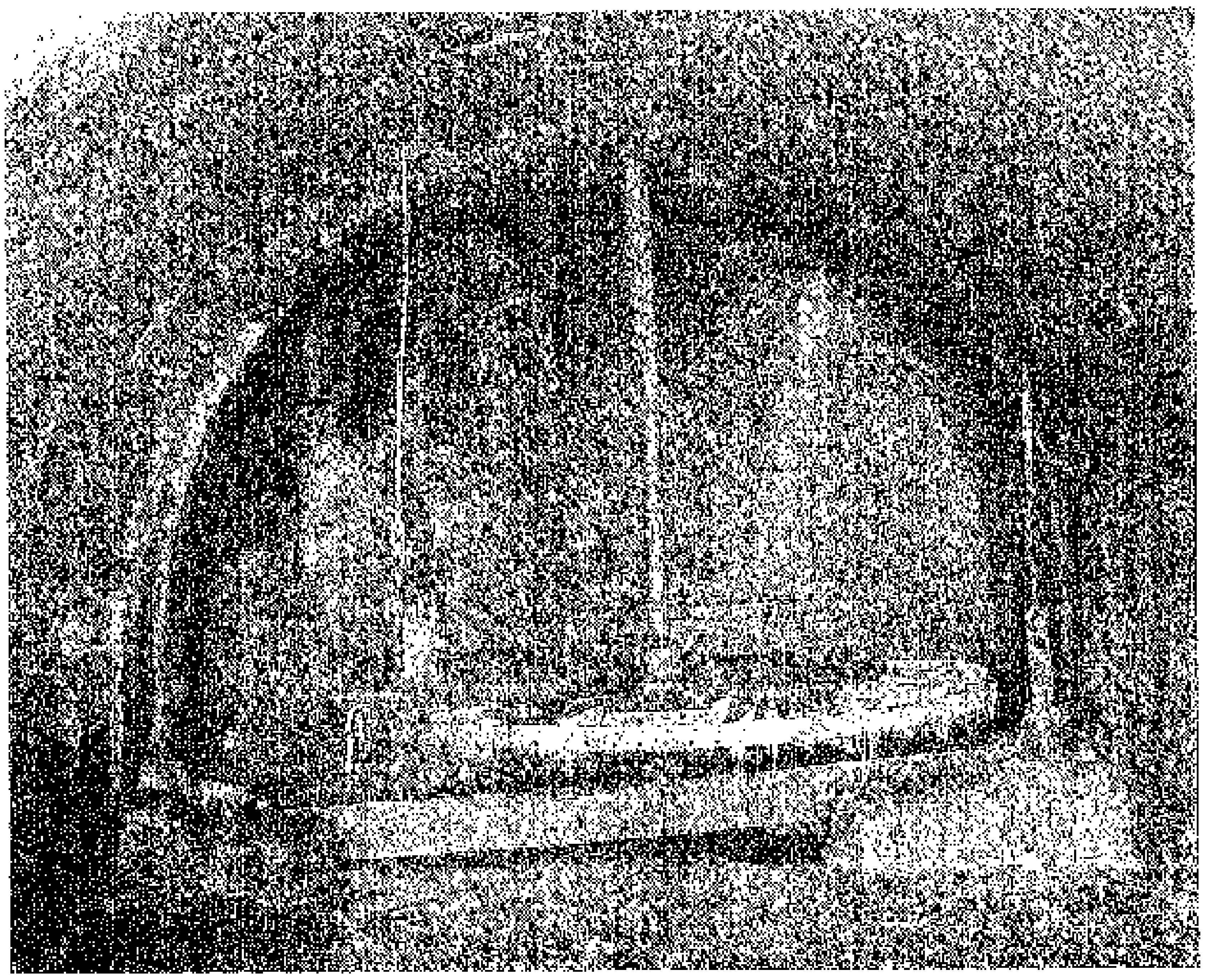

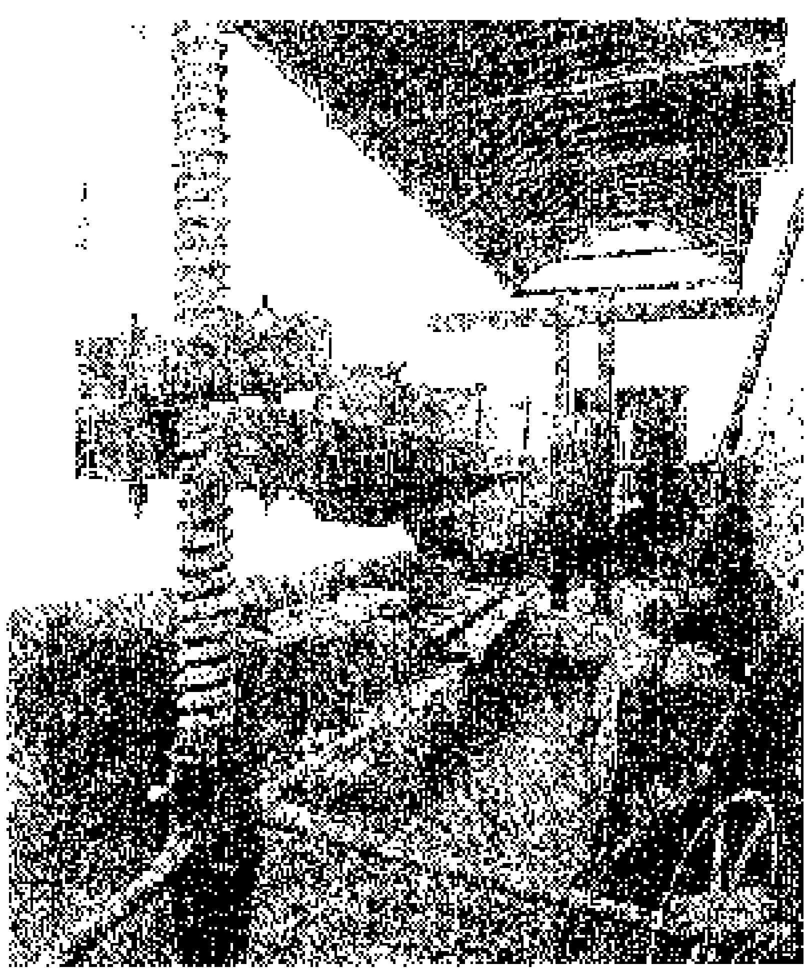

ساقية لضخ الماء لطحن الدقيق.

آلة ضغط (كبس) لعصر الزيت.

فإن العديد من معاصر زيت الزيتون قد أقيمت لتلبية هذه الاحتياجات اليومية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ولقد قام الأستاذ خوزيه رودريجز موليثا بدراسات ضافية، هو والأستاذة ماريا مارتينيز، حول معاصر زيت الزيتون في كل من الأندلس، ومرسية. وكان من المكونات الهامة في كل معصرة ما يعرف باسم الفرج Alfarje وهو حجر أسطواني الشكل، يحركه جذب أحر الخيول أو تدفعه قوة مياه منهمرة، ووظيفة هذا الحجر طحن حبات الزيوت. وفي نفس الوقت كانت كتلة خشبية متحركة تهبط على الرحى الدنيا لعصر الزيتون وجدائله، مع إضافة ماء مغلي للسبيكة. أما أرضية المعصرة فكانت تحتوي عددًا من الأدوات لتصفية الزيت[11].

أما آخر الصناعات التي نعالجها في هذا المقال فهي صناعة ترتبط إرتباطا وثيقا بحوض البحر المتوسط في العصور الوسطى، والتي لم تكن معروفة في البلدان الأوروبية بسبب الظروف المناخية، ونقصد بها صناعة قصب السكر، ولقد كان استخلاص السكر من القصب، وكذا المكونات التقنية للمعاصر شبيها بتلك المستخدمة في معاصر الزيوت.

وقد أطلق على هذه المعاصر لاستخلاص السكر اسم ترابيكي Trapiche بمعنى طواحين السكر، والكلمة مشتقة أصلًا من الكلمة اللاتينية Trapetum والتي استخدمها الرومان في وقت مبكر لتعني معاصر الزيوت وكانت معصرة السكر تحوي حجرًا للرص أو أكثر من حجر لعصر القصب، ثم ضغطه لاستخلاص السائل. بعد ذلك يوضع السائل في عدة أفران للغلي، ثم يخزن في شكل قوالب حتى يتبلور. وكانت هذه المعاصر شبيهه بطواحين الزيت، كما كانت بدورها تدار بواسطة الخيول أو الطاقة المائية المندفعة. وفي السنوات الأخيرة جرت دراسات توثيقية حول معاصر السكر في كل من قبرص، ووادي الأردن، وسواحل غرناطة في موتريل Motril، والمنكب، وهي ترجع إلى أواخر العصور الوسطى. كما قامت الأستاذة ماري لويز ڤون ڤرتبورج بدراسة عن مصفاة السكر في بلدة كوڤوش – ستاڤروس، على جزيرة قبرص، حيث كشفت هذه الدراسة عن حجر للرحى تجره الحيوانات، وعن حجر آخر تدفعه قوة المياه المنهمرة أو السواقي. ويشير هذا إلى طريقة مزدوجة في عصر قصب السكر، أو إلى توفير معصرة بديلة، في حالة عطب يحل بالمعصرة الأخرى[12].

مما سبق عرضه حول الصناعات المتنوعة، يتبين لنا أن نهايات العصور الوسطى قد شهدت نشاطا واسعًا في مختلف الصناعات، ويدلل على هذا النشاط ما وصلنا من تشريعات حول نقابات التجار، ومن مخطوطات تقنية سجلت في تلك الأوقات، خاصة في المدن الإيطالية ومدائن شبه جزيرة أيبيرية. هذا وبفضل المبادلات في مواد الخام، والبضائع المصنعة، فإن النشاط التجاري قد انتعش كثيراً، الأمر الذي قرب بين شعوب هذه المنطقة وتواصلها، وذلك تشبها مع التقاليد المتواترة عن تاريخ حوض البحر المتوسط على مدار التاريخ.

10 T. Glick, L. P. Martinez, "La molineria hidraulica valenciana; questions obertes", Els molins hydraulics valencians. Tecnologia, historia, I context social, Valencia, 2000, p. 89; T. Glick, "Regadio y tecnicas hidraulicas en al – Andalus, su diffusion segun un eje Este – Oeste", La Cana de ezucar en tiempos de los grandes descubrimientos (1450 – 1550), Motriul, 1990, p. 94; P. Cressier, "El resbalon de Sitan, Observaciones sobre el Molino hidraulico en al-Andalus y Marruecos", Homenaje a Tomás Quesada, Granada, 1998, p. 155; S. Selma, Els molins de aigua medievals a Sharq al Andalus. Aproximacio a traves de la documentacio escrita del segles x-xiii, Onda, 1993.

11 J. Rodriguez, "Los molinos de aceite medievales andaluces", Le manfactura urbana ; els menestrals, Palma de Majorca, 1991, pp. 159 – 175; id., "Molinos de harina, molinos de aceite y tenerias. Alto Guadalquivir. Siglos xiii – xvi", Actas de las Jornadas sobre Mineria y Tecnologia en La Edad Media peninsular, Madrid, 1996, pp. 420 – 428; M. Martinez, da cultura de aceite en Murcia, Murcia, 1995.

12 A. Malolca (ed.), La cana de azucar en tiempos de los grandes descubrimientos, Motril, 1990; id., La cana de azucar en el mediterráneo, Motril, 1991; id., 1492: 10 dulce a la conquista de Europa, Motril, 1994; M. L. Von Wartburg "Design and Techonology of the Medieval A Case of Study in Industrial Archaeology", Paisajes del Azucar, Granada, 1995, pp. 81 – 116; T. Lagro", Las factorias de azucar de epoca medieval en el valle del Jordan", Agua, trabajo y azucar, Granada, 1996, pp. 211-222.

علم السكان، ونهاية العالم، والعلاج

الوباء الأسود في عالم القرن الرابع عشر

خوليو ڤالديون باروك
جامعة بلد الوليد

ترجمة إسحاق عبيد

في منتصف القرن الرابع عشر، ابتليت أوروبا المسيحية بالوباء الأسود، والوباء الأسود مرض قاتل، تسببه بكتيريا خبيثة تعرف باسم باستوريا بستس Pasteurella pestis، التي كانت في الأصل تصيب الفئران، ثم انتقلت إلى البشر من خلال البراغيث، ولقد انفجر هذا الوباء في مدينة كافا Kaffa، وهي مستعمرة جنوية تقع على شبه جزيرة القرم، أي في نطاق شرقي حوض البحر المتوسط، ويبدو أن هذا المرض قد انتقل أول الأمر إلى تجار من مدينة جنوة، عند وجودهم في مدينة كافا في أواسط القرن الرابع عشر، وذلك بعد مخالطتهم لجنود منغوليين مصابين بهذا المرض، وفي خريف سنة 1347، حملت سفينة جنوية على ظهرها هذا الوباء الفتاك، في رحلة عودتها إلى إيطاليا، ومنها انتشر الوباء ليعم القارة الأوروبية، وكانت جزيرة صقلية أول بقعة أوروبية يضربها هذا المرض الوباء، ومنها انتشر إلى سائر البقاع الأوروبية، جزر سردينيا، وكورسيكا، وإيطاليا، ثم فرنسا، والإمبراطورية الألمانية، وفي ربيع سنة 1348 وصل الوباء الأسود إلى جزر البليار، ومنها إلى شبه جزيرة أيبيرية، ليضرب كلا من ممالك أراغون، وقشتالة، وناڤار، والبرتغال، وفي سنة 1349 وصل الوباء إلى شمال أوروبا، وفي سنة 1350 وصل إلى روسيا نفسها، ويشير نص هام في حولية الكاتب الإيطالي ميشيل دي پيازا إلى أن "الجنوية قد حملوا هذا المرض في عمق عظامهم" وهذا الوباء اللعين شديد العدوى لدرجة أن من كان يتحدث مع هؤلاء الجنوية المصابين يصاب بالعدوى، ولقد كان هذا الوباء شديد الفتك بالبشر على التو، وكان من الصعب على القوم الإفلات منه.

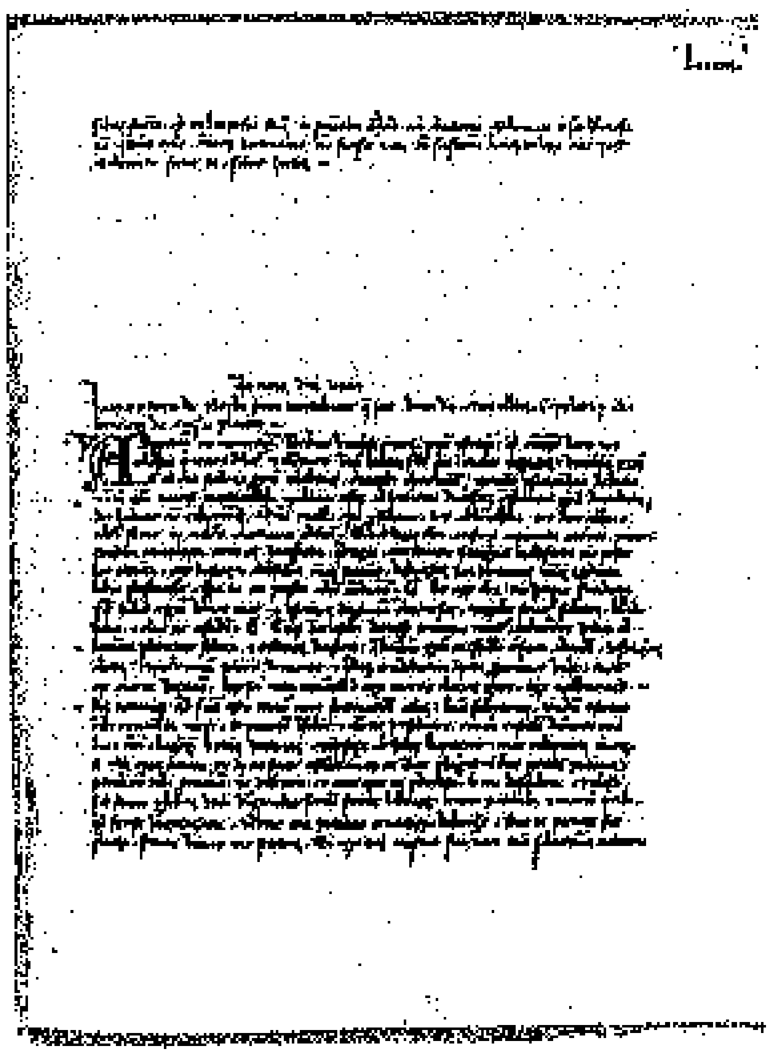

رواية جابريللي دي موسي de Mussi عن حصار مدينة كافا، التي انتشر منها الوباء الأسود في بلدان حوض البحر المتوسط، مخطوط يرجع إلى سنة 1367 على وجه التقريب، مكتبة الجامعة، وارسو.
منمنمة للوباء الأسود وضحاياه، بعنوان: "الساعات الثلاث الحاسمة"، من عمل دون بري: 1411-1416، متحف كوندي

كما تسجل حولية ألفونسو الحادي عشر، ملك قشتالة وليون، أن "هذا الوباء كان أول كارثة مرضية تسبب الآلاف من الوفيات"، مضيفة أن هذا الوباء قد خرب "أراضي فرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، وقشتالة، وليون، وإكستريماديورا، وأماكن أخرى"، وكما نقرأ في رواية الكاتب الإيطالي بوكاشيو بعنوان ديكامرون Decameron في حديثه عن مدينة فلورنسا، "لم يكن مستطاعًا احتواء هذا الوباء لا بتطهير المدينة، أو بمنع دخول المرضى إليها، ولا حتى بالابتهالات للسماء، ولا بالمواكب الدينية الضارعة للأعالي، أو بأية طقوس دينية أخرى"، لقد ظهر الوباء الأسود في عدة صور، في شكل التهاب رئوي يعصف بالجهاز التنفسي، أو في شكل تقيح وعفن؛ أو في شكل نزيف جلدي مصحوب بظهور بقع زرقاء، مسودة على الجلد، على أن أشد الأعراض شيوعًا كان ظهور الأورام؛ خاصة الغدد اللمفاوية، وعلى الفخذ، وعلى الإبط أو الرقبة، وهناك وصف تفصيلي لهذه الأوصاف في رواية ديكامرون التي سبقت الإشارة إليها، حيث تطالع الآتي: "في بداية المرض ظهرت أورام على أفخاذ وإبط الرجال والنساء في حجم التفاحة أو البيضة، ولقد أطلق العوام على هذه الأورام لفظة بابون متورم buboes، وبعد أيام قلائل من الإصابة تغطي الالتهابات المهلكة الجسم كله".

وهكذا وقعت أوروبا المسيحية في حيرة شديدة، وراحت دوائر مختلفة تتصدى نشرح أسباب هذه الكارثة، بأن الجذام أساس هذا البلاء، ولكن الرأي الأكثر شيوعًا وضع الوزر على عاتق اليهود، وفي هذا يقول الفرنسي جون دي ڤيريت في حوليته أن "اليهود قد دسوا السم في الآبار وفي المياه، كما لوثوا الهواء"، على أن اتهام اليهود، وبخاصة في ربوع الإمبراطورية الألمانية حيث تمت مهاجمة أحيائهم في كل من الأراضي الألمانية

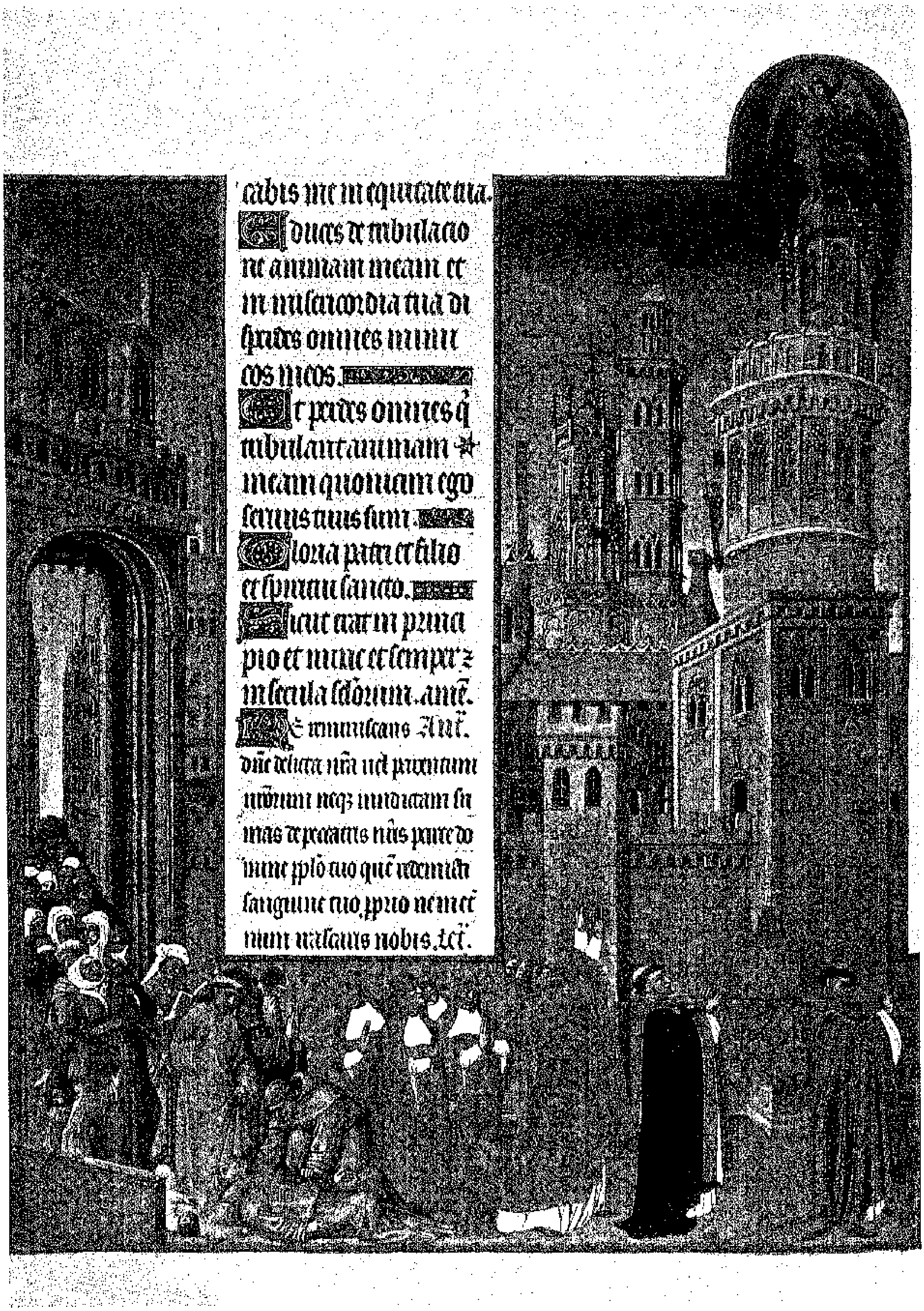

وأيضاً في بعض مدن الطاليانية. هذا الاتهام لم يصادف قبولاً لدى البلاط البابوي في مدينة أفنيون الفرنسية، وأعلن البلاط البابوي أن الشائعات حول مسئولية اليهود ليست صحيحة، وأن "الوباء قد حل بسبب تحول المجرات السماوية في تحركها في أبراجها، أو بسبب الغضب الرباني من شرور هذا العالم، ومن ثم توجب القصاص"؛ ونجد رأياً مماثلاً للرأي البابوي في كتابات جراح فرنسي معاصر يدعى جي دي شولياك (Guy de Chauliac) الذي يقول إن سبب الوباء يرجع إلى تزامن ظهور كواكب زحل والمشتري والمريخ جميعاً في برج محدد من سنة 1345؛ أما الكاتب الإيطالي بوكاتشيو فيتبنى وجهة النظر البابوية بأن الوباء قد ضرب أوروبا بسبب "المجرات السماوية، أو بسبب قصاص الله من بني آدم على شرورهم"؛ أهلك الوباء الأسود أعداداً غفيرة من شعوب أوروبا المسيحية، وتطالعنا حولية بابوية من مدينة أفنيون أنه "لا نظير لما يحدث، ولا عرفت البشرية في تاريخها ما يشبه هذا البلاء ... إن الأحياء لم يعودوا كافين لدفن الأعداد المهولة من الموتى" وتمضي الحولية تقول: "إن أصاب المرض عضواً من عائلة معينة، فإن الأرجح أن ينتقل المرض إلى جميع أفراد العائلة ويهلكون"؛ أما الكاتب الفرنسي جون فرواسار (Froissart) فإنه سجل في حوليته يقول: "لقد ظهر في ذلك الوقت مرض يعرف باسم الوباء، وانتشر في كل أنحاء العالم، وأهلك ثلث البشرية"؛ أما الكاتب الإيطالي آجنولو دي تورا (Agnola di Tura) فإنه يقول: "لقد هجر الأب ولده ... وأنا شخصياً قد قمت بدفن أطفالي الخمسة بيدي"؛ أما العلاج الذي استخدمه الأطباء لمحاربة هذا الوباء الرهيب فكان بإسالة دم المريض أو تقطيع وصديد الأورام المتقيحة. هذا ولقد أجرى المؤرخ ج. س. رسل (Russell) دراسة تحليلية لموقف الوباء وجد أن ما بين 20 و25% من سكان إنجلترا قد هلكوا بسبب هذا الوباء الأسود، أما الإحصائيات في ألمانيا فتشير إلى أن نسبة الموتى في كل من مدائن هامبورج، وبريمن، وماجدبورج، قد بلغت 50% من السكان. كذلك كانت نسبة الوفيات مرتفعة في كل من: إبر Ypres، وتورناي في فرنسا، وفي باريس هلك ما يقارب 25% من سكانها تحت وطأة هذا الوباء نفسه؛ وما بين يناير 1348، ويناير 1349، فقدت مدينة بولوني ما بين ثلث وخمسي سكانها. أما المدن الإيطالية الصغيرة مثل مدينة إيمولا Imola، فقد أصيبت هي الأخرى بكارثة في سقوط العديد من سكانها ضحية لهذا الوباء. ومن الأمور ذات الدلالة على تردي الموقف أن وصايا ما قبل الوفاة تكاد تختفي في مدينة ليون وضواحيها سنة 1348 على وجه التحديد، ولا تحدث عن أعداد الضحايا في ولاية نورماندي من رجال ونساء وأطفال. والغريب أن المصادر المعاصرة في بعض الأماكن

منظر لرقصة الموت: الموت يحصد الجميع بعد ظهور الوباء الأسود. تصوير جداري في كنيسة كلازين كروتيا، من رقصة الموت.

تلتزم الصمت عن عدد الضحايا؛ كما أشار إلى ذلك المؤرخ كاربنتييه Carpentier في دراسته حول مدينة أورفيتو الإيطالية وقت الشدة. هذا وقد هلك الكثيرون بسبب هذا الوباء في إسبانيا، فقد هلك ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة وليون، ضحية لهذا المرض، في ربيع سنة 1350؛ وهذا ما نطالعه في حولية الملك: "لقد شاءت الإرادة الإلهية أن يصاب الملك بالمرض، في شكل ورم أصاب جسده"، وتتحدث حولية أخرى من إقليم ... عن الوباء الأسود بقولها: "في منطقتنا هلك ما يقارب ثلثي السكان من رجال الدين والعلمانيين على حد سواء، وكان الأمر أهول في عدد الوفيات في مملكة نافار، وفي جزر ميورقة، وفي إقليم فيس Vic في قطلونية"؛ ويؤكد المؤرخ ... أن "ظهور الوباء الأسود في إسبانيا قد ابتلع عدداً وافراً من سكان المدائن على الخريطة"؛ هذا وقد أصيب الناس بالفزع الشديد، واضطر الكثيرون إلى هجر

بيوتهم، وباتت بقاع كثيرة في أوروبا خالية من السكان، وقد أصيبت الجاليات اليهودية بنفس الكارثة، وهلك الكثيرون منهم بهذا الوباء، كما تطالعنا النقوش المحفوظة في مقابر طليطلة الخاصة باليهود، من ذلك ما نطالعه في نقش على مقبرة شخص يدعى يوسف ابن نحمياس: "لقد أصابه الوباء، الذي حل بنا جميعًا كعاصفة عاتية لا ترحم"، كذلك حل الوباء الأسود بمملكة غرناطة، وهلك فيها عدد رهيب من البشر، كان تفشي الوباء الأسود في مختلف البلدان الأوروبية سببًا في ظهور حركة عرفت باسم "التوابين السائطين" Flagellants، والتي قوبلت بامتعاض من قبل الدوائر الدينية، ولقد تكونت هذه الحركة من جماعات تطوف بالبلدان في مواكب، تصرخ ندماً وتوبة وتتوسل للرب كي ينقذ العالم من البلاء الأسود، وكانوا يبتهلون في مسيرتهم إلى العذراء مريم والقديسين، مع حملة شرسة ضد كبار رجال الدين، الأمر الذي يشير إلى بوادر المعارضة ضد الكنيسة الرومانية وكرادلتها، وقد عرفت هذه الجماعات باسم "السائطين"؛ لأنهم كانوا في مواكبهم يجلدون واحدهم الآخر بالسياط، وتكشف الدراسات عن أن هذه الحركة قد انتشرت من المجر إلى إنجلترا، ومن بولندا إلى فرنسا، وكان المشاركون في هذه المواكب من الطبقات الشعبية بشكل خاص، ويشير أحد النصوص من حولية ألمانية بعنوان: Monumenta erphesturtensia إلى أنه في سنة 1349 "انتشر آلاف الآلاف من السائطين في بقاع ثورنجيا، وكل أنحاء ألمانيا، إلى حد أن قرابة ثلاثة آلاف من هذه الجماعات شوهدوا على مقربة من بلدة إرفورت: وحوالي ستة آلاف آخرين في منطقة جوينشتات، وفي مدن أخرى كثيرة، ولقد تطاول هؤلاء السائطون على رجالات الدين واتهموهم بالعجرفة والتعالي، وأمام هذا الموقف، راحت الدوائر الكنسية تندد بهذه الحركة، واتهمهم البابا كلمنت السادس بأنهم أهل ضلال وشعوذة، كما وصفوا أيضًا بأنهم "وباء حل بعقول العامة"، وعليه فإن بعض السلطات الكنسية راحت تنكل بهؤلاء السائطين، وتتهمهم بالسحر والشعوذة، كما قامت بإحراق عدد منهم، من جانب آخر، كان الوباء الأسود سببًا في ظهور ما عرف باسم "رقصات الموت"؛ حيث تقوم إحدى النساء بتمثيل دور الموت أو الهيكل العظمي، ثم تدعو المشاركين في الموكب إلى مراقصتها، وكانت هذه الراقصة الرهيبة تدعو القوم إلى مشاركتها في الرقص، مبتدئة بالبابوات والأباطرة، ومنتهية بالبسطاء، ترجع إلى القرن الثاني عشر وكانت ذات شعبية عريضة، وراح القوم يتغنون بها، في مجابهتهم للوباء الأسود، وهذه الأغنية كانت بعنوان: "الغضب الرباني" Dies irae، كما حدث تطور ملحوظ في فنون النقش والتصوير، في الأمور المتصلة بالموت، وهذا ما نشاهده في أفاريز دير سان بنيتو، في مدينة سوبياكو الإيطالية، وتشهد الرسومات على جدران مدافن مدينة بيزا الإيطالية، والتي ترجع إلى السنوات ما بين 1360 - 1380، على انعكاسات الوباء الأسود على الفن الأوروبي في منتصف القرن الرابع عشر، ولابد هنا من الإشارة إلى أن انتشار الوباء الأسود في أوروبا قد تكشف عن وجهتي نظر مختلفتين تمامًا لدى الشعوب: فالبعض قد قرروا اعتزال شئون هذا العالم وملذاته تمامًا، أما البعض الآخر فقد أقبلوا على ملذات الدنيا وشهواتها قبل أن يدركهم الهلاك المحتوم، ويمثل الفريق الأول كتاب بعنوان "الاقتداء بسيرة المسيح" Imitation

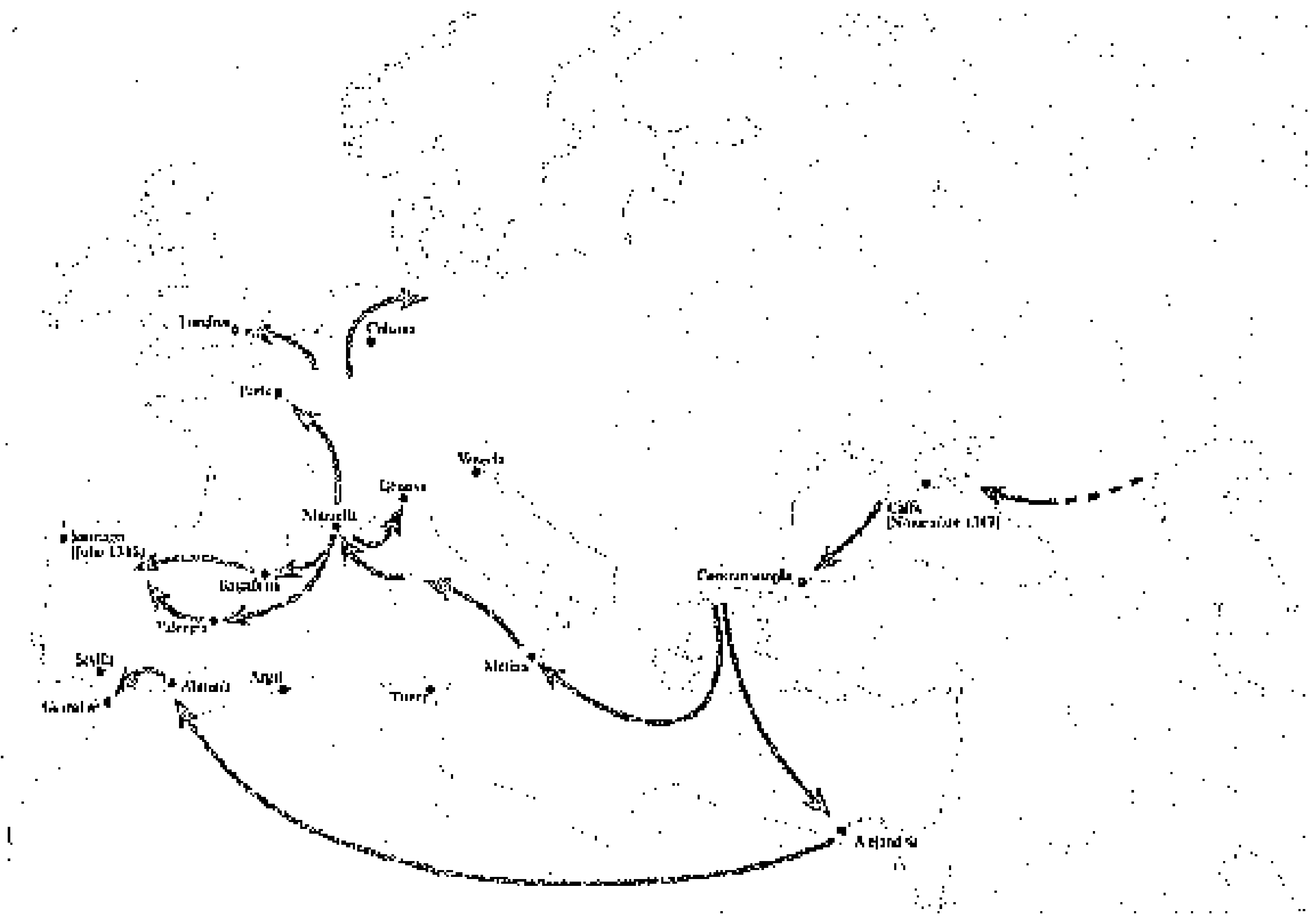

خريطة تبين المناطق التي ضربها الوباء الأسود، القادم من المناطق الشرقية لأوروبا، والمناطق التي لم يصلها الوباء.

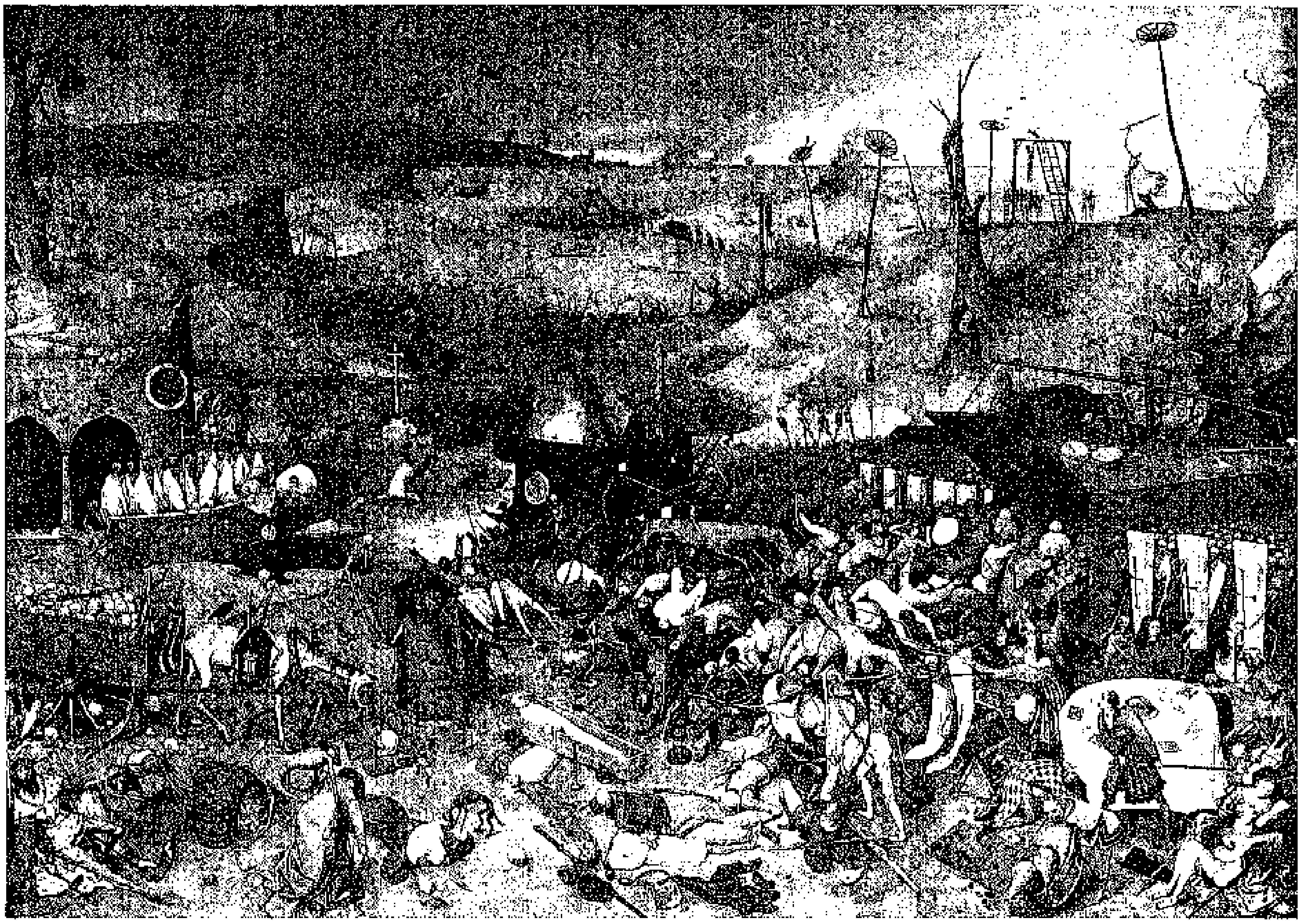

لوحة بعنوان "انتصار الموت" للفنان بايتر بروجل Pieter Brueghel the Elder الأكبر، 1560 - 1564، متحف برادو، مدريد.

of Christ وضعه الكاهن توماس كمبس Kempis، بعد بضع سنوات من تفشي الوباء، وفي هذا الكتاب يدعو كمبس إلى نبذ شهوات هذا العالم، وإلى الالتزام بقواعد المخافة الربانية وإلى الاحتشام الديني، أما الفريق الآخر، أو وجه العملة الثاني، فتجده في حوليات الكاتب الفلورانسي ماتيو ڤيلاني، الذي كتب يقول: "كنا نظن أن البشر الذين يفلتون من ضربة الوباء الأسود، بعد أن شاهدوا ذويهم يتساقطون الواحد بعد الآخر، كنا نظن أنهم سوف يتعظون، ويتعلمون درس التواضع والفضيلة، وأن يصبحوا كاثوليكا أنقياء، وأنهم سوف يبتعدون عن ارتكاب الذنوب والخطايا، وأن تمتلئ قلوبهم بالمحبة للآخرين، على أن هذا لم يحدث، فبعد أن انكشفت الغمة، حدث العكس تمامًا؛ إذ راح الرجال، الذين ازدادت ثرواتهم مما ورثوه من الموتى، ينغمسون في وحل الملذات والمعيشة المفضوحة أكثر من أي وقت مضى، فلقد انفتحت بطونهم على ملذات المأكل والمشرب، وعلى السفه والتبذير، وأخذوا يتنطعون من حانة إلى أخرى، كما راحوا يرتدون ألبسة وأزياء غريبة الهندام، ولم يعودوا يقبلون على العمل اليومي، وراحوا يتطلعون إلى ما لذ وطاب دون حساب، وقد علمنا أن نساء كثيرات من الطبقات الدنيا قد تزين بأزياء كانت ملكا لسيدات من الطبقات الأرستقراطية، بعد أن وصلت إلى أيديهن بطريقة أو بأخرى"، ونطالع نفس الشيء في كتاب بوكاشيو (ديكاميرون)، حيث اعتقد الكثيرون بأن هذا الوباء يمكن شفاؤه من خلال الشراب المسكر، والمرح، والغناء، وإشباع كافة الشهوات الفجة... ولذا فإنهم كانوا يقضون الليل والنهار وهم يتنقلون من حانة إلى أخرى، مع إفراط في الشراب وكل ما هو مثير للغرائز؛ لقد حلت أوبئة أخرى مشابهة في أوروبا المسيحية في حقب تاريخية لاحقة، ولكن بشكل أقل ضراوة عن الوباء الأسود، وذلك في ستينيات وسبعينيات، وثمانينيات القرن الخامس عشر، وقد عرفت هذه النوبات الوبائية باسم "أصداء الوباء".

وباء الطاعون في بلاد المشرق

حسام مختار العبادي
جامعة الإسكندرية

ترجمة حسام مختار العبادي

قبيل منتصف القرن الرابع عشر الميلادي/الثامن الهجري في سنة 749 هـ/ 1348، انتشر وباء الطاعون في بلاد العالم المعروف في العصر الوسيط شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، فأهلك البشر والزرع والضرع وحتى أسماك البحر وطير السماء ووحش البر [1]. وانبرت أقلام الكتاب المعاصرين تصف الداء والدواء دون جدوى.

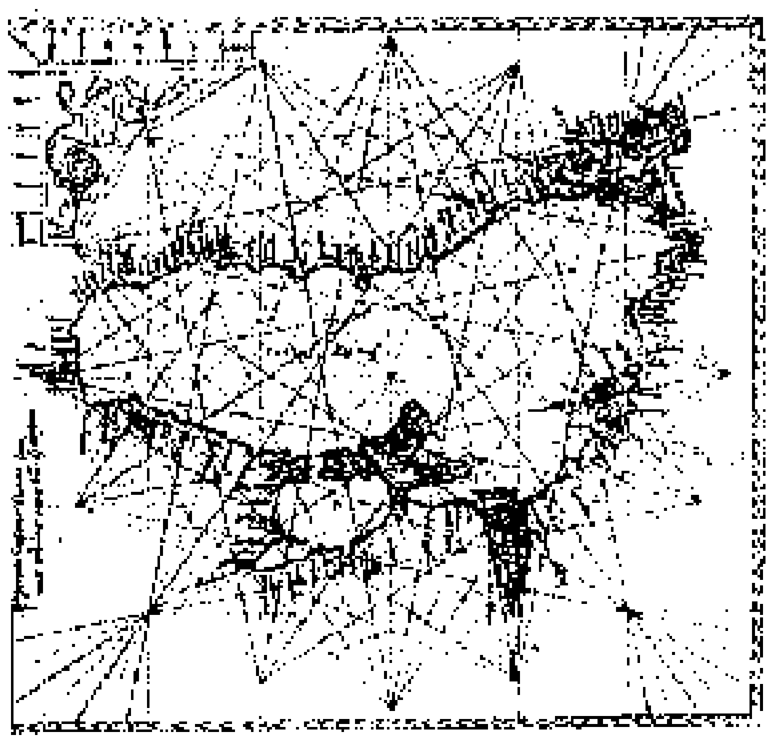

خريطة البحر الأسود وشبه جزيرة القرم حيث انتشر وباء الطاعون، عمل Genoese Petrus Vesconte، عام 1318 (الجنوب إلى أعلى).

في الصفحة المقابلة، في المقطع الثامن والأربعين من الفصل الثالث من المقدمة حيث يحلل ابن خلدون إن اكتظاظ السكان في دولة ما يؤدي إلى انتشار الأوبئة والمجاعات. المقدمة: نسخة عاطف أفندي، رقم 145 أ، 1936، المكتبة السليمانية، اسطنبول.

ومن علامات الطاعون أنه مرض أو داء وبائي مُعْدٍ وقاتل، يصاب صاحبه بالحمى وطلوع بثرة أو كُبَّة وهي غدة أشبه بالخراج أو الدُّمل ثم يبصق المريض دمًا وينتهي الأمر بالصراخ والموت [2].

وقد سمي هذا الوباء بعدة أسماء مثل الطاعون والجمع طواعين، والفناء الكبير أو العظيم، والوباء الأسود، كما عرف عند أهل الغرب بالوباء المشرقي Levantine [3] لأنه انتقل إليهم من الشرق. كذلك سماه أهل المغرب والأندلس بالمرض الوافد مثل رسالة شاعر المرية ابن خاتمة الأنصاري، تحصيل القاصد في تفصيل المرض الوافد [4]؛ ومثل رسالة الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب "منفعة أو مقنعة السائل عن المرض الوافد" [5] كذلك أطلقت عليه المراجع الأوروبية اسم Peste من اللاتينية Pestis أي الوباء؟ أو الطاعون وسمي بالإنجليزية Black Death أي الموت الأسود، وحقت عليه هذه التسمية لشدة ما أحدثه من موت وفناء في معظم بلاد العالم [6].

ولا شك أن انتشار هذا الوباء عن طريق العدوى بين البشر أو عن طريق الطيور المهاجرة والحيوانات ولا سيما الجرذان أو الفئران وكذلك الحشرات مثل البق والبراغيث بل حتى عن طريق الرياح والأهوية الفاسدة المارة بجيف الموتى التي ساهمت أيضاً في نقل عدواها [7] عند استنشاقها ولا شك أن طريق القوافل البرية ورحلات السفن البحرية كانت من أهم وسائل نقل الوباء إلى آخرين [8].

ولم يكن الناس في ذلك الوقت في العصر الوسيط يعرفون شيئًا عن الميكروب أو الفيروس، ولكن كانوا يأخذون بالأسباب والوسائل المتاحة في ذلك الوقت مثل استخدام النار في حرق الأمتعة والملابس أو الفرار من الأماكن الموبوءة، أو اللجوء إلى الصوم وعدم الأكل من أطعمة الأسواق، أو الدعاء والتضرع إلى الله في المساجد والكنائس والمعابد ليرفع عنهم هذا البلاء. أما عن بداية هذا الوباء فهي غير معروفة تمامًا وقد عبر عن ذلك المؤرخ والأديب الشامي المعاصر زين الدين عمر بن الوردي [9] (توفي في طاعون حلب سنة 749 هـ) في رسالته المعروفة باسم "النبأ عن الوباء" يقول فيها وقيل لنا إنه ابتدأ من الظلمات في خمس عشرة سنة متقدمة على تاريخه .... طاعون روع وأمات وابتداء خبره من الظلمات، فواها له من زائر من خمس عشرة دائر ..... الخ [10].

فلعل ابن الوردي يقصد بالظلمات عالماً مجهولاً انتشر فيه الوباء قبل وصوله عبر السماوات المفتوحة والطيور المهاجرة التي تحمل هذا الفيروس القاتل [11] إلى عالمنا كذلك يضيف ابن الوردي أن هذا الطاعون ويسميه طاعون الأنساب هو سادس طاعون وقع في الإسلام [12].

وأول ابتداء الوباء شرقاً كان من بلاد الخطا (بكسر الخاء) وهو اسم يطلق على بلاد متاخمة للصين، ويسكنها جنس من الترك، كما يطلق اسم الخطا أيضًا على بلاد الصين

1 المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثاني القسم الثالث ص 773 نشر محمد مصطفى زيادة.

2 المقريزي، المرجع السابق: ص 759 وما بعدها. أبو المحاسن بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء العاشر، ص 195 وما بعدها.

3 diccionario Encldopedeico Abreviado Tomo VI p. 523 Art pestc. Espasa. Calpe (Madric. 1973).

4 نشر هذه الرسالة طه دنانه في (F. Gesch. Der Medizt. XIX p. 38).

5 نشر هذه الرسالة جوزف مولر في (Muller: Der Konigle Bayer A. Kud Der Wiss Philos. 1963).

6 من الدراسات القيمة عن الطاعون في الغرب انظر (Charles verrlinden: La gran pest de 1348 revue Belge de philology et D'histoire Bruselles 1938 XVII P 103). (Dols m: Thye Black Death In the Middle east (princton 1977).

7 المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 2: ص 772.

8 من المعروف أن بداية استخدام وسائل الوقاية من هذا الوباء في البر والبحر وتحددت في الاتفاقية الدولية التي عقدت في مؤتمر البندقية (فيسيا) س 1897.

9 هو زين الدين عمر المعري الحلبي الشافعي المعروف بابن الوردي، أديب وفقيه مؤرخ معاصر لهذا الوباء. ولد في معرة النعمان وعاش في حلب المجاورة لها ومات في طاعون حلب س 749 هـ (1349) عن عمر يناهز الثانية والخمسين عاما ومن أهم مؤلفاته كتاب "تتمة المختصر في أخبار البشر" ويقع في جزأين (تحقيق أحمد رفعت البراوي: بيروت سنة 1970) وقد أورد فيه رسالته عن الوباء (في الجزء الثاني ص 497: 500) ومن المعروف أن تاريخ ابن الوردي هو ذيل لكتاب المختصر في أخبار البشر للملك المؤيد أبي الفدا صاحب حماة (توفي سنة 1331م) ولابن الوردي مؤلفات وأشعار عديدة أوردها الشيخ محمد راغب الطباخ في كتابه أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. راجع (أبو المحاسن بن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج 10، ص 240 – 241.

١٣٤

عوتهم من هنالك الى الحجاز وانبث بالحرمين ثم نازلهم جوهر
الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بني طغج من اصولها
واختط القاهرة فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله فنزلها لستين سنة او نحوها السلجوقية
من استيلائهم على الاسكندرية وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني
ساسان واجازوا من وراء النهر مكثوا نحوا من ثلاثين سنة يطاولون ابن سبكتكين
بخراسان حتى استولوا على دولته ثم زحفوا الى بغداد فاستولوا عليها وعلى
الخليفة بها بعد ايام من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة
عام سبعة عشر وستمائة ولم يتم لهم الاستيلاء الا بعد اربعين سنة وكذا اهل
المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين
حتى استولوا عليهم ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحوا من ثلاثين
سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش وكذا بنو مرين من زناتة
خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلاثين سنة واستولوا على فاس
واقتطعوها واعمالها من ملكهم ثم اقاموا في محاربتهم ثلاثين اخرى حتى استولوا
على كرسيهم بمراكش حسبما ذلك كله مذكور في تواريخ هذه الدول فهكذا
حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاولة سنة الله في عباده
ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تعترض ذلك بما وقع في الفتوحات في الدولة
الاسلامية وكيف كان الاستيلاء على فارس والروم لثلاث او اربع من وفاة النبي
صلى الله عليه وسلم سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبصارا بالايمان
وما اوقع الله في قلوب عدوهم كفا ذلك من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله
خارقا للعادة المستقرة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة واذا كان ذلك خارقا
فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة الاسلامية
والمعجزات لا يقاس عليها الامور العادية ولا يعترض بها **فصل**

في وفور العمران اخر الدول وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

اعلم انه قد تقرر لك فيما سلف ان الدولة في اول امرها لا بد لها من الرفق في ملكتها والاعتدال
في ايالتها اما من الدين ان كانت الدعوة دينية او من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة

جميعها في القرون الوسطى[9]؛ فمات من أهلها عدد كبير ثم اتصل الوباء ببلاد الهند وبقية بلاد المشرق سنة 747 هـ/ 1347 مثل بلاد أوزبكستان (الأزبك) التي كانت تسمى بلاد القفجاق وهي أرض القبيلة الذهبية المغولية التي تمتد شمال البحر الأسود وبحر قزوين وحوض الفلجا ثم انتقل إلى بلاد اسطنبول والأناضول بآسيا الصغرى ودخل أنطاكية ونفى من بها. كما أصاب بغداد وبلاد العراق وأباد من أهلها خلقا كبيرا[10].

وفي شهر رجب سنة 749هـ/ 1348 وصل الوباء إلى دمشق وحلب وعم بلاد الشام مثل غزة وعسقلان وعكا والقدس وغيرها وفتك بالناس فتكا ذريعا فكانت جثث الموتى مطروحة في البساتين وعلى الطرقات كما امتلأت المساجد والفنادق والحوانيت بالموتى[11].

ولقد تصادف في هذا الوقت أن كان الرحالة الطنجي ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد اللواتي شمس الدين) يزور الشام وبيت المقدس فوصف مأساة هذا الوباء ولكنه في نفس الوقت أشار إلى ظاهرة صحية أجريت لمقاومة الوباء فيذكر أن نائب السلطان في الشام أرغون شاه طلب من الناس أن يكفوا عن أكل الطعام في الأسواق وأن يصوموا ثلاثة أيام متوالية وكانت النتيجة كما يقول ابن بطوطة أن قل عدد الموتى إلى ألفين بدلا من عشرين ألفا في اليوم الواحد ويضيف ابن بطوطة أن خطيب المسجد الأقصى عز الدين بن جماعة أقام وليمة لأشياخ القدس ودعا ابن بطوطة فيها فلما سأله عن سببها أخبره بأنه نذر أن مر يوم لا يصلي فيه على ميت من الوباء صنع المأدبة ثم قال: ولما كان بالأمس لم أصل فيه على ميت فصنعت المأدبة التي نذرت[12].

أما مصر فقد فتك الوباء بأهلها وشمل الفلاحين بلاد الوجه البحري كما انتشر أيضا في بلاد الصعيد في الجنوب فكان عدد الموتى في القاهرة يزيد عن ألف كل يوم وعطلت الأفراح والأعراس واصطفت النعوش واختلطت الأموات لكثرتها في الطرقات[13]. ويروي المقريزي أن دولة المماليك أمام هذه الكارثة اضطرت إلى جباية سنة 749هـ/ 1348 وهي سنة الوباء من الحساب الخراجي للفلاحين حتى كان يقال: مات في تلك السنة كل شيء حتى السنة نفسها. ولعل هذه العبارة الأخيرة أبلغ ما قيل في وصف هذا الوباء وعبرت سنة الخراج عن السنة التالية لها أي سنة 750 هـ/ 1349[14].

دائرة السحر بين ... صورة من مخطوط عجائب المخلوقات للقزويني، المكتبة الوطنية، باريس.

10 ... المختصر في أخبار البشر، ج2، ص 457.

11 أورد المقريزي ... الزيادي ... ج2، ص 757.

12 ابن الوردي: ... المختصر، ج2، ص 501.

13 الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي ... هذا الوباء ... ابن بطوطة، ج2، ص 236، تحقيق ... العربي، ... 1977.

14 أبو المحاسن ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج10، ص 195 ... ص 483.

15 المقريزي: السلوك، ج2، ص 773؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج10، ص 197 ... ج2، ص 408 ... أبو المحاسن ابن تغري بردي: ج10، ص 194 وما بعدها.

16 ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، ص 236، ج4، ص 315 - 323 ... Defremery et Sanguinetti ... (1922).

هذا ويضيف المقريزي أن من عواقب هذا الوباء أن زهد أرباب الأموال في أموالهم وبذلوها للفقراء بل إن ثروات بأسرها آلت إلى خزانة الدولة بسبب عدم وجود ورثة أحياء فقد قيل إن المواريث في بعض الحالات انتقل بين أربعة أو خمسة ورثة متعاقبين في يوم واحد وكان ذلك في سنة 749هـ/ 1348 أي في السنة الأولى من حكم السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون الذي استطاع بما تكدس لديه من أموال في خزانة الدولة أن يبني مسجده الجميل الضخم بمدارسه السنية الأربعة والذي يقف شامخا يتحدى القلعة التي تقف إزاءه بالقاهرة ويمثل قمة في فن العمارة الإسلامية ويؤثر عنه قوله: لولا أن يقال "إن ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه"[17].

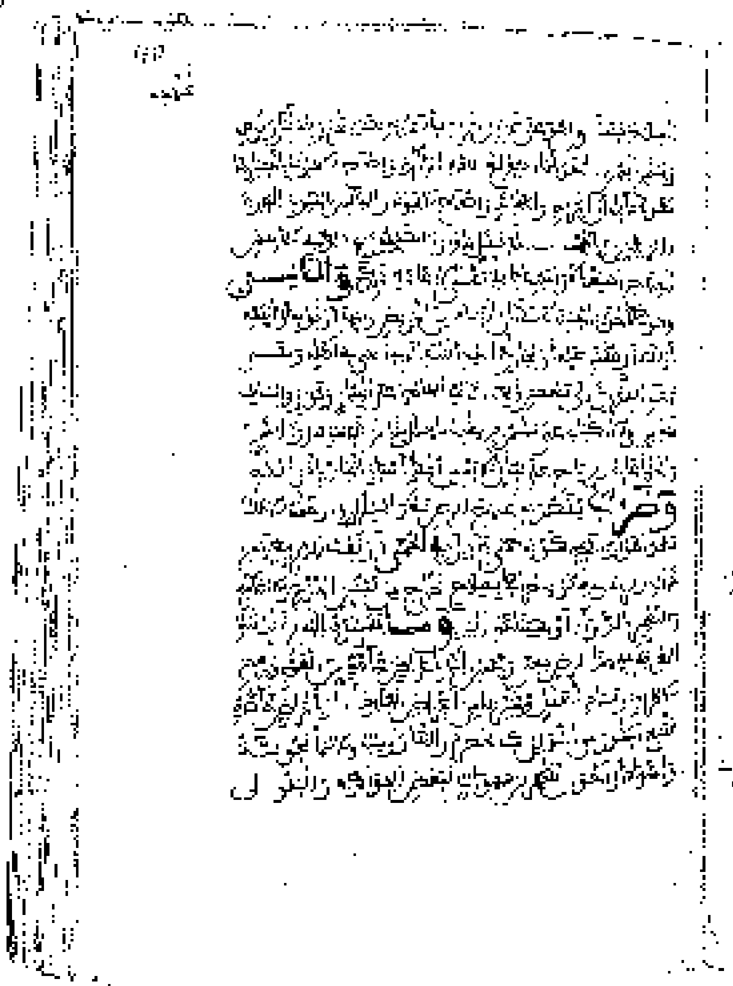

مخطوط مقدمة ابن خلدون ... مكتبة ... [illegible]

ونختم هذا المقال بعبارة للشيخ المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون (ت 808 هـ/ 1406) الذي عاصر هذا الوباء ووصفه في مقدمة تاريخه بعبارات صادقة معبرة تمثل فيها الشفقة والعبرة وذلك في قوله "هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق وقد نزل به مثل ما نزل بالمغرب ... وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها ثم يختم ابن خلدون كلامه برؤية متفائلة تعبر عن زوال عالم قديم ونشأة عالم حديث وعلى أيدي أناس جدد أي جيل جديد وذلك بقوله: وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"[18].

ولعل هذه العبارة الأخيرة لابن خلدون تعبر عن رؤيته المستلهمة من أن كارثة الطاعون التي محت جيلا كاملا من الوجود قد ترتب عليها نشأة خلق جديد وعصر حديث وهو ما عرف في التاريخ بالنهضة أو الرينسانس Renaissance أي الميلاد الجديد.

17 المقريزي: السلوك، الجزء الثاني، القسم الثالث، ص 778 - 786، وانظر كذلك Wiet G. Le grand peste noire en Syrie et en Egypte dans Etudes d'orientalisme dediées à la memoire de Levi - provencal. Paris (1962) PP 367 - 384؛ ... Dols (M.) The Black Death in the middle East (Princeton) ... كذلك ... في ذكر ... أحمد ... المقريزي ... (1995).

18 المقريزي: السلوك، ج2، ص 767، ... الناظر.

19 المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، ص 316؛ ... القاهرة مدينة الفن والتجارة، ص 224، ترجمة ... يوسف ... نيويورك، سنة 1968.

20 راجع المقدمة لابن خلدون، ص 33، طبعة ... الناظر.

الهجرات ونزوح السكان

ماريا فيلومينا لوبيز دي باروس
جامعة يابرة – البرتغال

ترجمة محمد عبد الغني

كما جرى عليه العهد في القرون السابقة فإن شبه الجزيرة الأيبيرية في القرن الرابع عشر قد تحددت معالمها في إطار اجتماعي تميزه حدود عديدة سواء كانت حدوداً ملموسة على التخوم أو غير ملموسة، بمعنى أنها تفصل بين الجماعات العرقية – الدينية المختلفة أو –في داخل هذه الجماعات– بين ذلك التنوع الثقافي الجماعات الأصغر. إن الحدود تجسد تفسيرًا عقلانيًا للخوف الكامن من التخوم والمجتمعات البشرية في عملية تشير إلى اتجاه نحو سكنى الداخل لهوية جمعية تشكلت لتكوِّن عنصرًا مضادًا للآخر. إن مفهوم الآخر من الناحية الحدودية والثقافية يفصل البرتغاليين عن القشتاليين والأراغونيين بل إن ذات المفهوم من الناحية الدينية يفصل المسيحي عن اليهودي أو المسلم. أما فيما يتعلق بالتشييد (العمران) البشري فإن المفهوم لابد أنه قد تم استيعابه وتجربته بطرق مختلفة في فترات الفرقاء العديدين في مجتمعها. على كل حال فإن الحدود ظلت تشكل –في الحاضر كما في الماضي– ظاهرة حاسمة في الحراك السكاني – سواءً كان طوعًا أو قسرًا– في سعي لا يكل ولا ينتهي نحو رسم حدود مكانية جديدة وإعادة صياغة متكررة لعناصر أخرى لرسم الهوية.

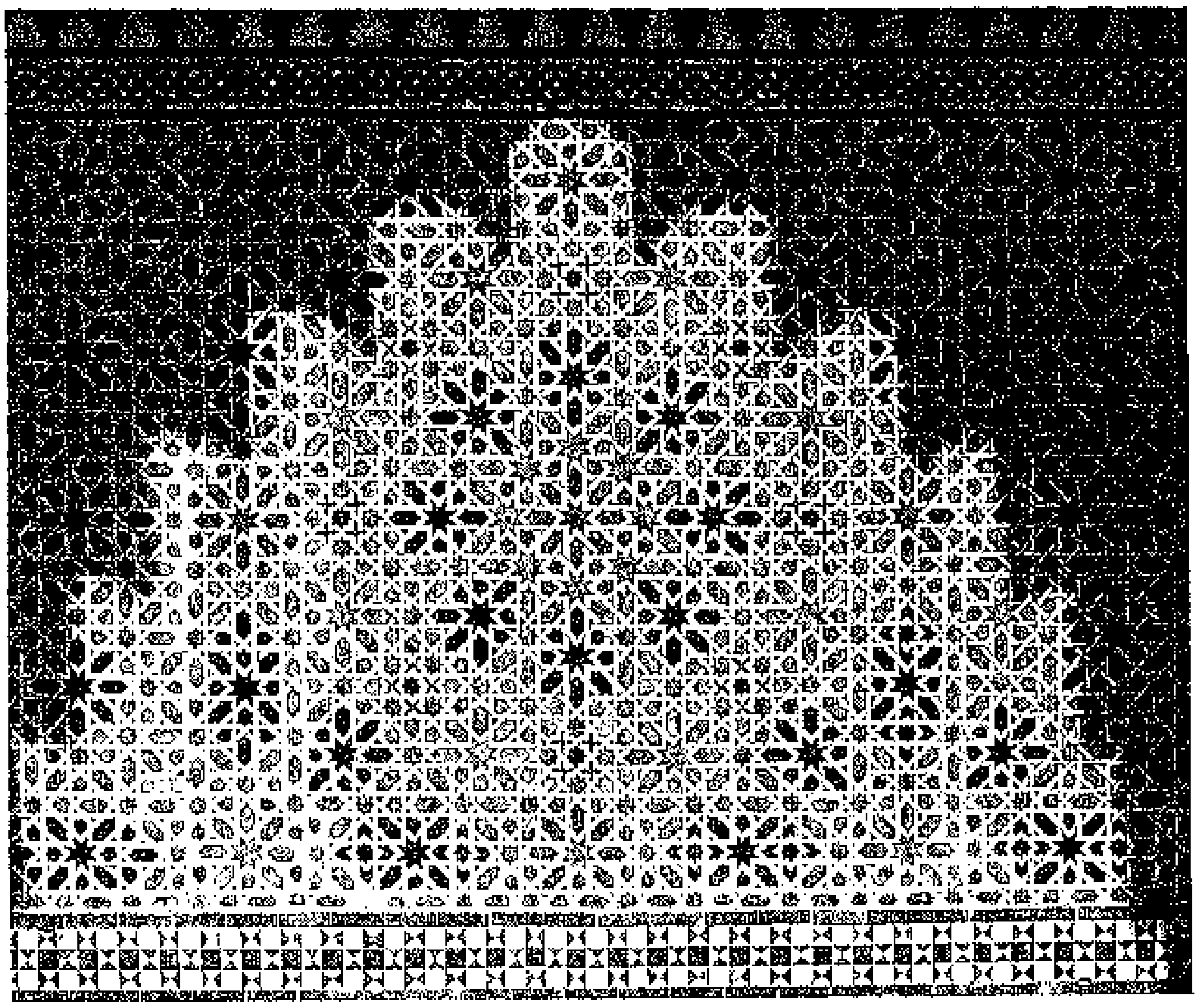

قوالب الطوب تسور عن أسوار القصر الملكي في إشبيلية على عهد المدجنين في القرن الرابع عشر.

ممالك حدودية

إن أبرز الحدود المرئية في فترة العصور الوسطى (على الأقل حسب ما ذكره محللون معاصرون) هي تلك الحدود التي تفصل المسيحية عن الإسلام –وهي في الوقت ذاته حدود مادية ملموسة– وذلك من خلال ترسيم الحدود الجنوبية لممالك أراغون وقشتالة مع مملكة غرناطة، لكنها غير ملموسة بقدر ما تثير من تفسير إيديولوجي يرتكز على "إعادة الغزو" والحرب المقدسة. ولكن في الوقت ذاته فإن هذه الحدود في جنوب شبه الجزيرة تشكل الرابطة مع منطقة حدودية أخرى تعتبر دومًا متممةً لشبه الجزيرة الأيبيرية وهي شمال أفريقيا.

إن تدخل بني مرين في الحدود الأيبيرية فيما بين الربع الأخير من القرن الثالث عشر وأربعينيات القرن الخامس عشر (1440 وما بعدها) يُدون داخل إطار اتجاه أوسع دومًا من اعتبار المضايق (جبل طارق) تشكل نقطة وصل أكثر من كونها مجرد فاصل بين شاطئي المتوسط. وفي منتصف القرن الرابع عشر ومع المشاكل الداخلية في الشمال الإفريقي والتي أدت إلى فقدان السلطان أبي الحسن (الذي توفي عام 1351) ومجيء ابنه أبي عنان إلى الحكم أرسيت قواعد سياسة جديدة للأسرة المغربية توجهت بصورة مطلقة نحو شمال إفريقيا، وعليه تركت في مرحلة لاحقة أمر المدن الأندلسية لمملكة غرناطة [1] . ولكن إذا كان بنو مرين يشكلون آخر الغارات المغربية على شبه الجزيرة الأيبيرية فإن القرن التالي شهد انعكاساً لوضع الحركة التوسعية بحيث أخذت الممالك الأيبيرية زمام المبادرة في غزو حدود شمال أفريقيا. ويجسد استيلاء البرتغاليين

1 Manzano Rodríguez, M. A. (1992) La Intervención de los Benimerines en la Península Ibérica. Madrid, pág. 298.

على سبتة عام 1415 مفهومًا مماثلًا لمفهوم التكامل الحدودي بين شاطئي المضيق والذي أعلن عنه بوضوح في اللقب الشرفي لملوك البرتغال حين يعتلون العرش do Algarve de aquême de alêm mar em Africa وهو ما يعني اتجاه النية إلى أن يتضمن الغرب شطآن البحر المتوسط الغربية على الجانبين (الشمالي والجنوبي).

وكنتيجة لذلك فإن الحراك السكاني بين المغرب وشبه جزيرة أيبيرية استمر في رسم وتحديد الحقائق الديموجرافية (السكانية) للمنطقتين بصورة لا تُمحى على مدى القرن الرابع عشر وكذلك في القرون السابقة واللاحقة إن أسلاف ابن خلدون ذاته، كما يروي هو في سيرته الذاتية -يُعدون خير مثال على هذا الموضع كما يتمثل في نزوحهم من المشرق إلى الأندلس واستقرارهم في تلك البلاد وأخيرًا هجرتهم (من الأندلس) إلى شمال أفريقيا في القرن الثالث عشر [2]. إن تجربة تكونت على قربة الغرب يقابلها ويوازنها ذلك المقام الاجتماعي الرفيع المستند إلى الانتساب المُشرف إلى أمٍ مشرقية سليلة؛ وهو أحد خصائص الصفوة الأرستقراطية

عائلة من الموريسكيين من غرناطة كما رسمها ڤيديتز Weiditz من أوائل القرن السادس عشر.

المسلمة. إن البيئة الغربية قد تركت بصماتها – فضلًا عن ذلك – في تعليم ابن خلدون، إذ كان معظم من علموه من مناطق المغرب وأفريقيا في الأساس، أو من شبه الجزيرة الأيبيرية كما هي الحال عند الآبيلي وابن رضوان، فقد كان الأول من عائلة من أبلة (كما يتضح من لقبه) وتربى الثاني في مالقة [3].

وبالنسبة لشمال أفريقيا وكذلك مملكة بني نصر في غرناطة فإن الهجرات من الأندلس شكلت حقيقة اجتماعية بارزة في القرن الرابع عشر وكذا في القرون السابقة وفقًا للمكاسب الحدودية التي أحرزتها الممالك المسيحية وزاد من تفاقمها هجرة موازية من جانب المستوطنين المسيحيين إلى مناطق الفتوحات الجديدة التي أحرزها المسيحيون في الجنوب. ورغم ذلك فإن هذه الحدود المتقلبة المتذبذبة حفزت كذلك حركات هجرة للاتجاه المعاكس؛ أي من الجنوب إلى الشمال من المغرب إلى شبه الجزيرة. إن الثبات السياسي لبني مرين قد تسبب في

2 Ibn Jaldœn, Le Livre des Exemples, traducción de Cheddadi, A. (2002). París, págs. 52- 55.

3 Ibidem, págs. 65- 82.

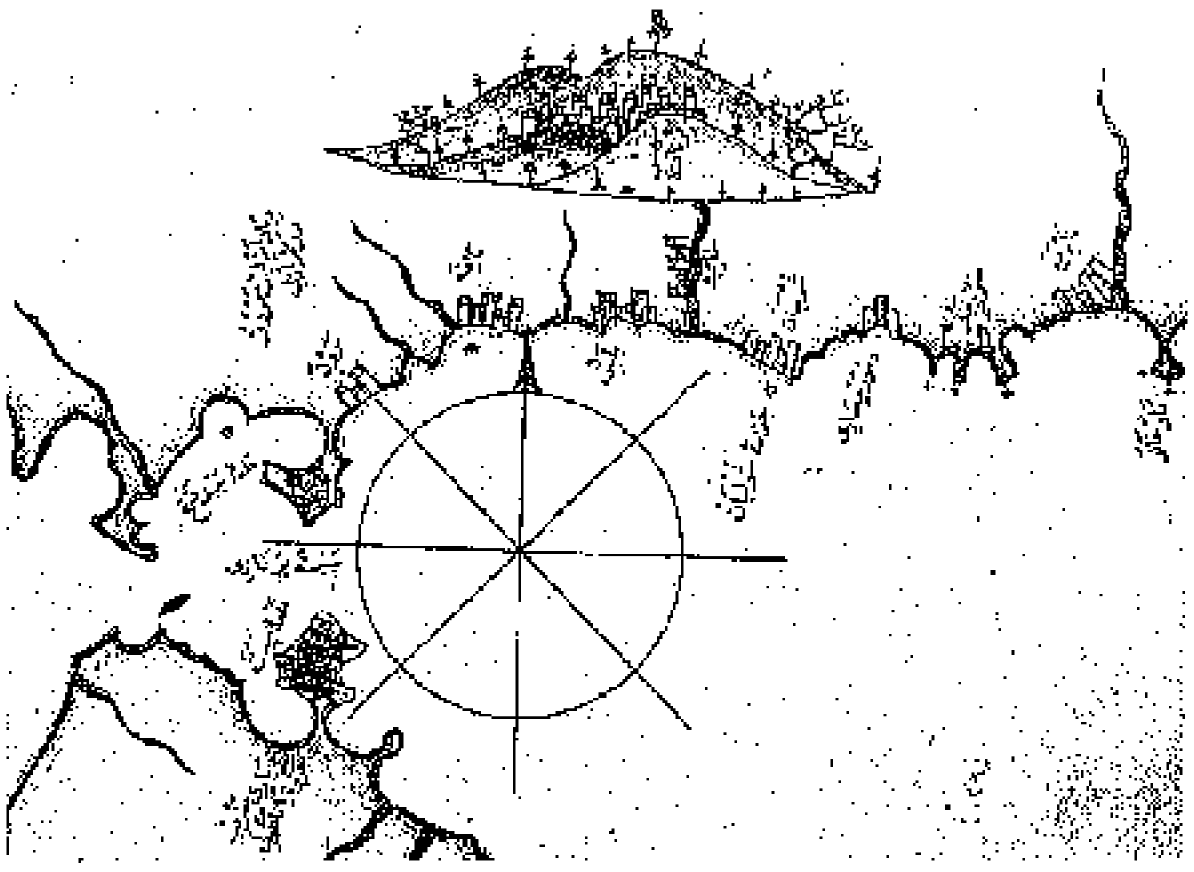

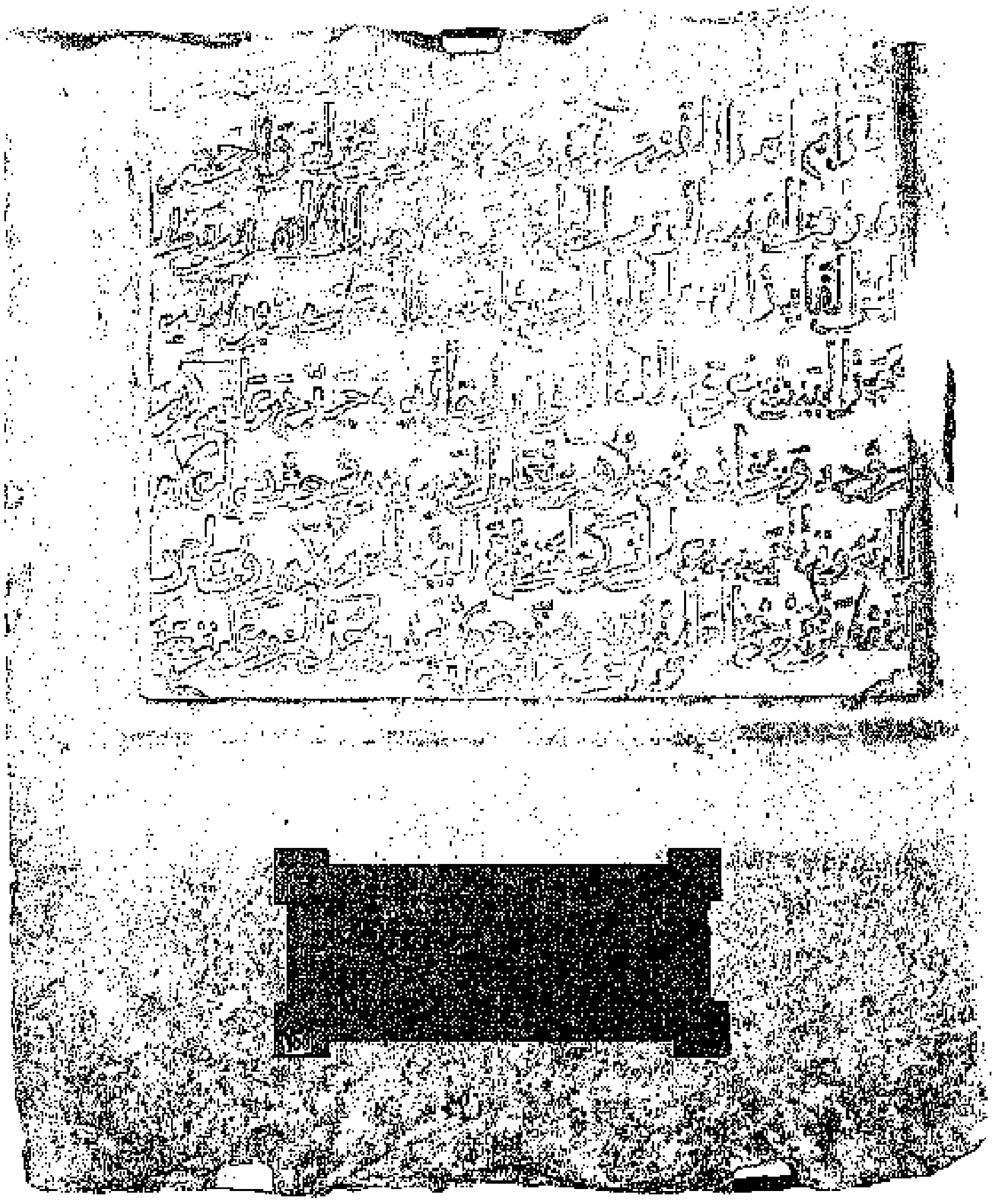

شقاق داخلي دفع مناوئيهم وخصومهم إلى طلب اللجوء إلى مملكة غرناطة. إنه اتجاه بدأ حوالي 1262 - 1264 عند استقبال محمد الأول في طريقه الفرق الأولى من المتمردين المرينيين بقيادة أبي ثابت بن إدريس وأخيه محمد، واستمر إلى القرن الرابع عشر. وبصفتها مضيفًا لهؤلاء المنشقين المغاربة ومن خلال اللجوء العقائدي إلى "الجهاد" قامت مملكة بني نصر بتوجيه طلائع بشرية من العائلات والجماعات القبلية في حركة سوف تعود بالنفع على الدول على جانبي المضيق.

ومن جهة أخرى فإن هذا التوطيد البشري المتنقل يسهم في تخفيف التوترات داخل "المخزن" أي الحكومة المغربية. وفي واقع الأمر فقد كان هؤلاء الجند - الغوزة - تحت قيادة أمير من بني مرين. إن رتبة "شيخ الغزاة" العسكرية بما لها من استقلالية كبيرة وثقل سياسي مهم في المملكة نشأت في غرناطة إلى أن قضى عليها محمد الخامس فيما بين 1369 و1374 [4]. فبالنسبة لملك غرناطة كان "متطوعو العقيدة" هؤلاء يقومون بتدعيم وتعزيز قوات جيشه لأنه كان بوسعهم - في أية لحظة تروق له - أن يتدخلوا مباشرة في الشئون الداخلية للمغرب من خلال أحد الأدعياء على السلطة والسيادة السياسية المغربية [5].

لقد لعبت هذه الفرق العسكرية دورًا عسكريًا مهمًا داخل نطاق شبه الجزيرة الأيبيرية لأنهم لم يحاربوا فقط ضد الجيوش المسيحية، وإنما كذلك خدموا في صفوف بعض القادة والحكام المسيحيين في خدمة المناسبات السياسية بين الخصوم المختلفين في شبه الجزيرة. ومن الأمثلة على ذلك مشاركة هؤلاء الجند في الصراع القشتالي - الأراغوني في بداية القرن الرابع عشر تحت لواء الكابتن القشتالي جوزمان آل بوينو. ومثال آخر نجده في حالة سليمان بن شيخ الغزاة عثمان بن أبي العُلا الذي انضم لصفوف المسيحيين تحت قيادة ألفونسو الحادي عشر خلال معركة طريف [6].

إلى أعلى جهة اليمين: سواحل منطقة المضيق مع صور من غرناطة وسبتة ومدن أخرى من مخطوط "الكتاب البحري" لمؤلفه بيري ريس من أوائل القرن السادس عشر.

إلى أعلى جهة اليسار: الساحل الإفريقي لمضيق جبل طارق.

إلى أسفل: شاهد قبر إسلامي نقشه يد من غرناطة، وكان المتوفي رجلًا من منطقة كساتيفا xativa في بلنسية وتوفي عام 1435، المتحف الوطني للآثار - مدريد.

إن هذه العسكرة وما ترتب عليها من صراع مماثل في المجتمعات الحدودية لشبه الجزيرة تتسم بالتحركات السكانية لكل من المسلمين والمسيحيين من جراء مُحفّز إيديولوجي يتمثل في الحرب المقدسة. إنهم من الناحية النظرية سكان متقلبون متنقلون ولكنهم كانوا - في حالات كثيرة - يستقرون بصفة دائمة في مناطق شبه الجزيرة ويسهمون في ذلك التنوع العرقي المسجل في غرناطة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

4 Manzano Rodríguez, M. A., op. cit., pág. 369.
5 Ibidem, pág. 328.
6 Ibidem, págs. 330- 332.

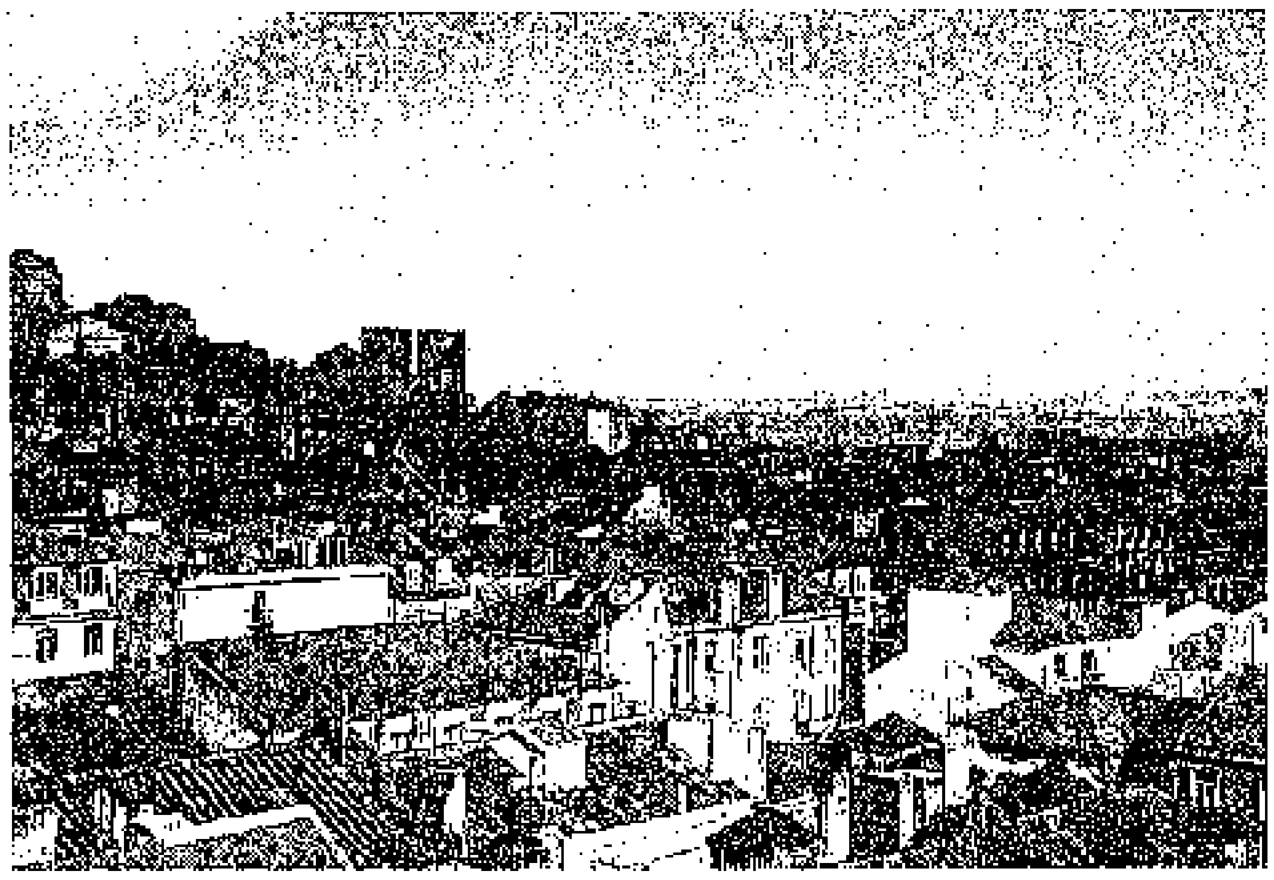

ولكن هذه العسكرة للحدود تتسم كذلك بالهجرة القسرية كنتيجة مباشرة للغارات والنزاعات المسلحة التي زاد من وطأتها أكثر القرصنة في البحر المتوسط. وقد كان للأسرى والعبيد تأثير كبير للغاية على التوجه الاجتماعي لواقع شبه الجزيرة الأيبيرية وكانوا هم السبب في حراك خاص للسكان داخل مناطقها. إذ إنه حراك للأسرى لمدد مؤقتة ويتضمن نقلاً سريعاً خاطفاً (للأسرى) وينتشر بصورة أو أخرى بمرور الوقت في مناطق الأطراف الغازية. إن أهمية هذا التدفق البشري تبرز جهدًا دبلوماسيًا مكثفًا بين ممالك أراغون وغرناطة. ففي عام 1328 نجد بندًا في اتفاقية السلام الموقعة بين محمد الرابع وخايمي الثاني يضع في الاعتبار حرية الأسرى من الجانبين، كما أن فترة معاهدات الهدنة بين عامي 1405 و1406 (الموافقة بين محمد السابع ومارتن الأول) تسمح بعودة الكثيرين من الأسرى لمناطقهم الأصلية [7].

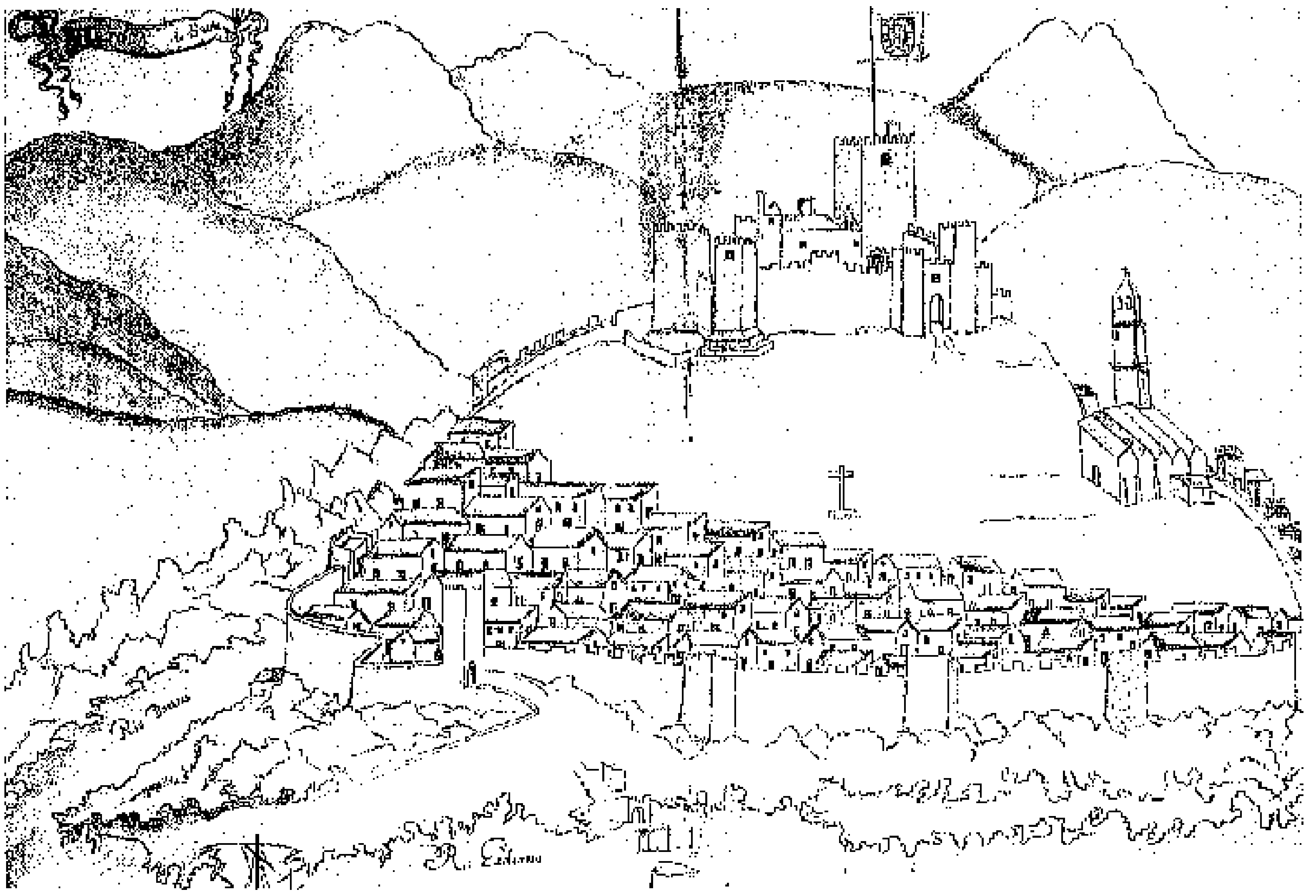

أعلى، منطقة (حي) ألفاما في لشبونة.
أسفل، ميرتولا في الالنتيخو على ضفاف نهر الوادي الكبير.

ورغم ذلك فإن الوقوع في الأسر يمكن أن يصبح انتقالا نهائيا للسكان. ففي مملكة غرناطة اعتبارًا من القرن الثالث عشر كان الحرس الشخصي للملك يتألف من المرتدين من ذوي الأصول المسيحية كما حدث في عامي 1359 عندما رافق مائتان منهم محمد الخامس إلى منفاه المغربي. وقد أحرز بعض من هؤلاء الأسرى دورًا سياسيًا مهمًا كما في حالة عبد مسيحي سابق أعتقته العائلة الملكية وهو أبو النعيم رضوان الذي تقلد مناصب في الإمارة خلال حكم محمد الرابع ويوسف الأول ومحمد الخامس [8].

حدود الممالك

إن الحدود –من حيث كونها ظاهرة تجديدية بين حضارتين– تكتمل بمفهوم من نوع آخر يتعلق بحالة الحدود غير الملموسة للممالك المختلفة في شبه الجزيرة. ولما كانت هذه الدول قد قامت على أساس نموذج مفروض في أوروبا –وهو الممالك الوراثية– فإنها تشكل أنموذجًا سياسيًا مختلفًا عما عليه الحال في المغرب، ويتمثل الاختلاف في فرض نظام أسر حاكمة وهو نظام يفترض معه المرء سلفًا تقسيمًا وشرذمة للسلطة من جانب بعض أعضاء جماعة الأسرة الحاكمة [9]. ولذلك فإن ظاهرة الحدود على المستوى الداخلي تتشكل بمعنى يختلف عن معناها بين شاطئي المضايق.

في القرن الرابع عشر كانت مملكة البرتغال هي المملكة الوحيدة التي لم تشارك في نموذج المجتمع ذي الطابع العسكري المحارب المناوئ للإسلام. في منتصف القرن الثالث عشر ومع اكتمال غزو المناطق بالاستيلاء على منطقة الغرب تجسد المفهوم الإيديولوجي للحدود والذي لم يتمثل في معارضة تشكلت في إطار خصومة وعداء ديني ولكن في إعلان للمناطق والحدود موجهة فقط من قبل مملكة قشتالة القوية المجاورة. إن المشاكل الناجمة عن السيطرة على الغرب

7 Arié, R. (1992) El Reino Nazarí de Granada (1232-1492) Madrid, pág. 137.
8 Ibidem, pág. 135.
9 Kably, M. (1986) Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Âge. París, págs. 86-87. Manzano Rodríguez, M. A., op. cit., pág. 326.

الأندلسي والمواجهة بين ألفونسو الثاني ملك البرتغال وألفونسو العاشر قد اكتملت بترسيم حدود مناطق الحدود الشرقية من خلال معاهدة Alcañices التي أبرمت من قبل د. دينيس وفرناندو الرابع عام 1297.

وبهذا المعنى فإن الأُطر العقلية للمملكة الواقعة في أقصى غرب شبه الجزيرة تقوم على أنماط مختلفة وأكثر تكاملاً بالنسبة للسكان المسلمين الذين تبقوا في هذه المنطقة. إن تبديل أماكن إقامة الأسرى من الجنوب إلى الشمال -حتى في أوقات غزو هذه المناطق- هو الذي حتَّم استخدام كتيبة مهمة بين الأسرى المسلمين في البقعة الواقعة في أقصى شمال المملكة المتاخمة لجليقية أي بين نهري دويره ومينهو. وعلى مدى القرن الثالث عشر وبدايات الرابع عشر سيندمجون في البُنى الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة ليس فقط من خلال اعتناق ديانة مهيمنة وإنما كذلك من خلال تحول وضعهم من وضع الأسرى إلى مزارعين أحرار[10]. ويقف على النقيض من هذا النقل الدائم المستقر للسكان ذلك النظام القائم إلى الجنوب من نهر التاج والذي بُني على أساس جماعات من المدجنين نُظمت واكتسبت شرعية من خلال القوى السياسية المسيحية كما في بقية ممالك شبه الجزيرة.

كنيسة القديس مرقص في إشبيلية من عهد المدجنين.

في الصفحة المقابلة: طقوس عبادة في كنيس (معبد) يهودي مصغر عن مخطوط يهودي قطالوني هو: كتاب حاجادا من برشلونة، القرن الرابع عشر.

ومن هذه الوجهة فإن القرن الرابع عشر لا يزال شاهدًا على حراك سكاني كبير بين المُدجنين قام على أساس ضرورات توطين بعض الأقاليم، أو عمليات النقل الطوعي التي كانت تتم من خلال عروض مقدمة من السادة والأمراء المسيحيين المختلفين بتهيئة ظروف أفضل.

في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر تركزت المنافسة في البرتغال بين التاج وجماعة سانتيجو على استيطان الأنتيخو Alentejo وتضمنت هذه المنافسة نزاعًا بين القوتين على إصدار تشريعات وتوطين لأولئك المسلمين الأحرار الذين حصلوا على حريتهم في ذات الوقت في أملاك الطرفين. وقد بدأ هذا الصراع والتنافس عام 1272 وامتد حتى عام 1310، وهو نزاع حول الإشارة إلى هجرة "المُحررين المسلمين" من قشتالة وليون، ربما كانعكاس مباشر لثورات المدجنين في الأندلس من عامي 1264 - 1265. وفي واقع الأمر يبدو أن ميثاق حقوق المواطنة الذي أسبغه ألفونسو الثالث على المسلمين في المراكز الحضرية الرئيسية في الغرب عام 1269 (بعد الاتفاق النهائي مع ألفونسو العاشر فيما يتعلق بتسليم المنطقة) قد وضع الأساس لإعلان نوايا متعمد موجه ضد قشتالة. في هذا الميثاق لم يقم فقط بتسوية وإرساء الحدود بين المناطق والتي رسَّمها نهر وادي التاجة وإنما كذلك ضمن استمرارية السكان المسلمين وسياسة تركيزهم في المناطق الحضرية، وهي مختلفة كل الاختلاف عن سياسة الاستيطان الريفي للمدجنين الأندلسيين ثم انتثار مجتمعات المدجنين في وقت لاحق في الوادي الكبير بين 1266 وأواخر القرن الثالث عشر. وكان القصد من هذا الميثاق هو بذل جهد ملموس وواع لجذب المهاجرين القادمين من الجانب الآخر من الحدود.

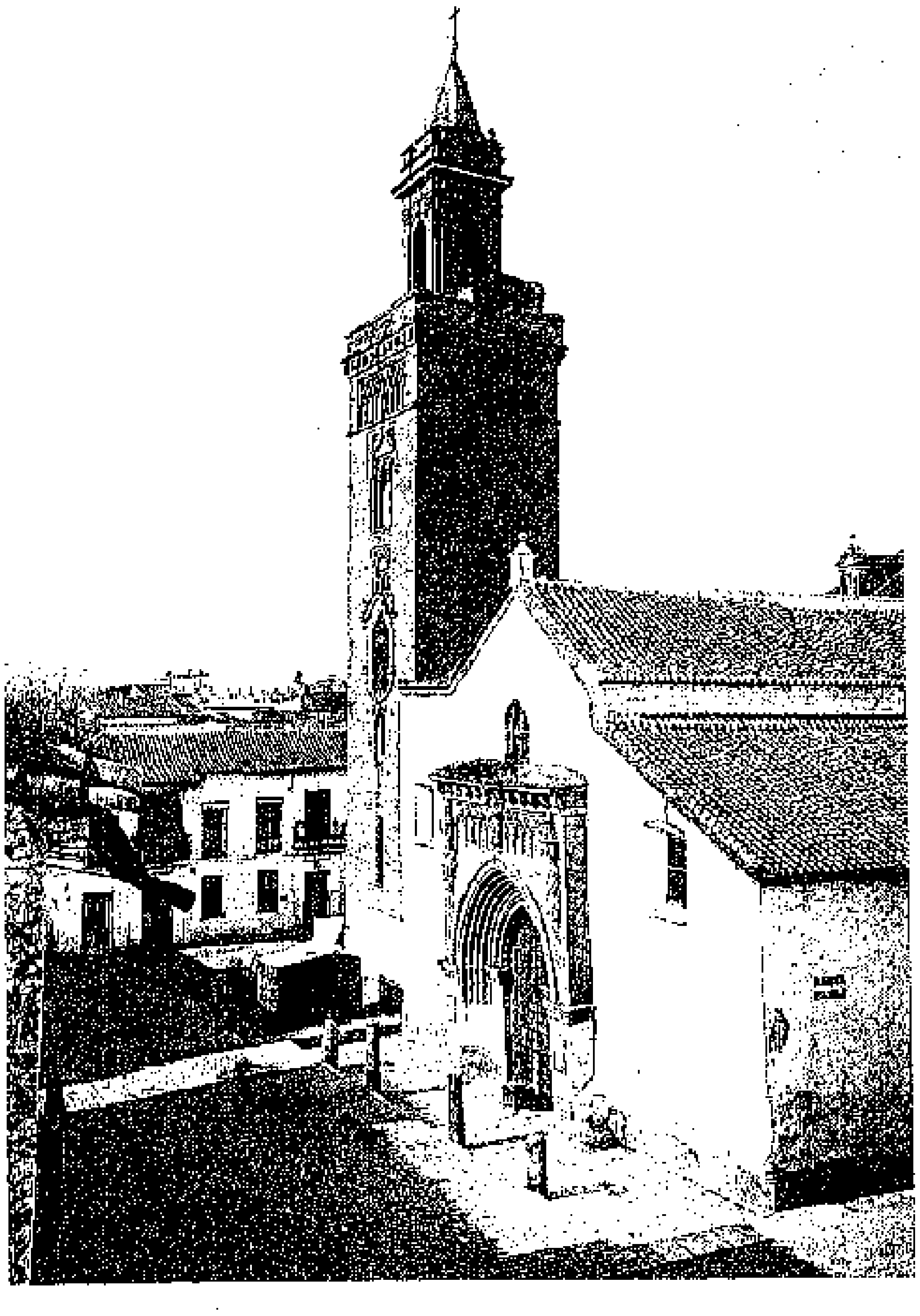

إن اندماج المسلمين القادمين من الخارج في "أحياء المغاربة البرتغالية" يعد من السمات المميزة كذلك للقرنين الرابع عشر والخامس عشر. إن أسماء الأفراد تبين عناصر من أسماء مرتبطة مباشرة بمملكة قشتالة مثل القرطبي أو لبعض مدنها مثل (الإشبيلي والقرطبي) بل وحتى بأراغون (الأراغوني[12])، وهي تشهد على التحركات السكانية بين المدجنين من مختلف الممالك الإسبانية. ومع ذلك فإن القرن الرابع عشر يعد شاهدًا على ضرورة التحكم في هذا الحراك عن طريق فرض قيود على مغادرة المسلمين للممالك المقيمين بها، على الأقل من جانب

10 Lopes de Barros, M. F. (2005) «Mouros da Terra e Terra de Mouros», Muçulmanos e Cristãos, entre o Tejo e o Douro (Sécs. VIII a XIII), Barroca, M. J.; Fernandes, I. E. (coords.). Palmela, págs. 167-172.

11 Ibidem, págs. 167-168.

12 Lopes de Barros, M. F. (2004) Tempos e espaços de mouros. A minoria muçulmana no Reino português (séculos XII-XV), tesis doctoral. Évora, cuadro 7, págs. 303-304.

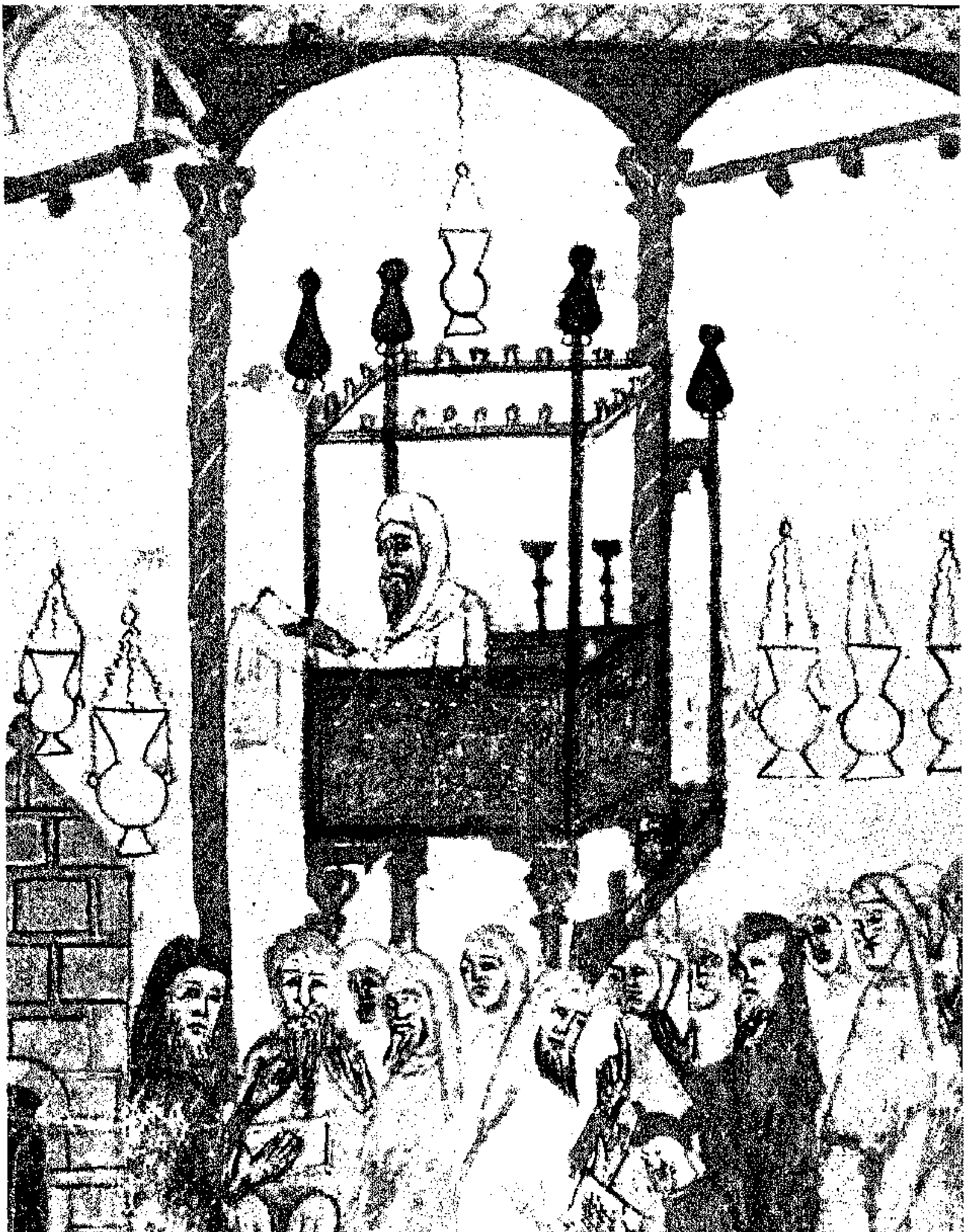

الممالك البرتغالية والأراغونية. إن القوانين البرتغالية التي يعود تاريخها على الأقل إلى عهد دون پيدرو الأول (1357 – 1367) وكذلك المسجلة في أراغون من ستينيات القرن الرابع عشر (من 1360 فصاعدًا)[13] قد طبقت بالمثل في قشتالة في أوائل القرن الخامس عشر. ففي عام 1407 قرر الكورتيز Cortes أنه لا يمكن للمدجنين مغادرة المملكة بل ولا يمكنهم حتى تغير إقامتهم بداخلها[14]. إن إعلانًا متطورًا متعلقا بالتحكم في مناطق الحدود والسكان يميز السلوك السياسي للعروش الأيبيرية التي كانت لا تزال مهتمة بتغاوي نقل وتهجير المدجنين من الأراضي العامة إلى ضياع الإقطاعية. لقد ساهم طاعون عام 1348 – 1349 بلاشك في هذه المهمة التي ضاعف من حدتها هجرة المسلمين

المستمرة إلى "دار الإسلام" والمناطق الحدودية مثل غرناطة خصوصًا من جانب المدجنين في بلنسية، أو شمال أفريقيا التي اجتذبت (المسلمين) البرتغاليين بصفة رئيسية.

لكن المناطق الحدودية ظلت تؤدي دورها كأقطاب للاتصال بين المجتمعات المختلفة والتي تستغرق وقتًا لتتواءم مع المفهوم السياسي للحدود. ففي حي الفاس المسلم، على سبيل المثال --تقوم العلاقات على أساس تفضيلي مع مجتمعات المدجنين من Extremadura القشتالية من خلال التلطف وإقامة صلات عائلية وثيقة ونشاط تجاري على درجة كبيرة من الأهمية تسمح بمنح امتياز التدخل من جانب مجلسهم دفاعًا عن حركة هؤلاء السكان في الكورتيز عام 1441[15].

13 Boswell, J. (1977) The Royal Treasure Muslim Communities under the Crown of Aragon in the Fourteenth Century. New Haven-Londres, pág. 288.

14 Ladero Quesada, M. A. (1969) Los Mudéjares de Castilla en Tiempos de Isabel I. Valladolid, pág. 25.

15 Lopes de Barros, M. F., op. cit., pág. 169.

16 Dias Hernando, M. (2003) «La movilidad de los judíos a ambos lados de la frontera entre las Coronas de Castilla y Aragón durante el siglo XIV», Sefarad, núm. 63, págs. 237- 282.

وبالمثل فإن الحدود لم تكن تشكل عقبات كبيرة أمام اليهود والإسبان الذين أقاموا بدورهم مناطق بين حدود الأحياء من أجل تيسير الصفقات الاقتصادية والمالية بين مملكتين؛ وهي معالجة عقلانية لمفهوم الحدود ذاته[16]. وقد تحمل اليهود –جنبًا إلى جنب مع المسلمين نفس القيود الصارمة المفروضة على حرية حركتهم بين الحدود، كما مرت بهم – على مدى القرن الرابع عشر – اتجاهات بارزة في موضوع الهجرة. كما أنهم أسهموا –من جهة– في مهمة توطين المناطق الحدودية، وهي مهمة تضمنت تنقلات وتبديلات مهمة وموجات متدفقة مستمرة من السكان. مثل هذا الوضع، إضافة إلى التقدم في الفتوحات ونزوح السكان المسلمين من المدن (وهو أمر أكثر وضوحًا في قشتالة وأراغون وأقل بروزًا في جنوب البرتغال) أعطى رفعةً في قطلونية لترحيل يهود تلمسان الذين شجعهم التاج الملكي على الاستقرار في مناطق الفتح والغزو الجديدة[17]. وفي إشبيلية فإن الحيز المخصص لهم بعد الاستيلاء على المدينة لم يشغل بالكامل في القرن الرابع عشر[18].

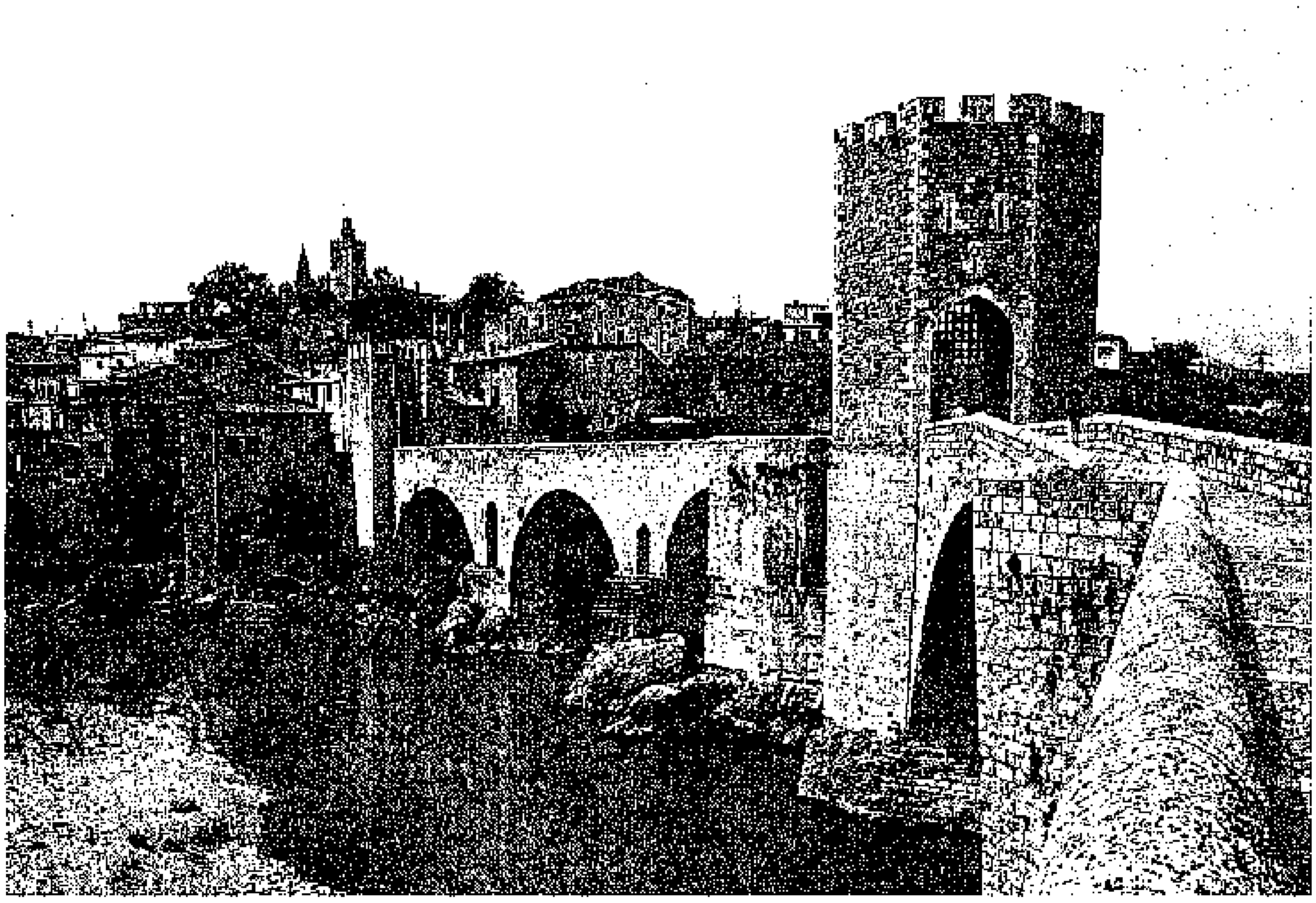

ولكن في هذا القرن سجلت الهجرة إلى شبه الجزيرة ضمن اتجاه أوروبي واسع النطاق نحو إعادة التأكيد على إيديولوجية مسيحية وتواترت دينية أثارتها أزمة القرن الرابع عشر والتي صيغت نظريًا في مجتمع ڤيينا عام 1311. ومنذ عام 1291 فصاعدًا تدفقت موجات من اليهود من أكتانيا وفرنسا إلى مناطق قطلونية وازداد الوضع سوءًا مع عمليات طردهم في عامي 1306 و1322. كما وصل لاجئون من مناطق أوروبية أخرى كما في حالة أشر بن يهيل حاخام طليطلة بين عامي 1305 و1328 والذي فر من الدمار الذي لحق بالطائفة اليهودية في كولونيا في مذابح عام 1298[19]. وفي أوقات الأزمات الرهيبة كان حرارة هؤلاء السكان يتضمن الممالك الأيبيرية المختلفة بما فيها غرناطة[20]. وفي أواخر القرن (1291) فاقت المجازر التي حلت بقشتالة وأراغون من عمليات النزوح وأطلقت العنان لسيل آخر من الهجرات باتجاه مملكة بني نصر ومملكة البرتغال. وهنا (في البرتغال) يؤمن خوان الأول (1385–1433) اليهود القشتاليين والأراغونيين ويضمن لهم ليس فقط الحماية لأنفسهم وأملاكهم وإنما كذلك حرية عودتهم إلى اعتناق اليهودية لمن أجبر منهم على اعتناق المسيحية قسرًا[21]. وكنتيجة لذلك شهدت الأحياء اليهودية في أرجاء البرتغال نمو سوف يستمر إلى القرن الخامس عشر في مقابل انحسار مطرد للسكان المدجنين.

أسفل، جسر من العصور الوسطى وهي بسائر اليهودي في جيرونا

أعلى، البرتغال ولشبونة من خريطة ملاحية من القرن السادس عشر.

في الصفحة المقابلة: حي Herrás اليهودي في Extremadura وكنيس (معبد) سانتا ماريا لابلانكا اليهودي في طليطلة.

إن مفهوم الحدود مفهوم ملتبس يكتنفه الغموض. فهو من جهة قد يفسر بأنه ترسيم دقيق المناطق دولة ما والجماعات البشرية بها، ولكنه من جهة أخرى يستتبعه انتهاك مستمر للحدود المفروضة. إن عمليات الهجرة والنزوح إلى ومن المناطق والأقاليم الأيبيرية والمغربية توضح هذه الازدواجية المتناقضة بجلاء. فمع التغيرات البشرية والثقافية المتلاحقة ترسم دومًا حدود جديدة تترك بصمة لا تمحى من هوية مناطق غرب البحر المتوسط.

17 Burns, R. I. (1996) Jews in the Notarial Culture. Berkeley-Los Ángeles-Londres, pág. 12.
18 Baer, Y. (1971) A History of the Jews in Christian Spain. Filadelfia, vol. I, pág. 311.
19 Ibidem, pág. 317.
20 Arié, R., op. cit., pág. 147.
21 Ordenações Afonsinas, vol. II. Lisboa, 1984, tít. 77, págs. 457-461.

الأطروحات الطبية العربية واللاتينية وغيرها في القرن الرابع عشر الميلادي

م. كونسيبسيو فازكويز دي بنيتو
جامعة سالمنكا

ترجمة حاتم الطحاوي

كانت حال العلوم الطبية خلال القرن الرابع عشر للميلاد حالاً متميزة، فكما يذكر لويس جارثيا باليستر، فقد امتاز الطب بالقاسم المشترك لنظريات جالينوس حيث ساهم فيه الأطباء المسلمون والمسيحيون جراء حرية التحرك بين حدود الممالك المسيحية ومملكة بني نصر بغرناطة هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى، استخدم الوسط الطبي في أوروبا المسيحية اللغة اللاتينية وسيلة للاتصال، كما أن نظام التعليم في كليات الطب الأوروبية مثل بولونيا وباريس ومونبيليه، كان هو نفسه المتبع في كلٍّ من القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وذلك لأن النصوص التي جرت دراستها كانت أعمالاً معينة لكل من أرسطو، والفارابي، وابن سينا، وأبقراط، وجالينوس، وابن رشد بالإضافة إلى عمل الكندي Quaestiones de Gradibus الذي درس حتى يتمكن الطبيب من تقدير التأثيرات النوعية للأدوية والتحكم في مقدار جرعتها، وظهرت دراسة علم الفلك أو التنجيم الطبي كنتيجة للأوبئة الخطيرة التي حلت في القرن الرابع عشر.

اجتماع أطباء من مخطوط مذهب يعود لأواخر العصور الوسطى، مكتبة Ambrosiana، ميلان.

وما تزال اللغة العربية موجودة بوصفها لغة علمية وطبية في بعض المناطق في إيطاليا وجنوب فرنسا وممالك قشتالة لأنها -وكما ذكر لويس جارثيا باليستر- أي اللغة العربية كانت تستخدم في القرن الرابع عشر بين اليهود في المجال الطبي بالإضافة إلى الفلسفة الطبيعية.

وقد دونت الأعمال الطبية الأولية باللغة الرومانية أو الإسبانية وبالمثل فقد تمت الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية، ومن اللاتينية إلى الإسبانية، ومن كل من القطلونية والبرفنسالية إلى العبرية ومن العربية إلى القطلونية والعبرية. كما أن أهمية استخدام اللغات العامية في نقل المعرفة العلمية لمسألة تؤخذ في الاعتبار في دراسات العلوم في تلك القرون.

وفيما يتعلق بترجمة النصوص من اللغة الرومانية إلى العبرية، فمن المحتمل أن ذلك حدث استجابة للاهتمام بجعل العمل في المتناول فيما وراء الحدود الجغرافية لمنشأه الأصلي، مفترضًا أن القاسم المشترك بين المجتمعات الأوروبية اليهودية هو معرفتهم باللغة العبرية.

وبهذه الطريقة فقد ناقشت الأعمال العربية المدونة بواسطة الأطباء المسلمين في مملكة بني نصر في غرناطة على وجه التحديد الطاعون الخطير عام 1348 وعواقبه الوخيمة على السكان. لكنها تناولت أيضًا الحديث عن علم الأمراض، وعلم الجراحة، وعلم المداواة، وعلم الصحة القائم على التغذية وعلم التنجيم الطبي وفهرس ملحق بها.

كما ظهرت ثلاثة أبحاث تتناول الطاعون الذي حل عام 1348 لكل من الأطباء: محمد بن الخطيب، ومحمد الشقوري، وابن خاتمة على التوالي ببلدة ألمرية.

يوضع المقال الأول تحت عنوان (كتاب مقنعة أو منفعة السائل عن المرض الوافد). يكاد يصل هذا الكتاب إلى عشر صفحات ويجدر الحديث عنه تبيانا لمدى سرعة كتابته ومدى وضوح الفكرة التي تناولها ابن الخطيب فيما يتعلق بالعدوى. بينما يوضع المقال الثاني تحت عنوان (مقالة في الأوبئة أو تحقيق النبأ عن أمر الوباء). ويتبقى ملخص صغير من عشر صفحات أيضًا تحت (عنوان

النصيحة المفيدة). ويطلق على المقال الثالث والأكثر طولاً (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد).

وكتب الطبيب محمد بن علي بن فرج القربلياني الشهير باسم الشفرة Shafra عن علم الجراحة والمداواة ويطلق على مقاله (كتاب الاستقصاء والإبرام في علاج الجراحات والأورام). واعتمد المؤلف في معرفته على خبرته الشخصية الخاصة وعلى التراث الطبي الإسلامي السابق وقد تأثر على وجه التحديد بالطبيب القرطبي ابن قسي. وكان الهدف من مقاله تعليم ممارسي طب الجراحة. وقد تناول الفصل الأخير الاستخدامات والمزايا العلاجية للأدوية المفردة والمركبة.

ولقد تناول مقال (تأليف في الطب) لمحمد بن الرقام علم الأمراض. وهناك أيضًا كتاب (تحفة المتوسل وراحة المتأمل) ويطلق عليه مقال في مرض الدوسنتاريا ومقالة في الطب (من رأس الإنسان إلى القدم) أو (مجربات في الطب) حيث أدرجت الاضطرابات طبقًا للنظام المتبع من الرأس إلى

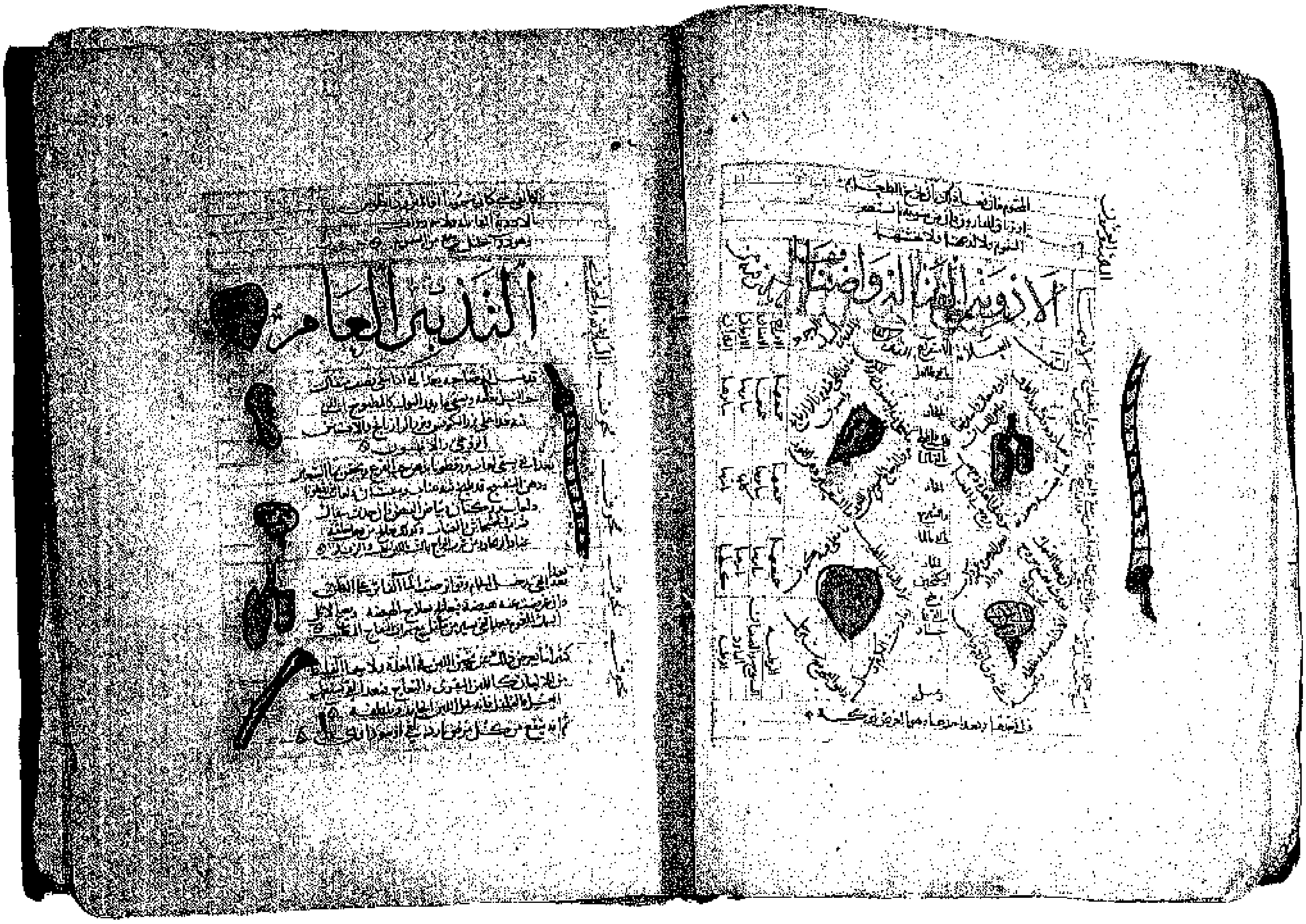

مخطوط كتاب القانون في الطب لابن سينا، القرن الرابع عشر، المتحف الوطني- دمشق.

القدم بالإشارة إلى الأعراض والتشخيص والعلاج. وكتب هذه الأطروحات أحد مؤلفي الأطروحات المتعلقة بالطاعون وهو محمد الشقوري. وأخيرًا كتاب (علم الأمراض العامة والخاصة) للطبيب الغرناطي ابن الخطيب. وقد ألف أيضا عملاً مختصرًا عن الطاعون، سبقت الإشارة إليه، أما هذا الكتاب فيحمل عنوان كتاب (أعمال من طب لمن حب). ويدرس مؤلف هذا الكتاب الاضطرابات بالأسلوب المعتاد بمعنى أنه يتبع النظام القائم de capitae ad calcem لوصف هذه الاضطرابات متطرقًا إلى تعريف كل حالة وتوضيح أعراضها وكيفية علاجها والأدوية المركبة والبسيطة والنظام الغذائي وأحيانًا ما يشتمل على أدوية ملائمة للحالة. كما يتضمن مقالات أخرى تبعت نفس النظام مثل مقال طب الأطفال وآخر عن أمراض الشيخوخة بالإضافة إلى فصل يتناول مقالاً عن الأضرار الناتجة عن المواد غير العضوية والنباتية وعن لدغ وعض الحيوانات السامة، ويختتم الكتاب بمقالة

مطولة عن مستحضرات تجميل الجسم مع توجيه عناية خاصة للأعضاء التناسلية، وذكر الطرق المانعة للحمل، وطرق الإجهاد وطرق إثارة الشهوة، وكيفية علاج إدمان الكحوليات.

ومرجع هذا المقال المطول هو الكتاب الثالث والرابع من قانون ابن سينا، أي الكتب التي خصصها الطبيب الفارسي للجزء العملي من الطب والتي اعتبرت بمثابة نقطة البداية لتدريس الطب في جامعات أوروبا فور ترجمتها من اللغة اللاتينية.

ويتناول كتابه (أرجوزة في الطب) نفس الموضوعات والذي يعتبر ملخصًا للكتاب السابق ذكره الذي سار في كتابته المؤلف الغرناطي على نفس غرار ابن سينا لأغراض تعليمية.

وقد كتب ابن الخطيب مقالة أخرى تتناول الحديث عن علم الصحة الذي يعتمد على علم الغذاء، وعلم التنجيم الطبي وملحق بها فهرس. وتحمل هذه المقالة عنوان (كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول) وهي تشبه بعض أعمال الأطباء الأندلسيين التي تتناول الحديث عن طاعون 1348 المعروف بـ(الموت الأسود) وقد دونت مقالات أخرى لأطباء أوروبيين باللغتين القطلونية واللاتينية بالرغم من ذلك فكما ذكرت راشيل أري أن الأطباء المسلمين قد سبقوا زملاءهم الغربيين

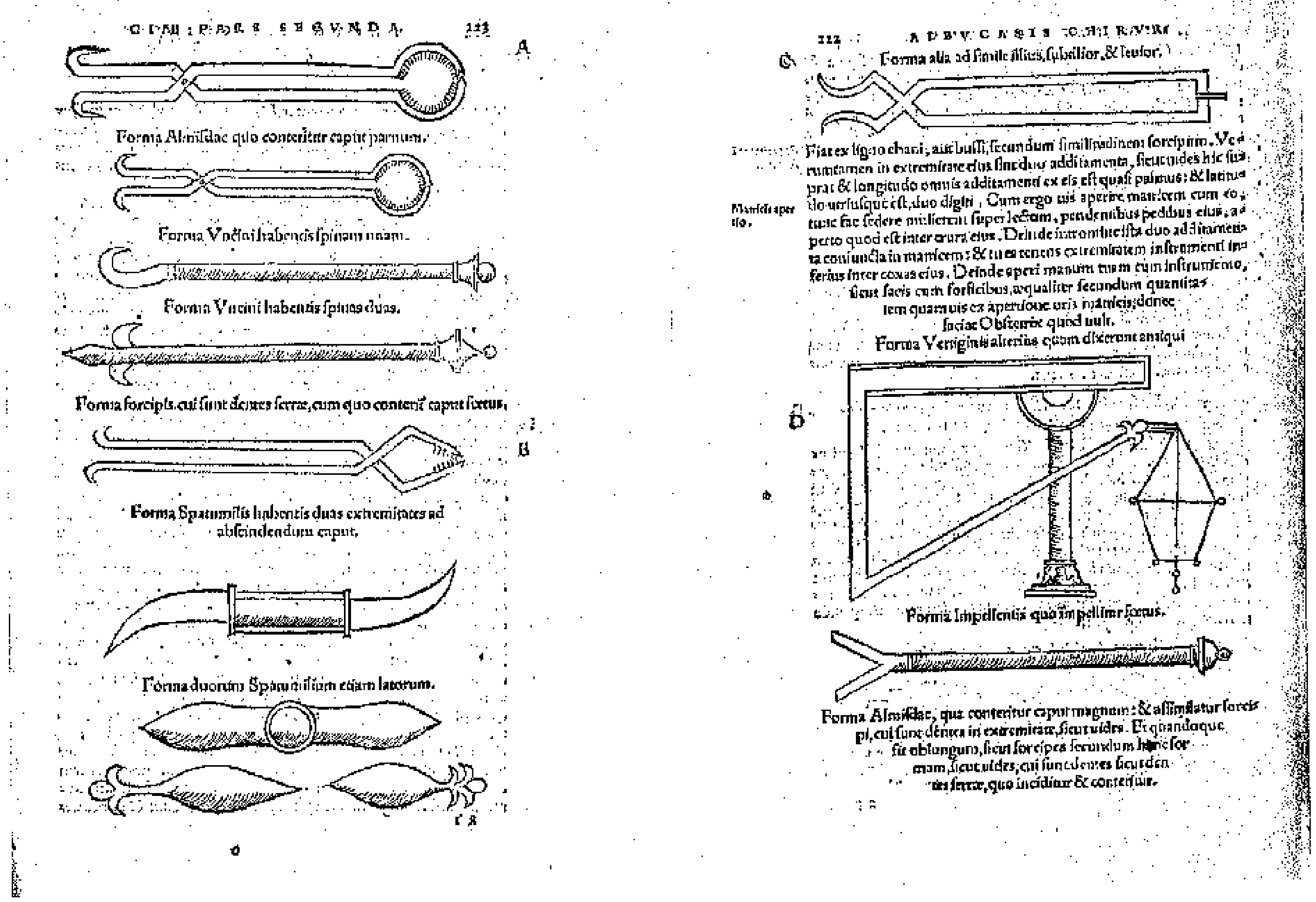

صفحات من نسخة مطبوعة من كتاب أطروحة في الجراحة للزهراوي، ترجمة جيرارد دي كريمونا، هذا العمل طبعة لاول مرة بالتزامن مع الجراحة الصغري لجوي دي شاوليك.

الأوروبيين بإبراز أهمية العزلة وتوضيح مخاطر التلوث الناتج عن الاحتكاك اوهما المسألتان اللتان تم إثباتهما بالتجربة. وقد كتبت ثلاث مقالات أخرى بواسطة كل من جاكميه داكرامونت Jacme d'Agramont والذي ألف كتاب (نظام الحماية من أي مرض ومرض الطاعون) (Regiment de preservaccio a epidemia os Pestilencia a Mortaldats بناءً على طلب مجلس مدينة لاردة في عام 1348 وألف أيضًا جينتل دي فوليجنو Gentile de Foligno الأستاذ بجامعة بادو padue كتاب (مجلس مكافحة الطاعون) Concilia Contra Pestilentian وألف ألفونسوا كوردوبا Alfonso Corduba في مونبيليه كتابه المعروف باسم Epistola et Regimen Alphontu عام 1348 وطبقا لجارثيا باليستر فقد عرفت هذه الأبحاث في اللغة الخاصة بجالينوسية العصور الوسطى باسم (نظام الوقاية والعلاج) وكان الإجراء الوقائي الأساسي الذي أوصوا به ونصح به كل من الأطباء المسيحيين والمسلمين هو الانسحاب والهروب.

وفيما يتعلق بالأدب الطبي المدون باللغة اللاتينية فقد ركز على المجالات الآتية:

1) الشرح التفصيلي لكل من الأطروحات، والفهارس، ومجموعات الجمل، والإضافات، والتوضيحات، والتعليقات، وفهارس الكلمات والكتيبات التعليمية التي تلقى استحساناً من المؤلفين سواء كتبها الرازي أو ابن سينا.

وبالتالي فإن جيراردوا دي سولو Gerardo de Solo الأستاذ بجامعة مونبيليه مؤلف (Introtroductorium Juvenun) مع (مقدمة حنين بن إسحاق) كأساس للتعليق على كتاب المنصوري وهو الكتاب التاسع من مقالات الرازي الطبية.

وكما كتب يوجانس دي تورنامير Johannes De Tornamir الأستاذ أيضًا بجامعة مونبيليه كتابه Clarifiatorium العالمي والمكرس للحديث عن نفس الموضوع العربي. وممن علق على كتاب القانون كل من: دينو ديل جاربوا Dino del Gqrbo، وجينتل دي فوليجنوا Gentle de Foilgo، وأوجو دي سينا Ugo de Siena أو أوجوا بينزي Ugo Benzi، وجاكبوز دي بارتيبوس Jacobus de Partibus أو جاكوس ديسبارس Jacques Despars.

طبيب عربي يعد جرعة دوائية من مخطوط مذهب يحمل عنوان Afrigilis، مؤرخ بعام 1250، المكتبة الوطنية – فيينا.

وذلك بسبب أن كتاب القانون طبقاً لجراثيا باليستر لم يكن مجرد نص عالمي وبدون تنوع في محيطات الجامعة على مدى القرون الأولى والعصور الوسطى ولكن استخدمت محتوياته كدوافع فكرية لاستدعاء الآراء والخبرات الشخصية أو لإعادة النظر في القضايا في ضوء الإبداعات الفكرية.

وفيما يتعلق بعلم المداواة قام كل من الأطباء والفلاسفة الطبيعيين من الجامعات الأوروبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بمناقشة ما أطلقوا عليه اسم (مسائل مدرجة) حتى يتمكن الطبيب من قياس التأثيرات النوعية للأدوية ومن ثم التحكم في مقدار الجرعة. وكان الطبيب القطلوني أرنو دي فيلانوفا الأستاذ في مونبيليه هو من نظر إلى هذه القضايا من منطلقها الأصلي

وأوجد لها حلاً جديدًا معتمدًا في ذلك على كتاب De Gradibus للكندي المترجم من العربية إلى اللاتينية في طليطلة بواسطة جيرار دو دي كريمونا Gerardo de cremona لدرجة أن اقتراحاته قد لاقت قبولاً في أوساط الجامعات الأوروبية من باريس وأكسفورد إلى لاردة وبرشلونة. ولم يكن تأثير مقالة أرنو Arnau التاريخية بالذي يزيد أو يقل بكثير في فعالية اقتراحاته الملموسة عمليًا مثل جمعية المصطلحات الرياضية وطرق تصنيف الأدوية والطب بوجه عام.

علاوة على ذلك ازدهر نوع من الإرشادات Cunsilium أو الكتابات لتدريب الأطباء أو بخصوص التركيبات العلاجية للدارسين. وقد ابتكر هذا النوع من الكتب بواسطة تاديوا ألديروتي Tadeo Alderotti في فترة ما كنا نتعامل معه واستخدمت من قبل كل من أرنو دي فيلانوفا Arnau de Vilanova، وجينتل دي فوليجنوا Gentile de Foligno، وموندينوا دي لوزي Mondino de Luzzi، وأوجوا بينزي Ugo Benzi.

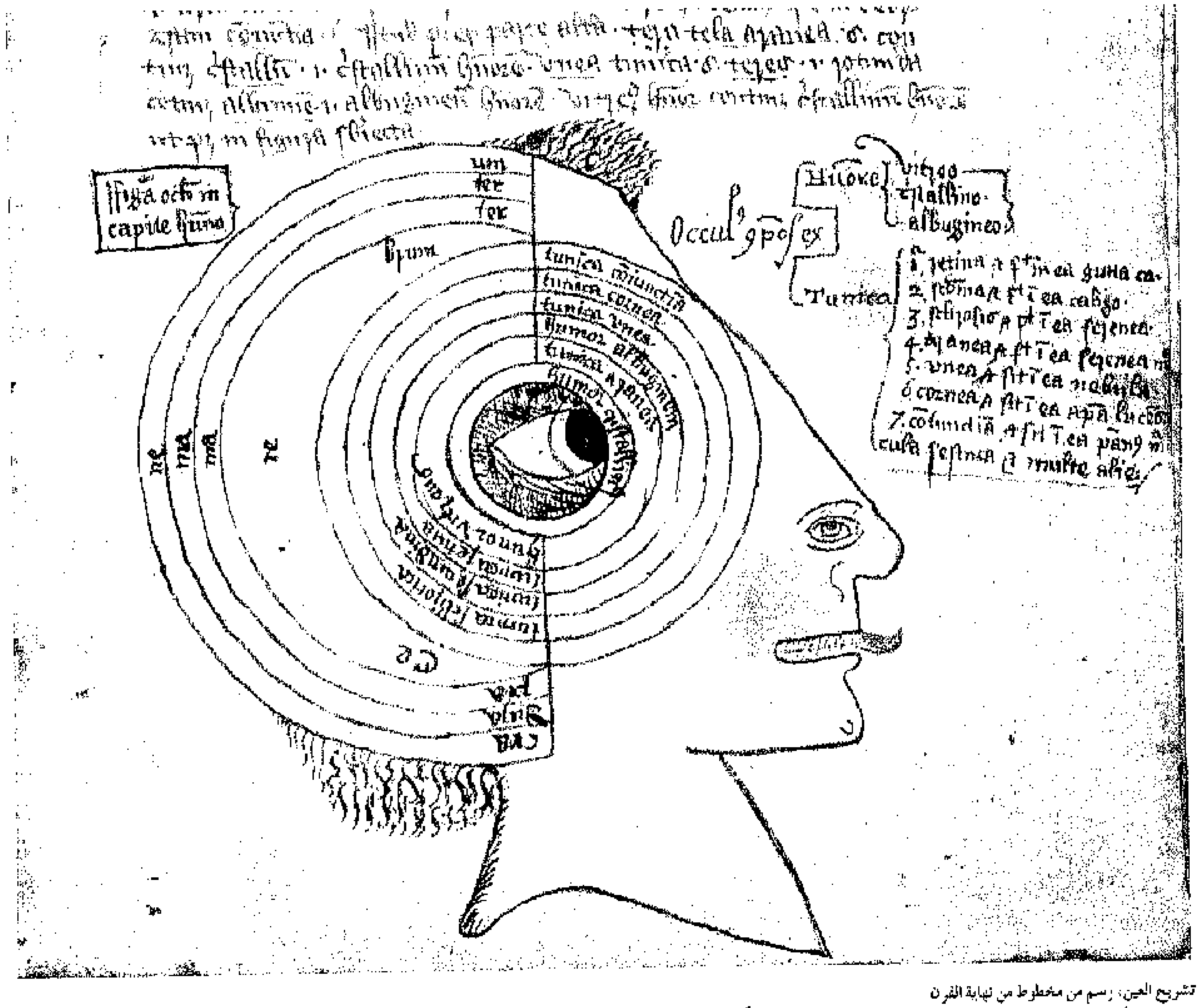

تشريح العين: رسم من مخطوط من نهاية القرن الرابع عشر أو بداية القرن الخامس عشر، المكتبة البريطانية – لندن.

في الصفحة المقابلة، مخطوط فرنسي من بدايات القرن الرابع عشر: طبيب جراح مع المرضى الذين يعانون من أمراض مختلفة، ترجمة من Chirurgia لروجر دي سالرنو، المكتبة البريطانية – لندن.

كتب بيرنارد دي جوردون Bernard de Gordon أستاذ الطب بجامعة مونبيليه فيما بين عامي 1303 و1305 تحفته الأدبية Lilium Medicine والتي عرفت أيضا بـ(الممارسة) وبعد مرور 20 عامًا من الخبرة التحليلية بهدف إيجاد (نظرية جالينوسية جديدة) طبقًا لجارثيا باليستر ويعتبر هذا الكتاب هو المقال الأساسي للطب العام للممارسين عديمي الخبرة حيث يجدون فيه فن تشخيص وعلاج جميع الاضطرابات الشائعة بإيجاز.

وكما ألف أيضًا في عام 1301 كتابه Traceatus De Gradibus De Conservatione Vitae Humanae و libar pronosticoium الذي عرف أيضًا باسم de crsis en criticis de iebus والتي ترجمت إلى الإسبانية تحت عنوان Pronostica كما ترجمت Lilium Medicine إلى الإسبانية تحت

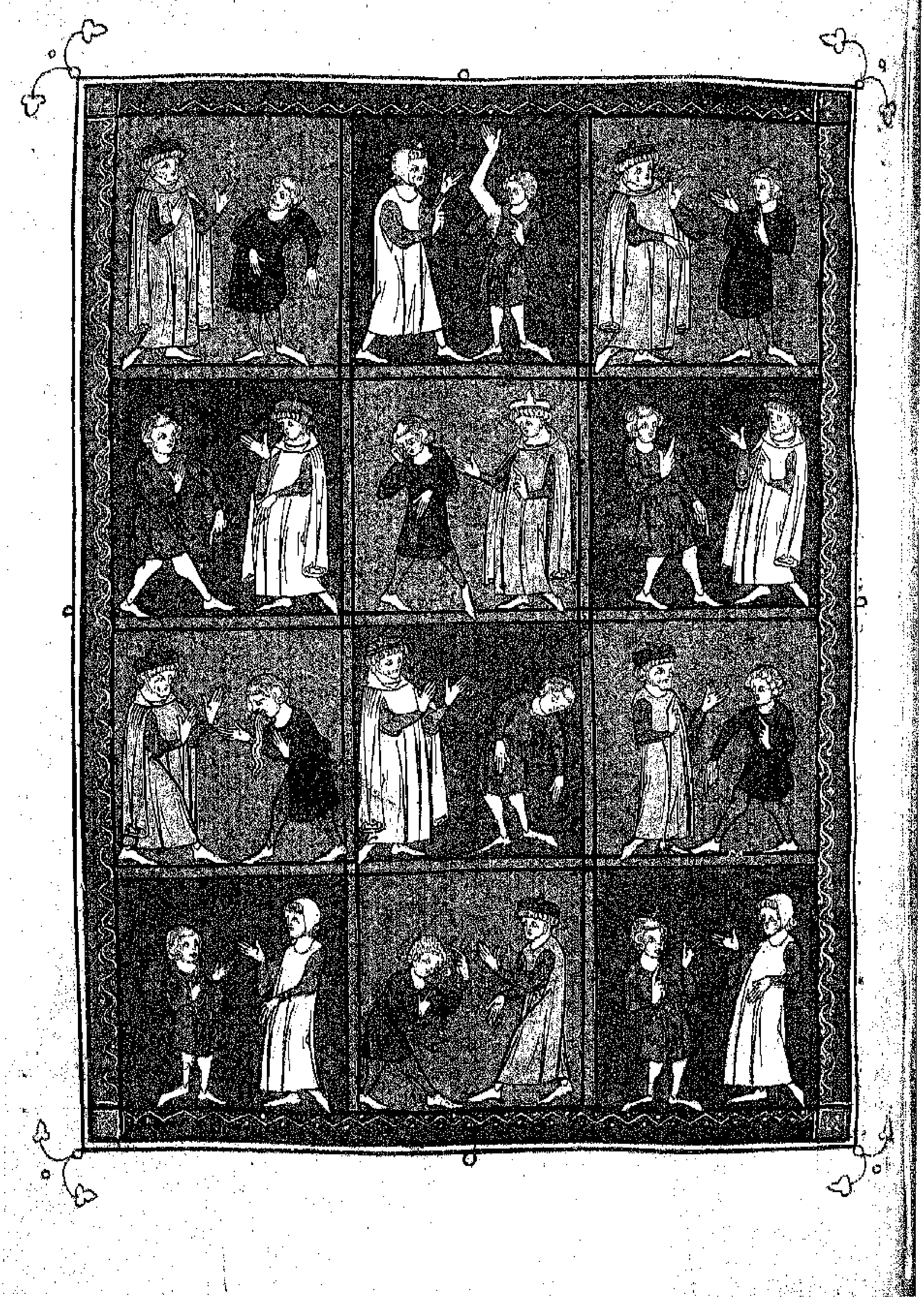

اسم lilio de medicina وللعبرية أيضًا بواسطة خوان دي آفينون guan de avignon واعتبرت lilio هي أهم مقالة طبية عامة في ذلك الوقت في اللغة الإسبانية.

2) نهضة علم التشريح وتطوير علم الجراحة
دفع تأثير مدينة بولونيا إلى الإكثار من كتب علم التشريح اعتمادًا على خبرة المشرحين ولذلك فقد أصدر Maestro mondino de luzzi البولوني كتابه anatomia والذي اعتبر مصدرًا أساسيًا للمعلومات في تعليم الطب النظري في العديد من الجامعات حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر، واعتبر موندينو آنذاك أعظم شخصية ذات معرفة بالعلوم التشريحية في العصور الوسطى.

وأما بالنسبة لعلم الجراحة فقد صدرت مقالتان في الفترة التي تتعلق بـ Cyrurgia التي كتبها الجراح هنري دي مونديفيل Henri de Mondeville بقصر فيليب الجميل Felipe el Hermoso والذي ساهم في الابتكارات التحليلية والثانية Inventarium o thirurgia magna التي كتبها جاي دي تشوليات Guy de Chauliat والطبيب القانوني والبابوي في مدينة أفينون والتي تمت في عام 1363. ترجمت هذه المقالة إلى الإسبانية، والإنجليزية، والبروفنسالية، والإيطالية، والألمانية، والعبرية. وكما كان يقوم كتاب lilio de medicinea أساسًا على الحديث عن الطب العام فقد كانت هذه المقالة أيضا تتناول علم التشريح بشكل أساسي كما أنها وصفت كأبلغ الأطروحات تأثيرًا في علم الجراحة منذ أوائل العصور الوسطى إلى القرن السادس عشر واعتمدت كلتا المقالتين على تعاليم وأسلوب الجراح القرطبي أبو القاسم.

3) الصحة والتغذية
تم تطوير نظام الصحة والتغذية Regimina sanitatis من قبل المسيحيين وذلك بترجمة المصادر العربية ولكن مع وجود اختلافات في طريقة تناول نفس المحتويات وقد لاقى هذا النوع إقبالاً من جانب الأمراء والسادة الكبار منذ القرن الثالث عشر فصاعدًا. لذا فقد كتب الطبيب القطلوني أرنو دي فيلانوفا فيما بين عامي 1305 و1310 كتابه Regimen Sanitatis ad Inclytum Regem Aragonum من أجل ملك أراغون خايمي الثاني. وقد انتشر هذا العمل على نطاق واسع كما أنه قد تمت ترجمته إلى القطلونية فيما بين عامي 1305 و1310 بالإضافة إلى بعض اللغات الرومانية الأخرى وعلى وجه التحديد الإيطالية والإسبانية. كما ترجم أيضًا إلى العبرية لكن ليس من اللاتينية بل من الإسبانية. يتكون هذا الكتاب من 18 فصلاً حيث تشير الفصول السبعة الأولى منه

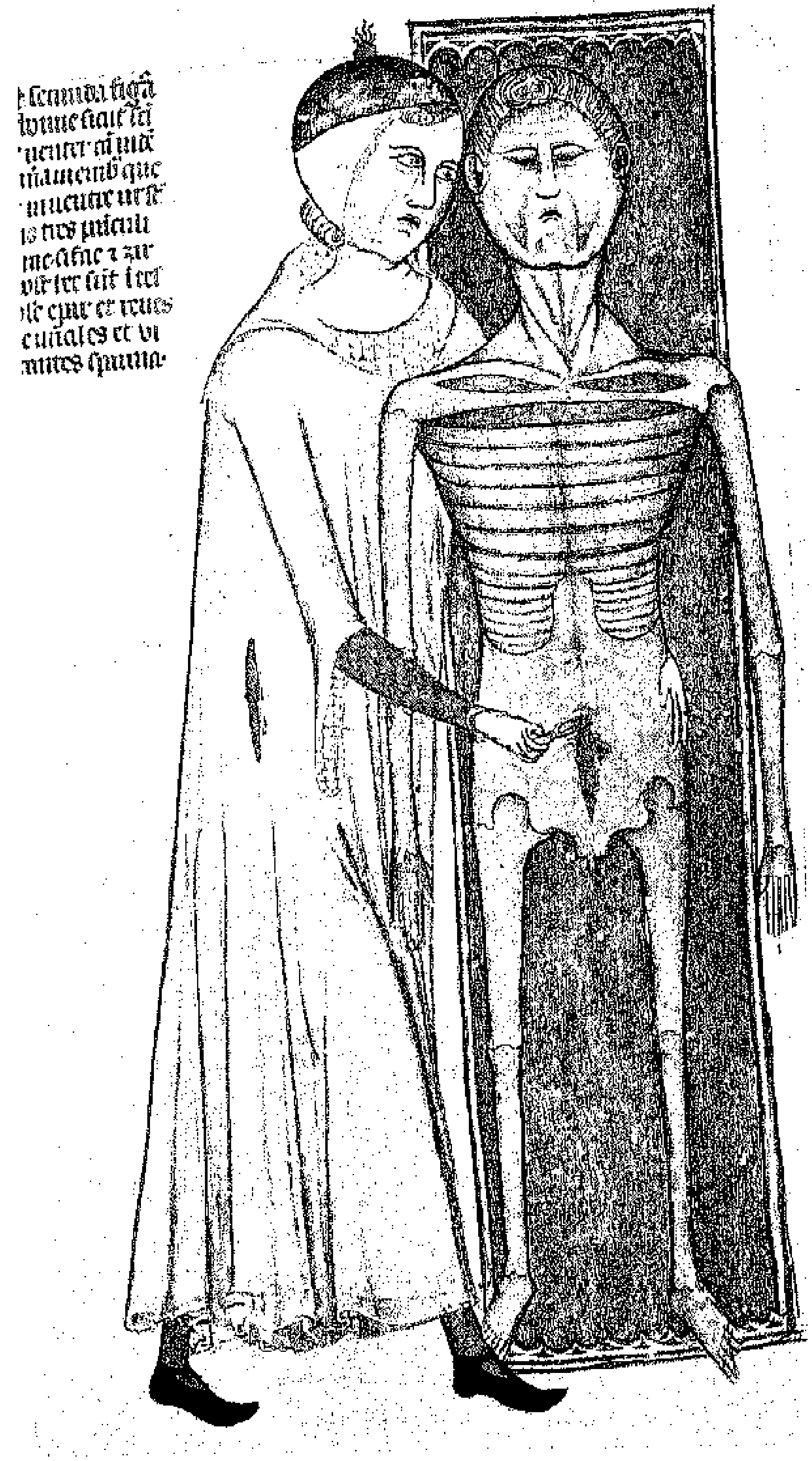

شق في جوف إنسان ميت، منمنمة من مخطوط لجوي دي باڤيا، من كتاب Liber notabilium Phllippi septimi ، 1345، متحف كوندي، Chantily.

إلى الأشياء غير الطبيعية أو إلى مجموعة الظروف البيئية والفسيولوجية والسيكولوجية التي تؤثر على الصحة وتسبب اضطرابها. بينما تتناول الفصول من الثامن وحتى السادس عشر الحديث عن الطعام والشراب مصنفًا كلاً منهما إلى فواكه، وخضروات، وبذور ....وهكذا. تعكس الخاصية التصنيفية التنظيمية للعمل الطبيعة الأكاديمية للمؤلف بدقة.

4)- التراجم

أ- التراجم من اليونانية إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن الرابع عشر

قام الطبيب الكالابرياني نيكولا دي ريجيو Nicola di Reggio بترجمة العديد من كتابات أبقراط وكتابات جالينوس إلى اللغة اللاتينية من بينها سبعة عشر فصلا من مقال جالينوس المعنون بـ de Utilitate Particulariun. كما قام أيضًا بالترجمة de Malicia Cumblexiones Diversae , de Cumplexionipus والمقال العلاجي de Metodo Medendi أو علم المداواة.

ب- الترجمات من الإسبانية إلى اللاتينية

يحتمل أنه تم ترجمة كتاب الحيوان de animalibus لأرسطو في القرن الرابع عشر، وترجمة المقالات الثلاث المتعلقة بعلم الجراحة للمؤلفين تيودوريكو بورجوجنوني، ولافرانكوا دي ميلانوا، وجيدوا دي تشولياك Teodorico Borgognoni Lafranco di Milano and Guido de Chauliac، وترجمة عملين للمؤلف بيرنارد دي جورادون Bernard de Goradun السابق ذكره وهما Pronostica and the Lilio de Medicine. وترجمة "recdcetario" الذي كتبه الطبيب اليهودي في قصور خوان الأول وانريك الثالث Jaun I and Enrique III. Meir Alguades. بالعامية الإسبانية العبرية.

منمنمة من القرن الرابع عشر، مخطوط Tacuinum sanitatis، عن دبس السكر: المكتبة الوطنية – فيينا.

جـ- من اللاتينية إلى القطلونية

فيما بين عامي 1302 و1304 قام الطبيب والجراح البرشلوني جيوليم كوريتجار Guillem Corretger أثناء دراسته لعلم الجراحة في جامعة مونبيليه بترجمة الكتاب التعليمي الضخم الذي يتناول علم الجراحة والذي كتبه تيودوريكوا بورجوجنوني كما شرع أيضًا في ترجمة نسختين قطلونيتين لعمل أرسطو الزائف Pseudo Aristotelien تحت عنوان مكتوب باللغة العربية (سر الأسرار) وباللاتينية secretun secretorum بعنوان el libre de la saviesa O do ctrina) del rei enjaime .ve والنسخة الأراغونية التي كتبها Juan Fernandez de Heredia في النصف الثاني من القرن الرابع عشر كما تمت ترجمة كتاب regimen sanitatis لأرنو بدورها إلى القطلونية بواسطة برينجوير باريرا berenguer barriera فيما بين عامي 1305 و1310.

د – كما ترجمت أعمال برنارد دي جوردون من البروفنسية والقطلونية إلى العبرية وهكذا جرت ترجمة tractatus de prognosticis بعنوان haqdamat ha-yedi ah وترجمة the lilium medicine بعنوان shoshan ha-refu'ah و de phlebotomia بعنوان hama amar ha-haqazah

كما ترجم أيضًا عمل أرنو دي فيلانوف regimen sanitatis ad regem aragonum تحت عنوان hanhagat ha-beriut.

هـ – تمت ترجمة كتاب الأطباء الممارسين libre de les medicines particulars. للطبيب الطليطلي ابن وافد من العربية إلى القطلونية حفظت النسخة القطلونية (Libre de la figura tel uyl) للقرن الثالث عشر وهي مقالة عن طب العيون للطبيب الطليطلي سليمان بن حارث القوطي في مخطوطة القرن الرابع عشر. وترجم هذا العمل الذي كتب في الأصل بالعربية من القطلونية بواسطة جون جاتمي mestre Joan Gatme.

الأبحاث الطبية باللغة الرومانية أو الإسبانية

فيما يتعلق بالأدب الطبي المكتوب بالإسبانية فقد ظهرت ثلاثة أبحاث طبية في إشبيلية وذلك بعد تأسيس المدينة بوصفها بؤرة علمية مناسبة لملك قشتالة في القرن الرابع عشر.

وبنفس هذه الطريقة قام كل من الطبيبين استيفانوا Estefano وخوان دي آفينون Juan de Avignon بكتابة أعمالهما تحت رعاية رؤساء الأساقفة في أشبيلية فأصدر استيفانوا عملين هما: Regiminto para conservarla salud، وlibro de visitacione e conssilicione medicorum ويقسم هذا العمل والمعروف أيضًا باسم lavisitacion إلى مقالين باللاتينية والإسبانية. الأول هو regimen santnitatis مهدى إلى رئيس الأساقفة في أشبيلية بينما يتناول الثاني أسلوب الطبيب في علاقته بالمريض.

وكتب اليهودي المرتد خوان دي آفينون (والذي كان اسمه في اليهودية موسى بن صمويل Moses ben Samuel المولود في Roquamaure (مقاطعة gard) في لانجدوك Languedoc مقالة الطب في أشبيلية Sevillana medicina ويعتقد أنه تمت ترجمته إلى الإسبانية من النسخة اللاتينية الأولى. ويتناول هذا العمل ثلاثة مجالات: في الطب، وعلم الغذاء الصحي، وعلم الإنسان تشكل أساسًا لتصورين (فكرتين) ناتجين من الماضي الأبقراطي الجالينوسي مما يعني العلاقة التناقضية الجدلية بين الصحة والمرض والعلاقة بين الصحة ومقدار الطعام المتناول كعلاج مؤثر لعلاج الاضطرابات والعلاقة بين الامتناع عن بعض المأكولات واتباع نظام غذائي معين (حمية).

كما يوجد مقال (رسالة في علم الأمراض) المجهول المصدر والمعروف أيضًا باسم (الطب الرومانسي) والتي ما تزال نسخته المؤلفة في القرن الخامس عشر باقية والتي نشعر لأسباب عديدة أنه تمت كتابته قبل قرن مضى. ويتماشى بإحكام مع النسخة الأصلية العربية والكتاب الثالث والرابع من قانون ابن سينا وكما ذكرنا فإنه يشبه مقال الطبيب الغرناطي ابن الخطيب المختص بعلم الأمراض فهو يقدم نفس الترتيب والنظام بداية من الاضطراب مواصلاً ليعرض الأسباب والأعراض المصاحبة ثم الإشارة إلى الأدوية اللازمة للعلاج (المفردة منها والمركبة) ونظام الحمية المتبعة. كما أنه يفرق بين الأمراض التي تؤثر على أجزاء مختلفة من الجسم حيث قام بإدراجها وفقًا لنظام (decaptpitae ad calcen) والأمراض التي تؤثر على الجسم بأكمله. كما يتبع ذلك مقال عن طب الأطفال وأمراض الشيخوخة والأضرار الناتجة عن المواد النباتية وغير العضوية ولدغ وعض الحيوانات السامة. كما افتقر هذا المقال إلى مقال آخر مماثل عن مستحضرات تجميل الجسم والتي محيت حرفيًا. علاوةً على ذلك فإنه يحتوي على العديد من التراجم الحرفية للكلمات العربية من أجل توضيح المصطلحات الرومانية.

وأخيراً فقد كتب (الأسماء المرادفة للأدوية اليونانية واللاتينية) بالإسبانية وهو المعجم الطبي الوحيد المعروف باللاتينية والإسبانية في العصور الوسطى في القرن الرابع عشر حيث قدمت فيه المصطلحات العربية أو اليونانية بطابع لاتيني أو إسباني، وكما أشار مؤلف هذه النسخة جيدوا مينسينج Guido Mensching قائلاً إنه معجم مترادفات مرتبة أبجديًا ويحتوي على 2265 مقالاً في مجال العقاقير الطبية ومقالات تتناول قبل كل شيء المواد البسيطة (النباتات، والحيوانات، والمعادن) لكنها أيضا تتناول المواد المركبة بالإضافة إلى الأجزاء المرضية والتشريحية والأجهزة الجراحية والكيمياء المتعلقة بالكيمياء القديمة

الأبحاث الطبية المدونة باللغة العربية

تمت كتابة مقال بعنوان كتاب الطب القشتالي الملكي أو livrob sobre la practica medica adaptada a los lugares de castilla باللغة العربية من تأليف يهودي مجهول الاسم ربما يكون من مدينة طليطلة وكان طبيبًا للملك فرناندو السادس (1312 - 1295) ومعاصرًا للأوساط الطبية في مونبيليه وبولونيا وباريس.

يتكون الكتاب من جزأين مختلفين تمامًا حيث يعتبر الجزء الأول منه مقدمة للأساسيات الفلسفية الطبيعية كما أن العمل الذي أجراه الطبيب تشعب بدوره إلى خمس مقالات موجزة بينما خصص الجزء الثاني، والذي قسم إلى عشرة فصول وملحق إضافي أو الأقرباذين (الصيدلي) aqrabadin يشتمل على الأدوية المركبة المناسبة لسكان قشتالة الذين لم يكن لديهم خبرة بالأدوية المناسبة، لتشخيص الأمراض المعتادة في قشتالة أثناء حياة المؤلف 1295 - 1312.

أما بالنسبة لجارثيا باليستر، فيعتبر مقاله المكتوب باللغة العربية استجابة للقضايا الفكرية والتحليلية والعلاجية لهذا الوقت، والأوساط التي بدأ المؤلف العمل بها كما يظهر أيضا الحالة السائدة من التبادل الفكري والمهني بين الأطباء اليهود وزملائهم من الجراحين والأطباء المسيحيين.

صفحة كاملة من منمنمة من مخطوط يوناني لأبو أحمد الجزار بعنوان بـ Viaticum viatoris opus medicum septem librorum ex Arabica lingua traslatum، القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر، المكتبة الوطنية- مدريد.

الأبحاث الطبية المدونة باللغة العبرية

أدت الهجرة إلى قشتالة إلى تطوير الخبرات العلمية على أراضيها. وكما كان حال موسى ابن يوشع النربوني Moses ben Yosua Narboni والمعروف كان أيضاً باسم مايستوا فيدال بيل سوم maestro vidal bell som (blasom) والذي طبقًا لجارثيا باليستر لم يكن مجرد طبيب لكنه أيضا مفكر رائد يشكل جزءاً من أقلية عقلاء اليهود فقد تدرب ومارس الطب ليصبح طبيباً كما ألف سلسلة من الأعمال والشروح المتعلقة بـ habeas الفلسفة الطبيعية لابن سينا.

وكتب في قشتالة مقالاً طبيًا هامًا بعنوان sefer orah hayyim أو (كتاب عن أسلوب الحياة) تقريبا في ما بين عامي 1350 و1362. وقدمه بالطريقة المعتادة المستخدمة بين الأطباء العرب والمسيحيين في أوائل العصور الوسطى كما أوضحنا خلال هذا المقال بما يعني "الأمراض من الرأس إلى القدم".

كما تناول أيضًا رعاية وتعليم الأطفال والمراهقين والعناية بكبار السن بناءً على التقاليد العربية. وتؤدي إشارات المؤلف العديدة إلى العديد من أعمال أطباء عرب، مما يؤدي بالباحثين إلى افتراض ضرورة معرفته باللغة العربية.

البيمارستانات والمستشفيات

س. ألفاريز دي موراليز
مدرسة الدراسات العربية، غرناطة
ف. چيرون إيرويست
جامعة غرناطة
ترجمة قاسم عبده قاسم

في أصل البيمارستانات والمستشفيات لابد أن نجد تأثيرًا دينيًا واضحًا كان الإحسان فيه هو الجانب الأساسي. أما المستشفيات فقد كان التأثير فيها مسيحيًا. فعندما صارت المسيحية ديانة الدولة، ظهرت حركة لإسعاف المرضى وإنقاذ المحرومين في شتى أرجاء العالم الروماني. وفي العالم البيزنطي، وريث الرومان، تم بناء أولى المستشفيات (واسم المستشفى hospital مشتق من كلمة huésped أي مضيف) لتكون ملاجئ للمسنين Xenodochis، والمرضى nosocomios والأطفال اليتامى Orphanotrophis. والمستشفى الذي بناه سان باسيل في ضواحي مدينة قيصرية هو أول مستشفى بني في حدود معرفتنا.

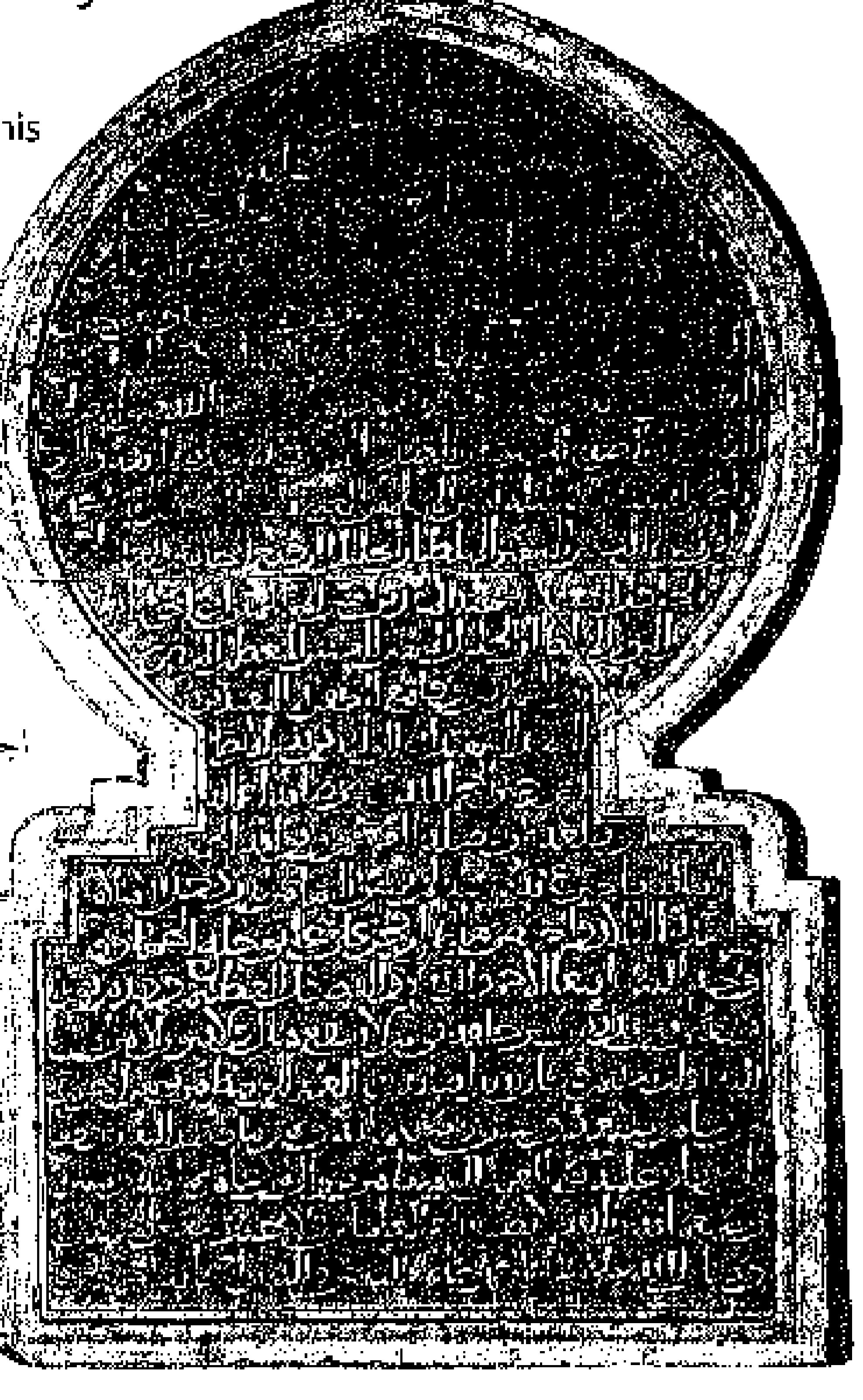

النقش التأسيسي لبيمارستان غرناطة، متحف الفن الإسباني – الإسلامي، غرناطة.

وفي معظم الحالات لم يكن القصد من هذه المؤسسات مجرد المساعدة الطبية. وعلى العكس فإننا نكاد نؤكد أن المرضى لم يكونوا هم العناصر الوحيدة الذين يُحسب حسابهم، إذ كانت هذه المراكز، منذ أقدم العصور حتى وقت لاحق في عالم العصور الوسطى، جسرًا بين الملجأ ومركزًا مساعدة الفقراء، وكان يُنظر إليها باعتبارها Locus religiosus، أي أمكنة دينية يمكن فيه تقديم الإحسان لأي إنسان بغض النظر عن ديانته.

كان القصد هو اتباع الرسالة الإنجيلية بزيارة المرضى ومساعدة المحرومين والمنبوذين اجتماعيًا. ووفقًا لهذه الروح فرضت عدة مجامع كنسية على الكرادلة الالتزام باستخدام جزء من دخلهم لفائدة من هم أشد عوزًا عن طريق بناء أماكن يستطيع الفقراء والمرضى أن يجدوا فيها السلوى والعزاء. وكان يُعهد إلى المؤمنين الحفاظ عليهم من خلال الصدقات*.

وبهذه الطريقة كانت المستشفيات شأنها شأن المؤسسات الأخرى، مثل الملاجئ، والأديرة، والإحسان وغيرها من روابط المساعدة، تكاد تكون المعبر الوحيد بين التظاهر العام بتقوى الناس وشكر الرب على العطايا الأرضية التي منحها لهم، والزهو الإنساني إلى حد كبير. وغالبا ما كانت لفتة الإحسان إلى بني البشر من ملك، أو نبيل، أو أسقف، أو أي فرد كانت تتاح له الفرصة لفعل هذا، تؤدي إلى إنشاء مستشفى.

وفي العالم الإسلامي كانت الرعاية الصحية للفقراء داخلة أيضا ضمن الممارسة الدينية المتمثلة في التصدق والإحسان. وكان السبب في هذا هو أن كل بيمارستان (وهي كلمة فارسية من مقطعين بيمار أي مريض وستان أي مكان) تتم مراعاته ماليًا من خلال الأوقاف التي كان المسلمون الأثرياء أو الدولة نفسها توقفها عليها؛ وكانت مساعدة المرضى والمحتاجين تشكل جزءًا من الواجبات الدينية للمسلم، وكانت تحسب من ضمن حسناته.

وتقدم غرناطة مثالاً واضحًا لهذا كله بمؤسستين علاجيتين من الجانبين، المسلم والمسيحي: بيمارستان غرناطة، الذي شيده محمد الخامس [1]، والمستشفى الملكي [2] Hospital Real الذي تم إنشاؤه تحت رعاية الملكيين الكاثوليكيين، إيزابيلا وفرناندو.

وفيهما يمكن أن نرى أهمية لفتة المؤسس، فأولهم يُظهر عطفًا كبيرًا على الفقراء، وفي الوقت نفسه يطلب الثواب الرباني في مقابل ذلك، أما الآخرون فيقدمون الشكر للرب على النعم التي حباهم بها.

وإذا ما ركزنا انتباهنا على البيمارستانات الإسلامية، يمكننا أن نرى أنها كانت ذات وظائف متعددة، تتصل كل منها بالأخرى اتصالاً وثيقًا [3]. وكما هو الحال في نظيراتها المسيحية، كانت إحدى هذه الوظائف أن توفر الملجأ للمريض والمحروم بالإضافة إلى أنها تصير مكانًا حيث يمكن لمن يطمحون أن يصيروا أطباء أن يتلقوا تدريبهم من المعلمين الذين يقدمون خدماتهم للمستشفى.

هذه المؤسسات الصحية كانت جيدة التنظيم وجيدة الأداء، وفي جوانب بعينها، كانت شبيهة بالمؤسسات التي نعرفها اليوم. إذ كان يدير كلاً منها مدير؛ طبيب، مسئول عن عدد من الأطباء الذين

* ترجمة الجملة الأخيرة بتصرف لأن معناها الحرفي «وكانت كذلك نقطة لصالحه لخلاص روحه»، وهذا مفهوم مسيحي عن الخلاص، ولا علاقة له بمفهوم الثواب في الإسلام. (المترجم)

1 على النقش التأسيسي لمارستان يمكننا أن نقرأ: أنه أمر ببناء هذا المستشفى [...] عرض هذه الحسنة أمام الله للحصول على المغفرة الإلهية.

2 قواعد المستشفى الملكي: "[...] نحن، من الوفاء بجميع التزاماتنا في خدمة الرب سيدنا، ومن أجل وفرة المزايا، تلقينا من تقواه ويده القوية، العون في بناء الكنائس والكاتدرائيات والمستشفيات؛ في مملكة غرناطة".

3 أ. عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بيروت، 1981، ص 140؛ S. kh. Hamarneh, "Development of Hospitals in islam", Journal of the history of Medicine, 17 (1962), 366-387.

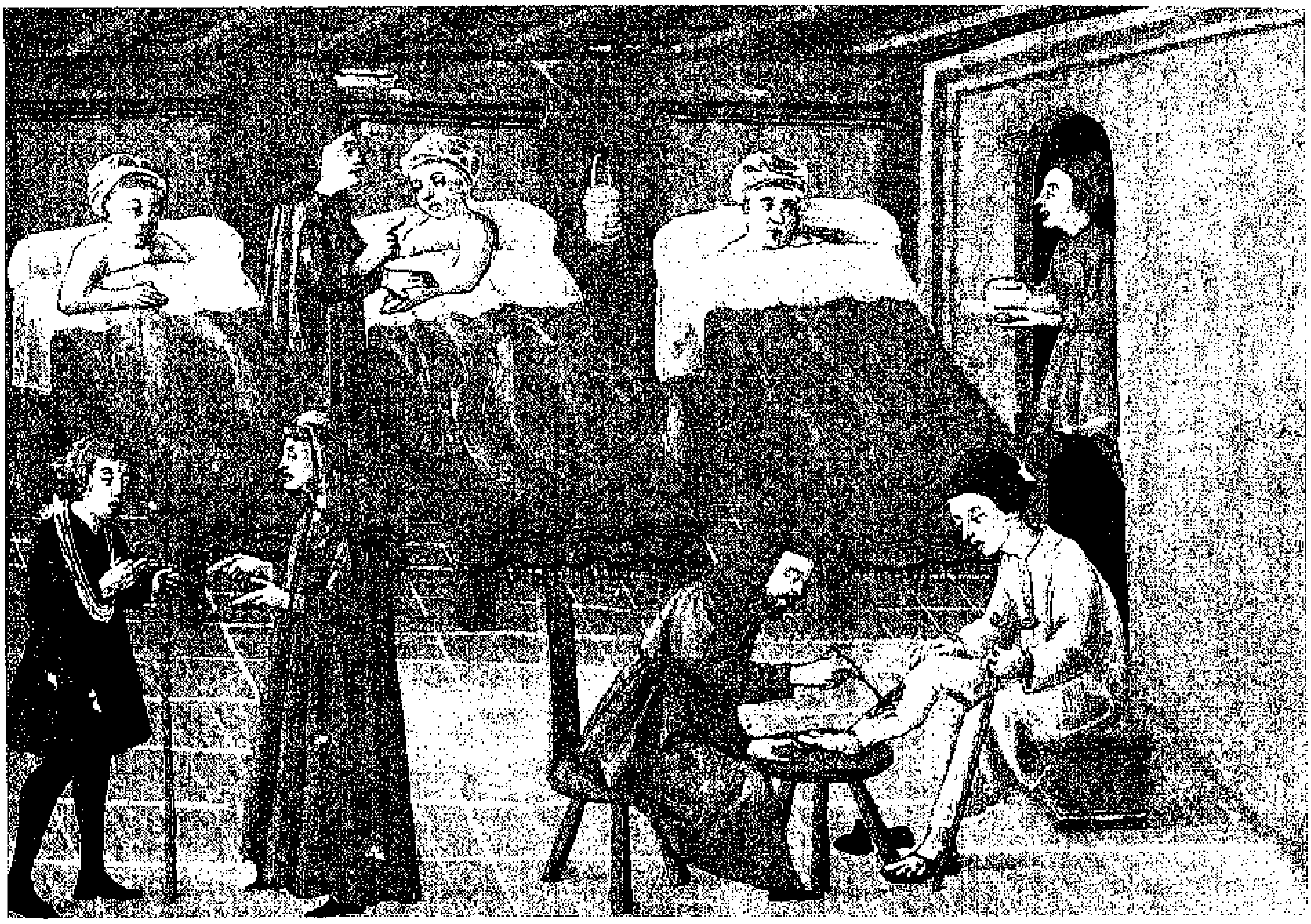

مخطوط مصور من أواخر العصور الوسطى يبين غرفة في مستشفى، مكتبة لورنزيانا– فلورنسا.

يتناولون مختلف الجوانب العلاجية. وكانت توجد في المستشفيات الإسلامية غرف للمرضى بل وأماكن خاصة أخرى مثل مسجد ومكتبة ومطابخ، وأماكن لإقامة هيئة الأطباء، وغرف أخرى كان يتم فيها تحضير الدواء (كانت هي السوابق لصيدليات الحديثة)، وفي بعض الحالات، كانت هناك حدائق طبية حيث كانت تُزرع النباتات الطبية. وتُخبرنا المصادر التاريخية أنه ربما كانت هناك غرف للترفيه للذين هم في دور النقاهة حيث كان يمكنهم الاستماع إلى القصص، أو الموسيقى. وكان المرضى ينقسمون إلى قسمين كبيرين: الرجال والنساء، وكان كل قسم بدوره ينقسم إلى غرف، موزعة أساسًا حسب نوع المعاناة (الحمى، والجروح والضربات، وطب العيون وما إلى ذلك). وفي بعض المستشفيات، ولاسيما في بيمارستان مراكش، يُقال إن أولئك الذين لم تكن لديهم إمكانيات شخصية كانوا يتلقون مساعدة مالية لكي تعينهم على العيش بعد شفائهم، وفي كل يوم كان رئيس الأطباء يقوم بجولاته يصحبه تلاميذه، الذين كانوا يتعلمون بهذه الطريقة مناهج الكشف والعلاج وما إلى ذلك.

علاوة على ذلك، كان تحضير الأدوية وتطبيقها على النزلاء قد أوجد أدبًا طبيًّا محددًا، وهو ما يسمى دستور البيمارستان؛ كان فيه وصف لمختلف وصفات العلاج للأمراض مع تركيبها وتجهيزها وتحديد الجرعة [4].

وإذا ما عدنا إلى العالم المسيحي، كان تأسيس أول مستشفى ديري في شبه جزيرة أيبيرية زمن القوط الغربيين قد نظمه الأسقف ماسونا الذي بنى في سنة 580 مركزًا بالخصائص الموجودة في ماردة ملحقًا بأحد الأديرة. وكانت هيئة المستشفى تجوب المدينة عدة مرات في اليوم بحثًا عن الفقراء والمرضى ويقودونهم شخصيًا إلى المؤسسة [5]. وقد جاءت بعد هذا المستشفى أبنية أخرى مكرسة للفقراء والمرضى كانت قائمة بجوار أديرة أهم المنظمات الرهبانية. وفيما بعد، أقام الملوك والنبلاء والأساقفة المستشفيات في المناطق الحضرية. أما الطبقات الوسطى، التي كانت منظمة عادة في نقابات، فإنهم فعلوا الشيء نفسه أو ساعدوا في الحفاظ عليها من خلال الصدقات أو الوصايا. وهكذا هي حال مستشفى الملك Hospital del Rey الملحق بدير لاس هويلجاس دي برغش Las Huelgas

4 J. L. Valverde and C. Peña Muñoz, El formulatio de los hospitales de ibn Abi -l- Bayan, Granada, Universidad, 1981.

5 M. Sanabria Escudero, La Medicina Emeritense en las épocas romana y visigoda, Mérida, 1977, p. 81.

de Burgos الذي بني أواخر القرن الثاني عشر أو أوائل القرن الثالث عشر على يد ألفونسو الثامن، بغرض إيواء الحجاج الذين يقصدون سانتياجو (القديس يعقوب) [6]. وقد تعين على المستشفيات حتمًا أن تضم كنيسة صغيرة في الداخل حيث كانت صلاة القداس تقام يوميًا للمرضى، أو على الأقل يكون مكانها بجانب كنيسة يسهل الوصول إليها. ويبدو أن المستشفيات المسيحية لم تكن تعمل بشكل يختلف كثيرًا عن نظيراتها الإسلامية فيما عدا أنه على الجانب المسيحي، وحتى العلمنة الكاملة للمساعدة التي جرت أواخر القرن الثامن عشر، كان الشخص المسئول عن المركز دائمًا من رجال الكنيسة ولم يكن طبيبًا.

وبالرجوع إلى الأندلس بصفة خاصة يمكن أن نرى كيف ظهرت المستشفيات في إشبيلية التي تم غزوها من وقت قريب ملحقة بالكنائس التي يجرى تشييدها. ويشير ج . إ كارمونا جارسيا [7]. إلى أنه في أواخر القرن الرابع عشر كانت كنائس نويسترا سينورا دي لا كاندلاريا وسانتياجو Nuestra Sénora de la Candelaria y Santiago وسان برناردو San Bernardo، وسان إلوي San Eloy وسانتا ماريا Santa Maria، موجودة بالفعل. وقد شهدت سنة 1387 بناء مستشفى سان كوزمي وسان داميان San Cosme y San Damian، المشهور أكثر باسم الورمي أو الدملي (Buboes)، لأن دوره الأصلي كان رعاية أولئك الذين يصيبهم الطاعون الدملي، وهو الوباء الذي سبب الخراب للعالم المعروف منذ سنة 1348 فصاعدا . ووفقا لهذا الكاتب، فإن مدينة إشبيلية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت تعتمد على حوالي مائة من هذه المؤسسات العلاجية لها خصائص مختلفة اختلافًا كبيرًا.

وفي قرطبة يرجع تاريخ مستشفى سان سباستيان إلى سنة 1363، وكان من أول المستشفيات التي بنيت بالمدينة. وقد تم تحسين مبناه على يد النقابة التي تحمل الاسم نفسه، والتي كانت تتألف من القساوسة ومن المواطنين من أبناء الطبقة المتوسطة، وكان أصله بسبب الوباء الذي نشب سنة 1348 والذي ذكرناه بالفعل، لأن سان سباستيان وسان روكي كانا قد عينا حاميين في مواجهة الوباء [8].

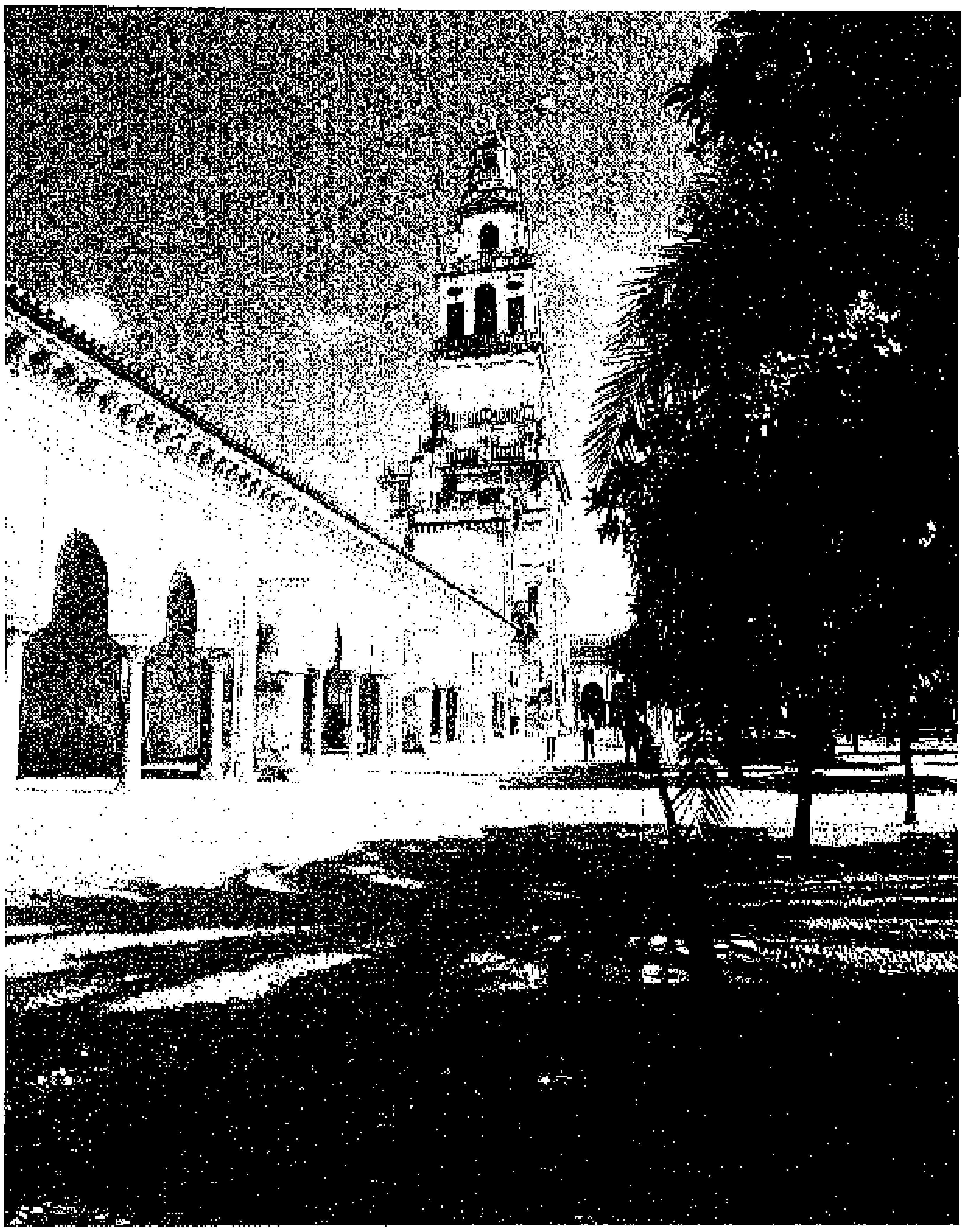

أروقة وفناء مسجد قرطبة.

وفيما يتعلق بالبيمارستانات، فإن كل المعلومات التي بحوزتنا عن أقدمها تشير إلى مؤسسات في الشرق أو شمال أفريقيا. ومن الواضح أن أول مستشفى إسلامي قد تم تأسيسه في القرن الثامن الميلادي، وربما كان تقليدًا لنموذج في فارس الساسانية، وسرعان ما انتشرت هذه المؤسسة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وهكذا، منذ القرن التاسع الميلادي فصاعدًا، ظهرت المستشفيات في بغداد والقاهرة ودمشق (حيث بدأ إثنان منها على الأقل يعملان في الوقت نفسه)، وفي الموصل، وحلب والإسكندرية والري، التي كانت أهم المدن. وفي المغرب ترجع أولى الإشارات إلى المستشفيات إلى أواخر القرن الثاني عشر، لاسيما مستشفى مراكش، على الرغم من أن الأدلة من القرون السابقة تشير إلى أماكن بعينها مكرسة للمرضى منذ القرن العاشر الميلادي في عدة مواقع في تونس الحالية، مع دلالة ضمنية تشبه تلك التي سوف نجدها في الأندلس فيما بعد. وفي وقت لاحق

6 H. Santiago Otero (ed.) El Camino de Santiago. La hospitalidad monastica y los peregrinaciones, Leon, 1992 .

7 J.L. Carmona Garcia El sistem de hospitalidad publica en la Seville del Antiguo Régimen, Seville, 1979 , pp. 26-27.

8 A. Garcia del Moral, El Hospital Mayor de san sebastián de Cordoba: cinco siglos de asistencia médico - sanitaria institucional (1316-1816), Cordova, 1984, pp.51-52.

كان لفاس أيضًا بيمارستان، كما شهدت المدينة نفسها زيادة في عدد مثل هذه الأبنية في القرن السادس عشر [9]. وفي حالات عديدة كانت البيمارستانات والمساجد تقع في نفس المناطق بل كانت تُضمان معًا، مثلما هو الحال في مصر في عصر سلاطين المماليك، وهو ما يوضح وضع المستشفى باعتباره عملاً من أعمال التقوى.

زيارة طبيب إلى حاكم مسلم، مخطوط مصور، القرن الثالث عشر.

وقد صار أطباء الأندلس على وعي بهذه المستشفيات، وقد درس الكثير منهم وتدربوا بل صاروا في بعض الحالات مسئولين عنها. وفي عودتهم إلى شبه الجزيرة الأيبيرية كانوا يضعون هذه المعرفة موضع الممارسة على الرغم من أنهم لم يجدوا هناك مؤسسات شبيهة لتلك التي كانت موجودة بالشرق، أو بتعبير أكثر دقة، المباني المنظمة على أساس أن تكون مستشفيات على الطريقة الشرقية . وليست لدينا أخبار عن وجودها حتى منتصف القرن الرابع عشر في غرناطة تحت حكم بني نصر. وعلى أية حال، فإننا نعرف بالفعل، أن الأماكن المخصصة للمرضى قد وجدت حقًا، ولكنها لم تكن مستشفيات بالمعنى الصحيح، كما سنرى.

ويجب أن نوضح أننا حين نتحدث عن أماكن المساعدة للمرضى، فإننا نشير دائما إلى أناس من الطبقات الدنيا ممن لا يمتلكون وسيلة لحضور العمليات الجراحية التي كان الأطباء يقومون بها في المدن المهمة، وفوق هذا وذاك، لم يكن بإمكانهم تدبير الرعاية السليمة لمرضاهم بالمنزل . أما فيما يتعلق بالطبقات العليا، وخاصة بالإشارة إلى رجال البلاط والعائلة الملكية على وجه الدقة: فمن المعروف أن القصور كانت تحتوي على غرف خاصة مكرّسة للاستخدام الطبي، ومن بينها تظهر صيدلية مدينة الزهراء الشهيرة [10].

ويقودنا نقص الأدلة الخاصة بالبيمارستان في الأندلس أثناء القرون الأولى إلى البحث عن المعلومات على امتداد خطوط أخرى، حيث إنه لا يبدو منطقيًا أن السكان المسلمين في شبه الجزيرة لم تكن لديهم أماكن لإقامة المرضى. ويمكن أن تكون النزعة الحضرية، والشريعة والمؤسسات بعض العلامات الهادية [11]. فمن خلالها، مع الإشارة إلى قرطبة التي كانت عاصمة الدولة ، حيث يمكن الحصول على المعلومات بقدر أكبر من السهولة من أية مدينة أخرى في زمانها، نعرف أن بعض الأروقة التي كانت تقع بجوار المسجد، والتي كانت تستخدم لإيواء الفقراء والمرضى، تمت إزالتها في القرن العاشر. وفضلاً عن ذلك، لدينا إشارات تذكر مزرعة قرطبية مخصصة لهذا الغرض هي "منية العجب". وإلى جانب هذه الإشارات، وفيما يتعلق بالمدينة نفسها، نجد عدة إشارات إلى "رباط المرضى": يقع على أطراف المدينة على الضفة الأخرى من النهر ولكن بالقرب من الحقول التي تحيط بها. وغالبًا ما كان "رباط المرضى" يُعتبر مستعمرة للجذام لأن مصطلح "مرضى" يشير إلى المرضى عمومًا كما يشير إلى المجذومين. وفي هذه الحالة الأخيرة على أية حال. فإن خصائص المرض ذاته تسببت في أن الناس كانوا يتحاشونهم، دون الخوض في الاعتبارات ذات الطبيعة الدينية. ونتيجة لهذا، كان يتم تجميع المجذومين معا في مناطق معينة على أطراف المدن. وتذكر عدة نصوص مستعمرات الجذام أو في حالات أخرى، تشير

9 Juan León El Africano ´deals with them, Descripción general del Africa : y de las cosas Pereginas que allí hay : por Juan león Africano, Barcelona, 1995.

10 C. Álvarez de Morales, "Sobre la farmacia de Madinat al- Zahra", Homenaje al Prof . Jacinto Bosch Vila, Granada, 1991 , vol . II, pp. 1087-1096 .

11 F. Franco Sánchez, "La asistencia al enfermo en al- Andalus. los hospitales musulmanes", in C. Alvarez de Morales and E. Molina Lopez (coords.), La medicina en Al- Ándalus, Granada, 1999, pp. 135-171 .

إلى بوابة المجذومين Puerta de los leprosos في مدن مثل سرقسطة وغرناطة[12]. ومع هذا، كان الإسلام دائما يعامل المجذوبين بقدر من العطف أكبر كثيرًا من الديانات الأخرى وكان أكثر تسامحًا بشأن وجودهم بين السكان الأصحاء، ويسمح لهم بالحضور في المساجد والأماكن العامة على الرغم من فرض بعض القيود المعينة في ظروف محددة[13]. وقد حدث شيء شبيه بذلك مع المرضى العقليين، الذين منحوا أيضا حق اللجوء إلى هذه الأماكن والذين وجدوا درجة جيدة من القبول الاجتماعي في البلاد الإسلامية، شأنهم شأن المجذومين.

كانت هذه الأماكن، سواء كانت مكرسة للأمراض الشائعة، أو كانت مستعمرات للجذام، أو مصحات عقلية، تتألف من عدة شوارع ومبان مختلفة. وكان بها موظفون يسيطرون على مهامها وأطباء يعودون يحنون بأولئك الذين يجيئون إلى أعتابها. وعلى الرغم من أنها لم تشترك في خصائص البيمارستانات، فإنها لعبت بالفعل دورًا خيريًا علاجيًا مشابهًا. وعلى مرّ السنين تحدث بعض المستشفيات، لاسيما في حالة فاس وغرناطة، باعتبارها مصحات عقلية. وربما كان هذا راجعًا إلى حقيقة أن الحفاظ عليها كان محدودًا بصورة مطردة بما يقدمه الملوك من هبات، وعندما كانت هذه الهبات تتناقص، تدهور نشاط المستشفيات وبدأ يتجه إلى هذا الاتجاه، بحيث صار محدودًا بصورة مطردة بما يقدمه الملوك من هبات، وعندما كانت هذه الهبات تتناقص، تدهور نشاط المستشفيات وبدأ يتجه إلى هذا الاتجاه، بحيث صار محدودًا في نطاق علاج المرضى من هذا النوع[14]، والذين كان واضحًا أنهم يحتاجون إلى درجة أقل من العناية الطبية.

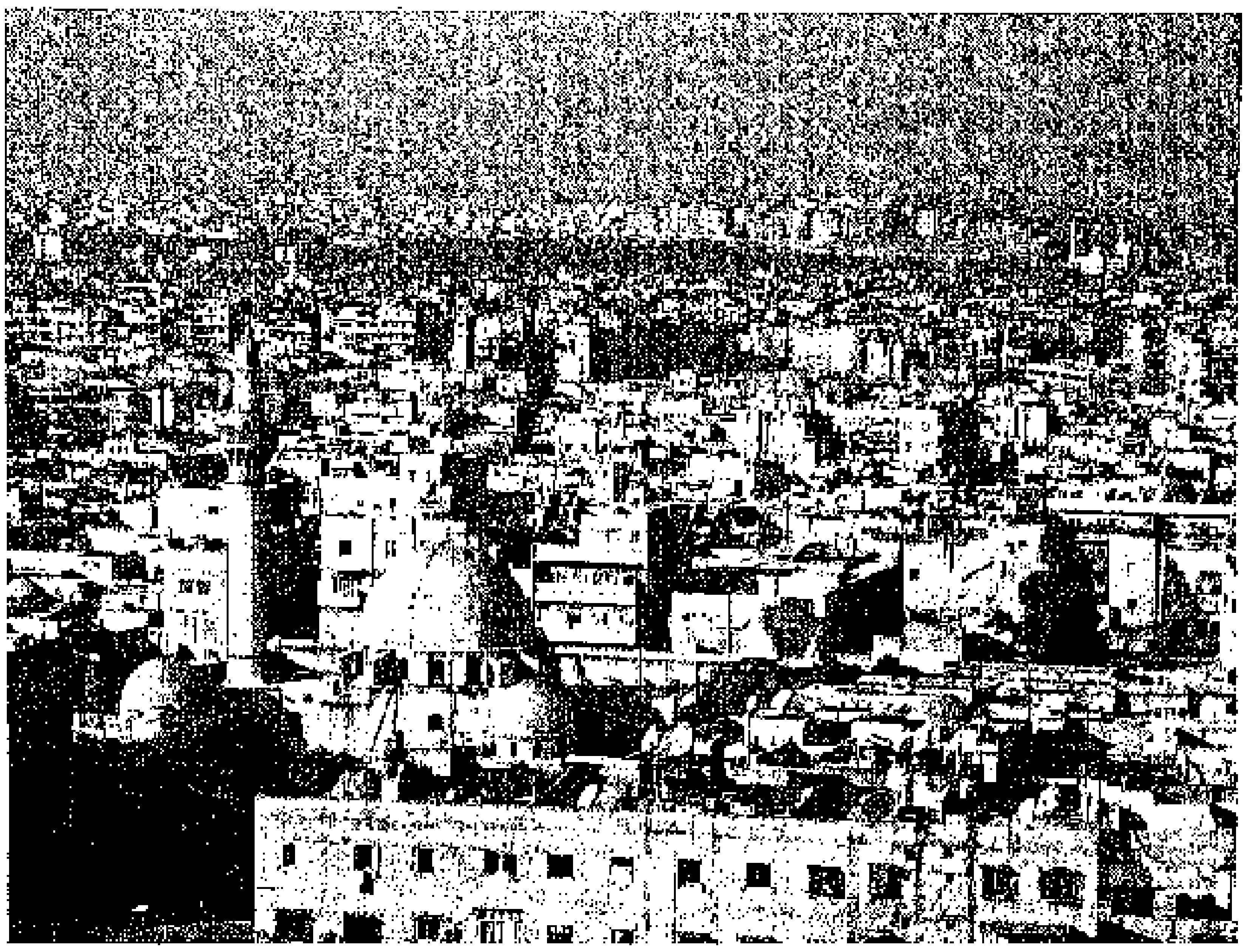

منظر لمدينة حلب.

بالإضافة إلى هذه المناطق، كانت هناك مؤسسات أخرى يمكن تحويلها إلى ملاجئ للمرضى. كانت هناك الزوايا والأربطة، وهي في الحالين عبارة عن أبنية ذات أحجام مختلفة كانت عادة تكرس للصلاة والاعتكاف. وكان يمكن استخدامها أماكن إقامة للمسافرين، وخاصة للمحتاجين والمرضى المارين في المكان الذي توجد به. وربما كانت في المساجد المحلية أماكن متاحة لهذا الغرض.

وفيما يخص ظهور المستشفيات في الأندلس التي كانت لها عمليًا نفس الخصائص التي ميزت نظيراتها الشرقية، يرى ج. فيرنر[15] أنها كانت تتشابه أيضا مع المدارس في القرن الثالث عشر؛ أي خلال حكم الموحدين، لأن هذه الأسرة الحاكمة كانت على ألفة تامة مع هذه المؤسسة. ونحن نعرف أن خايمي الأول أمر ببناء مستشفى في بلنسية، وربما كانت إعادة بناء لمستشفى موحدي.

حالة مدينة غرناطة

في الترتيب الزمني، كان أول مستشفى في المدينة هو البيمارستان، الذي بني تحت رعاية الملك محمد الخامس، فيما بين سنة 1365 وسنة 1367، كما أوضحنا بالفعل. وعلى الرغم من تراث أبنية المستشفيات في العالم الإسلامي في أوائل وفي أواخر العصور الوسطى فإننا نظن أن البيمارستان الغرناطي كان أول مستشفى يُبنى في الأندلس. وهذا على الأقل ما يمكن استجلاؤه من حجر الأساس الذي يقول إن الملك بهذا المبنى قد نفذ عملًا خيريًا غير مسبوق منذ دخول الإسلام إلى هذه البلاد. وبالنظر إلى احتمال وجود مستشفى في الجزيرة الخضراء، وهو موضوع قدر كبير من التفكير والتأمل، أوضحنا بالفعل أنه لم يكن سوى من عواقب الخطأ في تفسير نص تاريخي[17].

فقد ثارت شكوك معقولة حول ما إذا كان البيمارستان الغرناطي أول مستشفى في الأندلس، خاصة إذا اعتبرنا أن الحاجة إلى المساعدة من جانب المسلمين في الأندلس كانت مسألة منذ

12 L. Torres Balbas, "Estructura de las ciudades hispanomusulmanes: la medina, los arrabales y los barrios", Al- Andalus, XVIII (1953), 152 .

13 Abd al - Malik b. Habib (m. 238 / 852) . Kitab al-wadiha (Tratado Juridico [Legal] treatise]), Introduction, review and translation by M. Arcas Campoy Madrid, 2003, especially pp. 122-123.

14 Franco Sanchez, "La asistencia al enfermo..." p. 154.

15 J. Vernet, "la introduccion de los manicomios en Espana", Boletin de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona , XLII (1989-990). 21-27.

16 J. Vernet , La ciencia en al- Andalus , Seville 1986, p. 11 ; R.I Burns, Un monasterio hospital del siglo XIII: San Vicente de Valencia, Anuario de Estudios Medievales, 4 (1967), 75-108 .

17 F. Giron Irueste, Nota sobre un supuesto hospital arabe en Algeciran, Jul., 2 (1978) 113-115 .

السنوات الأولى لوجودهم في شبه الجزيرة. وعلاوة على ذلك، كان لابد أن تكون احتياجاتهم في كل مكان، على كل من جانبي مضيق جبل طارق. ومن ثم، فإذا كانت المستشفيات قد وُجدت بالفعل في شمال أفريقيا في القرن الثالث عشر، فلماذا لا يمكن أن توجد أبنية أخرى مشابهة في الأندلس، أو على الأقل من تلك الفترة فصاعدًا؟ ومثلما رأينا، كان لابد أن تكون الإجابة أنه كانت للمرضى أماكن محددة مخصصة لهم في المدن، وكذلك المساعدة التي كان الحكام يقدمونها في حجرات بقصورهم والاستقبال الذي كانوا يلقونه في المراكز ذات الطبيعة الدينية.

ضاحية البيازين في غرناطة.

أما فيما يتعلق بالسبب الذي جعل محمد الخامس يأمر ببناء هذه المؤسسة، فربما يمكن أن نجد السبب في العلاقات التقليدية التي حافظ عليها بنو نصر مع المرينيين في شمال أفريقيا، والتي تميزت بكثافة خاصة في تلك الفترة، عندما سافر محمد نفسه، ووزيره ابن الخطيب إلى فاس وسنحت لهما الفرصة لمشاهدة البيمارستان الذي كان موجودًا هناك. وقد تصادفت الزيارة مع الفترة التي خضع فيها قصر الحمراء لإصلاحات كبرى، وتم بناء المدرسة بطلب من والده يوسف الأول. وكانت تلك مؤسسة أخرى غير مسبوقة في الأندلس. وهذه كلها كان يمكن أن تكون عوامل أقنعت حاكم غرناطة بأن يُحاكي ما رآه. ونحن لا نعرف ما إذا كان الوباء الأسود الذي وقع سنة 1348 له أي تأثير على بنائه، كما كان قد حدث مع المستشفيات السابق ذكرها في قرطبة وإشبيلية، حيث كان الوباء قد اجتاح أراضي غرناطة، وكان أطباؤها يلعبون دورًا نشطًا للغاية بل إنهم تركوا أدلة مكتوبة على تدخلهم [18].

كان مبنى بيمارستان غرناطة يشغل منطقة تقع على الضفة اليمنى لنهر دارو والمعروفة باسم "رباط الراحة"، وموقعها بين سور القصبة القديمة وضفة النهر بالقرب من Puerta de los Tableros، والمشهور بين العامة باسم باب القاضي Puerta del Cadi [19]، ونحن نعتقد أن اختيار الموقع لم يُترك للصدفة، لأن المنطقة كانت مشهورة بأنها صحية إلى درجة كبيرة.

وتأييدًا لما قررناه توًا، اهتم أطباء العصور الوسطى، مثل أسلافهم من الإغريق والهيللينستيين، بالهواء والبيئة المحيطة بمرضاهم وسعيًا وراء هذه الغاية، انعكست ظروف المعيشة في البيوت والمدن وأفضل توجه لنفس الغرض وما إلى ذلك في مؤلفاتهم. وعلى أساس هذه التوصيات، يمكننا أن نقرر أن موقع «رباط الراحة» كان مثاليًا، لأنه كان محميًا من الرياح الجنوبية بفضل التل الذي أقيم عليه قصر الحمراء. وإذا كانت هذه الرياح الجافة الساخنة هي التي سببت الأمراض التي كانت تجتاح المدن من حين لآخر، تمامًا مثلما حدث مع الوباء الأسود سنة 1348، كذلك لم تكن صدفة أن مستشفى ثانيًا، وهو الذي يسمى المستشفى العام أو Hospital de los Moriscos – وهو ما سنتناوله فيما بعد – كان لابد من بنائه في موضع لا يبعد كثيرًا عن البيمارستان.

كان البيمارستان مستطيل الشكل، مقياسه 38.3 × 26.5 مترًا، وكان الجانبان الأقصر موازيين للنهر ويشكلان الواجهة الشمالية والواجهة الجنوبية، ويبدو أن محمد الخامس أمر بأن يُبنى على بناء قائم بالفعل يرجع تاريخه إلى الفترة ما بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر، وقد أجريت به إصلاحات كبيرة [20]. وله طابقان بأربعة ممرات، وأروقة اتساعها 1.27 مترًا تؤدي إلى فناء داخلي رحب. وكان المركز يحتوي على بركة مياه يغذيها أسدان كبيران من الرخام. وما يزال هذان الأسدان قائمين اليوم وحتى وقت قصير مضى كانا يؤديان نفس الوظيفة في بركة البرطل بقصر الحمراء.

أما المدخل الرئيسي المسقوف فكان موضعه على الواجهة الشمالية. ونحن نعرف تصميمه بفضل الرسومات التي رسمها المهندس المعماري ف. إيريكيز F. Enriquez، قبل الإزالة الجزئية

18 The most noteworthy cases are Ibn al- khatib, Muhammad al- Shaquri and Ibn Khatima. As a general reference, see the relevant information in the work by M. Ullmann, Die Medizin im islam, Leiden, 1970.

19 See, among others, J.A. Garcia Granados, F. Gorón Iruestes and V. Salvatierra Cuenca, El Maristan de Granada, un hospital islamico, Granada, 1989, p. 21.

20 Garcia Granados, Girón Irueste, and Salvatierra Cuenca, Maristán ..., p. 26.

للمبنى في غضون القرن التاسع عشر مباشرة، وكان القطاع الأوسط فيه البوابة، وفوقها كان حجر الأساس. وفي الطابق الأسفل كانت هناك نافذتان صغيرتان وست نوافذ أخرى في الطابق الأعلى، كانت منها أربع متشابهات. وكان الداخل موزعًا بين صحون، أربعة منها في الطابق الأرضي وأربعة في الطابق الأول، هذه الصحون، بدورها كانت مقسمة إلى صوامع (حجرات صغيرة)، عددها حوالي خمسين، مقياس كل منها 2.5 × 2.5 مترًا. وكانت هذه الصوامع تفتح على الأروقة كما كانت تتصل ببعضها البعض عن طريق ممر داخلي.

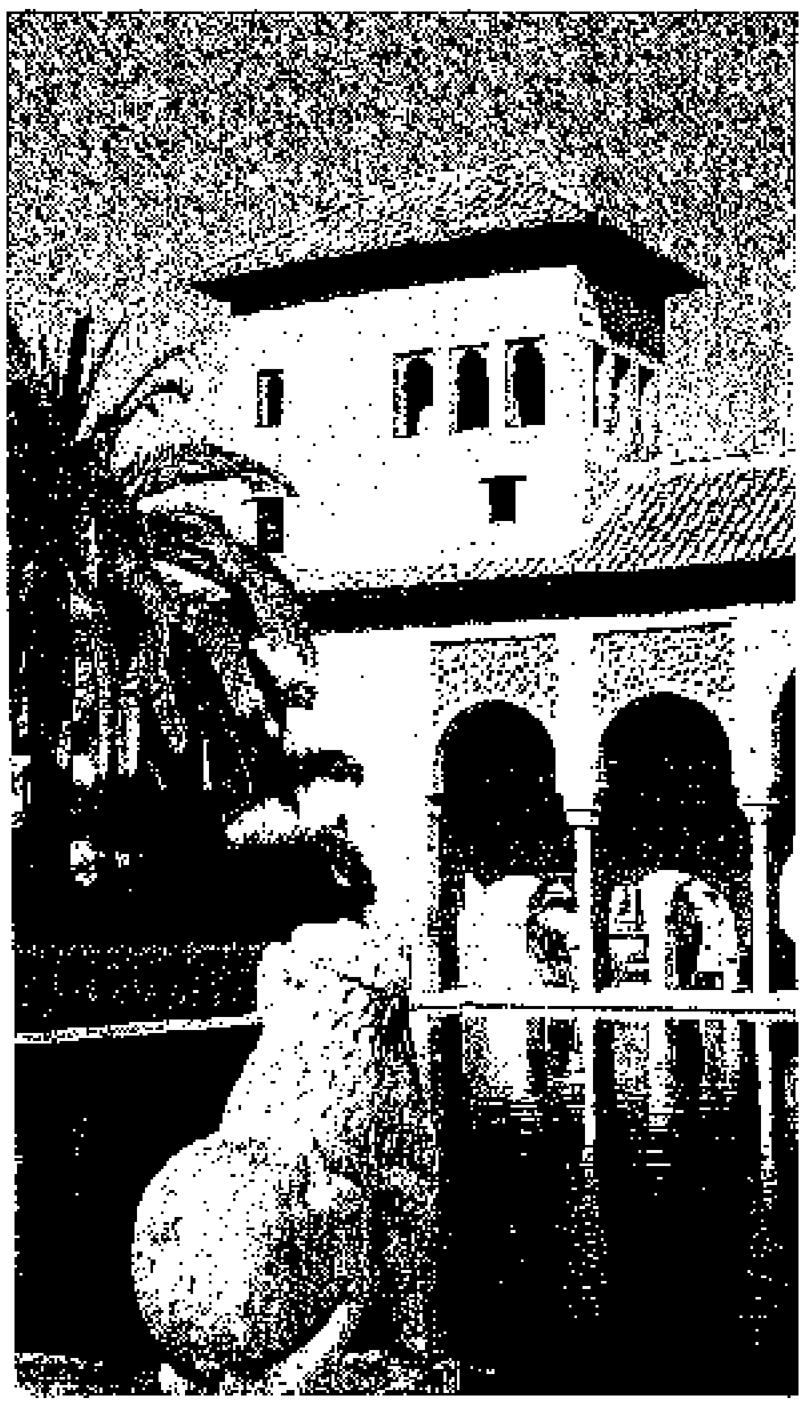

تمثال أسد من البيمارستان القديم في غرناطة في حدائق البرطل بقصر الحمراء.

على يسار الصفحة، شارع Carrera del Darro (وهو شارع يجري بطول الوادي أسفل قصر الحمراء في غرناطة) يتجه نحو بوابة القاضي، وهو جسر على نهر دارو.

وفيما يتعلق بمساعدة المرضى، أمكننا أن نثير مناقشة حول من كانوا يشغلون المبنى. ويقول حجر الأساس إن المبنى تم تشييده من أجل الفقراء، ومرضى المسلمين. ولكن أي نوع من المرضى؟ ونحن نقول هذا لأنه بحسب المعلومات التي لدينا كان البيمارستان يقيم به المرضى العقليون. وليست هذه بأي حال من الأحوال حقيقة خارجة عن الموضوع. وإذا ما كنّا قادرين على أن نتصور أن المبنى –منذ لحظة افتتاحه– كان له هدف وحيد هو علاج المرضى العقليين، فإننا سنكون أمام أول مستشفى في أوروبا يفعل هذا لأن مستشفى بيت لحم في لندن يعتبر، حتى الآن، هو الأقدم في هذا المجال، ويرجع تاريخه إلى سنة 1403، ومستشفى La Casa del Padre Jofré في بلنسية الذي بدأ العمل سنة 1409، فقد بني كلاهما بعد ستة وثلاثين وخمسة وأربعين عامًا على التوالي بعد بيمارستان غرناطة. ومن ناحية أخرى، كانت مستشفيات المجانين قائمة في البلاد الإسلامية ولدينا حالة بيمارستان مراكش الذي بني في نهاية القرن الثاني عشر، والذي ذُكر صراحة أن الحاكم القائم بني البيمارستان من أجل المرضى والمجانين[21]. وإنها لحقيقة معروفة أن بيمارستان غرناطة كان به مرضى عقليون، وفيما بين سنة 1495 وسنة 1497، استخدم الملوك الكاثوليك المبنى ليكون دار سك النقود الملكية، وتسبب هذا في هياج أعيان غرناطة الذين اشتكوا من نقص الحماية لمرضاهم العقليين، الذين كانوا يتجولون في المدينة[22]. والسؤال هو ما إذا كان قد وفر الملاذ لكل من المرضى العقليين وغيرهم من المرضى، أم أنه كان ملاذًا للمجانين فقط.

وكما رأينا ونحن نشير إلى المستشفيات الإسلامية بصفة عامة، فإنها كانت تستوعب كل أنواع المرضى، بما في ذلك المجانين، كما أوضحنا احتمال أن نقص الإمكانيات المادية قد نزل بهذه المؤسسات إلى مستشفيات للأمراض العقلية، وفي حالة بيمارستان غرناطة، فإن حجر الأساس فيه يؤكد بوضوح دوره باعتباره ملجأ لفقراء المسلمين ومرضاهم، وهو ما يشير بالضرورة إلى أنه لم تكن هناك تفرقة بين مختلف أنواع المرضى. وهناك شهود يميلون إلى التفكير بمفهوم موحد؛ أي أن

21 Franco Sanchez, "La asistencia al enfermo en al- Andalus", p. 146.

22 يعرض Concepción Félez هذه الحقيقة كأي سبب محتمل للتمسك للمجانين في مستشفى حقيقي، مع المرضى الآخرين، C.Félez Lubelza, "Sobre la aparición de la arquitectura pública: la primera etapa constructiva del Hospital Real de Granada, Actas del IV Congreso espanol de Historia de la Medicina, Granada", 1973, Granada, 1975, I, p. 107.

البيمارستان سرعان ما صار مؤسسة خاصة بالمجانين. وقد ترك بعضهم شهادات مكتوبة مثل الطبيب والرحالة الألماني هيرونيموس ميونزر Hieronymus Münzer الذي وصل إلى غرناطة التي كان قد تم غزوها حديثا سنة 1494 والذي تحدث عن «منزل للمجانين»[23].

وهناك حقيقة أخرى يمكن التحقق منها أيضا وتشهد بتكريسه مبكرًا للمرضى العقليين: توزيع المبنى إلى صوامع صغيرة لا تتسع سوى لمريض واحد لوحده. وقد شهد ابن الخطيب المعاصر ودقيق الملاحظة بهذه الحقيقة. لقد كانت البيمارستانات في الشرق عادة، مثل بيمارستان حلب، تأوي المرضى غير العقليين في عنابر كبيرة وتحبس المرضى الذين يعانون من اضطرابات عقلية عنيفة (ما عرف في العصور الوسطى باسم furiosi) في غرف انفرادية صغيرة. وكان حجز كل مريض عقلي في غرف انفرادية يدل على حسن تقدير لأنه بهذه الطريقة سيكون من الأسهل إبقاؤهم تحت السيطرة. ولا ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا الأنماط الأخرى من العزل، مثل العزل لأسباب التلوث، طالما أن مفهوم العدوى بين البشر لم يتم الأخذ به سوى في القرن التاسع عشر.

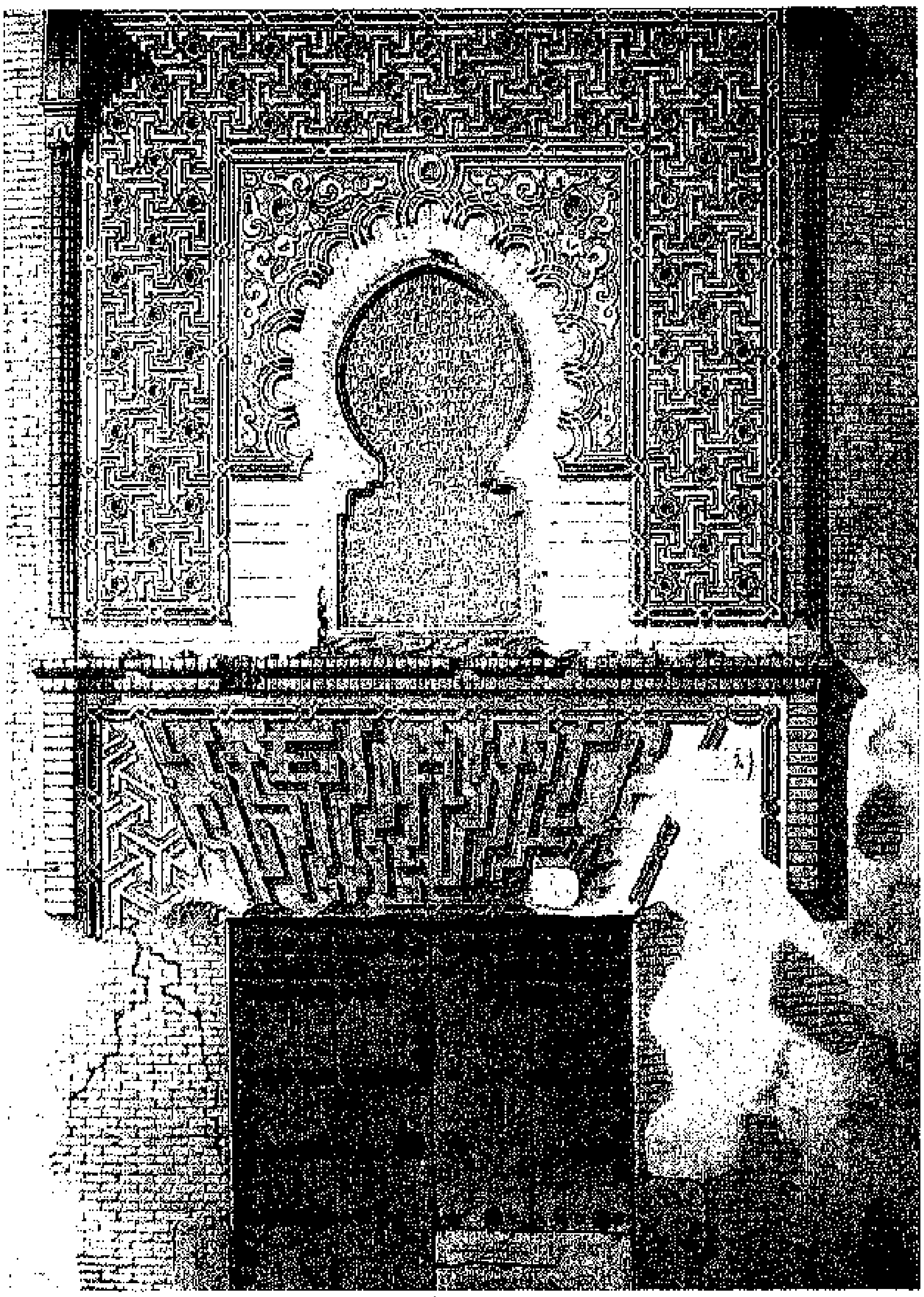

واجهة بيمارستان غرناطة، الذي صار فيما بعد دار سك النقود الملكية وعليه نقش يحمل ذكرى تأسيسه على يد الملك محمد فوق المدخل.

لقد استخدم مبنى البيمارستان مستشفى لفترة قصيرة ولكن، كما أوضحنا من قبل، بعد سقوط مدينة غرناطة بأيدي الملوك الكاثوليك صار دار سك النقود الملكية. وبقي كذلك حتى القرن السابع عشر، لأن غرناطة ظلت تسك النقود حتى سنة 1698. وفيما بعد استخدمه الرهبان التابعون لمنظمة «سيدتنا سيدة الرحمة» من دير بلين Convents de Belén ثم استخدم مخزنًا للنبيذ، فمنطقة سكنية، ثم مقر قيادة عسكرية وسجنًا حتى تسببت حالته الخربة في إزالة جزء منه سنة 1843. وفي سبعينيات القرن العشرين تم هدم جزء كبير من المبنى المتبقي ولم يترك مكانه اليوم سوى بقايا الجهة الجنوبية، وبعض حوائط قليلة والبركة التي تقع في وسط الفناء.

وبعد سنة 1492 تتحدث الإشارات الواردة من «هيرونيموس ميونزر» عن ثلاثة مراكز استشفاء: مستعمرة المجذومين، والمستشفى العام ومستشفى المجانين[24]. والمركز الذي ورد ذكره باعتباره مستشفى المجانين ليس سوى البيمارستان: ويبدو أن المركز الذي يسميه ميونزر مستعمرة المجذومين هو مبنى بدائي بنيت فرقه مستشفى الموريسكيين Hospital de los Moriscos. وفيما يتعلق بالمستشفى العام لم نستطع الحصول على المزيد من المعلومات. ونحن نعرف أنه في بواكير القرن الرابع عشر كان هناك مستوصفان في شارع البيرة على مدى سنوات قليلة، وأنه عندما تم افتتاح المستشفى الملكي Hospital Real تم دمجهما فيه. كان مبنى المستشفى مكرسًا للموريسكيين Mariscos، والذي جاء منه الإسم «المستشفى العام للموريسكيون Hospital General de Moriscos أو Hospital de la Resurrecion "مستشفى القيامة"، في موقع قرب المكان الذي يعرف حاليا باسم Plaza del la Abed وفيما بعد بنى دير الرهبان الأوغسطينيين الحفاة Discalces Augustinians على هذا الموقع أو حوله ولكنه غير موجود اليوم.

23 J. Münzer, Viaje por España y portugal. Reino de Granada. Preliminary study by F. Camacho Evangelista, Granada, 1987, p.60.

24 Münzer, Viaje por Espana y Portugal, p. 60

وقد استمر هذا المستشفى عشر سنوات فقط، إذ تمت مصادرته بعد ثورة الموريسكيين في القرن السادس عشر، ولكنه استمر مثالاً قيمًا على التعايش الإسلامي المسيحي. والواقع أن بعض «المسيحيين الجدد» من الغرناطيين تبنوا التقاليد المسيحية عن الروابط الخيرية بتشكيل ما يسمى رابطة القيامة. وكانت هذه الرابطة تتولى العناية بالمرضى إلى جانب الالتزامات الأخرى، وكما هو معلوم، كانت المهمة الأساسية للروابط الخيرية في العصور الوسطى وعصر النهضة تحسين ممارسة التدين بين أعضائها. وسعيًا لتحقيق هذه الغاية، وبالتوافق مع القواعد المرعية فيها، فإنها كانت تتولى التخفيف عن المحكوم عليهم بالإعدام في ساعاتهم الأخيرة. كذلك كانت بعض الروابط تلتزم بعلاج المرضى. وفي حالات بعينها، كما حدث مع هذه الرابطة وغيرها، مثل رابطة المأوى والإحسان التي نشير إليها، كانت تدير المستشفيات حيث كانوا يمارسون أعمالهم الخيرية على المرضى[25].

المستشفى الملكي، غرناطة

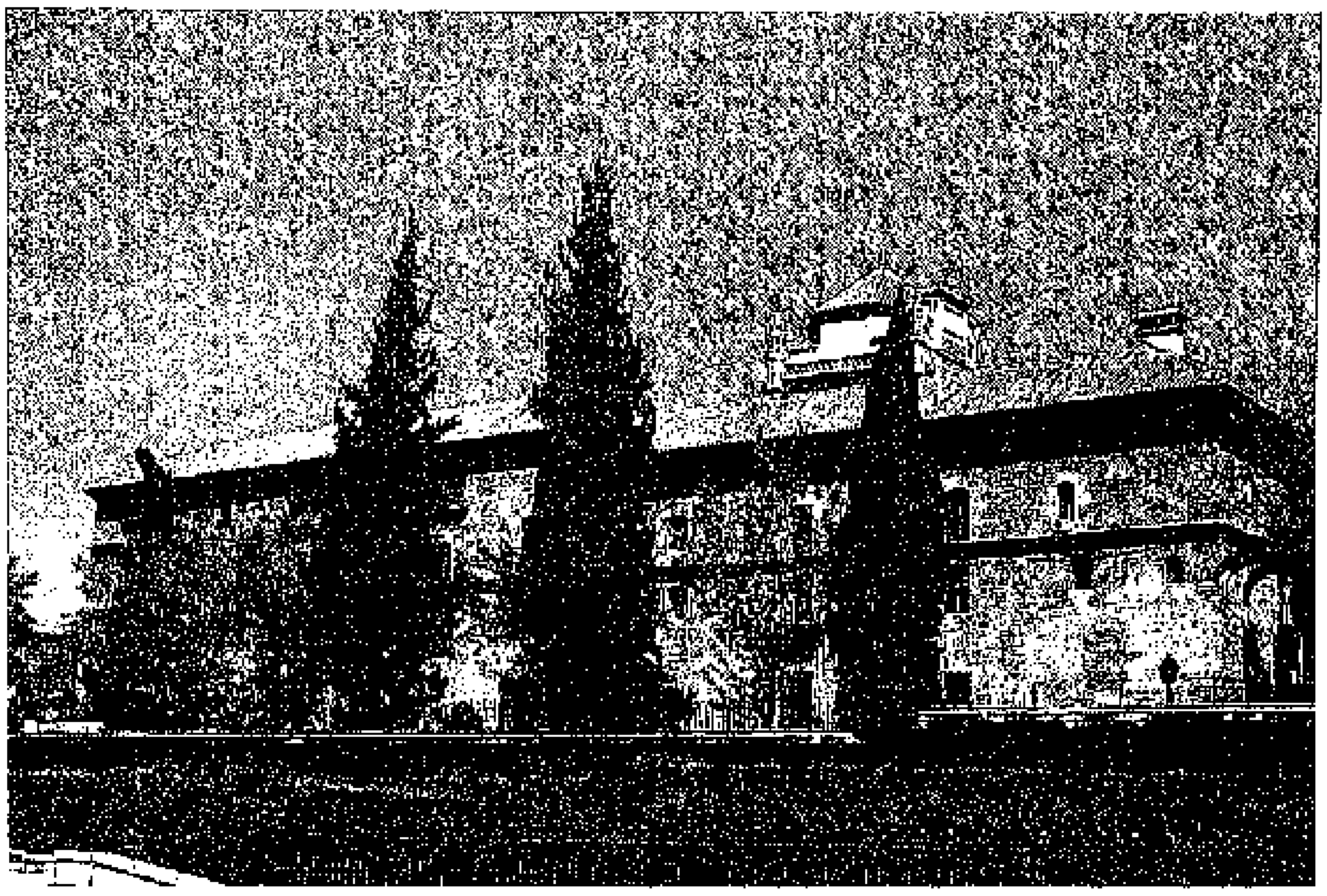

ولسنا نعرف بالضبط متى بدأ بناء مستشفى القيامة Hospital de la Resurrecion أو ربما أعيد بناؤه فوق مبنى موجود بالفعل، ولكن الـ Cofradia de los Mariscos أعطاه دفعة جديدة حوالي سنة 1559 عن طريق الوصايا والهبات. وبعد ذلك الوقت كانت هناك وصايا أخرى تتدفق وتغدق الهبات على المستشفى، سواء نقدًا أو نوعًا. وعلى أية حال، ليس هناك أي ذكر آخر للعمل في المبنى، وهو ما يجعلنا نفترض أنه كان قد انتهى بالفعل[26].

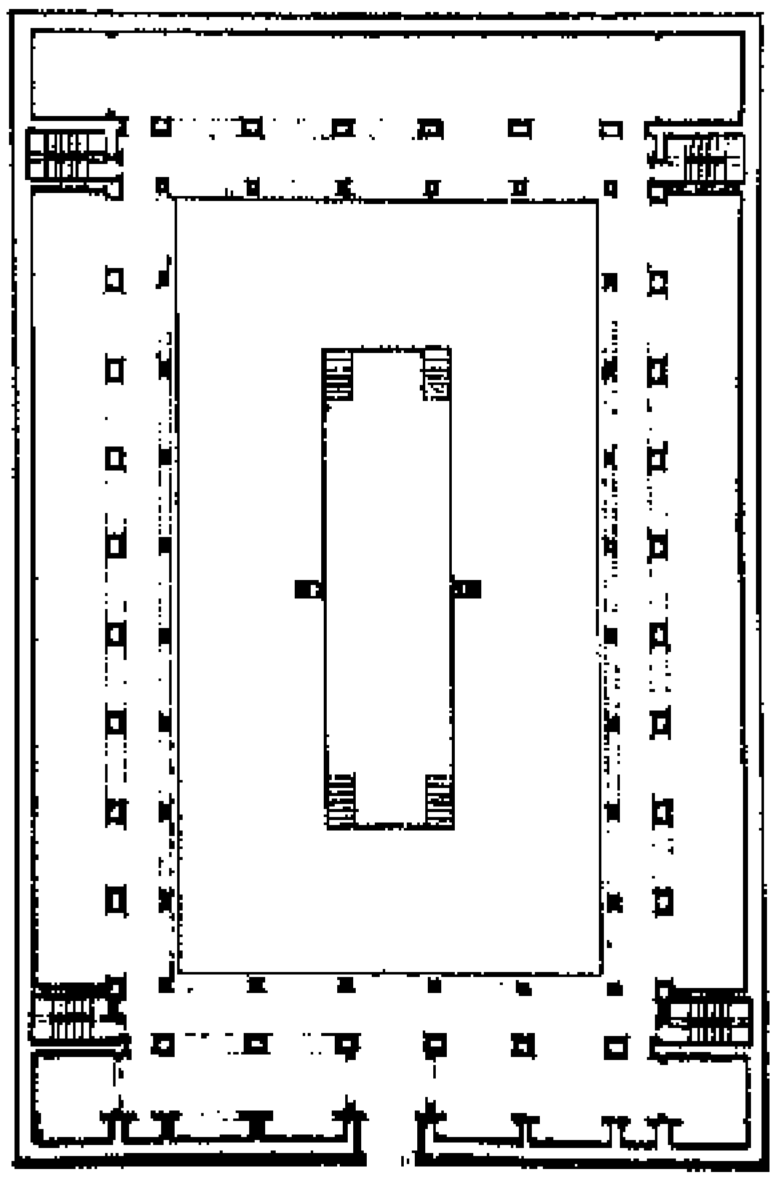

تخطيط بيمارستان غرناطة وفقًا لفرانسيسكو هنريكيس من جوركويرا، منتصف القرن السابع عشر.

ويمدنا ف. هنريكيز دي خوركويرا F. Henriquez de Jorquera بالمعلومات الخاصة بأنواع المرضى الذين كان يتم إدخالهم كما يشير إلى أن الموقف المالي للمركز كان قويًا، وهي ظروف غير معتادة بين المؤسسات المماثلة في ذلك الوقت: "... إن المستشفى العام للموريسكيين يديره أناس من بني جلدتهم حيث يعالجون جميع أنواع المرض بفضل العوائد الكبيرة المتوفرة بأيديهم ..."[27]. ومثل مباني موريسكية أخرى عديدة، انتقل المستشفى إلى التاج بعد سنة 1571؛ وفي سنة 1603 سلمه فيليب الثالث إلى نبيل غرناطي حوله إلى دير للرهبان الأوغسطينيين الحفاة. واستمر الدير باقيًا حتى وصول القوات الفرنسية إلى غرناطة سنة 1810، حيث شاركوا في دماره النهائي[28].

وفي مناسبة معينة قيل أن ما يسمى مستشفى Hospital de la Tina أيضا يرجع إلى عصر مملكة بني نصر، على أساس أنه كان قد تم تشييده في مبنى من ذلك الزمان كان على صلة وطيدة بالسلاطين. ولم يكن هذا هو الحال فعلاً، لأن المستشفى لم يبدأ العمل حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر عندما قام مالك المبنى د. خوزيه دي لا كالي D. José de la Calley Heredia بتحويله إلى ملجأ للمرضى المصابين "بالأمراض ذات المظهر المرعب" وصار مؤسسة مكرسة فقط لأولئك الذين يعانون من المرض الجلدي الذي يسمى "القوباء الحلقية" المعدي[29].

وبعيدًا عن تلك المستشفيات المذكورة اعتمدت المدينة أيضا على مؤسسات علاجية أخرى[30]. فقد تم افتتاح أول مستشفى في غرناطة المسيحية بطلب من الملكين الكاثوليكيين بعد الاستيلاء على المدينة بوقت قصير. وأطلق عليه اسم "مستشفى الحمراء الملكي"، حيث كان مكانه في قصر الحمراء، وكان يتكون من عدة منازل قليلة بالقرب من دير سان فرانسيسكو الذي كان يوفر الإقامة والإعاشة لاثني عشر شخصًا[31]. وكانت له مهمة مزدوجة، ملجأ ومكان لعلاج ونقاهة الجنود بشكل خاص. ولاشك في أن هذا كان إجراء مؤقتًا عندما نضع في اعتبارنا تأسيس المستشفى الملكي الكبير في غرناطة. وأولى الوثائق بهذا الخصوص كانت موقعة سنة 1504 [32]. وعندما سمحت أحوال العمل في المستشفى الملكية عام 1526، تم إغلاق مستشفى الحمراء وانتقل مرضاه إلى المبنى الجديد. وبعد هذا الوقت، صار المستشفى الذي أسسه الملكين الكاثوليكيين أحد أهم

25 R. Zayas Fernandez de Cordoba Montero, la ilustre y muy venerable Hermandad y hospital de la caridad y el refugio de Granada, Granada, 1994.

26 A. Garcia Pedraza, Actitudes ante la muerte en la Granada del siglo XVI. Los moriscos que quisieron salvarse, 2 vols., Granada, 2002, II, 897.

27 F. Henríquez de Jonquera, Anales de Granada, 2 vols Granada, 1987, 1, 257.

28 M. Gómez-Moreno, Guía de Granada, 2 vols, Granada, I, 434.

29 Garcia Granados, Girón, Salvatierra, Maristan, p. 89.

المؤسسات في المدينة يسمح بدخول المرضى والفقراء والحجاج كما استخدم أيضا مستشفى للأمراض العقلية. وتصادف مع عملية البناء أن شهدت غرناطة تكاثر هذا النوع من المؤسسة بفضل المقاصد المخلصة للمواطنين الأثرياء، بطلب من الكنيسة أو بمبادرات من التاج نفسه. وإلى جانب المستشفيات التي ذكرناها فعلاً (أي المستشفى الملكي ومستشفى الموريسكيين)، لدينا مستشفى الحجاج Hospital de Peregrinos، الذي تأسس سنة 1501 على يد خوان مونوز دي سالازار Juan Munos de Salazar؛ ومستشفى علاج وملجأ باسم Coridad y Refugio، الذي أسسته نقابة من القساوسة والمدنيين في سنة 1513؛ ومستشفى سان لازارو على ضفاف نهر شنيل بالقرب من المدرسة القائمة اليوم تحت إدارة الرهبان المدرسيين Escolapios[33]؛ وقد بُني سنة 1515 بناء على طلب ملكي لإيواء المجذومين ولكي يحل محل مستشفى الموريسكيين؛ ومستشفى كبير الأساقفة Hospital del Arzobispo، والمعروف أيضا باسم المستشفى الكبير للتجسد، أو مستشفى سانتا آنا؛ وقد تأسس سنة 1515 على يد فراي هرناندو دي طلبيرة Fray Hermando de Talavera بمساندة ملكية؛ ومستشفى النقاهة الذي يُعرف كذلك باسم مستشفى أم الرب Hospital de la Madre de Dios، والذي يعود تاريخه إلى سنة 1520، وكان يديره كبير أساقفة المدينة، ثم المجلس المسيحي المعروف باسم Corpus Christi منذ سنة 1527.

مستشفى سان خوان دي ديوس، غرناطة.

بعد ذلك ببضع سنوات دخلت القائمة ستة مستشفيات جديدة. وكانت هذه هي مستشفى سان خوان دي ديوس، الذي تم بناؤه بمبادرة شخصية من هذا القديس نفسه، وكان له موقعان مختلفان فيما بين سنة 1537 وسنة 1552 هما (Calle Lucena, Cuesta de Gomeréz) قبل أن ينتقل بصفة نهائية إلى موقعه الحالي؛ ومستشفى الرحمة الميزيريكورديا Misericordia تأسس سنة 1549 على يد دباز سانشيز دي دافيلا؛ ومستشفى لاسيدا Arte de la Seda منذ سنة 1550 الذي كانت تموله نقابة تجار الحرير، ومستشفى سان سباستيان: منذ السنة نفسها، وقد أسسه بيدرو فرنانديز آرجاندا؛ وفي سنة 1557 بنى مستشفى سيدتنا أم الرب Nuestra Senora la Madre de Dios de la Piedad والمعروف شعبيًا باسم مستشفى نافاس Hospital de Navas[34]، تكريمًا لمؤسسها فرانسيسكو دي نافاس والذي يخبرنا خوركويرا عنه أنه:

"es combalecencia de hospitalidad de Senor Sancta Ana"[35]، وأخيرًا لدينا مستشفى سانتا كروز "الصليب المقدس" Santa Cruz، الذي أنشأه أندريه راميريز دي الأركون André Ranirez de Alarcon، وتاريخ بنائه غير مؤكد على الرغم من أننا نعرف أنه كان يعمل في سنة 1563.

وعلى مرّ السنين اختفت بعض المستشفيات، وبعد سنة 1753، أدمجت المستشفيات الباقية فيما يسمى Real Hospicio أو Hospicio de Granada التي أنشأها ماركيز دي لا انساندا. وهنا تم تجميع الكثير من المؤسسات الخيرية في غرناطة وولايتها معا، على الأقل فيما يتعلق بموقفها المالي، في محاولة لتحسين إدارتها وتحقيق المزيد من السيطرة المباشرة للدولة.

وفيما يتعلق بالمرضى الذين كانوا يرتادون هذه المستشفيات وأولئك الذين كانوا يعالجون مرضاهم في المنزل أو في الشارع، فإن الإشارات المتكررة الموجودة بالوثائق المعاصرة لتلك الفترة إلى المجذومين وأولئك الذين أصابهم الوباء تعطينا فكرة عن الأمراض الرئيسية التي كانت سائدة في القرن؛ وهي كارثة الزمان، الوباء أو الطاعون وأورامه المرعبة، والأمراض الجلدية، التي كانت تجتمع كلها تحت عنوان رئيسي هو الجذام.

30 C. Álvarez de Morales, "industriay y sanidad en la Grarada morisca. El Molino papelero de Francisco de Padilla", Qurtuba, 4 (1999), 7-44 .

31 C. Félez Lubeiza, El Hospital Real de Granada los comienzos de la arquitectura publica, Granada , 1979 , p. 67.

32 .Id., p. 68

33 R. López Guzmán , Tradicion y clasicismo en la Granada del XVI. Arquitectura civil y urbanismo, Granada, 1987, pp. 616-619.

34 للمزيد من المعلومات عن هذه المستشفى، انظر: M. Jiménez Alarcon and C. Alvarez de Morales, "la Huerta del Rey Moro. Noticias de la Granada nazari a través de documentos romanceados", Revista del Centro de Estucios Historicos de Granada y su Reino, 10-11 (Second Period) (1996-97) , 128 .

35 . Enríquez de Jonquera Anales, I, 259

ابن خلدون والولادة البشرية

فرانسيسكو سانشيز جاريدو
جامعة مالقة
ترجمة إبراهيم سعيد فهيم

إذا نظرنا إلى الأبحاث الوفيرة المتعلقة بابن خلدون وعمله، فإننا سوف نلاحظ أوجهًا عديدة قد درست تتصل بالفصول الاستثنائية والقضايا والأفكار التي فسرها العالم في مقدمته. ويقدم فابيان استابيه عرضًا مفيدًا لهذا البحث في محاضرته للدخول إلى الأكاديمية الملكية للعلوم والآداب في برشلونة[1]، التي تضمنت قائمتين ببلوغرافيتين لدبليو ج. فيشيل (ص 141 – 151)، كما يذكر مراجع جمعها بنفسه كملحق (ص 152 – 156)، حتى سنة 1993. ومن الواضح أنه توجد ببلوغرافيا أكثر بكثير عن الموضوع –كميتها دالة على أهميتها– نستطيع أن نحصل على معلومات عنها في فهارس عامة كثيرة مثل الفهرس الإسلامي، بالإضافة إلى الإمكانيات الوثائقية الهائلة المعروضة على شبكة المعلومات الدولية.

وأشير إلى هذا العدد الضخم من المنشورات عن ابن خلدون لأنني خلال مرحلة التوثيق لم أجد أية دراسة مكرسة للفقرات عن علم القبالة في مقدمته، والتي سأتناولها أدناه.

ولكوني متخصصًا في أمراض النساء، فقد ملأني قراءة فصل ابن خلدون عن القبالة بنفس الاندهاش الذي خبره المهنيون الآخرون في مختلف المجالات، علماء، وخبراء سياسيين، وعلماء اجتماع، واقتصاديين، ومؤرخين.. إلخ. عندما وجدوا ولازالوا مستمرين في اكتشاف إفادات وأفكار في مقدمته بكيفية رائعة وحداثة استثنائية. وفي محاضرته[2] يجمع فابيان استابيه مقدارًا ضخمًا من الأمثلة المتعلقة بردود الأفعال المعجبة من مختلف الخبراء – من وجهة نظر اقتصادي بالطبع– ولكن أيضا مع حالات أكثر عمومية ودلالة مثل حالة أرنولد توينبي عندما وصف المقدمة "كفلسفة تاريخ التي هي دون شك أعظم عمل من نوعه لم يبدع مثيلا له أبدا بواسطة أي عقل في أي زمن".

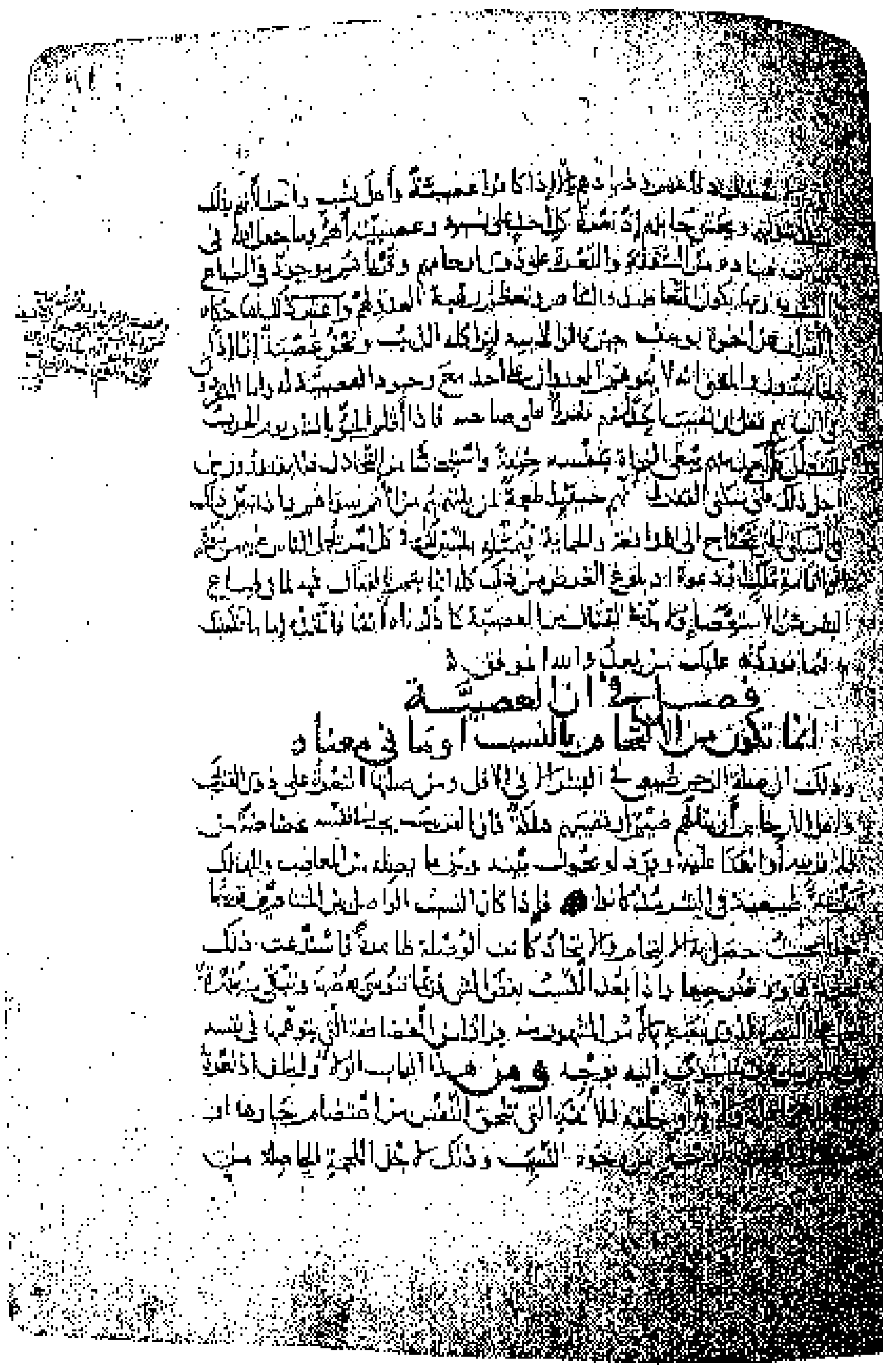

في هذا المقطع الثامن من الفصل الثاني للمقدمة يفسر ابن خلدون بأن العصبية انما تكون بترابط الانساب. المقدمة، نسخة عاطف أفندي، المكتبة السليمانية، اسطنبول.

في الصفحة المقابلة، منظر مصور لامرأة حامل في جنين والأعضاء الداخلية المتعددة، من مخطوط عربي من أواخر العصور الوسطى.

وأعتقد أن الوقت قد حان الآن، لأبدأ عرضي لفصل ابن خلدون المذكور آنفًا، مع تعليقاتي على الأمر، وأنني لسعيد للحصول على تلك الفرصة للمشاركة في إعادة ميلاد الدراسات عن ابن خلدون في مالقة بدعم من استابيه[3]، تلك الدراسات التي حدثت في كليات العلوم الإنسانية وعلم الاقتصاد.

الولادة البشرية في المقدمة

كرس الجزء الخامس من مقدمة ابن خلدون لمورد الرزق وطرق العيش والنشاطات، وفي الفصل السابع والعشرين يتناول ابن خلدون صناعة التوليد كمهنة أو مهارة مثل أية مهنة أخرى، وفي البداية سوف أقدم محتويات الترجمة الإسبانية التي قمت بها اعتمادًا على الترجمة الإنجليزية العظيمة لفرانز روزنتال "مقدمة للتاريخ"[4]، والترجمة الفرنسية لفنسنت مونتي "مقالة عن التاريخ العالمي"[5]، وترجمة عبدالسلام شدادي "كتاب العبر، التعريف،

1 Ibn Jaldun O el prescursor, 1993
2 خاصة ص 11-14 و 18-20
3 ص 105-107 و 135.
4 New York, 1958, reprinted in Princton 1972,3 vols.

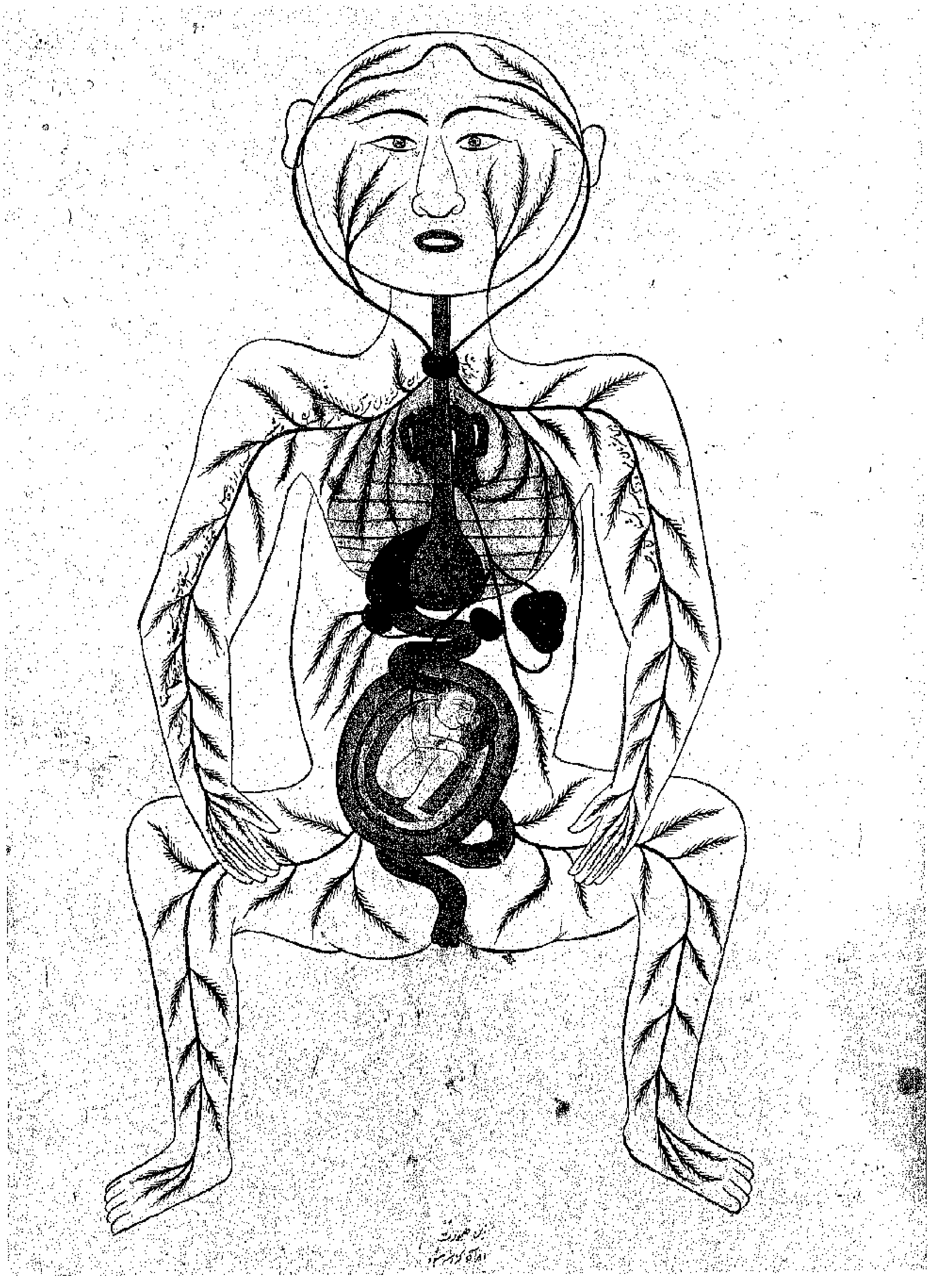

المقدمة"[6]، ولقد وجد ثغرات في ترجمة خوان فيريس "مقدمة في التاريخ العالمي"[7]، فضلا في ذلك أخذت في الحسبان النص العربي المنشور في بيروت بواسطة ج. شحادة وسهيل زكار[8]، بمعاونة أ. م. دلالي، وهدفي هو تقديم ترجمة أمينة ومتخصصة للفصل المشوق لابن خلدون:

"وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه من الرفق في إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك، ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر، وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض، وتسمى القائمة على ذلك منهن "القابلة"؛ من الإعطاء والقبول كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله".

وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ إلى غايته والمدة التي قدّر الله لمكثه، وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك، ويضيق عليه المنفذ فيعسر، وربما مزّق بعض جوانب الفرج بالضغط، وربما تقطّع بعض ما كان في الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم، وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع، وهو معنى الطلْق، فتكون القابلة معينة في ذلك بعض الشيء بغمز الظهر والوركين وما يحاذي الرحم من الأسافل تساوي بذلك فعل الدافعة في إخراج الجنين، وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها، وعلى ما تهتدي إلى معرفة عسره؛ ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بأمعائه، وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة، فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر ببطنه ولا برحم أمه، ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكي أو بما تراه من وجوه الاندمال.

صورة طفل مولود من مخطوط مصور بعنوان مقامات، المكتبة الوطنية– باريس.

ثم إن الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق، وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء، فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد، فتتناوله القابلة بالغمز والإصلاح، حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعي ووضعه المقدر له، ويرتد خلْقه سويًّا.

ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين، لأنها ربما تتأخر عن خروجه قبلاً ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية وهي فضلات فتتعفن ويسري عفنها إلى الرحم فيقع الهلاك، فتحاذر القابلة هذا وتحاول في إعانة الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية إن كانت قد تأخرت، ثم ترجع إلى المولود فتمرّخ أعضاءه بالأدهان والذرورات القابضة لتشده، وتجفف رطوبات الرحم وتحنّكه لرفع لهاته وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السُدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق.

ثم تداوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق، وما لحق رحمها من ألم الانفصال، إذ المولود إن يكن عضواً طبيعياً فحالة التكوين في الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل، فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع، وتداوى مع ذلك ما يلحق بالفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج.

هذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها، وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفصال نجدهن أبصر بها من الطبيب

5 Beirut, 1967-1968, reprinted in Paris, 1997, 3 vols

6 Paris, 2002.

7 Mexico, 1977, reprinted in 1987.

8 Kitab al-Ibar, Vol. 1: al-Muqaddima, Beirut, 1981, reprinted in 1988

الماهر، وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن إنساني بالقوة فقط، فإذا جاوز الفصال صار بدناً إنسانياً بالفعل، فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب أشد؛ فهذه الصناعة - كما تراه - ضرورية في العمران للنوع الإنساني لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها.

وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة: إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقاً للعادة كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، أو بإلهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة.

أما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيراً، ومنه ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد مسروراً مختوناً واضعاً يديه على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء، وكذلك شأن عيسى في المهد وغير ذلك.

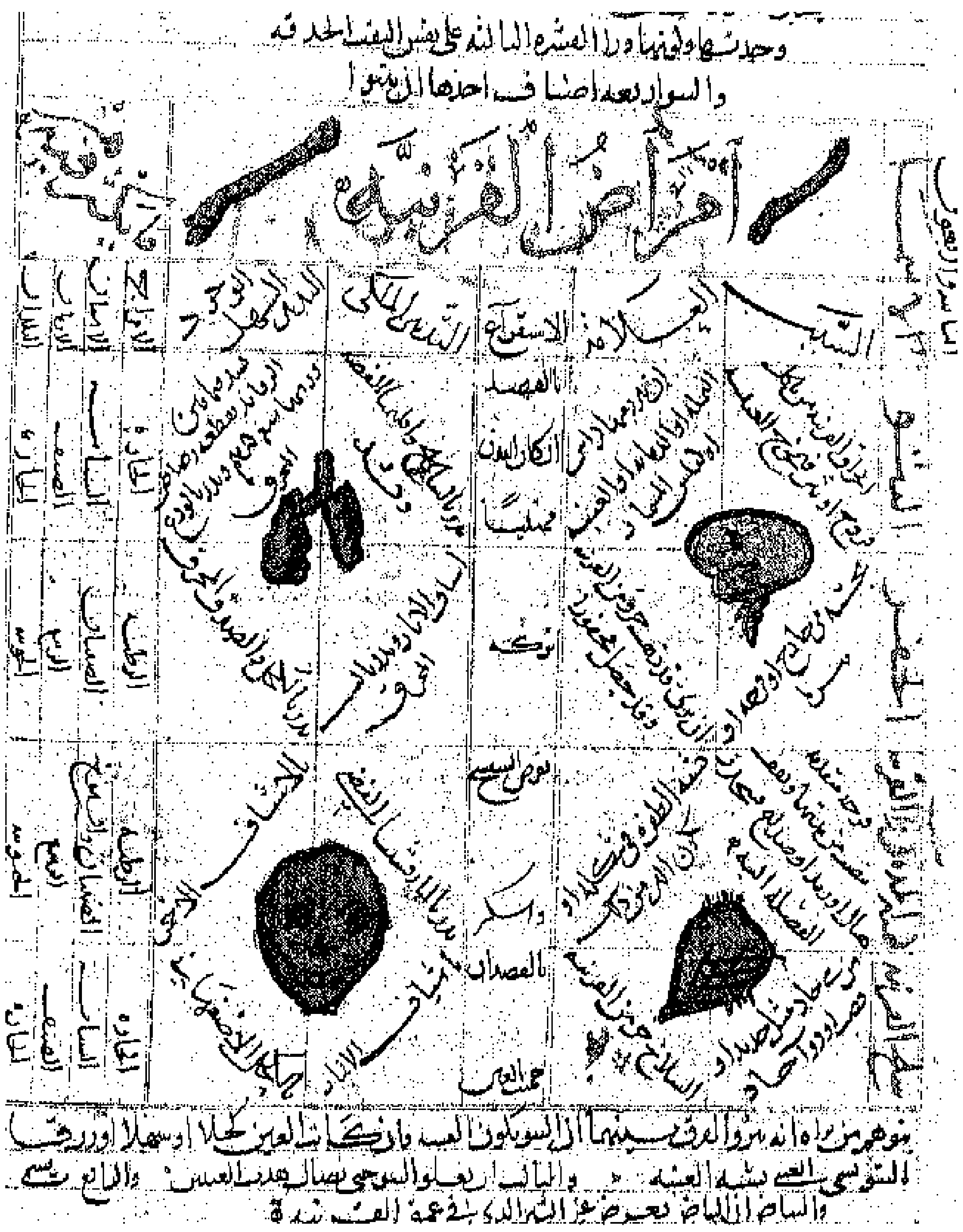

صفحة من مخطوط مصور لكتاب القانون في الطب لابن سينا، القرن الرابع عشر، المتحف الوطني- دمشق.

وأما شأن الإلهام فلا ينكر: وإذا كانت الحيوانات العُجْم تختص بغرائب من الإلهامات كالنحل وغيرها، فما ظنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصاً بمن اختص بكرامة الله، ثم الإلهام العام للمولودين في الإقبال على الثدي أوضح شاهد على وجود الإلهام العام لهم، فشأن العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به.

ومن هنا يفهم بطلان رأي الفارابي وحكام الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنواع واستحالة انقطاع المكونات -وخصوصاً في النوع الإنساني- وقالوا: لو انقطعت أشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك، لتوقفه على هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها، إذ لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفصال لم يتم بقاؤه أصلاً.

ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لأنها ثمرته وتابعة له، وقد تكلّف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه، وذهابه إلى مكان انقطاع الأنواع وخراب عالم التكوين، ثم عوده ثانياً لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تدر في الأحقاب بزعمه، فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إنساناً، ثم يقيض له حيوان يخلق فيه إلهام لتربيته والحنو عليه، إلى أن يتم وجوده وفصاله، وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة "حي بن يقظان"،

وهذا الاستدلال غير صحيح وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع ، ولكن من غير ما استدل به، فإن دليله مبني على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة، ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة، ولا حاجة إلى هذا التكلف.

ثم لو سلمنا جدلاً فغاية ما ينبني عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الأعجم، وما الضرورة الداعية لذلك؟ وإذا كان الإلهام يخلق في الحيوان الأعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولاً؟ وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره، فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما لما قررته له، والله أعلم".[9]

التعليقات

ربما يبدو مفاجئًا أن ابن خلدون يعالج مسألة قد اعتبرت أمرًا صغيرًا في عمل عن التاريخ العالمي وبخاصة في مقدمته وخصوصًا إذا أخذنا بعين الاعتبار "الافتقار العام للاهتمام بالطفولة الظاهر في المصادر العامة – باستثناء في النصوص الطبية–[10] وربما أيضا نحو مهارة تمارس بشكل رئيسي بواسطة النساء في العصور الوسطى مثل علم القبالة. ومع ذلك، فهي مبررة باختبار شديد الدقة أجراه ابن خلدون يتعلق بالمجتمعات المتحضرة (العمران)، والذي قاده لدراسة كل معارفها وممارساتها المميزة، بما فيها علم القبالة، ولقد ألصق أهمية عظمى بعلم القبالة ووصفه بأنها "مهارة ضرورية للكائنات البشرية".

وفي الجزء الأول من فصله، يشدد ابن خلدون إلى أى مدى تكون جوهرية هذه المساعدة (تبعًا لتسلسل الأفكار المقبولة الموجودة في علم القبالة العربي) والتي نجد عنها دراسات هامة في أ. كانو "Reflexione's Sobre pediatíay ginecología en la medicina árabo- islámica"[11]، وداجورت "al–Baladi, un médecin obstetricien et pédiatre a l'époque des premiers Fatimides du Caire"[12]، و م. أولمان "Die arabischen Überlieferung der hippokratischen schrift de Superfetatione"[13]، ود. إرمير "Zur arabischen Überlieferung Von de Superfetationes"[14]، وفي نطاق متصل: س. إيلجود [15]"Persian gynaecology"، وفي مقالتي المتعلقة بأدوات التوليد[16]، علاوة على ذلك يحسن ابن خلدون ويثري صورة الرمز الروماني (من فعل obstrare بمعنى يكون حاضر)، أعني الشخص الذي يساعد في الولادة، وينصح ابن خلدون أيضا بحاجة المرأة المسئولة للتدريب: يجب أن تنفخ في فتحتي أنف الطفل من أجل إزالة الإفرازات من المجاري الهوائية، وتنشيط لهاة الحلق لتسهيل قدرات التنفس، ومساعدة المرأة التي لديها انقباضات والحث للإخراج الكامل للمشيمة والأغشية الجنينية. ويؤكد ابن خدون على العلاقة بين احتباس المشيمة "كليًا أو جزئيًا" وتعفن الأجزاء المحتبسة والموت اللاحق.

وهناك مساهمة قيمة في حقل طب الأطفال، وهي أيضا موجودة في عمل ابن خلدون عندما يتحدث عن رسائل أطفال متعلمين ذاتيا (مثل رسالة ابن سينا عن حي بن يقظان)، وأيضا دور ابن طفيل الطبيب المغربي في اكتشاف الطفولة في إنجلترا في القرن السابع عشر، وفي سجلات في دقائق من المؤتمر الهام للغاية في الشأن المتناول، "رعاية الطفل عبر التاريخ: مسح تاريخي من الأوراق المقدّمة في المؤتمر البريطاني العاشر في تاريخ الطب" الذي نشره ج. كول وت. تيرنر[17].

9 Koran, 4, 86, 9, 81.

10 C.Alvarez De Morales, "Elnino enfermo en los textos medicos andalusies", Dynamis, 4 (1984), 264-276.

11 Arbor,1992,19 page

12 Melanges de l Institut d Etudes Orientales, 9(1967),73-118.

13 Sudhoffs Archiv, 58 (1974), 254-275.

14 Sudhoffs Archiv, 63 1979 1-24

15 Medical History, 12 (1968), 408-412

16 F. Sanchez Garrido, "El Legado medico arabe: el forceps", El legado Andalusi, VI, no.23 (2005), 78-83

17 Cardiff, 1986, 166-177

طبيب ينجز عملية ولادة قيصرية، منمنمة فارسية من القرن الثامن عشر.

في الجزء الأخير من فصله يربط ابن خلدون بمهارة بين ضرورة وجود مساعدة أثناء عملية التوليد وبين تنمية النظريات الوجودية التي انتشرت بين الفلاسفة العرب، ونستطيع أن نلاحظ بعض الذكريات عن الوجودية في هذه النظريات، وتلك التي تتعلق بابن خلدون درست بواسطة خوان فيرنت جينيس في كتابه "Las Obras Biologicas de Aristotalel en Arab: El Evolucionsmo de Ibn Jaldun" [18]. إنه حقا العمق في المعلومات الذي حققه ابن خلدون عندما حلل ممارسات القبالة التي تضيف أبعادًا خاصة لهذا العمل لم تصلها الكتابات الطبية والمعيارية، ويمكن ملاحظة ذلك بقراءة الكتابات المعتادة عن علم القبالة العربي لعريب بن سعيد القرطبي "من القرن العاشر" [19] وهي من جوانب فنية ومشوقة تماما والتي لا تعالج الاعتبارات الوجودية والطبيعية التي تثري وتعلي فضل ابن خلدون، الذي أكد العلاج الطبي الاجتماعي له د. ف. سابا ردي في دراسته المعروفة "علم الاجتماع للطب في مقدمة ابن خلدون" [20].

وحتى أكثر مما ظهر حتى الآن، فإن تاريخ طب النساء وعلم القبالة يجب أن يجمع ويحلل وثائق التاريخ القديم والعصور الوسطى التي تسبق الوثائق الحديثة والمعاصرة العالية الأهمية، ليس فقط للمعلومات التاريخية، ولكن أيضا لمعرفة أفكار وعقليات وانتقال العلوم.

18 Actas de las II Jornadas de cultura Islamica, Madrid, 1985, reproducec in his De Abd al Rahman . a .sbel II, Barcelona, 1989, 237-242

19 El Libro de la generacion del feto, el tratamlento de las mujeres embarazadas y de los recien nacidos. Tratado de Obstetricia y pediatria del siglo X, de Arib ibn Said, translation and annotations by A.Arjona Castero, Cordova, 1983, 2 ed., Seville,1991.

20 Indian Journal of the History Of Medicine, IV(1959), 13-23 and V (1960),10-12.

الزراعة والطعام في القرن الرابع عشر

كارمن تريلو سان خوسيه
جامعة غرناطة
ترجمة إسحاق عبيد

الزراعة

مشكلة ندرة المصادر من المشكلات الرئيسية حول تاريخ الأندلس ندرة المصادر. ونحن هنا نشير إلى الوثائق العربية القليلة التي تعيننا على معرفة مدخلات ومخرجات الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذا المجتمع. وعلى العكس من ذلك هنالك كم وافر من المصادر الأدبية والعلمية التي تتصل بإسبانيا المسيحية. ولكن هذه المصادر المسيحية تعوزها المصداقية، ومن ثم فهي عديمة الجدوى ولا تساعد على رسم صورة صادقة عن البنية الاجتماعية – الاقتصادية لبلاد الأندلس. ومن هنا تتضح أهمية أطروحة ابن ليون من القرن الرابع عشر [1].

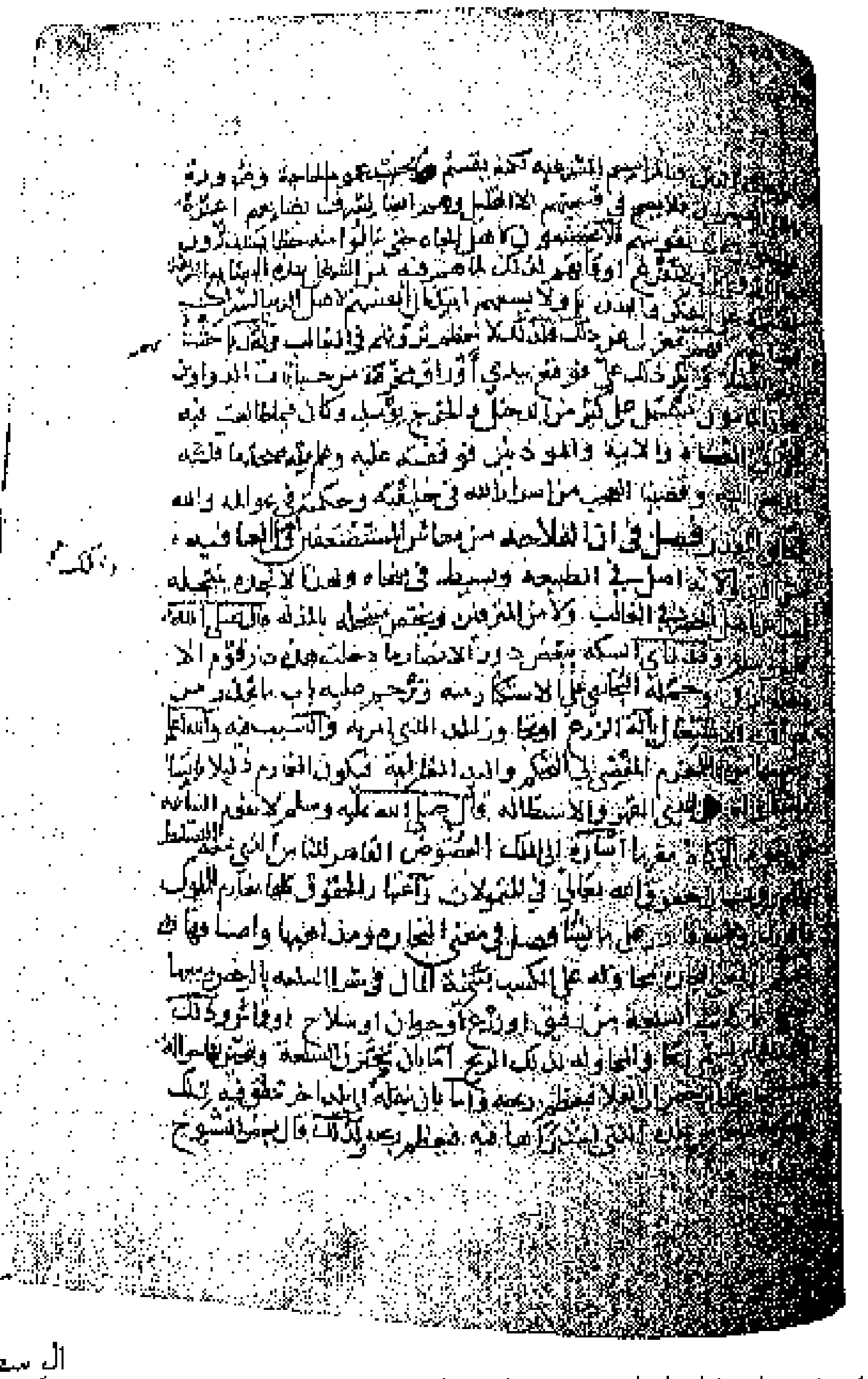

يقدم ابن خلدون في فصلين مقتضبين فوائد الزراعة والتجارة، مع إبراز لمعوقات النشاط الزراعي وأفضلية النشاط التجاري عليه.

المقدمة: 1، 191أ – مخطوط عاطف أفندي، 1936، المكتب السليمانية، اسطنبول.

حول الزراعة في الأندلس في فترات تاريخية سابقة لعصره، ومقارنة بالحقب التاريخية السابقة، فإن حقبة مملكة بني نصر ذاخرة بالوثائق التي تلقي الضوء على مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية الخاصة والعامة. ويأتي في المقام الأول وثائق التراخيص الصادرة عن الديوان الملكي [2] وفي المقام الثاني نجد وثائق عربية من مدينة غرناطة، والتي قام بنشرها لويس سيكو دي لوثينا باريديس (Luis Seco de Lucena Paredes) وذلك في سنه 1961 [3]،التي تعكس العديد من الأنشطة القانونية في مجالات الشراء والبيع، وتوزيع المواريث وغيرها من القضايا في غرناطة أثناء حكم بني نصر أو بني الأحمر.

وترجع ندرة المصادر العربية إلى عدة أسباب، من بينها ما أشار إليه الأستاذ جيشارد Guichard [4] عند حديثه عن شرق الأندلس وما حل به من تدهور بعد الغزو المسيحي لتلك المنطقة.

ومن الأسباب الأخرى في هذا المقام أن الوثائق في العالم العربي كانت أحيانا تبقى في أيدي الموظفين أنفسهم الذين قاموا بكتابتها وكانت تختفي عند وفاة هؤلاء الموظفين. ويقدم نفس الكتاب (جيشارد) سببًا ثالثًا مؤداه أن الدعاوي القضائية في العالم الإسلامي بصفة عامة كانت تستند إلى المشافهة أكثر من الاعتماد على الوثائق المكتوبة. ويتفق هذا الرأي الأخير مع التفسير الذي قدمه الأستاذ مليو (Milliot) حول القوانين في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، حيث يقول بأن الوثائق المكتوبة لم تكن بالأمر الجوهري لتكسب قضية من القضايا شرعيتها القانونية [5].

يضاف إلى هذه الأسباب افتراض مؤداه أن وجود الإجراءات القانونية وتوثيقها لحماية أملاك العائلات كان يمثل عائقًا إذا ما ألحت الضرورة على نقل هذه الأملاك إلى غرباء [6]. ويتضمن هذا قضايا من قبيل حق الشفعة، وإسقاط حق الشفعة، والصفات التجارية المردودة، "وحبوس الأهل" أو تبرعات العائلات، والمهور التي لا توفى لأصحابها وغيرها من المعاملات المجتمعية والاقتصادية.

ولا يعني وجود هذه الفعاليات في المعاملات في بلاد الأندلس لأنها كانت تلقى تطبيقًا ناجحًا وفعالاً، خاصة مع وجود فعاليات نشطة في الاتجاه المعاكس تمامًا. وعليه يمكن القول بأن الدولة من جانبها وبقدر ما تحظى به من السيطرة على الأراضي، إلى جانب التطورات التي حلت بشكل متباين على الصعيد الحضري– الاجتماعي– الاقتصادي، كل هذا قد ساهم في خلخلة قواعد البنية الحاكمة وآلياتها الدفاعية. ولما كنا نعلم أن مملكة بني نصر لم تكن تملك منظومة اجتماعية تظل الروابط العائلية، اللهم إلا في بعض الاستثناءات القليلة، فلنا الآن نستخلص أن هذه المملكة وهي تسعى حثيثًا للتوسع العمراني الحضري قد ابتليت بتهديد مسيحي متزايد، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انهيار مؤسسات هذه المملكة، على أنه رغم ذلك قد شهدت تلك الحقبة قيام بعض المجتمعات

1 Ibn Lyun. Tratado de Agricultura. ed. And trans. Joaquina Eguaras Ibañez. Granada. 1988.

2 Carmen Barceló and Ana Labarta. "Los documentos árabes del reino de Granada. Bibliografía y perspectives". Cuadernos de la Alhambra. 26 (1990). 13 – 19; Ma Jesus viguera Molins "Sobre documentos árabes granadinos". in Celia del Moral (ed.). Encl epilogo de Islam andalusi: la Granada del siglo xv. Granada. 2002. pp.117-138.

3 Luis Seco de Lucena Paredes. Documentos arabigo – granadinos. Madrid. 1961.

4 Pierre Guichard. Al-Andalus frente a la conquisdta cristiana. Valencia. 2001. pp. 26– 30.

المتماسكة التي صارت تملك درجة من الاستقلال الذاتي، وذلك في جانب تدبير وإدارة مصادرها الطبيعية.

المزرعة وأراضيها

كان الاستيطان في بلاد الأندلس يتم وفق نمط من توزع الأراضي التي تضم كل رقعة منها عدداً من الرقع الأصغر مساحة، وكان لكل من هذه الأخيرة وضعها القانوني والاقتصادي الخاص، وذلك لإشباع احتياجات سكان هذه المجتمعات. وطبقا لحجة القاضي الحنفي المذهب الخشني في القرن 12، فإن الأراضي كانت مقسمة إلى أراض "مملوكة" وأخرى "مباحة" وهذه الأخيرة كانت "مشاع" وأراض "موات". ومن الجدير بالملاحظة أن هذه التقسيمات القانونية تتساوى مع ما كان سائداً في المزارع في عصر مملكة بني نصر، وذلك على ضوء ما كشفت عنه الوثائق التي ظهرت في أعقاب الغزو على يد ملوك قشتالة. وعلى هذا فإنه كان هنالك ثلاثة أنواع من الأراضي الملكية الخاصة، وأراض مباحة للجميع، ثم "احتياط" لصالح الجماعة ككل وأحيانًا تخصص قطع منها لأفراد بعينهم.

مزرعة قطار (Cutar) العربية في منطقة أكسارقويا Axarquia بمالقة.

مزرعة مكينا بامبارون في منطقة البشرات.

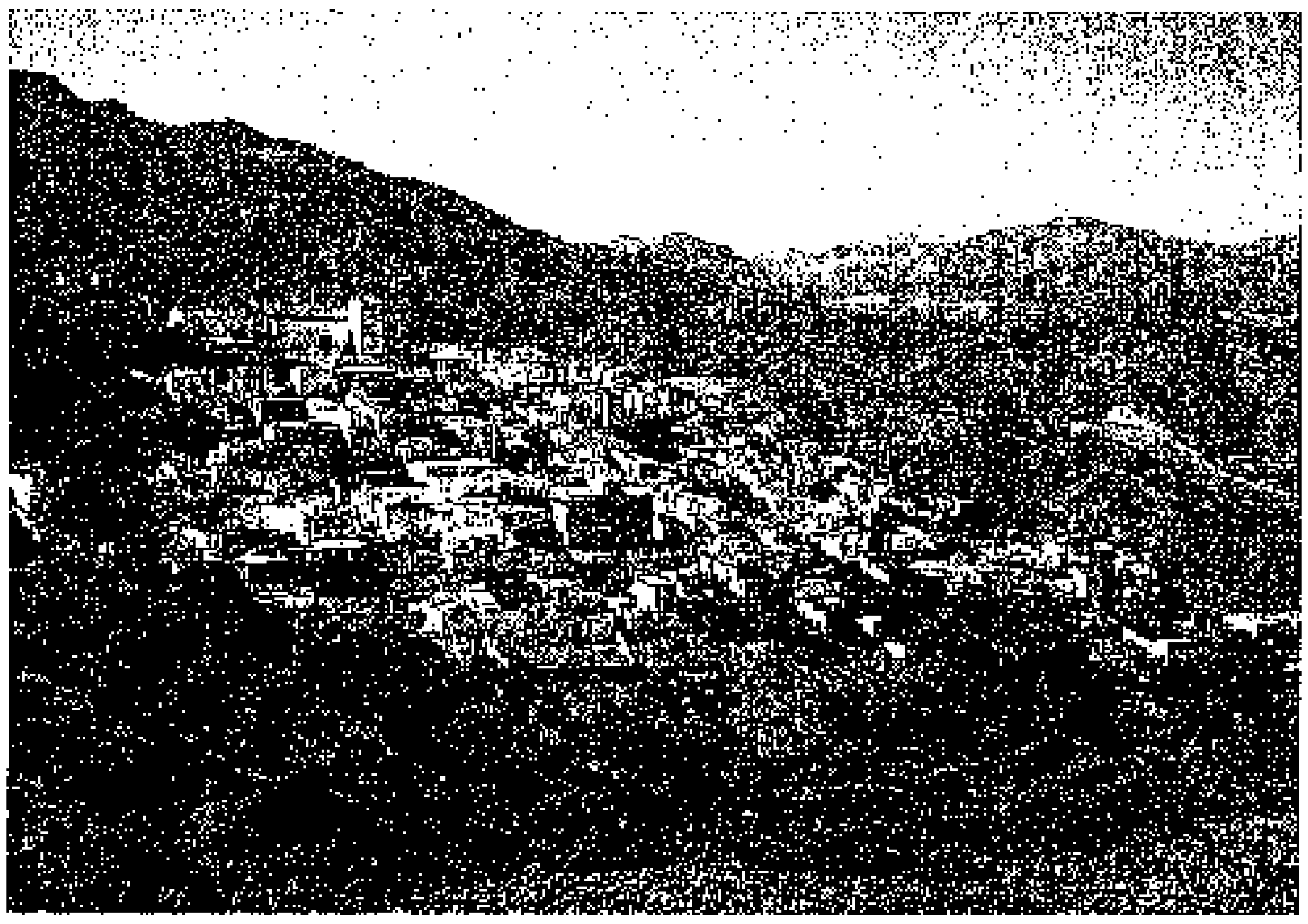

والواقع أن تلك الأراضي "المباحة" كانت بمثابة حدود الضيعة أو المزرعة، وكانت أراضي زرع وصيد، كما كانت تعمر بأشجار الفواكه، والأخشاب اللازمة للوقود، والفحم وما شابه ذلك. وتدل الكلمة "مباحة" وحتى من نفس جذور كلمة "مباح"، على أن هذه الأرض كانت محرمة على الأغراب. ورغم هذه الصلة اللغوية في جذور الكلمة، إلا أن هذه الأرض قد ظلت مفتوحة أمام أهل تلك النواحي، وهذا ما نعلمه من واقع النصوص التي ترجع إلى عصر السيطرة المسيحية على المنطقة في إشاراتها إلى عصر مملكة بني نصر. وهذه المرونة في استخدامها هذه الأراضي لم تحل دون تحديد كل جماعة لحدود أراضيها. وبالمثل، فإن هذا الوضع لم يمنع السلطات المشرفة على قلاع المنطقة من أن تفرض ضريبة (تعرف باسم: تلبيشي) على القطعان الغريبة الوافدة من مسافة مسيرة يوم كامل لترعى في هذه الأراضي.

وإلى جانب أرض "المباح" تلك، كانت هناك أراض تعرف باسم أرض الموات، وكانت تخص المجتمع المسلم والتي صارت من حقهم في الحيازة بحكم معيشتهم عليها. ولم تكن هذه الأراضي "الموات" ملكاً للدولة، ولذا نجد أن الفقهاء من أتباع مذهب مالك أسقطوا فكرة العيش على هذه الأراضي لكي يجنبوها من احتكار البعض لها بوضع اليد.

وطبقًا لعدة قرائن على لسان بعض "الموريسكيين" (Moriscoes) من مناطق مختلفة مثل: مونفس، وكوزنيز في مالقة، والقلعة الحرة، وجواجارا العليا Güajar، نستنتج أنه كان بإمكان أي مواطن مسلم أن يمتلك قطعة من هذه الأراضي، بشرط أن يكون قد أقام عليها لمدة تربو على الثلاث سنوات. على أن فكرة الملكية الخاصة المطلقة لهذه الأراضي من قبل الأفراد لم تكن واردة، وذلك لأنها كانت تتبع المجتمع الإسلامي برمته، ولم يكن مسموحًا بحال أن تطرح للبيع لأي طرف آخر وكانت هذه الأرض "الموات" في أغلب الأحيان مقطوعة عن الري، وإن كان بعضها قد تحول بطريقة أو بأخرى إلى أرض مروية. وقد اختلف العائد الاقتصادي لهذه الأراضي تبعًا لموقعها: فالبعض كان يقع على مشارف مناطق ريفية زراعية بعيدًا عن طرق التجارة، والبعض الآخر على مشارف المدن. وفي الحالة الأولى كانت تحول هذه الأراضي إلى أرض احتياط للتوسع في النشاط الزراعي وإنتاج محاصيل الحبوب وقت الحاجة. وفي الحالة الثانية كانت تخصص تلك الأراضي

5 Louis Milliot. Introduction á l'étude du droit musulman. Paris. 1953. p. 641.

6 Crmen Trillo San José. Agua. tierra y hombres en al-Andalus. La dimension agricola del mundo nazari. Granada. 2004.

لزراعة أشجار اللوز، والأعناب، والتين، كما يستفاد من حالة منطقة المنكّب وأخيرًا كانت هنالك الأراضي "المملوكة"، والتي كانت تقع بجوار المزارع الأخرى، وكانت بحكم وضعها أرضًا مروية بالماء.

أما عن المحاصيل فكانت من صنف محاصيل حوض البحر المتوسط بعد مواءمتها لظروف الصيف القائظ والشتاء المعتدل. ومن ناحية أخرى، فإن العرب في توسعهم من المشرق إلى المغرب قد جلبوا معهم أنواعًا من المحاصيل الزراعية المرتبطة بمناخ المناطق المدارية ودون المدارية، ثم طوعوها لمناخ حوض البحر المتوسط عن طريق الري الصناعي [7].

وعلى هذا فقد اتسعت رقعة الأراضي المروية مقارنة بذي قبل. ومن ناحية الجودة فلقد كانت عالية، كما أن الحصاد كان وفيرًا وهذا ما نجده في مزارع منطقة جبل شلير Sierra Nevada، حيث تركت مساحات من الأرض بغير زرع، مشاعًا للجميع للرعيان وقطعانهم.

أما فيما يخص الأراضي "المملوكة" فقد كان يحق لأصحابها توريثها لذويهم وبيعها أيضاً. وفي أغلب الحالات كانت هذه الأراضي المروية على مقربة من الريف الزراعي وكان فلاحو المزرعة كلهم يشاركون في العمل فيها. وبهذه الطريقة كان في المقدور أحيانا الاستغناء عن الأراضي التي لا ري فيها، في حين أن قطعان الماشية لم تكن تحتل أهمية كبرى في اقتصاديات هذه المزارع، ومن ثم ظلت هذه الأراضي منعزلة عن الحقول الخصبة التي تتمتع بالري.

أعلى، قناة لمياه الري في منطقة غرناطة.
أسفل، خشبة لمنطقة البشرات.

ملكية الأرض والماء

إن المعلومات المتوفرة لدينا عن إدارة مساحات الأرض والمصادر المائية في مناطق الريف زمن حكم بني نصر تشير إلى أن هذه الإدارة كانت في أيدي المجتمعات الريفية نفسها. وبعيدًا عن هذا، كان الملك يمتلك أراضي كثيرة، ومن المحتمل أيضاً أنه في بعض الأحيان كان بعض المزارعين "شركاء" مع الدولة في استغلال مصادر المياه والأرض.

وكان للمزرعة الحق في فتح أو غلق أرض "المباح" التابعة لها أمام جيرانها للرعي، دون الرجوع إلى السلطات الحاكمة، وهذا ما حدث في ضيعة لقنت El Cente سنة 1476. وبالمثل كان في مقدور فلاحي منطقة القلعة الحرة La Calahorra أن يقتطعوا لأنفسهم نزعاتهم حول مصادر المياه من خلال شهادة الشهود أو التحكم فيما بينهم وعندما يصلون إلى قرار ما، فإنهم يرفعونه إلى قاضي المدينة الذي تقع حيازاتهم ضمن سلطانه القضائي. غير أن هذا القدر من الاستقلالية عن سلطات الحكومة كان محكومًا بمقابل مالي تؤديه المدن للدولة فيما يشبه المعاملات التجارية التي كانت معروفة في العالم الإسلامي ككل.

وهذه المزارع كانت قد نشأت في الأصل على أسس عرقية، كما يتضح من مسامياتها "القرى". ومن المحتمل أيضا أن هذا النمط من الاستقرار السكاني كان يتم على أسس عرقية، من حيث التجمع السكاني أو المصادر المائية. ولقد بينت الدراسات الأنثربولوجية في مناطق جبال أطلس العليا صدق هذا التفسير على أنه من الصعوبة بمكان أن نقرر تاريخيا بأن الأرض مصدر المياه في بلاد الأندلس كان يتم توزيعها على أسس عرقية أو عشائرية. ومع ذلك، نجد أنه في عصر مملكة بني نصر قد وجدت بقايا – وإن كانت هامشية – لهذه الأسس العرقية في توزيع الأرض، بما في ذلك "حق الشفعة" في حيازة الأرض ومصادر المياه بين أفراد العائلات المختلفة جيلا بعد جيل. ومع نهايات هذه الحقبة الزمنية، بدت ملامح الحراك في هذه القرى، بحيث أصبحت التركيبة السكانية فيها غير متجانسة وبعيدة عن النسب والأعراق، فليس ثمة ما يشير في أسماء الأعلام إلى نسب قبلي أو عشائري، وإنما صارت الأسماء تعكس كنيات بعينها أو مسميات جغرافية.

وتشير ملكية الأراضي في هذه الأرياف إلى بعض الفروق القليلة في الجوانب الاجتماعية-الاقتصادية. وينطبق هذا على بعض الحالات الأخرى في مناطق البشرات La Alpujarra وسلاسل

7 A. M. Watson. Innovaciones en la agricultura en los primeros tiempos del mundo islamico. Granada. 1998.

الجبال الساحلية في ساحل وسهيل Suhayl وكذلك في منطقة طرش Torrox بأقليم مالقة. وكان تملك الأرض من مساحات صغيرة، الشراكة بين الفلاحين في الزراعة أمراً شائعاً على أن ما نجده في بقاع غرناطة، في كل من شاوشينا Chauchina والجاو El Jou يمثل استثناء يرتبط بطبيعة هذه الأراضي من ناحية، وبتبدل الأحوال بعد بيع هذه الأراضي لكبير القضاة المسيحي في هذه الناحية سنه 1492. وتشير هذه التركيبة الجديدة إلى سيادة طبقة اجتماعية بعينها على الأرض تحت مظلة سلطات الدولة. ولذا نجد أن موظفي الحكومة في تلك المناطق كانوا يهيمنون على 20% من مساحة الأراضي التي تصلها مياه الري.

منمنمة من مخطوط عربي تبرز نشاط الفلاحين وحيواناتهم في الحقول في مواسم الزرع والحصاد والدراسة. المكتبة الوطنية– مدريد.

وعندما نتفحص حال الأراضي المنزرعة في مدائن مثل المنكب - التي تقع على طريق مملكة بني نصر التجاري- نجد فروقا وتباينات بالنسبة لملكية الأرض، وهي ظاهرة هامة ولكنها أقل دلالة مقارنة بأحوال ملكية الأراضي وقت السيطرة القشتالية على المنطقة.

وتشير المعلومات إلى أن 70% من الملاك كانوا يسيطرون على مساحة سبعة "مراجع" (المرجع يساوي 255 مترًا مربعًا) تقريبًا، في حين 20% من الملاك كانوا يحوزون على ما يتراوح بين 20 إلى 60% من هذه "المراجل". أما ضياع علية القوم، فقد كانت موزعة حول الرقع المزروعة أو على حواف القرى، الأمر الذي يشير إلى الإفتقار إلى الهيمنة كصفوة متحكمة. وهذا ما نجده في حالتي كل من حاكم منطقة مارو Maro، وفقيه منطقة المنكب. ويمكن الخروج من وثائق العصر بحقيقة مؤداها وجود طبقة من ملاك الأرض الأثرياء، متضمنة نفرًا من موظفي الدولة وبعض كبار التجار.

أما أكبر الملاك على الأراضي قاطبة في الأندلس وزمن حكم أسرة بني نصر فقد كان الملك نفسه. فلقد كان الملك محمد الثاني سليل هذه الأسرة شديد الحرص على تملك العديد من الأراضي على أساس من حق الحيازة لأراض لا مالك لها. وبهذه الطريقة، إلى جانب مصادر بعض الأراضي والمطالبة بحق ميراث بعض الأراضي الأخرى، وجد ما يعرف باسم "المستخلصات" الخاصة لأسرة بني نصر الحاكمة، والتي يصعب التميز بينها وبين الأراضي المملوكة للدولة، وذلك بسبب تداخل الواحدة في الأخرى ونقل الملكيات بين الطرفين حسبما تحكم الظروف.

يلاحظ أن هذه الحقبة لم تشهد انتشارًا ملحوظًا للضياع، أو المنتجعات الريفية بمنتجعات المدن. ووردت إشارات إلى هذه المنتجعات، التي تشبهها المصادر العربية بالأيقونات الخاصة بالصفوة الحاكمة، إلا أن هذه الأيقونات كانت قليلة ونادرة في غرناطة تحت حكم مملكة بني نصر. ويكشف المسح الذي أجري حول قناة الصرف "أوناد'مار" Aunadamar، وحول التحول إلى تراكم الملكيات في أيدي المسيحيين فيما بعد، عن أن 90% من هذه القرى Carmenes كانت تملك أقل من 15 مرجنة، وأن 50% كانت تملك سبعة مراجل فقط. والواقع أن الطبقات العليا في عهد أسرة بني نصر كان لديها مصادر في الحوانيت وعقارات في المدن وضياع من الأراضي التي تنعم بمياه الري.

برج القلعة الحرة: على مقربة من الوادي الكبير، غرناطة.

منطقة لوس .. جواخاريس Güájares، جنوبي غرناطة.

وإذا ما انتقلنا إلى قضية ملكية مصادر المياه فإنها كانت أساسية لضمان زراعة الأرض وقد التزم الجميع بالفتوى على مذهب مالك في هذا الخصوص: التي تنص على الأولوية في الحق لأقدم المستوطنين على الأرض، وفي حال التساوي في تاريخ الحيازة، يعطى الحق للأقرب جغرافيا من مصدر المياه.

وكانت المياه من الناحية النظرية حقا لكل أفراد الجماعة في المزرعة الواحدة أو لعدد من المزارع معًا، وكان يتم توزيع الحصص على الجميع على أساس سنوي. ومن المحتمل أيضا أن توزيع الحصص من المياه كان يتم وفق العصبيات العشائرية والعائلية، كما هي الحال حتى يومنا هذا في منطقة جبال أطلس العليا. وبالنسبة لتوزيع الحصص من المياه في عهد بني نصر، حيث كانت الأراضي في حال من الشرذمة والتبعثر، كان يتم التوزيع وفق الموقع الجغرافي بالنسبة لمصدر المياه للقرية تلو الأخرى. وأخيراً فإننا نلاحظ ظاهرة بيع حقوق الري في النواحي الشبيهة بالمناطق العمرانية في غرناطة في القرن الرابع عشر.

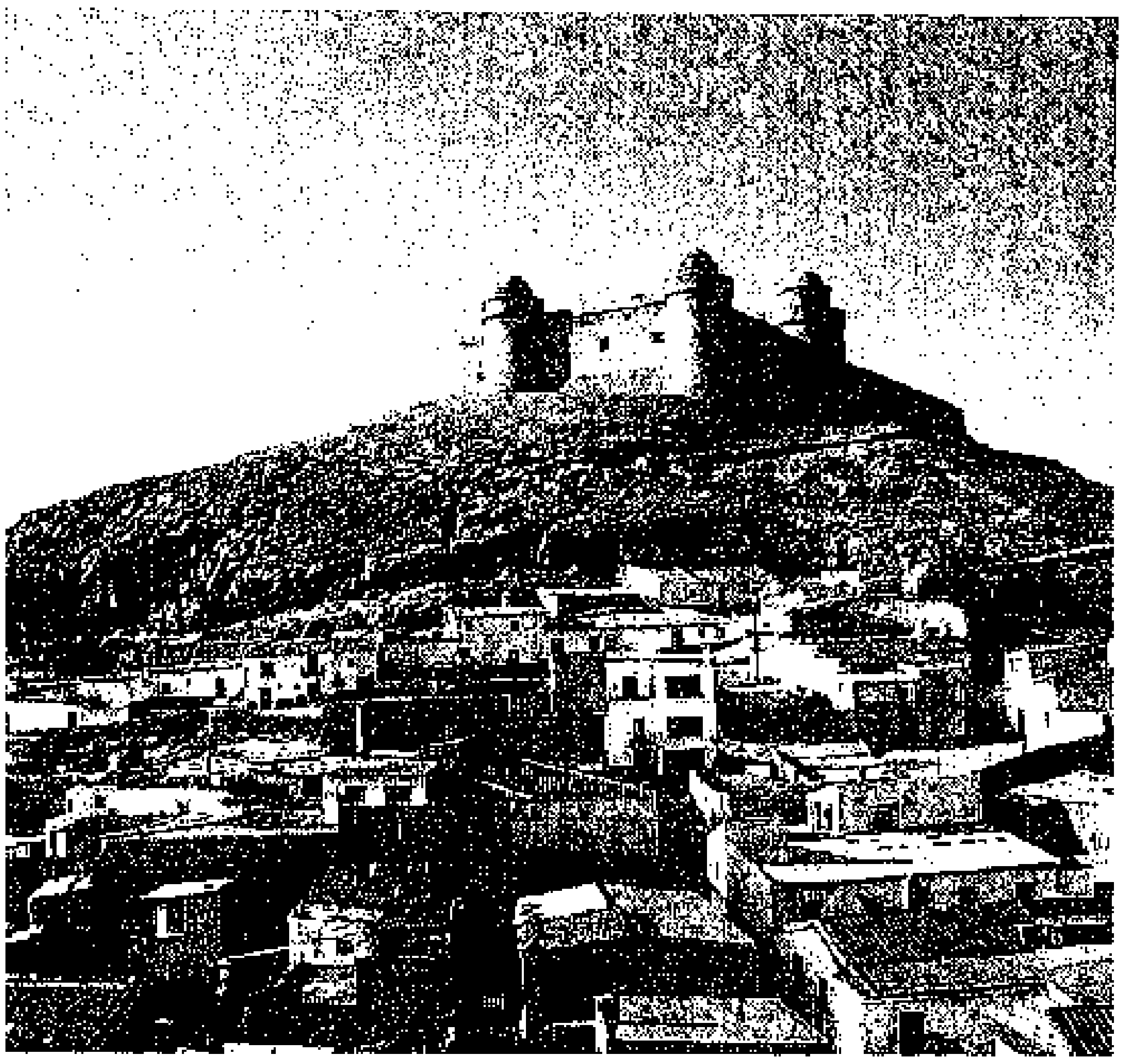

المحاصيل

اتسمت الزراعة في عهد مملكة بني نصر بالزمامات الزراعية صغيرة المساحة وبزراعة الشراكة بين القرويين. وقد عزز من هذا التنوع وجود أراض تصلها مياه الري في أغلب تلك الأراضي. وقد كان للخضروات والحبوب السبق في هذا النشاط الزراعي. وكانت الضريبة التي تجبى على حبوب فصل الخريف تعرف باسم "المدجنين" Mudejer، وهي شبيهة بنظام الضرائب في عصر بني نصر، كما كانت تجبى ضريبة أخرى عن حبوب فصل الصيف من الأراضي التي تنعم بمياه الري، وقد ميز المؤرخ ابن ليون بين محاصيل الخريف (القمح والشعير) وبين محاصيل موسم سان خوان (الذرة والسكرية و....).

ويلاحظ أن الأراضي التي كان يتعذر عليها الحصول على مياه الري الكافي كانت هي أيضا تنتج بعض الحبوب على شاكلة المناطق الزراعية الأخرى في حوض البحر المتوسط.

ولعل أهم سمة للأراضي التي كانت تنعم بمياه الري أنها كانت تنتج عدداً وافراً من المحاصيل المتنوعة: إلى جانب ثمر العديد من أشجار الفاكهة. والمعروف أن الأشجار تعود بنفع كبير على الأراضي المنزرعة، إذ أنها تحميها من عوامل التعرية والصقيع المتجمد، كما أنها تزيد من درجة الرطوبة. وأشجار الفاكهة بعد ذلك كانت تعزز من اقتصاديات الريف من خلال التنوع في الإنتاج، خاصة في ثمر الزيتون والفواكهة. وقد تنوعت فواكهة تلك الأرض لتشمل: الرمان، والتين، والتوت، والبرقوق، والتفاح، والفرجلو والموالح، والمشمش، والكمثرى، والجوز، والبرتقال، والليمون، والعناب، والبلح، والتوت الأحمر، والتوت الأسود: والليمون الهندي، وغيرها.

وقد احتل محصولان محددان موقع الصدارة في النشاط الزراعي على عهد مملكة بني نصر، وكانا يصدران للخارج على نطاق واسع. وهذان المحصولان هما: قصب السكر والتوت. وكانت زراعة قصب السكر مقصورة على المناطق الساحلية، نظراً لحاجتها إلى مناخ معتدل الحرارة ورطوبة عالية [8]. أما زراعة التوت فقد كانت منتشرة على طول الأراضي وعرضها وعلى ضوء هذا الواقع، هل في إمكاننا أن نتحدث عن تخصص تلك المناطق في زراعة محاصيل بعينها؟ يبدو أن هذا التساؤل صحيح، كما هو واضح بوجه خاص في زراعة قصب السكر.

حقول لا تصلها مياه ري دائم، حول منطقة الحامة، غرناطة.

منزل ريفي من عهد مملكة بني نصر في دار بيناز Darabenaz، من نواحي مدينة ماركيز – غرناطة.

وبالمثل: توسعت المناطق الساحلية في زراعة محاصيل التصدير، وعلى رأسها محصول التوت الأسود، الذي ازدهرت زراعته في المناطق القريبة من الطرق التجارية مثل: المرية، والمنكب، وطرش. على أنه يجب ملاحظة أن الوثائق لا تشير إلى نشاط زراعي في تلك المناطق يقتصر على محصول واحد لثمرة بعينها. أما ما تسوقه المصادر من تخصصات من قبيل كلمة "مورالِيدا" Moraleda، فهي لا تعني أكثر من مرج صغير يضم اثنتي عشر شجرة من التوت لا أكثر. كذلك لا نجد في الوثائق ما يشير إلى مساحات واسعة مخصصة فقط لزراعة قصب السكر. وعليه يمكن القول بأن النمط السائد في تلك المناطق كان من مشاكله زراعة العديد من المحاصيل لسد احتياجات الجماعة. كما أن هذا التنوع في المحاصيل كان يمد السوق باحتياجاته المتنوعة، كما يتضح لنا من "تقسيمات" منطقة المرية، حيث شاعت المزارع صغيرة الحجم العامرة بمختلف أشجار الفاكهة.

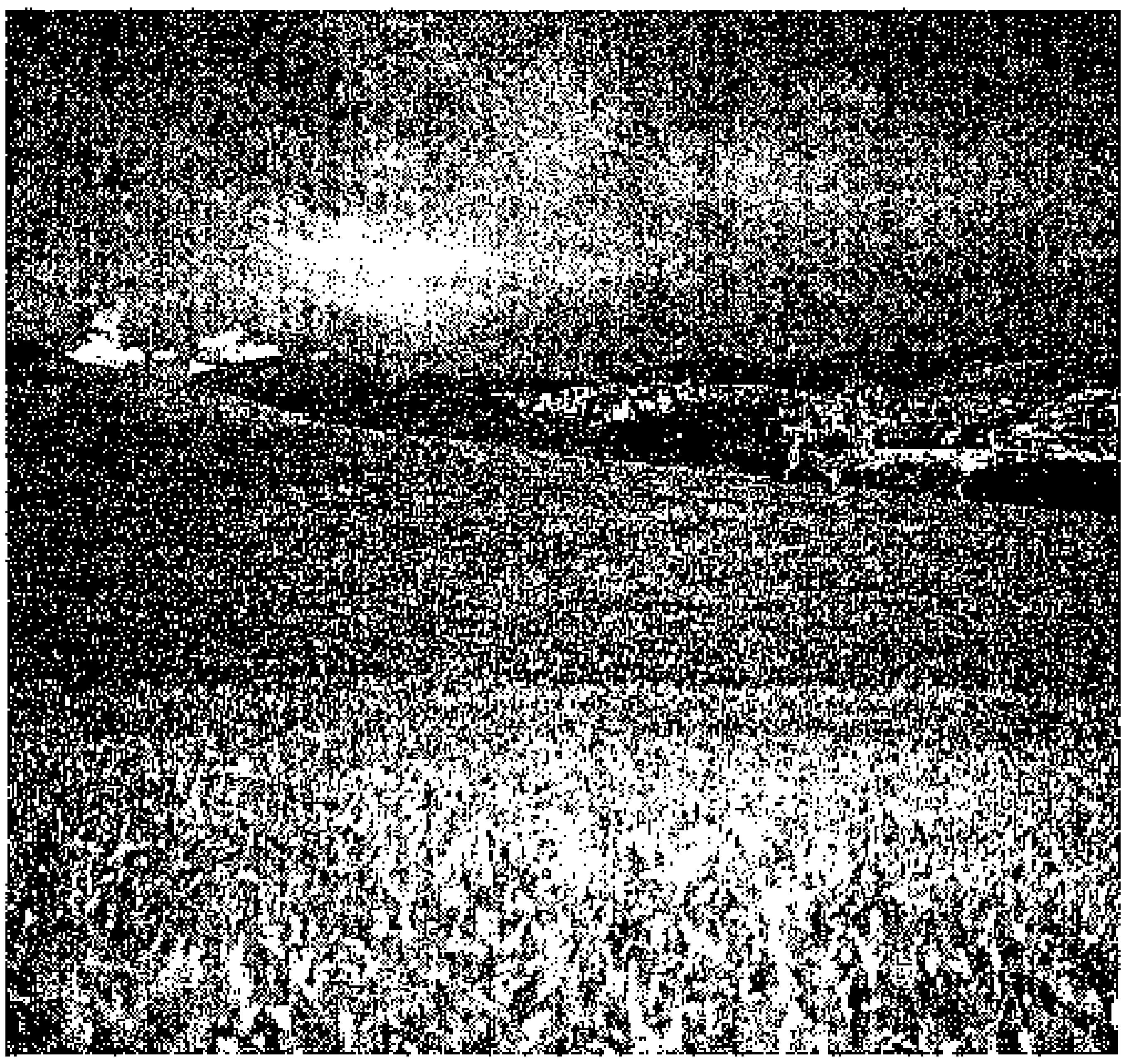

وإذا كان التخصص في الزراعة لصيقا بالأراضي التي تصلها مياه الري: فإن العكس هو السائد في الأراضي التي لم تكن تنعم بالري الدائم. ففي منطقة المنكب –على سبيل المثال– نجد العديد من الفاكهة: الأعناب، والتين، واللوز، وهي ثمار كانت مطلوبة بإلحاح للتجارة الخارجية التي سيطر عليها التجار الإيطاليون.

يستخلص من هذا الغرض أن أراضي الري الدائم كانت هي الأقدم تاريخيا في مزارع الحقبة النصرية وأطراف مدائنها. ونظرًا لمشكلات ملكية مصادر المياه وحيازة الأرض وما تبع ذلك من إشكالات قضائية، فإن هذه الأراضي قد أصيبت بحال من الركود، خاصة بعد أن بات من الصعوبة بمكان تجميع رقع كبيرة من الأراضي الزراعية في أيد قليلة.

ومن ناحية أخرى، فإن الأراضي التي لم تنعم بالري الدائم، والتي كانت تزرع بالحيازة، قد ساعدت الفلاحين على الإقدام على خطوات أكثر جدوى من الإنتاج، لمواكبة متطلبات السوق.

الطعام

من الصفات التي تميز بها النشاط في عهد بني نصر صفة التنوع في المحاصيل، مما يعني تنوعا أيضًا في ألوان وصنوف الطعام.

وإذا نحن قارنا بين هذا التنوع الزراعي في بلاد الأندلس وبين النشاط الزراعي والمحاصيل في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى لوجدنا أن الأندلس كانت تفوق الغرب الأوروبي في هذا المجال، الذي يتضح تماماً في مجال الطعام. وأهم المصادر التي بين أيدينا في هذا الصعيد تنصب على وصفات الطهو [9]، من قبيل أطروحتين ترجعان إلى القرن الثالث عشر: واحدة أندلسية بعنوان "فضلات الخوان" والأخرى إسبانية – مغربية بعنوان "كتاب الطبيخ" والأطروحتان في الأصل حول وصفات طبية لوجبات الطعام، على شاكلة أطروحة الزهراوي (القرن العاشر)، وابن وافد (القرن

8 Antonio Malpica Cuello. "Medio físico y territorio el ejemplo de la câna de azúcar a finales de La Edad Media". in A. Malpica Cuello (ed.). Pajsajes del Azúcar. Actas del Quinto Seminario Internacional sobre la Câna de Azúcar. Granada. 1995. pp. 1' – 40.

9 Expiración Garcia Sanchez. "La a 'imentación popular urbana en al-Andalus". Arquologia Medieval. iv (1996). 219 – 232.

الحادي عشر)[10]، وبعض أفراد عائلة بني زهر (القرن الثاني عشر)، وابن رشد (القرن الثاني عشر)، وابن البيطار (القرن الثالث عشر)، وابن الكاتب (القرن الرابع عشر)، والأربولي (القرن الخامس عشر)[11]، على سبيل المثال لا الحصر. كذلك هناك أطروحات تتصل "بالحسبة" والتي تنظم النشاط الاقتصادي وتشرف على الأسواق بوجه خاص، ومن ذلك أطروحات ابن عبدون من إشبيلية (القرنان 11 و12م)، والسقطي من مالقة (القرن 13). هذا إلى جانب مصادر أخرى تمدنا بمعلومات تاريخية وجغرافية، وأيضاً الأعمال الأدبية، والأطروحات الخاصة بالمحاصيل الزراعية كما أن تحليل ما تكشف عنه الحفريات الأثرية من معلومات يبدو مكملاً مثالياً للنصوص، فيما يتصل بأوصاف أدوات الطهي، وما تنطوي عليه من دلالات اجتماعية- اقتصادية في الفوارق بين شرائح المجتمع، وكذا ما تشي به أدوات الطهي بين معانٍ ودلالات واستخدامات.

كانت مقومات الطعام في العالم الإسلامي والغرب الأوروبي في العصور الوسطى تقوم على الخضروات بشكل أساسي[12] ويأتي على رأس هذه القائمة البقول والحبوب، التي كان يصنع منها الخبز بمختلف أشكاله، وكذا الوجبات الخفيفة والخلطات والشوربة. هذا وتميِّز كتب الوجبات الطبية بين أنواع مختلفة من دقيق الخبز: الدقيق الأبيض (درمال) لصنع الخبز الأبيض، ولباب الدقيق (سرميد)، ثم الدقيق الأحمر (قوسقار) المطحون والمغربل، وأيضاً "المدهون" الذي كان ينقع في الماء قبل استخراجه لصنع الخبز وبينما تظهر أنواع الدقيق الثلاثة الأولى في المصادر المشرقية من العالم الإسلامي؛ إلا أن الصنف الأخير الرابع كان من خصائص بلاد الأندلس. ولقد أشاد كل من ابن رشد والأربولي بالدقيق "المدهون" واعتبراه ذا قيمة غذائية كبيرة، على شاكلة ما نعرفه اليوم في أخبارنا.

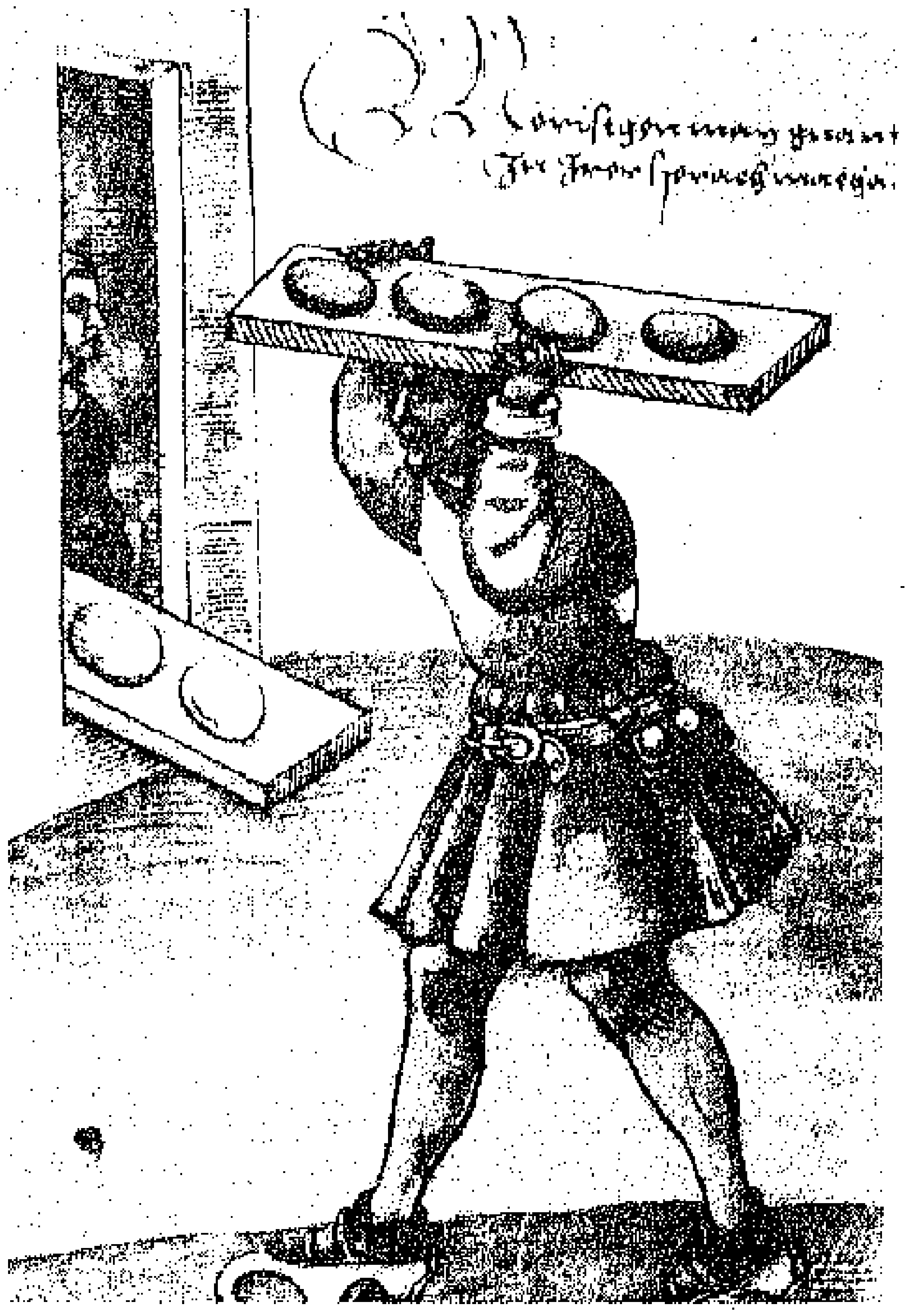

أحد المغاربة يحمل الخبز من أحد المخابز
تصوير يرجع إلى القرن السادس عشر.

زراعة قصب السكر: صورة من عمل بعنوان "ساحة الصحة" (Theatfum Sanitatis)
لأبي حاسم بن بطلاخ، القرن 14-15.

وكانت العائلات تعد العجين اللازم للخبز في المنزل ثم تحمله إلى الأفراد العامة في السوق لخبزه. ومع أنه كان في الإمكان شراء الخبز من السوق، إلا أن تسوق الخبز لم يكن من شأن شرائح المجتمع الميسورة وقد اتبعت طرائق عدة في صناعة الخبز: فهناك الخبز المعد بواسطة جمرة النار (خبز الملا)، والذي كان عسر الهضم، وكان من نصيب أجراء الفلاحة بشكل خاص نظراً لقيمته الغذائية الفائقة، وإن كانت شرائح سكان المدن لم تقبل عليه. وكانت هناك طريقة أخرى لصنع الخبز بوضع العجين في مقلاة أو "طبق" من الحديد أو البرونز. ومن الناحية الغذائية، كان الخبز المصنع في "التنور" هو أجود أنواع الخبز، وكان التنور عبى شكل فرن دائري محفور في الأرض لتسوية أرغفة العجين جميعا. ويأتي بعد هذا الخبز المصنع في "الفرن" التقليدي، الذي كان يبنى على سطح الأرض، وقد كان هذا الصنف من الخبز محل تقدير من كافة شرائح المجتمع.

وطبقاً لرواية ابن الخطيب نعلم أن القوم زمن مملكة بني نصر كانوا يفضلون خبز الدقيق الأبيض، بينما كان فقراء القوم وأهل الأرياف يعتمدون على دقيق الذرة والعدس (الحنطة الخشنة) والدخن[13]، كما كان الجميع في أوقات السنوات العجاف يقتاتون على هذا الخبز الأقل جودة بطبيعة الحال. وقد أوصى ابن الأربولي في أطروحته عن الغذاء بأن يشفع تناول هذا الصنف الأخير من الخبز الأقل جودة مع الدهنيات والبهارات الحارة وفي أوقات الشدة كان الخبز في تلك البقاع يصنع من ثمر النباتات البرية وجذورها أيضًا.

وإلى جانب صناعة الخبز، كانت الحبوب والبقول تدخل في صناعة الشوربة والوجبات الخفيفة والشكلات. ومن الأطباق المشهورة طبق "السويق" المؤلف من الدقيق والبقول المطحونة بعد خلطها بالبلح والسكر، وكذا طبق "بالسياط" المؤلف من الدقيق الممزوج بالزيت. وأحيانًا كان يضاف إلى هذه الخلطة من العجائن بعض البهارات أو فضلات الذبائح. أما طريقة أعداد "الطريد" فكانت تتألف من شرائح من الخبز مدعمة بالسمن، وأحيانا بشرائح من اللحم

10 Camilo Alvarez de Morales and Ruiz – Matas. "El libro de la Almohada", de Ibn Wafid de Toledo (Recetario medico árabe del Siglo xi). Toledo. 1980.

11 Amador Diaz Garcia. "Un tratado nazarí sobre alimentos: al – Kalam Alà l-agdhiya de al – Arbuyli". Edition, translation and study, with glossaries. I and II. Cuadernos de Estudios Medievales. VI – VII (1978 – 79). 5 – 3. X – XI (1982 – 83). 5 – 9..

12 Expiración Garcia Sánchez. "La alimentación en la Andalucia islámuca. Estudio Histórico y bromatológico. I. Cereales y leguminosas". Andalucia islámuca. II – III (1981 – 1982), p. 122.

13 Garcia Sáchez. "La alimentación en la andálucia islamica ..." I. p. 161.

viii

Cana mele.

Natur. c. 7 h. in 2°. melior ex eis. multe sucbositatis. Iuvamentum pectori et tussi. nocumentum. generat ventositates. remoto nocumenti. cum lavantur aqua calida.

والخضروات، وأحيانًا أخرى مع اللبن أو الدهن. أما "الحريرة" فكانت طبقا شعبيًا مرغوبًا، وهي ضرب من الشوربة الدسمة.

أما "العصيدة" فكانت تتألف من لباب الدقيق والعسل، والسمن، والخضروات، والسكر، في حين أن "الهريسة" كانت تعد من دقيق مهروس مع شرائح اللحم. ولم تكن هذه الأطباق في حاجة إلى الأنواع الممتازة من اللحوم، وكانت تترك على النار لمدة طويلة لضمان تسوية هذه اللحوم الأقل جودة. وفي نفس الوقت كان فقراء القوم يلجأون إلى فضلات الذبائح والدهون لإعداد وجباتهم.

أما "الباستا" pasta فلم يعرفها هؤلاء القوم إلا في القرن الثاني عشر، كما يستفاد من أطروحات الكتاب المعاصرين. وكانت تصنع من دقيق الشعير (الشعرية)، والفطائر، والمكرونة، والكسكسي. أما الوجبات التي يدخل فيها الأرز فلم تكن شائعة بين هؤلاء القوم.

وكان الدقيق يستخدم أيضًا في صناعة بعض أنواع الحلوى، بعد خلطه بالعسل، الذي كان له الأفضلية على السكر. ويذكر الأربولي أنواعا أخرى من الحلوى، مثل "الإسفندي" أي الفطائر المقلية، و"الموجابات" المخلوط بالجبن والقرفة والعسل، و"الفتيق" المصنع من الشعير وعصير الفاكهة والسكر، و"الفلاج" المصنع من النشا والعسل، و"الكابسي" المصنع من الدهون والعسل والنشا، و"القطائف"، و"الزلابية" وهي مقليات من العسل واللوز.

وكان القوم يتناولون الفاكهة الطازجة، وأيضًا عصائر الفاكهة المحفوظة، وهذا ما يستفاد من "حولية قرطبة" التي ترجع إلى القرن العاشر ويعدد لنا الأربولي أنواع الفاكهة، كالتين والعنب والزبيب، والمشمش، والخوخ، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والكمثرى، والليمون، والموز.

وكان استهلاك العائلات للحوم يعبر عن أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية. وكانت الأفضلية للحوم الضأن، الذي كان يرتبط بمواسم وطقوس بعينها. وعلى المستوى الشعبي كان لحم الماعز ولحوم الصيد هو الأكثر شيوعًا. وكان لحم البقر يحتل المرتبة الثالثة، كما يستفاد من كتاب الأندلس. أما الطيور التي كانت تطهى فكانت تشمل الدواجن، والأرانب للشرائح الفقيرة.

وبالنسبة لأعمار الذبائح من الحيوانات، فإن ابن رشد يفضل الحملان الرضع في المناسبات الخاصة، بينما الخراف الأكبر سنًا كانت للاستهلاك اليومي. ومع أن الأربولي يشيد بلحم الضأن، إلا أن جل الكتاب الآخرين يصنفون الضأن الأكبر سنًا على أنه عسر الهضم.

وكان اللحم يطهى بطرق متعددة، وفي الأغلب عن طريق السلق. وهذه الأطباق من "المرق" مضافًا إليها قدر من البهارات والخضروات كانت تعرف باسم "البقليات" وأبسط طرائق إعداد هذا الصنف من الطعام كان من البصل، والذي عرف باسم "طفاية". وكانت اللحوم بمختلف أنواعها متوافرة في الأسواق: من قبيل "البلايا" وهي اللحم المسلوق، "والكباج" وهي اللحوم الممزوجة بالمخللات وغيرها كثير. كذلك توافرت في الأسواق أنواع من النقانق (مركاس) واللحم المفروم (أهراش). هذا وقد أوصى الكتاب الأندلسيون بضرورة قلي اللحوم بزيت الزيتون بدلًا من الدهون والسمن لأسباب صحية.

وعلى المستوى الاجتماعي، كان ينظر إلى مشويات اللحوم على أنها الأفضل، رغم أن أطروحات الكتاب كانت لا توصي بها نظرًا لأنها عسرة الهضم. وإلى جانب لحم الضأن المفضل، خاصة في أيام الأعياد (عيد الفطر وعيد الأضحى)، وكان عامة الشعب يقبلون على اللحوم المشوية على الأسياخ.

مخطوط من أطروحة ابن وافد عن الأطعمة.
أشجار الفاكهة في ريف الأندلس – شجر اللوز على جبال ألمرية والأندلس، ترجع إلى القرنين 14، 15؛ متحف الآثار – مدريد.

ولم يكن القوم في بلاد الأندلس يميلون إلى الأسماك وكانت الأفضلية للأسماك النهرية السابحة إلى الأنهار من أعماق البحار. وكانت الأسماك إما أن تقلى أو تسلق لتسهيل هضمها، كما كانت تؤكل مجففة. وكان القوم يفضلون تناول البيض، وكانت النصيحة الطبية أن يتم تناول البيض مسلوقًا أو مقليًا دون غلو.

وبالنسبة للألبان، كانت الأسواق عامرة بألبان الماعز والضأن. كما كان القوم يعدون اللبن المقشود، وخثارة اللبن، والجبن الريفي، والزبدة الخام أو المصفاة.

خلاصة القول أن هذه الحقبة من تاريخ الأندلس كانت عامرة بالعديد من الأطعمة، وذلك بفضل وفرة الحبوب والمحاصيل الزراعية والخضروات والبقول والفاكهة، وكذلك تنوعت طرائق الطهي، سواء من اللحوم أو فضلات الذبائح. ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الأسماك لم تلق قبولاً واسعاً عند الناس، وإن كان أهل المناطق الساحلية قد أقبلوا على تناولها بشكل واضح. كما أن البيض ومنتجات الألبان كانت في متناول السكان، ويلاحظ أن العديد من هذه الأكلات كانت تباع في الأسواق، الأمر الذي يشير إلى حال من الرخاء الاقتصادي، خاصة في المدن.

لمحة عن حياة ابن خلدون (1332-1406)

حياة ابن خلدون ونشاطه السياسي أو "العلامة" في ترحال على ظهر السفن

طاهر الحمامي
جامعة منوبة – تونس

ترجمة إسحاق عبيد

بداية لابد لنا من القول بأنه من بين القدماء لم يكن هنالك شخص مثل ابن خلدون في شدة غرامه بتسجيل سيرته الذاتية، والحديث عن نفسه [1]. وعلى من يتصدى للكتابة عن حياة ابن خلدون أن يطالع كتاب "التعريف" الذي ورد في نهاية كتاب "العبر" [2]. وكتاب "التعريف" يشي بالشيء الكثير من الذاتية، كما هي الحال في مختلف السير الذاتية المتعددة. وهنالك العديد من الأسئلة التي تثيرها السيرة الذاتية لابن خلدون، من دوافع وطريقة عرض للأحداث ومدى الموضوعية في هذا العرض. ونحن من جانبنا، لكي نكتب سيرة ابن خلدون، نعتمد على هذا المصدر الوحيد في نوعه، إلى جانب بعض المراجع الأخرى، أملاً في استجلاء صورة الرجل بقدر المستطاع.

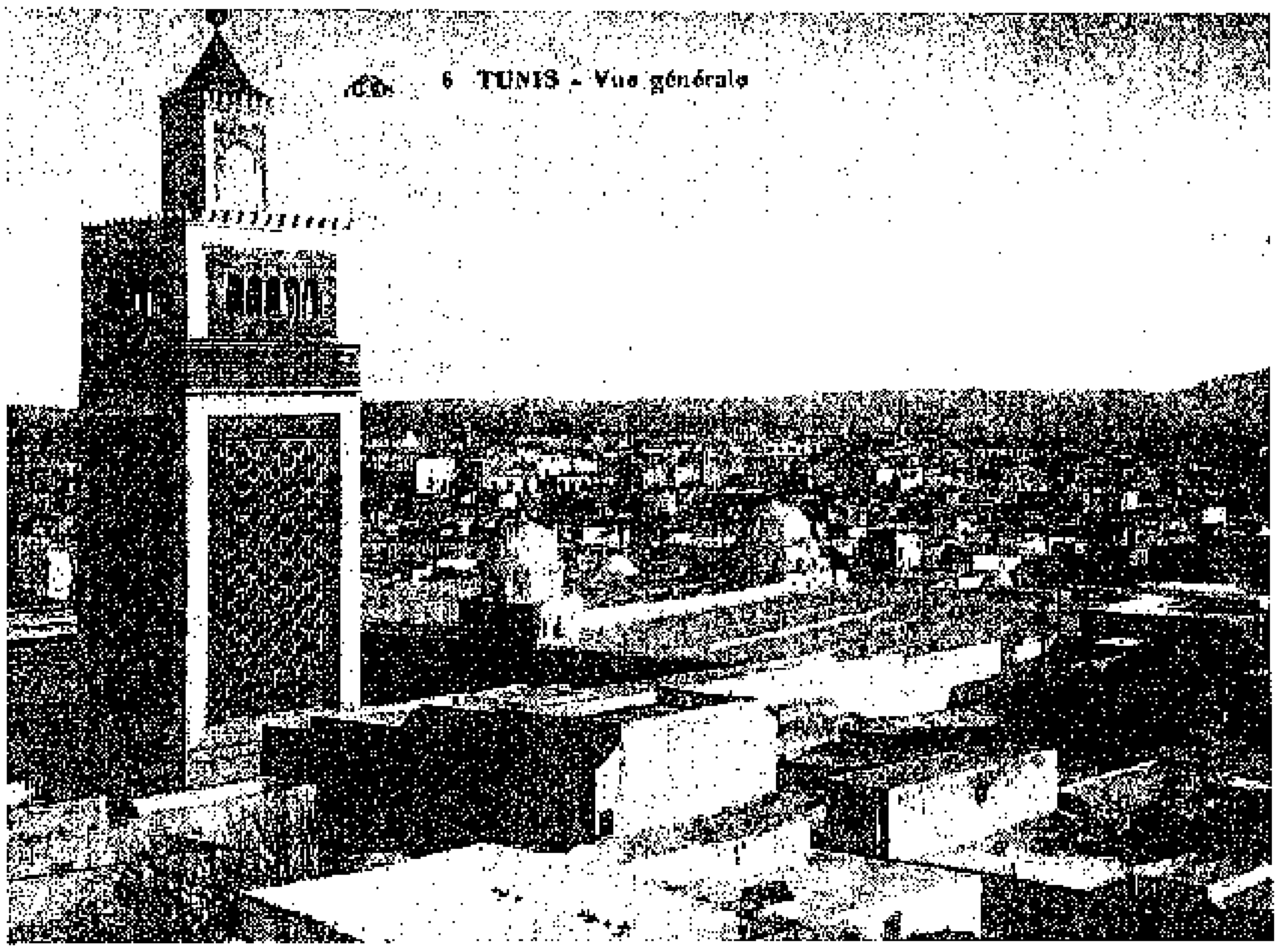

تونس، منظر عام على بطاقة لأوائل القرن العشرين.

ولقد بذل الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي كل ما في وسعه لحل هذه القضية المشكلة، وانتهى إلى القول بأن "التعريف" مفتاح بالغ الأهمية لكل من يرغب في التعريف على ابن خلدون، وبأن الصورة التي خرج هو بها صورة مخالفة لصورة معاصريه في مصر، لأنه كان صاحب صورة مختلفة عمن حوله ولقد نشر الطنجي النصوص المعاكسة التي يشير إليها، تاركا الحكم على ابن خلدون إلى "النقد البناء الأمين". وهذه النصوص تعرض للحديث عن أساتذة ابن خلدون، وإلى الدوافع التي جعلته يعزف عن قبول "ولاية" ثابتة للقضاء في مصر كما أنها تشير إلى جهوده في "الفتوى" وإلى مقابلته مع تيمورلنك.

من جانب آخر، ليس لنا أن نفصل بين نشاط ابن خلدون السياسي وبين أسلوب حياته، لأن البعدين متداخلان في رابطة واحدة ولا يمكن الفصل بينهما. والحق أن حياة هذا الرجل كانت نتيجة للتفاعل بين الظروف الخاصة (من مولد، وعائلة، وتعليم، وسجل المعيشة، وترحال، وزاد ثقافي..) وبين الحياة العامة وزخم السياسة (من علاقات مع السلطة، وواجبات، وقرارات، وأحداث...) وإن حدث أحيانا فصل بين هذين الجانبين، فإنما يكون ذلك لأسباب منهجية ليس إلا.

أخيرًا نود الإشارة إلى أن الحديث عن حياة ابن خلدون الخاصة والعامة ليس بالشيء الجديد. والحق أن المؤرخين والباحثين لم ينقطعوا بحال عن محاولة سَبر أغوار هذا الرجل، ونحن من جانبنا في معالجتنا لحياته ونشاطه السياسي سوف نعيد قراءة الأحكام التي خرج بها الباحثون، بقصد استجلاء الحقيقة. ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نتفهم شخصية ابن خلدون بشكل أفضل، وأن نحلل الدوافع الكامنة وراء نشاطه ومواقفه، والتي فسرها البعض على أنها تشي بالانتهازية، والنفاق، والمخاتلة [3]، وعدم الوطنية [4]..إلخ.

1 كان ابن خلدون أمام عدة خيارات في عنونة كتابه، وتضمينه أحداث المراحل الأخيرة في حياته. وقد استقر في النهاية على عنوان: التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلاته غربا وشرقا غير أن المؤرخين منقسمون بين عنوانين: التعريف من ناحية، "والرحلة" من ناحية أخرى.

2 منذ البداية كان "التعريف" يمثل فصلا لكتاب "التاريخ" لابن خلدون "كاتب الكتاب" على حد تعبيره. والاعتماد هنا على النص من تحقيق م. الطنجي، القاهرة، 1951.

أبعاد حياة ابن خلدون الخاصة

المولد، والأصل، والتعليم

إن هذا الرجل الذي تألق اسمه وقت أن كانت الحضارة العربية الإسلامية في حال من الضعف والتدهور، والذي لا يزال اسمه يتألق على ثقل عطائه العلمي الذاخر، وسعة أفقه، يدعى ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ... ابن خلدون. ولد ابن خلدون في تونس في أول شهر رمضان لسنة 732هـ الموافق السابع والعشرين من شهر مايو لسنة 1332، لأسرة عربية من أصول حضرمية يمنية ولقد استقرت هذه العائلة منذ بداية الفتح الإسلامي في إشبيلية، حيث شغلوا العديد من المناصب السياسية، كما عاصروا العديد من تقلبات الأحوال والأيام. وقد تركت عائلة ابن خلدون إشبيلية قبل حركة الاسترداد، ميممة شطر إفريقية واستقرت في تونس تحت حكم أبي زكريا الحفصي (625 - 647هـ/ 1228 - 1249).

وقد اختار والده العيش كفقيه ورجل علم وأدب، بعيداً عن معترك السياسة، الأمر الذي وفر لابنه تعليمًا راقيًا. ولقد تلقى الفتى ابن خلدون دروسه على أيدي مشاهير الأساتذة في عصره في تونس، والذين خصص لسيرتهم صفحات كثيرة من كتابة "التعريف". ولقد تعلم الفتى دروس القرآن الكريم، والحديث، والفقه، والأدب، والمنطق، والنحو، واللغة العربية، والخطابة، والبلاغة، وعلم الخطوط، وفن الكتابة، وباختصار تلقى ابن خلدون ثقافة عريضة من التراث والعقلانية[5]، والتي تعززت بمقدم الأساتذة المرينيين الذين جاءوا في ركب السلطان أبي الحسن وقت غزو تونس، ثم تركوا بصماتهم بعد مغادرتهم لتونس. وكان الفتى ابن خلدون، المتعطش للعلم، ينوي مغادرة موطنه تونس للحاق بهؤلاء العلماء في مدينة فاس. غير أن الأحداث الدامية التي واكبت نهاية الغزو المريني، مع انتشار الوباء الأسود الذي اجتاح البلاد سنة 759هـ/ 1348 وأهلك الكثيرين من الأساتذة والآباء، إلى جانب معارضة شقيقه محمد، كل ذلك قد أدى إلى تأجيل هذه الرحلة، وإن ظل الفتى مصمما عليها.

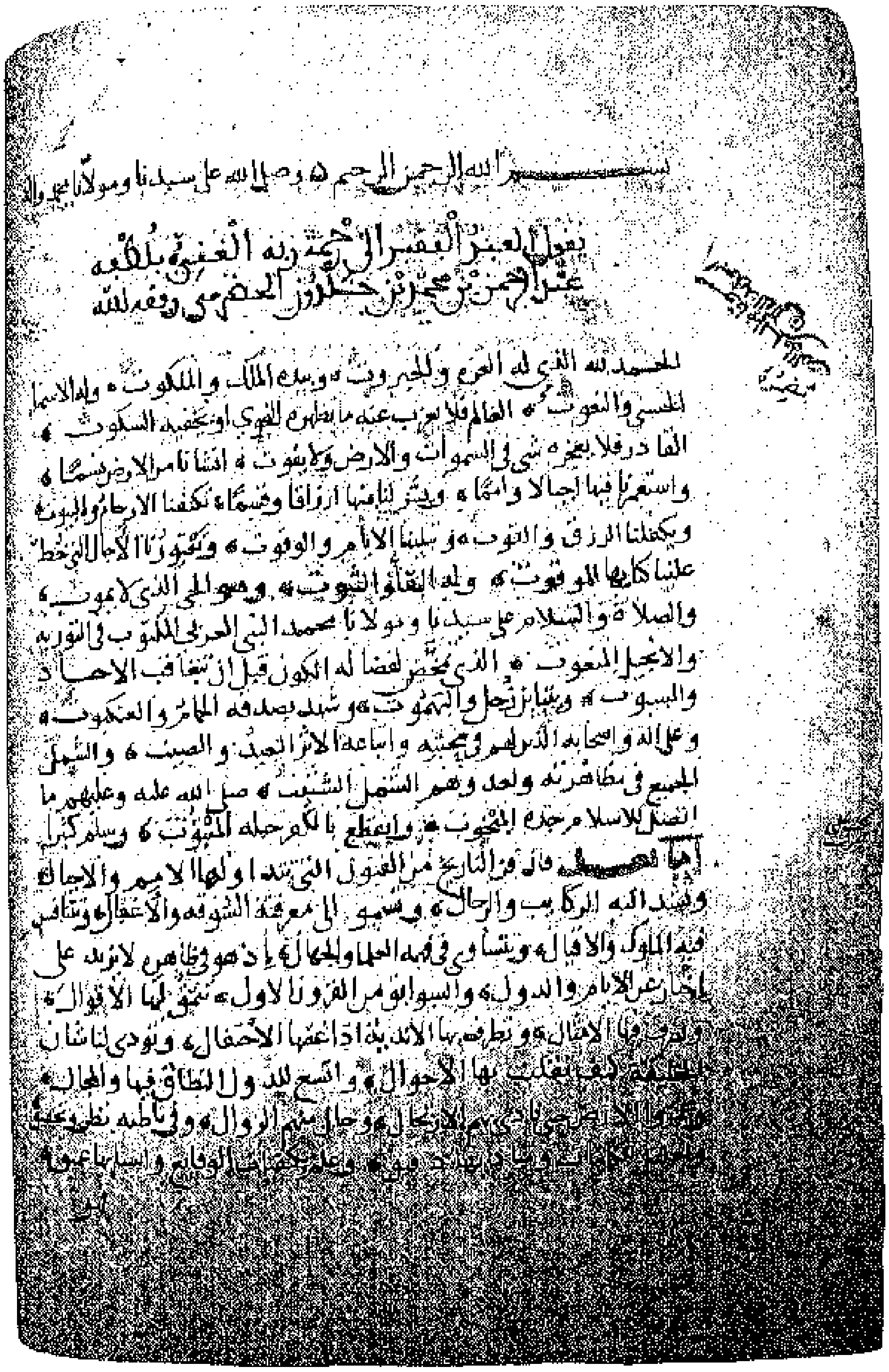
بسم الله الرحمن الرحيم ۝ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله
يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله
الحمد لله الذي له العزة والجبروت وبيده الملك والملكوت وله الأسماء الحسنى والنعوت ...

بداية "المقدمة": بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله. يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله... الحمد لله الذي له العزة والجبروت، وبيده الملك والملكوت، وله الأسماء الحسنى والنعوت... أما بعد فإن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال .... إلخ. المقدمة: الورقة 16، مخطوط عاطف أفندي، 1936 - المكتبة السليمانية، إسطنبول.

عائلة ابن خلدون، وأسباب المعيشة، والحركة الفكرية

حديث ابن خلدون عن أسرته قليل ومختصر، وإن كان يشير إلى زوجته وأولاده كثيرًا بعبارة "الأهل والولد" وكان الرجل دائم التطلع لأسرته عندما يغير من إقامته، ويأخذ في التدابير لاستدعائهم للإقامة معه في مستقره الجديد. وآخر مرة تطرق فيها إلى الحديث عنهم كان في أعقاب غرق السفينة التي كانت تقل هذه الأسرة على شواطئ الإسكندرية في رحلتها من تونس، والتي هلك فيها كل المسافرين تقريبًا.

3 أ. الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته القاهرة، 1962، 229.

4 يرد الأستاذ محمد الطنجي في مقالة بدائرة المعارف الإسلامية على منتقدي ابن خلدون والمشككين في وطنيته، بأنهم يطبقون أحكام العصر الحديث على زمن ابن خلدون، خاصة عند الحديث عن الوطنية، مما يمثل مفارقة تاريخية، أي إسقاط مفاهيم الحاضر على الماضي.

5 أ.ب. مدكور، ابن خلدون الفيلسوف، ندوة "ابن خلدون"، القاهرة، 1962، 123 - 34.

منازل في شارع الأندلسيين في مدينة تونس.

وكان ابن خلدون في حياته المعيشية يعتمد على الوظائف التي تقلدها، وعلى الهدايا والمنح. والحق أن الرجل، الذي كان دائم الدفاع عن "حقوقه" وعن واجب الدولة نحوه كمواطن، لم يكن يشكو من ضيق العيش أو من أزمات مادية.

وكان ابن خلدون كثير الترحال، في الساحة الممتدة من المغرب إلى المشرق، من إسبانيا إلى الحجاز. ولقد تعرضت حياته للكثير من الأخطار من جانب قطاع الطرق، وأصحاب النفوذ والسلطة، ومن تقلبات الطبيعة وأهوال الرحلة. ونجد في كتاب "التعريف" ثلاثة أحداث تعرض لها الرجل: وكان أول هذه الأحداث قد وقع على يدي أبي حمو، حاكم تلمسان، الذي أرسل بنفر من رجاله الذين نهبوا موكب ابن خلدون وحاجياته (التعريف: 228). والحدث الثاني تمثل في الأهوال التي صادفها أثناء رحلته من تونس إلى الإسكندرية، عندما أمضى أربعين ليلة مضنية على الطريق (التعريف: 218). أما الحدث الثالث فهو تعرضه وصحبه للسلب، وتركهم عرايا في الصحراء، أثناء عودته من دمشق إلى القاهرة، بعد مقابلته مع القائد المغولي تيمورلنك (التعريف: 279).

وكان ابن خلدون يقوم بالتدريس لطلابه ومريديه في العديد من الأوقات، كما أنه عين "قاضيًا" وقد كرس الوقت الكثير للتفكر في العلوم، والمطالعة، والتأليف، ولكن لنا أن نتساءل: هل كانت السنوات الأربع التي قضاها ابن خلدون في عزلة بقلعة ابن سلامة، على مقربة من أولاد عارف في أواسط المغرب، خالية من المتاعب؟ وهل كان وهو يكتب "المقدمة" في أحضان عائلته (التعريف: 229) في أول وآخر فرصة يعتزل فيها عن العالم لينصرف كلية إلى الكتابة؟

ولقد بدأ ابن خلدون في الكتابة وهو في العشرين من عمره، تحت تأثير أستاذه "الآبلي"، فأقدم على تلخيص "كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين"، بما يتضمنه هذا الكتاب من أطروحات لاهوتية وفلسفية عند صاحبه الرازي. كذلك قام ابن خلدون بتلخيص أفكار الفيلسوف ابن رشد، التي كانت تمثل قيمة خاصة بالنسبة

له، غير أن هذه الكتابات والتلخيصات قد فقدت، كما أننا لا نجد إشارة لها في "التعريف" ولربما اعتقد ابن خلدون أنها لا تشكل أهمية كبرى، مقارنة بحملة العملاق الرئيسي.

ولقد انصب هم ابن خلدون أثناء عزلته في قلعة ابن سلامة على كتاب "العبر"، وتابع كتابته في تونس، وانتهى من كتابه "العبر"، والتعريف، في القاهرة. وكان الرجل دائم المراجعة والتصويب لكتاباته، على ضوء ما يتفتق في ذهنه من جديد يطالعه، أو بخبره في حياته.

ابن خلدون وزخم الحياة السياسية: السياسة وورطة الدنيا

موقع أطلال قلعة ابن سلامة.

كان النشاط السياسي لابن خلدون، سواء عن قرب أو من بعد، محورًا أساسيًا في "تورطه" في زخم القضايا العامة، كما أنه يمثل أهم حقل لمشاركاته الاجتماعية، وأيضا بالنسبة لرؤيته للتاريخ، والدولة، والسلطة، والبشر.

وفي عرضنا التالي سوف نعالج صلات ابن خلدون بالسياسة، من خلال الوظائف التي تقلدها والبعثات التي وكلت إليه، والقلق ذهابا وإيابا أثناء هذا وذاك. وقد بدأت هذه المهام عندما عينه أبو محمد بن تافراكين في وظيفة "كاتب العلامة" في تونس، في خدمة السلطان أبي إسحق.

وقد قبل ابن خلدون هذا المنصب، وإن كان قد أخفى نيته في اعتزال هذا الموقع في أول فرصه تتاح له (التعريف: 56). وقد حانت له هذه الفرصة عندما قام أمير قسنطينة أبو يزيد بغزو إفريقية سنة 753 هـ/1352. وبعد أن هرب ابن خلدون، ذهب إلى بلدة بسكرة. وهنا أبدى رغبته في خدمة بني مرين، الذين كانوا يفرضون سلطانهم على تلمسان، وبجاية. ثم قام السلطان أبو عنان بتعيينه سكرتيرًا خاصًا في بلاطه في مدينة فاس. وقد قبل ابن خلدون هذا المنصب بشيء من الفتور، لأن المنصب لم يكن يرقى إلى مستواه الاجتماعي الذي كان يعتز به كثيراً. ومع ذلك ، فإن هذا الموقع قد أتاح له الفرصة ليرقب حبائل التآمر والدس، أي ما يشير هو نفسه إليه من "أشواك السياسة والثمن الباهظ الذي يكتنف القرب من السلطان" والذي حدث أن السلطان أبا عنان، وكان رجلاً عليلاً وعلى شفا الموت، قبض على ابن خدون وأودعه السجن لمدة عامين (758- 759هـ/ 1357 - 1358). غير أن الوزير الحسن بن عمر أطلق سراحه وأعاده إلى منصبه في اليوم التالي لوفاة السلطان. ولقد شارك ابن خلدون في الأحداث الدامية التي وقعت حول النزاع على العرش في أعقاب وفاة السلطان. ولقد ألقى بثقله وراء السلطان أبي سالم، الذي عاد من الأندلس لاستعادة مملكته في فاس، وليزيح الوزير الحسن من السلطة والساحة السياسية. وتولى ابن خدون أمانة (سكرتارية) الديوان السلطاني سنة 760هـ/ 1359. بل إنه نظم بعض قصائد

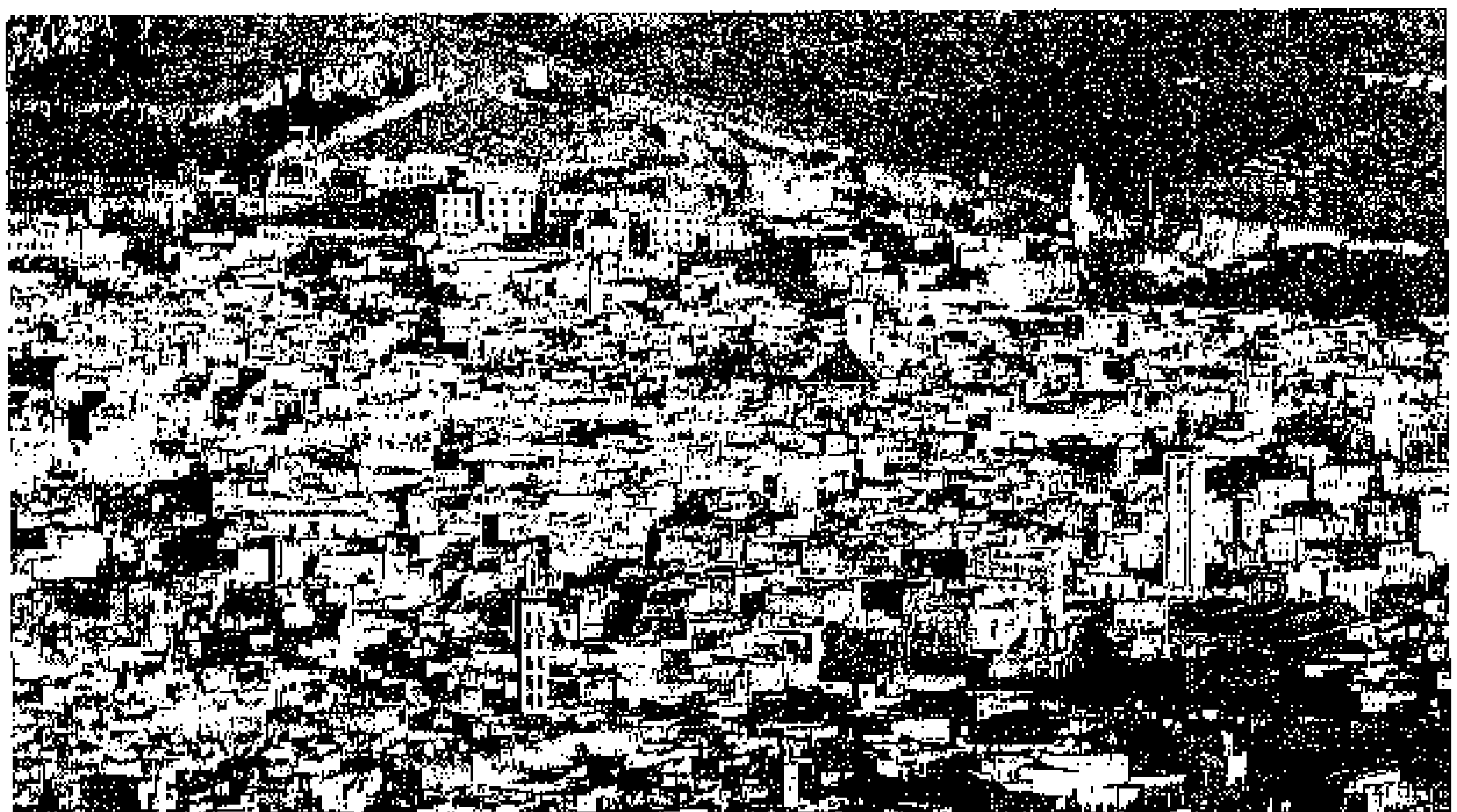

بانوراما لمدينة فاس.

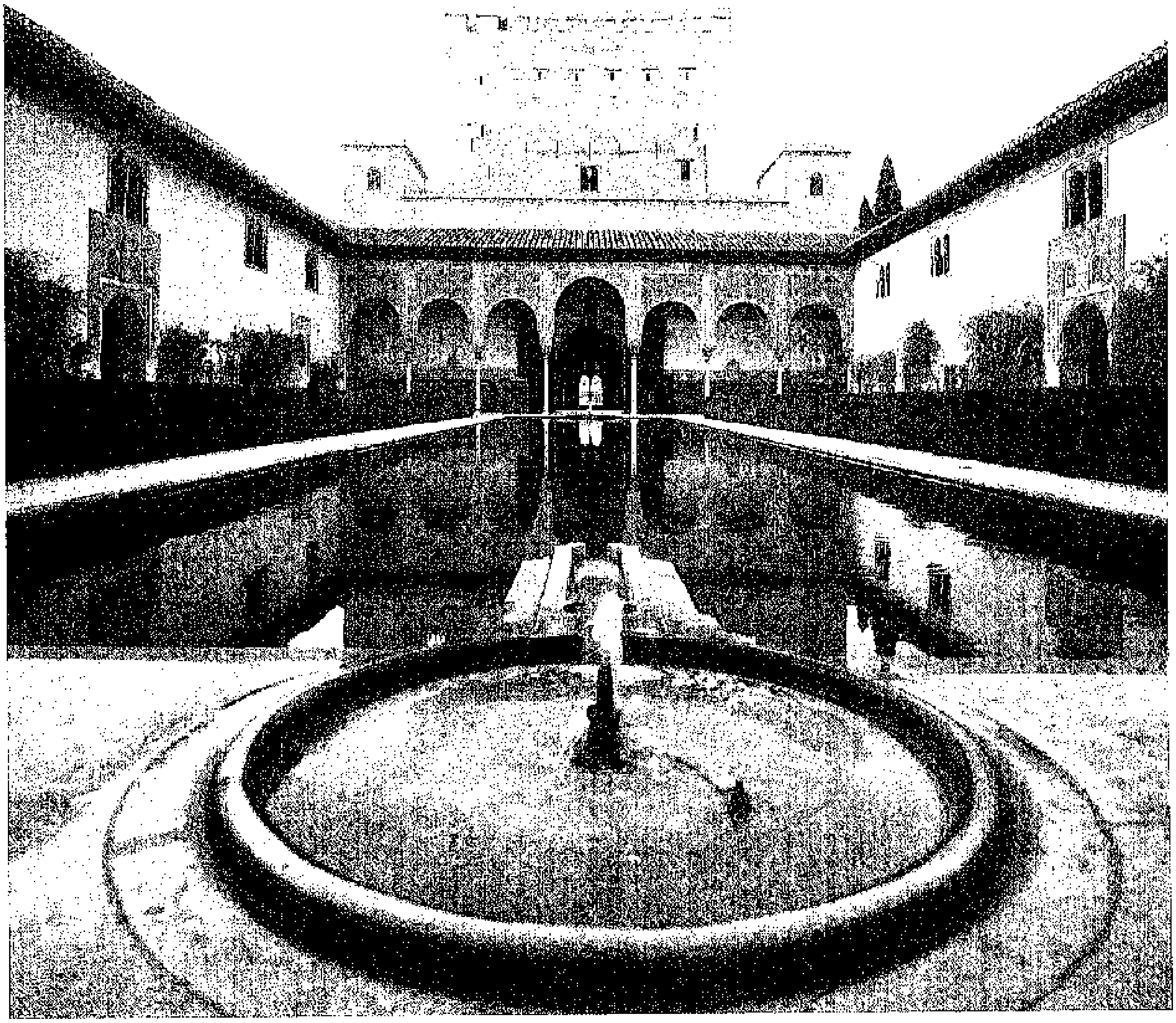

بهو الريحان، وبرج قمارش في قصور الحمراء – غرناطة.

المديح، ربما لتعزيز كيانه أمام السلطان في هذه الأوقات الحرجة. وبعد ذلك بعامين ترك الديوان، للاضطلاع بوظيفة قضائية للنظر في "المظالم".

وبعدها حصل بعد عناء على الإذن بالسفر إلى غرناطة سنة 764هـ/1362، بعيدًا عن موطنه إفريقية. وفي غرناطة، استقبل استقبالاً طيبًا من جانب الأمير محمد الخامس من بني نصر، وبواسطة وزيره لسان الدين بن الخطيب، وتم اختياره عضوًا في "مجلس" الملك. ثم أوفده محمد الخامس في سفارة إلى الملك بيدرو الأول "القاسي"، والذي استقبل ابن خلدون بالترحاب، وعرض عليه الإقامة في أشبيلية، مع وعد بإعادة أملاك أسلافه في أشبيلية إليه.

وعند عودته إلى غرناطة، قوبل بالحفاوة والتكريم، إلا أنه فضل الرحيل سنة 766هـ/1365، بعد أن اشتم رائحة عدم الثقة في ابن الخطيب. وكان صديقه في بجاية، أبو عبد الله محمد، الذي كان قد استرجع مملكته، في انتظاره. ولقد استقبل ابن خلدون بالترحاب، كما أن السلطان عينه في وظيفة "الحاجب"، وهي أهم وظيفة في الدولة، وعهد أيضا بمنصب الوزارة إلى أخيه، يحيى

ووكل إلى ابن خلدون في نفس الوقت بمواقع "الخطابة" وبالتدريس في مسجد القصبة. غير أن هذا لم يدم طويلاً: فلقد فشل السلطان أبو عبد الله في مقاومة ابن عمه أبي العباس أمير قسنطينة. كما أن الرعية تخلت عن مساندة أبي عبد الله بسبب بطشه (كان قاسيًا كما يقرر ابن خلدون نفسه)، والذي توفي بعد قليل.

ولم يرغب ابن خلدون في الدخول في المزيد من الصراعات، أو أن يعلن واحدًا من أبناء أبي عبد الله لتولي الحكم. وبدلاً من ذلك، أقبل على الفاتحين الجدد، ورحب بهم، "وقام بتسليم أداة حكم وطنه إليهم" (767هـ/1366). ولذا فإن السلطان الجديد حفظ له هذا الموقف وكافأه عليه (التعريف: 99). ومع ذلك لم يدم الحال كما هو عليه طويلاً: فسرعان ما وجد ابن خلدون محاطًا

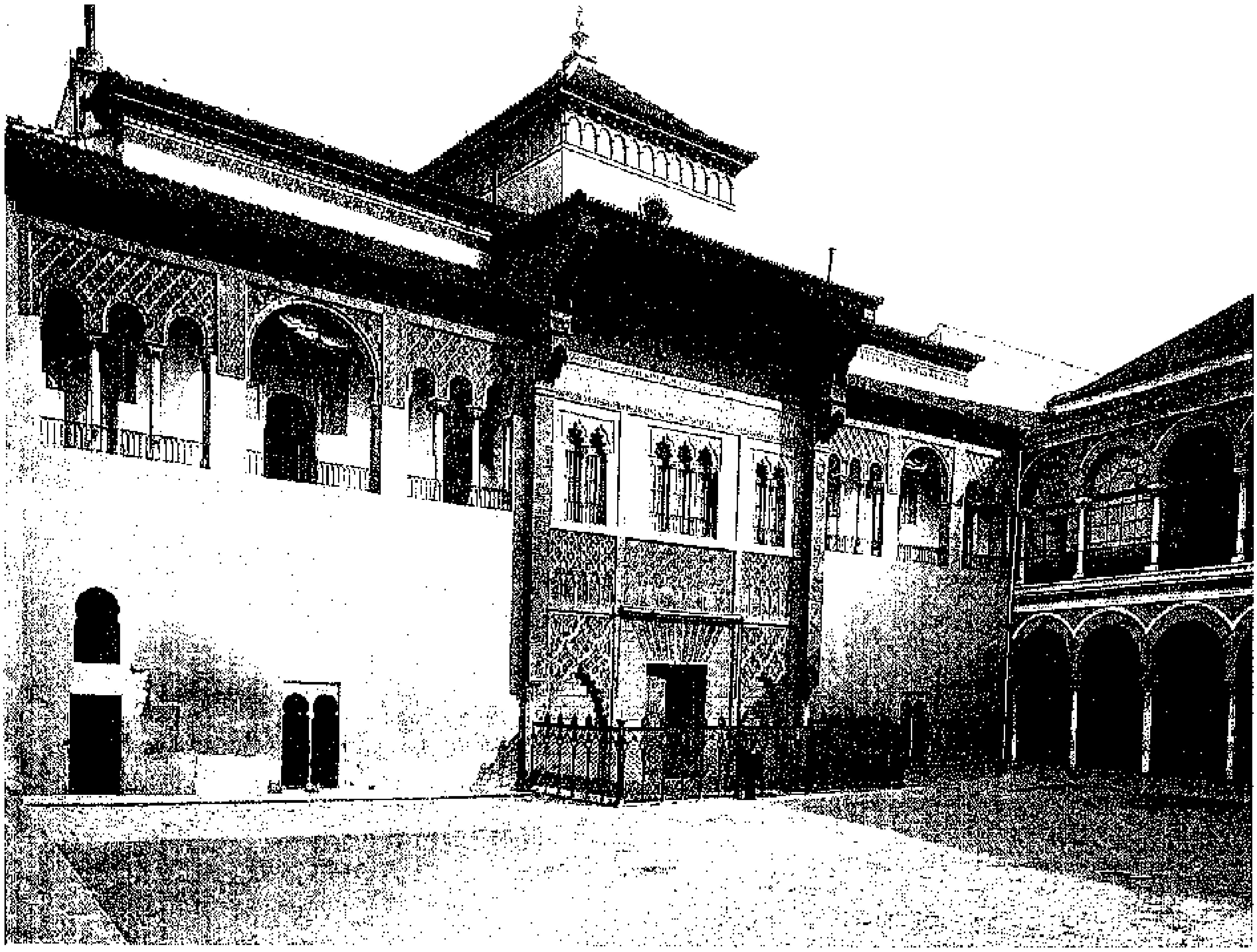

واجهة قصر بيدرو الأول، القصر الملكي، إشبيلية – صورة من القرن التاسع عشر.

بالمؤامرات والدسائس، فقرر الارتحال إلى ملجأ أمن عند قبائل "الدواودة" العربية، وبعدها سافر إلى بسكرة في رحاب أصدقائه من بني مرين، في حين أن أخاه يحيى تم القبض عليه. ولذا شك الحكام في بني خلدون وظنوا أنهم يملكون ذخائر حربية وثروات طائلة، ولذا فقد تم تفتيش بيوتهم (التعريف: 99). والذي حدث أن أبا حمو، حاكم تلمسان، وقد أفزعه موت زوج ابنته سلطان بجاية، زحف على هذه المدينة وسيطر عليها، ثم عرض وظيفة "الحاجب" على ابن خلدون في رسالته المؤرخة بالسابع عشر من رجب، 769هـ/8 مارس 1369. غير أن ابن خلدون اعتذر عن عدم قبوله لهذا المنصب في رده على السلطان، وأرسل بأخيه يحيى، الذي أطلق سراحه، لتولي هذا المنصب بدلاً منه، ولقد برر ابن خلدون موقفه هذا، بسبب غموض المواقف، وتزاحم الأحداث العنيفة، وأيضًا "لكي لا أقع تحت طائلة العنف"، مضيفًا: "لقد شفيت مني غواية الرتب... كما أنني قد أهملت العلم والعلوم لمدة طويلة، لقد عزمت على عدم التورط في شئون الملوك، وعلى أن أصرف كل همي للقراءة والتدريس" (التعريف: 103). هذا وفي مدينة بسكرة، انشغل صاحبنا

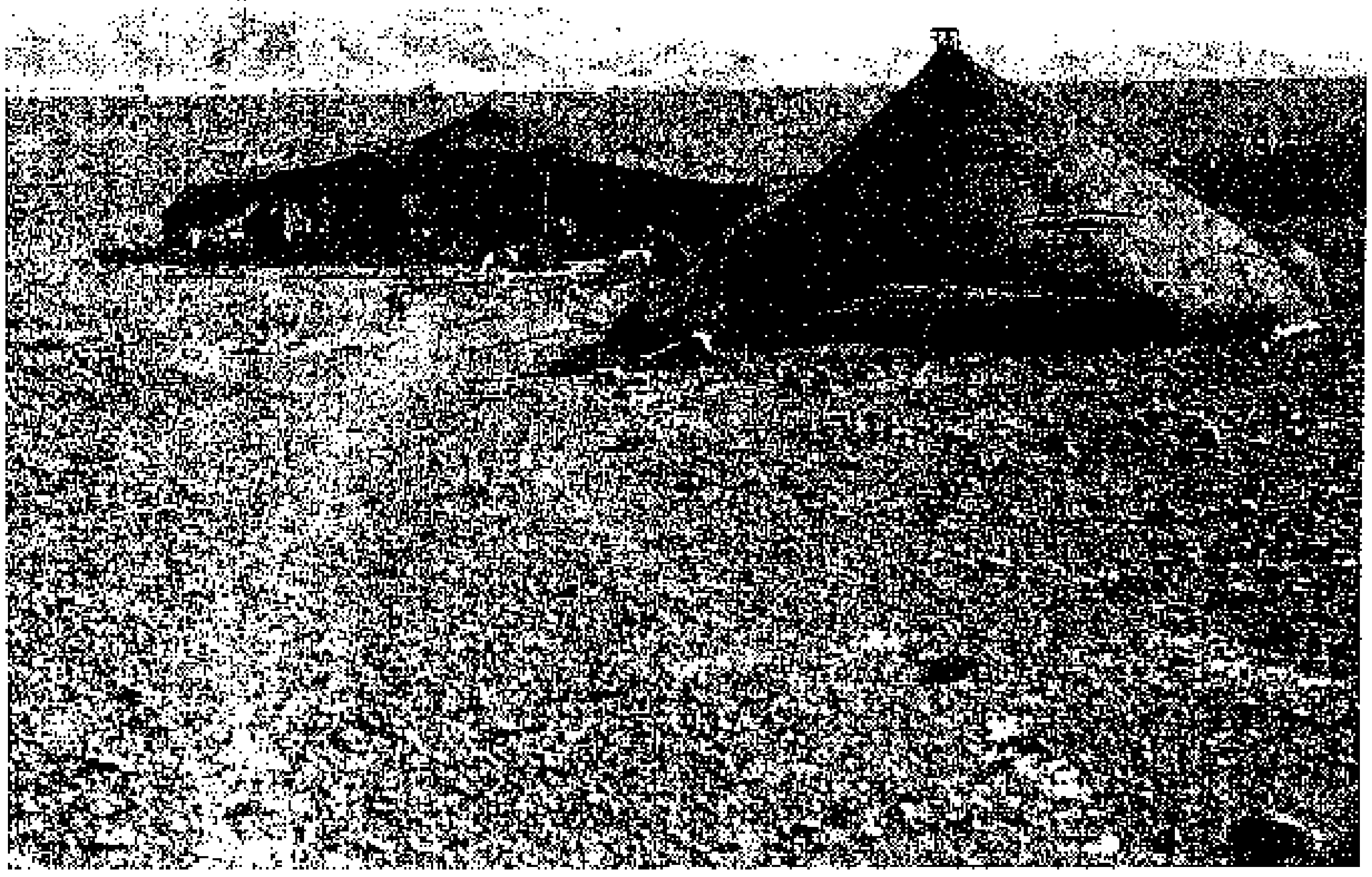

خيام بدوية على حافة الصحراء.

بمراسلات مطولة وأحياناً شعرية مع صديقه ابن الخطيب، الذي كان يتمنى بدوره "النجاة من الورطة" (التعريف: 122).

غير أن تلاطم الأحداث لم يدم طويلاً، وبعدها عاود ابن خلدون نشاطه السياسي من جديد، فبدأ يعمل في خدمة سلطان المغرب، عبد العزيز، الذي راح يتحرش بأبي حمو في تلمسان. وقد عهد بعدها بعثة إلى قبائل الدواودة. وبعد ذلك عاد صاحبنا إلى مدينة بسكرة، حيث قرر اعتزال المناصب السياسية، والانصراف إلى العلم، وذلك قبل أن يطلب إليه القيام بسفارة أخرى إلى جهة كان أعداء السلطان يتربصون فيها ضده. هذا وكان السلطان عبد العزيز واحدًا من أبرز سلاطين بني مرين، والحق أنه وثق من عرى السلطنة بالكثير من الإنجازات. ولذا فإن ابن خلدون قد أهداه كتابه "المقدمة".

ويعتقد الباحث محمد طلبي أن ابن خلدون كان في تلك الحقبة من الوقت يسعى إلى التحرك لتكوين قوة تجمع بين القبائل المتشاحنة والمبعثرة، لإيجاد كيان سياسي مستقر وقوي على الساحة، ولكنه قد فشل في مسعاه هذا والواقع أن بحث ابن خلدون عن رابح قوي في هذا الصراع في المغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، قد ذهب أدراج الرياح، وخيب من حسابات وآمال ابن خلدون. وهنا قرر ابن خلدون أن يرحل عن بسكرة، ليتجنب الصدام مع أصدقائه في مناخ مليء بالشك والريبة. وكان واضحًا أمام عينيه أن السلطان أحمد بن يوسف كان واقعًا تحت تأثير هذه الشكوك التي ينقلها إليه "المخبرون" (التعريف: 116). وعليه رحل ابن خلدون قبالة تلمسان، وفي الطريق علم بنبأ وفاة السلطان واستيلاء أبو حمو من جديد على المدينة. وقد أمر أبو حمو رجاله بالهجوم على موكب ابن خلدون وقطع طريقه ونهب متاعه.

وفي فاس انكب ابن خلدون على العلم وتدريس العلوم، فلقد قوبل في المدينة بالترحاب الكبير. غير أنه بعد قليل، راحت الشبهات تحوم حوله، بفعل الدس، فتم القبض عليه، ثم أطلق سراحه، كما كانت الحال معه في أكثر من موقف. وعندها فكر في العودة إلى بلاد الأندلس، "والانقطاع بصفة نهائية عن السياسة، لتكريس جهده للعلم" (التعريف: 226).

وفي نهاية الأمر، وافقت السلطات على بقائه في فاس (776هـ/1375)، ولكن دون السماح لأسرته باللحاق به. ولقد عمل خصوم ابن خلدون في فاس على نشر الإشاعات أنه قد جاء إليها ليعمل على إطلاق سراح صديقه الوزير ابن الخطيب من سجنه، الذي سرعان ما مات مخنوقًا في سجنه في فاس، بعد هروبه من غرناطة. ولقد حاول ابن خلدون إنقاذ حياة ابن الخطيب، دون جدوى. وبعدها عاد ابن خلدون إلى تلمسان مع عائلته في أول شهر شوال لسنة 776 هـ/ الخامس من مارس 1375، حيث واصل "بحوثه في مجال العلم والمعرفة" (التعريف: 227). ولقد استخدم حاكم تلمسان، أبو حمو، صاحبنا ابن خلدون لكي يضمن له ولاء قبائل الدواودة، فوكل إليه بهذه المهمة.

وقد تظاهر ابن خلدون بقبوله لهذه المهمة، وبدأ رحلته على طريق أولاد عارف، الذين رحبوا بمقدمه، وراحوا يتوسطون لدى أبو حمو لكي يسمح لأسرة ابن خلدون باللحاق به، واستقر الرجل في قلعة ابن سلامة. وهنا وجد الفرصة المناسبة لكتابة كتابه "المقدمة" في سنوات تجاوزت أربع سنين (التعريف: 229).

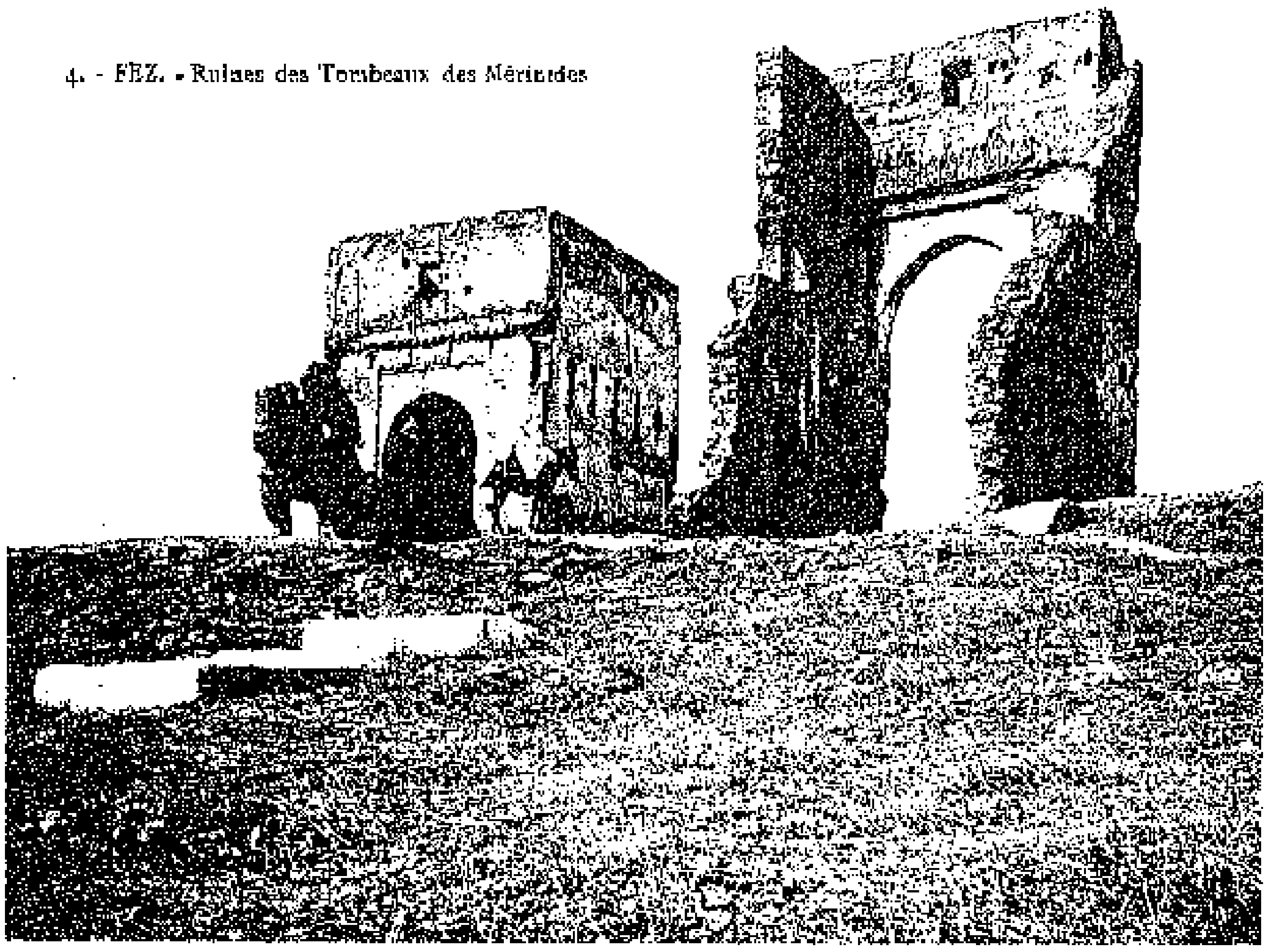

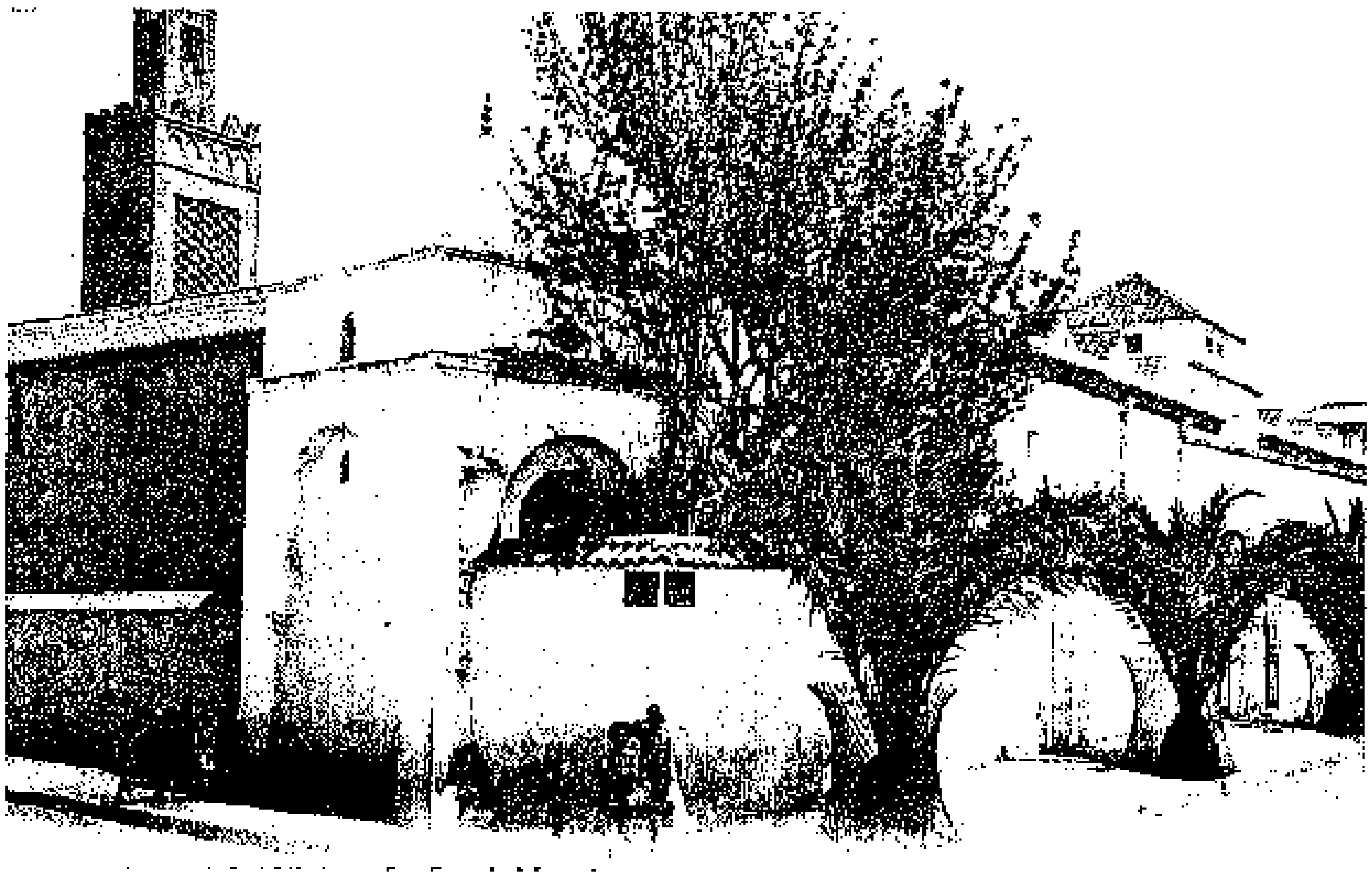

بقايا مدافن سلاطين بني مرين في فاس.
جامع تلمسان الكبير.

وسرعان ما شعر ابن خلدون بضرورة إكمال توثيق كتابه هذا، وفكر في العودة إلى تونس "أرض الأسلاف، حيث توجد بيوتهم وذكرياتهم ومقابرهم" (التعريف: 230). وقد وافق له السلطان أبو العباس، الذي تعرف عليه في بجاية، على مجيئه إلى تونس، ورحب به، في شهر شعبان لسنة 780هـ/ ديسمبر 1378. ولقد سجل ابن خلدون ما لقيه هو وأسرته من حفاوة من قبل السلطان بعبارات بليغة شعرية. ففي هذا نجده يقول "لقد قبلت حماية السلطان وكرمه علي، وأرسلت إلى زوجتي وأولادي، وتم لنا التئام الشمل تحت مظلة السلطان، وعندها توقفت عن الترحال وألقيت جانبًا بعدة السفر" (التعريف: 231). ولقد قربه السلطان من حاشيته، وشجعه على الانتهاء من كتابه "العبر" وقد انتهى من مسودته الأولى، وقدم أول نسخها، مشفوعة بالإهداء وبالمديح، إلى السلطان. كذلك انشغل ابن خلدون بالتدريس لجمهور كبير من طلاب العلم، ولكن بعض الحاقدين أشاعوا أنه يلقن الطلاب بعض الأفكار الهدامة. ومن بين الحاقدين على ابن خلدون كان ابن عرفة الإمام والمفتي، الذي راح يشن حملة شعواء ضد الرجل. وعندها قرر ابن خلدون مغادرة المغرب الإسلامي "الذي كان ماضيه المليء بالأحداث يطارده في كل مكان". وقرر الرحلة لأداء فريضة الحج. وقد أذن له السلطان بذلك، وصعد على متن سفينة أحد التجار المبحرة إلى الإسكندرية في 15 شعبان 784 هـ/ 24 أكتوبر 1382.

ولقد جاء وصف ابن خلدون لخطة مغادرته لتونس في أسلوب غاية في التأثير، حيث يقول: "لقد يممت شطر الميناء، في لحظة كان فيها الناس، والإيمان، والطلاب في حيرة بالغة... ولقد قمت بتوديعهم، وصعدت إلى متن السفينة... وكرست كل روحي لمتابعة العلم" (التعريف: 245).

وعندما حط ابن خلدون الرحال في القاهرة، لم يخف دهشته مما شاهده في عاصمة السلاطين المماليك. وهذا ما نطالعه في سيرة حياته الذاتية: "إن من لم يسعد برؤية القاهرة، لا علم له بعظمة الإسلام" (التعريف: 248). ولكن هل كان ابن خلدون راضيًا عن الإقامة في القاهرة، بدلًا من مواطنه الأصلية في تونس، وفاس، وغرناطة؟ لقد تم تعيينه أستاذًا في الأزهر الشريف، وكان جمهور طلابه وفيرًا للغاية، كما أن السلطان الظاهر برقوق قد رحب بوفادته، وحثه على استدعاء زوجته وأولاده للحاق به في القاهرة.

كذلك اختير ابن خلدون لشغل موقع الفقيه المالكي في المدرسة القمحية. وبعد ذلك عين قاضي قضاة في المدرسة المالكية (سنة 786هـ/1384). وقد عمل الرجل من موقعه هذا على إحقاق الحق، وإنصاف المظلومين، ومحاربة الجهال (التعريف: 257). وفي هذا ما يفسر

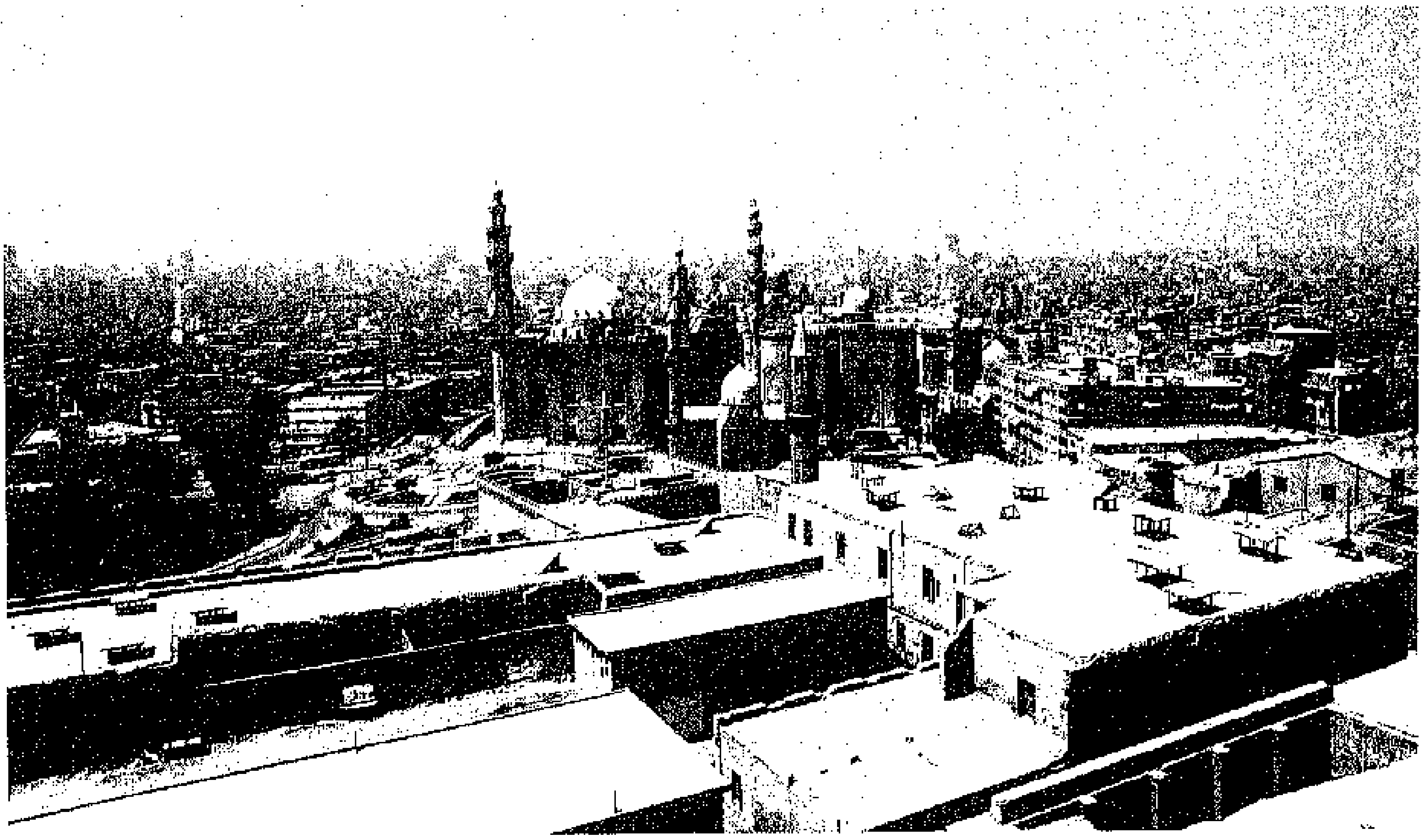

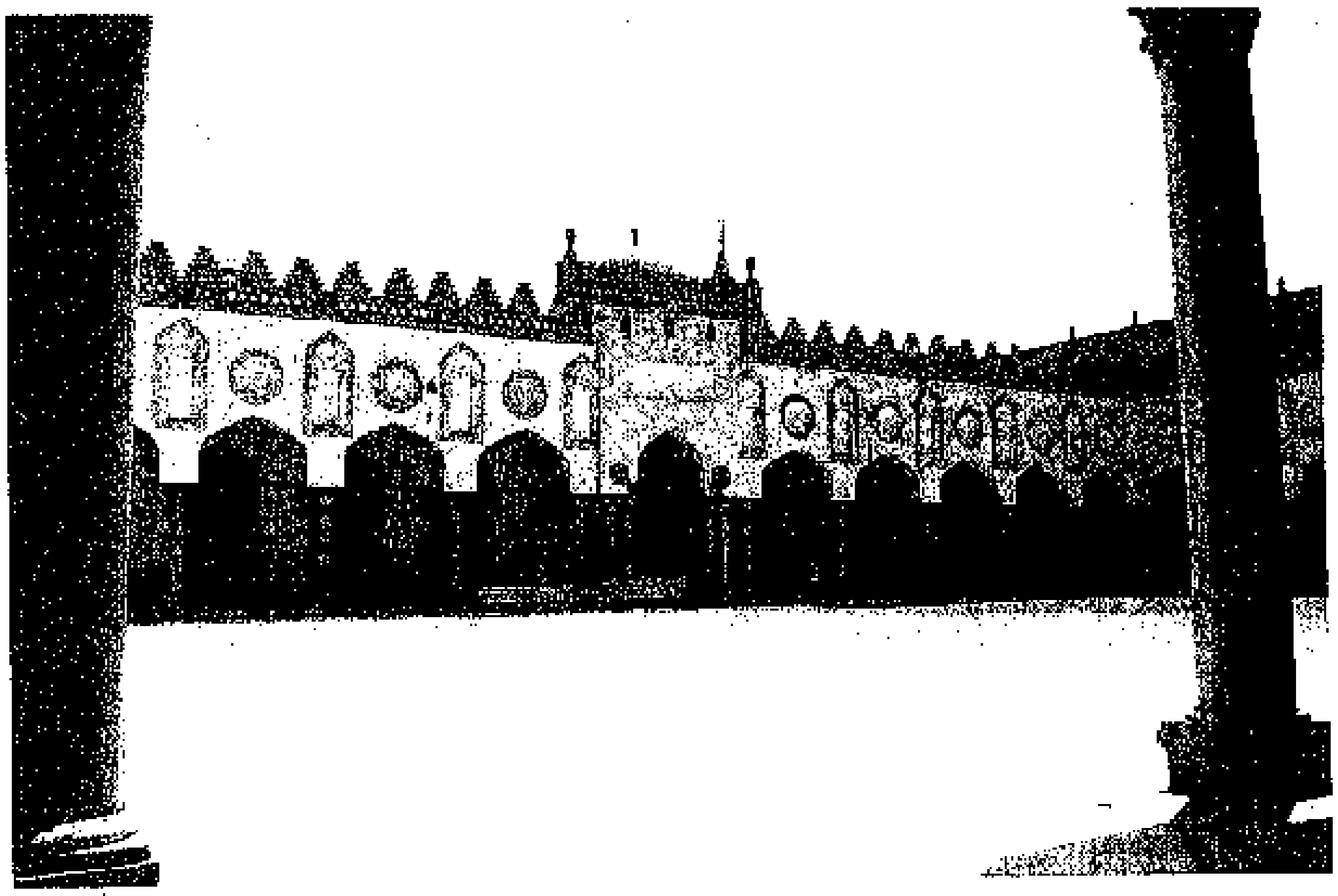

منظر بانورامي للقاهرة، مع المآذن والآثار المملوكية.

صحن الجامع الأزهر الشريف - القاهرة.

الحملة التي شنها أعداؤه الحاقدين عليه، كما يقول هو بنفسه. غير أن بعض المصادر تتهم ابن خلدون بالتشدد والمبالغة والعجلة في أحكامه. ولكن الرجل ظل في موقعه لا ييأس، وفي نهاية المطاف قرر الاعتزال والعودة إلى مهمة التدريس، والقراءة والكتابة، خاصة بعد غرق عائلته في رحلتهم البحرية من تونس إلى الإسكندرية: "لقد تبدد العقل ولم يعد للحياة من مغزى، بعد فقدان الأهل والولد، وبلغ الحزن مداه، وصرنا في مسيس الحاجة إلى هدوء البال" (التعريف: 259). وبعد هذه الأحداث الأليمة قبل ابن خلدون موقع تدريس المذهب المالكي في المدرسة الظاهرية، التي كان قد تم تأسيسها من وقت قريب.

وفي سنة 789هـ/1387 قام ابن خلدون برحلته لأداء فريضة الحج، وبعد عودته اعتزل وأخذ يكرس وقته للعلم والمعرفة. وقد أرسل بنسخة من كتابة "العبر" إلى مكتبة القرويين ليستفيد منها الطلاب (799هـ/ 1397). وبعدها تم اختياره أستاذًا للحديث في مدرسة صرغتمش، وقد خصص محاضرته الأولى للحديث عن كتاب "الموطأ" لمالك.

وبعد أربعة عشر عامًا من التدريس اختير ابن خلدون مرة أخرى لمنصب القضاء، كرئيس "لخانقاه" بيبرس، وهي أهم الخانقاوات الصوفية في مصر.

ولعل أهم حدث في حياة ابن خلدون أثناء إقامته في المشرق الإسلامي، مصاحبته للسلطان الناصر برقوق* إلى دمشق لنجدتها من حصار تيمورلنك المغولي لها، وكان السلطان الناصر سيدًا على مدينة حلب. غير أن برقوق سرعان ما عاد إلى القاهرة، خوفًا من حدوث انقلاب عليه، وبات على ابن خلدون مهمة مقابلة تيمورلنك والتفاوض معه حول تسليم المدينة. ولقد أمضى الرجل خمسة وثلاثين يومًا مع تيمورلنك، وبعدها راح يشكر الله سبحانه وتعالى

* يقصد الناصر فرج بن برقوق (المحرر)

"لإنقاذه من تقلبات الأيام... وللخلاص من وطأة الدنيا" (التعريف: 381). وبعد عودته إلى مصر، أعيد إلى منصبه كقاض، ثم طرد منه المرة بعد الأخرى. وكان آخر تاريخ لتقلده هذا المنصب في ذي القعدة 807 هـ/ مايو 1405، لمدة أقل من العام (ولبعض الأسابيع فقط طبقًا لبعض المصادر)، وذلك قبل وفاته في 26 من شهر رمضان 808هـ/ 17 مارس 1406. لقد كانت حياة ابن خلدون حافلة بالأحداث والتقلبات بسبب تقلده العديد من المناصب السياسية، وقربه من الحكام والسلاطين. ولقد خبر الرجل في هذه الرحلة العاصفة الشيء ونقيضه، من استقرار إلى ترحال، ومن الثقافة إلى دهاليز السياسة.

ولقد حاولنا في هذا الطرح أن نتبع ابن خلدون في رحلاته في البلدان الإسلامية في المغرب والمشرق. والحق أن الرجل عندما كان يهم "للتخلص من عبء الأسفار" ويفكر في الاستقرار، كان يستدعى للترحال مرة أخرى، وهو في هذا كان شبيها بالشاعر المتنبي (توفي 354هـ/965). لقد كان طموح ابن خلدون من صنف طموحات المتنبي، كما كان واسع الآفاق مثله، غير أن زمن ابن خلدون كان يشهد التفكك في العالم الإسلامي، أما المتنبي فقد عاش مع بدايات هذا التفكك.

وعلينا أن نقرأ أسفار وترحال ابن خلدون من خلال الجوانب الأخرى التي كانت تملي على الرجل الذي ترك عشه للتجوال غربا وشرقا.

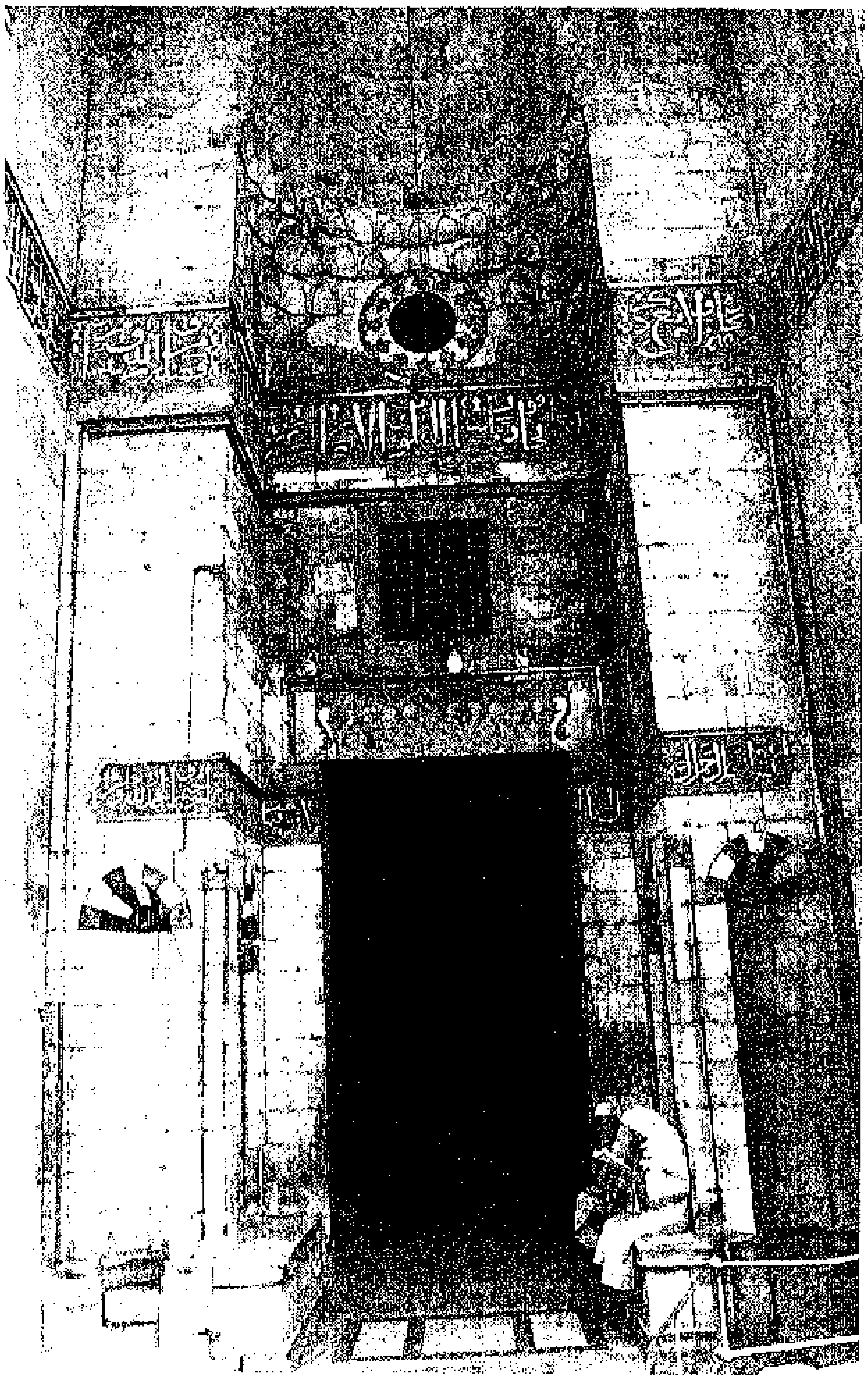

خانقاه السلطان بيبرس – القاهرة.

وواقع الأمر أن الحفاوة البالغة التي كان يلقاها ابن خلدون من رجالات الدولة والحكام، سرعان ما كانت تتبدد ويلقى القبض على الرجل ويودع السجون، لتورطه في بعض المواقف السياسية، أو كنتيجة للدسائس والمؤمرات من جانب الحاقدين عليه. وفي جميع الأحوال فإن هذا الرجل، المتعطش إلى العالم والمعرفة منذ شبابه، قد خبر العديد من التناقضات (وإن كان قد جاهد لتجاوزها) إبان حياته السياسية، ووقوفه إلى جانب الصالح العام، وكذا في تنقله بين دوائر السياسة والثقافة، وفي سعيه الدءوب وراء العلم. وهذا كله قد جعله في حيرة بين طلب الاستقرار من ناحية: وبين الحركة وما تنطوي عليه من حسابات وخداع وعندما سنحت له الفرصة بالاستقرار وكتابة "المقدمة" أخذت حياته في الهدوء، بعيداً عن الزخم السياسي، وبقي عندها "على قمة التل يرقب دفقة الحياة وسعيها وزخمها من عل" [6].

إننا نعتبر أن ابن خلدون مثالاً هاما لذلك المثقف الذي ألقي في خضم فترة مضطربة متقلبة، في تاريخ الأمة العربية الإسلامية وهي تواجه عالمًا آخر في حال تحول قبالة عصر

النهضة Renaissance ولقد وجد الرجل نفسه مكرهًا على الخوض في غمار هذا الزخم السياسي، خاصة بعد أن شاهد "التقلبات" التي كادت أن تعصف بحياته، كما أنه كان يعتبر نفسه مناضلاً يتسلق على التلال لكي يستكشف من عل بواطن الأمور، مع ما في هذا النضال من خبرة نادرة. غير أن هذه المهمة الوعرة لم تكن بحال المعلم المرتجي الذي يسمح له بالدراسة المتأنية للأحداث، ولتشخيص الظواهر، والخروج بالقواعد والخلاصات.

ولهذا فإن الرجل، في كل مرة كان ينزلق فيها إلى دوائر السياسة وما يتعلق بها من مكائد، كان يتمنى أن يعود إلى حياته الثقافية وطلب العلم، ولقد حاول بعض الباحثين التماس الأعذار للرجل، في حين حاول فريق آخر إدانته في قسوة 7. ولكن الجميع يميزون بين ابن خلدون الرجل وبينه "كعلامة" ورجل سياسة وفي جميع الأحوال ليس ثمة ما يسيء للرجل، إذا نحن فصلنا بين سلوك شخص ما في نواحي الحياة وزحامها، وبين الإجماع على قيمته العلمية.

ولنا أن نتساءل: هل كان ابن خلدون يبحث عن قائد قوي يحقق آماله في "العصبية"، ويعتمد عليه في علاج الجروح التي ألمت بجسد العالم الإسلامي، ويتمكن من توطين أشتات الأمة؟ هل كان يفتش عن "المستبد العادل" كما جاء على لسان أحد المسلمين المعاصرين، "لكي يفرض النظام، ويقر الحقوق والمساواة بين الناس [8]"؟

وهل كان السلاطين الذين تقرب ابن خلدون إليهم، وامتدحهم وقدم لهم عصارة فكره، يمثلون له قبساً لتحقيق أحلامه في قائد عبقري؟ ثم هل ظن عند لقائه بتيمورلنك وهو يهم بتخريب دمشق، أنه قد عثر على "الرجل الذي جاد به القرن، والذي يملك أواصر "العصبية" لتوحيد العالم الإسلامي، وتغيير مسار التاريخ"؟ ثم بعد هذا وذاك ألا يكفي أن ابن خلدون قد قدر له أن يخاطب "سلطان العالم وملك الكون كله؟" [9]

لقد كان تنقل ابن خلدون من المعسكر الضعيف المتخاذل، رغم ما كان يحوط به من نفوذ، إلى المعسكر الأقوى، يمثل بالنسبة له توجهًا نحو الواقعية التي صار يؤمن بها، والتي يطلق عليها بعض الدارسين "المكيافيلية" (الغاية تبرر الوسيلة: شعار الكاتب مكيافيلي الإيطالي في كتابه الأمير). لقد كان ابن خلدون يفتش عن ضالته المنشودة في شخص لديه من الزعامة ما يتوافق مع رؤية ابن خلدون في كتاباته، على الرغم من أن هذا البطل المنشود كان وسوف يظل في واقع الأمر مجرد وهم ثقافي يرى في نفسه شيئا أرقى من روتين البشر، وتفاهاتهم، ومن ثم فإنه يتعفف عن النزول من عليائه ليبدد طاقاته في رخص الحياة اليومية. أما ابن خلدون نفسه، فإن لم يرفض حياة السعة وبحبوحة العيش له ولذويه، ولذا فإنه قد سعى إلى التقارب من أصحاب النفوذ والأثرياء، ومن خلال كل هذا وذاك ودأب دوما على التعمق في أبحاثه وكتاباته. ومن ثم فإنه يمكننا القول بأن مسيرة ابن خلدون كانت مسيرة "العلامة"، الذي كان يعيش على "حبل البهلوان" السياسي، محاولاً بقصارى جهده أن يوازن بين تكامل شخصيته من ناحية، وبين ما يوكل إليه من مهام ومناصب.

توفي ابن خلدون سنه 808هـ/ 1406 ولكن سيرته ظلت حية، تلهم الباحثين وتدفعهم إلى المزيد من البحث والتمحيص في أفكاره الخلاقة، وإن كان البعض يشيرون إليها وهم في صدد الحديث عن "الانتهازية".

لقد أثار ابن خلدون شهية الأتراك العثمانيين، والأوروبيين خاصة الفرنسيين، منذ القرن السابع عشر. وكان لهؤلاء الأخيرين قصب السبق في تحقيق وترجمة ودراسة أعماله. ولقد سجل ابن خلدون في "المقدمة" مفهومًا جديدًا لعلم التاريخ ولمهمة المؤرخ "إن دراسة العمران البشري، والأحداث الاجتماعية، وتفهمها هي والعوامل الكامنة لنمو ثم اضمحلال الدول والحضارات، وعن استنباط "العبر" من كل هذا وذاك، هي المهمة الجوهرية للمؤرخ.

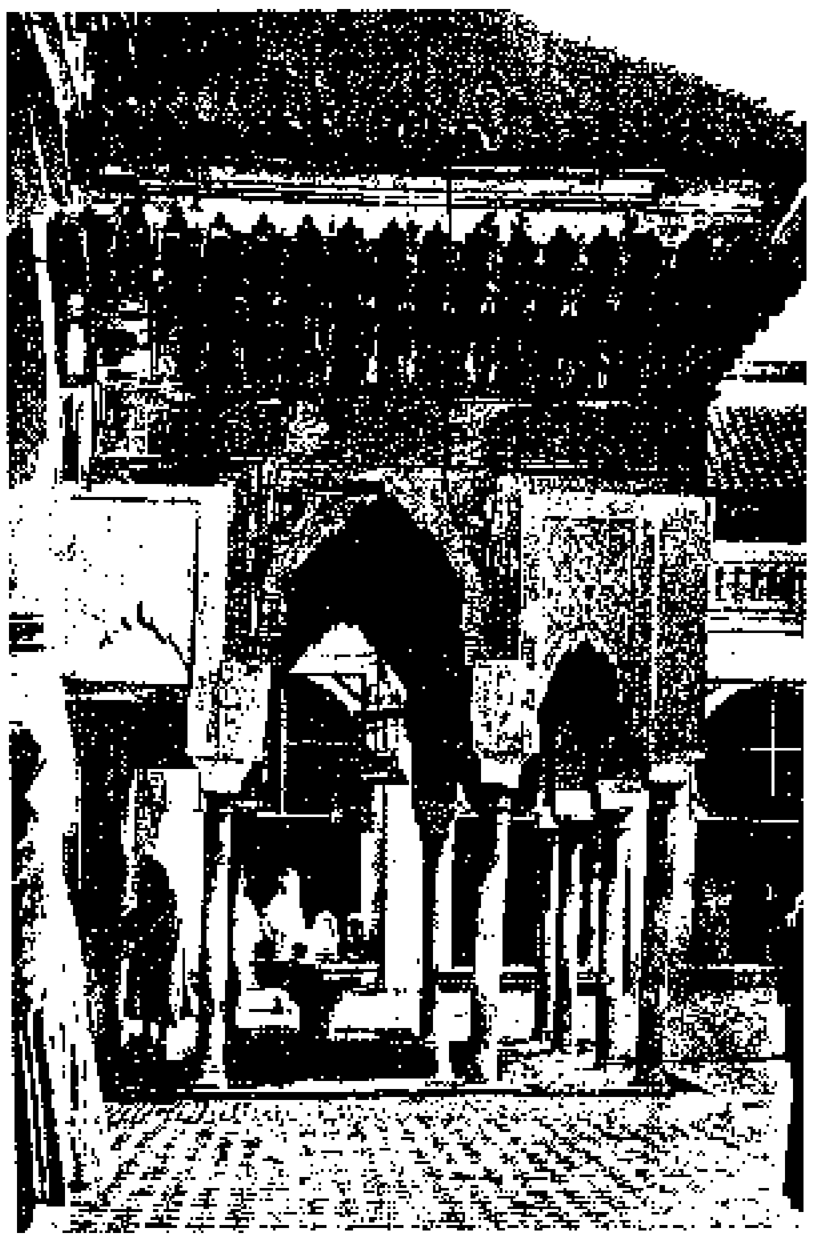

مسجد القرويين في فاس.

تمثال لابن خلدون في تونس، أمام كاتدرائية سان فنسنت.

6 الوردي، المرجع السابق، ص 143.

7 لقد حاول بعض الكتاب اتهام ابن خلدون بالانتهازية والتذبذب في المواقف، خاصة في بلاد المغرب. ولكن هذا الرأي – من خلال تقلباته السياسية – يحتاج إلى إعادة النظر، وإلى تمحيص دقيق لمنجزات هذا العلامة.

8 تعرض ابن خلدون أكثر من مرة لشغل منصب القضاء، ثم طرده منه. وقد برر الرجل هذا الطرد من منصبه بسبب صلابة رأيه في الحق بينما اتهم خصومه بالزور والبهتان والفساد.

9 يعتقد الاستاذ محمد طلبي أن ابن خلدون عند مقابلته لتيمورلنك وتبادل الحديث معه، اعتقد بأنه قد لقي أخيرًا ضالته المنشودة في زعيم مغولي صار سيدا على القرن، وأن لديه من السبل ما يوحد به العالم الإسلامي، على شكل من "العصبية". راجع أيضا: جمال الدين بن الشيخ، دائرة المعارف العالمية، "ابن خلدون".

بنو خلدون
من إشبيلية إلى تونس

حسين اليعقوبي
جامعة منوبة – تونس

ترجمة إسحاق عبيد

درهم ضرب في الأندلس وقت الفتح العربي، 721.

يدور علم الأنساب حول ركائز الشرف، وعزة المولد، والانتساب إلى أصول عرقية "نقية". والنسب أو العصبية كان يمثل حجر الزاوية في النظام القبلي قبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، وظل النسب ذا قيمة بالغة في العصر الإسلامي لتتبع الأصول العرقية وللحفاظ على البيوتات النبيلة الكبيرة أيضًا. كما أن النسب كان عاملاً حاسمًا في كثير من التوجهات السياسية، وبوجه خاص في العصر الأموي، عندما أولى الخلفاء الأمويون أهمية خاصة للنسب العربي، سواء في المشرق أو في المغرب (شمال أفريقيا والأندلس).

وعندما نشب الصراع بين جماعتي "اليمنية" و"القحطانية"، في وقت سعت فيه الدولة الإسلامية إلى إيجاد توازن بين الأعراق المتناحرة، بهدف استبعاد الأعاجم (غير العرب) عن مواقع السلطة، راح علماء الأنساب ينقبون عن الأصول العرقية، ويصنفون السلالات العربية وصولاً إلى الأسلاف الأول [1]. وبالمثل قام البربر بدورهم بتتبع أنسابهم وتقصي بيوتات أشرافهم في العديد من الكتابات [2].

وقد بدأت سلسلة الأنساب تظهر في بلاد الأندلس على يد واحد من المهاجرين العرب الباكرين، وهو محمد بن موسى الرازي (273 هـ/886)، والذي نسب إليه الغساني (1119 هـ/1707) في مؤلفه بعنوان "رحلة"، كتابًا بعنوان "كتاب الرايات"، والذي تناول فيه أنساب العائلات من حملة الرايات عند فتح شبه جزيرة أيبيرية تحت قيادة موسى بن نصير (19 - 640/97 - 716). كما أن الرازي يتتبع أصول عائلات أخرى ممن شاركوا في الفتح، ولكنهم لم يكونوا من حملة "الرايات" [3].

ولقد ورث أحمد بن محمد الرازي (344هـ/955) عن أبيه شغفه بالتاريخ والأنساب، فكتب مؤلفًا بعنوان: "كتاب الوقائع بإشبيلية"، وكتابًا آخر بعنوان: "أنساب مشاهير الأندلس" [4] في خمسة مجلدات ضخمة [5]. ويعتقد أيضًا أنه هو الذي وضع كتاب "الاستيعاب في الأنساب" [6]، الذي يضم معلومات تاريخية عن أنساب بعض البيوتات العربية من الأشراف، وعن بيوتات أخرى ليست من أعراق عربية، وإن كانت قد حظيت بتألق في مجالات السياسة أو العلم.

هذا، ويشار إلى العائلات النبيلة في كتب الأنساب عادة باسم العائلة مسبوقًا بكلمات مثل: "آل" و"بيت" و"ذو" أو "بنو". وأكثر هذه الكلمات شيوعًا هي كلمة "بنو" متبوعة باسم السلف الكبير أو باسم القبيلة. وقد عرفت بلاد الأندلس، وغيرها من بلدان العالم الإسلامي العديد من العائلات التي تستهل اسماؤها بكلمة "بنو"، وهي جمع لكلمة "ابن" [7].

وفي الأصل استخدمت كلمة "بنو" في الأندلس للإشارة إلى العائلات التي كانت تشغل مناصب هامة في المملكة؛ للتدليل على النسب إلى الفاتحين الأوائل، سواء أكانوا من حملة "الرايات" أو غيرهم. وفي وقت لاحق، امتد هذا المصطلح ليشمل "الموالي" في العصر الأموي، والذين صاروا جزءًا من البيوتات العربية النبيلة وبيوتات مشاهير القوم. ومن هذه الفئة الأخيرة (الموالي) نجد: بني باسل، وبني عبده، وبني جوهر.

وكانت نفس الكلمة تستخدم أيضًا لسلالة القادة المشاهير الذين دخلوا بلاد الأندلس تحت إمرة بلج بن بشر الفهري (123 هـ/741). على أن هؤلاء قد تم تفريقهم في مناطق مختلفة من الأندلس على يد أبي الخطار الكلبي (130 هـ/748)، الذي كان حريصًا على

1 Encyclopédie de l'Islam, 2ed ec. (EI): «Sharif».

2 H. Mu'nis, al-Djugrafiya, 2nd ed. Cairo, 1986, 75; and a.so Kitab Mafakhir al-Barbar edited by lévi– Provençal, Rabat, 1965.

3 Mu'nis, ibid, 28

4 Lévi – Provençal, Arabico, II (1955), 280– 288.

5 .Nafh, Beirut, 1988, III, 174

6 Al-Qalqashandi, subh al-A'sha, Cairo, 1970, V. .236

7 EI, tome III, 662

فارس من العصر الأموي، زخرفة على علبة من العاج، تفاصيل من Arqueta de Leyre

تعزيز العرب اليمنية في بلاد الأندلس، وأيضًا لكي يوازن بين العرب والبربر في شبه الجزيرة الأيبيرية. وفي عصر لاحق، بالإضافة إلى العائلات العربية من أمثال "بنو خلدون"، صارت الكلمة تستخدم للدلالة على سلالة الأمويين الذين تمت هزيمتهم، هم وعبيدهم، ممن وفدوا إلى الأندلس بعد دخول عبد الرحمن الداخل (138- 172هـ/ 756- 788) إلى بلاد الأندلس وتوطيد أقدامه ثم إقامة خلافة أموية جديدة هناك.

ولنحاول الآن أن نقتفي سلالة بني خلدون، من حيث موطنهم الأصلي، وموعد هجرتهم إلى بلاد الأندلس، ونستوثق أيضًا من عروبتهم، ومكانتهم الاجتماعية، في عصر ما قبل ظهور الإسلام وبعد ظهور الإسلام، مع وقفة عند مواقفهم الاجتماعية والسياسية ضمن البيوتات النبيلة في الأندلس.

بنو خلدون في المصادر التاريخية

أغلب الظن أن المصادر التي سجلت التاريخ الباكر للأندلس بصفة عامة وإشبيلية بصفة خاصة قد فقدت، أما ما ورد في كتابات الفترات اللاحقة حول الأنساب والتاريخ لبني خلدون فلا يعدو أن يكون مجرد إشارات متفرقة ومتشابهة. كما أن مقارنة ما ورد من أخبار في هذه المصادر لا يضيف شيئًا جديدًا. ويبدو أن هذه الكتابات قد استقت معلوماتها من

8 Al-Ma'rif. Beirut, 1992, VII, 453

مصدر واحد سابق أو أكثر من مصدر مشابه. وهذه المصادر الأولى تتمثل في كتاب المؤرخ الإشبيلي ابن الأشعث الحضرمي بعنوان "التعريف" (3 – 9) [8]، وفي كتاب الرازي بعنوان "كتاب الوقائع بإشبيلية" وغيرهما. ونجد نفس المعلومات متفرقة عند ابن حزم (توفي 456هـ/ 1063) في كتابه "الجمهرة في أنساب العرب"؛ وعند أبي عمر بن عبد البر (توفي 463 هـ/ 1070)، في كتابه "الاستيعاب" وعند ابن حيان (توفي 469 هـ/ 1076) في كتابه "المقتبس".

ويبدو أن ما ورد من أخبار عن بني خلدون في مصادر لاحقة زمنيًا من قبيل: "جدوى المقتبس" للحميدي (توفي 488هـ/1095)، و"مُسهب" للحيدري (توفي 584هـ/ 1188)، و"المُغرب في حُلي المغرب" لابن سعيد (تقريبًا 675 هـ/1276)، و"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أصيبعة (668 هـ/1270م)، و"بيان المغرب" لابن عذاري (توفي بعد سنة 712هـ/1313)، و"الذخيرة" لابن بسام (توفي 542 هـ/1147)، إلى جانب كتب المراسلات المعروفة باسم "أدب الكاتب" لأبي بكر بن خلدون (قبل 682هـ/1283)، و"نفح الطيب" للمقري (توفي 1041هـ/ 1631)، يبدو أن هذه الأخبار جميعها منقولة عن مصادر سابقة.

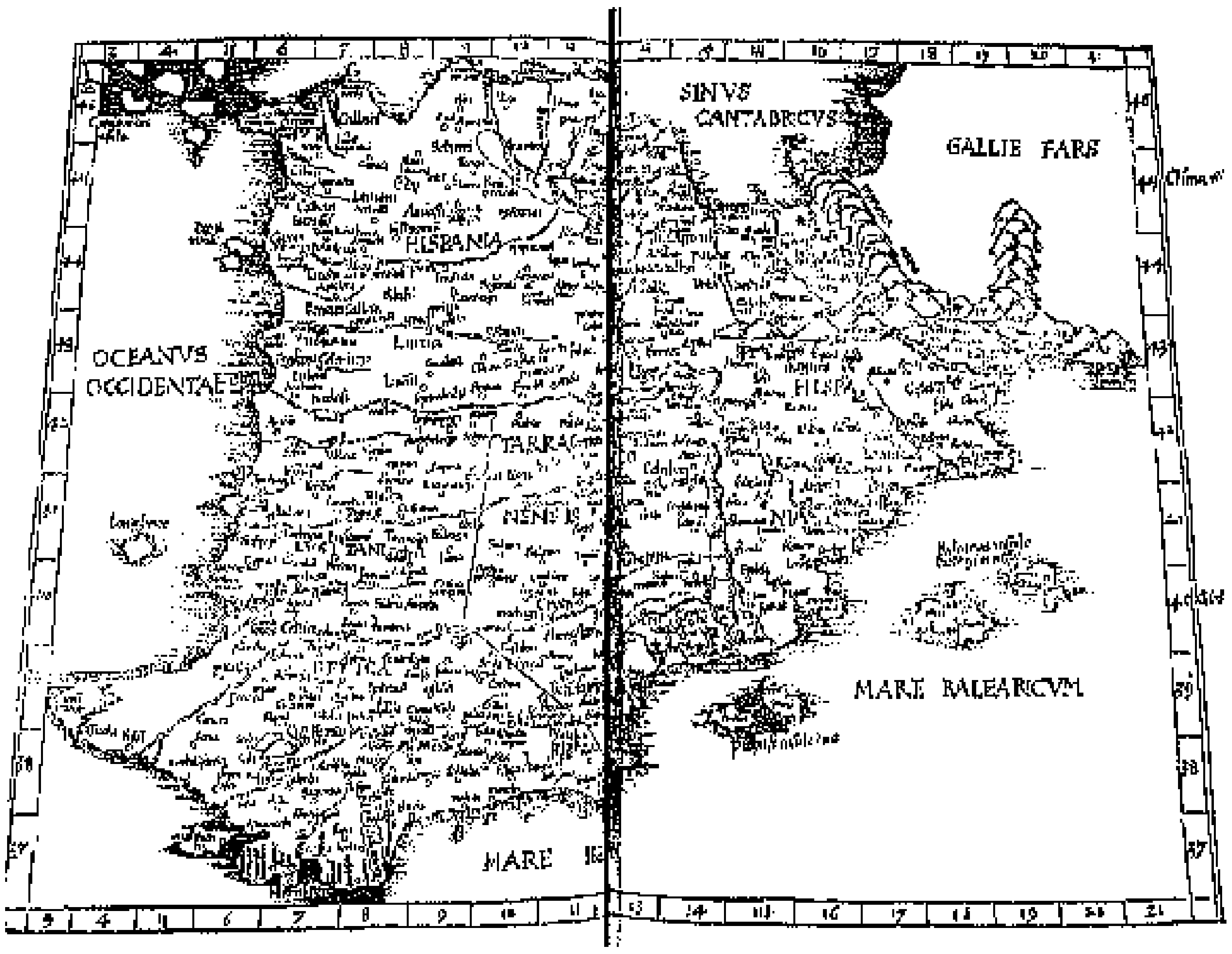

خريطة لشبه جزيرة أيبيرية، في نسخة مطبوعة من جغرافية بطليموس، المكتبة الوطنية – مدريد

أما ابن خلدون نفسه (توفي 808هـ/ 1406)، في كتابه بعنوان "التعريف" فإنه لم يضف جديدًا عن أخبار أسلافه. ورغم محاولته التنقيب عن أصول أجداده وعن المناصب الهامة التي شغلوها في الممالك المتعاقبة، فإن ما قد توصل إليه كان ضئيلاً، ويقوم على ما وجده من أخبار عند ابن الأشعث وغيره من السابقين. ويبدو أنه لم يشر إلى كتاب الوقائع للرازي، وكتاب أدب الكاتب لأبي بكر بن خلدون الأمر الذي جعله غير واثق من مسيرة أجداده المرموقين (من أمثال جده الأكبر أبي بكر)؛ أو صلة القرابة بين أفراد هذه العائلة. ويعترف ابن خلدون في كتابه "التعريف" بالآتي: "إنني على علم فقط بعشرة أفراد من عائلتي وصولاً إلى اسم خلدون، وأغلب ظني كان هناك عدد مماثل ضاعت أخبارهم. ذلك لأن خلدون هو الذي قدم إلى بلاد الأندلس، ولو أن هذا قد تمّ وقت الفتح، فلا بد أن عدد أقاربه كان لا يقل عن العشرين، على أساس حسابي للأجيال، بمعدل ثلاثة كل مائة عام خلال سبعة قرون" [9].

وإذا كان الأمر كذلك، فقد كان من المتوقع أن نجد معلومات جديدة عن أنساب بني خلدون، من علماء العرب الحديثين المتخصصين في ابن خلدون، من أمثال: ابن أبي شنب، وابن تاويت الطنجي، والحصري، وجمال الدين بن الشيخ، ومحمد بن عبد السلام. وفي جميع الأحوال يبقى محمد طالبي كأهم مصدر متخصص عن ابن خلدون في مقاله بدائرة المعارف الإسلامية[10].

أما الجديد حول ابن خلدون فقد جاء في كتابات ليفي بروفنسال بعد كشفه عن مخطوط بعنوان من أدب الكاتب "لأبي بكر محمد بن الحسن، وهو من أسلاف ابن خلدون، الذي سجن على يد أبي عمارة ثم مات خنقًا في زنزانته بعد مصادرة أملاكه. وأغلب الظن أن ابن خلدون لم يكن على دراية بهذا المصدر الذي يقع في خمسة وعشرين

9 Al-Ta'rif, 451

10 EI, III pp., 849 – 855

11 Arabic, II (1955) pp. 280 – 285

فصلًا، ويحتوي على معلومات هامة عن بني خلدون، من أبرزها حدثان سياسيان وقعا لاثنين من بني خلدون مع أميرين من أمراء إشبيلية[11].

ونظرًا لندرة الأخبار عن عائلة بني خلدون، فإنه من الصعوبة بمكان أن نرسم صورة كاملة عن أفراد هذه العائلة وأخبارهم على مدى قرون سبعة. كذلك يصعب علينا أن نتتبع مسيرة أفراد هذه العائلة في الحياة العامة، ودرجة القرابة بينهم.

البحث عن أصول خلدون ومعنى هذا الاسم

يتفق المتخصصون، ومن بينهم القرافي[12]، على أن اسم "خلدون" مسبوقًا بكلمة ابن، وهو اسم مؤلف كتاب "العبر"، لم يكن اسم العائلة، وإنما هو كنية لاسم "خالد" (من الخلود)، وهو السلف الأكبر للعائلة التي دخلت بلاد الأندلس. والاسم خالد مشتق من الفعل العربي "خلد" من الخلود. كما أن الاسمين "خالد" و"عثمان" (والد خالد)، من الأسماء العربية القديمة والأصيلة. والواقع أن ما يدلل على الأصول العربية لهذه العائلة، طبقًا لما ورد في كتاب "التعريف"[13]، أنها تنتسب إلى وائل بن حجر (قبل 50هـ/670)[14]: من قحطان، وهي أسرة نبيلة من قبيلة الحضارمة في اليمن، التي كانت بمثابة الأساس لمملكة حمير، والملوك التبابعة (جمع تُبّع). وهذا النسب النبيل الملكي، بالإضافة إلى الذكاء والحكمة والشجاعة التي تحلى بها خالد، قد مهد له الطريق لكي يشغل مناصب مرموقة بين أشراف القوم.

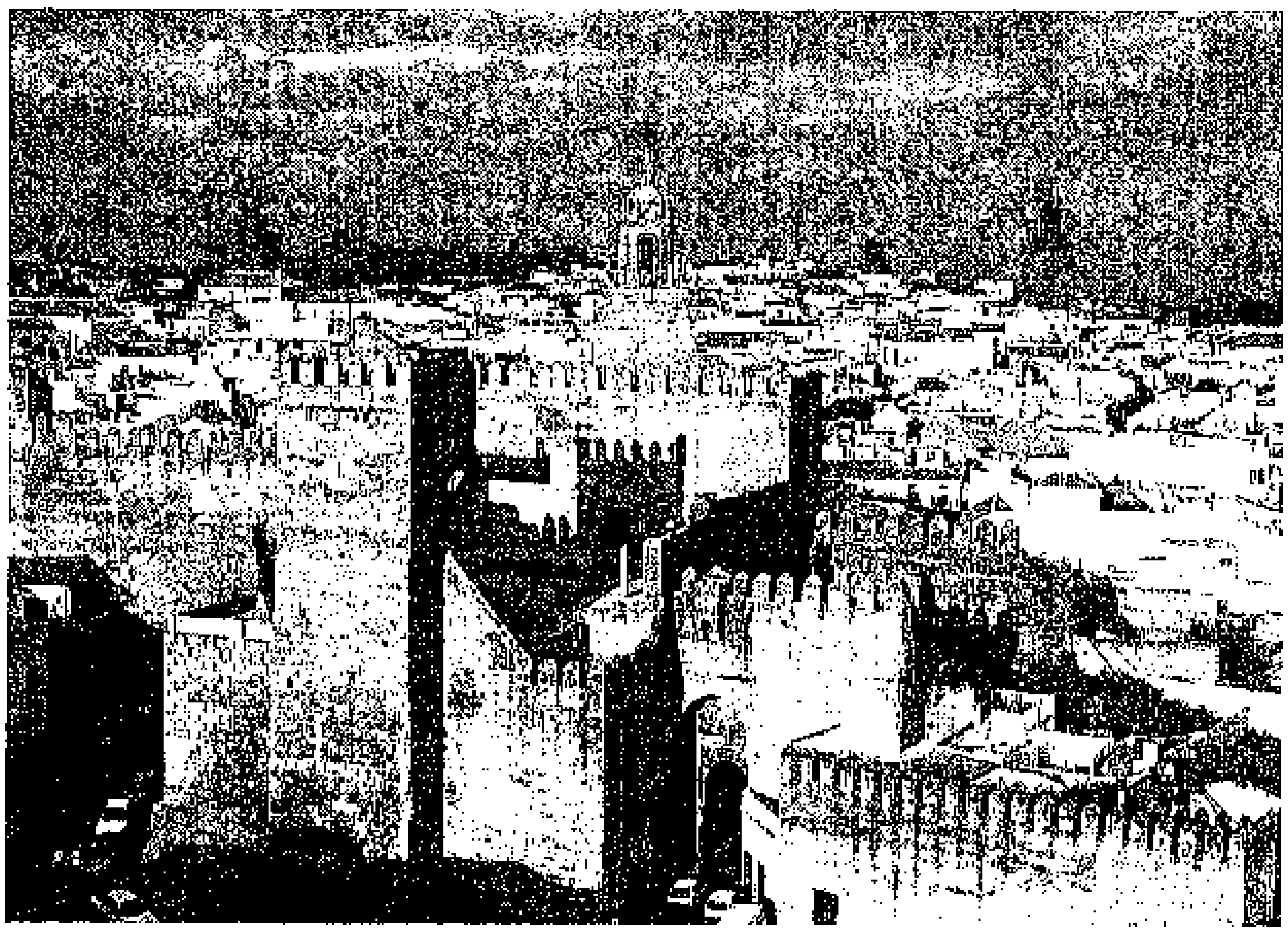

أسوار مدينة قرمونة.

إن هذا الاستنتاج عن ربط النسب بالمناصب العليا في الدولة يتعزز من حقيقة أن العرب كانت لهم أسماء وكنيات خاصة لا يسمح بها للموالي"[15]، ومن ثمَّ كان لا يسمح لهؤلاء الموالي بتبوء المناصب العليا. وفي هذا ما يفسر أسباب ثورة العرب ضد الأمير محمد الأول، عندما قام بتعيين عمرو ابن ليث في منصب القضاء قرابة سنة 250هـ/ 864، الأمر الذي يثير لدينا شيئًا من الدهشة؛ لأن الأمير عبد الرحمن الثاني كان قد عين مسرور بن محمد، وهو من الموالي، في منصب القضاء سنة 207 هـ/822[16].

وبناء على دلالات أسماء بني خلدون النبيلة المقام، وعلى نسبهم إلى وائل بن حجر في العصر الإسلامي، وإلى بني قحطان في العصر الجاهلي (بما يساوي 34 جيلًا طبقًا لشهادة ابن حزم)[17]، فإنه من الصواب أن نخلص إلى أن بني خلدون كانوا من أرومة عربية خالصة. ويتعزز هذا الاستنتاج من واقع ما حظي به أبناء هذه العائلة من مكانة رفيعة في عهود الممالك المتعاقبة، ومن قبل الشرائح الاجتماعية المختلفة في تلك الممالك، وذلك رغم أن بعض هؤلاء الأسلاف الخلدونيين كانوا قد انضموا إلى الشيعة من أتباع علي بن أبي طالب في المشرق.

ومما يؤكد هذا النسب أن خالداً مؤسس العائلة، كان من نسل وائل، المعروف باسم "قيل"[18]؛ وكان "الأقيال" هم الملوك السبعة الذين ورثوا حضارة سبأ القديمة. وعليه فمن المرجح أن هذا السلف الأكبر (خالد) كان من عرق عربي خالص، وفد من بلاد الشام مع الجند اليمنيين إلى مدينة "قرمونة" (في شبه جزيرة أيبيرية). ومما يعزز صحة هذا الرأي أن ابن خلدون نفسه يقول إن أسلافه كانوا "من بين الجند اليمنية"[19]، مع ملاحظة أن كلمة "الجند" كانت مقصورة فقط على العرب الخلص[20].

12 Tawshih al-dibadj, Beirut, 1983, 118
13 Al-Ta'rif, 451
14 Al-Zirikli, Al-A'lam, Beirut, 1986, VIII, 106
15 Al-Muqtabis, ed. Makki, Cairo, 1971, 187
16 Idem
17 Al-Ta'rif, 451
18 Al-Zirikli, VII, 106, quoting from Al-Tadj, VII, 151.
19 Al-Ta'rif, 453
20 Al-Muqtabis, ed. Makki, 297, margin 178

أما عن المناصب العليا التي تبوأها أفراد عائلة خلدون فإنها تتضح من علامات الرضا والتقدير لهم من جانب الحكام، لقاء خدماتهم من ناحية، واتقاءً لتطلعهم إلى الحكم من ناحية أخرى. وكان الحكام يعلمون تمامًا أنهم في حاجة ماسة إلى مساندة البيوتات العريقة الأصل، وفي هذا الخصوص، ينبغي التنويه إلى أن الطموحات في الحكم كانت من سمات العرب القحطانية. يضاف إلى ذلك أن وصول عبد الرحمن الأول الداخل (138- 172هـ/ 756- 788) إلى سدة الحكم في الأندلس، ربما قد حرك الكثير من المشاعر القبلية القديمة الكامنة في نفوسهم.

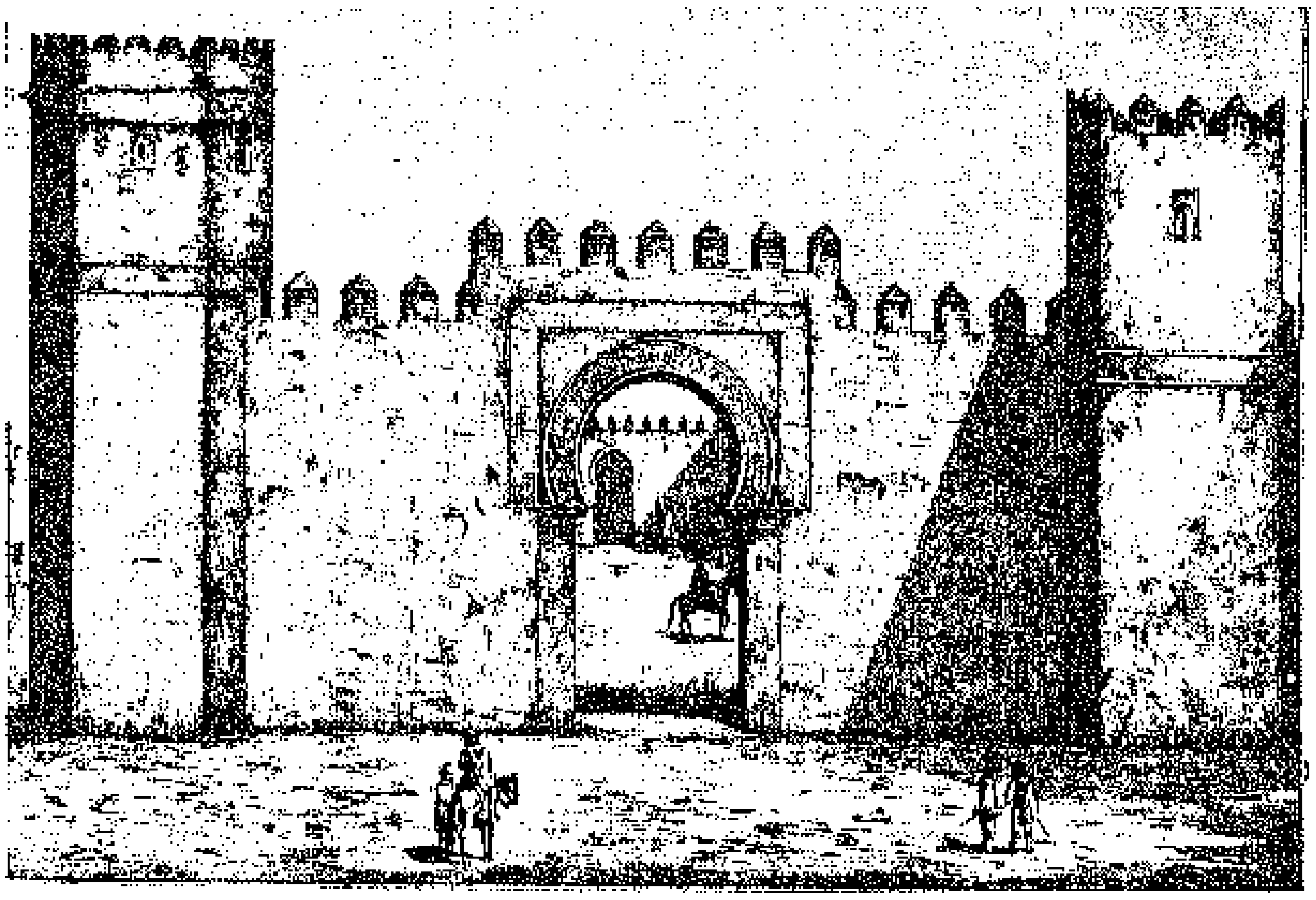

أسوار القصر الملكي في إشبيلية.

والواقع أنه بمجرد أن بدأ بدر في التمهيد لعبد الرحمن لدخول الأندلس، بدأت مشاعر الفرقة بين القبائل وبين الجند، كما أن أشياع بني العباس حرضوا على الثورة، وكان على رأس هؤلاء العلاء بن مغيث (146هـ/763).

وفي حين أن أبا عبده[21] هبَّ لمناصرة الأمويين، قام أبو الصباح اليحصبي قائد الجند اليمنية[22]، ومعه بكر بن يحيى[23] بالتحريض على الثورة ضد عبد الرحمن الداخل. ومنذ تلك اللحظة راحت السلطات تشن الحملات ضد المتمردين في كل من قرمونة وإشبيلية[24].

ومما هو ثابت، طبقًا لما ورد في كتاب "التعريف"[25] أن "بيت بني خلدون" قد قصدوا إلى إشبيلية. والواقع أن هذه المدينة قد جذبت إليها اليمنيين بصفة عامة والحضارمة منهم على وجه الخصوص، وذلك منذ عهد أبي الخطار الكلبي. وقد ضاعف من عوامل الجذب إلى إشبيلية أن الأمير الجديد كان يواجه صعوبات، وفي حاجة ماسة إلى من يعضده من اليمنية في مواجهة تمرد العرب القيسية. ومن المرجح أن خالدًا، بينما كان لا يزال في قرمونة، قد ألف جماعة من بني جلدته لتمهيد الطريق أمام عبد الرحمن الداخل. على أن خالدًا بموقفه هذا، كان مخالفًا لمشاعر اليمنية الذين عارضوا فكرة دخول عبد الرحمن، ولذا فإنه (خالد) قد حظي بالرضا من جانب أبي عبده حاكم إشبيلية، ثم من جانب الأمير عبد الرحمن نفسه، الذي أنعم عليه بلقب "رئيس"، وهو من الألقاب التي كانت من حق الأمير فقط أن ينعم بها على من يرضى عنه، سواءً على الصعيد السياسي أو العلمي.

ولذا فإنه من المرجح أن ما حققه خالد من تبوء للمناصب العليا هو وسلالته كان نتيجة لموقفه المؤيد للأمير من ناحية؛ ولتحدره من أسرة نبيلة من ناحية أخرى. ويبدو أنه قد نعم بلقب "رئيس" عندما كان مقيمًا في بلده قرمونة، وتوارث أبناؤه وأحفاده من بعده هذا اللقب الشرفي. وعندما انتقل أبناؤه إلى مدينة إشبيلية، راح هؤلاء في تعزيز لقبهم هذا، وكما يخبرنا ابن حيان "أبدى بنو خالد درجة مرموقة من الذكاء"، جيلاً بعد جيل حتى منتصف القرن الخامس الهجري"، كما أنهم تبوأوا "مناصب رسمية ومواقع علمية مرموقة"[26].

ومع ذلك، فهنالك عدد من الدارسين الذين لا يوافقون على هذا الرأي، ومع أنهم لا ينكرون على خالد نبل مولده، إلا أنهم يصفونه بالمناصر الذي كان يسعى للسلطة والاستبداد، وأنه قد حقق ما حقق من رقي من خلال تواطئه مع السلطات القائمة، التي كانت تمر بحال من التدهور والضعف. ويعتمد أصحاب هذا الرأي الأخير على النقاط التالية:

21 Idem, margin 123
22 Idem, margin 346
23 Ibn 'Idari, Al-Bayan, Beirut, 1948, II, 137
24 Al-Himyari, Al-Rawd, 2nd ed., Beirut, 1984, 158-159; and J. Bosch-Vilà, EI, IV, 692.
25 Al-Ta'rif, 452
26 Idem, p. 453

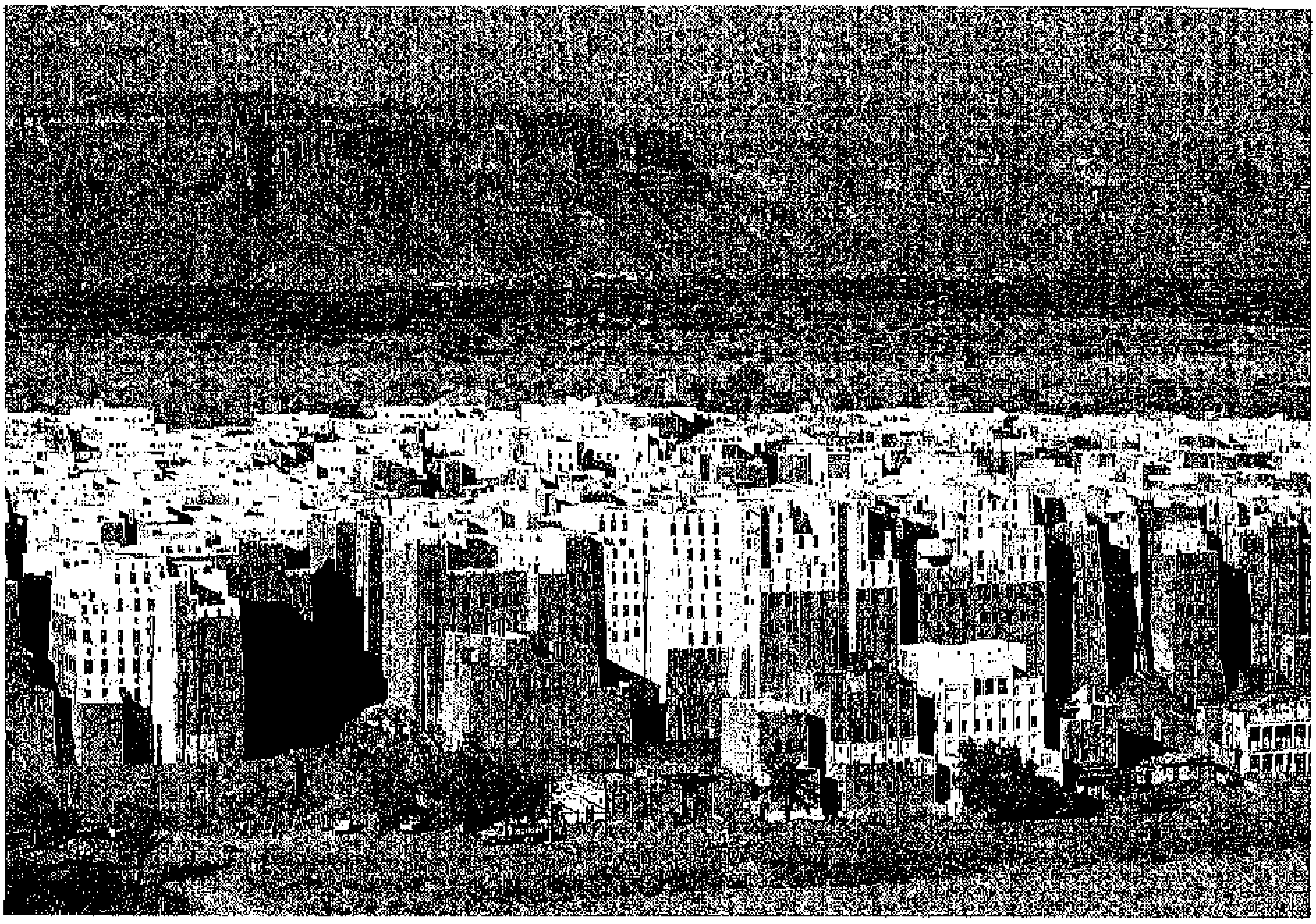

منطقة حضرموت: قبالة مدينة شبام- اليمن.

1 - لا توجد إشارات إلى بني خلدون في المصادر الأندلسية قبل القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد). وترد أول إشارة إليهم عند ابن الأشعث، وهو من أصول حضرمية، فلربما فعل ذلك مدفوعًا بعاطفة القبلية نحو الحضارمة اليمنيين.

2 - دأب بنو خلدون طوال تاريخهم على تحسين الفرص لتحقيق مآربهم السياسية، أثناء ضعف الحكام، إما للانتقام لمقتل أحد أسلافهم، أو لتحقيق مكاسب سياسية وتبوء المناصب العليا.

3 - لم يكن نسب بني خلدون معروفًا في البداية ليشيد به أحد شعراء العصر في مدائحه كما جرت العادة. ولو أن أحدهم قد تبوأ منصبًا رفيعًا، لكان الشاعر ابن عبد الربيعي (توفي 328هـ/ 932). قد مدحهم، مثلما فعل مع ابنَي أبي عبده (المنذر وأحمد)، ومع ابن حجاج، الذي شارك في حكم إشبيلية مع أبناء خلدون (خالد وكريب).

4 - لم تشر الفصول الأولى من كتاب "المقتبس" حتى منتصف القرن الثالث للهجرة إلى بني خلدون، وينطبق نفس الشيء على كتب السير. وهذا يعني أن عائلة بني خلدون لم تكن مشهورة.

5 - إن الاشتقاق العربي لاسم العائلة (بني خلدون)، وكذا استخدام كلمة "بني" لا تعني بالضرورة أنهم من أصول عربية نقية ونبيلة. ويتضح هذا من أن ابن خلدون نفسه لم يكن يعرف أكثر من عشرة أفراد من أسلافه العشرين، الأمر الذي يجعل تسلسل هذه الأسرة لا يتعدى وقت الجد بلج بن بشر.

أما إضافة "الواو والنون" لاسم العائلة، فليس محتملاً أن يكون هذا تقليداً متبعًا في: اللسان العربي الكلاسيكي، وربما كان مقصورًا على بعض اللهجات القبلية. ذلك أن اللسان العربي في بلاد المشرق لم يكن يستخدم نعوتاً أو أسماء من هذا القبيل،

خريطة شبه الجزيرة العربية، عن جغرافية بطليموس، النصف الأول من القرن السادس عشر.

اللهم إلا في بعض الأسماء من قبيل "حمدون". ويحتمل أن "الواو والنون" قد أضيفتا إلى أسرة خالد بعد دخوله شبه الجزيرة الأيبيرية، وليس قبل ذلك، حيث كانت هذه الإضافة شائعة هنالك، بقصد تزيين الأسماء وإظهار رفعة مكانة الأفراد. ولربما أيضًا أن هذه الإضافة كانت تحت تأثير الحركة الرومانسية في بلاد الأندلس على بعض الألفاظ والأسماء العربية، إن صحّ وجود تأثير للثقافة اللاتينية على بنية الأسماء العربية.

وهذه النظرية اللغوية قد تعزز من نظرية أخرى مؤداها أن بني خلدون قد أدخلوا ضمن الأسر النبيلة بطريق الخطأ. وفي جميع الأحوال، لا يمكن تقبل هذه النظرية اللغوية وتفسيراتها، إلا بعد التحقق علميًا من عدم وجود تناظر في بنية كل من اللسان العربي في الأندلس واللسان اللاتيني.

بنو خلدون في المشرق

كان والد وائل ملكًا لقبيلة حضرموت، كما أن الرسول ﷺ نفسه كان قد عين وائل هذا حاكمًا على تلك الناحية[27].

ومن الواضح أن خالد لم يحظ في المشرق بالأهمية التي تسبغها عليه المصادر الأندلسية. والواقع أن اسمه لم يرد في أيٍّ من المصادر المشرقية؛ رغم أن قبيلته الحضرمية كانت مرموقة في شجاعتها وقوتها، خاصة في إنجازاتها على بلاد الشام والعراق، كما أن زعماءها كانوا يعرفون بالتطلع إلى السلطة. والأرجح أن خالد قد حصل على منصب مرموق بين الجند الحضارمة الذين شاركوا في فتح شبه جزيرة أيبيرية، نظرًا لشجاعته وذكائه، وبعدها ازداد تألقه نتيجة لخدماته وأيضًا بسبب أصوله النبيلة. وعليه فقد اختير زعيمًا لقبيلته، التي استقرت في سهول بلدة قرمونة، في حين أن البربر قد استوطنوا في المناطق الجبلية.

وفي جميع الأحوال، لم تكن مرونة خالد أمام تقلبات الظروف والأحوال، أو تراجعه وتواريه وقت الحاجة لتقلل بحال من سمعته الطيبة. بل على العكس، كان من الطبيعي لشخص في مثل موقعه وأصله النبيل المنحدر من ملوك العصر الجاهلي ورثة حضارة سبأ، أن يتحلى بالطموح والسعي نحو السلطة. والواقع أن أصول خالد العريقة لم تقتصر على عصر ما قبل الإسلام، فالمعروف أن أحد أسلافه، وائل، قد قام بزيارة الرسول محمد ﷺ (توفي 10هـ/632)، وأن الرسول قد مدّ بساطه ليجلس عليه وائل، كما دعا له ولذريته لينعم الله بالخير عليهم. وفيما بعد أرسل الرسول ﷺ معاوية بن أبي سفيان مع وائل هذا ليعلم قومه القرآن الكريم[28]. كما أن المصادر التاريخية تقول بأن معاوية بن أبي سفيان فيما بعد وجه دعوة إلى وائل لينضم إلى بلاطه، ولكن وائل رفض هذه الدعوة مما أغضب معاوية عليه؛ خاصة وأنه كان متعاطفًا مع خصوم الأمويين. والواضح أن وائل قد سار

27 Al Zirikli, VIII, 106

28 Al- Ta rif, 452

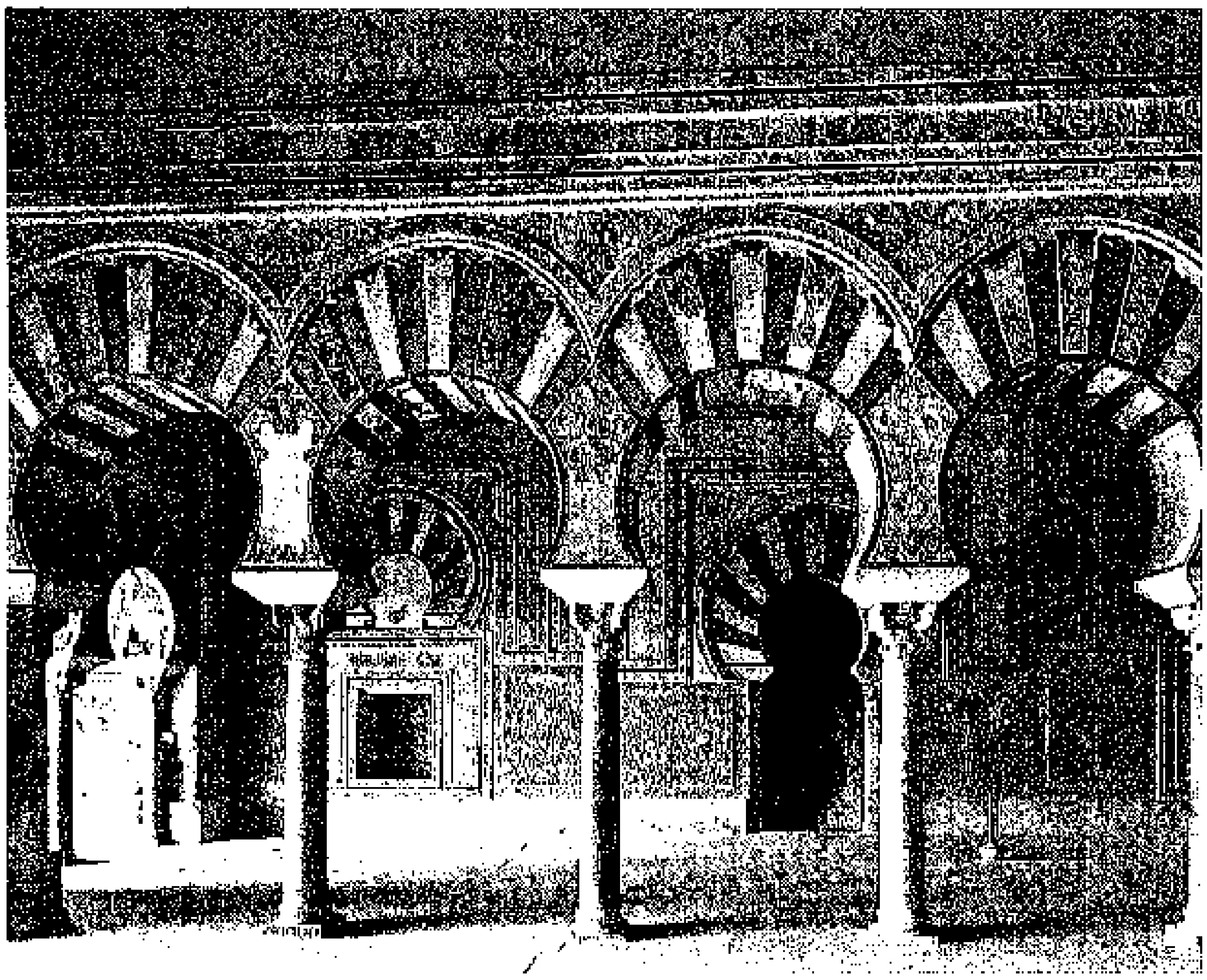

تصوير للبهو الخلافي في مدينة الزهراء الأموية.

على منهج الأشعث الكندي (23- 40هـ/ 600-661)[29]، وحجر بن عدي الذي قتل على يد معاوية سنة 51هـ/671 طبقًا لبعض المصادر، أو في سنة 53هـ/673 طبقًا لبعض المصادر الأخرى[30]. والأهم من ذلك، أن وائل كان معارضًا لسياسة معاوية، بل إنه انضم إلى صفوف علي بن أبي طالب في معركة صفين (37هـ/657)، وهو يرفع راية الحضارمة في المعركة[31]. ولذا فإن معاوية كان يتحين الفرصة للانتقام من وائل.

وبعد أن توصل معاوية والحسن بن علي إلى اتفاق، قام زياد ابن أبي سفيان (53هـ/ 673)، حاكم الكوفة آنذاك، بالقبض على وائل وبعض زعماء القبائل اليمنية، ثم أرسل بوائل إلى معاوية الذي قام بإعدامه، مع أن بعض المصادر تقول بأن إعدامه قد تمَّ على يد يزيد بن معاوية (41 - 64هـ) وليس على يد معاوية. وبهذا يكون وائل أول أسلاف بني خلدون الذي أعدم في العصر الإسلامي، دون أن يتمكن الحضارمة من الثأر له.

ولم يكن إعدام وائل لينهي العداوة بين اليمنية والأمويين؛ وفي هذا يقول المؤرخ الطبري (توفي 310هـ/922) أنه في كل مرة كان الحجاج بن يوسف الثقفي (توفي 95هـ/714) يرى عبدالرحمن بن الأشعث الحضرمي (توفي 85 هـ/704)، كان يصيح قائلاً: "عندما أشاهده أشعر بالرغبة في قتله". ولكن عبد الرحمن رد على هذا التهديد بقوله: "وإنني أقسم ببذل جهدي لخلعه من منصبه"[32].

وظل اليمنيون يناوئون أمراء وخلفاء بني أمية، رغم المعارك العديدة التي شنها الأمويون ضدهم، وكانوا يعتزون بنسبهم إلى قحطان، وبأنهم أحق من غيرهم في تبوء السلطة والحكم[33].

ومع ذلك ينبغي ملاحظة أنه منذ عصر "الأقيال" حتى هذا المنعطف من التاريخ، لم يكن هنالك ملك من الحضارمة في أية بقعة في العالم. ولكن هذا لا يعني أن الحضارمة لم يكونوا يتطلعون إلى السلطة، بل على العكس بأنهم ظلوا يسعون إليها في كل رقعة حلوا فيها. ولنا أن نتساءل: هل يتمكن القحطانيون من تحقيق طموحاتهم في المغرب بعد أن فشل أسلافهم في تحقيق هذه الطموحات في بلاد المشرق؟

بنو خلدون في الأندلس

كان خالد، مؤسس بيت بني خلدون في الأندلس، من نسل وائل سالف الذكر[34]. وكان من أوائل النبلاء الحضارمة الذين قصدوا إلى بلاد الغرب الإسلامي، لما كانت تتمتع به من ظروف مواتية سياسيًا، وماديًا، ومعنويًا، وذلك أملاً في تحقيق أحلامه وطموحاته وليس من المعقول أن هؤلاء الحضارمة قد قصدوا إلى الغرب لمجرد تنفيذ سياسات الوليد بن عبد الملك (125 - 126هـ/743 -744)، أو الصميل بن حاتم (توفي 142هـ/759)، بهدف إيجاد توازن عرقي في بلاد الأندلس. والواضح أنهم قد نزحوا إلى الغرب، أملاً في تحقيق طموحاتهم، وسعيًا وراء إقامة إمارة أو مملكة قحطانية في تلك البقاع. وهنا ينبغي ملاحظة أن هذه الطموحات قد دفعت الأسر النبيلة العربية آنذاك إلى نفس الدرب، خاصة بعد أن

29 Al Zirikli, I, 332
30 Al-Himayari, Al-Rawd, 536
31 Al Zirikli, VIII, 106
32 Al-Tarikh, 2nd ed., Beirut, III, 617; and L.V. Vaglieri, EI, II, 738.
33 G. van Vloten, Recherches, 61
34 Al-Zirikli, VIII, 106.

أصبحت قرطبة عاصمة للأندلس بدلاً من إشبيلية[35]. وهنالك اشتعلت المنازعات الشرسة بين بني خلدون، وبني عبده، وبني حجاج؛ للاستيلاء على السلطة في كل من قرمونة وإشبيلية.

ولكننا لا نعرف الكثير عن شخصية خالد نفسه، أو عن عمره آنذاك، أو عن وضعه بين الجند اليمنية، أو حتى عن مذهبه وتوجهاته السياسية. وأغلب الظن أنه كان قد تجاوز مرحلة الشباب، وبأنه قد تزوج وأنجب أبناء بعد أن استقر به المطاف في بلاد الأندلس، وعندما أصبح عبد الرحمن الداخل أميرًا على البلاد كان خالد على الأرجح في الخمسينيات من عمره. وقد عاش لأكثر من عقد تحت حكم الداخل، متمتعًا بالتقدير والتميز في موقع وظيفي مرموق. ونتيجة لذلك حظي هو ونسله بالتقدير والاحترام، ويشير ابن خلدون نفسه إلى هذا التميز في كتابه "التعريف"، مشيرًا إلى "أصول هذه الأسرة... في إشبيلية"، حيث يقول بأن أفرادها "قد كانوا على قدر وافر من الفطنة، وأن قد شغلوا وظائف مرموقة وحصلوا على ألقاب العلماء"[36].

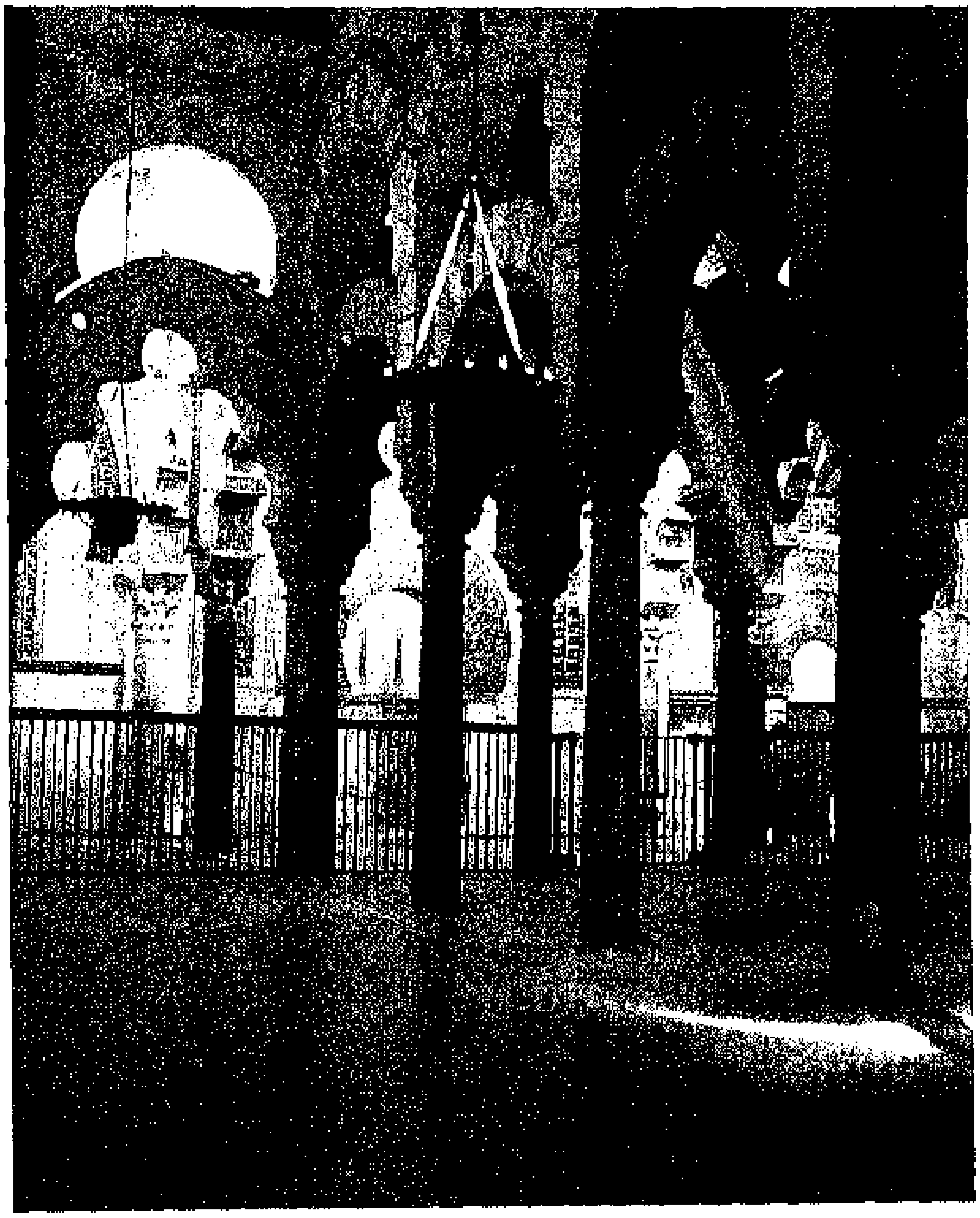

جامع قرطبة من الداخل.

على أن بني خلدون سرعان ما تخلوا عن خدمة السلطان، وبدأوا في التمرد، كما يعترف بذلك أبو بكر بن خلدون في كتابه "أدب الكاتب"، نقلاً عن الرازي في مؤلفه "كتاب الوقائع بإشبيلية". ويشير الرازي هنا إلى حادثين يوضحان كيف وصل بنو خلدون إلى السلطة في مرحلة مبكرة، عندما كان اثنان من أفراد الأسرة يشغلان منصب حاكم إشبيلية تباعًا، وهي ولاية عرفت بتمرد الحضارمة فيها، سعيًا وراء الاستقلال عن الحكومة المركزية[37]. ويروي أبو بكر كيف أن سلفه كريب بن عثمان بن خلدون كان حاكمًا لإشبيلية، وبأنه كان منوطًا بأمور النحت والعمارة للأمير محمد الأول بن عبد الرحمن (238- 275 هـ/852- 888)، والمعروف أن عبد الرحمن الثاني كان يسيطر على كل بلاد الأندلس ما بين أعوام 207هـ/ 822 حتى 238هـ/852. أما الحدث الثاني فهو عن خلفه "الرئيس" أبي هاني بن كريب بن عثمان بن خلدون، الذي كان بدوره مشرفًا على العمارة والنحت لعبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (275 - 299هـ/888 - 911) في إشبيلية، حيثما كان (أبو هاني) حاكمًا لإشبيلية، مع ملاحظة أن محمد بن عبد الرحمن هذا كان يحكم ما بين أعوام 238 هـ/852 حتى 275هـ/888.

إن حقيقة تمتع أبي هاني بلقب "الرئيس" في ذلك الوقت تكشف عن النفوذ العريض الذي كان في يده، والذي مكنه من تحدي السلطان نفسه، وكل هذا يكشف عن ازدياد سطوة بني خلدون في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة. وعن هذا يقول ابن عذارى

35 EI², IV, 120-122, J. Bosch Vilá
36 Al-Ta'rif, p. 453
37 EI², IV, 120

(توفي بعد سنة 712هـ/1313) إنه بعد أن تولى الأمير عبد الله (275هـ/888) الإمارة، "ووجهت السلطة بصعوبات كثيرة خيانة ومشاحنات ونفاق؛ فلقد ازداد التمرد، وحدث الظلمات، وتفرقت القلوب، وانحل عقد المجتمع. كما توقف فتح الأراضي، وباتت أرض الإسلام في الأندلس في خطر داهم ... وذلك بسبب تمرد ابن حفصون، وما تبع ذلك من حركات عصيان على يد "المولدين" (الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام)، ومن جانب بعض النبلاء العرب في إشبيلية والبيرة. ولقد انفصل بنو حجاج بمنطقة إشبيلية: فاستولى إبراهيم على نصف الإقليم، في حين استولى ابن خلدون على النصف الآخر، وامتنع الاثنان عن دفع الخراج لخزانة الدولة، الأمر الذي جعل المطرف، ابن الأمير عبد الله، يودعهما السجن سنة 282هـ/895م، وإن كان قد أطلق سراحهما فيما بعد، عندما وصل الخراج إلى قرطبة[38].

على أن الأحوال سرعان ما تبدلت، إذ إن الأمير عبد الله تمكن من إستعادة نفوذه، وقاتل المتمردين، ونجح في سنة 286هـ/829 في إلحاق الهزيمة بأسرتين من بين الأسر الثلاث الطامعة في حكم إشبيلية، وهما أسرة بني خلدون وأسرة بني حجاج. ويورد ابن عذارى تفاصيل تآمر هاتين الأسرتين، الواحدة ضد الأخرى: مما يخالف الصورة التي يقدمها لنا ابن خلدون في كتابه "التعريف"[39]. يقول ابن عذارى في أخبار وفاة كل من كريب وأخيه خالد ما يلي:

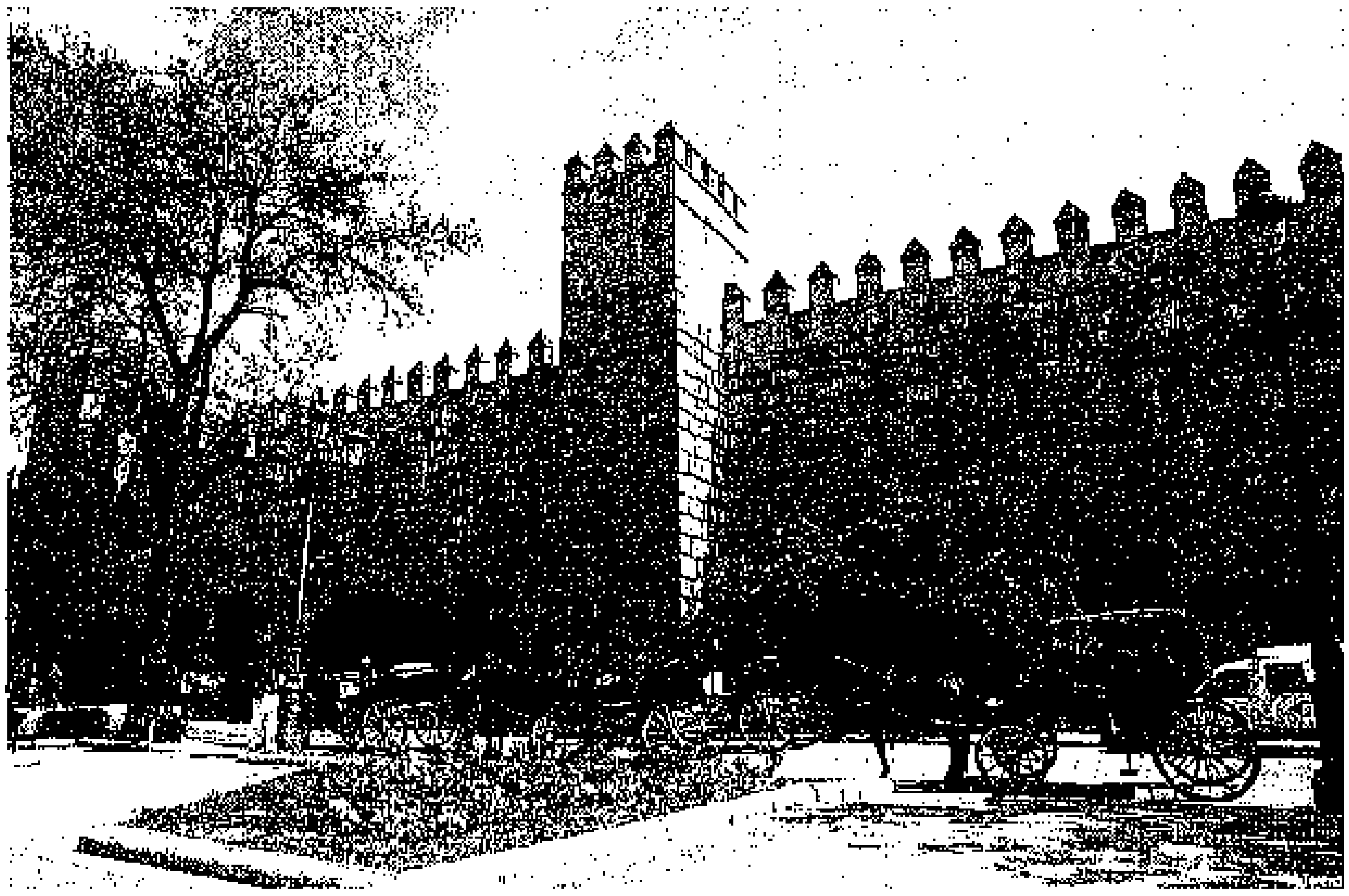

جزء من سور إشبيلية في العصر الأموي: القصر الملكي

"راح الأمير عبد الله يحرض الأسرتين الواحدة ضد الأخرى، وكان يكتب لكل منهما ما يصله من أخبار عن الأسرة الأخرى. وذات يوم، كتب إبراهيم بن حجاج هو وكريب بن خلدون، رسالة أخرى للأمير يحرضه فيها ضد إبراهيم بن الحجاج، معلنًا أن هذا الأخير تحت قبضتهم. ولقد أجاب الأمير على الرسالة المشتركة الأولى على ظهرها، غير أنه عندما كان يهم حامل الرسالة بمغادرة القصر، سقط منه خطاب خالد إلى الأمير. ثم قام أحد خدم القصر بالتقاط هذا الخطاب، وبعد أن طالع ما فيه، مسلمة إلى إبراهيم بن الحجاج، الذي تيقن عندها من دسائس بني خلدون ضده... وعليه قام ابراهيم بدعوة كل من كريب وخالد لمأدبة عشاء، وعندما كانا في ضيافته، راح يعاتبهما، وأظهر لهما رسالة الامير. ولقد كان إبراهيم حانقًا للغاية على ضيفيه، لدرجة أن خالدًا استل خنجرا من إكمامه وطعن به إبراهيم في رأسه ولكن إبراهيم نهض وصاح في رجاله، الذين هبوا وقاموا بقتل الأخوين (كريب وخالد)"[40].

وإن صحت هذه الرواية لابن عذارى، فإن هذا يعني أن سمعة بني خلدون كمتآمرين ومنتهزي فرص كانت أمرًا واقعًا. كما أن هذا يشكك في الصورة الوردية التي رسمها ابن خلدون لأسلافه: ربما لكي يجمل من صورته هو شخصيًا.

ونظرًا لموقف بني خلدون من الأمير عبد الله، فإن حفيده عبدالرحمن الثالث الناصر (300 - 350هـ/912-961) لم يعول كثيرًا على أفراد أسرة بني خلدون في إشبيلية، رغم ما تمتعوا به من فطنه وكفاءة. ولذا فقد تم تهميشهم في عهد عبد الرحمن الثالث، لأننا لا نجد

38 A-Bayan, II, 121
39 Al-Ta'rif, pp. 453 - 454
40 AL – Bayan, II, 125
41 Ed. Madrid, 1979

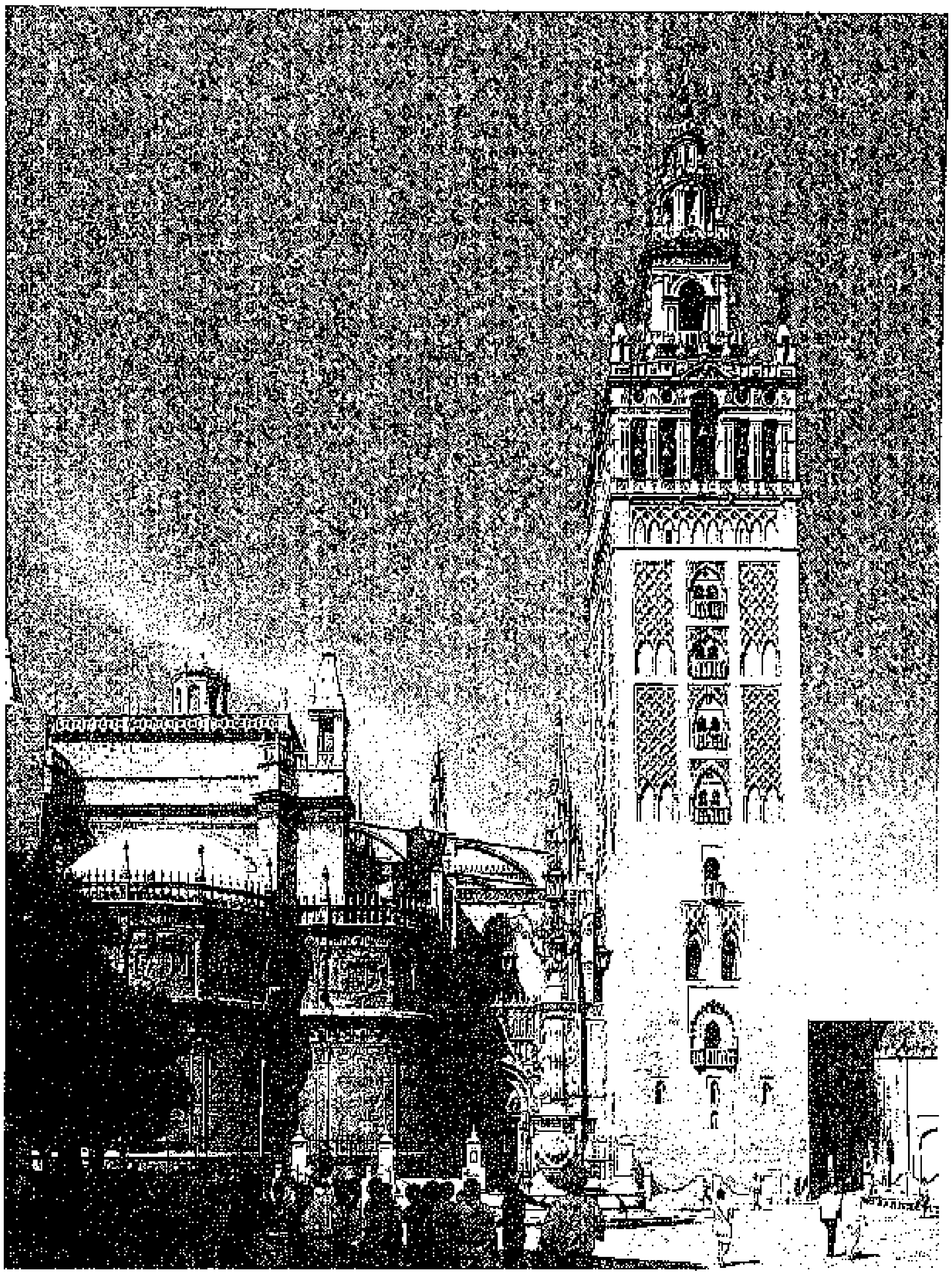

برج الخيرالدا، المئذنة القديمة لمسجد إشبيلية زمن الموحدين.

أية إشارة إليهم طيلة مدة حكمه في الجزء الخامس من مؤلف "المقتبس"[41] ولكنهم يعودون للظهور مرة أخرى في عهد الحكم الثاني –المستنصر بالله– (350-365هـ/961-976) ابن عبد الرحمن الناصر، ولكن كمجرمين هذه المرة، كما يقول ابن حيان. ويمضي ابن حيان ليقول أن الشرطة قصدت أشبيلية بأمر من الحكم الثاني" للقبض على بعض المجرمين الذين خرجوا على طاعة السلطان... وتمكن قائد الشرطة من القبض على محمد بن أحمد بن الأشعث... وعمر بن خالد بن عثمان بن خلدون الحضرمي... ولكنه فشل في القبض على حبيب بن سليمان بن حجاج[42].

وعندما سقطت الخلافة في الأندلس، وظهر ملوك "الطوائف"، نجح بعض من بني خلدون في تقلد بعض المناصب الهامة. وقد اشتهر من بينهم اثنان على وجه الخصوص، وهما أبو مسلم محمد ابن محمد بن بقي بن خلدون (447هـ/1055) الذي كان عالمًا في مجال الطب[43]، ومحمد بن خلدون الذي صار وزيرًا لبني عباد (404 – 448هـ/1013- 1095)، والذي كان يحابي العرب أكثر من البربر. ويروى أيضا أن عددًا وافرًا من أفراد أسرتهم قد استشهدوا في معركة الزلاقة (479هـ/1086).

ولقد جمع محمد بن خلدون بين المنصب السياسي والتضلع في العلم. ولذا امتدحه الشاعر ابن بسام[44] في قصيدة يصور فيها إحدى الجواري ممسكة بشمعة بجوار ابن خلدون، في حين راح أحد الحضور ينشد ما معناه:

"تكلم شمعتنا تمسك بشمعة أخرى وكأنك كالشمس تعلو القمر
قلبي يهتف للواحد حينا
وبعدها صار يهتف للآخر.

ويروي المقري في كتابه نفح الطيب[45]، أن الوزيرين أبا بكر بن عمار (479هـ/1086)، وأبا الوليد بن زيدون (462هـ/1070) قصدا إشبيلية مع أبي محمد بن خلدون (479هـ/1086) لحضور حفل أقامه بنو عباد. وفي الطريق راح ابن زيدون يتكلم عن تقلبات الأيام، فأجابه ابن خلدون بقوله:

ومن يدري يا صاح؟ فلربما تلقى الأيام إلينا بالصولجان، وتصبح من الخلفاء.

هذا وقد استشهد أبو محمد بن خلدون في معركة الزلاقة، ورثاه ابن عبدون (530هـ/1135)[46] بمرثية قال فيها:

ملكت فأسجع لا أبالك يا دهر أفي كل عام في العلا فتكة بكر

42 ابن حيان، المقتبس، الجزء الرابع، نشر حجي، بيروت 1983

43 ابن خلدون، التعريف، نشر ابن تاويت الطنجي، ص 452

44 ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، جـ3. ص 242 – 243

45 المقري، نفح الطيب، جـ3. ص 242 – 243

46 ابن بسام

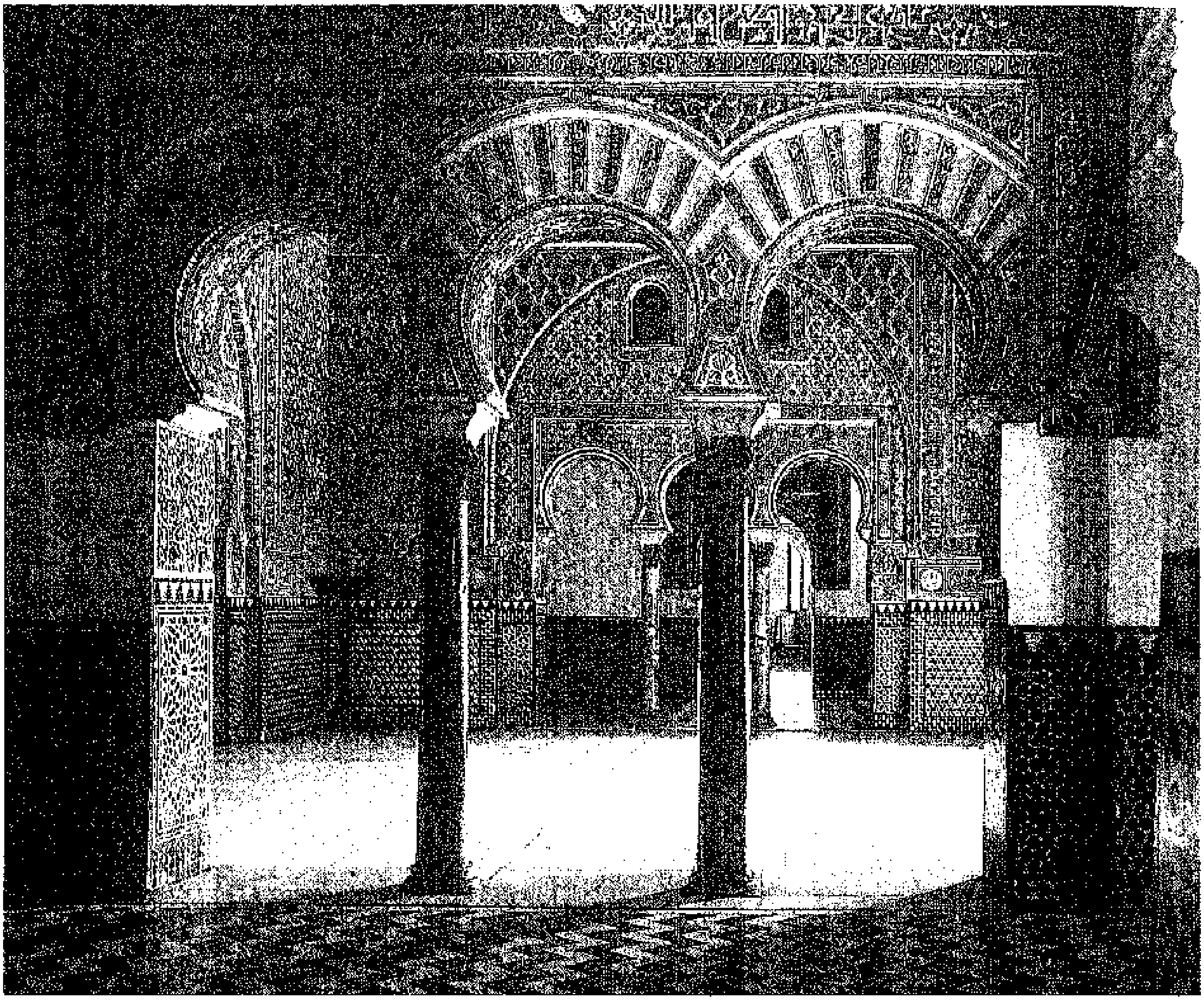

بوائك وحجرات لقصور في القصر الملكي في إشبيلية.

درهم عربي من الفضة يرجع إلى عهد المتوكل ابن هود، سك في إشبيلية في النصف الأول من القرن الثالث عشر، وجه العملة.

رثته فقلنا إنها لتماضر	وإن ابن خلدون لمفقودها صخر
مضى لم يرث عنه الرئاسة وارث	ولولا المساعي الزهر لانقطع الذكر
وما كان إلا الغيث أقلع جملة	فلم يك منه لا غدير ولا زهر
فيا ليتني بين العوالي وبينه	وقد مكنتني من أعنتها فهر
لأطبق منه بالعشا صدق القنا	ضرابي وإن كانت لها الأعين الخزر

وهذا، وبعد أن آلت الأمور في الأندلس إلى الموحدين، كان واحد من بني خلدون اسمه ابن المحتسب على صنه بالحكام الجدد. ولقد أهدى ابن المحتسب الأمير أبا زكريا (قرابة 618 - 623هـ/1221- 1225) جارية اسمها "عطف"[47]، صارت أما لنسل الأمير، وقامت بتأسيس مدرسة التوفيقية وبناء مسجد الهواء في تونس[48].

على أن أسرة بني خلدون سرعان ما فقدت نفوذها[49]، وإن كانت قد احتفظت بمكانة علمية مرموقة، وظل أفرادها ضمن زمرة المستشارين للحكم في إشبيلية حتى عهد ابن الأحمر.

ثم كانت آخر إشارة إلى أسرة بني خلدون في الأندلس، طبقا لما ورد في كتاب "التعريف"، في عهد ابن الأحمر الذي حرضهم على التمرد ضد ابن هود، وطلب منهم أن يتركوا منطقة الحدود له... وعندما رفضوا طلبه - راح يقاتلهم - وبقيت منطقة الحدود وما حولها تحت سلطان الملك. وعندما خشي بنو خلدون من انتقام ابن الأحمر منهم، قرروا الهجرة من إشبيلية إلى شمال أفريقيا واستقروا في بلدة سبتة[50].

47 الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 70، بيروت 1998

48 برونشفيك، تاريخ إفريقية، جـ1. ص 382. بيروت 1988

49 التعريف، ص 454

50 التعريف، ص 455

ميناء سبتة ومضيق جبل طارق.

ظروف هجرة بني خلدون من منطقة الحدود إلى سبتة

عندما أخذت مملكة الموحدين في الانهيار في زمن كل من المأمون (625- 630هـ/1227- 1232)، والرشيد (630- 640هـ/1232- 1242)، والسعيد (640- 646هـ/1242-1248)، كان بنو خلدون ضمن المستشارين لحكام إشبيلية، ولأبي مروان البجي حاكم المدينة، منذ سنة 630هـ/1232.

وكان ابن هود (الذي قتل سنة 635 هـ/1237)[51]، والذى كان يلقب بمجاهد الدين وسيف أمير المؤمنين[52]، من قبل المستنصر العباسي (623- 640 هـ/1226- 1242)، لأنه عندما تقلد الإمارة، أعلن عن ولائه للعباسيين، واستقبل سفراءهم في غرناطة سنة 630هـ/1232[53]. وبعد هذا التمرد أعلن أبو زكريا (627- 647هـ/1228- 1248) استقلال إفريقية سنة 627هـ/1229. وبعدها وقع تمرد آخر على يد محمد بن يوسف بن الأحمر الغالب بالله (629- 671هـ/1231- 1273) الذي كان حليفًا للحفصيين في أرغونة. أما أهل سبتة، فقد أعلنوا معارضتهم للموحدين سنه 630هـ/1232، وشايعوا الحفصيين.

ويبدو أن بني خلدون كانوا يفكرون في الهجرة من إشبيلية إلى سبتة منذ وقت بعيد، وأن الاضطرابات السياسية والمجاعة في سبتة (عام جنوة، وربما سنة 633 هـ/1235 أو 636 هـ/1238) كانت سببًا في تأخير هجرتهم لمدة عقد من الزمان. غير أن الظروف في إشبيلية جعلتهم يقدمون على هذه الهجرة، وذلك عندما وصل أبو عمرو بن الجد إلى سدة الحكم (اغتيل عمرو سنة 644 هـ/1246). وكان عمر قد نجح سنة 630 هـ/1232 في طرد أسرة بني حجاج، المنافسة لبني خلدون، من إشبيلية إلى سبتة[54].

51 الزركلي، الأعلام

52 الزركلي، الأعلام

53 EI, II, 1037

54 البيان، جـ3، ص 343

ولاشك في أن بني خلدون لم يتخذوا قرار الهجرة إلى سبتة، إلا لتخوفهم من الصراع بين بني هود وبني الأحمر من ناحية، إلى جانب عدم استقرار الأحوال في بلاد الأندلس بسبب حركات التمرد والثورات من ناحية ثانية، وأيضا بسبب خطر الممالك المسيحية الإسبانية المتزايد على أشبيلية. ويرجح أن بني خلدون قد هاجروا إلى سبتة بعد مقتل ابن هود (635 هـ/1237)، وسيطرة ابن الأحمر على غرناطة سنة 1237 [55].

فلو أن بني خلدون كانوا قد هاجروا إلى سبتة في ذلك التاريخ، لكانوا قد وصلوها في عهد خلف أبي العباس اليانش (633 هـ/1235– 635 هـ/1237) المدعو أبو علي الحسن بن خلاص البلانسي (635-647 هـ/1237- 1242). وكان أبو علي هذا قد تمرّد على الموحدين وسيدهم السعيد، مثلما فعل أمراء الأندلس والشمال الأفريقي، البعيدين عن عاصمة الموحدين، ثم أعلن ولاءه لأبي زكريا الحفصي بعد أن حقق الأخير العديد من الانتصارات، واستولى على تلمسان سنه 640 هـ/1242.

مياه مضيق جبل طارق، وبلاد الأندلس في الخلفية.

وبعدها صار الحفصيون سادة على كل من طنجة: والقصر الكبير، وسبتة.

أما في الأندلس، فمع أن سكان إشبيلية قد أقسموا يمين الولاء لأبي زكريا سنة 643 هـ/1245 [56]، إلا أن واحدًا من أبناء عمومته، أبو فارس (644- 646 هـ /1246- 1248)؛ لم يستطع إنقاذ المدينة من السقوط في أيدي فردناند الثالث سنة 646 هـ/1248 [57].

هذا ويروي ابن خلدون أنه عند وصول أسلافه إلى مدينه سبتة، قام حاكمها العزفي بتزويج بناته لأولادهم، وبتزويج أولاده لبناتهم، وبذلك توثقت عرى الصداقة بين الطرفين بهذا الرباط[58]. وإن صح هذا، فإن تاريخ هذه المصاهرات يكون قد تم قبل أن يصبح أبو القاسم العزفي حاكمًا على مدينة سبتة (607-677 هـ/1211-1279)، أي قبل سنه 647 هـ/1246. ذلك لأنهم لو كانوا قد وصلوا إلى سبتة أثناء حكم العزفي، لكان هذا يعني تواجدهم في الأندلس ما بين أعوام 644 و647 هـ، ولكانوا قد شهدوا موت ابن الجد، وحصار إشبيلية سنه 645هـ/1247، ثم سقوطها النهائي سنة 646 هـ/1248، ولكن الواضح أنهم كانوا قد غادروا إشبيلية قبل ذلك التاريخ، ولابد من أنهم قد وصلوا إلى مدينة سبتة بعد تتويج ابن الأحمر، وقبل اغتيال عمرو بن الجد على يد الغوغاء في إشبيلية (سنة 644هـ/1246)،

ومع أن العزفي قد ظل في حكم سبتة لمدة ثلاثين عامًا[60]، إلا أن أفراد بيت بني خلدون لم يكن لهم دور في السياسية طيلة هذا العهد، بل ظلت العلاقة بين الطرفين مجرد علاقة المصاهرة.

بنو خلدون في إفريقية

هاجر بنو خلدون من إشبيلية إلى أفريقية، ومنها إلى مملكة الحفصيين، بعد أن فقدوا الأمل في ظل الأحوال المتردية في إشبيلية. ولربما شجعهم على هذه الهجرة حقيقة أن الحفصيين قد حذوا حذو الموحدين في تعيين أبناء الأندلس في الوظائف الهامة، وكان المثل السائر وقتها: "لا تعين مواطنًا من أفريقية في منصب إن وجدت أندلسيًّا يشغل هذا المنصب"[61].

وجاءت أول زيارة لواحد من بني خلدون إلى تونس، وهو الحسن بن خلدون وهو في طريقه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وأثناء هذه الزيارة، التي تمت ما بين عام 644هـ/1246 وعام 645هـ/1247، قابل أبا زكريا الحفصي أمير تونس ونزل عليه ضيفًا

55 EI, II, 1038

56 البيان، جـ5، 378

57 Brunschvig, Hafsides, I, 62

58 التعريف، ص 455

60 البيان، ص 397؛ الزركلي، الأعلام، 323

61 Muhammad ibn Sharifa, Ibn Abd Rabbihi al- Hafid, 1992, P.24

في مدينة بونة. ثم قراره الاستقرار فيها، فلربما أن هذا قد تم ما بين عام 646 هـ/1248 وعام 647هـ/1249، أي قبل أن يصبح العزفي أميرًا على سبتة. وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون:

إن جدنا الأكبر الحسن بن محمد، وهو حفيد ابن المحتسب، قد نسب تاريخ أسرته بأسرة أبي زكريا (أمير تونس)، وقد قصد إلى زيارته حيث قوبل بالترحاب وكرم الضيافة. وبعدها سافر الحسن إلى المشرق لأداء فريضة الحج، ثم عاد بعدها ليلحق بالأمير أبي زكريا (يحيي) في مدينة بونة.

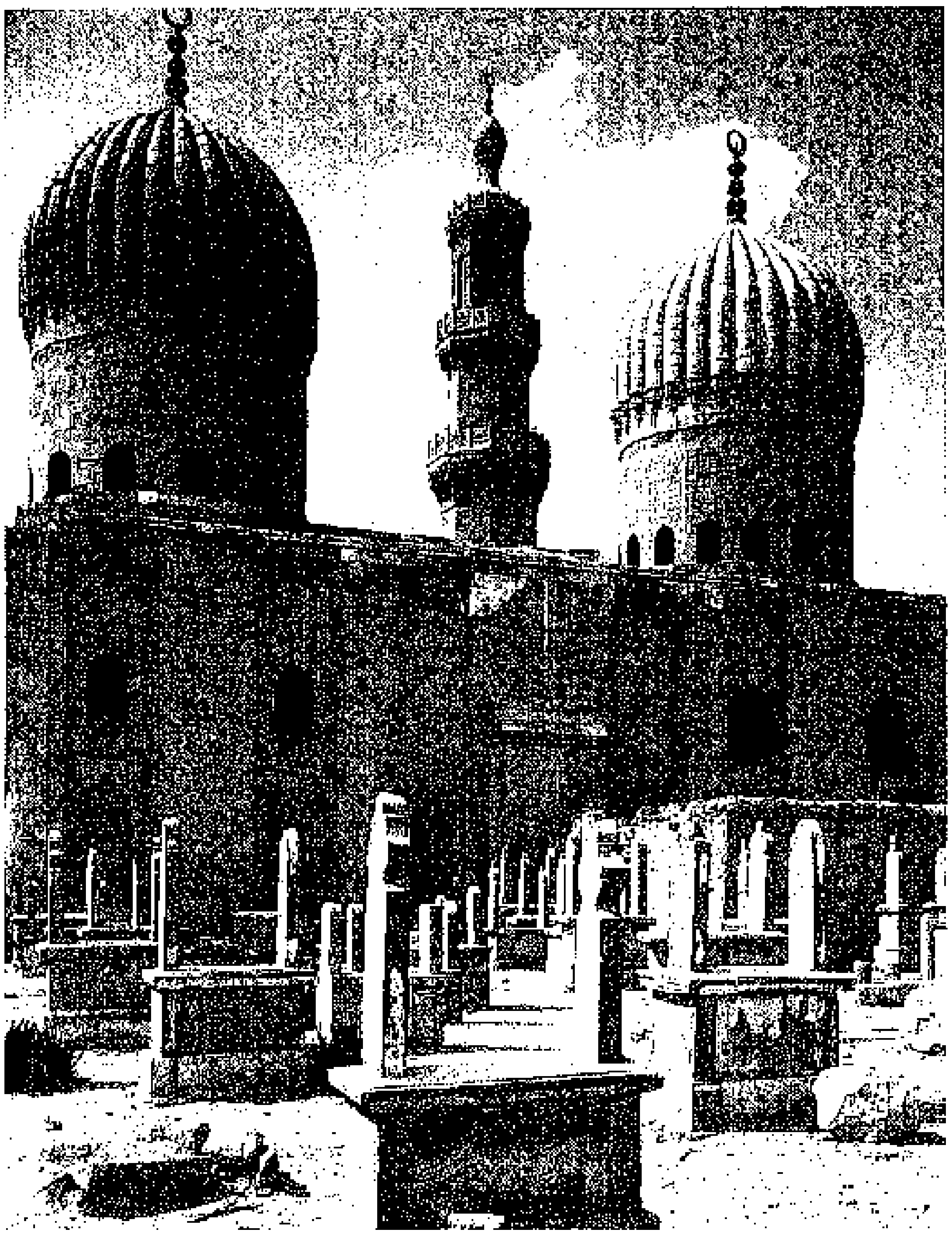

مدافن السلاطين المماليك ومقابر الخلفاء في القاهرة– القرن الرابع عشر.
شارع الأندلسيين في تونس، بطاقة من أوائل القرن العشرين.

واستقر في المدينة تحت مظلة مضيفه، الذي أنعم عليه بالمال والعقار... وقد توفي الحسن في بونة ودفن فيها. وترك من بعده ابنه محمد أبو بكر، الذي شب في بحبوحة من العيش والسعادة... ولقد توفي الأمير أبو زكريا وهو في السابعة والأربعين من العمر[62].

وطبقا لرواية ابن خلدون[63]، فإن المدعو محمد أبو بكر كان السلف الأكبر لفرع بني خلدون في تونس، ومن بين أفراد أسرته برز عدد من النابهين الذين تقلدوا وظائف هامة، في حين أن نفرًا آخر اشتهروا بالعلم، وكان عدد ثالث من نفس الفرع يجمع بين هذا وذاك، من أمثال أبي بكر كاتب كتاب "أدب الكاتب" والذى كان موظفًا هاما في مملكة أبي إسحق، ومن أمثال يحيى بن خلدون (734هـ/1333 – 780هـ/1378) الذي اغتيل وأخيه ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون، وهو أبرزهم، إذ كان يشغل وظائف هامة في تونس، وفاس، وأماكن أخرى في الشمال الأفريقي.

ويعتبر عبد الرحمن آخر أفراد بيت بني خلدون، وقد عين في مناصب هامة. على أنه لم ينج من مكائد ودسائس الحاقدين، ولذا فإنه ظل ينتقل من بلد إلى آخر، ما بين تونس، ومراكش، والأندلس، ومصر، وفي القاهرة رحب به سلاطين مصر خير ترحاب، ورفعوا من قدره واسمه في كل مكان، ولما مات انقرضت سلالة بني خلدون في تونس، وفي هذا يقول ابن عبدون: لولا حسن صنائعهم، لما كان أحد يتذكرهم.. لقد مضوا دون أن يتركوا نسلاً من ورائهم ليخلفوهم في مناصبهم الهامة. ذلك لأن يحيى قد توفي دون زواج، أما أبناء ابن خلدون فقد غرقوا في البحر عندما كانوا في طريقهم من تونس إلى الإسكندرية، مثلما حدث لأبناء أحمد بن يوسف التيفاشي الثلاثة (توفي 651هـ/1253)[64].

والغريب في الأمر أنه رغم سفر ابن خلدون إلى بلاد الأندلس، فإنه لم يقم بزيارة أرض اسلافه في قرمونة وإشبيلية. وبالمثل، رغم أسفاره العديدة في بلاد المشرق لم يفكر في زيارة موطن أسلافه الأصلي في اليمن، ليصل الحلقة بين حضرموت وتونس، عبر الجزيرة العربية، وبلاد الشام، وصولاً إلى الأندلس.

والسؤال المحير هو لماذا لم يقدم ابن خلدون على زيارة موطن أجداده الحضارمة، رغم كثرة كتاباته عن أمجادهم القديمة، وعن أشعار الجعدي والأعشى في مديح مملكة حمير والملوك التابعة[65]. والواقع أن ابن خلدون كان دومًا يتطلع إلى الغرب، يستشرف أخبار مراكش وغرناطة وكل ما يتصل بأحوال الأندلس، مستقر أجداده، يوم أن قام خالد بتوطيد مركزه وتأمين مستقبل سلالته.

62 التعريف، ص 455
63 التعريف، ص 455 – 457
64 ابن العديم، بغية الطالب، جـ2، ص 60
65 راجع تاريخ اليمن في كتاب العبر

السلطة والمدارس الصوفية في حياة ابن خلدون

محمد القبلي
جامعة محمد الخامس، الرباط
ترجمة قاسم عبده قاسم

تطور في زمن ابن خلدون، حركة صوفية منظمة في المدن وفي الريف على حد سواء. وكانت هذه الحركة الصوفية ومعها المذهب المالكي الرسمي هما الإطار الأساسي للموقف الاجتماعي والديني الناجم عن الانتفاضات التي حدثت بعد وصول المذهب الموحدي إلى السلطة في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. ويجدر القول بأن الحركة الصوفية كانت قد ظهرت بالفعل قبل ذلك لتكون عاملاً جديدًا في الموقف بوصفها تعليمًا وتطبيقًا عمليًّا. وهناك اعتقاد اليوم على نطاق واسع بأن الصوفية كانت قد ظهرت في أواسط عهد دولة المرابطين، قبل قرن من الزمان تقريبا. ومن ناحية، صارت الصوفية، في مواجهة هذا النظام الجديد، وقد خرجت من طيات موقف حذر ومحافظ، خيارًا انسحابيًّا تجاه الفظائع التي ارتكبها الحكام وشركاؤهم الفقهاء المالكيون المنتصرون. وفي تدريج سريع، انتشرت في المدن والريف بإزاء أعيان المالكية الذين أعلن أتباع ابن تومرت صراحة أنهم «غير مرغوبين» [1]. والجدير بالذكر أن الصوفية أحبطت بعدة وسائل مختلفة حركة الزهد التي جاء بها السادة الجدد، وكررت محاولة فرضها قرب سقوط المنصور (1184-1199) وقد نجحت الصوفية في هذه المرحلة الأولى في أن تجعل نفسها قوة تحظى باعتراف الخليفة الموحدي لأسباب حقيقية [2].

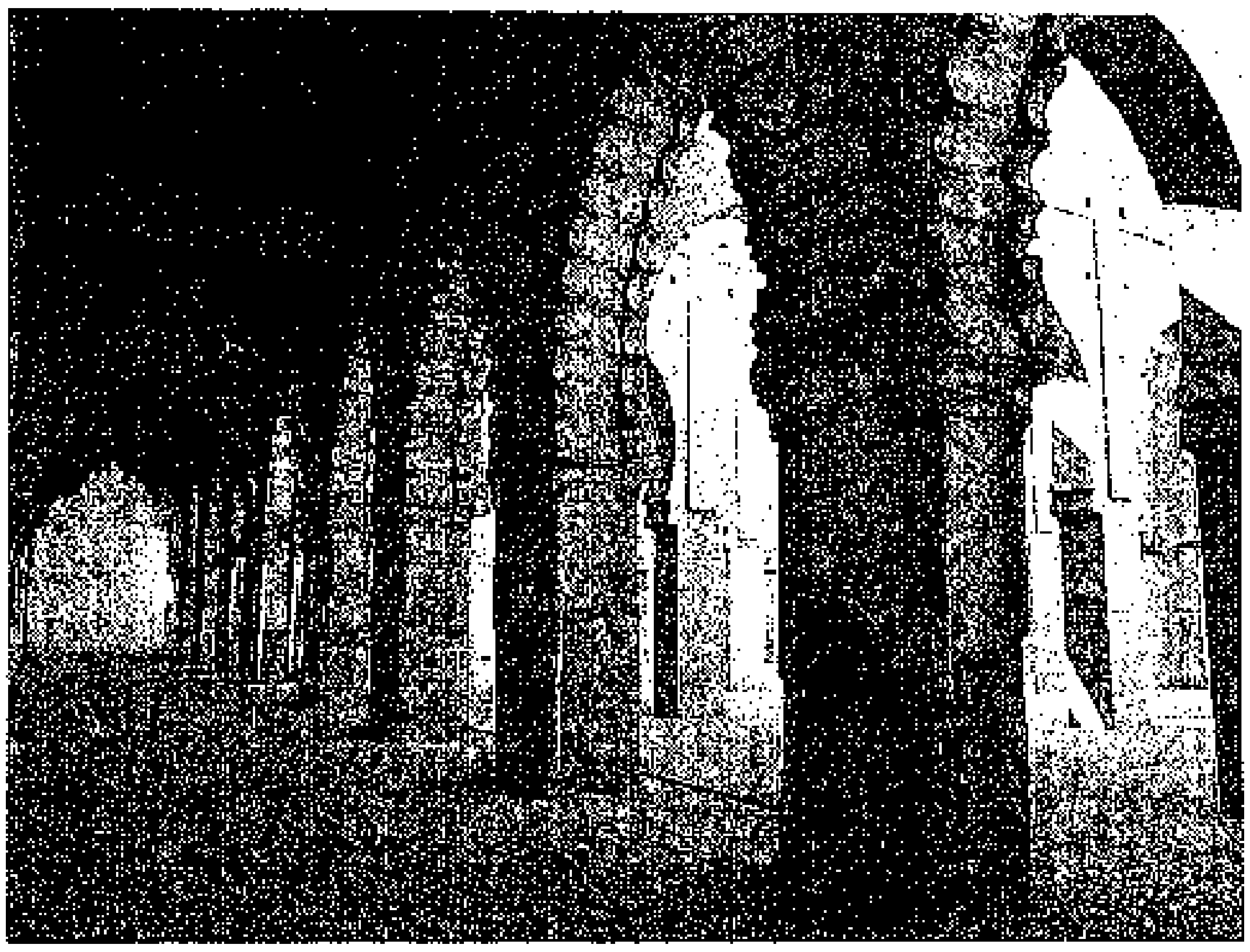

قلعة ومسجد تينمل، معقل حركة الموحدين.

وقبل أن تمضي هذه القوة في رحلتها التي ستقودها في النهاية إلى الموقف الذي وصلت إليه في القرن الرابع عشر، كان عليها أن تواجه تحديات جديدة أرغمتها على تنظيم نفسها حسب ذلك. ومن هذه المرحلة الانتقالية الأولية، عبرت الحركة الصوفية بطرق عديدة عن نفسها بما في ذلك الموقف تجاه السلطة الذي لقي موافقة واسعة النطاق كما أنتج تنويعات كثيرة. ولكي نفهم هذا الموقف على نحو أفضل، فإننا بحاجة إلى أن نحدد سلسلة من العلامات البارزة المتداخلة، نجد أن مصدرها النهائي مرتكز محوري مشترك.

التقسيمات والدعائم

استنادًا إلى الشهادات المتاحة، فإن هذه النقطة الارتكازية ربما تكون قد بشرت ببداية النهاية للنظام القائم . هذا الحدث الذي تم تعريفه أولاً بأنه الهزيمة التي لحقت بالناصر (1199-1213)، ابن المنصور، في صيف سنة 1212 في معركة العقاب شمال شرق لاكارولينا La carolina في الأندلس، كشف عن ضعف سلطة كانت قائمة أساسًا

(*) لتجنب الالتباس، يجب أن نشير إلى أن استخدام كلمة المغرب لأسباب عملية، على سبيل المثال لا تختلف كثيرًا عن المسمى القديم للمنطقة والذي ما زال يسمى المغرب الأقصى في زمن ابن خلدون.

1 A. Bel., Le sûfisme en Occident musulamn au XIle et au XIIle Siécle de J. C. ",Annales de l'institut d'Etudes Orientales (1934-35), 145-61; Id., la rellingion musumane en Berbérle, Paris, l938, 211-58; A. Faure, Le Tashawuf et l'école ascétique marocaine des XIe- XIle- XIlie siécles., Mélanges Louis Massignon, Damas, 1957 ,II, 119-31; M. Kably., Apropos du non-Al- sans le texte du Tashawwuf (in Arabic)، الدولة والولاية والمدخل، الدار البيضاء 1997. 21- 40، أي 21-9

مخطوط للقرآن الكريم من عصر الموحدين،
القرن الثالث عشر

على الناحية العسكرية، وبالنسبة للجماعة الصوفية، وبالنسبة للباقين، كانت تلك بداية فترة من المتاعب والأخطار، فترة حالكة ومعقدة، نتج عنها في البداية ظهور التجمعات القبلية منذ سنة 1213 فصاعدًا، كما نتجت عنها صراعات على السلطة فيما بعد. وقد تسببت الفوضى السائدة في بروز الصراعات الداخلية، والمصاعب الاقتصادية، وتدابير معينة لإنكار المذهب الرسمي، الذي أعيد مرة أخرى فيما بعد، مما أدى إلى الحرب الأهلية بل وكذلك الظهور الحتمي للخلافة التونسية فيما بعد والتي ادعت أنها المستودع الشرعي لتراث ابن تومرت وأنها أول "خلافة سنية".

وفي هذا السياق الجوهري، انغمست القبائل المحلية المتصارعة في حروب شملت تونس ومراكش خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر. وقد انتهت هذه الحروب، بكل أنواع الاضطرابات والمتاعب، وفتح المغرب على يدي الأمير المريني؛ وهو فتح كان، مؤقتًا على الأقل، لصالح الحفصيين أو الخلافة الحفصية - الموحدية في تونس [3].

وهكذا قام هذا الغزو على أساس سلسلة معقدة من العوامل التي صارت أكثر تحديدًا مع مرور الوقت، على الرغم من أننا لا يمكن أن ننسى اتجاه الروابط القائمة ومقاصدها. ففي المجالات السياسية والدينية في المغرب القرن الثالث عشر، أثرت هذه العوامل أولاً وقبل كل شيء على الغزاة وبهذا ضمت مجموعات قوية. ومع هذا، فإن كليهما خرجت من ثنائية حقيقية تصارعت مع المساندين التونسيين ذوي الشرعية الذاتية وبدلائهم المرينيين، الذي تطلعوا للاستقلال بسرعة وسعوا إليه حتى قبل أن يتموا غزوهم.

ومع هذا، فإذا كان علينا أن نحاول فك تعقيدات الروابط: في محاولة لتحديد الخطوط العريضة لتأثيرها على حياة ابن خلدون، فأولاً وقبل كل شيء يجب أن نفرق بين المعلومات المهمة التالية:

1 - من المعلوم أن مذهب الموحدين، الذي كان يمثله بعد ذلك خليفة تونس، الذي أجبر أولاً المرينيين الحاكمين على تأمين البقاء، لم يكن أبدا مقبولاً بشكل كامل في المغرب الأقصى. ولا يمكن التقليل من قيمة الرفض الرسمي السابق له، على الرغم

2 Al- Marrakushi, al- Mu'djib, Cairo, 1949, 286 (Fr. trans. E. Fagnan Histoire des Almohades, Algiers, 1893, 248).

3 R. Brunschvig des origines a la fin ou XV^e siècle, Paris, 1940, I, 1-45; A. Laroul, L'hisoire du Maghreb, un essai de synthése, Paris, 1970, 179-85; M. Kably, Société, Pouvoir et religion au Maroc Ea la fin du Moyeb- Age, Paris, 1986, 1-68.

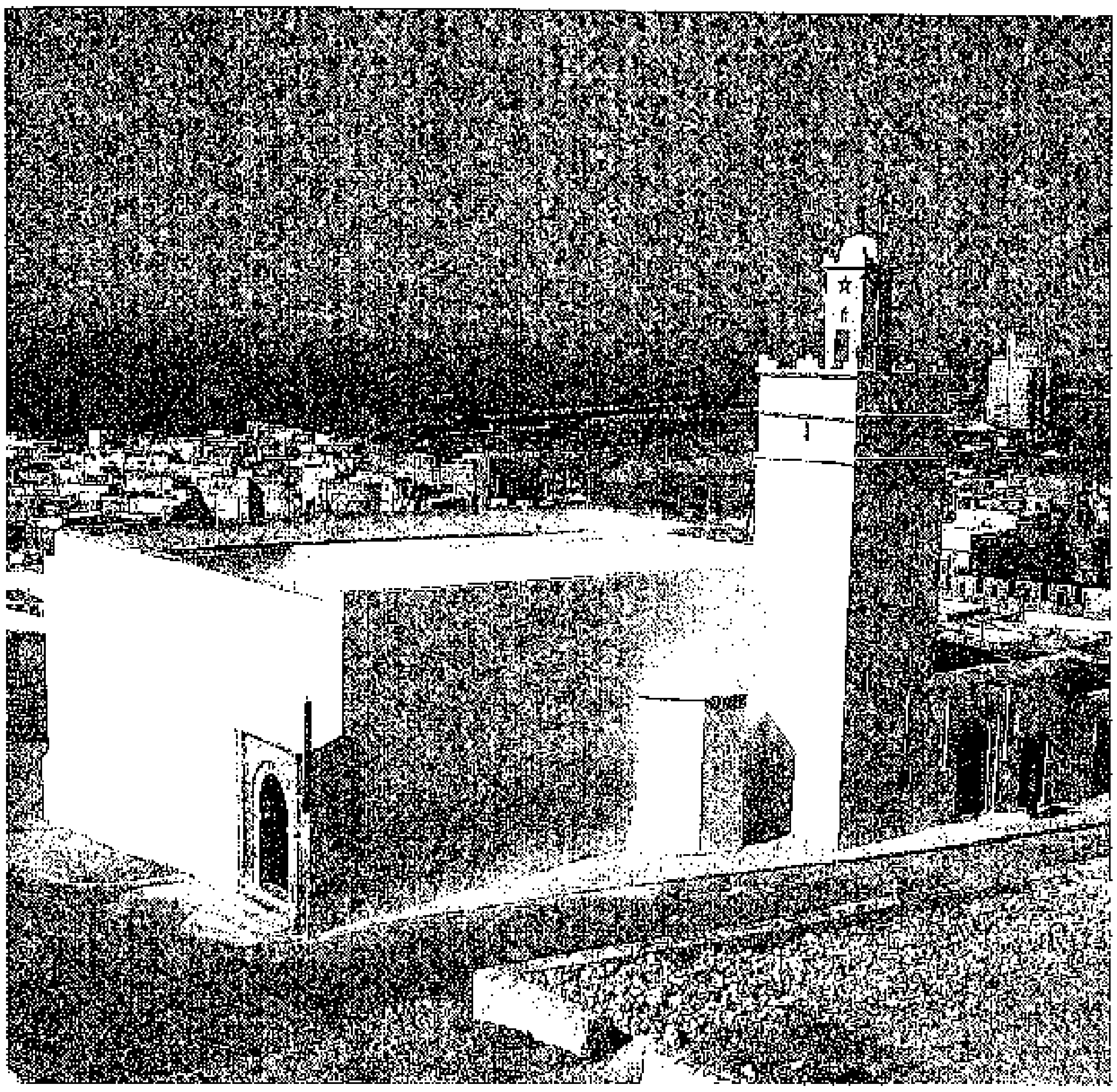

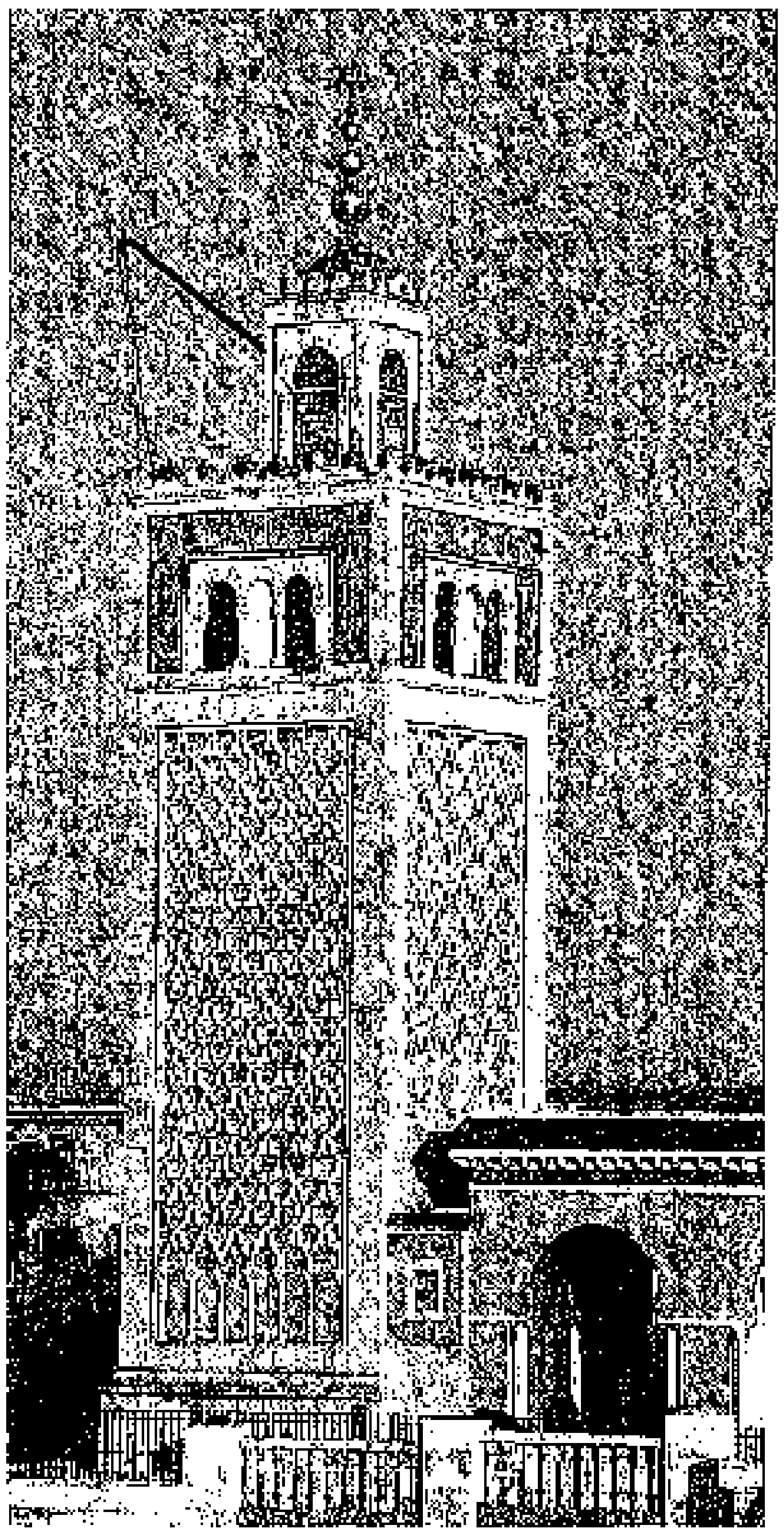

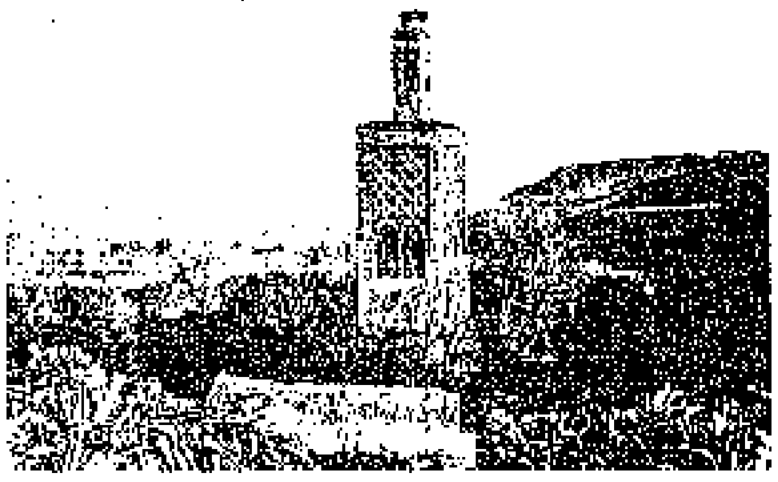

أعلى يمينًا جامع القصبة في تونس. يسارًا منظر لآسفي.
أسفل. أطلال مسجد بني مرين في شالة.

من أنه لم يكن رفضًا نهائيًا. ومغزاه بالنسبة للصوفية والمالكية جميعًا يكشف عن أن مثل هذا الرفض أدى إلى تقوية هيبة كل منها، لأن العامة الذين كانوا يستهدفونهم كانوا مؤلفين من جماعة كانت تعتبر مقهورة مستعبدة من جانب الموحدين الأوائل، سواء بالنظرية أو بالقوة، ولذلك كانت محكومة بقانون الغزو [4].

2 - ومن ناحية أخرى، يسود اعتقاد عام بأن الخلافة الموحدية المتدهورة ساعدت النخب المالكية -وبذلك ساعدت مؤيديهم- على أخذ زمام المبادرة سنة 1260، تحت حكم المرتضي (1248-1266) لإقامة أول مدرسة سنية، وهو مشروع نُظر إليه باعتباره أمرًا غير محتمل الوقوع في المغرب التي كانت بعيدة. ومع هذا فالجدير بالذكر أن الخليفة المستنصر [5] كان منذ فترة ليست طويلة قد مهد الطريق بالفعل في الركن المقابل من المغرب. وفضلاً عن ذلك؛ وفي ضوء الظروف، ربما يقول المرء إن كل الخلفاء كانت لهم إستراتيجية عامة ظاهرية تهدف إلى التوفيق بين المذهب المالكي والمذهب الموحدي. وأكثر من ذلك، فإننا إذا أخذنا في اعتبارنا أن الجماعة الصوفية قد نهجت نهجًا انعزاليًا في ذلك الوقت، وبذلك حاولت عزل نفسها عن المذهب المالكي، في المغرب على الأقل، لبدا الأمر عادلاً تمامًا.

3 - ومن ناحية أخرى، أكد هذا التناول الصوفي أن موقف الصوفية فيما يتعلق بالحكومة كان موقف عداوة صريحة أكثر من كونه موقف انشقاق. مع الأخذ في الاعتبار أولا أنه ليس هناك ما يشير إلى تورطهم، بطريقة أو بأخرى، في المناورات والدسائس العديدة التي شهدتها الحرب من أجل العرش. ومن ناحية أخرى، فمن الجدير بالملاحظة أن التشكيل الذي أوجده هذا الموقف كان يتضمن مدرستين منفصلتين ولكنهما تعتمدان كل منهما على الأخرى. ويظهر أن المدرسة الأولى، التي كان لها توجه علمي وكانت أكثر ميلاً إلى النظرية، كانت أكثر انتشارًا بالمدن التي كانت

4 E. Lévl Provencal, Douments indédis d'histoire almohade, Paris, 1928 , 98-112 (Fr. trans., 116-85); ibn Gazi, al- Rawd al - hatun, Rabat, 1964 , 23-4 (trans. fr. M.O. Houdas, Journal Asiatique, V. 1885, 129); R. Le Tourneau,. Sur la disparition de la doctrine almohad, Studia Is'amica , XXXII (1970) 193-201; Bel, la religion musulmane 258-65; Kably., A Propos", 32-8 .

5 R. Brunschvig, عن المدارس في البلدان الحفصية op. cit., II, 290-91; in Morocco: M. Shatzmiller. les Premiers Mérinides et le Milieu religieux de Fès:l'Introduction des Mécersas., Studiea islamica, XLIII (1976), 109-18; القبلي، قضية المدارس المرينية، مؤرخات حول المقدمة .

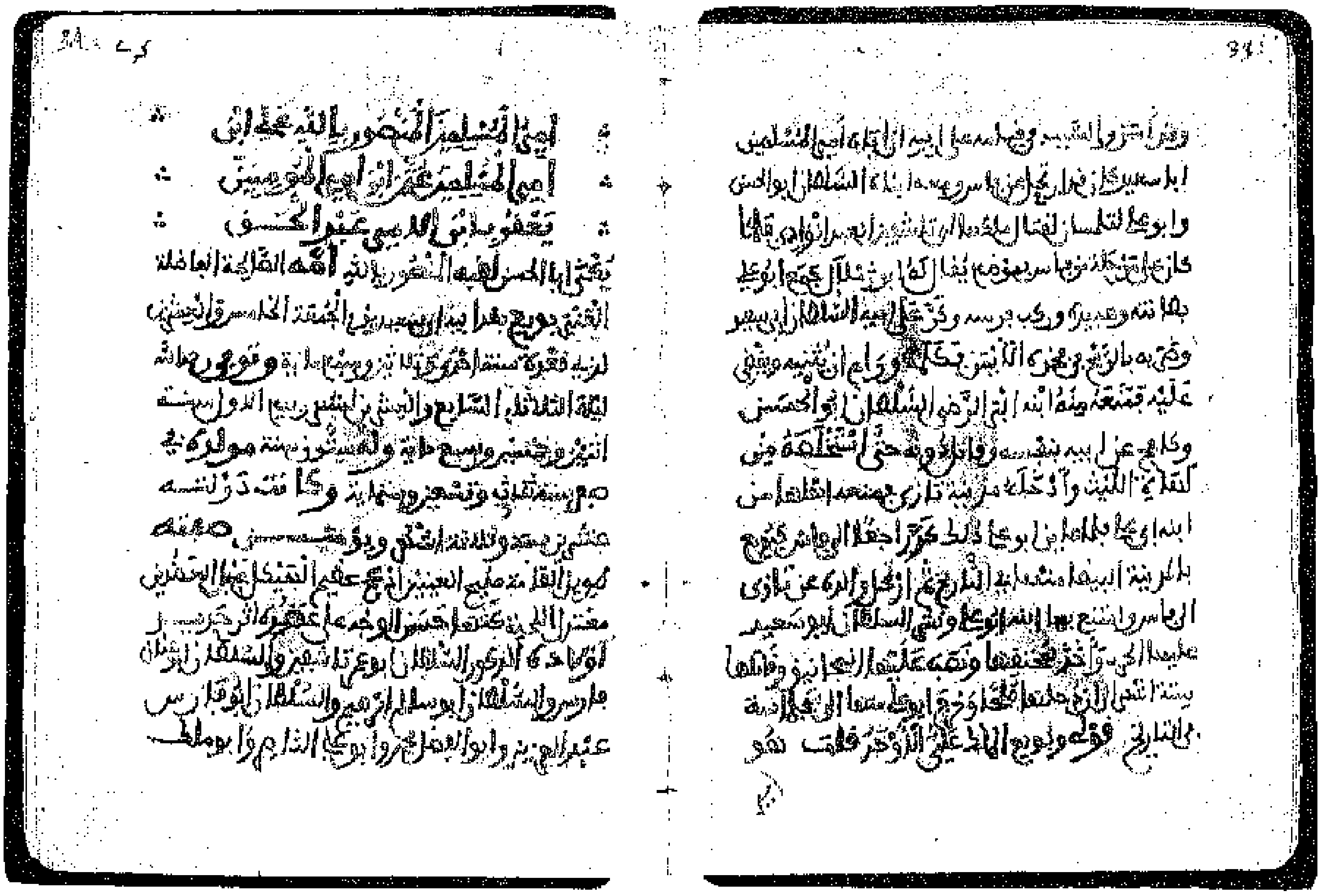

مخطوط عربي من "النفحة" (تاريخ المرينيين) لابن الأحمر، مكتبة دير سان لورنزو دي الأسكوريال.

متأثرة بالأندلس إلى حد ما. وهي المدن الرئيسية في الشمال، وخاصة سبتة وفاس وسلا ومكناس. وركز الاتجاه الثاني على الممارسة بقدر أكبر، ظاهريًا على الأقل، وأثر بشكل رئيسي على المناطق الجنوبية والريفية، وفقًا لتراث طويل المدى يرجع إلى أيام المرابطين. وبينما تبدو المقاربة الأولى وقد انصهرت في الجماعة المالكية الموجودة، فإن الفرع الآخر تطور بطريقة غير مسبوقة في المغرب. والحقيقة أن هذه المدرسة كانت قائمة عى أساس تنظيم جديد يميل إلى الفعل، كان مأخوذًا عن رباط آسفي أو زاوية الشيخ أبو محمد صالح (1155-1234)، الذي يحتمل أنه كان متأثرًا بإقامته الطويلة في المشرق. وكان هذا التنظيم تحت حكم شيخ، أو يدار بواسطة هيئة صممت على أساس ضمان النظام والسيطرة الميدانية. وإذ قامت على أساس مشروع كان يسعى إلى تأمين الطريق إلى الأماكن المقدسة في زمن مضطرب، فإنها سرعان ما نجحت في مد تأثيرها ونفوذها فيما وراء مصر. وكانت هذه المنظمة معروفة أولا باسم "طائفة الحجاج"، ولكنها سرعان ما اتخذت اسمًا بديلاً، اشتق من اسم الجماعة العرقية التي ينتمي إليها مؤسسها؛ ولذلك عُرفت أيضا باسم فرقة بني مجير، أو المجيريون كما فعلت فرق أخرى كثيرة؛ لأن الفرق الصوفية التي تشير إلى الأصول العرقية لم تكن مسألة صدفة [6].

4 – ولم يكن أمام الحكومة المرينية الجديدة، وهي تحاول التغلب على مشكلات هذه الجبهة، خيارات كثيرة. ولذلك كانت أفضل فرصة متاحة هي التحالف مع المالكية، أو حتى التحالف مع فرقة صوفية أخرى؛ أو منعزلة تجعل أفرادها وحدهم ملتزمين. وكثير من الظروف التي كانت قائمة أواخر القرن الثالث عشر تبدو مؤيدة لهذا التفسير، ويقوم دليلاً على هذا في بناء المدارس المالكية الباكرة، التي كانت هي المدارس الوحيدة في تاريخ المغرب المكرسة لتعليم المذهب المالكي. وهناك

6 انظر المساهمات في محاضر الندوة، أبو محمد صالح: المناقب والتاريخ، الرباط، 1990.

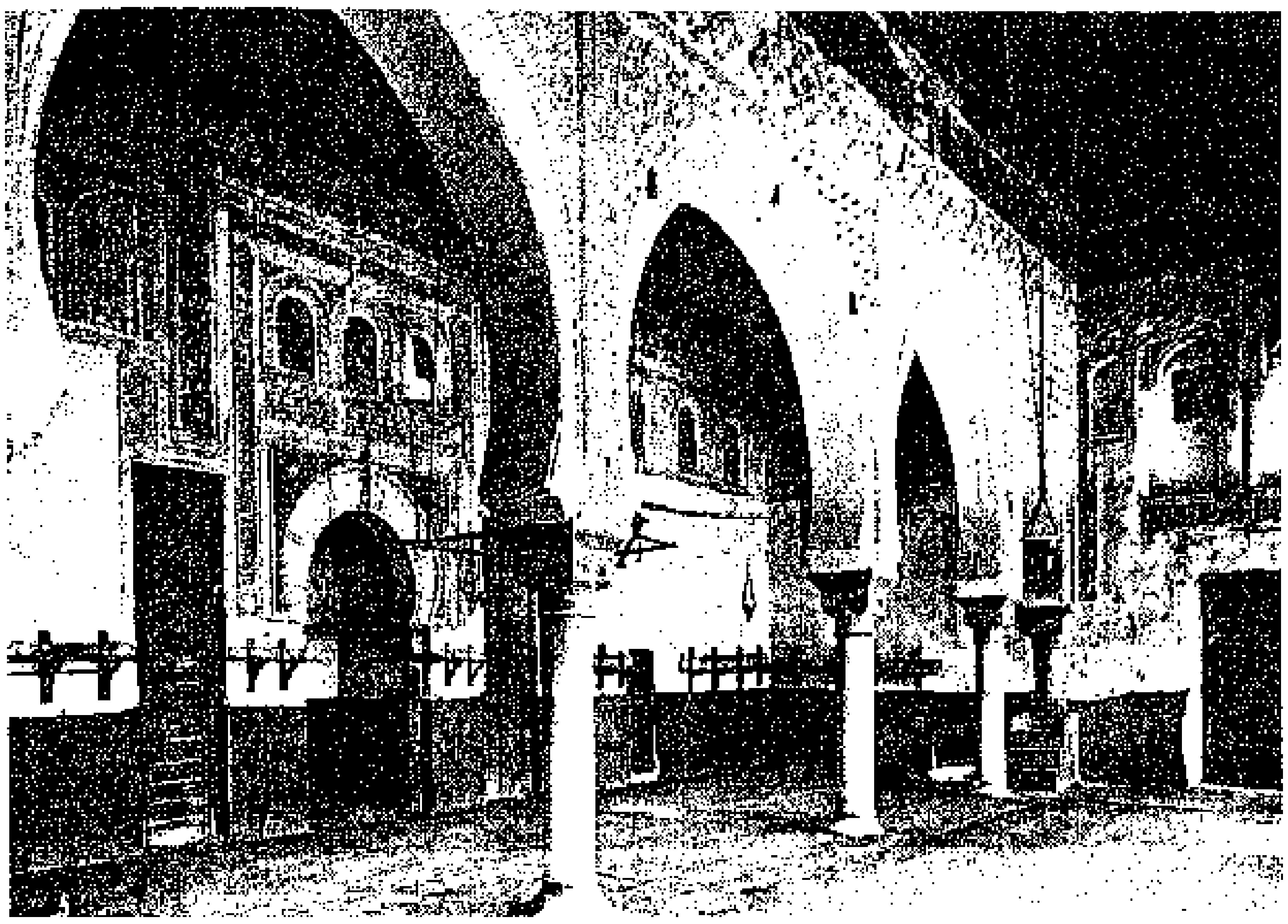

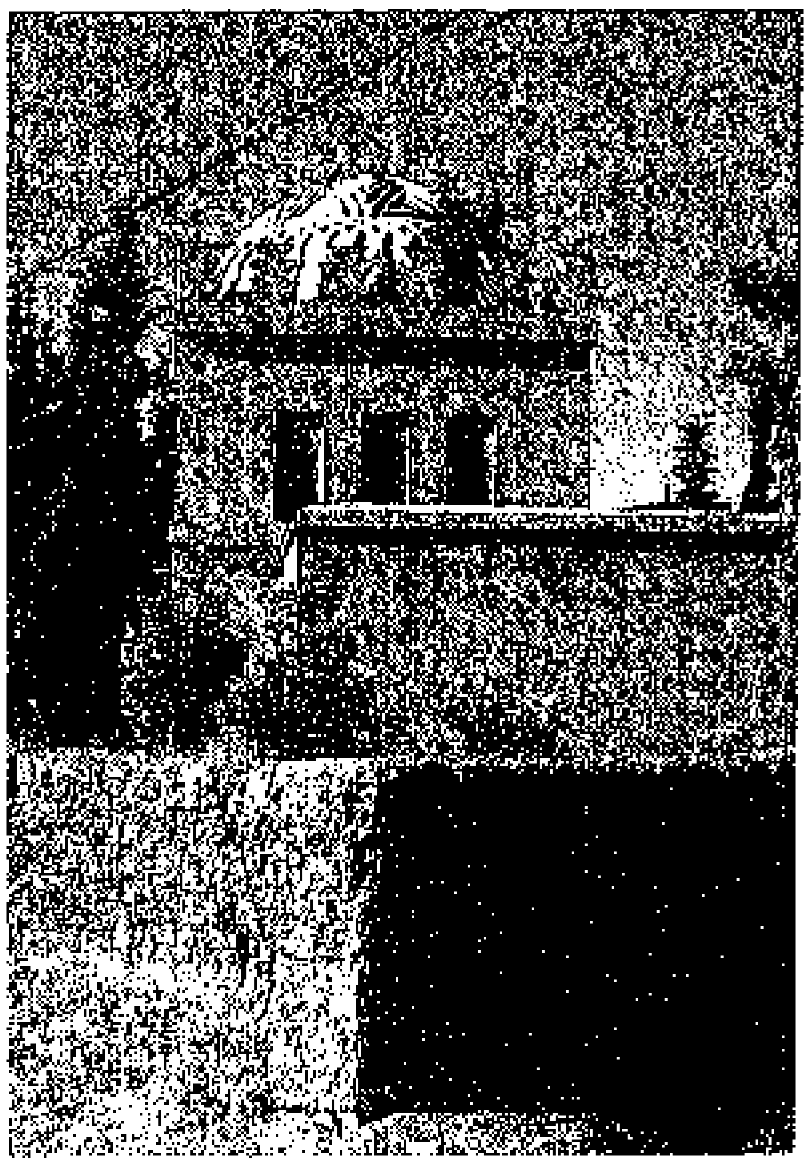

يميناً أغمات.
يساراً، صحن الصلاة في مدرسة أبو عنان في فاس

مؤشر آخر يدعم هذا الافتراض يتمثل في حقيقة أنهم حاولوا أن يختلطوا بالصوفية المشهورين، سواءً بغرض الجهاد أو لأنهم كانوا يعيشون في فجر القرن الثامن الهجري الذي كان يعتبر قرناً محورياً. ومن ناحية أخرى، ومن الواضح أن الجماعات الصوفية التي انتظمت في فرق تحت إشراف الفرقة الكبرى "طائفة الحجاج" أنها لم تكن لها دخل بصراعات السلطة وعاشت محدودة بحدود أراضيها.

المدارس الصوفية والسلطة في القرن الرابع عشر

لكي نصور السيناريو الذي كانت فيه الروابط قائمة بين الصوفية والسلطة المرينية، فإننا نحتاج أولاً إلى رسم صورة لاستراتيجية بني مرين، في مطلع القرن الرابع عشر، لإضفاء الشرعية على حكمهم. وقد انبثقت هذه الاستراتيجية من وجود خلافة تونس وصراعات الغزو التي تميزت بالقسوة البالغة وسرعان ما عمد المرينيون إلى اتخاذ موقف الهجوم، بسبب إعادة تقييم كل من الرعايا المحليين والحكام القائمين بالحكم. وبعيدًا عن الاستراتيجية التي بدأت أواخر القرن الثالث عشر، والتي كانت تهدف إلى التظاهر بالتدين من خلال الجهاد، فإننا يجب أن نؤكد على دعم المالكية، والذي يحتاج في إرجاعه إلى أذى "طائفة الموحدين". وإذ كان المرينيون في وضع أيسر من وضع الحفصيين في هذه الفترة، فإنهم سرعان ما نجحوا في أن يجعلوا فقهاء المالكية أفضل حلفائهم [7]. ونحن نعرف أنهم عملوا على مساندة الشريف "الحقيقي" في المغرب، وهم الأدارسة في فاس، في محاولة لنقض مقولة الحفصيين – الموحدين عن النسب الشريف لابن تومرت [8].

ونتيجة لهذا، استوعب الصوفية هذا الخيار في موالاة الأشراف الذي تبنته الحكومة باعتباره تطفلاً في مجالهم، مما زادهم شكًا وريبة. وقد ظهر هذا الخيار موازيًا للسجل المكتوب لملحمة شعبية تحكي عن أصولهم تحت حكم أبي سعيد (1310-1331). هذه الملحمة الشعبية صورت الغزاة المرينيين الأوائل في صورة الفرسان الأبطال، وكان هدفها تخليد الجد الأعلى، واستثماره من الجانب الصوفي؛ مع رفعه بحصافة إلى مكانة مؤسسية. وكما لو كان المرينيون يحاولون التأكيد على

7 M. Garcia Arenal., Sainteté et Pouvoir dynastique au Maroc: la résistance de Fés auxSa asients., Annales ESC, July - August 1990, 1019-42 ; kably., Légitimité du pouvoir étatique et variations socio - religieuses au Maroc médiéval., Hespéris-Tamuda, XXXV (1997), 55-63.

8 H.L. Beck , L'mage d'dris II, ses descendants de fas la politicue sharifienne des sultans marinides (656-869/1258-1465), Leiden, 1989, 112-122 ; M. Kably, Société, 291-302.

9 ibn Marzuq, al- Musnad. Algiers, 198 (trans. Spahnish, Viguera, 1977).

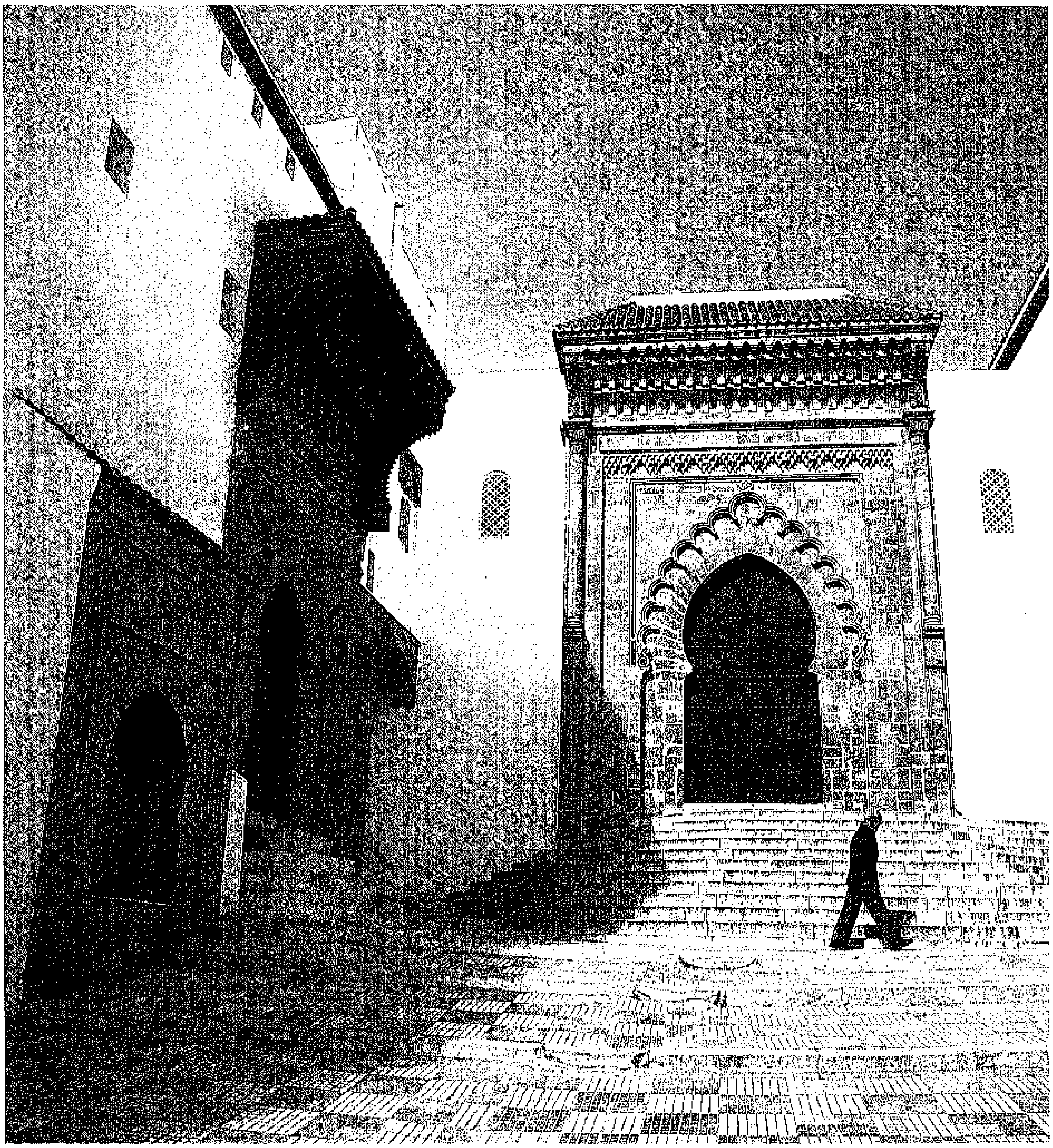

واجهة جامع سلا

هذه السببية عندما التزموا، تحت حُكم أبي سعيد، بالتخفيف من وطأة الضرائب التي كانت ما تزال باهظة. ومضى ابنه وخليفته أبو الحسن (1331-1351) الذي كان رجلا فاضلاً، خطوة أبعد نحو إصلاح النظام الضريبي الذي لا يُحتمل. وعلى هذه الأرضية دخل التاريخ باعتباره رجلاً استثنائيا، حتى إن سيرته كتبت على غرار سير الأولياء والقديسين على يد مساعده وصديقه القديم ابن مرزوق الذي زعم أنه مؤرخ ذكريات هذا "الولي" وإنجازاته في العمل[9]. وقد اتخذ هذا التناول أيضا فيما بعد في كتابة سيرة ابنه أبي عنان (1348-1358) الذي بنى ملاجئ للفقراء ضمن تجديدات أخرى، كما أنشأ بفاس زاوية كانت مأوى لأولئك المنقطعين للزهد ممن كانوا على استعداد لخدمة السلطة[10].

10 Shatzmiller, L'historiographic mérinide, Leiden, 1982, 9-43.

مدينة أزمور

وبدا أن هذه الاستراتيجية الفعالة إلى حد ما التي اتبعها السلطان المريني، كانت تهدف إلى ضرب الصوفية على أرضهم. ومن ناحية أخرى، رفض الصوفية تقديم أي تنازل سواءً للحكومة السابقة أو الحكومة القائمة. وتتمثل الأدلة على هذا في هروب الموظفين، والمشورة بالإشراف على أعمال الشراء عمومًا، وشكوكهم فيمن يجمعون الثروات من خلال شغل المناصب الرسمية. أما في دوائر الصوفية المتضامنة في الشمال، ولاسيما في فاس وسلا، فإنهم كانوا يتجنبون الاتصال، إلا إذا كانت له ضرورة، وعلى الرغم من حتمية وجود قدر من التعايش، فإن ابن عاشر الصوفي رفض صراحة أن يستسلم لأبي عنان القوي على الرغم من إصرار هذا الحاكم وعلى الرغم من حقيقة أنه كان خليفة المغرب، بل إنه رفض اقتراح قيام أبي عنان بزيارته[11]. ومن ثم كان التعايش خيالاً أكثر منه واقعًا، بل لم يكن له وجود أصلاً.

وعلى الرغم من أنه حقيقة أن ابن عباد في رنده قبل في النهاية منصب خطيب جامع القيروان، فإنه برر قراره بأن الدافع إليه كان غرضه في تعليم المؤمنين والإشراف عليهم. علاوةً على ذلك، فإن هذا الصوفي الكبير كان يحقق قاعدة الطريقة الشاذلية، الذي كان هو رائدها في المغرب ببقائه هناك. والتزامًا بالقاعدة ورّط نفسه وأدان علنًا المساوئ التي أفسدت السلوك المزري لمفتشي الضرائب، ودون أن يتردد في أن يكتب رسالتين متتاليتين إلى السلطان أبي فارس (1366-1371)[12].

وهكذا فإن مواقف هؤلاء الصوفية، على الرغم من كونها ماكرة، فإنه لايمكن أن نصنفها على أنها كانت تنطوي على مصالح شخصية أو أنها متساهلة إزاء الأمير والنظام[13]. وفي الوقت نفسه، تظهر المدرسة الصوفية ميلاً ثابتًا لأن تدير ظهرها للحكومة. وعلى أكثر تقدير، يمكن القول إنهم تحملوا التعايش على بعد، دون أن يكونوا مجبرين على أن يعيشوا في عزلة كاملة، عن العالم الخارجي. فعلى سبيل المثال، في أوائل القرن الرابع عشر، توسط الشيخ (الهزميري من أغمات) لدى أبي يعقوب لصالح أهل تلمسان المحاصرين، بغرض رفع الحصار الذي لا نهاية له عن المدينة (1299-1305). وعلى الرغم من من أنه لم ينجح

11 ابن القنفذ، أنس الفجر، الرباط، 1965، ص 9. بهذه الثقة عرف المؤلف نفسه وكان على اتصال وثيق مع الصوفي العظيم في سلا.

12 مقتطفات من إحدى رسالتي ابن عباد التي تناقش هذه المسألة نشرت من قبل م. المنوني، ورقات الحضارة المرينية، الرباط، 1996. النسخة الأصلية من المخطوط توجد في المكتبة الملكية بالرباط، رقم 255.

13 Kably, Société, 302-7.

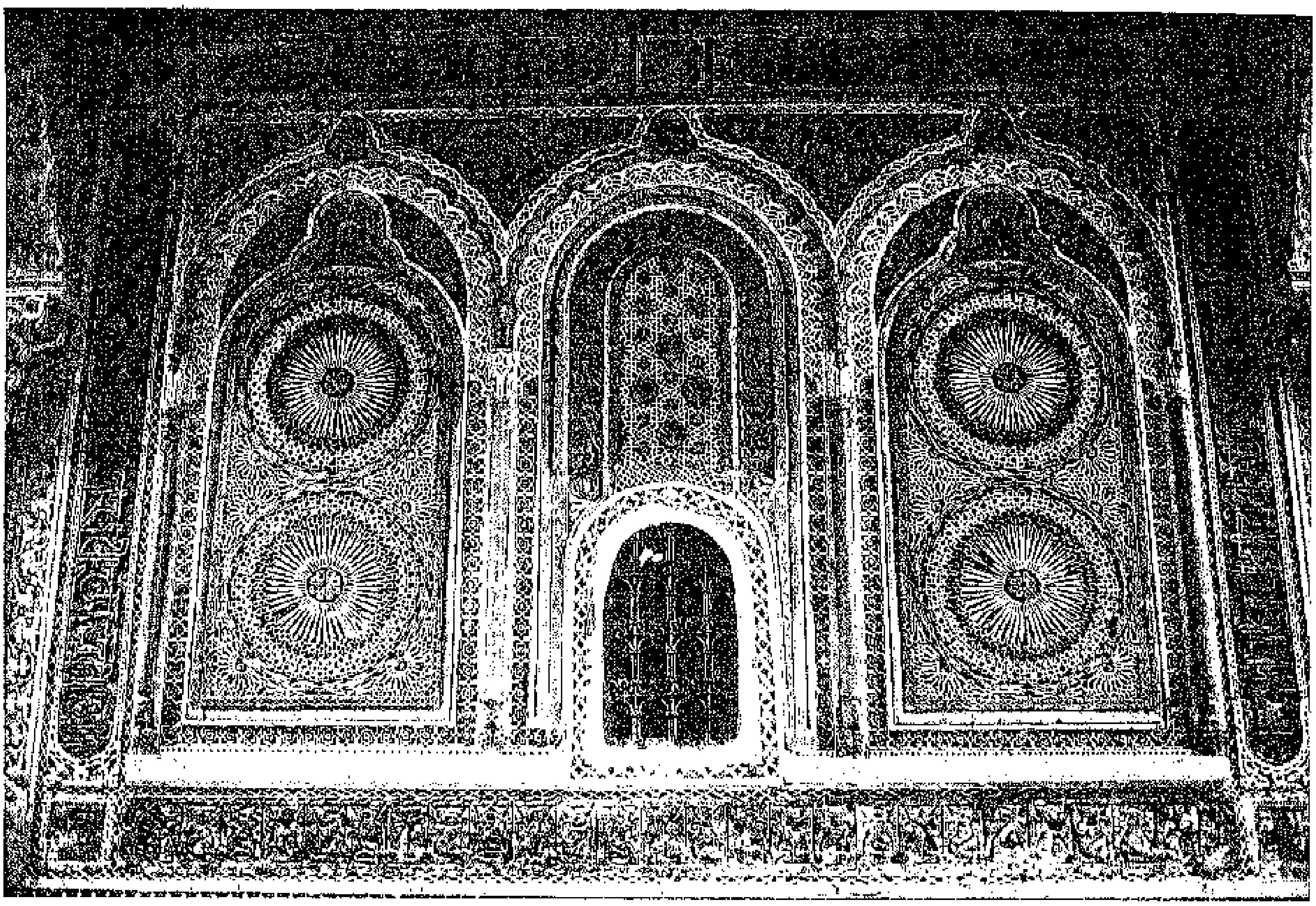

تفصيل من زاوية مولاي إدريس، فاس

في وساطته، فلا شيء يشير إلى أن هذه المحاولة أنقصت من قدره، أو من قدر مؤيديه، أو الجماعة الصوفية برمتها. وفيما بعد قتل أبو يعقوب الذي كان يفرض الحصار، قبل الشيخ مباشرة، وقد تنبأ بموته عندما وصله خبر قتل السلطان[14].

والحقيقة أن مثل هذه الملاحظة تكشف عن أن الصوفية كانوا واعين إلى حد ما بإمكاناتهم الحقيقية. هذه الطريقة كان مؤداها الاستمرار على الطريق الذي حدده أبو محمد صالح من قبل، وهي طريقة أتاحت الظهور لكثرة من الفرق الصوفية المتصلة بطريقته. ومن بين هذه الفرق الصوفية تستحق طائفة الدوكاليون أن نذكرها، لأنها انبثقت منها انتسابًا وربطت بني مجير بدوكاله كلها. وثمة فرق صوفية أخرى، بما فيها طائفة "الأغماتيون"، والتي زعمت أنها الحافظة لذكرى الشيخ الهزميري، وكانت تتصل بمجموعة أغمات العرقية؛ وطائفة "الشعيبيون" التي تشير إلى تقسيم صنهاجة الكبير، وشيخها أبو عبد الله أمجر من تيت؛ وطائفة "الحاحيون" الذين جمعوا الحاحة من جبال أطلس العليا مع أبي زكريا الحاحي[15]، شيخها المقدس.

ومثل الفرقة الأولى، فإن كل فرقة من الفرق الصوفية التي سبق ذكرها، والتي نُظر إلى كل منها على أنها توجه أتباعها وترقيهم، كانت تنتمي إلى جماعة عرقية. وفي مخاطرة بتوقع الأحداث الخارجة عن الإطار الزمني لهذه الدراسة، ربما نغامر بالقول بأن هذا التناول كان عند جذور الطرق الصوفية السياسية البعيدة. فمن ناحية، لأن الطائفة الموجودة أرست الأسس التي قامت عليها الزوايا في المستقبل، والتي، على خلاف المشرق، لم تكن في المغرب المريني تشير إلى جماعة صوفية ولكنها كانت تشير إلى المكان فقط. ومثل هذا المكان، على الرغم من اعتباره مكانًا للاعتزال، كان أولاً وقبل كل شيء، كما أوضحنا فيما سبق، مجرد مكان بني بشكل

14 ابن القنفذ، المرجع السابق، ص 69 - 70.

15 kably, Société, 307-14 .

16 H. Ferhat, Le soufisme et les Zaouiyas au Maghreb, Casablanca. 2003, 119-27. مع مراعاة الفوارق التي أشير إليه اعلاه، بالنسبة لاستخدام كلمات زاوية وطائفة في اواسط العصور الوسطى في المغرب.

رسمي[16]. ومن ناحية أخرى، فإنه بربط الطوائف ببعد عرقي أضفت عليهم الصوفية ما يسمى "العصبية" وقوتها الدافعة، التي هي –حسبما يقول ابن خلدون– خاضعة لغريزة البقاء والتعطش إلى السلطة. وبهذه الطريقة، تكون العصبية الآن تسوقها هوية جديدة تتخطى الأصل القبلي، وتهدف بمساعدة التعليم إلى تغيير الديناميات بطريقة مقصودة. وعلى أية حال، فمن الواضح أن الصوفية من الطوائف كان ينظر إليها باعتبارها سلطات وقوى قائدة في فترة تميزت بالوجود المتزامن لابن عباد وابن عشير

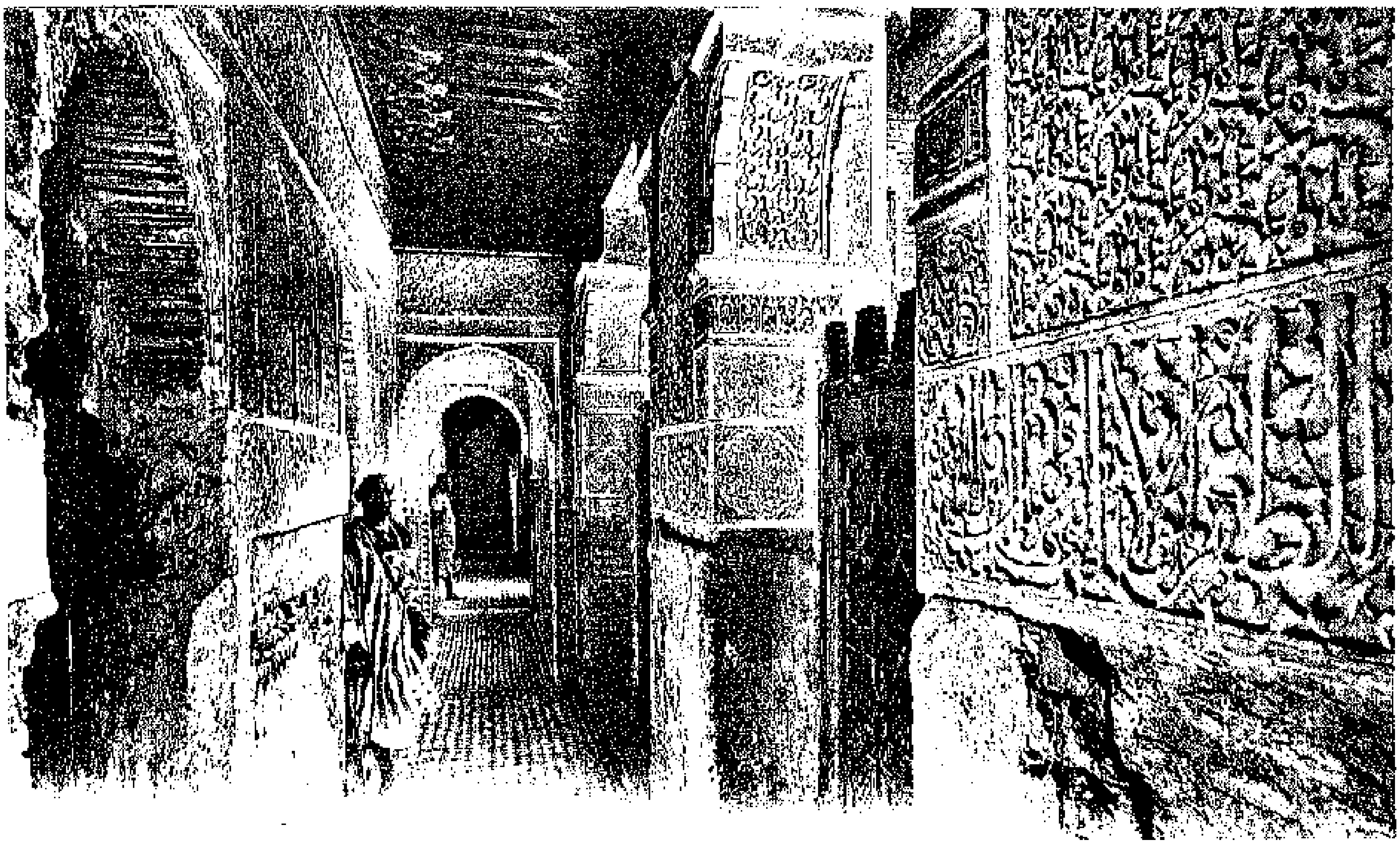

رواق في مدرسة أبو عنان، فاس

ومريديهم في الشمال. ونحن نعرف أنه تحت حكم أبي فارس، كانت لدى ابن القنفذ الفرصة لأن يقوم بسجل شامل، على المستوى الصوفي، ليس لناحيته فقط ولكن في البلاد كلها[17]. وعن هذه الصورة المفصلة والثرية: سوف نوضح فقط مشهد اجتماع يعقد مرة في السنة تحضره مختلف الطوائف المغربية احتفالاً بعيد المولوية، الذي يتم الاحتفال به في ذكرى المولد النبوي، وعلى الرغم من أنه يشغل منصب القاضي، فإنه تجاهل احتفال المؤسسة في سجده، وقدم صورة مفصلة تفصيلاً وافيًا عن الحدث[18]. وتدهشنا الأعداد الكبيرة من الناس، سواء من المؤيدين أو من المنضمين حديثًا، كما يدهشنا تنوع الأوساط التي شجعها الشيخ بمزيج من الكاريزما والخطابة. وأخيرا، فإننا لا نعرف ما إذا كانت السلطات متسامحة أو أنها تخلت عن التدخل بعد أن قدرت سياق الروابط وحقيقتها.

ومع هذا، فإن فحص مضامين هذا الموقف على المدى القصير والمدى المتوسط في سياق من سوء الفهم العميق تكشف عن أنه لا تهور الصوفية ولا الموقف المتساهل من جانب الحكومة يمكن أن يكون السبب في هذا الغموض. وربما تساعد تطورات المستقبل على فهم معنى العلاقات التي قامت في ذلك الزمان بين الحكومة والصوفية. ومن ثم سيكون من المناسب أن نتأمل التناقض الواضح الذي كان قائمًا في أواخر

17 عن ابن قنفذ، N. Amri., La gloire des Sints temps du repentir, temps d'espérance au Maghreb. "Médiéval", Studia islamica, 93 (2003), 1334-48.

18 في هذا المشهد المؤرخ بأوائل سنة 769 هـ/ أواخر 1367، ابن قنفذ، المرجع السابق، 73 – 74؛ عن وضع الطوائف في هذا العصر، ابن قنفذ، المرجع السابق، ص133 – 148.

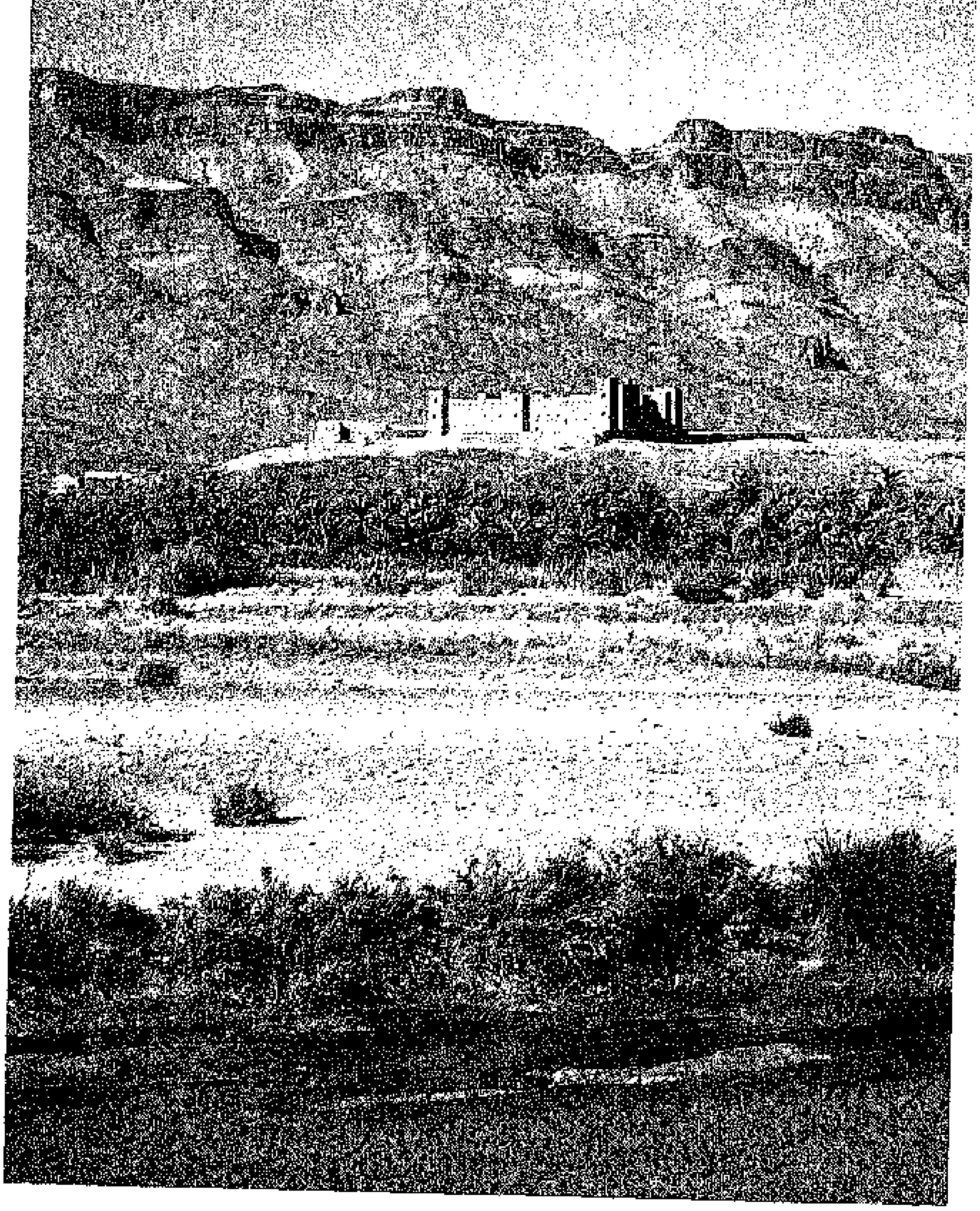

الحقول في وادي درعة

القرن الخامس عشر، في مناسبة الانتفاضات التي تزعمها الأدارسة "المتحالفون"، بين مسالمة صوفية الشمال، والموقف المعارض لصوفية الجنوب. وقد اندفع الجنوبيون لبناء الطريقة الصوفية الجزولية النشيطة، والتي لم تلبث أن أدت إلى تأسيس الأسرة الجنوبية الحاكمة، "السعديين" في منتصف القرن السادس عشر.

وعند هذه النقطة، يجدر بنا أن نتناول خصائص هذا الفضاء والعلاقات القائمة من منظور ابن خلدون. وبعبارة أخرى، فإننا سوف نفحص هذه العلاقات في ضوء التاريخ، سواء في "مقدمة ابن خلدون" أو غيرها من الكتابات، مع نظرة لدراسة العلاقات بين سلطة كان يعرفها من الداخل والمدارس الصوفية التي صورتها المصادر الأخرى، وربما المصادر الثانوية. والحقيقة هي أن هذه العلاقات تبدو مهملة على نحو ما في مؤلفاته. وعلى الرغم من أن أية محاولة لتفسير هذا الغياب سوف تخرج عن نطاق هذه الدراسة، فلا يمكننا سوى أن نؤكد على التناقض الظاهري لمثل هذا المراقب الحكيم للحقيقة بتفاصيلها في أيامه والذي تجاهل مع هذا الظاهرة الصوفية وثيقة الصلة بزمانه، في كتبه. والأهم من هذا، أنه يبدو ميالاً إلى الخلط بين الصوفية الناشطين وعملاء المهدية المشرقيين: بل إنه يتهمهم بأنهم مجرد حالمين مشاغبين. ومن ناحية أخرى وحسب التتابع الزمني، تقدم المقدمة ورسالته التي تحمل عنوانًا مختصرًا هو "شفاء السائل" معلومات قيمة عن تاريخ التصوف، وتطوره وأصوله باعتباره ميراثًا، وتصوره على أنه نظام انتشر في المشرق وفي الأندلس أساسًا ولكن ليس في المغرب[20]. ولا نعرف ما إذا كان هذا راجعًا إلى تقاليد المدرسة أم أنه بسبب المنظور المنحاز، بل قصير النظر الذي تشوبه عدم الموضوعية والقرب من الأحداث. وبغض النظر عن الرأي الذي يؤخذ به في هذا الصدد، فإننا نستطيع أن نقرر أن هذه الحقائق، والعلاقات التي تعقدها، لاتتوافق كثيرا- على الرغم من حدوث هذا مصادفة - مع التناول الذي أخذت به نظرية السلطة التي عرض لها ابن خلدون في مقدمته التي أرست الأسس التي قامت عليها المؤلفات اللاحقة التي كتبها هذا العبقري الفذ.

19 M. Garcia – Arenal, The Revolution of fas in 869/1465 and the death of Sultan Abd al- Haqq al- Marini, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, XLI (1978), 43-56; kably, Société, 324-37.

20 ibn Khaldun, Muqaddima, Cairo, n.d., 150-61 327-29 ; 338-39 et 467-75 (Fr. transl. V. Monteil, Discours sur l'Histoire universelle, Paris, 1967 1968, 221-23 ; 661-76 ; 1004-1033) : id., Shifa' al- sa'il, Istanbul, 1958, Beirut, 1959 or Tunis, 1991.

المعرفة والقوة والمدارس في زمن ابن خلدون

ڤيرجيليو مارتينيز إينامورادو
المعهد الإقليمي لتنشئة البالغين IPFA – مالقة
ترجمة محمد عبد الغني

كان "التدريس" يحتل مكانة مرموقة في أي مجتمع مسلم في فترة العصور الوسطى، وذلك بوصفه سلسلة من القواعد التي تطور غرس تعليم عام يرتكز على تعميم المبادئ القرآنية. ولم يكن من شأن التغير في أنماط التدريس الذي حدث على مدى القرن الرابع عشر المضطرب ويتمثل في ظهور "المدارس" إلا أنه أعلى من قيمته كنظام مُقدر له أن يكفل ويضمن النظام العام للمجتمع آنذاك. ففي حالة كاتب مثل ابن خلدون -وهو عالم اجتماع حقيقي ومتميز درس تلك الفترة دراسة مدققة- فإن التحليل المتناهي الدقة بشأن مغزى هذا النشاط في ذلك القرن لا يُعد أمرًا خارج السياق، لا سيما وأن أمورًا صغيرة تتعلق بالمجتمع قد أفلتت من فحصه المدقق. إن الأهمية التي يوليها فيلسوف التاريخ لهذا النشاط تزودنا بلمحة سطحية عن المغزى المحيط بهذا النشاط؛ فمن بين الفصول الستين التي تؤلف الجزء الخامس من مؤلفه "المدخل إلى تاريخ العالم" (المقدمة) فإن ما يقرب من ثلثيها قد خُصص لتفسير التعلم، مُشكّلةً بذلك ما يمكن أن يُطلق عليه اليوم "نظرية في التعليم" وهو ما يجعل من ابن خلدون واحدًا من أوائل "علماء أصول التدريس" في التاريخ [1].

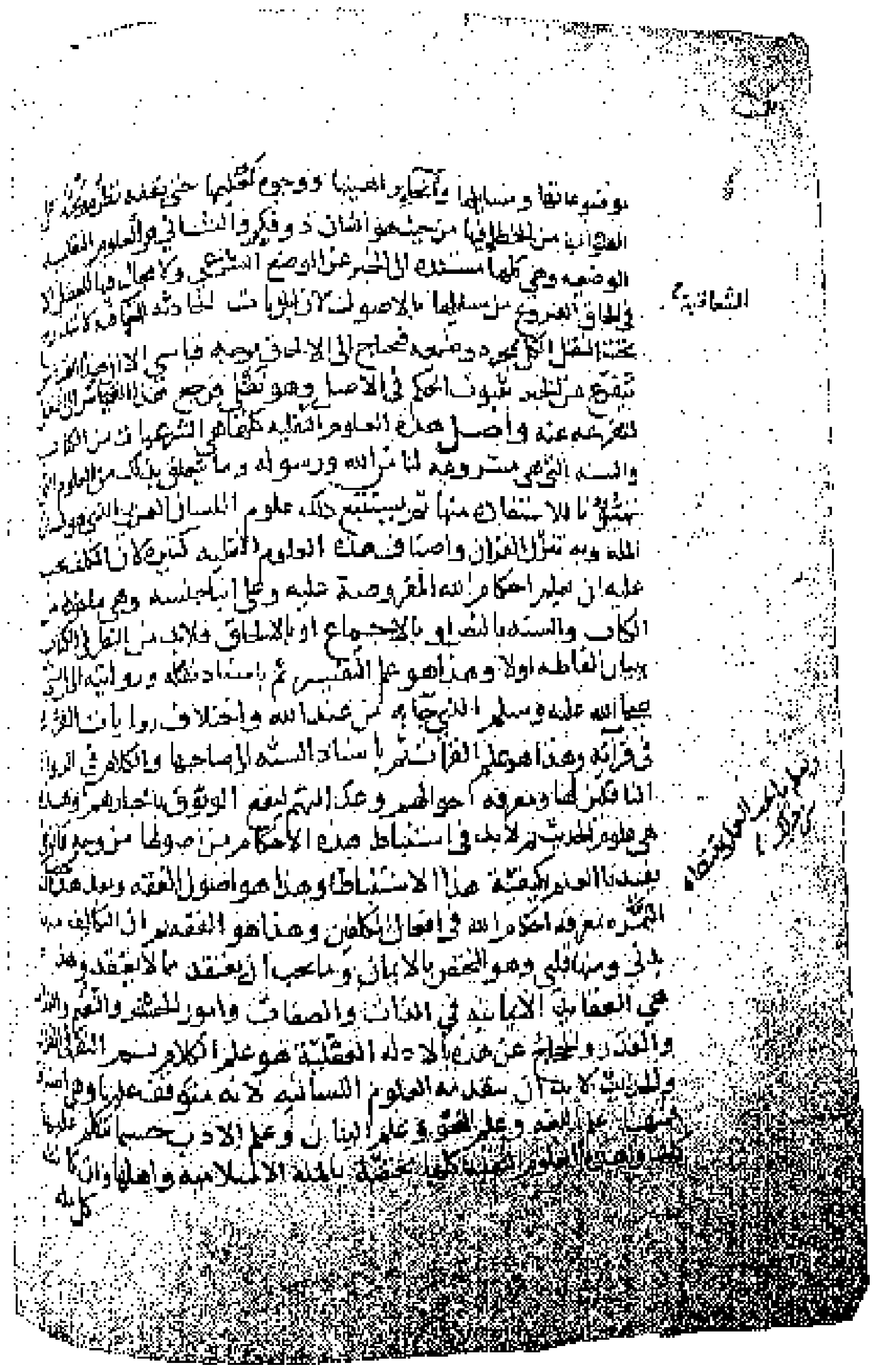

من نص ابن خلدون يمكننا أن نرى مدى ضآلة التغير الذي لحق بنظام التعلم في الأقطار الإسلامية – العربية من العصور الوسطى حتى يومنا هذا [2]. إننا لن نكشف عن أي جديد بالقول بأن مثل هذا الوضع يمكن أن يفسر إلى حد كبير حالة الانحطاط والتردي التي مرت بها المجتمعات الإسلامية منذ تلك الفترة. ففي فصل عنوانه "تعليم الأطفال والفروق القائمة بين نظم التعليم المتبعة في أقطار إسلامية مختلفة" يُرسي ابن خلدون مبادئ نظام -لم يشهد سوى تعديلات طفيفة للغاية من عصور قديمة – وأصبح متحجرًا بعد القرن الرابع عشر ولم تطرأ عليه أية تغيرات ذات بال حتى الاستعمار الأوروبي في القرن الماضي.

لقد حقّ القول بأن ابن خلدون قد عبَّر بصراحة عن قول مأثور ظل يتردد بصفة مستمرة على كافة مستويات السلطات الإسلامية. ففي "التعليم" وفي كل أمر يفيد إيضاح وبيان الحياة الاجتماعية ليس هناك من بديل لما يمثله القرآن كمبدأ وحيد للسلطة، محفوظ عن ظهر قلب منذ نعومة الأظافر:

"إن تعليم القرآن هو شعار الدين، وله يكرِّس المسلمون أنفسهم في كل مدينة لكي يتغلغل في القلوب ويرسِّخ العقيدة .... إن القرآن هو أصل التعليم في الإسلام ... إن التعلم والمنهاجية في المدرسة القرآنية ترتكز على القرآن الذي هو حجر الزاوية في التعليم الأولي" [3].

على أنه من الأمور المشجعة أن نرى كيف أن ابن خلدون لم ينحرف عن جادة الصواب إلى مهرب جانبي سهل قوامه القسوة المفرطة تجاه التلميذ وإنما شجع بدأب وهمة الثقة والاحترام تجاه الصغار. فها هو يكتب فقرة مدهشة في إطار السياق التاريخي الذي فُهمت واستوعبت فيه والتي لربما كانت حَرِيةً بأن يكتبها مُعلم في العصر الحديث:

"إن القسوة مع الطفل تلحق أبلغ الضرر. إن التعليم باستخدام العنف يترك وصمة مريرة في روح المتلقي تحد من عنفوانه وتنقص من طاقته الذهنية وتؤدي به إلى

1 Buret, E. (1934) "Un pédagogue arabe du XIV siècle: Ibn Khaldoun", *Revue Tunisienne*, V, págs. 23-32.

2 Jurado Carmona, C. (2004) "La enseñanza tradicional en Marruecos: aprendizajes y formas de llevarlos a cabo", *Perspectiva. Revista de los Centros de Profesorado de Andalucía*, núm. 8, págs. 95-105.

3 ابن خلدون، كتاب العبر، مع المقدمة والتعريف، تحرير خ. شحاد ومراجعة س. زكار، الجزء الأول – بيروت 1988، 740؛ ترجمة للإسبانية لـ ج. فيريس، مقدمة (إلى تاريخ العالم (المقدمة)؛ المكسيك، 1977؛ 999؛ ترجمة فرنسية لـ ف. مونتيل بعنوان: حديث حول تاريخ العالم، بيروت، 1967 – 1968: 222؛ ترجمة إنجليزية لـ فرانز. روزنتال بعنوان: المقدمة، مدخل إلى التاريخ، لندن، 1967: 421 –422.

البلادة والأكاذيب والدجل والنفاق، وتحوُّل هذه النقائص إلى طبيعة ثانية تفسد وتلوث إحساسه بالإنسانية وبذلك تخسر الروح هدفها" [4].

وفي عرضه لأهمية التعلم في تاريخ الحضارات – لاسيما الحضارة الإسلامية – فإنه لما يثير الدهشة أن المؤرخ العالمي لا يورد أي ذكر ولو عابرًا لذلك التحديث العظيم الذي حدث في الغرب الإسلامي من القرن الثالث عشر فصاعدًا والمتمثل في قيام الأسر الحاكمة المغربية (بنو نصر وبنو مرين وبنو زيان وبنو حفص) بتحقيق وإنجاز مؤسسة "المدرسة" التي انبثقت من الشرق، إن هذا التغاضي – سواءٌ كان متعمدًا أم لا – ربما كان إشارة جلية إلى الاهتمام الذي أولاه أهل تونس لهذه المؤسسة التي كانت مسئولة عن وضع القيود على العلم، كما أشار الأبيلي في ذات القرن الرابع عشر الذي كتب فيه ابن خلدون:

"ينجذب الطلاب بالمنح العلمية والفوائد والمنافع المادية المعروضة هناك ويتجهون صوب المدرسين المعينين من قبل الحكومة لإدارة هذه المدارس والتعليم بها، أو صوب المدرسين الذين ارتضوا أن يخضعوا أنفسهم للسلطات. وهذا يفصل الطلاب عن (بقية المدرسين الذين يمثلون العلم الحقيقي والذين لم يُعينوا في المدارس لأنهم لو كانوا قد عُيِّنوا بها لرفضوا، ولو قبلوا ذلك التعيين لما أمكنهم تلبية مقتضيات الدور المطلوب من الآخرين)" [5].

في الصفحة المقابلة، في الفصل السادس (الذي يضم 58 قسمًا) يدون ابن خلدون تأملاته حول "العلوم وتعليمها ومفرداتها ومناهجها" ويبدأ نقاشه عن المعرفة القائمة في الحضارة المعاصرة" وبذلك وضع مقدمة طريفة لثقافته، المقدمة مخطوطة عاطف أفندي، عام 1936، مكتبة السليمانية، اسطنبول.

أسفل، مخطوط للقرآن الكريم من الأندلس أو شمال إفريقية، أواخر القرن الرابع عشر.

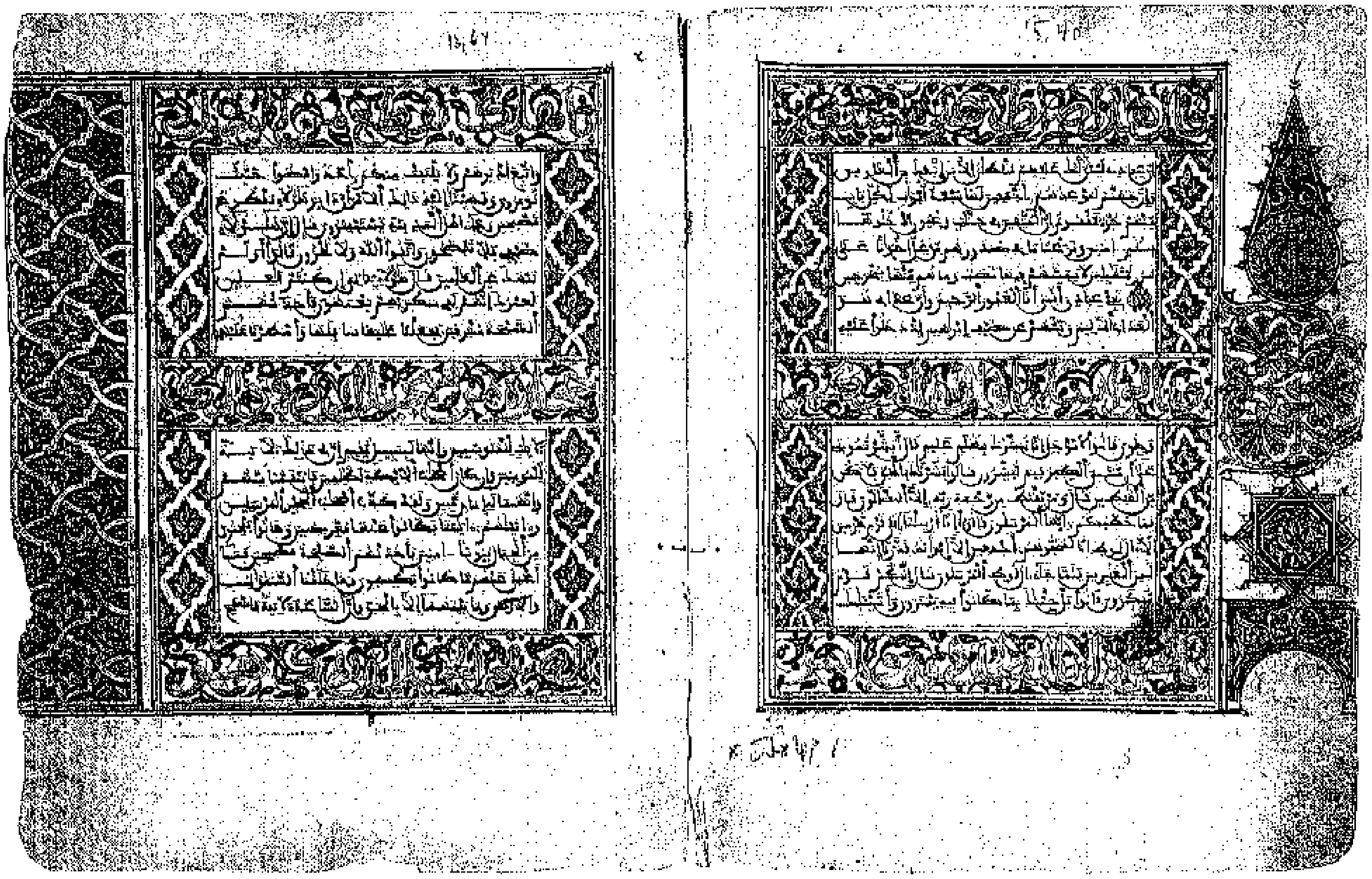

من الواضح أن المغرب قد شهد مع تلك المدارس دورًا مؤسسيًا حقيقيًا في التدريس. فمنذ ذلك الحين فصاعدًا شهد تدخلاً أكبر من جانب السلطات المحلية وأصبح خاضعًا أكثر فأكثر لقواعد نابعة من الجو السياسي [6]. فعلى الرغم من أن الوظيفة الأولى "للمدرسة" تتمثل في كونها مدرسة قرآنية فإنها اعتُبرت في الأغلب مجرد "مقر إقامة للطلاب" من نوع ما في نظر مؤرخين مختلفين. لذا لابد لنا من أن نضيف أن هذين الغرضين (المدرسة القرآنية المخصصة لدراسة الفقه والحديث، أو مقر إقامة لطلاب الكتاب المقدس) لا يكفيان –في حد ذاتها– لإيضاح المغزى الخفي والأبعد لهذه "المدارس".

4 ابن خلدون، المقدمة، 743، النسخة الإسبانية، 1003؛ النسخة الفرنسية، 1226 – 1227؛ النسخة الإنجليزية 424– 425.

5 المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحرير إحسان عباس، 8 مجلدات، بيروت، 1968، المجلد الخامس 275، 276، وفقاً لترجمة م. خ. فيجيرا موليتز في ترجمة المؤلف ابن مرزوق، المسند، لأبي الحسن، سلطان بني مرين، مدريد، 1977، 438، حاشية 128.

6 Martínez Enamorado, V. (2002) "Las Madrasas de Ceuta en el contexto del Islam occidental" en *Ceuta en el Medievo: la ciudad en el universo árabe, Jornadas de Historia de Ceuta*. Ceuta, págs. 39-58.

في واقع الأمر لقد كانت هذه المدارس كذلك مراكز متخصصة في تخريج الصفوة من أهل السلطة في أسر حاكمة كانت –في أحوال كثيرة– تحت وطأة إيجاد المبرر والمسوغ لشرعيتها الدينية [7]. ويتضح هذا الأمر بجلاء في الدراسات التي خصصت لهذه المؤسسة في المغرب والتي تؤكد بالإجماع على اعتبار أن المدرسة مركز تدريب حقيقي للجماعات الحاكمة من جانب مختلف القوى التي اشتد عودها منذ القرن الثالث عشر. لقد بلغ أمر هذه المدارس حداً جعل كولفن Golvin يتحدث عن المدرسة المرينية على أنها "أداة جديدة للسلطة" الغرض منها من جهة "أن تخلق وتشكل موظفين من كافة المستويات وأن تتحكم بهذه الكيفية فيمن سيقومون على خدمة المملكة مستقبلاً" [8] ومن جهة أخرى أن تستأصل الهرطقة السابقة "من شأفتها" [9]. كما أن حراك بعض الموارد المالية بمعنى "الوقف الخيري" التابع لمدارس مغربية مختلفة قد أسهم في النمو السريع لتلك المؤسسة[10] وحسب قول ابن مرزوق يرجع الفضل إلى أبي الحسين كبنّاء للمدارس "في أن عددًا من الناس قد ضمنوا مصدر رزقهم وبقاءهم في الوقت الذي استمر فيه البناء". وقام على تمويل هذا العمل أملاك وهبها أصحابها له، وقد غطت نفقات الطلاب (طُلبة) والمساعدين (عنوة) والمسئولين والمشرف والمؤذن والإمام والمفتش (الناظر) والشهود والخدم، "وكان يُنفق على الجميع بسخاء كبير"[11]. وفي الوقت ذاته، فإن هذه المؤسسة كانت تمثل حقًا فرصةً ما للترقي الاجتماعي للطبقات الدنيا في الحضر والريف بفضل نظام من المعونات أو المنح الدراسية طبق بكفاءة كبيرة[12]. مجمل القول فإن من الواضح أن الأسر الحاكمة المغربية –لاسيما الأسرة الحاكمة في فاس– قد ضمنت لنفسها من خلال هذه المراكز تشكيل جهاز خدمة مدنية مدرب على استخدام اللغة القرآنية[13]– مع الأخذ في الاعتبار أن المغرب الأقصى كان نصيبه من التعريب ضئيلاً، وهو أمر لم يفت ابن خلدون العظيم التنويه إليه.

وعلى الرغم من القول مرارًا وتكرارًا أن المدرسة كمؤسسة قد قامت في الشرق واضطلعت بمهمة "بيت العلم" (دار الحكمة) وكانت علوم الأقدمين (الفلك والطب والصيدلة والرياضيات..

7 Shatzmiller, M. (1982) *La historiographie mérinide, Ibn Khaldoun et ses contemporains*. Leiden, págs. 115-123.

8 Golvin, L. (1992) "La Medersa, nouvel 'outil' du pouvoir", *Autrement*, 13, pág. 94.

9 Ibidem, "Quelques reflexions sur la fondation d'une Medersa à Grenade", *Actas del XII Congreso de la Union Européenne d'Arabisants et d'Islamisants (Málaga, 1984)*, Madrid, págs. 308-309.

10 Shatzmiller, M. (1991) "*Waqf Jayri* in Fourteenth- Century Fez: Legal, Social and Economic Aspects", *Anaquel de Estudios Árabes*, núm. 2, págs. 193-215.

11 ابن مرزوق، المسند، ترجمة إسبانية لـ: م. خ. – فيجيرا موليتز، 336.

12 Khaneboubi, A. (1987) *Les premiers sultans mérinides (1269-1331)*. Histoire politique et sociale. Paris, pág. 187.

13 Golvin, L. (1995) *La Madrasa Médiévale*, Aixen- Provence, pág. 212.

الجامعات ومراكز التعليم العام والمدارس في القرن الرابع عشر:
- جامعات.
- مدرسة واحدة
- مدرستان
- أكثر من مدرستين.

إلخ) تتمتع بنفس الدرجة من الأهمية والصلة الوثيقة كالعلوم الإسلامية (مثل القراءات والتفسير القرآني والتراث النبوي والقانون والشريعة ... إلخ) فإن الحقيقة الباقية هي أنه عند تطبيق هذا النظام كنظام كوني عام في التعلم في كل من المشرق والمغرب حدث نوع من التقنين القياسي وضع نهاية لاستقلالية العلماء. فمنذ هذا الوقت فصاعدًا أصبحوا عرضة لتدخل متزايد من قبل السلطة السياسية وهو تدخل نابع من هذه المراكز التي تلقن هذه المبادئ المعرفية. ومنذ القرن

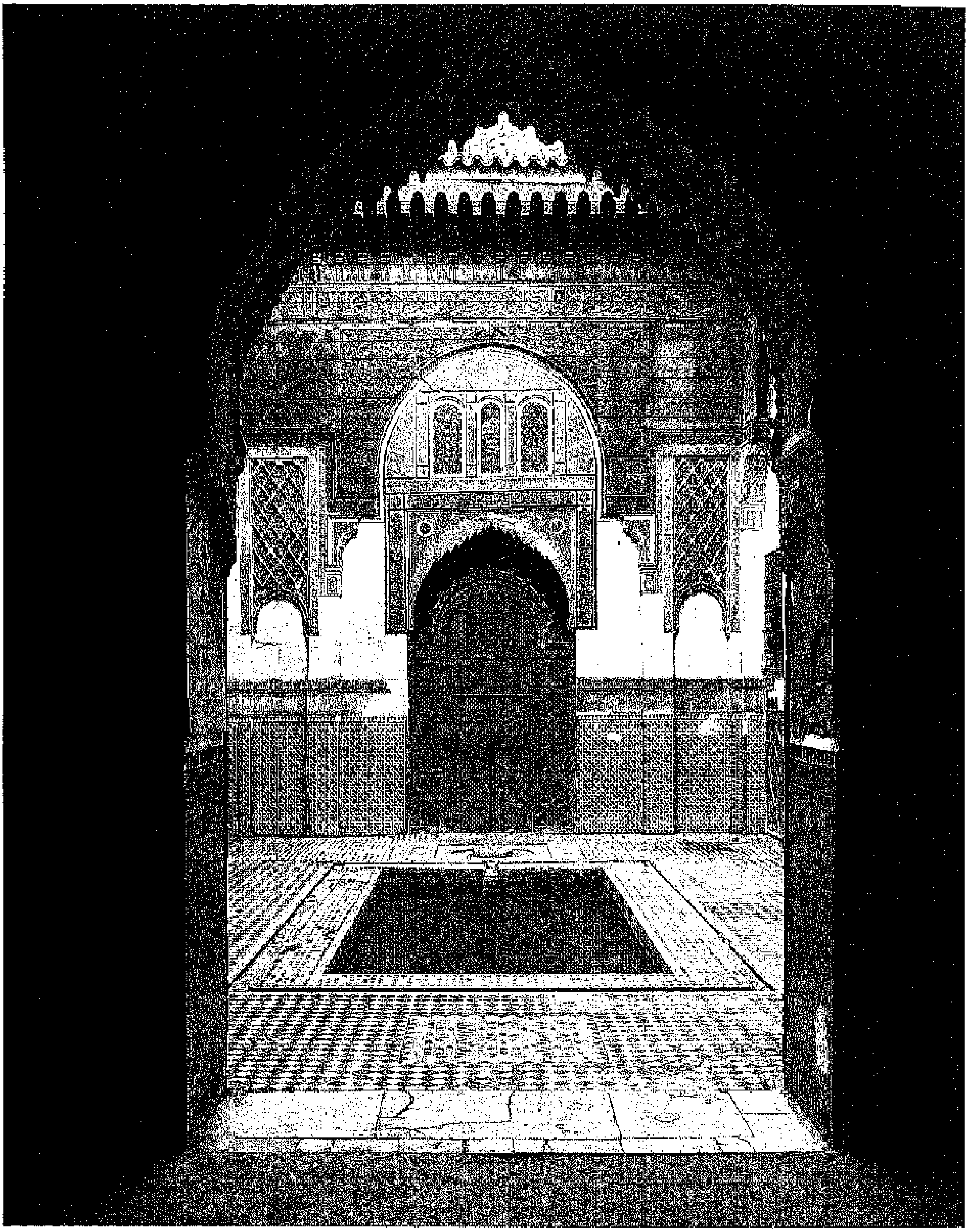

مدرسة العطارين في فاس.

الثاني عشر فإن هذه المؤسسات كانت تحبذ -إلى حد كبير- إحداث تجانس بين النصوص القانونية والحديث، لأنه مع ختام التدريس في المساجد الصغيرة أو مقرات أهل العلم أسدل الستار على ثقافة محلية مستقلة.

إن تفسير بوادر تخلق تلك المؤسسة في المشرق قد فُهم بطبيعة الحال على أنه ردة فعل عنيفة ومفاجئة من جانب حركة "الإحياء السُنيّ" التي وقعت في القرن الحادي عشر في مواجهة

التشيع (المذهب الشيعي) المتزايد النشاط؛ لكن هذه القضية أثيرت للنقاش من جديد ولكن بتفسيرات جديدة. فعلى العكس من ذلك، من الممكن أن نلحظ أنه قبل وضع تطوير "المدارس" موضع التنفيذ في المدن التي كان يسيطر عليها نظام الملك كان الهدف من إنشاء هذه المدارس في العالم الفارسي هو دراسة القانون الإسلامي والحديث، والتصوف في بعض الأحيان. أما ما هو صحيح بصورة مؤكدة أن هذه المدارس كانت سُنّية في الأساس (إذ لم يتم التحقيق سوى من مركز شيعي واحد بهذه المواصفات)، ولكن –أياً كان الحال – فإن مناهضة السلاجقة للتشيع لابد وأن تخطى بالاهتمام الواجب لأن الشواهد المعلومة لا تسمح بإصدار حكم قاطع ولا حتى في نظر معاصريهم. وحتى وإن حق القول بأن المدرسة، كانت – في وقت لاحق – تستغل من جانب دول معينة بهدف مواجهة المذهب الشيعي فإن هذا لا يعني بالضرورة أن مثل هذا التناقض والصراع كان قائمًا بهذه الدرجة من الوضوح في مفهومها. وفضلاً عن ذلك فإن إنشاء هذه المؤسسات لابد وأن يُقدم (زمنيًا) بضعة عقود، ففي خراسان – مهد ميلاد نظام الملك– أياً كان الحال وبمنأى عن هذه الدوافع، فمما لا شك فيه أن التوسع في هذه "المدارس" في حد ذاته يشكل "ثورة في التعليم" وفيها "ولت أيام التكاثر والتزايد بلا رقيب في الحركة العلمية الإسلامية، كما مضت بلا رجعة أيام استقلالية العلماء على الأقل لدرجة تعرض علماء ممن يتقلدون مناصب في مدارس –سواء كانت هذه المدارس تحت رعاية أفراد أو ملوك – للفصل"[14] وهذا يتوافق ويتزامن مع ما عبر عنه بعض المعاصرين عن هذه الظاهرة. وفي المشرق فإن التأثير الفارسي على الجيلين الأوّلين من المدرسين هو حقيقة أخرى ملموسة كما يشير بولييه. ومن المنطقي أنه لم يكن بالإمكان حدوث (قيام) وضع مماثل في الغرب.

ومما لا شك فيه أن التوسع السريع لهذه المراكز يؤمّن ويصادق على ملائمتها للعمل في خدمة سلطات ذلك العصر. وفي حين كانت غالبية هذه المراكز في الشرق –في واقع الأمر– تحت رعاية القطاع الخاص فيبدو أن السلطات في المغرب سرعان ما أدركت الفائدة التي ستجنيها من تسخير هذه المؤسسات لأهدافها، وهي مؤسسات تؤدي خدمة في إنجاز الأغراض السالفة الذكر. ولذا –فباستثناء حالتين اثنتين– كانت المدارس عن بكرة أبيها مؤسسات رسمية.

وإذا كانت الإشارات الأولى إلى المدارس في خُراسان إلى القرن العاشر فإن توسعها وانتشارها –أولاً على يد الوزير السلجوقي نظام الملك ثم لاحقًا من جانب أسرات حاكمة أخرى– قد بدأ في المشرق من القرنين الحادي عشر والثاني عشر فصاعدًا. وفي هذا القرن الأخير (الثاني عشر) تضاعفت أعداد هذه المراكز في مدن مثل بغداد ودمشق. وقد أقيم أول هذه المؤسسات في العاصمة السورية عام 1090، ولكنها بعد مرور قرن تجاوزت العشرين، وبحلول عام 1260 تزايدت أعدادها لتصل إلى 53. ويعود تاريخ إنشاء أول مدرسة بالقاهرة إلى عام 1170.

أما في الغرب الإسلامي فقد كان هذا التوسع (في المدارس) متقلبًا، وكان بنو مرين على وجه الخصوص هم من شجعوه. ففي عام 1252 أقيمت أول مدرسة في تونس، وتلتها مراكز أخرى تحت رعاية أسرة بنو حفص الحاكمة. وفي المغرب الأقصى–إذا ما تغاضينا عن حالة أول مدرسة في الغرب الإسلامي (تلك التي أنشأها ورعاها أبو الحسن محمد الشاري في سبتة عام 1238)[15]– فإن مدرسة الصفارين القرآنية الرسمية في فاس كانت الأولى ضمن سلسلة مدارس افتتحت من قبل سلطنة أبي يوسف يعقوب عام 1271. وفي منتصف القرن الرابع عشر كان هناك سبعة من هذه المراكز في فاس[16]. فبحلول هذا التاريخ كان أبو الحسن علي قد نجح في توسيع نطاق هذه المؤسسة إلى كافة المدن والبلدان الهامة في المغرب (مكناس وسبته ومراكش وسلا وأنفا وطنجة وأزمور وتازا ... إلخ) كما ينوّه ابن مرزوق[17]. وفي نهاية المطاف انتقلت الظاهرة إلى مملكة "بنو نصر" في غرناطة في تاريخ لاحق، وكان ذلك على سبيل المحاكاة لبلاد المغرب المجاورة تحت حكم "بني

14 Bulliet, R. (1994) Islam. *The view from the edge*. Columbia University Press, pág. 149.

15 Martinez Enamorado, V. (1998) *Epigrafía y poder. Inscripciones árabes de la Madrasa al- Yadida de Ceuta*. Ceuta. "Las Madrasas de Ceuta..".

16 Aouni, L. M. (199?) *Étude des inscriptions mérinides a Fès*. Aix-Marsella. Tesis doctoral microfilmada.

17 "ثم بني [أبو الحسن علي] مدرسة في كل مدينة في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط": ابن مرزوق، المسند، الترجمة الأسبانية لـ: م. خ. فيجيرا مولينز، 336.

18 Sobre esta madrasa, Calero Secall, Mª. I.; Martínez Enamorado, V. (1995) *Málaga, ciudad de al-Andalus. Málaga*, págs. 247-250.

19 Cabanelas, D. (1989) "La Madrasa árabe de Granada y su suerte en época cristiana", *Cuadernos de la Alhambra*, núm. 24, págs. 29-54.

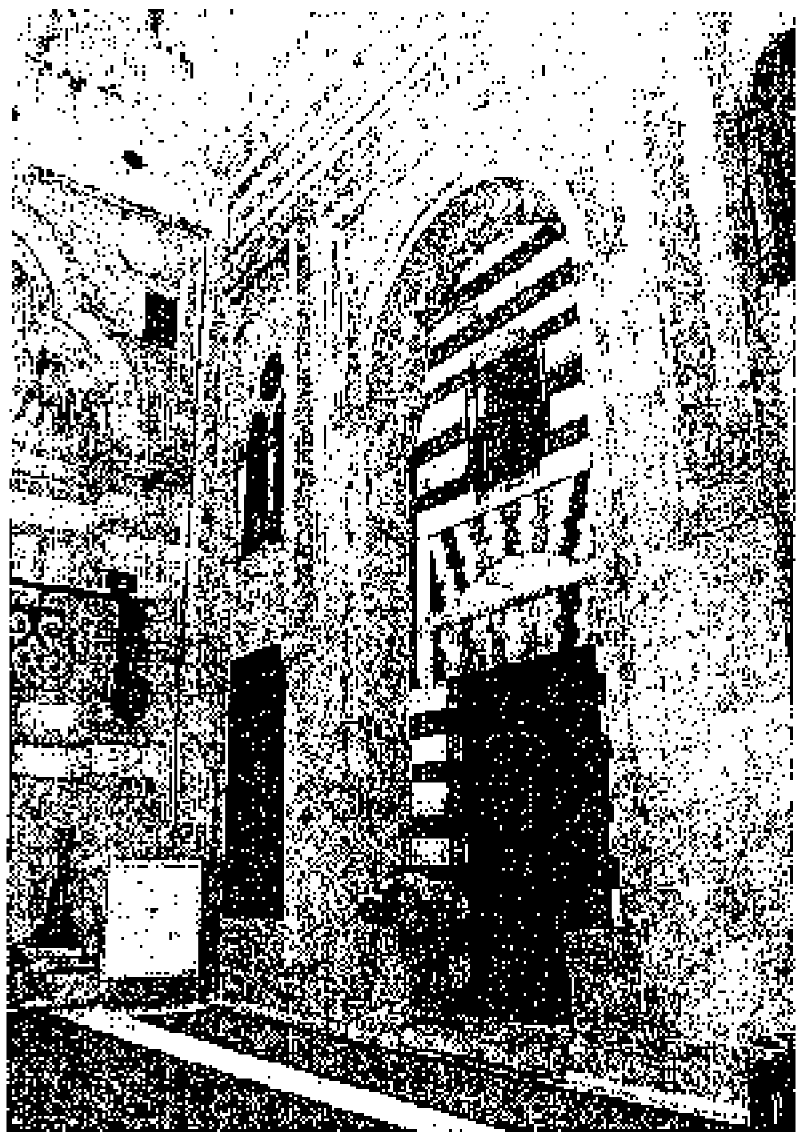

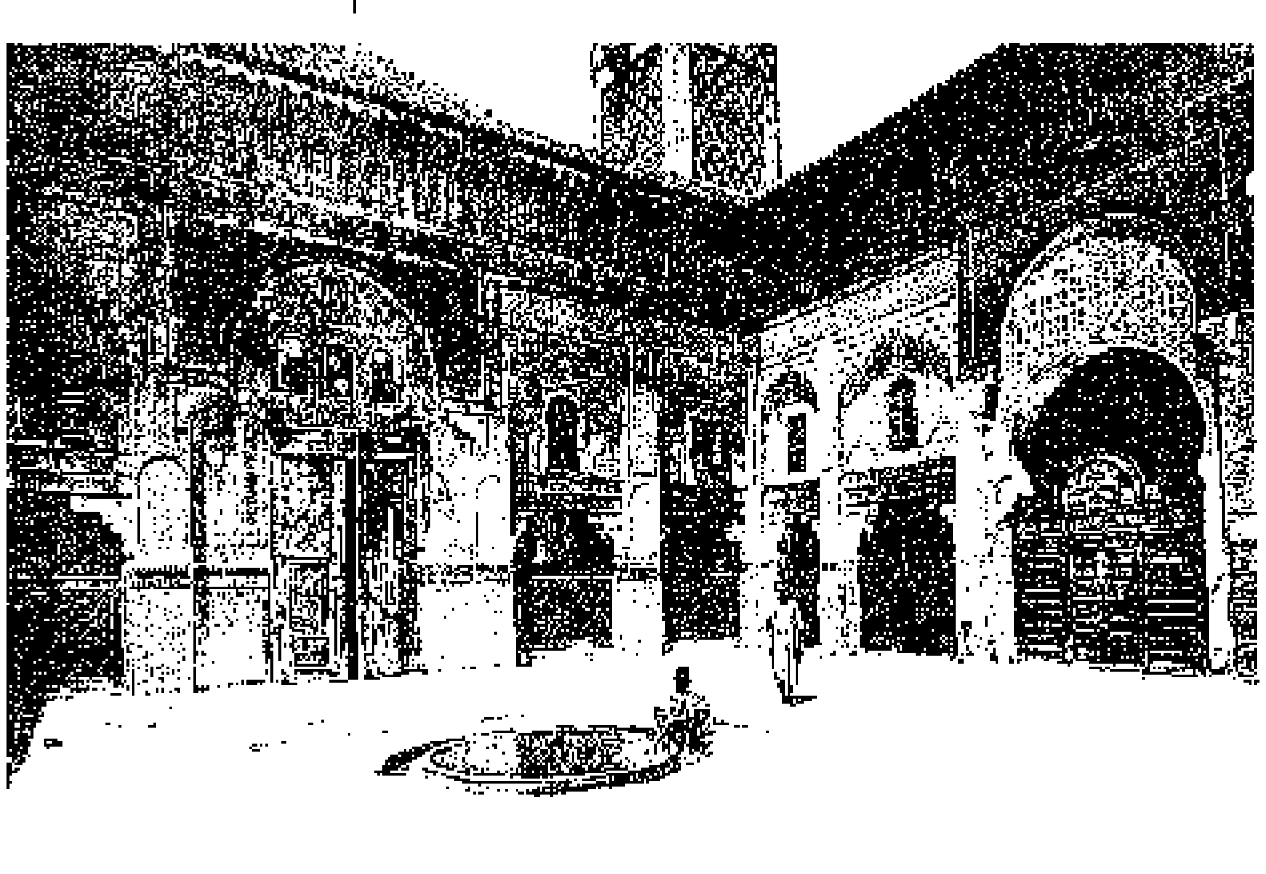

أعلى، المدرسة الطيبرسية بجوار الجامع الأزهر في القاهرة.
صحن مدرسة أبو عنان، فاس.

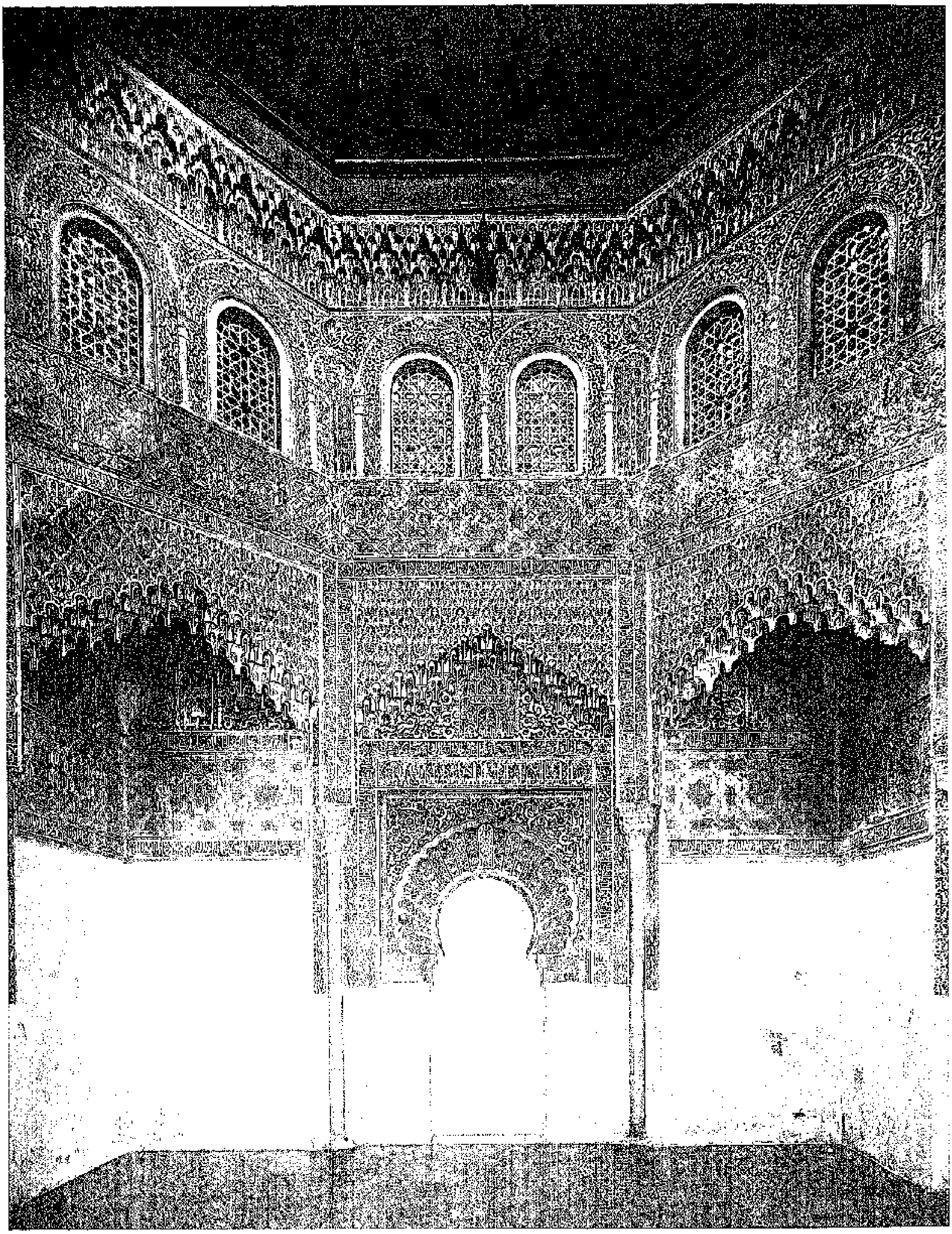

مصلى المدرسة، غرناطة.

مرين[17]. وعلي الرغم من الوجود المسبق لمدرسة ذات علاقة وصلة برابطة[18] صوفية يترأسها السهيلي المعُمم في مدينة مالقة منذ عام 1340 فلم تنشأ مؤسسة تحت رعاية الأسرة الحاكمة في عاصمة الإمارة وبأيدي يوسف الأول حتى عام 1349. وكانت هذه المؤسسة صاحبة الفضل -جزئيًا- في الازدهار والتألق الثقافي للأندلس في فترة لاحقة[19].

التحليل الاجتماعي لابن خلدون

عبد المجيد شرفي
جامعة تونس
ترجمة أحمد نبيل

أصبح من المعتاد حاليًا أن نصرح أن ابن خلدون كان رائد العلوم الاجتماعية الذي حقق مكانته في القرنين التاسع عشر والعشرين وسط أسماء مرموقة المستوى مثل: إميل دوركايم أو ماكس فيبر، لقد أثبتت الدراسات العديدة التي أشارت لابن خلدون بأغلب اللغات الحية لهذه الحقيقة، إننا لا ننوي أن نتوسع في تفاصيل تحليله الاجتماعي في هذه الصفحات القليلة، لأن ذلك سيتجاوز المساحة المفردة لنا، ويكفي أن نتكلم عن النقاط الرئيسية التي تظهر أصالة اقترابه، ووضوحه المتميز، وجرأة أفكاره.

لقد حصل ابن خلدون على نفس التعليم الذي حصل عليه معاصروه، فقد قرأ النصوص المتاحة ودرس نفس الكتب مثل أي شخص آخر؛ لذلك يمكن توقع أنه اتبع الطريقة التي ابتكرها العلماء في زمنه، وكتب تعليقاته وملاحظاته طبقًا لقيم هذه الفترة، إلى جانب أنه شكلها بأسلوب تقليدي كلاسيكي واضح في بداية حياته المهنية، لكن كان يجب عليه أن يشعر بضيق من عادات الاطلاع التي أقنعته هو نفسه بأقل مما يستحق مع إعادة إنتاج المعرفة في فئات وضعها السابقون عليه، مع التقليد كسمة أساسية.

هذه هي الطريقة التي اكتشف وبهر بها نفسه مع اكتشافه العلم الجديد "علم العمران" الذي مكنه من معالجة الحضارات الإنسانية من زاوية جديدة، زاوية بحث القوانين التي سلكتها الحضارات في نشأتها وتقدمها ثم قادتها بعد ذلك لتدهور حتمي على مدار فترة طالت أو قصرت. لقد كان مشروعًا طموحًا.. لكن في نفس الوقت جدير بروح عظيمة لا تتسامح مع دون المتوسط الذي شعر به فقط عند مستوى مريح من أوج الفكر.

لقد أعطى ابن خلدون فضولاً مدهشًا لأغلب سماته المتعددة للنشاط الإنساني، فهو مليء بكم كبير من الأسئلة تملى عليه عن طريق شخصية غير متوازية، وثقافته الهائلة وثرائه وخبرته الوعرة كسياسي، وعمله تحت ضغط إبداعي فكري؛ فهو يعرض بصبر ويحلل منهجيًا وعمليًا طريقة عمل الحضارات الإنسانية والأسباب العميقة لتطورها على مدار التاريخ، فقد عرف هذه الأسباب أولاً من خلال بيانات ديموغرافية وهياكل اجتماعية واقتصادية، وأيضًا علم نفس الإنسان والشعوب. إن نصف الطريق بين الحتمية المطلقة وفوضى تلقائية أو فرصة، وقناعته الثابتة أن التاريخ واضح ويوجد به قوانين عامة لابد أن تعمم مع نفاذ البصيرة والفهم السريع للأمور لأن الظواهر الاجتماعية معقدة ومتغيرة في ذات الوقت. "يقول أنه ليس حقيقي مقارنة حضارة بأخرى لأنه يوجد الكثير من الاختلافات ضدّ التشابه [1]".

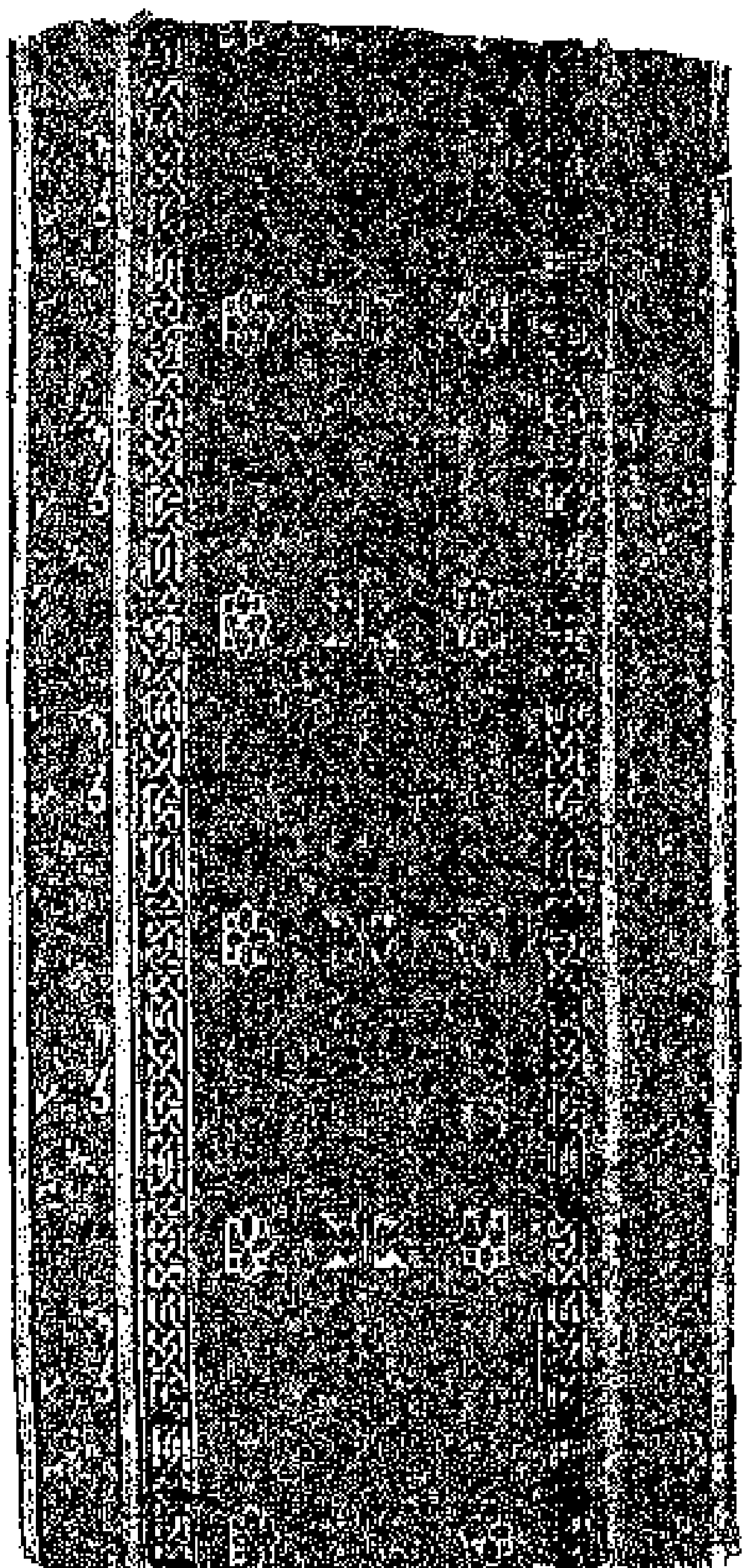

قطعة من طراز من القماش من عصر بني نصر صنع في غرناطة في القرن الرابع عشر، مؤسسة لازارو جالديانو، مدريد.

إن الفصول الستة التي تشكل كتابه "المقدمة" تعتبر كشفًا في حد ذاتها لهيكلها ومنهجها، لقد بدأ ابن خلدون معالجة المجتمع الإنساني حقًا بطريقة عامة، ومن المفترض أنه يخص علم الأجناس والأنثربولوجي ودراسة تأثير البيئة على الطبيعة الإنسانية قبل تحليل سمات الحضارة القروية. ويشير الفصل الثالث لأشكال مختلفة للحكومات والدول والمؤسسات، وقد ركز اهتمامه في الفصول الثلاثة التالية على المجتمعات الحضرية؛ حيث اكتشف أغلب أشكال الحضارة المستنيرة والأكثر تطورًا؛ وقد قام هذا الإطار بقيادته للحديث عن الصناعات وسلسلة من الحقائق الاقتصادية، وأخيرًا لدراسة العلوم والإنسانيات والتوضيحات الثقافية المبدأية، وكان موضوعه لآخر فصلين هو المنتج المنطقي للحضارة الحضرية.

1 نحن نأخذ الصفحات من طبعة بيروت للمقدمة، دار الكتاب اللبناني، 1956 ، في هذه الحالة ص 1019

لذلك قاده هذا لتقديم -بطريقة أكثر طبيعية- عدد معين من المصطلحات الفعالة، فمما لا شك فيه أن العصبية المصطلح الأكثر ملائمة ومتعلق به؛ فمن وجهة نظره هذا المصطلح هو اندفاع للحركة التي تسحب البشر خارج البربرية لمزيد من أشكال التنوير للحياة وأدوات الإنتاج. "في أن أجيال البدو والحضر طبيعية" وقد صرح ابن خلدون في عنوان الفصل (ص210) حيث أظهر أن الانتقال لنوع من الحياة يخلق ضروريات متزايدة تتطلب زيادة في الإبداع وليكون راضيًا في هذا الظرف."الانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها" (ص 211) لقد شرح في فقرات كثيرة هذه الحركة التي تسبب تغيرات حقيقية في السلوك الإنساني مثل كنتيجة التقسيم المتقدم للعمل والتخصص الذي يصبح نتيجة له.

بالإضافة إلى أن التنمية الديموغرافية ربطت بين التنمية الفنية التي هي بداية لزيادة المنتج الذي يحرر الفائض. "والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران، يكثر ترفه كما قدمناه؛ وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو إليها".(ص 649) لذلك نشهد تعددية وتنوعً للخدمات المتاحة، ووفرة أكثر وضوحًا واتساعًا حتى ظهور الثروات العظيمة، ويزيد الطلب على الكمال، ويخلق احتياجات جديدة غير ضرورية، ويترجم هذا بمزيد من الترف والثراء أحيانًا لدرجة السفه.

ما يسمى بكأس الفنون، منتج فرنسي من العاج والفضة مؤرخ من القرن الرابع عشر، مؤسسة لازارو جالديو، مدريد.
أسفل، بائع خضر من مدينة القدس.

على الرغم من أن البيئة الجغرافية والموقف السياسي الإيجابي المؤثر عاملان مهمان في خلق الثروة، يستحسن ابن خلدون العمل بالأساس، فالعمل الإنساني في نظامه شرط حاسم للازدهار والرخاء بقدر ما "فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين و ضروراتهم" (ص649) فهو في الأغلب ينتهي إلى أن الآثار الإيجابية للكثافة الديموغرافية وتركيز الناس في مدن كبرى قادرة أن تمدهم بالثروة والخدمات، وبناءً عليه ثروة السلع والأرباح، بعبارة أخرى حضارة أكثر تألقًا ولمعانًا.

من ناحية أخرى هذه النتيجة لا تناقض تأكيداته في الفصل الثاني المتعلقة بالحضارة البدائية التي وجد فيها ميلا بعض الشيء لفعل الخير في أشكاله المنيرة، الخشونة التي وجدها بين الأرض الوعرة، الحادي البدوي للجمل، فالعادات حقًّا أكثر نقاء وسكان الريف أكثر قربًا بشكل طبيعي للفضيلة عن سكان المدن، على الرغم من أنهم ليسوا محميين من الفساد، خاصة عندما يتبنون شكل الحياة في المدن الكبرى، فيتلاءمون بشكل سيئ مع هذه الحياة ويصبحون أضحوكة لهؤلاء الذين استقروا هناك لفترة طويلة (ص258). تستند تحليلات ابن خلدون الاجتماعية على بيانات تجريبية فعلا، لكن لا تفتقد رؤيتها للبعد الأخلاقي للظاهرة محل الدراسة. على أية حال إن ما يميزه عدم تدخل الاعتبارات الأخلاقية ولا الدينية في نظريته التي تشترط اندفاع سكان الريف تجاه تبني أنواع أكثر تنويرًا للحضارة.

هذا ما يمكن ملاحظته في التطورات الهامة للدولة التي أشار إليها، ففي رأيه إن الدولة ضرورية لذاتها، طالما أن الطبيعة الإنسانية عدوانية بالفطرة، كما تحتاج الطبيعة الإنسانية وستظل في حاجة للدولة التي تمثل السلطة القمعية والقوة المقيدة التي تتصرف بالطريقة الآلية المنتظمة التي تمنع الناس من مهاجمة بعضهم البعض من خلال السلطة الضرورية التي تجسدها الدولة، وبالتالي فالدولة هي الكيان العضوي الذي يضمن الحماية الإنسانية، وتمد الناس بالنظام والأمن؛ وهي منتج للحماية الاجتماعية والمؤسسة الضرورية للبت في الصراعات واحتواء الانفعالات.

على أية حال .. فبهذا التسلسل يكتشف قارئ المقدمة الاقتراب الجدلي الجوهري للكاتب، فعلى جانب أصر ابن خلدون في فقرات كثيرة على دور العصبية في نشأة الدول، ففي نظره العصبية مثل التوتر، أي الغرض الأخير لها هو احتكار القوة لتجسد في دولة لأنها تمد بعملية داخلية تتجاوزها ولا يمكن السيطرة عليها. "اعلم أن الغاية طبيعية للعصبية، ليس وقوعه باختيار، وإنما بضرورة الوجود وتربيته" (ص 362). على الجانب الآخر يؤيد ابن خلدون سوء الاستخدام المتعاقب للسلطة بهذه المعاني: "لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق، مجحفة بمن تحت يده من الخلق في أحوال دنياهم، لحمله أياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته". (ص340-341)

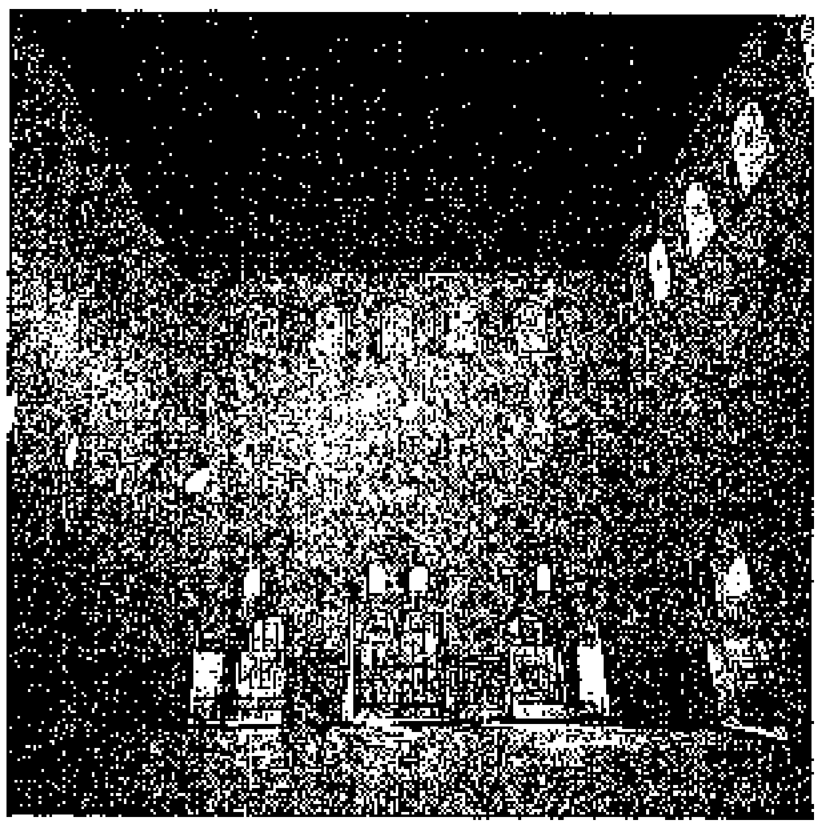

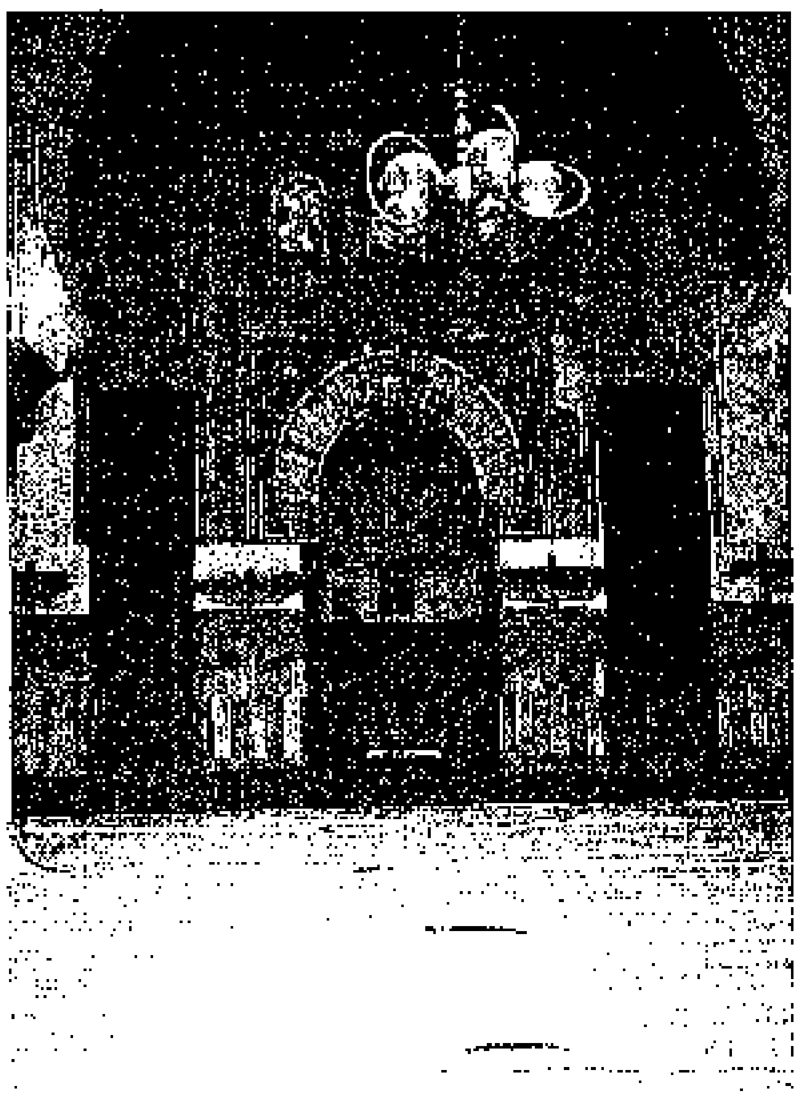

قافلة بدوية من المغرب، أوائل القرن العشرين.
أعلى: قاعة السفراء في بهو قمارش، قصور الحمراء، القرن الرابع عشر.
محراب مدرسة أبو عنان، فاس، القرن الرابع عشر.

أشار ابن خلدون للسمات المزدوجة للدولة بموضوعية. الدولة التي هي نتيجة لضرورة الحياة في المجتمع لا تأخذ وقتا طويلا لتتحول لقامع، واضعة انسجام المجتمع في خطر، يتبع أصحاب القوة السياسية طبيعتهم، حتى الحيوان والحشرات تجاه سوء استخدام هذه القوة التي تضر بالوجود المجرد والبسيط للدولة. هذا هو سبب تفكيره أن أفضل طريقة لحماية نفس الشخص من هذا الاتجاه الخطير تتكون من الحكم الصارم والقوانين المقيدة للجميع التي نسميها اليوم المؤسسات، في الحقيقة فإن هذا بعيد عن المنظور الثيوقراطي للدولة التي كانت موجودة في المناطق الإسلامية والمسيحية في زمنه والتي حصلت على شرعيتها من الدين. لقد اعترف ابن خلدون أن الدولة الثيوقراطية لها ميزة بكونها "نافعة في الحياة الدنيا والآخرة"، وبالتالي لا يمكنه أن يتجنب اعتبار الدولة الثيوقراطية مفضلة عن الدولة العلمانية (المجردة من نور الله) لكنه عجل ليضيف أن الدولة الثيوقراطية لم تكن على الإطلاق جزءًا من النظام الطبيعي للأشياء، أن كونها مجردة من مؤسسة الاجتماع النفسي التي تشكل العصبية، لقد اعتقد أن حتى الأديان غير قادرة على النجاح في هذا الاختبار دون مساعدة هذا العامل الجوهري الذي يختلف للغاية عن أساس الدولة الثيوقراطية التي تحققت بواسطة تاريخ الخلافة الإسلامية، هذا الانزلاق السريع في الملك- نوع معين من الحكومة العلمانية - على الرغم من هذه المظاهر والخطاب الرئيسي في الأدب الإسلامي الذي حاول أن يجمعه مع الدين بأي ثمن.

يوجد سبب للإشارة على هذا المستوى أن ابن خلدون كان أسير نظرة تقيدية للعصور الأولى للدولة الإسلامية، لكنه في نفس الوقت قد أبعد نفسه عنهم باعتبار أنه على جانب الخلافة حصلت وحدها على شرعيتها من الإجماع على صحابة رسول الله، لقد أضفى الأهمية الحاسمة طبقًا لما توصل إليه بشكل واضح لعصبية قريش التي انتمى إليها الخلفاء الأربعة الأوائل، دون ذلك لا يمكن أن نفهم ما يحدث منذ وفاة النبي ﷺ من انشقاق الأنصار، عشائر المدينة الذين انحدروا من صحابة آخرين الذين تساووا معهم شرعًا، كان

يوجد نوع من العقبات السيسولوجية الجوهرية التي لم يتمكن من تجاوزها، وصرفت انتباهه عن رؤية حقيقة الحكومة الإسلامية الأولى. لقد أطاح بالمثالية الشائعة لكل المسلمين في العصر الكلاسيكي أيضًا ومؤسسات النظام القانوني والنظام اللاهوتي حيث اعتقد فيهم نتيجة لتعليمه البدائي وسياقه التاريخي السابق على المدنية.

على الجانب الآخر كان لدى ابن خلدون الجرأة لخلع القناع الديني الذي استخدمته النظم الإسلامية التي اتبعت الخلافة الأموية وكشف عن وجههم الحقيقي، لقد قدم إليهم مقياس قراءة واضحًا بتميز، لا نبالغ إذا وصفناه بالمادية في رأيه، تبقى كل هذه الدول بغض النظر عن أيديولوجيتها نتيجة تتويج للعملية التي تتجاوز قوة الإرادة الفردية المجردة، أو القدرات الأساسية لأنصاره، فقد كانوا مجرد ثمرة لغريزة حيوية عندما تكون مناسبة تقود إلى مبدأ العصبية ليمتص ويستوعب عصبيات ثانوية مهزومة أخرى في أشكال مختلفة (روابط الدم، ماسك صوت، التحالفات، الجيرة، .. وهكذا) ليشكل هرمًا اجتماعيًا على القمة الأعلى وقاعدة أوسع، هذه هي الطريقة الوحيدة التي تولد بها الدول والإمبراطوريات، ونتيجة ذلك أنه لا يوجد مكان لتمثيل أية قوة حدسية في هذا النظام، كافتراض من جانب الماوردي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي يتبع بواسطة سلسلة من الفقه السني دون ذكر تفوق السلطة الثيوقراطية عند الشيعة.

من المفهوم أن ابن خلدون كان مؤمنًا، من المستحيل أنه كان ينكر السبب الأول للظاهرة الاجتماعية والطبيعية، ولكنه بحث عن أسباب أخرى -إذا جاز لنا القول- وضع الإله جانبًا منذ أن اعترف أخيرًا أن القوانين العامة التي أصدرها تستجيب لسنة الله، فبالاقتصاد أصبح وظيفة العالم والمجتمع، وهذا التوجه ثابت في ابن خلدون، وقد ينحرف فقط عنه -استثناء- عندما تبدأ القضايا الإيمانية بالتأثير، إلى جانب نظرته عن الخلافة السابقة، نستطيع أن ننتقده فيما يتعلق بـ"هاديث" الذي لم يتوافق مع تطبيقه لقيمه التي أصدرها فيما يتعلق بحساباته التاريخية. لم يكن ابن خلدون قادرًا على تطبيق نفس القيم في كتابه عبر التاريخ "كتاب العبر" كمعطٍ، وتفوق هذه المهمة قدرات شخص واحدة فقط، موهوب وثاقب الفكر مثل ابن خلدون.

وإلى جانب أهمية الدولة في نظرية ابن خلدون توجد ظاهرة أخرى جديرة بالذكر هي التحضر وآثاره على الحياة الاجتماعية، عندما لم يتكلم عن حقائق الحضارة (العمران) لكن شكلها الحضري الأكثر استنارة، يستخدم ابن خلدون مصطلح الحضارة وعرَّفه كالتالي: "والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله. فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا، وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد". (ص307-308)

وطبقاً لابن خلدون فإن الترف الزائد الذي يميزها في كامل جوانبها هو سبب خسارتها، فهو تأثير سلبي أدانه ابن خلدون ويلاحظ أن الحضارة تضعف الشخصية، وتجعل الرجال عبيدًا لعواطفهم، وباختصار تفسدهم، وهي نفسها تموت وتنتهي بسبب هذا الفساد.

لذلك تكشف الحضارة وحدها الآثار السلبية التي تتبع التنمية الصناعية التي هي جزء من الثقافة والعلوم ويتبعها تقدم الحضارة " في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة".(ص 798) لأنها المدينة التي تحدد الأنشطة الاقتصادية وهي مركز لقطاعين جوهريين للنشاط الإنساني: الصناعة والتجارة.

وكل مرة تصل الحضارة لأوجها، تعرقل هذه الأنشطة. على الرغم من هذا سيكون من الضروري بالنسبة لهذه العراقيل أن تتزامن لتعلن تدهورها في نظام الأفكار. يشخص

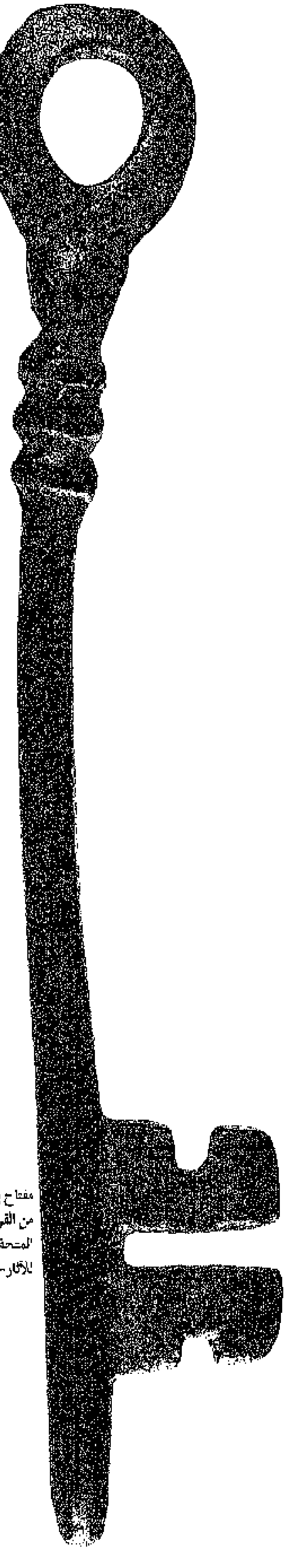

مفتاح إسباني - إسلامي من القرن الرابع عشر، المتحف الوطني للآثار - مدريد.

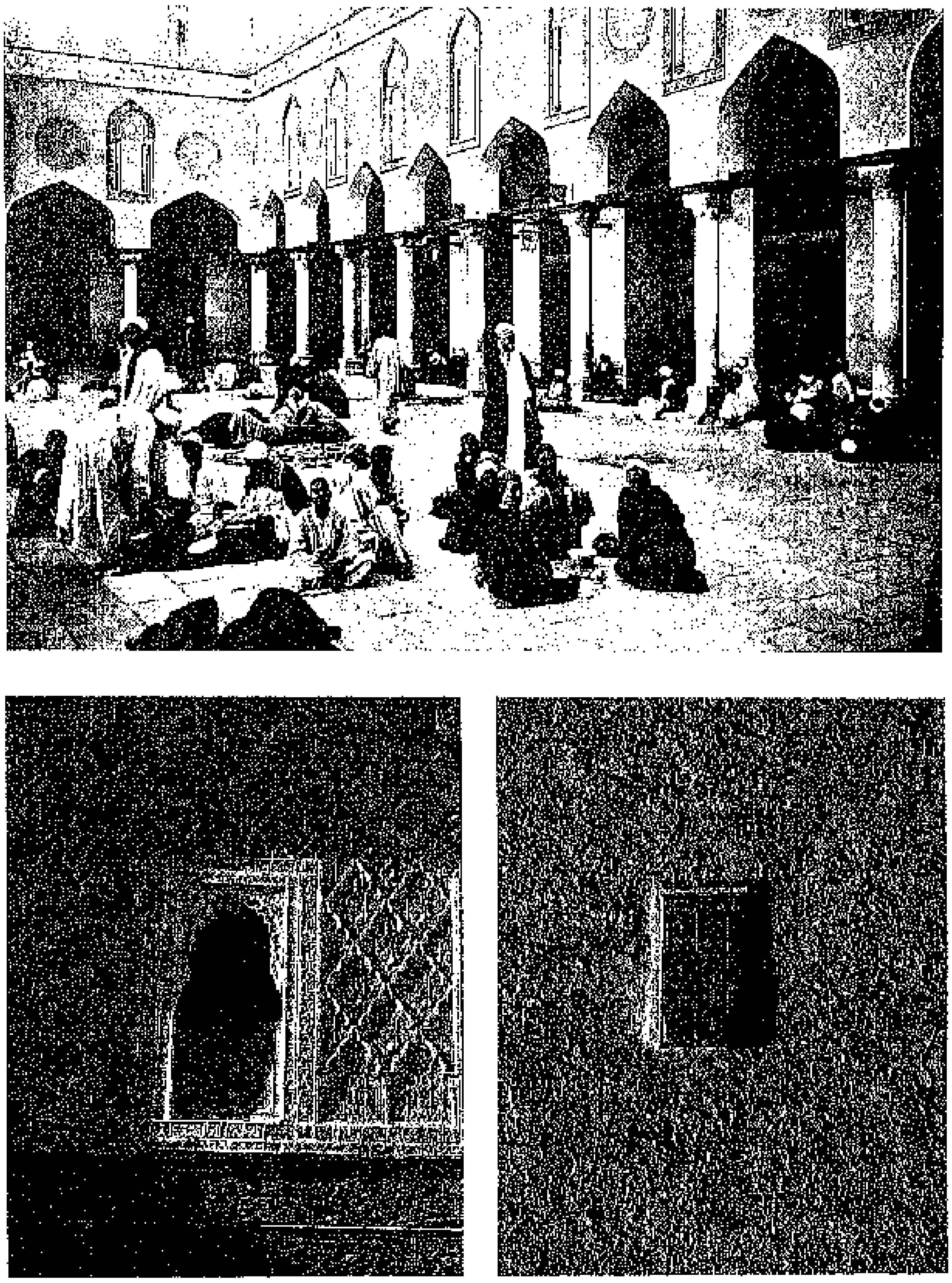

أعلى، صحن الجامع الأزهر في القاهرة، في أواخر القرن الرابع عشر. أسفل إلى اليمين، تفاصيل معمارية من منشأة من قرية درعة. إلى اليسار، تفاصيل من مدرسة ابن يوسف، مراكش.

فساد العادات خصوصًا الضرائب المفرطة، الأزمة الاقتصادية بكونها نتيجة للسياسات السيئة: ضرائب المبيعات والمصادرة وكل أشكال الظلم غير الملحوظ والملحوظ، باختصار الذي نسميه اليوم الحكم السيئ، كل هذه الأشياء السيئة تساهم في تبطئة أي نوع من الأنشطة ويقلل من خلق الثروة، هذه هي العلامة المؤكدة لقمع وانحطاط الحضارة التي تموت لتتكلم من الاختناق.

وقد ركزت كثيرًا على نظرة ابن خلدون الدائرية والتشاؤمية، مع ذلك فقد تكلم فقط عن الواقعية، ففي وجهة نظر الحضارات ليست متساوية وليست لها نفس القيمة، لأنهم لا يمدوننا بنفس الدرجة من السعة والراحة. خاصة أنه لم يكن متشددًا فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية التي فشلت في مرحلة التحضر التي هي شرط لا مفر منه لآثار المستوى الأعلى أو بعبارته هو"لأنه غاية لا مزيد من ورائها" (ص 670) تبقى الحقيقة أن تحليله التجريبي يقوده لينظر في كل حضارة، وهذه الحالة يتكلم عن "عمران" وليست الحضارة، حتى في كل دولة تشكل ذلك فإنها تمر بثلاث مراحل ضرورية: الشباب، النضج، الانحدار. كما رأينا من قبل أن البداية تحدث في ظل تأثير العصبية ثم إنها تحول العمران لشكل طبيعي للحضارة التي تنزلق سريًا تجاه الفساد "كالأعمار الطبيعية للحيوانات" (ص 674)

إذاً الحضارات فانية، نتيجة التشوه بين التقدم المادي والارتداد الأخلاقي، وتبقى الحضارة وتزداد وتستفيد من تراكم المعرفة الإنسانية والخبرة، إن قيمة التقدم قريبة وممتدة بواسطة إنكار الاستقرار الاجتماعي بشجبه لما يسمى تقلب المجتمع وعلى النقيض بتأكيده على انتقاله الدائم وبالنسبة لنقطة نشهد تحولاً كاملاً وتغيرًا حقيقيًا لو كان هذا المنظر ولم يعبر عنه بوضوح، على الرغم من المنظور الديناميكي للحراك الاجتماعي، هذا لأنها يجب أن تنتظر حتى القرن الثامن عشر ليتم رؤيتها بوضوح في أثناء نهضة قضايا التنوير-وأكثر عمومًا- وفي الإدراك الحديث دعنا لا ننسى أن القرن الرابع عشر كان بعيدًا عن معرفة خطوة سريعة محسوبة على المجتمعات من جانب التطور العلمي والتكنولوجي.

بالتالي فعلى جانب نجد بصيرة المراقب العظيم للحقائق الاجتماعية "ابن خلدون" كانت ضرورية لتذهب إلى منظور التطور الذي لن يهجره معاصرون، وعلى الجانب الآخر كان هذا الإرث بين أشياء أخرى لأخوان الصفا و"مسكويه" الذي سمح له أن يضع التطور الاجتماعي بداخل التطور الكوني العالمي، هذا ما أوصلنا إلى المرحلة الأخيرة لملاحظاتنا

واجهة البوابة المرينية في مدينة شلا.
أسفل، صندوق عاجي من القرن الرابع عشر، يرجع صناعته في غرناطة أو إسبانيا أو إيطاليا، مؤسسة لازارو جالديانو، مدريد.

من خلال الانتقالات الآخذة في التقدم للممالك المختلفة: (المعادن، الحيوان ثم الإنسان) إلى ما بعد هذا الحد ربما يستمر التطور، ولكن في هذا التطابق النسبي الذي يهرب من إدراكنا لأننا ننتمي لطبيعية ملائكية أزيلت من البعد المادي الإنساني.

وضعت تحاليل ابن خلدون الاجتماعية في نظره متسعًا للظرف الإنساني وتطور المجتمعات، فتحليله محفور في "سنة الله" ووجدت في معرفة أوسع للحضارات التاريخية وليس فقط للحضارة الإسلامية، ويمكن أن تكون فقط ضد الطرق العملية لتفكير العربي الإسلامي في عصره بشكل جزئي، بالنسبة لهذا السبب أنه لم يكن لديه اتباع حقيقيون أو لاحقون، وأعيد اكتشاف تفكيره في القرن التاسع عشر مصحوبة بمفاجأة ودوار، أما الآن ونحن قادرون أن نخمن نقصه ونسجله في الحركة العالمية للأفكار.

ملاحظة على قائمة المؤلفات

لا توجد نقطة في هذا المؤلف عن حياة "ابن خلدون" لأنه كان موضوعًا لأبحاث كثيرة وقصص عامة، حيث يعرض البحث على "جوجل" على شبكة الإنترنت 96000 نتيجة عن كاتبنا. على أية حال نستطيع أن نشير إلى مقالة بعنوان "ابن خلدون" في الطبعة الثانية من الموسوعة الإسلامية الثالثة" 55 - 849 كتبها محمد طلبي بها قائمة مؤلفات أساسية، لقد ترجمت المقدمة إلى اللغات الحية المبدئية. كتاب آخر ترجمه عبدالسلام شدادي بعنوان "le livre des Exemples" طبعت في Gallimard في المجموعة رفيعة المستوى Pleiade (باريس 2002)، ولا توجد طبعة فاصلة على أية حال أصلية جديدة لهذا الاسم جزئيًا بسبب أن ابن خلدون لم يتوقف عن تكملة وتحسين نصه.

مخطوطات ابن خلدون وتحليل لخطه

جمعة شيخة
جامعة تونس
ترجمة إسحاق عبيد

تتوزع مخطوطات ابن خلدون بين القارات الثلاث أفريقيا، وآسيا، وأوروبا. وتحظى بلدان الشمال الأفريقي بنصيب الأسد من هذا الميراث، خاصة مكتبات تونس ومصر، وهما البلدان اللذان شهدا مولد هذا العلامة ووفاته تباعًا. غير أن هذا لا يقلل من قيمة المخطوطات المحفوظة في المكتبات التركية في إسطنبول، وفي مكتبات أوروبية أخرى. وتنصب هذه الورقة حول تصنيف مخطوطات ابن خلدون إلى فئتين:

- مخطوطات بخط ابن خلدون نفسه
- مخطوطات بيد نساخ متعددين

وتتألف الفئة الأولى من مخطوطة واحدة بيد ابن خلدون نفسه، وهي كتاب: "لباب المحصل لأفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء أو الحكماء والمتكلمين". وهذا العمل مختصر لكتاب فخر الدين الرازي (ت. 606هـ/ 1209) في المنطق بعنوان "المحصل". ويوجد هذا المخطوط في مكتبة دير الإسكوريال، تحت رقم 1614 (طبقًا لفهرسة درنبورج)، وتحت رقم 1609 (طبقًا لفهرسة كاسيري)، ويتألف من 65 ورقة. ويبلغ حجمه 18 × 13 سم، بينما تبلغ المساحة المكتوب عليها 13 × 9 سم، في صفحات يبلغ عدد سطور الصفحة منها 15 سطرًا. وقد تمت كتابة هذا المخطوط في 29 صفر سنة 752هـ/ 1351. ومصدر هذا المخطوط بلاد المغرب، وقد تمَّ نشره بواسطة "دار الطباعة المغربية" في تطوان سنة 1952 (وتمَّ تحقيقه وترجمته إلى الإسبانية بواسطة الراهب الأغسطيني لوشيانو روبيو).

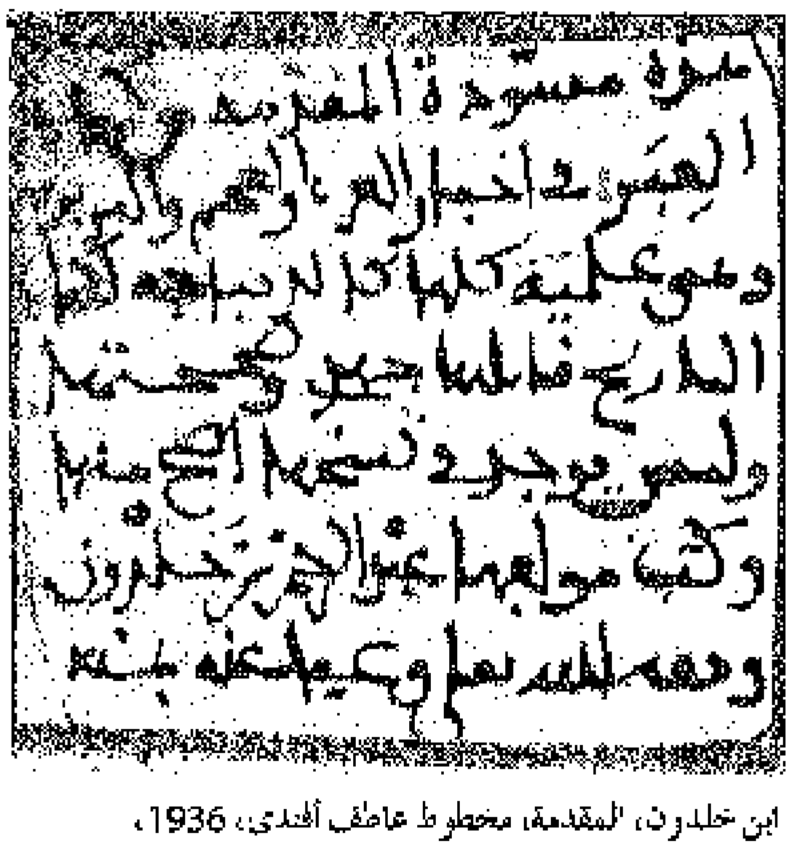

ابن خلدون، المقدمة، مخطوط عاطف أفندي، 1936، مكتبة السليمانية، إسطنبول، ترجع هذه النسخة إلى 1402. وتتضمن الصفحة ملاحظات عن ملكية وبيع المخطوط، والأهم من ذلك، وجود ملاحظة في الركن الأيسر الأعلى - بيد ابن خلدون نفسه - بالخط المغربي: "هذه مسودة المقدمة وكتاب العبر في أخبار العرب والعجم والبربر وهي عملية كلها، كما أن ديباجة التاريخ قد قابلتها بجهد وصححتها. وليس يوجد من نسخها أصح منها. وكتب مؤلفها عبد الرحمن بن خلدون، وفقه الله العلي وبصفوه عفى عنه.

أما الفئة الثانية، فيمكن تقسيمها، وفق الخطوط التي كتبت بها أصلاً وعلى الوجه المبين في الجدول الآتي

الكتاب	الخط المغربي	الخط النسخي	خط النسخ المغربي	خط التعليق	خط النستعليق	خط [illegible]	الإجمالي
المقدمة	3 نسخ	36 نسخة	3 نسخ	3 نسخ	نسختان	18 نسخة	65 نسخة
العبر	51 نسخة	38 نسخة	نسخة واحدة			16 نسخة	106 نسخ
التعريف	3 نسخ	8 نسخ		نسخة واحدة		4 نسخ	16 نسخة
لباب المحصل	نسخة واحدة						نسخة واحدة
شفاء السائل	4 نسخ						4 نسخ
تلخيص [illegible]				نسخة واحدة			نسخة واحدة
مزيل الملام	نسخة واحدة			نسخة واحدة			نسختان
الإجمالي	63 نسخة	82 نسخة	4 نسخ	6 نسخ	نسختين	38 نسخة	195 نسخة

من هذا الجدول يتبين لنا أن أهم الخطوط التي تمَّ فيها نسخ أعمال ابن خلدون هي كالآتي:

1 - الخط المغربي: وهو الخط الذي استخدمه ابن خلدون نفسه، والذي سوف نقوم بتحليله في الفصل الثاني من هذا البحث.

2 - الخط النسخ: وهو من أقدم الخطوط المستخدمة في بلاد المشرق. وقد ظهر أولًا في بلاد الحجاز، وكان يستخدم للوثائق الرسمية والمراسلات. وأطلق عليه "النسخي" من النسخ وهي مهمة ميسورة، يقوم فيها الخطاط بنسخ الكتب والقرآن الكريم [1]، ولأن نسخًا عديدة من القرآن الكريم قد تمَّ إنجازها بهذا الخط، فقد أطلق عليه "خادم

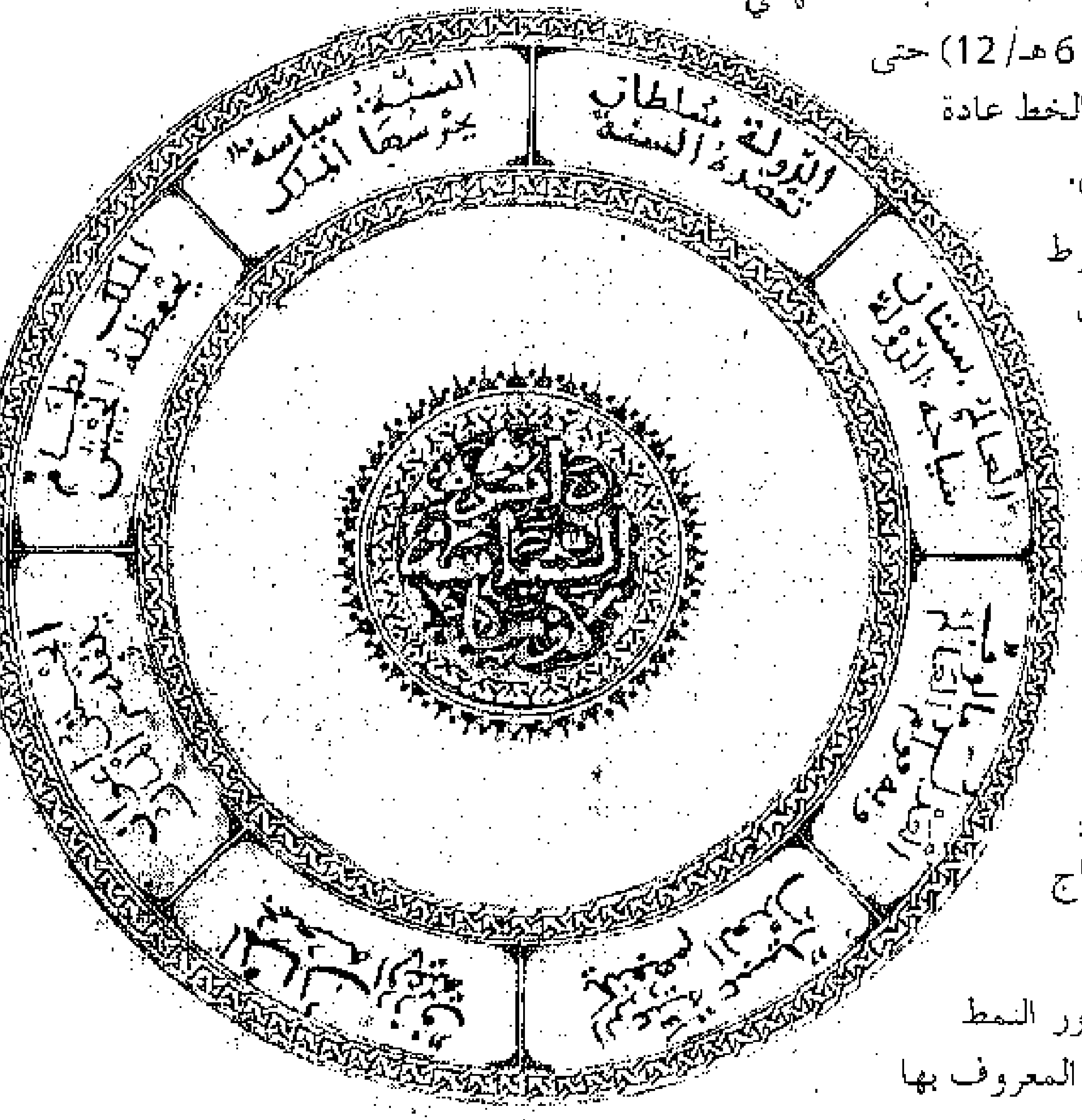

القرآن الكريم [2]. وقد تولى الخطاط ابن مُقلة [3] إخراج هذه الخط بشكله النهائي في العراق، وبعده انتشر منذ وقت الأتابكة (بداية القرن 6 هـ/ 12) حتى زمن العثمانيين (القرن 14 هـ/ 20). ويشار إلى هذا الخط عادة بمصطلح "المشرقي"، في مقابل الأندلسي – المغربي.

3 – خط التعليق: وهو خط فارسي من وحي خطوط النسخ، والرقعة، والثلث.. وقد ظهر لأول مرة مع بدايات القرن الخامس الهجري/11، واستخدمه الأتراك في أنماط متباينة؛ من قبيل: تعليق خرده، وجالي تعليق، وأنجاح تعليق. على أن هذا الخط لم يكن يستخدم على نطاق واسع في الشمال الأفريقي، إذ بلغ عدد النسخ لمخطوطات ابن خلدون بهذا الخط ست نسخ فقط.

4 – خط النستعليق: وكما هو واضح من الاسم، فإن هذا الخط يجمع بين النسخي والتعليق، وهو فارسي السمات. ومن الناحية الفنية يبدو هذا النمط في إخراج مختصر وجميل، ولكنه خالٍ من التشكيل والتنقيط.

5 – الخط الحديث: وهو خط مشرقي، ظهر نتيجة لتطور النمط النسخي على مدار التاريخ، حتى اتخذ صيغته النهائية المعروف بها اليوم في كل أنحاء العالم العربي.

ابن خلدون، المقدمة: صفحة عن الدولة، والقانون، والملوك، والحكومات؛ مخطوطة مغربية من القرن الخامس عشر، رقم Add 9574, s. 29v، المكتبة البريطانية – لندن.

ويمكن تقسيم مخطوطات ابن خلدون من الناحية الزمنية على الوجه التالي:

الكتاب	القرن 8هـ/14	9هـ/15	10هـ/16	11هـ/17	12هـ/18	8هـ/14	8هـ/14	بدون تاريخ
المقدمة	3	7	1	4	27	10		15
العبر	6	14	2	5	19	37		39
التعريف	1	2			4	7		1
لباب المحصل	1						2	
شفاء السائل		1		1	1			1
مزيل الملام				2	2			
تذكير السهوات				1	1			
الإجمالي	11	24	3	13	51	54	2	56

وبتحليل ما ورد في هذا الجدول يتضح الآتي:

1 – إن أقدم مخطوطات ابن خلدون (35 نسخة تقريبًا) هي تلك التي تم نسخها في القرن 8 هـ/14 وفي بداية القرن 9هـ/15. وأقدم هذه النسخ هي:

1 – نسختا من لباب المحصل وشفاء السائل: وقد قام ابن خلدون بكتابة هذين العملين عندما كان في المغرب. والأقدم هو لباب المحصل الذي تمت كتابته سنة 752هـ/ 1351 (عندما كان ابن خلدون في العشرين من عمره) في تونس. وقد وصلنا هذا العمل بخط ابن خلدون نفسه. ويبدو أنه كان قد بدأ العمل فيه أثناء وجوده في فاس بالمغرب ما بين 774هـ/1327 و776هـ/1374.

2 – "المقدمة"، وكتاب العبر، في نسختيهما الأولين، ومصدرهما تونس. وكان ابن خلدون قد انتهى من "المقدمة" وهو مقيم في قلعة ابن سلامة (في المغرب الأوسط)، ثم قام بمراجعته في أواسط سنة 779هـ/1377. وبعدها بدأ في كتابة "العبر" في

1 عفيفي البهنسي، ص 149.

2 نفس المرجع.

3 ابن مقلة، الكاتب والوزير أبو علي محمد، كان من أشهر خطاطي عصره، وكان له أخ: أبو عبد الله، الذي كان أيضا من الكتبة المشاهير. وقد توفي أبو محمد سنة 328هـ/ 940 (البهنسي: ص 4).

نفس المكان، وانتهى منه (أو من بعض فصوله) ما بين سنة 780هـ/1378 وسنة 784هـ/1382 في تونس. وهذا النص الأصلي، بخط ابن خلدون، جاء بالخط المغربي، ولكنه لم يقدر له البقاء طويلاً. ولقد أهدى ابن خلدون هذا العمل إلى مكتبة السلطان الحفصي أبي العباس أحمد الثاني المستنصر (الذى حكم من 772هـ/1370 حتى 796هـ/1393). ثم تم نقل هذا العمل فيما بعد إلى مصر في القرن التاسع عشر، واستخدم كأساس لنسخة بولاق، ولكنه اختفى بعد ذلك.

3 – النص المصري "للمقدمة" و"العبر": وهو يشمل ما أدخله ابن خلدون على النص التونسي، أثناء إقامته في مصر، فيما بين سنة 784هـ/1382 وسنة 808هـ/ 1405. وقد قدم هذا النص هدية للملك الظاهر برقوق (توفي 801هـ/1398)؛ فيما بين سنوات 784 – 791هـ/1382 – 1388.

4 – "التعريف": وهو الجزء الذي سجل فيه ابن خلدون سيرته للكتاب "العبر" وتغطي أخباره الأحداث حتى سنة 797هـ/1394 في نصه الأول، ثم حتى سنة 807هـ/1405 في نصه الثاني. وأقدم نصوص "التعريف" الباقية نسختان: نص آيا صوفيا رقم 3200، الذي يرجع إلى سنة 900هـ/1494 على وجه التقريب، والذي تم نسخه بواسطة ابن الفخار، من خلال النص الأصلي الذي فقد، وهو يحتوي على بعض التصويبات بيد ابن خلدون نفسه. ومن الناحية الثانية هنالك نص أحمد الثالث تحت رقم 4/3042، الذي قام بنسخه ابن الفخار أيضاً سنة 818هـ/1415. وقد قام ابن الفخار، وهو يخرج هذه النسخة، بإدخال الهوامش الواردة في نسخة آيا صوفيا ضمن متن النص.

هذا وقد تم إنجاز بعض النسخ في حياة ابن خلدون، وذلك من واقع النص التونسي، والنص المصري، ونسخة "التعريف" وقد تولى كتبة كثيرون القيام بهذه المهمة، ومن أشهرهم ابن الفخار سالف الذكر، الذي كان بمثابة الكاتب الشخصي لابن خلدون نفسه.

ورغم ما يذهب إليه بعض الباحثين من أحكام، فإنه من الصعوبة بمكان أن نسلم بأن النصين الأصليين أو نصاً واحداً منهما، يقع ضمن نسخ "المقدمة"، و"العبر" و"التعريف" الموجودة اليوم. وكل ما يمكن قوله في هذا الجدل، هو أن النسخ الموجودة اليوم قد تم إخراجها عندما كان المؤلف لا يزال على قيد الحياة، وبأنه قد رآها بعينه، وقام بمراجعتها (من حذف، وإضافة، وتعديل)، وأنه أقر ما ورد فيها بخط يده. وأهم هذه النسخ جميعاً هي تلك النسخة التي قام بها أحد النساخ تحت إشراف ابن خلدون بنفسه، ثم أهديت إلى طلاب فاس. وتحفل بعض فصول هذه النسخة بعبارة بيد ابن خلدون، حتى عبارة "الحمد لله، إن ما نسب إليه" في هذا العمل حقيقي. كتب بواسطة عبد الرحمن ابن خلدون [4]. وبالمثل، نجد على هذه النسخة إهداء بخط ابن خلدون إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني لحفظها في مكتبته (حكم أبو فارس من 796هـ/1393 حتى 799هـ/1396). وقد أرسل ابن خلدون بهذه النسخة من مصر، وذلك في 21 صفر لسنة 799هـ/ 24 نوفمبر 1396.

ويبين الجدول التالي النسخ القديمة:

المقدمة			
المكتبة	رقم النسخة	التاريخ	ملاحظات
داماد إبراهيم، إسطنبول (تركيا)	863	797هـ/ 1394	هذه هي أقدم نسخة للنص المصري، وقد تم نسخها لخزائن المكتبة الظاهرية، وهذا بخلاف ما يظنه بعض الباحثين من أن عدة نسخ قد أنجزت لهذه المكتبة، وليس نسخة واحدة، وقد أثبت كتابة النسخة المهداة من ابن خلدون سنة 791 هـ/1388.
يني جامع: إسطنبول (تركيا)	888	799هـ/ 1397	وقد تم نسخ هذا النص بيد أحد الكتبة الذي اختاره ابن خلدون بنفسه، وهو ابن الفخار، تحت إشراف ابن خلدون، الذي سجل البعض الآخر، إلى جانب بعض التصويبات.

4 Lévi Provençal, in Journal Asiatique, vol. 23, July - September, 1923, pp. 161 - 168.

المقدمة

المكتبة	رقم النسخة	التاريخ	ملاحظات
عاطف أفندي: إسطنبول (تركيا)	1936	804هـ/ 1402	توجد على الركن الأيسر من الصفحة الأولى ملاحظة بيد ابن خلدون. وهناك نسخة من هذا النص في دار الكتب المصرية، ضمن مكتبة أحمد زكي باشا. وهي أفضل مخطوطات ابن خلدون جميعاً في تركيا، طبقاً لشهادة المستشرق روزنتال.
آيا صوفيا: إسطنبول (تركيا)	3200	بداية القرن 9 هـ/ 15	وهي تحوي هوامش بها ملاحظات، كان الكاتب الذي أنجز نسخة أحمد الثالث (رقم 304221) قد ضمنها في متن النص.
أحمد الثالث: إسطنبول (تركيا)	H 3042	بداية 9هـ/15	أدخلت الملاحظات التي دونها المؤلف لاحقاً في نسخة آيا صوفيا رقم 3200، إلى متن النص بواسطة كاتب هذه النسخة.
حسين جلبي: بورصة (تركيا)	793	806 هـ/ 1404	على ضوء فحص مادة ورق هذه النسخة، لم يتمكن الأستاذ روزنتال من التحقق من تاريخ النسخ، ويرجح أنها ترجع إلى القرن 12هـ/ 18 كتاريخ محتمل على وجه التقريب.
حكيم أوغلو: بورصة (تركيا)	805	806هـ/ 1404	ملاحظة روزنتال السابقة تنطبق على هذه النسخة أيضاً. فلعله الصحيح أن هذه المخطوطة قد نسخت لسنة 1118هـ/ 1706-7.
حالت أفندي: إسطنبول (تركيا)	617	806هـ/ 1404	وينطبق حكم روزنتال السابق هنا أيضاً: وترجع هذه النسخة إلى القرن 12 هـ/ 18.
نوري عثماني	2423 في جزأين	806 هـ/ 1404	وهنا أيضاً ينطبق استنتاج روزنتال، ويرجع الجزء الأول من هذه النسخة إلى القرن 12 هـ/ 18، أما الجزء الثاني فيرجع إلى 806 هـ/ 1404.

العبر

المكتبة	رقم النسخة	التاريخ	ملاحظات
داماد إبراهيم: إسطنبول (تركيا)	868-865	790هـ/ 1388	تحوي هذه النسخة تعليقات بخط المقريزي، وقد كتبت في الخزانة العلية السعيدية المعزية الصالحية.
"	864/867	797هـ/ 1394	"
"	866	بداية القرن 9هـ/ 15	"
"	869	800هـ/ 1397	"
المتحف البريطاني	Add 232,7 Tome II	نهاية القرن 8هـ / 14	تحتوي هذه النسخة على شجرة للأنساب بيد ابن خلدون.
"	Tome IV 272 ,23.	"	تحتوي هذه النسخة على تعليقات وإضافات وأشجار للأنساب بيد إبن خلدون
أحمد الثالث: إسطنبول (تركيا)	3 / 2924 إلى 14/ 2924 مجلد إلى 7	بداية القرن 9هـ/ 15	نسخة الظاهرية، لا يعتقد أن هذه النسخة هي التي كان ابن خلدون قد أهداها إلى هذه المكتبة، وكان المؤلف قد أهدى نسخه إلى مكتبة الظاهر برقوق حوالي 791 هـ/ 1388.
"	B1/3042 03/3042 B10/3042 TomesIII, VI, VII	"	تحوي هذه النسخة تصويبات بيد ابن خلدون
أحمد الثالث	A1/ 3042		تحوي هذه النسخة الرسالة التي كان الظاهر برقوق قد بعثها إلى المستعصر يطلب منه السماح لعائلة ابن خلدون بالسفر من تونس إلى مصر، وتتضمن نص المخطوطة بعض التصويبات التي كانت في الأصل واردة في الهوامش في نسخة آيا صوفيا رقم 3200

لباب المحصل

المكتبة	رقم النسخة	التاريخ	ملاحظات
الإسكوريال	1609	752هـ/ 1351	كتبت هذه النسخة بخط ابن خلدون

التعريف

المكتبة	رقم النسخة	التاريخ	ملاحظات
أحمد الثالث	14/2924	بداية القرن 9هـ/15	وهي تغطي الأحداث حتى عودة ابن خلدون من رحلة الحج سنة 797هـ/1394، وقد تمت مراجعة هذا النص وتصويبه بواسطة ابن خلدون.
	4/3024	818هـ/ 1415	تمّ نسخ هذا النص من نسخة ابن خلدون، وتحتوي على بعض الملاحظات بيده، وقد قام بنسخها ابن الفخار، الذي ضمنها أيضاً في المتن بالملاحظات الواردة في نسخة آيا صوفيا.
آيا صوفيا	3200	900هـ/ 1494	تم نسخ هذا النص عن نسخة ابن خلدون، وتحتوي على بعض الملاحظات بخط يده، وكذا لا تحتوي رسالة الظاهر إلى [illegible]، وقد زود الكتاب بتشكيلات فوق الأسماء المعربة.

شفاء السائل

المكتبة	رقم النسخة	التاريخ	ملاحظات
المكتبة الوطنية الرباط	12145	890هـ/ 1485	هي نسخة قديمة، ولم يتم نسخها أثناء حياة ابن خلدون.

مزيل الملام

المكتبة	رقم النسخة	التاريخ	ملاحظات
أسعد أفندي (تركيا)	1/1899	11هـ/ 17	نسخة منفصلة عن نسخة التعريف
كوبرولو	7/1587	11 هـ/ 17	

[illegible]

المكتبة	رقم النسخة	التاريخ	ملاحظات
أسعد أفندي	2/1899	1047هـ/ 1637	نسخة واحدة

وفيما يلي شجرة تبين أقدم النسخ لكتاب "العبر" في أجزائه الثلاثة: المقدمة، والتاريخ، والتعريف.

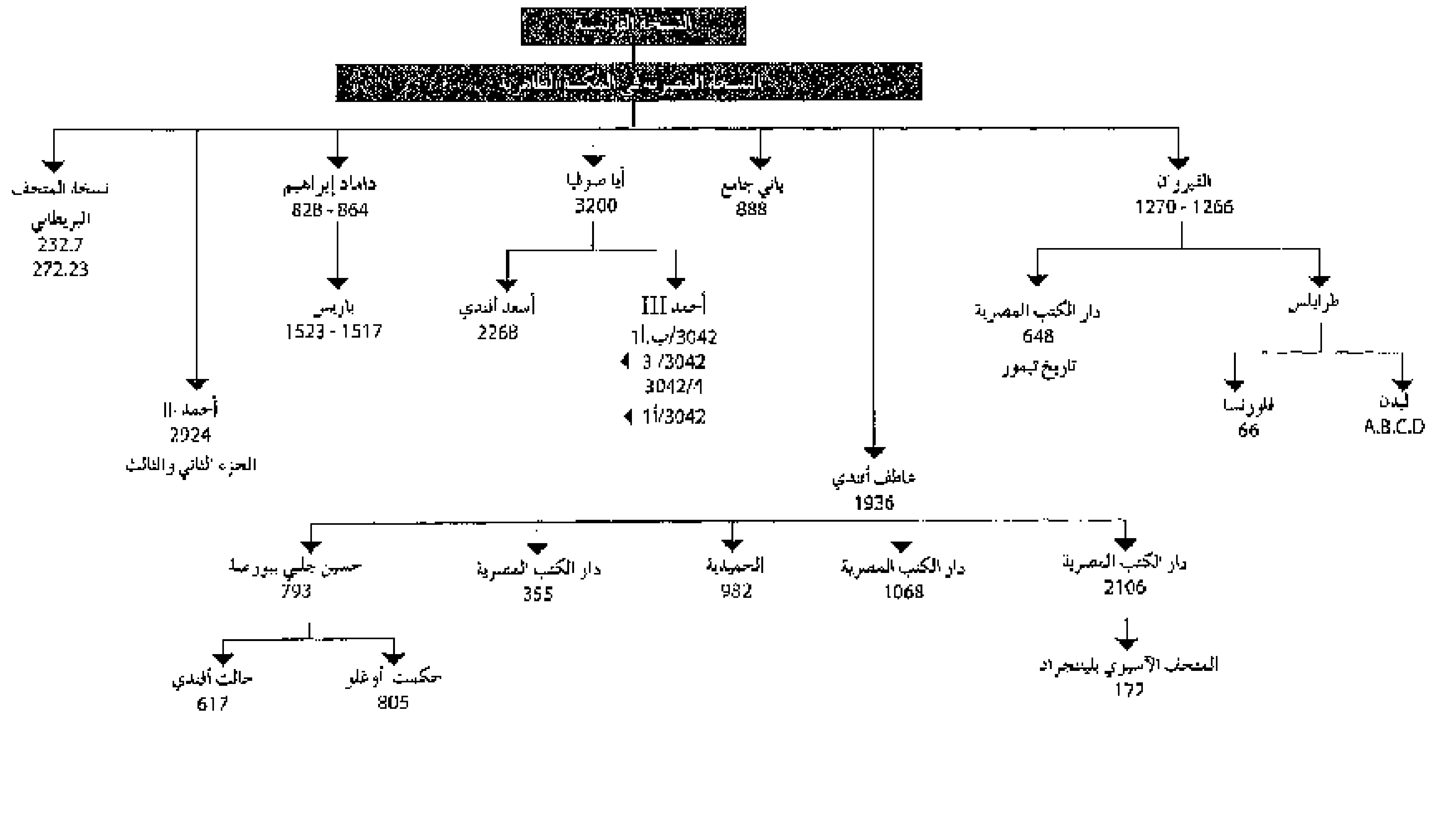

خط ابن خلدون:

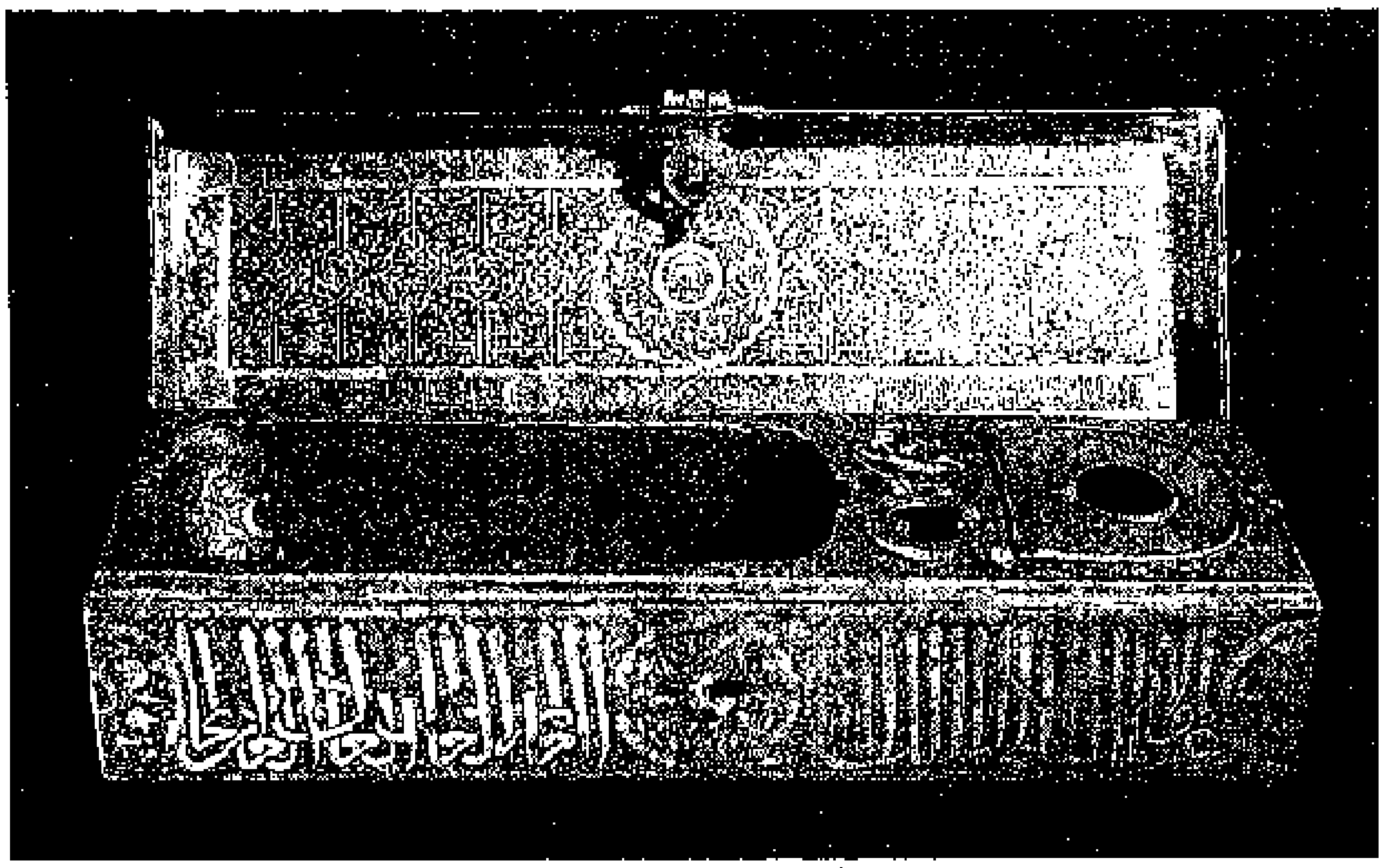

حافظة أدوات كتابة مطلية بالذهب والفضة والنحاس، للسلطان المملوكي الملك المنصور محمد، أواسط القرن 14، متحف الفن الإسلامي، القاهرة.

1 - ابن خلدون الخطوط: كرس ابن خلدون بعض صفحات من كتابه "المقدمة" للحديث عن الخط من الناحية النظرية، وكساء الفلاسفة وأهل العلم[5] الذين سبقوه، قدم تعريفًا للخط، وهو كالآتي: "يتألف الخط من" رسومات وأشكال ذات دلالات صوتية تنطق عن الروح. والخط يأتي في المرتبة الثانية بعد اللغة[6].

ويعتقد ابن خلدون أن الخط ظاهرة إنسانية، لأن كل أمة لديها رموز وإشارات ذات دلالات متفق عليها للكتابة[7]. ويضيف قائلاً، بأنه على الرغم من أن الكتابة "رسوم باليد"، فإنها تشكل برموزها اللغة الشفهية: حرف بحرف، وكلمة لكلمة[8]. وإذا كانت الكتابة تمثل الموقع الثاني في الدلالة اللغوية، فإن الموقع الأول يكون من نصيب الكلام، الذي ينقل المعنى في نفس المتكلم، وعلى هذا فإن ابن خلدون يربط بين الكتابة والكلام، وبين الكلام والمعنى[9]. على أن ابن خلدون لم يتوقف عند هذا المستوى المجرد النظري، وإنما حاول في "المقدمة" أن يعرض لتاريخ الكتابة عند العرب (منذ البدايات)، مع دراسة الخط كحرفة يمكن تعلمها، وكفنٍ يمكن للمرء أن يتفوق فيه. وبالإضافة إلى ذلك، قام هو بالكتابة بخط يده في تأليف كتبه، وأيضا عندما وقع الاختيار عليه لشغل مناصب رسمية في شمال إفريقيا. ويعني هذا أن مستوى خطه كان عاليًا، مما جعل الحكام يختارونه للكتابة لهم، كما يتضح من الأمثلة التالية:

- في سنة 752هـ/1351 دعاه الوزير الحفص أبو محمد بن تافراكين لكي يكتب توقيعات السلطان أبي إسحق، والتي كانت تتألف من "الحمد والشكر لله" بخط واضح، والتي كانت توضع بين الفاتحة " بسم الله الرحمن الرحيم" والتوقيع أو القرار[10].

- وفي سنة 755 هـ/1354، طلب من ابن خلدون بواسطة أبي عنان المريني أن يصطحبه أثناء تأديته الصلاة، وبعدها تم تعيينه بواسطة هذا الأمير المريني كاتبًا لمراسلاته ووثائقه الرسمية، وكموقع له على الوثائق الرسمية.

- في سنة 670هـ/1358، عين السلطان المريني أبو سالم العلامة ابن خلدون كسكرتير له، لكتابة مراسلات الأمير وخطبه.

وعلى الرغم من صعوبة -بل استحالة- العثور على النص الأصلي "للمقدمة" و"العبر" اللذين بدأ ابن خلدون في كتاباتها في قلعة ابن سلامة ثم في تونس من بعد، فإن مخطوطاته الموزعة بين دول العالم تقدم لنا عينات من خط يده.

- وأول هذه العينات كتابة "لباب المحصل" الموجود في مكتبة الإسكوريال. ففي نهاية هذا الكتاب، كتب يقول: "تم في يوم الأربعاء، وقت العصر، في الرابع والعشرين من شهر صفر، سبعمائة واثنان وخمسون. كتب بيد عبد الله "عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي"[11].

- والعينة الثانية هي ما كتبه ابن خلدون عن تلميذه ابن حجر العسقلاني "التذكرة الجديدة"[12]، شهادة على إتمام هذا التلميذ دراسته الأكاديمية ثم إجازته، حسبما كانت الحال بين الأساتذة وطلابهم في تلك الأيام: "الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله. إنني هنا أقر أن هؤلاء السادة والدارسين.. من أهل العلم، والمعرفة والأداء المتميز – قد وفوا

5 قال افلاطون: "إن الكتابة (الخط) هي ضابط العقل". وقال إقليدس: "الكتابة هندسة روحية، مع أنها تظهر من خلال أدوات الجسد". أما النظام فقد قال: "تنبع الكتابة عن الروح، حتى وإن كانت تعدد من خلال الجسد". (الفهرست لابن النديم، ص 15 - 16).

6 المقدمة، ص 745 (طبعة بيروت 1967).

7 المقدمة، ص 1024.

8 المرجع السابق.

9 التعريف، ص 55.

10 التعريف، ص 55.

11 الزركلي، الأعلام، 3 / 330، بيروت 1980.

12 Revue Orient, 1923, p. 83

المتطلبات الأكاديمية والمستويات المتعارف عليها من قبل السلطات العلمية. وإني أبلغهم بأنني قد ولدت في رمضان لسنة 732. ولعل الله يمنُّ علينا بخير العلم والعلماء، ويجعلنا من طلاب العلم. كتب بيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المالكي في أواسط شعبان لسنة 767.

وأما العينة الثالثة، فهي ما كتبه ابن خلدون على الركن العلوي الأيسر لمخطوطة عاطف أفندي رقم 1936: "وهذه هي أول مسودة للمقدمة من كتاب العبر في تاريخ العرب والعجم والبربر: وهي متسقة مع المستويات الأكاديمية، فلقد راجعتها وصوبتها، وتأكدت من عدم وجود أخطاء فيها كتب بيد المؤلف، عبد الرحمن بن خلدون، لعل الله يهديه ويغفر له.

وبمقارنة خط ابن خلدون في "اللباب المحصل" بخطه الوارد في مخطوط عاطف أفندي تبين لنا أن الخط المستخدم هو المغربي. أو الاختلافات التي قد تلاحظ بين الاثنتين، فمردها إلى أن ابن خلدون في "اللباب" كان يكتب وهو في التاسعة عشرة من عمره (752هـ/1351)، في حين أن النص السابق ذكره قد كتب عندما بلغ من العمر اثنين وسبعين عامًا (804هـ/1401).

– أما العينة الرابعة فهي ما نجده في نسختي "العبر"، الموجودتين في المتحف البريطاني (No. 71, add 232, Mccxxxvii)، المجلد الثاني، ورقم Mccxxxviii المجلد الرابع، وفي النسخة الأولى، التي ترجع إلى القرن 8 هـ/ 14، نجد أشجارًا للأنساب بخط ابن خلدون نفسه، في نهاية الفصول الخاصة بهذه الأنساب. وفي النسخة الثانية، التي كتبت في نفس التاريخ كالأخرى، هنالك إضافات وتصويبات بيد المؤلف أيضا. ومن أمثلة ذلك ما نجده في صفحة 46، بصدد الحديث عن ملوك أراغون، حيث يقول ابن خلدون: وملكها في ذلك الوقت اسمه پيدرو، ولكنه في الهامش كتب يقول: وبعدها توفي پيدرو سنة 789هـ/1387 في عمر يقارب السبعين عامًا: وفي الورقة رقم 49، تشغل المساحة الفترة التاريخية في المتن الرئيسي حتى سنة 781هـ/1379. وفي هامش هذه النسخة توجد أشجار أنساب، في نهاية الفصول المخصصة لهذه الأنساب، وهي بنفس الخط الذي كتبت به الإضافات؛ أي بخط ابن خلدون نفسه.

– أما العينة الخامسة: فنجدها في بداية الجزء الخامس من نسخة "المقدمة" التي أهداها ابن خلدون إلى طلاب فاس، ففيها نجد الهبة التالية[13]، بخط ابن خلدون: "الحمد لله. إن ما نسب إلي صحيح. كتب بواسطة عبد الرحمن بن خلدون."

– وبشكل عام، فإن كل الملاحظات والإضافات بالخط المغربي المتضمنة في مخطوطات ابن خلدون، والتي كتبت أثناء حياته صلحت كعينات لخطه. أما الملاحظات التي كتبت بالخط المشرقي، خاصة تلك التي ضمنت بعد وفاته، فالواضح أنها تمت على يد كتبة كانوا ينسخون عن مخطوطات ابن خلدون. والمثال على هذا النمط الأخير هو ما نجده في الهبة المكتوبة بالخط المشرقي في نسخة القرويين، والتي لا يمكن أن تكون قد كتبت بيد ابن خلدون: لأنه كان شديد الاعتزاز بهويته المغربية. في الملبس وفي أسلوب الكتابة، حتى إن كاتب هذه الورقة قد اتهمه بالغرور والتعالي.

2 – **تحليل خط كتابة ابن خلدون:** أعتاد ابن خلدون في شمال إفريقيا في بلاد المشرق على الكتابة بالنمط المغربي – الأندلسي، كعلامة على هويته وشخصيته. وحتى عندما أنتقل للعيش في مصر وظل يكتب بنفس الخط، وتزين بالبرنس المغربي الدال على وضعه الاجتماعي لمدة نصف القرن أو ما يزيد.

وهذا الخط الذي استخدمه ابن خلدون مزيج من خط الأندلس وخط الشمال الإفريقي، والذي استخدم في الشمال الإفريقي ضد القرن السابع الهجري (13)، عندما

بدأت الهجرة من بلاد الأندلس إلى شمال أفريقيا، مع بعض التغيرات الطفيفة، تساويًا مع ما كان سائدًا في العواصم الكبرى في تونس والجزائر وتلمسان وفاس.

وإذا ما تفحصنا بقية العينات من خط ابن خلدون، خاصة تلك الواردة في "الباب المحصل"، فسوف نجد أن الرجل قد حافظ على السمات الكبرى للخط المغربي - الأندلس، والتي تتلخص في الآتي[15]:

1 - الخطوط الصاعدة في حروف مثل حرف "الألف، واللام"، و"التاء"، و"الزاء" نادرًا ما تظهر مستقيمة، ولكنها ترد منعطفة، على رأسها ما يشبه النقطة.

2 - تأتي تملقات الحروف "الصاد"، و"الضاد"، و"التاء"، و"الظاء" في شكل بيضي، وهذا ما يميزها عن الخط النسخي.

3 - تأتي نهايات الحروف في شكل ممتد، خاصة في حروف (س، ش، ص، م، ن).

4 - نادراً ما يتم تنقيط حروف (ب، ن، ف، أ، ة) عندما تقع في أخر الكلمة، وهذه من سمات الكتابة الأندلسية.

5 - حرف: "ف" تقع تحته نقطة، في حين أن حرف "ق" له نقطة مركبة.

6 - حرفا: ص، ض، ليس لهما بروز مستقيم بين الجزء المركب والجزء شبه الدائري من الحرف.

ابن خلدون، المقدمة، مخطوط عاطف أفندي 1936، مكتبة السليمانية، إسطنبول، نسخة مؤرخة في سنة 1402، وتتضمن هذه الصفحة ملاحظات حول ملكية وبيع المخطوطة.

الخلاصة:

لقد اتبعنا في هذا الطرح منهجا يعتمد على دراسة المخطوطات، ولم تكن دراسة وتحليل مخطوطات ابن خلدون إلا من هذا الإطار.

ولكن ينبغي ملاحظة أن هناك مقارنات تحليلة أخرى تعتمد على فحص أنواع الأحبار، والألوان، وأدوات الكتابة، والتغليف، ونوع الورق، واللصق، والخط، والجماليات، وغيرها من الأمور على أننا في هذه الدراسة قد استخدمنا الكثير من المراجع والدراسات. هذا وهناك قائمة كاملة بالبيبيوغرافيا الخاصة بهذه الدراسة.

ابن خلدون ومؤرخو القرن الرابع عشر

مايا شاتز ميللر
جامعة أونتاريو الغربية - كندا

ترجمة قاسم عبده قاسم

حقيقة أن ابن خلدون (1332 - 1406)، فيلسوف التاريخ الكبير، عاش وكتب في المغرب الإسلامي لا ينبغي أن يكون ذلك مثار دهشة. إذ كانت مدن إسبانيا الإسلامية موطن أسلافه، وشمال أفريقيا حيث درس وأسهم في الحياة السياسية: تعج بالإبداع الفكري، والتاريخ على قمته. إذا كان المؤرخون وجمهورهم يرون في كتابة التاريخ، رسالة إلى الإنسانية، أو حسبما قال ابن الخطيب (1313 - 1374) زميل ابن خلدون الشهير في مؤلفه المعروف بـ"الإحاطة في أخبار غرناطة" إن فن التاريخ هدف الرغبة الإنسانية.

ومع هذا فإن تقديم تفسير تاريخي ذي معنى للعالم الذي عاشوا في رحابه لم يكن عملاً سهلاً بالنسبة لمؤرخي القرن الرابع عشر الميلادي. ففي إسبانيا المسلمة كانوا تحت ضغط شديد لفهم عدم الاستقرار، والتنازع الداخلي، وفقدان الممتلكات والإحساس بعدم الأمان. وفي المغرب تحت حكم بني مرين، كان عليهم أن يتنازلوا عن اغتيال أبناء الأسرة الحاكمة بأيدي أبناء عائلتهم، وأن يتناقص دعم المؤسسات الدينية والنماذج المتغيرة في تجنيد النخبة. ففي مواجهة الأحوال السياسية المتردية في كل مكان تمثلت استجابة المغرب الإسلامي في طموحات عرقية، ومحلية وإقليمية، وفي حركات اجتماعية ودينية وثقافية. وثمة سلسلة من كبار المؤرخين الذين ساعد القرن الرابع عشر على تكوينهم كانوا يلاحظون هذا كله، ولكن ابن خلدون كان أكثرهم نجاحًا في تحويل تمركز التاريخ على المجتمع الإنساني إلى علم له قواعده الخاصة.

لقد كان مؤرخ القرن الرابع عشر رجلاً جيد التكوين. إذ إن الكون الذي شارك ابن خلدون زملاءه فيه كان بالفعل عالميًا، يضم المشرق الإسلامي، وشمال أفريقيا وإسبانيا الإسلامية، بما في ذلك الأقاليم التي كانت قد خضعت للسيادة المسيحية، والتي غذت أجيالاً من المفكرين المسلمين. وكانت المصائر السياسية لشمال أفريقيا وإسبانيا الإسلامية قد صارت آنذاك مرتبطة بعضها البعض أكثر من أي وقت مضى، وإذ انصهرت المجتمعات واندمجت: فإنها كانت قد بدأت تشارك في المصاهرات السياسية والثقافية التي وجدت التعبير عنها في كثرة من المظاهر الأدبية. لقد تضمن التكوين الثقافي لابن خلدون ورفاقه المؤرخين تعليم الشريعة، والدراسات القرآنية، وتراث الأدب العربي، والنحو، وأصول الدين، بل والفلسفة، وكذلك التاريخ، وقد اشتهر جميع المؤرخين على السواء بالرسائل التي كتبوها في هذه الفروع الأخرى من الثقافة الإسلامية. كذلك كان المؤرخون أفرادًا نفعيين يميلون إلى الفعل. فقد عملوا أئمة، ودعاة أو قضاة، كما عملوا في إدارات البلاط التي ترسم السياسات، وفي كتابة المراسلات، وجمع النصوص، وقاموا بمهام دبلوماسية وقدموا المشورة للحكام. فقد أمضى ابن خلدون حياة سياسية نشيطة منفذًا واجبات إدارية في خمسة بلاطات بغرناطة، وفاس، وبجاية، وتونس، والقاهرة على الترتيب، وهو ما يتجاوزه زميلاه المقربان، ابن مرزوق (1311 - 1379) وابن الخطيب، واللذان شاركاه كل منهما نماذج مشابهة في حياتهما العلمية، بحيث جمعا بين النشاط السياسي والقيام بوظائف دينية وشرعية وكتبا بعضًا من أروع المؤلفات

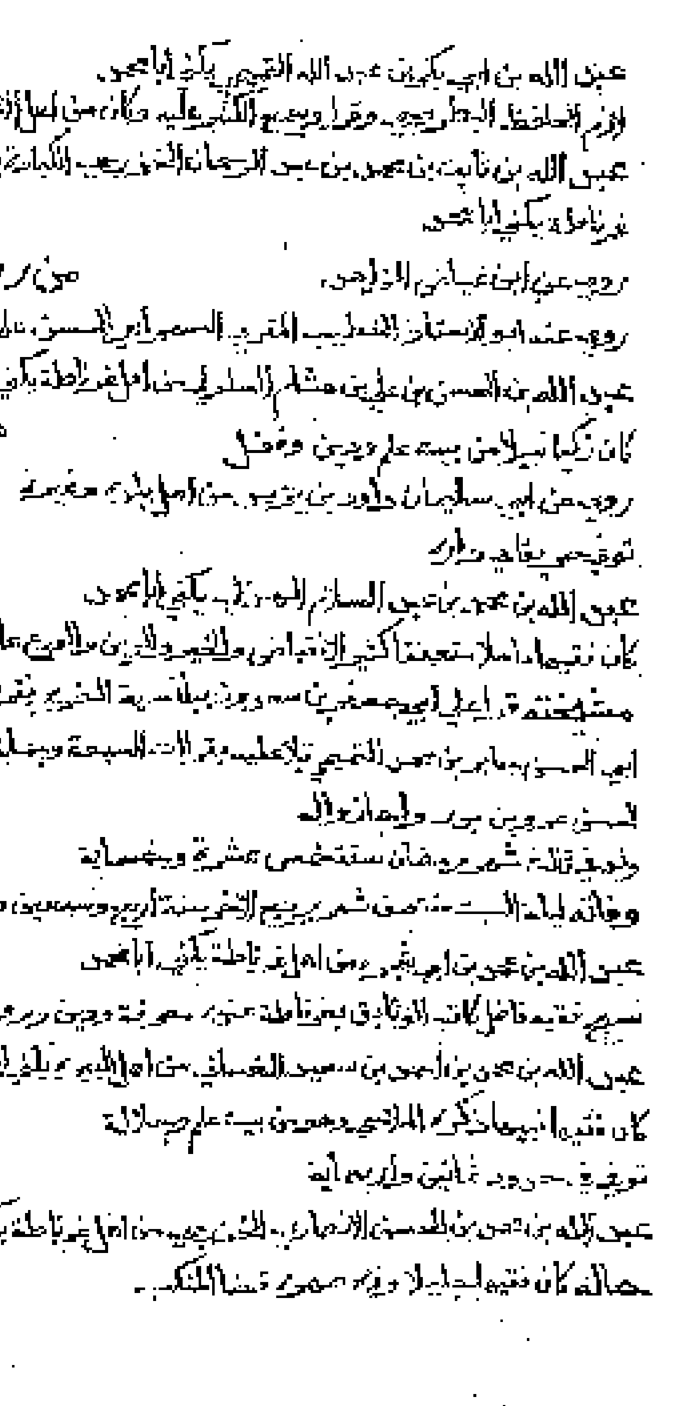

مخطوط تكملة ابن الخطيب، اعتبرت ذيلا على "الإحاطة"، حوالى 1404، المكتبة الوطنية - مدريد.

التاريخية والأدبية في ذلك الحين. وثمة زميل عاش في وقت لاحق، هو ابن الأحمر (1324-1404)، الذي أنجز سلسلة من المهام في كل من الساحة السياسية والساحة الفكرية. وإذا كان هؤلاء الرجال طموحين وموهوبين، فقد حصلوا على مواقع السلطة، ليعانوا بعدها السقوط من النعمة والعز عن طريق النفي الاختياري والإجباري، مثلما هي حال ابن خلدون وابن مرزوق، أو ما هو أسوأ، مثل السجن أو الإعدام، مثلما جرى لابن الخطيب. وعلى الرغم من حياتهم الوظيفية الصاخبة فإنهم عاشوا حياة تأملية أيضا. وإذا كانوا زملاء ومتنافسين في بعض الأحيان فإنهم كانوا يقرءون ويتشاورون ويعتزون بعمل كل منهم للآخر، فقد كانت بحوزة ابن خلدون نسخ لكثير من كتابات ابن الخطيب واستخدمها في مؤلفه، حسبما تكشف روايته عن اغتيال السلطان المريني أبو سالم سنة 1361، من خلال الفحص الدقيق للنصوص. كما أن ابن مرزوق كانت لديه نسخة من كتاب "الإحاطة" أكملها بعد وفاة صديقه. وقد تم حفظ المراسلات بين الاثنين في كتاب "نفح الطيب" للمقري في القرن السادس عشر الميلادي. وعلى أية حال، كانت التجربة المرينية هي التي تركت أعمق الأثر على أفق ابن خلدون التاريخي: فقد حدث بعد إقامته

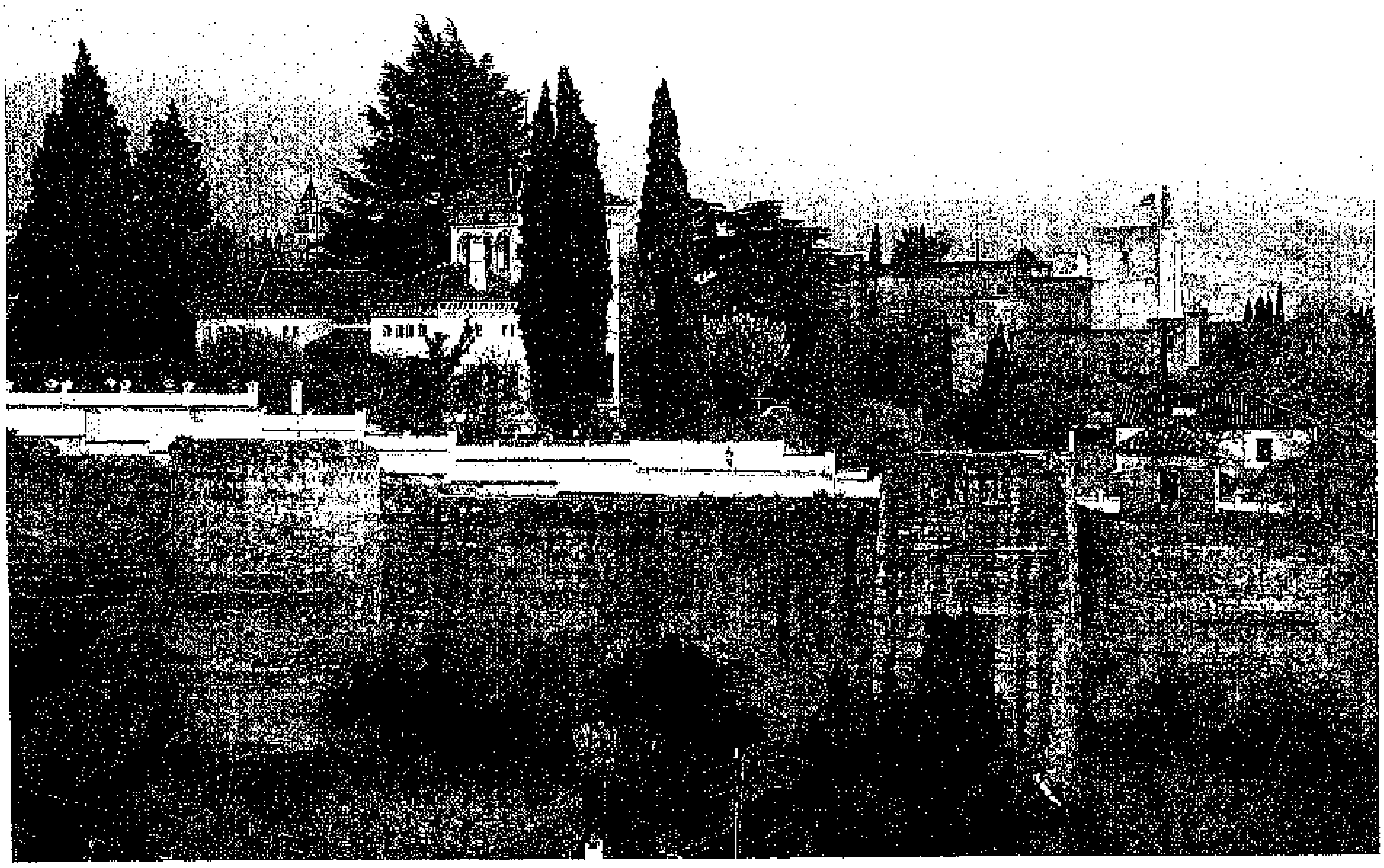

الأسوار والقصبة في قصور الحمراء في غرناطة.

في البلاط المريني أنه انسحب إلى القلعة المعزولة في الصحراء الجزائرية وكتب "المقدمة" لكتابة (العبر وديوان المبتدأ والخبر). والمرجح أنه في خلال إقامته في المغرب تعززت لديه رؤية قيام الإمبراطوريات وسقوطها مؤيدة بالمغزى التاريخي للسلالات الحاكمة البربرية الكبرى.

كانت التحديات التي طرحتها الأحداث التاريخية في القرن الرابع عشر قد تفاقمت بوعي جديد بالذات بين الأفراد والمجتمعات على السواء. وتمثلت الاستجابة من جانب المؤرخين في البحث والإبداع، وتطوير أشكال جديدة وموضوعات جديدة من كتابة التواريخ المحلية والعالمية. وقد جرب مؤرخو القرن الرابع عشر نوعًا تاريخيًا تجاوز الحولية التقليدية التي تؤرخ لمدينة أو لسلالة حاكمة؛ كما تجاوز تمامًا الحوليات التي سجلتها المدونات الإسلامية الإقليمية أو العالمية. أما تواريخ الأسرات الحاكمة التي كانت كثيرًا ما تكرس لحاكم ما في صورة إطراء أو مديح وتخلو من المسحة النقدية، والتي ازدهرت مع بداية القرن، فقد أخذت تتخلص ببطء عن مكانها لمدونة أو تاريخ للمدينة ومعالمها الدينية باعتبارها رمزًا للوطنية. وقد

كتبت تواريخ مشابهة للمؤرخ المجهول في القرن الرابع عشر صاحب الذخيرة السَنيَّة والذي اكتمل حوالي سنة 1310، والمدونة المعروفة باسم "روض القرطاس" وهي عبارة عن تاريخ للسلالات الحاكمة التي حكمت شمال أفريقيا منذ الفتح الإسلامي حتى عصر بني مرين، للمؤرخ الفاسي ابن أبي زرع الذي أتمه في سنة 1326. وبينما تضمن هذا الكتاب الأخير بالفعل تاريخ مدينة فاس، عاصمة المغرب، إلا أن الموضوع صار فيما بعد نوعًا تاريخيًا مستقلاً كحولية تسجل التاريخ المحلي مثلما عبر عنه "كتاب زهرة الآس"، الذي استكمل حوالي سنة 1365، وضم تاريخ مساجد المدينة وموظفيها. وهناك آخرون من مؤرخي القرن الرابع عشر مزجوا بين تاريخ السلالات الحاكمة وتاريخ عاصمتهم، ومن بينهم المؤلف المجهول الذي كتب "الحلل الموشية" (1383)، وهو تاريخ الموحدين وعاصمتهم مراكش، والوزير المنفي ابن الخطيب الذي كتب تاريخًا عن العاصمة الأندلسية، غرناطة، ومدينة سلا المغربية. وقد افتتح ابن مرزوق نوعًا تاريخيًا جديدًا بمدونة عن السلطان المريني أبو الحسن، والتي استكملت في سنة 1371. وبينما كانت تحركه رغبته في أن يدخل السرور على قلب

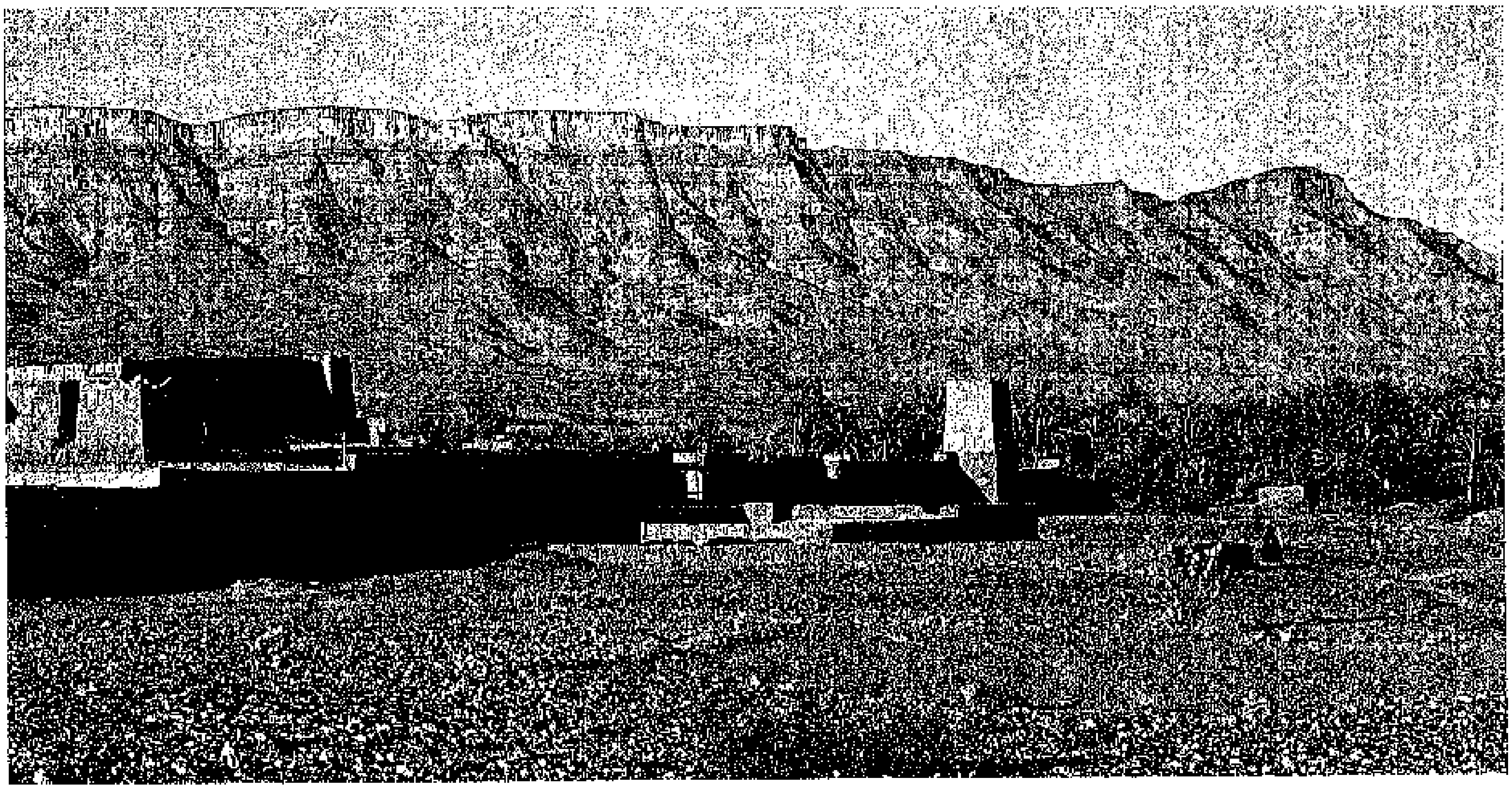

وادي درعة على حافة الصحراء.

أسفل: ضريح ابن الخطيب في فاس.

الحاكم، فإن هذه كانت أيضًا قصة ابن مرزوق الشخصية، وتقديرًا للخدمة التي أسداها إلى السلالة الحاكمة. هذا، ويوضح ابن خلدون في سيرته الذاتية التي ألحقها بكتابه العبر مدى اشتراكه الوثيق مع زملائه في مفهوم أن المؤرخ، وعلى الأقل مؤرخ القرن الرابع عشر، كان صانعًا للتاريخ بقدر ما كان مؤرخًا للأحداث؛ ومن ثم فإن رؤيته ذات قيمة كبيرة للغاية.

وكتابات ابن خلدون في قدرته على تأريخ الأحداث تشترك مع الكثير من أعمال معاصريه من الأشكال والبناء، ولكنه افترق عنهم في الاعتراف بالعامل التاريخي الأكبر الذي إما تجاهلوه أو رفضوا أن يعطوا له وزنه المشروع. كان هذا هو موضوع الهوية البربرية وهي ملاحظة اجتماعية مهمة أبداها وأثمرت في القرن الرابع عشر. لقد بدأ البحث التاريخي عن أصول البربر في الشرق، حيث نسب إليهم الانحدار من أصول فلسطينية وعربية ودونما جدال ولكن فيما بعد، وفي إسبانيا الإسلامية، طفت على السطح مجادلات عنيفة حول الأصل العربي فإما زاد التصريح بالانقسام العرقي والثقافي بين العرب والبربر في إسبانيا، أو كانت التوترات هناك يتم إحياؤها باستمرار من خلال التدخل العسكري من شمال أفريقيا من القرن الحادي عشر فصاعدًا وما نتج عن ذلك من فوضى سياسية. وبحلول القرنين الثالث عشر والرابع عشر، كان قد ظهر مفهوم أكثر انتظامًا عن تدوين تاريخ السلالات الحاكمة: كان يتضمن شجرات نسب البربر، في

مدونات "بربر صنهاجة"، والتي تمركزت في تونس، ولكن بحلول القرن الرابع عشر تجلى المنظور الكامل للتعقيد الفريد في الموضوع واضحًا في ابن خلدون. فقد صارت مسألة الأصل العربي السياق الذي يتجلى فيه القلق الثقافي بين المفكرين البربر. ولأنهم صاروا أكثر عقلانية وقدرة على المعرفة فقد روجوا بتاريخ اعتناقهم الإسلام، الذي قدمهم على أنهم مرتدون بشكل متكرر. وكان من المستحيل التبرؤ من هذا التاريخ، لأن هذا كان سيعني تبرؤهم من الإسلام، ولم يكن ممكنًا الفصل بين الإسلام والعرب. وإذ كان هذا القلق الثقافي بمثابة وقود يؤجج المسألة، فقد جاء الحل في التدوين التاريخي على شكل تاريخ "غير رسمي" لتحول البربر إلى الإسلام، يقول إن البربر اعتنقوا الإسلام قبل وصول العرب إلى شمال أفريقيا.

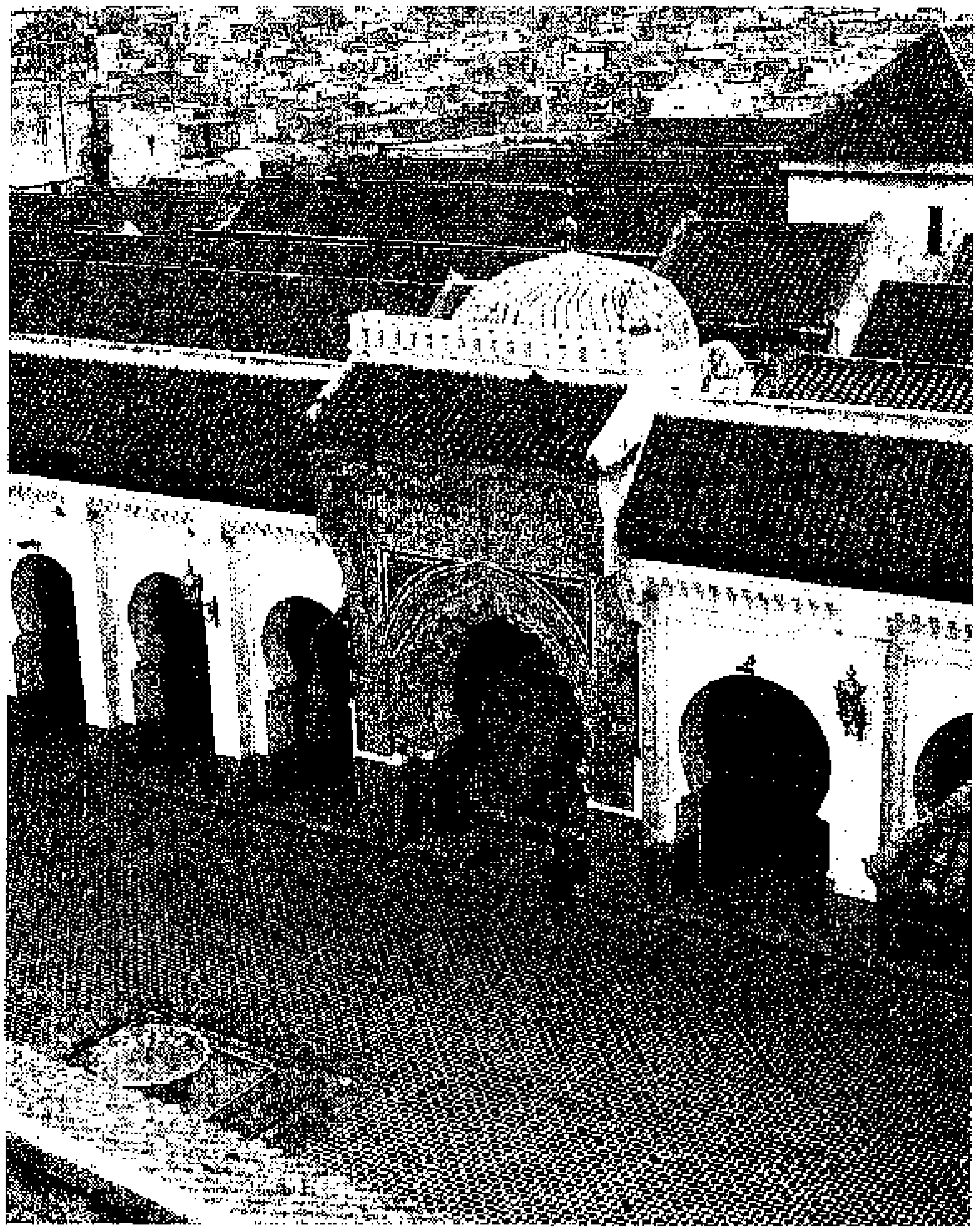

جامع القرويين في فاس.

كان هناك مؤرخون آخرون في القرن الرابع عشر يشعرون تجاه الموضوع باعتباره مشكلة اجتماعية وسياسية، بيد أن أحدًا منهم لم يعتبره عامل الانقسام التاريخي الكبير، على نحو ما فعل ابن خلدون. فقد لاحظ ابن الخطيب أن الملزوزي (ت1297) تحدث إلى سادته المرينيين باللغة البربرية، بينما كان المعنيون الجدد في البلاط وأعضاء الهيئة الدينية آنذاك يشيرون بوضوح إلى أنه لم يكن استثناء. وابن عذارى الذي أنهى تاريخه الشامل عن تاريخ شمال أفريقيا في العصور الوسطى والمسمى بـ"البيان المغرب" في سنة 1312 يشارك ابن خلدون نفوره من القوة المدمرة للقبائل البدوية، ويلومهم على سقوط الموحدين. أما المحرر الذي ضم في القرن الرابع عشر، ثلاث مدونات تعرف سويًا بعنوان "كتاب الأنساب"، عن أنساب البربر، فربما كان يحاول أن ينتج تاريخًا يتركز على البربر، بيد أنه لم يصرح بهذا أبدًا. وفي الأندلس وصلت الخصومة تجاه شمال أفريقيا ذروتها في القرن الرابع عشر بالكتابات التاريخية مثل مؤلفات القلقشندي. وكان على ابن خلدون أن يوضح للعالم القوة التي يمارسها التاريخ على الذاكرة الشاملة والوعي التاريخي لدى الناس. فقد رفع مسألة هوية البربر إلى مكانة العامل التاريخي المشروع عندما قدم لتاريخه بتقرير إيديولوجي عن البربر الذين يروون أنفسهم أدنى مرتبة ومحتقرين في بلادهم: ثم أخذ في كتابة تاريخ شمال أفريقيا في ضوء السلالات العربية والبربرية الحاكمة.

ومنذ ذلك الحين تشكل المسألة البربرية المفتاح للمفهوم التاريخي لدى ابن خلدون عن تاريخ شمال أفريقيا في كتاب "العبر"، فبالنسبة له، بوصفه مؤرخًا اجتماعيا كانت التقسيمات العرقية والعنصرية والسياسية التي تفيض تحت المواجهة الدينية والثقافية والشرعية المتحدة، هي العوامل الأساسية التي يمكن بها فهم صعود السلالات البربرية الحاكمة الكبرى وفهم سلوكها للهيمنة السياسية في شمال أفريقيا وإسبانيا. لقد كان ابن خلدون الذي تميز بعمق تحليله التاريخي، وقدرته الفكرية على التجميع وتفكيك الدورات التاريخية الرتيبة والخطيرة، قادرًا من خلال تأملاته في تاريخ شمال أفريقيا، على أن يكتب توليفة تاريخية عامة وشاملة وأن ينتج مقاربة إبداعية لتناول المدونة الإقليمية. وفي هذا الصدد كان عمله نتاجًا لمجتمعه وبيئته والوسط الفكري الذي تعلم فيه على السواء.

ابن خلدون

وعلامات التحديث المعارضة

محمد طلبي
جامعة تونس والأكاديمية الملكية للتاريخ - مدريد

ترجمة أحمد نبيل

ذكر ابن خلدون في الصفحة الأولى من سيرته الذاتية (التعريف)، "وأصل هذا البيت من أشبيلية"، وتظهر هذه العبارة فخر الكاتب بأصوله الأندلسية التي كانت شائعة بين شعب الأندلس الذي استبدل بعد إعادة الغزو المسيحي الذي يمكن تسميته بمصطلح حديث "القومية الأندلسية" هذا الشعور حقًا عبّر عنه بشكل متكرر في المقدمة [1]، فعلى سبيل المثال في كل مرة يشير فيها الكاتب لعلماء الأندلس والشعب المتعلم لا يستطيع أن يخفي إعجابه سواء استطاع أن يخفي إعجابه بشعب المشرق العربي عندما انتقل للعيش هناك، على الرغم من احتفاظه بردائه الشمال إفريقي طوال حياته.

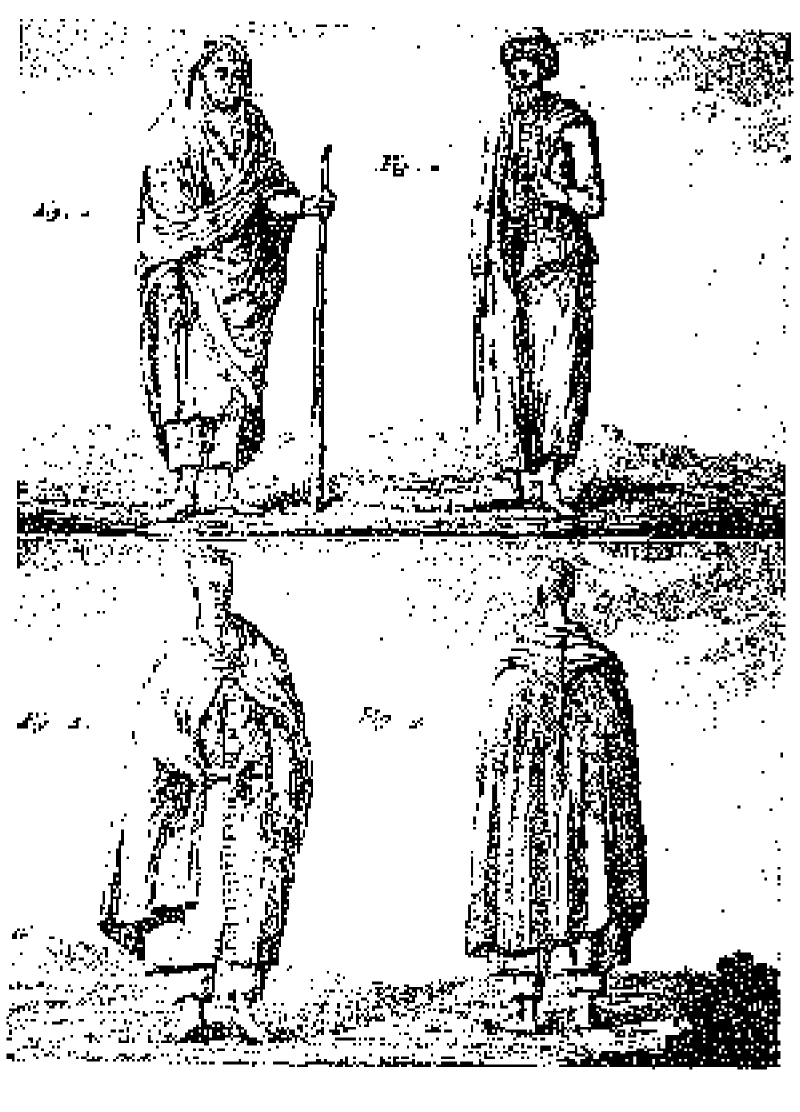

مغاربة، تصوير من القرن الثامن عشر.

في الصفحة المقابلة، رسم تشريحي للعمود الفقري ونهايات الأعصاب، من مخطوط عربي من القرن الخامس عشر.

ويمكن تفسير هذا الإعجاب عن طريق إدراكه لسقوط وانحطاط حضارة شمال أفريقيا والسمات البدائية السائدة والقيم الشائعة بين السكان، ويستطيع ابن خلدون أن يلاحظ أن العلوم الرشيدة ليس لها أهمية في شمال أفريقيا، ولهذا لم تنجب هذه المنطقة فلاسفة أو علماء في المنطق أو متخصصون في الأمور الجدلية أو الاستنتاج العلمي.

اعتقد ابن خلدون أن هذا هو سبب سيطرة المدرسة المالكية في شمال أفريقيا ولهذا كان تطور المدرسة في شكل معارض للعلوم المنطقية والإبداع بصفة عامة، وتعتبر هذه المدرسة الفكرية على جانب والبيئة العامة على الجانب الآخر عقبات في طريق التغيير والإبداع، وسبب انتشار العقيدة المحافظة في شمال أفريقيا. هكذا فبينما شعب المشرق - بما فيه الشعب الأندلسي متضمنا- "باحث عن الأدلة والحجج وهل كان إناس يفكرون ويحققون ويعتمد المذهب المالكي بشكل كبير على التقليد وليس على إناس للتفكير والتحليل، الأكثر سيطرة (من هذه المجموعة) الأفارقة الشماليون".

أعاد ابن خلدون الاقتراب من شمال أفريقيا وشعوبه، على أية حال فإن ما يعتبر تقليلا للأهمية من جانب البعض -في رأينا- فإن موضوعية العلماء والعدالة للمثقف الذي يربط الأسباب والآثار ويحقق في أسباب الأشياء التي يمكن أن لا يدركها معاصرو ابن خلدون، لذلك فهؤلاء يقرأون المقدمة بشكل سطحي فقط.

هذه هي بالضبط الشجاعة العلمية والصرامة الفكرية التي تميز بها ابن خلدون وأعماله كمفكر حديث في زمن كان التقليد والموروث هما المسيطرين، ولكنه أعطى الأولوية للنقض والرشادة، حقًا إن الثورة التي قدمها في الفكر الإنساني عامة كان من خلال إعطائه الأولوية للتجارب التجريبية على التفكير المجرد وتطبيقه للرشادة بالنسبة لأي شيء.

على أية حال هذا لا يعني أنه كان معارضًا تمامًا لمعتقدات زمنه التي تعتبر بالنسبة لها سحرًا فلا تزال هذه المعتقدات ذات الصلة ومستوياتها بعيدة عن زمنه، لقد قدم سحرًا بالنسبة للتفكير والتدقيق وقبله فقط بعد التحقق والتأكيد، وكما يقول تجربته على نفسه والتأكد من آثارها، على الرغم من أنه مدرك لآثار الهذيان، وغالبًا ما تعامل معهم في أعماله، ولكن يبدو أنه قد فشل في إدراك أن الآثار المدعاة للسحر يمكن أن يلفق للخيال والهلوسة، ومع ذلك ربما يكون ظلمًا اعتبار أن ابن خلدون محدث ببساطة لأنه شارك بعض معتقدات زمنه التي لا يزال يؤمن بها المثقفون في أيامنا هذه، الأكثر من ذلك إذا طبق نفس المعيار فإن كثيرًا من المفكرين المعاصرين له سيكونون مجردين من سجية "المحدث".

إن الحداثة ليست مجموعة من المعتقدات بعضها ربما يكون أسطوريًا، ولكنها بالأحرى هي طريقة للتفكير التي تطبق الرشادة لكل شيء حتى إذا أخطأت الرشادة أحيانًا

1 نحن نأخذ الصفحات من طبعة دار الشعب

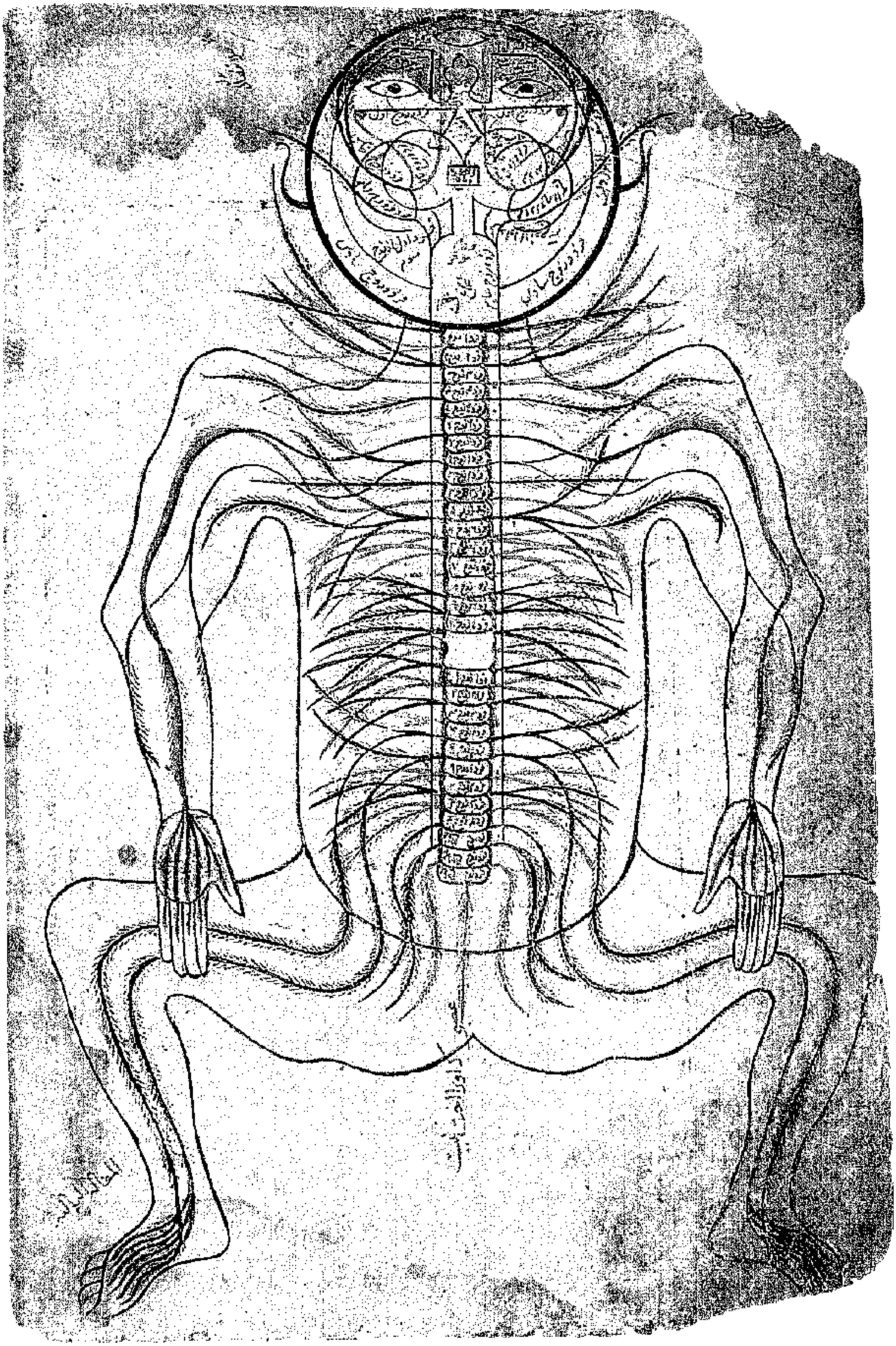

وهذا يؤمن بالدينامية للمجتمعات والتغير المستمر والإبداع على كل المستويات، وحقيقة أن الحياة في تطور وتقدم مستمر ليست في حالة ثابتة تعتبر هي حالة الكمال. وفهم هذا المنظور بهذه الطريقة يمكن أن يقال إن ابن خلدون كان واحدًا من أهم رواد الحداثة، على أية حال كانت هذه الحداثة المعارضة لأن الكاتب رائد زمنه، لأسباب أكثر ملازمة للمؤرخين أن يتحققوا منها ولن يتم التعامل معها هنا لأن هدف هذه الورقة أن يتم الكشف عن علامات الحداثة في فكر وأعمال ابن خلدون، ليس ليمسك أسباب افتقادنا قطار الحداثة، بهذه الطريقة سنتعامل مع توجه ابن خلدون تجاه المجالات العقلية عامة والفلسفة بصفة خاصة. هل كان توجهه تجاه الفلسفة رجعيًا وعقبة في طريق الحداثة؟ أم كان هو الرائد الذي مهد الطريق للحداثة وحدث الفكر العربي والإسلامي؟

ابن خلدون والمجالات العقلية

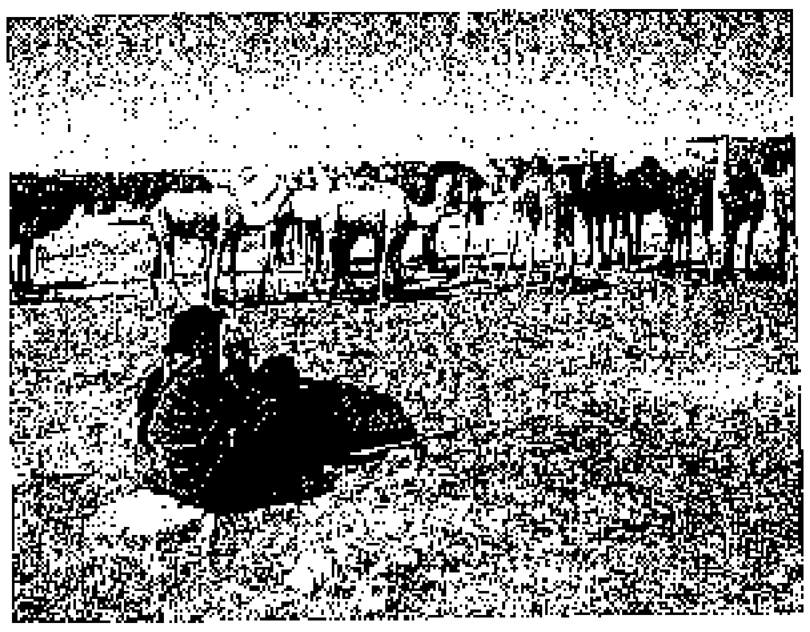

أعلى، مخطوط للقرآن الكريم من العصر الموحدي، من القرن الثالث عشر.
أسفل، سوق القرية، في جنوب المغرب.

يكرس ابن خلدون القسم السادس كاملًا من المقدمة "للعلوم وأصنافها" عشرة فصول للقسم المذكور تتعامل مع المجالات العقلية (390 - 420) بالنسبة لهذه المجالات يجب أن نضيف الفصول التي تعاملت مع اللاهوتية (423 - 431)، العلوم العقلية (451- 455)، والعلوم العددية (455 - 458)، الهندسة والمنطق والعلوم الطبيعية والطب (458- 464)، الكيمياء والفلسفة (473 - 497).

هذا مهم للغاية في المجالات غير الدينية ربما تعتبر علامة للحداثة، بالنسبة لها فهي تبدي أن أهمية الكاتب أعطت القضايا الأساسية الدنيوية وتركيزه على الأسئلة العملية التي لها تأثير على الحياة وتطور المجتمعات في زمن كان الاهتمام منصب على الآخرة حيث يتم إعطاؤها الأولوية على القضايا الدنيوية، ومن المعروف أن سيادة الآخرة على الدنيا كان دائمًا عقبة في طريق الحداثة، هذا التغير في الاهتمام والتركيز كان مرجحا أن يقدم ثورة في الفكر العام والبيئة الثقافية والاجتماعية، على أية حال لم تكن هذه هي الحالة الحاكمة من حقيقة أن العالم الإسلامي لم يعرف ثورة صناعية شبيهة بما أنجزت في الغرب.

يبدأ ابن خلدون هذا القسم السادس لمقدمته مع "فصل في الفكر الإنساني" (390 - 393) التي كانت تتخطى ما وصل إليه معاصروه وأهمية ما نستطيع إدراكه الآن في ضوء التطور المتحقق في العلوم الإنسانية والإدراكية. كان هذا المفكر هو المطور الذي اهتم خاصة بتمييز الناس عن الفصائل الحيوانية مع ما يجمعهما، اعتقد ابن خلدون أن الاختلاف والتمزق يكون بوصول الناس لمرحلة "العقل التمييزي" (390) التي تمكنهم من إدراك فردانيتهم وتفردهم ككائنات تختلف عن الحيوانات يمكن أن تشكل مناظير من خبرتها مع إدراكاتها:

"وذلك أن الإدراك وهو شعور المدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوانات فقط من بين سائر الكائنات والموجودات، فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة مثل السمع والبصر والشم

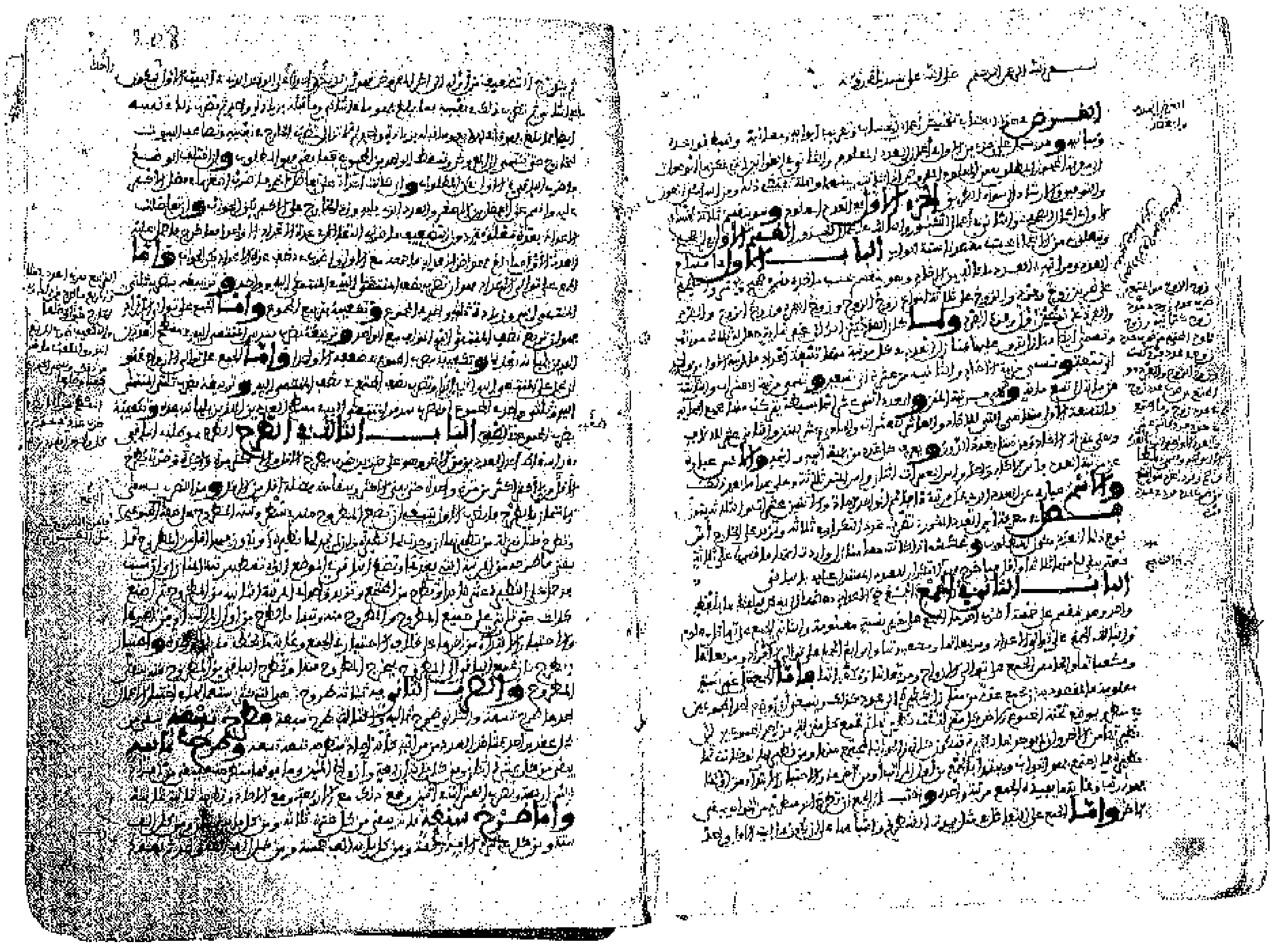

مخطوط تلخيص الحساب، لابن البنا المراكشي، نسخة من 1404، مكتبة دير سان لورنزو دي الاسكوريان.

والتذوق واللمس، ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسه، وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه ينتزع بها صور المحسوسات ويجول بذهنه فيها فيجرد منها صورًا أخرى، والفكر هو العقل التمييزي الذي يحصل منافعه ومعاشه ويدفع مضاره .... الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم، وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئًا فشيئًا إلى أن تتم الفائدة منها، وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي، الفكر الذي يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل فهذا هو العقل النظري .... فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلًا محضًا ونفس مدركة، وهو معنى "الحقيقة الإنسانية" (390- 391)".

منذ ستة قرون كان استخدام ابن خلدون فقط قادرًا ليدرك أنه لكي يفهم الإنسان كان من الضروري أن يبدأ على مستوى الحيوانات ويتحقق من المقام المشترك بين الاثنين، أعني الإدراك من خلال الطرق التي تمكن المواطن أن يميز نفسه من المحيطين به، والذي "ما هو خارج عن ذاته" بدون أن يكون مدركًا بالضرورة لفردانيته. الكلب على سبيل المثال "يدرك ما هو وراء حسه"، هذا ليقول أن المحيطين به والحيوانات الأخرى (يدرك أن هذا كلب ليست نعجة على سبيل المثال)؛ ومع ذلك ليس هذا هو إدراكه لفردانيته التي تحدد له سمات خاصة له تميزه عن بقية الكلاب، فإذا نظر الكلب لصورته المنعكسة على مرآة سيعتقد أنها لكلب آخر، وهنا سيتصرف إزاءه بطريقة تظهر أنه لا يستطيع التمييز بين صورته وبقية الكلاب.

"واحدة من النتائج الأكثر أهمية للتفكر.. تتركز في إدراك الفردانية، هل هذه هي الحالة بالنسبة للقرود؟ حيث تُظهر مرآة التجربة أن الشمبانزي والغوريللا والقردة تفهم

سريعًا أن الصورة المنعكسة على المرآة تكون صورتهم هم أنفسهم، بينما يعتقد أغلب الحيوانات أنهم يرون حيواناً آخر [2].

إن الإنسان هو مجرد حيوان في حد ذاته؛ حيث يشارك الحيوانات في نفس المقام السائد الإدراك "ما هو خارج عن ذاته"، لذلك ما هي نقطة التفرقة بين الإنسان والحيوانات؟ قال ابن خلدون: "ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر".

وكما قيل أعلاه أن ابن خلدون كمطور: يحاول أن يعرف النقطة المميزة التي تفصل الناس عن الحيوانات ووجودها في الإدراك ليس من خلال الإدراكات وحدها التي يمتلكها كل من الناس والحيوانات، لكن من خلال القدرة الإضافية التي يمتلكها الإنسان، أي التفكير أو الإدراك ، ما هو الإدراك إذاً؟ .. هو هذا الفعل الذي صنع ما يمكن أن نسميه نحن "تاريخ السلالة البشرية" للإنسان الآن، ويضع ابن خلدون الفعل المذكور في "بطون دماغ (الإنسان)".

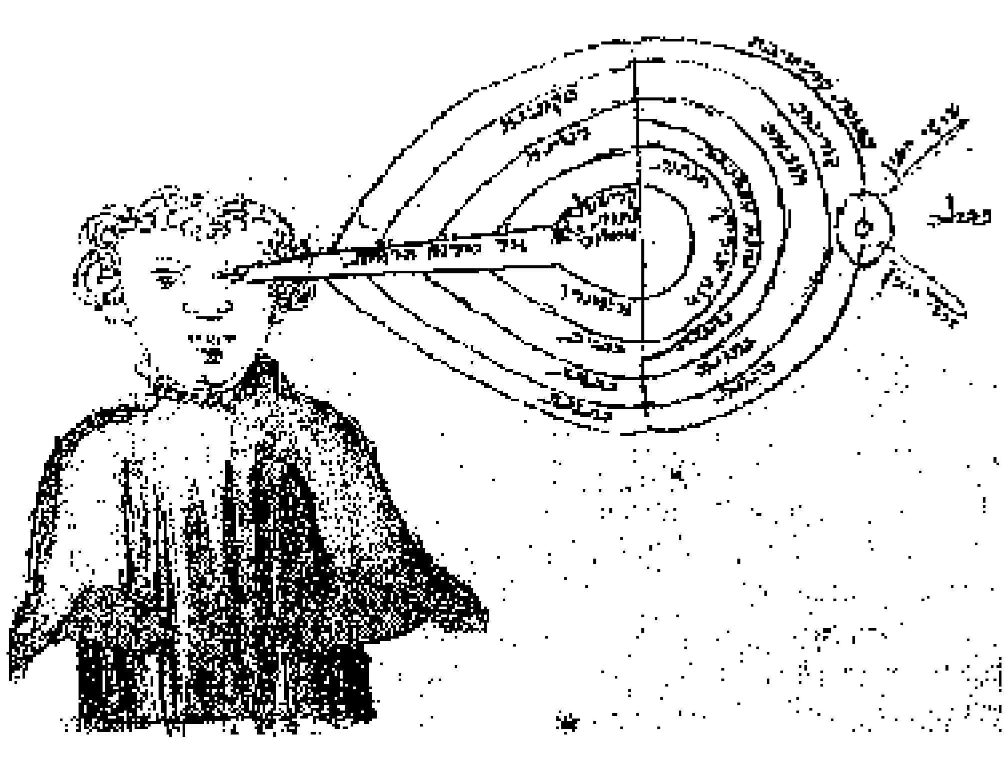

وصف العين البشرية، منجمة من أطروحة طبية ليوحنا الدمشقي، القرن الخامس عشر.

هذا الفعل الذي وهب للإنسان بالعقل والفكر الذي يمكنه أن يصل للتجريد ليصبح مدركًا لهويته المتفردة، وأن يتصور ويتخيل، وقد كان ابن خلدون قادرًا أن يدرك بديهياً أن شيئًا ما قد حدث في بطن الدماغ الإنسانية التي تجعله من الممكن بالنسبة له ليتطور من مرحلة الحيوان إلى مرحلة الإنسان ويجهزه مع ما يسميه الكاتب "العقل التمييزي"، وبالطبع لا يستطيع الإنسان أن يملك أي معرفة عن ما حدث، فقط الآن كان العلم الحديث قادرًا على البحث في هذا المجال. هذا هو سبب إشارته للنتائج ليؤكد على لأي مدى كانت أفكار ابن خلدون حداثية.

"ويمكن القول أنه من خلال مسار التطور البيولوجي، إن القدرة الفطرية للعقل لتصور العالم – من البيئة المادية والبيولوجية لمجال غير محدود من التفاعلات الثقافية والاجتماعية المتزايدة الأهمية. لقد قاد التطور الجيني لتخزين التراث ذي الأهمية للمعرفة الفطرية في الجينات وبالتالي في العقل، ليس فقط هذا ولكن أيضاً بقاء لتخزين القدرات لينتج عملية، ويتصل ويختبر معرفة جديدة، لا نستطيع القول في هذه الأيام أكثر من هذا عن الآليات الجينية التي حدثت من خلال التاريخ التطوري للعقل الإنساني الذي يترك مجالا بحثيا مفتوحا مثيرا للسنوات القادمة" [3].

"بداية نجد أن حائط القناة العصبية من طبقة واحدة فقط من الخلايا، والأخير منقسم سريعًا وأحيانًا ينتج آلاف الملايين من الخلايا في ثوان محددة تصل إلى 250 ألف خلية جديدة تخلق كل ثانية" [4].

"إن التطور العالمي للمعيار الكلي للوصلات العصبية في الإنسان أو الطبقة الخارجية لدماغ قرد يشمل مرحلة سريعة 90% من الوصلات العصبية لذلك فقد شكلت بمعدل تقريبي 40 ألفا في الثانية" [5].

"جيرالد إيدلمان" الحائز على جائزة نوبل للطب (1972) والمدافع عن الشبكة العصبية الدورانية استمر في نفس هذا الطريق:

"تنشئ كل خلية عصبية اتصالاً مع خلايا عصبية أخرى على مستوى النقاط التي تسمى الشبكة العصبية وبالدهاش كاف يوجد حوالي مليار اتصال في الطبقة القشرية بالنسبة لنسبة اتصال واحد أو (الشبكة العصبية) في الثانية، وسيحتاج الشخص 32 مليون سنة تقريباً ليحسبهم جميعاً ولكي يدرك كيف أن هذا العدد الكبير من الاتصالات في هذا الهيكل يكفي ليقول أن قطعة من عقلنا لها حجم مناظر للرأس تحتوي على ألف مليون اتصال" وربما تلاحظ أنني أشرت فقط هنا لعدد الاتصالات في العقل المفترض في الحقيقة، إذا اعتبرنا كل هذه الاتصالات وكل الروابط الممكنة سنحصل على رقم فلكي

2 G.Edelman, Biologie de la conscience,Paris,1992,p.97.

3 ibid.,p.279

4 Ibid.,p.289

5 Ibid.,p.291

كبير عبارة عن رقم واحد ويتبعه ملايين الأصفار، وفي الكون المعروف الكامل يوجد فقط 10 للقوة و80 للذرات التي شحنت إيجابيا!" [6].

إن النتائج التي توصل إليها ابن خلدون مهمة ولكن الأكثر أهمية هي طريقته في التفكير، فمن بين الدلالات على تفكيره الحديث كانت حقيقة أنه لم يراع الأساطير الموروثة من "العهد الهيليني" التي يتأملها الفلاسفة المعاصرون له، لقد تجنب التعامل مع "الفكر النشيط" وقضايا شبيهة، وبدلاً من الاهتمام الظاهر بالذهن الإنساني والعوامل التي كان لديها أثر على الحياة بدلاً من التفلسف على الكواكب العليا والأذهان الخيالية. لقد عكس ابن خلدون ما يحدث في "بطن الدماغ الإنساني" هذا ليقول ذهنه بعبارة أخرى تعتمد حداثته على قدرته للتخلص من الأسطورة الموروثة وتفتح طرقًا جديدة للبحث وتطبيق السبب والطرق التي لم يتبعها سواء معاصروها أو الأجيال التالية له، هكذا كان معارضًا للحداثة التي بدت طريقة تفكيره الواعدة.

منمنمة من كتاب استخدام الحيوانات لابن دريهم الموصلي، 1360، مكتبة دير سان لورنزو دي الإسكوريال.

ابن خلدون والفلسفة

كان ابن خلدون معروفًا ومنتقدًا لمعارضته القوية للفلسفة، وقد اعتبر هذا التوجه تجاه الفلسفة كدلالة للرجعية، وعلى أية حال نحن لا نشارك هذا الرأي كنتيجة لقراءة مفكر المقدمة خارج سياقه.

يشمل عمل ابن خلدون تحديد فصل تحت عنوان "في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها" (482 - 486).على أية حال فإنه جدير بنا ملاحظة أن الكاتب لم يكن دخيلاً على الفلسفة أكثر منه أنه درسها (كواحد من تلاميذ إبليس)؛ مارسها في عمر العشرين، كرّس عمله الأول عنها، وكان واحدًا من آخر الدارسين الذين عمموا عليها في وقت أن كانت غير ملائمة لها لفترة في أزمان وصلت فلسفة الموحدين وابن رشد إلى ذروتها ونقلت للغرب، وساهمت في النهضة الثقافية، ومهدت الطريق للتنوير في زمن ابن خلدون حيث سقطت هذه الفلسفة لأدنى مستوياتها من الانحطاط.

لذلك كان ابن خلدون أول من تناول المعرفة عن الفلسفة، وكان في كتابه (المقدمة) برهان حقيقي على ذلك، وبالنسبة له فهو لم يمكنه أن يكون قادرًا على إنتاج مثل هذا الكتاب دون معرفة عميقة، ويتبع هذا أن الكتاب لم يسوّق حججًا ضد الفلسفة في حد ذاتها، كما أن نقده لفلسفة لم يكن ناتجًا عن الرجعية، بل على النقيض من ذلك انتقد الفلسفة بشكل صحيح – في رأينا – بالنسبة للانحطاط الذي وصلت إليه، إذا كان هناك فلاسفة من هذا

6 Ibid.,p.32

النوع كابن سينا وابن رشد، فإن انتقاد ابن خلدون للفلسفة سيكون ذو أثر إيجابي، وأثار ردود فعل مثيرة للجدل بتشجيعه لهذا النوع الذي يرتفع بين الغزالي وابن رشد.

لقد انتقد ابن خلدون الفلسفة لأنها ليست واحدة من العلوم التي تقوم على التجربة، وفي الواقع فإن انتقاده للفلسفة كما كان في عصره دلالة على الحداثة؛ هذا لأنها كانت ضرورة أن يحل العلم الجديد الذي وضعه ابن خلدون محل الفلسفة، علم ابن خلدون الذي اعتمد على الاختبار والملاحظة، ولنفس السبب هاجم الكاتب مجالات أخرى غير علمية كانت مشهورة للغاية في زمنه، وخاصة الكيمياء والفلك، وإذا وضعنا في اعتبارنا أهمية ومصداقية الفلك التي لا تزال شائعة بين الناس سندرك المنظور وأهمية الثورة التي بدأها ابن خلدون، الثورة التي تسببت في تغيير عنيف في الفكر الإسلامي، ويمكن أن تحل محل عقلية السحر بعقلية الرشادة التي تشكل أساس الحداثة.

مخطوط العمل للفارابي: القرن الرابع عشر: المكتبة الوطنية – مدريد.

قال ابن خلدون إن الفلسفة علم لديه دارسون يفكرون أن: "الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي، تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية" (482). وهذه المعرفة أو الإدراك يضمنان سعادة مغلقة للناس الذين يملكونها. ويضيف الكاتب أن الفلاسفة يسحبون مماثلة بين الإنسان والكواكب، وقد وجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان. (483).

وقد أخذوا هذه الأفكار من اليونانيين –خاصة من أفلاطون وتلميذه أرسطو– دون إضافة أية إبداعات لهم، وبالأحرى، اتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل" (483)، ومن الواضح إذًا أن ابن خلدون لم ينتقد الفلسفة كلها، ولكن حالة الركود التي وصلت إليها في الثقافة العربية في زمنه ونقص الفكر النقدي الذي يميز الحقيقة من الأسطورة ويستسلم لمعتقدات غير قابلة للاختبار.

بدأ ابن خلدون يعتقد أن أية فلسفة لا يمكن اختبارها هي مجال غير مفيد منهجيًا بالنسبة للمجال الذي لديه دارسون لا يضيفون أية إسهامات أو إبداعات جديدة، فهو لا قيمة له

تمامًا حقًا يجب أن يكون الفيلسوف مفكرًا أصليًا وليس مقلدًا وإلا فلا يكون جديرًا بجذب الانتباه إليه كأغلب الفلاسفة المعاصرين لابن خلدون.

في هذا المجال يفضل ابن خلدون: "فأية فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها؟" (484) "فهذا العدم كما رأيته غير وافٍ بمقاصدهم التي حوّموا حولها، مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها. وليس له فيها علم إلا ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين" (486) لذلك لا يظهر ابن خلدون معارضته للفلسفة كالمجال الذي يحدد المهارات الثقافية، لكنه حذّر من تحجره والمعتقدات الخرافية المنتشرة في زمنه.

كان هذا التوجه دعوة للإبداع والنهضة في المجال الذي يخرج من مسيرته الأصلية بطريقة (بارزة) ومناظرة في الأساطير، حيث انتقد الكاتب الفلسفة ليحييها وكان هذا سببًا في أنه استخلص هذه المقولة: "فليكن الناظر فيها متحرزًا جهده من معاطبها" (486).

لقد دعا لمزيد من الحذر في حالة "إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها" (486-491) هذا ليقول أن علم التنجيم يظهر تفكيرًا للكاتب أكثر حداثة بوضوح، خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا كيف أن الناس في زمنه آمنوا بالمنجمين، لقد رفض ابن خلدون أن يعتقد في ادعاءات المنجمين غير القابلة للتجربة، "إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار" (487) وهكذا أسس ابن خلدون واحدة من أهم المبادئ للعلوم الحديثة وذلك بتأسيس المعرفة على قاعدة تكرار التجربة.

صورة رجل يمتطي أسدًا، من مخطوط يعود للقرن الرابع عشر، بعنوان غايات الحكيم، كتاب السحر والكيميا القديمة المعروفة على نطاق واسع، مكتبة دير سان لورنزو دي الاسكوريال.

لا ينتقد ابن خلدون التنجيم فقط من وجهة نظر العالم، لكنه أيضًا يضع في اعتباره تعاليم الإسلام والنتائج الاجتماعية والسلبية للمجال، وعلى الجانب الآخر برهن ابن خلدون أنه من المستحيل أن يثبت المنجمون ادعاءاتهم من خلال تجارب علمية على جانب ثالث كما يقتنع المسلمون. اعتقد ابن خلدون أن هذه تجارة أثبتت دون أساس "من خلال سبب" "فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع" (488)، أيضًا من المعروف أن ابن خلدون ليس لديه اتصال بالشئون والمشكلات الاجتماعية لعصره وفي الحقيقة لقد حذر من الآثار السلبية للعلوم التي بلا أساس وحتى يدعو لتحريمها وهذا ما لا يجرؤ أن يفعله الكثيرون حتى الآن: "فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدولة" (489).

علم آخر هو الكيمياء (489-491) عن ما يقوله ابن خلدون: "إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها، أعلم أن كثيرًا من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه الصنائع" (491). لايعني ابن خلدون بوضوح الكيمياء العلم الذي كان العرب رواده، والمصطلح الذي لا يزال محتفظًا به في قاموس الكلمات العربية، بالأحرى كان يعني "الكيميا" التي تعني انتقال المعادن الأساسية إلى ذهب، لم يؤمن به فقط العرب ولكن أيضًا من جانب الأمم الأخرى. حقًا لقد كان هاجس كل فرد كان يبحث عن طريقة سهلة وسريعة للثروة حتى إذا تورط في الخداع والاحتيال.

أقام ابن خلدون انتقاده للكيميا – كما هو معتاد وكما فعل مع التنجيم – على حقيقة أنها غير قابلة للتجارب العلمية ولا يمكن أن تحقق أيًّا من أهدافها وتقود لنتائج اجتماعية سلبية، ويظهر هذا أن اهتماماته وطريقة تفكيره لم تكن مختلفة عما لدينا اليوم. لقد حذر من أن

الكيميا تقود لـ"تزوير العملة وأشكال أخرى من الاحتيال"، ويقول أيضًا ابن خلدون إنه "رأى بشكل شخصي بعض الناس في شمال إفريقيا بشكل غير قانوني ومخادع يأخذون الأموال ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة" (498). ويضيف ابن خلدون: "إننا لا نعلم أن أحدًا من أهل العلم تم له الغرض أو حصل منه على بغية" (493)، ولذلك "فإن كل من طلب الكيميا طلبًا صناعيًّا ضيّع ماله وعمله" (496).

يلاحظ الكاتب أيضاً أنه لم يكن يوجد اتفاق على موضوع الكيمياء بين الدارسين السابقين عليه: "فإن ابن سينا القائل باستحالتها كان من علية الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة، والفارابي [7] القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وبسبب ذلك ضيع ماله وعمله" (497)، ومن الجدير بنا في هذا المجال التركيزعلى التفسير الاجتماعي الذي يقدمه ابن خلدون الذي يعتبر علامة أخرى للتفكير الحديث.

يكمل ابن خلدون مجرى جداله بقوله: "وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخلق إنسان من المنيّ" (495). كذلك يضيف ابن خلدون "أنه من غير المعقول من حيث المبدأ لكن يجب أن تكون الظروف الضرورية متوافرة هناك لتحقيق الهدف، إنما هو من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها" (495). العجز لتحويل المعادن الأساسية إلى ذهب و"لخلق الناس من المني" لا يعني أنه من المستحيل أكثر منه يعني أن الإنسانية لا تملك المعرفة اللازمة عن الشروط والوسائل، ويتبع هذا أنه إذا توافرت الشروط فإن إنتاج الذهب وخلق الناس سيكون ممكنًا بالأساس. ونستطيع أن نرى مرة أخرى توجهًا علميًا وطريقة للتفكير، والأكثر من هذا أننا يمكن أن نجد شجاعة فكرية، خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا حقيقة أنه حتى في أيامنا هذه فإن الإنجاب الصناعي محرم لأسباب دينية وأخلاقية.

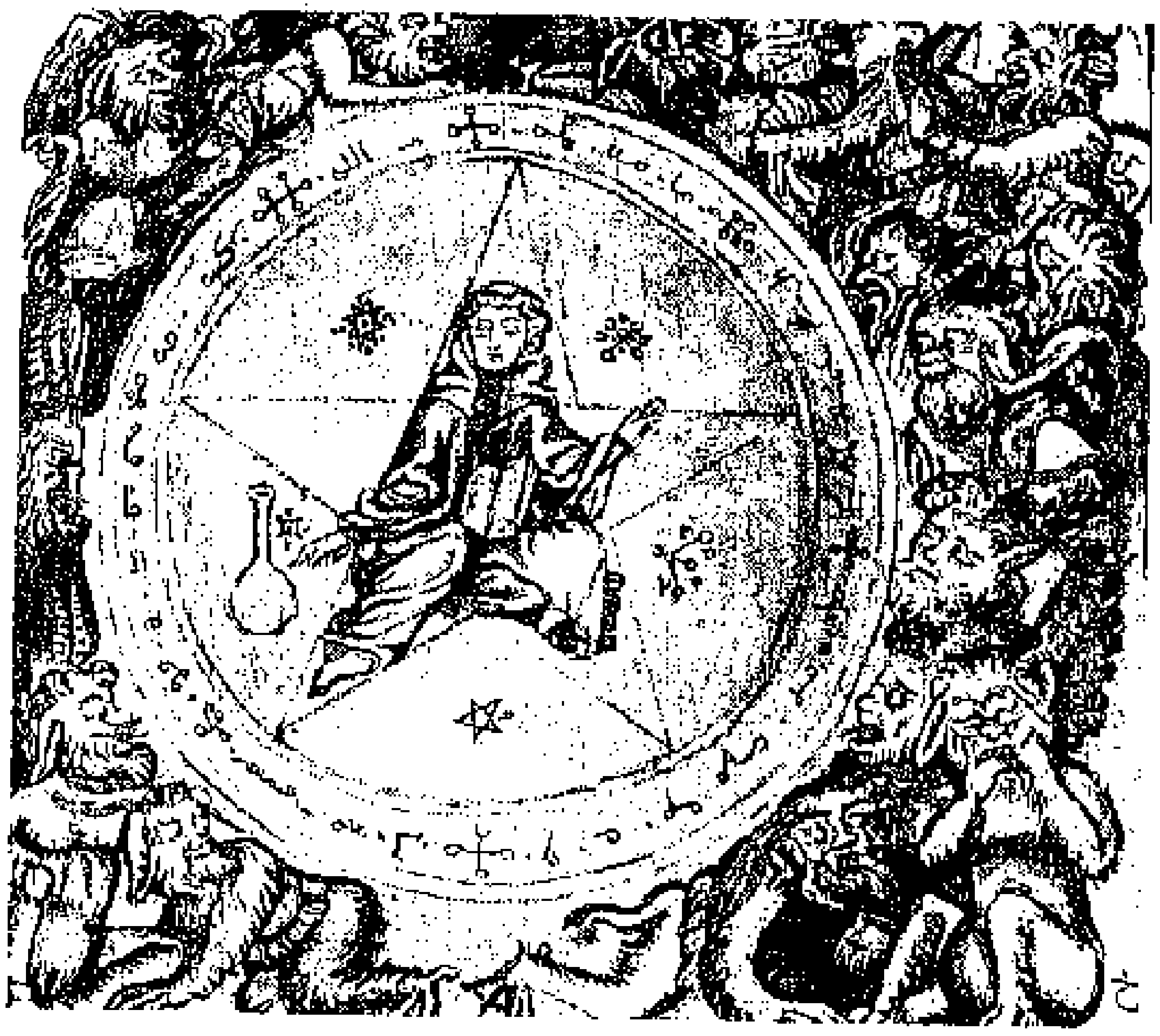

موضوع ذو علاقة بالتنجيم، منمنمة من الكانتجاس، نهاية القرن الثالث عشر.

في الصفحة المقابلة، رسم تنجيم طالع خلال الاحتفال بميلاد نيموركلك، منمنمة من أواخر القرن السادس عشر: متحف فيكتوريا وألبرت، لندن.

بالطبع لا يمكن لابن خلدون تصور أنه يومًا ما "معرفة الشروط" ستجعل "خلق" الناس ممكنًا، لقد اعتقد أن هذا مستحيل، ويبدو هذا طبيعيًا إلى حد ما في عصره، ويتساءل ابن خلدون بفصاحة "كيف يمكنه هو؟" إذا كانت أول كلمة في اللغة العربية أصلاً "اقرأ" مثل "إن" (استفهاميًا)، وتعني هذه العبارة أن ابن خلدون اعتبر من المستبعد أن الإنسان سيحصل يومًا ما على "معرفة الشروط" اللازمة لـ"خلق" أناس آخرين.

ولايزال ابن خلدون يستبعد الأسباب الدينية لقاعدة راديكالية خارجة عن المعقولية، بقوله –على سبيل المثال– "أن الإله وحده يمكنه أن يخلق وأن الإنسان غير قادر على أن يناقش الله أبدا، إن هذا التوجه الجريء جدير بجذب الانتباه إليه لأنه يمكن أن يقود بسهولة لاتهامه بالردة في زمنه.

على أية حال إذا قرأت الكلمة المذكورة "إن" التي هي قراءة جريئة وتقود أكثر لاتهام الكاتب بالردة وستعني الجملة "إذا كانت الشروط ممكنة" كالحرف "إن" أي يصبح وشيكاً أو يصبح من الممكن، هذا لقول "خلق" الناس سيكون غير مستحيلاً إذا توافرت الشروط الضرورية.

كانت الحكايات عن تحويل المعادن إلى ذهب مشهورة للغاية في زمن ابن خلدون وكان يجب عليه أن يجد شرحًا لها لا يتصادم مع معتقدات معاصريه، وهكذا يجب عليه أن يقبل "إذا كان هذا صحيحًا فبعض الناس حصلت على نتائج ناتجة عن السحر والإعجاز وليس نتيجة الصناعة [أو العلم]".

7 توفي في عام 850 بعد الميلاد عن عمر ناهز الثمانين عاما، كتب الفارابي رسالة في الكيميا.

ابن خلدون في تركيا

برنارد لويس
دراسات الشرق الأدنى، جونز هول، برينستون
ترجمة قاسم عبده قاسم

لقد صار من الشائع الآن في دراسات الشرق الأوسط أن اكتشاف مقدمة ابن خلدون وتقييمها وتقديرها إنجاز للدراسات الأوروبية. فقد تم نشر النص العربي وطباعته أول مرة في طبعة اتيين كاترمير، ونشرت في باريس سنة 1858، وكانت أول ترجمة كاملة إلى لغة أوروبية، النص الفرنسي الذي كتبه البارون وليم ماكجوكين دي سلان قد نشرت في باريس فيما بين سنة 1862 وسنة 1868، وبذلك أتاحت للمرة الأولى هذه القطعة الفذة من الفكر التاريخي والاجتماعي للعالم الحديث.

وحتى قبل هذه النشرات الكبرى، لم يكن ابن خلدون مجهولاً في مجال الدراسات والبحوث الأوروبية. فخلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، ظهرت عدة مقالات في الصحف العلمية وغيرها، تحتوي على مقتطفات وترجمات من "المقدمة" ومن تاريخ ابن خلدون، كما ظهرت مناقشات حول هذه الأعمال [1]. ومن بين هذه الدراسات التي قام بها سيلفستر دي ساسي، الذي ضمن بعض مقتطفات من "المقدمة" في مختاراته العربية [2]، ودراسات أخرى قام بها جوزيف فون هامر المؤرخ النمساوي الكبير المتخصص في تاريخ الإمبراطورية العثمانية. فبالإضافة إلى مقالاته، يشير عدة مرات في كتابه "التاريخ العثماني" إلى ابن خلدون الذي يسميه "مونتسيكيو العرب" [3].

وحقائق يقظة الاهتمام الأوروبي بابن خلدون والتطور السريع في هذا الاهتمام، عندما تم التعرف على كتابه باعتباره عملاً يصنع مرحلة، واضحة ومشهورة. وما هو أقل شهرة هو الاهتمام الأقدم والتقدير الذي أسبغه العثمانيون على ابن خلدون. وغالبًا ما يقال إن ابن خلدون كان مهملاً ومنسيًا بين قومه، حتى لفت البحث العلمي الغربي أنظارهم إليه. ومن المشكوك فيه أن يكون هذا صحيحًا في شمال أفريقيا، ومن المؤكد أن هذا ليس صحيحًا في الشرق العثماني، حيث كان ابن خلدون معروفًا، ومقروءًا، وحيث مارس نفوذًا كبيرًا [4].

لقد تولد عن الغزو العثماني لسلطنة المماليك في مصر والشام اهتمام جديد بين الأتراك في هذه الأقاليم التي كسبوها منذ زمن قريب ولاسيما مصر. وكتبت الكتب أو تم تحويلها إلى التركية تتناول تاريخ مصر والبلاد المجاورة لها وجغرافيتها، وكمية وتنوع المخطوطات العربية المصرية الأصل والمحفوظة في المكتبات التركية تشهد إلى الاهتمام واسع المدى بين العلماء العثمانيين بالتراث الأدبي لسلطنة المماليك المهزومة. وتتضمن هذه المقتنيات مخطوطات "مقدمة" ابن خلدون وكتابه في التاريخ (العبر وديوان المبتدأ والخبر).

ولم تكن هذه المخطوطات متاحة في اسطنبول فحسب، وإنما كانت مقروءة، وبحلول القرن التاسع عشر كانت هناك مؤشرات واضحة على تأثيرها ونفوذها. وهناك ثلاثة مؤلفين أتراك من هذه الفترة يكشفون عن هذا بشكل خاص. وإذ إن حاجي خليفة: العالم الكبير وصاحب التراجم، والجغرافي، والمؤرخ الموسوعي المعرفة، والمشهور باسم "كاتب چلبي" (1657 – 1906) يورد اسم ابن خلدون عدة مرات، ويكشف عن علامات واضحة تدل على نفوذه الفكري. وفي كتاباته التاريخية يورد اسم ابن خلدون وأفكاره على السواء، وفي قائمته الكبيرة عن الكتب العربية، وهو كتابه المعروف بـ "كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون"، نجد موادًا عن مؤلف ابن خلدون تحت عنوان "تاريخ" وتحت عنوان "عبر" مع إحالات متواترة إلى "المقدمة". وتحت العنوانين "تاريخ"، و"عبر" يقدم وصفًا للكتاب وتقديرًا للمقدمة باعتبارها دراسة شاملة عن طبيعة التاريخ الإنساني والمجتمع [5]. ويبدأ "كاتب چلبي" مقالته، بعد ملاحظة مختصرة عن الظروف التي أدت به إلى كتاباتها، بنظرية عن نمو المدن وذبولها ثم سقوطها، ومن الواضح أنها مستقاة من "المقدمة" [6].

وهناك كاتب عثماني ثاني من ذلك العصر يقتبس من ابن خلدون وهو المؤرخ الحلبي المولد "نعيمة" (ت 1716)، وهو تلميذ لكاتب چلبي. وتبدأ حولية نعيمة بمقدمة تناقش طبيعة التاريخ وقيام المجتمعات الإنسانية وسقوطها، من الواضح أنه متأثر بابن خلدون، الذي يشير إليه صراحة.

الصفحة الأخيرة (313a) من مخطوط عاطف أفندي 1936، المحفوظ في مكتبة السليمانية باسطنبول، وهو يضم مقدمة ابن خلدون. ونقرأ في الصفحة الأخيرة "وقف هذا الحاج مصطفى عاطف بشرط ألا يخرج من الخزانة". بعض الصفحات أعيدت كتابتها على يد الناشر. K.D. Grnlsker etal. كجزء من المجموعة التي تسمى Klassiker der nationalokonomle. Verlag wirtschaft und Finanjen, Dusseldorf, 2000.

أعادة نشر من Studies in Islamic History and Civilization in honour of professor David Ayalon, ed. M.Sharon. Jersalem, Canaa, E.J. Brill. Leyden, 1986.

1 Pérès, H. (1956) "Bibliographie sur la vie et l'oeuvre d'Ibn Khaldun", *Studi Orientalistici G. Levi Della Vida*. Roma, II, págs. 308-329. Fischel, W. J. (1958) "Selected Bibliography" en *Muqaddima*. Traducción Rosenthal, F. Nueva York, III, págs. 483-512

2 De Sacy, S. (1806) *Chresthomathie arabe*. París (2ª ed., 1826-1827), I, págs. 370-411; II, págs. 168-169, 256-259 y 279-336; III, págs. 342-346.

3 Von Hammer-Purgstall, J. (1827-1835) *Geschichte des osmanischen Reiches. Pest*, I, pág. 301; III, pág. 489; VIII, pág. 253. *Ibidem*, (1835) *Histoire de l'Empire Ottoman*. París, II, págs. 71-72; XVI, pág. 59.

4 Findikoglu Z. Fahri, (1953) "Türkiyede Ibn Haldunizm", *Fuad Köprülü Armagani*. Estambul, págs. 153-163.

5 *Kesf-el-Zunun*, Yaltkaya, S.; Bilge, K. R. (1941-1943) (eds.). Ankara, I, pág. 278; II, págs. 1124 y 1795.

6 Destur al-amal *fi Islah al-Jalal*. Estambul en 1280/1863-64, apéndice a *Kavanin-i Al-i Osman de* 'Ayn-i 'Ali; traducción alemana Behrnauer, (1857) Z.D.M.G., 11, págs. 110-132.

313

في النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود
لاول كلامهم واكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم من بعد ذلك ينسبون فاهل المغرب
من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات نسبة الى الاصمعي راوية العرب في اشعارهم
واهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والحوراني والقيسي وربما
يلحنون فيه الحانا بسيطة لا على طريق الصنعة الموسيقارية ثم يغنون به ويسمون الغناء به
باسم الحوراني نسبة الى حوران من اطراف الشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم الى هذا
العهد ولهم فن اخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به مقفصا على اربعة اجزاء يخالف اخرها
الثلاثة الاول في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى اخر القصيدة شبيها
بالمربع والمخمس الذي احدثه المولدون من المتاخرين ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة
وفيهم الفحول والمتاخرون عن ذلك والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان
يستنكرون هذه الفنون التي لهم اذا سمعها ويمج نظمها اذا انشد ويعتقد ان ذوقه انما نبا عنها
لاستهجانها وفقدان الاعراب منها وهذا انما اتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له
ملكة من ملكاتهم لشهد له ذوقه وطبعه ببلاغتها ان كان سليما من الافات في فطرته ونظره والا
فالاعراب لا مدخل له في البلاغة انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه
سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول او بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن
الكلام كما هو في لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه اهل الملكة فاذا عرف اصطلاح في
ملكة واشتهر صحت الدلالة واذا طابقت تلك الدلالة للمقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة
ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك واساليب الشعر وفنونه موجودة في اشعارهم هذه
ما عدا حركات الاعراب في اواخر الكلمات فان غالب كلماتهم موقوفة ويتميز عندهم الفاعل من
المفعول والمبتدا من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب فمن اشعارهم على لسان الشريف ابن هاشم
ابن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان ويذكر ظعنها مع قومها الى المغرب ° الشريف ابن هاشم علام
علي الى ظا كبده شكت من زفيرها ° تقر الاعلام اين ما ذات خاطري يرد جيرها
البدو يلوي عصيرها ° وماذا شكات الروح مما طرا لها ° غدات وداع تكفا الله خيرها

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه اتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل التنقيح
والتهذيب في مدة خمسة اشهر اخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقحته
بعد ذلك وهذبته والحقت به تواريخ الامم كما ذكرته في اوله وشرطته وما العلم الا من
عند الله العزيز الحكيم

وعندما أورد عناوين كتب التاريخ العربية التي وجدها مفيدة، مثل "الخطط"، وكتاب السلوك للمقريزي، يستطرد قائلاً: "وفوق هذا كله التاريخ الذي كتبه بالعربية المغربي ابن خلدون، عنوانه "العبر وديوان المبتدأ والخبر" وهو كتاب مقدمته وحدها مجلد كامل وهي كنز مليء بجواهر العلم ونفائس الحكمة. ومؤلفه هو أعظم مؤرخ بين المؤرخين. ويختص كتابه بتاريخ المغرب، ولكن مقدمته تحتوي على المعرفة كلها" 7.

وهناك مؤرخ عثماني ثالث عاش في القرن السابع عشر يظهر آثارًا واضحة لتأثير ابن خلدون هو أحمد بن لطف الله (ت 1702) اشتهر باسم "منجم باش"، أي رئيس الفلكيين، وهو المنصب الذي كان يشغله. وتاريخه العلمي المكتوب بالعربية، ولكنه نشر في ترجمة تركية قام بها الشاعر التركي نديم الذي عاش أوائل القرن الثامن عشر، يتضمن مقدمة عن طبيعة التاريخ قامت على أساس "مقدمة ابن خلدون" وغالبًا ما تقتبس مفرداتها حرفيًا[8].

وبحلول القرن التالي كان الاهتمام كبيرًا بما يكفي للقيام بترجمة مقدمة ابن خلدون. وكان المترجم هو "محمد صاحب"، المعروف عادة باسم بير زاده، (1674 - 1749م). وإذا كان بير زاده ابنًا لضابط من قوات الإنكشارية، فقد كان عالمًا، ثم ارتقى ليصبح "شيخ الإسلام". وقد بدأ ترجمته لابن خلدون إلى اللغة التركية في سنة 1725، ثم تخلى عنها بعد خمس سنوات بعدما أتم حوالي ثلثي "المقدمة"[9]. وتمت ترجمة الثلث المتبقي في القرن التالي على يد المؤرخ جودت باشا الذي رتب أيضًا لنشرها[10].

مكتبة السلطان أحمد الثالث. طابو قابو سراي. اسطنبول.

أسفل، البحر المتوسط والأراضي المحيطة به على خريطة رسمت بتركيا أواخر القرن الثالث عشر.

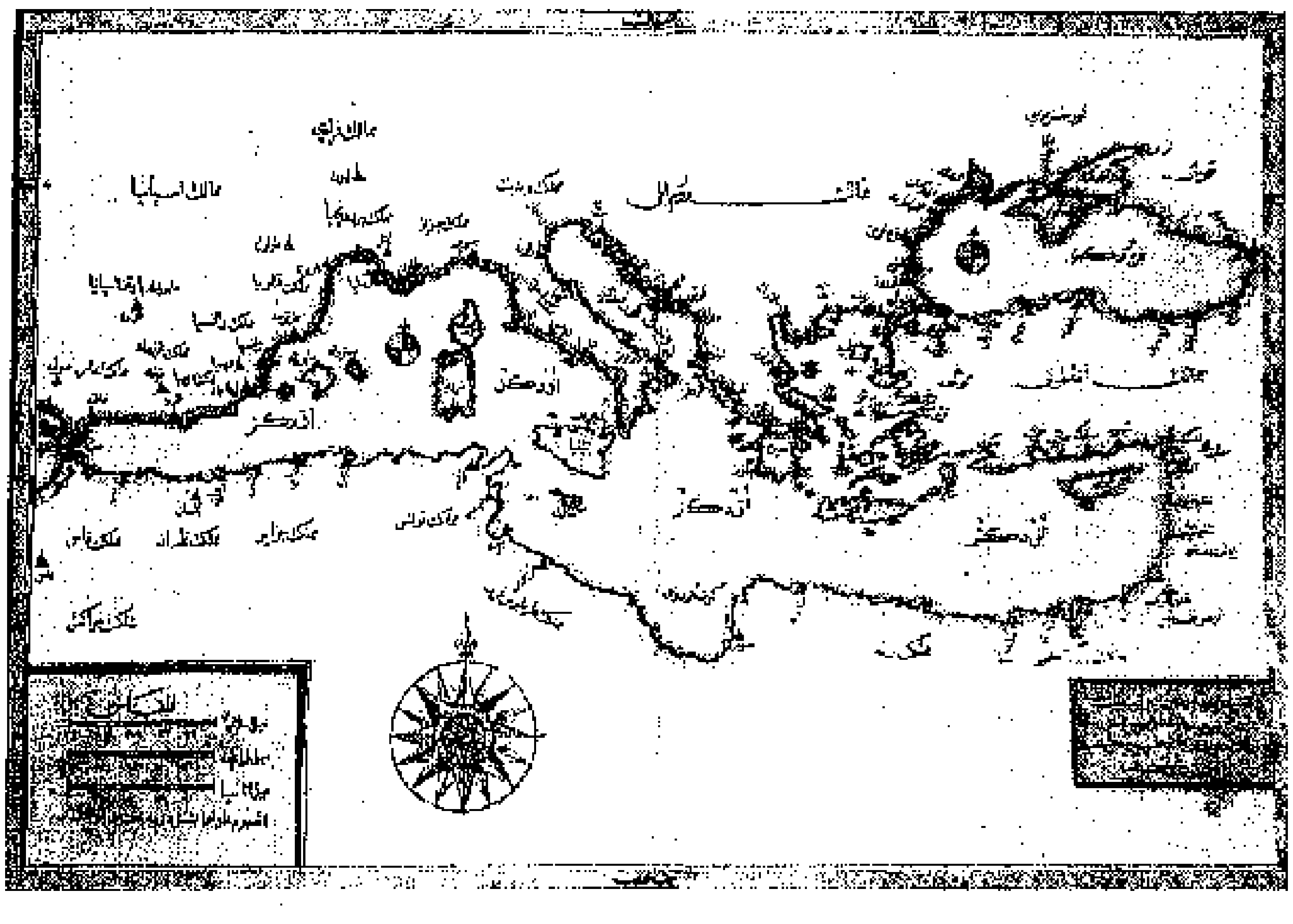

وعلى الرغم من أن ترجمة بيرزاده لم تكتمل ولم تنشر، فيبدو أنه كان لها بعض التأثير على القراء الأتراك حتى خارج دوائر الباحثين وأوساط المتعلمين الضيقة. إذ إن اثنين على الأقل من السفراء الأتراك إلى أوروبا في القرن الثامن عشر وجدا في "مقدمة ابن خلدون" أداة تحليل لتفسير الحوادث الجارية في أوروبا. وكان أحدهما رسمي أفندي الذي كان سفيرًا في ڤيينا سنة 1757 وفي برلين سنة 1763. ولاحظ، وهو يناقش التغيرات التي جرت في المواقف الأوروبية في أعقاب الثورة الدبلوماسية، وصعود القوة الجديدة في بروسيا وانتصارات الملك فردريك على أعدائه، أنه: "على حد تعبير ابن خلدون فإن النصر الكامل للدولة المقامة حديثًا على دولة قديمة راسخة يعتمد على طول

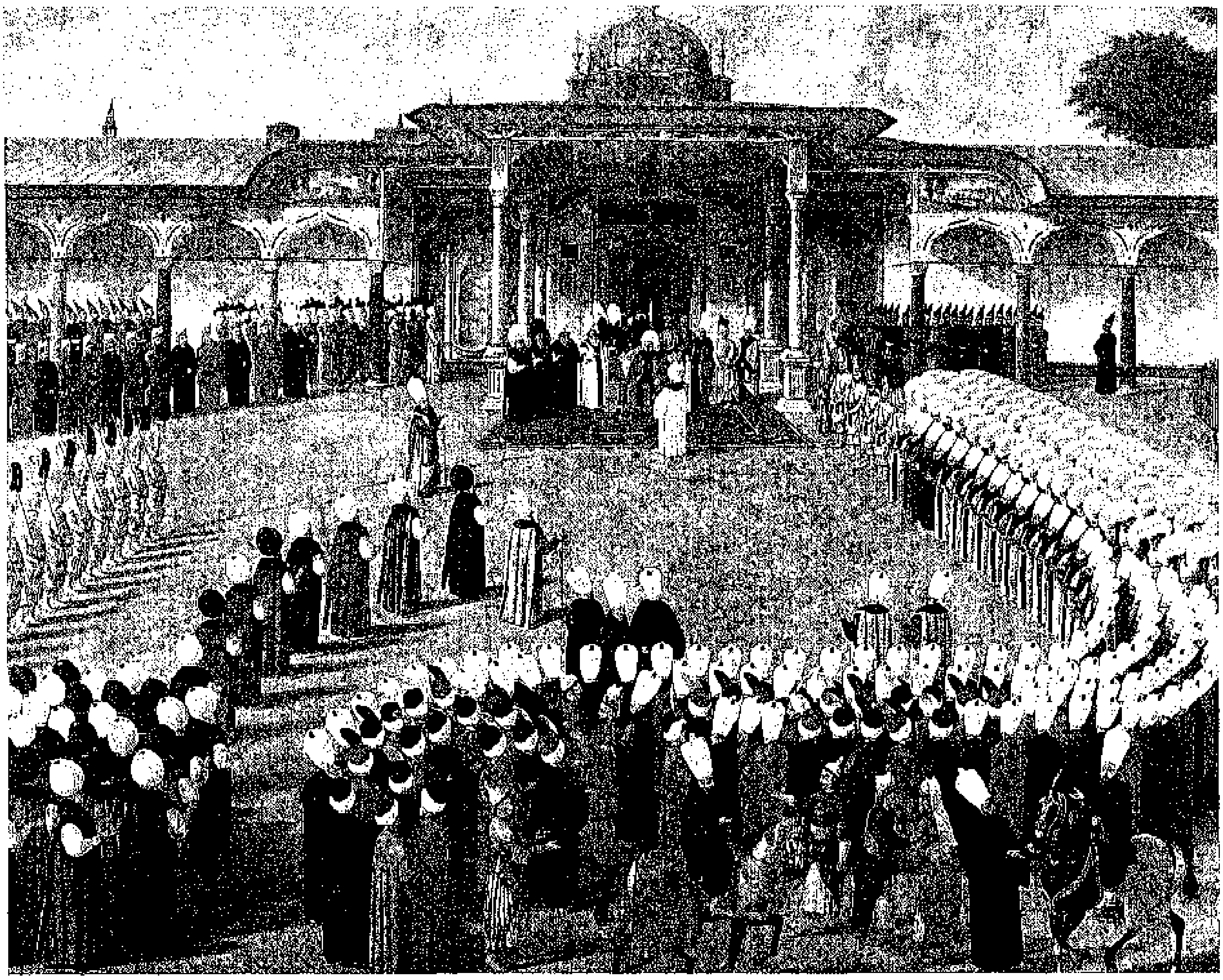

استقبال في بلاط السلطان العثماني في طابو قابو سراي باسطنبول عند نهاية القرن الثامن عشر في صورة رسمها فنان مجهول. متحف طابو قابو سراي باسطنبول

الزمن وتوالي الأحداث"[11]. وبعد ذلك بقليل، في سنة 1790، يتحدث سفير عثماني آخر، هو "عزمي أفندي"، الذي كان سفيرًا للسلطان في برلين، عن حب الدعة والراحة السائد بين الأوروبيين ويعزى هذا إلى "فقدان النخوة" التي رأى ابن خلدون أنها من خصائص فترة التدهور في المجتمع، على حد قوله[12].

هذه التلميحات، ليست في كتابات العلماء فقط، وإنما في كتابات الموظفين الرسميين في مهام دبلوماسية أيضًا: تكشف بوضوح عن أن أفكار ابن خلدون كانت قد صارت جزءًا من المناخ الفكري في العاصمة العثمانية، وربما لا تثير الدهشة في وقت كان العثمانيون يدركون بشكل متزايد تدهور قوتهم بالنسبة إلى أوروبا. وربما كانت معرفة القراءة باللغة العربية واسعة الانتشار بين العثمانيين المتعلمين وعلى أية حال فإن "مقدمة ابن خلدون" كانت متاحة في ذلك الوقت في ترجمة تركية لمعظم أجزائها. وهناك مؤشر على شعبيتها في عدد المخطوطات الباقية للمقدمة.

ولا يمكن للمرء أن يقول بالتأكيد أن الاهتمام الأوروبي بمقدمة ابن خلدون يرجع إلى المصدر التركي، ولكنه يبدو افتراضًا ممكنًا. فمن الواضح أن هامر كان على ألفة بالمصادر التركية المكتوبة، وكان على معرفة شخصية بالدبلوماسيين العثمانيين وغيرهم من الموظفين. ويلاحظ دي ساسي عن مؤلف ابن خلدون أنه يحظى بشهرة واسعة في شرق المتوسط، ومن المؤكد أنه يستحق هذه الشهرة[13]. وعلى أية حال، فمن الواضح أن الاكتشاف التركي لابن خلدون، إذا لم يكن قد ألهم الاكتشاف الأوروبي، فلاشك في أنه كان سابقًا عليه. وقد أوضح ديفيد أيالون كيف أن ابن خلدون قد اعترف بدور الأتراك في تاريخ الإسلام وقدر أهميته. وبهذا الإسهام الصغير لتكريمه، حاولت أن أوضح كيف أن الأتراك قدروا دور ابن خلدون وأهميته في تدوين التاريخ الإسلامي.

7 Na'îma, (1281-1283/1864-1866) Tarij. Estambul, I, págs. 5-6. La propia versión de Na'îma, basada en Ibn Jaldún, acerca de las etapas de los Estados, en págs. 33-40; también utiliza el *Destur al-'amal* de Kâtib Çelebi.

8 *'Iful-Akhbar*. Estambul (1285/1868), págs. 32 y sigs.

9 Babinger, F. (1927) *Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke*. Leipzig, págs. 282-283.

10 Ibidem, pág. 379. La versión turca de la *Muqaddima* fue impresa en Bulaq en 1274/1857-1858 y en Estambul en 1275-1277/1858-1861.

11 Resmî, (1304/1886-87) *Viyana Sefaretnamesi*. Estambul, pág. 33.

12 Azmi, (1303/1885-1886) *Sefaretname 1205 Senesinde Prusya Krali Ikinci Fredrik Guillaumô In nezdine memur olan Ahmed Azmi Efendinindir*. Estambul, pág. 52.

13 De Sacy, S. *Chresthomathie arabe*, I, pág. 309

مشـــاهير معاصـــرون

ماريا لوبيز سانشيز
المعهد الإسباني – لشبونة

ترجمة محمود علي الخطيب

شهد القرن الرابع عشر ظهور عدد من الشخصيات ذات البصمة الثقافية في العالم، ولقد تزامنت تلك الكوكبة من الشخصيات المشهورة ليشكلوا معاصري العالم في نفس الوقت، وبمعنى آخر، تزامنت هذه الكوكبة مع وجود ابن خلدون (سواء كانت على اتصال به أم لا، أو كانت على علاقة مباشرة به أو غير مباشره أو كانوا على معرفه به أم لا)، وقد عزز ذلك وجود إطار من الاتفاق والتكامل بين اهتمامات وإسهامات المفكرين في هذا الزمن، ولكن يأتي هنا السؤال هل اتبعوا جميعا نفس الاتجاه نحو نتاج أدبي مشترك؟ أما يكونوا قد شكلوا نموذجًا في التفكير الإنساني الذي ساد القرن الرابع عشر والذي يعد استمرارًا وإضافة لذلك الفكر الذي ساد في القرن الثالث عشر؟ ولكن يعلو ذلك تساؤل آخر وهو لماذا وكيف استطاعت تلك الكوكبة من المفكرين (أو دعنا نطلق عليهم صحابة ابن خلدون) أن تضيء القرن الخامس عشر لتشكل ذروة عصر التنوير الأوروبي من خلال عمل دءوب لا يتوقف؟

داتني اليغياري، تفاصيل من مناظرة القربان المقدس لرافاييل Raphael.

واليوم قد نلاحظ التواصل بين الأفراد الذين عاشوا في القرن الرابع عشر الميلادي أو القرن الثامن الهجري، حيث تشاركوا المشاكل والحلول، والغموض والإيضاحات، والمصائب والرفاهية، والنجاحات والتحديات. ولقد أدركوا من خلال ذلك كيف يواجهون متناقضات الحياة بالروح البشرية المتفتحة والتي لها بصماتها في العديد من مناطق العالم.

وشكل ما اشترك فيه تلك المجموعة من المفكرين من أعمال أدبية – بذور الحضارة والروح الإنسانية التي منحت قوة جديدة للدفع انعكست على المجالات السياسية والأخلاقية وعلى الشغف لتحسين الحياة في هذا العالم مخلصين أنفسهم من تصور مرحلة ما بعد الحياة، وبالطبع انعكست على تنظيرات حالية للزمان والمكان وطرحت الأسئلة التي حتى ذلك الوقت لم يطرح إلا عدد قليل منها أو ربما انعدامها. ومن الجدير بالذكر صورة فجر الإنسانية في القرن الرابع عشر، وذلك لإبراز الإطار الثقافي المتعدد والمتنوع التكوين الذي كان يركز حول نقاط محورية في عالم هذا الوقت.

وتجتمع كل تلك الأسباب الدافعة والإنجازات الأدبية لهؤلاء المفكرين والتي ترتبط باكتشافات مباشرة وغير مباشرة وممرات زمنية غير ملحوظة حتى الآن؛ في أعمال ابن خلدون (1406-1332). وتشكل تلك الكوكبة من المفكرين بناء فكريًا متكاملاً مختلف الاتجاهات والمضامين ولكن ذا محور أدبي مشترك، وذلك من خلال مساهماتهم الأدبية والعلمية والثقافية؛ أو أي من أعمالهم الأدبية المختلفة. وهناك بعض الأمثلة عن تلك المواهب الأدبية المختلفة للفنون الجميلة والنبيلة ومنهم: رامون لول Ramón Llull (1315-1235)، وانج شيه-فو Wang Shih-fu، أو تي هسين Te-Hsin (1337-1250)، جيوفاني بيسانو Giovanni Pisano (1343-1250)، هنري دي مانديفيل Henri di Mondeville (1320-1260)، دانتي اليغياري Dante Alighieri (1321-1265)، جيوتي Giotto (1337-1266)، جين دي كوند Jean de Condé (1345-1275)، مارسيليوس آل بادو Marsilius of Padua (1343-1276)، بيترو لورنزتي Pietro Lorenzetti (1348-1280)، دون جوان مانويل Don Juan Mannuel (1348-1282)، سيمون دي مارتينو Simone di Martino (1344-1282)، رئيس رهبان هيتا Arcipreste de Hita (1350/51-1283) وليام آل اوكهام William of Ockham (1285-1349)، فيليب دي فيتري Philippe de Vitry (1361-1290)، جين بردان Jean Buridan (1298-1358)، جاليوم دي ماشوت Guillaume de Machaut (1377-1300)، جين دي ميرس Jean de Murs (1345-1300)، العمري (1349-1301)؛ بترارك Petrarch (1374-1304)، وانج-منج Wang Meng (1385-1308)، ابن مرزوق (1379-1311)، بوكاتشو Boccaccio (1375-1313)، ابن الخطيب (1375-1313)، نيكول آويرزم Nicole Oresme (1382-1320)، ابن خاتمة (1323-1369)، فرانسيسكو لنديني Francesco Landini (1397-1325)، ابن عباد الرندي (1390-1322)، بيدرو لوبيز دي ايالا Pedro López de Ayala (1407-1332)، جين فوريسرات Jean Froissart (1410-1333)، جوفري شوسر Geoffrey Chaucer (1400-1340)، كتالينا دي سينا Catalina de Siena (1380-1347)؛ بيتروس دي الاكو Petrus de Allaco (1420-1350)، فيسنت فيرر Vicente Ferrer (1419-1350)، القلقشندي (1419-1355)، جين كالير Jean Charlier (1363-

تصوير لرحلة رامون ليول الي بجاية كمبشر، منتمدة من Breviculum، مجمل أعمال رامون ليول لـ Tomás Le Myèser، الثلث الأول من القرن الرابع عشر، مكتبة جامعة Karlsruhe. Baden-Würtemberg.

1429)، كريستين دي بيزان Christine de Pisan (1363-1430) المقريزي (1364-1442)،..... وآخرون كانوا يعيشون أيضاً في ذلك العصر مثل رابي سيم توب Rabbi Sem Tob.

وقد اتسعت الاكتشافات نحو آفاق معرفية جديدة من خلال رحلات طويلة قام بها رحالة مثل: ماركو بولو (1254-1324): سير جون مانديفيل الذي كتب مؤلفاته في عام 1356 أو 1357، ابن بطوطة (1304-1377)، ري جونثالث دي كلافيخو (؟-1412).... ونعرض فيما يلي لبعض منهم.

ماركو بولو (1254-1324) لقد عادت عائلة بولو إلى آسيا عام 1271 وكان معهم في تلك المرة ماركو الصغير والذي اعتبر من أوائل الأوروبيين الذين وصلوا إلى الشرق ووصفه وصفًا دقيقا بمنتهى

ماركو بولو في حضرة الخان الأعظم، تفاصيل من مخطوط مزخرف من إلميليون (رحلات ماركو بولو)، حوالي 1410

الروعة؛ مصحوبًا بخرائط تجارية وهو ما حقق طموح رفقائه من مواطني البندقية في معرفة واكتشاف العالم.

بدأت هذه العائلة رحلتها بسفينة فوصلوا إلى مدينة عكا، ومن سوريا نظموا رحلتهم للذهاب إلى شمال الصين. وفي خلال هذه الرحلة عبروا عددًا من الأماكن التي حملت كل منها رمزًا ودلالة معينة، ومن تلك الأماكن: جبل آرارات بتركيا، وبغداد، والموصل، والخليج الإيراني، ومضيق هرمز، وكرمان، وبادخستان، وبامير، وكاشغر، ويرقند، وخوتان، وجوبي، وتانجوت، وفي النهاية التقوا بـ"قوبلاي خان" في مدينة زاندو.

ولقد أرسل قوبلاي خان؛ آخر سلالة عائلة جنكيز خان؛ ماركو بولو إلى شمال الصين، حيث تنقل الرجل الذي أتى من البندقية عبر مناطق مختلفة من الصين، حتى وصل إلى التبت وتمكن خلال هذه الرحلة من الحصول على معلومات وأخبار عن اليابان. وفي عام 1292 عادت عائلة ماركو بولو بالسفينة إلى السواحل الإيرانية في رحلة بحرية استمرت عامين، مرورًا على عدد من الأماكن ومنها جزيرة سومطرة، وسري لانكا، وجنوب الهند. ثم عادوا إلى البندقية عام 1295 مرورًا بـ: تبريز، وطرابزون، وإسطنبول.

وفي عام 1298 صدر مقال بالفرنسية تحدث عن هذه الرحلة تحت عنوان "وصف العالم" وضع لمساته الأخيرة الكاتب المعروف "رستشيلو"؛ وهو أيضًا الذي تبنى تسمية الكتاب الذي يتحدث عن رحلات بولو، والذي يحمل اسم "إلميليون" نسبة إلى اسم عائلة ماركو بولو، حيث أطلق عليه "كتاب عجائب الدنيا" بناء على ما تضمنه هذا الكتاب من روايات ذات طابع تأثيري كبير. ولقد حقق هذا الكتاب نجاحات كبيرة ليس فقط استحقاقًا لما يحويه من مكونات وبيانات ولكنه أيضًا عبر عن تجسيد واقعي لتحقيق رغبة الاكتشاف والمعرفة التي سادت القرن الرابع عشر.

دانتي اليغياري (1265-1321) بدأ اليغياري كتابة ملحمته الخالدة "الكوميديا الالهية" حوالي عام 1307 وانتهى منها بعد مرور 14 عامًا، وبعدها توفي. ولقد ساعدته قدراته الاستكشافية -وهي السمة المميزة للكثير ممن عاشوا في هذا القرن- على إنجاز رحلة مفصلة إلى الجحيم، والمطهر، والفردوس. وفي وصف هذه الرحلة قدم صورًا وتحليلات للمتغيرات العامة والخاصة؛ للقوة والإيمان؛ لممارسات متنوعة؛ للمعرفة؛ للأخلاقيات والأحاسيس في العالم: العالم الخفي والكون المحسوس.

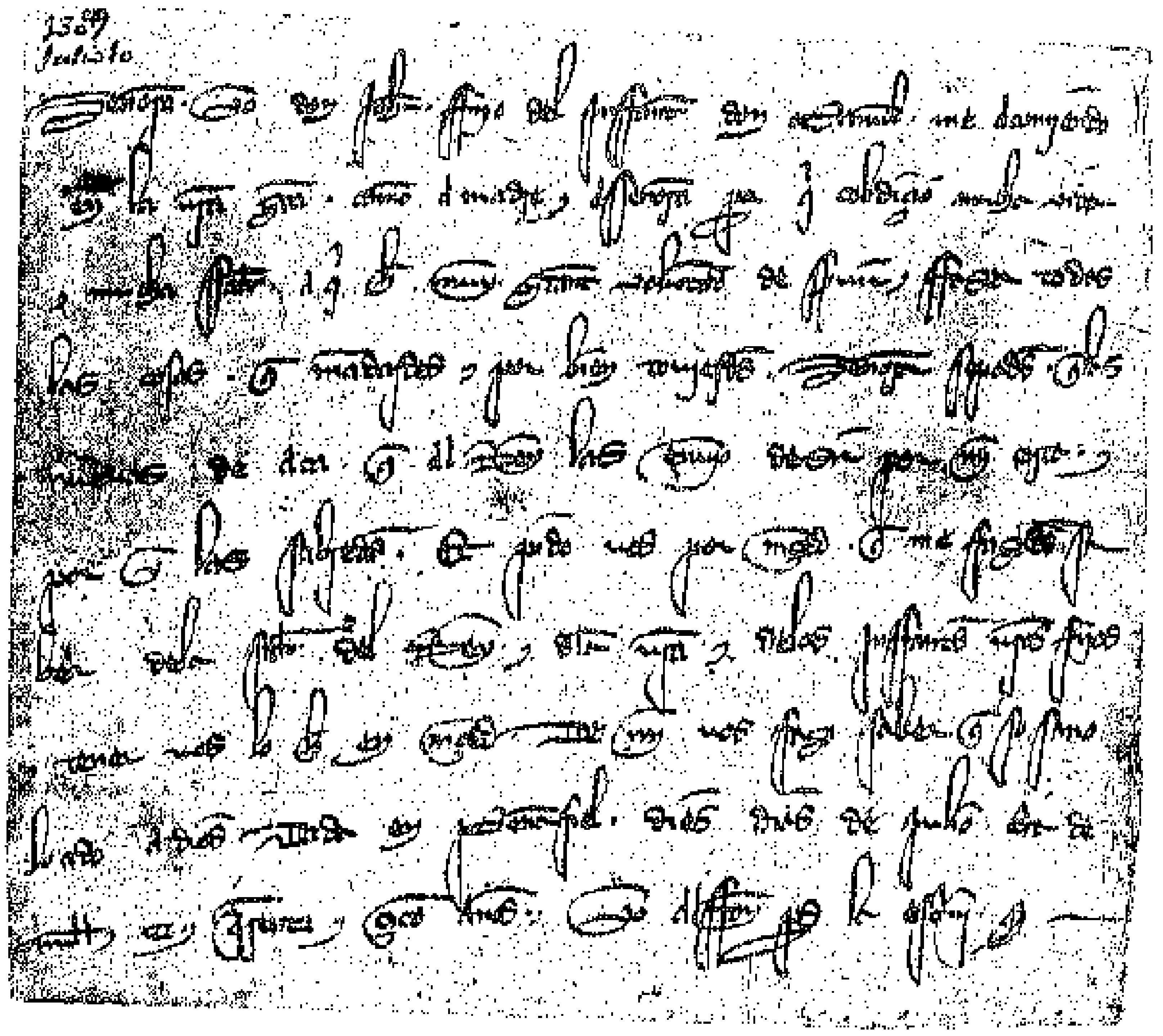

وبناء على هذا، فإن رحلته هذه تعد محاولة حقيقية لتوضيح حياة الإنسان، استنادًا إلى كل الاستكشافات والمواد العلمية الهائلة التي تم جمعها بواسطة علماء اللاهوت، والفلاسفة، والكتاب بمختلف عقائدهم وعصورهم، والتي لم يكن لها أهمية تذكر حتى استطاع دانتي أن يجمعها في بحث شامل محدد عن نظام الكون. واللافت للنظر هو ميله الشديد لاستغلال كل شيء في النطاق البحثي بما في ذلك التفسيرات والأفكار الإسلامية المتعددة ومنها الإيمان بالآخرة (البعث والحساب)، ولقد تمت ترجمة أجزاء من هذه الأفكار إلى اللاتينية، والإسبانية والفرنسية في عهد "ألفونسو العاشر".

ولقد قاده الشاعر "فرجيليو" في رحلته إلى الجحيم والمطهر، حيث مثل هذا الشاعر الرفقة الضرورية لتجسيد عناصر التعقل والسلطة المدنية؛ كما صاحبته "بياتريش" إلى الفردوس حيث تجسدت عناصر الإيمان والسلطة الدينية.

أعلى، خطاب من إنفانت درن خوان مانويل إلى المملكة دونا بلانكا دي أراغون، بنفيل Peñafiel، اليوم العاشر من شهر يوليو 1307، المكتبة الوطنية، مدريد.

أسفل، بترارك.

وهي الطرق الأربعة المؤدية إلى الله، أو القوة الكامنة وراء كل شيء. ولقد كانت فكرة دانتي عن نشأة الكون هائلة في بنائها وفي رمزيتها، حيث تقوم على فكرة احتلال الأرض مركز الكون في إطار تقليدي يقترب من نظرية كوبرنيكس، حيث تلعب الأماكن دورًا جغرافيًا، وآخر رمزيًا. وبناء على ذلك فإن كل شيء منظم ومستقر في انتظار اتساع جديد للأرض:

مثل المهندس
المراقب الذي يحاول قياس الأرض.[1]

ومن بين العديد من أعماله، لنذكر أفكاره السياسية في كتابه "الملكية"، والذي دافع فيه عن السلطة المدنية ضد سلطة مجتمع رجال الدين، وهي الأفكار التي تتناسب مع الميول العلمانية التي سادت هذا القرن.

مارسيليوس آل بادو (حوالي 1276-1343) هو فيزيائي، وأستاذ بجامعة باريس، وعالم ديني انتقائي متأثر بذكريات الماضي، دافع هو الآخر عن فكرة القوة المدنية في مؤلفه "المدافع عن السلام" والذي مازال حتى يومنا هذا يلفت انتباه النقاد السياسيين في بحثهم عن التطور الديموقراطي في أشكاله المختلفة.

ولقد تبع ويليام آل أوكهام (1285-1349) نفس النهج، وهو راهب منضم إلى فرقة الفرانسيسكانين، حيث أجبره دعمه للإمبراطورية في مواجهة البابوية للجوء إلى بلاط لودويج الثاني حاكم بافاريا. وفي اتباعه للمذهب الاسمي تخطى حدود مفاهيم الفلسفة النصرانية التي كانت سائدة في العصور الوسطى حيث تبنى مذهب يسمى بالفلسفة الأرسطوطية الجديدة.

دون خوان مانويل (1282-1348) إن الأفكار والانعكاسات السياسية لهذا الأمير القشتالي شديدة الأهمية بالنسبة لقرن حافل بالاضطرابات، شهد تغيرات كثيرة في مفهوم السلطة وشروطها ولقد شحذ الدون خوان مانويل شهيته للكتابة بتلخيص كتاب cronica general de espana أو التاريخ العام لإسبانيا، والذي كتبه عمه الملك ألفونسو العاشر الذي عُرف بالحكيم أو العالم. واستمر الدون خوان مانويل بعد ذلك في وضع خلاصة أفكاره التعليمية والأخلاقية في كتبه التي حملت عناوين: كتاب تاريخ الدول، وكتاب الفارس والدرع وكتاب الأمثال للكونت لو كانور وبترونيو.

ولقد كتب هذا الكتاب الأخير قبل دي كامرون بوكاتشيو بثلاثة عشر عامًا، ويتكون من مجموعة مختارة من القصص المليئة بالعالمية والأسئلة التي تتعلق بالحياة اليومية والجزء الأسمى من الحياة الإنسانية.

1 Dante, La Divina Comedia. Traducción De Cheste, C. (1999), (ed.) J. Golaechea, Madrid; 4ª ed., 2003, canto XXXIII, versos 133-134.

١
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على مولانا وسيدنا محمد
قال الشيخ الإمام أبو عبد الله
محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم
اللواتي الطنجي المعروف بابن
بطوطة رحمه الله
الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا وجعل
منها واليها تاراتهم الثلاث نباتا وإعادة وإخراجا دحاها بيمن القدرة
فكانت مهادا للعباد وأرساها بالأعلام الراسية والأطواد ورفع فوقها
سمك السماء بغير عماد وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر وجعل
القمر نورا والشمس سراجا ثم أنزل من السماء ماء فأحيى به الأرض
بعد الممات وأنبت فيها من كل الثمرات ونوع أقطارها بصنوف
النبات وفجر البحرين عذبا فراتا وملحا أجاجا وأكمل على خلقه
الإنعام بتذليل مطايا الأنعام وتسخير المنشآت كالأعلام ليمتطوا
من صهوة القفر ومتن البحر الأثبج فصلى الله على سيدنا
ومولانا محمد رسوله الذي أوضح للمؤمنين النجاة وسطع
نور هدايته وقلنا بعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتما
للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس
في دين الله أفواجا وأيده بالمعجزات الباهرات وأنطق بتصديقه

مخطوط العمل الهادي للمراقبين للتعامل مع الأشياء الغريبة للعواصم وروائع السفر لابن بطوطة، غير مؤرخ، المكتبة الوطنية – مدريد.

رئيس رهبان هيتا (1350/51-1283) تم إهمال هذا الكاتب، رئيس رهبان هيتا، أطلق عليه أميريكو كاسترو لقب "الراهب المسلم"، ولكنه يذكر لعظمة أسلوبه الفريد الظاهر في كتابه الوحيد الباقي كتاب الحب الصادق، حيث يبحث أرثيبراستي دي هيتا في إنسانية الحب– الذي أطلق عليه اسم الشيء الإنساني بواقعية صلبة. من الجدير بالملاحظة، طلبه من قرائه في مقدمة كتابه أن يبحثوا عن الدروس الكامنة في عمله، من خلال إظهاره للرغبة في التحقيق في المسائل الأخلاقية، والجنسية، والدينية، وتجاورها، وهي من أحد علامات القرن. وكما قال هو، إن الهدف من كتابه هو التعليم، وبالتالي، بالأحرى أن يقول كتابي هذا لكل رجل و امرأة:"إني أقدم لكم الفهم".

بترارك (1374-1304) قادما من توسكاني– محل مولده – تمكن بترارك من إضاءة شعلة الحركة الإنسانية في الجزء الأول من عصر النهضة الأوروبية، حيث سمت قصائده الرومانسية بشخص المحبوبة، وبالتالي بالروح الأنثوية، في أولى المحاولات الناجحة لاستغلال الأسلوب الجديد في الكتابة الذي عرف بـ dolce stil nuovo. كان بترارك قد أعلن عن كونه مناهضًا للعرب، حيث إنه لم يسمح لأي من العلوم والآداب العربية أن تتدخل في محاولاته لإعادة جمع الكلاسيكيات الإغريقية والرومانية، إلا أن دور العرب لا يمكن إنكاره، في حال ما إذا لم تمتص الثقافة العربية المعرفة القديمة وتتوسع فيها، ناقلة إياها، بنجاح إلي أوروبا، لما اضطر بترارك إلى اللجوء لإجراءات يائسة للمحاولة من حد تأثير الثقافة العربية. وقد جاء إعلانه عن اعتقاداته المناهضة للعرب في رسالة إلى جيوفاني دوندي في عام 1370، حيث أبدى اعتراضه الشديد ضد الطب العربي بصورة خاصة levata al cielo nella estimazione dei medici d'Italia e di Francia والثقافة العربية بصورة عامة indignato del eccessiva fama che faceva anteporre gli autori arabi ai venerati suoi classici. ميول فرانسيسكو تلك أدت إلى افتتاح أوروبا العصور الوسطى التي شرعت في البحث عن الصلات المباشرة مع الثقافة اليونانية والرومانية، وأيدت تلك الثقافات بأي ثمن، حتى على حساب الدلائل الواضحة. تلك هي الرغبة العارمة التي تمثل عصر النهضة. نذكر بين أعمال بترارك –أفريقيا– بالإضافة إلى حداثة اهتماماته والتحقيق الأخلاقي الظاهر في كتابه De viris illustribus.

ابن بطوطة (1304-1377؟) ولد ابن بطوطة في طنجة وعاد ليقضي نحبه في المغرب، بعد ما كان قد قام بالترحال حول العالم بلهف لا يهدأ، زائرًا لأماكن زارها من قبل في بعض الأحيان ومقيمًا لفترة تصل إلى شهور في أحيان أخرى. من شمال أفريقيا إلى مصر ثم سوريا ثم مكة، والعراق، وخوزستان، وفارس، وتبريز، وبغداد، وسامراء، والموصل، ثم إلى بغداد مرة أخرى ثم إلى الجزيرة العربية؛ والبحر الأحمر، واليمن، وعدن، وسيلان، ومقديشو وشرق أفريقيا ثم عمان والخليج الفارسي ثم العودة لمكة ثم مصر مرة أخرى؛ وآسيا الصغرى، وإسطنبول، ثم ترانسكانيا Transoxania، وأفغانستان، ثم زار الهند، ونيودلهي، وجزر المالديف، وسيلان؛ ثم عاد إلى جزر المالديف، وبنجلاديش، وأسام، وسومطرة، وميناء شوان

2 Gabrieli, F. (1977) «Petrarca e gli Arabi», Al-Andalus, XLII, pág. 243.

شو الصيني، وسومطرة، وجزر المليبار، والخليج الفارسي، وبغداد، وسوريا، ومصر، ثم مكة مرة أخرى، ثم مصر من الإسكندرية إلى تونس عن طريق البحر ثم وقف في سردينيا ثم عاد إلى فاس عبر الجزائر العاصمة. بعد فترة، سافر إلى الأندلس وبعد عودته إلى المغرب، رحل إلى سجلماسة، والصحراء الكبرى، والنيجر ثم عاد إلى سجلماسة. وكان كل ذلك في الأعوام ما بين (1325-1353). هذا وكتب الغرناطي ابن جزي: الرواية الدقيقة والمفصلة للأناس والأماكن العديدة التي زارها ابن بطوطة تحت عنوان "رحلة ابن بطوطة."

بوكاتشيو (1313-1375) يشكل بوكاتشيو مع دانتي وبترارك ثلاثيًا بارزًا، بالإضافة لوقوعه تحت تأثيرات مطابقة وتوجيهه لإعجابه في نفس الاتجاهات. بوكاتشيو أيضا غزير الإنتاج: وبعض من أفضل أعماله هي: التيسيدا .The Teseida، The Amorous Vision، رسالة في مدح دانتي، Filostrato, Filostrato ' The Love Struck'، بالإضافة إلى أبرز أعماله: الديكامرون "The Decameron" بدأ بوكاتشيو في كتابة "The Decameron" في عام 1384، وهو العام المعروف بعام الموت الأسود ويمثل الخلفية الرهيبة للكتاب، وانتهى منه في عام 1353. ويتجسد في هذا الكتاب حياة الإنسان اليومية وانفعالاته وآلامه؛ حيث يواجه بوكاتشيو الإنسان بحدوده الجسمانية وبضخامة مخاوفه. في وسط القرن الرابع عشر الحرج، يقدم الكتاب شهادة لكيفية تخلص الناس من مخاوفهم والاستمتاع بالفرحة الشديدة، السريعة الزوال المتمثلة في القصص التي يرويها الشخصيات السبع النساء والشخصيات الثلاث الرجال، وأيضا في المجتمع المعروض والذي يمثل العالم أجمع، رغم أنه متأصل في توسكاني.

جيوفاني بوكاتشيو: تصوير من عمل أندريا ديل كاستاجو، من أواسط القرن الخامس عشر، معرض أوفيزي - فلورنسا

ابن الخطيب (1315-1375) بالرغم من كون هذا العلامة الغرناطي صديقًا مقربًا لابن خلدون، فإنه كان يحقد عليه بسبب نجاحاته في مجالي السياسة والثقافة، وهي نجاحات كانا كلاهما يسعيان من أجلها. ففي مجال السياسة: كان ابن الخطيب قد صعد إلى أعلى مراتب السلطة في أعالي قصر الحمراء، إلا أنه بدءًا من العام 1340، تعرض إلى معاناة الخيانة، والنفي، وحتى الموت. فقد قتل ابن الخطيب بعد أن تابعته الاتهامات الباطلة حتى وصل إلى فاس. تولى ابن الخطيب كتابة عمل شامل ومتعدد الوجوه بأسلوب شديد الجمال مركزًا على معالجة الموضوعات السياسية والنفسية، بالإضافة إلى تسجيلاته التاريخية، والتي تركز بعضها حول غرناطة. وقد كتب ابن الخطيب أيضا عن أسفاره في الأندلس والمغرب، بالإضافة إلى السير الذاتية المصحوبة بقوائم مؤلفات الكاتب (bio-bibliographies)، كتب من المختارات الأدبية، والرسائل الشخصية والرسمية وبعض الوثائق القضائية، وكتابًا واحدًا حول الروحانية، والعديد من القصائد... ليس هذا فحسب؛ فقد كتب ابن الخطيب أيضا رسائل طبية، منها رسالة تحتوي على طريقة فريدة في فهم النظم الغذائية والطبيعة الإنسانية، وقد أهداه إلى الملك محمد الخامس (الوصول لحفظ الصحة في فصول)، ورسالة أخرى حول انتشار وباء الطاعون (1348-1349). يمثل ابن الخطيب إذًا، قمة الفضول والرغبة في معرفة كل شيء من أجل التحكم في نفسه وفي ما هو حوله.

السير جون ماندفيل من المحتمل أن يكون السير جون ماندفيل إنجليزيًا[3]، بدأ رحلته من إنجلترا عام 1322، سافر ثم عاد ليكتب حول رحلاته – حقيقية كانت أم خيالية– في 1356 أو 1357 عمله، وعنوانه The Travels of Sir John Mandeville، وهو موسوعة من الغرائب التي نزلت برجل هو في الأساس وهمي، في طريقه من أوروبا إلى الهند، مارًا بسوريا، ومصر، وإثيوبيا، وإسطنبول، وبلاد الفرس.. إلخ، وحسب زعمه، حول العالم. لأن الكتاب كان يعرض صورة باهرة أكثر منها حقيقية للاكتشافات التي كانت على وشك أن تحدث، فقد لقي نجاحًا كبيرًا في أوروبا القرن الرابع عشر. ففي هذا الكتاب نقرأ "يستطيع الإنسان أن يبحر حول العالم"، لأن "الأرض والبحر هما على شكل دائرة" لقد شهدنا أهمية مثل تلك البيانات الكوزموغرافية القادرة على إحداث تأثير فائق. ونجد بين سماته الكوزموبوليتانية تقبله لأدب الرحلات وهو نوع أدبي عربي الأصل، مما يثري محتوى ومفردات كتبه: "إن الأصل العربي للمفردات غير المألوفة التي تذخر بها كتابته، هو الذي يترك انطباعًا قويًا."

جيفري تشوسر (1400-1340) بعيدًا عن الاستثناءات البديهية، فإن تشوسر أيضا يمثل الاندماج بين ما هو ديني وما هو علماني، الشريف وغير الشريف، التقي وعديم الأخلاق، لأنه كان أحد الأشخاص الذين ظهروا في نهاية القرن الرابع عشر والذين اختصروا الحدود وأرادوا أن يبحثوا ويحققوا في العالم بأثره. ويتكون حكايات كانتربري من سيرة ثلاثين شخصية من لندن إلى كانتربري. تحكي الشخصيات، في الطريق القصير والذي يمثل –رغم قصره– معاني رمزية عميقة، وحكايات تمثل الواقع الإنساني بعمق ينفي التمثيل العام، وهو بالضبط ما يحقق فيه تشوسر: الحياة، والمجتمع، والأخلاقيات، والموت. ولا يستهان بالخصائص الأدبية لهذا الكاتب الذي أطلق عليه لقب "أبو الشعر الإنجليزي"، ولا علمه الواسع أو صلاته بباقي أوروبا، حيث إن رحلاته حول إيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا تثبت أن السفر يوسع آفاق الإنسان، إلا أن، من أجل أن تعرف ذاتك حقا، لابد وأن تعود وتنظر إلى العمق. الأعمال الكبرى الأخرى تضم (كتاب الدوقة) و(ترويلس وكريسيدا) وإطروحة الإسطرلاب، المبنية على كتاب بوكاتشو "Filostrator".

كريستين دي بيزان (حوالي 1363– حوالي 1430) ولدت كريستين دي بيزان في البندقية، ونشأت بجوار والدها توماس دي بيزان، الطبيب والمنجم في بلاط الملك شارل الخامس، مثل معظم النساء اللاتي عرفن باهتمامهن المتركز في العلم والأدب. بعد أن صارت أرملة في سن التاسعة والعشرين، قررت أن تكرس حياتها لكتابة، وهو الأمر الذي فعلته بطريقة قوية. شعرها القصصي وقصائدها الطويلة، كتابها: رسالة إلى من يحب الله، وكتاب مدينة السيدات، وكتاب المزايا الثلاث، وكنز مدينة السيدات، وأعمال أخرى. في تلك الأعمال تجادل دي بيزان ضد ظلم وإهانات الرجال للنساء ومساندة للمرأة بروح قتالية عالية مرتبطة بخبراتها السياسية في الكتاب الذي أنتجته في نهاية حياتها Le ditié de Jehanne d'Arc. يظهر عمق أفكارها الأخلاقية والسياسية في كتابها "الأفعال والأخلاق الحسنة لحكمة الملك شارل الخامس، وفي كتاب يضم أفكار حول الحكام، وكتاب السلام.

دمية جيفري تشوسر من مخطوط مزخرف، متحف فيكتوريا وألبرت، لندن.

أعلى، النسخة الإسبانية لرحلة جون دي ماندفيل، طبعة بلنسية، 1533.

المقريزي (1442-1364) هو مصري الجنسية، ولد لعائلة متعلمة من أصل سوري، فتلقى تعليمًا متقدمًا استغله أحسن الاستغلال في المناصب الإدارية والأكاديمية التي تولاها. كرس المقريزي نفسه بصورة أساسية للأعمال التاريخية واسعة التأثير، متأثرًا بأستاذه ابن خلدون. أهم أعماله هو كتابه عن مصر المسمى بـ"المواعظ" الذي يعطي فيه تفاصيل دقيقة بخصوص القاهرة والإسكندرية. يأتي بعد ذلك تأريخه للعصور: الفاطمي والأيوبي والمملوكي؛ بالإضافة إلى كتابه "الأخبار" الذي يصل فيه إلى معنى للتاريخ يقارب ذلك الذي وصل له ابن خلدون، وهو يدل على تأثره بالاهتمام بالعوامل الاقتصادية. توسع المقريزي في رسالة حول الجغرافيا، وسير الحياة، (منها سيرة للنبي)، وبعض الدراسات القصيرة (مونوغراف) حول موضوعات متعددة، منها الفروق بين الأمويين والعباسيين، وملوك إثيوبيا، والأوزان، والمقاييس والعملات، والمجاعات والأسعار، العناصر المعدنية، والنحل والمسائل الدينية. توقه الشديد إلى المعرفة يمتزج مع تحليلاته شديدة العمق، مما يجعل منه أحد أبرز مؤرخي عصره، بل إنه منافس لبعضهم، مثل ابن حجر والعيني.

3 Pinto, A. (2005) Mandeville's travels: a rihla In disguise. Madrid, pág. 51 y nota 12.

كريستيان دي بيزان تقدم عملها إلى الملك شارل الخامس ملك فرنسا، منمنمة من أواخر المخطوطات المتوسطية، المكتبة الوطنية، باريس.

خاتمة

بقدوم ابن خلدون ومعاصريه، يشهد التغير الفكري والفني بعض التغيرات، حيث تبدأ معالم الحركة الإنسانية في الظهور، بينما يبدأ عصر النهضة الأول وينتشر بادئًا من إيطاليا.

العالم، في ذلك الوقت، هو على وشك أن يفتح على مصراعيه من ناحية الشرق (وإلى حد ما من الغرب أيضا) عن طريق التلاقي بين أناس كان يفصل بينهم فاصل مادي، بالإضافة إلى الجهل، وهما عقبتان يتم الآن التغلب عليها من خلال الرغبة في الترحال التي نجدها في كل الأشخاص الذين تطرقنا إليهم في هذا المقال، إذا استثنينا الحالات التي ذكرناها. لنتذكر(للاستشهاد بمثل آخر)، إن بترارك قام برحالات حول إيطاليا، وألمانيا، وهولندا، وفرنسا. إن محل ميلاد ومحل وفاة تلك الشخصيات كانا في معظم الأحيان مكانين مختلفين، وفي بعض الأحيان، شديدي البعد عن بعضهما.

هذه هي الطريقة المثلى التي يحدث بها التبادل المعرفي، ليس بين الأديان السامية الثلاث فحسب، بل أيضا في العناصر المختلفة التي تشكل الماهية اليهودية والماهية العربية التي تمتص الثقافة العربية، التي بدأت منذ القرن الرابع عشر بتقبل الروح الإغريقية والرومانية الكلاسيكية.

يتم الاستطراد في الأعداد واسعة الأثر بهدف توسيع دائرة البحث. لا يحسب لهم التقدم الناتج فقط، بل أيضا الحماس الذي يدفع اكتشافاتهم مما يؤدي إلى توجيه الفيلسوف وعالم الرياضيات نيكول أويرزم Nicole Oresme، الحاصل على درجتي الدكتوراة من جامعة باريس: التحول الفرنسي نحو أرسطو، ويتناول المسائل الاقتصادية المتعلقة بطبيعة العملة وتذبذباتها بينما يبحث في أسئلة فلكية وفيزيائية جديدة.

ثلاثة أمثلة من الرحلات تثبت لنا أساليب جديدة تسمح لنا بالدخول لعوالم مخفية وفوق هذا وذاك، تضع الأساسات التي تؤدي إلى تعزيز وتفعيل الاستكشافات عبر المحيط الأطلسي والرحلات البحرية حول العالم. المسافة البعيدة التي سافرها بولو ومانديفيل وابن بطوطة في اتجاه الشرق مكنتهم من معرفة ونشر أخبار الشرق المتاخم، وبالرغم من أن تجارب ابن بطوطة لم تعرف في أوروبا حتى القرن التاسع عشر، فإن البحارة العرب كانوا أيضا في حالة بحث مستمر عن الاحتمالات الجديدة. على عكس حال ابن بطوطة، كان للرحلات الطويلة والصعبة التي قام بها بولو ومانديفيل صدًى واسع في أوروبا، يخبرنا فرناندو كولون عن والده الأميرال، أن أحد دوافعه كانت "ما يقوله الكتاب...فيقول لنا ماركو بولو وفينتيان Venitian وسير جون مانديفيل في كتابه "الرحلات،" أنهم تجاوزوا الشرق الذي وصفه بطليموس ومارينو، ورغم عدم ذكرهم للبحر الغربي، فإن وصفهم لشرق يسمح بتجاور الهند مع أفريقيا وإسبانيا".

بوجه عام، من الواضح أن الأوجه الفائقة المتعلقة باستكشاف العالم قد تجسدت في أحداث القرن الرابع عشر.

4 Tibbetts, G. R. (1971) Arab navigation in the Indian Ocean before the coming of the Portuguese. Londres, reimpr. 1981.

5 Historia del Almirante de las Indias Cristóbal Colón, México, 1958, págs. 32 y 35.

إشبيلية في القرن الرابع عشر

إشبيلية في أوائل العصور الوسطى

مانويل جونثالث خيمينث
جامعة إشبيلية

ترجمة حاتم الطحاوي

يعد القرن الثالث عشر من الفترات الحرجة في تاريخ إشبيلية الطويل. ويعتبر في واقع الأمر دليلاً على انهيار النظام السياسي والثقافة وبداية تأسيس مدينة جديدة على مستوى بنيتها الداخلية والأساسية. وترجع هذه القطيعة عن الماضي القريب إلى فتح المدينة على يد فرناندو الثالث، ملك قشتالة وليون في 23 نوفمبر سنة 1248. بالإضافة إلى اكتمال غزو الوادي الكبير بعد مرور ربع قرن. ولم يستمر تأثير العواقب لفترة طويلة؛ إذ وقعت شريش ومقاطعتها وربما مملكة لبلة Nieble تحت سيطرة ملك قشتالة الذي اعترف به ملوك المسلمين بمرسية وغرناطة فيما مضى حاكمًا عليهم. وعلى فراش موته، استطاع الملك فرناندو أن يخبر ابنه ألفونسو العاشر أنه قد خلف له من بعده جميع الأراضي التي احتلها المسلمون في إسبانيا (تم غزو بعضها وفرضت الجزية على الأخرى).

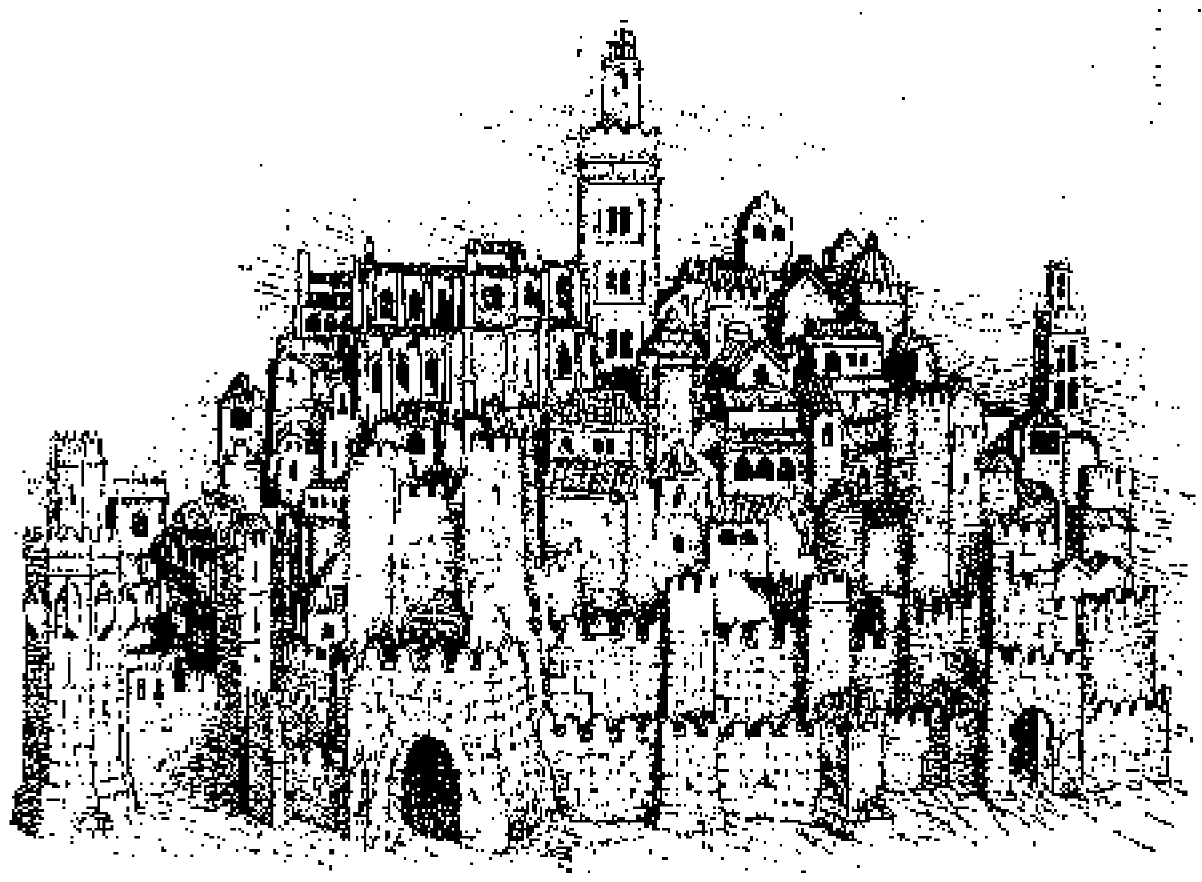

إشبيلية في القرن الخامس عشر، طبقًا لرسم منقة على المذبح الرئيسي للكاتدرائية.

لم يكن غزو الأندلس بواسطة قشتالة مجرد إنجاز عسكري. فقد ظهر تأثيرها الواضح في الإحلال التدريجي للسكان الأصليين من كل الربوع، بواسطة السكان المسيحيين من كافة الأنحاء. وكما فعل ابن خلدون، المؤرخ التونسي الذي ولد بإشبيلية، فإن هجرة المسلمين بأعداد كبيرة أتاحت لنا التحدث عن هجرة كبرى أو ترحيل قسري للسكان بشكل عام أعقب غزو جميع المدن الكبرى والبلاد في الأندلس. وفي مثل حالة إشبيلية والاستيلاء عليها، فإن تاريخ إسبانيا Estoria de España أو حولياتها الرئيسية الأولى تم تدوينها بأمر من ألفونسو العاشر ولذلك فإن السرد السليم للأحداث يروي مدى الحاجة وراء مطالبة المسلمين المقيمين بإشبيلية بإخلاء المدينة وتسليمها لفرناندو الثالث اختياريًا وبصورة عاجلة. وبعد هدنة دامت شهرًا منحها الملك لبيع الأمتعة التي لم يستطيعوا حملها معهم، اتخذ مسلمو إشبيلية طريقهم إلى حيث منفاهم في شمال أفريقيا أو إلى شريش وغرناطة المجاورتين.

ولهذا السبب يعتبر الفتح ثم هجرة المسلمين ورحيلهم حدثين تسببا في تغير حال المنطقة، وبالطبع قشتالة. وكان السبب الحقيقي في تجديد جميع الأنظمة الأساسية للمدينة هو استيطان سكان جدد بها وإعادة أعمارها.

إننا نعلم جيدا ما الذي حدث في إشبيلية. وأعني بذلك العملين العظيمين اللذين لا يزالان، بالرغم من مرور الوقت، نقطتي تحول في مسيرة التاريخ لإشبيلية؛ إشبيلية في القرن الثالث عشر Sevilla en el siglo XIII (مدريد سنة 1913) لأنطونيو باليستيروس بيريتا، فضلا عن تقسيم

منظر لمدينة إشبيلية ونهر الوادي الكبير وبرج الذهب.

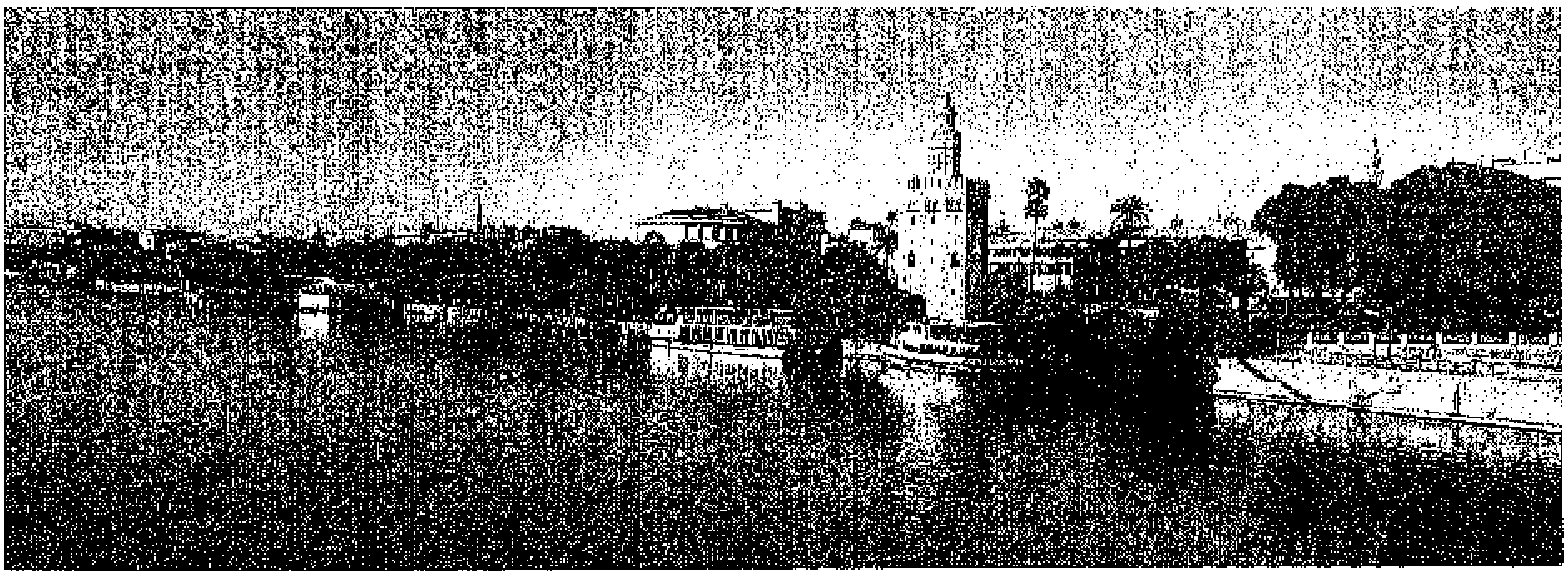

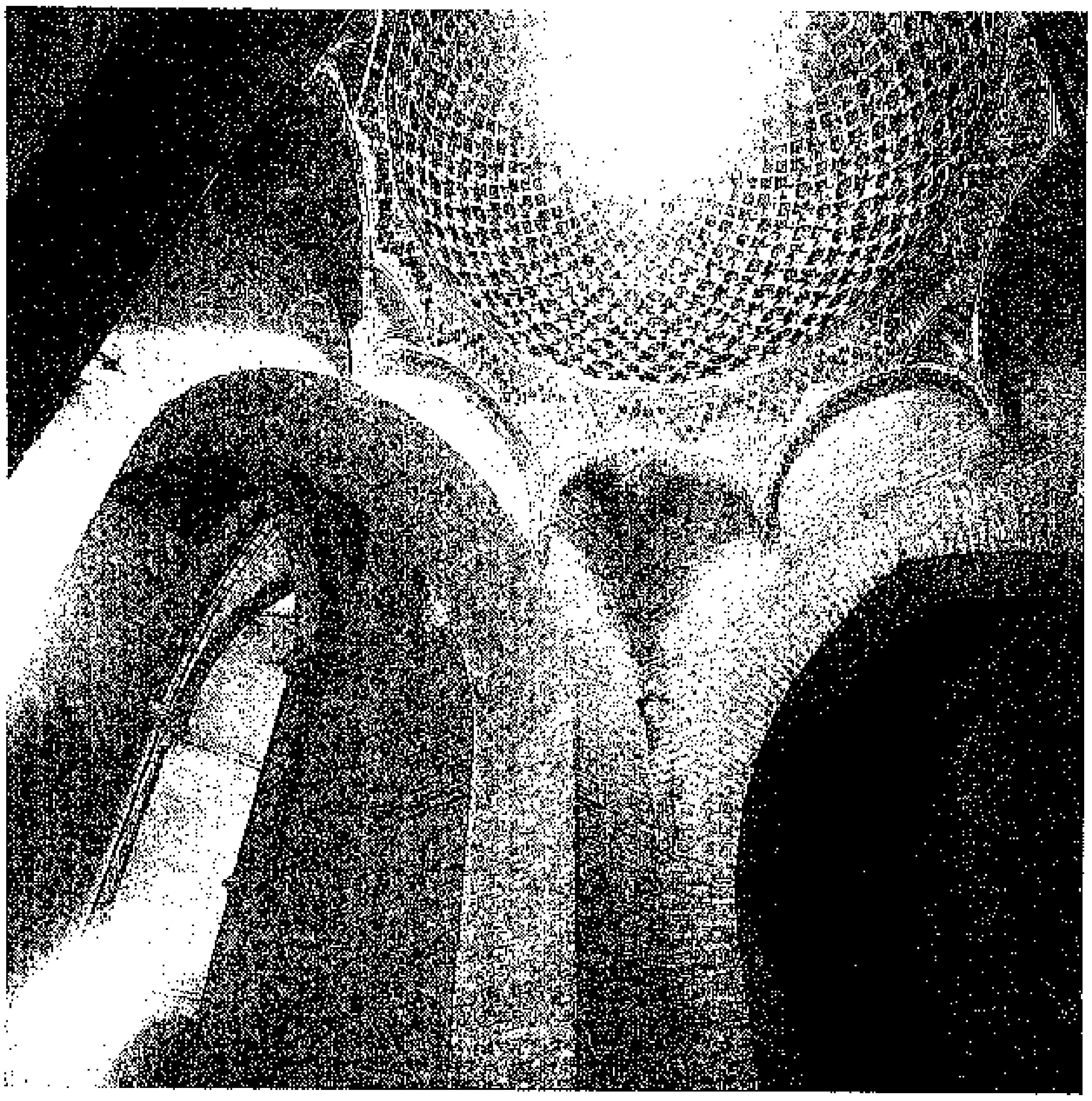

قبو مدجني في مصلى لا بيداد La Piedad في كنيسة سانتا ماريا.

إشبيلية Repartimiento de Sevilla (مدريد سنة 1913) لخوليو جونثالث. ويعتبر العمل الثاني هو كتاب رائع نستطيع من خلاله التعرف على الأوضاع الحقيقية لمدينة إشبيلية الجديدة التي نشأت بعد غزو فرناندو الثالث سنة 1248 وإعادة تقسيم كامل الأراضي والمنازل التي اكتملت في سنة 1253 عندما أمر ألفونسو العاشر بتقسيم الأراضي لصالح المستوطنين المسيحيين الذين جاءوا من جميع أنحاء المملكة وشبه الجزيرة الأيبيرية، وحتى من الدول الأوروبية الأخرى.

وكانت الجماعة المهيمنة بالطبع هي تلك التي شكلها القشتاليون القدماء (الليونيون، والقشتاليون الجدد) وبالأخص الذين جاءوا من منطقة طليطلة. بل وقد شكلت جماعات أخرى من جميع أنحاء المملكة، من جليقية، وأشتوريا، وكانتابريا Cantabria، وبلاد البشكنس، واكستريمادورا Extremadura، وحتى من قطلونية، دون الإشارة إلى المجموعات الأجنبية (مثل الإيطاليين، والجنوية الذين مثلوا العدد الأكبر، والفرنسيين، والبرتغاليين) التي يجب أن يضاف إليها أقليات دينية من المسلمين واليهود. وقد أثر التنوع العنصري الأصلي في سكان إشبيلية على أوضاع هذه المدينة التي أصبحت منذ ذلك الوقت مدينة كوزموبوليتانية، منفتحة على كافة الثقافات.

وظل النمو السكاني للمدينة بعد التقسيم حتى أواخر القرن الرابع عشر سنة 1384 غير ملحوظ تقريبًا عندما طبق نظام التعداد القديم والمتعارف عليه حتى الآن. ماذا حدث في القرن الذي وقع بين رحيل ألفونسو العاشر وتطبيق نظام التعداد السكاني؟ إنه لا يمكن عمليًا رصد النمو السكاني على مدار هذا القرن. وعلى الرغم من ذلك، هناك بعض الحقائق الهامة بشأن ذلك الموضوع، نهاية أو انقطاع وصول مستوطنين جدد، والآثار السلبية الناتجة عن حرب الحدود التي استمرت حتى سنة 1350، والآثار السلبية للعجز والأوبئة التي أصابت المدينة فيما بين عامي 1300 و1383.

وأيًا كانت الأحداث، فإن الحقيقة تكمن في أن تعداد السكان سنة 1348 يوضح لنا الصورة المدمرة التي كانت عليها مدينة إشبيلية جراء الآثار الناجمة عن الأوبئة التي حدثت مؤخرًا، وقد كان تعداد إشبيلية لا يتجاوز 15.000 نسمة، وتلك هي الصورة التي كانت عليها في بداية إعادة الاستيطان الأول. كان لابد أن تتغير حالة الانخفاض هذه تغيرا جذريًا بدءًا من أوائل القرن الخامس عشر كما بينت الدراسات الإحصائية لتعداد إشبيلية التي قام بها إيه كولانتس تيران. وفي غضون هذا القرن، كان التقدم الذي شهدته إشبيلية واضحا بالرغم من عدم توحده حيث كان ملحوظًا في بعض الأحياء عنه في أحياء أخرى، فعلى سبيل المثال، زاد التعداد السكاني بحي البحر Barrio de la Mar خلال القرن الخامس عشر بنسبة 300% تقريبا. ومع ذلك فقد كان هذا الارتفاع عامًا بمعنى الكلمة؛ حيث أصبحت إشبيلية من أكثر المدن تكدسًا بالسكان في إسبانيا وربما أصبحت أيضا، بالنظر إلى هذه الزيادة السكانية أكثر تعقيدًا وصعوبة من ناحية الحكم.

صحن Los Azulejos في قصر التميرا Altamira، العقار السابق للسيد والسيدة بيجار Béjar في إشبيلية.

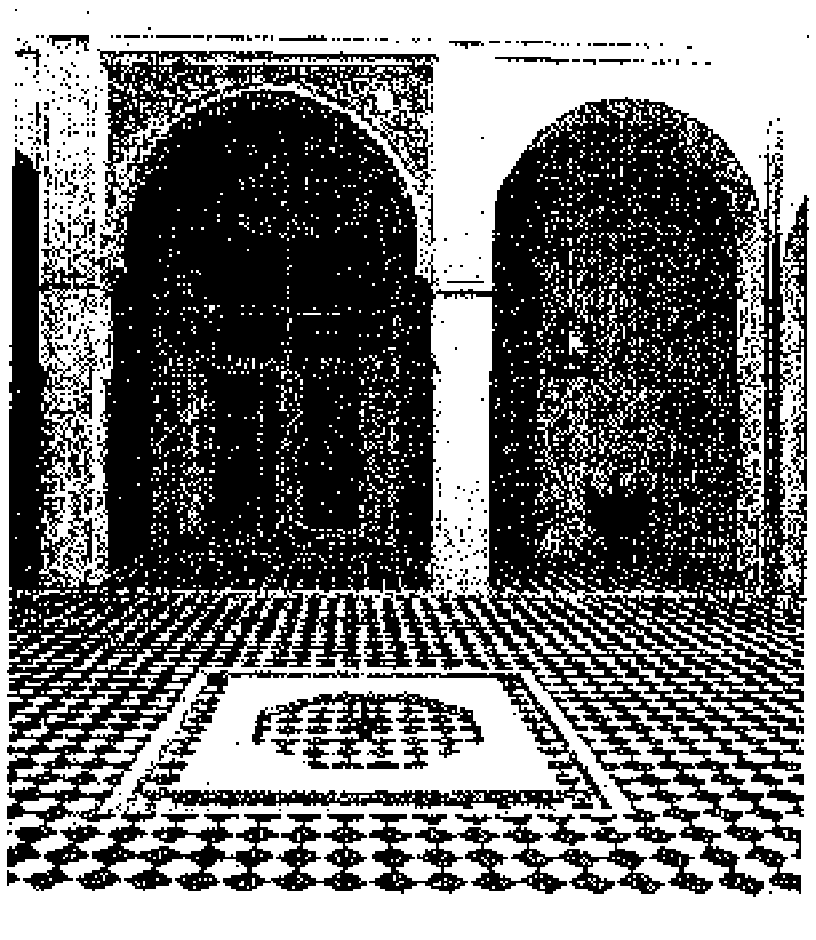

ومنذ استسلامها، أصبحت إشبيلية أكبر مدينة في مملكة قشتالة. فقد فاقت – بسبب تعداد سكانها البالغ 15.000 أو 20.000 نسمة في منتصف القرن الثالث عشر– مدن مثل ليون،

وطليطلة أو برغش التي مثلت آنذاك أكبر مدن المملكة. حدث هذا على الرغم من أن إشبيلية، في واقع الأمر، كانت بعيدة كل البعد عن كونها أكبر مدينة على الإطلاق في عصر الموحدين.

ومع ذلك، فعلى الرغم من تدهورها النسبي، فإن إشبيلية كان يجب أن تعتبر في منتصف القرن الثالث عشر واحدة من أفضل مدن أوروبا الغربية؛ فقد كانت نصف شرقية ونصف غربية، وكان السكان بثقافاتهم المختلفة متمركزين في الجزء الحضري من الدولة المليء بمباني المجد القريب والغابر الذي نادرًا ما غير الغزاة معالمه. أما بالنسبة لبقية السكان المسلمين، فقد زاد عددهم بواسطة الفقهاء alfaquíes والمعلمين الذين جلبهم ألفونسو العاشر للاضطلاع بمشروعاته الثقافية، مثل الأطباء الذين استقطبهم من الخارج ومنحهم مسجد لو أوسوس Mezquita de los Ossos لإقامتهم أو خولهم مناصب سفراء ورسل دائمين لدى ملوك المسلمين التابعين لملك قشتالة أو لملوك شمال أفريقيا أو أحيانا لمماليك مصر العظام، الأمر الذي أضفى على المدينة لمسة غربية عنها أثارت دهشة كل من سكانها والغرباء عنها. وقد أضافت مجموعة متنوعة من المستوطنين والتجار الذين ينتمون لأصول مختلفة إلى كل هذا، وكان من بين تلك المجموعات المجموعة الأكثر شهرة وهي الجالية الجنوية الأثرياء، والتي أتت لتقوم بتشكيل قناصل تابعة لها وإقامة أحياء خاصة بها.

وقد تم اختيار إشبيلية لتكون العاصمة الكبيرة لجنوب شبه جزيرة أيبيرية. ولم يكن ذلك لمجرد عظمها وأهميتها، بل يرجع ذلك أيضا للطبيعة العالمية لسكانها الذين أتوا من جميع أنحاء شبه الجزيرة بالإضافة إلى بقية سكانها المسلمين، وكذلك إلى كونها عاصمة المملكة، الأمر الذي يعني أنها واحدة من أهم المراكز السياسية في أوروبا. وفي نفس الوقت، فإن بلاط إشبيلية في عهد كل من فرناندو الثالث وألفونسو العاشر الحكيم el Sabio ربما يعتبر أكثر المراكز الثقافية أهمية في المملكة كلها. وهكذا حافظت إشبيلية على مكانتها كعاصمة للدولة حتى حلول النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

وبغض النظر عن كل هذا، فقد عدت إشبيلية أهم المراكز الاقتصادية في جنوبي إسبانيا. بالإضافة إلى كونها مدينة كبيرة باختصاصها القضائي الذي غطى مناطق شاسعة تمتد إلى 12.000 كيلو متر مربع، كما امتلكت إشبيلية المزيد من العوامل التي فسرت الحياة الاقتصادية بها. ففي المقام الأول، كانت إشبيلية مزودة بالتجهيزات الحضرية الهامة التي حافظ عليها القشتاليون وأدخلوا التحسينات عليها بمرور الزمن. وبحلول نهاية القرن الخامس عشر: تم القيام بعملية ملء الفجوات التي تصدعت في أسوارها لتشمل إقامة ميادين جديدة وأماكن عامة، مع إزالة القناطر الصغيرة والجدران، وتم رصف بعض الطرق، كما تم أيضا تجديد شبكات المياه والصرف الصحي. ويأتي في المقام الثاني موقعها المتمركز بين أغنى وأخصب مناطق المملكة، وتفردها بإنتاج البترول من بين جميع المنتجات الأخرى وإحاطتها بعدة بلاد ودول متكدسة بالسكان مثل شريش، وقرمونة، وأوتريرا Utrera، وسانلوكر باراميدا Sanlúcar de Barrameda، وميناء سانت ماريا Puerto de Santa María أو أركش الفرونتيره Arcos de la Frontera والعديد من الدول الأخرى في المقام الثاني. وأخيرا، فقد كانت تعتبر ميناء بفضل صلاحية الملاحة بالوادي الكبير، الأمر الذي جعلها الميناء الداخلي الوحيد بشبه الجزر.

وكما دون إنريك أوتي، دون شك، أن "إشبيلية تدين للنهر بكل شيء" بشكل كبير لذلك "فإنه كان لا يمكن التفريق بين المدينة والنهر أثناء فترة الازدهار التي مرت بها إشبيلية في القرن الخامس عشر وبدون شك طوال العصور الوسطى بأكملها". مما يفسر سبب تعريف الوادي

بوابة السحلية Lagarto في كاتدرائية إشبيلية، سميت بذلك كتذكير بالهدايا التي وردت للمدينة من قبل المهمة المرسلة إلى السلطان المملوكي في أواخر القرن الثالث عشر.

أسفل، ميناء إشبيلية الواقع على الوادي الكبير بين برج الذهب وحصن تريانا Triana، رسم يعود إلى سنة 1567.

في الصفحة المقابلة: فناء الجص patio del yaso من بهو العدالة Sala de la Justicia، القصر الملكي في إشبيلية.

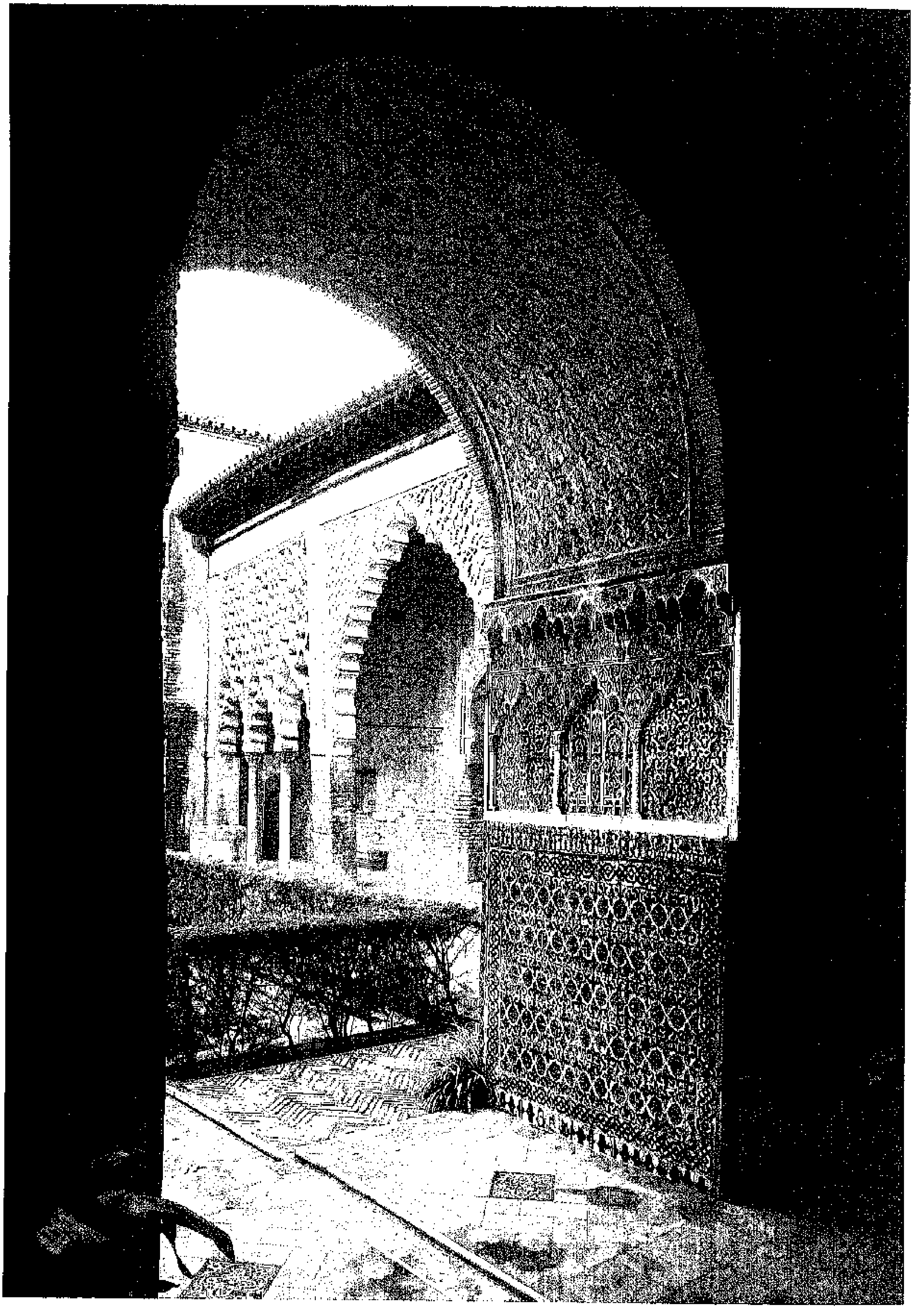

الكبير في الوثائق الإيطالية بنهر إشبيلية Rio Sibilie. وفيما بعد قيل أن "إشبيلية من صنع الوادي الكبير". وبدون النهر، كان من الممكن أن تكون إشبيلية مركزًا إقليميًا كبيرًا ولكنها لم تكن لتعد نقطة تقاطع للطرق أو عاصمة لأوروبا الجنوبية.

ومع ذلك، فعلى الرغم من أهمية ميناء إشبيلية، فإنها تعد مدينة تجارية في المقام الأول. فقد كانت سوقًا رائعًا يضم جميع المنتجات المستخرجة من باطن الأرض وعرض البحر بالإضافة إلى البضائع المصنعة في ورش عمل محلية والسلع المستوردة عن طريق السفن البحرية التي ترسو على النهر كل يوم؛ كما عبر عنها ألفونسو العاشر في الحولية العامة الأولى.

كان السوق يعد أحد مؤسسات المدينة الرئيسية الذي يتناول الإجراءات التي فرضها المجلس المحلي لتعيين التفاصيل الدقيقة المتعلقة بعملياته. وسادت هذه الإجراءات جميع الأسواق الرئيسية التي احتفظت بشكلها كما كانت أيام المسلمين: (كنيسة سالفادور) في ميدان مسجد ابن عديس Mezquita de Adobas، وعمليات مقايضة الحرير، والأسواق المحلية والنظام الجديد لمقايضة الحرير ومنطقة التسوق الواقعة حول المسجد المحلي القديم الذي تحول إلى كاتدرائية. وتصدرت تجارة كل من الحبوب ومحلات بيع اللحوم، والأسماك، وشوادر السمك، والفنادق؛ والحانات التي يباع فيها الخمر الأهمية القصوى في السوق. وفي هذا الوقت كان يقام السوق الأسبوعي في شارع الفرجة Calle de la Feria، وسوق الثلاثاء والذي استمر حتى يومنا هذا مرتبطًا بالفترة السابقة للغزو المسيحي.

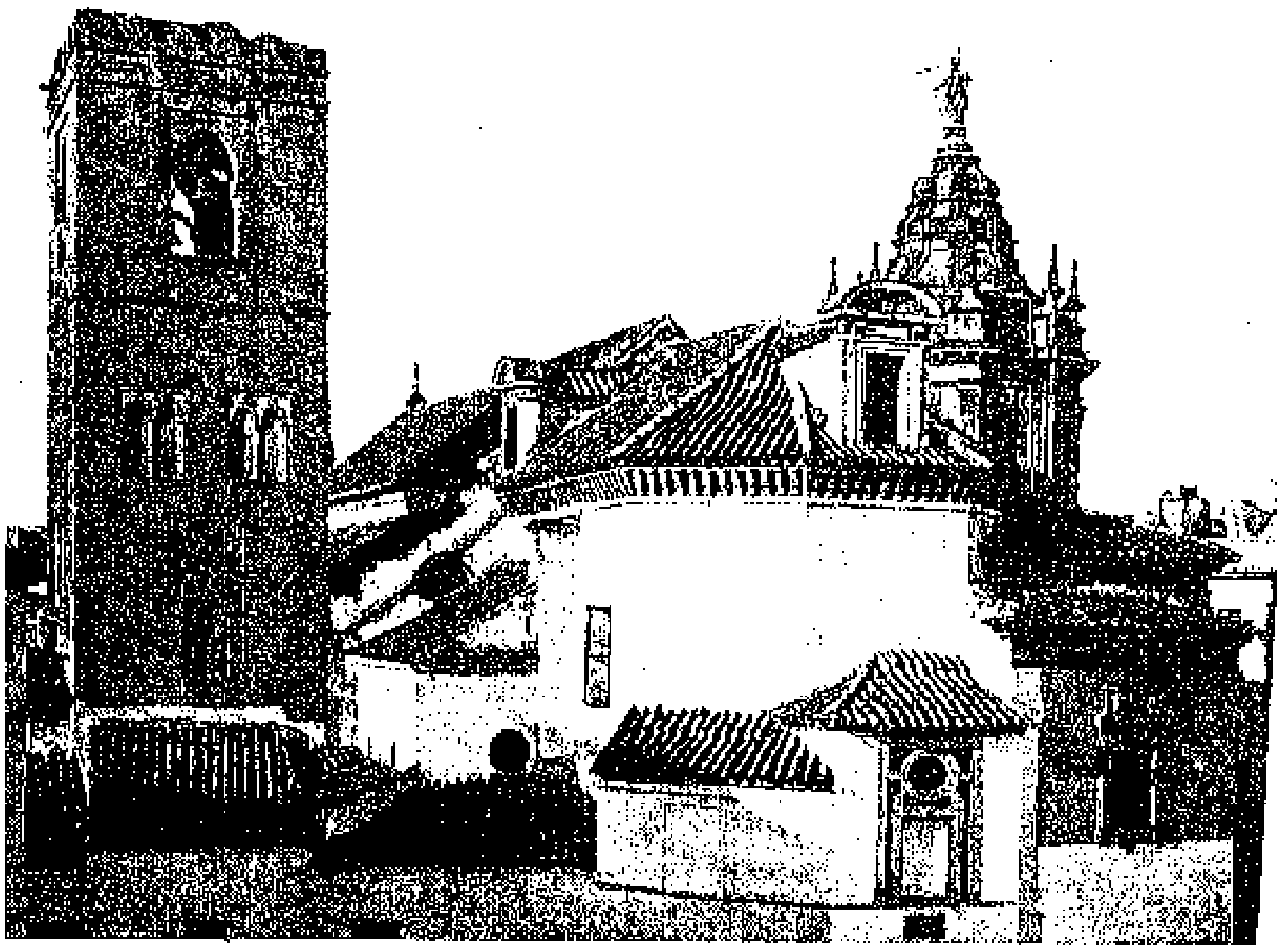

كنيسة سانتا كاتلينا، أوائل القرن العشرين.

ومنذ أن تم غزوها على يد فرناندو الثالث، أصبحت إشبيلية مدينة جامعة وعالمية. وازداد عدد الأجانب الوافدين إلى المدينة لأسباب تجارية، وكان يضم كلاً من الأقليات المهاجرة المسلمين المدجنين واليهود وكثيرين من جميع أنحاء المملكة ممن رحلوا إلى إشبيلية عندما كان بها الملك أو عندما تجددت حرب الحدود ضد أهالي غرناطة والمرينيين.

وأضفى التعدد البشري المتنوع، والذي كان يفوق أعداد المباني التي بدأ يطرأ عليها تغيرات حيوية في القرن الخامس عشر، على مدينة إشبيلية الطابع الحضري الرائع الذي اندمج من خلاله المجتمع القديم والجديد، الشرقي والغربي في نسيج واحد. وكان لابد أن تظل إشبيلية على صورتها التي عرفها بها الوافدون من شبه الجزر ومن خارج البلاد فلا يشعرون فيها بغربتهم عنها على الرغم من خصائصهم وأصولهم المتباينة. واعتبر المجتمع القشتالي نفسه مطابقًا تماما للدولة القديمة التي تنتسب في الأصل إلى مستوطني القرن الثالث عشر. وعلى الجانب الآخر، فقد رأى الأجانب في هذه البيئة وفي بعض سماتها الطبيعية صورة مشابهة لذكريات بلادهم. ولقد كتب السفير البندقي أندريه نافاجيرو، أن إشبيلية "تشبه المدن الإيطالية بشكل كبير عن أي من المدن الإسبانية". وقد اعتقد الفلمنكي أنطونيو لالينج، الذي اصطحب معه فيليب الجميل Felipe el Hermoso في أولى رحلاته إلى إسبانيا، أن هناك عدة أوجه للشبه بين إشبيلية ومدينتي بروج Bruges وأنتويرب Antwerp الفلمنكيتين.

ولقد كان الجميع على حق؛ إذ إن إشبيلية، بعيدًا عن كونها لم ترث الكثير من تراث التاريخ الإسلامي الذي أصبح جزءا لا يتجزأ من البنية الأساسية للمدينة، فهي وليدة التداخل بين المؤثرات المتعددة مما يفسر عدم ملاقاة الوافدين من تلك البلاد المتغايرة ثقافيا مثل بلاد الفلاندرز وإيطاليا أية صعوبة للتكيف.

ولكن علاوة على هذا كله، كانت إشبيلية تعتبر مدينة حدودية من الوجهة العسكرية الصرفة، وكذا من الناحية الثقافية. ويرجع هذا إلى سنوات الاستيطان المجيدة التي رسمت دور المدينة كطليعة الجيش لمنطقة وصفتها الوثائق الرسمية على أنها حدودية. وفي القرن الخامس عشر، تحدث الماركيز سانت يلانا Marques de Santillana عن فينوجوسا Finojosa راعية الغنم التي التقى بها على الحدود "وتتبعا الطريق السوُدي من كالاترافا Calatrava إلى سانتا ماريا Santa Maria". واستمرت القوات العسكرية مفعمة بالقوة حتى نهاية القرن الخامس عشر عندما قام الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا بالاستيلاء على غرناطة. ولم تقتصر سيطرة فرسان إشبيلية النبلاء، الذين كان بعضهم من نسل المائتي فارس الشجعان ممن أعدهم ألفونسو العاشر أثناء توزيعه للمدينة، على الاقتصاد الزراعي للمنطقة بل امتدت الحياة السياسية في المدينة من خلال منصبهم كنواب للملك. كان عددهم في الأصل يبلغ 24 فارسًا، ولذلك فقد كان يطلق عليهم اسم الفرسان الأربع والعشرون caballero veinticuatro، ولكن تزايد عددهم دفع الملكين الكاثوليكيين لإصدار مرسوم بتقليصه لنفس هذا الرقم في بلاط طليطلة سنة 1480. كما كان من بينهم مجموعة مختارة من سلالة نبيلة، وهم عائلة قزمان Guzman، ولوردات سانلوكار باراميدا Sanlúcar de Barrameda، ونبلاء ودوقات مدينة شذونة Medina Sidonia وهم عائلة بونسي دو ليون Ponce de Leon، ولوردات مارشينا Marchena ومايرينا Mairena، ونبلاء أركش الفرونتيره Arcos de la Frontera وهم عائلة ريبيرا Ribera، والقادة العسكريون والسياسيون في الأندلس ولوردات لوس مولاريس Los Molares وقلعة الغزوليين Alcala de los Gazules، ومن خلال علاقتهم بعائلة إنريكويز Enriquez، ولوردات طريف Tarifa، والإستونيجا Estuniga، ولوردات الجيبراليون Gibraleon، والليديسما Ledesma، وبيجار Bejar وبلاسينشيا Plasencia، وعدد قليل من أو من نسل بعض العائلات مثل قزمان Guzman في الغابة Algaba أو السافيدرا Saavedra، ولوردات كاستيار Castellar والفيزو ديل ألكور El Viso del Alcor.

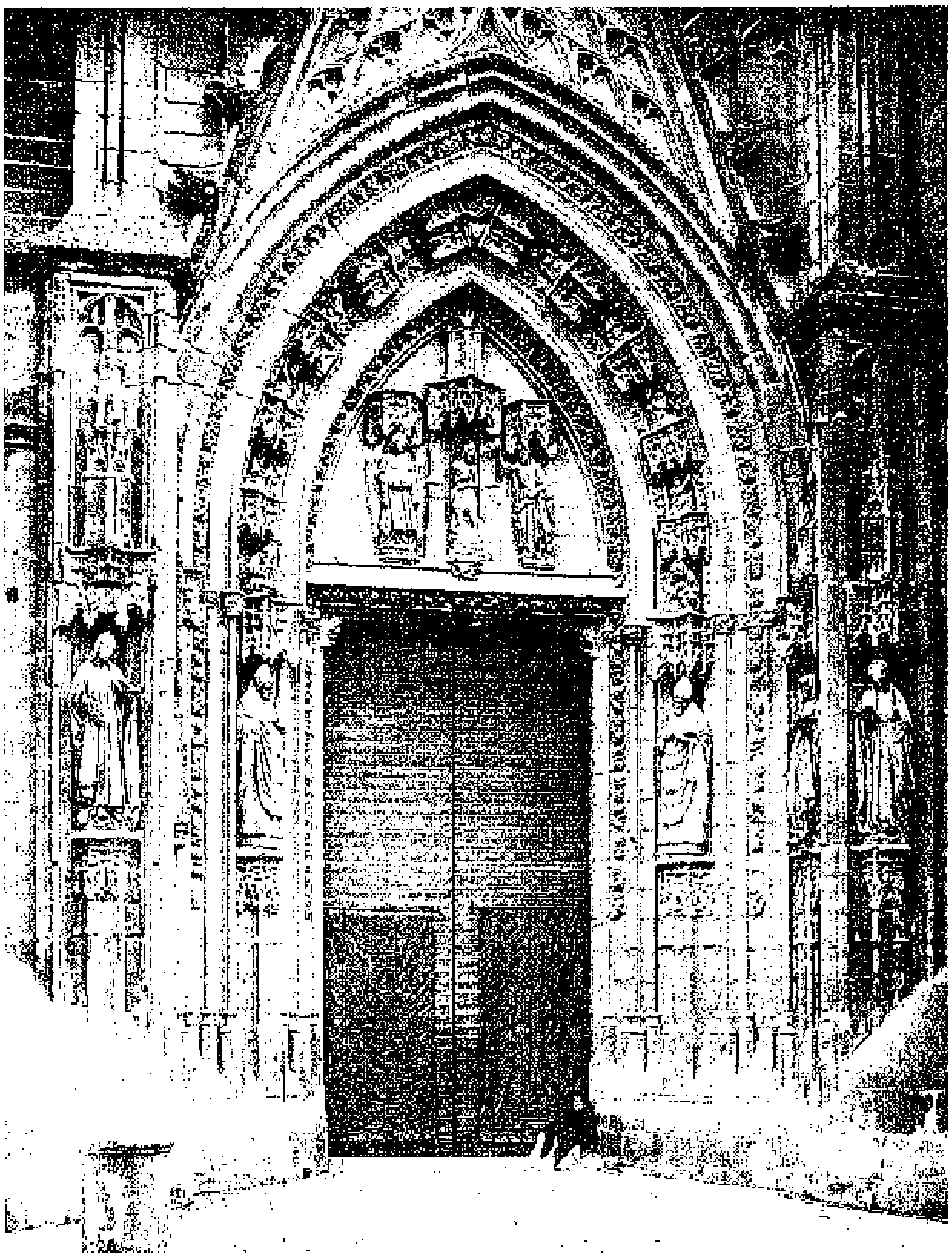

واجهة المعمودية، أو سان ميجيل، بناء على النمط القوطي الذي بدأ في هذه المرحلة في القرن الرابع عشر.

وما بين الثروة والامتيازات، تقع مجموعة فرانكوس francos الكبيرة أو هؤلاء المعفون من الضرائب لوضعهم الاجتماعي (هيدالجوا Hidalguia الأبناء غير شرعيين من الأسر العريقة)، وفوق الجميع أصحاب المناصب المقدسة، رجال الدين وحراسهم، وموردو الطعام للمجالس من أبرشيات مختلفة بالمدينة، والمسئولون المحليون، وجنود القلاع، وجنود الترسانة الحربية، إلى آخره. وكانت المرتبة الأولى للعوام والمكلفين بدفع الضرائب تتمثل في أغلبية سكان المدينة التي شكلتها مجموعة تتكون ممن نطلق عليه اسم الطبقة المتوسطة، وتضم وجهاء، وأصحاب الأراضي الأغنياء، وتجار، وحرفيين، وأصحاب الأعمال الحرة من البسطاء Medianos، الذين ينحدرون من أصول متوسطة، وفقا لمقاييس هذه الفترة، ويشبهون هؤلاء الذين أطلق عليهم

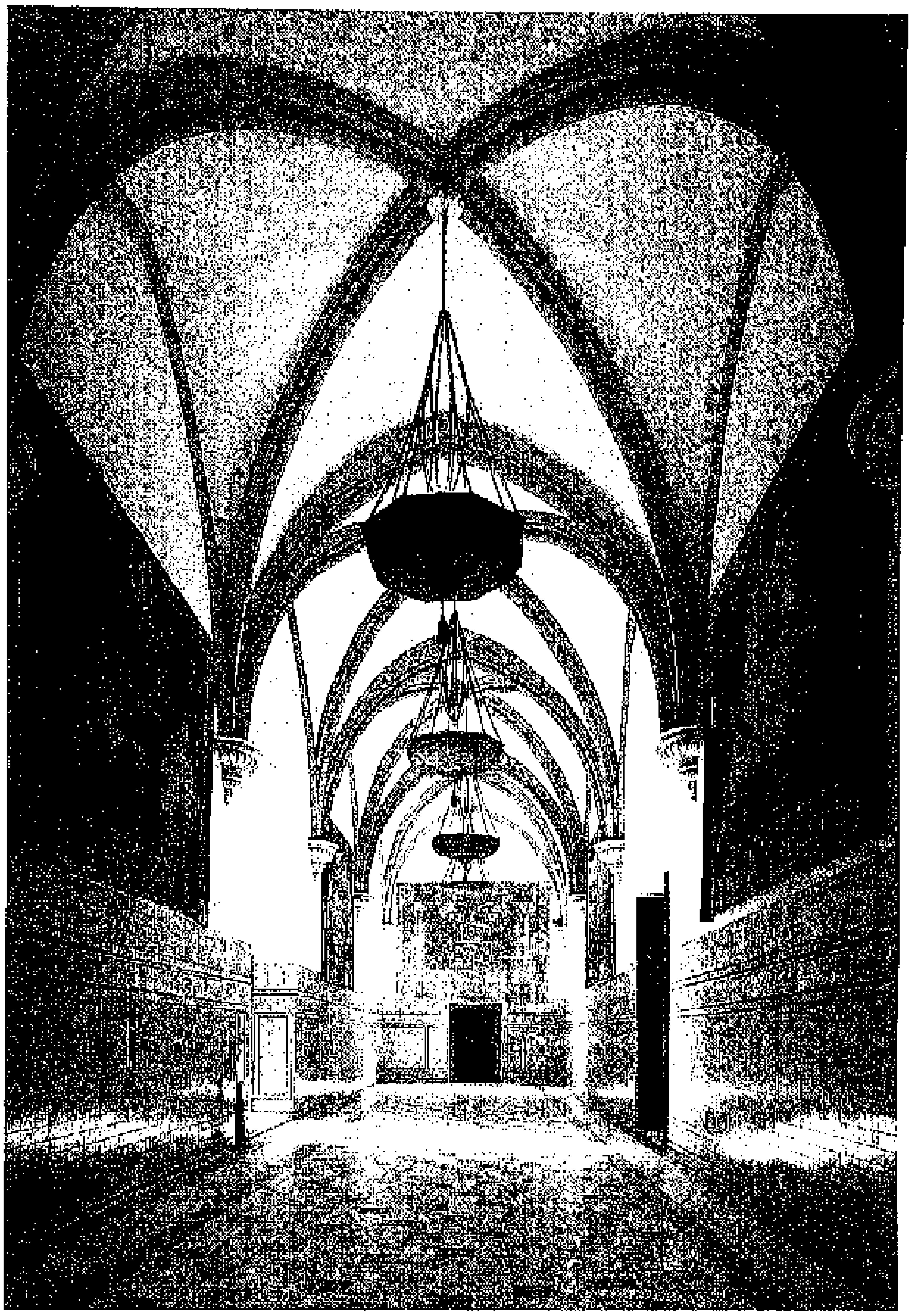

القاعات القوطية في القصر الذي بناه ألفونسو العاشر، القصر الملكي في إشبيلية.

في الصفحة المقابلة: شارع في الحي اليهودي القديم بجوار أسوار القصر الملكي، إشبيلية.

بيانات العدد Colophon of the Contemplaciones del Rosario الذي طبع في إشبيلية من قبل Meynardo ungut aleman و Lançalao polono compañeros، في سنة 1495.

المؤرخ ألونسوا دو بالنسيا - العارف بعادات إشبيلية- اسم "مواطنين".

وتألفت الطبقات الدنيا للمجتمع الإشبيلي من فئة الحرفيين البسطاء، والأُجَرَاء، وعدد قليل من الفلاحين وعدد كبير من الفقراء من المنبوذين والبؤساء. ومع ذلك، فإن الفقر هو الذي سيطر على المجتمع لدرجة أن أ. كولانتس أعلن أن عدد الفقراء بلغ ما يزيد عن 75% من سكان المدينة في نهاية القرن الخامس عشر وربما يجدر أن نضيف إليهم الفئة المنبوذة بالمجتمع ممن يعانون من الأمراض التي نالت معارضة المجتمع مثل الجذام؛ وقبل ذلك، طبقة المنبوذين الذين ولدوا في ظروف بائسة واضطهاد اجتماعي مثل القوادين والعاهرات والمجرمين. ومن خلال هذه الدراسة الموجزة لمجتمع إشبيلية في نهاية العصور الوسطى، لا يمكن تجاوز الحديث عن العبيد، الأمر الذي أفرد له ألفونسو فرانكو سيلفا دراسة خاصة. وقد كانوا يمثلون أعدادًا كبيرة. والأكثر من ذلك، أن إشبيلية كانت واحدة من أهم أسواق تجارة العبيد في أوروبا. كان معظم هؤلاء العبيد من الزنوج على الأغلب من غينيا والرأس الأخضر والمسلمين من غرناطة والمغرب.

وأخيرًا، فإن هناك أسبابًا دينية للنبذ الاجتماعي للمسلمين واليهود. إذ إن هاتين المجموعتين كانتا منفصلتين تماما داخل المجتمع الأشبيلي؛ وقد شكلا جزءا منه ولكن ليس بالمعنى المعهود؛ فقد تم التسامح معهما، وعزلهما عن المجتمع، مع إجبارهما على ارتداء أزياء مميزة تخص آخرين ممن يلاقون معاملة وحشية وخاصة في حالات الجرائم الجنسية. نشأ هذان المجتمعان بعد الاستيلاء على المدينة، ودائمًا ما كان المجتمع اليهودي، الذي احتل حيًّا منفصلا والذي حول ثلاثة مساجد إلى معابد لليهود، وتميز بثرائه وكثرة أعداده، كما إنه من المحتمل أن يكون قد تأسس على يد يهود طليطلة. وتدهور هذا المجتمع بسبب الهجوم الذي شن على الحي اليهودي في سنة 1391. وبعد نهب الحي؛ هجر معظم اليهود المدينة أو اعتنقوا المسيحية. أما القلة الباقية منهم فقد تشتت حول المدينة على الرغم من أن بعضهم عاد إلى حيهم. وبهذه الطريقة، يكون عدد اليهود الذي كان يبلغ 400 أو500 عائلة يهودية قد انخفض حتى أصبح لا يزيد عن 60 أو70 عائلة عاشوا معا في مناطق مجاورة لبلدة باب شريش Puerta de Jerez عندما حدث الطرد والترحيل Expulsion الأخير في سنة 1483.

ولقد كان المسلمون أقل عددًا بكثير. وقام فرناندو الثالث بطردهم من المدينة في جماعات، وتمكن بعضهم من العودة، غير أنهم لم يتمتعوا بالإقامة في حي خاص بهم حتى أواخر القرن الخامس عشر. وبعد القيام بمحاولات عدة لحصرهم في قطاع واحد في المدينة، تجمعوا في منطقة تسمى أداريخو adarvejo، الواقعة بين أبرشية سان پيدرو وسانتا كاتلينا. ولكن حتى

بعد ذلك، كان هناك مسلمون يقطنون في مناطق أخرى بالمدينة. وعندما أجبروا على الدخول في المسيحية في سنة 1501، كان هناك 35 عائلة منهم يعملون في الحدادة، وصناعة الخزف، والبناء، وكان البناءون هم المسئولون عن الحفاظ على نظام العمل في قناة كانوز دو قرمونة Canos de Carmona، وفي الصناعات الجلدية. وعلى أية حال، فقد كان هذا المجتمع يشكله العمال البسطاء الكادحون، والمنصهرون في النسيج الاجتماعي والصناعي لإشبيلية، والذين لم يستحثوا مقت المسيحيين وبالتالي لم يتسببوا في حدوث أية فتن من أي نوع.

ومن الناحية الثقافية، كانت إشبيلية حقيقة ملتقى لمختلف الاتجاهات في تلك الفترة وساعد على ذلك حيوية المجتمع الذي عكس الرخاء الاقتصادي للمدينة. ونتيجة لذلك، حدث أن أعقبت الثقافة القوطية سابقتها الإسلامية أبان القرن الثالث عشر. وحدث أمر مماثل لذلك في القرن الخامس عشر عندما أضيفت نزعات أكثر عصرية من الفلاندرز أو ألمانيا إلى الاتجاهات القوطية المتعلقة بتقاليد صقلية. وبدون شك، انجذب حرفيو الطبقة العليا إلى مبنى الكاتدرائية الجديد المقام في إشبيلية. إننا نلم بأسماء المعماريين الذين خلفوا بعضهم البعض في بناء الكاتدرائية، وأيضا، صانعي الزجاج، والنحاتين، والمزخرفين والذين قاموا بعملهم على الطراز الديني مثل ميركادانتي دو بريتانا Mercadante de Bretana، وهو الذي قام ببناء الضريح فائق الجمال "كاردينال سيرفانتس" Cardinal Cervantes. وكانت لمدرسة فان أيك Van Eyck، التي تركت بصمتها التي لا يخطئها الناظر على القطع الفنية المعلقة على مذبح الكاتدرائية.

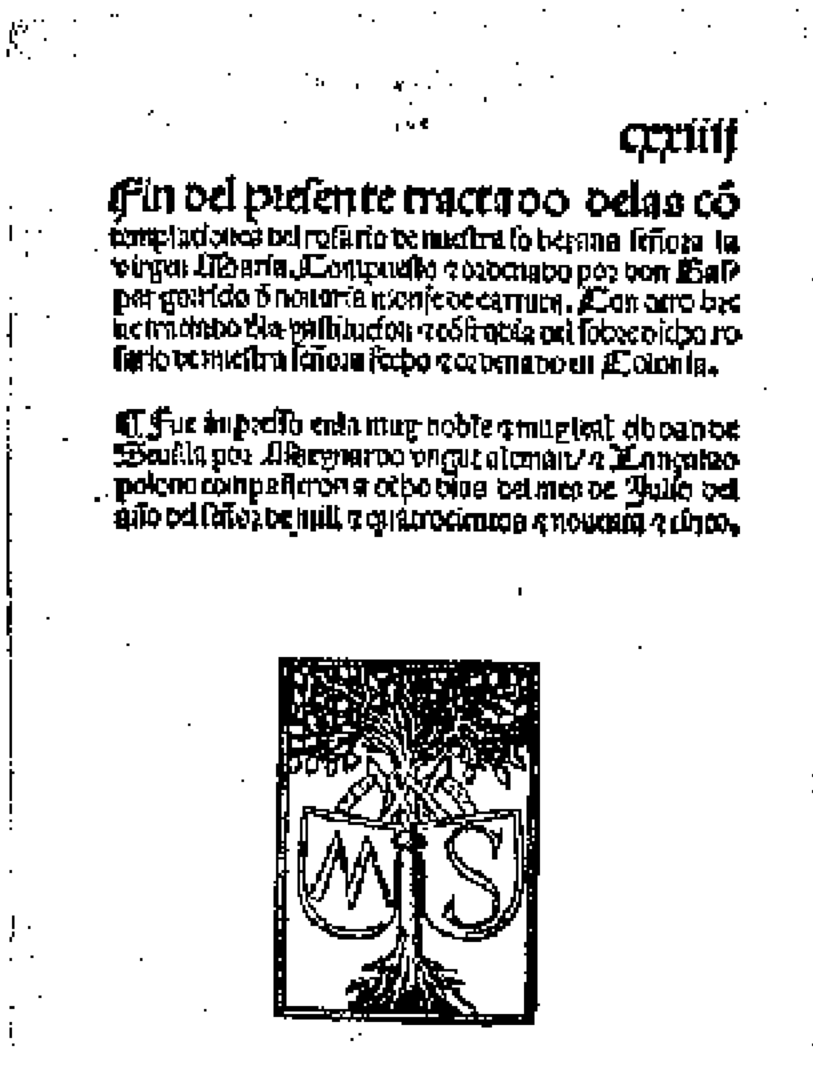
cccxiiij
Fin del presente tractado delas cõ
templaciones del rosario de nuestra soberana señora la
virgen Maria. Compuesto e ordenado por don Gas
par gorricio de novaria monje de cartuxa. Con otro bre
ve tractado dela publicacion e confraria del sobre dicho ro
sario de nuestra señora fecho e ordenado en Colonia.
Fue impresso enla muy noble e muy leal cibdad de
Sevilla por Meynardo ungut aleman e Lançalao
polono compañeros a ocho dias del mes de Julio del
año del señor de mill e quatrocientos e noventa e cinco.

ثم أصبحت إشبيلية نقطة إلتقاء بين عدة اتجاهات فنية متعايشة ومترابطة يغلب عليها الطابع التقليدي، على سبيل المثال، القوطي- المدجن Gothic-Mudejar. وفتحت المدينة أيضا أبوابها للإبداع في مجال طباعة الكتب الذي بزغ على السطح في أوروبا. وفي غضون وقت قصير جدًا، أصبحت المدينة هي المركز الرئيسي لطباعة الكتب في شبه الجزيرة، وكانت تحصل على العمال وآلات الطباعة من إشبيلية، والفلاندرز، وإيطاليا، وفرنسا، وألمانيا على وجه الخصوص. وأنتجت المطابع أعمالا ذات أهمية مثل كتاب اللغويات Vocabulario لألونسو دي بالنسيا Alonso de Panlencia وسجن الحب Carcel de Amor لديجو دي سان بيدرو Diego de San Pedro أو الأحزاب Las Patidas لألفونسو العاشر، مع التعليقات والإضافات التي قام بها الفيلسوف الونسو دياز دي مونتالبو Alonso Diaz de Montalvo. كل هذه الأعمال، بالطبع، كانت مرتبطة بطليعة "الإنسانية" في إشبيلية لدرجة أن المدينة أصبحت، من وجهة نظر أر. بي. تات R.B. Tate، "مركز الترجمة الأكبر في إسبانيا".

قصر إشبيلية في القرن الرابع عشر

أنطونيو الماجرو
مدرسة الدراسات العربية (CSIC) - غرناطة

ترجمة محمد السيد حمدي

منذ إنشاء الكازار (القصر الملكي) في القرن العاشر، جسدت الأفنية المتعاقبة له في إشبيلية، التصور الملكي والرمزي للسلطة في المدينة من الناحية العملية حتى يومنا هذا. حيث عمرت هذه الآثار القديمة بالأحداث، مما أدى إلى ظهور مجموعة من المباني المعقدة، والبقايا والأدلة المختلفة التي تشكل نموذجًا من الثقافة الحية والتعايش التكافلي، وهي نتيجة مشاريع البناء التي كانت في بعض الحالات متطابقة، وفي حالات أخرى تتعايش مع غيرها، منتجة في النهاية تعبيرات جديدة مليئة بالأصالة.

من الصعب العثور على أية بقايا إسلامية من المراحل الأولى للقصر، من الفترة العائدة إلى مرحلة الإنشاء والقرن الحادي عشر، حيث تخبرنا النصوص الأدبية عن القصور الرائعة للملك المعتمد. لا يوجد أي شيء يمكن ملاحظته اليوم، فقط الحفريات مكنت من تحديد بعض البقايا في باطن الأرض. في الوقت الحاضر، بات من المستحيل معرفة هيكل القصر في تلك الفترة، غير أن العناصر الهامة العائدة للفترة الموحدية (القرن الثاني عشر والثالث عشر)، لا تزال تحكي لنا عن شغل جزء على الأقل من الأفنية في المباني السكنية ذات الطبيعة الاستثنائية؛ بعضها زين بغزارة، واحد منها، يسمى بهو المفرق patio del crusero (شكل 1 رقم 6) يمكن أن يكون أكبر قصر أندلسي معروف.

تم إنجاز التنظيم السكاني للقصر الباقي حتى يومنا هذا، بين منتصف القرن الثالث عشر وأواسط القرن الرابع عشر، عندما كان القصر تحت السيطرة المسيحية، وذلك بفضل مجموعة من التحولات والمباني الجديدة التي اعتمدت في البداية على القصور الموحدية السابقة. لكن المنشآت المضافة في مرحلة متأخرة مع التصميم الأساسي الجديد ظل رغم ذلك محترما التقليد الأندلسي، حيث تبلور التخطيط الحديث.

التحول الأول نفذ في عصر ألفونسو العاشر الحكيم الذي بدأ إعادة ترتيب القصر الموحدي الرئيسي ليتناسب مع الاحتياجات الجديدة للبلاط القشتالي. وما هو معروف باسم بهو المفرق patio del crucero، البناء الحديث ذو الطابع القوطي، الذي حل محل القصر الإسلامي، والذي عرف بقاعة الحلزون أو القوقعة cuarto del caracol (شكل 1 رقم 2، 3، 7). توجد الحديقة الأصلية لهذا الفناء، على عمق حوالي 4 م تقريبا، بني رواق الأعمدة على شكل صليبي متقاطع يسمح في جهته العليا بالدخول إلى الصالات القوطية الجديدة التي تشكل وحدة معمارية بارزة، والتي على الرغم من التحولات المتعاقبة، كانت ولا تزال تستخدم كقاعة استقبال رسمية، وقاعة طعام. هذا التخطيط، رغم أنه تغير في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لا يزال جزء كبير من قصر إشبيلية يمثل الجزء الرئيسي والأساسي خلال القرون المتعاقبة حيث حدث التحول الأكثر أهمية إلى الشمال من بهو المفرق Patio del Crucero، والمباني

شكل 1: التخطيط الافتراضي لقصر إشبيلية مع التخطيط المعماري لقصر بيدرو الأول

1 باب الأسد.
2 باب الصيد أو القنص.
3 فناء الصيد أو القنص.
4 قاعة الجص.
5 قاعة العدالة.
6 بهو المفرق.
7 قاعة القوقعة.
8 قاعة الملكية.
9 قاعة الصيد أو القنص.
10 قاعة القصور الأربعة (دار التعاقد).

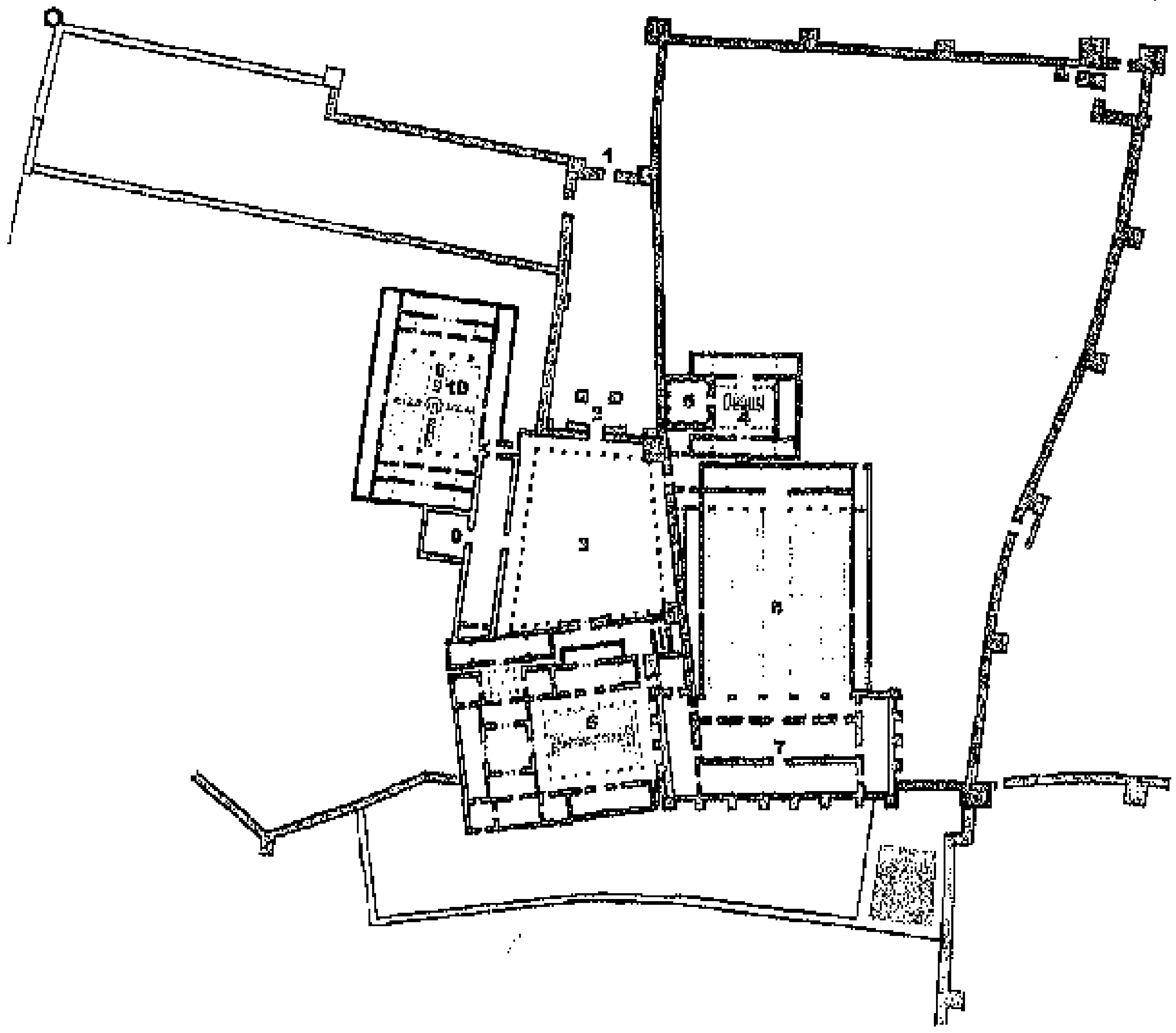

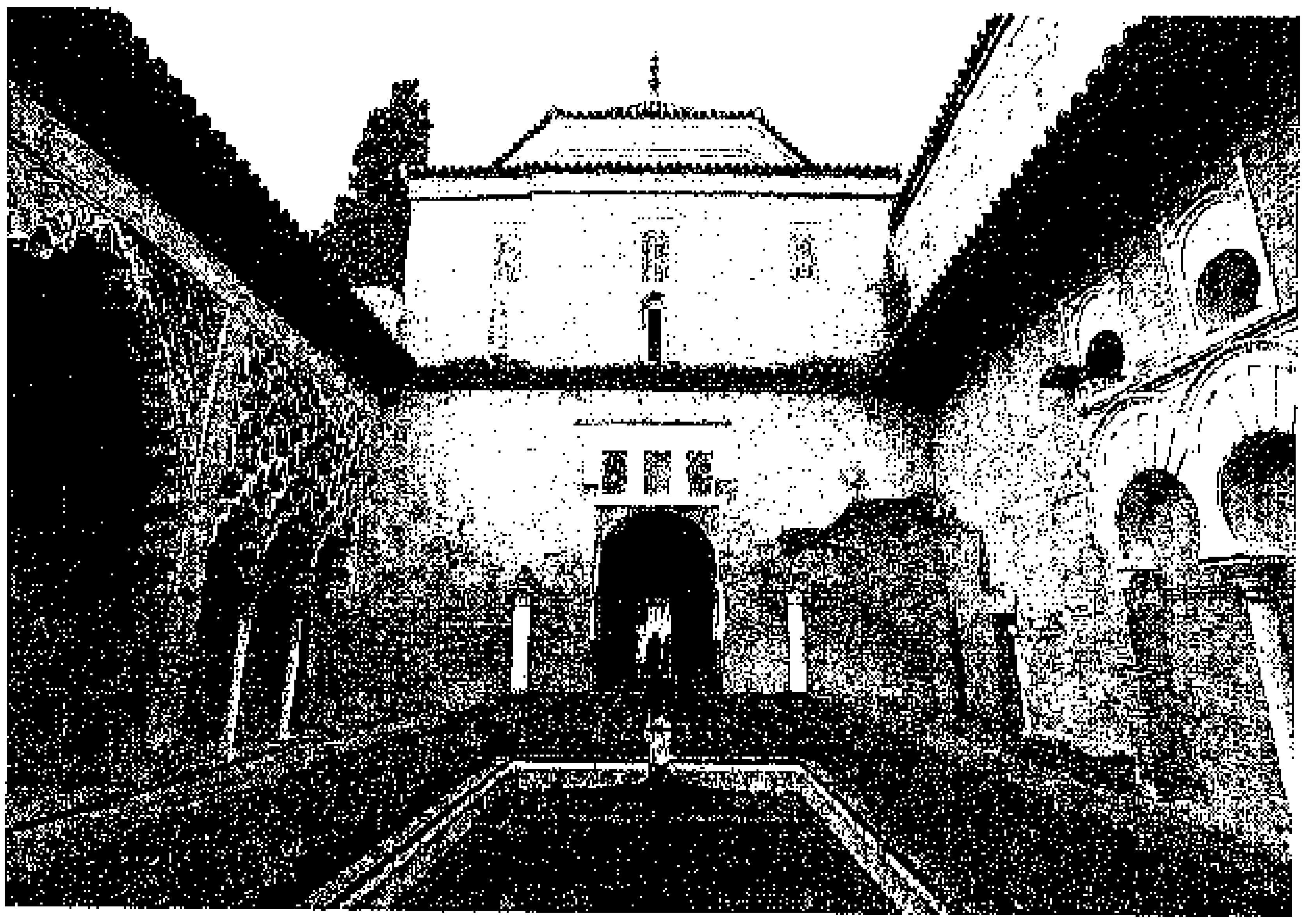

شكل4: بهو الجص رقبة قاعة العدالة

الموحدية الأخرى التي وجدت أيضا، خاصة المسماة بقاعة الجص Cuarto del Yeso (شكل 1، رقم 4)، والمسكن الصغير الذي أضيف ربما في عصر ألفونسو الحادي عشر أو ابنه بيدرو الأول، والصالة الواقعة في تقاطع القبة أو الصالة المربعة المغطاة بإطار خشبي المعروف بقاعة العدالة Sala de Consejo أو Sala de la Justicia (شكل 1، رقم 5، 4)، هي بدون شك أحد أهم أجزاء عمارة القصر من النصف الأول من القرن الرابع عشر.

في منتصف هذا القرن، في عصر بيدرو الأول، تم البدء في مشروع جديد جعل كأساس لتخطيط أرضي جديد، طور بالتوازي مع البنايات المذكورة أعلاه التي واصلت إنجاز دورها كقصر سكني، أثناء –وحتى بعد– بناء المباني الجديدة.

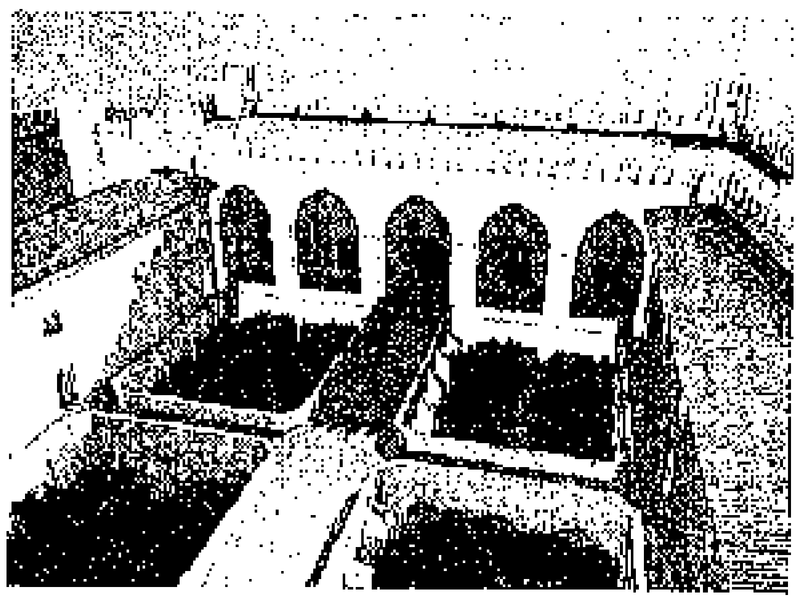

شكل2: بهو المفرق بعد إصلاح ألفونسو العاشر.

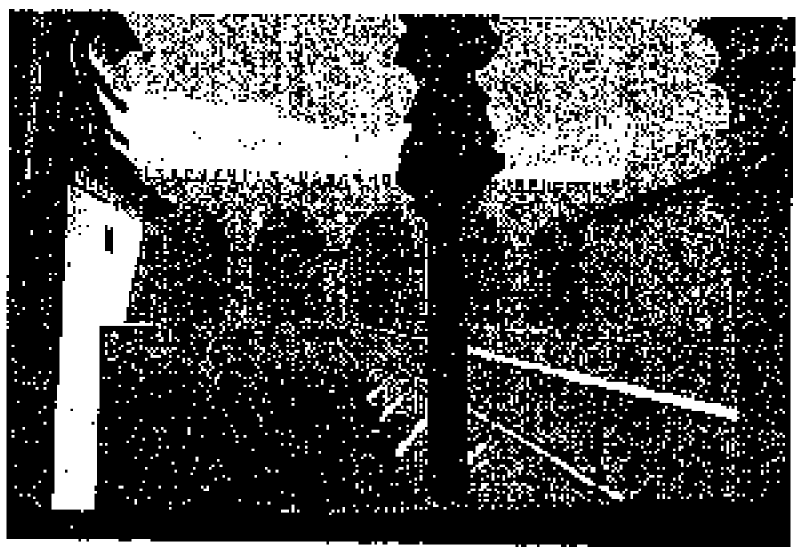

شكل 3: رواق أعمدة قاعة القرقعة، من رواق الأعمدة الشمالي.

حيث أدمج المشروع المقترح بواسطة بيدرو الأول، الذي ارتكز على المحور البصري القائم خارج الجزء القديم من القصر الذي اشتمل على المساكن الرئيسية التي أسكنت حتى ذلك الحين بواسطة الملوك المسلمين والمسيحيين.

هذا المحور يبدأ من باب الأسد Puerta del Leon (شكل 1، رقم 1)، المدخل الجديد الذي زود به القصر، المقابل للكاتدرائية، والتي تنتهي عند واجهة القصر الخاص الذي بني في نفس الفترة. المحور كان مخططًا بدقة من البداية، كل من السقيفة بالإضافة إلى مدخل قاعة الصيد أو القنص Puerta de la Monteria (شكل 1، رقم 2)، حيث كان القصر مصطفا بصورة مثالية. والغرض من هذا التخطيط قد لا يكون واضحًا. السقيفة إلى القصر الجديد ومكانها الفاخر كان لزامًا عليهما أن يكونا مرئيين من خارج القصر من خلال المرشحات أو الحجابات الحاجزة البصرية، مما يشير إلى أن الوصول إلى سكن الملك مسيطر عليه، ويستلزم ذلك امتياز لأي شخص يستقبل هناك. لكن في نفس الوقت وعلى خلاف الذي يحدث في القصور الإسلامية الأخرى، كان سكن الملك مرئيًا، وعظمته وأهميته كانتا معروضتين بشكل متباهي به. باختصار، كان القصر يمثل إجراءً دعائيًا يشير إلى أن الملك فوق أي شخص، حيث من الواضح أن بيدرو الأول هدف إلى الاستفادة من هذه الصفة في برنامجه السياسي، وهو هدف لا خلاف عليه لتعزيز الملكية وإقامة سيادته على طبقة النبلاء.

في منتصف الطريق بين باب الأسد Puerta del Leon وهذا القصر، نجد ما يسمى بمدخل قاعة الصيد أو القنص Puerta de la Monteria (شكل 1، 2 و5)، هذه السقيفة توجد في حائط إسلامي قديم وتشتمل على عقد مركزي دائري مزين برموز من نُيون وقشتالة مشابهة جدا لتلك الموجودة في كل من مدخل باب الأسد Puerta del Leon وسقيفة القصر نفسه. هذا العقد زخرف من على الجانبين بوحدتين زخرفيتين حجريتين، إذ ربما يكون جزءًا من قوس نصر أو قبة بنيت في سقيفة القصر نفسه، وخصصت لاحتواء العرش الملكي الذي يقيم من خلاله الملك العدالة.

تقود هذه السقيفة إلى فناء قصر الصيد أو القنص Patio de la Monteria (شكل 1، رقم 3)، إن التصميم الحالي كما كان مصمما في منتصف القرن الرابع عشر، بالرغم من أن أغلب الارتفاعات تركت غير مستكملة. فقد احتل موقع الفناء سلسلة من المباني المتهدمة التي ترجع إلى عصر الموحدين، التي لاشك أنها أزيلت لإفساح المكان لمشروع البلاط الجديد. ربما كان هذا الفناء محاطًا بالأروقة المعمدة التي يتكون كامل حافتها من عقود مشابهة لتلك الموجودة

شكل 5: واجهة قصر بيدرو الأول ترى من مدخل بهو الصيد.

بواجهة القصر. (شكل 6) على الجانب الشرقي، يجاور الرواق حائط الأفنية الأصلية للقصر، التي تتضمن السقيفة الموصلة إلى قصور الجص Palacios del Yeso، والمفرق del Crucero، والقوقعة Caracol. على الجانب الشمالي، يجاور الرواق المعمد الحائط الخارجي حيث يقع مدخل قصر الصيد أو القنص Puerta de la Monteria.

المدخل إلى القصر الموحدي الآخر يوجد في الزاوية الشمالية الشرقية للفناء، الذي تم إصلاحه ربما في ذلك الوقت وتضمن لاحقًا مسكن الموظفين (دار التعاقد) Casa de Contratacion، الذي أنشئ بواسطة الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا من أجل تنظيم ومراقبة التجارة مع أمريكا، على الجانب الغربي (شكل 1: 10، 7، 8)، بني الرواق المقابل أمام القاعة الملحق بها القبة التي تشكل ما يسمى بقاعة الصيد أو القنص Cuarto de la Monteria (شكل 1: رقم 9). هذه القاعات تم البدء فيها زمن بيدرو الأول وبقيت غير مكتملة حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر عندما اكتسبت شكلها الحالي. خطط كامل المشروع بإحساس بصري ورمزي عظيم، كان باب الأسد Puerta del Leon الموصل للعالم الخارجي، وأول ما يقع عليه البصر، هو السقيفة الأولى لقصر (الصيد أو القنص) palace (la Monteria). ربما تصور عرش العدالة للملك، وفي الخلفية، مثل ستارة عظيمة، يمكن رؤية واجهة القصر، في القمة حيث كان للملك إحدى قاعات استقباله في شكل قبة مرتفعة ومن النوافذ التي منها يمكن أن يتابع الجموع المحتشدة أمامه في الفناء. الدخول هنا، على اليمين، حيث خطط قصر الصيد أو القنص Cuarto de la Monteria، للاستقبالات الرسمية. شمل دهليزًا واسعًا استعمل كغرفة انتظار وقاعة

شكل6: قطاع افتراضي من بهو المفرق وبهو الصيد أو القنص مع واجهة قاعة القوقعة وقصر بيدرو الأول.

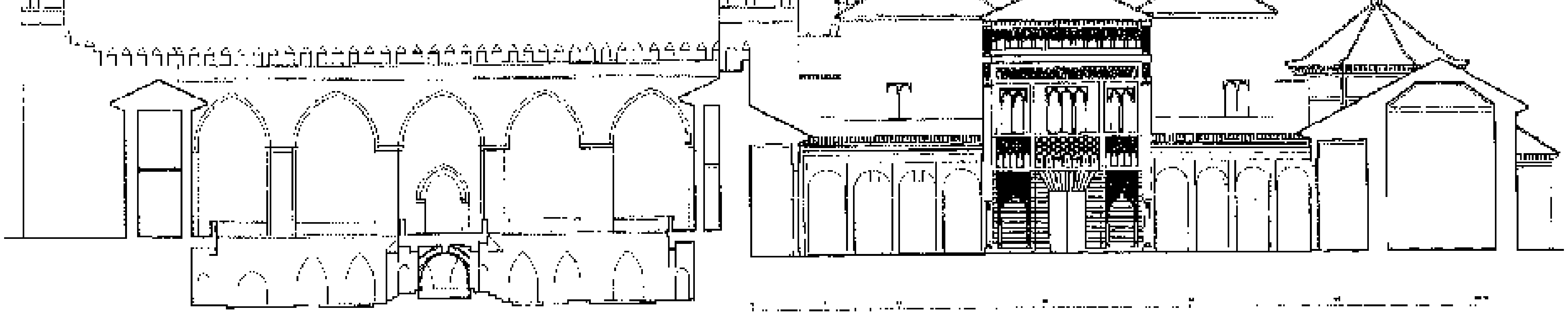

للعرش في شكل قبة تمثل السلطة، معظمه كان واضحًا جدًا من الفناء، مقابل قاعة الصيد أو القنص Cuarto de la Monteria، كان هناك رواق معمد آخر يقي المدخل إلى المساكن السابقة للقصر القديم، قاعة الجص Cuarto del Yeso، وبهو المفرق Patio del Crucero، وقاعة القوقعة Cuarto del Caracol. هذه الغرفة الأخيرة المتصلة بالقصر الجديد من الداخل اشتملت على قاعات واسعة يمكن أن تستعمل للتجمعات الكبيرة. يقع مسكن الملك الخاص الجديد في مقابل بهو القنص أو الصيد Patio de la Monteria (شكل 1: رقم 8)، والمصمم طبقًا لفكرة المسكن الأندلسي المحلي بالرغم من أنه على مقياس أكثر تعقيدًا، مع إعطاء اهتمام خاص للعناصر الرمزية. بني هذا القصر الجديد بواسطة الملك بيدرو الأول ملك قشتالة، ضمن مجموعة القصور الملكية المنسجمة بالكامل مع التقليد المعماري الأندلسي والتي تشكل واحدة من أبرز العلامات في تاريخ العمارة الإسبانية. إن قصر إشبيلية هو ذروة عصر بدأ في الأراضي البعيدة لقشتالة، التي تعاهد فيها كل من الملك بيدرو وزوجته الملكة ماريا دي باديا على بناء قصرين، واحد في توردويسياس (بلد الوليد)، والثاني في استوديو (بلنسية)، وكان لهم أسبقيات واضحة في العمل العظيم الذي نفذ لاحقًا في إشبيلية. على الرغم من التحويلات المبكرة لهذه القصور إلى أديرة لراهبات Clarisse، بالتوازي مع التعديلات التي استلزمها القصر غير المكتمل لاستوديو، فإن هناك مجموعة من المظاهر والسمات الاسلوبية المشتركة قد ظهرت في المباني الثلاثة.

خطط قصر إشبيلية على أساس شرطين: علاقته بالقصر الذي بناه ألفونسو العاشر في بهو المفرق Patio del Crucero ووضوح تخطيطه الماثل لأنظار الناس من خارج القصر. وقد سهل مبنى القصر الجديد المجاور لقاعة القوقعة Cuarto del Caracol الاتصال بين الاثنين لدرجة أن البهو الغربي لقصر ألفونسو يمكن اعتباره جزءًا لا يتجزأ من قصر الملك بيدرو. صممت واجهة القصر الجديد لكي تكون مدعومة بواسطة أحد أبراج سور القصر القديم الذي استخدم كحده المشترك (شكل 6).

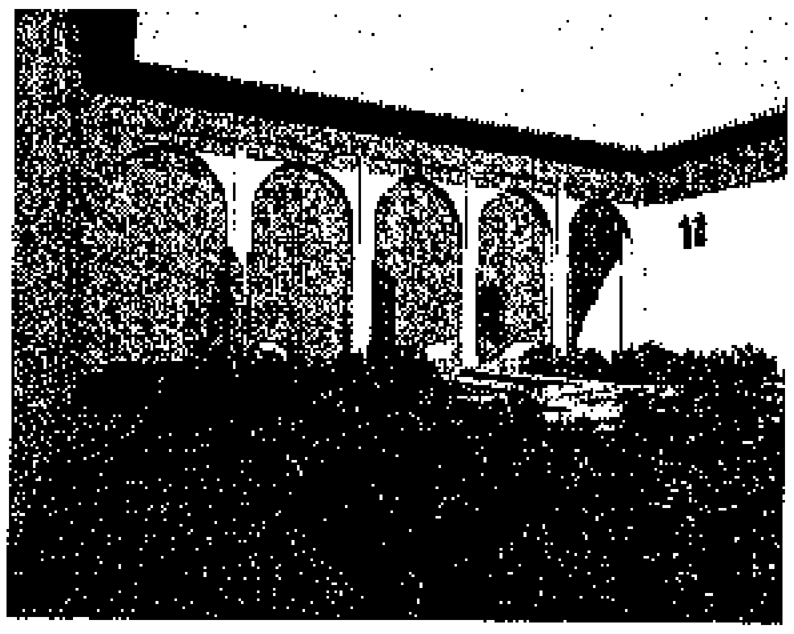

شكل 7: تخيل لصحن دار العاقد في القرن الرابع عشر.

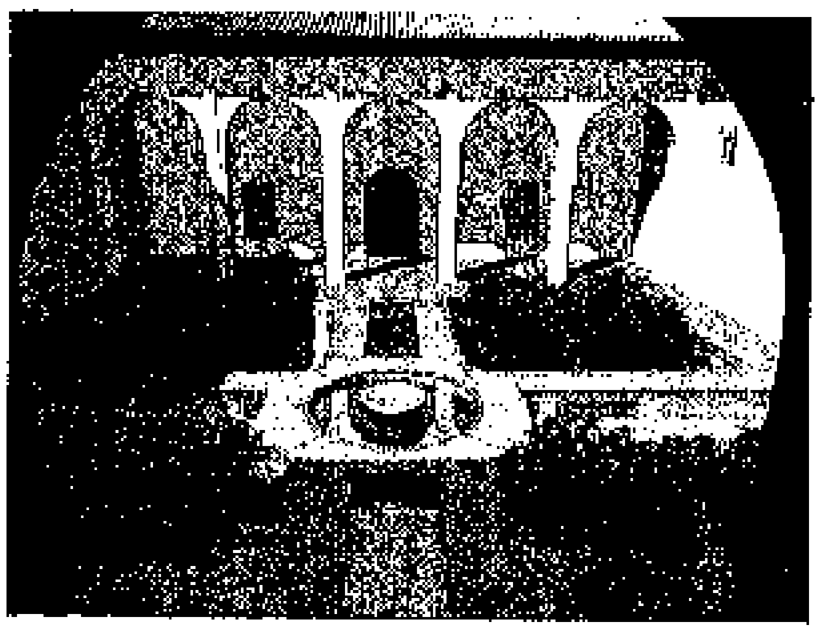

شكل 8: صحن دار العاقد وجناح الهيكل.

يلاحظ أن الموقع الدقيق للواجهة العظيمة في أسفل المحور البصري المذكور أعلاه يتعارض مع المبدأ المنظم لتصميم القصور الإسلامية الذي يكون فيه الجزء الداخلي لأي منزل، بدون الحاجة لذكر القصر، لا يمكن أن يرى بأية وسائل من الخارج. وقد خطط التصميم بواسطة الملك بيدرو الذي كان من المقرر أن يكون عكس ذلك تماما، على الأقل بقدر ما السقيفة تُؤدّي إلى سكن الملك، التي صورت كسجاد كبيرة، غزيرة الزخارف تدور حول الإفريز الرائع المرتب مثل الستارة العظيمة للعرش الملكي.

يقدم التخطيط الداخلي للقصر مميزات المسكن الأندلسي، لكن مع الاختلافات الملحوظة بخصوص ذلك (شكل 9). الفناء الرئيسي في الوقت الحاضر يسمى ببهو العذارى Patio de Las Doncellas كان له حديقة غائرة نسقت على شكل منطقتين متماثلتين يفصل بينهما بركة مياه، صممت في الأصل لتشكل في نهايتها شكل حرف T . تم تخطيط الجسور الصغيرة لكي تعطي بروزًا للبرك الثلاث التي تحولت منذ وقت قريب جدا إلى بركة واحدة طولية شغلت بفروع تأخذ شكل حرف T. جاورت الممرات الضيقة البركة ومناطق الحديقة التي فصلت عن أبهاء الأروقة المعمدة بواسطة ممرات السير. تنخفض منطقة الحديقة لمتر تقريبا، وحددت بواسطة جدران ذات ستارة من الزخارف البسيطة، تشكل عقودًا دائرية من الطوب اللبن. تصميم الأفنية والحدائق والبرك ينسجم كليًّا مع التقليد الأندلسي، بالرغم من أن تخطيطه تقليدي جدًا ما عدا تشابهه الظاهر لسلفه الحاضر، بهو البستان Patio del Vergel في قصر توردويسياس Tordesillas، على الرغم من أنه لم تتم دراسته بشكل كلّي، ربما كان له بركتان تقابلان الأروقة المعمدة لجوانبه الصغرى. تخطيط البرك المقابلة للأروقة المعمدة تظهر في قصور عدة في الأندلس. لكن تخطيط البرك الطولية تطور بصورة مثالية في عمائر بني نصر المعاصرة لقصر إشبيلية. الحل المتبنى يبدو هنا لكي يكون تركيبًا من التقاليد المختلفة بنتيجة أصلية تماما. الأفنية كانت لها أروقة معمدة نصف مترية، من المحتمل أن العنصر المسيحي الأصل أخذ من أديرة الرهبان. على طول الجوانب الشمالية والجنوبية، توجد قاعات مرتبة من alhanias أو قاعات النوم على واحدة فقط من جوانبه. الصالة

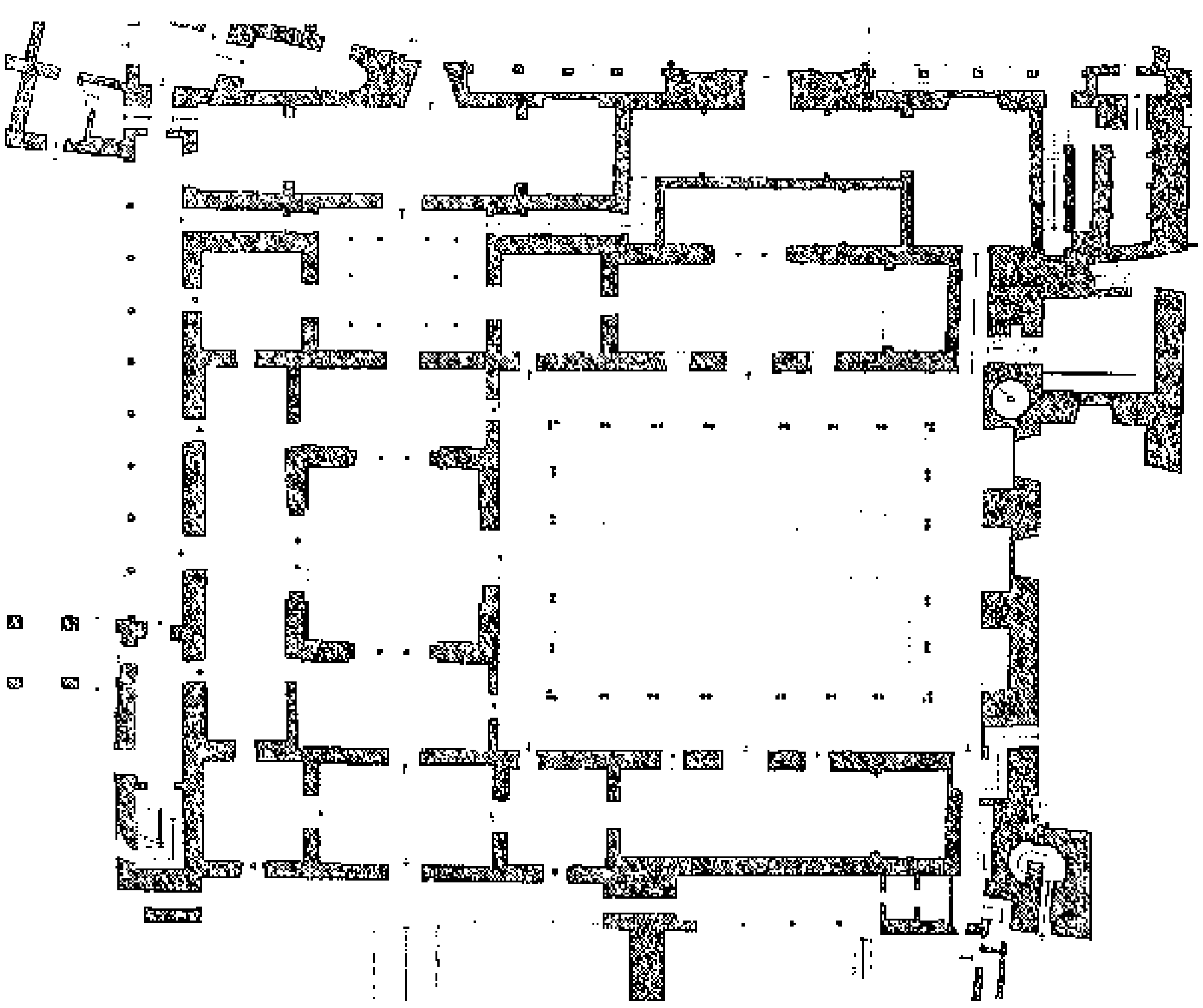

شكل 9: تخطيط لقصر بيدرو الأول.

الشمالية لها غرفتان مجاورتان أكثر ضيقًا كما تشتمل على غرفة نوم. كل الصالات سوف تكون عبارة عن قاعة وغرفة النوم الملكية، بينما ستأخذ الصالة الجنوبية لتكون مصلى؛ نظرًا لنقوش الشخوص القربانية التي تزين بابها. حتى الآن، يبقى التخطيط مشابهًا حقًا للقصر الإسلامي علاوةً على تخطيطه البسيط. حتى إذا ما دخلنا الدهليزين اللذين يأخذان شكل مدخل متعرج من المدخل إلى الزاوية الشمالية الشرقية للفناء.

على أية حال، يصبح التصميم معقدًا على الجانب الغربي مؤكدا على هذه الحلول، بالرغم من استخدامهم للعناصر والتخطيط المرتكز على التقليد الأندلسي، محولا الناتج النهائي إلى تخطيط معقد عظيم غير معروف في العمارة الإسبانية – الإسلامية.

ثلاث قاعات مرتبة حول القبة العظمى، بيت قاعة السفراء Salon de Embajadores على الجانب الغربي للفناء. اثنان منها غرف نوم، من خلال أي مدخل يولج إلى غرفتين أخريين من مجموعة الغرف. أكثر من وحدة بسيطة على الجانب الجنوبي تشمل قاعة ذات غرفتي نوم، بينما المجموعة على الجانب الشمالي رتبت حول فناء صغير، تعرف اليوم ببهو العرائس Patio de las Munecas، هكذا تشكل النواة الثانوية للقصر.

هذا الفناء له مدخل مباشر من الدهليز الأول، من خلال ممر متعرج. يتصل أيضا بغرفة النوم الشمالية لقاعة السفراء Salon de Embajadores، وإلى الغرب بخارج القصر من خلال الممر الآخر. إذ يعتقد أن هذا الممر الأخير كان يمكن أن يؤدي إلى الحمامات، العنصر الذي يصعب أن تتخيل حذفه من تخطيط قصر مثل هذا. هناك قاعة ذات غرفتين تطلان على بهو العرائس Patio de las Munecas، يعتقد أنهما كانتا مخدعًا للملكة. وهناك غرفتان أخريان متماثلتان تطلان على الفناء؛ واحدة منها تتصل بغرفة الملك. في تخطيطه، وقد نمت هذه المجموعة من الأبنية حول بهو العرائس Patio de las Munecas، المشابه جدا للمسكن الأندلسي. العنصر الوحيد الذي فقد هو المرحاض، ذلك العنصر الذي لم يعثر عليه في كامل القصر.

اشتمل المبنى على عدة غرف عليا؛ لا تبدو أنها متصلة ببعضها البعض، أكثرها أهمية تلك المجموعة الموجودة على الجانب الشمالي، بجوار الواجهة الرئيسية والتي نمت حول قاعة، والتي يمكن أيضا أن تترجم كقبة بالرغم من أن تصميمها الأساسي ليس مربعًا جدا، وهي مغطاة بواسطة منخفض خشبي ورمزيتها واضحة عند ملاحظة حجمها من وراء الواجهة، من المحتمل أن هذه القاعة كانت غرفة مقابلات خاصة بالملك، التي من نوافذها يمكن أن يقدم نفسه أيضا لمريديه المتجمعين في الميدان أو الفناء الأمامي للقصر.

هذا العنصر من قاعة المقابلات يعلو سقيفة القصر، التي تمثل النطاق في العمارة الإسلامية. حيث نجد ذلك في عدد من قصور الصحراء الأموية؛ في المدخل إلى قصر مدينة الزهراء، وأيضا في المباني المعاصرة له في مدينة إشبيلية، وبخاصة في القصور المملوكية في القاهرة.

أهمية هذه الصالة يمكن أن تتضح من خلال مراقبة قطاع المباني (شكل 11)، إذ شكلت الصالة جزءًا من مجموعة الغرف الخاصة بالملك التي يصل إليها بواسطة سلم يرتفع من الدهليز الثاني إلى الطابق العلوي، حيث توجد مجموعة غرف في البهو الجنوبي، على الجانب الشرقي هناك غرفة ذات نافذة كبيرة تشرف على الحدائق، ربما كانت غرفة نوم الأمير، على الرغم من أن اليوم تذكر بأنها تعود إلى عهد الملك بيدرو. على الجانب الغربي كان هناك الغرفة algorfa، أو

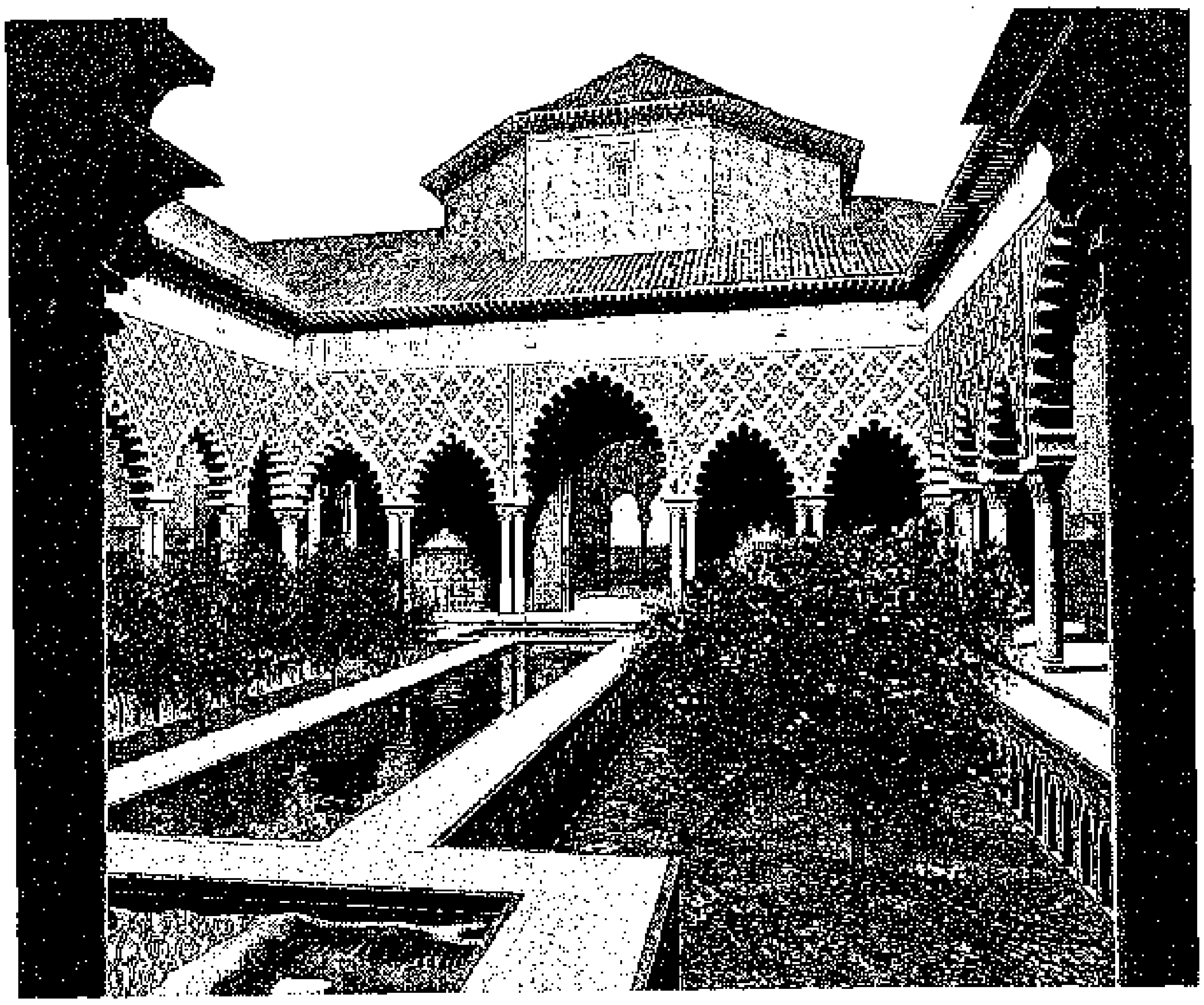

شكل 10: المخطط الأصلي لصحن قصر بيدرو الأول

طابق أعلى، ينخفض في الارتفاع؛ مع غرفة مصحوبة بغرفتي نوم، يمكن أن تكونا غرفًا خاصة بالأميرات، هذه الغرف سُدَّت وحولت إلى طابق ثانوي عندما صمم الطابق العلوي لكامل القصر في القرن السادس عشر.

بدون شك كان قصر إشبيلية مألوفًا لدى ابن خلدون، عندما كان بناؤه بشكل جيد جدًا، كمثال رائع للتعايش الثقافي الذي تألفت فيه التقاليد المعمارية الزخرفية الأندلسية والقشتالية، والتي تأثرت بالمباني الأخرى المتأخرة. عند كل من المسيحيين والمسلمين، خصوصًا قصر الأسود Palacio de los Leones في قصور الحمراء، الذي بناه محمد الخامس الذي كان ضيفًا أيضا في هذه القصور الإشبيلية.

شكل 11: المخطط الأصلي لقطاع افتراضي لقصر بيدرو الأول.

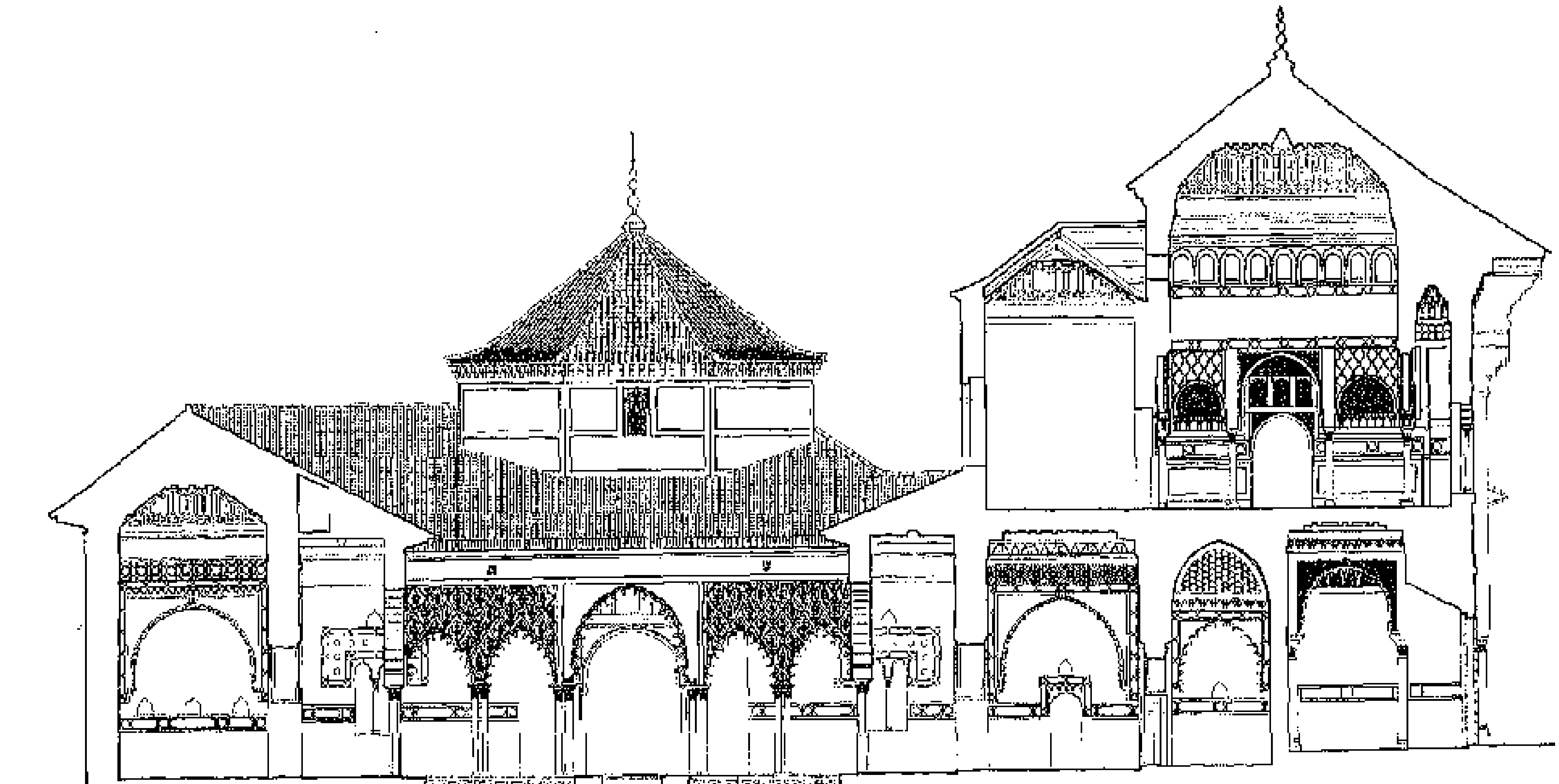

القصر الملكي في إشبيلية اليوم

خوسيه ماريا كابينا منديث
كبير أمناء القصر

ترجمة محمد عبد الغني

يُعد القصر الملكي في إشبيلية أقدم قصر ملكي في أوروبا لا يزال مستخدمًا حتى الآن. وقد سُجل في الخامس عشر من ديسمبر سنة 1987 ضمن قائمة التراث الثقافي والطبيعي في العالم التابعة لليونسكو، كما سُجل معه في هذه القائمة كاتدرائية وأرشيف الإنديز، وهي الآثار الموجودة في إشبيلية التي اعتبرتها المنظمة الدولية ذات قيمة عظيمة وفذة وتاريخية استثنائية.

وقد ظل مجلس المدينة هو مالك القصر منذ تسلم الجمهورية الثانية سنة 1931 عندما حدث تغير في ملكيته لـ "الأملاك التراثية" التابعة للتاج إذ انتقلت هذه الملكية إلى الدولة التي تنازلت عنها -بدورها- إلى مجلس مدينة إشبيلية في إبريل من العام ذاته. ولكن وبعد 58 سنة أي في سنة 1989 وفي شهر إبريل كذلك وقعت اتفاقية بين "مجلس إدارة التراث الوطني" -وهو الآلية التي تدير القصور الملكية في إسبانيا- وبلدية مدينة إشبيلية وبمقتضاها يحق لأصحاب الجلالة الملك والملكة وأعضاء العائلة الملكية استخدام "الجناح الملكي" مقرًا لإقامتهم. وبهذه الطريقة تواصل تقليد قديم عمره على مدى سبعة قرون كان "القصر" مستخدمًا خلالها كمقر ملكي وبلاط للتشريفات.

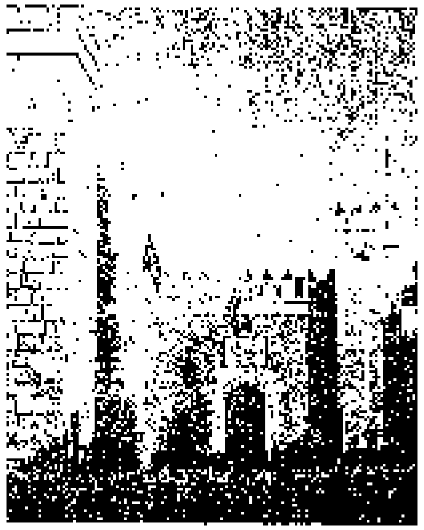

يتعين علينا أن نعترف بأن ذلك الأمر الهام المتمثل في نقل الأثر إلى بلدية المدينة لم يتم في سلاسة ويسر وبلا منازعات؛ نظرًا لأن مجلس المدينة اعتبر أن إدارة القصر تمثل عبئًا ماليًا كبيرًا على المدينة، لا سيما أن النفقة قد اعتبرت في ذلك الحين غير ضرورية. وفي أثناء حفل التسليم أعلن الوزير مارتينيث باريوس أن "[illegible]" [illegible] "لا يجب على شعبه أن يتذكر أنه وثيق الصلة في عظمته بماضي وتاريخ شعب". كما قال كذلك أنه يعتبر صورة مماثلة لكونه الشخص المسؤول عن تسليم الأثر لمدينة المدينة "يعني انتقال السلطة والسيادة الملكية إلى مصاف الشعب".

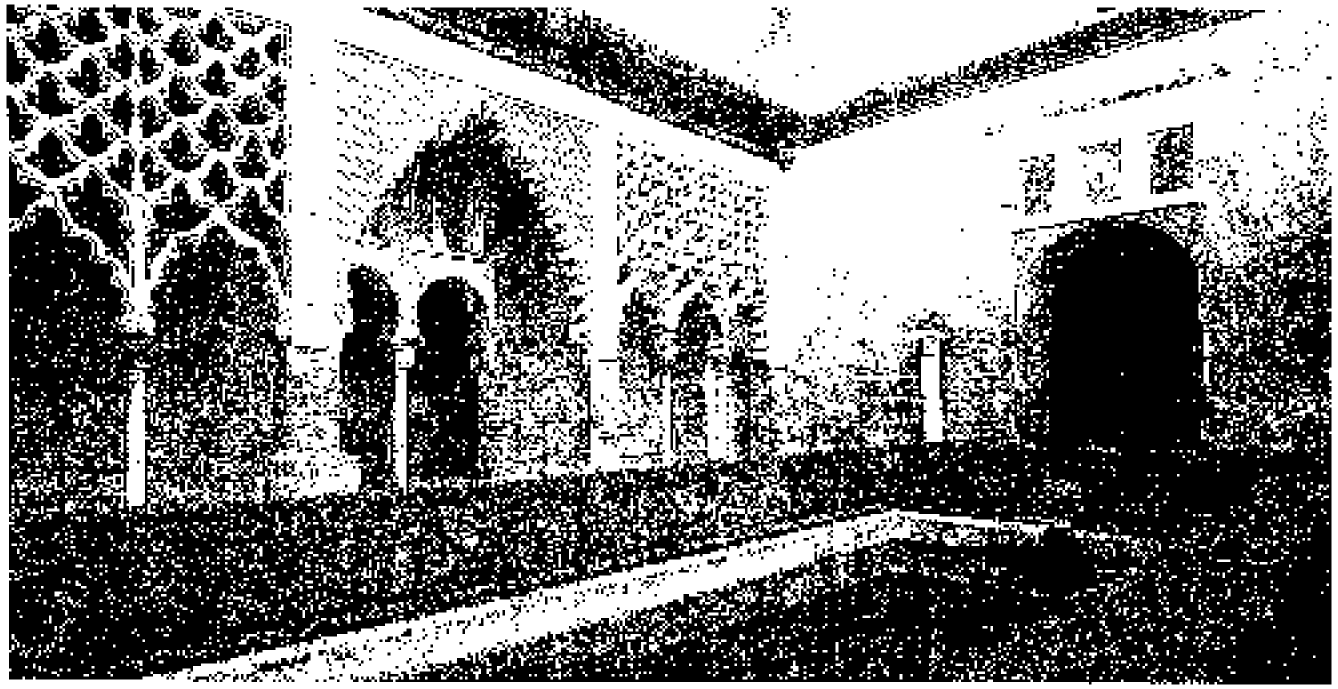

لقد كان العمل الذي تعتزم بلدية المدينة تنفيذه على الأثر في هذه المرحلة الجديدة كبيرًا وواسع النطاق - مع الوضع في الاعتبار أن المخصصات من ميزانية الدولة للإنفاق على صيانته منذ 1931 كانت متواضعة - لذا فقد [illegible] في تخطيط المشاريع من أجل الحصول على موارد مثل بيع النباتات والهدايا التذكارية، وإقامة معارض زراعية في الحدائق وهكذا. وهو بلا شك منظور جديد ومتقدم في الإدارة في تلك الفترة.

بهو الجص، وقاعة العدالة في القصر الملكي إلى اليسار.
في الصفحة المقابلة: برج وزاوية الأسد بالقصر الملكي.
إلى أسفل: منظر القصر الملكي من برج الخيرالدا.

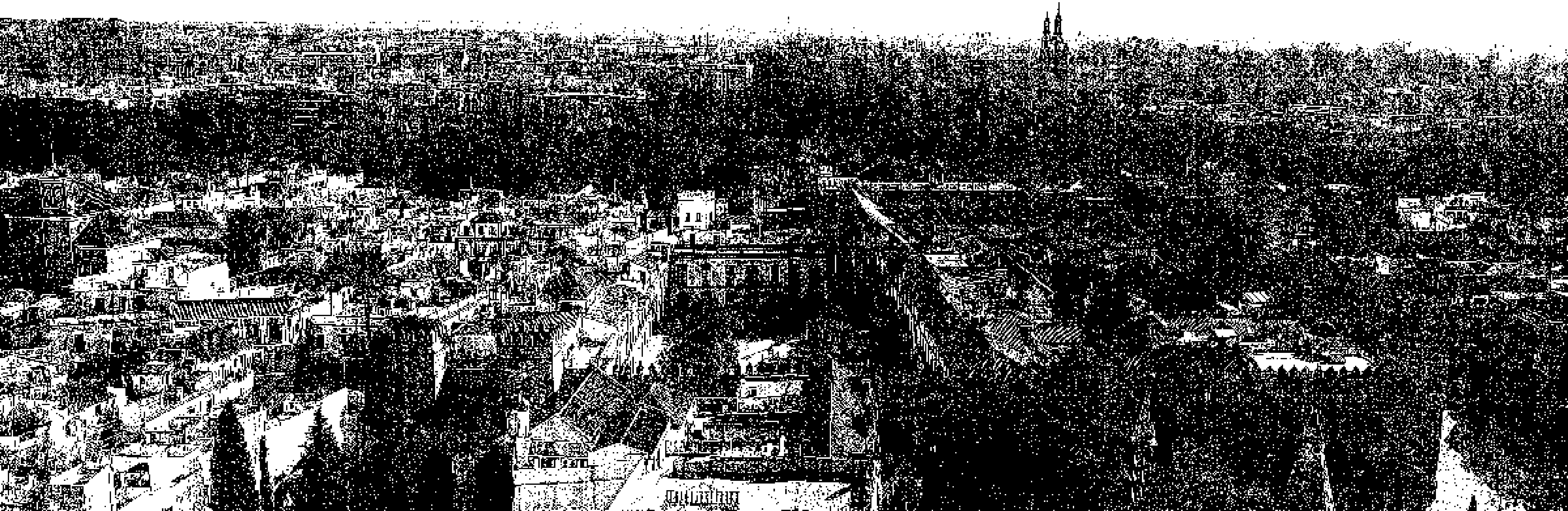

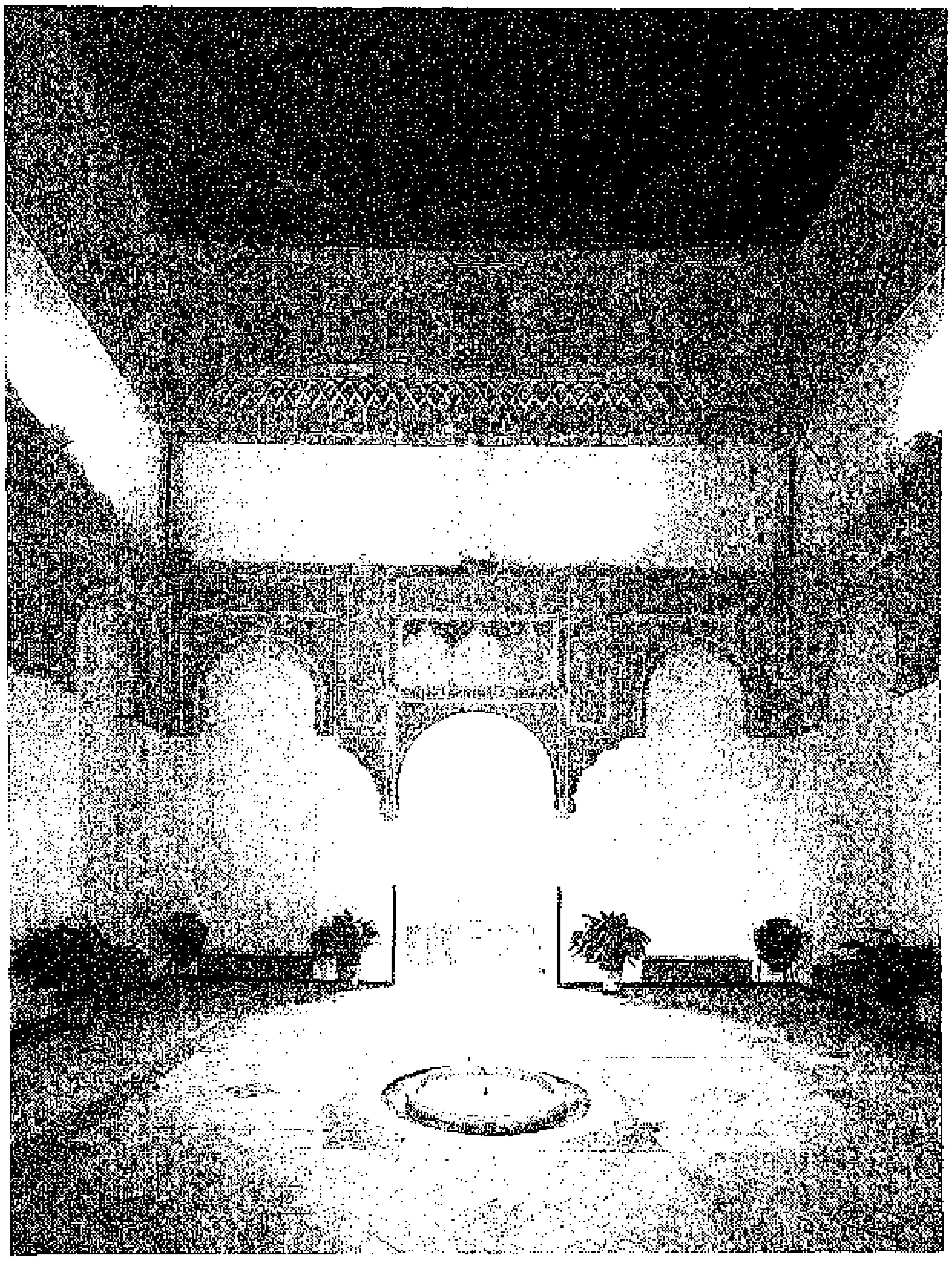

قاعة العدالة، القصر الملكي.

ونتيجة لهذا الوضع لم تكن هناك استثمارات كبيرة أو ميزانيات في الفترة المبكرة من الإدارة. لقد كان الأمر بالأحرى هو حالة مواجهة مع وضع ساد فيه اتجاه جديد يتمثل في فتح مبنى ملكي أمام شعب إشبيلية. ومن أجل هذا الغرض قُدمت مقترحات لإقامة معارض دائمة وحفلات موسيقية وحفلات التكريم، ومن أجل تنشيط السياحة في المدينة تحول هذا الأثر الذي لم يكن معلوماً للجمهور إلى منافس حيوي للحياة الثقافية في إشبيلية.

أما فيما يتعلق بالمطبوعات فقد صدرت كتب إرشادية عديدة عن المقر الملكي السابق، لاسيما ما يتصل بالحدائق والقصر المُدجن. كما تم كذلك الحصول على تصريح لتأجير القاعات المتاخمة للقصر لمؤسسات خيرية لتقيم عليها احتفالاتها، ومن أمثلة ذلك "جمعية إشبيلية الخيرية" التي كان يرأسها عمدة المدينة نفسه. وفوق ذلك قدمت مقترحات للاحتفال بـ "الأعياد الشعبية" والتي كان سعر الدخول إلى القصر فيها يُخفض إلى النصف مع منح تصاريح بالدخول المجاني لأساتذة الجامعة حال مرافقتهم لطلابهم.

بعد الحرب الأهلية وفي إطار الجهد المبذول لإبراز القيمة الحقيقية للأثر افتتح طريق جديد عن طريق التخلص من الأسوار البدائية للقسم الشمالي من المنازل التي شيدت فيما وراءها. وفضلاً عن ذلك خصصت استثمارات مهمة لكل من الحدائق التاريخية والحدائق الحديثة، بل إن الخط الأخير من حدائق السوق السابقة أمكن أن تتحول إلى حديقة رومانسية عُرفت بـ "حديقة الشعراء".

وفي فترة لاحقة في بداية السبعينيات تم إنجاز أعمال مهمة مثل إعادة البناء الكاملة للمنطقة الغربية من القصر والمعروفة بالفناء المساعد Patio del Asistente وLevies وغيرها، وكذلك صيانة القصور مثل تجديد جزء من سطح القصر المدجن، وترميم قاعة السجاد Salón de Tapices وصقل وتجديد جناح الشمس Cuarto de sol.

ومنذ فترة قريبة، في الثلاثين من نوفمبر سنة 1992 استحدثت بلدية المدينة، هيئة إدارة القصر الملكي Patronato del Real Alcázar، وأنشأته كجهاز بلدي للإدارة تشكل في الحادي عشر من يونيه سنة 1993. وفي 28 إبريل سنة 1995 تحولت الهيئة المذكورة إلى آلية مستقلة صارت منذ ذلك الحين فصاعداً المؤسسة المنوط بها تنظيم وإدارة وصيانة الأثر.

ومنذ أن بدأت هيئة إدارة القصر الملكي في ممارسة أنشطتها حاولت أن تجعل الأثر متوائماً بصورة جوهرية مع المتطلبات الحديثة مع عدم السماح بانحرافه وشذوذه عن بيئته الاجتماعية والثقافية من خلال أدائه لكافة المهام المنبثقة عن تعدد أدواره ووظائفه من مقر ملكي إلى امتداد لبلدية المدينة ومنتدى ثقافي وقاعات محاضرات جامعية - في الأساس- وكأثر. وهو الأثر

التاريخي والفني الوحيد المسجل في قائمة التراث العالمي الثقافي والطبيعي في اليونسكو الذي يحظى باستخدامات عديدة للغاية.

ومن خلال التمويل الذاتي للقصر - وهو ما يُحصّل حصريًا من مبيعات التذاكر والامتيازات الإدارية- تمكن من تغطية معظم نفقات تشغيله ونفقات الترفيه؛ فضلاً عن خدمات الصيانة والإصلاح والترميم التي وضعت خططها لتطوير أعمال الصيانة الفنية في قصور وحدائق شتى. وكذلك فإن هذه الموارد تمكن الهيئة من القيام بأنشطة مثل برامج المحاضرات والمعارض والمسرح والحفلات الموسيقية في الحدائق في الأمسيات الصيفية فضلاً عن إصدار مجموعة من الكتب حول الأثر، ومجلة Apuntes del Alcázar السنوية ودراسات وبحوث آثارية ونقشية ونباتية ومعمارية، ودفع نفقات التدريب لطلاب الجامعة ... وهكذا.

وبالمثل فإن الدور المهم الذي يلعبه القصر اليوم كأحد أكثر الآثار التي يرتادها الزائرون في مجال السياحة القومية والعالمية لابد وأن يشار إليه. إذ يستقبل القصر في المتوسط ما يُناهز مليونًا ومائتي ألف زائر كل سنة على الرغم من القيود المفروضة على دخوله لدواع أمنية. ومن ضمن هذا العدد من الزائرين هناك ما يقارب تسعين ألف تلميذ من حوالي 1800 مؤسسة تعليمية.

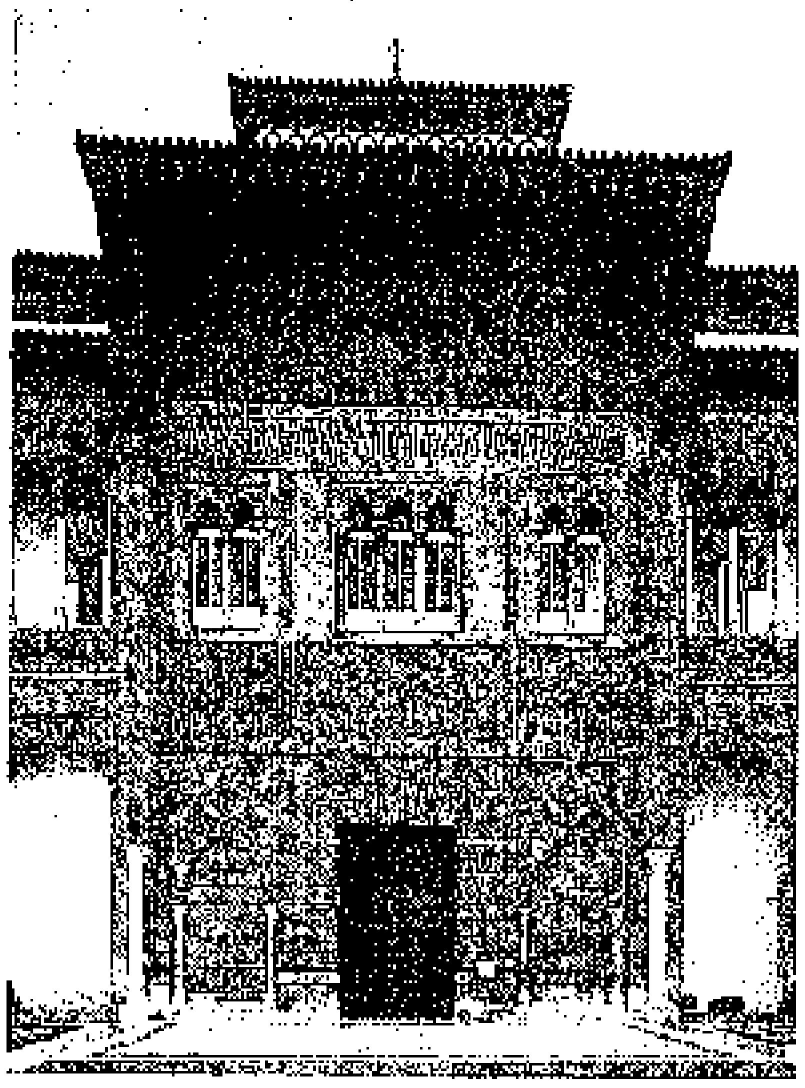

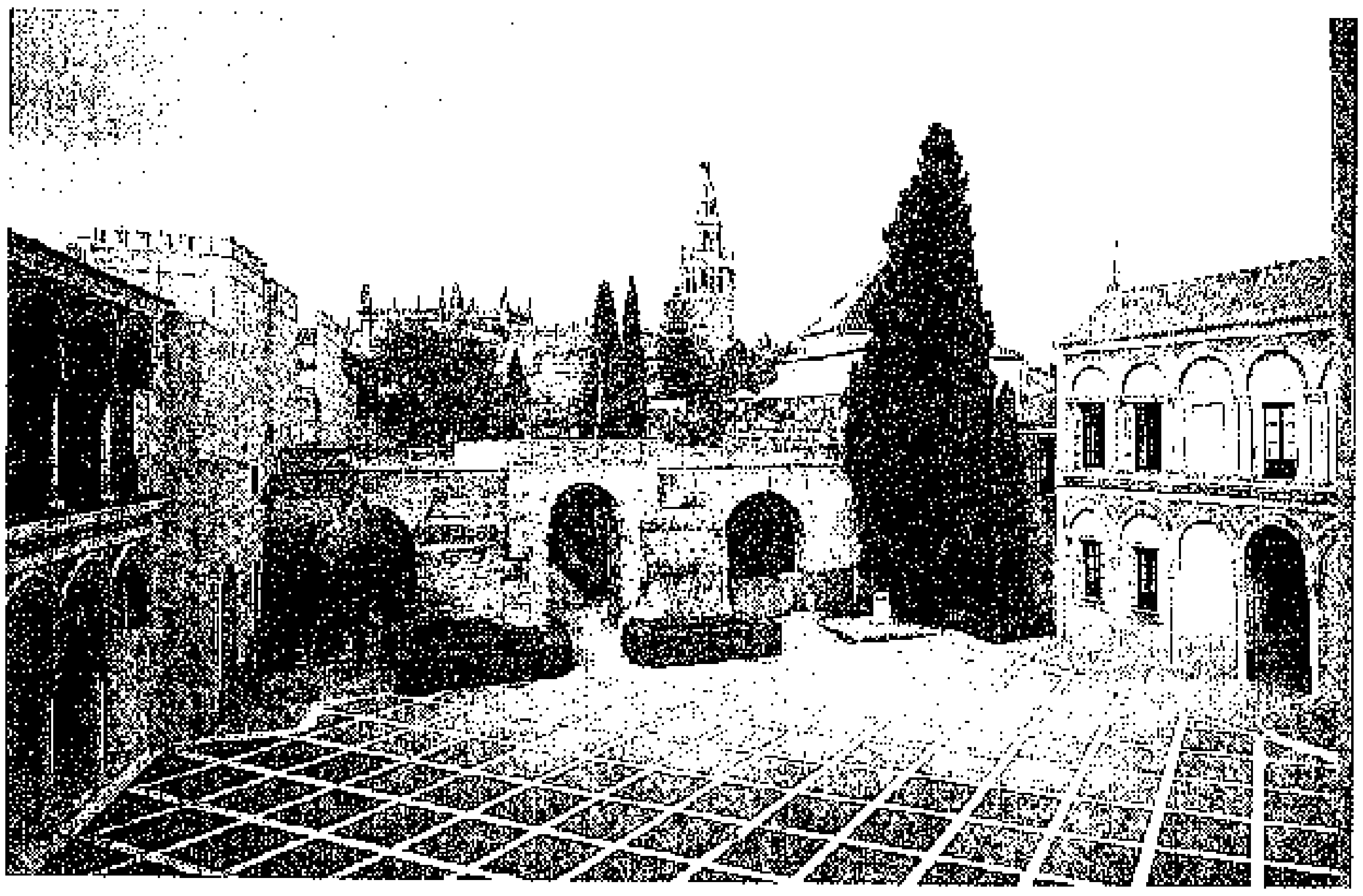

إلى اليسار، بهو القنص أو الصيد، من الجناح الملكي العلوي.
إلى اليمين، واجهة قصر بيدرو الأول، القصر الملكي

ومما لا شك فيه أن وجود السياحة في مدننا ينبغي أن يُفسر على أنه ضمانة لحماية تراثنا؛ لأنها تمثل حقيقة اقتصادية وإنسانية واجتماعية وتاريخية. ومع ذلك فلابد من اتخاذ كافة الخطوات الضرورية لحماية وتحسين حالة هذه الأصول الثقافية. لتكن سياحة ثقافية نعم، ولكن ... لابد من تنظيمها على أساس عقلاني يُدمج في إدارة هذه الأصول خطة موضوعة بعناية لاستخدام هذه الأصول وتنظيم الدخول إليها بطريقة تسهم في صيانة القيم الأصيلة الملموسة وغير الملموسة الكامنة في الأثر والحفاظ عليها قدر المستطاع.

لكننا نستطيع - ما بين السياحة والثقافة - أن نُقيّم من يوم لآخر عدم وجود الرغبة حتى الآن في مصالح اقتصادية وتطلعات اجتماعية يتحول بمقتضاها تطور كل منهما وتنميته إلى هدف عام. لذا فإننا نعتقد جازمين بأنه ينبغي إزالة واستئصال عدم الثقة القائم بين القطاعين. فمن جهة المختصين في السياحة فإن القطاع الثقافي يظل يشكل أقلية من الصفوة ويعجز عن جذب جمهور أوسع وعن المساهمة بصورة حاسمة في التطور الاقتصادي لصناعة السياحة. ومن جانب الثقافة فلا يزال الرأي السائد والغالب يرى أن (قصور) السياحة الثقافية هو أحد عناصر السلبية الجماعية كمثال على الابتذال والسطحية البنيوية. إذا ما اعترفنا إذن أن عدم الثقة هذا يجد حجة وبرهاناً في سلوك قطاعات بعينها فلابد أن نضع في اعتبارنا أن التباعد المحتوم بين القطاعين هو الحل العملي الأمثل.

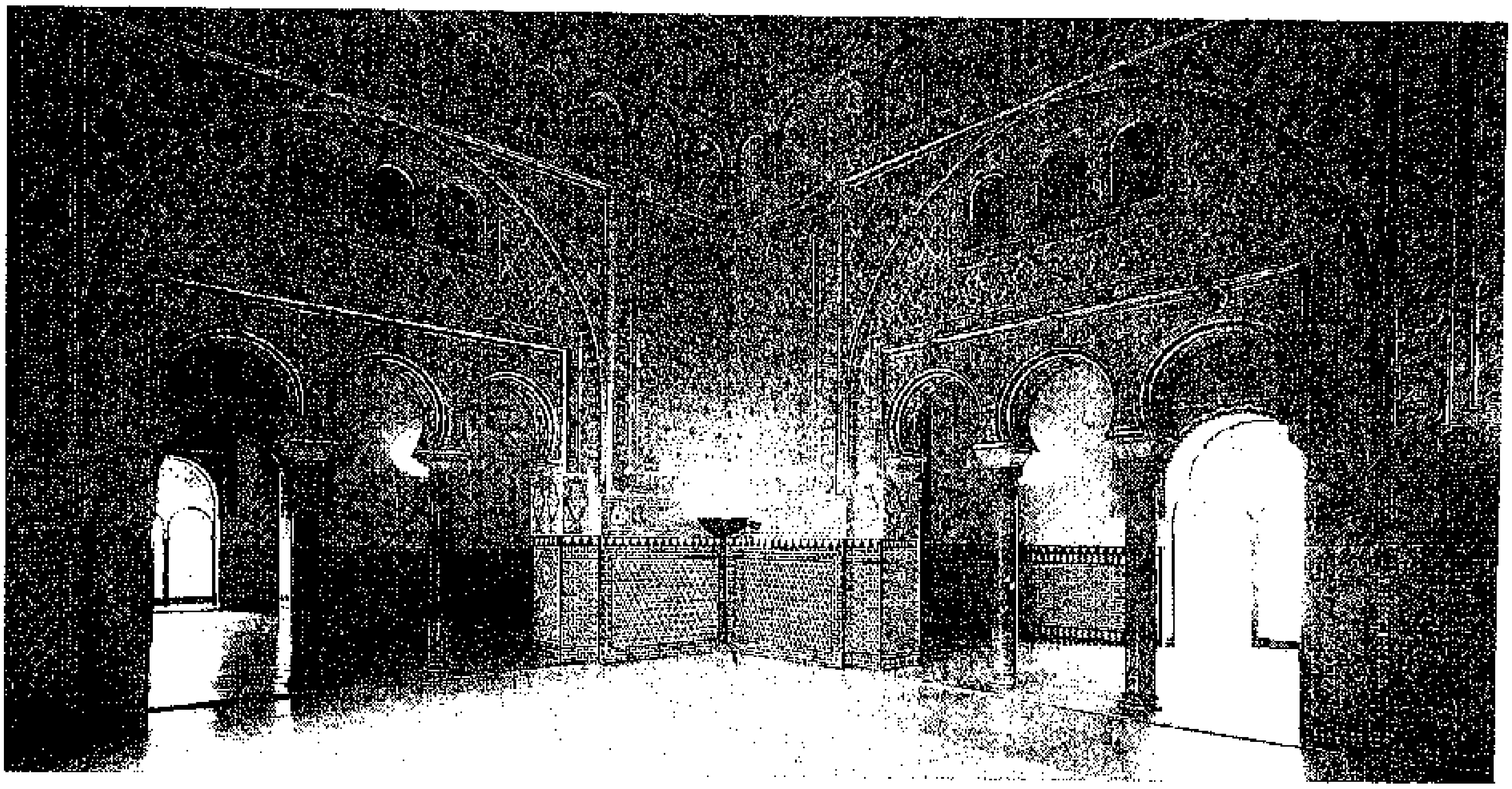

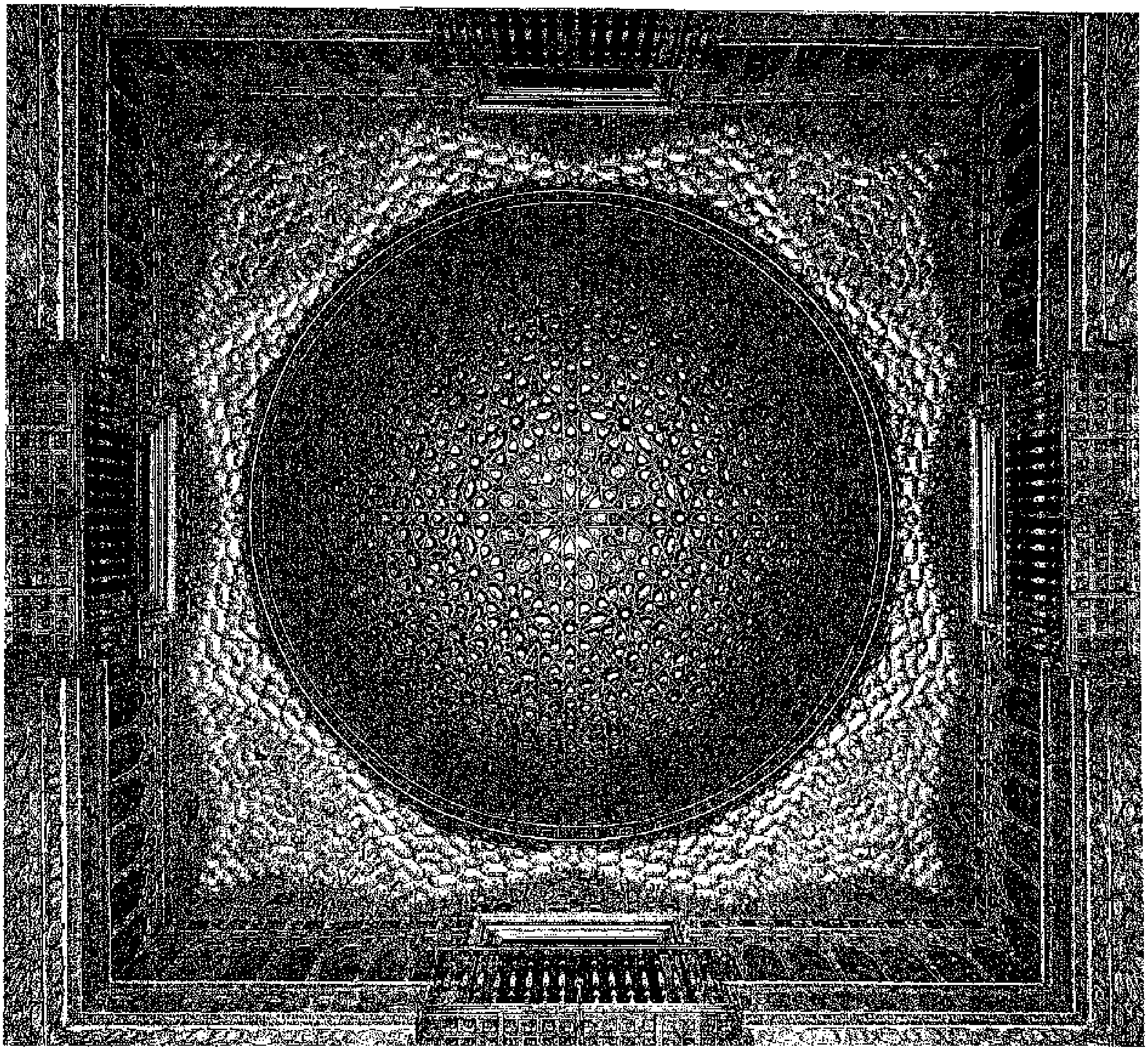

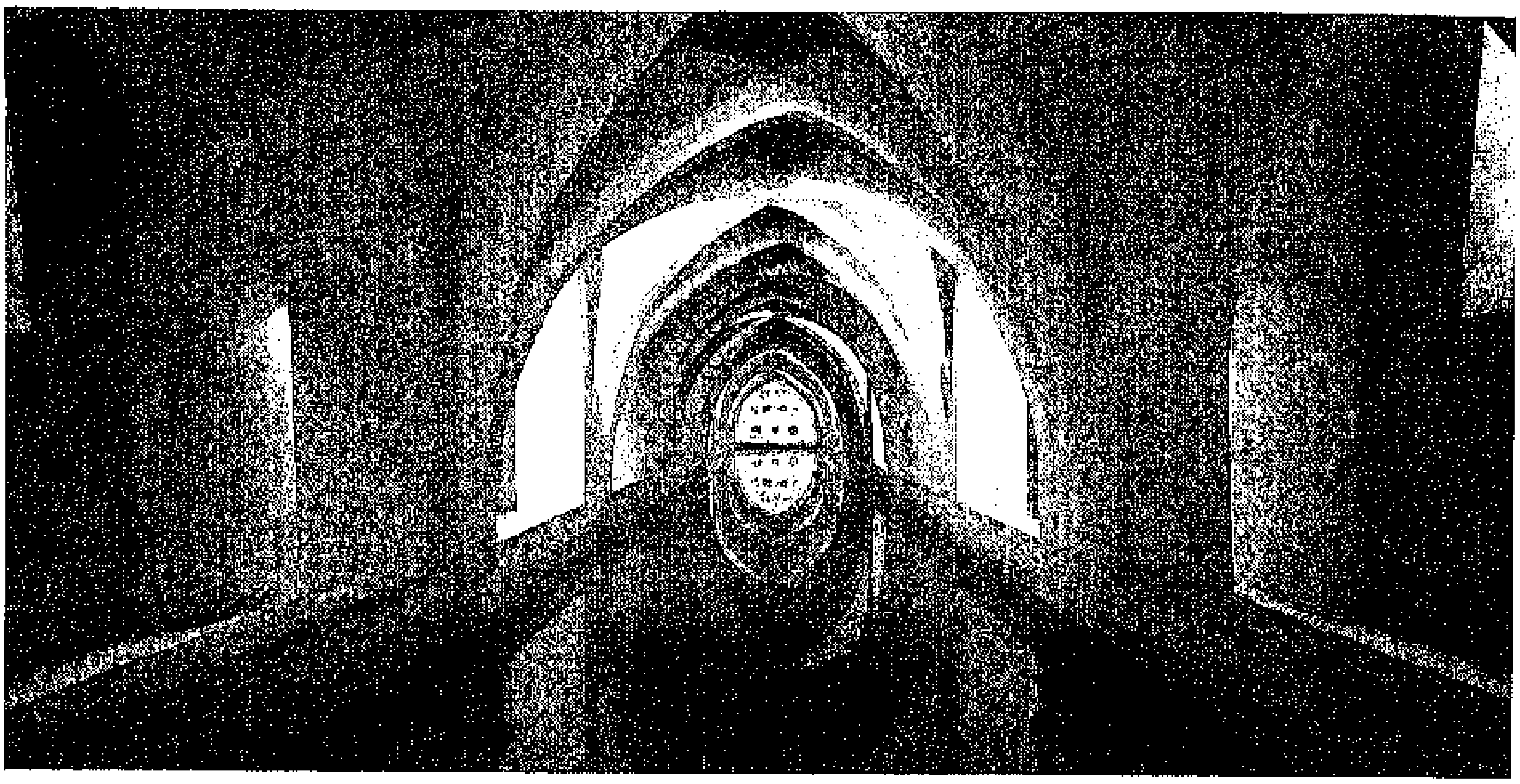

أعلى، بهو المفرق وحمامات دونا ماريا دي بادي، القصر الملكي بإشبيلية.

أسفل، سلسلة من الحدائق الإسبانية والإسلامية الملاصقة لقصر بيدرو الأول في القصر الملكي.

الصفحة المقابلة، صالون السفراء في قصر بيدرو الأول والقبة التي تغطيه.

وفيما يتعلق ببعض الأمور الأخرى نود أن نشير إلى أنه منذ قيام هيئة إدارة القصر الملكي، بُذلت جهود من أجل إنقاذ كافة مناطق الأثر التي لم تكن مفتوحة للجمهور. ومن الأمثلة على ذلك أنه من الممكن الآن زيارة الأجزاء الآتي بيانها بعد إجراء الترميم لكل منها وبعد افتتاح قاعة الجروتسك وكافة الحدائق الإسبانية – الإسلامية (1991 - 1992)، حمامات دونا ماريا دي باديا، وصالة العدالة، وفناء الجص، وكذلك بيت المعاون Case del Asistent؛ وقاعات Atlas de Almirante وPabellón de la China المستخدمة الآن كفصل دراسي، وساحات أخرى.

وفي إطار هذه الأهداف المفضية لإيجاد المزيد من المساحات المتاحة أمام الزائرين في القصر والحدائق بقدر المستطاع وقِّعت اتفاقية سنة 1999 مع هيئة التراث القومي بهدف فتح جناح القاعة الملكية العليا المعروف كذلك بقاعة الملك بيدرو الأول في القصر المدجَّن في القصر أمام الجمهور. وتستند هذه الاتفاقية إلى الاتفاقية السالفة الذكر الموقعة في إبريل 1988 والتي فوِّضت فيها بلدية إشبيلية –مالكة الأثر– هيئة التراث القومي في استعمال القاعة الملكية العليا، وملحقاته استخدامًا حصريًّا لصاحبي الجلالة ملك وملكة إسبانيا خلال إقامتهما في إشبيلية لأية فترة بغير تحديد. لكن بلدية المدينة احتفظت بحق إقامة المعارض الفنية التابعة للتراث القومي وتنظيم زيارات بمرشدين لها في الأيام والأوقات الملائمة لظروف المقام السامي في المقر الملكي.

من المعلوم أن عمارة الآثار تحظى على الدوام بفخر واعتزاز خاص للشعوب في كل مكان إذ تجتمع فيها ذكرياتها ورمزيتها ومعظم جذورها التي أسهمت بلا ريب في تكوين هويتها. لذا دعنا نتفق على أن أكثر الرموز الثقافية توجد في التراث المعماري في مجمله لأن تلاحمًا تامًّا قد وُجد دومًا بين العمارة والمجتمع لهذا السبب لابد – عند كل تدخل في الأثر – من احترام مفهومه وأساليبه الفنية والقيم التاريخية للتصميم المعماري الأصلية، وكذلك مراحله المختلفة،– كما أسلفنا – وينبغي أن تكون دورة المعرفة المتحصلة عنصرًا جوهريًّا في البحث وينبغي التعامل معها ليس على نطاق تخصصي حرفي فقط بل في الأبنية العامة كذلك.

أما فيما يتصل بمساحته فإن مساحة القصر اليوم تبلغ سبعة هكتارات من الحدائق وحوالي 14.000 متر مربع من المباني. ولكن لابد من التنويه إلى أن مساحته الحالية تقل بمقدار خمسة هكتارات عن المساحة التي وصل إليها في عصر الموحدين. وإجمالاً فمن اليسير التخمين بأن كلاًّ من الفترتين الإسلامية والمسيحية قد تركت بصمتها، سواء فيما يتعلق بالعمارة أو بالمناظر

الطبيعية. هذا هو السبب الذي يدعونا إلى ضرورة تفهم أن الصورة التي يمكن تقديرها اليوم هي نتيجة السلسلة من أعمال التشييد والتدمير التي وقعت عبر تاريخ تعلم أنه بمثابة توليفة لمدينة إشبيلية. إن القصر ليعتبر اليوم أول وأبرز مبنى مدني في إشبيلية.

من المؤكد أننا لو اعتبرنا أن الحاضر هو نتيجة الماضي جزئيًا لكان بوسعنا أن نقدر كيفية النمو المطرد للقصر الأثري وغناه بالتوسعات المختلفة والإنشاءات الجديدة في الفترة الإسلامية والإصلاحات والتجديدات المتعاقبة في الفترة المسيحية. فعلى سبيل المثال لم تكن هناك حتى القرن السادس عشر حدائق بالقصر بمعناها الحالي، بل كانت هناك ساحات بها نباتات عطرية ومزارع للخضروات، ولكن لم توجد حدائق زهور. ومع نهاية ذلك القرن وبداية القرن التالي تم تزيين الأثر بحدائق متأنقة بكل ما تحمل من معنى رمزي، رغم أن تدخلات أخرى لاحقة لم يحترمها بالطريقة الملائمة. أما حدائق الزهور فإنها لم تحل محل حدائق الخضر بصورة كلية حتى القرن العشرين وهكذا تحولت خزانات المياه إلى برك وأحواض ضمن تعديلات أخرى. واليوم يتمتع الأثر بمساحة شاسعة من الحدائق بها ما يزيد على خمسة آلاف نوع من النباتات تنتمي إلى ما يزيد عن مائتي فصيلة مختلفة. إن خبراء النبات لا يفهمون كيف يتسنى جمع هذا الكم الهائل من النباتات المتنوعة للغاية جنباً إلى جنب، وهم يرجعون ذلك إلى المناخ الجيد للمنطقة ووفرة المياه الموجودة في ثلاثة عيون قائمة الآن.

ولابد من التنويه إلى أن البلاط الملكي قد شهد ميلاد ووفاة أعضاء من الأسر الملكية. فيمكن الإشارة على سبيل المثال إلى مولد فرناندو الرابع هنا، وكذلك الأمير دون خوان سليل الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، والأميرة ماريا أنطونيتا ابنة فيليب الخامس وإيزابيل دي فارنيسيو، وفرناندو الثالث قاهر إشبيلية ومشيدها بعد ذلك، والفونسو العاشر وماريا دي باديا. كما استضاف القصر بطبيعة الحال حفلات زفاف ملكية مثل الأميرة إيزابيل ابنة الملكين الكاثوليكيين، إلى الأمير ألفونسو من البرتغال، ودونا جرمانا دي فوا أرملة فرناندو العاشر، إلى دوق كالابريا Calabria، وزوجة الإمبراطور كارلوس الخامس وإيزابيل دي براجانزا، ومؤخراً جداً زفاف الأميرة إيلينا دي بوربون ورون خايمي دي ماريخالار في 18 مارس سنة 1995. مثل هذه الأحداث التي تضفي بُعدًا تاريخيًا خاصًا على الأثر تجعلنا ندرك بصورة مطلقة أنه لكي نتعرف على أثر فارق الأمر يجب أن لا نتوقف على مجرد مسألة معرفة كل ما يتعلق به بل في الرغبة في المعرفة؛ إن الرغبة في فهم الأثر كصورة مكثفة للتاريخ تعني تفسير الماضي الخاص بنا على الرغم من أنه ينبغي إيجاد تجانس ومواءمة بين هذه القيم غير المذكورة وبين المهام التي يتطلبها الحاضر.

إن أتباع هذا الخط الفكري وإدراك أن التاريخ ليس كائنًا ميتًا وإنه يظل يُكتب بصفة مستمرة- كما يقول ج. دوبي "لابد أن يكون مدخلنا إلى التاريخ من منظور مختلف – جعل هيئة إدارة القصر الملكي تقوم منذ سنة 1997 على تنظيم وتمويل سلسلة من الدراسات والبحوث من أجل التوصل إلى رؤية جديدة علمية للأثر فضلاً عن أغراض أخرى. إننا نحتفظ في أذهاننا بشدة بأننا لابد أن نعتبر التراث الأثري مساويًا للتراث العام، لأنه لكي نعرف ومن ثمّ نفهم أصول وتطور المجتمعات البشرية التي وجدت في القصر على مر العصور فإن القيام بتنقيبات أثرية يُعد أمرًا جوهريًا. وكنتيجة لهذه البرامج والمنهجية التطبيقية كشفت تنقيبات صيف سنة 2002 عن حديقة من العصور الوسطى كان بيدرو الأول قد أمر بإقامتها في باحة العذارى Patio de las Doncellas في القصر المدّجن. وقد تم توثيق الحديقة على الرغم من عدم معرفتنا بالحالة التي وصلت بها إلى العصر الحديث (من زمنها القديم).

وفي ضوء هذا الاكتشاف والحالة الطيبة التي عليها ارتأت هيئة إدارة القصر الملكي- بعد فترة قصيرة من بداية الحفائر – أنه من الملائم إعلان هذا الكشف على الملأ من خلال دعوة أجهزة الإعلام وعرض المكتشفات عليها. وكان الهدف هو تحفيز قيام مناظرة عامة لا تخص الخبراء فقط بل قُصد أن يشترك فيها الجمهور عمومًا وأهل إشبيلية على وجه الخصوص باعتبارهم مُلاّك الأثر.

إن حالة عناصر قصر المدجّن المكتشفة أثارت مطالب عاصفة لاستكمال التنقيبات وتحديد قيمتها رغم أن ذلك يحتم التخلص من الطبقة التي كان يشغلها الرصف من عصر

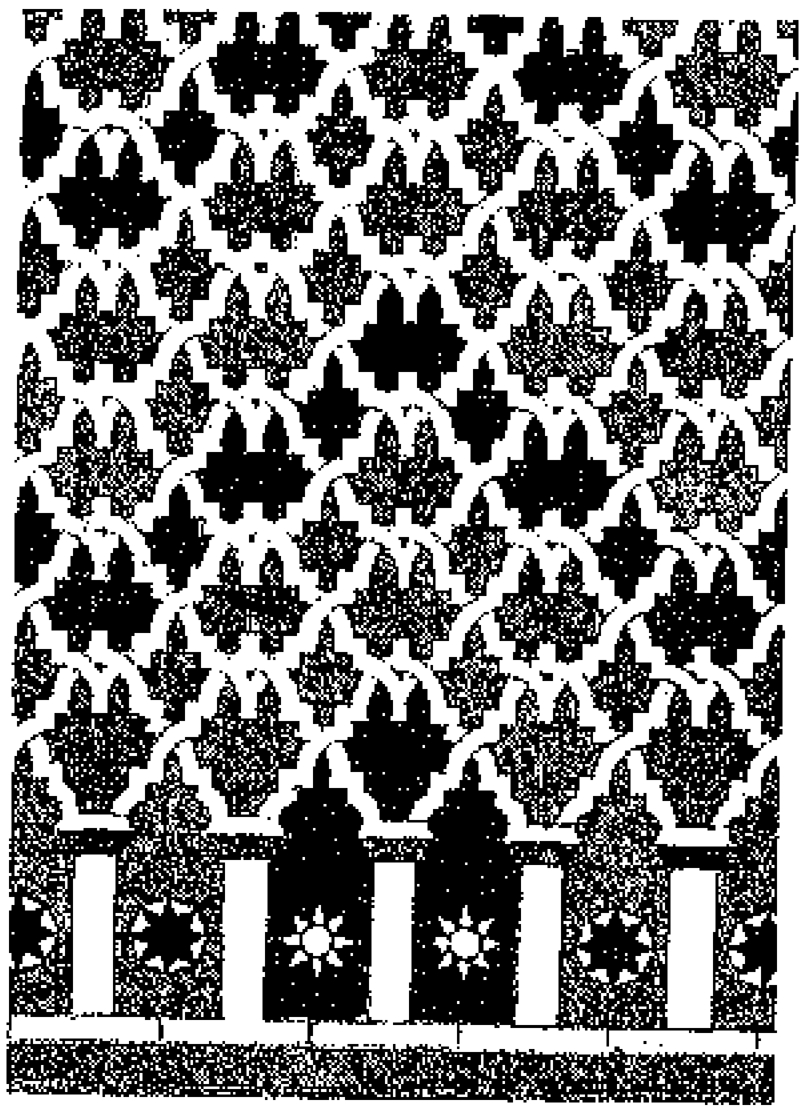

أعلى، قوالب القرميد في السور المدجّن من باحة العذارى.
أسفل، غرفة معروفة على أنها غرفة نوم الملوك المغاربة وهي تالية لبهو العذارى.

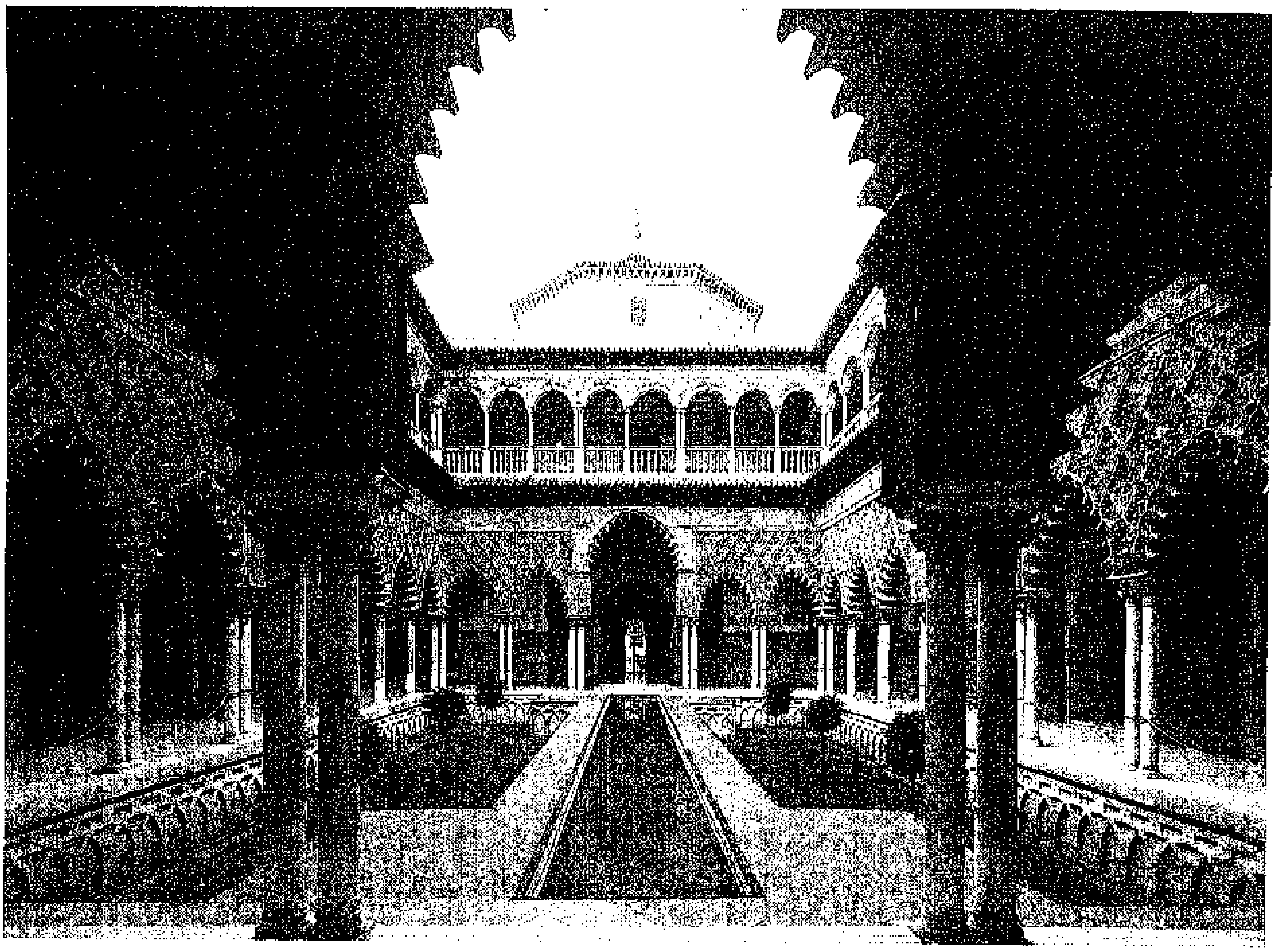

بهو العذارى في قصر بيدرو الأول في القصر الملكي اليوم.

النهضة. وهنا على وجه التحديد أثير الجدل حول الموضوع وذلك لوجود أسباب قانونية وتراثية تقف حائلاً دون الوصول للأثر.

قليلون، بل قليلون جدًا، هم من تفهموا أن الأولوية كانت لصيانة مظهر واستخدامات باحة العذارى Patio de la Doncellas كما كانت موجودة حتى ذلك الحين، أي على الوضع الذي كان عليه في نهاية القرن السادس عشر، لأن معظم الناس والمؤسسات اعتبرت أنه مع اكتشاف القاعات المحيطة واستقرارها البنائي وضمان ذلك فلابد من ترميم حديقة العصر الوسيط (من القرن الرابع عشر) بكاملها. لكن البعض حبذوا معيارًا وسطًا تمثل في اقتراحهم إدخال شريحة زجاجية تجعل بالإمكان عرض أعمال القصر المدجّن دون فقدان المستوى القائم. لكن هذا الحل الذي قد يشوه الاختيارين التاريخيين رُفض منذ البداية.

في ربيع سنة 2005 تحققت الاستعادة الكاملة لحديقة العصور الوسطى السالفة الذكر وهو المشروع الذي يعد أهم مشروع ترميم يُنفذ في القصر في عصرنا؛ وقد تم ذلك بعد سلسلة طويلة من المجسمات الأثرية التي أظهرت تشكيلة هامة ومتنوعة من المباني التي كانت قائمة قبل دخول الإسلام، وقد نشرتها الهيئة مع تفسير مغزاها في حينه. كل هذا قد أسهم فقط في تعزيز الاعتقاد بأنه لكي نحل مشكلة التراث التي تثور في أي من الأصول ذات الأهمية الثقافية فليس هناك من سبيل أفضل من التعرف على رأي أكبر عدد ممكن من المهتمين لأننا نعلم أنه في حالة وقوع أي خطأ فمن الأيسر تصويبه إن كان خطأً جماعيًا.

إننا نعتقد عن يقين أن حديقة باحة العذارى Patio de las Doncellas ستبقى مرجعًا في طريقة شرح وتفسير كيفية الحفاظ على تراثنا المعماري، وذلك من حيث المفاهيم والمعايير والتقنيات والقواعد وهكذا؛ باختصار فإنها تعبر عن نقاشات تمكّننا على الدوام من إبراز وإثبات ما يتمتع به مجتمعنا – تاريخيًا – من سبل نزيهة وواعية في فهمها للأثر الملكي.

الخاتمة ، والمصادر، والمراجع

الخاتمة
تقييم ابن خلدون ومعاودة تقييمه

ماريا خيسوس ڤيجيرا مولينز
جامعة كومبلتنزي – مدريد

ترجمة إسحاق عبيد

هذه هي خاتمة لعمل جماعي يأخذنا إلى رحلة تاريخية، تزودنا بقاعدة تعيننا على تفهم موقفنا الحالي، وعلى فتح بصيرتنا قبالة ساحات وأزمان أخرى، متضمنة كل المعرفة والإلهام الكامنة في هذه الرحلة. كما أنها فرصة للتعريف على الاكتشافات التي كان قد توصل إليها العبقري عبد الرحمن بن خلدون (1332 – 1406)، الذي سرت أفكاره في كل أنحاء العالم، بعيداً عن دعوات الفرقة والتنابذ التي تسعى للتفريق بين بني البشر. ولعل خير ما نخرج به من هذه الرحلة التاريخية، أن نستبصر السبيل لمعرفة حقيقة أنفسنا بشكل أفضل.

هذا الكتاب بعنوان: "ابن خلدون.. البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات"، قد حاول الإجابة عن العديد من الأسئلة المتشابكة، التي توصي بها سيرة حياة وأعمال كاتب كتاب "المقدمة"، في ذكرى مرور ستة قرون على وفاته. وفي هذه الرحلة نعرض لسيرة حياة هذا الرجل، زمنيًا وجغرافيًا، مع تحليل أهم أحداث عصره، وننتهي بمناقشة أحكامنا عليه، وبإبراز الدروس المستفادة من خبرته التاريخية. وفي مطارحتنا لهذه الأحداث في ذاك القرن الحرج (الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي)، من خلال إشارات ابن خلدون في كتاباته، حاولنا أن نؤكد على المقاربة الإنسانية التي كانت من سمات العلامة ابن خلدون في رؤيته للأحداث وفي التدليل عليها بالبرهان.

ولابد لنا هنا من الاعتراف بفضل وجهود من سبقنا من العلماء: فالكتاب الذي بين يدَي القارئ الكريم ينتمي إلى أربعٍ من حقب البحث في الينابيع التي لا تنضب لابن خلدون.

- الحقبة الأولى: مرحلة الكشف والتقدير (القرن 14 – القرن 19).
- الحقبة الثانية: جهود المستشرقين في معاودة الكشف عن "التاريخ العالمي"، و"المقدمة" (القرن 19 – منتصف القرن العشرين).
- والحقبة الثالثة: نشر أعمال ابن خلدون؛ وتأكيد قيمته في حقول التخصص (من منتصف القرن العشرين).
- الحقبة الرابعة: عالمية ابن خلدون (الوقت الحاضر).

ولقد استهلت الحقبة الرابعة، وهي الحالية، مع نهاية القرن العشرين، وهي تتسم بالتوازن في أحكامها [1] على أعمال ابن خلدون؛ وباتساع نطاق الاهتمامات من جانب المتخصصين والباحثين. ولقد ساعد هذا على نشر أفكار ابن خلدون، ليس فقط في مجالات التاريخ، والأجناس، والجغرافيا، والسياسة، والفلسفة، والاجتماع، وهي جميعًا من نتاج مساقات متعددة، وإنما أيضاً في مجالات الطب، والبيئة وغيرهما من الحقول. كما أن مقام هذا العالم الجليل قد تعزَّز في دوائر الدارسين للاقتصاد، والممارسات، والتنظير، ما بين الرأسمالية والمادية التاريخية. ولعل من أبرز الصفات التي نُعت بها ابن خلدون أنه كان "الرائد" لأفكار عديدة ومجالات شتى للعلوم. ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن ابن خلدون قد ضمن "المقدمة" إشارات إلى النظام الضريبي، وإلى رأس المال، وإلى العديد من الأبعاد الأخرى في فكر سوف يظل يثير فضول القارئ على مدى الزمان. وهناك مثال واحد نبه إليه الأستاذ إي. سيرا كافولس (E. Serra Kafols) في مقاله عن "العرب وجزر الكناري الإسبانية"، حيث يقرر أن ابن خلدون في الأسطر التي خصصها لجزر كناري" أكثر قيمة من كل ما كتب عن هذه الجزر في الآداب اليونانية– اللاتينية والمشرقية .... إن ما قدمه ابن خلدون عن هذه الجزر في إيجاز وإبداع لا يقدر

1 راجع المصادر والمراجع.

عليه إلا خبير بالأعراق على شاكلة ابن خلدون". ولقد امتدح الكثيرون من العلماء الكنوز العلمية الوفيرة التي وردت في "المقدمة".

ويمكن القول بأن هذا الكتاب الذي قد أنجزناه يمثل إسهامًا في تقريظ أعمال ابن خلدون وأعماله الخالدة. والحق أن قيمة ابن خلدون ذات صبغة عالمية، وتأتي احتفالية ابن خلدون في سنة 2006 لتزدان بعنوان "عام ابن خلدون".

إن المرحلة الرابعة، والتي هي مسئوليتنا اليوم، تأتي في أعقاب المراحل الثلاث التي أشرنا إليها سلفاً. وهنالك الكثير من الملامح المتداخلة بين هذه المراحل، كما أن بعض هذه الملامح مشتركة بين المراحل الأربع. ويمكن التحقق من ذلك من خلال النظر إلى آلاف المطبوعات والمراجع عن ابن خلدون (راجع مواقع الإنترنت)، وأيضا من خلال الزوايا المتعددة في فهم كتاباته. وقد سبقت مرحلتنا الرابعة هذه، ثلاث مراحل هامة:

المرحلة الأولى التي بدأت في عصر ابن خلدون، عندما ظهرت مخطوطات أعماله باللغة العربية. وقد كانت جهات كثيرة تلح في المخطوطات، مثلما كانت الحال مع مكتبة السعدي في المغرب. والواقع أنه قد تمّ الكشف عن قيمة ابن خلدون داخل أروقة الثقافة الإسلامية على يد العرب والأتراك، ومنها ذاع صيته في كل الآفاق. لقد أعجب المعاصرون بهذا العلامة الفذ، كما أن مريديه من أمثال ابن عمار، وابن حيار، والمقريزي قد قالوا عن المقدمة بأنها زبدة زبد المعرفة، كما أن مشاهير كتاب القرن الخامس عشر من أمثال القلقشندي، والسخاوي، وكذا أعلام القرن السادس عشر والسابع عشر من أمثال التنبكتي، والونشريسي (تحقيق الرباط: 1، 22)، الذين قدموا تعليقات على أعمال ابن خلدون - كل هؤلاء، وأولاء قد أشادوا بهذا العلاّمة، أو أشاروا إليه عرضًا (كحجة يحتج بأفكاره)، من أمثال الزرهوني في كتابه "رحلة" (ترجمة جوستيتارد، ص 24). في أطلس القرن الثامن عشر، والتي قدم العالم المغربي المرموق محمد المنوفي تفاصيل هامة عنها في محاضرته عن "اهتمام الكتاب العرب "بالمقدمة" لابن خلدون، في المؤتمر الذي عقد في الرباط سنة 1979 عن ابن خلدون. وفي إطار الثقافة الإسلامية، برز الأتراك وقدموا إسهامات هامة، تتضح من حقيقة أن كتاب "المقدمة" قد ترجم إلى اللغة التركية سنة 1674. والحق أن المثقفين الأتراك كان لهم قصب السبق، كما أنهم أبدوا اهتمامًا خاصًا بكل أعمال ابن خلدون، ولا يزال هذا الاهتمام متحفزًا حتى اليوم. ويتضح هذا الاهتمام، كما أوضح ب. لويس، في الكم الهائل والجيد من مخطوطات ابن خلدون المحفوظة في مكتبات تركيا. ولقد ذهب الأستاذ س. فيشر إلى حد القول بأن "الحلزونية" قد أفرزت بشكل مكثف من خلال الأدب التركي بدءاً من القرن السادس عشر فصاعداً، وهي فكرة تبناها الأستاذ ز. ف فندكوغلو فهري وراح يعممها على الأدب التركي في كليته.

أما في العلم العربي، فإن أهميته ابن خلدون في الأدب العربي نفسه في المرحلة الأولى من "الكشف"، لا تزال موضع جدل وأخذ وعطاء، بالنسبة لأفكاره، وإن كانت هناك علامات على استمرار الاهتمام بقيمة هذا العلامة. ومن المرجح؛ كما قال الأستاذ أ. عبد السلام: أن النسخ الكاملة من "التاريخ العالمي" لابن خلدون لم تكن موجودة في تونس في القرن السابع عشر وجزء من القرن الثامن عشر، وأن شهرته قد ظلت ثابتة محفوظة حتى أمر "الباي" علي (1740- 1756) بنسخ أعمال ابن خلدون من المخطوطات المحفوظة في فاس، ثم أدخلت هذه النسخ ضمن كتب التاريخ التونسية، الأمر الذي ظهرت آثاره على التاريخ نفسه.

وكما ذكرنا آنفًا، فإنه بالإضافة إلى مناقشة الطريقة التي تم بها تضمين أعمال ابن خلدون في التراث العربي، فإننا نظرنا أيضا إلى أصداء هذا الميراث الخلدوني القيم. ولقد كان تأثير ابن خلدون على تلميذه المقريزي واضحًا، وإن كانت الدلائل على الاستشهاد بفقرات من "المقدمة" في أطروحات المقريزي حول السياسة والإدارة هزيلة. وعلى العكس من ذلك ما نجده عن ابن السكال المكناسي (توفي في فاس سنة 1415)، رجل الدين المتصوف وصديق ابن خلدون، الذي كتب أطروحتين عن فن الحكم: نصح ملوك الإسلام، و"الأساليب"، والذي تأثر كثيرا في عمليه

هذين بأفكار ابن خلدون. أما ابن الأزرق (مالقة: 1428 – القدس 1491)، وهو طبيب مسلم فقد نسخ فقرات كاملة كتبها ابن خلدون، وضمنها في كتابه الضخم "بدائع السلك".

والحديث عن أفكار ابن خلدون الخلّاقة لا ينتهي وكذلك الحال عن آرائه في العلوم البحتة وعلم الاجتماع. وعلينا أن نتذكر أيضا في هذا السياق الكاتب المغمور أبا يوسف السيتاني (القرن 16)، الذي انتقد في كتابه "المنتهى" الفصل الخاص بالميراث الوارد في مقدمة ابن خلدون".

على أن أول عمل يستحق التقدير بالنسبة لكنوز الماضي الفكرية قد جاء على يد نصر الهوريني عندما قام بتحقيق "التاريخ العالمي" في مطبقة بولاق بالقاهرة سنة 1284هـ/1867–1868 في سبعة أجزاء. وهذا برهان على الاعتراف بقيمة ابن خلدون، من خلال إخراج مطبوع. ومن بعدها توالت طبعات هذا العمل على يد الناشرين الأوروبيين، ومعها ترجمات له (مع مقدمة الكتاب ومسيرة ابن خلدون الذاتية). وفي القرن التاسع عشر ظهرت طبعات جديدة لهذا العمل الخلدوني، إلى جانب الترجمات المختلفة التي انتشرت في ربوع العالم في القرن العشرين.

وهذه الحلقة التي تؤدي إلى المرحلة الثانية (القرن 19 والنصف الأول من القرن العشرين)، والتي تم فيها إعادة اكتشاف ابن خلدون على يد المستشرقين، وعندما بدأت شهرته تنتشر خارج دوائر المتخصصين المحدودة، قوبلت بالتقدير والإعجاب في كل مكان. فلقد ظهر اسم ابن خلدون في العديد من دوائر المعارف، في "المكتبة الشرقية" لهربيلوت (Hevrbelot) (باريس 1647)، وأيضا في دوائر علمية أخرى في القرن التاسع عشر. ولقد أخرج المستشرقون كمّا هائلا من السيرة الذاتية لابن خلدون، مع إبراز جمال أسلوبه في الكتابة، خاصة في "المقدمة" ويبدو أن الأكاديميين الغربيين قد وجدوا في ابن خلدون فريداً، كما اعترف بذلك كل من رافايل ألتاميرا، وخوسيه أورتيجا إي جاسيت وخوليو كارو باروجا، وجوليان ماريس، وغيرهم الكثير. كما أن المطبوعات عن ابن خلدون قد ازدادت بشكل واضح في هذه المرحلة نفسها.

هذا وقد قمنا بجميع عينات من نسخ وترجمات عديدة عن أعمال ابن خلدون في "المصادر والمراجع" التي تتبع في نهاية هذا المقال. ويلاحظ أنه في المرحلة الثانية، انصب جل الاهتمام على "التاريخ العالمي" وبشكل أكبر على "المقدمة"، وذلك حتى منتصف القرن العشرين فصاعداً. وهنا تبدأ المرحلة الثالثة، التي ظهرت خلالها أعمال ابن خلدون الأخرى، كما أنه من خلال تلك الحقبة أخذ عدد من الباحثين من مجالات أخرى يتوافدون، من بينهم علماء الاقتصاد والاجتماع.

واليوم، ها نحن أولاء في المرحلة الرابعة للاحتفاء بابن خلدون، نجد أنفسنا وقد توافرت لنا الأدوات والإمكانيات، كما يتضح من هذا الكتاب، للتأمل في أفكار ابن خلدون الإنسانية حول التاريخ والحضارة، بما تنطوي عليه هذه الأفكار من نظريات ودلالات عملية واقعية، الأمر الذي يلهم ضمائرنا بمثال فريد عن صلابتها، والتي هي بحق وحدة علمية وأخلاقية في آنٍ واحد. ويركز كتابنا هذا على ابن خلدون، ويضطلع بتحليل أعماله كذلك. ولقد تبين لنا أن خير ما نقدمه يتمثل في القيام بدراسة عصر ابن خلدون ، أي في سياق القرن الرابع عشر، في ساحة حوض البحر المتوسط، وأن نصف العالم الذي قام بتحليل أحوال بلدانه؛ من منظور سياسي، واقتصادي، واجتماعي، وثقافي، كل بخصوصيته وميقاته التاريخي، مع أفكار تؤكد على قيمة الفكر والنتاج العقلاني.

المصـــادر والمراجـــع[1]

ماريا خيسوس فيجيرا مولينز
ترجمة محمد السيد حمدي

المصادر

1.1 الأعمال الباقية لعبد الرحمن بن خلدون [2]

1. (1°) كتاب العبر، مع المقدمة والتعريف

— تحقيق جزئي، بواسطة البارون دي سلان، الجزائر، 1847، 1851، جزءين.

— تحقيق نصر الهوريني، بولاق (القاهرة)، 1284هـ/ 1867، 1868، سبعة أجزاء.

— تحقيق جزئي، بواسطة ي. صليبا و ك. م. عوض، دمشق، 1933.

— تحقيق جزئي، بواسطة شكيب أرسلان، وعلال الفاسي وعبدالعزيز بن إدريس، القاهرة، 1355هـ/ 1939، 3 أجزاء.

— تحقيق، يوسف داغر، بيروت: 1956، 1959، 7 أجزاء، أعيد طبعه، 1992.

— تحقيق، ج. شحاده، بيروت، 1981؛ 1988، 8 أجزاء.

— تحقيق جزئي، بواسطة ا. البازرا، السيرة النبوية، الرياض، 1998.

— تحقيق جزئي، بواسطة س. هارون، سيرة الرسول، القاهرة، 2000.

— تحقيق جزئي، بواسطة محمود حسين، اليمن في تاريخ ابن خلدون، صنعاء، 2001.

— تحقيق جزئي، بواسطة م. و لاسيب تحت عنوان 'historia de los beréberes'، الجزائر، 2001، 3 أجزاء.

— ترجمة جزئية تحت عنوان Ifriqiya and sicily تحقيق وترجمة نويل دي فرجيه، باريس 1841؛ أعيد طبعه، أمستردام 1981.

— ترجمة جزئية تحت عنوان Cruzadas and francos، تورنبرج 1844؛ ميدنيكوف 1897.

— ترجمة جزئية تحت عنوان (الأندلس) بواسطة ر. دوزي، 1860 – 1846؛ جودفري دي مومبونيس، 1898.

— ترجمة جزئية تحت عنوان la Horda de Oro. Tiesenhausen، 1844.

— ترجمة جزئية بواسطة دي سلان، تحت عنوان *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes del'Afrique septentrionale*، الجزائر، 1852 – 1856، 4 أجزاء، أعيد طبعه بواسطة بولا كازانوفا، باريس 1925، أعيد طبعه 1952 – 1956، 1968، 1978، 1982، 1999؛ الجزائر 2003.

— ترجمة جزئية تحت عنوان on Uqaylids Tiesenhausen، 1859.

— ترجمة جزئية إلى التركية بواسطة صبحي باشا: اسطنبول، 1859 – 1860، 4 أجزاء.

— ترجمة جزئية تحت عنوان on Italy بواسطة أماري، 1884.

— ترجمة جزئية تحت عنوان on Yemen بواسطة كاي، 1892.

— ترجمة جزئية بواسطة جودفروا دي مومبين بعنوان Hisroire des Banou l-Ahmar, rois de Grenade, extracts from Kitab al, 'ibar (Book of Examples) Journal Asiatique, XII (1898), 309-340

— ترجمة جزئية بواسطة و. أ. ماشدو تحت عنوان *Cuadernos de Historia de España*، بيونس آيرس، 1944 – 1952.

— ترجمة جزئية بواسطة هنري بيرس تحت عنوان *Extraits choisis de la 'Muqaddima' et du 'Kitab al-'ibar*، الجزائر، 1947.

— ترجمة جزئية بواسطة عبد السلام شدادي بعنوان *Peuples et nations du monde*، باريس، 1986.

1. (2°) المقدمة (باستثناء الطبعات والترجمات الكاملة في الطبعات الكاملة لكتاب العبر)

— تحقيق وترجمة جزئية، بواسطة سلفستر دي ساسي: باريس، 1810.

— تحقيق وترجمة جزئية، بواسطة نويل دي فرجيه: باريس، 1841.

— تحقيق: القاهرة/ بولاق، 1274/ 1857.

— تحقيق، بواسطة كاترمير، باريس، 3 أجزاء، أعيد طبعه، بيروت، 1900.

— تحقيق: بولاق، 1904 (مع الهوامش).

— تحقيق جزئي، بواسطة ي. صليب وك. م. عوض، دمشق، 1933.

— تحقيق جزئي، بواسطة يوحنا قمير، بيروت، 1947.

— تحقيق عبد الواحد وافي، القاهرة، 1957 – 1962، 4 أجزاء؛ الطبعة الثانية، 1963؛ الطبعة الثالثة، 1979– 1981.

— تحقيق جزئي، بواسطة إ. رضوان، القاهرة، 1960.

— تحقيق وترجمة جزئية، بواسطة ج. هـ. بوسيه تحت عنوان *Les Textes sociologiques et économiques de la Muqaddima* (1375-1379)، باريس، 1961؛ 1965.

— تحقيق، بواسطة س. محمود، مكة، 1994، جزئين.

— تحقيق، بواسطة M. Redjala, Aix-en-Provence، 1981، جزئين.

— تحقيق، الرباط، 1982.

— تحقيق، الجزائر/ تونس، 1984، مطبعة ي. شيخة، جزئين.

1 لقد قدمنا ما يمكن أن نعتبره اختيار للمراجع المتوفرة.

2 في هذا القسم النهائي، انظر المراجع البيليوغرافية للتفاصيل المنشورات وموسوعات مثل التي أنجزها كل من العظمة: بن شكرون، استابي، فيشيل، جابريل، منوني، مانزانو، بيريس، شبوح، طيبي.. وقائع المؤتمرات عن ابن خلدون والإمكانيات التي تتيحها الانترنت، ستجدون معلومات عن "قصة" اكتشاف ابن خلدون من العالم العربي وبعد إعادة اكتشافه عن طريق الناشرين. من أعمال ابن خلدون التالية التي لم تصلنا أطروحة في الحساب، أطروحة علي المنطق، ملخصات أعمال ابن سينا، تعليق علي البردة، في شعر ابن عبدون، النص القانوني لابن الخطيب، بالإضافة إلى مختلف الخطابات والقصائد.

- تحقيق، د. اليودي، بيروت، 1995، جزئين.
- تحقيق، علي قرص مدمج، المكتبة الألفية، المملكة العربية السعودية، 2002.
- تحقيق نقدي، بواسطة عبدالسلام شدادي، تيمارا: الرباط، 2005؛ 3 أجزاء؛ وخمس أجزاء.
- ترجمة جزئية إلى التركية بواسطة بيري زاده (1674–1749): استكملت بواسطة محمد صاحب وأحمد جودت، القسطنطينية، 1863، 3 اجزاء.
- ترجمة جزئية، إلى الفرنسية بواسطة سلفستر دي ساسي تحت عنوان *Chresthomathie arabe*، باريس، 1906، الطبعة الثانية، 1926 – 1927، ج1، 370 – 411؛ ج2، 168 – 169، 256 – 259، 279 – 336؛ ج3، 342 – 346.
- ترجمة جزئية، بواسطة سلفستر دي ساسي تحت عنوان «Extraits des Prolégomènes d'I.Kh.»، *Relation de l'Egypte*، 1810
- ترجمة جزئية، إلى الفرنسية بواسطة كوكبير دي مونبريه تحت عنوان «Extraits des Prolégomènes historiques d'I.Kh.», *Journal Asiatique*, (1824), 148-156; VI (1925) 106-113 ; X (1827), 3 - 19
- ترجمة جزئية، بواسطة ف. ا. شولتس، في *Journal Asiatique*, (1825) 213-26; 279 - 300; (1828), 117 – 142.
- ترجمة إلى الفرنسية بواسطة م. ج. دي سلان، باريس، 1862 – 1868، تقديم ج.بوزول؛ أعيد طبعها في باريس: 1934 – 1938؛ كما أعيد طبعها في 1996. (A. Bombaci, "Postille alla traduzione...", *AIEON*, III (1949), 439-472; Dozy, compte rendu...», J.A., XVI, 6 (1869), 133-218).
- ترجمة جزئية، بواسطة د. ب. ماكدونالد: تحت عنوان *A Selection from the Prolegomena of I. Kh*، ليدن، 1905، أعيد طباعتها في عامي 1948، 1969.
- ترجمة إلى اللغة الأوردية، بواسطة صبحي باشا، 1924 – 1932، 3 أجزاء.
- ترجمة جزئية إلى اللغة العبرية، بواسطة س. د. ب. جوتين، تحت عنوان Extracts from I.Kh.'s Muqaddima، القدس، 1943.
- ترجمة جزئية، بواسطة هـ. بريس، تحت عنوان *Extraits choisis de la 'Muqaddima' et du 'Kitab al-Ibar'*، الجزائر، 1947.
- ترجمة جزئية، بواسطة ش. ب. عيسوي: تحت عنوان *An Arab Philosophy of History; Selections from the prolegomena of I.Kh of Tunis*، لندن، 1950، أعيد طباعتها في نيويورك، 1987؛ وترجمة إلى اللغة الاسبانية بواسطة خ. جوميز بابوس، تحت عنوان *Teoría de la historia, selección, introducción por ch. Issawi*، كراكاس، 1963.
- ترجمة، ج. سوردون و ل. برشر: تحت عنوان *Recueil de texts de sociedad y sociologie et de droit public musulman contenus dans les 'Prolegomènes' d'I.Kh.*، الجزائر، 1951.
- ترجمة إلى اللغة الألمانية، بواسطة أنا شميل، تحت عنوان *I. Chaldun; Ausgewäblte Abschnitte aus der Muqaddima*، توبنجين، 1951.
- ترجمة إلى اللغة الأوردية، بواسطة م. هـ. صاحب نادوي، لاهور، 1954.
- ترجمة إلى اللغة التركية، بواسطة ز. ك. أوجان، إسطنبول، 1954 – 1957، 3 أجزاء.
- ترجمة إلى اللغة الفارسية، بواسطة م. باروين جونباد، طهران: 1957 – 1959.
- ترجمة إلى اللغة البرتغالية، بواسطة خ. خوري و ا. بيرنباش، ساوباولو، 1958 – 1960، 3 أجزاء.
- ترجمة إلى اللغة الانجليزية، بواسطة فرانس روزنثال، تحت عنوان *I. Kh. The Muqaddima. An Introduction to History* 3 أجزاء، لندن – نيويورك، 1956؛ أعيد طبعها عام 1967؛ برنكتون: 1972[3]، اعيد طبعها في 1980؛ (G. Levi della Vida, *Oriente Moderno*, 38, 1958)؛ نسخة موجزة بواسطة ن. ج. داود، لندن، 1967؛ اعيد طبعها 1978.
- ترجمة إلى اللغة الهندية، بواسطة ا. ا. ريزوي، لاخناوا، 1961.
- ترجمة إلى اللغة اليابانية، بواسطة ج. تامارا، طوكيو، 1964 – 1965.
- ترجمة إلى اللغة العبرية، بواسطة إ. كوبيليويتز، القدس، 1967.
- ترجمة جزئية إلى اللغة الفرنسية، بواسطة ج. لابيكا و ج. إ. بن شيخ، تحت عنوان *Le Rationalisme d'I.Kh.*؛ باريس: 1965.
- ترجمة إلى اللغة الأوردية، لاهور، 1967.
- ترجمة إلى اللغة الفرنسية، بواسطة، ف. مونتيل، تحت عنوان Discours sur l'Histoire universelle, Al-Muqaddima، بيروت، 1967–1968: 3 أجزاء؛ الطبعة الثالثة، باريس، 1997؛ أعيد طبعه في أوليس، 2000.
- ترجمة إلى اللغة الفرنسية، بواسطة م. ا. لاحبابي، تحت عنوان I.Kh., presentation, choix de texts, bibliographie، باريس، 1968.
- ترجمة إلى اللغة الاسبانية، بواسطة خ. فريس، المكسيك، 1977؛ أعيد طبعه قبل 1997.
- ترجمة إلى اللغة اليابانية، بواسطة ك. موريموتو، طوكيو، 1979 – 1987.
- ترجمة جزئية: بواسطة ر. فالنسيا، تحت عنوان *Introducción a la historia*، انطولوجيا، إشبيلية، 1985.
- ترجمة عبدالسلام شدادي، تحت عنوان *Le Livre des example, Autobiographie, Muqaddima*، باريس، 2002.

1. (3*) التعريف

- تحقيق، محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1370/1951؛ أعيد طبعه مع التعليقات بواسطة ن. الجراح، أبو ظبي – بيروت، 2003.

3 اسناد الأعمال 4 و 5 الى ابن خلدون عموما حديث نسبيا.

4 لقد حاولت أن اجعل الاختيار ممثل بدلاً من أن يكون حصريًا

- ترجمة، بواسطة دي سلان، تحت عنوان Autobiographie d'I.Kh.، *Journal asiatique*، 1844، ج.3.
- ترجمة في ترجمة المقدمة، بواسطة خ. فريس، المكسيك، 1977؛ أعيد طبعه في 1997.
- ترجمة، بواسطة عبدالسلام شدادي، تحت عنوان *Ibn Khaldun, Le Voyage d'Occident et d'Orient*، باريس، الطبعة الثانية: 1980.
- ترجمة، بواسطة عبدالسلام شدادي، تحت عنوان *Le Livre des example, Autobiographie, Muqaddima*، باريس، 2002.

2. لباب المحصل في أصول الدين
- تحقيق وترجمة، ل. روبيو، تطوان، 1952.
- تحقيق، بواسطة ر. العجم، بيروت، 1995.
- تحقيق، بواسطة م. ع. سليمان، تقديم م. ع. أبو ريان، الإسكندرية، 1996.

3. شفاء السائل لتهذيب المسائل
- تحقيق، بواسطة محمد بن تاويت الطنجي، إسطنبول، 1958.
- تحقيق، بواسطة إ. ا. خليفة، بيروت، 1959.
- تحقيق، بواسطة أ. تي. المرزوقي، بيروت - طرابلس - تونس، 1991.
- تحقيق، بواسطة م. م. الحافظ، دمشق، 1996.
- ترجمة، بواسطة ر. بريس، تحت عنوان *La Voie et la Loi au le Maitre et le Juriste*، باريس، 1991.

4. مزيل الملام عن حكام الأنام
- مخطوط رقم 1-1899، مكتبة أسعد أفندي، تركيا؛ مخطوط كوبرولو، تركيا، رقم 7-1587.

5. تذكير السهران
- مخطوط رقم 2-1899، مكتبة أسعد أفندي، تركيا.

2.1. مؤلفون من القرن الرابع عشر[4]

أبو الفدا (دمشق 1273 - حماة، سوريا 1331): "Autobiographie, extraite de sa chronique"، ترجمة م. دي سلان، *Recueil des historiens des Croisades*، باريس، ج1، 1872؛ ترجمة بواسطة ب. م. هولت، تحت عنوان *The Memoirs of a Syrian Prince: Abu l-Fida' Sultan of Hama*، ويسبادين، 1983.

ـــــ، المختصر في تاريخ البشر، تحقيق محمد زينهم وآخرون، القاهرة، 1999، 4 أجزاء.

أبو حيان الغرناطي، (غرناطة، 1256- القاهرة، 1344)، ديوان، طبعة بغداد، 1969.

كتاب الإدراك للسان الأتراك، تحقيق ا. كافير اوغلو، إسطنبول، 1931؛ ترجمة ر. ارميرس، تحت عنوان *Arabic grammars of Turkic, The Arabic Linguistic Model Applied to Foreign Languages*، ليدن - بوسطن - كولجن، 1999.

ADAM, Guillaume (ap. 1340), *De modo Sarracenos extirpandi, en Recueils des historiens des Croisades, Documents arméniens*, IV, Paris, 1906, CLXXVII-CCVII,521-555.

ALPHONSO X el Sabio, King of Castile and Leon (1221-1284), *General Estoria: Versión gallega del siglo XIV*, ed. R. Martínez-López, Oviedo, 1963.
– id., *Text and concordance of the Biblioteca Apostolica Vaticana, Ms. 8174: Libro di sapere di astronomia Alfonso X (14th. century Italian translation)* by J. A. Levi, ed. J. A. Cerdenas, Madison, 1983.

ALPHONSO XI, of Castile and Leon (1312-1350), *Libro de la Monteria, Toledo*, 1998.
--id., Gran crónica de Alfonso XI, ed. D. Catalan, Madrid, 1977,2 vols.

ALLACO, Petrus de / Pierre d'Ailly (Compiègne, 1350-Avignon, 1420), Imago mundi: M. Salembier, «La découverte de l'Amerique et Pierre d'Ailly», Revue de Lille, V (1892); facsimile ed. (Louvain, 1483), Madrid, 1990.

ALNWICK, Martin of -, et al: Some 14th century Tracts on the probationes terminorum, ed. L.M. de Rijk, Nimega, 1982.

ARCIPRESTE DE HITA, EL (Guadalajara/ Alcalá de Henares?, 1283?-1350-51), Libro del Buen Amor, facsimile ed. by M. Criado de Val, Madrid, 1997.

AMIR KHUSRAW of Delhi (1253-1325), Life and Times of Amir Khusraw, Calcutta, 1935.

Anthologie persane (XI-XIX siècles), transl. H. Massé, Paris, 1950.

Arte del alguarismo, El : un libro castellano de aritmética comecial y de ensayo de moneda del siglo XIV, ed. B. Caunedo and R. Córdoba, Salamanca, 2000.

BAR HEBRAEUS (Malatia, 1225-Maragha, 1286), The Chronography of Gregory Abu l-Faraj (1225-1286), the son of Aaron, the Hebrew physician commonly known as Bar Hebraeus, transl. E.A. Wallis Budge, London, 1932; reprod. 1976.
-id., The abridge version of "The Book of Simple Drugs" of... al-Gafiqi by G. Abu l-Faraj (Barhebraeus), ed. M. Meyerhof and G.P. Sobhy Bey, Cairo, 1932,40.

Belle Hélène de Constantinople, La -, ed. C. Roussel, Geneva, 1995; C. Roussel, Conter de geste au XIV[e] siècle, Geneva, 1998.

BELTRAMO de Mignateli (Siena, s. XIV), De Tamburlano [«De Tamer an»].

BEN GERSOM BEN SELOMOH (Languedoc, 1288-1344), Xa'ar haxamayim: L. Ferre

CHRISTOPHILOPOULOU, Alk., Historia bizantina (Greek). Thesaloniki, 1993-97, 2v.

CLAVIJO, Ruy González de (Madrid, ¿?1412), Embajada a Tamorlán, ed. R. Alba, Madrid, 1984; La route de Samarcand au temps de Tamerlán. Relation du voyage de l'ambassade de Castille à la cour de Timour Beg par Ruy González de Clavijo. 1403-1406, Paris, 1990; Embajada a Tamorlán, ed. F. López Estrada, Madrid, 1999; Misión diplomática de Castilla a Samarcanda, ed. L. Cabrero, Russian Translation C. Klotchkov, Madrid, 2000; Embajada a Tamorlán, version in modern Spanish and ed. F. López Estrada, Madrid, 2004; ed. R. López Guzmán, Granada, 2006.

Corpus *Fontium Historiae Byzantinae*, Berlin, 1972.

Crónica *Geral de Espanha de 1344*, ed. L. F. Lindley Cintra, 4 vols., Lisbon, 19511961, reprint, Lisbon, 1983-1984.

***Crónica** del moro Rasis*, ed. D. Catalán and M.S. de Andres (eds.), Madrid, 1975.

***Crónica** del Rey don Pedro*, ed. C. Rosell;

***Crónica** del Rey Don Pedro* y del Rey Don Enrique su hermano, hijos del rey don Alfonso Onceno, ed. G. Orduña, Buenos Aires, 1997, 2 vols.

الذهبي (دمشق: 1274 – 1384): تاريخ الإسلام: طبعة القاهرة، 1947؛ J. de Somogyi, "adh- Dhahabi's record of the destruction of Damascus by the Mongols", I. Goldziher Memorial Volume, Budapest, 1948.
ـــــ، سير أعلام النبلاء: بيروت، 1981 1985، 23 جزء.
ـــــ، تذكرة الحفاظ، حيدر آباد: 1968 – 1970. 5 أجزاء.

DANTE ALIGHIERI (Florence, 1265- Ravenna, 1321), La Divina Comedia, transl. C. de Cheste, ed. J. Golaechea, Madrid, 1999 (4th ed., 2003).
-id., Il Canzoniere, ed. P. Fraticelli, Florence, 1902.
-id., De Monarchia, transl. L. Robles Carcedo and L. Frayle Delgado: Monarquía, Madrid, 1992; ed. and English translation P. Shaw: Monarchy, Cambridge, 1998.
-id., Il convivio, trans. : El convivio, Buenos Aires, 1948.
-id., La vita nuova e Le rime, ed. A. Battistini, Rome, 1995.
-id., Obras completas, transl. N. González Ruiz and J. L. Gutiérrez García, Madrid, 1973; reprint. 2006,2 vols. (vol. II: «El convite», «La monarquía», «Sobre la lengua vulgar», «Disputa sobre el agua y la tierra», «Cattas», «Églogas», «Rimas»).

M.J. Cano (ed.), La ciencia en la España medieval, Granada, 1992,145-151.
-id., Conclusiones de diversis materiis moralis, [incunabulum], Majorca, 1485.

BÉZIERS, Ermencaud, Breviari D'Amor (France, ap. 1288-1292), Iconografía del Breviari D'Amor: Escorial, Ms. S.1. n. 3; Biblioteca Nacional, Ms. Res. 203 (ms. s. XIV), T. D. by G. Miranda García, Universidad Complutense, Madrid, 1993.

BOCCACCIO (Florence, 13 13 -Certaldo, 1375), Esposizioni sopra la Comedia di Dante, ed. D. Podoan, Milan, 1994.
-id., Filócolo, transl. C.F. Blanco Valdés, Madrid, 2004.
-id., Il Decameróne, transl. A. Busi, Milan, 2004; El Decamerón [diez cuentos], ed. and transl.J. Varela, Madrid, 2004.
-id., Amorosa visione, ed. V. Branca, Milan, 2000.
-id., Corbaccio, Turin, 1977.
-id., Famous women, ed. and transl. V. Brown, Cambridge, Mass., 2001.

BOLDENSELE, Guillaume de (m. 1339), Traité de l'étate de la Terre Sainte (in 1336), ed. Leipzig, 1874; transl. C. Deluz, in RÉGNIER-BOHLER (see).

BURIDAN, Jean (Paris, 1298-1358), Traité des monnaies [de] Nicolas Oresme et autres écrits monétaires du XIV[e] siécle (Jean Buridan, Bartole de Sassoferrato), ed. and introd. C. Dupuy, transl. F. Chartrain, Paris, 1989.
-id., Sophismes, transl. J. Biard, Paris, 1993.
-id., Le traité de l'âme, transl. B. Patar, Louvain, 1991.

Chanson d'Antioche, La-, ed. S. DuparcQuioc, Paris, 1971.

Chronique du Royaume de la petite Arménie (beginning C. XIV), in Recueils des historiens des Croisades, I, Paris, 1869, 605672.

CHARLIER, Jean (Gerson, Champagne, 1363 - Lyon, 1429): [Johannes de Gerson], Conclusiones de diversis materiis moralibus, Majorca, 1485.

CHAUCER, Geoffrey (London, 1340?-1400), The Canterbury Tales, Modern English version N. Coghill, Harmondsworth, 1973; "Cuentos de Canterbury", ed. And transl. P. Guardia, Madrid, 1997.
-id., Complete works, ed. W:W: Skeat, London, 1965.

CHAULIAC, Guy de (s. XIV), Inventarium o Chirurgia Magna (Avignon, 1363), transl. into German, Spanish, Hebrew, English, Italian and Provençal.

projets de croisade en Terre-Sainte",Revue de l'Orient Latin,X (1903- 04), 406- 457.

Gestes des Chiprois, Les-, en Recueils des historiens des Croisades, Documents arméniens, II, Paris, 1906, 651- 872.

HAFIZ de Shiraz (Xiraz, 1325-1389), Hafiz Divans, ed. A. Gklpinarli, Istanbul, 1944; A.J.Arberry, Hafiz, fifty poems, Cambridge, 1947. Diwan, *Ms.* no. 400, Monasterio de El Escorial Library.

–id., Los gazales de Hafiz, French transl. Ch. Devillers, Spanish E. Fernandez Latour, prol. L.A. de Villena, Madrid, 1981.

-id., 101 poemas, ed. C. Janés and A. Taheri, Madrid, 2001.

HAN YEN-CHE (China, s. XII), Kiu Lu or Tratado de las naranjas (Monografía sobre las naranjas de Wen-eh, Chekiang), transl. L. García Guijarro, Estudios Geográficos, IV (Madrid, 1943),495-530.

الحميري، (المغرب، ق 14)، الروضة المعطرة، تحقيق وترجمة جزئية بواسطة ا. ليفي بروفنسال، تحت عنوان La Péninsule Iberique au Moyen-Âge، ليدن، 1938؛ طبعة ا. عباس، بيروت، 1980 (1975).

ابن عباد، (رندة، 1332: فاس، 1390)، الرسائل الصغري Lettres de direction spirituelle، طبعة ب. نويا، بيروت، 1958.

id., "Obras piadosas" (al- Tuhfa): Ms. of the Biblioteca Nacional de Madrid, no. 4928.

ـــــ، غاية المواهب، طبعة أ. هـ. محمود و م. ابن الشريف، القاهرة، 1970.

IBN ABI L-FADA'IL (14th c.), Histoire des Sultans Mamlouks, ed. and transl. E. Blochet, in R. Graffin and F. Nau (eds.), Patrologia Orientalis, Paris, 1919, 1920 and 1929.

ابن الأحمر (غرناطة – المغرب، القرن الرابع عشر)، بيوتات فاس، ع. و. ب. منصور، الرباط، 1972.

ـــــ، روضة النسرين، تحقيق وترجمة ج. بوالي و ج. ماركيز، تحت عنوان Histoire des Beni Merin، باريس 1971؛ طبعة ا. و. ب. منصور، الرباط، 1962؛ ترجمة م. ا. مانثو، مدريد، 1989.

ابن الأزرق (مالقة، 1428 – القدس، 1491)، بدائع السلك، طبعة م. ابن عبدالكريم، ليبيا – تونس، 1397/1977، جزءين؛ طبعة ع. س. الناصر، بغداد، 1977.

ـــــ، روضة الأعلام بمكان العربية من الإسلام، طبعة س. العلامي، طرابلس، 1999، جزءين.

ابن العطار (الموصل، 1233 – 1160)، الكامل في التاريخ، طبعة س. ج. تورنبرج، ليدن، 1867–1851؛ بيروت، 1976 – 1965؛ 1982 – 1979، 12 جزء؛ ترجمة ا. فاجان في Annales du Maghreb et de l'Espagne، الجزائر، 1898.

ـــــ، أسد الغابة، القاهرة، 1973 – 1970، 7 اجزاء.

IBN AL-BANNÁ' de Marrakech (1256- 1321), Le Calendrier d'Ibn al-Banna' de Marrakech, ed. and transl. J.P. Renaud, Paris, 1948.

DEI, B., La Cronica dall'anno 1400 all'anno 1500, ed. R. Barducci, Florence, 1985.

***Dieudonne** de Hongrie,* ed. D. Collomp, currently in preparation.

EMRE: see YUNUS EMRE.

***Entree** d'Espagne,* L'-, chanson de geste franco-italienne, ed. A. Thomas, Paris,1913.

FERNÁNDEZ DE HEREDIA, Juan (Munebrega, Saragossa, c. 1310-1390), Las «Vidas de hombres ilustres» (nos. 70-72 de la Bibl. Nac. de París, ed. A. Alvarez Rodriguez, T. D., Universidad Complutense, Madrid, 1983,2 vols.; J.G. Mackenzie, A lexicon of the 14th century aragonese manuscripts of Juan Fernández de Heredia, Madison, 1984.

-id., Crónica de Morea: Chronique de Moree, ed. transl. A. Morel-Fatio, 1885, reprint. Osnabrock, 1968.

-id., La grant crónica de Espanya, ed. R. af Geijerstam, Uppsala, 1964.

-id., Obras, ed. R. Ferreres, Madrid, 1975.

-id., Aragonese version of the "Libro de Marco Polo", ed. J.J. Nitti, Madison, 1980.

-id., The Aragonese version of the "Secreto secretorum", ed. L. Kasten, Madison, 1999.

FERRER, Vicente (Valencia, 1350-Brittany, 1419), Sermonario de San Vicente Ferrer, transl. EM. Gimeno and M.L. Mandingorra; transl. F. Calero, Valencia, 2002, 2 vols.

FROISSART, Jean (Valenciennes, ap. 1338Chimay, 1410), Chroniques, transl. A. Duby, Paris, 1997; Cronicas, ed. V. Cirlot and J.E. Ruiz Domenec, Madrid, 1988.

-id., "Dits" et "débats", ed. A. Fourrier, Geneva, 1979.

-id., Le paradis d'amour ; L'orloge amoureus, ed. P.F. Dembowski, Geneva, 1986.

-id., Le joli buisson de Jeunesse, adapt. M. Possamal-Perez, Paris, 1995.

-id., Voyage en Beam, adapt. J. Brunel-Lobrichon, Paris, 1987.

الفيروزابادي (كازرون، شيراز 1329 – زبيد 1415)، القاموس، نشره أ. جيجيوس، تحت عنوان Thesauris linguae Arabicae، ميلان، 1632، 4 أجزاء؛ طبعة القاهرة، الطبعة الرابعة، 1938، 4 أجزاء؛ القاموس المحيط، طبعة بيروت، 1987.

GERSONIDES, see **BEN GERSOM.**

GORDON, Bernardo de (Montpellier, 14th c.), Liber Pronosticorum 1 De crisi aiticis diebus, transl. into Spanish: Pronostica; Lilium Medicine, transl. into Spanish Lilio de medicina; transl. into Hebrew Juan de Avinón (Mosés ben Samuel).

GRANDSON, Othon de (m. 1328?), Via ad terram sanctam: in Ch. Kohler, "Deux

-id., "Compendia sabre aritmetica" (Talkhis fi l-hisab): Ms. from El Escorial no. 788 (Derenbourg) text 18, copied in 1404.

ــــــ: رفع الحجاب، طبعة م. ابلاج، فاس، 1994.

–id., El Taqbil 'alà risalat al-safiha alzarqaliyya by Ibn al-Banna' de Marrakus", by R. Puig, Al-Qantara, VII (Madrid, 1987), 45-64.

-id., "La Risalat al-safiha a -mustaraka 'alà l-Sakkaziyya de Ibn al-Banna' by Marrakus", by E. Calvo, Al-Qantara, X (Madrid, 1989), 21-50.

-id., J. Vernet, Contribución al estudio de la labor astronómica de Ibn al-Banna', Tetouan, 1951.

ابن باسو (القرن الرابع عشر)، رسالات الصفيحة، تحقيق وترجمة ا. كالفو، تحت عنوان Tratado sabre la lamina general para todas las latitudes، مدريد، 1993.

IBN BATTUTA (Tangier, 1304-1377), "Viajes": Tuhfat al-nuzzar, ed. and French translation Defremery and Sanguinetti, Paris, 1922.

طبعة بيروت 1587؛ تحقيق عبدالهادي التازي، الرباط، 1417/1997، ترجمة إلى اللغة الإسبانية بواسطة فانجيل وف. ف. أربوس تحت عنوان A traves del Islam، مدريد، 1981؛ 1987 ج 2005.

ابن البراد السبتي (المغرب، ت. 1293)، كتاب الإمالة Treatise on Music، تحقيق م. بنشكرون، الرباط، بدون تاريخ [حوالي 1982]

ابن دقماق (القاهرة، ت 1407)، كتاب الانتصار، بولاق، 1309/ 1891 – 1892.

ــــــ: الجوهر الثمين، تحقيق م. ك. عزالدين، القاهرة، 1985.

ابن حجر العسقلاني (مصر، 1372 – 1449)، رفع الإصر في قضاة مصر، القاهرة، 1957.

ــــــ، الدرر الكامنة، تحقيق ع. و. م. علي، بيروت، 1418/ 1998.

ــــــ: أنباء الغمر، تحقيق حسن حبشي، في رسالة دكتوراه بجامعة لندن تحت عنوان Historical Studies on the Inba' al-gumr de Ibn Hajar. 1955.

ابن هذيل (غرناطة، القرن الرابع عشر) كتاب الفوائد، تحقيق س. الفاريز دي موراليس، تحت عنوان "Un tratado granadino de hipiatria", Homenaje Cabanelas، غرناطة، ج 312 – 305، 2.

ــــــ، فكاهة الأسمار، تحقيق ا.ا. حمادي، الكويت، 2004.

ــــــ، كتاب صفة الحسن، سلسلة Contribución al estudio de laestética árabe. Estudio y edicion، ترجمة عزيز البازي ود. م. خ. فيجيرا، جامعة كومبليتنزي، 1998.

ــــــ، كتاب حلية الفرسان، تحقيق وترجمة ل. ماركير تحت عنوان La Parure des cavaliers et l'insigne des preux، باريس 1922 و1924، طبعة القاهرة 1951؛ ترجمة ماريا خيسوس فيجيرا، تحت عنوان Gala de caballeros, blason de paladines، مدريد، 1977.

ــــــ، كتاب تحفة الأنفس: تحقيق وترجمة ل. ميرسير تحت عنوان L'ornement des âmes et la devise des habitants d'al-Andalus. Traité de guerre sainte islamique، باريس 1936 و1939.

ابن عذاري (مراكش، توفي بدايات القرن 14)، البيان المغرب، ج1 – 2، تحقيق ر. دوزي، س. كولن، ا. ليفي بروفنسال، جزءين، ليدن، 1948، 1951، ترجمة ا. فاجنان، تحت عنوان Histoire de l'Afrique et de l'Espagne، جزءين، الجزائر، 1901 – 1904؛ الجزء الثالث تحقيق ا. ليفي بروفنسال، باريس، 1930؛ ترجمة ف. مايو تحت عنوان La caída del califato de Córdoba y los reyes de taifas، شلمنقة، 1993؛ أعيد طباعة الثلاث أجزاء، والجزء الرابع، تحقيق ا. عباس، بيروت 1983؛ ترجمة أ. هيسي ميراندا، تحت عنوان Nuevos fragmentos almorávides y almohades، بلنسية، 1963، الجزء الخامس تحقيق م. ا. الكتاني وآخرون، بيروت – الدار البيضاء، 1985؛ ترجمة أ. هيسي ميراندا، تطوان، 1953 – 1954، جزءين، و Nuevos fragmentos almorávides y almohades، بلنسية، 1963.

ابن اياس (1524 – 1448) بدائع الزهور، تحقيق م. مصطفى، القاهرة، 1983 /1403، جزءين؛ نشره ر. اري تحت عنوان Études sur la civilisation de l'Espagne musulmane، ليدن، 1990؛ ترجمة جاستون فييت، تحت عنوان Histoire des Mamlouks circassiens، القاهرة، 1945؛ Journal d'un bourgeois du Caire، باريس، 1955 – 1956 و1960، جزءين.

ابن كثير (البصرة 1301 – دمشق 1373)، البداية والنهاية، تحقيق ا. أبو ملحم وآخرون، القاهرة، 1988، 8 أجزاء؛ تحقيق جزئي، قصص الأنبياء، تحقيق ع. ق. أحمد، عمان، 1985؛ ترجمة ن. س. عيسى، تحت عنوان Les Histoires des Prophetes، بيروت، 1997.

ــــــ، كتاب الاجتهاد في طلب الجهاد، تحقيق ودراسة م. زينهم، القاهرة، 1993.

IBN KHALDUN, Abu Bakr (Tunis, m. 1337): E. Levi-Provensal, "Le traite d'Adab al-katib d'Abu Bakr Ibn Jaldun", Arabica, 2 (1955),280-288.

ابن خلدون، أبو زكريا، (تونس حوالي 1333، تلمسان 1378)، بغية الرواد، نشر تحت عنوان Histoire des Beni 'Abd el- Wad («On the Sultans of Central Maghreb»)، تحقيق وترجمة، أ. بيل، الجزائر، 1321/ 1903، تحقيق ودراسة ع. الم. حيات، الجزائر، 1400/ 1980.

ابن خلكان (أربيل القرن 12، دمشق 1282)، كتاب الوافي بالوفيات، تحقيق ا. عباس، بيروت، 1968 – 1977، 8 أجزاء، ترجمة دي سلان، تحت عنوان Ibn Khallikan's biographical dictionary، باريس، 1842 – 1871، 4 أجزاء.

ابن الخطيب (لوشة 1313، فاس 1374)، الإحاطة، تحقيق ي. طويل، بيروت، 2003.

ــــــ، أعمال الأعلام، الجزء الثاني، تحقيق ا. ليفي بروفنسال، بيروت، 1956، (الرباط، 1934)؛ ترجمة و. هونيرباش، تحت عنوان Islamische Geschichte Spaniens، زيورخ – شتوتجارت، 1970؛ الجزء الثالث، تحقيق احمد مختار العبادي و م. ا. الكتاني، الدار البيضاء، 1964؛ ترجمة ر. كاستريو، تحت عنوان El Africa del Norte en el "A 'mal al a 'lam"، مدريد، 1958؛ تحت عنوان Historia medieval islámica del Norte de Africa y Sicilia، مدريد، 1983.

ـــــ، عمل لمن حب لمن طب، تحقيق و ترجمة و دراسة س. فازوكوري دي بينو، شلمنقة، 1972.

ـــــ، الديوان، تحقيق م. الس، قامر، الجزائر، 1975؛ تحقيق م. مفتد، الدار البيضاء، 1989؛ جزءين.

ـــــ، كتاب الوصول، تحقيق و ترجمة س. فازوكوري دي بينو، تحت عنوان El Libro del cuidado de la salud durante las estaciones del año o Libra de Higiene، شلمنقة، 1984.

ـــــ، اللمحة البدرية، ترجمة خ. م. كاسبارو، تقديم ا. مولينا، تحت عنوان Historia de los reyes de la Alhambra، غرناطة، 1998.

ـــــ، السحر والسير: تحقيق وترجمة خ. م. كونتينتي، تحت عنوان El libro de la magia y de la poesia، مدريد، 1981.

ـــــ، جيش التوشيح، تونس، 1967؛ E. Garcia Gomez, Mlitrica de la moaxaja y metrica espanola, Madrid, 1974; The Jaysh altawshih of Lisan ai-Din Ibn ai-Khatib. An Anthology of Andalusian Arabic Muwashshahat, ed. A. Jones, Oxford, 1997.

ـــــ: كتاب المقنعة لمنفعة السائل، م. الخطابي، الطب والأطبة في الأندلس الاسلامية، بيروت، 1988، الجزء الثاني، ص 187 – 188.

ابن خاتمة (ألمرية 1379 – 1323)، ديوان، تحقيق م. الر. الدي، دمشق: 1972، أعيد طبعه 1978؛ ترجمة س. جبيرت، برشلونة، 1975.

ـــــ، مزيات ألمرية، نشر امولينا تحت عنوان La obra histórica de Ibn Jatima de Almeria. Los datos geográfico-historicos، القنطرة، العاشر؛ 1989، ص 151 – 173.

ـــــ، تحصيل جاراد القاصد، نشر م. ف. انتونا تحت عنوان"Ibn Jatima de Almerla y su tratado de la peste", Relfgion Y Cultura 1928 تحقيق م. الخطابي، الطب والأطبة في الأندلس الإسلامية، بيروت، 1988، الجزء الاول، 1988، ص 161– 187.

– ابن ليون (ألمرية 1282 – 1349)، بغية المونس، تحقيق وترجمة ر. بيبا، رسالة دكتوراه، إشراف ا. لابارتا، جامعة قرطبة، 1989.

ـــــ، لمح السهر، نشر ا. جارثيا جوميز، تحت عنوان Hacia un 'refranero' arábigoandaluz. IV:" Los proverbios rimados de Ben Luyun de (1282-1349-Almeria)"، الأندلس، 37، 1972، ص 1 – 75.

id., Tratado de agricultura, ed. and transl. J. Eguaras, Granada, 1975; 1988.

IBN MARZUQ (Tlemcen, 1310 -Cairo, 1379), El Musnad: Hechos memorables de Abu -Hasan, sultan de 105 Benimerines, transl. M. J. Viguera, Madrid, 1977; ed. M.J. Vlguera, Alqiers, 1981.

-id., al-Khutab: Edición y estudio de la colección de sermones de Ibn Marzuq, Doctoral Thesis by M. Na'as, dir. M.J. Viguera, Universidad Complutense de Madrid, 2002.

ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، تحقيق س. الزهري، رسالة دكتوراه، إشراف، م. بنعبود، جامعة تطوان، 2004.

ابن مسعود (ق 14)، رسالة كيفية السبب، تحقيق وترجمة اجوبار احويلار، نشر، د، جامعة لا لاجونه، 1995.

ابن قنفد (القسطنطينية 1330/ 1340، 1406/ 1407)، كتاب الوفيات، تحقيق ع. نوهاد، بيروت، 1403/ 1983.

ـــــ، شرف الطلب، تحقيق م. الحججي، ألف سنة من الوفيات في ثلاثة الكتب، الرباط، 1976 /1396، ص. 93 – 9.

ـــــ، أنس الفكر و عز الحقر، تحقيق م. الفاسي، الرباط، 1965.

-id., "La Farislyya ou les débuts de la dynastie hafside», Hespéris, 8 (1928).

ابن الرامي (تونس، ق 14)، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق ف. ب. سليمان، تونس، 1999.

ابن الرقة (ت. غرناطة 1315)، رسالة في علم الزلال: تحقيق و ترجمة خ. كاراندي، برشلونة، 1988.

ابن سعيد (غرناطة 1214 – تونس 1286)، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق ثال عربي، بيروت، 1970؛ الجزائر، 1984، ترجمة، خ. فرنت، تحت عنوان De Abd alRahman I a Isabel II، برشلونة– بينارا، 1989، ص 351 – 371.

ـــــ، كتاب رايات المبرزين، تحقيق وترجمة ا. جارثيا جوميز، تحت عنوان EL libro de las banderas de 105 campeones، مدريد، 1942، أعيد طبعه، برشلونة، 1978.

ـــــ: المغرب في حلي المغرب، تحقيق خ. المنصور، بيروت، 1997، جزءين.

IBN AL-SHATIR (14th c.): E.S. Kennedy and I. Ghanem, The Life and Work of Ibn al-Shatir. An Arab Astronomer of the Fourteenth Century, Aleppo, 1976.

ابن تغري بردي (القاهرة 1409/ 1410- 1470)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: القاهرة، 1351/ 1932.

IBN TAYMIYYA (Harran, 1263 -Damascus, 1328), al-Risala al-qubrusiyya: Lettre à un Roi croisè, transl. J.R. Michot, Lyon, 1995.

ابن تيمية، مجموعة الفتاوي، تحقيق ا. ر. ب. م. ابن قاسم، الرباط، 1981، 37 جزء.

-id., Musique et danse selon Ibn Taymiyya. le Livre du Sama' et de la danse, compile par le Shaykh Muhammad al-Manbiji, transl. J .R. Michot, Paris, 1991.

-id., A Muslim Theologian's Response to Christianity.Ibn Taymiyya's al-Jawab alsahih, ed. and transl. T.F. Michel, Delmar, New York, 1984.

-id., «Textes spirituels d'Ibn Taymiyya, XI, XII-XIII: Mongols et Mamluks: l'etat du monde musulman vers 709/1310», Le Musulman, 24 (1994) and 25-26.

-id., Lettre a Abu l-Fida', transl. J.R. Michot, Louvain, 1994.

-id., al-Siyasa al-sariyya: Le traite de droit public d'Ibn Taymiyya, transl. H. Laoust, Beirut, 1948; reedition with introduction A.S. Djebbari, Algiers, 1990.

-id., al- 'Aqida al-wasitiyya: La profession de foi d'Ibn Taymiyya, transl. H. Laoust, Paris, 1986.

-id., Arbre de filosofia d'amor, ed. G. Schib, Barcelona, 1980.

-id., Arbre exemplifical, adapt. modern Catalan F. de B. Moll, Palma de Majorca, 1971.

-id., Art abreujada de predicació, ed. C. Wittlin, Barcelona, 1982.

-id., Blanquerna, maestro de la perfección cristiana en los estados del matrimonio, transl., Madrid, 1929.

-id., Doctrina pueril, ed. G. Schib, Barcelona, 1987.

-id., Liber Proverbiorum : transl. Libro de los proverbios, ed. S. Garcia Palou, Madrid, 1989.

-id., Llibre d'amic eamat, ed. A. Soler i Llobregat, Barcelona, 1995.

-id., Libre de meravelles, Barcelona, 1983.

-id., Doctor Iluminatus: a Ramon Llull reader, ed. and transl. A. Bonner, Princeton, 1993.

LOPES, Fernao (Portugal, ap. 1380-ap. 1459), «Crónica de Portugal de 1419», ed. A. de Almeida Calado, Aveiro, 1998.

-id., Chronique du roi Don Pedro I, ed. G. Macchi, transl. J. Stenou, Paris, 1985.

-id., Cronica de D. Joao I, ed. T. Amado, Lisbon, 1980.

LÓPEZ DE AYALA, Pedro (Vitoria, 1332-Calahorra, 1407), Cranica del rey don Enrique II de Castilla,Crónica del rey D. Juan I, Crónica del Rey don Enrique tercero de Castilla e de León, en Crónicas de los reyes de Castilla (ed. C. Rosell), Madrid, 1956,2 vols.

-id., Crónica del rey Don Pedro y del Rey Don Enrique su hermano, hijos del rey Don Alfonso Onceno, ed. G. Orduna., Buenos Aires, 1997.

-id., Corónica de Enrique III, ed. C. L. and H. M. Wilkins, Madison, 1992.

-id., Rimado de Palacio, ed. N. Salvador Martinez, New York, 2000.

MACHAUT, Guillaume de (Machault, ap. 1300-Reims, 1377), Oeuvres de Guillaume de Machaut, manuscript B.N. France, no. 1584, "Quelques poemes", ed. A. Fourrier, in J. Froissart "Dits" et "debats", Geneva, 1979.

-id., The Capture of Alexandria, transl. J. Shirley, Aldershot 2001.

المديني، ابن أبي حديد (مدين 1190، بغداد 12589)، شرح نهج البلاغة، 20 جزء، تحقيق م. ا. إبراهيم، القاهرة، 1965 – 1967؛ ترجمة جزئية تحت عنوان Les invasions mongoles en Orient, vecues par un savant medieval arabe، ترجمة م. جبلي، باريس، 1995.

MANDEVILLE, John de (St. Albans, England, ap. 1300-Liège, 1372), «Libro de las Maravillas del Mundo», ed. J. Rubio Tovar: Juan de Mandavila, Libro de las Maravillas del Mundo, in Viajes Medievales, I, Madrid,

ابن الوردي (معرة النعمان، حوالي 1290 – حلب، 1349)، تتمة المختصر في أخبار البشر، بيروت، 1970

JOHANNES VON TEPL / VON SAAZ (Teplo Schürrwa, c. 1350-Prague, c. 1415), Der Ackermann aus Böhmen, ap. 1400, transl: Death and the Ploughman, 1947.

JOINVILLE, J. de (France, 1224?-13 n?), Vie de saint Louis, ed. and transl. J. Monfrin, Paris, 1995.

JUAN MANUEL, Infante Don (Escalor I, 1282-Cordoba, 1348), Libra de 105 Estudos, ed. R.B. Tate and I.R. Macpherson, Oxford, 1974.

-id., Libro del caballero y del escudero; Libro de las armas; Libro enfenido; Libro de 105 Estados; Tractado de la Asuncion de la Virgen Maria; Libro de la caza; El Conde Lucanor; Cronica abreviada, ed. J.M. Blecua, Madrid, 1981-83,2 vols.

KAMAL KHUYANDI (Tabriz, m. 1400), Diwan, ed. Dawlatabadi Dawlat-Shah (I.S. Branginsky, Akten XXIV Int. Or. Kongress, Wiesbaden,1959).

Kitab al-tibb al-qaxtali al-maluki (beginnings 14th c.), transl. M.C. Vazquez de Benito: Medicina castellana regia, in C. Alvarez de Morales (ed.), Ciencias de la Naturaleza en al-Andalus, VI (Granada, 2001),11-91; VII (2004),11-107.

KUAN HAN-CHING (China, 1240-1320?), Tou-o yuan («The Injustice done to Tou-o»).

LANDINI, Francesco (Florence, ?, 13251397), Works [CD recording], Collection: "The music of the fourteenth century", no. 3, Carlton South, Australia, 1997; Polyphonic music of the fourteenth century IV: the works of Franceso Landini, ed. L. Schrade, Monaco, 1974.

-id., I am music [Sound Recording] / Works by Francesco Landini, Australia, Move Records, 1997.

Libro del conoscimiento de todos los reinos y tierras y señorios que son por el mundo,escrito por un franciscano español a mediados del siglo XIV, ed. M. Jiménez de la Espada, Barcelona, 1980.

-Lion de Bourges, poème épique du XIVe siecle, ed. W.W. Kliber and others, Geneve, 1980.

LIU XIÉ (Jingkou ?, China, ss. V-VI), El corazan de la literatura y el cincelado de dragones, ed. A. Relinque Eleta, Granada, 1995.

LLULL, Ramon, (Palma de Majorca, ap. 1233 - Bugia, ap. 13 15), Antologia de Ramon Llull, prol. M. Batllori, transl. A.M. de Saavedra and F. de P. Samaranch, Madrid, 1961,2 vols.

OCKHAM, William d' (Ockham, ap. 1285-Munlch, 1349): Sobre el gobierno tiránico del Papa, transl. P. Rodrlguez Santidrian, Madrid, 1992.

-id., Exposición de los ocho libros sobre la fisica, Barcelona, 1985.

-id., Obra politica, transl. P. Marino, Madrld, 1992.

ORES ME, Nicole (Oresme, ap. 132°Lisieux, 1382): Traite des monnaies [del Nicolas Oresme et autres eerits monitaires du XIV siecle (Jean Buridan, Bartole de Sassoferrato), ed. C. Dupuy, transl. F. Chartrain, Paris, 1989; transL. J. Hernan Delgado, Acta historica et archaeologica mediaevalia, 2 (1981), 9-68.

Ovide moralisé: poeme du commenceme du quatorzieme siecle, ed. C. de Boer, Wlesbaden, 1966-1975,5 vols.

PADUA, Marsilio de (Padova, c. l276-c. 1343), Defensor Pacis, ed. R. Scholz, Hannover-Lelpzig, 1932; El defensor de la paz, transl. L.Martlnez Gomez, Madrid, 1989.

-id., Oeuvres Mineures, ed. C. Jeudy and J. Quillet, Paris, 1979.

-id., Wrltings on the Emplre, ed. C.J. Nederman, Cambridge, 1993; Sohre el poder del Imperio y del Papa. El defensor menor: La transferencia del Imperlo, transl. B. Bayona and P. Roche, Madrid, 2004.

PEDRO JULIÂO, Petrus Hlspanus, Papa Juan XXi (Lisbon, 2005-Viterbo, 1277), Libro de medicina llamado Tesoro de los pobres, con un regimiento de sanidad, Seville, 1540; reprlnt. 1543 (vid. "Dioscorides Digital Library").

PEGOLOTTI, Francesco Balducl (Florence, ap. 1340), La pratica delia mercatura, ed. A. Evans, Cambridge, Mass., 1936.

PETRARCA (Arezzo, 1304-Arqua, 1374) Canzionere, ed. M. Santagata, Milan, 1996; transl. A. Crespo, Madrid, 1995.

-id., Africa, transl. R. Lenoir, Grenoble, 2002.

-id., De viris illustribus, ed. G. Martellotl, Florence, 1964.

-Id., Invective contra medicum, ed. P.G. Gicci, Rome, 1950.

PIAZZA, Michele Da (14th c.), Cronaca [1336-1361[, ed. A. Giuffrida, Palermo, 1980.

PILON, E.: Traité d'Emmanuel Piloti sur le Passage en Terre Sainte (1420), ed. P.M. Dopp. Louvain, 1958.

PISAN, Christine de (Venice, c. 1363,France, c. 1430), Le Ditie de feanne de'Arc, ed. A.J. Kennedy and K. Varty, Oxford, 1977.

-id., Le Livre des falts et bonnes moeurs du sage roi Charles V, ed. S. Solente, Paris, 1936-1941,2 vols.

2005, 155-346; Voyage autour de la Terre, transl. C. Deluz, Paris, 1993; ed. and transl. A. Pinto, Madrid, 2001.

المقري (تلمسان 1577، القاهرة 1632)، أزهار الرياض، الجزء الأول والثالث، تحقيق م. السقا، ا. الإبياري، و ع. ر. السلابي، القاهرة، 1939؛ أعيد طبعه في الرباط، 1978؛ الجزء الرابع والخامس؛ تحقيق ا. س. الهاراس و س. ا. عرب وآخرون، الرباط، 1978 – 1980.

ــــ، نفح الطيب، تحقيق ا. عباس، الطبعة الثامنة، بيروت، 1968؛ تحقيق م. ق و ي. ع. طويل، بيروت، 10 أجزاء، 1415/ 1995، ترجمة ب. دي جويانجوس، تحت عنوان History of the Muhammedan dynasties in Spain، جزءين، لندن، 1840 – 1843؛ أعيد طبعها في أمستردام، 1964؛ تحقيق جزئي، دمشق، 1990.

المقريزي (القاهرة 1364 – 1442)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، 1324 – 1326/ 1906-1908، 4 أجزاء، تحقيق جاستون فييت، القاهرة، 1970، 4 أجزاء.

-id., Histoire des sultans Mamlouks de l'Egypte, transl. E. Quatremere, Paris, 1840-1845, 2 vols.

-id., Traite des famines, transl. G. Wlet, 1962.

ــــ، المقفى الكبير، تحقيق م. اليعلاوي، بيروت، 1411/ 1991، 8 أجزاء.

ــــ، كتاب السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق م. م. زيادة، القاهرة، 1834/ 1870.

ــــ، اتعاظ الحنفاء، القاهرة، ج1، 1367/ 1948؛ ج2، 1390/ 1971.

-id., Mamluk economics: a study and translation of al-Maqrizi's Ighathah, transl. A. Allouche, Salt Lake Clty, ap. 1994.

ــــ، التاريخ الكبير، المخطوطات الموقعة، قرص مدمج، يوسف زيدان، مكتبة بلدية الإسكندرية، 2002. Ibn al-Jatib, Ibn Jaldun y al-Maqrizi, El Legado Andalusi, Granada, 2006.

ماركو بولو، انظر بولو

MIGNATELU, B. de, Vita Tamerlanl (1416): transl. W.J. Fischel, "A New Latin Source on Tamerlane's Conquest of Damascus (1400-1401)", Oriens, IX (1956), 201-232.

MOISES DE LEÓN (León, ap. 1240-1305), Midras ha-ne'elam: Le Zohar. I, transl. Ch. Mopsik, with Midrach ha Neelam, transl. B. Maruanl, Lagrasse, 1984.

MURIS, Johannes de (France, ap. 1300-1350), Notitia artis musicae, ed. M. Ulrich, Dallas (?), 1972.

MOSES NARBONI, Maestro Vidal Bellsom, Séfer Orah Hayylm (ap. 135°-(362).

النويري (أخميم 1279، القاهرة 1333)، نهاية الأرب (المغرب والأندلس)، تحقيق وترجمة م. جاسبار ريميرو، 1915 – 1919؛ RCEHGR؛ تحقيق م. ا. أحمد، الدار البيضاء، 1984؛ القاهرة، 1980، 1983، 24 جزء؛ "al-Nuwayri: les fêtes islamiques, persannes, chrétlennes et juives", Arabica, XXXII (1985),80-101.

-Id., Le Livre des faits d'armes et de la chevalerie, ed. A.T.P. Byles; transl. W.Caxton, London, 1937.
-Id., Le Livre de mutacion de fortune, ed. s. Solente, Paris, 1959-1964,3 vols.
-id., Le livre du corps de policie, ed. R.H. Luca, Geneva, 1967.
-id., Le livre de la paix, ed. c.c. Willard, The Hague, 1958.

POLO, Marco (Venice, 1254-1324), Le devisement du monde, o Il Milione = «Libro de las maravillas», ed. J. Rubio Tovar: Libro de Marco Polo, en Viajes Medievales, I, Madrid, 2005, 5-147. (see: J. FERNANDEZ DE HEREDIA's: Aragonese version of the Libro de Marco Polo]

Primer manual *hispanico de mercaderia*, El siglo XIV, ed. M. Gual Camarena, Barcelona, 1981.

Primera Crónica *General de Espana*, Ed. R. Menendez Pidal and D. Catalan, 2 vols., 3rd reprint., Madrid, 1977.

القلقشندي (قلقشندة 1355، القاهرة 1418)، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، طبعة القاهرة، 1972؛ ترجمة الجزء الخاص بالأندلس، بواسطة ل. سيكو دي لوسينا، بلنسية، 1975.

RABGHUZII, Nosiruddin Burhonuddin (Turkey, 13th, 14th c.), Qisasi Rabghuzii. The stories of the prophets, an Eastern Turkish version, ed. H.E. Boeschoten, Leiden-New York, 1995,2 vols.

RASID AL-DIN, Fadl Allah (Hamad an, ap. 1247-1318), Geschichte Gazan-Han's aus dem Tarih-i-mubarak-i-gazani, ed. K. Jahn, London, 1940; The successors of Genghis Khan, transl. introd. J.A. Boyle, New York London, 1971.
ــــــ، مكاتبات رشيدي، تحقيق م. شفيع، لاهور، 1945.
ــــــ، سوانيه الأفكار رشيدي، تحقيق م. ت. دانشبزه، طهران، 1980 – 1981.

RÉGNIER-BOHLER, D., Croisades et pélerinages, récits, chroniques et voyages en Terre Sainte, XII-XVI siécle, Paris, 1997.
-Relación de los Hechos del muy magnifico e más virtuoso senor, el senor don Miguel Lucas, muy digno condestable de Castilla, ed. and study J. Cuevas Mata and J. del Arco Moya, Jaén, 2001.

RUBROUCK, Gillaume de (died before 1293), Voyage dans l'empire mongol (1253-1255), transl. C.-C. and R. Kappler, Paris, 1993.

الصفدي (صفد 1297، دمشق 1363)، الوافي بالوفيات، ويسبادين، 1962 – 1998، الأجزاء من 1 – 22 و24، شتوتجارت: 1993.
ــــــ، جنان الجناس، تحقيق س. ح. حلبي، بيروت، 1407 – 1987.
ــــــ، تشنيع التشيف، تحقيق فكس، فرانكفورت، 1985.

ــــ السفارة (غرناطة 1360)، كتاب الاستقصاء، تحقيق وترجمة لافرو تحت عنوان Un tratado de cirugia hispanoarabe del siglo XIV، ضمن رسالة جامعية بإشراف س. ألفريز دي موراليس و ف. جيرون، جامعة غرناطة، 1989.

SANUDO, Marino "el Viejo" (Venice, died post. 1344), Liber secretorum fidelium Crucis, in J. Bongars (ed.), Gesta Dei per Francos, II: Hanoviae 1611, II, 1-316.

SEM TAB DE CARRION, Rabi (Carrión de los Condes, 14th c.), Sermón de glosas de sa blos y otras rimas, ed. A. Garcia Calvo, Zamora, 2000.

الشقوري (غرناطة القرن 14)، مقالة في الأوبئة، نشر R. Arie, «Un opuscule grenadin sur la Peste Noire de 1348: la Nasiha de Muhammad al-Shaquri», BAEO, 1967, rep. in Arie, Etudes sur la civilisation de l'Espagne Musulmane, Leiden, 1990,57-67.

السمناني (1261 – 1336)، العروة لأهل الخلوة والجلوة، تحقيق ن. م. الهروي، طهران، 1983؛ ترجمة ج. ج. إلياس تحت عنوان The Throne Carrier of God: The Life and Thought of 'Ala' al-Dawla al-Simnani Albany, 1995.
-Sinónima delos nombres delas medecinas griegos e latynos e arauigos, La -, (14th c.), ed, Guido Mensching.

عمر السونامي (سونام، الهند، القرن 13 – 14)، نصب الاحتساب، تحقيق م. عزي الدين، يدا، 1983؛ ترجمة ودراسة م. عزي الدين تحت عنوان The Theory and the Practice of Market Law in Medieval Islam, Warminster, 1997.
-Tacuinum sanitatis [Ibn Butlan]: Codex Vindobonensis series nova 2644: manual de salud del siglo XIV [Biblioteca Nacional de Austria], ed. F. Unterkircher; transl. V. Martinez Lapera, Madrid, 1996.
-Tratado de Agricultura de Paladio, El -: una traducción catalana del siglo XIV, ed. L. Tramoyeres, Madrid, 1911.
- Tres riches heures du Moyen Age, Les - = Ars Nova and the 14th Century [grabación sonora], vol. V: Le Siécle de l'Ars Nova, Arlès, 1995.

UBAYD-I ZAKANI (m. Shiraz, 1357), «Poesia», ed. S.A. Usha, Madrás, 1952; Kulliyyat, ed. Abbas Iqbal, Tehran, 1953; Iransinasi, VI (1994); transl. A. Bausani, "Il libro della barba", A Francesco Gabrieli, Rome, 1964; transl. H. Javadi, The Ethics and other satirical works, Piedmont, Cal., 1985.

العمري (دمشق 1301 – 1349)، مسالك الأبصار، تحقيق ح. ح. عبدالوهاب، تحت عنوان وصف افريقية والأندلس، تونس، 1921؛ تحقيق الفصل الثامن والرابع عشر تحت عنوان Occidente musulman، تحقيق م. ا. عماد، الدار البيضاء، 1988؛ تحقيق أيمن فؤاد سيد، تحت عنوان ممالك الشام والحجاز واليمن، القاهرة، 1985؛ ترجمة م. جودفروي ديمومبينس تحت عنوان L'Afrique

YUWAYNI, AL- (m. Ahr, c. Qazwin, 1284) Tarikh-i djahan gushay, transl. J.A. Boyie, The History of Word conqueror, Manchester, 1958.

الزركشي، بدر الدين (تونس القرن الرابع عشر) البرهان في علوم القرآن: تحقيق م. ا. ف. ابراهيم، الطبعة الثالثة، 1980.

ـــ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية: ترجمة ا. فاجنان تحت عنوان Chronique des Almohades et des Hafrides، القسطنطينية، 1895؛ تحقيق م. مادور، تونس، 1966.

ZERHOUINI, Brahim ez- (Morocco), La rihla du marabout de Tasaft Sidi Mohammed ben el Haj Brahim ez-Zerhouni. Texte arabe du XVIIe siècle, transl. Col. Justinard, Paris, 1940.

ZURARA, G.E. de (Portugal), Cronica do Conde Dom Pedro de Menezes, Barbosa e Xavier, Porto-Braga, 1988.

-Id., Crónica da tomada de Ceuta, ed. R. Brasil, Lisbon, 1992.

-Id., Prosas historicas, select. Rodrigues Lapa, Lisbon, 1992.

3.1 المصادر الوثائقية

Alphonso XI, Ordenamiento de la Banda, ed. M. Ceballos-Escalera and Gila, Madrid, 1993.

***Aljamia** romance en los documentos hebraiconavarros* (14th c.), ed. Y.T. Assi and J.R. Magdalena, Barcelona, 1992.

BAER, F., Die Jueden im christlichen Spanien. Erster Teil, Urkunden und Regesten, Berlin, 1929-1936, 2 vols.; reed. 1970.

***Colección** documental de Pedro I de Castilla (1350-1369)*, Valladolid, 1997.

CRESQUES: L'Atles Català de Cresques Abraham, Barcelona, 1975.

***Documentación** del Monasterio de Guadalupe*, 14th c., ed. M.F. Cerro, Badajoz, 1987.

***Documentos** árabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón*, Los-, ed. and transl. M. A. Alarcon and Santon and R.Garcia de Linares, Madrid, 1940.

***Documentos** arábigo-granadinos, ed.,* transl. and study L. Seco de Lucena, Madrid, 1961.

***Documentos** de Pedro I,* ed. A. L. Molina Molina, Murcia, 1978.

***Documentos** del siglo XIV,* ed. S. Dominguez Sanchez, Leon, 1996.

***Documentos** y notarios de Sevilla en el siglo XIV (1301-1350)*, ed. P. Ostos and M.L. Pardo, Seville, 2003.

moins l'Egypte، باريس، 1927؛ طبعة بيروت 1986؛ تحقيق فاكس ف. سيزجين، فرانكفورت، 1986: 27 جزء.

VICO, Giambartista, (Naples, 1668-1744), Principes d'une Science Nouvelle Relative a la Nature Commune des Nations, Paris, 1986.

VILANOVA, Arnau de (Lerida ?, ap. 1238- Genoa, 1311), De sommiorum interpretatione, Barcelona, 1975.

-Id., Regimen sanitatis ad inclytum regem Aragonum (1305-1310); transl. El maravilloso regimiento y orden de vivir, Saragossa, 1980.

-Id., Arnaldi de Vilanova tractatus octo in graecum sermonem versi (Petropolitanus graecus 113), Barcelona, 2002.

-Id., Discurso sobre el nombre de Dios; Tratado de la caridad, Barcelona, 2005. -Id., Antidotario, ed. coord. P. Vernia, Valencia, 1994,2 vols.

-Id., Opera medica omnia, ed. I. GarciaBallester, A. Paniagua and M.R. McVaugh, Granada, 1975; Barcelona, 1981..., various vols. in process of publication.

-Id., Obres catalanes, ed. M. Batllori, Barcelona, 1987,2 vols.

-Id., Le Rosier alchimique de Montpellier = Lo rosari, ed. and transl. A. Calvet, Paris, 1997.

VITRY, Philippe de (Vitry, Champagne, 1291-Meaux, 1361), Ars Nova, ed. G. Reaney and others, s.l. (American Institute of Musicology), 1986.

-Id., 20 Motets et Chansons, Deutsche Harmonia Mundi 82876-68351-2.

VILLEHARDOUIN, La Conquête de Constantinople, ed. E. Faral, Paris, 1973.

WANG SHIH-FU, TE-HSIN (Ta-tu = Beijing, approx. 1250-1337), Hsi hsiang chi («Romance of the Western Chamber»).

الونشريسي (تلمسان 1430 – فاس 1508)، أدب المسالك إلى قواعد الإمام مالك: تحقيق ا. بوتاهير، الرباط، 1400/ 1980.

—Id., Le Livre des magistratures d'alWancharisi, ed. and transl. H. Bruno, Rabat, 1937.

ـــ، المعيار المعرب، تحقيق م. الحجي وآخرون، الرباط: 1981؛ 1983، 13 جزء: ترجمة جزئية بواسطة إ. عمار تحت عنوان La pierre de touche des fetwas, Archives Marocaines, 1908 and 1909. V. Lagardere, Histoire et societe en Occident musulman au moyen age, Madrid, 1995.

YUNUS EMRE (Turkey, ap. Mid C. XIII- died about 1321). Ilahis, French translation, Paris, 1947; S. Gurer, Asik Yunus Emrenin bestelenmis siirleri, Istanbul, 1961; Adnan Saygun, Yunus Emre, oratorio en trios parties (op. 26); Antologia poética, transl. S. Salom, Madrid, 1974; Diwan, transl. Janes, Madrid, 1991.

PAVONI, R., Notai genovesi in Oltremare, "Collana storica di Fonti i Studi", Genoa, 1982

Repartimiento *de Sevilla*, ed. J. Gonzalez, Madrid, 1951; 2nd ed., introd. M. Gonzalez Jimenez, Seville, 1998.

Spanisch-Islamische *Urkunden aus der Zeit der Nasriden und Moriscos*, ed. and transl. W. Hoenerbach, Berkeley-Los Angeles, 1965.

Statuti *marittimi veneziani*, Statuti delle tarrete del doge Rainieri Zen a (U55), Nuovo Archivio Veneto, 5 (1903).

Formulario *notarial de Gil de Borau*, Zaragoza, siglo XIV, trans. A. Blasco and A. San Vicente, Saragossa, 2001.

MAS LATRIE, L. de, Traites de paix et de commerce et documents concernant les relations des Chretiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age, Paris, 1866; reprint, New York, [1972],2 vols.

OSMA, G. J., De los maestros alfareros de Manises, Paterna y Valencia. Contratos y Ordenanzas de los siglos XIV, XV y XVI, Madrid, 1923.

Padrón *de Sevilla del siglo XIV*, Un -, ed. M. Alvarez and others, Seville, 2001.

المراجــــع[1]

'ABBADI, H., *Las artes del libro en alAndalus y el Magreb,* Madrid, 2005.

العبادي، أحمد مختار، في التاريخ الأيوبي والمملوكي: الإسكندرية، 1992.

العبادي، أحمد مختار، بين ابن خلدون وابن الخطيب: مهرجان ابن خلدون، 67 – 55.

'ABBADI, M. A. al-, *Muhammad V, al Gani bi-Llah, rey de Granada,* REIEIM, 11-12 (1963-64).

'ABBAS, I., *Vie et oeuvre d'Ibn Khaldun*

فلسفة الإسلام في الغرب الإسلامي، 1951 ،*Tetuán*.

عبد الله عبد الله عبد الرشيد، ابن خلدون وآرائه الاعتقادية – عرض ونقد، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة: 1417 هـ، 1996 – 1997.

عبد المولي، محمد، ابن خلدون وعلم المجتمع، تونس، 1976، الطبعة الثانية، 1988.

ABDESSELEM, A., *Les historiens tunisiens des XVIIe, XVIIIe et XIXe siècles,* Paris, 1973.

ABDESSELEM, A., Ibn *Khaldun et ses lecteurs, Paris, prefacio A. Miquel; Ibn Jaldún y sus lectores,* México, 1987.

ABELLAN, J., *Toponimia hispano-arabe y romance: fuentes para la Historia medieval,* Càdiz, 1999.

ABERTH, J., *The Black Death: the great mortality of 1348-1350,* Boston, 2005.

ABU-LUGHOD, J. L., *Before European Hegemony,* Nueva York-Oxford. 1989; reimpr. 1991.

ABU-LUGHOD, J. L., *Cairo. One thousand and one years of the city victorious,* Princeton, 1972.

أبو زيد، مني، الفكر الكلامي عند ابن خلدون، بيروت، 1417/ 1997.

ABULAFIA, D. y N. BEREND (eds.), *Medieval Frontiers. Concepts and Practices,* 2002.

ACIÈN, M. y M. A. MARTINEZ NÚÑEZ, *Catálogo de las Inscripciones àrabes del Museo de Malaga,* Madrid, 1982.

أعمال مهرجان ابن خلدون، 2 – 6 يناير 1962، القاهرة، 1962.

أعمال مهرجان ابن خلدون، مايو 1962، الدار البيضاء، 1962.

اعمال ندوة ابن خلدون، الرباط، 1979.

اعمال ندوة ابن خلدون، الدار البيضاء، 1979.

مؤتمر ابن خلدون، الجزائر، يونيه 1978، الجزائر، 1979.

اعمال مؤتمر ابن خلدون، تونس: فبراير 1980؛ في الحياة الثقافية، مايو ويونيه، 1980 [2].

[*Actas Congreso*]: *Los manuscritos àrabes en España y Marruecos, ed. Ma. J. Viguera y C. Castillo, Granada,* 2006.

[*Actas Congreso*]: *Il Bossolo e la carta da navigare,* Amalfi, 2003.

[*Actas Congreso*]: *Ceuta en el Medievo: la ciudad en el universo àrabe,* Ceuta, 2002.

[*Actas Congreso*]: *Estudios de Frontera,* Alcalà la Real, I-V, 1997-2004.

[*Actas Congreso*]: *Expansion occidentale (XIe-XVe), L'-. Formes et conséquences. XXXIII Congres de la Societe des Historiens Medievistes de l'Enseignement Supérieur Public,* Paris, 2003.

Actas del II Coloquio Hispano-Marroqui de Ciencias Històricas: Historia, Ciencia y Sociedad, Madrid, 1992.

[*Actas Congreso*]: *HAMMAM, M. (ed.), L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen Age,* Rabat, 1995.

[*Actas Congreso*]: GAYRAUD, R. P. (ed.), *Colloque inte d'archéologie islamique,* El Cairo, 1998.

[*Actas Congreso*]: *Contact entre le Sud et le Nord de la Méditerranée au Moyen Age,* Le-, Rabat, 1994

[*Actas Congreso*]: *Convegno Internazionale (Accademia Nazionale dei Lincei): La Persia e Bisanzio,* Roma, 2004.

عفيفي، أبو العلا، موقف ابن خلدون من الفلسفة والتصوف، VV.AA: ابن خلدون والفكر العربي المعاصر.

Âge d'or des sciences arabes, L'-. Exposition présentée à l'Institut du Monde Arabe, Paris, 2005-2006.

AGIUS, D. A. y R. HITCHCOCK (eds.), *The Arab influence in medieval Europe,* Libano, 1994.

AHMED, Z., *The epistemology of Ibn Khaldun,* Londres, 2003.

1 عادة ما يتم اختصار اسم ابن خلدون كـ ابخ، او في شكله الاسباني Ibn Jaldún بـ I.J؛ جمع كارمن بوزوليو بيبلوغرافيا قدمت من قبل مؤلفين هذا الكتاب؛ الذي يشكل حوالي ربع البيبلوغرافيا الإنتقائية، التي أقدمها الآن، الذي كان يمكن أن أستمر فيها تقريبا إلى الأبد (ماريا خيسوس فيجيرا موليز).

2 تضمنت 339 منشورة السيرة الذاتية لابن خلدون قبل 1956.

AHRWEILLER, H., *Byzance et la mer: la marine de guerre, la politique et les Institutions maritimes de Byzance aux VII-XV siécles*, Paris, 1966.

الأهواني، أحمد فؤاد، ابن خلدون وتاريخ العلوم، أعمال مهرجان ابن خلدون، 165 - 176.

AKKARI, H. (dir.), *La Méditerranée médiévale. Perceptions et représentations, Paris- Túnez*, 2002.

AKMIR, A., (coord.), *Islam et l'Occident. Dialoguer pour la paix*, Rabat, 2005.

'ALAM, M., «Ibn Khaldun's Concepts of the Origin, Growth and Decay of Cities», Islamic Cultures, XXXIV (Islamabad, 1960),90-106.

ALBA RAMIREZ, A.; A. GARCIA LIZANA; J. LÓPEZ RUBIO; L. ROBLES TEJERO y N. VALLECILLO CABRERRA, «Algunas consideraciones en torno a las ideas economicas de Ibn Jaldun», *Andalucia en el pensamiento económico*, Malaga, 1987,65-84.

ALEMANY, J. et al. (eds.), Mediterraneum, *El esplendor del Mediterraneo medieval s. XIII-XV*, Barcelona, 2004.

ALEXANDRU-DERSCA, M. M., *La Campagne de Timur en Anatolia (1402)*, Londres, 1982.

عبد العليم، م.، مقدمة ابن خلدون، الفكر العربي، 6/1، 1978.

AL MAGRO GORBEA, A. y A. JIMÉNEZ MARTIN, *Giralda*, Madrid, 1985.

ALMAGRO GORBEA, A. y A. ORIHUELA URZAL (eds.), *La casa nazarí de Zafra, Granada*, 1997.

ALTAMIRA, R., «Notas sobre la doctrina histórica de Abenjaldún», *Homenaje F. Codera*, Zaragoza, 1904,357-374.

ALTAMIRA Y CREVEA, R., *Proceso histórico de la historiografía humana*, México, 1948.

ÁLVAREZ DE MORALES, c., «Medicina y alimentación: andalusíes y moriscos», GARCIA-ARENAL (coord.) *Al-Andalus allende el Atlantico*, Granada, 1997, 134-162.

ÁLVAREZ DE MORALES, C. y E. MOLINA LÓPEZ (coords.) *La medicina en al-Andalus*, Granada, 1999.

ÁLVAREZ DE PALENZUELA, A. *et al.*, *El siglo XIV: el alba de una nueva era*, Soria, 2001.

Andalus *y el Mediterráneo*, *AL-*, Barcelona, 1995.

AMIN, S., *Unequal Development*, Nueva York-Londres, 1976.

العمردي، م. س.، العرب وابن خلدون لأبي قاسم كرو، من حديث الكتب، الرياض، 1979/1399، الجزء الثاني، 285 - 296.

الأنصاري، محمد: التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق، بيروت، 1992.

ANZUINI, C. A., «Il manoscrirto araboIslamico in Italia tra Medioevo e Rinascimento: una nota», *Lo spazio letterario del Medioevo. 3. Le culture circostanti, vol. II: La cultura arabo-islamica, ed. Mario Capaldo*, Franco Cardini, Guglielmo Cavallo, Biancamaria Scarcia Amoretti, Roma, 2003, 625-638.

AOUNI, L. M., *Étude des inscriptions mérinides a Fés*, tesis doctoral microfilmada, Aix-Marsella, 1991.

ARAB OGLI, E :A., *Ibn Khaldun, Moscu*, 1989.

ARABI, B., *Ibn Khaldun, osnovopolozhnik arabskoy sotsiologii* [«I. J., fundador de la sociologia»], Moscú, 1990.

ARGENTE DEL CASTILLO OCAÑA, c., *La ganaderia medieval andaluza*, Jaén, 1991.

ARIÉ, R., *El Reino Nazari de Granada (1232-1492)*, Madrid, 1992.

ARIÉ, R., *España Musulmana, vol. III, Historia de España*, ed. M. Tuñón de Lara, Barcelona,1983.

ARIÉ, R., *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492)*, Paris, 1973 (reed. 1990).

أركون، محمد، نحن وابن خلدون، أعمال ندوة ابن خلدون، 29 - 35.

ARKOUN, M., *Pour une critique de la raison islamique*, Paris, 1984.

ARNALDEZ, R, «Réflexions sur un passage de *la Mukaddima d'Ibn Khaldun*», *Mélanges R. Crozet*, Poitiers, 1966.

ARNZEN, R. Y J. THIELMANN (eds.), *Words, texts and concepts cruising the Mediterranean Sea*, Lovaina, 2004.

الأشموني، ح.، الدولة بين رأي ابن خلدون ورأي ميكافيللي، القاهرة: 1960.

ASHTOR, E., «Étude sur quelques chroniques mamloukes», *Israel Oriental Studies*,1 (1971), 272-297.

ASHTOR, E., *Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*, Berkeley-Los Angeles, 1976.

ASHTOR, E., *East- West Trade in the Medieval Mediterranean*, Aldershot, 1986.

عاصي، حسين، ابن خلدون مؤرخ، بيروت، 1411/ 1911.

اسكان، الحج، تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط، رباط، 2004.

AYACHE, G., «Ibn Khaldun et les Arabes», مهرجان ابن خلدون، 19 -32

AYAD, M.K., *Die Geschichts-und Gesellschaftslehre Ibn Haldun*, *Stuttgart–Berlin*, 1930.

AYALON, D., «Mamluk Military Aristocracy», *Jerusalem studies in Arabic and Islam*, 10 (1987),205-210.

AYALON, D., «Ibn Khaldun's View of the Mamelukes», *L.A. Mayer Memorial Vol.*, *Jerusalén*, 1964, 142 -144 Y 175.

العظمة، عزيز، ابن خلدون وتاريخه، بيروت، 1981، أعيد طبعه، 1987.

AZIZA, M., *La Calligraphie Arabe*, Túnez, 1971.

AZMEH, A. AL-, *Ibn Khaldun in Modern Scholarship. A study in Orientalism*, Londres, 19807.

AZMEH, A. AL-, *Ibn Khaldun*, Londres, 1990; El Cairo, 1993.

AZMEH, A. AL-, *Ibn Khaldun An Essay in Reinterpretation*, Londres, 1982; Central European University, 2003.

AZMEH, A. AL-, «l'Annalistique entre histoire et pouvoir», *Histoire et diversité des cultures*, Paris, 1984, 95-116.

AZMEH, A. AL-, «Barbarians in Arab Eyes», *Past and Present*, 134 (1992), 3-18.

BAALI, F., Ibn Khaldun's sociological thought: Society, *State and Urbanism*, Albany, 1988.

بدوي، عبد الرحمن، ابن خلدون وأرسطو، أعمال مهرجان ابن خلدون: 152 – 162.

بدوي، عبد الرحمن، ابن خلدون ومصادره اللاتينية، أعمال ندوة ابن خلدون، 135 – 160.

بدوي، عبد الرحمن، مؤلفات ابن خلدون، القاهرة، 1962.

BAEK, L., «The Economic Thoug Classical Islam», en BARBER, *Perspectives*.

BAER, Y., *A History of the Jews in Christian Spain*, 2 vols., Filadelfia, 1971; trad. J. Lacave, vol. 1, *Desde los orígenes hasta finales del siglo XIV*, Madrid, 1981.

البهنسي، عفيفي، معجم مصطلحات الخط العربي، بيروت، 1995.

BAIROCH, P.; J. BATOU y P. CHÈVRE, *La population des villes europeennes de 800 à 1850*, Ginebra, 1998.

BALARD, M., *La Romanie génoise (XII[e] début du XV[e] siècle)*, Génova-Roma, 1978.

BALIVET, M., «Les contacts byzantino-turcs entre rapprochement politique et échanges culturels (milieu XIII[e]-milieu XV[e])», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, II.

BALL, G. W., «Una sobredosis de economistas», *El País*, 29 - 4 (1980), 56.

BARBER, W., *Perspectives on the History of Economic Thought*, Vermont, 1991, vol. 5.

BARCELO, M. Y P. TOUBERT (eds.), *'L'incastellamento'. Actes des rencontres de Gérone* (1992) et de Rome (1994), Barcelona, 1998.

BARGÈS, l'Abbé, «Lettre sur un ouvrage inédit de l'historien arabe 1. Kh», *Journal Asiatique*, XII (1841) 483-491.

BARKA Y, R., *Cristianos y musulmanes en la España medieval. El enemigo en el espejo*, Madrid, 1984; 2a ed., 1991.

BARRIOS AGUILERA, M., *Granada morisca, la convivencia negada*, Granada, 2002.

BARRO S, M. F. L. de, *A minoria muçulmana no Reino português* (séculos XII-XV), Tesis Doctoral, Évora, 2004.

BARRUCAND, M. Y BEDNORZ, A., *Arquitectura islámica en Andalucía*, 1992.

الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية، القاهرة، 1978.

BATSIEVA, S. M., «Sotsyal'nlye osnovi istoriko-filosofskogo ucenila Ibn Khalduna» [«Las bases sociales de la doctrina histórico filosófica de 1. J.»], *Pamiati akademika Ignatiia I Ulianovich Krachkovskogo*, Leningrado, 1958, 192-201.

BATSIEVA, S. M., *Istoriko-sotsiologicheski traktat Ibn Khalduna 'Muqaddima'*, Moscú,

3 هناك 850 إشارة ببليوغرافيا عن ابن خلدون بالاضافة للاشارات الاخرى عند الإشارة إلى الإطار الثقافي والسياسي ضمن تنفيذ أي دراسات عن حياته وأعماله؛ هذه البيبلوغرافيا نشرت أيضا في the maghreb review، العدد 5، 1980.

BENEDICTOW, O.J., *The Black Death, 1346-1353: the complete history, Wood bridge-Rochester*, 2004.

BENJAMAA, A., «Quelques remarques préliminaires sur la production historique des savants andalous au VIIIe/XIVe siècle», *Hespéeris-Tamuda*, XXXIV (1996), 7-19.

BENKHEIRA, M. H., L'amour de la Loi. *Essai sur la normativité en Islam*, Paris, 1997.

بن ميلاد، محمد، مكانة ابن خلدون في تاريخ الفكر الإسلامي، AA.VV، ابن خلدون والفكر العربي المعاصر.

BEN MILED, E., «Femme et identité sociopolitique à partir d'une relecture d'Ibn Khaldun», *Revue Tunisienne de Sciences Sociales*, 88-91 (1987), 143-215.

BEN MILED, L., «Représentations hafsides des Croisés», *IBLA*, 68 (2005) ,43-51.

BEN MILED, L., «Image de l'autre, image géographique: essai sur la géographie de l'Europe chrétienne à travers la Muqaddima», en prensa.

BENNASSAR, B. Y R. SAUZET (eds.), *Actes du 37e colloque international du CESR*, Paris, 1998.

BENSACI, S., *Pise et le Maghreb au Moyen Age*, Tesis de Tercer Ciclo (Historia), Paris, 1979.

BENSAID ALAOUI, S., «Islam-Occident: choc de civilisations ou interaction des cultures?», AKMIR (coord.), *Islam et l'Occident. Dialoguer pour la paix*, 55-66.

BENVENISTE, E., «Civilization: Contribution à l'histoire du mot», *Eventail de l'histoire vivante: hommage à Lucien Febvre*, Paris, 1953, 1, 47.

BERHAM, M. A., *La pensée économique d'Ibn Khaldun*, T. D., Universidad de Paris, 1964.

BERNAL, A. M. y A. COLLANTES DE TERÁN, «El puerto de Sevilla, de puerto fluvial a centro portuario medieval (siglos XIV-XVII)», en *I porti come impresa economica*, Prato, 1988.

BERNARDINI, M., *La civilita timuride como fenómeno internazionale*, Roma, 1996.

BERNARDINI, M., *Storia del mondo islamico (VII-XVI secolo), Il mondo iranico e turco*, Turin, 2003.

BERNARDINI, M.; C. BORRELLI; A. CARBO y E. SÁNCHEZ GARCÍA (eds.), *Europa e Islam tra i*

1965; العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمة ت. إبراهيم، تونس – ليبيا، 1978؛ القاهرة، 1986.

BATSIEVA, S. M., «Shifa' al-sa'il: traktat Ibn Khalduna O sufizm», *Sbornik v tshest J.P. Petrushevskogo*, Moscú, 1968,40 Y ss.; ترجمة ر. إ. ناصر تحت عنوان نظرية ابن خلدون، تونس، 1974، 95.

BATSIEVA, S. M., «Uchenie O 'dvoistvennoi latine' Averroesa-Ibn Khalduna», *Palenstinskii Sbornik*, 19/82 (1969); ترجمة ر. إ. ناصر، تحت عنوان نظرية ابن خلدون، تونس، 1974: 57 .

BAUCELLS I REIG,J., *Vivir en la Edad Media. Barcelona y su entorno en los siglos XIII y XIV (1200-1344)*, Barcelona, 2005,2 vols.

BAZZANA, A.; N. BERIOU Y P. GUICHARD (eds.), Averroés et l'Averroisme. *Un itinéraire historique du haut Atlas à Paris et a Padoue*, Lyon, 2005.

BEARMAN, P; R. PETERS y F. E. VOGEL (eds.), *The Islamic School of Law. Evolution, Devolution and Progress*, Cambridge, Mass., 2005.

BECK, H. L., *L'image d'Idris II, ses descendants de Fas et la politique sharifienne des sultans marinides (656-869/1258-1465)*, Leiden, 1989.

BEKKUM,J. W. van y P. M. COBB (eds.), *Strategies of Medieval communal identity: Judaism, Christianity and Islam, ParisLovaina-Dudley* (MA, USA), 2004.

BEL, A., *La religion musulmane en Berbérie*, Paris, 1938.

BELHAMISSI, M., *Histoire de la Marine algérienne (1516-1830)*, Argel, 1983.

BELYAEV, E. A., «Istorico sotsiologicheskaia teoria Ibn Khaldun», *Istorik Marksist*, 4-5(1940), 78-84.

BELYAEV, E. A., *Ibn Khaldun*, Moscú, 1962.

بن عبود، محمد، مبحث في تاريخ الأندلس ومصادره، الرباط، 1989.

BENCHEKROUN, M. B. A., *La vie intellectuelle marocain sous les Merinides et les Wattasides*, Rabat, 1974.

بن شريفة، محمد، ابن تاويت الطنجي محقق لآثار ابن خلدون، أعمال ندوة ابن خلدون، 163 – 172.

BENCHERIFA, M., «Andalucia-Tolerancia y convergencia», *Las rutas de al-Andalus*, Granada, [1998], 15-17.

BOMBACI, A., «La dottrina storiografica di I. Haldun», *Annali della scuola normale superiore di Pisa*, 15 (1946), 159-185.

BOMBA CI, A., «Postille alla traduzione De Slane della Muqaddima di I. Haldun», *Annali dell'Istituto Universitario Orientale di Napoli*, III (1949),439-472.

BONO, S., *Corsari nel Mediterraneo. Cristiani e musulmani fra guerra, schiavitù e commercio*, Milán, 1991.

BONTE, P., «Ibn Khaldun and contemporary anthropology», *Tribes and power: nationalism and ethnicity in the Middle East*, Londres, 2001.

BORRELI, c., «Il mondo pagano dalla Liberata alla Conquistata: varianti tematiche e lingustiche», en *BERNARDINI Y otros (eds.), Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, I.

BOSWELL, J., *The Royal Treasure Muslim Communities under the Crown of Aragon in the Fourteenth Century*, New Haven - Londres, 1977.

BOULAKIA, J., «Ibn Khaldun. A Fourteenth Century Economist», *Journal of Political Economy*, 79 (sept.-oct. 1971).

BOULTON, D'A. J. D., *The Knights of the Crown. The Monarchical Orders of Knighthood in Later Medieval Europe*, 1325-1520. Woodbridge-Nueva York, 2000.

BOUSQUET, G. H., *Les textes socilogiques et économiques de la Muqaddima (13751379)*, Paris, 1965.

BOUTHOUL, G., *Ibn Khaldun, sa philosophie sociale, Paris. 1930; trad. al arabe*, El Cairo, 1955; 2a ed., 1963.

BOWSKY, W. M., *The Black Death. A turning Point in History?*, Huntingron- Nueva York, 1971.

BRANDENBURG, D., *Islamische Baukunst in Agypten*, Berlín, 1966.

BRAUSTEIN, Ph. Y R. DELORT, *Venise, portrait historique d'une cité*, Paris, 1971.

BRAUDEL, F., *El mediterràneo y el mundo mediterràneo en tiempos de Felipe II*, Madrid, 1976, 2 vols.

BRENTJES, B.; S. RICHTER y R. SONNEMAN, *Geschichte der Technik*, Lipsia, 1987.

secoli XIV e XVI. Europe and Islam between 14th and 16th Centuries, Napoles, 2002, 2 vols.

BERNARDINI, M., «Tamerlano, i Genovesi e il favoloso Axalla», en BERNARDINI Y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, I.

BERQUE, J., *l'intérieur du Maghreb*, Paris, 1978.

BERQUE, J., «Ibn Khaldun et les Bédouins du Maghreb», *Histoire et société, Argel*, 1947, 48-64.

BERTHIER, A., «Les manuscrits orientaux et la connaissance de l'Orient. Elements pour une enquête culturelle», *Moyen Orient & Océan Indien. XVIe-XIXe*, Paris, 2 (1985), 79-108.

BIANCHI, N., «Ipostesti islamica nella lette ratura occidentale del Trecenro: il Liber de aggregationibus scientiae stellarum di Alfragano nel Convivio di Dante», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, I.

BIANQUIS, T., «Damas», *en GARCIN, Grandes villes méditerranéennes*, 37-55.

BINEBINE, A. Ch., Histoire des Bibliothèques au Maroc, Rabat, 1992.

BIRABEN, J. N., *Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéennes*, Paris, 1975-1976.

BIELAWSKI, J., «Ibn Haldun, Historik, Filosof i Socjolog Arabski z XIV Wieku», *Przeglad Orientalistyczny, 2 (Varsovia, 1957)*, 127-146.

BIRAN, M., *Qaidu and the Rise of the Independent State in Central Asia*, Richmond, 1997.

BLASCO MARTÍNEZ, A., *La Judería de Zaragoza en el siglo XIV*, Zaragoza, 1988.

BOEHNE, P. J., *Dream and fantasy in 14th and 15th century catalan prose*, Barcelona, 1975.

BOEKE, L., *The Mediterraneam Tradition in Economie Thought*, Londres-Nueva York, 1994.

BOIS, G., *Crise du féodalisme: Économie rurale et démographie en Normandie orientale du début du 14e siècle au milieu du 15e siècle*, Paris, 1976.

BOISSELLIER, S., *Naissance d'une identité portugaise. La vie rurale entre Tage et Guadiana de l'Islam à la Reconquête* (XVIe siècles), Lisboa, 1999.

CAHEN, Cl., *Orient et Occident au temps des croisades*, Paris, 1983.

CAHEN, Cl., *Introduction à l'Histoire du Monde Musulman Médiéval*, Paris, L982.

CAHEN, Cl., «Douanes et commerce dans les ports méditerranéens de *l'Egypte médiéval d'après le Minhadj* d'al-Makhzumi», JESHO, 7 (1964), 217-314.

CALERO SECALL, M. I. Y MARTÍNEZ ENAMORADO, v., *Màlaga, ciudad de alAndalus*, Màlaga, 1995.

CAMPBELL, I.., *Renaissance portraits: European portrait-painting in the 14th, 15th and 16 centuries*, New Haven, 1990.

CANTO GARCÍA, A. y T. IBRAHIM, *Moneda andalusi*, Madrid, 2004.

CARA BARRIONUEVO, L. y MALPICA CUELLO, A., *Agricultura y regadío en alAndalus. Actas II Coloquio Historia y Medio Físico (Almeria, 1995)*, Almeria, 1996.

CARANDE, R., *Sevilla, fortaleza y mercado: las tierras, las gentes y la administración de la ciudad en el siglo XIV*, Sevilla, 1982.

CARBONELL RELAT, L., «La coca, nave del Medioevo», *Revista de Historia Naval*, IV (1986),45-64.

CARDAILLAC, L. (dir.), *Tolédo XIIe-XIIIe. Musulmans, chrétiens et juifs: le savoir et la tolérance*, Paris, 1991; trad., Madrid, 1992.

CARMONA GARCÍA, J. I., *El sistema de hospitalidad pública en la Sevilla del Antiguo Régimen*, Sevilla, 1979.

CARPENTIER, E., *Une ville devant la peste. Orvieto et la peste noir de 1348*, Paris, 1982.

CARO BAROJA, «Aben Jaldun y la ciudad musulmana», «El Poder Real según I. J.», «Aben Jaldun y el gran circulo cultural islàmico», «Las Instituciones fundamentales de los nómadas segun Aben Jaldun» y «Las instituciones fundamentales de los nómadas, según Aben Jaldún», *en Estudios Magrebies*, Madrid,1957.

CARRAZ, D., «Christi fideliter militantium in subsidio Terre Sancte. Les ordres militaires et la première maison d'Anjou (1246-1342)», en FERNANDES, I. C. (coord.). *V Encontro sobre Ordens Militares*, Palmela, 2006.

BRESC, H., *Un Monde méditerrantéen. Économie et societé en Sicile (1300-1450)*, Roma, 1986,2 vols.

BRESC, H. Y Ch. VEAUVY (eds.), *Mutations d'identités en Méditerrantée. Moyen Age et époque contemporaine*, Paris, 2000.

BRET, M., «Ibn Khaldun and dynastie appraach to local history: the case of Biskra», *Al-Qantara*, 12 (Madrid, 1991), 157-170.

BRET, M. (ed.), *Ibn Khaldun and the Medieval Maghreb*, Aldershot, 1999.

BROWNE, E. G., *A literary History of Persia, III, the Tatar Domination*, Cambridge, 1951.

BRUNSCHVIG, R., *La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siécle*, París, 1940-1947, 2 vols.

BRUNSCHVIG, R. y G. E. von GRUNEBAUM (eds.), *Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam*, Paris, 1977.

BULLIET, R., *Islam. The view from the edge*, Columbia University Press, 1994.

بوليبة، ر.، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 – 7هـ/ 12 – 13، عين مليلة، 2004.

BUNES IBARRA, M. Á. de, *La imagen de los musulmanes y del Norte de África en la España de los siglos XVI y XVII*, Madrid, 1989.

BUNES IBARRA, M. Á., «Los Otomanos y los Moriscos en el uni verso mental de la España de la Edad moderna», en BERNARDINI y otras (eds.), *Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, II.

BURNS, R. 1. (ed.), *The world of Alfonso the Learned and James the Conqueror, Princeton*, 1985; trad. E. Rodriguez: *Los mundos de Alfonso el Sabio y Jaime el Conquistador*, Valencia, 1990.

BURET, L., «Notes marginales sur les Prolegomènes: un pédagogue arabe au XIVe siècle, Ibn Khaldoun», *Revue de Tunis*, 1935, 23-33.

CABANELAS, D., «La Madrasa àrabe de Granada y su suerte en época cristiana», *Cuadernos de la Alhambra*, 24 (1989),29-54.

CABRERA, E. (ed.), *Andalucía entre Oriente y Occidente (1236-1492). Actas del V Coloquio Int. de Historia medieval de Andalucía*, Córdoba, 1988.

d'Ibn Khaldûn», en E. GANAGÉ y otros (ed.), 469-497.

CHEDDADI, A., *Ibn Khaldun revisitée*, Casablanca, 1999; trad. árabe por M. Hilali y B. Figuigui: ابن خلدون من منظور آخر, Casablanca, 2000.

CHEDDADI, A., *Les arabes et l'appropriation del'Histoire*, Paris, 2002.

CHEDDADI, A., *Ibn Khaldûn et sa science de la civilisation*, Paris, 2006.

CHENEY, C. R., *The Papacy and England 12th-14th Centuries: historical and legal studies*, Londres, 1982.

CHEIKHA, J., «¿Se convertira el dia logo entre las religiones, las culturas y las civilizaciones en una lucha entre las mismas?», *Dirasat andalusiyya*, n° 34 (2005),3-4.

CHÉRIF, M., Ceuta aux époques almohade et mérinide, Paris, 1996.

CHEVEDDEN, P. E.; D. J. KAGAY y P. G. PADILLA (eds.), *Iberia and the Mediterranean World in the Middle Ages. Studies in honour of Robert I. Burns S. J.*, Leiden, 1996.

CHIAUZZI, G.; G. GABRIELI; P. GUICHARD; L. GOLVIN y C. SARNELLI, *Maghreb médiéval*, Aix-en-Provence, 1991.

CHRISTIDES, v., et al. (ed.), Treasures of Arab-Byzantine Navigation (7th-13thc.), Atenas, 2004.

CHRISTIDES, V., *The Image of Cyprus in the Arabic Sources*, Nicosia, 2006.

CILARDO, A. (ed.), *Presenza araba e islamica in Campania. Atti del Convegno*, Nápoles, 1992.

CIPOLLA, C. M., *Allegro ma non troppo*, trad. M. Pons, Barcelona, 2001,3ª imp., 2005.

Cogs, *Caravels and Galleons. The sailing ship 1000 - 1650*, ed. R. Gardiner, Londres, 1994.

COLLANTES DE TERÁN SANCHEZ, A., *Sevilla en la baja Edad Media. La ciudad y sus hombres*, Sevilla, 1977.

COLLOMP, D., «Le développement des batailles navales dans l'épopée du XIV siècle», *Le Chrétienté au péril saracein*, Aix-enProvence, 2000, 9-26.

Colloque *Ibn Khaldun*: véase Actas...

Colloque *International sur l'histoire du Caire*, Berlin, 1973.

CARRERAS, A.; E. MITRE y J. VALDEÓN, «La Peste Negra», *Cuadernos de Historia 16*, 1985.

CARRIAZO ARRO QUIA, J. de M., *En la frontera de Granada*, Sevilla, 1971.

CARRIAZO ARRO QUIA, J. de M., *Paseos por la historia de Sevilla*, ed. J. L. Y M. C. Carriazo Rubio, Sevilla, 1999.

CASTILLO CASTILLO, c.; I. CORTÉS y J. P. MONFERRER (eds.), *Estudios Árabes dedicados a D. Luis Seco de Lucena*, Granada, 1999.

CATADEUILLA, M., «Ermetismo e allegoria nel De nuptis di Marziano Capella: modello delle dottine allegoriche e visionarie del Medioevo e di Dante», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Napoles, 2002,I.

CHABANE, Dj., *La pensée de l'urbanisation chez Ibn Khaldun (1332-1406)*, Paris, 1998.

CHABBI, M. H., *Ibn Khaldun: Science et societé*, Tunez, 1995.

CHAIX RUY, J., «Sociologia y psicologia de la vida social en la Obra de 1. J.», *Revista Mexicana de Sociologia*, XXI (1954), 7-22.

CHARFI, A., *Aspects de la civilisation dans la Tunisie du XXe siecle*, Túnez, 1996.

CHARFI, A., *L'Islam entre le Message et l'Histoire*, trad. del árabe A. Ferre, Túnez, 2004; *Islam, between divine message and history*, Budapest, 2005.

CHARFI, M., *Introduction à l'histoire du droit*, Túnez, 1997.

CHARFI, M., *Islam et liberté*, Paris, 1999, trad.: *Islam y libertad*, Granada, 2001.

CHARNAY, J. P., *Les Contre-Orients ou comment penser l'autre selon soi*, Paris, 1980.

CHARNAY, J. P., *Regards sur l'Islam: Freud, Marx, Ibn Khaldun*, Paris, 2003.

CHEDDADI, A., «L'Islam comme objet d'histoire en Occident du XVe à la première moitie du XXe siècle», *Hespéis-Tamuda*, XXXIII (1995), 71-82.

CHEDDADI, A., «À propos d'une ambassade d'Ibn Khaldun auprès de Pierre le Cruel», *Hespéris-Tamuda*, 20-21 (1982-83), 5-23.

CHEDDADI, A., «La tradition philosophique et scientifique gréco-arabe dans la *Muqaddima*

DÉROCHE, E, *Le livree manuscrit arabe: préludes à une histoire*, Paris, 2004.

DÉROCHE, E Y E RICARD (coord.), *Scribes et manuscrits du Moyen-Orient*, Paris, 1997.

DHAOUADI, M., «An Investigation into the determinants of Ibn Khaldun's umran mind», *Hawliyyat al-adab, 24* (Kuwait, 2003-2004), 86 pags.

DHINA, A., *Les États de l'Occident musulman aux XIII, XIV et XV siécle. Institutions gouvernementales et administratives*, Argel, 1984.

DIAS HERNANDO, M., «La movilidad de los judíos a ambos lados de la frontera entre las Coronas de Castilla y Aragón durante el siglo XIV», *Sefarad*, 63 (2003), 237-282.

DÍAZ GARCIA, A., «Un tratado nazari sobre alimentos: al-Kalam álà l-agdhiya de al-Arbuli», *Cuadernos de Estudios Medievales*, VI-VII (1978-79), 5-37; X-XI (1982-83),5-91.

DÍAZ MARTÍN, L. V., Los oficiales de Pedro I de Castilla, Valladolid, 1987.

DÍAZ MARTIN, L. V., *Pedro I* 1350-1369, Palencia, 1995.

DJAÏT, H., *Europa y el Islam*, trad. J. Sànchez Prieto, Madrid, 1990.

DODDS, J. D. (ed.), *Al-Andalus. Las artes islàmicas en España*, Madrid, 1992.

DJEBBAR, A., «Les activités mathématiques au Maghreb à travers le témoignage d'Ibn Khaldun», الفكر العلمي في المغرب، Rabat, 2003, 7-22.

DJEBBAR, A., *Une histoire de la science arabe*, Paris, 2001 (pàgs.36, 48, 85, 98, 100, 103, 208, 281, 293, 299-300, 304, 358, 339).

جبار، أحمد، حياة ومؤلفات ابن البنا المراكشي مع نصوص غير منشورة، الرباط، 2001.

DOLLINGER, Ph., *La Hanse (XII^e - XVI^e siecles)*, Paris, 1964.

DOLS, M., *The Black Death in the Middle East*, Princeton, 1977.

DOUMERC, B., *Venise et l'émirat hafside de Tunis (1231-1535)*, Paris, 1999.

DRUMOND BRAGA, I. M. R., *Entre o Cristandade e o Islão (séculos XV- XVII). Cativos e Renegados nas Franjas de duas Sociedades em Confronto*, Ceuta, 1998.

COMENGE FERRER, L., *La farmacia en el siglo XIV*, Barcelona, 1897.

COMES, M., «La cartografia a Mallorca i a Barcelona», en *La Ciencia en la Historia dels Països Catalans: dels Àrabs al Renaixement*, Valencia, 2004, 1, 515-573.

COMES, M.; MIELGO, H. y SAMSÓ, J. (eds.), *«Ochava espera» y «Astrofisica». Textos y Estudios sobre las Fuentes Árabes de la Astronomía de Alfonso X*, Barcelona, 1990.

CONSTABLE, O. R., *Trade and traders in Muslim Spain: the commercial realignment of the Iberian peninsula (900-1500)*, Cambridge, 1994; reimpr. 1995; 1996; *Comercio y comerciantes en la España musulmana*, Barcelona, 1994.

CONTAMINE, Ph., *Guerre, État et société à la fin du Moyen Age*, Paris, 1972.

CÓRDOBA, R., «Las técnicas preindustriales», *Historia de la Ciencia y de la Técnica en la Corona de Castilla II: Edad Media 2*, Valladolid, 2002, 221-432.

COULON, D. et al. (coord.), *Chemins d'outre-mer. Études sur la Mediterranee medievale offertes à Michel Balard*, Paris, 2004, 2 vols.

COULON, O., «Comercio y navegación occidentales hacia el Levante mediterràneo (siglos XIII-XV)», *Mediterraneum*, 289-307.

COULON, O., «L'expansion occidentale vers le Levant à la fin du Moyen Age: la mise en place de structures de domination commerciale», [Actas]: *L'expansion occidentale (XI^e-XV^e siécles)*, 159-175.

CRUZ HERNÁNDEZ, M., *Historia del pensamiento en el mundo islàmico*, Madrid, 1981; reimpr. 1996,2 vols.

CRONE, P. y M. COOK, Hagarism. *The Making of the Islamic World*, Londres, 1977.

CURZI, G., «L'immagine del nemico. Arabi, Turchi e Mongoli nella propaganda crociata», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, I.

DANIEL, N., *The Arabs and Medieval Europe*, Londres, 1979.

DELGADO PÉREZ, M., *Lo real y lo maravilloso en la ecúmene del siglo XIII. Las islas en el Athar al-bilad de al-Qazwini*, Sevilla, 2004.

H. de Felipe; M. Fierro; J. M. Vízcaíno; Ch. de la Puente..., Madrid, 1988-2004..., 14 vols....

EZQUERA ABADÍA, R., *Ruy González de Clavijo, viajero por el Asia Central*, Madrid, 1974.

FAHRI, F. Z., «Turkiyede Ibn Khaldunizm», *Fuad Köprülü Armagani*, Estambul, 1953, 153.

FAIZ, M. EL, *Les maîtres de l'eau. Histoire de l'hydraulique arabe*, 2005.

FARRUKH, 'U., *The Arab Genius in Science and Philosophy*, Washington, 1954.

فروخ، عمر، تاريخ الفكر العربي حتى أيام ابن خلدون، بيروت، الطبعة الرابعة، 1983.

FAURE, A., «Grandeur et solitude d'Ibn Khaldun», *[Actas Congreso I.J.*: مهرجان ابن خلدون، 12-5.

الفاسي، محمد، ابن خلدون والسياسة، مهرجان ابن خلدون، 67 – 77.

FAVIER, J. (dir.), *XIV^e^ et XI^e^ siécles, Crises et genéses*, Paris, 1996.

FÉLEZ LUBELZA, C., *El Hospital Real de Granada. Los comienzos de la arquitectura pública*, Granada, 1979.

FERHAT, H., *Le Soufisme et les Zaouiyas au Maghreb*, Casablanca, 2003.

FERHAT, H., *Sabta des origines au XIV^ème^ siècle, Rabat*, 1993 (reseña B. Rosenberger, Hespéris-Tamuda, XXXIII, 1995,129-134).

FERNANDES, I. C. y M. T. ROSENDO (coord.), *V Encontro sobre Ordens Militares. As Ordens Militares e as Ordens de Cavalaria entre o Ocidente e o Oriente*, Palmela, 2006.

FERNANDEZ PARRILA, G. y M. C. FERIA, *Orientalismo, exotismo y traducción*, Cuenca, 2000.

FERRANDO, I., «On some parallels between Andalusi and Maghrebi Arabic», *Peuplement et arabisation au Maghreb*, Madrid, 1998, 59-74.

FERRER I MALLOL, M. T. (coord.), *Els catalans a la Mediterrània Oriental a l'Edat Mitjana*, 2003.

FERRER I MALLOL, M. T. y D. COULON (dir.), *L'expansió catalana a la Mediterrania a la baixa edat mitjana*, Barcelona, 1999.

FIKR, AL-: número especial sobre I. J.: Túnez, marzo, 1961.

DUFOURCQ, Ch. E., *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIV^e^ et XIV^e^ siécles*, Paris, 1966.

DUFOURCQ, Ch. E., «L'orientation de l'Europe occidentale vers le Maghrib au temps d'Ibn Khaldun», [Actas *Congreso I.J* أعمال ندوة ابن خلدون 463-478.

DUFOURCQ, Ch. E., *L'Ibérie chrétienne et le Maghreb (XII^e^-XV^e^ s.)*, Aldershot, 1990.

DUNN, R. E., *The adventures of Ibn Battuta. A muslim traveler of the 14th century*, Berkeley, 1989.

***D'un** Orient à l'autre. Les métamorphoses successives des perceptions et connaissances: 1: Configurations*, El Cairo, 1991.

ECHÉ, Y., *Les bibliothèques arabes*, Damasco, 1967.

ECHEVARRÍA, A., The Fortress of Faith. The Attitude towards Muslims in Fifteenth Century Spain, Leiden, 1999.

ECHEVARRÍA ARSUAGA, A. y J. M. RODRIGUEZ, *Atlas histórico de la Edad Media*, Madrid, 2003.

EINSTEIN, A., *Comment je vois le Monde*, Paris, 1979.

EDDÉ, A. M., «Alep», en GARCIN, *Grandes villes méditerranénnes*, 157-175.

EL-AOUDI- ADOUNI, R., *Esteles funéraires tunisoises de l'époque hafside (628/975 – 1230/1547)*, Tunez, 1997, 2 vols.

انظر عدن، محمد عبد الله.

***Encyclopédie** de l'Islam (EI)*, Leiden-Paris, 1913-1935; 2a Leiden-Paris/Leiden-Londres, desde 1960; CDRom ed., 2002.

ENSENYAT PUJOL, G., *La reintegració de la corona de Mallorca a la Corona d'Aragó (1343-1349)*, Mallarea, 1997.

EPALZA, M., . «El filósofo Onega y Gasset y lo Árabe», *Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos en Madrid*, XIX (1975-78), 71-1 4.

ESTAPÉ, F., I. J. o *el precursor*, Discurso de ingreso... Reial Acadèmia de Bones Lletres de Barcelona, 19938.

ESTOW, C., *Pedro the Cruel of Castile 1350-1369*, Leiden, 1995.

***Estudios** Onomástico-Biográficos de alAndalus*, eds. M. Marín; M. L. Avila; L. Molina; J. Zanón;

4 يعيد اختيار بيليوغرافيا و. خ. فيشيل، 1958، وملاحق 1966 تضيف اشارات بيليوغرافيا خاصة، صفحات 152 – 156، حتى 1993.

FONTANA, M. v., «Breve nota sugli ornati pseudo epigrafici di derivazione dall'alfabeto arabo in alcuni monumenti funebri dei Quattrocento», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, I.

FORBES MANZ, B., *The Rise and Rule of Tamerlane*, Cambridge, 1989.

FOREY, A., «Aragonese templars in the Holy Land and Cyprus in the late thirteenth and early fourteenth centuries», en FERNANDES, I. C. y M. T. ROSENDO (coord.), *V Encontro sobre Ordens Militares*, Palmela, 2006.

FOURQUIN, G., *Histoire économique de l'Occident medieval*, Paris, 1979.

FRAGNER, B. G., *Die «Persophonie». Regionalitäit, Identitäit un Sprachkontäkt in der Geschichte Asiens*, Berlin, 1999.

FRANCO MATA, M. Á., *Escultura gótica española en el siglo XIV y sus relaciones con la Italia trecentista*, Madrid, 1984.

FRANCO SÁNCHEZ, E, «La asisrencia al enfermo en al- Ándalus. Los hospitales hispanomusulmanes», en C. ÁLVAREZ DE MORALES Y E. MOLINA (coords.) *La medicina en al-Andalus*, Granada, 1999, 135-171.

FRANCO SILVA, A., *La esclavitud en Sevilla y su tierra a fines de la Edad Media*, Sevilla, 1979.

FREY SANCHEZ, A. V.,«La ciudad medieval islàmica», en J. C. MARTIN DE LA CRUZ et al. (eds.), *Actas del 1er Congreso Internacional: Las ciudades históricas. Patrimonio y sociabilidad, Córdoba*, 2000, 89-97.

FURET, E, *L'Atelier de l'histoire*, Paris, 1982.

GABRIELI, G., «Saggio di bibliografia e concordanza della storia di Ibn Khaldun», *Rivista degli Studi Orientali*, X (1924), 169 -211.

GABRIELI, E, *Gli Arabi nel Mediterraneo*, Roma, 1970.

GALMÉS DE FUENTES, Á., *Ramon Llull y la tradición árabe. Amor divino y amor cortés en el «Llibre d'amic e amat»*, Barcelona, 1999.

GANAGÉ, E.; P. CRONE; M. AOUAD; D. GUTAS y E. SHÜTRUMP (eds.), *The Greek Strand in Islamic Political Thought: en MÉLANGES de l'Université Saint-Joseph*, LVII (2004).

FILALY-ANSARY, A., *L'Islam, est-il hostile à la laïcité?*, Casablanca, 1997.

FINDIKOGLU, Z. F., *La Conception de l'Histoire et la théorie méthodologique chez Ibn Khaldun*, Estambul, 1951.

FINDIKOGLU, Z. F., «L'École ibn-khaldounienne en Turquie», *Proceedings of the Twenty-second Intenational Congress of Orientalist* (Estambul, 1951), Leiden, 1952, 2 vols., II, 269-273; «Türkiyede Ibn Haldunizm», *Fuad Köprülu Armagani*, Estambul, 1953, 153-163.

فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة، 1965 – 1969، جزأين.

FAHRI, E Z., «Türkiye'de Ibn Haldunizm», *Fuad Köprülu armagani*, Estambul, 1953, 153-163.

FISCHEL, W. J., «Ibn Khaldun's activities in Mamluk Egypt (1382-1406). On the Basis of a Newly Found Manuscript of His Complete 'Autobiogtaphy'», *Semitic and Oriental Studies*, 103-124.

FISCHEL, W. J., *Ibn Khaldun and Tamerlane*, Berkeley-Los Ángeles, 1952; trad. al arabe, Beirut, s.a. [1975].

FISCHEL, W. J., [Bibliografia de Ibn Khaldun]: en Rosenthal, trad. *Muqaddima*, Nueva York, 1958, III, 483-512.

FISCHEL, W.J., «Ibn Khaldun's use of historical sources», *Studia Islamica*, XIV (1961).

FISCHEL, W. J., «Ibn Khaldun: on the Bible, Judaism and Jews», I. *Goldziher Memorial Vol.*, Jerusalén, 1956, 147-171.

FISCHEL, W. J., *Ibn Khaldun in Egypt, his public functions and his historical research (1382-1406)*, Berkeley, 1967.

FLEISCHER, C., «Royal Authority, Dynastic Cyclism, and 'Ibn Khaldunism' in Sixteenth-Century Ottoman Letters», en B. LAWRENCE (ed.), *Ibn Khaldun and Islamic Ideology*, 46-68.

FLORISTÁN, J. M., *Fuentes para la política oriental de los Austrias. La documentación griega del Archivo de Simancas*, León, 1988, 2 vols.

FOMINA, D. v., *Vlost'i gosudarstvo v filosofii Ibn Khalduna* [«Poder y Estado en la filosofía de I. J.»], Tesis Doctoral, Universidad de Moscú, 2003.

Estudio Histórico y bromatàlógico. II. Carne, pescado, huevos, leche y productos lacteos», *Andalucia islàmica*, IV-V, 1983-1986, 237-278.

GARCÍA SÁNCHEZ, F., «La alimentación popular urbana en al-Andalus», *Arqueologia Medieval*, IV, 1996, 219-232.

GARCIN, J. c. (coord.), *Etats, sociétés et cultures du monde musulman médiéval X^e-XV^e siècle*, 3 vols., Paris, 1995-2000.

GARCIN. J. C. (dir.), *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, Roma, 2000.

GARZYA, A., «Il dialogo fra Michele II Paleologo e un 'persiano'», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, II.

GATES, W. E., «The Spread of Ibn Khaldun's Ideas on Climate and Culture», *Journal of History of Ideas*, 28,1967, 415-422.

GAUTIER, E. F., *Le passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs*, Paris, 1942; reimpr. 1952.

GAUTIER-DALCHÉ, P., *Carte marine et portulan au XI^e siècle*. Le «liber de existencia riveriarum et forma maris nostri mediterranei», Roma, 1995.

GAUTIER DALCHÉ, J., «Ibn Khaldun et son temps», *[Actas Congreso I. J.]*: مهرجان ابن خلدون 33-38.

GAUTIER DALCHÉ, J., «La peste noire dans les États de la Couronne d'Aragon», *Mélanges offerts à Marcel Bataillon*, Burdeos, 1962.

GAUVARD, c.; A. de LIBERA y M. ZINK (dirs.), *Dictionnaire du Moyen Age*, Paris, 2002.

GELLNER, E., «From Ibn Khaldun to Karl Marx», *Political Quaterly*, XXXII, 1961, 385-392.

GHAZOUL, F., «The metaphors of Historiography. A Study of Ibn Khaldun's Historical Imagination», en A. H. GREEN, *In Quest of an Islamic Humanism. Arabic and Islamic Studies in Memory of Mohamed al-Nowalhy*, El Cairo, 1984,48-61.

GIBB, H. A. R., «The Islamic background of I. Kh's Political Theory», *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 1933-1935, y *en Studies in the Civilization of Islam*, Londres, 1962.

GARCÍA ANTÓN, J., «La tolerancia religiosa en la frontera de Murcia y Granada en los últimos tiempos del reino nazari», *Revista Murgetana*, Murcia, 1980,57,133-143.

GARCÍA-ARENAL, M. y Ma.J. VIGUERA (eds.), *Relaciones de la Peninsula Ibérica con el Magreb (siglos XIII-XVII)*, Madrid, 1988.

GARCÍA BALLESTER, L., *La Búsqueda de la salud. Sanadores y enfermos de la España medieval*, Barcelona, 2001.

GARCÍA DÍAZ, I., «La politica caballeresca de Alfonso XI», *Miscelànea medieval murciana*, XI, 1984, 117-134.

GARCÍA DÍAZ, I., «La Orden de la Banda», *Archivum Historicum Societatis Iesu*, XL, 1991, 29-89.

GARCÍA FERNANDEZ, M., *La campiña sevillana y la frontera de Granada (siglos XIII-XV). Estudios sobre las poblaciones de la banda morisca*, Sevilla, 2005.

GARCÍA FITZ, F., *Relaciones politicas y guerra. La experiencia castellano-leonesa frente al Islam, siglos XI-XIII*, Sevilla, 2002.

GARCÍA GÓMEZ, E., *Andalucia Contra Berberia*, Barcelona, 1976.

GARCÍA GRANADOS, J. A.; GIRÓN IRUESTE, F. y SALVATIERRA CUENCA, v., *El Maristàn de Granada, un hospital islàmico*, Granada, 1989.

GARCÍA LIZANA, A., «Fronteras en el tiempo. Una aproximación al estudio de la dinàmica evolutiva en el pensamiento económico de Averroes e I. J.», en TORO CEBALLOS, F. y RODRÍGUEZ MOLINA, J. (coords): *III Estudios en la Frontera. Convivencia, defensa y comunicación en la Frontera*, Jaén, 2000.

GARCÍA LIZANA, A. y CHAMIZO, P. J., «Las claves de la revolución keynesiana y su vigencia actual. Una aproximación desde el anàlisis lingüistico», *Estudios de Economia Aplicada*, 20-1, 2002, 111-135.

GARCÍA MERCADAL, J., *Viajes de extranjeros por España y Portugal*, Madrid, 1952.

GARCÍA SANCHEZ, E., «La alimentación en la Andalucia islamica. Estudio Histórico y bromatológico. I. Cereales y leguminosas», *Andalucia islàmica*, II-III, 1981-1982, 139 - 177. «La alimentación en la Andalucia islàmica.

GOURDIN, Ph., «Les fortifications du Maghreb d'après les sources écrites: la vision d'Ibn Khaldun», *Sites et monuments disparus d'après les témoignages de voyageurs, Res Orientales*, VIII, 1966, 25-32.

GREENE, M., *A Shared World. Christians and Muslims in the Early Modern Mediterranean*, Princeton (N. J.), 2000.

GRERSON, Ph., *Coins of Medieval Europe*, Londres, 1991.

GRICE-HUTCHINSON, M. (1995): *Ensayos sobre el pensamiento económico en España*, Alianza, Madrid, 1995.

GROUSSET, R., *El Imperio de las estepas: Atila, Gengis Kan, Tamerlán*, Madrid, Edad, 1991.

GUELLOUZ, A., «À propos d'un texte inédit de la *Muqaddima*», Arabica, 23, 1976, 308.

GUICHARD, P., *Al-Andalus. Estructura antropologica de una sociedad islámica en Occidente*, Barcelona, 1976; reimpr. con pró1ogo dc A. Malpica, Granada, 1995.

GUIRAL-HADZIIOSSIF,. J., *Valencia, puerto mediterráneo en el siglo XV*, Valencia, 1989.

حمامي، ت.، الشعر علي الشعر، تونس، 2003.

HAMARMEH, S. Kh., «Develcpment of Hospitals in Islam», *journal History Medicine*, 17, 1962, 366-387.

حامد، السيد، القرابة عند ابن خلدون ورويرتسون سميث، الإسكندرية، بدون تاريخ.

HAMMAM, M. (ed.), *L'Occident musulman et l'Occidént chrétien au Moyen Age*, Rabat, 1995.

HAMMER, J. von, *Encyclopedische Übersicht der Wissenschaften des Orients*, Leipzig, 1804.

HAMES SE, J. (ed.), *Les prologues médiévaux. Actes colloque International. Rome, 26-28 mars 1998*, Roma, 2000.

HAMMER-PURGSTALL, «Sur l'introduction à la connaissance de l'histoire, célèbre ouvrage arabe d'I.Kh», *journal Asiatique*, 1922.

هنداوي، حسين، التاريخ والدولة ما بين ابن خلدون وهيجل، لندن، 1996.

حقيقي، ن. ذ.، الخلدونية، بيروت – باريس: 1983.

HARAKAT, I., «Ibn Khaldun's *Kitab al-'Ibar* as a Historical Source», *Afaq*, I, Rabat, 1963,123-132.

GINATEMPO, M. Y L. SANDRI, *L'Italia delle città, il popolamento urbano tra Medioevo e Rinascimento (secoli XIII-XVI)*, Florencia, 1990.

GIUNTA, R., «Un'Iscrizione araba in caratteri cufici, probabile testtimonianza della risistemazione trecentesca del capitolo nella cattedrale di Avignone», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nàpoles, 2002, I.

GLICK, Th., *Irrigation and Hydraulic Technology. Medieval Spain and its Legacy*, Norfolk, 1996.

GLICK, Th., *Tecnología, ciencia y cultura en la España medieval*, Madrid, 1992.

GOITEIN, S. D. F., «An Arab on Arabs: Ibn Khaldun's Views on the Arab Nation», *The Near East. Quaterly of the Israel Oriental Society*, 1, 1950, 115-121; 198-201.

GOITEIN, S. D. F., *A mediterranean society. The jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo Genizo*, 6 vols., Berkeley, 1967-1998.

GOLVIN, L., *La Madrasa Médiévale*, Aix-enProvence, 1995.

GONZÁLEZ ALCANTUD, J. A., *La extraña seducción. Variaciones sobre el imaginario exótico de Occidente*, Granada, 1993.

GONZÁLEZ JIMÉNEZ, M., *La repoblación de la zona de Sevilla durante el siglo XIV*, Sevillia, 3a ed., 2001.

GONZÁLEZ JIMÉNEZ, M.; M. BORRERO eL MONTES, *Sevilla en tiempos de Alfonso X el Sabio*, Sevilla, 1987.

GONZÁLEZ JIMÉNEZ, M., «Genoveses en Sevilla (siglos XIII-XV)», *Serta Gratulatoria in Honorem Juan Régulo*, III, La Laguna (Universidad), 1988,429-430.

GONZÁLEZ JIMÉNEZ, M., «El fracaso de la convivencia: Moros y judios en Andalucia (ss. XIII-XV)», *Proyección histórica de España en sus tres culturas: Castilla y León, América y el Mediterráneo*, I, Valladolid, 1993.

GONZÁLEZ JIMÉNEZ, M., (coord.), *Sevilla, 1248*, Madrid, 2000.

GOODMAN, L. E., «Ibn Khaldun and Thucydides», *Journal of the American Oriental Society*, 92, 1952, 250-270.

***Historia** de la Cartografia* (conferencias). 1: «Introducció general a la historia de la cartografia»; 2: «La cartografia de la península ibérica i la seva extensió al continent americà»; 3: «La cartografia italiana»; 4 «La cartografia dels paisos baixos»; 10 «La cartografia catalana»; II «Plantejaments i objectius d'una historia universal de la cartografia», Barcelona, 199?, 1991, 1993, 1995,2000 Y 2001.

***History** of Cartography, The-: Cartography in Prehistoric, Ancient, and Medieval Europe and the Mediterranean*, I, ed., J. Harley y D. Woodward, Chicago-Londe, 1987; II, *Cartography in the Traditional Islamic and South Asian Societies*. Vol. 2, ed. J. B. Harley y D. Woodward, Chicago: Londres, 1992.

HITZEL, E (ed.), *Istanbul et les langues orientales. Actes du colloque organise par l'I.F.E.A. et l'I.N.A.L.C.O. a l'occasion du bicentenaire de l'École des Langues Orientales (Istanbul, 199J)*, Paris, 1997.

HOCQUET, J. c., *Le sel et la fortune de Venise, vol. I, Production et monopole, vol. 2, Volliers et commerce en Mediterramle I2oo-I650*, Lille, 1978-1979.

HOCQUET, J. c., "productivity gains and technological change. Venetian Naval Architecture at the end of the Middle Ages", *The Journal of European Economic History*, 24,1995,537-556.

HOCQUET, J. c., *Comercio maritimo en el Mediterraneo medieval y moderno*, Granada, 2002.

HOCQUET, J. c., *Venise et la mer (I2e-I8e siecles)*, cap. IX: «Ibiza et la compétition commerciale en Méditerranée», 295-340 (en prensa: 2006).

HOOK, D. Y B. TAYLOR (eds.), *Cultures in Contact in Medieval Islam*, Londres, 1999.

HOROWITZ, c., *The Jewish sermon in 14th century Spain*, Cambridge, Mass., 1989.

حوراني، أكرم، تاريخ العرب، الطبعة الثانية، 1979، تاريخ الشعوب العربية.

HOURANI, A., «History», *The Study of Middle-East Research and Scholarship in the Humanities and the Social Sciences*, Nueva York-Londres-Toronto, 1976.

HART, D. M., «Ibn Khaldun and the beginnings of Islamic sociology in the Maghrib»، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، 7-8, Tunez, 1993, 39-58.

HARVEY, L. P., *Islamic Spain, 1250 to 1550*, Chicago-Londres, 1990.

وافي، أ. م.، أصول التربية والتعليم عند ابن خلدون، القاهرة، 1963.

HAZARD, H., *The Numismatic History of Late Medieval North Africa*, Nueva York, 1952.

HEERS, J., *L'Occident aux XIVe et XVe siécles, Aspects économiques et sociaux*, Paris, 1990.

HERBELOT, B. d', *Bibliothèque Orientale*, Paris, 1647.

HERNANDO DE LARRAMENDI, M.; FERNÁNDEZ PARRILA, G. y B. AZAOLA PIAZZA, *Autobiografia y literatura árabe*, Cuenca, 2002.

حلو، أ.، ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، بيروت، 1969.

HILLGARTH, J. N., El *problema d'un imperi mediterrani català 1229-1327*, Palma de Mallorca, 1984.

HICHEM, Dj., Europa y el Islam, Madrid, 1990.

حميش، سالم، ابن خلدون وتربية التاريخ المسدد، اعمال ندوة ابن خلدون 400 – 378.

HIMMICH, S., *Partant d'Ibn Khaldun, penser la dépression*, Rabat, 1987.

حميش، سالم، الاستشراق في أفق انسداده، الرباط، 1991، الطبعة الثانية، بيروت، 1992.

حميش، سالم، العلامة، بيروت، 1997، الطبعة الثانية، الرباط، 2001.

HIMMICH, S., *al-Jalduniyya fi daw' falsafat al-tarij* [«El jaldunismo a la luz de la filosofía de la Historia» 1, Beirut, 1998.

HIMMICH, S., *'An qira'at I. J.*, Beirut, 1995; trad. del autor, *Les lecteurs d'Ibn Khaldun*, Casablanca, 2000.

HIMMICH, S., *Fi ma'rifat al-ajar* [«Sobre el conocimiento del Otro»], Rabat-Casablanca, 2001.

HINOJOSA MONTALVO, J., *Los mudejares. La voz del Islam en la Espaiza Cristiana*, Teruel, 2002, 2 vols.

HUMPHREY S. R. S., *Tradition and Innovation in the study of islamic History: The evolution of North American scholarship since l960*, Tokio, 1998.

حسين، ف. ن. أ.، ابن خلدون شاعر، القاهرة، 1421/ 2000.

HUSAIN, A. M., *Le gouvernement du Sultanat de Delhi; Étude critique d'Ibn Battuta et des historiens indiens du l4e siècle*, Paris, 1936.

HUSAYN, T., *Étude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn Khaldun*, Paris, 1917; ترجمة إلى العربية محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1925، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية.

الحصري، ساطع، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، القاهرة 1953، الطبعة الثانية 1961.

HUSSEIN, T., *Étude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn Khaldun*, Paris, 1917.

HUTCHINSON, G., *Medieval ships and shipping*, Londres, 1994.

ابن عمارة، الصغير، التفكير العلمي عند ابن خلدون، الجزائر، 1969.

IBRAHIM, T. Y A. CANTO, «Prólogo» a la reimpr. de VIVES Y ESCUDERO, A., *Monedas de las dinastías arábigo-española. Láminas*, Madrid, 1998.

IDRIS, H. R., *La Berbérie orientale sous les Zirides*, X-XIII, Paris, 1962, 2 vols.

IIZUKA, 1., *La Escuela de Salamanca en los Primeras Tiempos de la Historia de Teoría Monetaria*, Tokio, s.a.

IMBER, c., *The Ottoman Empire, Houndmills*, 2002.

INALCIK, H., *The Ottoman Empire, the Classical Age, 1300-1600*, Londres, 1973.

عنان، محمد عبد الله، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، القاهرة، 1925.

عنان، محمد عبد الله، ابن خلدون حياته وتاريخه الفكري، القاهرة، 1930.

ظهرت طبعات أخرى في سنوات 1953، 1940، 1965، كما ترجم تحت عنوان *Ibn Khaldun His Life and Work, Lahore*, 1941; 1944; 2ª ed. 1946.

عنان، محمد عبد الله، تراجم إسلامية، القاهرة، 1970.

IRVING, T. B., «Peter the Cruel and Ibn Khaldun», *The Islamic Literature*, XI, Lahore, 1959, 5-17.

عيسى بك، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بيروت، 1401/ 1981.

ISSAWI, C., *An Arab philosophy of history*. Londres, 1950.

IVANOV, N. A., «Kitab al-'ibar I. Khalduna kak istochnik po istorii stran Severnoy Afriki ve XIV veke» [«*El Kitab al- 'ibar*, fuenre de la historia de África en el siglo XIV»], *Arabskii Sbornik*, XIX, Moscu, 1959, 3-45.

عزت، ا.ن.، الموازنة بين ابن خلدون ودوركايم، القاهرة، 1952.

JAMES, D., *The Master scribes: Qur'ans of the 10th to the 14th centuries A.D.*, Londres, 1992.

JEGEL, G., *l'Italie et le Maghreb au Moyen Age*, Paris, 2001.

JETTER, D., *Geschichte des Hospitals*, 4 vols., Wiesbaden, 1971-1980.

JIMÉNEZ SOLER, A., Los judios españoles a fines del siglo XIV y principios del XV, Zaragoza, 1950.

الخوري، فؤاد إسحاق، مذاهب الانتروبوجيا وعبقريات ابن خلدون، لندن – بيروت، 1992.

JOSSERAND, Ph., «Les templiers castillans et la Terre Sainte», en FERNANDES, 1. C. y M. T. ROSENDO (coord.), *V Encontro sobre Ordens Militares*, Palmela, 2006.

KABLY, M., *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Âge*, Paris, 1986.

كابلي، م.، الدولة والولاية والمجال، الدار البيضاء، 1997.

KAFAR-ZADE, L. T., «Konrseptsiya asabiyi Ibn Hulalduna v sovremennykh sotsiologicheskih konrseptsia» [«La cohesión clánica de Ibn Jaldún desde las concepciones sociológicas contemporáneas»], *Aktualnye problemy sovremennogo Islama*, Baku, 1990.

كحالة: عمر رضا: معجم المؤلفين، دمشق، 1957–1961.

الكحلاوي، محمد، آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيون، القاهرة، 1994.

KENNEDY, E. S. y KENNEDY, M. H., *Geographical Coordinates of Localities from Islamic Sources*, Frankfurt am Main, 1987.

KEYNES, J. M., *The General Theory of Employment, Interest and Money, Cambridge*, 1936;1983.

LAGARDÈRE, V., *Campagnes et paysans d'al-Andalus (VIIIe-XVe s.)*, Paris, 1993.

LAHBABI, M. A., *Ibn Khaldun*, Paris, 1968.

لحبيبي، م. أ.، تعقيبات على ندوة، أعمال ندوة ابن خلدون، 421 – 443.

LAHBABI, M. A., *Les penseurs de l'Islam*, Rabat, s.a.

LAÍN ENTRALGO, P., *Historia de la Medicina*, Barcelona, 1978.

LALINDE ABADÍA,J., *Las instituciones de la Corona de Aragón en la crisis del siglo XIV*, Madrid, 1967.

LAMRANI, A. M., *Recherches sur relations commerciales entre le Maghreb et les pays Italiens à la fin du Moyen Age*, Toulouse, 1988.

LANE, F. C., «From biremes to triremes» *Venice and history. The collected papers Frederic C. Lane*, Baltimore, 1966, 189-192.

LAOUST, H., «La pensée politique d'Ibn Khaldun» أعمال ندوة ابن خلدون، 449-460.

LAROUI, A. A., *Histoire du Maghreb, un essai de Synthèse, 1970; History of the Maghreb*, Princeton, *1977; Historia del Magreb*, Madrid, 1992.

LAROUI, A. A., *La crise des intellectuels arabes*, trad., Madrid, L99L.

«LAROUI, A. A., «I. J. wa-Maquiavelo

أعمال ندوة ابن خلدون، 183-204; Londres, 1990.

لاروي، أ.أ.، مفهوم العقل، الدار البيضاء – بيروت، 1996.

LAROUI, A. A., *Islam et modernité*, Paris, 1987.

LATHAM, J. D., «Towards a Study of Andalusian Immigration and its Place in Tunisian History», *Cahiers de Tunisie*, 5, 1957.

LATHAM, J. D., *From Muslim Spain to Barbary*, Londres, 1986.

LAWRENCE, B. (ed.), *Ibn Khaldun and Islamic Ideology*, Leiden, 1984.

LEMAY, R., «*Grecum est, non legitur!* Paysages antiarabes de la Renaissance», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nápoles, 2002, I.

LEMERCIER-QUELQUEJAY, C., *La Paix mongole*, Paris, 1970.

LÉVI-PROVENÇAL, E., «Note sur l'exemplaire de Kitab al 'Ibar offert par Ibn Khaldun à la Bibliothèque al-Karaouiyyin», *Journal Asiatique*, 23, 1923, 161-168.

KHALIDI, T., *Classical Arab Islam: the culture and heritage of the Golden Age*, Princeton, 1985.

KING, D. A., *Astronomy in the Service of Islam*, Aldershot, 1992.

KREMER, A. von, «Ibn Chaldun und seine Culturgeschichte der islamischen Reiche», *Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften*, Viena, 1879; trad. al ingles en *Islamic Culture*, 1927; yen KRAMER, *Contributions to the History of Islamic Civilization*, Calcuta, 1929.

الكردي، م. س. ت.، المنحى التجريبي عند ابن خلدون، القاهرة، 1974.

KURODA, T., «Ibn Kharudon 'Rekishi Josetzu'no hobo» [«El método de introducción a la Historia de I. J.»], *Isumaru Seikai*, Tokio, 1963.

LABICA, G., «Esquisse d'une sociologie de la religion chez Ibn Khaldun», *La Pensée*, 1965, nº 123, 3-23.

LABICA, G., *Politique et religion chez Ibn Khaldun*, Argel, s.a. [1968]; السياسة والدين عند ابن خلدون، ترجمة العربي، بيروت، 1981.

LACOSTE, Y., *Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire, passe du tiers-monde*, Paris, 1965 (vid. *Times Litterary Suplement*, 8, 1968, 853); reimpr. 1998; trad.: *El nacimiento del Tercer Mundo*: I.J., Barcelona, 1971; 2aed., 1985; trad.: *Ibn Khaldun: The birth of history and the past of the Third World*, Londres, 1984; ترجمة م. سليمان، ابن خلدون – ولادة التاريخ، بيروت، 1982؛ ترجمة العربي ز. فتح الله، ابن خلدون، واضع علم ومفكر استقلال، بيروت، 1958.

LACOSTE, Y., *Ibn Khaldoun*, Paris, 1956; ترجمة م. سيمان، العلامة ابن خلدون، بيروت، بيروت، 1974.

LADERO QUESADA, M. A., *Historia de Sevilla. II. La ciudad Medieval (1248-1492)*, 2ª ed. Sevilla, 1980.

LADERO QUESADA, M. A., *El poder central y las ciudades en España, del siglo XIV al final del Antiguo Régimen*, Madrid, 1981.

LADERO QUESADA, M. A., *Los Mudéjares de Castilla y otros estudios de Historia Medieval andaluza*, Granada, 1989.

LADJILI, J., *Histoire juridique de la Méditerranée: droit romain, droit musulman*, Túnez, 1990.

***Maghreb** Review, The* -: 4-1, 1979: «A special on Ibn Kaldun».

MAHDI, M., *Ibn Khaldun's philosophy of history*, Londres-Chicago, 1958.

MAHDI, M., «The Book and the Master as Poles of Cultural Change in Islam», en S. VYRONIS (ed.), *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Wiesbaden, 1975.

MAHDI, M., *Ibn Khaldun's philosophy of history*, Londres-Chicago, 1958.

MAHFOUDH, F., Architecture et urbanisme en Ifriqiya médiévale, Túnez, 2003.

MAHMASSANI, S., *Les Idées économiques d'Ibn Khaldun*, Lyon, 1932; Beirut, 1935.

مكي، أ.، الفكر الفلسفي عند ابن خلدون، الإسكندرية، 1970.

MAKKI, M. 'A., *Ensayos sobre las aportaciones orientales en la España musulmana*, Madrid, 1968.

***Mallorca** i el comerç de la cerámica a la Mediterrània*, Palma de Mallorca, 1998.

MALPICA CUELLO, A., «Medio físico y territorio: el ejemplo de la caña de azúcar a finales de la Edad Media», en MALPICA CUELLO, A. (ed.): *Paisajes del Azúcar. Actas del Quinto Seminario Internacional sobre la Caña de Azucar*, Granada, 1995, 11-40.

MALPICA, A. (ed.), *Navegación marítima del Mediterráneo al Atlántico*, Granada, 2001.

MANN, V. B.; T. F. GLICK y J. D. DODDS, Convivencia. Jews, *Muslims and Christians in Medieval Spain*, Nueva York, 1992.

MANNONI, T. y E. GIANNICHEDA, *Arqueología de la producción*, Barcelona, 2003.

MANSOURI, M. T., «Les relations entre marchands chrétiens et marchands musulmans au Maghreb à la fin du Moyen Âge», en BENNASSAR y SAUZET (eds.), *Actes*, 405-414.

MANTRAN, R., *Histoire de l'Empire Ottoman*, Paris, 1989.

المنوني، محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب، الرباط، الجزء الأول، 1996.

المنوني، محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، الرباط، 1996.

LEWIS, B., *The Arabs in History*, Londres, 1960; trad. portuguesa: *Os Arabes na Historia*, Lisboa, 1990.

LINDBNER, D. C., *Los inicios de la ciencia occidental*, Barcelona, 2002.

LIROLA, J. y J. M. PUERTA VILCHEZ, *Diccionario de Autores y Obras Andalusíes*, Granada, s.a.; *Biblioteca a de al-Andalus*, Almería, 2004.

LÓPEZ ESTRADA, F., «Procedimienros narrativos en la embajada a Tamorhin», *El Crotalón*, I, 1984, 29-146.

LÓPEZ ESTRADA, F., «Un viaje medieval: Ruy González de Clavijo visita Samarcanda..., y vuelve para contarlo», *Revista de Occidente*, 280 (septiembre 2004), 27-47.

LÓPEZ GUZMAN, R., *Tradición y clasicismo en la Granada del XVI. Arquitectura civil y urbanismo*, Granada, 1987.

LÓPEZ GUZMAN, R. (dir.), *La arquitectura del Islam occidental*, Granada, 1995.

LÓPEZ PÉREZ, M. D., *La Corona de Aragón y el Magreb en el siglo XIV (1331-1410)*, Barcelona 1995.

LOWRY, S. T., *The Archeology of Economic Ideas*, Durham, 1987.

LOWRY, S. T. (ed.), *Pre-classical Economic Thought*, Boston, 1987.

LUTTRELL, A., «The hospitaliers of Rodhes and Portugal: 1306-1415», en FERNANDES, I. C. y M. T. ROSENDO (coord.), *V Encontro sobre Ordens Militares*, Palmela, 2006.

MACHADO, P. J., «O Lingua Arábica do Andaluz segundo os *Prolegómenos* de Iben Chaldune», *Boletim de Filolofia*, VII, Lisboa, 1944, 401-418.

MACHADO, O., «La Historia de los Godos segun I. J.», *Cuadernos de Historia de Espana*, I-II, Buenos Aires, 1944, 139-153.

MACHADO, O., «Historia de los Árabes en España por I.J.», *Cuadernos de Historia de España*, IV, Buenos Aires, 1946-1948, 136-147; VI, 136-147; VII, 138-145; VIII, 148-158.

المدني، أ. ت.، ابن خلدون والجزائر، أعمال ندوة ابن خلدون، 543 – 535.

MAGALI-BOISNARD, Mme., *Le Roman de Khaldoun*, Paris, 1930, [relato novelado].

universelle d'Ibn Khaldûn», *L'expansion occidentale (XIe-XV). Formes et conséquences. XXXIIe Congres de la Société des Historiens Médiévistes de l'Enseignement Supérieur Public*, Paris, 2003, 195-202.

MARTÍNEZ MONTÁVEZ, P., «Relaciones de Alfonso X de Castilla con el sultán mameluco Baybars y sus sucesores», *Al-Andalus*, 27, 1962,343-376.

MARTÍNEZ MONTÁVEZ, P., «Relaciones castellano-mamelucas.1283-1382», *Hispania*, 23, 1963,505-523.

MARTÍNEZ MONTÁVEZ, P., «Islam y Cristiandad en la economia mediterráni la Baja Edad Media», *XIII Congreso Internacional de Ciencias Historicas de Moscu*, 1970.

MASSIGNON, D. (coord.), *Louis Massign et le Dialogue des Cultures*, Paris, 1996.

MASSIGNON, L., «La cité des morts au Caire», Bulletin de l'Institut Français d'Arqueologie Orientale du Caire, LVII, 1938, 25-79.

المصمودي، محمد أحمد، التربية عن ابن خلدون، دعوة الحق، 8. 1958. 29 – 35.

MATA, J. S. F., «A organizaçao da Ordem de Santiago na primeira metade do séc. XIV», en FERNANDES, I. C. y M. T. ROSENDO (coord.), *V Encontro sobre Ordens Militares*, Palmela, 2006.

MAZZOLI-GUINTARD, Ch., *Villes d'al-Andalus. L'Espagne et le Portugal à l'époque musulmane (VIIIe-XVe siècle)*, Rennes, 1996; trad.: *Ciudades de al-Andalus*, Granada, 2000.

MAZZOLI-GUINTARD, Ch., «Un voyageur au milieu du XIVeme siècle: Ibn Battuta», *Voyages et voyageurs au Moyen Age*, Paris, 1996,145-164.

McCORMICK, M., *Origins of the European Economy. Communications and Commerce, A.d. 300-900*, Cambridge, 2001.

MEDIANO, F. R., *Familias de Fez (ss. XV-XVII)*, Madrid, 1995.

Mediterraneum. *El esplendor del Mediterráneo medieval*, J. Alemany y otros (eds.), Barcelona, 2004.

MERAD, A., «L'Autobiographie d'Ibn Khaldun», *IBLA*, XIX, 1956, 53-64.

المنوني، محمد، نماذج من اهتمامات المؤلفين العرب بالمقدمة الخلدونية، أعمال ندوة ابن خلدون، 401– 419.

MANZ, B. F., *The Rise and Rule of Tamerlane*, Cambridge, 1989.

MANZANO MARTOS, R., *Patios con jardin en la Sevilla Islámica*, Sevilla, 1991.

MANZANO RODRÍGUEZ, M. Á., *La intervención de los Benimerines en la Peninsula Ibérica*, Madrid, 1992.

MANZANO RODRÍGUEZ, M. Á., «IJ., 'Abd al-Rahman», *Biblioteca de al-Andalus, ECA 3*, dir. y ed. J. Lirola y J. M. Puerta Vilchez, Almeria, 2004, 578-597.

MARÇAIS, W., «La guerre vu par Ibn Khaldun», *Bulletin d'Information du Governement Général de l'Algerie*, 1939, 293-295.

MARÍAS, J., «Las generaciones en Abenjaldún», *Insula*, no 171, 1961.

MARÍN, M. Y D. WAINES (eds.), *La alimentación en las culturas Islámicas*, Madrid, 1994.

MARINELLO, «La 'costruzione' dell'altro: Immagini dell'Islam nella narrativa elisabettiana», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, II, Nápoles, 2002.

MÁRQUEZ VILLANUEVA, F., *El concepto cultural alfonsí*, Madrid, 1994.

MARTEL-THOUMIAN, B., «À propos de quelques andalous figurant dans la *Durar al-kamina* de Ibn Hayar al-'Asqalani. (Étude sur les méthodes de travail d'un auteur du VIII/XIV siècle)», *Anaquel de Estudios Árabes*, 4, 1993, 99-119.

MARTÍNEZ ENAMORADO, V., «Andalusíes en la Rihla de Ibn Battuta: Apuntes biográficos», en *Ceuta en el Magreb*, 2, 1994, 203-221.

MARTÍNEZ ENAMORADO, V., *Epigrafía y poder. Inscripciones árabes de la Madrasa alYadida de Ceuta*, Ceuta, 1998.

MARTÍNEZ ENAMORADO, V., «Las Madrasas de Ceuta en el contexto del Islam occidental», en *Ceuta en el Medievo*, 39-58.

MARTÍNEZ-GROS, G., «Ibn Khaldun et la mer», en M. T. MANSOURI (ed.), *Le Maroc et la mer*, Paris, 2000.

MARTÍNEZ-GROS, G., «L'exception ramenée à la règle. L'expansion franque dans l'histoire

MOLÉNAT,J. P., «Le problème de la permanence des musulmans dans les territoires conquis par les chrétiens, du point de vue de la Loi islamique», *Arabica* 48/3, 2001,392-400.

MOLÉNAT,J. P., «Encore sur la rencontre d'Ibn Khaldun et de Pierre le Cruel à Seville (1363-64)», *La Rihla. Rencontre de l'Orient et l'Occident. Communication et rupture*, Rabat, en prensa.

MOLINA LÓPEZ, E., «Algunas consideraciones sobre los emigrados andalusíes», *Homenaje D. Cabanelas*, Granada, 1987, I, 189-202.

MOLINA LÓPEZ, E., «Un modelo de estructura y paisaje agrarios: la Vega de Granada según Ibn al-Jatib: (un proyecto inaplazable)», *Ciencias de la naturaleza en alAndalus*, 1996,4,257-264.

MONTOJO JIMÉNEZ, c., *La diplomacia castellana de Enrique III. Estudio preliminar de la Embajada de Ruy González de Clavijo a la corte de Tamerlán*, Madrid, 2004.

MORALES, A. (ed.). *Metropolis Totius Hispaniae*, Sevilla, 1998.

MUTGÉ VIVES, J., «L'ambaixada a Tunis de Guillem de Clariana i de Benet Blanques (1345), *Miscel·lània de Textos Medievals. 4. La frontera terrestre i maritima amb l'Islam*, Barcelona, 1988, 103-162.

MUTGÉ VIVES, J., *Politica, urbanismo y vida ciudadana en la Barcelona del siglo XIV*, Barcelona, 2004.

MYERS, E. A., «Ibn Khaldun, fore-runner of 'new science'», *The Arab World*, Nueva York, marzo, 1966.

نبهان، محمد آل، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة، بيروت، 1418/ 1997.

NASHAAT, M. A., «Ibn Khaldun, Pioneer Economist», *L'Égypte contemporaine*, XXXV, 1945,375-490.

NASSAR, N., «Le maitre d'Ibn Khaldun: Al-Abili», *Studia Islamica.*, 20, 1964.

NASSAR, N., *La pensée réaliste d'Ibn Khaldun*, Paris, 1967; trad.: *El pensamiento realista de I. J.*, México, 1979.

نصار، ناصيف، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، بيروت، 1978.

MEINECKE, M., «Das Mausoleum des Qala'un in Kairo. Untersuchungen zur Genese der mamlikischen Architecturdekoration», *Mitteilungen des deutschen archäologischen Instituts. Abteilung Kairo*, XXVII-I, 1971,47-80.

MEISS, M., *Pintura en florencia y Siena después de la peste negra: arte, religión y sociedad a mediados del siglo XIV*, Madrid, 1988.

MELIS, F., *Mercaderes italianos en España (siglos XIV-XVI)*, Sevilla, 1976.

MESMOUDI RAJAE, B. H., *Approche quantitative de l'or monnaye en Occident musulman (450/1058-59 à 830/1426-27)*, Thèse de Nouveau Doctorat, dir. J. Devisse, Universidad de Paris 1, 1994.

MESSIER, R. A., «Re-thinking the Almoravids, re-thinking Ibn Khaldun», en J. CLANCY-SMITH (ed.), *North Africa, Islam and the Mediterranean world. From The Almoravids to the Algerian world*, Londres, 2001,58-80.

MIÈGE,J. L., «La modernité d'Ibn Khaldun» *[Actas Congreso I.J.]*: أعمال مهرجان ابن خلدون، 13-17.

MIQUEL, A., *La géographie humaine du monde musulman*, *Paris-La Haya*, 1967, -75, -80 y -88. 4 vols.

MITRE, E., *Fantasmas de la sociedad medieval: enfermedad, peste, muerte*. Madrid 2002.

مزيان، عبد المجيد، النظرية الاقتصادية عند ابن خلدون، الجزائر، 2001.

MOJOUETAN, B. A., «Ibn Khaldun and his cycle of fatalism», *Studia Islamica*, 53, 1981, 93-108.

MOLÉNAT,J. P., «Permanence de l'influence de la civilisation araboislamique dans la péninsule ibérique 'reconquise' (XIe-XVe siècles), notamment à travers les minorités 'transculturelles' (Mozarabes et Mudéjares). Le cas tolédan et les autres», en HAMMAM, *L'Occident musulman et l'Occident*, 269-282.

MOLÉNAT,J. P., «L'élite mudéjare de Tolède aux XIVe et XVe siècle: alfaquis, alcaldes et alcaldes mayores de moros», en D. BARTHÉLEMY y J. M. MARTIN (coord.), *Liber Largitorius. Etudes d'histoire médiévale offertes à Pierre Toubert par ses élevés*, Ginebra, 2003, 563-577.

PARIBENI, A., «Una testimonianza iconografica della battaglia di Ankara (1402) in Apollonio di Giovanni», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, I, Nápoles, 2002.

PARRY, J. H., *A descoberta do Mar*, Lisboa, 2002.

PAVÓN MALDONADO, B., «Notas sobre el escudo de la Orden de la Banda en los palacios de D. Pedro y Muhammad V», *AlAndalus*, XXXVII, 1972,229-232.

PEÑA MARTÍN, S., «El signo en la lingüística árabe medieval», *al-Andalus Magreb*, XI, 2004, 131-181.

PÉRÈS, H., «Essai de bibliographie sur la vie et l'oeuvre d'Ibn Khaldun», *Studi orientalistici in onore di G. Levi Della Vida*, Roma, II,304-329.

PÉRÈS, H. Y R. BRUNSCHVIG, «Ibn Khaldun: sa vie et son oeuvre. Elements de Bibliographie Khaldounienne», *Bulletin des Etudes Arabes, Argel*, 1943,55-60 y 145-146; «Complement», par M. Chemoul, Ibidem, 1945,201.

PÉRÈS, H., *Le siècle d'Ibn Khaldun (XIIIe-XIVe)*, Argel, 1960.

PERNOUD, R., *Christine de Pisanne*, Paris, 1995; trad. M. Tabuyo y A. López, Barcelona, 2000.

PICARD, Ch. Y M. KERVAN, «Atlas des ports et des itinéraires maritimes de l'Islam médiéval. Présentation du programme de recherche en cours», *XXXVe Congres de la S.H.M.E.S.P.* (La Rochelle, 4-6 juin 2004).

PICARD, Ch., *La Mer et les musulmans d'Occident au Moyen Age, VIIe - XIIIe siècles*, Paris, 1997.

PICARD, Ch., «Les arsenaux musulmans de la Méditerranée et de l'ocean Atlantique (VI°-xv)», en D. COULON et al. (coord.), *Chemins d'outre-mer*.

PICARD, Ch., *L'Océan Atlantique musulman de la conquête arabe à l'époque almohade*, Paris, 1997.

PIEMONTESE, A. M., «Beltramo Mignanelli senese biógrafo di Tamerlano», *Oriente Moderno*, XV, 1996, 213-226.

PINOL, J. L. (dir.), *Histoire de l'Europe urbaine, t. I: de l'Antiquité au XVIIIe siècle*, Paris, 2003.

PINTO, A., *Mandeville's travels: a rihla in dissguise*, Madrid, 2005.

NATANSON, J., *Gothic ivories of the 13th and 14th centuries*, Londres, 1951.

NAVARRO PALAZÓN, J., (ed.), *Casas y palacios de al-Andalus. Siglos XII-XIII*, Granada-Madrid,1995.

NETAYANHU, B., *Los marranos españoles: desde finales del siglo XIV a principios del siglo XVI*, Valladolid, 2002.

NICHOLSON, R. A., «Ibn Khaldun: the Dinamics of History», *Introduction to Islamic Civilisation*, Chicago, 1958, 3vols., II, 490/501.

NIRENBERG, D., *Comunities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages*, Princeton, 1996; *Comunidades de violencia. La persecución de las minorías en la Edad Media*, Barcelona, 2001.

NORRIS, H. T., *The Berbers in Arabic literature*, Harlow-Beirut, 1982.

NORWICH, J. J., *Historia de Venecia*, Granada, 2003.

NUZZO, L., «Percorsi religiosi e strategie di dominio tra l'Atlantico e il Mediterraneo agli inizi dell'Età moderna», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nápoles, 2002, I.

OLIVEIRA E COSTA, J. P. y T. LACERDA, «Carreira da Índia e Ordens Militares no tempo de D. Manuel I», en FERNANDES, I. C. y M. T. ROSENDO (coord.), *V Encontro sobre Ordens Militares*, Palmela, 2006.

ORLOV, V. V., «Ibn Khaldun»; «alMuqaddima», en *Istorischeskiy leksikon. Entsiklopedischeskiy spravochnik*, Moscú, 2001, vol. V, siglos XIV-XVI, S.v.

ORTEGA Y GASSET, J., «Abenjaldun nos revela el secreto» (conferencia, 1927; publicada en *El Espectador*, VIII, 1934; reprod. en *Obras Completas*, Madrid, 1946, 661-679).

OTTE, E., «El comercio andaluz a fines de la Edad Media», *Actas II Coloq. Historia Medieval Andaluza*, Sevilla, 1982.

OUMLIL, A., *L'Histoire et son discours*, Rabat, 1979; التاريخ والخطاب التاريخي، دراسة لمناهج ابن خلدون، بيروت، بدون تاريخ.

أومليل، علي، ابن خلدون والتجاوز الممكن، أعمال ندوة ابن خلدون، 325 - 346.

PAPADOPOULLOS, Th. (ed.), *History of Cyprus (in Greek)*, IV, Nicosia, 1995.

RAYMOND, A., *Le Caire*, Paris, 1993.

REDJALA, M., «Remarques sur quelques manuscrits de Kitab al-'Ibar», *Actes du XXIX congres International des Orientalistes*, Paris 1975, 147-152.

REDJALA, M., «Un texte inédit de l'histoire des Berbères», *Cahiers de Tunisie*, 95-96, 1976,7-14; *Revue de l'histoire des textes*, III, 1973,193-211.

RENAUD, H. P. J., «Sur un passage d'Ibn Khaldun relatif à l'histoire de Mathématique», *Hespéris*, XXXI, 1944, 35-47.

RENOUARD, Y., *Les villes d'Italie de la fin du Xe siècle au début du XIVe siècle*, Paris, 1969.

REY PASTOR, J. y GARCÍA CAMARERO, E., *La cartografía mallorquina*, Madrid, 1960.

REYNOLDS, D. E, *Interpreting the Self Autobiography in the Arabic Literary Tradition*, Berkeley-Los Angeles-Londres, 2001.

RIEGER, A., *Die Seeaktivitäten der muslimischen Beutefahrer als Bestandteil der staatlichen Flotte während der osmanischen Expansion im Mittelmeer im 15. und 16. Jahrhundert*, Berlin, 1994.

RIERA MELIS, A., *La Corona de Aragón y el reino de Mallorca en el primer cuarto del siglo XIV. I- Las repercusiones arancelarias de la autonomía balear (1298-1311)*, Barcelona, 1986.

RIVERA, M. L, *La pintura en Italia. Toscana y Umbria* (siglos XIV-XV).

RIZA, H., «Ibn Khaldun, the Philosopher of History», *Islamic Review*, XXVI, 1938,267-271.

RODENBEK, M., *El Cairo, la ciudad victoriosa, Granada*, 2003; reimpr. 2004.

RODINSON, M., *Los Árabes*, trad. C. Caranzi, Introd. M. Marin, Madrid, 2005.

ROBINSON, C. y L. ROUHI (eds.), *Under the Influence. Questioning the Comparative in Medieval Castille*, Leiden- Boston, 2005.

RODINSON, M., *La fascination de l'Islam*, Paris, 1982; trad., *La fascinación del Islam*.

RODINSON, M., *Islam et capitalisme*, Paris, 1966.

RODRIGUEZ GÓMEZ, Mª. D., *Las riberas nazarí y de la cUdwa. Siglos XIII-XV*, T. D., dir. M. C. Jiménez Mata, Universidad de Granada, 1997.

POLIAK, A., «Le Caractère colonial de l'État mamelouk dans ses rapports avec la Horde d'Or», *Revues des Études Islamiques*, IX, 1935, 231-234.

PONCET, J., «D'Ibn Khaldun au sous développement», *La Pensée*, février 1967, 2239.

PONS BOIGUES, F., *Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y geógrafos arábigoespañoles*, Madrid, 1898,350-362.

PRAKASH, B., «Ibn Khaldun's Philosophy of History», *Islamic Culture*, XXVIII, Islamabad, 1954, 492-508; XXIX, 1955, 104-119,184-190, 225-236.

PRETEL MARÍN, A., *Don Juan Manuel, señor de la llanura (Repoblación y gobierno de la Mancha albacetense en la primera mitad del siglo XIV)*, Albacete, 1982.

PRIETO y VIVES, A., «La reforma numismática de los almohades: ensayo sobre la numismática de los estados hispano-africanos», *Miscelánea de Estudios y textos árabes*, Madrid, 1915.

PRYOR, J. y S. BELLABARBA, «The medieval muslim ships of the Pisan Bacini», *The Marriner's Mirror*, 76/2,1990,99-113.

QADIR, 'A. al-, «The Social and Political Ideas of Ibn Khaldun», *The Indian Journal of Political Studies, III*, 1941, 117-126; «The Economic Ideas of Ibn Khaldun», *ibidem*, XXII, 1942, 898-907.

قائمة المؤلفات والدراسات حول ابن خلدون، تونس، 1400/1980.

RABI', M. M., *The Political Theory of I. Kh*, Leiden, 1967 ; ترجمة إلى العربية، القاهرة، 1981، النظرية السياسية:

RABIE, H., *The Financial System of Egypt A.H. 564-741/A.D 1169-1341*, Londres, 1972.

RAVAISSE, P., *Essai sur l'histoire et la topographie du Caire d'après Makrizi*, Paris, 1887-1890.

RALIBY, O., *On the Political and Social Ideas of Ibn Khaldun*, Yaxarta, 1963.

RALLO GRUSS, c., *Aportaciones a la técnica y estilística de la pintura mural en Castilla a final de la Edad Media. Tradición e influencia islámica*, Madrid, 2002.

SACERDOTI, S., «Venezia e il regno Hafsida di Tunisi. Trattati e relazioni diplomatiche (1231-1518)», *Studi Veneziani*, VIII, 1966, 303-346.

SADIK, A., *Ibn Khaldun: Genèse de l'économie politique, apologie de la démocratie sociale*, Rabat, 1992.

SACY, S. de, «Ibn Khaldun», *Bibliographie universelle*, Paris, 18 I 8, XXI, 154.

SAENZ-BADILLOS, A., *Literatura hebrea en la España medieval*, Madrid, 1991.

SAID, E., *Orientalism*, 1978; trad. M. L. Fuentes, prol. J. Goytisolo, Madrid, 1990.

SALAVERT Y ROCA, A., *Cerdeña y la exponsion mediterránea de la Corona de Aragon: 1297-1314*, Madrid, 1956.

SALICRÚ I LLUCH, R., *El sultanat de Granada i la Corona d'Aragó, 1410-1458*, Barcelona, 1998.

SALICRÚ I LLUCH, R., *Entre Cristiandad e Islam en el Mediterráneo Ibérico*, en *Itinerarios medievales e identidad hispanica. XXVII Semana de Estudios Medievales*, Pamplona, 2001, 83-112.

صالح، ر.، رجل في القاهرة، القاهرة، 1957.

Samarcanda, *1400-1500 -la cité oasis de Tamerlán, couer d'un empire renaissance*, Paris, 1995.

SAMSO MOYA, J., *Islamic Astronomy and Medieval Spain*, Norfolk. 1994.

SAMs6 MOYA, J., *Las ciencias de los antiguos en al-Andalus*, Madrid, 1992.

SÁNCHEZ ALBORNOZ, Cl., «Ben Jaldún ante Pedro el Cruel», *La España musulmana según los autores islamitas y cristianos medievales*, Buenos Aires, 1946 (y reeds. post.), 2 vols., I, 422-423.

SANCHEZ MARTÎNEZ, M., *Pagar al rey en la Corona de Aragón durante el siglo XIV*, Barcelona, 2003.

SANTAMARÍA, A., «La Reconquista de la vías marítimas», *Anuario de Estudios Medievales*, 10 (1980).

SANTIAGO-OTERO, H. (ed.): *Diálogo filosofico-religioso entre Cristianismo, Judaismo e Islamismo durante la Edad Media en la Peninsula Ibérica*, Turnhout, 1994.

RODRIGUEZ MOLINA, J., «Relaciones pacíficas en la Frontera de Granada con los reinos de Córdoba y Jaén», *Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino*, 6,1992,81-128.

RODRÍGUEZ MOLINA, J., *La vida de la ciudad de Jaén en tiempos del Condestable Iranzo*, Jaén, 1996.

ROLDAN CASTRO, F., *El Occidente de alAndalus en el Atar al-bilad de al-Qazwini*, Sevilla, 1990.

RONCIÈRE, Ch. M. de la y M. MOLLAT, *Les portulans, cartes marines du XIIe au XVIe siècle*, Friburgo, 1984.

RONCIÈRE, Ch. M.; Ph. CONTAMINE y R. DELORT, *L'Europe au Moyen Age*, t. III: *Fin XIIIe-fin XVe siècle*, Paris, 1971.

ROSENTHAL, E. I. J., *Political thought in Medieval Islam*, *Cambridge*, 1958; trad. *El pensamiento politico en el Islam medieval*, Madrid,1967.

ROSENTHAL, E. I. J., *Islam in the Modern National State*, Cambridge, 1965.

ROSENTHAL, F., *A History of Muslim Historiography*, Leiden, 1952; 2a ed., 1968.

ROSENTHAL, F., «Die Arabische Autobiographie», *Studia Arabica I. Analecta Orientalia*, 14, Roma, 1937, 33 y ss.

ROSSI, G. B. de, *Dizionario storico degli autori arabi piu celebri*, Parma, 1807.

ROY, B., *Extrait du Catalogue des manuscrits et des imprimes de la Grande Mosquée de Tunis*, Túnez, 1900.

RUBIO VELA, A., Pobreza, enfermedad y asistencia hospitalaria en la Valencia del siglo XIV, Valencia, 1984.

RUIZ SOUZA, J. c., «El Palacio de los Leones de la Alhambra: ¿madrasa, zawiya y tumba de Muhammad V? Estudio para un debate», Al-Qantara, XXII, 2001, 77-120.

ساعاتي، حسن، علم الاجتماع الخلدوني- قواعد المنهج، بيروت، 1981.

سعد الله، أ. ق.، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، الجزائر، 1981.

SAADE, I., *El pensamiento religioso de I. J.*, Madrid, 1973.

Centuries», en BERNARDINI Y otros (eds.), *Europa e Islam*, Nápoles, 2002, I.

شرارة، و.، المقدمة – التاريخ وجسد السلطان الممثلي، دراسات عربية، 13 – 3، 1977.

شريط، ي. أ.، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الجزائر، الطبعة الثالثة، 1984.

SHATZMILLER, M., L'*historiographie mérinide: Ibn Khaldun et ses contemporains*, Leiden, 1982; ترجمة تحت عنوان المؤرخين والسلطة في المغرب، الرباط، 1993.

SHATZMILLER, M., *The Berbers and the Islamic State. The Marinid Experience in PreProtectorate Morocco*, Princeton, 2000.

SHATZMILLER, M., «*Waqf Khayri* in Fourteentrh-Century Fez: Legal, Social and Economic Aspects», *Anaquel de Estudios Árabes*, 2,1991,193-215.

SHATZMILLER, M., «Les premiers Merinides et le milieu religieux de Fès: l'Introduction des Medersas», *Studia Islamica*, 43, 1991, 112.

SCHIMMEL, A., *Sufismus, Múnich*, 2000.

SCHMIDT, N., «The manuscripts of Ibn Khaldun», *Journal of the American Oriental Society*, XLVI, Baltimore, 1926, 17:-176.

SIDARUS, A., *Ibn al-Rahibs Leben und Werk. Ein koptisch-arabischer Encyklopadist des 7/13.* Jahrhunderts, Friburgo em Brisgau, 1975.

SIDARUS, A., «Essai sur l'âge d'or de la litterature copte arabe», *Acts of the Fifth International Congress of Cop tic Studies (Washington, 1992)*, Roma, 1993, II, 443-462.

SIMON, H., *Ibn Khaldun Wissenschaft der menschlchen Kultur*, Leipzig, 1959.

SIRAISI, N., «La Facultad de Medicina», - *Historia de la Universidad de Europa*, ed. Hilde De Ridder-Symoens, Bilbao, 1994.

SIVERS, P. von, *Khalifat, Königtum, und Verfall*, Munich, 1958.

SLANE, DE-, «Ibn Khaldun», en *Les manuscrits de la Bibliothèque Imperiale*, Paris, vol. 19.

SMIRNOVA, E., *Moscow icons: 14th-17th centuries*, Oxford, 1989.

SMITH, J. A., «Compass» en *Encyclopedia of the history of Science, Technology and Medicine in Non- Western Cultures*, ed. H. SELIN, Boston-Londres, 1997,232-234.

SANTIAGO SIMON, E. de, *Ibn al-Jatib y el sufismo*, Granada, 1981.

SCHIPPERGES, H., *La medicina árabe en el Medievo Latino*, Toledo, 1989.

SCHMIDT, N., Ibn Khaldun, *historian, sociologist and philosopher*, Nueva York, 1930; 1967.

SCHNALL, U., «Practical navigation in the late Middle Ages. Some remarks on the transfer of knowledge from the Mediterranean to the Northern seas», en VILLAIN-GANDOSSI, *Medieval Ships*, 271279.

SCHUMPETER, J. A., *History of Economic Analysis*, Oxford- Nueva York, 1954.

SEGURA, C» *Bases socioeconómicas de la población de Almería (s. XV)*, Madrid, 1979.

SEGURA GRAIÑO, C. (ed.), *Actas del Coloquio de Historia: Almería entre culturas. Siglos XIII al XVI*, Almería, 1990.

SERRA RÁFOLS, E., *El redescubrimiento de las Islas Canarias en el siglo XIV*, La Laguna de Tenerife, 1961.

SERRAO, E., «Ex Spoliis Victoriae Africanae: Sull'origine delle iscrizioni arabe di Napoli e Pozzuoli», en BERNARDINI y otros (eds.), *Europa e Islam*, Napoles, 2002., I.

SEZGIN, F., *Mathematische Geographie und Kortographie im Islam und ihr Fortleben im Abendlond*, en *Geschichte des arabischen Schrifttums, vols. 10-12 (Historische Darstelhung und Kartenband)*, Frankfurt, 2.000; ed. en ingles, 2.005.

شابوه، إ.، من نفائس دار الكتب الوطنية التونسية، تونس، 1989.

شابوه، إ.، مخطوطات ابن خلدون في مكتبات تركية، تونس، 1985.

شحاته، ي.، محاولات حول ترجمة مقدمة ابن خلدون إلى اللغات الاجنبية: أعمال مهرجان ابن خلدون، 545 – 557.

SHAHW, S. J. y E. K., *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, Cambridge, 1976-1977.

SHALEM, A., «The Portraiture of Objects: A Note on Representations of Islamic Objects in European Painting of the 14th-16th

Actas, IV Congresso da Asocioçao Hispanica de Literatura Medieval, I, Lisboa, 1991,57-70.

TAZI (AL-), A. H., «I. J. Safiran» [«I.J., embajador»], *[Actas Congreso I. J* أعمال ندوة ابن خلدون, 365-386.

التازي، عبدالهادي،التاريخ الدبلوماسي للمغرب، الرباط، 1986 – 1989، 14 جزء.

THEMUDO BARATA, E (ed.), *Elites e Redes Clientelares na Idade Média. Problemas Metodologicos*, Lisboa-Évora, 2001.

TOMESELLO, N. L., «Una mappa semiotica iranica nella letteratura del Rinascimento: il giardino», en *Europa e Islam*, M. BERNARDINI Y otros (eds.), Napoles, 2002,I.

TONGHINI, c., *Qal' at Ja'bar pottery: a study of a Syrian fortified site of the late 11th -14th centuries*, Nueva York, 1998.

TOOMASPOEG, K., «Ordens Militares nos reinos do Mediterrâneo Central nos seculos XII-XIV», en I. C. FERNANDES y M. T. ROSENDO (coords.), *V Encontro sobre Ordens Militares*, Palmela, 2006.

TORO CEBALLOS, E, «El discurso genealógico de Sancho de Aranda», *Los Aranda de Alcala la Real, Alcala la Real*, 1993.

TORREMOCHA SILVA, A.; I. NAVARRO y J. B. SALADO, *Al-Binya, la ciudad palatina merini de Algeciras*, Algeciras, 1999.

TORRES FONTES, J., *La Frontera murciano-granadina*, Murcia, 2003.

TORRES FONTES, J., *Instituciones y sociedad en la frontera murciano-granadina*, Murcia, 2004.

TOUBERT, P., *Études sur l'Italie medievale, 9e-14e s.*, Londres, 1976.

TOUATI, H., *L'armoire à sagesse, Bibliothèques et collections en Islam*, Paris, 2003.

TOYNBEE, A. J., *A Study of History*, Londres, 1934-1954, 10 vols.

TOYNBEE, A. J., «The Relativity of Ibn Khaldun's Historical Thought», *A Study of History*, III, 321-328, 473-476; X, 84-87.

TREPPO, M., del, *I mercanti catalani e l'espansione della corona d'Aragona nel secolo XV*, Nápoles, 1972; *Els mercaders catalans i l'expansió de la Corona catalanoaragonesa al segle XV*, Barcelona, 1976.

SOBREQUÉS, J., «La peste negra en la Península ibérica», *Anuario de Estudios Medievales*, VII, 1970-1971.

SOLA, E., *Los que van y vimen. Información y fronteras en el Mediterráneo clasico del siglo XVI*, Alcala de Henares, 2005.

SOLER DEL CAMPO, A., *La evolución del armamento medieval en el Reino castellano-leonès y al-Andalus (siglos XII-XIV)*, Tesis Doctoral, dir. C. Segura, Universidad Complutense, 1990; publ. en Madrid, 1993.

SPENGLER, J., «Economic Thought in Islam: Ibn Khaldoun», en *Comparative Studies in Society and History*, 6, 1963-1964, 268-275.

SPULER, B., *Die goldene Horde. Die Mongolen in Russland 1223-1502*, Leipzig, 1943.

STIERLIN, H., *Arte islamica nel Mediterraneo: da Damasco a Granada*, Vercelli, 2005.

STOWASSER, B. E, *Religion and Political development: some comparative ideas on Ibn Khaldun and Machiavelli*, Washington, 1983.

SUAREZ FERNANDEZ, L., *Historia Universal EUNSA. 6: De la crisis del siglo XIV a la Reforma*, Pamplona, 1979.

صوباي س. ب. ج.: ابن خلدون ولاجمسه شومسكي المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، مجلة جامعة أم القرى، مكة، 1995، رقم 8، 10، 297 – 342.

SUBBAH REDDY, D. v., «Sociology of Medecine in the *Muqaddima* of Ibn Khaldun», *Indian Journal of the History of Medecine*, IV, Madras, 1959, 13-23; V, 1960, 10-21.

TALBI, M., *Ibn Khaldun et l'histoire*, Túnez, 1973.

TALBI, M., «I.J. et le sens de l'histoire», *Studia Islamica*, XXVI, 1967,73-148.

TALBI, M., «Ibn Khaldun», *Encyclopaedia of Islam*, III, 825-832.

TAMURA, J., [«Análisis económicos sobre el pensamiento de I. J.»]: en japonés, *Ajia kazai*, Tokio, sept. 1963.

TATE, R. B., «El humanismo en Andaluda en el siglo XV», en A. COLLANTES DE TERÀN y A. GARCÍA BAQUERO (coords.), *Andalucía 1492: Razones de un protagonismo*, Sevilla, 1992.

TAYLOR, B., «Los libros de viajes de la Edad Media Hispana: bibliografía y recepcion»,

del II Coloquio Hispano-Marroquí de Ciencias Históricas, Madrid, 1992, 323-327.

VALÉRIAN, D., «Le facteur économique dans la politique catalane à Bougie (XIIe-XVes.)», en *L'expansió catalana*, 145-160.

VALLVÉ, J., «Las relaciones entre al-Andalus y el Norte de África a través del Estrecho de Gibraltar (siglos VIII-XV)». *Actas del I Congreso Internacional El Estrecho de Gibraltar*, Ceuta, 1988,9-36.

VALLVÉ, J., «La industria en al-Andalus», *Al-Qantara*, 1, 1980.

VALOR PIECHOTTA, M. (coord.), *El último siglo de la Sevilla islamica. 1147-1248*, sevilla, 1995.

VALVERDE, J. L. Y PEÑA MUÑOZ, C., *El formulario de los Hospitales de Ibn Abi l-Bayan*, Granada, 1981.

VAN HOUTTE, J., *Bruges, essai d'histoire urbaine*, Bruselas, 1967.

VAZQUEZ DE BENITO, M. C., «La medicina árabe fuente de la medicina medieval castellana», *Homenaje a Santiago Otero, Medievalia et Humanistica*, Madrid, 1988, 1, 771-785.

VÁZQUEZ DE BENITO, M. C., «La herencia árabe del sumario de la Medicina», *El Sumario de la Medicina de Francisco Lopez de Villalobos, salamanca*, 1998, 163-177.

VÁZQUEZ DE BENITO, M. C., «La influencia aviceniana en Ibn al-Jatib», *Homenaje a Rafael Muñoz Jimenéz, Revista de Filología de la Universidad de La Laguna*, 17, 1999, 753-757.

VV.AA., *Los conservadores municipales del Alcázar*, sevilla, 2003.

VV.AA., *El agua en la agricultura de alAndalus*, Barcelona, 1995.

VV.AA., *Apuntes del Alcázar no 1 al 6. Patronato del Real Alcázar* de Sevilia, 2000-2005.

ف.ف.ا.ا، ابن خلدون والفكر العربي المعاصر، يوميات الدولة العربية: 1984.

VEGA MARTÍN, M.; S. PEÑA MARTÍN y M. C. FERIA GARCÍA, *El mensaje de las monedas almohades*, Cuenca, 2002.

VERNET, J., «Las obras biológicas de Aristóteles en árabe: *El evolucionismo de I.J.*», *Actas II Jornadas de Cultura Islamica*, Madrid, 1980, 187-193.

TRIKI, H., «Marrakech, retrato histórico de una metrópolis medieval. Siglos XI-XII», en LÓPEZ-GUZMAN (dir.), *La arquitectura del Islam occidental*, 93-106.

TRILLO SAN JOSÉ, c., *Agua y paisaje en Granada*, Granada, 2003.

TRILLO SAN JOSÉ, c., *Agua, tierra y hombres en al-Andalus. La dimensión agrícola del mundo nazarí*, Granada, 2004.

TSUGITAKA, S., *State & Rural Society in Medieval Islam. Sultans, Muqtacs & Fallahun*, Leiden, 1997.

TURKI, 'A. M., *Theologiens et juristes de l'Espagne musulmane*, Paris, 1982.

UDOVITCH, A. L. (ed.), *The Islamic Middle East, 700-1900*, Princeton, 1981.

UBIETO, A., «Cronologia del desarrollo de la Peste Negra en la Peninsula Ibérica», *Cuadernos de Historia*, 5, 1975.

اوداكا، ج.، دراسات ابن خلدون في اليابان، أعمال مهرجان ابن خلدون، 559 – 564.

UÑA, A., *La filosofia del siglo XIV: contexto cultural de Walter Burley*, Madrid, 1978.

URVOY, D., *Le monde des ulémas andalous du V/XI au VII/XIII. Étude sociologique*, Ginebra, 1978; trad.: *El mundo de los ulemas andaluces del siglo V/XI al VII/XIII*, Madrid, 1983.

عسلان، عبدالله عبدالرحمن،ابن خلدون وأثره الادبي، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2. 1398/ 1979. 515 – 535.

VACA, Á., «La peste negra en Castilla. Aportación al estudio de algunas de sus consecuencias económicas y sociales», *Studia Historica (Historia Medieval)*, 2 (2), 1984.

VALDEÓN BARUQUE, J., *Pedro I el Cruel y Enrique de Trastámara: ¿la primera guerra civil española?*, Madrid, 2002.

VALDEÓN,J., y otros, *De la Baja Edad Media hasta el reinado de Felipe II*, Barcelona, 1985.

VALENCIA, R., «Los dirigentes de la sevilla árabe en torno a 1248», en *Andalucía entre Oriente y Occidente (1236-1248)*, Córdoba 1988, 31-36.

VALENCIA, R., «La emigración sevillana hacia el Magreb alrededor de 1248», *Actas*

وافي، عبد الواحد، الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون، المجلة المصرية للعلوم الاجتماعية، القاهرة، 1951.

WALZER, R., «Aspects of Islamic political thought: al-Farabi and Ibn Khaldun», *Oriens*, XV, 1963, 40-60.

الورجلي، ح.، تراث المغاربة والأندلسيين في آثار الدارسين بالمملكة العربية السعودية، الرياض، 1422/2001.

الوردي، أ.، منطق ابن خلدون، القاهرة، 1962.

WARNER, N., *The monuments of historic Cairo*, El Cairo, 2005.

WASSERSTEIN, D., «Semitica Hiberno-Latina I: An Unknown Jewish Sect in Fourteenth-Century Egypt?», Peritia, *The Journal of the Medieval Academy of Ireland*, 2, 1983, 215-217.

WASSERSTEIN, D., «Tradition manuscrite, authenticité, chronologie et dévelopement de l'oeuvre d'Ibn Iyas», *Journal Asiatique*, 280, 1992, 81-114.

WATSON, A. M., *Innovaciones en la agricultura en los primeros tiempos del mundo islámico: difusión de los distintos cultivos y técnicas agrícolas del año 700 al 1100*. Granada, 1998.

WHITE, H. W., «Ibn Khaldun in World Philosophy of History», *Comparative Studies in Society and History*, II, 1959-1960, 110-125. Reseña, trad. de *al-Muqaddima*, por Rosenthal,1958.

WIEGERS, G. A.,«Language and identity. Pluralism and the use of non-arabic languages in the Muslim West», *Pluralism and identity. Studies in ritual behaviour*, ed. J. Platvoet y K. van der Toorn, Leiden, 1995, 303-326.

WIET, G., «La grand peste en Sirie et en Égipte», *Études Levi-Provençal*, Paris, 1962, I, 367-384.

WINTER, M. Y A. LEVANONI (eds.), *The Mamluks in Egyptian and Syrian Politics and Society*, Leiden-Boston 2004.

WOLFSON, H. A., *Religious philosophy*, *Harvard*, 1961.

يعفر، سليمان، و ف.، ابن خلدون، القاهرة، 1963.

YA'FAR, M. Y SULAYMAN, F., *Ibn Jaldun*, El Cairo, 1963.

VERNET, J., *Estudios sobre historia de la ciencia medieval*, Barcelona-Bellaterra, 1979.

VERNET, J., *La cultura hispanoárabe entre Oriente y Occidente*, Barcelona, 1978; trad.: *Die Spanisch-arabische Kultur in Orient und Okzident*, Zurich y Munich, 1981; y trad. actualizada: *Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne*, Paris, 1985; *Lo que Europa debe al Islam de Espana*, Barcelona, 1999.

VERNET, J., *De Abd al-Rahman I a Isabel II*, Barcelona, 1989.

VERNET J., «Influencias musulmanas en el origen de la cartografía náutica», *Boletín de la Real Sociedad Geográfica*, 89, 1953,35-62; Y en *Estudios sobre Historia de la Ciencia Medieval*, 355-382.

VERNET, J., «Respuesta» a ESTAPÉ, *Ibn Jaldun...* Discurso... Reial Acadèmia de Bones Lletres de Barcelona.

VIDAL, F., «Historia política», en *El reino nazarí de Granada. Historia de España Menéndez Pidal*, coord. Mª. J. Viguera Molins, vol. VIII-3, Madrid, 2000, 77-251.

VIDIÄSOVA, M. F., *Sotsial'nye Struktury Dokolonial'nogo Magriba* [«Estructuras sociales del Magreb precolonial»], Moscu, 1987.

VIDIÄSOVA, M. F., «Le Maghreb médiéval: 'mercantilisme parasitaire' ou sociétéproductrice?», *Anaquel de Estudios Arabes*, 3,1992,241-246.

VIGUERA MOLINS, Ma. J., «Le Maghreb Mérinide: un processus de transfèrement'», *Actes du 8ème Congres de l'Union Europeenne d'Arabisants et d'Islamisants*, Aix-en-Provence, 1978,309-321.

موليتز، فيجيرا، ابن خلدون وابن مرزوق، مؤتمر ابن خلدون، الجزائر، 1979.

VIGUERA MOLINS, Ma. J. (coord.), *Historia de España Menéndez Pidal*, VIII-3 y VIII-4: *El reino nazarí de Granada*, Madrid, 2000.

VILLAIN-GANDOSSI, C.; S. BUSUTTIL y P. ADAM, *Medieval Ships and the Birth of technological Societies*, Malta, 1992.

VILLAIN-GANDOSSI, c., *Le Navire médiéval à travers les miniatures*, Paris, 1985.

وافي، عبد الواحد، عبد الرحمن بن خلدون، القاهرة، 1951؛ أعيد طبعه 1975.

الجابري، عبدالمجيد، المعقول واللامعقول في مقدمة ابن خلدون، ، أعمال ندوة ابن خلدون، 131 – 73.

YABRI, M., *Elegado filosófico arabe: Alfarabi, Avicena, Avempace, Averroes, Abenjaldun (lecturas contemporáneas)*, trad. M. Feria, Madrid, 2001.

الجابري، عبدالمجيد، فكر ابن خلدون – العصبية والدولة، الدار البيضاء، 1971 و2001، بيروت، 1992.

YAMUNI, v., «La Filosofia de la Historia de I. J.», *Anuario de Historia*, II, México, 1962.

YAMUNI, V., «La decadencia de las naciones segun I. J.», *Anuario de Historia*, IV, 1964.

YAP, Y. y A. COTIERELL, *La civilización china clásica: de la prehistoria al siglo XIV*, Barcelona, 1981.

اليودي، إ.، ابن خلدون وعلم الاجتماع، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة أم القري، مكة، 1403/ 1983، ص61.

ZACHARIADOU, E. A., *Trade and Crusade. Venetian Crete and the Emirates of Menteshe and Aydin (1300-1415)*, Venecia, 1983.

ZAFRANI, H., «Le patrimoine hispano-mauresque dans la conscience historique et la création littéraire judéo- maghrébine», *Actas: Le patrimoine commun hispano mauresque*, Rabat, 1992, 111-128.

زهراني، عبدالرحمن، ابن خلدون ونشأة المدن، مجلة كلية العلوم الإجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 14 – 5. 1412/ 1992، 5.

زيدان، يوسف، فهرس مخطوطات دير الإسكوريان، تقديم إسماعيل سراج الدين، الإسكندرية، 2002.

ZIEGLER, Ph., *The Black Death*, Londres, 1970.

زيادة، سي، منطلقات جديدة لدراسة فلسفة ابن خلدون السياسية، VV.AA، ابن خلدون والفكر العربي المعاصر.

ZOZAYA, J., «Construcción naval e ingenieria portuaria en el mundo antiguo y medieval»» en *Puertos españoles en la Historia*, Madrid, 1994,43-59.

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس

"وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان
حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد
الغائب ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف"

ابن خلدون